مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ السَّادِسَ عشَرَ

سُورَةُ طه

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أمرَه بتزكية نفسه، أتبع ذلك بأمره بتزكية غيره

لّما أمرَ اللّهُ تعالى في الآية السّابقة رسولَه ﷺ بتزكية النّفس، أتبعَهُ في هذه الآية بأمره بتزكية غيره؛ لأنّها من تزكية النّفس وأدلُّ على الإخلاص.

ومنها أنّه لّما أمرَهُ سبحانه قبل ذلك بالصّلاة في قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، ونهاهُ عنِ الالتفات إلى زخارف الدّنيا؛ لأنّ الالتفاتَ إليها مانعٌ مِنَ التَّوجُّه بالصّلاة وسائر الأذكار، جاءت هذه الآية بأمره ﷺ لأهله وصحابته وأتباعه بالصّلاة، فقال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[1].

وبما أنّ الآيةَ السّابقةَ تناولَتِ المَنعَ عنِ التَّطلُّع إلى مُتع الكفّار الفانية، فكأنّ في هذه الآية إشارةً إلى أنّ مُتعةَ النّبيّ ﷺ، ومُتعة أهله، في الصّلاة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسۡـَٔلُكَ﴾: يُعرَّفُ السّؤالُ في لغة العرب بأنّه طلبُ تحصيلِ شيءٍ؛ مَعرِفةً كان أم مالًا، وإجابةُ المَعرفة تكون باللّسان، واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة، وإجابةُ المال تكون باليد، واللّسان خليفة لها إمّا بوعدٍ وإمّا بردٍّ، ثمّ يتعدَّى (سأل) بنفسه أو بحرف جرٍّ، فإنْ كان سؤالَ علم تعدَّى بـ(عن)، وإنْ كان سؤالَ مالٍ تعدَّى بـ(مِن)، والسّؤالُ للمَعرفة يكون تارةً للاستعلام، وتارةً للتّبكيت، وتارةً لتعريف المَسؤول إلى غير ذلك، ومعنى ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ﴾؛ أي: لا نطالبك[2].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 460.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 592.

2) ﴿رِزۡقٗاۖ﴾: الرِّزقُ في اللّغة هو ما يُنتَفع به[1]، ويُقالُ للعطاء الجاري[2] تارةً، دنيويًّا كان أم أخرويًّا، وللنّصيب تارةً، ولِما يَصلُ إلى الجوف، ويُتغذّى به تارةً، ويُطلَقُ على ما يعطيه اللّهُ العبدَ مِن مال وخير يُطعَمُ منه ويُنتفَعُ[3]، ومعنى الرّزق في الآية العطاء[4].

3) ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾: يدور معنى العاقبة والعَقب على تأخير شيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه[5]، وكلُّ شيءٍ جاء بعد شيءٍ فقد عاقَبَهُ وعَقَّبَهُ تَعقيبًا، وعاقِبَةُ كلِّ شيءٍ آخِرُهُ[6]، والعاقِبُ مَن يُخلِفُ مَن كان قبلَه في الخير[7]، والعُقبَى هي النّهاية، والعاقبةُ عند الإطلاق مُختصَّةٌ بالثّواب، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافة قد تُستعمَلُ في العقوبة، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10]، ومعنى العاقبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ هو النّهايةُ المَحمودةُ الّتي ستخلُفُ حالَ الدّنيا، وستكون لِلمُتّقين[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرَ اللّهُ رسولَه ﷺ أن يأمُرَ أهلَه بالصّلاة والمُداومةِ عليها والاصطِبارِ عليها، واللّه سبحانه لا يُلزِمُه بعطاء، بل إنّه تعالى قد ضَمِنَ له رزقَه ورزقَ غيره، فقال له: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ ونعطيك، والعاقبة الصّالحة في الدّنيا والآخرة تكون للمُتّقين[9].

على العبد أن يعبُدَ ربَّه، ويأمرَ بذلك أهلَه، فإنّ الرّزقَ مِنَ المَولى، والعاقبة للتّقوى

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رزق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رزق).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 592.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير: (عقب).
(7) ابن دريد، تهذيب اللّغة: (عقب).
(8) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 372.
(9) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 163، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4813.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

كمال التّكليف يَتمُّ بأمر مَن تعولُهُ بالالتزام به

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأۡمُرۡ﴾:

ابتدأتِ الجملةُ ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ بحرف الواو، وهو حرف عطف، فعَطَفَ هذه الجملةَ على ما سبقها مِنَ الجمل، عطفَ أمرٍ على أمرٍ ونَهيٍ، فلمّا أمرَ اللّهُ نبيَّه بالصّلاة ثنّى سبحانه بأمر نبيِّه ﷺ أن يَأمُرَ أهلَه بأداء الصّلاة[1].

التّعاون في سبيل الحقّ، وتوفير البيئة للصّلاح

دلالة الأمر:

أمرَتِ الآيةُ رسولَنا الكريمَ بأن يأمُرَ أهلَه بالمداومة على الصّلاة؛ لأنّ أصلَ الأداء مُتحقِّقٌ وموجود، فقالت: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾، ولهذا الأمر دلالتُهُ البليغةُ في توفير البيئة المُناسِبة للصّلاح[2]، وليتعاونِ الجميعُ على عبادة اللّه سبحانه[3].

الرّعايةُ تكون للبدن والرّوح

دلالة الإتيان بلفظ ﴿أَهۡلَكَ﴾:

اختارَ القرآنُ لفظَ ﴿أَهۡلَكَ﴾ على غيره مِنَ الآل والصّحب؛ لأنّ هذا اللّفظَ له دلالاتٌ عديدةٌ؛ فيُطلَقُ على مَن يَلِيَ المرء أمورهم ويتكفّلَ بشؤونهم[4]، فالواجب على حامل رسالة ربِّه أن يبدأ بأهله وعشيرته الأقربين في دعوتهم إلى الخير والنّجاة، وعنوان ذلك الصّلاة، كما تُطلَقُ كلمةُ الأهل على المُناسِب؛ فأهلُ المرء مَن هو مُناسِبٌ له ومُوافِقٌ، وتدُلُّ كلمةُ الأهل أيضًا على الأمثل؛ فأهلُ المرء هم الحقيقون بصحبته[5].

لذلك صَلَحَ هذا اللّفظُ لأنّ يَنطبِقَ على الآل؛ وهُم أسرةُ النّبيّ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 51.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4813.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 43.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 841.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 342.

الكريم[1]، كما انطبَقَ على أتباعِه ومُريديهِ؛ وهم الصّحابة الكرام، بل صَدَق أيضًا على أمّته ﷺ[2].

دلالة (أل) في ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾:

الصّلاة المعهودة المشروعة بأوقاتها في الآيات السّابقة

عُرِّفَتِ الصّلاةُ في قول الحقّ ﷻ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ بـ(ألـ)، ومعناها: العهد؛ وهي الصّلاة المَشروعة في الأوقات المذكورة في الآيات السّابقة، وهي الصّلةُ بين العبد وربّه، بأركانٍ وشروطٍ وأسبابٍ، ولو لم تكُنْ معلومةً عندَهم لِما صحَّ الأمرُ بها في الآية.

سرُّ تخصيص الصّلاة بالذّكر:

الصّلاةُ ثاني أركان الإسلام

خصَّ القرآنُ الكريمُ الأمرَ بالصّلاة دون غيرها من أركان الإسلام؛ لأنّها ثاني الأركان، وهي دليلُ إسلام المرء؛ لذلك تتكرَّرُ يوميًّا طوال عُمر المُسلم، ولعظم مكانتِها في الإسلام؛ فهي الصّلة بين العبد وربِّه، ولأنّها جالِبةٌ للرّزق، كما في هذه الآية، فالعبد إذا وقف بين يدي الله يناجيه، ويتلو كتابَه، هان عليه كلُّ ما في الدّنيا رغبةً فيما عند الله؛ فيُكافئه الله بأن يرزقَهُ من حيثُ لا يَحتسِبُ.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾:

الرّبطُ بين الصّلاة والاصطِبار عليها

دلَّتِ الواو على عطف جملة ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ على جملة ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾؛ وذلك لِما للواو من دلالة خاصّة في هذه الآية، إذ ربطَت بين الأمر بالصّلاة وبين الاصطِبار عليها، فإذا كان أهلُ النّبيّ ﷺ مأمورين بالصّلاة، فإنّ النّبيَّ ﷺ قد أُمِرَ بما هو أعظم منه، وهو اصطبارُهُ عليها[3].

دلالة صيغة ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾:

الاجتهاد في الصّبر على الصّلاة إعدادًا وأداءً واستمرارًا

جاءت كلمة ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ بصيغةٍ متميِّزةٍ، إذ جاءت بصيغة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 115، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 342.
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 342.

المبالغة[1]؛ من اصتبِر؛ أي: تكلَّفِ الصّبر، ثمّ أُبدِلَتِ التّاءُ طاءً[2]، وذلك لِما للصّلاة مِن لوازم؛ كأدائها في وقتها، وأدائها بكامل أركانها، وتوفُّر أسبابها وشروطها، والاستمرار عليها، وكلُّ ذلك يحتاج إلى مُجاهَدةٍ ومُصابَرةٍ وتربيةٍ للنّفس على قوّة احتمالِها[3]، لذلك جاءَت صيغة المبالغة في الصّبر على الصّلاة.

نكتة التّعبير بلفظ الاصطِبار بين الحقيقة والمجاز:

المــــداومــــة علــى الــصّــلاة ومــلازمــتــهــا والاســتــعــانــة عليها

والتّعبير بالاصطِبار في الآية الكريمة ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ يتراوح بين الحقيقة والمجاز، وفي ذلك نكتٌ بديعةٌ، فالحقيقة في الاصطِبار تكلُّفُ الصّبر في أدائها، ويتجاوز تلك الحقيقة ليدُلَّ الاصطِبارُ على المُلازَمة[4]، مِن باب ذِكرِ الشّيء وقَصدِ مُصاحِبه.

ومِنَ المجاز في الاصطِبار على الصّلاة المُداومة[5]، مِن ذكر الشّيء وقَصدِ لازمه، فالصّلاة تتكرَّرُ فتقتضي المداومةَ في أدائها، ومِنَ المَجاز في ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ الإكثارُ مِنَ الصّلاة النّافلة، فهي عونٌ على أداء الفرائض[6]، ومن ذلك أيضا التّعاونُ عليها بالجماعة.

سرّ تعدّي الفعل ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ بحرف الاستعلاء:

مجاهدة النّفس في العبادة حتّى تُقادَ إليها

تعدّى الفعل ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ بحرف الاستعلاء (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهَاۖ﴾؛ للدّلالة على تمكُّنِ صفة الصّبر الّتي تقطَعُ كلَّ الهواجسِ عند المُصلّي، وتساعدُهُ على دفعِ الشّواغِلِ، وكأنّ المعنى: اصبِرْ صبرًا كثيرًا على إقامة الصّلاة كما ينبغي، ولاسيّما صلاة اللّيل؛ فهي الّتي تحتاج إلى اصطِبار.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 371.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 8/ 308.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4814.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 71.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 43، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 592.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 342.

بلاغة أسلوب الحذف في ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾:

تصويرُ المَشقّةِ الّتي يتحمَّلُها العبدُ لإقامة الصّلاة على وجهها الأكمل

في الآية ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ حذفٌ، إذ حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الاصطِبار؛ لدلالته على ما يتكلّفُهُ المؤمن من أيّ سببٍ لتحقيق أداء الصّلاة على وجهها الأكمل، كـ"الصّبر على تكاليفها ومَشاقّها، وعلى إقامتها كاملةً غير منقوصة، وعلى تحقيق آثارها"[1].

نكتة فصل قوله ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾:

دَفعُ تَوَهُّم احتياج المَولى إلى عبادة خَلقه

بعد أن حثّ اللّهُ عبدَهُ بأن يأمُرَ أهلَه بالصّلاة، ويَصطبرَ عليها، فُصِلَ قوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ عمّا سبقها؛ لأنّها جاءت استئنافيّةً[2]، ونكتة هذا الفصل أنّ الاصطِبارَ على الصّلاة قد يُوهِمُ الكفّارَ أنّ المولى مُحتاجٌ لعبادة عبيده، فكأنّ عبارةَ ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ هي جوابٌ عن سؤالٍ مُقدَّر[3]، أو لأنّها جملةٌ اعتراضيّةٌ بين ما قبلها وبين ما بعدها ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾، فجُعِلَت كالتّمهيد لها.

سرُّ تعميم الخطاب في ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾:

رزق الأهل كرزق النّفس في اللّزوم

عَمَّمَ الخطابَ في قوله تعالى: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾؛ ولم يقيد لفظ الرزق بمتعلّق، لأنّ المعنى: لا نسألُك رزقًا لنفسك ولا لأهلك؛ لأنّ رزق الأهل كرزق النفس في اللّزوم والوجوب[4].

بلاغة الالتفات في الآية:

تأكيد غنى الله عن عبادتنا يقتضي الخطابَ بالتَّكلُّم

التفَتَ الأسلوبُ في الآية من ضمير الغَيبة في ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾ إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ﴾، وتكمُنُ بلاغتُهُ في أنّ أمرَ غنى اللّه ﷻ عن عبادتنا أمرٌ ظاهِرٌ، والجوابُ عنه مِنَ اللّه مباشرةً أنسبُ، لذلك جاء الخطابُ فيه بالمُتكلّم.

---

(1) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 170.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 460.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 592.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 460.

دلالة إسناد السّؤال إلى ضمير العظمة:

عظمة الرزّاق تهون أمامَه كفايةُ عبده

جاء إسناد السّؤال في الآية ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ إلى ضمير العظمة، لِما في العظيم مِنَ الكفاية والغنى، فالآمر العظيم تأبى عظمتُه أن يحتاج إلى عبادة أو يُطالَبَ بمالٍ[1].

سرُّ التّعبير بالرّزق في قوله ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾:

شمولية الرّزق لكلّ النِّعم الظّاهرة والباطِنة

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالرِّزق في قوله: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾؛ لأنّه لفظٌ عامٌّ يَصدُقُ على ما يحتاجُهُ الإنسانُ ويَنتفِعُ به؛ لذلك يُطلَقُ على النِّعم الظّاهرة الّتي يُظَنُّ فيها تكسُّبٌ للعبد، والباطنة كالنّبوّة والعلم[2].

نكتة تنكير ﴿رِزۡقٗاۖ﴾:

لا نطالِبُكم برزقٍ، ولو كان قليلًا

جاءت كلمةُ الرّزقِ في الآية: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ﴾ نَكِرَةً، للدّلالة على أنّ اللّه سبحانه غنيٌّ عن عباده وعن أموالهم، بل هو غنيٌّ عن أدنى رزق تَتصوَّرون حاجةَ اللّه ﷻ إليه.

نكتة فصل قوله ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾:

تولّى اللهُ كِفاية عبده

فُصِل قوله سبحانه: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ عمّا قبله؛ لأنّه مُبيِّنٌ لجملة ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ﴾، ونكتة الفصل هنا هي دفع الحاجة بالكفاية، فلا نسألُكَ رِزقًا بل نحن مَن يرزقُكَ[3].

دلالة إسناد الرّزق إلى ضمير العظمة:

العظيمُ إذا رَزَقَ كفَّى

أُسنِد الرّزق في الآية ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ إلى ضمير العظمة؛ ليُظهِرَ تمامَ الكفاية ووافي الرّزق[4]، فهو ﷻ إذا رَزَقَ كفّى، وإذا وعَدَ وفّى، وإذا أراد قَدَّرَ، وهو ما يُنزِّلُ الطّمأنينةَ في قلب عبده.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 371.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 459.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 842.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 371.

نكتة تقديم المُسند في ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾:

اللـه وحـدَهُ هو مَن يرزقُكَ

في تركيب الجملة ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ، إذِ الأصلُ تقديمُ الفعل على الفاعل والمفعول، ونكتةُ تقديم المُسند إليه هنا هي الحصر[1]؛ أي: إنّنا نحن مَن يرزقُكَ لا غير، كما يفيدُ التّقديمُ التَّقوّي[2]؛ فقد ذَكَرَ الفاعلَ في جملة (نرزقك)، والأصل كفاية ذلك، فتقوّى المُسند إليه بذكرِه مرَّتين، وفي كلِّ هذا مزيدُ تطمينٍ لقلب النّبيّ ﷺ، ودفع شبهةِ كلِّ مُستغرِبٍ لهذا الحال، وفيه إشارةٌ إلى حثّ الأمّة على توفير الرّزق للدُّعاة ليَتفرّغوا لبلاغ الدَّعوة.

معنى الواو في قوله ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾:

التّذييل بحسن الخاتمة

جاءَتِ الجملةُ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ مُرتبطةً بما سبق بحرف واو العطف؛ لِتَعطِفَ التّذييلَ بالآيات السّابقة؛ لإبراز حُسْنِ التَّخلُّص، فبعد الأمر بالصّبر والصّلاة، وتركِ الاسترسال في النّظر إلى متاع الكفّار، والدّعوةِ إلى الاشتغال بالعبادة، والتّطمينِ على الرّزق، يَختمُ الحديثَ بالنّظر إلى المُنتهى وحُسنِ الخاتمة، فنحن نرزقُك، بل نسألُكَ التّقوى، والعاقبةُ للتّقوى[3].

دلالة (أل) في ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾:

كـمال العاقبة المَرجوّة

جاءت كلمة العاقبة في الآية ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ مُعرَّفةً بـ(أل)؛ للدّلالة على الكمال؛ أي: العاقبة الكاملة الّتي لا عاقبةَ في الحقيقة غيرها[4]، فالكلُّ يتشوَّفُ إليها ويَرجوها.

دلالة التّعبير بـ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ مادّةً وصيغةً:

العاقبة الحَسنة للمُتّقين، وإنْ تأخَّرَت

للتّعبير بالعاقبة في قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ دلالتُه مادّةً وصيغةً، فأمّا عن مادّتها فتحمِلُ معنى العَقِب؛ فيخلُفُ فيها

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 460.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 592.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 343.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 372.

المُتَّقون مكانَ الّذين كفروا، وتحمِلُ معنى التَّأخُّر؛ فالعاقبة قد تتأخَّرُ فلا يَقنَطُ المُتّقون، كما تَحمِلُ مَعنى النّهاية؛ فالنّهاية مَهما تأخَّرَت هي للمُتّقين.

وأمّا عن صيغة ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ فقد جاءت على وزن فاعلة، ومَجيئُها بهذه الصّيغة يُشعِرُ بأنّها للزومها، كأنّها هي الفاعل: تجيءُ، وتخلُفُ، وتتأخَّرُ، وهي الّتي تبقى في الأخير.

معنى اللّام في ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾:

العاقبة الحَسنة مِن نصيب المتّقين

اللّام في ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ في الآية ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ هي لامُ المُلك[1]، وتدُلُّ على أنّ المتّقين هُم مَن يَملِكُ تلك العاقبة، فيَرجِعُ إليهم أمرُها، وينالون المُنتهى دون غيرهم، ومَن يَملِكُ أخيرًا يَملِكُ كثيرًا.

دلالة (أل) في ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾:

تقوى الله هي المعهود في الخطاب القرآنيّ

جاءت كلمة ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ في جملة ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ مُعرَّفةً بـ(أل)، والتّعريفُ هنا تعريفٌ للعهد، فالتّقوى هنا هي تقوى اللّه ﷻ[2]، وقد اكتفى في بيانها بالتّعريف بـ(أل) عنِ الإضافة، فالمقصود إذًا هو تقوى اللّه بالتزام ما يرضيه.

دلالة حذف المضاف:

التّقوى هي مَلاكُ الأمر

أُسنِدَتِ العاقبةُ للتّقوى في هذه الآية على تقدير حذف المضاف، وأقامَ المضافَ إليه مَقامَه؛ لأنّ (التّقوى) ليست شيئًا محسوسًا يَعقُبُ غيرَهُ[3]، وإنّما أهل التّقوى هم المقصودون؛ لذلك تكون الآية من باب إطلاق السَّبب وإرادة المُسبِّب، والغرض من ذلك المبالغة في بيان مَنزِلةِ التّقوى[4]، والتّنبيه على أنّها مَلاكُ الأمر[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 343.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 116.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 235.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 461.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 51.

فائدة الجملة الخبريّة ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾:

جاءَتِ الجملةُ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ خبريّةً، وفائدتها تقرير النّهاية، في عبارةٍ مُوجَزةٍ كأنّها قاعدةٌ عامّةٌ مُقرَّرةٌ، لا نزاعَ فيها، فأُرسِلَت مَجرَى الأمثال[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، و﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾:

الفلاح والنّجاح المُبِينُ لعباد الله المتّقين

تشابهَت هذه الآياتُ الكريماتُ في ذكر العاقبة، وهي حالة الفلاح والنّجاح الدّائمَين، ويختلفان في إسناد استحقاقها، فأسندَ في مَوضِع الأعراف والقَصص لاسم الفاعل المجموعَ "المتّقين"، وفي مَوضِع طه للمصدر، وذلك مناسَبَةٌ للسّياق ففي مَوضِع الأعراف يُخاطِبُ موسى عليه السلام بني إسرائيل بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128] فناسب استعمالَ اسم الفاعل "المتّقين"، وكذلك في مَوضِع القَصص عندما ذكر تعالى قارون - وهو مِنَ المُتكبِّرين - وما صار إليه عاقبةُ أمرِه، ذَكَرَ ما يقابلُهُ من عاقبة عباد الله المُتواضِعين المتّقين ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القَصص: 83].

وأمّا في مَوضِع طه وهو قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ فقد ذكرَ لفظَ الصّلاة، وهو اسم مصدر، فناسب السّياقُ ذكرَ المصدر في لفظ: التّقوى.

الفروقُ المُعجَميَّة:

الأهل والآل:

الأهــل آلٌ قُربًا وموافقةً ومناسبةً وأحقيّةً

يَفترِقُ معنى الآل عنِ الأهل من نواحٍ، لعلّ أبرزَها: أنّ الأهلَ يحمِلُ - مع دلالة القُرب - دلالةَ الموافَقة والمُناسَبة والأمثليّة، فالأهلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 344.

هو المُناسِبُ، والأهلُ هو الأمثلُ[1]، ومنها: أنّ أهلَ الرّجل مَن يجمعه وإيّاهم نسب أو دين أو ما يجري مَجراهما من صناعة وبيت وبلد.

بينما لفظُ الآل يُطلَقُ على خاصّة الرّجلِ الّذين يَؤولُ أمرُهُم إليه بالقرابة أو بالصّحبة أو بالموافقة في الدّين.

وعلى ذلك فلفظُ الأهل والآل، وإنْ وجِدَ بينهما اشتراكٌ في الدّلالة على القُرب، إلّا أنّ الأهلَ يُطلَقُ على خاصّة الرّجل من جهة القَرابة أو في المكان الواحد أو الصّنعة الواحدة، أمّا الآلُ فيُرادُ بهم خاصّة الرّجل من ناحية القرابة والصّحبة، وبذلك يكون لفظُ الآل أخصَّ من لفظ الأهل[2].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 841.
(2) الرّاغب، المفردات: (أهل).

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾ [طه: 133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عودة الكفّار إلى المراء، بمطالبة الآيات والمعجزات، تعجيزًا واستهزاءً

لمّا ذكَرَتِ الآيةُ السّابقةُ أمرَ اللّه لرسوله ﷺ، بأن يَأمرَ أهلَه بالصّلاة والمداومة عليها، ذكر في هذه الآية شبهةً من شُبَه المشركين، وزعمًا من مَزاعمِهِم الّتي أمرَ الرّسول ﷺ بالصّبر عليها.

فبعد أن ذَكَرَ اللّهُ ﷻ في الآيات السّابقة أنّ الكفّارَ لم ينفعْهم الوحي، ولا اعتبروا بأحوال الأمم السّابقة، بل طالبوا بالعذاب، ولكن سَبَقَ في علم اللّه أنّه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ، وأمرَ اللّهُ نبيَّه محمّدًا ﷺ بالصّبر على أذاهم، وعدم الاشتغال بملاذّهم؛ لأنّ ما عند اللّه خيرٌ وأبقى، جاءت هذه الآية لبيان عودة الكفّار إلى سياق الجدال مع الرّسول ﷺ، مُطالِبين بآيةٍ غير القرآن، تعجيزًا للرّسول، واستهزاءً به[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةُ﴾: (بين) أصلٌ يدُلُّ على بُعدِ الشَّيءِ وانكشافِه[2]، والبَيان: هو الكشفُ عنِ الشّيء، ويدُلُّ في مجموع استعمالاته على الانفصال والتَّمييز[3]، كأنّ أصلَهُ أن يُقالَ: بان كذا عن كذا[4]، فيَتَّضحُ به الأمرُ المرادُ، ويَظهَرُ تمامَ الظّهور[5]، والبيّنة هي الدّلالة الواضحة على المراد، عقليّةً كانت أم محسوسة، وتكون مُبيِّنَةً باعتبار مَن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 116.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).
(4) الرّاغب، المفردات: (بين).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

بيّنها، ومُبيِّنةً باعتبار ما تُظهِرُه[1]، والمقصود بالـ ﴿بَيِّنَةُ﴾ في الآية الكريمة أنّ ما جاء به النّبيُّ ﷺ حقٌّ من عند ربِّه، ومُصدِّقٌ لِما في الصُّحُف الأولى.

2) ﴿ٱلصُّحُفِ﴾: الصُّحُفُ جمع صحيفة، وهي مِنَ الفعل (صحف)، وهو أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على انبساطٍ في شَيءٍ وسَعَةٍ[2]، والصَّحيفَةُ هي الَّتي يُكتَبُ فيها[3]، على اختلاف أنواعها مِن ورق أو حَجر أو عَظم أو جِلد[4]، ولمّا كان الكتابُ مَجموعَ صُحُفٍ، أُطلِقَتِ الصُّحُفُ على الكتاب[5]، والمقصود بالصُّحُف الأُولى ما نَزَلَ مِن كتبٍ قبل القرآن الكريم، وقد ذُكِرَ في القرآن صُحفُ إبراهيمَ وصُحفُ موسى، ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النّجم: 36 - 37].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كثرة طلب الآيات والمُعجزات الباهرات، رغم وفرة الأدلّة والحُجج والبيّنات

بيّنت هذه الآيةُ أنّ كفّارَ مكّةَ كانوا يُكثرون مِن اقتراح الآيات على النّبيّ ﷺ، كأنّهم لم يَقنعوا بالآيات الّتي أنزلَها اللّه على رسوله، وما فيها من مُعجزاتٍ، وخصوصًا القرآن الكريم المُعجزة الباقية، وقالوا عنادًا وكفرًا: ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾؛ فهُم لم يَعترفوا بمُعجزة القرآن، ويَرون أنّه ليس بحجّة ولا مُعجزة تدُلُّ على الرّسالة، مع أنّه الحقُّ، وقد شَهِدَ على ذلك ما في الصُّحُف الأُولى.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَقَالُواْ﴾:

وَصلُ مَزاعِم المشركين بعضها ببعض

دلّت هذه الواو على وصل هذه الآية بمَزاعِم المشركين في

---

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صحف).
(3) ابن سيده، المحكم: (صحف).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (صحف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 345.

الآيات السّابقة، وما كان من أمرهم وكفرهم، وخاصّةً ما كان مِنَ الكفّار أنّهم لم يهتدوا بآيات الأنفس وهلاك الأقوام السّابقين ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾.

فكأنّ العطفَ يُشعِرُ بقولٍ مُقدَّرٍ هو: أنّهم أبَوا الاعتبار، ولم يَعُدُّوا القرآنَ آيةً ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾[1].

دلالة التّعبير بالقول: ﴿وَقَالُواْ﴾:

كـفـرٌ وعـنـادٌ، وجـحـودٌ واعتراضٌ، حتّى عُـرِفـوا بهذه الأوصاف

دلّ التّعبيرُ بالقول في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ على بيان أنّ تعنُّتَهم في اقتراح الآيات أمرٌ متأصّلٌ في الكافرين على مدار تاريخ الأنبياء والرّسل عمومًا، ومع رسولنا ﷺ على وجه الخصوص.

وفي حكاية القرآن لقولهم: ﴿وَقَالُواْ﴾ إعلانٌ لهم بتلك التُّهمةِ، وعَرضُهُم في ساحة الاتّهام بها والحساب عليها[2].

عود الضّمير في ﴿وَقَالُواْ﴾:

المُعرِضون عن الحقّ لا يكفّون عن طلب الآيات

الضّمير في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ يعود إلى المُعرِضين عن آيات اللّه وعن دلائل الأنفس في هلاك الأقوام، إنّهم كفّارُ قريش، وهو ما يُشعِرُ بالتّعجيب من حالهم، ولذلك عبَّرَ عنهم بالضّمير تحقيرًا لهم وتهوينًا من شأنهم؛ لأنّهم لم يَنتفعوا بما في القرآن.

معنى ﴿لَوۡلَا﴾:

طلب الآيات عِنادًا وتَعَصُّبًا لا استرشادًا

﴿لَوۡلَا﴾ في الآية: ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ﴾ هي لولا التّحضيض[3]، وهي هنا بمعنى (هلّا)، والّتي تُظهِرُ أنّ مُرادَهُمُ التَّعصُّبُ والعنادُ لا الاسترشادُ، فقد تضمّن التّحضيضُ - مع وجود القرآن بين أيديهم - أنّهم يُنكرون القرآنَ، ولا يَعتدّون به، فطالبوا بغيره[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 374.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/ 842.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 461.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4815.

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

إيهام غيرهم أنّ الله يكلّفهم الإيمانَ من غير آية

جاء نظمُ الآية ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ بجملة شرطيّة مفادُها: لولا جاء بآيةٍ مِن ربّه فنؤمن به، ووجه بلاغة الشّرط فيه، أنّه جاء بحرف ﴿لَوۡلَا﴾، وهو حرف امتناعٍ لوجود، وتقديره: امتنَعَ وجودُ آيةٍ فثَبَتَ الكفر[1].

والشّرط الّذي جاء بعد ﴿لَوۡلَا﴾ هو شرطٌ مُستبعَدُ الوقوع؛ وهو هنا الحصول على مُعجزة، فيصبح جوابُ الشّرط - وهو كفرهم - ثابتًا؛ لذلك كانت لولا للتّوبيخ والتّنديد[2]، بخلاف الشّرط بإنْ وإذا الّتي تُغلِّبُ إمكانيّةَ وقوع الشّرط فيقع الجزاءُ، فهذا دليل تعنُّتهم وتبريرِهم لِموقفهم.

غرض حذف جواب الشّرط:

امتناع الشّرط يجعل الجوابَ ثابتًا جليًّا

الشّرطُ بـ لولا في الآية ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ يحتاج إلى جواب، ولكنّه مَحذوفٌ، وتقديره: لآمنّا، والغرض من حذفه الدّلالة على وضوحه، إذ كفرُهُم مُتحقِّقٌ، وإيمانُهُم قد عُلِّقَ بشرطٍ مُستبعَدٍ، فصار الجوابُ مُنعدِمًا أيضًا، فلا معنى لذكره.

دلالة عدم تصريح الكفّار باسمه ﷺ:

شدّة عداوة الكفّار للرّسول ﷺ

اشترط الكفّار للإيمان أنْ يأتيَهُمُ الرّسولُ ﷺ بآيةٍ من ربِّه، قال تعالى: ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾، فلم يُصرَّحْ بالفاعل في ﴿يَأۡتِينَا﴾، ونكتة ذلك هي إباء الكفّار التَّلفُّظ باسم الرّسول ﷺ ووسمه، لشدّة عداوتهم له ﷺ، فصار عَدَمُ التّصريح باسمه علامةً على العداوة المُستكنَّةِ في قلوبهم.

دلالة الباء في قوله ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

تعدية فعل يأتينا إلى الآية بالباء

تعلَّقُ الفعل ﴿يَأۡتِينَا﴾ في الآية ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ﴾ بمفعول ثانٍ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 461.

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 40/ 487.

﴿بِـَٔايَةٍ﴾، وذلك بحرف الباء، وهي باء التّعدية[1]، فلا يمكن أن يتعدّى فعلُ الإتيان إلى الآية دون حرف التّعدية (الباء).

وفي ذلك دلالةٌ على أنّ الكفّارَ يريدون أن يتلبَّسَ رسولُ الله ﷺ بالآيات ولا تنفكَّ عنه؛ لكي يؤمنوا به.

سرّ التّعبير بآيةٍ دون غيرها:

طلبُ كلِّ ما يصحُّ أن يكون مُعجزةً، تكبُّرًا وعنادًا

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالآية؛ لأنّها تَصدُقُ على جنس الآيات الموجودة سواء كانت حسّيّةً أم معنويّةً أم ما يَقترحونه ويَطلبونه من جنس الآيات الخارقة للعادة الّتي أجراها اللّهُ على يد أنبياءَ سابقين، كإنزال مائدةٍ مِنَ السّماء لعيسى، وإحياءِ المَوتى، وإبراءِ الأكمه والأبرصِ إلى غير ذلك ممّا كان مع رسل الله السّابقين.

وكأنّ التّنكيرَ هنا يشيرُ إلى أنّهم يُعلنون أنّه لم يأتِهم بأيِّ آيةٍ قطُّ[2]، فلَم يَعتبروا القرآنَ آيةً.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

إظهار تعنُّت الكفّار في تحديد مصدر الآيات

دلّ التّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ على ابتداء الغاية[3]، وقد كان يكفي أن يذكرَ الكفّارُ أن يأتيَهم بآيةٍ، ولكنّهم أضافوا مصدرَ الآية، وأنّه ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾؛ لأنّهم يُنكرون أن يكون محمّدٌ رسولًا ابتداءً، ويزعمون أنّه يفتري الكذبَ على ربّه، فطلبوا أن تكون الآيةُ مِن ربّه حقًّا.

دلالة التّعبير بلفظ الرّبوبيّة مع إضافة ضميره إلى ربّه:

سفاهة الكفّار واستهزاؤهم برسول الله

ذكرَ القرآنُ الكريمُ قولَهُم حين طلبوا الآياتِ مِنَ اللّه تعالى،

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 37.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 12/ 462.
(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 308.

فأضافوا لفظَ الرّبوبيّة إلى ضميره ﷺ استهزاءً به، وسفاهةً عليه منهم[1]، كأنّهم يقولون: إنْ كان ربُّك فسيعطيك آيةً مُعجِزةً[2].

سرّ التّعبير بالواو في قوله ﴿أَوَلَمۡ﴾:

الـدّلالـة على كـلامٍ مُـقـدَّرٍ يقتضيه المَقامُ

واو العطف هنا دلّت على معطوفٍ مُقدَّرٍ يقتضيه المَقامُ، وهو أصل الاستفهام بالهمزة، كأنّه قيل: أعَمُوا، ولم تأتِهم سائرُ الآيات؟ تقريرًا لإتيانها، وإعلامًا بعَماهم عنِ الحقّ ومكابرتهم[3].

نكتة فصل قوله ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ﴾:

فُصِلَ قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ﴾ بناء على تقدير: (ألمْ تأتهم أنباء المعجزات السابقات ولم تأتهم بينة؟) ونكتةُ ذلك التّعجيبُ من سوء مَقالَتهم، والتّوطِئةُ لإلزامهم[4]، وهذا الأسلوب فيه إنكار عليهم وتوبيخ لهم وتعريض بعدم نظرهم في عبر التاريخ، وعدم اعتبارهم بما أصاب مَنْ قبلهم من المكذّبين.

غرض الاستفهام ونوعه:

الإنـكـار عليهم والتّوبيخ

ذَكَرَ القرآنُ الكريمُ الرّدَّ على دعوى الكفّار بالاستفهام ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ﴾، وهو استفهامُ إنكاريٌّ، أُنكِرَ به نفيُ مجيء آية إليهم، فقد حضّوا على أن يأتيَهم بآيةٍ، وأنّهم لم تأتِهم آيةٌ قطّ، فأنكَرَ ذلك عليهم[5]، والغرضُ مِنَ الاستفهام هنا هو التّوبيخُ على طلبهم هذا[6]، وتقريرُ إتيان الآيات إليهم[7].

أثر تعدُّد القراءات القرآنيّة المُتواترة في ﴿تَأۡتِهِم﴾:

ملاحظة البيان في لفظ البيّنة

تعدَّدَتِ القراءاتُ في قوله: ﴿تَأۡتِهِم﴾، فقرأها نافع وأبو عمرو

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 843.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 374.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 51، والصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 58.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 235.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 344.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 401.
(7) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 172.

وحَفص ويعقوب وابن جمّاز وابن وردان بخُلفِه ﴿تَأْتِهِم﴾ بالتّاء؛ لتأنيث البيّنة، وهو الأصلُ في تناسُب الضّمير مع الفعل تأنيثًا، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البيّنة: 1]، بينما قرأها الباقون ﴿يَأْتِهِم﴾ بياء التّذكير[1]، ووجه ذلك ملاحظة أنّ التّأنيثَ في الـ ﴿بَيِّنَةُ﴾ غيرُ أصيل[2]؛ لأنّ معنى البيّنة والبيان واحدٌ، وأنّ المقصودَ هنا هو البيانُ، أو لأنّ المرادَ بالبيّنة القرآنُ؛ فذُكِّرَ الفعلُ ذهابًا إلى المعنى، وكذا لوجود الفصل بين الفعل والفاعل بضمير المفعول، فلذلك ذُكِّرَ، ويؤيّدُهُ قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 157][3].

بلاغة إسناد الإتيان إلى البيّنة:

إبراز البيّنة في صورة الدّاعي إليهم

أُسنِدَ الإتيانُ إلى البيّنة في توطئة الجواب ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ﴾، وبلاغتُهُ تصويرُ البيّنة في صورة العاقل، تأتيهم من غير ما حاجةٍ إلى طلبها أو مطالَبة النّبيّ أن يأتيَ بها، فهذا أمرٌ أصيلٌ في البيّنة[4].

نكتة اختيار ﴿بَيِّنَةُ﴾ بدل (آية):

البيّنة تُقيمُ الحجّةَ على العقل

آثرَ القرآنُ الكريمُ اختيارَ التّعبير بلفظ ﴿بَيِّنَةُ﴾؛ وذلك لِما تَحمِلُهُ من إطلاقاتٍ عديدة، حيثُ تُطلَقُ على الرّسالة الرّبّانيّة الواضحة، وعلى رسول اللّه وعلى الكتب والصُّحُف المُنَزَّلة من عند اللّه، وعلى المُعجزات الخارقة والبراهين القاطِعة.

وممّا يُذكَرُ في سرّ الاختيار أيضًا طلبُ الكفّار أن يأتيَهُم النّبيُّ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، فجاء ردُّ القرآن بلفظ ﴿بَيِّنَةُ﴾، ونكتة اختيار البيّنة على الآية هي التّركيزُ على البيان في الآية[5] قبل التّركيز على خَرقها

(1) مكّيّ، الكشف: 2/ 712، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 345.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 593.
(4) ابن أبي مريم، الموضح: 2/ 858، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 51.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 374.

للعادة، فالنّاسُ بحاجةٍ إلى البيان والهدى أكثر من حاجتهم إلى مُعجزةٍ، تُلجئُهم للإيمان، ثمّ يَزولُ الإلجاءُ، فيخفُتُ الإيمان.

فالبيّنة تُقيمُ الحجّةَ على العقل، بينما المُعجزةُ تُقيمُ الحجّةَ على الحسّ، وشتّان بين الأثرين.

نكتة إضافة ﴿بَيِّنَةُ﴾ إلى ﴿مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾:

هي بيّنةٌ في ذاتها مُبيِّنةٌ لغيرها

أضافَتِ الآيةُ ﴿بَيِّنَةُ﴾ إلى ﴿مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، ونكتة هذه الإضافة هي الإشارة إلى أنّ البيّنةَ تصديقٌ وبرهانٌ لِما في الصُّحُف الأُولى[1]، فجمعَتِ الإضافةُ إلى البيّنة في ذاتها الإبانةَ لغيرها، وصار الدّليلُ دَليلَين.

فالبيّنةُ حجّةٌ في نفسها وحجّةٌ لغيرها[2]، ومن هنا تَظهَرُ كفاية القرآن لدعوى النّبوّة، كما تَظهَرُ مُكابرةُ الكفّار وسفاهةُ عقولهم.

سرّ التّعبير بالبيّنة عنِ القرآن:

القرآن مُبيِّنٌ حجّيّةَ نفسه وحقائقَ غيره

عبَّرَ القرآن الكريم بالبيّنة عنِ القرآن؛ لأنّه الكتاب الخالِدُ الّذي يَحمِلُ في نفسه دليلَ حجّيّته، وهو حجّةٌ لنفسه ولكلِّ النّبيّين الّذين سبقوه؛ لأنّه معجزةٌ باقيةٌ سجّلت كلَّ المعجزات السّابقة، ولولا القرآن لَكانت حدثًا، وانقضى وقته، ولأنّه اشتمل على خلاصة ما في كتب السّابقين، وزاد عليها أمورًا لم تكُنْ فيها من حقائقَ علميّةٍ وكونيّةٍ، شهدَتِ العلوم الصّحيحة بعد دراساتٍ مُستفيضةٍ من قبل العلماء المُحقّقين بأنّها حقٌّ وصدقٌ طابَقَ اللّفظُ فيها الواقعَ[3].

دلالة التّعبير بـ﴿مَا﴾:

بشارات الكتب السّابقة بالرّسول ﷺ بيّنةٌ على صدقِه

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وهي ما الموصولة، على العموم والإجمال، فيَصدُقُ عليها أخبارُ الأمم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 99.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4815.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4815.

الهالكة ممّا ورد في الصُّحُف الأُولى، ويَصدُقُ عليها تبشيرُ الرّسل السّابقين ببعثة المصطفى، كما يَصدُقُ عليها مضمون الصُّحُفِ مِنَ العقائد والأخلاق وأصول التّشريع[1]، وقد أجملتُ ذلك في سياق إبراز كفاية البيّنة المُتمَثّلة في شخصه ﷺ؛ فهو بيّنةٌ في صفاته وأخلاقه، وما جاء بشأنه من بشائرَ في كتب السّابقين، هي وحدها كافية في الإيمان به لو كانوا يعقلون.

دلالة (أل) في ﴿ٱلصُّحُفِ﴾:

الصُّحُفُ معهودةٌ ومعروفةٌ عند المخاطَبين

جاء ذِكر ﴿ٱلصُّحُفِ﴾ في الآية ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ معرَّفًا بـ(أل)، وهي (أل) العهد؛ لعلم المخاطَبين بالصُّحُف الأُولى، فهي صُحُفُ إبراهيمَ وموسى والتّوراة والإنجيل والزّبور، وهي معروفةُ المَنزِلة عندهم[2]، ممّا يناسب إيرادها في مَعرِض الرّدِّ على الكفّار طلبَهُمُ الآياتِ.

ونكتة الجمع هنا هي توافُقُ تلك الصُّحُف على صدقه ﷺ ومُوافقتُها لِما جاء به[3]، فلا يُعقَلُ أن تتواطأ جميعُها على ذلك، ويكون باطلًا، فالجمعُ هنا بمثابة الدّليل النّقليِّ والعقليِّ على صحّة رسالته، ويُؤَكِّدُ على سخف الكفّار في طَلَبِهم الآيات.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 116.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 466.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 466.

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: 134]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان مقولة المشركين الّتي يتحجّجون بها في عدم إيمانهم

لمّا ذكرَتِ الآية السّابقة أنّ المشركين يطعنون في الرّسول ﷺ ومُعجزتِه بما ليس لهم فيه شبهةٌ أصلًا؛ لأنّ الضّلالَ إذا سيطر على عقول المشركين، وهم كذلك جحدوا وعاندوا لِفَرطِ إنكارهم، وإنْ لم يُرسَلْ إليهم رسولٌ قالوا: هلّا أُرسِلَ إلينا رسولٌ، جاءت هذه الآية بذكر مَقولَتِهم الّتي يَتحجَّجون بها في عدم إيمانهم، وما كان لهم فيه نوعُ شبهة، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّذِلَّ﴾: الذُّلُّ هو الخضوع والاستكانة والطّواعية واللّين[1]، فهو ضدُّ العزِّ والإباء والصّعوبة والتّعصّي[2]، والذُّلُّ ذُلّان: ذلّ عن قهر، وذُلّ عن صعوبة[3]، والمَذَلّةُ الضّعفُ والهَوانُ[4]، ويغلب على هذه الجوانب الأذى المادّيّ، فمعنى ﴿نَّذِلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ أنْ ننكسِرَ ونضعُفَ ونستسلِمَ.

2) ﴿وَنَخۡزَىٰ﴾: يُطلَقُ الخزي في اللّغة على الانكسار الحاصل بحياءٍ أو استِخفافٍ[5]، فيُورِثُ الإبعادَ[6]، يُقال: خزي الرّجلُ؛ أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ذلل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ذل).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ذلل).
(5) الرّاغب، المفردات: (خزى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزو).

لَحِقَه انكِسار، إمّا من نفسه وإمّا من غيره؛ فالّذي يلحقُهُ الحياءُ المُفرِطُ مصدرُهُ الخزاية، والّذي يلحقُهُ من غيره هو ضربٌ مِنَ الاستخفاف، ومصدرُهُ الخِزيُ، يُقالُ: خَزاهُ اللهُ؛ أي: أبعَدَهُ ومَقَتَهُ، والاسمُ الخِزيُ، وغالبًا ما يحدثُ الانكسارُ عنِ الخُذلان، لذلك أُطلِقَ على الفضيحة والخذلان الخِزيُ[1]، والمقصود في قول الحقّ ﷻ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ ألّا نكونَ في حال خذلانٍ وإبعادٍ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لو أُهلكوا قبل مجيء النّور لاعتذروا بذلك يوم القيامة، فهلّا آمنوا، وقد جاءتهم البيّنات؟!

بيّنَت هذه الآية اعترافَهم يوم القيامة بأنّهم جاءتهم بيّنةُ ما في الصُّحُف الأُولى، وأنّهم لو أُهلِكوا بعذابٍ مِن قبله لاعتذروا بأنّهم لو أُرسِلَ إليهم رسولٌ لآمنوا قبل أن يَحِلَّ بهم الذّلُّ في الدّنيا والخِزيُ في الآخرة، فهاهُم قد جاءهم النّبيُّ ﷺ بالبيّنات، فهلّا آمنوا! أم ينتظرون أن يَحلَّ بهم الهلاكُ، فلا يُقبَلُ لهم اعتذار؟![3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في مطلع الآية:

الارتقاء في الاستدلال

ابتدأت جملةُ ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ﴾ بحرف الواو الّتي تدُلُّ على الاستئناف؛ فهذه الجملة مُستأنَفةٌ لتقرير ما قبلَها من كون القرآن آيةً بيّنةً لا يمكن إنكارُها ببيان أنّهم يَعترفون بها يوم القيامة، ويكون الغرضُ الارتقاءَ في الاستدلال[4]، والتّقريرَ لِما سَبَقَ من توطِئة[5].

سرّ التّعبير بـ ﴿وَلَوۡ﴾:

امتناع الاعتذار لامتناع الهلاك دون رسول

استعملَتِ الآيةُ حرفَ (لو) فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (خزي).
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 59.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 16/ 168، وطنطاويّ، الوسيط: 9/ 171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 346.
(5) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 173.

﴿بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾، وحرف (لو) هو حرف امتناع لامتناع[1]؛ أي: امتناعُ اعتذارِهم لامتناع إهلاكِهم قبل بعث الرّسول، فقدِ امتَنعَ هلاكُهُم قبل بعثة الرّسول، ولكنّ الاستدلالَ ذَكَرَ هذا الاحتمالَ المُمتَنعَ؛ ليُظهرَ عَوارَ طلب هؤلاء للآيات، فقد جاءهم الرّسولُ فلم يؤمنوا به!

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

الهلاك لا يقع إلّا بعد إقامة الحجّة

تضمّنَتِ الآيةُ: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ جملةً شرطيّةً، دلالتها: لو حلّ بهم الهلاكُ قبل بعثة الرّسول لكان لهم أن يحتجُّوا يوم القيامة، ويعتذروا[2].

وتظهر بلاغة هذه الجملة الشّرطيّة في استبعاد الاحتمال، وذلك لدلالة (لو) على الاحتمال المُستبعَدِ، والمرادُ أنّ اللّهَ لن يُهلِكَ قومًا دون أنْ يُرسِلَ رسولًا، حتّى لا يَعتذرَ المُعتَذرون بمثل هذا الاعتذار.

دلالة تتابُع المؤكّدات في الآية:

تتابعَتِ المُؤكّدات في الآية، وهي (أنّ) و(اللّام المُزحلِقة)، والغرض من ذلك شدّة إنكارهم لهذا الإهلاك، فازداد معهم تأكيدًا.

دلالة التّعبير بقوله ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُم﴾:

أوسع الألفاظ دلالةً على فناء حياة الكفّار

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُم﴾، ومادّة (هلك) في اللّغة تدُلُّ على الإفناء[3] والإعدام والإماتة[4]، وبذلك يكون الإهلاكُ أوسعَ الألفاظ دلالةً على فناء حياة الكفّار، لكنّ القرآنَ الكريمَ أتى بهذا التّعبير في سياق الشّرط المُمتَنعِ وقوعُه؛ لإعلامهم بأنّ ذلك الهلاكَ مُمتَنعٌ لعدم إرسال الرّسول إليهم، وفي هذا دعوةٌ لهم إلى

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 276.
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 59.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هلك).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 82.

الإيمان به ﷺ؛ لأنّ اللّه عدلٌ، لم يُهلِكْهُم قبل إقامة الحجّة، وفيه تهديدٌ ووعيدٌ لكفّار قريش، الّذين بُعِثَ فيهم رسولُ اللّه يدعوهم إلى توحيد اللّه، وهم يَصدّون ويَصُدّون عنه، فهلّا خافوا من استحقاق العذاب والهلاك بعد بعثته إليهم؟

نكتة إسناد الإهلاك إلى ضمير العظمة:

يَعظُمُ الإهلاكُ بعظمة صاحبه

أُسنِدَ الإهلاكُ في ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ إلى ضمير العظمة، ونكتة ذلك مُعاقَبتُهُم على تكذيبهم بما تقتضيه عظمة اللّه تعالى[1]، فتكذيب العظيم وعصيانه ليس كعصيان غيره، فهو عصيانٌ وخيمُ العاقبة، ويَعظُمُ الإهلاكُ بعظمة صاحبه.

معنى الباء في قوله ﴿بِعَذَابٖ﴾:

تخصيص الإهلاك بالعذاب

دلَّتِ الباءُ في قوله ﴿بِعَذَابٖ﴾ على الآلة[2]، فهي تحدِّدُ نوعَ الإهلاك، فليس إهلاكًا بالموت مرّةً واحدةً مثلًا، وإنّما هو هلاكٌ بعذابٍ شديدٍ بسبب كفرهم وجرائمهم.

نكتة تنكير ﴿بِعَذَابٖ﴾:

تهويل العذاب بتنكيره

جاء لفظُ عذاب في الآية ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ﴾ نكرةً، ونكتةُ تنكيره هنا هي التّهويلُ، فإذا لاحظ القارئُ نونَ العظمة، وأنّ الإهلاكَ إهلاكُه، فليَفزعْ لهول هذا العذاب، لذلك نكَّرَهُ لوضوح ذلك مِن سياقه، فقد زاد هولًا.

دلالة ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾:

القُربُ الزّمنيُّ الشّديدُ

سبق حرفُ ﴿مِّن﴾ لفظَ ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾، وهو يَحمِلُ معنى ابتداء الغاية، والمقصود هنا هو القرب الشّديد بين عدم إرسال الرّسول والإهلاك؛ ليكونَ هو

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 375.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 39.

العلّةَ - دون غيره مِنَ المُؤَثِّرات - في الاعتذار، ولينطبِقَ الجوابُ على دعوى الكفّار بطلب الآيات.

الشّرطُ مُنصَبٌّ على هذه القبليّة لا على الهلاك

فائدة الظّرفيّة ﴿قَبۡلِهِۦ﴾:

وتَظهَرُ فائدةُ الظّرفيّة ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ في الآية ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ في أنّ الشّرطَ مُنصَبٌّ على هذه القبليّة لا على الهلاك ولا على بعثة الرّسول، فصارت هي الرّابطَ بين الأمرين، وعلّة جواب الكفّار بالاعتذار بعدها.

من قبل القرآن أو من قبل النّبيّ ﷺ

سرّ التّعبير بالإضمار في قوله: ﴿قَبۡلِهِۦ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالإضمار في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ لتعدُّد المراد به، فقد يعود إلى الرّسول ﷺ؛ لأنّ الخطاب للمشركين، فهو حاضِرٌ في الذّهن، وإنْ لم يَجرِ له ذكرٌ في اللّفظ، أو إلى البيّنة[1]؛ وهي القرآن؛ باعتبار قصد البيان فيها[2]، ولا تعارضَ؛ لأنّ مجيءَ هذه البيّنة لا تكونُ إلّا مع إرسال الرّسول[3].

لزوم اعتذار المُهلَكين بعدم إرسال الرّسول

دلالة اللّام في ﴿لَقَالُواْ﴾:

واللّام التّي في ﴿لَقَالُواْ﴾ هي لام الجواب، وهي الّتي تَربِطُ بين جملة الشّرط وجملة الجواب، وتحمِلُ معنى لزوم الجواب للشّرط؛ أي: ما كانوا مِنَ المُهلَكين إلّا أن يَعتذروا بعدم بعث الرّسول.

تصوّر مَشهَد اعتذارهم لو أهلكهم الله

دلالة عدم ذكر زمن القول:

لم تذكُرِ الآيةُ زمنَ ذكر مَقولة الكفّار الواردة في قوله: ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ لدلالة السّياق عليه، فيكون زمنُهُ عند مُشاهَدةِ ألوان العذاب الّتي تَحلُّ بهم، وتَنزِلُ عليهم، أو في يوم القيامة عند إحضارهم للمُحاكَمة والحساب.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 43.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 279.

غرض النّداء في قولهم ﴿رَبَّنَا﴾:

الـنّـداء للاستعطاف

جاء النّداءُ بـ ﴿رَبَّنَا﴾ في جواب الشّرط ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾، وغرضُ النّداء هنا هو الاستِعطافُ، حُذِفَ منه حرف النّداء؛ لأنّ المنادَى سميعٌ لكلّ شيءٍ قريبٌ، ولشعور المنادي بقربه في مَوقِف الضّراعة والخضوع والحاجة والاستغاثة، أليس ربًّا للجميع! ولذلك دلالات عميقة.

نكتة إتيانهم بلفظ الرّبوبيّة، وإضافته إلى ضميرهم:

استعطاف ذي الإحسان لقبول الاعتذار

وقد أتى الكفّار في ندائهم بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبَّنَا﴾، وأضافوه إلى ضميرهم، ونكتة ذلك جليلة، فها هُم الآن يؤمنون بوجود ربٍّ بعد أن كفروا به، وها هُم يشعرون بأنّ لهم ربًّا يَخضعون له ويَتذلّلون.

فَذِكرُ الرّبِّ في النّداء يدعو للاستعطاف لِما عُرِفَ في الرّبِّ مِنَ الإحسان[1]، ونسبةُ الرّبِّ إلى أنفسهم يدعو لِتقبُّلِ الاعتذار؛ لأنّهم عبيدُهُ في نهاية المَطاف.

وما ذلك إلّا بعد ظهور آية الإهلاك الّتي ألجأتهم إلى الاعتراف، فأين هذا قبل نزول العذاب؟

سرّ تكرار ﴿لَوۡلَآ﴾:

الاحـتـجـاج والاعـتـذار بعد فوات الأوان

تكرر استعمالُ ﴿لَوۡلَآ﴾ مرّةً أخرى، في قوله سبحانه: ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾، بعد سبق ذكرِها في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾، ومعناها التّحضيض، وهي مُستعمَلةٌ هنا لمعنى الاحتجاج والاعتذار؛ لأنّه قد فات وقتُ الإرسال[2].

فائدة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

بـيـان الاعـتـذار في شكل شرط امتناع لامتناع

وفائدة التّعبير بجملة الشّرط في قوله: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ بيانٌ مُبرِّرٌ اعتذارَهُم عمّا صدر عنهم من كفر

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 347.

وإعراض[1]، فنحن لم يَبلُغْنا وحيٌ، ولم نَعرِفِ الحقَّ، ولو عرفناه لالتزمنا، فنجونا!

اهتمام الكفّار بأنفسهم أوّلًا، وهم يلتمسون الاعتذار

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيۡنَا﴾:

قدَّمَتِ الآيةُ ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ شبهَ الجملة ﴿إِلَيۡنَا﴾ على مُتعلِّقه وهو ﴿رَسُولٗا﴾، ونكتةُ التّقديم الاهتمامُ بأنفسهم، لأنّهم وهم يعتذرون، فهَمُّهُم أنفسُهُم، فقدّموا ﴿إِلَيۡنَا﴾ زيادةً في إيضاح الاعتذار، والتماسًا له.

عند الهلاك يبحثون عن أيِّ وسيلة نجاة

نكتة تنكير ﴿رَسُولٗا﴾:

وجاءت كلمةُ ﴿رَسُولٗا﴾ نكرةً في الآية ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾، ونكتةُ تنكيرها عدمُ الاهتمام بتحديد رسولٍ بعينه ولا النّظرُ في نسبه وجنسه ولسانه، فالمهمّ أنّه رسولٌ من عند الله، وهذا عكس ما يفعلون وقد جاءَتهم البيّنة، إيذاءً للمصطفى بشتّى أقاويل السّوء.

بسبب إرسال الرّسل نتّبع آياتِك

معنى الفاء في قوله ﴿فَنَتَّبِعَ﴾:

والفاء في قوله تعالى ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ هي فاء التَّسبُّب[2]، فبسبب إرسال الرّسل نتّبعُ آياتِكَ البيّناتِ[3]، وهي جواب لولا التّحضيضيّة[4]، باعتبار تقدير حصول إرسال الرّسل فيما مضى.

دعواهم التزام الإسلام كالتزام التّابع لِمَتبوعِهِ

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾:

جاء التّعبير عن دخول الكفّار في الإسلام بـ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾، وفي ذلك استعارةٌ؛ حيث استعار اتّباعَ الآيات للالتزام بالإسلام، فالاتّباعُ يُشبهُ الامتثالَ في أنّ المُتَّبِعَ يفعلُ مثلما يَفعلُ مَتبوعُهُ، وأنّ الآياتِ صارَت كالدّليل تُتَّبعُ كما يُتَّبعُ الدّليلُ.

---

(1) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 173.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.

(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 126، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4817.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 347.

وتكمن بلاغة الاستعارة هنا في استيعاب الكفّار لمعنى الإسلام، وإعلانهم الالتزامَ الكامِلَ به دون مُعارَضة أو مُحاجَجَةٍ، كما كانوا يفعلون من قبلُ.

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿فَنَتَّبِعَ﴾:

اتّباعهم الآيات اضطرارًا لا اختياراً اختيارًا

دلّ التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ للدّلالة على أنّ اتّباعَهُمُ الآياتِ أمرٌ سيَحدثُ إذا ما جاء الرّسول، فلن يَحدُثَ قبلَ ذلك، وهو ما يُشعِرُ بأصالة الكفر لديهم، وأنّ اتّباعَهُم للرّسول إنّما هو إلجاء.

دلالة التّعبير بالآيات دون غيرها:

حجّيّة الآيات الشّرعيّة والكونيّة معًا

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالآيات في قوله تعالى: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ لدلالتها على الآياتِ الشّرعيّةِ التّكليفيّةِ أو الآيات الكونيّةِ الّتي تُوجِبُ خضوعَهم للّه ربِّ العالَمين بما تدُلُّ عليه من آثار قُدرتِه[1].

نكتة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

الآيات هي آيات الله، وليسَت آياتِ الرّسول

أُضيفَتِ الآياتُ في قوله: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ إلى ضمير العظمة، ونكتة ذلك الإقرار بأنّ الآياتِ هي آياتُ اللّه، وليسَت آياتِ الرّسول، عكس ما كانوا يستهزؤون بالرّسول، ويقولون: إنّه تقوَّلَ الأقاويلَ، فالآياتُ آياتُكَ فلزِمَ اتّباعُها.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن قَبۡلِ﴾:

حصول الالتزام بالآيات قبيل الهلاك بلا فسحة

ذكرَتِ الآيةُ زمنَ الاتّباع بضميمة حرف ﴿مِن﴾ إلى قبل، ومعنى حرف ﴿مِن﴾ هو ابتداء الغاية، وله خصوصيّةٌ في هذه الآية، وهي إلزامُهُم أنفسَهم بالاتّباع دَفعًا للهلاك؛ حتّى إنّه لا يَستغرِقُ زمانًا قبل الخزي والذُّلّ[2]، ممّا يُشعِرُ بأنّهم لا يؤمنون إلّا إلجاءً.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4817.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.

دلالة التّعبير بالمصدر المؤوّل:

المصدريّة والدّلالة على الحدث

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر المُؤوَّل في قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾، وهو مُكوَّنٌ من ﴿أَن﴾ المصدريّة[1]، وتُقدَّرُ هي والفعل بعدها بالمصدر المُؤوَّل دون المصدر الصّريح: ذُلّنا وخِزْيِنا؛ وذلك لِما للفعل من دلالة على الحدث مع مراعاة الزّمن.

دلالة مَوقِع جملة ﴿أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾:

لا يؤمنون إلّا مَخافةَ الذُّلّ والخزي

تقعُ جملةُ ﴿أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ مَوقِعَ المضاف إليه لـ ﴿قَبۡلِ﴾، ويكون تقديرُها: مِن قَبْلِ ذُلّنا وخِزْيِنا، وللمضاف إليه هنا دلالته، فهو يُعَرِّفُ المضافَ، فيُحَدِّدُ المقصودَ مِن كلّ ما سبق؛ إنّه الخِزيُ والذّلُّ يَخافُهُ الكفّار، فيلجِئُهم إلى اتّباع الرّسول.

سرّ التّعبير بالذُّلّ والخزي عنِ الهلاك:

الخذلان والاستسلام أسوأ ما يفِرُّ منه الكفّار

جاء التّعبير عنِ الهلاك بـ (الذّلّ والخزي) في قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ لدلالاتٍ نفسيّةٍ، فمعنى الذُّلّ هو الانكسار والضّعف والاستسلام، ومعنى الخِزي هو الخذلان والإبعاد.

ولأنّ في استعمال الذُّلّ والخِزي التّركيزَ على أسوأ ما يخافُهُ الكفّار؛ فكِلا المعنيين صعبُ التَّحَمُّل، خاصّةً لِمَن ألِفَ العِزّ، واستشعرَ الكمالَ والقوّةَ، ومَن ألِفَ المَنزِلةَ والنُّصرةَ؛ لذلك فقد أعلن الكفّار عمّا يفزعون منه.

كما أنّ ذِكرَ الذُّلّ والخِزي في هذا المَوضِع، هو تذكيرٌ باستباحة الكفّار حمى الرّسول، فبَدَلَ أن يَعزِّرُوه أضعفوا جانبَه، وأرادوا انكِسارَهُ، وبَدَلَ أن يَنصروه أرادوا أن يُخزوه ويُبعِدوه، فجاء منهُمُ التَّعوّذُ مِنَ الذّنبَين باتّباع الرّسول.

دلالة التّقديم والتّأخير بين لفظتي الذّلّ والخزي:

الخزي أسوأ ما يُصيبُ الكفّار

وفي عبارة ﴿أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ، حيث أخَّرَ الخزي مع

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 216.

أنّه أسبقُ مِنَ الذُّلّ، ويدُلُّ هذا التّرتيبُ العكسيُّ على مراعاة الكفّار لِما هو الأسوأ، فذكروا الذّلَّ ثمّ ثَنَّوا بالخِزي؛ ليكونَ الأخيرُ هو آخرَ ما يُخشى منه، ولأنّ الخزيَ يجمَعُ كلَّ معاني الذُّلِّ، فكلُّ خزي فيه ذلٌّ.

توجيه المتشابَه اللّفظيّ:

قطع احتجاج الكافرين بإرسال الأنبياء والمرسلين

تشابه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ مع قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [القصص: 47] في قطع احتجاج كفّار قريش بإرسال محمّد ﷺ، ويَظهَرُ وجهُ الاختلاف بينهما في علاقة العموم والخصوص، فمَوضِعُ القَصص عامٌّ في العقوبة وأنواع المصائب بقوله: ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾ [القصص: 47] نكرة، وهو مُطلَقٌ في الزّمان، أمّا مَوضِعُ طه فقد خُصِّصَ بعذاب الإهلاك والاستئصال، وقُيِّدَ العذابُ بأنّه ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل بعثة محمّد ﷺ، كما أنّه ذَكَرَ في مَوضِع القَصص سببَ المصيبة وهو ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [القصص: 47]، ولم يَذكرْ في مَوضع طه سببَ الإهلاك، وأيضًا ذُكِرَ في مَوضِع طه مصيرُ الكفّار، وهو الإذلال والخِزي في نار جهنّم، ولم يَحصلْ ذلك في مَوضِع القَصص.

الفُروقُ المُعجَميَّة:

الصُّحُف والكُتُب:

الصُّحُف حافِظةٌ للوحي، والكُتُبُ مَضمونُ الوحي

تجتمِعُ الصُّحُفُ والكُتُبُ في أنّها تتضمّنُ مَعارِفَ وحِكَمًا(1)، وتَفترِقُ الصُّحُفُ في أنّها ما يُكتَبُ فيها(2)، وأنّ الكُتُبَ هي ما تَحمِلُهُ الصُّحُفُ مِن مَضامينَ؛ إذِ الكتابة هي ترتيب رموز الكلام بإحكام(3)، فالصُّحُفُ إذًا ما يُكتَبُ عليه، والكُتُبُ ما يدوَّنُ مِن مَضامينَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 345.
(2) ابن سيده، المحكم: (صحف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).

وكأنّ الصُّحُفَ تُطلَقُ على وسيلة حفظ الوحي؛ أي: ما يَحمِلُ الوحي، كما تَصدُقُ على المَظهَرِ المادّيِّ للوحي، ولذلك غَلَبَ على ما نَزَلَ على إبراهيم وموسى اسمُ (الصُّحُف)؛ باعتبار الألواح الّتي كُتِبَ عليها الوحي، فمَن رَجَعَ إلى تلك الصُّحُفِ وجَدَ مَضمونَ الرّسالة.

في حين أنّ الكُتُبَ هي مَضامينُ الوحي ومحتواه، ولأجل ذلك ذُكِرَ (القرآن) في آيات القرآن الكريم بوصف الكتابِ لاحتوائه على بيّنة ما في الصُّحُف الأُولى[1].

الذّلّ والمَهانة والخزي:

الـذُّلُّ ضعفٌ واستسلامٌ واقعيٌّ، والخزي ضعفٌ لخذلان واستحياء، والمهانة توهُّمٌ واستضعافٌ

تجتمِعُ مفاهيمُ الذُّلّ والمهانة والخِزي في الضّعف، فالذُّلُّ خضوعٌ وهو ضَعفٌ[2]، والمهانةُ استضعافٌ[3]، والخِزي خذلان واستحياء[4]، وهو ضَعفٌ أيضًا.

ويَفترِقُ الذُّلُّ عنِ المهانة في أنّ الذُّلَّ ضَعفٌ واقعيٌّ، بينما قد لا تكون المهانةُ ضعفًا حقيقيًّا، بل توهُّمَ الضّعفِ، فالمهانة والخزي أمران نفسيّان.

إلّا أنّ الخزيَ ذلٌّ ينجرُّ عنه الخذلان واستحياء لخيبة الأمل، بخلاف المهانة الّتي لا تَتعلَّقُ بحياء ولا خذلان، بل بتوهُّمِ الضّعف لتسلُّطٍ أو استكبارٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 345.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 523.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (خزي).

﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ [طه: 135]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان ما يصدُر عنهم مِنَ الجحود والإنكار، جاء الإعلان بالتَّربُّص والانتظار

لمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى في ما سبق أنّ إيمانَ هؤلاء المشركين كالمُمتَنع، وجدالهم لا يَنقطِعُ، بل إنْ جاءَهُمُ الهدى طعنوا فيه، وإنْ عُذِّبوا قبلَه تَظلَّموا، كأنّه قيل: فما الّذي يُفعَلُ معهم؟؛ فجاءت هذه الآية لتعليم رسول الله ﷺ ما يقوله لهم ردًّا على جدالهم بالإعلان بالتَّربُّص انتظارًا للخزي والذُّلّ، فقال: ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾، ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾: التَّربُّص هو: الانتظار بالشّيء[2]سلعةً يُقصَدُ بها غلاءً أم رخصًا، أم أمرًا يُنتظَرُ زوالُه أو حصولُه، وليس أيَّ انتظار، وإنّما هو انتظارٌ لخيرٍ يحصُلُ أو سوءٍ[3]، مع خصوصيّة في التَّربُّص، وهي التَّحفُّز والتَّرقُّب، فالّذي يتربَّصُ بشيءٍ يتحفَّزُ لما سيحدثُ ويترقَّبُه[4]، ومعنى ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ﴾؛ أي: مُنتظِرٌ مُترقِّبٌ لما يَؤولُ إليه أمرُ كلِّ طرَفٍ مِنَ الأطراف[5].

2) ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾: (سرط) أصلٌ يدُلُّ على غيبةٍ في مرٍّ وذهابٍ، وتدُلُّ كلمة السّراط على الطّريق السّهل اليسير[6]، الّذي يَغيبُ فيه سالكُهُ[7]، كأنّ الطّريقَ ابتلعَهُ؛ من سرَطَتَ الطّعام إذا ابتلعتَه[8]،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4817، والطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 10/ 279.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربص).
(3) الرّاغب، المفردات: (ربص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربص).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 52.
(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرط).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرط).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (صرط).

وانْسَرَطَ الشّيءُ في حَلْقِه سار فيه سيرًا سهلًا[1]، والصّراط لغةٌ في السّراط.

3) ﴿ٱلسَّوِيِّ﴾: هو مِنَ الفعل (سَوِيَ)؛ أي: اعتدل واستقام، وجاء أصلُ معناه مِنَ التّسوية بين شيئين، ثمّ نُقِلَ إلى معنى الشّيء المُستوي في ذاته، والسّواء هو المُستوي في طرفيه[2]، والوسط بين الإفراط والتّفريط[3]، وهو المُعتدِلُ، وتسوية الشّيء جعلَه سواءً، فالمُستوي والسّويّ هو الجيّد[4]، وسَواءُ السَّبيلِ قَصدُه[5]، والمقصود بالصِّراط السّويّ في الآية: ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ هو الطّريقُ الحَسَنُ المستقيمُ المُعتدِلُ[6]، وهو طريق المُرسَلين، وما جاء به وحي ربِّ العالَمين، وهدَى إليه النّاسَ أجمعين.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

بعد حواركم وبيان الحجج، ليس لنا أمام عنادكم إلّا تربُّص مآلكم

خَتَمَ اللّهُ تعالى هذه السّورةَ الكريمةَ بضربٍ مِنَ المُفاصلَة بعد أنْ بلغ الحوارُ مداه، وثَبَتَ مِنَ الكفّار العنادُ، وكأنّ لسان الحال يقول: ما دام الأمرُ كذلك، فكلُّ واحد مِنّا يَنتظِرُ ما يؤولُ إليه أمرُه وأمرُ الطّرف الآخر، فإذا حلَّ ما ننتظِرُهُ كرامةً وتعظيمًا أو خزيًا وهوانًا، فحينئذٍ يتميّزُ المُحِقُّ مِنَ المُبطِل، فيَظهَرُ مَن مِنّا سار على الطّريق السَّويّ، ومَنِ اهتدى إلى حُسن المآل.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

التَّوعُّد والتّهديد

فُصِلَتِ الآيةُ ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ عنِ الآيات السّابقة، ونكتةُ فصلها

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (سرط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوي).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوا).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوي).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 100.

هو التَّوعُّد والتّهديد بعد أنْ لم تَنفعْ معَهُمُ الدّعوةُ ولا الآيات، فكأنّه قيل: فما الّذي أفعَلُ معهم؟ فقال: ﴿قُلۡ كُلّٞ﴾[1]، أو تكون جوابًا عن سؤالهم: ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾، وما بين الآيتين اعتراض[2].

دلالة صيغة الأمر بـ ﴿قُلۡ﴾:

الإنذار والمتُارَكة

هذا الأمر قد جاء بعد محاولاتٍ وجدالٍ وتعليلٍ وضرب أمثال لكفّار مكّةَ؛ ليخرجوا ممّا هم فيه مِنَ العناد والمُعارضة؛ لكنّهم أصرّوا واستكبروا استِكبارًا، فكان مُؤدَّى الأمر أنْ: اترُكْهُم لعاقبة أمرِهِم[3]، فصيغة الأمر قد استُعملَت في الإنذار والمُتارَكة؛ أي: نَتركُكُم وتَرَبُّصَكُم؛ لأنّنا مؤمنون بسوء مصيركم، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾ [السّجدة: 30][4].

نكتة تنكير ﴿كُلّٞ﴾ وتنوينه:

كلُّ واحدٍ مِنَ الطّرفين مُتَرَبِّصٌ

جاءَت كلمةُ ﴿كُلّٞ﴾ مُنَكَّرةً مُنَوَّنةً، ويُسمّى تنوينُها تنوينَ العِوض؛ إذ يُؤتى بالتّنوين ليقومَ مَقامَ مضافٍ محذوفٍ[5]، وتقديره: كلُّ فريقٍ متربِّصٌ؛ أي: مُنتظِرٌ عاقبَته ليراها محسوسةً معلومةً، وإنْ كانَتِ الحقيقةُ معروفةً للنّبيّ ﷺ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24] ويَصدُقُ المضافُ المحذوفُ على الرّسول ﷺ وعلى الكفّار؛ أي: إنّ كلَّ واحدٍ مِنَ الطّرفين مُتَرَبِّصٌ.

نكتة التّعبير بـ ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾ مادّة وصيغة:

الانتظار بتكلُّفٍ وتحفُّزٍ لوقوع أمرٍ

استعملَ التّعبيرُ القرآنيُّ كلمةَ (مُتربِّصٌ) في قوله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ لما فيها من نكت عديدة، سواء في مادّته أم في

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 376.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 347.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4817.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 348.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4817.

صيغته، فأمّا عن مادّته فإنّ التَّربُّصَ هو التَّحفُّزُ لوقوع شيءٍ، ففيها معنى الانتظار ومعنى المُراقبة، وفيها توقُّعُ شيءٍ سيحدثُ[1].

وأمّا عن صيغته فإنّ كلمةَ ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ جاءت على وزن مُتَفَعِّل، وهي صيغة تكلُّفٍ مِنَ الرَّبْص؛ وهو الانتظار[2]، فالتَّربُّصُ إذًا انتظارٌ بتكلُّفٍ وتحفُّزٍ لوقوع أمر[3].

دلالة جملة مَقولِ القول ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾:

مضمون الخطاب الّذي أُمِرَ الرّسولُ بتبليغه كشفٌ لنيّات كفّار مكّة

دلّ مَقولُ القول في قوله: ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ على الخطاب الأخير الّذي أُمِرَ المصطفى بذكره للكفّار، فليُصْغِ الجميعُ لهذا القول.

وفيه دلالةٌ على نبوّته ﷺ؛ لأنّه فضح أمرَهُم وكشَفَ مستورَهم؛ لأنّهم كانوا يتهامسون بينهم دون إعلانٍ ودون إشاعةٍ إعلاميّةٍ لأتباعهم، بأنّهم كانوا يَتربَّصون بالرّسول ﷺ ريبَ المَنون، وحوادثَ الدَّهر الّتي يموت فيها، وعندئذٍ يتخلَّصون منه ومن دعوته؛ ففَضَحَ اللّهُ أمرَهُم بهذا القول.

معنى الفاء في قوله ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾:

انتظروا إنّا مُنتَظِرون

والفاء في ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ هي فاء الفصيحة[4]، فرَّعَتِ الأمرَ بالتَّربُّص على ما قبلها[5]؛ والمعنى: إذا كنّا نَنتظرُ العاقبةَ فتربَّصوا أنتم أيضًا، وهي في معنى قوله ﷻ: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 122]؛ وهو تفرُّعُ مَوقِفٍ عن مَوقِف، وهو نفس المَوقِف: تربَّصَ مَن تربَّصَ، فالجميع مُتربِّصٌ.

دلالة الأمر في ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾:

استمِرّوا في تربُّصكم

جاء الأمر بالتَّربُّص في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾، ويدُلُّ الأمرُ هنا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9465.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 348.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربص).
(4) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 278.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 347.

على دوام التَّربُّص؛ لأنّ بدايةَ الآية تُشعِر بتربُّصِ كلِّ طرَفٍ بالآخر، فيكون الأمرُ هنا أمرًا بدوام الفعل، كما يدُلُّ هذا الأمر على المُتارَكة والإعراض، فلا مَوقِفَ ولا إعادةَ جدال(1).

وفيه توبيخٌ للكفّار على تربُّصهم هذا؛ لأنّه يَؤولُ بهم إلى الهلاك؛ لأنّه ناتجٌ عن مواعيدَ شيطانيّةٍ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النّساء: 120].

دلالة حذف مفعول ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾:

التَّربُّص لأجل التَّربُّص مُفاصَلةً

حُذِفَ المفعولُ به؛ ليَتّسِعَ المجالُ للتّقدير، فقد سأل الكفّارُ آيةً مُلجِئةً ليكفّوا الرّسول عن إزعاجهم، كما سألوا تعجيلَ العذاب إنْ صحَّ وجودُه استهزاءً(2).

ولعلّ في حذف المفعول نوعًا مِنَ المُفاصَلة بأن يكون فعلُ التَّربُّص هو المقصودَ بالذّات، فلا حاجةَ لتقدير مَحذوفٍ، ويصبحُ التَّربُّصُ لأجل التَّربُّص بعد أن انتهى الحوار.

معنى الفاء في قوله ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾:

تفريع التّهديد على المُتارَكة

الفاء هنا فصيحة؛ لأنّها أفصحَت عن شرطٍ مُقدَّرٍ بعد الأمر ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾، وهذا الشّرط هو: إذا تربَّصَ كلُّ طرفٍ فستَعلمون(3)، فدلَّتِ الفاء إذًا على معنى التّهديد، وفَرَّعَتِ التّهديدَ على المُتارَكة.

دلالة دخول السّين على الفعل ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾:

التّحذير والتّهويل من يوم القَضاء

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالسّين في قوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ بدل سوف؛ لأنّ السّين تدُلُّ على القرب بخلاف (سوف)؛ فهي للبعيد؛ والمعنى: فستعلمون عمّا قريبٍ حقيقةَ ما تُوعَدون به(4)، وفي قُرْبه مِنَ التّهويل والتّهديد ما فيه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 347.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4818.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 377، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 52.

نكتة التّعبير بـ ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالعِلم في قوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾، ونكتة التّعبير به أنّ ما سيحصِّلُهُ الكفّارُ يومَها هو العلمُ الحقُّ لا ما يتصوَّرون الآن، فهُم يتصوَّرون الحياةَ والنّجاحَ فيها، وغيرها مِنَ التَّصوُّرات الّتي بنوا عليها حياتَهم ومواقفَهم، وهذه التَّصوُّراتُ زائِلةٌ، ولا قيمةَ لها أمام ميزان العِلم الحقيقيِّ.

يوم الفصل هو يوم العِلم الحقّ

نكتة التّعبير بالمضارع في ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾:

جاء فعلُ ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ مضارعًا، ونكتة التّعبير بالمضارع هنا هي تصوير حالة العِلم بعاقبة الفريقين، فإذا جاء الفصلُ عَلِمَ كلُّ فريقٍ عقباه، فكيف يُتَصَوَّرُ علمُ الكفّار لمآلهم حينها؟ ومَنِ المُفلِحُ يومها؟!

وفيه دلالةٌ على استحضار حالة المحاسبة لكلٍّ مِنَ الفريقين.

تصوير حالة العلم بعاقبة الفريقين

نكتة التّعبير بالمُخاطَب في ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾:

جاء فعل ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ بأسلوب الخطاب للكفّار، ونكتة ذلك التّعريض بأنّ المؤمنين يَعلمون عاقبتَهم، بينما الكفّار في غفلة عمّا يَنتظِرُهم؛ لذلك فستَعلمون يومَها[1]، وهو ما يصوِّرُ اطمئنانَ المؤمنين على عاقبتهم؛ لأنّهم استجابوا لداعي اللّه ﷻ، والعاقبةُ للتّقوى.

التّعريض بالكفّار، لِعلم المؤمنين بحسن عاقبتهم

بلاغة الكناية في ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾:

دلَّ استعمالُ ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ على وجود كناية في العبارة، إذ ليس العِلمُ حينَها هو المقصودَ الأوّلَ، بل ما يَنتجُ عنه مِنَ المُفاضَلة وتحقُّق النّجاة والاطمئنان للمآل، أو الخيبة والخزي والمهانة والذُّلّ.

وما أبلغَ هذه الكناية إذ تركَتِ التَّحدّي مَفتوحًا، وعمّقَت من رهبة التَّربُّص، وأفزعَت مِنَ النّهاية الّتي يَخسرُ معها المُتنافِسُ كلَّ شيءٍ

هول التَّربُّص لِما يَحمِلُهُ مِنَ النّجاة للمؤمنين أو الانحطاط للكافرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 348.

إنْ لم يكُنْ مُستعِدًّا تمامَ الاستعداد لها، فإنّه سيَعلَمُ مآلَه، وسيتجرَّعُ خزيَه وندامتَه.

دلالة ﴿مَنۡ﴾:

أيّ الفريقين هو صاحب الصِّراط السّويّ؟

استعملَتِ الآيةُ ﴿مَنۡ﴾ في قوله: ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾، وهي اسمٌ يُقصَدُ به الاستفهام[1]؛ أي: أيّنا أصحاب الصِّراط السَّويِّ، وهي مِن ألفاظ العموم، فعمَّتِ الفريقين، وهي هنا تحملُ معنى التّمييز؛ فليس الفريقان كلاهما صاحبَ الصِّراط السَّويِّ، ولازم الاستفهام هو تحديد المقصود مِنَ الفريقين بأنّه هو صاحب الصِّراط لا غيره.

دلالة مَوقِع قوله ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾:

تخصيص وتحديد لِما سيعلمُهُ الكفّارُ في هذا اليوم

تقع جملة ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ في محلّ مفعول به للفعل: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾[2]، وهو تخصيصٌ وتحديدٌ لِما سيعلمُهُ الكفّارُ؛ لأنّ أهمَّ شيءٍ سيُعلَمُ يومَها هو مَنزِلَةُ كلِّ طرفٍ في العاقبة والنّهاية، فيُعرَفُ الصّادقُ مِنَ الكاذب، ويُعرَفُ النّاصِحُ مِنَ المُخادِعِ المُستهزِئ.

نكتة إضافة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ إلى ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾:

الصِّراط السَّويّ هو معيار الحقّ

أُضيفَ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ إلى ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾، ونكتة هذه الإضافة هي التّعريف بما يطلُبُ الفريقان مَعرِفَتُه، فالصِّراط السَّويّ هو معيار الحقّ، وكلُّ فريق يدّعي أنّه صاحبُ الحقّ، فمَن هو المُحِقُّ ومَن هو المُدَّعي؟

معنى (أل) في ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾:

الصِّراط هو أحسن طريق للحياة وأيسره

جاء لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ مُعرَّفًا بـ(أل)، وهي (أل) الحقيقة، فهي الّتي تُعرِّفُ بحقيقة الصِّراط، وأنّه الطّريق السَّويّ اليسير، والتّعريف يُظهِرُ أنّ للصِّراط تصوُّرًا مثاليًّا لا ينبغي العدولُ عنه، ويسلكُهُ كلُّ مَن يريدُ النّجاةَ.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 44.
(2) العكبريّ، التّبيان: 2/ 910.

بلاغة الاستعارة في لفظة ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾:

ذُكِر الصِّراطُ في الآية ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾، وقُصِدَ به الحقُّ، على سبيل الاستعارة[1]، وتكمن بلاغةُ هذه الاستعارة في أنّ للحقِّ طريقًا يُوصَلُ إليه، ومَنهجًا يسير عليه أصحابُه، فمَن سلكَهُ فقدِ اتَّسَمَ بالحقّ، وبَلَغَ مَقصِدَه.

لـلحقّ سبيلٌ ينهجُهُ أصحابُه للوصول إليه

نكتة وصف الصِّراط بأنّه سَويٌّ، مع أنّه لا يكون إلّا كذلك:

جاء وصف ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ بأنّه سَويٌّ، مع أنّ الاستقامةَ وصفٌ أصيلٌ في الصِّراط، فكأنّه وُصِفَ بالاستقامة مرّتين! ونكتة ذلك هي المبالغةُ في الاستقامة، وأنّ الاستقامةَ على المبدأ والالتزامَ بالمنهج هو وصفُ صاحب الصِّراط السَّويِّ.

المبالغة في الاستقامة والتزام المنهج

بلاغة الاستعارة في لفظة ﴿ٱلسَّوِيِّ﴾:

وفي وصف الصِّراط بالسَّويِّ استعارةٌ؛ إذِ السَّواءُ هو المكان الّذي تتساوى إليه مسافةُ جوانبه، فاستُعير إلى الصِّراط ليأخُذَ معنًى جديدًا؛ هو أنّه وسطٌ بين طرفي إفراط وتفريط[2].

وسطية الصِّراط السَّوِيِّ بين الإفراط والتّفريط

دلالة الواو في قوله ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾:

دلَّتِ الواو على عطف جملة ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ على جملة ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾، وهو عطفٌ على محلِّ الجملة الاستفهاميّة؛ أي: ستَعلمون أيُّنا أصحاب الصِّراط السَّويّ، وستَعلمون المُهتدي[3].

فستعلمون كذلك أيُّنا المُهتدي

دلالة عطف المهتدين على أصحاب الصِّراط السَّويِّ:

عُطِفَ المهتدون في قوله: ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ على أصحاب الصِّراط السَّويِّ، مع أنّهم منهم؛ فكيف يُعطَفُ الوصفُ على نفسه؟ ولعلّ

كمال المُتّقين في الاهتداء إلى الصّراط وفي مُلازَمَتِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 348.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 465.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 236.

الغرضَ من ذلك هو ذكرُ درجتين في أهل العُقبى: الاهتداء إلى الصّراط، ومُلازمته[1]، وتعدادُ ذلك دليلُ كمال مَنِ اتَّصَفَ بها.

دلالة التّعبير بـ ﴿وَمَنِ﴾:

الاستفهام عنِ المُهتدي والإخبار عنه

آثرَ التّعبيرَ بـ﴿وَمَنِ﴾ في جملة ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾؛ لأنّها استفهاميَّة[2]، وهي تتمَّةٌ للاستفهام الأوّل؛ أي: ستَعلمون مَنِ اهتدى، أو تكون بمعنى مَن الموصولة[3] الّتي تَقصدُ إلى الإخبار بالصّلة والموصول.

نكتة العدول عنِ الاسميّة إلى الفعليّة ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾:

الهداية توفيقٌ ربّانيٌّ وعزيمةٌ مِنَ العبد قويّةٌ وصادقةٌ

وقد تمّ العدولُ عنِ الجملة الاسميّة في ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ إلى الجملة الفعليّة في ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، ومُقتضَى النّسق أن يُقالَ: مَن أصحابُ الصِّراط السَّويِّ ومَنِ المهتدي، ونكتة هذا العدول هو ما يحمِلُهُ الفعلُ من دلالةٍ على الحدوث، فالاهتداء إرادةٌ وقرارٌ، بعد إرادة اللّه وحكمه، وكذا التّعريض بالكفّار أنّهم لم يريدوا الاهتداء.

بلاغة ربط ختام السّورة بمَطلِعِها:

بلّغ ما أُنزلَ إليك، واللّه يَعصمُك مِنَ النّاس

القارئُ لآيات سورة طه من أوّلها إلى آخرها لا يخفى عليه ما بين بداية السّورة وخاتمتها مِنَ المناسبة؛ فإنّها قد بُدِئَت ببيان أنّ القرآن أُنزِلَ على النّبيّ ﷺ ليَحمِلَ به همَّ الإبلاغ، وحيثُ قد بلَّغَ فلا يهمُّهُ ما سواه ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشّورى: 48]، وخُتِمَتِ السّورة بطلب الإقبال على طاعة اللّه تعالى وأمرِ الأهل الّذين يستجيبون لأمره، وترك الّذين لا يستجيبون له؛ فإنّه لا ينجحُ فيهم الإنذار، وسيندمون حيثُ لا ينفَعُ النّدمُ[4].

---

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/ 370، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4818.
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالين: 3/ 59.
(3) العكبريّ، التّبيان: 2/ 910.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 17/ 471.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّربُّص والانتظار والإمهال:

التَّربُّص والإمهال انتظار، والتَّربُّص انتظار لِما يأتي مِنَ الغير، والإمهال إنظار مِنَ الغير

التَّربُّص والانتظار والإمهال مِنَ المعاني المُتقارِبة، فهي تلتقي في معنى المهلة والانتظار مدّةً زمنيّةً، وتفترِقُ عن مُطلَقِ الانتظار في أنّ التَّربُّصَ انتظارٌ مع ترَقُّبٍ وتحفُّزٍ لِما سيحدث[1]، بينما الإمهالُ انتظارٌ لإنظار[2].

كما يَفترِقُ التَّربُّص عنِ الإمهال في مدّة الانتظار، فقد تكون مدَّةُ التَّربُّص مُحدَّدةً، وقد تكون مَجهولةً، فيتوقَّعُ أيَّ شيءٍ، خاصّةً ما يَنفعِلُ به من غيره، بينما في الإمهال أجلٌ مُحدَّدٌ غالبًا وفرصةٌ للقيام بما يُنتظَرُ منه.

وفي الإمهال يقومُ الآخرُ بالإنظار، بينما يقوم صاحبُ الأمر نفسه بالتَّربُّص لِما سيأتي مِنَ الآخر.

(1) الرّاغب، المفردات: (ربص).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.

الجُزءُ السّابِعَ عشَرَ

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

التّعريفُ العامُّ بالسّورةِ:

سورةُ الأنبياء مكّيّةٌ عند جمهور العلماء، وقد صرَّح ابنُ عطيّةَ بالإجماع على ذلك(1).

سورةُ الأنبياءِ من أواخرِ السُّوَرِ المكيَّةِ نزولًا

وهي - في ترتيب المصحفِ الشَّريفِ - السّورةُ الحاديةُ والعشرون، جاءت بين سورتَيْ طه والحجّ، وعددُ آياتها مئةٌ واثنتا عشرةَ آيَةً في الكُوفيّ، ومِئةٌ وإحْدَى عشرةَ آيةً في عدد الباقينَ(2).

وأمّا ترتيبُها النّزوليّ: فقد ذُكِر أنّ ترتيبَها الحاديةُ والسّبعون، بين سُورتَيْ إبراهيم والمؤمنون(3)، وزعم بعضُهم أنّها الثّالثةُ والسّبعون(4)، والتَّحقيقُ: أنّ التّرتيب النّزوليَّ ليس راجحَ الثُّبوت؛ لافتقاده إلى صحّة الرّوايات، ومع هذا فهم متّفقون على أنّها مِن أواخر السّوَرِ نزولًا قبلَ الهجرة إلى المدينة المنوّرة.

وقد جاء عن عبد اللّه بنِ مسعودٍ ﷺ أنّه قال في بني إسرائيلَ والكهف ومريمَ وطه والأنبياء: "إنّهنّ منَ العِتاق الأُوَل، وهُنّ مِن تِلادي"(5).

ظروفُ نزولِ السّورةِ:

نزلتِ السّورةُ في جوٍّ مشحونٍ يمثّلُ ذروةَ الصّراعِ بينَ الحقّ والباطلِ

نزلتْ سورةُ الأنبياءِ في ظروفٍ حافلةٍ بأحداثٍ جِسامٍ عاشها المسلمون في مكّةَ المكرّمة؛ فنزلت عقبَ حادثةِ الإسراء والمعراجِ،

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 73، وذكر السّيوطيُّ استثناءَ آيةٍ مدنيّةٍ منها، وهي قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝﴾ [الأنبياء: 44]، يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 61.

(2) الدّاني، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 187.

(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.

(4) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 115.

(5) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (4708)، العِتاق: جمع عتيق وهو القديم، وكذلك التالد بمعنى القديم، والمراد: أنهنّ نزلنَ في أوّل ما نزل مِنَ القرآن وهو صغير، يُنظر: مكّي، الهداية: 4/ 352.

وبعد معاناةٍ واضطهادٍ، وتكذيبٍ وتشكيكٍ، وبعد وفاة أبي طالبٍ وخديجةَ رضي الله عنها، وبعد ما لقيَه رسولُ اللّه ﷺ مِن أذًى في داخل مكّةَ، وفي خارجِها من أهل الطّائف، حيثُ ردّوهُ خائبًا بعدَ أن أدمَوْه وأغْرَوا به صبيانَهم وسفهاءَهم، فوجد النّبيُّ ﷺ في نفسه ما وجدَ من كَبَد وعناءٍ، حيثُ فقدَ في أثناء ذلك كلِّه السّندَ العاطفيَّ والتَّشاوريَّ بفقد زوجِه خديجةَ رضي الله عنها، وفقدَ السّندَ الاجتماعيَّ بوفاة عمِّه أبي طالب؛ فجاءتِ السّورةُ تحملُ في طيّاتها ما تُثَبِّت به فؤادَه، وترفعُ من معنويّاته، بتسليتِه بأنَّ ما وقع له كان مع مَن سبقه منَ المرسلين، وخُتِمَت السّورةُ بالتّسريةِ عنِ النّبيّ ﷺ، ووصيّتِه بالثّبات على دعوته.

❁ اسمُ السُّورةِ الكريمةِ:

ذكْـرُ قَـصَـصِ الأنبياء لتسليةِ خاتَمِهم ﷺ

ليس لسورة الأنبياءِ إلا هذا الاسمُ المعهودُ، وقد سُمّيت به في جميع المصاحف، وكتبِ التّفسير والسُّنّةِ، وهو اسمُها الثّابتُ روايةً وشُهرةً[1]، وقد نعتَها الشّيخُ ابنُ تيميّةَ[2] بسورة (الذّكر)؛ وسردَ الآياتِ التي ذُكِر فيها لفظُ الذِّكر في السُّورة، مشيرًا إلى أنَّ موضوعَها الذِّكرُ، وقد وردت لفظةُ الذِّكر في السُّورةِ بصيغٍ مختلفةٍ نحو ثلاثَ عَشْرةَ مرّةً[3].

وأمّا سببُ تسميتِها بسورةِ الأنبياء: فذلك لأنّه ذُكِر فيها أسماءُ سِتّة عشر نبيًّا، وذُكِرت فيها مريمُ، ولم يأتِ في سُورِ القُرآنِ مثلُ هذا العددِ مِن أسماءِ الأنبياءِ عدا ما في سورةِ الأنعام، فقد ذُكِر فيها أسماءُ ثمانية عشر نبيًّا؛ فإن كانت سورةُ الأنبياءِ هذه نزلت قبل سورةِ الأنعام، فقد سبقت بِالتّسميةِ بِالإضافةِ إلى الأنبياء،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 5.

(2) ابن تيمية، مجموعُ الفتاوى: 15/ 265.

(3) الآيات: 2، 7، 10، 24، 36، 42، 48، 50، 60، 84، 105.

وإلّا فاختِصاصُ سورةِ الأنعام بِذِكرِ أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم؛ فكانت سورةُ الأنبياءِ أجدر مِن بقيّةِ سورِ القُرآنِ بهذِه التّسميةِ، على أنّ مِن الحقائقِ المُسلّمةِ أنّ وجه التّسميةِ لا يوجِبُها(1).

والأوجَهُ في توجيه تسميتِها بهذا الاسم، ليس اختصاصَها بذِكْر الأنبياءِ، بل لارتباط هذا الاسم بمحورِها ومقصودِها العامّ؛ حيثُ إنّها جاءت لتَعرضَ تأييدَ اللّه تعالى لأنبيائه عليهم السلام في مواجهة أقوامِهم لردّهم عن كفرِهم وشركِهم باللّه، مبيّنةً الأساليبَ التي سلكَها الأنبياءُ مع أقوامهم في سبيل ذلك، وعارضةً صوارفَ الإيمانِ عند أقوامِهم، وأساليبَهم في مواجهة الأنبياء وصدِّهم عن سبيلهم، ومبيِّنَةً مآلَ كلٍّ منَ الفريقين: المؤمنين، والكافرين.

❁ الموضوعاتُ الرّئيسةُ للسّورة:

مَـــدارُ الـسّـورة حـــولَ كـلـمـةِ التّوحيدِ وأُمّـةِ التّوحيدِ

احتوتِ السّورةُ على عدد منَ الموضوعاتِ والمقاصدِ الأساسيّةِ، وهي موجزةٌ في الآتي:

أوّلاً: بيانُ اقترابِ موعدِ القيامة، وهو ما يَهُزّ القلوبَ، ويحملُها على الاستعداد لاستقبال يوم القيامة بالإيمان والعملِ الصّالحِ، ويَزجرُها عنِ الغفلة والإعراض.

ثانيًا: سردُ ألوانٍ منَ الشُّبهات، أثارَها المشركون حولَ الرّسول والرِّسالة، والرَّدُّ عليهم بما يُبطل شبهاتِهم وأقوالَهم.

ثالثًا: سَوْقُ الأدلّة على وحدانيّة اللّه تعالى، وعلى شمول قُدرته.

رابعًا: تسليَة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد ذِكر قَصص الأنبياء السّابقين؛ لبيانِ أنَّ سُنَّةَ الدَّعوة التَّعرضُ للأذى، وأنَّه لا سبيلَ مع ذلك إلّا الاحتمالُ.

خامسًا: ربطُ دعواتِ الأنبياءِ بالمقصودِ الأعظم، وهو وحدةُ الرِّسالة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ **[الأنبياء: 92]**.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 5.

سادسًا: الحديثُ في أواخر السُّورة عن أشراط السّاعةِ وأهوالِها، وعن أحوال النّاسِ فيها، وهو من ردِّ النِّهايات إلى البدايات.

سابعًا: إبرازُ مقصدِ السّورةِ العظيم في ختامِها؛ وهو أنَّ الأرض يرثُها عبادُ اللّه الصّالحون، وهي سُنَّةٌ لا تتخلَّف[1].

المِحورُ العامُّ للسّورة وموضوعاتُها:

الـصّـراعُ بيـنَ الحقِّ والباطل قائمٌ على سُننٍ ثابتة ونهاياتٍ واضحة

مِحورُ السّورة متعلّقٌ بسُنن اللّه تعالى في نُصْرة المؤمنين، واستئصالِ الكافرين، ويظهرُ ذلك جليًّا من خلال ما ذكرتْهُ من تأييدِ اللّه تعالى لأنبيائه ﷷ، وإنجائِهم من أقوامهم، ويَبرزُ ذلك في عرض رسالتِهم الواحدةِ في الدّعوة إلى التّوحيد، ونفْيِ تعدّدِ الآلهة، وادّعاءِ الولد والشّريك له تعالى، وعرضِ بعضِ الصّوارفِ المانعةِ مِن استجابة أقوامِهم لهم؛ كالغَفْلَة، واللّهو، واللّعبِ، والتّقليدِ الأعمى، ومن خلال عرضِ بعض مظاهرِ كُفرِ الأقوام باللّه تعالى؛ كإعراضِهم عنِ الدّعوة، وسُخريتِهم واستهزائِهم بما جاء به أنبياؤهم، واستعجالِهم بالعذاب الذي توعّدَهم به أنبياؤهم.

وقد صرّحتِ السّورةُ بسُنّة اللّه تعالى في استئصال الظّالمين، فقال تعالى: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١﴾ [الأنبياء: 11]، وبسُنّته تعالى في إنجاءِ المؤمنين وتعجيلِ العذابِ للكافرين.

وعرضتِ السّورةُ في أثناء ذلك كلِّه الآياتِ الكونيّةَ الدّالّة على وجوده ﷻ، وتفرُّده بالخَلْق والإبداع؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 179 - 180.

عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: 30 - 33].

وأُجملت مقاصدُ هذه السّورةِ ومحاورُها الفرعيّةُ التي تصُبُّ في مقصدها الرّئيسِ في بدايتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

مناسبةُ السّورةِ لسابقتِها ولاحقتِها:

أوّلًا: وجهُ اتِّصال سورةِ الأنبياء بالسّورة السّابقةِ

جاءت هذه السّورةُ في التّرتيب المُصحفيّ بعد سورة طه، ولمّا خُتمت سورةُ طه بإنذار المشركين وأنَّهم سيعلمون الشَّقيَّ منَ السَّعيد، وكان هذا العِلْم تارةً يكون في الدّنيا بكشف الحجاب بالإيمان، وتارةً بمعاينة ظهورِ الدّين، وتارةً بإحلال العذابِ عند إزهاقِ الرّوحِ بقتلٍ أو غيرِه، وتارةً ببعثِها يومَ الدّين؛ افتُتِحَت هذه السّورةُ بأجلى ذلك، وهو اليوم الذي يُكشف فيه الغطاءُ؛ فينتقلُ فيه الخبرُ من علم اليقين إلى عين اليقين وحقّ اليقين، وهو يومُ الحساب، فقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ أي: عامّةً أنتم وغيرُكم، ﴿حِسَابُهُمۡ﴾ أي: في يوم القيامة(1)، فقد خُتمت سورةُ طه بالإنذار، وافتُتِحت هذه السُّورة به كذلك؛ فالتقتا في موضوعٍ واحدٍ، وهو إنذارُ الكافرين، وهو من تعانُقِ أطرافِ السُّوَر.

وكما خُتمت سورةُ طه ببيانِ انشغالِ النّاس بزهرة الحياةِ الدّنيا التي جعلها اللّٰهُ لهم فتنةً، فقد بُدئت سورةُ الأنبياء بمثل ما خُتمت به سورةُ طه، فذَكَر فيها غفلةَ النّاس عنِ السّاعة والحساب، وأنّهم إذا سمعوا القرآنَ استمعوه وهم لاعبون، وقلوبُهم لاهيةٌ عنه(2).

ثانيًا: وجهُ اتّصالِ سورةِ الأنبياء بالسّورة اللّاحقةِ

لمّا خُتمت سورةُ الأنبياء بالتّرهيب منَ الفزع الأكبرِ، وطَيِّ السّماءِ، وإتيانِ ما يوعَدون

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 337 - 379.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 3.

به، والدَّينونةِ بما يَستحقّون، وكان أعظمَ ذلك يومُ الدّين؛ ناسبَ افتتاحُ سورةِ الحجّ بالأمر بالتّقوى المُنجيةِ من هول القيامةِ[1].

ومِن أوجُه اتّصالِ السّورتَين:

- أنّ آخرَ سورة الأنبياء كان في القيامةِ، وأوّلَ الحَجّ كان في الاستدلال على القيامةِ.
- أنّه أُقيمت في سورة الأنبياء الحُجَجُ الطّبيعيّةُ على الوَحدانيّة، وفي سورة الحجّ جُعِل العِلْمُ الطّبيعيُّ من براهين البعثِ.
- أنّ سورة الأنبياء تناولت قصصَ الأنبياء وبراهينَهم لقومِهم، وتناولت سورةُ الحَجّ خطابَ اللّه للأُمم الحاضرة[2].

الخصائصُ الموضوعيّةُ والأسلوبيّةُ للسّورةِ:

أوّلًا: الخصائصُ الموضوعيّةُ:

شاركت هذه السّورةُ السّورَ المكّيّةَ في تناولِ قضيّتَي التّوحيدِ والبعث، مع اختصاص كلِّ سورةٍ منهنّ بمنهجٍ خاصٍّ بها في عرض قضايا العقيدة، فقد نفت سورةُ الأنبياء الشّريكَ عنِ اللّه تعالى بطريقتِها الخاصّةِ المُرتبطةِ بمحورها الذي قامت عليه، وذلك من خلال دليلِ التّمانع، أي: امتناعُ وجود إلهٍ غيرِ اللّه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22].

اختصّت السّورةُ الكريمةُ بذِكر كوكبةٍ عظيمةٍ منَ الأنبياء، وتناولت جوانبَ دعويّةً محدّدةً من حياتهم؛ كتفرُّدِها بذِكر مشهدِ تحطيم إبراهيمَ عليه السلام للأصنام تفصيلًا لا نجدُه في غيرها، وتفرُّدِها بذِكر جانبٍ من قصّة سليمانَ وداودَ عليهما السلام في حُكمِهما في الحرث الذي نفشت فيه غنمُ القوم، وتفهيمِ اللّه تعالى المسألةَ لسليمانَ عليه السلام، وتفرُّدِها بذِكر دعاءِ يونسَ عليه السلام في بطن الحوت.

تفرّدت السّورةُ بحديثِها عن خروج يأجوجَ ومأجوجَ بين يديّ السّاعة، بينما تناولت سورةُ الكهفِ بناءَ ذي القرنيَن الرّدمَ عليهم؛ لأنّهم كانوا يُفسدون في الأرض.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 13/ 1.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 83.

تفرّدت السّورةُ ببيانِ أنَّ الإنسان خُلِق من عَجَل، في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: 37]، بينما وُصِف بأنّه عجولٌ في سورة الإسراء: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء:11].

تفرّدت السّورةُ بذِكر بعضِ المَشاهد والآياتِ الكونيّةِ الخاصّةِ بها بتفصيلاتٍ جديدةٍ، في مثل قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢﴾ [الأنبياء: 30 - 32]، وقولِه عن أحداث السّاعة: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104].

ثانيًا: الخصائصُ الأسلوبيّةُ:

لسورة الأنبياء العديدُ منَ الأساليبِ والقضايا اللّغويّةِ التي ميّزتْها عن غيرها منَ السّور، وإن شاركتْها بعضُ السّور في شيءٍ من هذه الأساليب، منها:

تفرُّد السّورةِ الكريمة ببراعة الاستهلال، بالحديث عنِ اقتراب الحسابِ دون غيرِه من أمور السّاعةِ، وهي وإن تشاركت مع بعض السّورِ الأُخرى في استهلالِها بالفعل الماضي المُرتبطِ بالحديث عنِ السّاعة وأحداثِها، إلّا أنّه قدِ اختصَّت كلُّ سورةٍ منها بأسلوبِها الخاصِّ في الطّرح؛ فقد بدأت السّورةُ بالحديث عنِ اقتراب الحساب، وجاء في نهاياتِها الحديثُ عنِ اقتراب الوعدِ الحقّ: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: 97].

الإكثارُ من تَكرار بعضِ الألفاظ، بما يتّسقُ مع محور السّورةِ ومقصودِها العامّ أو أحدِ فروعه، فقد وردت مادّةُ (ذكر) ومشتقّاتُها نحو ثلاثَ عَشْرةَ مرّةً، ممّا جعل ابنَ تيميّةَ ينعتُها بسُورة الذِّكر(1)؛ وذلك لأنّ هذا الذّكرَ هو ما أُرسِلَ به الأنبياءُ لأقوامِهم، وأكثرتِ السّورةُ كذلك من ذكر لفظةِ (الإعراض) نحو أربع مرّات(2)، وبالمقابل تفرّدت بذِكْر التّركيب ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أربعَ مرّات(3)، وكذلك أكثرتِ السّورةُ من ذِكْر فعل (الإنجاء)

(1) ابن تيميّة، مجموعُ الفتاوى: 15/ 265.
(2) الآيات: 1، 24، 32، 42.
(3) الآيات، ص: 76، 84، 88، 90.

منَ الله لأنبيائه وأوليائِه، حيثُ وردت نحو خمسِ مرّات في أربع آيات[1]، وذكرت السّورة لفظ (قرية) نحو أربع مرّات[2]، وكلّ ذلك ظاهر الاتّصال بموضوع السّورة.

تركَّز حديثُ السّورة عن صوارف الإيمان من غفلة ولَعِبٍ ولَهْو، وبه ابتدأت السُّورة مطلعَها: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، وجاء في أواخرها: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: 97].

أكثرتِ السّورةُ من ذِكر ألفاظ الوعْدِ[3]، وكلُّ ذلك ظاهرُ الاتّصال في تذكير الأنبياء لأقوامِهم به.

تفرّدتِ السّورةُ كذلك بذِكْر بعض الصّيغِ والاشتقاقاتِ، من مثل: ﴿يَكۡفُّونَ﴾ [الأنبياء: 39]، ﴿لَبُوسٖ﴾ [الأنبياء: 80]، ﴿لَاهِيَةٗ﴾، ﴿تَمۡنَعُهُم﴾ [الأنبياء: 43]، ﴿يُنشِرُونَ ٢١﴾ [الأنبياء: 21]، ﴿نَفَشَتۡ﴾ [الأنبياء: 78]، ﴿نُكِسُواْ﴾ [الأنبياء: 65]، ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ [الأنبياء: 109]، ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 40]، ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ﴾ [الأنبياء: 13].

وانفردتِ السّورةُ كذلك ببعض الألفاظ من أسماءٍ وأفعالٍ لم تَرِد في غيرها مَن السّور مادّةً وصيغةً، وهي: ﴿رَتۡقٗا﴾ [الأنبياء: 30]، ﴿نَفۡحَةٞ﴾ [الأنبياء: 46]، ﴿حَدَبٖ﴾ [الأنبياء: 96]، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء: 87]، ﴿قَصَمۡنَا﴾ [الأنبياء: 11]، ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: 18]، ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾ [الأنبياء: 79]، ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾ [الأنبياء: 42]، ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: 30]، ولا شكّ أنّ هذه الاشتقاقاتِ أوِ الألفاظَ الفريدةَ ترتبط بفروع المِحور العامِّ للسّورة ومقصودِها، فبعضُها جاء في معرضِ الحديث عنِ الأنبياء عليهم السلام، الذين دارت حولَهم السّورةُ، وبعضُها جاء في معرضِ الحديث عنِ المكذّبين وأعمالِهم، وعن جزائِهم، أو في معرضِ بيانِ آيات الله الكونيّةِ في الرَّدّ عليهم.

(1) الآيات: 9، 71، 74، 76، 88.
(2) الآيات: 6، 11، 74، 95.
(3) الآيات: 9، 38، 97، 102، 104، 109.

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ مَا يَأۡتِيهِم
مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾ [الأنبياء: 1 - 2]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تعانُقُ أطرافِ السُّوَرِ مظهرٌ من مظاهرِ الاتِّساقِ الكلِّيِّ

لمّا قال ﷻ في آخر طه: ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ [طه: 135] متوعِّدًا المُنكرين، وآمِرًا أن ينتظروا مجيءَ الوعدِ الحقِّ لاقترابه؛ ناسبَ أن يَذكرَ في مطلع السّورة اللّاحقةِ ما يدلُّ على اقترابه، فقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾، وهذا مِن تعانُقِ الأطراف بين آخر السّابقِ ومطلعِ اللّاحق، وهذا من صُوَر التَّرابط بينَ الأطراف، فالقرآنُ الكريمُ كالعِقدِ المنظومةِ دُرَرُهُ في سلكٍ واحدٍ.

كما أنّه لمّا قال في ختام طه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾ [طه: 133]؛ نبَّه في مطلع هذه كذلك أنّهم لا ينتفعون ممّا يأتيهم من ذكرٍ من ربِّهم، فقال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، فدلَّتِ الآيتان على إبائهمُ الاستماعَ والإذعانَ لآيات اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِسَابُهُمۡ﴾: (حسب) أَصْلٌ يدور حولَ جَمعِ ما هو مُتفرّقٌ في حيِّز واحد، وحسب يحسُبُ حِسابًا وحُسبانًا، ومنه الحُسبانة: الوسادةُ؛ لأنّ حشوها ليف، قدِ اجتمع فيها[1]، والحسابُ الأُخرويُّ: إحصاءُ الأعمال والمجازاةُ عليها، وقيل في تعريفه: هو توقيفُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسب).

اللّه النّاسَ على أعمالِهم، خيرًا كانت أو شرًّا، قولًا كانت أو فعلًا، تفصيلًا بعد أخذِهم كُتبَهم[1]، ومعنى ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أي: دنا وقتُ المحاسبةِ.

2) ﴿غَفۡلَةٍ﴾: (غفل) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تركِ الشّيءِ سهوًا، ورُبّما كان عن عمدٍ، مِن ذلِك: غَفَلْتُ عنِ الشّيءِ غفلةً وغُفولًا، وذلِك إذا تركتُهُ ساهيًا، ولم ألتفت أو أنتبِه إليه، وأغفلتُهُ: إذا تركتَهُ على ذِكرٍ مِنك لهُ، وأرضٌ غُفُلٌ: لا عَلَمَ بها ولا أثَرَ عِمارةٍ[2]، والغَفْلَةُ: سَهْوٌ يعتري الإنسانَ من قلّةِ التّحفّظ والتّيقّظِ، يقال: غَفَل فهو غافِلٌ[3]، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التّركيب هو مِنَ الغفلة، بمعنى: عدمِ التّنبّه وما إليه[4].

3) ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: اسمُ فاعل مِنَ الإعراض، وهو مصدرٌ مِنَ الفعل الرّباعيّ: أعرض، يُعرِضُ، إعراضًا، وأعرضَ: ولّى مُبديًا عُرْضَهُ، وأعرض بوجهه وعن فلان: كأنّه انحرف عنه، وولاه عُرْضَه: جانبَه أو عارِضَه، أي: جانبَ وجهِه لا مُقَدَّمَه[5]، وإعراضُهم عن كتاب اللّه: عدمُ الانتفاعِ به، بتركِهم فهمَه وتدبُّرَه والامتثالَ لِما جاء فيه.

4) ﴿ذِكۡرٍ﴾: مصدرٌ مِنَ الفعل: ذكر يذكُر ذِكْرًا، وضِدُّه النّسيانُ، ويُطلقُ على كلِّ ما يتحقّق به من وحيٍ وغيرِه، ممّا يقعُ به التّذكيرُ، ويَنطوي في هذا المعنَى الشّرفُ، فالقرآنُ هو الذّكرُ، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:9]، والمعنى المرادُ في الآية: هو الوحيُ، أي: القرآن.

5) ﴿مُّحۡدَثٍ﴾: صفةٌ على وزن (مفعل)، وهو اسمُ مفعولٍ مِنَ الماضي (أحدث)، والمُجَرّدُ منه (حدث)، وحدَثَ الشّيءُ يَحْدُثُ حُدوثًا وحداثةً، والحُدوث والحديثُ: نقيضُ القديمِ، والمُحْدَثُ: ما أُوجِد بعدَ أن لم يكن، وذلك إمّا في ذاته، أو إحداثه عند من حصل عنده، نحو: أحدثت مُلْكًا، قال تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾، ويُقال لكلّ ما قَرُب عهدُه: مُحْدَث، فعلًا كان أو مقالًا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ [الكهف: 70]"[6].

(1) الباجوري، تحفة المريد على جوهرة التوحيد: 2/ 149.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفل).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفل).
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حدث).

6) ﴿يَلۡعَبُونَ﴾: (لعب) أصلٌ يدل على فِعْلِ ما لا نفعَ فيه، ولا فائدةَ منه، وهو منَ الهَزْل، وضِدُّه الجِدُّ، ومنه المباحُ، ومنه المُحرَّمُ المذمومُ، ولعِبَ فلانٌ يَلْعَب لَعِبًا: إذا كان فعلُه غيرَ قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا[1]، ومعنى ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾: بيانٌ لكونِ حالِهم هذا لا يتبدَّلُ، فهم يواصلون اللّعِبَ والهَزْلَ، دونَ تأثُّرٍ بكتابِ اللّه تعالى.

المَعْنى الإجْماليُّ:

خطورةُ الغفلةِ وآثارُها المُدمّرةُ

تُبيِّن الآياتُ اقترابَ وقتِ محاسبةِ النّاس جميعًا، بينما أكثرُهم في ذهولٍ وتغافلٍ، منصرفون عنِ الحَقّ إلى الباطل، وعنِ الجدّ إلى الهَزْل، لا يتأهّبون ولا يتزوّدون لما هم عليه مُقبلون من أمرٍ عظيم، وحالُهم معَ الوَحي، أنَّه مهما يصِلهم من مواعظَ، وتَطرقهم من زواجرَ، وتَقرعهم مِن نُذُرٍ وآياتٍ، تنزلُ مَرّةً بعد مَرّةٍ، من قِبَل مَليكهم، وخالقِهم، ورازقِهم، ومُدَبّرِ أمورهِم وهاديهم، فيها الحُجّةُ والبيان، والعِظَةُ والاعتبارُ، وتصريفُ القول، وتفنّنُ العباراتِ، إلّا استمعوا إليها سماعَ ساهٍ، دونَ أن يَبرحوا ما هم عليه من لَعِبٍ واشتغالٍ بالباطل.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بديعُ براعةِ الاستهلالِ:

افتتاحٌ بديعٌ، واستهلالٌ فريدٌ، اتَّسقَ مع ختامِ السُّورةِ

بدأتِ السُّورةُ بقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾، وهي بدايةٌ تَقرعُ الأسماعَ، وتهزُّ القلوبَ، وافتِتاحُ الكلام بهذه الجُملةِ أُسلوبٌ بديعٌ في الافتِتاح؛ لما فيه من غرابةِ الأُسلوب، وإدخالِ الرّوعِ على المُنذَرين[2]، وهو ابتداءٌ لم تَعْهَدِ العربُ مثلَه؛ لافتقادِها إلى معانيه، وافتقارِها إلى حُسْن نظمِه ورَصْفِه، ويُضافُ

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (لعب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 8.

لجمالِ هذا الاستهلالِ وجلالِه تناسقُهُ مع ختامِها، فكان تقريرًا وتفصيلًا بعد إجمالٍ، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: 97].

دلالةُ التّعبيرِ بالاقترابِ:

الاقترابُ إعلانٌ عن وشيكِ وقوعِ الحسابِ

اختار النَّظمُ الكريمُ مفردةَ (الاقتراب) في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، وفِعْلُ ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ على وزن (افتعل)، والمجرّدُ منه قرُبَ، أي: دنا، والزيادةُ في المبنَى تدلُّ غالبًا على الزّيادة في المعنَى، فالفعلُ بهذه الصّيغة أقوَى في الدّلالة على معناه منَ المُجَرَّدِ الثّلاثيّ، قال المُبرِّد: "هما واحدٌ، إلّا أنَّ افتعل مؤكَّدٌ"[1]، "والاقترابُ مُبالغةٌ في القُربِ، فصيغةُ الافتِعالِ الموضُوعةُ للمُطاوعةِ مستعملةٌ في تحقُّق الفِعلِ، أي: اشتدّ قُربُ وُقوعِه بِهِم"[2]؛ "لأنَّه لا أُمَّةَ بعدَ هذه يُنتَظرُ أمرُها"[3].

بلاغةُ إسنادِ الاقترابِ إلى الحسابِ:

تصويرُ اقترابِ الحسابِ باقترابِ خطرٍ داهمٍ وخطرٍ جاثمٍ

أُسنِد الاقترابُ إلى الحسابِ في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، ولم يُسنَدْ إلى السّاعة، فلم يُقَل: (اقتربت السّاعة) كما في سورة القمرِ؛ لمناسبة السّياقِ المُتحدِّث عن حال النّاسِ الذين وقعوا في الغفلةِ، وجَنحوا للإعراض، وآثَروا اللّعبَ والتّلهّيَ، دونَ اكتراثٍ بهذا الأمرِ الجليلِ الذي يترقّبُهم ويقتربُ منهم لحظةً بلحظة؛ قال الآلوسيّ: "وإيثارُ بيانِ اقترابِ الحساب على بيان اقتراب سائرِ وقوعِ مُستتبَعاتِ البعث، كفنون العذابِ، وشجونِ العِقاب؛ للإشعارِ بأنّ مُجرّدَ اقترابِ الحساب - الذي هو من مَبادي العذاب ومُقدّماته -

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 7.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 8.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 379.

كافٍ في التّحذير عمّا هم عليه منَ الإنكار، ووافٍ بالرَّدع عمّا هم عليه منَ العُلُوِّ والاستكبار، فكيف الحالُ في نفس العذابِ والنّكالِ"[1]

كما أنَّ فعلَ ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ يجوز إسنادُه للنّاس؛ فيُقال: (اقترب النّاسُ من حسابهم)، ولا شكَّ أنّ المقامَ مقامُ تخويفٍ وتهويلٍ، فالخطرُ هو الذي يداهمُ النّاسَ ويُباغتُهم، بينما هم في غفلتِهم سادرون، وعلى لعبِهم ولهوِهم لا يَبرحون، وعن إعراضِهم لا يَتزحزحون، وكأنّه عدوٌّ زاحفٌ أو إعصارٌ هائجٌ يقتربُ من ديار قومٍ شيئًا فشيئًا، حتّى يداهِمَهم وهم غافلون لاهون.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تتعدّدُ المعاني مع حروف المعاني

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ لا تخلو من أن تكون صلةً لفعلِ ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾، أو تأكيدًا لإضافة الحسابِ إليهم، كقولك: "أزِفَ للحيّ رحيلُهم"[2]، أو أن تكون بمعنى (مِن)، أي: اقترب منَ النّاس ﴿حِسَابُهُمۡ﴾"[3].

معنَى (أل) في لفظِ ﴿لِلنَّاسِ﴾:

الغفلةُ داءٌ يُصيبُ جميعَ النّاس ويتمكّنُ منَ الكفّار

التَّعريفُ في لفظِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ للجنس، فيشملُ جميعَ النّاس، المؤمنَ والكافرَ، البَرَّ والفاجرَ، فالحسابُ يقتربُ منَ الجميع، ثمّ فرّع عنهمُ الكفرةَ والعصاةَ، وهمُ الأغلبُ، وللأغلب حُكمُ العموم، وما ورد عنِ ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ المرادَ بالنّاس المشركون؛[4] فهو محمولٌ على دلالة السّياقِ، فهو من إطلاق اسمِ الجنس على بعضِه للدّليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين من وصفِهم بالغفلة معَ الإعراض[5]،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 5.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 100، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 8.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 18/ 95.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 267.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 101، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 4، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 10.

والأوجَهُ أن تبقَى على العموم؛ إذِ الاقتراب يَعُمُّ ولا يَخُصُّ، وأمّا وصفُ النّاس بالغفلة فهو يَعمُّ الجميعَ، إذ لا يخلو قلبُ بشرٍ من شرِّ الغفلةِ، كبُرت أو صَغُرت، ويدخلُ في ذلك المشركون دخولًا أوّليًّا.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملةِ على الفاعل:

وعيدُ الغافلِ المُعْرِضِ، وتنبيهُ الغافلِ النّاسي

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الفاعل في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾؛ للاعتناءِ بالمقدَّم، والتّشويقِ للمُؤَخَّر، وهو هذا الشَّيءُ الخطيرُ الذي اقتربَ، وفيه مبالغةٌ في الوعيد لأولئك الغافلين المُعْرِضين، والتَّنبيهُ للغافلين النّاسين؛ فقدَّمَهم إمعانًا في الوعيد والتّخويف والتَّنبيهِ، وللمسارعة إلى إدخال الرّوعةِ؛ فإنَّ نسبة الاقترابِ إليهم من أوّل الأمر، ممّا يَسوؤهم ويُورثهم رهبةً وانزعاجًا منَ المُقْتَرِب[1].

نُكْتَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في لفظِ (الحساب):

الحسابُ ركنُ القيامةِ، وعمودُ المفاصَلةِ

ذُكِرَ الحسابُ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾، والمراد الحسابُ والقيامةُ عمومًا، من باب المجازِ المُرسَلِ، وعلاقتُه الجُزئيَّةُ، وذلك بتسميَةِ الشَّيءِ بجُزءٍ منه؛ لفتًا لأهميَّة هذا الجزءِ، وكأنَّه يقوم مقامَ الكلِّ، فإذا تذكَّرنا السّاعةَ بأهوالِها العظامِ، وأحداثِها الجِسامِ، فلْيَكن أوّلَ ما يخطرُ ببالنا موقفُ الحساب.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

تشخيصُ الحسابِ يزيدُ من هولِه ويعظّمُ شأنَه

"في إسنادِ الاقترابِ إلى الحِسابِ استِعارةٌ تمثيليّةٌ، شبّه حالَ إظلالِ الحِسابِ لهُم بحالةِ شخصٍ يسعى ليقرُبَ مِن ديارِ ناسٍ، ففيه تشبيهُ هيئةِ الحِسابِ المعقولةِ بهيئةٍ محسوسةٍ، وهي هيئةُ المُغيرِ والمُعجِّلِ في الإغارةِ على القومِ، فهُو يُلِحُّ في السّيرِ تكلُّفًا للقُربِ مِن ديارِهِم، غافِلون عن تطلُّبِ الحِسابِ إيّاهُم، كما يكُونُ قومٌ غارّين مُعرِضين عنِ اقترابِ العدُوِّ منهُم، فالكلامُ تمثيلٌ"[2].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 53.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 8.

بلاغةُ النَّظمِ في إضافةِ الحسابِ إلى الضَّمير:

أُضيف لفظُ الحسابِ إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿حِسَابُهُمْ﴾؛ إمعانًا في تخويفِهم، فالسّياقُ سياقُ ترهيبٍ، وفيه لفتٌ وتنبيهٌ إلى عملِهم الذي سيُحاسبون عليه، "وأصلُ النّظم: (اقتربَ لِلنّاس الحِسابُ)، وإنّما نُظِم التّركيبُ على هذا النّظمِ بأن قُدِّم ما يدُلُّ على المُضافِ إليه وعُرِّف النّاسُ تعريفَ الجِنسِ؛ ليحصُل ضربٌ مِنَ الإبهامِ، ثُمّ يقعُ بعدَهُ التّبْيِينُ، ولِما في تقديمِ الجارِّ والمجرورِ مِنَ الاهتِمامِ، بِأنّ الاقترابَ لِلنّاسِ ليَعلمَ السّامِعُ أنّ المُرادَ تهديدُ المُشركِين؛ لِأنّ الّذين يُكنّى عنهُم بِالنّاسِ كثيرٌ في القُرآنِ، وعِند التّقديم احتيجَ إلى تقديرِ مُضافٍ، فصار مِثل: (اقترب حِسابُ لِلنّاسِ)، وحُذِف المُضافُ لِدلالةِ مُفسِّرِه عليهِ، ولمّا كان الحِسابُ حِسابَ النّاسِ المذكورين، جِيءَ بِضميرِ النّاسِ ليعودَ إلى لفظِ النّاسِ، فيحصُلَ تأكيدٌ آخرُ، وهذا نمطٌ بديعٌ مِن نسجِ الكلامِ"[1].

إبهامٌ يقعُ معه وعيدٌ وبيانٌ يقعُ معه تأكيدٌ

معنَى الواوِ وموقعُ الجملة بعدَها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ حاليّةٌ، والجملةُ بعدَها حالٌ، وهذه الواوُ عِند سيبويه بِمعنى (إذ)، كأنَّه قيل: إذ هم في غفلةٍ معرضون[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بحرفِ الظّرفيّة:

دلَّ حرفُ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، على انغماس النّاسِ في بحر الغفلة، وغرقِهم في لُججِها، والتباسِهم بها، كالتباس المظروفِ في الظّرف، وتمكّنِها منهم تمكّنَ الظّرف مِنَ المظروفِ؛ فهي ظرفيّةٌ مجازيّةٌ، وهي تدلُّ على "شِدّةِ تمكُّنِ الوصفِ مِنهُم، أي: وهُم غافِلُون أشدَّ الغفلةِ، حتّى كأنّهُم مُنغمِسون فيها، أو

المُـعْـرِضُ مُـنـغـمـسٌ في الغفلةِ، سادرٌ في الغيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 9.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 267.

مظرُوفون في مُحيطِها، ذلِك أنّ غفلتهُم عن يومِ الحِسابِ مُتأصِّلةٌ فيهِم؛ بِسببِ سابِقِ كُفرِهِم، والمعنَى: أنّهُم غافِلون عنِ الحِسابِ وعنِ اقترابِه"(1).

غَرضُ التَّنكيرِ:

التّنكيرُ للتّعظيمِ والتّهويلِ والتّعميمِ

نُكِّرت مفردةُ ﴿غَفۡلَةٍ﴾ للتّعظيم والتّهويلِ؛ فهي غفلةٌ عظيمةٌ هائلةٌ، ومن ثَمّ فعاقبتُها وخيمةٌ، كما أفاد التّنكيرُ التّعميمَ؛ فالغفلةُ عامَّةٌ تأتي في جميعِ الأُمورِ.

غرضُ تقديمِ شبْه الجملةِ:

الغفلةُ سببُ الإعراضِ، وأصلُ الاعتراضِ

قُدِّمت لفظةُ ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾ على لفظِ ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّ الغفلة حالةٌ لازمةٌ لهم، فلا يتبصّرون في حالِهم ومصيرِهم ولا يتفكّرون، فيذكّرُهم ذلك بمصيرِهم وعاقبةِ المُحسنِ والمُسيء، ثمَّ إنَّ اللّه تعالى بعث إليهم ما يوقظُهم من غفلتِهم، لكنَّهم أعرضوا؛ فأخبرَ عنهُم أوّلًا أنّهُم لا يتفكّرُون في عاقِبةٍ، بل هُم غافِلون عمّا يؤولُ إليه أمرُهُم، ثُمّ أخبرَ عنهُم ثانيًا أنّهُم إذا نُبِّهوا من سِنةِ الغفلةِ، وذُكِّروا بِما يؤولُ إليه أمرُ المُحسِنِ والمُسيءِ؛ أعرضُوا عنهُ ولم يُبالوا بِذلِك(2).

دلالةُ التّعبيرِ بمفردةِ الإعراضِ:

الإعراضُ دَيدنُ الغافلين، ومَسلكُ اللّاهين

دلَّ اسمُ الفاعلِ ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ على لزومِ هذه الحالةِ لهم وتلبُّسِهم بها، وآثَر النَّظمُ التَّعبيرَ بـ ﴿فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ دون أن يُقال: (في غفلة وإعراض)؛ لأنَّ الإعراضَ ديدنُهم، تعمّدوه وآثَروه، "على معنى: أنَّهم غافلون عن حسابهم ساهون، لا يتفكّرون في عاقبتِهم، ولا يتفطّنون لِما ترجعُ إليه خاتمةُ أمرِهم، مع اقتضاءِ عقولِهم أنّه لا بدّ من جزاءٍ للمُحسنِ والمُسيء، وإذا قُرعِت لهم العصا ونُبِّهوا عن سِنةِ الغفلة، وفُطِّنوا لذلك بما يُتلى عليهم منَ الآياتِ والنُّذُر؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 10.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 101، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 407.

أعرضوا وسَدّوا أسماعَهم ونفروا"[1]، كما أنَّ في حرف الظَّرفِ دلالةً على التّمكُّن، وإيرادُ الثّاني وصفًا منتقلًا دالٌّ على نوع تجدُّدٍ[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميّةِ:

ثَبــاتُ وعــيدِ الــكــافــريــن، وتنبيهُ المؤمنين

دلَّتِ اسميَّةُ الجملةِ ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ على التَّوكيد والثّباتِ، فالغفلةُ والإعراضُ صفتان ثابتتان للنّاس على تفاوُتِ درجاتِهم في ذلك، وهذا ما يُؤكِّدُ الوعيدَ للكافرين، والتَّنبيهَ للمؤمنين، أي: فلْيَحذرِ المشركون من غفلتِهم وإعراضِهم، ولْيَتنبَّه المؤمنون لِما قد يُصيبُهم من ذلك.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

بيانُ الحالِ يدفعُ السُّؤالَ ويُزيلُ الاستفصالَ

جاء قولُه تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ مفصولًا عمّا قبْلَه؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، فهي لبيان ما قبْلَها، من باب التّفصيل بعد الإجمال، وتقريرِ بشاعةِ الغفلةِ وشناعةِ الإعراض ببيانِ ما يدلُّ عليهما؛ لذا حَسُنَ الفصلُ لِما بين الجُملتَين من شِبه كمالِ الاتّصال، فكأنَّ سائلًا قد سأل: لماذا لا يَستجيبون ويؤمنون؟ فبيَّنَتِ الجملةُ حالَهم مع القرآن.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ نافيةٌ؛ وهي دالّةٌ على العمومِ بترشيح ﴿مِّن﴾.

تعيينُ مرجعِ الضّمير:

يدخلُ المشركون دخــولًا أولــيًّا بــمــضــمــونِ الخطابِ

يعود الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم﴾ على النّاس؛ باعتبار أنَّ الغفلةَ والإعراضَ حالُ أغلبِهم، وللأغلبِ حُكمُ العموم، أو على المشركين، على قول مَن يرى أنَّ المرادَ بالنّاس المشركون، من إطلاق العامِّ وإرادةِ الخاصّ، والقولُ الأوّلُ هو الأولى؛ لأنَّه معهودُ القرآن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 101.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 8.

مِن ذِكر العامّ والتّفريعِ عليه؛ اعتمادًا على فطنةِ المخاطَبِ وفهْمِه لأساليب العربِ التي نزل بها القرآنُ، فيُرادُ بالنّاس الجميعُ؛ المشركون وعيدًا وتحذيرًا، والمؤمنون تنبيهًا وتحذيرًا.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

استوَى عندَ المُعرِضِ كلُّ أنواعِ الذِّكرِ وأصنافِه

دلَّ حرفُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم﴾ على تقوية العموم المُستفادِ منَ النّكرة في سياق النّفي، والمرادُ: أيُّ ذكرٍ، وقد آثَر الآلوسيُّ تسميتَها: بسيفِ خطيبٍ[1]؛ تحاشيًا عن تسميتِها بالزّائدة، إذِ الخطيبُ لا حاجةَ له بالسّيفِ، وإنّما يأتي به للتّوكيد على أقوالِه، فغرضُها هنا تأكيدُ الاستغراق المستفادِ من وقوع النّكرةِ في سياق النّفي.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ الذِّكرِ:

فنُّ الطِّباقِ بين لفظَي الذِّكرِ والغَفلةِ

لمّا أخبر ﷻ عن غفلةِ النّاسِ وإعراضِهم؛ بيّن سبحانَه موقفَهم منَ الوحي الذي هو تذكيرٌ لهم منَ الغفلة، وزجرٌ لقلوبهم منَ الإعراض، فظهر التّناسبُ في ذِكر لفظ (الذِّكر)، الذي هو إنقاذٌ منَ الغفلة، وتنبيهٌ على الإعراض، وهذا من باب الطّباق، طباقِ الإيجاب بينَ لفظَي الغفلة والذِّكر، وكذلك دلَّتِ المصدريّةُ على تأكيد الوصف، وقوَّته، فهو تذكيرٌ منَ اللّه تعالى.

غرضُ تنكير ﴿ذِكۡرٖ﴾:

نُكّرت لفظةُ ﴿ذِكۡرٖ﴾ لإفادةِ العموم، فالنّكرةُ في سياق النّفي تُفيد العمومَ، وأمعنَ في العموم دخولُ ﴿مِّن﴾؛ لإفادةِ معنَى التّعظيم والتّفخيم بدلالةِ السّياق.

دلالةُ قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾:

حرفُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾؛ لابتداء الغاية مجازًا،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 8.

إعراضهم عن ذكر ربِّهم من كمالِ شناعةِ فِعْلهم

متعلقةٌ بـ ﴿يَأۡتِيهِم﴾ أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ ﴿ذِكۡرٖ﴾، فالقرآنُ نازلٌ من عند الله تعالى، وفي هذا الابتداءِ دلالةٌ على فضلِه وشرفِه وكمالِ شناعةِ ما فعلوا به، والتّعرضُ لعنوان الرّبوبيّة لتشديد التّشنيعِ[1].

فائدةُ إضافةِ الذِّكرِ إلى الضّمير:

في إضافة الذِّكرِ لضمير النّاس: ﴿رَّبِّهِم﴾ ملاطفةٌ في العتابِ، فكيف يُعرِضون ويَغفلون عن ذِكر مَن خَلقَهم ورزقَهم، وتعهّدَهم بالحفظ والإرشاد، وهذا هو أسلوبُ القرآن في التّودُّد إلى الخَلْق وملاطفتِهم، مع سُوء صنيعِهم، وقبيحِ أفعالِهم؛ لعلَّهم يَرجعون إلى ربّهم، الذي يتعهّدُهم بالمواعظِ.

غرضُ الفصلِ بين الصِّفةِ والموصوفِ:

مراعاةُ الأوْلَى والتّنبيهُ على الأعلَى

قُدِّم الجارُّ والمَجرور ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ على صفة الذِّكر، وهي لفظُ ﴿مُّحۡدَثٍ﴾، فلم يُقَل: (ما يأتيهم من ذكر محدثٍ من ربّهم)؛ للاعتناء بالمُقدَّم تشريفًا وتعظيمًا للذِّكر، وبيانِ مصدرِه وأنَّه ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾؛ فهو مُقَدّمٌ على بيان صفتِه ﴿مُّحۡدَثٍ﴾؛ مراعاةً للأهَمّ في التّقديمِ.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ ﴿مُّحۡدَثٍ﴾:

آياتُ القرآن جديدةٌ في القلوبِ نضِرةٌ في العقولِ

اصطفَى النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾، وهو اسمُ مفعولٍ منَ الفعل الرّباعيّ (أحدث)؛ ومجيئُه على الاسمية يُفيد رسوخ معنى الحدوث وثباته، والحدوث بذاته متجدّد من قبيل معناه، فكلّ مُحْدَث متجدّدٌ، فكان التعبير بالاسمية أرسخَ في بيان التجدّد بالنّظر إلى المعنى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الذِّكرَ سيبقى جديدًا نَضِرًا، لا يَخْلَقُ على مدى السِّنين والأيّام، والغرضُ منَ الصّفتين بيانُ كونه حُجةً ظاهرةً، وآيةً باهرةً، فهو من عند ربِّهم، وأسلوبُه بلغَ الغايةَ في الرَّوعة والتّفنّنِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 54.

غرضُ تنكيرِ ﴿مُّحۡدَثٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ للتّفخيم والتّعظيم، فقد جمع كتابُ اللّه بينَ الجلال والرّوعة في الأسلوب، وجمالِ العبارات، ومع كونه آياتٍ تتجّددُ، ومعانيَ تتدفّقُ، إلّا أنّ أهلَ الكفر أعرضوا عنه!.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾:

التَّعبيرُ بلفظِ ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ الدّالِّ على نُزُوله مُتكرِّرًا، "كِنايةٌ عن عدم انتفاعِهِم بِالذِّكرِ كُلّما جاءهُم، بِحيثُ لا يزالُون بِحاجةٍ إلى إعادةِ التّذكيرِ وإحداثِه مع قطعِ معذرتِهِم؛ لأنّهُم لو كانوا سمعوا ذِكرًا واحِدًا فلم يَعبؤوا بِهِ، لانتحلوا لِأنفُسِهِم عُذرًا كانوا ساعتئِذٍ في غفلةٍ، فلمّا تكرّرَ حدثانُ إتيانِه تبيّن لِكُلِّ مُنصِفٍ أنهُم مُعرِضُون عنهُ صدًّا"[1]، فهم يستهزئون به، ويستسخرون منه؛ لتناهي غفلتِهم وفرطِ إعراضِهم عنِ النّظر في الأمور والتّفكّرِ في العواقب[2]، ففيه إقامة الحُجَّة على الخلق، بتجدُّدِ الإنذار، وتَكرارِ التَّنبيه، ورحمةُ الخالقِ بالخَلْقِ أجمعين.

نوعُ ﴿إِلَّا﴾ ومعناها:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ استثناءٌ مُفرّغٌ يفيدُ الحصرَ، فهذه حالُهم عند سماع القرآن، "والمعنَى: ما يأتيهم ذِكْرٌ من ربّهم مُحْدَثٍ في حال منَ الأحوال، إلّا حالَ استماعِهم إيّاهُ مُستهزئين به، حالَ كونِ قلوبِهم غافلةً عن معناه؛ لفَرْط إعراضهم عنِ النَّظر في الأمور، وعنِ التّفكّر في العواقب"[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بالماضي ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ جملةٌ من فعل وفاعل ومفعول، وهي في محلِّ نصبٍ حالٌ من مفعول ﴿يَأۡتِيهِم﴾، أو من فاعله[4]، وجاء التَّعبيرُ

القرآنُ حُجّةُ اللهِ القائمةُ الدّائمةُ على العباد

القرآنُ حالةٌ مانعةٌ منَ الانتفاعِ

الاستماعُ سلوكٌ فكريٌّ ومنهجٌ تراكميٌّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 11.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 45.

(3) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 44.

(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 537.

بصيغة الماضي؛ لبيان أنَّ استماعَهم على هذه الهيئة والحال، هو ديدَنُهم الذي لا يُغادرونَه، ولا يجاورون خلافَه، فاستماعُهم حالٌ ثابتةٌ، لا تبديلَ لها ولا تغييرَ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاستماعِ لا السَّماعِ:

لا يمكن للمعاند إلا أن يتقصّد السّماع

دلَّ فعلُ ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ على حرصِ المعاندين على التقصّد عند استماع القرآن؛ لِما بهرهم جلال القرآن من روعة أسلوب، أو لِما لديهم من تهيّؤ في طلب القرآن لمعاندته، لكنّهم لم يتأثّروا بمعانيه، ولم تتفتّح قلوبُهم لمقاصدِه، فلم يتغيَّر حالُهم، رغمَ قوارعِ نُذرِه، وطوارقِ وعيدِه، وبوارقِ زواجرِه، ولوامعِ حُجَجِه، ومحاسنِ أسلوبِه، وبديعِ نظمِه، "ولم يقل: سمعوه؛ لأنَّ (استمع) أخصُّ؛ إذِ الاستماعُ يقتضي القصدَ إلى السَّماع، فإذا أعرضوا عنه بعد قصدِهمُ استماعَه، فأحرى أن يُعرِضوا عنه إذا سمعوه من غير قصدٍ إلى استماعه"[1]، والاستِماعُ: طلبُ السّمع، وقد كانُوا يطلبُون سماعَ القُرآنِ للرّدِّ والتّكذيب بِهِ، لا للتّفهُّم والإيمان بِهِ[2].

نوعُ الواوِ ودلالتُها في ﴿وَهُمۡ﴾:

استماعُ أهلِ الكفر للقرآن استماعُ لَعِبٍ واستخفافٍ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ واوُ الحال، والجملةُ بعدَها حاليَّةٌ، والمعنَى: استمعوه لاعبين[3]؛ للدّلالةِ على استخفافِهم بكلام الله مع ما حملَه من وعيدٍ وتهديدٍ.

نُكتةُ تقديمِ المسنَدِ إليه على المسنَدِ الفعليِّ:

أشنعُ صُوَرِ الإساءة الإعراضُ عنِ الخضوع للمُحسنِ سبحانه

قُدِّم المسندُ إليه ﴿وَهُمۡ﴾ على المسندِ الفعليِّ ﴿يَلۡعَبُونَ﴾؛ لتوكيدِ نسبةِ المسنَدِ إلى المسنَد إليه، وتقويةِ حُكمه، وفيه إمعانٌ في الإنكار عليهم؛ لموقفِهم الذي يَدلُّ على استخفافهم بالمواعظ والزّواجرِ، كما

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 158.
(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 2/ 385.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 383.

تقولُ لشخص يُسيء بعد إحسانك إليه: ألم أُحْسِن إليكَ ثمّ أنتَ تفعل كذا وكذا؟! ففيه بيانٌ لحالِهم الشَّنيعةِ بعدَ حالِ اللّه تعالى معهم في الإحسانِ والعناية.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَلۡعَبُونَ﴾:

الـغـارقُ في الـشَّـهـواتِ تـستَعِرُ نـيرانُ إعـراضِـه عـنـدَ استماعِ المُنجياتِ

دلَّ الفعلُ المضارعُ ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ على الاستمرار، فهم لا يَكفُّون عنِ اللّعب، ولا يتوقّفون عنِ الاستخفاف بكلام اللّه، ومقابلةِ ما ذَكَره من أهوالٍ عظام، وخُطوبٍ جِسام، وما نطقَ به منَ الجِدِّ، بالهزل واللّعب، دونَ اكتراثٍ بعظائم النُّذُر، وجليلِ الخطوب، "فما يَزيدهمُ استماعُ الآي والسُّور وما فيها من فنون المواعظِ والبصائر، التي هي أحقُّ الحَقِّ، وأجَدُّ الجِدّ، إلّا لَعِبًا وتلهّيًا واستسخارًا"[(1)].

دلالةُ الجملةِ الاسميّة:

دلَّتِ الاسميَّةُ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ على التّوكيدِ والثّباتِ؛ فهذا شأنُهم دائمًا، عاكفون على اللّعب، لا يَكُفّون عنه.

بلاغةُ توالي الأحوالِ:

الـلّـهـو أشـنـعُ أحوالِ اللَّعبِ

في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ حالان مترادفان، أي: حالٌ بعدَ حال، كما نقول: جاء محمّدٌ راكبًا مسرورًا، أو متداخلان؛ فالأولى حالٌ من واو الجماعة في ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾، أي: حالةَ كونِهم يلعبون، والثّانيةُ حالٌ منَ الحال، أي: يلعبون حالةَ كونِهم لاهيةً قلوبُهم.

نُكْتَةُ تقديمِ اللَّعبِ على اللّهو:

لـهـوُ الـقـلـوبِ سـبـبُ لـعـبِ الأبدانِ

قدَّم النَّظمُ الكريمُ حالَ كونِ المُستمعين لاعبين، على كونِ اللّاعبين لاهين، ولم يعكس، على نظيرِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمّد: 36]؛ تنبيهًا على أنّ اشتغالَهُم باللّعِبِ، الّذي معناهُ السُّخريةُ والاستِهزاءُ، مُعلّلٌ باللّهو، الّذي معناهُ الذُّهولُ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 174.

والغفلةُ، فإنّهُم أقدمُوا على اللّعِبِ لِلَهوِهِم وذُهولِهِم عنِ الحَقِّ"[1]، فهو مِن ذِكْر السَّبب بعد بيان النَّتيجة؛ جوابًا عن سببِ لَعِبِهم بعدَ استماع الذِّكر، وللإيماءِ إلى أنَّ اللَّعِبَ مختصٌّ بالأبدانِ، لا سيَّما بعد إضافة اللّهو للقلوب، واللّعبُ انشغالٌ بالباطل، واللّهو انشغالٌ عنِ الحقِّ، وقد جمعوا بينَ الأمرين.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغَفْلةُ والسَّهوُ والغُرورُ:

الغُرورُ سببُ الغفلةِ، والغفلةُ سلوكٌ يقودُ إلى الإعراض، والسَّهوُ طارئٌ يزولُ

الغَفْلة مرضٌ عُضالٌ، وهي مذمومةٌ في أغلب أحوالِها، أمّا السَّهوُ فهو أمرٌ لحظيٌّ يعتري الإنسانَ ويزولُ غالبًا، والغُرور مرضٌ قلبيٌّ، حيثُ الرّكونُ إلى شيءِ والاغترارُ به، كمن يَغْتَرُّ بالمال أو بالقُوّة أو بالجاه أو بالعِلْم أو بالأمانيّ.

ولم يَرِدْ في القرآن لفظُ السّهو، وإنّما ورد لفظُ الغفلة، والسَّهوُ ضربٌ منَ الذّهول والغَفلةِ والنّسيانِ، كالسّهو في الصّلاة وغيرِها، والغُرورُ سببٌ من أسباب الغفلة والإعراضِ، وهو الاغترارُ بالدّنيا والاشتغالُ بمباهجها، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: 33]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20].

الإعراضُ والصّدُّ والتّولّي:

الإعراضُ عزوفُ الذّاتِ، والصُّدودُ منعُ الآخرين، والتّولّي عمومُ الانصرافِ

الإعراضُ: تركُ الحقّ والنَّأيُ عنه، أمّا الصَّدُّ: فهو صرفُ النّاس عنه، وتضليلُهم مختارين كانوا أو مُجبرين، والتَّولّي: الانصرافُ عن الشّيء إعراضًا عنه، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾ [النّساء: 167]، وقال: ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ [اللّيل: 16].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 120.

اللّهو واللّعبُ:

الإقــبــالُ على الباطل لعبٌ، والإعــراضُ عنِ الحَقّ لهوٌ

العلاقة بينَ اللّهو واللّعب عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ، فكلُّ لَعِبٍ لهوٌ، وليس كلُّ لَهْو لعبًا، "وفرَّقوا بينهما: بأنّ اللّعبَ ما قُصِدَ به تعجيلُ المَسرَّةِ والاستروِاحُ بها، واللّهو كلُّ ما شَغَل من هوًى وطَرَبٍ، وإن لم يُقْصَد به ذلك، كما نُقِل عن أهل اللّغة[1]، فالإقبالُ على الباطِلِ لعِبٌ، والإعراضُ عنِ الحَقِّ لَهْوٌ، فالدُّنيا لعِبٌ؛ أي: إقبالٌ على الباطِلِ، ولهوٌ؛ أي: إعراضٌ عنِ الحَقِّ"[2].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/ 48.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/ 75.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٣﴾ [الأنبياء: 3]

الانتقالُ من بيانِ الأحوالِ إلى ذكرِ أسبابِها، وموقفُ الكفّارِ منَ القرآن

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكرَ سبحانه وتعالى في خاتمة الآيةِ السّابقةِ حالَ النّاس في اللَّعب عند استماع الذِّكرِ؛ ناسبَ أن يذكرَ تعالى هنا سببَ ما هم عليه من غفلةٍ واشتغالٍ، وهو تشاغلُ قلوبِهم عنِ الآخرة بالمُلْهيات، فضلًا عن صدودِهم عنِ الحقِّ وصدِّ النّاس عنه، وإثارةِ غبارِ الشُّبَه والأباطيل، والتّمادي في التّآمرِ والتّحريض، رغمَ هذا الخطرِ الدّاهمِ والخطْبِ الجللِ الذي يقتربُ منهم يومًا بعدَ يوم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَاهِيَةً﴾: اسمُ فاعل منَ اللّهو، وهو اشتغالٌ بالباطل عنِ الحَقّ، واللّهو ما يَشغلُ الإنسانَ عمّا يُعنيه ويُهِمُّه، يقال: لهوتُ بكذا، ولهيتُ بكذا، اشتغلت عنه، يلهو وألهاه عن كذا: شغله عمّا هو أهمُّ[1].

2) ﴿قُلُوبُهُمۡۗ﴾: القلبُ: هو ذلك العضوُ المعروفُ بالجسد، وهو من أهمّ أعضاء الجسم وأشَدِّها خطرًا، وقلبُ الإنسان سُمّي به لكثرة تقلُّبه، ويُعبَّرُ بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به منَ الرُّوح والعِلْم والشّجاعة وغيرِ ذلك[2]، ويُطلقُ على القوَّة الباطنة: العقل، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37][3].

3) ﴿وَأَسَرُّواْ﴾: منَ الإسرار، وهو الإفضاءُ بالسِّرّ إلى شخصٍ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لها).
(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).

قريبٍ، وعكسُه الجهرُ، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ [الملك: 13]، قال الخليل: "السِّرُّ: ما أسْرَرت، والسَّريرةُ: عملُ السِّرّ من خير أو شَرٍّ، ويقال: سريرتُه خيرٌ من علانيتِه، وأسررتُ الشّيءَ: أظهرتُه، وأسررتُه: كتمتُه"(1).

4) ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾: أصلُ النّجاء: الانفصالُ منَ الشَّيء، ومنه: نجا فلانٌ من فلان، وأنجيتُهُ ونَجَّيتُهُ، والنّجوةُ والنّجاةُ: المكانُ المُرتفِع، المنفصلُ بارتفاعه عمّا حوله، وناجيتُهُ، أي: ساررتُه، وأصلُه أن تخلوَ به في نَجْوة منَ الأرض، وقيل: أصلُه منَ النّجاة، وهو أن تُعاونَه على ما فيه خلاصُه، أو أن تنجُوَ بسرِّك من أن يُطّلَعَ عليكَ، وتناجى القومُ: ناجى بعضُهم بعضًا، "والنّجيُّ: المُناجي، ويُقال للواحد والجمع، قال تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ٥٢﴾ [مريم:52]"(2).

5) ﴿بَشَرٌ﴾: البَشَرُ: مشتقٌّ منَ البَشَرة، وهم ذُرّيّةُ آدمَ عليه السلام، وسُمّي كذلك لظهور جِلده - أي خلوّه - منِ الشّعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصّوفُ أوِ الشّعر أوِ الوَبر، أو لحُسْنِ الهيئة، فهو مشتقٌّ منَ البِشارة، وهي حسنُ الهيئة، يُقال: رجل بشير، وامرأة بشيرة: إذا كان حَسَنَ الهيئة، فسُمّي النّاسُ بشرًا لأنَّهم أحسنُ الحيوان هيئةً، ويجوزُ أن يُقال: إنَّ قولَنا (بشر) يقتضي الظّهورَ، وسُمّوا بشرًا لظهور شأنِهم، ومنه قيل لظاهر الجلد بَشرةٌ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الرّوم: 20](3).

6) ﴿ٱلسِّحْرَ﴾: أصلُ السِّحرِ: صرفُ الشّيء عن حقيقتِه إلى غيره، والسِّحرُ: تمويهٌ للشَّيء؛ لتخيُّله بخلاف حقيقتِه، مع إرادة تجوُّزه على من يقصدُه به، وسواء كان ذلك في سُرعة أو بُطء، وهو ضربان؛ أحدُهما: ما قام على الخِداع والتّمويهِ، والآخَرُ: ما كان بمعونة إبليسَ وجنوده(4)، وهو في عُرفِ الشّرع مختَصٌّ بكلّ أمرٍ يخفَى سببُه، ويُتخيَّلُ على غير حقيقته، ويجري مجرى التّمويه والخِداع(5).

(1) الخليل، العين: 7/ 186.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نجو)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 21.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 101.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 272.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/ 619.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

موقفُ المشركين مِنَ القرآن نابعٌ مِنِ اشتغالِ قلوبِهم عنِ الآخرةِ

تُبيِّن الآيةُ حالَ قلوبِ أولئك، في كونها في مَلهاةٍ عنِ الحقِّ، وانشغالٍ بالباطل، وهم مع ذلك يَصدُّون عنِ الحقِّ، ويوصي بعضُهم بعضًا بذلك، ويتآمرون في خلواتِهم، ويتهامسون في نجواهم، يُنكرُ كبراؤهم وعُتاتُهم: كيف ينسلُّ بعضُهم فُرادى متخفّين في جُنحِ اللّيل ليسمعوا القرآنَ، الذي يرمونه بالسّحر؛ لعجزِهم عن معارضتِه، وانبهارِهم ببلاغتِه، مع نفورهم ممّا صدعَ به منَ الحقّ، وإبائِهم لما جاء به منَ الخير، ومعنى ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تناجَوا سِرًّا، وأعربوا في تناجيهم عن إنكارهم لنبوّة محمّدٍ ﷺ لأنّه بشرٌ، فاعترضوا على كونه نبيًّا، وأنكرَ بعضُهم على بعضٍ، كيف يذهبون لسماعِ القرآنِ، الذي يرونه سحرًا، وهم أهلُ نظرٍ وعقلٍ؟! كما يظنّون! ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الحالِ بعدَ الحالِ:

حالُ الغافلِ ما بين لَعِبٍ ولَهوٍ

مطلعُ الآيةِ الثّالثةِ متّصلٌ بالتي قبلَها، فقولُه تعالى: ﴿لَاهِيَةٗ﴾ حالٌ بعد حال؛ مترادفةٍ أو حالٍ متداخلة، أي: إلّا استمعوه حالةَ كونِهم يلعبون، أو يلعبون حالةَ كونِهم لاهين، حيثُ إنَّ الحال هنا اشتملت على أفعال القلوب لدى الغافلين، والتي قبلَها على أفعال الجوارح، فتكاملتِ الحالان في بيان أحوال الغافلين، وأنَّها لا تخرج عن لهوٍ ولعبٍ، وهذا في غاية التَّشنيع عليهم، وبالغِ التَّوقير لمخالفيهم منَ المؤمنين.

نُكْتَةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعل ﴿لَاهِيَةٗ﴾:

إذا ثبتَ السَّببُ تجدَّدت نتائجُه

آثَر النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسم الفاعل ﴿لَاهِيَةٗ﴾، ولم يقل: (يلهون) كما قال: ﴿يَلۡعَبُونَ﴾؛ لِما بينَ السَّبب ونتيجتِه مِن اختلافٍ، فالسَّببُ ثابتٌ وهو اللّهو، ونتيجتُه - وهي اللَّعبُ - متجدِّدةٌ، كأنَّه قيل: سيَبْقون لاعبين ما دامت قلوبُهم لاهيةً.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ:

القلبُ محلُّ اللّهو ومنبعُ اللّعب

أُسندَ اللّهو إلى القلوب في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾؛ لأنّها محلُّ اللّهو ومنبعُه، فإذا فسد القلبُ فسد الجسدُ، وهذا مجازٌ مرسلٌ، من إطلاق السَّبب وإرادةِ المسبَّب، أو إطلاقِ الجُزء وإرادةِ الكلّ، فإذا غفل القلبُ تبعَهُ الجسدُ كلُّه، و"اللّاهيةُ من قول العرب: لهي عنه إذا ذَهِل وغَفَل، أي: وإن فطنوا لا يُجدي ذلك؛ لاستيلاء الغفلة والذّهول، وعدم التّبصُّر بقلوبِهم"[1]، كما أنَّ "إسنادَ اللّهو إلى القلوب دليلٌ على أنَّ اللّهو عملٌ من أعمال النّفس"[2].

نُكْتَةُ تقديمِ اللَّعبِ على اللّهو:

تقديمُ ما تراه العيونُ على ما تجهلُه العقولُ

قُدِّم ذكرُ اللَّعبِ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، على اللّهو في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾، "كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمد: 36]؛ تنبيهًا على أنّ اشتغالَهُم باللّعِبِ الّذي معناهُ السُّخريةُ والاستِهزاءُ، مُعلّلٌ باللّهو الّذي معناهُ الذُّهولُ والغفلةُ، فإنّهُم أقدمُوا على اللّعِبِ لِلهوِهِم وذُهولِهِم عنِ الحقِّ"[3]، فهو من تقديم الظّاهر على الباطن، وشأنُ الإنسان أن يرى الظّاهر وهو اللَّعبُ، وهو ما يستدعي فضولًا في معرفة سببِ ذلك؛ فيكون قولُه تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾ من باب بيان السَّببِ.

بلاغةُ الاحتراسِ في تعيينِ نوعِ السَّماع:

استماعُ القلبِ اللّاهي كرؤيةِ الأعمَى السّاهي

جاء قولُه تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ﴾ حالًا مِنَ الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾؛ لدفعِ ما قد يُتَوَهَّم أنَّهم استمعوه وأصغَوا إليه، فبيّنتِ الآيةُ أنَّ قلوبَهم - وهي محلُّ التّأثّر ومنبعُ الخشوع - في حالة لَهْوٍ لا تفيقُ منه، فلا فائدةَ من سماعِهم، فهي احتراسٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 407.

(2) عبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/ 197.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 120.

دافعٌ عن توهّم وقوعِ السَّماع النّافعِ، فهمُ استمعُوهُ استماعًا لا وعيَ معهُ[1].

نوعُ الواو ودلالتُها:

إسرارُ النَّجوَى معنًى قائمٌ بنفسِه يستحقُّ الذَّمَّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ استئنافيّةٌ، والجملةُ بعدَها لا محلَّ لها، وجوَّز ابنُ عاشور العطفَ على جملةِ ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ إلى آخرها؛ لأنَّ كلتا الجُملتَين مسوقةٌ لذِكْر أحوالِ تَلقّي المشركين لدعوةِ النّبيّ ﷺ بالتّكذيب والبهتانِ، والتّآمُرِ على رفضها، فالذين ظلموا همُ المرادُ بالنّاس[2]، وعليه: فمعنى العطفِ والاستئنافِ متقاربان في بيانِ الغاية.

بلاغةُ الكنايةِ في اختيار فعلِ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

إسرارُ المشركين موقفَهم من الرَّسولِ ﷺ حسدٌ ومكرٌ

اختار النَّظمُ الكريمُ مفردةَ الإسرار في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾؛ لبيانِ حالِهم في حسدِ النَّبيِّ ﷺ، فما قالوه سِرًّا في هذه الآية، قالوه جهرًا، فالمرادُ من ذِكْر الإسرار بيانُ حالِهم وشأنِهم مع رسول اللّه ﷺ، فهو كنايةٌ عنِ الحسدِ وشديدِ البُغض، وما يُثيرونه في مجالسِهم خاصَّةً، وقد ذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ من حروف الأضداد، أي: أظهروا[3]؛ والذي دعاهم إلى ذلك أنَّ المشركين أظهروا هذا القول، فلماذا يُخبِرُ عن إسرارهم للنّجوى؟

والجواب: أنَّه لا مانع من أن يكونوا قالوه سِرًّا وجهرًا، ولمّا ذُكِر ذلك سِرًّا قاله باعتبارِ الكنايةِ عنِ الحسدِ، والذي يُرشّحُ أنَّ الإسرار على ظاهره قولُه تعالى: ﴿ٱلنَّجۡوَى﴾.

نُكْتَةُ ذكرِ الفاعلِ مُضمَرًا:

لمّا أسرَّ الظّالمون قيلَهم، أسرَّ النَّظمُ عنوانَهم إضمارًا

جاء الفاعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ مُضمَرًا وهو الواو، ولم يقل:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 12.
(3) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 2/ 34.

(وأسرَّ النَّجوى الذين ظلموا) ونحوَه؛ وذلك لبيانِ أنَّ المقصودَ بذلك طائفةٌ معهودة، وهمُ الذين ذَكَرتْهم الآياتُ؛ المتَّصفون بالغفلة والقلوب اللّاهية، وهذا المعنى يُقوّي على جَعْل الواوِ عاطفةً على فعل ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾، فيكونُ المقصودُ بالنّاس المقصودين هنا، وهم المشركون، ونُكْتةُ الإضمار التَّلويحُ بهم دونَ التَّصريح، فكما أنَّهم أسروا النَّجوى؛ فكذلك أسَرَّتِ الآيةُ التَّصريحَ بهم في فعل الإسرار، وفضحِهم فيما بعدُ، بَنَعْتِ الظّلم الصَّريح.

بلاغةُ الاتِّساق في اختيارِ مُفردةِ ﴿ٱلنَّجۡوَى﴾:

أعظمُ الإخفاءِ ما كان بالفعلِ والاسمِ

جاء استعمالُ مفردةِ ﴿ٱلنَّجۡوَى﴾ في النَّظم لِما فيها من اتِّساقٍ دلاليٍّ مع فعل ﴿وَأَسَرُّواْ﴾؛ حيثُ دلَّت هذه المُفردةُ على إسرارِ الحديث، فإنَّ التَّناجي بينهم كان شديدًا؛ إذِ الإسرارُ دالٌّ على إخفاءِ الحديث، وكذلك النَّجوى، وفي هذا الاختيارِ ما يُنبئُ عن إخبارِ القرآن بالغيبِ عمّا وقع منهم، ولمّا قالوه كما سيأتي، وهو كذلك يُنبئُ عن حرصِهم على قولِ ما قالوا ابتداءً سِرًّا، واللّه فضحَهم؛ ليُعْلِمَ النّاسَ أنَّ امتناعَهم عنِ الإيمانِ حسدٌ وبغضاءُ.

توجيهُ إعرابِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

ما صحَّ في صَنعةِ النَّحو لا تُشترط صحّتُه في توجيه البيانِ

يجوزُ في الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ثلاثةُ أوجه: الرّفعُ والنّصبُ والجرُّ؛ فالرّفعُ إمّا أن يكون بدلًا من واو ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ تنبيهًا على اتِّسامهم بالظّلم الفاحش، وإمّا أن يكون فاعلًا، والواوُ في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ علامةُ جمع، وإمّا أن يكون مبتدأً و﴿وَأَسَرُّواْ﴾ جملةً خبريّةً قُدِّمَتْ على المبتدأ، والنّصبُ مِنْ وجهين؛ أحدُهما: الذّمُّ، والثّاني: إضمار أعني، والجرُّ من وجهين؛ أحدُهما: النّعتُ، والثّاني: البدلُ من ﴿لِلنَّاسِ﴾[1]، وغالبُ هذه الأوجه صحيحٌ في صَنعة النَّحو، ضعيفٌ في التَّوجيه البلاغيِّ، وأوجهُها بلاغيًّا هو أن تكون بدلًا من الواوِ، على ما تقدَّم في نُكْتَةِ إضمار فاعل فعل ﴿وَأَسَرُّواْ﴾.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 133.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ليعودَ الضَّميرُ في صلةِ الموصول ﴿ظَلَمُواْ﴾ على مخصوصٍ مقصودٍ مفهومٍ منَ السّياقِ وهم المشركون، وإلّا لفُهم أنَّ المرادَ بالظّالمين طائفةٌ أخرى غيرُ المتقدِّم ذكرُهم، فأظهر الاسمَ الموصولَ بعدما أضمر؛ تسجيلًا لفعلِهم ووصفِه بالظُّلم.

الغافلون اللّاهون هم المشركون الظّالمون

توجيهُ تخصيصِ صفةِ الظُّلمِ بالذِّكر:

خَصَّ النَّظمُ الكريمُ صفةَ الظُّلم بالاختيار دونَ الشِّركِ، أوِ الكفر، أوِ الحسد، أوِ التَّكذيب، أوِ الافتراء، وكلُّها صفاتٌ صادقةٌ على القوم، فقال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأنَّ الغافلَ المُعرِضَ لاهيَ القلب، يلتزمُ غفلتَه في حالِه كلِّها؛ لكن لـمّا أحسنَ أولئكَ التَّناجيَ والإسرارَ في الخفاء، ففطِنوا للخديعة والمكرِ بعدَ أن غَفَلوا؛ كان أنسبَ ما يُسجّل عليهم هو وصفُهم بالظُّلم، إذ هو وضعٌ للفطنةِ في غيرِ موضعها، ووضعٌ للغَفلةِ في غير موضعها.

وضعُ الفطنةِ في موضع الغفلةِ والعكسُ ظلمٌ قبيحٌ

موقعُ جملتَي الاستفهامِ منَ الإعرابِ والبيانِ:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه محمولٌ على أنَّه بدلٌ منَ النَّجوى، أي: أسرُّوا ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، أو مفعولٌ لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: قالوا: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، أو محكيٌّ بالنّجوى؛ لأنَّها في معنى القولِ[1]، وعلى التَّقديرات الثّلاثة فإنَّ الجملةَ منصوبةٌ، وعليها فالجملةُ في حُكم المفعول أوِ البدل فلا وصلَ، وقولُه تعالى: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ له حُكْمُه، وموقعُ هاتَين الجملتَين منَ البيانِ، هو إظهارُ ما يجولُ في مجالسِ المشركين، وما يدورُ في ألسنتهم؛ فإنَّه ناطقٌ بفكرِهم، ومفصحٌ عن مضامين لُؤمِهم، ومكامنِ

شأنُ القرآنِ بيانُ المُجْمَلِ وإيضاحُ المكنونِ لأصحابِ العقل المكنونِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 409، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 134.

حسدِهم؛ فكأنَّه قيل: أتدرون ما النَّجوى التي بينهم؟ هي أسئلة كثيرة، هذا بعضُها.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

السُّؤالُ عن الواضحاتِ طريقُ إنكارِ الحقائقِ عند المُبطلين

غرضُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ التَّعجُّبُ؛ قصد به المشركون النَّيلَ من مقام النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ استفهامَهم عنِ البشريَّة ليس المقصودُ به حقيقةَ ذلك، بلِ المرادُ به الوصولُ إلى نفيِ النُّبوّة عنه ﷺ، ولهذا ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الاستفهامَ مرادٌ به النَّفيُ[1]، والنَّفيُ من مآلات غرضِ الاستفهام التَّعجّبيِّ هنا، فإنَّ تعجُّبَهم يُرادُ منه شِدَّةُ النَّفي لأن يَبعثَ اللّهُ بشرًا رسولًا، على ما قرّره أولئك الحمقَى ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]، ويصحُّ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا، باعتباره يقتضي أنَّهم خاطبوا من قاربَ أن يُصدِّق بنبوّة محمَّدٍ ﷺ، أي: فكيف تؤمنون بنبوّتِه وهو أحدٌ منكم[2].

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ:

الحسدُ كامِنٌ في النُّفوسِ لا يظهَرُ إلّا في ثنايا النَّظْمِ وإشاراتِ الكلامِ

في التّعبير باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، دونَ ذِكْرِ الاسم العَلَم أو صفةٍ من صفاته ﷺ، يُظهِرُ ازدراءَهم بالنّبيِّ الكريم ﷺ، وتقليلَهم من شأنه، وهو ما يعكسُ حسدَهم وحِقدَهم، وهذا أسلوبٌ حاضرٌ في كلام النّاس إلى اليوم؛ فإنّ من شأنِهم أن يذكروا الغائبَ إذا كان آخذًا من تفكيرِهم واهتمامِهم باسم الإشارة للقريب لقلّةِ الاعتدادِ به.

بلاغةُ القَصْرِ ونوعُه وغرضُه:

قَصْرُ المُشارِ إليه على البشريَّةِ مُرادٌ به نفيُ النُّبوّة

أفادت أداةُ ﴿هَلۡ﴾ مع أداة الاستثناءِ القصرَ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ لكونِه باعتبارٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 408، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 10.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 13.

معيّنٍ، والغرضُ منه تعيينُ بشريَّةِ المُشار إليه دونَ أيّ صفةٍ أُخرى، والمقصودُ صفةُ الرِّسالة، كأنَّهم قالوا: ما هذا ملكًا، فهو نفيٌ وإثباتٌ؛ نفيٌ للمَلَكيّة، وإثباتٌ للبشريَّة، والمقصودُ نفيُ الرِّسالة، فهو تأكيدٌ لِما يجولُ في نفوسِهم.

نوعُ الاستثناءِ ومعناه في قوله: ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾:

الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ مُفرّغ؛ فهو استثناءٌ خالٍ من وجودِ المستثنى منه، ومعنى الكلام: (هذا بشرٌ مثلُكم).

سِرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿بَشَرٌ﴾ دون مرادفاتِها، وتنكيرِها:

البشريَّةُ تُقابلُ الملائكيَّةَ، وبإثباتِها توكيدٌ لمقصدِهم في نفيِ النُّبوَّة

اختيرَ لفظُ ﴿بَشَرٌ﴾ في الآية الكريمةِ دونَ مرادفاته، من مثل: إنسانٍ أو رجلٍ؛ وذلك باعتبارِ أنَّ البشريَّة هي التي تُقابلُ الملكيَّةَ، واللهُ ﷻ أخبر عن ذلك حين قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 28]، فيكونُ هذا الاختيارُ من باب توكيد نفْيِ أن يكون رسولًا؛ لأنَّ النُّبوّة - على زعمِهم - من وظائف الملائكة، ونُكِّر لفظُ ﴿بَشَرٌ﴾ لتقليل شأنِ المُشار إليه؛ بقصْدِ التّحقير أن يتّصفَ بالنُّبوّة، أي: ما هو إلّا بشرٌ لا يزيدُ عن ذلك بمَزيَّةٍ؛ فكيف ينزلُ عليه الوحيُ منَ السَّماء؟!

غرضُ التّشبيه وأثرُه البيانيُّ:

التَّفكيرُ العقيمُ والعقلُ الكنودُ من يُسوّي بين الكريمِ واللّئيم، والحميدِ والذَّميمِ

جاء التَّمثيلُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ بغرض المساواةِ وإثباتِ المعادلة، أي: هو بشرٌ مثلُنا سواءٌ بسواء، لا فرقَ ولا اختلافَ، فإذا نزل عليه الوحيُ؛ فيجبُ أن ينزلَ علينا مثلُه، وإذا لم ينزل علينا فكيف له أن ينزلَ عليه؟! فهم أثبتوا المِثليَّةَ في الصّفاتِ البشريَّةِ؛ للوصولِ إلى نفيِ الصِّفات المستحقَّةِ لأنْ يكون رسولَ آخرِ الزَّمان.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

يرجعُ ضميرُ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ إلى القوم

المُتناجين من كفّارِ قريش، وهو يَعمُّ كلَّ مَن صدر عنه هذا القولُ فيما بعدُ.

بلاغةُ الاستفهام ونوعُه وغَرضُه:

إنكارُ المكذِّبين وتوبيخُهم يلحقُ كلَّ مَن يُهدِّد الباطلَ وأهلَه

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ يحملُ معنَى التّعجّب والإنكارِ والتّوبيخ، وقد أنكروا على بعضهم بعضًا كيف يَتسَلّلُونَ خُفيةً ليسمعوا القرآنَ من محمّد ﷺ؛ فتبهرَهم بلاغتُه، وتستهويَهم فصاحتُه، فيُعاوِدوا المَجيءَ لسماعه وكأنّهم قبلوه! وهم يُدركون أنَّ إتيانَ مجالسِ تلاوة القرآنِ ستجعلُهم يتأثّرون، وبالتّالي سيقودُ ذلك إلى الإعجابِ، ومن ثَمّ إلى الإيمان والامتثالِ، وهو ما يخشاه أهلُ الباطلِ على باطلِهم.

معنَى الفاء ودلالتُها على المحذوف:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ﴾ عاطفةٌ على مُقدّرٍ يقتضيه المقامُ[1]، يمكن تقديرُه بـ(أتتركون دينَ آبائكم فتأتون السّحرَ وأنتم تبصرون)؟!

بلاغةُ المجازِ في استعمالِ مُفردةِ (الإتيان):

تحريضُ الكفّارِ على هجرِ سماعِ القرآن

أُطلِق (الإتيانُ) في قولِه تعالى: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ على "القَبولِ والمُتابعةِ على طريقِ المجازِ أوِ الاستِعارة؛ لِأنّ الإتيان لِشيءٍ يقتضي الرّغبةَ فيه، ويجوزُ أن يُراد بِالإتيانِ هُنا حُضورُ النّبيِّ ﷺ لِسماعِ دعوتِه، فجعلُوهُ إتيانًا؛ لِأنّ غالِب حُضورِ المجالِسِ أن يكُون بِإتيانٍ إليها، وجعلوا كلامَهُ سِحرًا فنهَوا مَن ناجَوهُم عنِ الاستِماعِ إليه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصّلت: 26]"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 54.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 224، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 14.

شبه الكفّار القرآن بالسِّحر لقوّة تأثيره

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ:

ادّعى الكفّار أنّ القرآن سِحرٌ في قوله تعالى: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ﴾؛ لقوّة تأثيرِه على النُّفوس، ووقعِه على القلوب، مع العجز عن معارضتِه، فشبّهوه به، ثمّ حُذِف المُشَبَّهُ - وهو القرآن - وأقيمَ المُشَبَّهُ به - وهو السحر - مقامَه على سبيل الاستعارة التّصريحيّة الأصليَّة، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقة؛ لأنَّها كشفٌ لِما يجولُ في نفوسِهم مِن اعتقادِ قُوَّةِ التَّأثير في السّامعين، وسُرعة أثرِه فيهم.

دلالةُ التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾ إمّا أن تكون للجنس، أي: جنس السّحر، فعَبَّروا بالجِنس وأرادوا نوعًا من أنواعه، وهو القرآنُ بزعمِهم؛ مبالغةً في كونه عينَ السِّحر في نظرهم، وإمّا أن تكون للعهد الذّهنيِّ الذي يتبادَرُ بينهم؛ لتواطُئِهم عليه، وترويجِهم أنَّ القرآن سِحْرٌ، وهذان المعنيان متقاربان في الغاية، مختلفان في التَّفصيل.

مسلك المُكذِّبين قلبُ الحقائقِ وطَمسُ الأدلّةِ

فائدةُ جُملةِ الحالِ السّياقيَّة:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ بعدَها في محلّ نصبٍ حالٌ منَ الفاعل في ﴿أَفَتَأۡتُونَ﴾، وتظهر فائدةُ جملةِ الحال في كونها مقرِّرةً لمعنى الإنكار الواردِ في جُملتَي الاستفهام السّابقتَين، ومُعلّلةً للتّوبيخ الواردِ فيها، أي: (كيف تأتونه بأنفسِكم لسماعه، وأنتم تقولون أنَّه سحر؟!) وهذا زيادةٌ في الإنكار ومحاولةِ إقامة الحُجَّة على مَن يستمعُ القرآنَ، وهو دليلٌ كاشفٌ عن مسلكِهم التَّرهيبيِّ في قلبِ الحقائق، وإلزامِ أنفسِهم بما لا يقتنعون به؛ ذهابًا في الضَّلالةِ، وضياعًا في التّيه.

التَّعريضُ بأهل الحقِّ أنَّهم لا يُبصرون

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ، ونُكْتَةُ التّقديمِ فيها:

دلَّتِ الجملةُ الاسميّةُ المكوَّنةُ منَ المُسنَد إليه والمسنَدِ الفعليّ ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ على الثَّبات، أي: حالكم أنَّكم ثابتون في البصيرةِ،

ومعرفةِ أنَّه سِحْر، وقُدِّم المسنَدُ إليه ﴿وَأَنتُمۡ﴾ على المسنَدِ الفعليِّ في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾؛ لتوكيد المعنَى وتقويةِ الحُكم، وكذا التّخصيصِ على المبالغةِ؛ فكأنَّ الإبصارَ قاصرٌ عليهم، ليس لغيرهم منه نصيبٌ، أي: (وأنتم تبصرون لا غيركم)، وهذا شأنُ كثيرٍ من أهل الباطل، لا يتطرّقُ إليهم شَكٌّ أنّهم على الحَقّ، في مقابل نفْيِ العقل والإدراكِ عن أهل الحَقّ، ففي الاختصاصِ تعريضٌ بأهل الحَقِّ أنَّهم لا يُبصرون.

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ (الإبصار) دون (النَّظر):

النَّظرُ رؤيةُ المحسوساتِ، والإبصارُ دَركُها على حقيقتِها

اختار النَّظمُ الكريمُ مُفردةَ (الإبصار) دون (النّظر) في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ قد ينظرُ للشّيء دونَ أن يُبصرَه، دليلُ ذلك قولُه تعالى ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]، وقولُه: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، أي: "أتَقبلون سِحْرَه وتحضرون هناك، وأنتم ترونَ أنَّه رجلٌ مثلُكم، أو تعلمون أنَّه سِحْرٌ وأنتم من أهل البصر والعقل؟"[1]، فالنَّظرُ: هو وصولُ حاسَّةِ البصر، والإبصارُ: هو دَرْكُ المُبْصَرات على حقيقتِها، فهم يُنكرون عليهمُ الإتيانَ لسماع القرآن، مع تحقيق إبصارِ الحقيقةِ فيما يزعمون.

دلالةُ التّعبير بصيغةِ المضارع ﴿تُبۡصِرُونَ﴾، مع حذفِ متعلَّقِه:

الباطلُ المتزعزعُ يحتاجُ إلى تثبيتٍ مستمرٍّ

دلَّ الفعلُ المضارع ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ على تجدُّدِ الإبصار مرَّةً تلو أخرى؛ لتثبيتِ الباطل المتزعزع في النُّفوسِ، فهم يُدركون أنَّ باطلَهم لا يثبت أمامَ الحقِّ النّازلِ، فيسعَون إلى تثبيته بمزيد نظرٍ واعتبار، وحُذِفَ متعلّقُ فعلِ ﴿تُبۡصِرُونَ﴾؛ استحضارًا للمعاني المحذوفة من

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 6.

السّياق، أي: تبصرون أنَّ القرآن سحرٌ، ونحو ذلك من أوصاف، تنزَّهتِ الآية عن ذِكْرِها؛ لمعرفتِها وإيثارِ طيِّها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّجوَى والسِّرُّ:

السِّرُّ الكلامُ المكتومُ في النُّفوس، والنَّجوى الكلامُ الخفيُّ بينَ الأفراد

النّجوى اسمٌ للكلام الخفيّ، الذي تُناجي به صاحبَك، كأنّك ترفعُه عن غيره؛ وذلك أنّ أصلَ الكلمةِ الرّفعةُ، ومنه النّجوَةُ منَ الأرض، وسُمّي تكليمُ اللّه تعالى موسى عليه السلام مناجاةً؛ لأنّه كان كلامًا أخفاه عن غيره.

والسّرُّ: إخفاءُ الشّيء في النّفس، ولوِ اختفى بسِترٍ أو وراءَ جدارٍ لم يكن سِرًّا، ويُقال: في هذا الكلام سِرٌّ؛ تشبيهًا بما يُخْفَى في النّفس، ويقال: سِرّي عند فلان؛ تريد ما يُخفيه في نفسه من ذلك، ولا يُقال: نجواي عنده، وتقول لصاحبك: هذا أُلقيه إليكَ، تريد المعنَى الذي تُخفيه في نفسك.

والنّجوى تتناول جملةَ ما يُتناجَى به منَ الكلام، والسّرُّ يتناول معنَى ذلك، وقد يكون السّرُّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فعل هذا سِرًّا، وقد أسَرَّ الأمرَ، والنَّجوى لا تكونُ إلّا كلامًا[1]، وممّا يدلُّ على اختلاف النَّجوى عنِ السِّرِّ قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾ [التّوبة: 78].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 533.

﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤﴾

[الأنبياء: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذِكْر التَّناجي إلى ذِكْر سببِ معرفةِ ما وقعَ منهم

لمّا أبانتِ الآياتُ السّابقةُ عن موقف الغافلين اللّاهين من دعوةِ سيِّدِ المرسلين، وأنَّهم يتناجَون فيما بينَهم للكيد للإسلام، وهم بذلك يظنُّون أنَّهم لا يُسمَعون؛ ناسبَ أن يأتيَ بيانٌ ناصعٌ ليُجَلّيَ حقيقةَ ما يقومون به منَ التَّناجي، وأنَّ اللّه تعالى يعلم القولَ في السّماء والأرض، ألا يعلمُ قولًا واقعًا من شِرذمةٍ منَ المشركين؟! فالانتقالُ هو من بيانِ واقعهم في التَّناجي، إلى بيانِ سببِ معرفة ما وقع منهم، وتسجيلِه عليهم، وأنَّه منَ السَّميع العليم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾: (قول) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَقِلُّ كَلِمُهُ، وهو القَوْلُ مِنَ النُّطْقِ، يُقالُ: قالَ يَقولُ قَوْلًا، والمِقْوَلُ: اللِّسانُ، ورَجُلٌ قُوَلَةٌ وقَوّالٌ: كَثيرُ القَوْلِ[1]، وهو ما يُتَلَفَّظ به، سواءٌ أفاد معنًى أم لم يُفِد[2]، وقولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ يشملُ كلَّ قولٍ، وفيه ردٌّ على إسرارهم المناجاةَ؛ ظنًّا منهم أنَّ اللّه لا يسمعُهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عِلْمُ الله تعالى محيطٌ بالبواطنِ والظَّواهرِ

تُبيِّنُ الآيةُ ما يجبُ أن يقولَه النَّبيُّ ﷺ لهؤلاءِ المشركين، وهو أنَّ اللّه تعالى يعلمُ قولَهم كلَّه في السَّماوات والأرض، ولا تخفَى عليه خافيةٌ؛ لأنَّه السَّميعُ لكلِّ الأقوال، والعليمُ بما تُكِنُّه النُّفوسُ وتُخفيه القلوبُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصْلِ الآيةِ عن سابقتِها:

بلاغةُ الكلامِ تَظْهَرُ في الكشفِ عنِ العلاقاتِ الدّلاليّةِ بينَ المعاني

لمّا قال في الآية السّابقة: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، مُعْلِمًا ﷺ ما أسَرَّه الظّالمون عنِ النّاسِ، جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ تأكيدًا لعلْمِه تعالى القولَ عمومًا، والمذكورَ في السّابقة خصوصًا، فالآية من قَبيل كمال الاتّصال الموجبِ للفَصْل بينَ الجُمَل، وعلى القراءتَين التَّوجيهُ واحدٌ، سواءٌ على الخبريَّة ﴿قَالَ﴾، أو الإنشائيَّةِ (قل) - كما سيأتي - ، فإنَّ الغرضَ توكيدُ المُتقدّم ذِكْرُه.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

الامتثالُ النَّبويُّ للأمرِ الإلهيِّ قدوةٌ وأُسوةٌ

ضميرُ الغَيبةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على قراءة حفص وحمزةَ والكسائيِّ وخَلَفٍ، أو ضميرُ الخِطاب المُستترُ في: ﴿قُل﴾ على قراءة الجمهور[1]، يرجعُ إلى النّبيِّ ﷺ، فعلى قراءة الجمهور: ﴿قُل﴾ أمرٌ للنّبيِّ ﷺ أن يقول ما جاء في الآيةِ، وعلى قراءة غيرهم ﴿قَالَ﴾ على الخبر عن النبي ﷺ أنه قال ذلك. فجمعت القراءتان بين الإنشاء والخبر؛ فهو ﷺ أُمِر، فامتثل الأمر وأخْبَر.

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرّبوبيّةِ إلى الضّميرِ:

المُعتَمِدُ على الله تعالى شريفٌ عزيزٌ، كريمٌ منصورٌ

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّةِ لضمير المتكلِّم ﴿رَبِّي﴾؛ تشريفًا وتكريمًا للنّبيِّ ﷺ، فكأنَّه قال: (ربّي الذي خلقني ورزقني، وربّاني ورعاني وهداني، هو العالمُ بأقوالكم؛ لأنَّه يعلمُ كلَّ قولٍ، ويُحيطُ بكلِّ شيءٍ)، كما أنَّ في الإضافة تسليةً للنَّبيِّ ﷺ في مواجهةِ حسدِ الظّالمين؛ لأنَّه اعترافٌ بأنَّ اللّه تعالى هو المُحسِنُ إليه بالتَّأييد بكلّ ما يُبيّنُ صدقَه[2]، فهو اعتزازٌ والتجاءٌ وطُمأنينةٌ.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 323.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 384.

فائدةُ التّعبير بصيغةِ المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾:

تصويبُ الأفهامِ بإبطالِ ما يعتقدونَه في ربِّ العالَمين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ للدّلالة على أنَّ عِلْمَه تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ، وليس المقصودُ التَّجدّدَ والاستمرارَ بالنّسبةِ للّه تعالى، فإنَّ اللّه عَلِمَ ما كان وما يكونُ وما هو كائنٌ.

نُكْتَةُ تقديم المسنَدِ إليه على المسنَدِ الفعليِّ:

إثباتُ النُّبوّة وبيانُ إعجازِ القرآنِ الغيبيِّ

قُدِّم المسندُ إليه ﴿رَبِّي﴾ على المُسندِ الفعليِّ ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾؛ اعتناءً بالمُقدَّم وتعظيمًا للّه وإجلالًا؛ وللتّشويق إلى معرفةِ الخبر، مع الإشعار بالاختصاص؛ فإنَّه لا يعلم القولَ في السّماء والأرضِ إلّا اللّه تعالى، وهذا المعنى وإن كان معلومًا بالتّقديم والتّأخير؛ إلّا أنَّ النّظمَ يومِئ إليه بتقديم المسنَد إليه، فكأنَّه قال: لا أحدَ سوى ربّي يعلمُ القولَ، ففيه تَحَدٍّ لهم بأن يأتوا بمَن يعلمُ القولَ سواه سبحانه، أو بخبرٍ عنه سبحانه كما جاء به محمّدٌ ﷺ، فهو إثبات للنُّبوَّة، وبيانٌ لإعجاز القرآن الغيبيِّ.

معنَى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

اللهُ يعلمُ الجهرَ منَ القول وما يخفَى

دلَّت (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ على الاستغراقِ الشّموليِّ لكلِّ قولٍ صادرٍ عن مخلوقٍ، فكلُّ ما صَحَّ أن يوصَف بأنَّه قولٌ فإنَّ اللّه يعلمُه، ابتداءً منَ القول النَّفسيِّ، إلى القول اللّفظيِّ.

فائدةُ العُدولِ عن ﴿ٱلنَّجۡوَى﴾ إلى لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

تنبيهٌ على الأقوالِ السّابقة، وتحذيرٌ منَ الأقوالِ اللّاحقةِ

بعد أن ذَكَر النَّظمُ الكريمُ لفظَ الإسرار في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾، ولفظَ ﴿ٱلنَّجۡوَى﴾؛ ذكرَ هنا ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ وذلك ليشملَ كلَّ قولٍ يصدرُ تناجيًا بينَ النّاس، أو على العَلَن، أو سِرًّا في النَّفسِ، أو سِرًّا بينَ اثنين، طويلًا أو قصيرًا، مُفيدًا أو غيرَ مفيد، في الأرضِ أو في السَّماء؛ فإنَّ لفظَ القولِ يَعُمُّ ذلك كلَّه، ففيه تنبيهٌ على أنَّ ما قيل من إسرار النَّجوى بينَهم داخلٌ في عموم عِلْمِه تعالى، وفيه تحذيرٌ لِما سيُقال في قابلِ الأيّام، ولو قال: (يعلم النَّجوى)؛ لَتُوهِّمَ أنَّه يقصدُ النَّجوى

التي كانت في إسرارهم، وهي المَذكورةُ سابقًا؛ فعَدلَ عن ذلك لفائدة التَّنبيه والتَّحذير، وللإيذان بأنَّ "عِلْمَه تعالى بالأمرين - السِّرّ والخفاءِ - على وتيرةٍ واحدةٍ، لا تفاوتَ فيه بالجلاء والخفاء، كما في علوم العبادِ"[1].

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّةِ:

تأكيدُ معنَى الإحاطةِ لِما يُدركه المخاطَبُ

استعمل النَّظمُ الكريمُ حرفَ الظَّرفيّةِ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لبيانِ أنَّ هذا القولَ مهما كان خفيًّا غائبًا في جوِّ السماءِ أو في غيابات الأرض، فإنَّ اللّه تعالى يعلمُه، فهو تأكيدٌ لمعنى الشُّمولِ والإحاطة، وليس المُرادُ قصرَ عِلْمِه ﷻ على السّماء والأرض، بل هو ذِكْرُ ما يعرفُه المخاطَبُ، وما يصلُ إليه وهْمُ البشرِ من إدراكٍ.

دلالةُ التّعريف في لفظَي ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

المُرادُ بـ ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ المعهودتان للمخاطَبين، وما تبلغُه أفهامُهم وتدركه عقولُهم؛ فإنَّ السَّماء والأرض لفظان معلومان للمخاطَبين، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية.

نُكْتَةُ تقديمِ السّماء على الأرض، وفنُّ الطّباق بينهما:

عِلْمُ ما يكونُ في السَّماءِ أبعدُ منالًا وأصعبُ بلوغًا على المخاطَبين

قُدِّم ذِكْرُ السَّماءِ على الأرضِ في غالبِ القرآنِ؛ لسببٍ عامٍّ، وهو أنَّها أعظمُ جُرمًا، وأسبقُ خَلقًا؛ ولتشرُّفها بالملائكة الأبرارِ الذين لا يعصون اللّهَ ما أمَرهم، بخلاف الأرض ففيها التَّكليفُ، ولأنَّها "منشأُ أحكامِه تعالى، ومصدرُ قضاياه، ومتنزّلُ أوامره ونواهيه وأرزاقِه، ووعدِه ووعيده؛ فإنَّ ما يُؤمَرون به ويُنهَون عنه، وما يُرزقونه في الدّنيا، وما يُوعدونَه في العُقبى، كلُّه مُقدّرٌ مكتوبٌ في السَّماء؛ ولأنّها وما فيها منَ الآثار العلْويّاتِ أظهرُ دلالةً على القُدرة الباهرةِ، وأبينُ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 7.

شهادةً على الكبرياء والعَظَمةِ"[1]، ولسببٍ سياقيٍّ خاصٍّ؛ وهو أنَّ معرفةَ القولِ في السَّماءِ أصعبُ على أهل الأرض منَ الإنس والجانّ، من معرفة ما يُقال في الأرض؛ فبدأ بالأصعب بالنّسبة للمخاطَبين؛ لإقامة الحُجَّة عليهم، في شمولِ العِلْم.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ طباقُ إيجاب، فهما مقترنان في القرآن غالبًا، لِما بينهما من تقابلٍ؛ فالسّماء جهةُ العُلُوِّ، والأرضُ جهةُ السّفْلِ.

نوعُ الواو ومعناها:

العطفُ بينَ الجُمَل يُقوّي المعانيَ الإجماليَّةَ ويؤالفُ بينها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ عطفتِ الجملةَ على سابقتِها، فكلاهما إخبارٌ عنِ الله تعالى؛ فالأولى: ﴿رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾، والأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فالجملتان متّفقتان في الحُكم وهو الإخبارُ، ومختلفتان في المضمون، فالوصلُ من باب التَّوسّطِ بينَ الكمالَين.

غرضُ تعريفِ طرفَيْ جملةِ الإسناد، ومعناه:

توكيدُ كمالِ اتّصافِ الله سبحانه بصفتَيِ السّمعِ والبَصرِ

عُرِّف طرفا الجملةِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لتقوية الإسنادِ وتوكيدِه، وبيانِ كمال سمعِه تعالى وعِلْمِه، وفيه معنى القصرِ المستفادِ من تعريف المسنَد إليه والمسنَد، والتّعريفُ في صفتَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لإفادة الكمال[2]، أي: كمالِ اتِّصاف الله ﷻ بهاتين الصِّفتَين، فلا يتّصفُ بالكمال فيهما أحدٌ سواه، إذ لا كاملَ غيرُه سبحانه لا إله إلا هو.

بلاغةُ التّذييلِ:

في جملة التَّذييلِ تأكيدٌ وتقريرٌ وتعليلٌ

سيق قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لتقرير سمعِه وعِلْمِه ﷻ وتعميمِه، فهو السّميعُ لكلّ مسموعٍ مهما لطُف، العليمُ بكلّ معلومٍ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92، والبروسويّ، روح البيان: 4/ 97.
(2) القرافيّ، نفائس الأصول في شرح المحصول: 4/ 1835.

مهما خَفيَ ودَقّ، وتكونُ الجملةُ من بابِ التّذييل جملةً اعتراضيّةً مستقلّةً، تأتي في ختام الآية بعد تمام المعنى؛ لبيانه أو تقريره وتأكيدِه، وفيها معنى التّعليل، أي: يعلمُ سبحانه القولَ في السَّماء والأرض؛ لأنَّه السَّميعُ العليمُ.

بلاغةُ تقديمِ صفةِ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾:

تقديمُ السّميع باعتبارِ ذكْرِ إسرارِ النَّجوى أوّلًا، والعليمُ باعتبارِ عِلْمِ القولِ ثانيًا

ذِكْرُ الأسماءِ الحسنى في فواصل القرآن يأتي وفقَ ما تَستدعيه معاني السّياق؛ فلمّا بالغَ الظّالمون في إخفاء نجواهم، إذ أسرُّوا النَّجوى، ولا داعيَ لذلك فهم سادةُ البلد، وما زال النّبيُّ ﷺ في بدايات دعوته؛ ناسبَ ذلك تقديمَ صفةِ السّميع لبيانِ قوَّة تلك الصّفة في الكشف عن خفايا مكْرِهم، وخبايا حسدِهم، ثمّ أتبعه بصفة العليم؛ لبيان أنَّ ما يُدبِّرون له الآن، وما يُفكِّرون فيه من أمورٍ هو في عِلْمه تعالى، فجمعتِ الصفتانِ بيانَ عِلْم اللّه تعالى لِما يقولونه سِرًّا، وما يُفكّرونَ به في عقولهم؛ وذلك في غايةِ الإحاطة، وبالغِ التَّهديد والوعيدِ.

وما قيل من أنَّه قدّم السّميعَ على العليم لأنَّه لا بدَّ من سماع الكلام أوَّلًا، ثمّ من حصولِ العِلْم بمعناه[1]، فليس بوجيهٍ؛ إذِ اللّهُ يعلمُ قبلَ أن يتكلَّموا، لكنِ التَّقديمُ بحسب السّياق، فلمّا ذكرَ إسرارَهم النَّجوى أوّلًا؛ ذَكَر صفةَ السَّماع، ولمّا ذكر أنَّه يعلمُ القولَ في السَّماء والأرض ثانيًا؛ ذكر صفةَ العِلْم ثانيًا.

فائدةُ صيغةِ المبالغةِ في الاسمَين الجليلَين:

بيانُ كمالِ سمعِه وعلْمِه بما يُحيطُ بالمسموعاتِ والمعلوماتِ

أفادت صيغةُ المبالغةِ في صفتَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كمالَ سمعِه تعالى وعِلْمِه، وشمولَه لكلِّ مسموعٍ ومعلوم، والمبالغةُ كذلك لكثرة المتعلّق، وهو المسموعاتُ والمعلوماتُ، والمبالَغةُ في أسماء اللّه تعالى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 121.

حقيقةٌ، وليست ادِّعاءً، وهي تُفيدُ القُوّة في الفعل، وتَكرارَ المفعول[1]، فمعنى ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي: "المبالِغُ في العِلْم بالمسموعات والمعلوماتِ؛ التي من جمُلتها ما أسرُّوه منَ النّجوى، فيُجازيهم بأقوالهم وأفعالِهم"[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القولُ والكلامُ والنُّطقُ:

القولُ ما يقوله القائلُ ويُحكَى عنه، يُقال: فلانٌ قال كذا، وقال بكذا، وقولُه في هذه المسألة كذا، أي: رأيُه ومقولُه، وأجاب فقال كذا، فالقولُ هو الصّادرُ عنِ المُتكلِّم صدورًا لا رجعةَ فيه، بحيثُ يُنسَب إليه.

القولُ ما صدرَ عنِ المتكلّم، والكلامُ ما أفاد معنًى، والنُّطقُ كلُّ منطوقٍ به

أمّا الكلام فإنّه أوسعُ متعلّقًا منَ القول، وغالبًا ما يُجرَى بين طرفين، وتكلّم فلانٌ، أي: بعد صمتٍ، فيقابلُه الصّمتُ أوِ السّكوتُ، وتكلّمَ مع فلان، ناقشَه، وفلانٌ يجيدُ الكلامَ، وتكلّمَ بالعربيّة؛ فالكلامُ اللّفظُ المُفيد، والعبارةُ: الجملةُ التي يُعبّرُ بها.

وأمّا النّطقُ فهو عمليّةُ التّكلّم، ولذا قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذّاريات: 23]، وعكسُ النّاطق: الأبكمُ أوِ الأخرسُ، واللّفظُ: ما يُتَلَفَّظ به، ولو حرفًا أو كلمةً، فالنّطقُ ما يَصْدُر عنِ النّاطق مِن أصواتٍ، بقطع النَّظر عن وصفِها.

---

(1) أفاد الزَّركَشيُّ في البُرهانِ فائدة عظيمة حول صيغ المبالغة في أسمائه الحسنى فقال: "نُقِل عن الشّيخ برهانِ الدِّين الرّشيديّ أنّ صفات الله التي هي صيغة المبالغة كـ(غفّار ورحيم وغفور ومنّان) كلّها مجاز، إذ هي موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها، لأنّ المبالغة هي أن تثبت للشّيء أكثرَ ممّا له، وصفاتُ الله متناهية في الكمال، لا يمكن المبالغة فيها، والمبالغة أيضًا تكون في صفات تقبل الزّيادة والنّقصان، وصفاتُ الله تعالى منزّهة عن ذلك"، انتهى، قال الزّركشيّ: "والتّحقيق: أنّ صيغ المبالغة على قسمين، أحدهما: ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل، والثّاني: بحسب تعدُّد المفعولات، ولا شكّ أنّ تعدُّدها لا يوجب للفعل زيادة، إذِ الفعلُ الواحدُ قد يقع على جماعة متعدّدين، وعلى هذا التّقسيم يجب تنزيلُ جميعِ أسماء الله تعالى، التي وردت على صيغة المبالغة، كـ(الرّحمن والغفور والتّواب) ونحوها، ولا يبقى إشكالٌ حينَئذٍ"، يُنظر: الزّركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 507.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 55.

﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الأنبياء: 5 - 6]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ تضارُبِ أقوالِ الظّالمين في شأن القرآن وتناقُضِها

لمّا سبق ذِكْرُ اتِّهام الظّالمين القرآنَ بأنَّه سحرٌ؛ ناسبَ أن تُذْكر بقيَّةُ الاتّهاماتِ الصّادرةِ عنهم في حقِّ القرآن، وهي: أضغاثُ أحلام، ومُفترى، وشعرٌ؛ لبيانِ تناقضِهم وتضاربِ أقوالهم في وصف القرآن، وهو ما يدلُّ على أنَّهم في أمرٍ مختلفٍ، وهذا التَّضاربُ يدلُّ على أنَّه ليس سحرًا كما زعموا، فهو انتقالٌ من ذكرِ اتِّهام القرآنِ بتهمةٍ، إلى إبطالِها بتُهمٍ أخرى.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾: مركّب إضافيٌّ مُكوّنٌ من لفظِ ﴿أَضۡغَٰثُ﴾، و﴿أَحۡلَٰمِۭ﴾، أمّا ﴿أَضۡغَٰثُ﴾ فهي جمعُ ضِغْث، والضِّغْثُ منَ الشّيء ما كان مختلِطًا، ومنه الضّغثُ مَنَ الأعواد يابسِها ورَطبِها، "والضِّغثُ مِنَ الخَبَرِ والأمر: ما كانَ مختلِطاً لا حَقيقَةَ لَهُ"[1]، والضِّغثُ: قبضةُ رَيحانٍ، أو حشيشٍ أو قُضبانٍ، أي: عيدان، وجمعُه: أضغاثٌ، قال تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ [ص:44][2]، والضِّغث: التباسُ الشَّيء بعضِه ببَعض، وكلامٌ ضَغْث، وضَغَثٌ: لا خيرَ فيه، والضِّغث: الحِلْمُ الَّذي لا تأويلَ لَهُ ولا خيرَ فيه، والجمع: أضغاث[3].

و﴿أَحۡلَٰمِۭ﴾: جمع حُلُم، وحُلْم: ما يُرى في المنام من تهاويل

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضغث).

(2) الرّاغب، المفردات: (ضغث).

(3) ابن سيده، المُحكم والمحيط الأعظم، والرّازيّ اللّغويّ، مختار الصّحاح: (ضغث).

وتخاليطَ، مرجعُها للشّيطان أو لحديث النّفس، وأضغاثُ أحلام: "الأحلامُ المُختلطةُ التي لا يتبيّن حقائقَها"[1].

2) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: فرى فلانٌ الكَذبَ يفريه ويَفتَريه، إذا اختَلقه، وافترَاهُ على وزن افتعلَه، أي: اختَلَقَهُ واصطنعه، والفِريَةُ، منَ الكَذِب، ومِنه قولُه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يُونُس: 38] أي: اختلقه، والفِريَةُ: الكَذِبُ والقَذفُ، والفِرَى: جمعُ فِريَة، وهي الكِذْبَةُ[2]، ومرادُ الكفّارِ أنّه ﷺ افترى القرآنَ من عنده، ونسبَه إلى اللّه تعالى.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كـثرةُ الاتِّهاماتِ وتضاربُها دليلُ عُـقـمِ الـفِـكْـرِ وانعدامِ البصيرة

بيَّنتِ الآيتان تضاربَ أقوالِ المشركين في وصفِ القرآن الكريم، فلم يَستقرّوا على قول، فتقدَّم ذِكْرُ وصفِهم بأنَّه سِحْر، ثمّ زعموا كاذبين أنَّه أخلاطُ أحلام، وأنَّه مفترًى على اللّه تعالى، أي: ادّعاه لنفسه، ثمّ نَسبَه لربّه، ثمّ زعموا أنَّه شِعرٌ، ثمّ انتهى بهمُ الأمرُ أن طالبوا بالدَّليل والحُجّة على أنَّه من عند اللّه تعالى، وهم يُريدون بالآية المادّيةَ المحسوسةَ، فبيَّنتِ الآيةُ أنَّ عدمَ إيمانِ السّابقين أنْهاهم إلى عذابٍ أليم، واللّهُ تعالى أكرمَ نبيَّه بأن لا يستأصلَ قومَه، وأنَّ مقتضى الرّحمةِ أن لا يُنزلَ آيةً محسوسةً، لِما يترتّبُ عليها منِ الاستئصال.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ ﴿بَلۡ﴾ ونُكْتَةُ تَكرارِها في سياقٍ واحدٍ:

شــأنُ المُـبـطِـلِ المُباهِتِ أن يَتردَّدَ في حُـجَّـتـه وأن يَتلجلجَ في باطِله

وردت أداةُ (بل) في الآية ثلاثَ مرّات؛ الأولى: للإضراب الانتقاليِّ من حكاية قول فريقٍ منهم: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾، إلى حكاية قولِ فريقٍ آخرَ منهم: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾، فضميرُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لجماعة المُشركين لا لخصوصِ القائلين الأوّلين.

(1) الرّاغب، المفردات: (ضغث).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّازيّ اللّغويّ، مختار الصحاح: (فَرى).

والثّانيةُ والثّالثةُ: للإضراب الانتقاليّ، ويجوزُ فيه أن يكون انتقالًا من كلامِ مَن قال: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾ إلى ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ إلى ﴿شَاعِرٞ﴾، ويجوزُ أن يكون انتقالًا آخرَ، أي: بل قالوا: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، بل قالوا: ﴿شَاعِرٞ﴾، والفرقُ بينَهما: أنَّ الأوَّل إضرابٌ عن قول الفريق القائل: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾؛ فيكون الإضرابُ الثّالثُ والرّابعُ منسوبَين لهذا الفريق، والثّاني إضرابٌ يومِئ بوجودِ فريقٍ ثالثٍ فرابعٍ، وحُذِفَ فعلُ القولِ لدلالة القول الأوّل عليهما، ونُكْتَةُ الإضراب الإيذانُ باضطرابِهم وتضاربِ أقوالِهم، وهذا الاضطرابُ ناشئٌ عن تردُّدِهم ممّا ينتحلونه منَ الاعتلال عنِ القرآن، وذلك شأنُ المُبطلِ المُباهتِ، أن يتردَّد في حُجَّته، كما قيل: الباطل لَجْلَجٌ، أي: مُلْتَبِسٌ مُتَرَدَّدٌ فيه[1]، وهذا الاضطرابُ شأنُ المُبطل المَحجوج؛ فإنَّه لا يزال يَترَدَّدُ بين باطلٍ وأبطلَ، ويتذَبْذَب بين فاسدٍ وأفسدَ[2].

ويجوزُ أن يكونَ الكلُّ منَ اللّه تنزيلًا لأقوالِهم في دَرَج الفساد؛ لأنَّ كونَه شعرًا أبعدُ من كونِه مفترًى؛ لأنَّه مشحون بالحقائقِ والحِكَم، وليس فيه ما يُناسبُ قولَ الشّعراء، وهو من كونِه أحلامًا؛ لأنَّه مشتَمِلٌ على مُغيّباتٍ كثيرةٍ طابقتِ الواقعَ، والمُفترَى لا يكون كذلك، بخلاف الأحلام؛ ولأنّهم جرّبوا رسولَ اللّه ﷺ نيِّفًا وأربعين سنةً وما سمعوا منه كَذِبًا قطّ، وهو أبعدُ من كونه سحرًا؛ لأنَّه يُجانسُه من حيثُ إنّهما منَ الخوارقِ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في اختيار مُفردةِ ﴿أَضۡغَٰثُ﴾:

إذا احتشدَ الكُرهُ بالَغَ صاحبُه في الذَّمِّ

اختارَ النَّظمُ الكريم مفردةَ ﴿أَضۡغَٰثُ﴾، والضِّغثُ: الحُزمةُ والباقةُ منَ الشّيء، وأضغاثُ أحلامٍ: أخلاطُ أحلامٍ، أي ما التبس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 15 - 16.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 10.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 103، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 46.

بعضُها ببعضٍ[1]، ونُكْتَةُ الاختيارِ أنَّ المشركين أرادوا تشبيهَ القرآنِ بأضغاث الأحلام، وهي "استعارةٌ تمثيليَّةٌ لطيفةٌ؛ فقد شبَّه اختلاطَ الأحلامِ وما فيها من ضروبٍ مختلفةٍ، بالحُزمة المختلطةِ منَ الحشيش والنَّبت، لا تَناسُبَ بينها"[2].

غرضُ جمعِ ﴿أَضۡغَٰثُ﴾:

جَمعُ الأضغاثِ ليُقابلَ جمعَ الموضوعاتِ

حكى القرآن الكريم عن شُبهةِ المعاندين من خلال استعمال لفظ ﴿أَضۡغَٰثُ﴾، دون: (ضِغْثُ حُلُم)؛ وذلك باعتبارِهم أنّ كلّ موضوع من موضوعات القرآن ضِغثًا وأخلاطًا، وهذا تشنيعٌ منهم وتخبّطٌ منهم في وصف القرآن الكريم، والعياذُ باللّه تعالى.

دلالةُ إضافةِ الأضغاثِ إلى الأحلام، وحذْفِ المسنَدِ إليه:

زيادةُ تشنيعِ ذَمِّ القرآنِ الكريمِ

إضافةُ ﴿أَضۡغَٰثُ﴾ إلى ﴿أَحۡلَٰمِۭ﴾ بمعنى (من)، أي: أضغاثٌ مِن أحلام[3]، وهي من إضافة الموصوفِ للصّفة، أي: أحلامٌ أضغاثٌ، أي: مختلطةٌ، وقيل: "من إضافة الخاصِّ إلى العامّ"، فالأحلامُ قسمان: حقيقيّةٌ وأضغاثٌ، فأضاف أضغاث، وهي خاصٌّ، على أحلام، وهي عامّ، إضافةً بمعنى (مِن)[4]، والمقصودُ زيادةٌ في التَّشنيع والتَّهويل.

وقد حُذف المسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾، والتّقديرُ: (هو أضغاثُ أحلام)، أي: القرآن؛ لدلالة السّياقِ عليه، وللإيماءِ إلى أنَّها كلمةٌ سائرةٌ على ألسنتِهم.

دلالةُ التّعبير بمُفردةِ ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، ومرجعُ الضّميرِ فيه:

الاتِّهامُ بالافتراءِ دليلُ الزَّعزعةِ في الافتراءِ

جاءت صيغةُ فعلِ (افترى) على وزن (افتعل)؛ للدّلالةِ على ادِّعاء الشَّيء بأنَّه مُختلَقٌ، والافتراءُ الذي أرادوا إلصاقَه بالقرآن الكريم؛ هو الكلامُ الكذبُ الذي لا أصلَ له، المنسوبُ إلى اللّه تعالى، فهذا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضغث)، وابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/ 328.
(2) أحمد الشّوابكة، غُرر البيان من سورة يوسف عليه السلام في القرآن، ص: 103.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/ 114.
(4) ينظر: البروسويّ، روح البيان: 5/ 453.

الفريق أراد زعزعةَ مَن آمَن بالقرآنِ، كأنّه قيل: هذا القرآنُ وإن بدا صدقًا وحقًّا إلّا أنَّه مُفترًى، فإن خاب صدُّ النّاس عنه بوصفه سحرًا أو أضغاثَ أحلام، أصاب هذا ظنًّا منهم أنَّهم يُحسنون صُنعًا، والضّميرُ في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، وهو الفاعلُ، يعودُ إلى النَّبيِّ ﷺ، والضّميرُ الثّاني - وهو الهاء - متّصلٌ، يعودُ على القرآن، في محلّ نصبٍ مفعول.

نُكْتَةُ الاختلافِ في التّعبيرِ بينَ الاسميّةِ والفعليّةِ في جُملِ الإضرابِ:

كـثرةُ الطُّعونِ تـدلُّ عـلى أنَّ الـغـايـةَ هي الـطَّـعـنُ لا الـوُصـولُ إلى الحقِّ

يُلحظُ أنَّ التّعبير عن تشبيه القرآنِ بأضغاث الأحلام جاء بجملةٍ اسميَّةٍ على تقديرِ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: (هو أضغاث أحلام)، فلم يُقَل: (رأى أضغاث أحلام)، بينما في وصف القرآن بالمُفترى جاء بالفعليَّة ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، ولم يقل: (مفترًى)، وفي الجملةِ التي بعدها جاء بالاسميَّة ﴿هُوَ شَاعِرٞ﴾، فلم يقل: (أتى بشعرٍ)؛ وهذا التَّنوّعُ في الطَّعنِ دليلٌ على تخبُّطِهم في الوصفِ، وارتفاعِ وتيرةِ الحسدِ فيهم، إذِ الغايةُ هي الطَّعنُ بقطع النَّظرِ عن أداته.

نُكْتَةُ اختلافِ التَّعبيرِ في حذفِ المسنَدِ إليه وذكرِه:

دقـائـقُ الـنَّـظـمِ كـاشـفـةٌ عـن دقـائـقِ المعاني الـخـفـيَّـةِ في الصَّدر

حُذفَ المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾، بينما ذُكر في قوله تعالى: ﴿هُوَ شَاعِرٞ﴾؛ وذلك لإظهارِ أثرِ المسنَدِ إليه في المسنَدِ، فهم أرادوا بيانَ أنَّه شاعرٌ لا يعدو أن يكون شيئًا آخرَ، فكأنَّهم قالوا: ما هو إلّا شاعرٌ، والشّاعرُ لا يكون إلّا آتيًا بالألفاظِ والنَّظم، فهو تقليلٌ منهم لشأنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتمحيضٌ لطعنهم فيه ﷺ، دونَ التَّعرّض للقرآنِ الكريم، أمّا في قولهم: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾ بحذف المسنَدِ إليه؛ فلِجريانِها مجرَى الكلمةِ السّائرةِ، ولأنَّه لم يكن المقصودُ التَّعريضَ بشخصه، بقدر ما هو طعنٌ بالوحي.

سِرُّ تقديمِ ذِكْرِ السِّحرِ، فالأضغاثِ، فالافتراءِ، فشاعرٍ:

أكـثرُ الطُّعونِ رواجًا السِّحرُ، فـالأضـغـاثُ، فـالافــتراءُ، فالشِّعرُ

بدأتِ الآيةُ بذكرِ ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾، ثمّ ثنَّت بذِكْرِ ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾، ثمّ

بقولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾، ثمّ ﴿هُوَ شَاعِرٌ﴾، وهذا التّرتيبُ مبنيٌّ على ملاحظةِ أنَّ أكثرَ الأوصافِ انتشارًا وقبولًا لدى الطّاعنين هو وصفُه بـ (السّحر).

نُكْتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَاعِرٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿شَاعِرٌ﴾ يقصدون التّقليل من شأنِ النّبيِّ ﷺ، فكأنَّهم يقولون: (ما هو إلّا شاعرٌ، فكيف يقوَى على ادِّعاء أنَّه يُوحَى إليه منَ اللّه تعالى).

نوعُ الفاءِ واللّامِ في ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾، ودلالتُهما:

الفاءُ للتّفريعِ، أو للإفصاحِ عن شـرطٍ مُـقـدَّرٍ، واللّامُ للأمر

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ إمّا أن تكونَ للتّفريع، والجملةُ متفرّعةٌ على ما تقدّم؛ أي: بناءً على ذلك ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ بآيةٍ محسوسةٍ، ومعجزةٍ ملموسةٍ، وإمّا أن تكونَ فصيحةً؛ لأنّها أفصحت عن شرطٍ مقدّرٍ، كأنّه قيل: إن لم يكن كما قلنا؛ ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ بآية لا يتطرّقُ إليها شيءٌ من هذه الاحتمالاتِ، واللّامُ في قولهم: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ هي لامُ الأمرِ، ودلَّ الأمرُ على غرضِه الحقيقيِّ؛ وهو طلبُ الإتيانِ بمعجزةٍ، وإنّما قصدوا بذلك التّعجيزَ لا إثباتَ الحَقِّ المبين.

نُكْتَةُ الاختلافِ في التّعبيرِ بإسنادِ الإتيان وإسنادِ الإرسالِ:

المـشـركـون يَعترفون بإرسال الرُّسلِ لكنَّهم يُـنـكـرون نـبـوّةَ محمَّدٍ ﷺ

أُسنِدَ فعلُ الإتيانِ إلى النّبيِّ ﷺ ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾، وأُسنِدَ فعلُ الإرسال إلى غير مسمًّى، والمُرادُ اللّهُ تعالى: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ لبيانِ اعترافِهم بالرِّسالات السّابقةِ، وعدمِ اعترافِهم برسالة النّبيِّ ﷺ، وهذا الاعترافُ منهم بالرّسالاتِ السّابقةِ دليلٌ على اعتقادِهم في أنَّ اللّه يُرسل رُسلًا، لكنّ الاختلافَ في طبيعة المعجزة، أتكون محسوسةً كما هو شأنُ السّابقين، أو معقولةً كما هو القرآنُ الكريمُ؟ كما أنَّ فيه "إيماءً إلى أنَّ ما أتى به ﷺ من عنده، وما أتى به الأوّلون منَ اللّه ﷻ، ففيه تعريضٌ مناسبٌ لِما قبلَه منَ الافتراء"[1].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 241، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 12.

نُكتةُ ذكْرِ المفعولِ به:

العاقلُ الفَطِنُ لا يكترثُ بكلامِ المُبطلين

ذُكِرَ المفعولُ به في ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ﴾ دون أن يقولوا: (فليأتِ بآية)؛ وذلك لبيانِ أنَّهم المقصودون بالإتيان، وهو ما يومِئ إلى اعتزازِهم بأنفسِهم وتَكبُّرِهم، فهم يريدون الآيةَ أن تكونَ لهم على وجه الخصوص، لا أن تكونَ عامَّةً للجميعِ، بالإضافة إلى أنَّهم يُريدون آيةً تُقنعُهم هم دونَ غيرِهم؛ فإنْ أتى بآيةٍ ولم يقنَعوا بها فلن تكونَ آيةً مقبولةً، وهكذا دواليك، فكان غرضُ الأمرِ التَّعجيزَ لا معرفةَ الحَقّ والاعترافَ به، فلسانُ حالِهم لسانُ قومِ فرعون: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف: 132].

معنَى الباء، والغرضُ من تنكيرِ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

الباءُ في لفظِ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ للتّعديةِ؛ لأنَّ فعلَ الإتيان لازمٌ؛ فيتعدَّى بالباء، ونُكِّر لفظُ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ للعمومِ، أي: أيُّ آيةٍ أتيتَ بها على وفق آياتِ المتقدِّمين فهي المطلوبةُ.

فائدةُ التّشبيه وغرَضُه:

التَّقليدُ آفةٌ ابتُلِيَ بها أهلُ الضَّلال فصدَّهم عن الحقِّ المبين

التَّشبيهُ في قول اللّه تعالى على لسان المشركين ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ يُرادُ به تشبيهُ الآية المطلوبةِ بالآيات المُرسَلِ بها الأوّلون، من حيث كونُها محسوسةً مرئيّةً، لا أن تكونَ معقولةً مسموعةً، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المشركين لم يَقبلوا بما خصَّهمُ اللّه تعالى به من خصوصيّة الرّسالةِ الخاتمةِ، بل أرادوا تقليدَ غيرِهم، وكأنَّ التَّقليدَ طبعٌ أصيلٌ في المناوئين للحقِّ، الخارجين عن نهج الصِّدق.

نوعُ (ما) ومعناها:

احتمالُ (ما) للموصوليَّةِ أو المصدريَّةِ بقصْدِ العُمومِ

أداةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، والمعنى: كالذي أُرسل به الأوّلون، والعائدُ محذوفٌ، ويصِحُّ أن تكون مصدريّةً، صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: فليأتنا بآيةٍ إتيانًا كائنًا

مثلَ إرسالِ الأوَّلين[1]، وجاء التَّعبيرُ بها لاحتمالِها معنَى الموصوليَّةِ والمصدريَّةِ، ونصُّها على العموم، ولو قالوا: (كالذي أرسل به الأولون)، أو: (كإرسال الأولين)، لظُنَّ أنَّهم يُريدون آيةً بعينِها، ذاتَ صفةٍ خاصّةٍ، وهم يُريدون أيَّ آيةٍ تُشابهُ آياتِ المُتقدِّمين.

نُكْتَةُ بناءِ الفعل للمفعول:

يَتحاشى أهلُ الباطلِ ذِكرَ الحَقّ

بُنِيَ فعلُ ﴿أُرۡسِلَ﴾ للمفعولِ؛ وذلك لمعرفة المُرْسِلِ ﷻ، فالإيجازُ مقدَّمٌ على الإطناب، إلّا إن كان هناكَ نُكْتَةٌ، كما أنَّه لو قالوا: (كما أرسلَ اللّهُ الأوّلين)؛ لكان فيه إظهارٌ صريحٌ لاسم اللّه الجليلِ، الذي يُلزِمُهم الإيمانَ به، فهمُ ابتعدوا بأنفسِهم عن ذكرِه؛ للابتعادِ عن ظهور اسمِه تعالى.

معنَى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾:

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ للاستغراق العُموميِّ؛ لتشملَ معجزةَ كلِّ رسولٍ، ويُؤكِّدُ ذلك تنكيرُ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ والإتيانُ بأداة (ما)، فكلُّها دالٌّ على العموم.

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتِها:

سنَّةُ الله واحدةٌ في اللّاحقين والسّابقين

فُصِل قولُه تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ باعتبارِه جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، فبعدَ أن طلبوا الآيةَ التي تُشابه آياتِ المُتقدِّمين؛ حَسُنَ بيانُ موقفِ المُتقدِّمين منَ الآياتِ التي جاء بها المُرسلون؟ فكان الجوابُ: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾؛ فهي من باب الاستئنافِ البيانيّ، فالكلامُ "مستأنَفٌ مسوقٌ لتكذيبِهم فيما يُنبئُ عنه خاتمةُ مقالِهم منَ الوعد الضِّمنيّ بالإيمان، عند إتيان الآيةِ المُقترحةِ"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 55، والبروسويّ، روح البيان: 5/ 454.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 55، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 12.

عموم نفي الإيمان عمّن قبلَهم

معنى ﴿مَآ﴾ ودلالتُها:

﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾ للنَّفي، وقد نُفيَ بها دونَ أدوات النَّفي الأخرى؛ فلم يقل: (لم تُؤمن قبلَهم)؛ لعموم نفي الإيمان عمَّن قبلَهم، ممَّن لَحِقَهمُ الإهلاكُ.

الحذفُ للإيجاز، وهو سِرُّ الإعجاز

نُكْتَةُ حذفِ متعلّقِ الفعل:

حُذِف متعلّقُ الفعل من قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ﴾؛ لأنَّه معلومٌ منَ السّياق، فالإيجازُ هو الأولى، أي: ما آمنت بما جاء به الرّسلُ، لأنّ الإيمانَ الذي دعا إليه كلُّ الرّسلِ واحدٌ.

استغراقُ زمانِ القَبْليَّة كلِّه

فائدةُ ذِكْرِ الظّرفِ:

ذُكِر الظَّرفُ المُضافُ إلى الضَّمير العائدِ على المشركين ﴿قَبۡلَهُم﴾؛ لاستغراق زمانِ القَبْليَّة كلِّه، فيدخلُ فيه كلُّ قومٍ قبلَ المشركين، أُرسل إليهم رسولٌ بآيةٍ، ولم يؤمنوا بها.

فائدةُ ﴿مِّن﴾، وتنكير ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

جاء حرفُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾؛ لتأكيد العموم المُستفادِ منَ النّفي والتّنكير، أي: أيُّ قريةٍ أُرسلَ إليها رسولٌ فلم تؤمن به.

إهلاكُ الله يَعمُّ القريةَ كلَّها، ولا يَخُصُّ أهلَها

نُكْتَةُ المَجاز:

المقصودُ بـ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أهلُ القرية، وأُطلقتِ القريةُ دونَ أن يقول: (ما آمن أهل قرية)؛ لبيانِ أنَّ الإهلاك النّازلَ يصلُ القريةَ كلَّها، فلا يَسْلَمُ شيءٌ منه؛ فهذا من باب المجازِ بالحذفِ، أو أن يكونَ من باب المجازِ المُرْسلِ، فأطلَقَ المَحلَّ وأراد الحالّين فيه، وهم أهلُها.

التَّلويحُ بعصا التَّهديدِ رادعٌ زاجرٌ

فائدةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العَظَمة:

أُسنِدَ فعلُ الإهلاكِ إلى ضمير العَظَمة في قولِه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾؛ للتَّهويل والتَّعظيم، فالإهلاكُ الصّادرُ عنِ اللهِ تعالى

معنًى ولفظًا له منَ الهيبةِ والجلالِ والتَّرهيب ما لا يكون لو قيل: (أُهلِكَت)، ففيه تلويحٌ بعصا التَّهديدِ.

نُكْتَةُ مجيءِ الصّفة فعلًا لا اسمًا:

تعليلُ الإهلاكِ وبيانُ فضلِ الله على العِبادِ

جاء قولُه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ﴾ صفةً للفظِ ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وهي في محلّ رفعٍ على المَحلّ لقرية؛ لأنَّ ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ فاعلٌ، أو في محلّ جرٍّ للفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾، ونُكْتَةُ ذلك تعليلُ الإهلاك؛ لأنَّه نصٌّ على أنَّ الإهلاكَ كان بسبب كفرِها، أي: كان الإهلاكُ بعد الكفر ورفضِ الإيمان، وهو ما تُفيده الجملةُ الفعليَّةُ، كما أنَّ فيه بيانًا لرحمةِ اللّه بعباده.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

الجحودُ لا يُعالجُه الدّليلُ وكثرتُه، إنّما يعالجُه العقابُ وصرامتُه

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ لإنكارِ ظنٍّ أن يقعَ منهم إيمانٌ بخلاف ما كان من كُفرِ مَن قبلَهم، أي: لا يؤمنون بحالٍ، والمعنَى: إن لم تؤمن أُمّةٌ منَ الأُممِ المُهلَكةِ عند إعطاء ما اقترحوا، فكيف يؤمنُ هؤلاء لو أُعطوا ما اقترحوا؟ فالجحودُ لا يعالجُه الدّليلُ وكثرتُه، إنّما يعالجه العقابُ وصرامتُه[1].

بلاغةُ الفاءِ وأثرُها في الفصل:

الفاءُ إمّا للعطفِ على محذوفٍ، أو للتّفريعِ على مذكورٍ

قولُه تعالى: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ إذا جعلنا الفاءَ عاطفةً على محذوفٍ مُقدَّرٍ بعد الهمزة، فالجملةُ مفصولةٌ؛ لِما بينَها وبين الجملةِ السّابقةِ من كمال الانقطاع؛ فالأولى خبريَّةٌ نافيةٌ، والثّانيةُ إنشائيَّةٌ استفهاميَّةٌ، ويكونُ التَّقديرُ: (أكَفرَ الأوّلون فهم يؤمنون؟!).

أو تكونُ الفاء للتَّفريعِ، حيثُ فُرِّعت جملةُ ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ على جملةِ ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾، أي: (فهم لا يؤمنون لو أتيناهم بآية كما اقترحوا؛ كما لم يؤمنِ الذين من قبْلهم)؛ الذين جعلوهم مثالًا في قولهم: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، وهذا أخْذٌ لهم بلازمِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4831.

قولِهم[1]، على أنّ الفاء مقيِّدةٌ لترتيب إنكار وقوعِ إيمانِهم على عدم إيمانِ الأوّلين، وإنَّما قُدِّمت عليها الهمزةُ لاقتضائها الصَّدارةَ[2].

نُكْتَةُ تقديمِ المسنَد إليه على المسنَدِ الفعليّ:

توكيدُ حُكمِ نفْيِ إيمانِ مَن أصرَّ على الجُحودِ

قُدِّم المُسندُ إليه على المسنَدِ الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لتقوية حُكمِ الإسناد وتأكيدِه، فالإنكارُ والنَّفيُ انصبَّ على أن يكونَ منهم على وجه الخصوصِ، معَ التَّشويق للخبر بعد ذِكْر حالِ مَن تقدّمهم منَ الأقوام المُهلَكين، إلى جانب رعايةِ الفاصلةِ، وهي مناسبةٌ لفظيّةٌ تابعةٌ للمناسبةِ المعنويّةِ.

غرَضُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

قيمُ الهدايةِ في مضامين الفصاحةِ

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ وقد انصبّ عليه الإنكارُ بالاستفهام، والمضارعيّة تُفيدُ التّجدّدَ، فكأنَّه نفَى تجدّدَ إيمانِهم، وأنكر أن يكون منهم إيمانٌ، ففيه توبيخٌ وتقريعٌ بليغٌ، مع همسٍ وإيماءٍ لِمَن ألقى السَّمعَ وأقبلَ على التَّفكير الذي يقودُه إلى الإيمان.

نُكْتةُ حذفِ متعلّقِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

لم يُذْكَرْ متعلّقُ فعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وذلك إمّا لتنزيلِه منزلةَ اللّازم، وإمّا على تقدير محذوفٍ خاصٍّ، أي: أفَهُم يؤمنون بالقرآن، أو بالنّبيّ، أو باللّه، وإمّا على تقدير متعلّقٍ عامٍّ، يدخلُ فيه كلُّ ما كفروا به، وهو الأولى؛ وذلك لدلالةٍ عليه.

بلاغةُ التّعريض بأسلوبِ الإيجاز:

التّلويحُ بالتّهديدِ لأذكياءِ المشركين، كما أنَّ التّصريحَ لأغبيائِهم

في الآيةِ إيجازٌ بديعٌ دلَّ عليه النَّظمُ الكريمُ، ففي قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ حذفٌ معذوقٌ بمصير المشركين، المرتبطِ بمصير السّابقين، وما أدلَّ نظمَ الكلامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 18.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 410.

على الوعيد بالإهلاك! أما ترى الإنكارَ في ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لا يقعُ في المحَزّ إلّا بتقدير: (ونحن علينا أن نُهلكَهم)(1)، وفي هذا الإيجازِ أيضًا تلويحٌ لِمَن عَرفَ الحقَّ فعَلِم أنَّه على باطلٍ.

فنُّ التَّصدير:

تناسبُ المَطلِعِ مـعَ الـخـتـامِ في الأسـلـوبِ والألفاظِ

تناسبَ طرفا الآيةِ، أوّلُها وآخرُها؛ فبدأت بنفي الإيمان عنِ الكفرة الهالكين، ثمّ خُتِمَت بسؤالٍ إنكاريٍّ يحملُ نفيَ إيمانِ كفّار قريشٍ، ولو رأوا الآياتِ التي يطلبونها ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، فصدرُ الآية نفيٌ، وختامها نفيٌ، فهو تناسبٌ أسلوبيٌّ، كما أنَّ فيها تناسبًا في الألفاظ، فأوَّلُها ذِكْر الإيمانِ المنفيِّ عنِ الأقوام، وفي ختامها الإيمانُ المنفيُّ عنِ المشركين، وهذا التَّناسبُ من فنِّ التّصدير.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأحلامُ والرُّؤى:

الأحـلامُ يغلبُ عليها التَّخاليطُ وتكونُ في الشَّرّ، وغالبُ الرُّؤى في الخير

الرُّؤى إدراكاتٌ علَّقها اللّهُ تعالى في قلب العبدِ على يديْ مَلَكٍ أو شيطان، إمّا بأسمائها، أي: حقيقتِها، وإمّا بكُناها، أي: بعباراتِها، وإمّا تخليطٌ(2)، وبعضهم يرى أنَّ الرّؤيا غلبتِ على ما يُرى منَ الخير والشّيءِ الحسنِ، وغلبَ الحُلُمُ على ما يراه منَ الشّرِّ القبيح(3).

الأوّلون والسّابقون:

كـلُّ أوّلٍ سابقٌ وليس كلُّ سابقٍ أوّلًا

بينَ الأوّل والسّابق عمومٌ وخصوصٌ مُطلقٌ؛ فكلُّ أوّلٍ سابقٌ، وليس كلُّ سابق أوّلًا، فالسّابقُ قد يكونُ مسبوقًا بمَن قبلَه، لكنّ الأوّلَ هو مَن ليس بمسبوق، بل هو السّابقُ على الإطلاق، والأوّلُ يقابله الآخِرُ،

---

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 367.

(2) ابن العربيّ، عارضة الأحوذي شرح سنن التّرمذيّ: 9/ 127، والقاضي عياض، إكمال المُعْلم بفوائد مسلم: 6/ 69.

(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 1/ 434.

والسّابقُ يقابله اللّاحقُ أوِ المسبوق، وقدِ اجتمعا في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التّوبة: 100]، فالصّحابةُ سبقوا ولم يُسْبَقوا؛ لأنّهم الرّعيلُ الأوّلُ، والرُّوّادُ الأُوَلُ لأمّة الإسلام؛ لذا عَطَفَ عليهم مَن جاء بعدَهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التّوبة: 100].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ [الأنبياء: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من إبطالِ الاتّهامِ إلى إبطالِ الاشتراطِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ موقفَ الأقوامِ السّابقين من دعوة المرسلين؛ ناسبَ أن يُذْكَر هنا جنسُ أولئك المُرسَلين، وأنَّهم بشرٌ لا ملائكةٌ؛ ردًّا على زعمهم بأنَّ الرُّسلَ السّابقين كانوا ملائكةً، فجعلوه شرطًا لقَبولِ الرِّسالة والإيمان بها؛ فهو إبطالٌ يتلوه إبطالٌ، لبيان الحقِّ في شأنِ الرِّسالة والنُّبوَّةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِجَالٗا﴾: جمعُ رجلٍ، وتدورُ مادّةُ هذه الكلمة (رجل) حولَ الشِّدّة والقُوّة، ورجل: اسمٌ لذُكور بني آدمَ بعد بلوغ سِنّ الرُّشْد، ويقابلُه: المرأةُ في المفرد، ولا جمع لها، والنّساءُ والنّسوةُ في الجمع، ويقال: هذا رجلٌ كاملٌ في الرِّجال والرُّجولة والرُّجوليّة، وترجَّل: مشى على رجليه، وترجَّل الرّاكبُ: نزل عن دابَّته فمشى، وترجَّلتِ المرأةُ: صارت كالرّجل وتشبَّهت به[1]، والمقصودُ بالرِّجال هنا؛ أي: أنّهم ليسوا ملائكةً، فذكَر الرّجال وأراد البشر.

2) ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾: مركّبٌ إضافيٌّ؛ أمّا كلمةُ ﴿أَهۡلَ﴾: فأصلُها يدورُ حولَ لزوم الشّيء بتمكُّنٍ ولُطفٍ، معَ استطابتِه واستساغتِه، ومنه الإهالةُ، الذّائبُ منَ الشّحم والوَدَك، وهو دسمُ اللّحم وما يُؤْدَم به الطّعامُ[2]، و﴿ٱلذِّكۡرِ﴾: ضِدّ الغفلةِ والنّسيان، والمُراد به - هنا -

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، ومجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (رجل)، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 326.

(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 163، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (أهل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هلل).

كلامُ اللّه تعالى في الكتب السّابقة، التّوراةِ على وجه الخصوص؛ لأنّ اللّه ذَكَر فيها حقائقَ جديرةً بأن تُذْكَر، ولأنّ العلماء عاكفون على تلاوتِها وتدارُسِها ومُذاكرتِها، فالمرادُ بهذا التَّركيب في هذا السّياق؛ أهلُ الكتاب السّابقون؛ فلا يوجدُ منهم منِ ادَّعى أنَّ نبيًّا كان ملَكًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـــرّدُّ على إنكارِهم نُبوّةَ البشرِ

تُبيِّن الآيةُ جنسَ الرّسل، وأنّهم كانوا بشرًا رِجالًا لا ملائكةً، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ يا محمّد ﷺ إلّا رجالًا؛ بلغوا الكمالَ في الرّجولة والقوّة والمُروءةِ، بعظمتنا وجلالِنا أوحينا إليهم، ثمّ التفتَ الخطابُ إلى المشركين، آمرًا أن يسألوا أهلَ الكتابِ الذين يثقون بهم ويَسمعون منهم؛ ليَعلموا منهم الحَقَّ في هذه المسألة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو ودلالتُها في ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾:

البشريّةُ أصلٌ في النّبيّين، وخِلافُها وهْمٌ منَ المُبْطلين

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ من عطف الجُمَلِ على الجُمَل، والجوابِ على الجواب، والمقصودُ من هذا إبطالُ مقصودِهم من قولهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾؛ إذا أرادوا أنّه ليس بأهلٍ للامتياز عنهم بالرّسالة عنِ اللّه تعالى، فبيَّن خطأَهم في استدلالِهم، بأنّ الرّسلَ الأوّلين الذين اعترفوا برسالتِهم، ما كانوا إلّا بشرًا، وأنَّ الرّسالة ليست إلّا وحيًا منَ اللّه، لمَن اختاره منَ البشر[1].

بلاغةُ القصرِ:

نفيُ كلِّ إرسالٍ متصوَّرٍ واستثناءُ إرسالٍ واحدٍ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، وقد جاء بالنَّفي المتلوِّ بأداة ﴿إِلَّا﴾؛ لنفي كلِّ إرسالٍ متصوَّرٍ واستثناءِ إرسالٍ واحدٍ، وهو ما كان في البشر منَ الرِّجال.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 18.

فائدةُ إسنادِ فعلِ الإرسالِ إلى الضّميرِ:

تعظيمُ شأنِ الرُّسلِ، وتعظيمُ افتراءِ مَن يَنفي البشريّةَ عنِ الرُّسلِ

أُسندَ فعلُ الإرسال في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ إلى ضمير المتكلّم، بغرضِ تعظيم المُرسِلِ إليهم، أي: بعظمتنا[1]، فاللهُ ﷻ هو مَن يُرسلُ الرُّسلَ إلى خَلْقِه، وهو مَن يختارُ ويَصْطفي، وفائدةُ الإسنادِ: بيانُ شِدَّة افتراءِ مَن يَنفي أن يكونَ الرُّسلُ بشرًا؛ لأنَّه يُشكِّكُ في فعل اللّه تعالى فيما أسندَ إلى نفسِه العَليَّة.

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ بالحذفِ والذِّكْرِ:

حَــذْفُ حرفِ (مِن) دالٌّ على استيعاب جميعِ الرُّسلِ، فهي أبلغُ في إثباتِ البشريّةِ

ذُكر حرفُ ﴿مِن﴾ [يوسف: 109] في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ [يوسف: 109] وهنا بحذفِه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾؛ وذلك لأنَّ (قبل) اسمٌ للزّمان السّابق على ما أُضيف إليه، و(مِن) يُفيدُ استيعابَ الطّرفين، يعني: مِن أوّل آدمَ إلى نبيّنا محمّد آخِرِ الأنبياء وخاتمِهم، وقد يقعُ (قبل) على بعض ما تقدّم، وهو قوله: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾، ثمّ وقع عَقِبَه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾؛ فحُذِفَ (مِن) لأنّه هو بعينه[2]، أي: أنَّ الآية السّابقة سَدَّ حرفُ ﴿مِّن﴾ الداخلُ على ﴿قَرۡيَةٍ﴾ مَسدَّ دخوله على الظَّرف، وما جاء في سورة يوسف هو للإيماءِ إلى البدايةِ، أي: أنَّ بداية الإرسالِ من قَبْلِكَ فما فوق؛ رجوعًا في الزَّمن الماضي، فإن فتَّشتَ فيهم فلن تجد إلّا رجالًا، وهنا - في سورة الأنبياء - لاستيعاب جميعِ النّبيّين المُرسَلين، وهي أبلغُ في إثبات البشريَّة، وأنسبُ للسّياق.

براعةُ استعمالِ لفظِ ﴿رِجَالٗا﴾، وتنكيره:

إثباتُ البشريّةِ للرّدِّ على الطّاعنين، والاحتراس من مَظنّةِ وجودِ نساءٍ

استعمل النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿رِجَالٗا﴾ والمرادُ (بشرًا)، ولهذا الاستعمالِ براعةٌ عجيبةٌ، إذ أطلَقَ الرّجالَ وأراد البشرَ، فجمع

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 407.

(2) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/ 799، والكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 177، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 259، والسّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 776.

معنى البشريَّة للرَّدِّ على الطّاعنين، وأتى بوصف الرّجال للاحتراسِ أن يكون بينَ الرُّسل نساءٌ، مع مدحِهم بهذا الوصف، فهذه أغراضٌ لا تتحقَّق لو قال: (بشرًا)، مع التَّعريضِ بالمَشركين الذين يتَّهمون النَّبيَّ ﷺ، وهو سيِّدُ الرِّجال، فمن لم يتبعِ الرِّجال فليس منهم في شيءٍ، وقد نُكّر لفظُ ﴿رِجَالٗا﴾ للتَّنبيه على جنسهم، مع تفخيم شأنِهم وتعظيمِه وتبجيلِه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: 23].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

تكاملُ المعاني في القراءاتِ بين تعظيمِ شأنِ الوحيِ والمُوحي، وشأنِ المُوحَى إليهم

قرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ بالنّون وكسر الحاء، وقرأ الباقون: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ بالياء، بفتح الحاء على ما لم يُسمَّ فاعلُه[1]. فمن قرأ: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ بالنّون، فالفعل للّه ﷻ، أي: نحن نُوحي إليه، ويكونُ إسنادُ فعل الإيحاءِ إلى ضمير العَظَمة؛ لتعظيم شأنِ الوحي، وشأنِ مَن أوحَى إليهم، ومَن قرأ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ فلتفخيم شأنِ المُوحَى إليهم، فالمعنى واحدٌ ومتقاربٌ[2]. ومن بلاغة القراءات هنا أن إحداهما إجابةٌ عن سؤال مقدَّر في الأخرى. فقراءة الفعل على ما لم يُسم فاعله تطرح سؤالا: مَن الذي يوحي إليهم؟ فكانت الإجابة في القراءة الأخرى مصرحة بأن اللّه ﷻ هو الذي يوحي إليهم، وهي التي دل عليها الفعل ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. والمفعول به محذوف تعظيما له.

فنُّ الإيغالِ:

تأكيدُ المعاني يأتي بالنّكات النّافعةِ والتّنبيهاتِ الجليلةِ

أفاد قولُه تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ تأكيدَ الرّسالة، وتأكيدَ بشريَّة الرُّسل، وأنَّها ليست مانعًا مِنَ الوحي إليهم، مباشرةً أو بواسطة الملائكة، وهذا المعنى مأخوذٌ مِن ذِكر الإرسال، فإنَّ الإرسال مقتضٍ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/296.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 163، وابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 428.

للإيحاء، فذُكِر للنُّكتةِ المتقدِّمةِ، ولبيانِ طبيعة العلاقة بين المُرسِل والمُرسَل إليه؛ وهي الإيحاءُ بالرّسالة.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿نُّوحِيٓ﴾، وغرضُ الوصْفِ به:

لـلـدّلالـةِ على تـتـابُـعِ الـوحـي وتـسـلـسـلِ الـرّسـالات، ومـدحِ المُرسَلِ إليهم

أفاد الفعل المضارعُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ استحضارَ تلك الصّورة في الذّهن، وفيه إشارةٌ للدّوام والاستمرار؛ لتتابُعِ الوحي، وتسلسلِ الرّسالات، وفعلُ ﴿نُّوحِيٓ﴾ جاء في محلّ نصبٍ صفةً لقوله: ﴿رِجَالٗا﴾؛ بغرضِ المدح وتأكيدِ الإرسال، فهي صفةٌ كاشفةٌ، ويجوزُ أن تكونَ مقيِّدةً، بمعنى: أنَّهم رجالٌ أوحَى اللّهُ إليهم.

بلاغةُ الفاءِ الفصيحةِ:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ الفاءُ الفصيحةُ، وهي جوابُ شرطٍ مقدَّر، أي: إن شَكَكتُم فيما ذُكِر فاسألوا[1]، أو جوابُ شرطٍ مُؤخَّر، أي: إن كنتُم لا تعلمون فاسألوا.

بلاغةُ الالتفات في توجيه الخطابِ:

الخطابُ تنزيلٌ للنّاسِ منازِلَهم اللّائقةَ بهم

جاء الخطابُ في أوّلِ الآية موجَّهًا للنّبيِّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾، ثمّ وُجِّه في ختام الآية إلى الكفّار: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فانتقل الخطاب منَ النّبيّ ﷺ إلى الكفّار، بعد أن كان الكلامُ عنهم بصيغةِ الغيبةِ، وهذا من تلوين الخطابِ، توجيهًا له إلى الكفرة؛ لتبكيتِهم واستنزالِهم عن رُتبة الاستبعادِ والنّكير، إثرَ تحقيقِ الحَقّ على طريقة الخطاب لرسول اللّه ﷺ؛ لأنّه الحقيقُ بالخطاب في أمثال تلك الحقائقِ الأنيقةِ، وأمّا الوقوفُ عليها بالسّؤال منَ الغير؛ فهو من وظائفِ العوامّ[2]، كما أنّ توجيه الخطاب لهم لِما اشتمل عليه من أمرٍ خاصٍّ بهم، وفي الالتفات لهم

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/ 564.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 57، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 13.

بالخطاب إقبالٌ عليهم؛ لعلّهم يُقْبِلون على ربّهم، وفيه كذلك مِنَ الرَّوعةِ والجلالِ والرَّهبةِ ما ليس في الغياب، كما يُواجَهُ المُسيء بإساءته، والمُقَصِّرُ بتقصيره.

بلاغةُ الأمر وغَرضُه:

المُنكِرُ لبشريَّة الرُّسلِ ما بين جاهلٍ ومُكابِرٍ

جاء الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ للإرشاد والتَّوجيه، وفي توجيهِهم للسُّؤالِ تنزيلٌ لهم منزلةَ الجاهلِ؛ لأنَّ مِن شأن مَن عندَه أدنى معرفةٍ أن لا تخفَى عليه مثلُ هذه الحقائق، فلمّا جادلوا فيها كانوا ما بين جاهلٍ أو مكابِرٍ، أو كليهما.

براعةُ استعمالِ ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ دون (أهل الكتاب):

حكمةُ السّائلِ الباحثِ عن الحقِّ في اختيار مواصفاتِ المسؤولِ

أُضيف لفظُ ﴿أَهۡلَ﴾ إلى ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ والمرادُ بهم أهلُ الكتاب؛ لأنّ التَّعريفَ في لفظ ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ للعهد الذّهنيّ، وليس جنسَ الذّكر، أي: الكتبُ السَّماويَّةُ، وأشهرُها التَّوراةُ، وقيل: القرآنُ، والأوّلُ أشهرُ وأضبط[1]، وآثَر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ دون الكتاب؛ وذلك ليُرشدَهم إلى سؤال العلماء الذين يقومون بذِكْر ما فيه، فهم القائمون عليه، المتعهّدون به، العاكفون على تلاوته ومُدارستِه، المصاحبون له، العالِمُون به، وليس كلُّ كتابيٍّ مُرادًا هنا، فمنهم الجهلةُ، والأفّاكون، والكذّابون، فضمَّ الإرشادُ إلى سؤالهم؛ الإرشادَ إلى اختيار مَن يُسألُ منهم، وفائدةُ هذا التَّعبير؛ حَثُّ المسؤولين على الصِّدق، والتزامِ الحَقّ، وتركِ الكذب والافتراءِ، وإلّا نُزِع عنهم هذا المَدحُ القرآنيُّ.

نُكْتَةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

الإيماءُ إلى الحقائقِ مع الخَصْمِ حكمةُ المُجادلِ وفطنةُ المُحاوِرِ

استعمل النَّظمُ الكريمُ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ إيماءً إلى أنّهم يعلمون ذلك، ولكنّهم قصدوا المكابرة والتّمويه لتضليل الدّهماء، فلذلك جيء في الشّرط بحرف ﴿إِن﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 414.

التي تَرِدُ في الشّرط المَظنون عدمَ وجودِه، بخلاف (إذا) الدّالّة على الوقوع، فالشّرط في (إن) لا يُتَيَقَّنُ حصولُه، بخلاف (إذا)؛ فإنّه يُتَيَقّن حصولُه[1].

بلاغةُ نظمِ جملةِ الشَّرط:

الأمرُ بالسُّؤال عليه مدارُ الإرشادِ ولذلك قُدِّم

حُذِفَ جوابُ الشّرط ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، وتقديرُ الجواب: فاسألوهم، وهو مبنيٌّ على توجيهٍ مشهورٍ عند النُّحاة، أو على القول بتقديم جوابِ الشّرط على فعلِه، أي: إن كنتُم لا تعلمون فاسألوا أهلَ الذِّكر، فيدخلُ في باب التَّقديم والتَّأخير، وقُدِّم الجوابُ لأهمّيَّته، وباعتبارِه هو المقصودُ بالإرشاد وعليه المَدارُ؛ وللتَّنبيه على أنَّهم لا يعلمون، ولذلك فعليهم أن يسألوا.

فائدةُ الشَّرط ودلالتُه الإيمائيَّةُ:

إلزامُ العالِم بمضمون الجواب وتبكيتُه أدعَى للإقرار بالحقائقِ

آثَر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الشَّرط ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ للتّبكيت والإلزام؛ كقول الأجير: إن كنتُ عملتُ لكَ فأعطني حَقّي، فإنَّ الأجيرَ لا يَشُكُّ في أنّه عمل، وإنَّما أخرج الكلامَ مخرجَ الشَّكّ؛ لأنَّ ما يُعامل به منَ التّسويف معاملةُ من يَظُنُّ بأجيره أنّه لم يعمل؛ فهو يُلْزِمُه بما عَلِم، ويُبَكِّتُه بالتَّقصير مُجَهّلًا له، فكذا هنا لا يُشَكّ في أنَّ قريشًا المُخاطَبين بهذا، لم يكونوا عالِمين بالكُتب، فيقول: إنّ كون الرُّسلِ كذلك أمرٌ مكشوفٌ لا شبهةَ فيه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾، وإن لم تكونوا مِن أهله يُبيّنُ لكم أنّ إنكارَكم وأنتُم لا تعلمون ليس بسديدٍ، وإنَّما السّديدُ السّؤالُ منهم لا الإنكارُ[2].

دلالةُ دخولِ ﴿كُنتُمۡ﴾:

توكيدُ المعاني وتقويتُها من براعة النَّظم القرآنيِّ

استعملتِ الآيةُ الكريمةُ ﴿كُنتُمۡ﴾ دون أن يُقال: (إن لم تعلموا) ونحوَه؛ وذلك للإيماء إلى حالتِهم التي هم عليها مِن عدم العِلْم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 161.

(2) الشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 5/ 333.

فيما نطقوا به بلسان مقالِهم، وإلّا فهم يعلمون ويُكابرون، فهي توكيدٌ لمعاني الإلزام والتَّبكيت في معرفة المخاطَبين حقيقةَ الأمر، ويُشمُّ منها رائحةُ التَّهكُّم بهم.

فائدةُ التّعبير بالمضارع ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، ونُكْتَةُ حذفِ مفعولَيْه:

نفيُ العِلْمِ عنهم في حاضرِهم وماضيهم، مع غايةِ وضوحِه

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع لفعلِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ المنفيِّ؛ بغرض نفْي العِلْم عنهم في حاضرِهم وماضيهم، وهو ما بيَّنَتْه ﴿كُنتُمۡ﴾، كما أنَّ فيه مراعاةً للفاصلة، وحُذفَ مفعولا ﴿تَعۡلَمُونَ﴾؛ إمّا لاستحضارِ المعلومِ وأنَّه في غاية الوضوح، ولذلك لم يذكره، وإمّا لتنزيله منزلة الفعل اللّازم، أي: أنتم لستم من ذوي العلم[1].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 135.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

[الأنبياء:8 - 9]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ منَ الرَّدِّ على الطُّعونِ إلى تقريرِها وتوكيدِها

لَمّا ردَّتِ الآياتُ السّابقةُ على مطاعنِ المشركين، وأرشدت إلى معرفة ذلك بالدّليل القويم؛ أتبعتْهُ بيانًا نافيًا لمعانٍ متّفقٍ عليها منَ الأكل والشُّرب والتَّناسل وعدمِ الخلود، وأنَّهم موعودون بالإنجاءِ وإهلاكِ المُسْرفين، وهذا لا يكون إلّا للبشر، وكلُّ ذلك جاء تقريرًا وتوكيدًا لِما سبقَ بيانُه، فهو انتقالٌ منَ الرَّدِّ على الطُّعون، إلى تقريرِها وتوكيدِها.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَسَدًا﴾: (جسد) أصلٌ يدلُّ على تجمُّع الشّيء واشتدادِه، من ذلك جَسَدُ الإنسان، والمُجْسَدُ: الذي يلي الجَسَدَ منَ الثّياب[1]، والجَسَدُ: الجِسمُ الذي لا حياةَ فيه، وهو يرادفُ الجُثَّةَ، هذا قولُ المُحقّقين من أئمّة اللّغة[2]، فهو أخصُّ منَ الجسم، باعتبار أنّ الجسم كلُّ شكل أو صورة، لإنسان أو حيوانٍ أو جمادٍ، بخلاف الجسدِ فيشملُ جسدَ الإنسان خصوصًا، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: أجسامًا تستغني عنِ الطّعام، وقد يُرادُ به هنا الهياكلَ التي لا روحَ فيها، ولا حياة، ومن ثَمّ لا يتغذّى ولا يحتاجُ للغذاء كالملائكة[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جسد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 19.
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 382، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جسد).

2) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: (خلد) أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على الثّبات والمُلازمة[1]، يقال: خلد: إذا أقام، وأخلد أيضًا، ومنه: جنّةُ الخُلْد، ويقولون: رجل مُخَلَّدٌ ومُخَلِّد: إذا أبطأ عنه المَشيبُ؛ لأنَّ الشّباب قد لازمه، ولازم هو الشّبابَ، ويقال أخلد إلى الأرض: إذا لَصِق بها، وأخلد إلى غيره: ركنَ إليه واطمأن، والخُلْد، والخُلُود: البقاءُ الأبديُّ، الذي لا نهاية له، وقد يُراد به المُكْثُ الطّويلُ[2].

3) ﴿ٱلْوَعْدَ﴾: مصدرٌ منَ الفعل: وعدَ يَعِدُ، يُستعملُ في الخير والشّرِّ، يقال: وعدتُه خيرًا ووعدتُه شَرًّا، فيشمل ما وعد اللّهُ أنبياءَه من خيرٍ ونجاةٍ، وما وعدَ به أعداءَه من شَرّ وهَلاك، ولكن الوعدُ غلبَ في الخير، والوعيدُ لا يكون إلّا بِشَرٍّ، وأرضٌ واعدة، إذا رُجيَ خيرُها منَ الخِصْبِ والإعشاب، ويومٌ واعِدٌ: أوّلُه يَعِدُ بحَرٍّ أو بَرْدٍ، والمواعدةُ: أخذُ الميعاد، ويُجمع الوعدُ على وعود، ومنَ الوعد بالخير قولُه تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: 20]، ومنَ الوعد بالشّرِّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ١٣٤﴾ [الأنعام: 134][3].

4) ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: جمعُ مسرفٍ، اسمُ فاعلٍ من (أسرف)، والسَّرفُ: تجاوزُ الحَدِّ في كلّ فعلٍ يفعلُه الإنسان، وإن كان في الإنفاق أشهرَ، ويقابلُه التّقتيرُ، وسَرَفتِ المرأةُ ولدَها: أفسدَتْهُ بكثرة اللّبن، وذهب ماءُ البئر سَرَفًا: ضَيْعَةً، والسُّرْفَة: دُوَيْبَةٌ سوداءُ تأكلُ بِشَرِه، وأسرف رجلٌ على نفسه: أي أخطأ وجَهِل وتجاوز الحَدَّ في ذلك، والإسرافُ: نقيضُ الاقتصاد، وهو مجاوزةُ الحَدّ في كلّ شيء، والإفراطُ فيه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُقرِّرُ الآيتان ما سبق ذِكْرُه مِن كونِ الرُّسلِ بشرًا أرسلهمُ اللّهُ تعالى لغاية هدايةِ الخَلْق، فجاء فيهما توكيدُ ما سبق وتقريرُه، وهو أنَّ النّاظرَ في شأنِ الرُّسلِ ﷺ يجدُ أنَّ اللّه تعالى ما صيّرهم هياكلَ لا تنبُض بالحياة، ولا تفتقرُ للزّاد، بل جعلَهم - كغيرهم من البشر -

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).
(2) أبو عبيد، الغريبين في القرآن والحديث، والفيوميّ، المصباح المنير، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مجمل اللّغة، ومقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وعد).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سرف).

أجسادًا مُفْعَمةً بالحياة، يأكلون ويشربون، وتجري عليهم سُنَنُها، من مرضٍ وصِحّةٍ، وفقرٍ وغنًى، وزواجٍ وإنجاب، إلى أن يتجرّعوا كأسَ المَنيّة، ثمّ إنَّ اللّه تعالى لا يتوفّاهم حتّى يحقِّقَ لهم ما وعدَهم، فينصرَهم على أعدائهم، ويُنَجّيَهم مِن شرورهم وظُلْمِهم، ويُهْلِكَ المسرفين، فالإنجاءُ مِنَ اللّه تعالى لا منهم، ولو لم يكونوا بشرًا كبقيَّة البشر؛ لانتصروا لأنفسهم، ولنَجَوا بذَواتهم على الظّالمين.

الرُّسلُ ما هم إلّا بشرٌ تجري عليهم سُنَنُ اللّه تعالى منَ الإرسال إلى الوفاةِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ حرفُ عطفٍ، من عطْفِ الجُمَل على الجُمَل، فلمّا قال في الآيتين السّابقتين: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ﴾، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾، قال هنا: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾، فهذه الآياتُ الثّلاثُ المتعاقبةُ تَنفي ما ادّعاه الكفّارُ، وما دَعوا إليه من مطالبَ تَنُمُّ عن لجاجِهم وعنادِهم.

توالي الرُّدودِ في بيانِ المعقولِ دليلُ لَجاجةِ المُعانِدِ

فائدةُ اختيارِ (ما) النّافية:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ نافيةٌ، دخلت على الفعل الماضي فأبقتْهُ على مُضيِّه، والمعنى: نفيُ كونِهم هياكلَ بلا روح، لا تحتاجُ لطعام، ولا تتغيّرُ ولا تفنَى، ونُكْتَةُ اختيارِ هذه الأداة عمومُ النَّفي الدّاخلِ على جعْلهم جسدًا، أي: ما جعلناهم أصلًا جسدًا، وما صاروا جسدًا، ولن يكونوا جسدًا.

إثباتُ عمومِ نفْيِ الجسديّةِ في جميعِ الأحوالِ

براعةُ التَّعبيرِ بالجَعْلِ دونَ الخَلْقِ:

اختار النَّظمُ الكريمُ الجَعْلَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ دونَ الخَلْق، فلم يُقَل: (وما خلقناهم جسدًا)، والجعلُ هنا أخذَ مفعولَين؛ وهما الضَّميرُ و﴿جَسَدٗا﴾، وهو بمعنى التَّصيير، وليس المقصودُ بنفي جَعْلِهم جَسَدًا بعد أن لم يكونوا كذلك - وهو المشهورُ من معنى التّصيير - ، بل بمعنى جَعْلِه كذلك

المنفيُّ هو التَّصييرُ الذي تخيَّلَهُ المشركون للرُّسلِ لا أصلَ الخَلْقِ

ابتداءً، على طريقة قولهم: سبحانَ من صغَّر البعوضَ، وكبَّر الفيلَ، وهي كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: 12]، وإمّا أن يكون ﴿جَسَدٗا﴾ حالاً منَ الضّمير، والجعلُ إبداعيٌّ[1]، أي: أنّ اللّه تعالى لم يخلقْهم هكذا ابتداءً.

والتَّعبيرُ بالجَعْل أدقُّ منَ التَّعبير بمُفردة الخَلْق في هذا السّياق؛ ذلك أنَّ اللّه تعالى خلق الرّسلَ وهم منَ البشر، فجرى عليهم ما جرَى على جميع البشرِ، والمشركون تصوّروا شيئًا كان للرُّسل بعد الخَلْقِ العامِّ، وهو ما ينطبقُ عليه الجعلُ بعدَ الخَلْق لا الخَلْقُ، أي: أنَّ اللّه تعالى لم يخصَّهم بشيءٍ، فإنَّ هذا المُتصوَّرَ وهْمًا هو المدفوعُ في الآية، ولذلك وقع النَّفيُ على الجعل المُتوهَّم، لا على أصل الخَلْق.

إسـنـادُ فعلِ الـجَـعـلِ إلى الـضّـمـير للتعظيم

وأُسند فعل الجعلِ ﴿جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ إلى ضمير العظمةِ، لغرضِ التَّعظيم، فإنَّ نفيَ هذا الجعل يدلُّ على حكمة اللّه تعالى العظيمةِ، وعِلْمِه الواسعِ بما يَصْلُح للعبادِ من إرسال الرُّسل.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالجسد، وتنكيرِه:

الـجَـسَـدُ ما يعرفه الـنّـاسُ بـخُـلُـوِّه مـنَ الحياة المُعتادة

المقصودُ بالجسد ما لا يأكل ولا يشربُ، فهم من جميع الوجوه كسائر بني آدمَ إلّا في رُتبة النّبوّة، وشَرفِ المَنزلةِ[2]، وفي الأصل مصدرٌ سُمّي به، ولهذا لم يُجْمَع، فإفرادُ الجسد لأنّه بمنزلة المصدرِ المُشتقّ منَ الفعل: جَسَدَ[3]، والتّقديرُ: ذوي جسدٍ[4]، وقيل: لإرادة الجنس، كَأنَّهُ قال: ذوي ضَرْبٍ من الأجسادِ[5]، أو على حذف المضاف، أو تأويلِ الضّمير بكلّ واحد[6]، والتَّعبيرُ بهذه المفردة جاء لبيان ما يعرفُه النّاسُ من مفهوم الجَسَدِ بخلوِّه منَ الحياة المعتادة

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 135، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 57.
(2) الكرمانيّ، لبابُ التّفاسير، ص: 1477.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 199.
(4) مكّيّ، الهداية إلى بلوغ النهاية: 7/ 4732، وينظر: ابن جرير، جامع البيان: 16/ 230.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 122، وينظر: ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 454.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 46.

لبقيَّة النّاس، ونُكِّر ﴿جَسَدًا﴾؛ ليُفيدَ العمومَ، وليَشْمَلَ كلَّ جسدٍ، فالنَّكرةُ في سياق النّفي تُفيد العمومَ، أي: (ما جعلناهم يستغنون عنِ الغذاء، ولا يُستثنَونَ منَ الفناء، بل يأكلون ويشربون، ولا يُخَلَّدون).

فائدة التقييد بالوصف:

نفيُ الصّفةِ دونَ الذّاتِ الموصوفةِ

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفةً للموصوف ﴿جَسَدًا﴾؛ ولذلك فُصِل، وهي إمّا أن تكون صفةً مقيَّدةً؛ فليس المقصودُ نفيَ كونِهم جَسَدًا، بل نفيَ كونِهم لا يأكلون الطعام، أي: نفيَ الصّفةِ لا الموصوفِ، "والعرب إذا جاءت بينَ الكلامَين بجُحْدَين؛ كان الكلام إخبارًا نحو: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، والمعنَى: إنّما جعلناهم جسدًا يأكلون الطّعام"[1]، فالمقصودُ نفيُ الصّفةِ دونَ الذّات الموصوفة.

نُكْتةُ ذِكْرِ المفعول ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ وتعريفِه:

أثبتَ النَّظمُ للرُّسلِ الأكلَ والاحتياجَ للمأكولِ

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلطَّعَامَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ للجنس؛ فيشملُ كلَّ طعامٍ يُؤكَلُ، فليس الكلامُ مُرادًا به طعامٌ بعينه، بلِ المُرادُ هو الاحتياجُ للطّعام، وهذا سِرُّ ذِكْر المفعول، ولو قال: (لا يأكلون) بحذف المفعولِ على إثبات صفةِ الأكل لهم لصَحَّ المعنى، بل أُريد أمران؛ الأوَّل: الأكلُ، والآخرُ: الاحتياجُ للمَأكول، وذلك لا يكون إلّا بذِكْر المفعول، وهو الطَّعامُ.

بلاغةُ التَّعريض بعبادةِ المشركين:

الإلهُ المأكولُ صحيحٌ في عقل المُشرِك، أمّا الرَّسولُ الآكلُ فمَدفوعٌ!!

في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ تعريضٌ بالمشركين الذين عبدوا الأجساد، فأفاد التّبكيتَ عليهم من أنّهم عبدوا من لا يستحِقُّ العبوديَّةَ؛ لأنَّ الإله مُنزَّه عنِ الجسميّة والتّحيُّز[2].

(1) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 266، وينظر: الكفويّ، الكلّيّات، ص: 889.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 255.

معنَى الواو وفائدةُ العطفِ بينَ الجُمَل:

الرَّدُّ على الوهمِ الباطلِ من أغراضِ عطفِ الجملةِ على الجُملة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ للعطف؛ فكما نفَى أن يكونوا غيرَ آكلين للطَّعام نفَى خلودَهم، أي: كما أنَّهم يأكلون، فهم يموتون؛ فيَعتريهم ما يَعتري سائرَ البشرِ، وهو من زيادة الاستدلال؛ "لتحقيق بشريَّتِهم، استدلالًا بما هو واقعٌ من عدم كفاءَة أولئك الرّسلِ، كما هو معلومٌ بالمشاهدة؛ لقطع معاذيرِ الضّالين، فإن زعموا أن قد كان الرُّسلُ الأوَّلون مخالِفين للبَشَر؛ فماذا يصنعون في لحاق الفناءِ إيّاهم، فهذا وجه زيادة: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾"[1].

براعةُ النَّفيِ بأداة العُموم:

اعتقادُ خلودِ الرُّسلِ وهمٌ نشأ في أذهانِ أهلِ الأوثان

لمّا كان في ذِهْن بعضِ البَشرِ أنَّ الرُّسلَ لا تموت، ولهم مسالكُ في توجيه حياتِهم بعد دفنِهم؛ أراد اللّهُ تعالى نفيَ ذلك الاعتقادِ نفيًا عامًّا قاطعًا، فقال: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾.

نوعُ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها في السّياق:

أداة (ثم) تحتملُ التَّراخيَ الزَّمانيَّ والرُّتَبيَّ

حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ﴾ إمّا أن يكون من عطف الجُملة على الجُمَل السّابقة، فهي للتّرتيب الرُّتَبيّ، والمعنى: وأهمُّ ممّا ذُكِر أنّا صَدَقناهم الوعدَ؛ فأنجيناهم وأهلكنا الذين كَذَّبوهم[2]، وإمّا أن يكون منَ التّراخي الزّمنيِّ، فما بينَ إرسال الرّسلِ ووعدِهم للمؤمنين ووعيدِهم للكفّار من جهةٍ، وما بين تحقُّق الوعدِ أزمانٌ، "وأشار بأداة التّراخي إلى أنَّهم طال بلاؤُهم بهم وصبرُهم عليهم، ثمّ أحلّ بهم سطوتَه، وأراهم عَظَمَتَه"[3].

نُكْتَةُ إسنادِ الفعلِ إلى الضّمير في ﴿صَدَقۡنَٰهُمُ﴾، وبيانُ مفعولَيْه:

تعظيمُ الوعدِ لعَظَمةِ الواعدِ

أُسندَ فعلُ الصّدق إلى ضمير العَظَمة ﴿صَدَقۡنَٰهُمُ﴾ لتعظيم الوعد؛ فهو صادرٌ عنِ العظيمِ سبحانه، أي: بعظمتنا وجلالِنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 20.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 392، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 75.

صَدَقناهم، وبقُدرتنا وحِكْمَتِنا ولُطْفِنا نجَّيناهم وأهلكنا عدوَّهم، وفعلُ (صدق) ممّا يتعدّى إلى مفعولَين؛ الأوّل: الضّميرُ المتّصلُ (هم)، العائدُ إلى الرُّسل ﷺ، والثّاني: ﴿ٱلْوَعْدَ﴾، أي: صدقناهم في الوعد، ونظيرُه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: 152][1].

معنَى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلْوَعْدَ﴾:

العهدُ الذّهنيُّ المقيّدُ هو ما يَعرفُه الرُّسُلُ الكرامُ معرفةً خاصَّةً

التّعريفُ في لفظ ﴿ٱلْوَعْدَ﴾ للعهد الذِّهنيّ، أي: المعهود، أي: ما وعدهمُ اللّهُ به سابقًا، أي: "أنجزنا ما وعدناهم به مِنَ النّصر والنّجاة والظّهورِ على الأعداء"[2]، فالوعدُ هنا بما يعلمُه كلُّ رسولٍ بخصوصِه، فهو عهد ذِهنيٌّ مقيَّدٌ، بما يعلمُه أولئك الرُّسُل وأتباعُهم.

معنَى الفاء التَّعقيبيَّةِ ودلالتُها:

الإنجاءُ نتيجةٌ حتميَّةٌ عن صدقِ الوعدِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ على ﴿صَدَقْنَٰهُمُ﴾، وقد أفادتِ الفاءُ التّرتيبَ معَ التّعقيب، وهي من عطف المُفَصّل على المُجْمل[3]، أي: أنَّ فعلَ الصِّدقِ مجملٌ بيانُه، وتفصيلُه إنجاءٌ للمؤمنين، وإهلاكٌ للمسرفين، وأفادتِ الفاءُ أنَّ الإنجاءَ مسبّبٌ عن صدق الوعد.

نُكْتَةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العَظَمة:

أُسنِد فعلُ الإنجاءِ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ إلى ضمير العَظَمةِ؛ لبيانِ عَظَمةِ اللّه تعالى وقُدرته على إنجاء المُرسَلين وأتباعِهم.

معنَى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ عاطفةٌ؛ أي: أنجيناهم وأنجينا مَن نشاء، فأتباعُ الأنبياء يُلحقون بهم، وكذلك مَن شاء اللّه نجاتَه من هذا العذاب الذي يشملُ قُرى المُكَذّبين.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 299، والعكبَريّ، التبيان: 2/ 122، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 9/ 311.

(2) الطّبرسيّ، مجمع البيان: 7/ 1842.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 428، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 287.

نُكْتَةُ استعمالِ (مَنْ) اسمًا موصولًا:

سُنَّةُ الإنجاء عامَّةٌ في أتباع الرُّسل جميعًا

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذين)، وهي في الأصل للعقلاء، والمُرادُ: من شاء اللّهُ نجاتَهم من أهلِ الإيمانِ أتباعِ الأنبياءِ، وآثَر النَّظمُ الكريمُ استعمالَها دونَ (الذين)؛ ليَعُمَّ كلَّ مَن أنجاه اللّهُ تعالى مِن أتباع الأنبياءِ جميعًا، دونَ أن يكون المرادُ قومًا بأعيانِهم، فهي تُؤَصِّلُ لسُنَّة الإنجاءِ الإلهيِّ لأتباعِ النَّبيّين.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بفعلِ المشيئةِ:

مشيئةُ اللهِ هدايةَ العبادِ سابقةٌ لإنجائِهم من بأسِ العبيد

جاء التَّعبيرُ بفعل المشيئة مضارعًا صلةً للموصول في قوله تعالى: ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾، أي: مَن نشاء نجاتَه؛ للإشارة إلى أنّ "سببَ الإنجاء المشيئةُ، لا أنّ التّصديقَ موجبٌ له؛ لأنَّه لا يجبُ عليه ﷻ شيءٌ"[1]، و"للإشارة إلى أنَّهم آمنوا؛ لأنَّ اللّه تعالى شاء لهم الإيمانَ، وكلُّ شيء في محيط مشيئته وإرادته، فلا يقعُ شيءٌ إلّا إذا تعلّقت به مشيئةُ اللّه، ولا يخرجُ شيءٌ في الوجود عن إرادته"[2].

فنُّ الاحتباك:

الرّجاءُ منعقدٌ في وعدِ اللهِ تعالى

جمع ابنُ عاشور - رحمه اللّه - بين كون فعلِ ﴿نَّشَآءُ﴾ حكايةَ حالٍ ماضية، وبينَ الإيماءِ إلى إنجاء المؤمنين من هذه الأُمَّة؛ بالقول بالاحتباك، "والتّقديرُ: (فأنجيناهم ومَن شئنا، ونُنَجّي رسولَنا ومَن نشاء منكم)، وهو تأميلٌ لهم أن يُؤمنوا؛ لأنَّ منَ المكذبين يومَ نزولِ هذه الآية مَن آمنوا فيما بعدُ إلى يوم فتح مكّةَ"[3].

معنَى الواو في ﴿وَأَهۡلَكۡنَا﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ للعطف، عُطِفَ فعلُ الإهلاك على الإنجاءِ، وهو منَ التَّقابلِ بين إنجاءِ المؤمنين وإهلاكِ الكافرين.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 392.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4835.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 21.

نُكْتَةُ التّعبير بالفعل الماضي:

جاء فعلُ ﴿وَأَهۡلَكۡنَا﴾ على صيغةِ الماضي، ومعنى ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي: "بعذابِ الاستئصال، وليس المرادُ عذابَ الآخرة؛ لأنّه إخبارٌ عمّا مضى وتقدَّم"[1]، وغرضُ ذِكْر الذين أُهْلِكُوا، "التّعريضُ بالتّهديد، والتّحذيرُ أن يصيبَهم مثلُ ما أصاب أولئك، مع عدم التّصريح بالوعيد"[2].

التّعريض بالكافرين ممَّن يُعانِدُ دعوةَ سيِّدِ المرسلين

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ الإهلاك إلى الضّمير ﴿وَأَهۡلَكۡنَا﴾:

إسنادُ فعلِ الإهلاك إلى ضمير العَظَمة في ﴿وَأَهۡلَكۡنَا﴾ للتّهويل والتّعظيم؛ أي: إهلاكًا هائلًا - وهم في أَوْجِ قوّتِهم، وعُنفوان سطوتِهم - ، أي: بقدرتِنا وعظمتِنا، ولا شَكَّ أنَّ إهلاكَ الكفّار وهم أصحابُ القُوّة والسّطوة، وأخذَهم وهم في عُنفوان قُوّتهم وذِرْوَة جبروتِهم، وتخليصَ عبادِ اللّه المؤمنين المستضعفين منهم، شاهدٌ من شواهد العَظَمةِ، ومَظْهَرٌ من مظاهر القُدْرَة.

إهلاكُ الظّالمين من آثارِ عَظَمةِ ربِّ العالمين

نُكْتَةُ بديعِ الطِّباق:

بين فعلِ الإنجاء، وفعلِ الإهلاك تقابلٌ بديعيٌّ، وهو الطّباق، ونُكْتَتُه في تتميم معنى صِدق الوَعْدِ، فاللّهُ ﷻ صدقَ عبادَه في أمرين؛ وهما: إنجاؤهم، وإهلاكُ المُسرفين، وبه تمّت كلمةُ اللّه صِدقًا وعَدلًا.

تتميمُ وعْدِ الصِّدقِ بالإهلاك كما الإنجاءُ

فائدة تعريف لفظ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

التَّعريفُ في لفظ: ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ للاستغراق، فهي شاملةٌ لكلِّ مَن أسرف في كُفْره وغَيِّه؛ فيدخل كلُّ مَن عَلِم اللّهُ تعالى أنَّ إسرافَه وصْفٌ لازمٌ لا ينفكُّ عنه[3].

الإسرافُ إذا لازَمَ صاحبَه أهلكَه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 123.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 21.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 392.

توجيهُ تخصيص الإسراف بالذِّكر:

اجتماعُ ألوان الكُفر في قومٍ إسرافٌ يُنادي عليهم بالهلاك

جاء التَّعبيرُ بمُفردةِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ دون (الكافرين) أوِ (المكذبين)؛ ليُسَجِّلَ عليهم اجتماعَ ألوانٍ منَ الكفر، فالسّرف: هو مُجاوزَةُ الحَدّ، وهم قد أسرفوا في كفرِهم وتمادَوا فيه، وأسرفوا في ظُلْمهم وفجورِهم، ومعاداتِهم للرُّسل وأتباعِهم، وتجاوزوا الحَدَّ في الظُّلم والبغي، فلمّا كذَّبوا المُرْسَلين كان كفرُهم مضاعَفًا، وهو الإسرافُ الذي أنزل اللّه تعالى بسببه عذابَ الإهلاكِ والاستئصال؛ فالمسرفون؛ هم "الكفّارُ المُفْرِطون في غَيِّهم وكفرهم، وكلُّ مَن ترك الإيمانَ مُفرِطٌ مُسْرِفٌ"[1]، وفي ذِكْر صفة المُهلَكين السّابقين بلفظِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ تعريضٌ بالمشركين، يتضمَّن الوعيدَ والتَّحذيرَ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجَسَدُ والجِسْمُ:

الجَسَدُ يشملُ الحَيَّ والهامِدَ، والجِسْمُ ما له صورةٌ

الجسدُ يكون للأحياء، بينما الجِسْمُ يشملُ كلَّ ما جُسّم من إنسان أو حيوانٍ أو جمادٍ أو نباتٍ، والجَسَد قد يكون نابضًا بالحياة، وقد يكون هامدًا لا حياةَ فيه، وهو الجُثَّةُ أوِ الجُثْمانُ، وقد يكون صورةً مُجَسّمةً لحيوان أو طائرٍ.

والجسمُ ما له شكلٌ ولونٌ وحَجْمٌ، سواءٌ كان صورةً لحيٍّ أو لجمادٍ، وقد ذُكِرَ الجسمُ في القرآن في عدّة مواضعَ، مُفردًا وجمعًا، قال تعالى: ﴿۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ [المنافقون: 4] ولم يقل: أجسادُهم، إذِ المُرادُ التّنويهُ بجمال الصّورة مع قُبْح الباطن، وكذلك يُذكرُ الجِسْم عند الكلام عن قُوّة البدنِ وضَعْفِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247]، ولذا قالوا في الحِكْمَة: "العقلُ السّليمُ في الجسم السّليمِ"، فإذا مات الإنسانُ يقال عن جسده جُثّةٌ، وجُثمانٌ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 75.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ منَ التَّرهيبِ والوعيدِ إلى التَّرغيبِ والوعدِ

بعد أن بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ موقفَ القرآنِ من مُنكري نبوَّة محمّدٍ ﷺ، وصدقِ القرآن الكريم، والرَّدِّ على مطاعنِهم في ذلك؛ ناسبَ أن يشرعَ في ترغيب المخاطَبين، في بيانِ إنزال كتابٍ فيه مَجْدُ العرب وعِزُّهم؛ ليعقلوا الأمرَ، ويعلموا ما بعد الإنزال منَ الخير العميمِ، والصَّلاحِ الواسع.

وهذه الآيةُ مناسبةٌ للرَّدِّ على طلبِهمُ المعجزةَ، فمعجزةُ القرآن هي أعظمُ معجزةٍ أنزلها اللّٰهُ تعالى على رسولٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِتَٰبًا﴾: الكتابُ في الأصل مصدرُ كَتَبَ، يكتبُ، ثمّ غلب على المَكتوب، وسُمّي القرآنُ وغيرُه منَ الكتبِ المُنَزّلةِ بذلك؛ لأنّه يُكتَبُ، أي: يُضَمُّ بعضُه لبعض، ويُجمعُ بين دُفّتين، والكَتْبُ: الضَّمُّ[1]، والمقصودُ بالكتاب القرآنُ الكريمُ.

2) ﴿ذِكْرُكُمْ﴾: مصدرٌ أُضيفَ إلى ضمير جمع المُخاطَبين، وأصلُه منَ الفعل ذَكَر يَذْكُر ذِكرًا، والذِّكر مصدرٌ منَ الشّرف والمَجْد، ففي القرآن مجدُهمُ الأثيلُ، وشرفُهمُ النّبيلُ، وكذلك في القرآن شرفٌ ومَجدٌ لكلِّ مَن آمن به، وعملَ به من عُربٍ وعَجمٍ، ففيه التّذكيرُ الدّائمُ، والمواعظُ المُتجدِّدةُ، يُذَكّر بكلّ ما هو جديرٌ بالتّذكير من أمور المعاد والمعاش، وكلِّ ما فيه نجاةُ الإنسان وصلاحُه وفلاحُه

(1) الرّاغب، المفردات: (كتب).

في الدّارَين[1]، وقيل: معنى ﴿ذِكۡرُكُمۡۚ﴾: موعظتُكم، فالذِّكْرُ بمعنى التّذكير مضافٌ للمفعول[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

القرآنُ شرفُ الأُمّة ومجدُها، وموعظتُها وتذكيرُها

تُؤكِدُ الآيةُ بأسلوب القَسَم أنّ اللّهَ تعالى أنزل على هذه الأُمَّة كتابًا فيه مجدُها وشرُفها وموعظتُها؛ التي تُنجيها منَ النّار، والآية تدعو المخاطَبين إلى عقلِ ذلك وفهمِه والعملِ بمقتضاه، وتركِ العِناد المُفضي إلى الهلاك في الدّارَين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآيةِ:

إنـزالُ الكتاب جـوابٌ عمّا طلبوه منَ المعجزاتِ

هذه الجملةُ مفصولةٌ عمّا قبلَها؛ لأنّها مستأنفةٌ لبيان حقيقة القرآن بعد نفي أوهامهم وافتراءاتهم عليه، أي: إن سألَ سائلٌ عن معجزةِ رسول اللّه ﷺ؛ فالجواب: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾؛ فهي "استئنافٌ، جوابٌ عن قولهم: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾"[3].

بلاغةُ التَّوكيدِ في صدرِ الآية:

يحسُنُ التَّوكيدُ معَ المُنكِرِ حتَّى يتيقَّنَ

افتتحتِ الآيةُ بالتّوكيدِ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ﴾، وذلك باللّام الواقعةِ في جواب قسم محذوفٍ، جيء به على سبيل التّوكيد؛ لأنَّ مثلَ هذه القِصَّة يمكنُ أن يبهتوا في إنكارها[4]، وبأداة (قد) الدّاخلةِ على الفعل الماضي ﴿أَنزَلۡنَآ﴾؛ لإفادة معنَى التّحقّق والثّبوتِ، ولتأكيد كونِ القرآن فيه شرفُهم وتذكيرُهم.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ الإنزال إلى الضّمير:

تكريمُ الرّسالة وتشريفُ الرّسول وتعظيمُ الإرسال

أُسندَ فعلُ الإنزال إلى ضمير العَظَمة ﴿أَنزَلۡنَآ﴾؛ لتكريم المُنزَلِ وهو

---

(1) مكّي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 7/ 4733، والجرجانيّ، درج الدّرر: 3/ 1216، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 75.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 21.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 396.

القرآنُ الكريمُ، وتعظيم شأنِ الإنزال؛ لأنّه بواسطة أمين الوحي جبريلَ مُقَدَّم الملائكةِ، وتشريفِ شأنِ مَن نزل عليه الوحيُ نبيِّنا ﷺ، وتكريم الأُمَّة التي لأجلها أنزل اللّهُ تعالى كتابًا فيه ذِكْرُها ومجدُها وعِظتُها.

بلاغةُ التَّضمينِ في فعل الإنزال:

العبرةُ بالإنزال الذي يتلوه إيصالٌ فيه مكرماتٌ

تعدَّى فعلُ الإنزال بحرف (إلى)؛ لتضمين الإنزال معنى الإيصال، أي: وصَّلناه إليكم، وفيه اعتناءٌ بهم، وتيسيرٌ عليهم، بأنَّ الحَقّ بين أيديهم، ولن يتجشَّموا الصِّعابَ في البحث عنه، فالغايةُ ليست مُجرَّدَ إنزالٍ، بل إنزالٌ يتلوه إيصالٌ؛ لتَحْصُلَ المكرماتُ.

غرَضُ تقديمِ شبه الجملةِ على المفعول:

تكريمُ المخاطَبين وتأليفُ قلوبِهم من غاياتِ النَّظمِ الكريمِ

قُدِّم الجارُّ والمَجرور ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ على المفعول ﴿كِتَٰبٗا﴾؛ للاهتمام، فإنَّ جَعْلَ المخاطَب غايةَ الإنزال، فيه تكريمٌ لا تُدرِك كُنهَهُ القلوبُ الطّاهرةُ ولا العقولُ البارَّة، كما أنَّ فيه تأليفًا لقلوبهم، وترغيبًا لهم، وتشويقًا للمُؤخَّر وهو ﴿كِتَٰبٗا﴾، فإنَّ معرفةَ النّازلِ بعد ذِكْر كونِ الإنزال إليهم يقعُ في النَّفس موقعَ القَبولِ، وقد نُكِّر ﴿كِتَٰبٗا﴾ للتّفخيم والتّعظيم، أي: كتابًا عظيمًا جليلَ الشَّأن، رفيعَ المنزلةِ، كريمَ المكانة، عزيزَ الدّرجة.

دلالةُ مجيءِ صفةِ الكتابِ جملةً اسميَّةً:

ثبوتُ الموعظةِ والمَجدِ في ثنايا الكتابِ

جاءت صفةُ ﴿كِتَٰبٗا﴾ جملةً اسميَّةً ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾، وهي صفةٌ مؤكِّدةٌ لِما أفاده التّنكيرُ التّفخيميُّ من كونه جليلَ القدر، جميلَ الآثار، مستجلبًا لهم منافعَ جليلةً[1]؛ لتدلَّ على ثبات هذا المعنى، أي: فيه ما يُوجِبُ الثّناءَ عليكم؛ لكونِه نازلًا بلسانكم وبينَ ظهرانَيْكُم وعلى رسولٍ منكم، وفيه ما تنشدونَه من حُسْن الذِّكر، وبُعْدِ الصّيت، وطيبِ الأُحدوثة، وفيه الموعظةُ لكم، والإرشادُ لِما ينفعُكم في دينكم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 15.

ودنياكم[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الذِّكرَ ماكثٌ في ثنايا الكتاب، ثابتٌ في سُطورِه لا يحيدُ، وعلى العاقل أن يبحث عنها بعقلٍ متفتّحٍ، وقلبٍ مُقْبِل.

فائدةُ تقديمِ شِبه الجُملةِ:

استنشاطُ الهِمَمِ لاستنباطِ الدُّرَرِ والقِيَم

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الظَّرفيَّة ﴿فِيهِ﴾؛ لبيانِ أنَّ ذِكْرَهم منَ الموعظة والمَجد والشَّرف والعِزَّة في الكتاب، وهو يحتاجُ منهم إلى النَّظر والتَّدبُّر والتَّأمّل لاستخراجه والعمل بمقتضاه، ويُفيدهذا الحرف في سياق النظم الدَّعوةُ لاستنشاط الهِمم في استنباط المعاني والهداياتِ والقيَم.

وأفاد استعمال حرف الظرفية (في) شمول وجود كلّ ما يتعلّق بذكرهم وأخبارهم في آياته وبيّناته.

نُكْتَةُ إضافةِ الذّكرِ إلى ضميرهم:

استمالةٌ لكلّ مـن أقـبـل، وعتاب لكلّ من أدبر

أُضيفَ الذِّكرُ إلى ضمير المخاطَبين ﴿ذِكۡرُكُمۡۚ﴾؛ للاعتناء بهم، ورعايةِ قلوبهم، وتطريةِ أذهانهم، فهو ذكرُهم لا ذِكْرُ غيرِهم؛ فإنَّ إشعار المخاطَب بالخصوصيّة يستميل قلبَه، ويُطيِّبُ خاطرَه، كما أنَّ فيه عتابًا شديدًا لمن أعرض عنه، وهو الذي سيُخرجهم منَ الظُّلمات إلى النُّور، ويُرشحُ هذا العتابَ الشَّديدَ، والتَّأنيبَ البليغَ قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، كما أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّه سيكونُ ذِكْرَهم، وقد كان، وهذا من بديع إشاراتِ الإعجازِ الغيبيِّ.

معنَى الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إمّا أنَّها عطفٌ على مقدَّرٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: "(ألا تتفكرون فلا تعقلون) أنّ الأمرَ كذلك؟!

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 289.

أولا تعقلونَ شيئًا منَ الأشياء التي من جملتها ما ذُكِر؟"[1]، أوِ التَّفريع على متقدّم.

بلاغةُ الاستفهام ونوعُه وغَرضُه:

دعوةٌ للتّعقّل، ونَعيٌ على مَن لم يتعقّلْ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إنكاريٌّ توبيخيٌّ[2]؛ "فإنَّ مَنْ جاءَه ما به هَدْيُه فلم يَهْتَدِ يُنْكَرُ عليه سُوءُ عقله، ومَن جاءَه ما به مَجْدُه وسُمعَتُه فلم يعبأ به، يُنْكَرُ عليه سُوءُ قدرِه للأمور حَقَّ قَدْرِها، كما يكون الفضلُ في مثله مضاعفًا"[3]، وغرضُه التّحريضُ والتّحضيضُ على التّعقُّل في أمر القرآن؛ للانتفاع بهديه، والإقبالِ على مقاصده ومعانيه.

نُكْتَةُ التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَعۡقِلُونَ﴾، وحذفِ متعلّقِه:

مناسبةُ المطلوبِ مِنَ المخاطَبين في الحاضر والمستقبلِ

اختار النَّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغةِ المُضارع ﴿تَعۡقِلُونَ﴾؛ لترشيح الحَضّ والتّحريض والحَثِّ على عَقْلِ ما في القرآن الكريم منَ الهُدَى والرّحمة، فإنَّ صيغةَ المضارع يدخلُ فيها الزَّمنُ الحاضرُ والمستقبل، وعقلُ أولئك مطلوبٌ في الحاضر والمستقبل، فجاءت هذه الصّيغةُ مناسبةً لواقع المُخاطَبين.

وقد حُذِف متعلّقُ فعلِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ إمّا لتنزيل الفعل منزلةَ اللّازم، أي: لتعقلوا وتصبحوا ذَوي عقولٍ، أو لكونه مفهومًا منَ السّياق، أي: تعقلون صدقَ الرّسالةِ والرّسولِ والبعثِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 58.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 23.

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا
ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢ لَا
تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾ [الأنبياء: 11 - 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الإنذار بعذاب الاستئصال والتَّذكير بعجائب الخلق

هذه الآيات مبالغة في زجر الكفار عن عصيانهم وكفرهم، فبعد أن أبان اللّه تعالى أنه أهلك المسرفين في تكذيبهم وكفرهم باللّه، ونصر الأنبياء المرسلين عليهم، وبعد أن حكى تعالى عنهم الاعتراضات ظاهرة السقوط بظهور شرائط الإعجاز في القرآن وبدا ذلك ظاهرًا لكلّ عاقل، عند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حُبِّ الدنيا وحُبِّ الرياسة فيها؛ فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ﴾[1]، وبعد أن أخبر أنّه صدق رُسلَه وعدَه، وذكر إهلاك المكذّبين له تبعًا لذلك، أعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظّالمين ووصف ما حلّ بهم ليكون ذلك مقصودًا بذاته ابتداءً اهتمامًا به ليقرع أسماعهم[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿قَصَمۡنَا﴾: (قصم) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على الكَسْرِ، وهو كسرٌ للشَّيْءِ الشَّديد حَتَّى يبين، ولا يرجى بعده التئام ولا انتفاع، لأنَّ القصَم: تحطيمٌ، وإذهابٌ، وإهلاكٌ، قال تعالى: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 123
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 23.

﴿قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾؛ فالهلاك يُسمَّى قاصمة الظهر، ويُقال للظّالم: قَصم اللّه ظَهره[1]، والقصم في الآية الإهلاك القويُّ والاستئصال[2].

2) ﴿ظَالِمَةٗ﴾: (ظلم) أصلانِ صَحيحانِ، أحدُهُما: وضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعه تَعدّيًا؛ ومنه قولهم: "مَنْ أَشْبَه أباهُ فما ظَلم"؛ أيْ: ما وضع الشَّبه غَيْرَ مَوْضِعِهِ[3]. "والظُّلْمُ عند أهل اللّغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه"[4].

3) ﴿أَحَسُّواْ﴾: (حسّ) أصْلانِ: فالأولُ غَلبةُ الشَّيْءِ بقَتْلٍ أوْ غَيْرِهِ، ومنه الحَسُّ: القَتْلُ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [آل عمران: 152]، ومن هذا البابِ قَوْلُهُم: أَحْسَسْتُ؛ أيْ: عَلِمتُ بالشَّيْءِ، وهو محمول على قولهم: (قتلتُ الشيءَ علمًا)، فقد عاد إلى الأصل المذكور[5]، ولا يُقال: حسست؛ بمعنى فهمتُ وعلمتُ، إلّا فيما كان من جهة الحاسَّة، وحقيقة اللَّفظ إدراك بالحاسَّة؛ فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ تنبيهٌ على أنَّه قد ظهر منهم الكفر ظهورًا بان للحسِّ فضلًا عن الفهم[6]، ومعنى ﴿أَحَسُّواْ﴾ في الآية الكريمة: باشروه بالحواسِّ وعَلِموه وشاهدوه[7].

4) ﴿بَأۡسَنَآ﴾: (بأس) أَصْلٌ واحِدٌ، وهي الشِّدَّةُ وما ضارَعها من ألفاظٍ كالحرب، والمشقّة، والضَّرر، والبائس: الرّجلُ المُبتلى النّازلُ به بليَّة، والمُعْدَم، والمُبْتَئِسُ المُفْتَعِلُ من الكَراهَةِ والحُزْن[8]، فـ"البُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْساءُ: الشِّدَّة والمكروه، إلّا أنّ البؤس في الفقر والحرب أكثر"[9]، وذَكَرَ أهلُ التَّفْسير أن البَأْس في القُرْآن إمّا شدَّة العَذاب، وإمّا: الشِّدَّة

(1) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المُفردات: (قصم)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 75، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(4) الراغب، المفردات: (ظلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسّ).
(6) الرّاغب، المفردات: (حس)، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (حسس).
(7) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 75، والفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 124، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(9) الراغب، المفردات: (بؤس).

في القِتال، وإمّا البأساء، وهي: الشِّدَّة النّازِلَة[1]، ومعناها في الآية: شدّة الألم والعذاب[2].

5) ﴿يَرْكُضُونَ﴾: الرَّكض: مِشية الرَّجل بالرِّجْلَيْن معًا، والرّاء والكاف والضّاد أصلٌ واحدٌ يدلُّ على حركة إلى قدم أو تحريك، يُقال: ركض الرَّجل دابَّته، وذلك ضربُه إيّاها برجليْه لتتقدَّم، ثم استعملوه في الدَّوابِّ لكثرته على ألسنتهم؛ فقالوا: هي تركض، كأن الرّكض منها[3]، فـ"الرَّكْضُ: الضَّرب بالرِّجْل، فمتى نسب إلى الرّاكب فهو إعداء مركوب، ومتى نُسب إلى الماشي فوطء الأرض"[4]، وأُطلق الرَّكض في هذه الآية على سرعة سير الناس؛ فهم يهربون[5].

6) ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾: التَّرف: التَّنعيم غذاءً، وحالًا، والمُتَرَف: المُوسَّع عليه عيشُه، وصبيٌّ مُترفٌ إذا كان مُنعَّم البدن مُدلَّلًا، والمُترف الّذي أبطرته النّعمة وسعة العيش، المتروك يصنع ما يشاء لا يُمنع منه، وقيل للمُتنعِّم: مترفٌ؛ لأنّه مُطلق له لا يُمنع من تنعُّم سواء بالطَّعام الطَّيِّب أو بالشَّيء يخصُّ به، فالتّاء والرّاء والفاء كلمةٌ واحدة، وهي التّرفة[6]، ومعنى الإتراف في الآية: إبطار النِّعمة والتَّوسُّع فيها من العيش الرافِه والحال الناعمة[7].

المَعْنى الإجْماليّ:

في الآية تهديدٌ لأهل القرى المشركين بأن يسلكوا طريق مَنْ سبقهم من ظالمي القُرى السالفة فقصمهم اللّه تعالى وأهلكهم، وقطع دابرهم، ثم أقام مكانهم قَوْمًا آخَرينَ على غير منهجهم مُؤهَّلين لدعوة الحقّ[8].

إذا أراد اللهُ هلاكَ الظّالمين لم يُعجزه شيءٌ البتّة

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النواظر، ص: 184، والجوهريّ، الصِّحاح: (بأس).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ركض).
(4) الراغب، المفردات: (ركض).
(5) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (ركض)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 25.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ترف).
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 106، والرّاغب، المُفردات: (ترف).
(8) الخطيب، التفسير القرآنيُّ للقرآن: 9/ 853.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ وصْلِ الجملةِ بما سبقها:

قــدرةُ الـلـه الـقـاهـرةُ تـدكُّ حصونَ المشركين

عُطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ٩﴾ [الأنبياء: 9]، وهي واردة على سبيل التَّعريض للتَّهديد؛ ففيها "تَعْرِيضٌ بِإِنْذارِ المُشْرِكينَ بالِانْقِراضِ بقاعِدَةِ قياسِ المُساواةِ، وأنَّ اللهَ يُنشئَ بَعْدَهُم أُمَّةً مُؤْمِنَةً"(1)؛ ففي الآية نوعُ تفصيل لإجمالِ قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ٩﴾ [الأنبياء: 9]، وبيانٌ لكيفية إهلاكهم وسببِه وتنبيهٌ على كثرتهم(2).

معنى الواو في: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾:

عاقبة الظالمين هلاكٌ في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ إمّا عاطفة، وإمّا استئنافيَّة مسوقة للتَّمثيل بالأُمم التي هلكت قبلهم، ومجيؤها هنا لتشريك كسر شوكة الظالمين، وبيان سوء العاقبة التي تنتظرهم هلاكًا في الدُّنيا والويل والثُّبور الذي هو الجزاء الأوفى لهم في الآخرة، وأنَّ الله تعالى مُستبدلُهم بقومٍ آخرين يكونون خيرًا منهم وأصدق إيمانًا ويقينًا.

مفهوم ﴿وَكَمْ﴾ وسِرُّ وُرُودِها ومحلُّها:

إهــلاك الـلـه تعالى لكثير من الظالمين فلم يُبقِ لهم أثرًا ولا خبرًا

تأتي (كم) "خَبَرِيةً لا تَحْتاجُ إلى جَوابٍ بِمَعْنَى عَددٍ كَثيرٍ فيُجَرُّ ما بَعْدَها؛ نَحْوُ: كَم عَبْدٍ مَلَكْتُ"(3)، وقد كثُر استعمالها للإخبار عن كثرة الشيء، وهي في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ كذلك خبريَّة مفيدة التكثير؛ والمعنى: كم قرى كثيرة كانت ظالمة مكذِّبة رسولها إلّا وقد أهلكها الله تعالى فلم يُبق لها أثرًا ولا خبرًا.

دلالة التعبير بالقصم دون سواه:

لمّا كانت الآية ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ "واردة عن غضب شديد

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 23.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 17/ 15.
(3) الزركشي، البرهان: 4/ 329، 328.

الأمم الظالمة لا تقوم لها قائمة بعد إهلاك الله تعالى لها

ومنادية على سخط عظيم؛ لأنَّ القَصْم أفظع الكسر؛ وهو الكسر الذي يُبيِّن تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم"[1]؛ فالقَصْم: الكسر مع الإبانة، والفَصْم: كسر من غير إبانة؛ فهو تصدُّع من غير كسر[2]؛ وعليه فإنَّ التعبير بلفظ ﴿قَصَمۡنَا﴾ للدلالة على أنَّ الله تعالى أهلك هذه القرى حتى لا يستبين لها أثرٌ أو يُعرف لها مَعْلَمٌ يُشار إليه منها، كما أنَّ كسر الزجاجة لا يلتئم ولا يعود إلى سجيَّته الأولى.

بلاغة الاستعارة في لفظ القصم:

المبالغة في الإهلاك يُناسب عِظَم الجُرْم

قال الشَّريف الرَّضيُّ: "وحقيقة القصم كسرُ الشيء الصَّلب وجعِلَ ههنا مستعارًا للعبارة عن إهلاك الجبّارين من أهل القرى أصْلَب ما كانوا عبدانًا وأمنع ما كانوا أركانًا"[3]، فالتّعبير على هذا في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ﴾ استعارة تبعيَّة في الفعل ﴿قَصَمۡنَا﴾ استعير هنا للإهلاك الَّذي لم يُبق أثرًا، ثمَّ اشتُقَّ من القصم الفعل ﴿قَصَمۡنَا﴾ بمعنى: أهلكنا إهلاكًا شديدًا، والقرينة عقليَّة لاستحالة أن يُكسَروا حقيقةً؛ ولكن أُريد المبالغة في الإهلاك.

معنى ﴿مِن﴾:

لا بُدَّ من تمييز أهل الظُّلم من غيرهم

﴿مِن﴾ هنا في قوله ﷻ: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ﴾ لبيان الجنس بدلالة موقعها مع القرية التي أُريد بها التَّمييز؛ فهي مبيِّنة لنوع هذه القرى الظّالمة وجنسها، وبيان الجنس معنى مكين في ﴿مِن﴾ لا تكاد تنفكُّ عنه[4].

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي (كان):

فاعلية الظُّلم المباشرة في جلب العذاب على أهله

التَّعبير بالفعل الماضي دالٌّ في أصل وضعه على تحقُّق الفعل وحصوله، ومجيء الفعل هنا أبان عن الظُّلم الَّذي وقع من هذه

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 564.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 157.

(3) الشَّريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 180.

(4) الزركشي، البرهان: 4/ 417.

القرية وحصوله ممّا كان سببًا مباشرًا في وقوع إهلاكها، وفي كان بيانٌ لترسُّخ الظُّلم في هذه القرية حتى لكأنَّها خلقة في أهلها حتى أضحت كينونتهم الظلم.

سرُّ الوصف بـ﴿ظَالِمَةً﴾ دلالةً، وصيغةً:

عِظَمُ الذنب وأذاه للنفس والغير يناسب وصف الظلم

الظُّلم ضررٌ لا يُستحقّ ولا يُعقب عِوضًا سواء كان من سلطان أو حاكم أو غيرهما، وخيانة المال تُسمَّى ظُلمًا، وأصل الظُّلم نقصان الحقِّ ومجاوزته بوضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، ويُقال فيما يكثر وفيما يَقِلُّ من التَّجاوز، ولهذا يُستعمل في الذَّنب الكبير، وفي الذَّنب الصّغير[1].

الاعتبارُ بحال أهل الظُّلم وما لهم من العقوبة عاجلًا وآجلًا

وفي وصْفِ تِلْكَ الأُمَمِ بالظُّلْم إيماء إلى سَببِ الإهْلاك، فحصل مِنْهُ ومِن (كم) الدّالّة على الكَثْرَةِ مَعْنَى العُموم، فيعْلَمُ المُشْرِكونَ التَّهْديدَ بأنَّ ذلك حالٌّ بهم لا مَحالَةَ بحُكْمِ العُموم، وأنَّ هذا لَيْسَ مُرادًا به قَرْيَةٌ مُعَيَّنَة[2]، ومجيئها على صيغة اسم الفاعل للدلالة على ثبوت هذا الظلم واستمراره؛ فهذه القرية لّما حصل منها ارتكاب الكبائر والصغائر وظلم البشر أهلكها الله تعالى.

نوع المجاز في لفظ ﴿قَرْيَةٍ﴾:

يكتسب المكان شهرته من حال مَـنْ يعيشون فيه

التعبير بالقرية هنا على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحليَّة، فأُطلق المحلُ وهو القرية وأُريد الحالُّ فيها وهم أهلها، أو هي من باب المجاز العقلي لعلاقة المكانيَّة؛ إذ القرية مكان أهلها، وقوله: ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ تمييز لـ﴿وَكَمْ﴾ مجرور بـ﴿مِن﴾، وقوله: ﴿ظَالِمَةً﴾ صفة لقرية، كما أنَّ الوصف بالظلم هنا من باب التوسُّع المجازي - كما ذكرنا - بدلالة العقل على عدم ظلم المكان أو المحل، ومجيء القرية مُنكَّرة للتَّحقير من شأنها بنسبة الظُّلم إليها.

(1) الراغب، المُفردات: (ظلم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 24.

موقع جملة ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ من الإعراب:

جاءت جملة ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ معترضةً بين جملة ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ والمعنى: كثيرًا ما أهلكنا من أهل القرى الذين كانوا ظالمين أنفسهم ومَن تبعهم بالكفر بالله تعالى وتكذيبهم الرسل ﷺ وأوجدنا وأحدثنا قومًا آخرين مكانهم بعد هلاكهم آمنوا وصدَّقوا.

وإن تتولّوا يستبدل قومًا غيركم أهل صلاح وتُقى

سرُّ اختيار فعل الإنشاء دون مرادفاته:

الإنشاء هو الإحداث حالًا بعد حالٍ من غير احتذاء على مثال، والإنشاء أيضًا: ابتداء الإيجاد من غير سببٍ، والفعل يكون عن سببٍ، أمّا الإحداث فهو إيجاد الشيء بعد أن لم يكن، ويكون بسببٍ وبغير سببٍ(1)، وقيد الإحداث من غير احتذاء على مثال حالًا بعد حالٍ الذي يختص به فعل الإنشاء هو علَّة إيثاره ههنا لتحقيق معنى محو آثار الظَلَمة كليًّا، وإيجاد جيل جديد على غير سَنَنِهم.

لا يُنشأ جيلٌ مؤمن جديد إلا بمحو آثار الظالمين السابقين

بلاغة الكناية في جملة الإنشاء:

وبناءً على ما ذُكر في الفائدة السابقة؛ فإنَّ التَّعبير في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ كناية عن فناء هؤلاء المُكذِّبين عن بَكْرَة أبيهم واستئصال شأفتهم حتى لا تبقى منهم بقيَّةٌ على الإطلاق، ثم يُوجد قومٌ آخرون على غير سَنَنِهم ومنهجهم حتى كأنَّهم صاروا خَلْقًا جديدًا مع منهج قويم وتربية حسنة تُؤهِّلهم أن يكونوا دُعاة حقٍّ وخيرٍ وإيمان، وأُسند فعل الإنشاء إلى ضمير العَظَمَة تشريفًا ورِفعةً لكون المُنشئ هو الله تعالى.

إنشاء جيل جديد على منهج قويم مرتكز دعوة حقٍّ وخير جديدتيْن

المُراد بالبَعْديَّة هنا، وعود الضمير فيها:

(بعد) في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ ظرفٌ مُبهمٌ يُفهمُ معناه بالإضافة لما بعده، ويكون منصوبًا أو مجرورًا

اجتثاثُ دابرِ الظالمين وإنشاء قوم آخرين

(1) العسكري، الفروق اللُّغوية ص: 139، 140.

بـ﴿مِن﴾، وقد يُقطع عن الإضافة وهي مفهومة من الكلام فيكون مبنيًّا على الضَّمِّ، والمُراد بالبَعْديَّة هنا؛ أي: بعد هلاك أهلها لا بعد تلك الفِعْلة؛ فالضمير فيها عائدٌ على القرية(1).

تنكير لفظ ﴿قَوْمًا﴾:

شتّان بين أهل الظُّلم والهَدْم وبين أهل الصلاح والبناء

ورد التعبير بلفظ ﴿قَوْمًا﴾ هنا نكرة إيماءً إلى أنَّ هؤلاء القوم الآخرين لم يكونوا كسابقيهم، فهم أهل إيمان وصدق يُنشئون القرى ويعمرونها لكونهم أهل صلاح وبناء لا قوم سوء وخراب، فأُريد بالتنكير هنا التعظيم والتشريف وفضل النَّوع.

سرُّ الوصف بقوله: ﴿ءَاخَرِينَ﴾:

عذاب شديد اجتثَّ دابِرَ القرى الظالمة

جاء التعبير بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾ تعريضًا وتنبيهًا على أنَّ بناء القرى وعمارتها وصلاحها يكون على يد هؤلاء القوم؛ فهم ليسوا من سابقيهم بشيء البتَّة لاستئصال الأوَّلين وقطع دابرهم بالكليَّة، وهو السِّرُّ في تقديم حكاية إنشاء هؤلاء على حكاية مبادي إهلاك أولئك بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾(2)، ولما يرد الوصف بأي صفة أخرى كالإيمان والإسلام وغيرهما لاشتمال الوصف بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾ وعمومه لجميع الصفات الحميدة التي يتَّصف بها هؤلاء القوم فلم يُحدّهم بوصف معيَّن؛ بل جعلهم يتحلَّون بكلِّ خصال الخير والنَّفع.

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّآ﴾:

الظالمون يُحسُّون بالعذاب النّازل بهم المُدمِّر لهم

الفاء هنا عاطفة لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ على قوله: ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ من تفريع وترتيب ما ألَمَّ بهذه القرية الظّالمة، فأحسَّ هؤلاء الظالمون بالعذاب النازل بهم المدمّر لهم وأيقنوا نزوله وحلوله بساحتهم، والفاء العاطفة دالَّة على التعقيب، وهو في كلِّ شيء بحسبه، ولهذا قيل: "إنَّ البَأْس في الوُجودِ قَبْلَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 16.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 16.

الهَلاكِ، وأنَّ مجيء البَأْسِ مَجْهولٌ لِلنّاسِ، والهَلاكَ معلومٌ لَهُم وذكرهُ عَقِبَ الهَلاك وإنْ كانَ سابقًا لِأنَّهُ لا يَتَّضِحُ إلّا بالهَلاكِ، "وأنَّ الهَلاكَ ومجيءَ البَأْسِ لَمّا تَقارَبا في المَعْنَى جازَ تَقْديمُ أحدِهِما على الآخر، وهي هنا واردة للترتيب الذِّكري"(1).

مفهوم ﴿فَلَمَّآ﴾ هنا:

الظالمون لا يفيقون إلّا على وقوع البأس

﴿فَلَمَّآ﴾ هنا ظرفيَّة حينيَّة أو رابطة للجواب، وهي تدخل على الماضي؛ وعليه فهي حرف وجود لوجود، أو وجوب لوجوب؛ فيقع الأمران جميعًا معها، وهي ظرف بمعنى (حين)، وجوابها يرد ظاهرًا ويكون جملة اسمية مقرونة: إمّا بالفاء، وإمّا بـ(ما) النّافية، وإمّا بـ(إذا) الفجائيَّة كما في الآية هنا.

إيثار التّعبير بالفعل ﴿أَحَسُّواْ﴾:

أفاقوا على العذاب المُدمِّر؛ فعلموا عاقبةَ أمرهم ومآلَ حالِهم لكن دون جدوى

الإحساس هو الإدراك بالحسِّ، فيكون برؤية ما يزعجهم، أو سماع أصوات مُؤذِنة بالهلاك كالصواعق والرّياح(2)، فلمّا رأوا العذاب المُدمِّر؛ علموا عاقبة أمرهم ومآل حالهم، ولهذا يُقال: كلُّ ما شعرتَ به فقد أحسستَه؛ أيْ: أدركتَه بحسِّك؛ ومنه الآية هنا، والتعبير بالفعل الماضي لتحقُّق هذا الإحساس ووقوعه منهم لمّا رأوا العذاب الَّذي ألّمَّ بهم وأحاطهم جميعًا.

مرجع الضمير في الفعل ﴿أَحَسُّواْ﴾:

كلُّ مأخوذٌ بجريرته ولا يظلم ربك أحدًا

ورد ضمير ﴿أَحَسُّواْ﴾ جمعًا؛ لكونه راجعًا للأهل؛ أيْ: أهل هذه القرية الظالمة لا للقوم الآخرين الذين جاؤوا بعدهم؛ لأنَّ هؤلاء لا ذنبَ لهم يقتضي ما تضمَّنه هذا الحُكْم المذكور كما ألمح إلى ذلك الآلوسيّ(3).

توجيه الاستعارة في قوله: ﴿بَأْسَنَآ﴾:

قال الآلوسي: "وجُوِّز أن يكون في (البأس) استعارة مَكنيَّة،

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 295 - 294.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 17/ 16.

ويكون (الإحساس) تخييلًا، وأن يكون (الإحساس) مجازًا عن مُطلَقِ الإدراك؛ أي: فلمّا أدركوا ذلك"[1]، ومُرادُه بالاستعارة المَكنيَّة، حيثُ شُبِّهتْ شدَّة الألم بسبب العذاب بالبأس الذي يُصاب به الإنسان نكايةً بما اقترفه من الظُّلم، ثمَّ حذف المُشبَّه به ودُلَّ عليه بلازِمِه وهو الإحساس بهذا الألم وإثباته لها تخييل، وهو قرينة المَكنية مبالغة فيما ألمَّ بأهل القرية من العذاب.

من صور عذاب الله تعالى للظالمين أن جعلهم يُحسُّون بقُرب هلاكهم

سرُّ إضافة البأس إلى الله تعالى:

إضافة لفظ ﴿بَأۡسَنَآ﴾ إلى الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ لقوَّة الأخذ مع بيان قدرته سبحانه في النِّكاية بهم؛ إذ لا يقدر على إيقاع العذاب وإيلامهم به إلّا الله تعالى؛ فهو آخذ عزيزٌ مقتدرٌ.

أخذُ الله تعالى أليمٌ شديدٌ

معنى ﴿إِذَا﴾ في: ﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾:

﴿إِذَا﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ فجائيةٌ، وتجيء اسمًا وحرفًا؛ فإذا كانت اسمًا؛ كانت ظرف مكان، وإذا كانت حرفًا؛ كانت من حروف المعاني الدّالَّة على المفاجأة، والمُفاجَأةُ عِبارَةٌ عن موافَقةِ الشَّيْءِ في حالٍ أنْتَ فيها[2]، وتدلُّ على حصول مضمون جملتها دفعة بدون تريُّث، وإلى البِدار والإسراع بمضمون الجملة[3]؛ ليكون دخول "(إذا) الفجائية في جواب ﴿فَلَمَّآ﴾ للدلالة على أنهم ابتدروا الهروب من شدّة الإحساس بالبأس تصويرًا لشدة الفزع"[4] من غير توقُّف أصلاً[5]؛ ففاجؤوا مَن حولهم بركضهم[6].

مفاجأةٌ غيرُ مرحَّبٍ بها من الظالمين

سرُّ وُرُود ضمير الفصل ﴿هُم﴾:

مجيء ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾

حالة مخصوصة من العذاب والهلع لأُناس مخصوصين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 17/ 16.
(2) الزركشيّ، البرهان: 4/ 190.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 233، و11/ 133.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 26.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 395.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4837.

يُفيد التأكيد؛ أيْ: تأكيد الحالة التي يكون عليها هؤلاء القوم أهل القرية حين يُدركون وقوع العذاب بهم يستحثّون أنفسهم على الهرب والفرار، كما أنَّ وُروده هنا يُفيد اختصاصهم بهذه الحالة دون سواهم تصويرًا لحالتهم تلك، وأيضًا للدلالة على أنَّ ما بعده يُعدُّ خبرًا لا صفة؛ فأفاد ورود هذا الضمير هنا بيان هذه الحالة التي يكون عليها أهل هذه القرية حين يعاينون العذاب ووقوعه بهم؛ فلم يَرِدْ حشوًا؛ بل كان هذا سرَّ وُروده.

معنى حرف الجرِّ في: ﴿مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يجوز في (من) أن تكون ابتدائيّةً؛ والمعنى: خارجين من القرية، ويجوز أن تكون تعليليَّة على معنى يهربون من البأس الذي أحسُّوا به بحصول أشراط العقاب من النَّوازل[1].

الـزَّلازِلُ والصَّواعِقُ جند من جنود الله تعالى التي أعدّها للظالمين

مرجع ضمير المؤنث في ﴿مِّنْهَا﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ "الضميرُ في ﴿مِّنْهَا﴾ يعودُ على ﴿قَرْيَةٍ﴾، ويجوز أنْ يعودَ على ﴿بَأْسَنَآ﴾؛ لأنه في معنى النِّقْمة والبأساء، فأنَّث الضميرَ حملاً على المعنى"[2].

يحاولون الفرار من قريتهم بعد أن عاثوا فيها فسادًا، وأنى لهم ذلك؟!

لفظ الرَّكض بين الحقيقة والمجاز:

الرَّكضُ في قوله ﷻ: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ "كناية عن الهرب؛ أيْ: فإذا هم يهربون مُسرعين راكضين دوابَّهم، وجُوِّز أن يكون المعنى مُشبَّهين بمَنْ يركض الدَّوابَّ على أن هناك استعارة تبعيَّة، ولا مانع من حمل الكلام على حقيقته على ما قيل"[3]، فوجه الكناية هو عن صفة الهرب والفرار من شدَّة ما يراه هؤلاء، أو كناية عن موصوفين بهذه الصِّفة تصويرًا للحالة التي تلبَّس بها هؤلاء؛ فإنَّ

يـركـضـون كـالـدَّوابِّ من هول ما شاهدوه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 24.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 8/ 136.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 17/ 16.

الخائف من أمرٍ ما يحاول بكلِّ ما لديه من قوة واستجماع قدرة على الفرار حتى لا يلحقه أذًى أو ضررٌ.

وعلى الاستعارة التبعيَّة في الفعل؛ استُعير حثُّ الدّابَّة وتحريكها لفرار هؤلاء وهروبهم السريع خوفًا من إلحاق الضَّرر بهم، ثمَّ اشتُقَّ من الرَّكض بمعنى الجري السَّريع فرارًا وحذرًا من العذاب على سبيل الاستعارة التّبعيّة، والقرينة حاليّة ملحوظة من سياق الكلام تصويرًا لحالة نفورهم وسرعة هروبهم، أو أنَّ الكلام على حقيقته لتصوير حالتهم حين تدافعهم من المكان الَّذي نزل بهم العذاب فيه.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَرۡكُضُونَ﴾:

ضرورة التَّوقف عن الفرار والاتّعاظ بحال السّابقين

الفعل المضارع دالٌّ في أصل استعماله على تجدُّد الفعل واستمراره مع استحضار الصّورة الماضية، وهنا دلَّ الفعل على تجدُّد الرَّكض منهم واستمراره مع تصوير الحالة التي كانوا عليها ساعة هروبهم.

مرجع ضمير الفعل ﴿يَرۡكُضُونَ﴾:

يفرّون من عذاب الله إلى عذاب الله

الضَّمير في الفعل ﴿يَرۡكُضُونَ﴾ هنا عائدٌ على أهل هذه القرية الظّالمة؛ لكونهم هم المخصوصين بذلك، ومن هنا ورد مجموعًا لوقوع هذا الفعل منهم جميعًا، لما عاينوا ما حلَّ بهم من النِّقمة والعذاب، أو يُركضون دوابَّهم حثًّا لها على السرعة والجري فرارًا ممّا ألَمَّ بهم.

سرُّ فصل قوله تعالى: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾:

تيئيسٌ للقُرى الظّالمة وتهكُّمٌ بهم

فُصلت هذه الجملة عن سابقتها لشِبه كمال الاتّصال كأنَّ قائلًا قال: فماذا قيل لهم لمّا فعلوا ذلك؟ فجاء الجواب بنهيهم عن ركض دوابِّهم مع أمرهم برجوعهم إلى حالتهم الأولى التي كانوا عليها على سبيل الاستئناف البيانيِّ، واختُلف في القائل بين أن يكونوا بعض الملائكة، أو هم مَن كان هناك من المؤمنين، وهذا القول على سبيل الاستهزاء بهم[1].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 564، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 288.

سرُّ التَّعبير بالمضارع المَنهيّ ﴿تَرۡكُضُواْ﴾، وموقع الجملة:

هروبُهم مثارُ سخريةٍ وتهكُّمٍ

جملة المُفتتح ﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُملَةِ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ وبيْنَ جُملَةِ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وهي خِطابٌ لِلرّاكِضينَ بتخيل كَونهم الحاضِرين المُشاهِدينَ في وقْتِ حِكايَةِ قِصَّتِهم، تَرْشيحًا لِما اقْتَضى اجْتِلابَ حَرْفِ المُفاجَأة، ويجوزُ جَعْلُ الجُملَةِ مَقولَ قَوْلٍ مَحْذوفٍ خوطِبوا به حينَئِذٍ بأنْ سَمِعوهُ بخَلْقٍ من اللّه تَعالى أوْ مِنْ مَلائِكَةِ العَذابِ، ويُبْعِدُهُ اسْتِبْعادُ أنْ يَكونَ ذلك واقِعًا عِنْدَ كُلِّ عَذابٍ أُصيبَتْ به كُلُّ قَرْيَةٍ، وأيًّا ما كانَ فالكَلامُ تَهكُّمٌ بهم[1].

سِرُّ العطف في قوله: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾:

العمل الذي خلا مِـن الإخــلاص هباءٌ منثورٌ كأن لم يكن

في قوله: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾ عُطف فعل الرُّجوع هنا على جملة النَّهي في قوله: ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ مُرادًا به التَّهكُّم والاستهزاء بهم، "فإنَّهم كانوا أسخياء حقيقة يجودون بالنَّوال ويبسطون أيديهم بالعطايا؛ ولكنهم كانوا يفعلون ذلك رئاء الناس واكتسابًا للشُّهرة والثَّناء، وفي ذلك من الإيلام والايجاع ما فيه، إذ يرون أنَّ ما أنفقوه وما بذلوه لم يكن إلّا زيادةً في برحائهم وإمعانًا في عذابهم أنَّهم كانوا بخلاء يكرهون البذل ويصدُّون عمَّنْ جاء يستندي سحابَ أكُفِّهم ويمتري إخلاف جدواهم؛ فقيل لهم ذلك ليزيدهم إيلامًا على إيلامٍ وإيجاعًا على إيجاعٍ"[2].

إيثارُ التعبير بفعل الرُّجوع أمرًا: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾:

التَّذكير بحالتهم القديمة ليُدركوا أنَّـهــا سـبـبُ شقاوتِهم

"الرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله؛ فالرُّجوعُ: العود"[3]، وورود الفعل ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾ على جهة الأمر بعد أن نهاهم عن عدم ركضهم وهَرَبهم عاد فأمرهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 25.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 288، 289.

(3) الراغب، المفردات: (رجع).

بالرُّجوع إلى الحالة التي كانوا عليها؛ فناداهم بلسان الحال تقريعًا وتبشيعًا لحالهم وتفظيعًا: لا تركضوا وصور التَّهكُّم بهم بأعظم صورة فقال: "وارجعوا إلى قريتكم".

ولا شكَّ أنَّ ورود الأمر بالرُّجوع إلى الحالة الأولى من التَّرف والنَّعيم الذي كانوا فيه وهو ما كان مدعاةً لظلمهم وارتكابهم المحرَّمات فيه مزيد تهكم واستهزاء بهم، وفيه من التَّقريع والتَّسفيه ما فيه، فلم يكن رجوعهم من ذوات أنفسهم؛ بل ورد لهم من الأعلى عنهم ليكون تسجيلًا عليهم بالمَذلَّة والإهانة لا إعتابًا لهم؛ بل كان إعناتًا وتحقيرًا لشأنهم.

عودُ الضمير في فعل الأمر ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾:

قوم آخرون دينهم هو التَّصديق والإذعان وعدم التَّكذيب جديرون بالنَّعيم

ورد الضمير هنا عائدًا على أهل القرية الظّالمة في كونهم هم المخصوصين بذلك، وأنَّ مناط الأمر مُتعلِّق بهم لا بغيرهم، بدليل تنبيههم بأنَّ اللّٰه تعالى مستبدلٌ بهم غيرهم ممَّن ليسوا على شاكلتهم، وأنَّ ديدن هؤلاء الآخرين هو التَّصديق والإذعان وعدم التكذيب، والمراد من خطابهم هذا تذكيرهم بما كانوا فيه من التَّنعُّم والتَّرف وبَطَر النِّعمة.

مفهوم ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالته هنا:

رجوعهم إلى الحالة الأولى تهكُّمٌ بهم

حرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ دالٌّ على انتهاء الغاية، والغاية هنا هي دنيا الترف والنعيم ومساكنهم التي أُمروا بالرُّجوع إليها، وهي حرف مقابل (من) الدّالِّ على ابتداء الغاية، قال الزركشيُّ: "ثُمَّ لا يَخلوا أنْ يَقتَرنَ بها قَرينَةٌ تَدُلُّ على أنَّ ما بَعْدَها داخِلٌ فيما قَبْلَها أَوْ غَيْرُ داخِلٍ وإنْ لَم يقترن بها قرينة تدلُّ على أنَّ ما بَعْدَها داخِلٌ فيما قَبْلَها أَوْ غَيْرُ داخِلٍ فيُصارُ إِلَيْه قَطْعًا وإنْ لَم يَقْتَرِنْ بها"[1]، وحاصل كلامه - رحمه اللّٰه - أنَّ

---

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 232.

الأمر برجوعهم إلى التَّرف والتَّلذذ والتَّنعم الذي كانوا فيه وحلولهم مساكنهم التي عاشوا فيها داخل في هذا الأمر؛ وهو الرُّجوع إلى هذه الحالة الأولى، وورد ذلك تهكُّمًا واستهزاءً بهم وبما صاروا إليه.

دلالة ورود ﴿مَآ﴾ في الجملة:

لا قيمة لأيِّ شيء إذا كان في غير طاعة الله تعالى

وردت ﴿مَآ﴾ هنا اسمًا موصولًا بمعنى: (الذي)، وهي إمّا مُعرَّفة أو نكِرة، فإن حسُن موضعها (الذي) فهي معرفة، وإن حسُن (شيء) فهي نكرة، وإن حَسُنا معًا جاز الأمران، والأسماء الخبرية الموصولة يستوي فيها التذكير والتأنيث، والإفراد والتَّثنية والجمع، فإن كان المُراد بها المُذكَّر؛ كانت للتَّذكير بمعنى (الذي)، وإن كان المُراد بها المؤنَّث كانت للتأنيث بمعنى (التي)، وهي اسمٌ مُبهم غاية الإبهام، ولفظها مُفردٌ، ومعناها الجمع، ويجوز مراعاتها في الضَّمير، وأصلها أن تكون لغير العاقل، وللعاقل على سبيل التَّغليب[1]، ووردت هي وحرف الجر (إلى) مُتعلّقيْن بفعل الأمر ﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ﴾.

إيثار التعبير بالفعل ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ﴾ مبنيًّا للمفعول:

الظالمون قابلوا عطاء الله تعالى بالجحود والنُّكران

قال البقاعي: "ولما كان التَّأسيف على العيش الرّافِه لا على كونه من مُعطٍ مُعيَّن؛ بُني للمفعول قوله: ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: منها، ويجوز أن يكون بُني للمجهول إشارةً إلى غفلتهم عن العلم لَمَنْ أترفهم، أو إلى أنَّهم كانوا ينسبون نعمتهم إلى قواهم، ولو عدُّوها من اللّه لشكروه فنفعهم، ولمّا كان أعظم ما يُؤسف عليه بعد العيش الناعم المسكنُ، قال: ﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾"[2]، وجملة ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ﴾ صلة الموصول مُبيِّنة للحالة التي كان عليها هؤلاء من النعيم.

والإتراف انتظار النعمة؛ وهو من الرَّفَه؛ أي: النَّعيم ورفاهية العيش، والمعنى: ارجعوا إلى ما أُعطيتم من رفاهية العيش والنعيم

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 398، 399.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 394.

الذي تركتموه وإلى مساكنكم التي كنتم تُعمِّرونها، ولمّا كان هذا النَّعيم والتَّرف من اللّه تعالى ولم يُقابل بالشُّكر والاعتراف منهم؛ جاء هذا الفعل مبنيًّا للمفعول، فليس من جهدهم ولا من عنديّات أنفسهم؛ بل كان عطاءً من اللّه تعالى قُوبل بالنُّكران.

معنى ﴿فِيهِ﴾ ومَرَدُّ الضمير فيه:

تقلُّب الظالمين في النَّعيم ليس دليلًا على رضى الله عليهم

(في) حرف جرٍّ يفيد الظَّرفيَّة، وهو في قوله تعالى: ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ مُستعار لتمكُّنهم في النَّعيم والتَّرف؛ فالاستعارة من قبيل الاستعارة التَّبعية في الحروف؛ إذ استُعيرت (في) من معناها الحقيقيِّ للدلالة على الاستقرار في النَّعيم والتَّمكُّن منه وللمساكن التي كانوا يُقيمون فيها مع تمكُّنهم فيها تمكُّن الظَّرف من المظروف، ويجوز أن تكون للسَّببيَّة؛ والمعنى؛ أيْ: بسبب ما أصابكم من النَّعيم والإتراف الذي صرفكم عن الاعتراف بنعم اللّه تعالى فكان ذلك صارفًا لكم عن شكر هذه النعم والعطايا، ومرجع الضمير في ﴿فِيهِ﴾ إلى ما نُعِّمتُم فيه من العيش الهنيء والمساكن المأهولة التي اغتررتم بها وظننتم بقاءكم فيها وعدم تركِكم لها.

سِرُّ العطف في ﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾ على ما سبق:

مساكن الظُّلم والجَوْر الفاخرة دكَّها الله تعالى فوق ساكنيها

عُطفت جملة ﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾ على قوله سبحانه: ﴿مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾؛ فاللّه تعالى مَنَّ عليهم بالتَّرف والنَّعيم مع عدم أداء حق هذا النَّعيم من الشكر، ثمَّ مَنَّ عليهم مِنَّة أخرى وهي المساكن الفاخرة؛ فبدل أن تكون عامرة بالإيمان والعمل الصالح؛ عمدوا إلى مساكن لا إيمان فيها فبدَّلوا نعمة اللّه كفرًا وأحلوا مساكنهم دار البوار، "ولمّا كان أعظم ما يُؤسف عليه بعد العيش النّاعم المَسْكن، قال: ﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾؛ أيْ: التي كنتم تفتخرون بها على الضعفاء من عبادي بما أتقنتم من بنائها، وأوسعتم من فنائها، وعلَّيْتُم من مقاعدها، وحسَّنتم من مشاهدها"[(1)].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 394.

تهكُّمٌ واستهزاءٌ بالجاحدين المُنكرين

مفهوم الحرف (لَعلَّ) هنا:

(لَعلَّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ للتَّرجي؛ لكنَّه خرج عن معناه الحقيقيِّ إلى معنى الاستهزاء بهم والتَّهكُّم بما كانوا يظنُّونه ويعتقدونه بأنفسهم من أنَّهم أهلٌ للسَّخاء والكرم والعطاء؛ والمعنى عليه: ارجعوا إلى النَّعيم الذي كنتم فيه والمساكن التي كنتم تقطنونها لعلَّكم تُسألون شيئًا من دنياكم التي كنتم عليها كما تُصوِّر لكم أنفسكم أنَّكم أهل الفضل والعطاء.

اجتماع العذاب المُقيم والتَّهكُّم والحسرة على الظّالمين

دلالة التعبير بـ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

قوله عزَّ من قائلٍ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ من جملة التَّهكُّم بهم والتَّوبيخ والاستهزاء من شأنهم، ولمّا كان السّائلون لهم كثيرين؛ جاء التعبير بفعل السُّؤال مبنيًّا للمفعول لعدم تحديد السائل، فهو إمّا سؤال لهم عند عودتهم إلى نعيمهم ومساكنهم عمّا جرى عليهم وأصابهم، فيُجيبوا السّائل عن علم ومشاهدة، وإمّا سؤالٌ من عبيدهم وحَشَمهم وخُدّامهم في مجالسهم، وإمّا سؤالٌ للنّاس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المُهمّات، وإمّا سؤالٌ للوافدين عليكم والطّامعين فيكم[1]، فلمّا كان السّائل غير معلوم، أو ليس هناك داعٍ لذِكْره إمّا لتعدُّده أو شهرته؛ ورد فعل السؤال هنا مبنيًّا للمفعول.

سرعة المبادرة إلى المطلوب والإقرار بالذنوب

تقدير متعلّق السؤال في الآية:

للفعل تعلُّقٌ بالفاعل إذا كان واقعًا منه، وبالمفعول إذا كان واقعًا عليه، وكلٌّ من الفاعل والمفعول معمولٌ لهذا العامل، وقد يكون غرض المُتكلِّم بيان وقوع الحدث حسبُ دون النَّظر إلى الفاعل أو المفعول، وفي جملة السؤال حذف متعلِّقه؛ لأنَّ المقصود وقوع السؤال، فحذف المتعلِّق هنا؛ أيْ: تُسألون شيئًا من دنياكم فتُعطون مَن شئتم وتمنعون

(1) الزمخشريُّ، الكشّاف: 2/ 564 - 565، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 124.

مَن شئتم بحسب تصوُّركم أنفسكم من أنَّكم أهل العطاء والسَّخاء حين يسألكم الناس في النَّوازل والمُلمّات[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

القَصْم والفَصْم والكَسْر والقَطْع والصَّرْم:

القَصْم أن ينكسر الشَّيْء فيبينَ، وهو كسرٌ من الطول، والفَصْمُ أن ينصدع من غير أن يَبينَ، فهو تصدّع من غير كسر، والكَسْر: تهشيمٌ للشيء، والقَطْع: فصل الشيء وإبانته من شيء آخر، والصَّرْم: القَطْع[2]، وقد مرَّ في شرح المُفردات أنَّ القَصْمَ كسرٌ للشَّيْء الشَّديد حتَّى يبين، ولا يُرجى بعده التئام، ولا انتفاع لِما فيه من تحطيم وإذهاب وإهلاك، ولمّا كان ظلم أهل القرى هو إتيانهم بأعظم الذَّنب وهو الإشراك؛ ناسب لفظ القَصْم الدّالّ على الإهلاك القويّ والاستئصال، وهو ما لا تُعبّر عنه الألفاظ الأخرى بالدِّقَّة نفسها.

لمّا كان ظلم أهل القرى إتيانهم بأعظم الذَّنب وهو الإشراك؛ ناسب لفظ القَصْم

الإحساس والإدراك والشعور:

حقيقة الحسّ إدراك بالحاسَّة، أمّا الإدراك فهو لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه، وأمّا الشُّعور فهو أول مَراتِب وُصول العِلْم إلى النَّفس، والفرق بين الاحساس والإدراك والشعور أنه يجوز أن يُدرك الإنسان الشيء وإن لم يُحسّ به، كالشيء يُدركه ببصره ويغفل عنه؛ فلا يعرفه؛ فيُقال إنه لم يُحسّ به، وكل ما شعرت به فقد أحسسته؛ لكن الشعور علم يوصل إليه من وجهٍ دقيقٍ كدقَّة الشَّعر؛ ولذلك هو ابتداء العلم بالشيء من جهة المشاعر[3].

مباشرة ظهور الكفر والعذاب وعلمهما بالحواس أشدُّ وقعًا على النفس، وأرعب

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 222.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قصم)، و(قطع)، و(صرم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 431، والزبيدي، تاج العروس: (قصم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (درك)، و(شعر)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 23، والكفوي، الكلّيّات، ص: 66.

ولفظ البأس بمعنى شدّة العذاب لا يناسبه لفظا الإدراك بمعنى اللُّحوق، والشُّعورُ الدّالُّ على ابتداء العلم بالشيء وعلى الوجه الدقيق، وإنَّما اللَّفظ المناسب له، والمُنسجم معه في سياق ورودهما: (الإحساس)؛ ذلك أنَّ الكفر قد ظهر منهم ظهورًا بانَ للحِسّ فضلًا عن الفهم؛ فباشروه بالحواسِّ وعلِموه وشاهدوه، وعلموا شدة عذابنا علم حسٍّ ومشاهدة.

البأس والشّدة والعذاب والعقاب:

الإشـراك بالله أشـد الظُّـلـم، وجـــزاؤه قصمٌ بأشدّ العذاب

البأس هو الشدّة في كلّ شيء في الحرب، وفي العيش، وهو المكروه، والمَشَقَّة[1]؛ أمّا العذاب فهو الألم المُستمرُّ، وأمّا الشِّدَّة فهي المبالغة في وصف الشيء في صلابة وليس هو من قبيل القدرة[2]، ولمّا كان المناسب لسياق الآية اللفظة الدّالَّة على شدَّة العذاب المناسب لكفرهم والمُؤدّية إلى إذهابهم، وهو عذاب ليس مُستمرًّا وإنَّما انقطع بإهلاكهم؛ ناسَبَ ذلك اصطفاء لفظ البأس.

الرَّكض والفرار:

الـرّاكـض يـدرك الـعـذاب الواقع عليه وما حوله فـيـتـحـسّـر، ويـتـألَّـم على نعيمه الزائل

الرَّكض الضَّرب بالرِّجْل بسرعة، وأمّا الفرار فهو ركضٌ بخِفَّةٍ وطيّشٍ، ومَنْ يفرّ بطيشٍ من شدَّة الخوف لا يدرك ما حوله، بخلاف الرّاكض فإنّه يدرك ما حوله فيرى العذاب النازل به، والبأس الذي عُوقب به فيكون أشدَّ للرُّعب، وأدعى للحسرة على نعيمهم الزائل.

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس)، والراغب، المفردات: (بؤس).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 297، 354.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ [الأنبياء: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

خيبة الظّالمين أحلّت بهم حين جدَّ عذابهم

لما يئس الظالمون من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب؛ أدركوا أنَّ الأمرَ جدٌّ لا هزل، وأنّ العذاب نازلٌ بهم لا محالة، وأنّ القائلين لهم لا تركضوا إنّما يتهكّمون بهم؛ أخذ الظالمون يتفجَّعون ويتحسَّرون بعبارات الويل والثّبور[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَصِيدًا﴾: (حصد) أصْلانِ: أحدُهُما: قَطْعُ الشَّيْءِ، ومنه حَصدْتُ الزَّرْعَ وغيْرَهُ حَصْدًا[2]، فأصل الحَصْد: قطعُ الزرع وجَزُّه، وقَتْلُ الناس أيضًا حَصْدٌ، لذلك أُطلقَ على الاستئصال والإهلاك؛ يُقال: حصدهم السَّيف، وحصدهم الموت؛ ومنه قول اللّه تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾[3].

2) ﴿خَٰمِدِينَ﴾: (خمد) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على سُكونِ الحَرَكةِ والسُّقوطِ"[4]، وخَمد القومُ إذا لم تسمع لهم حِسًّا[5]؛ فأصل اللَّفظ من سكون النار وانطفاء لهبها، يُقال: خمدت ناره، ويُستعار ذلك للحُمَّى: وللموت لسكون حركتهم، وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾، كناية عن موتهم وهلاكهم[6].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 59، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 192.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصد).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (حصد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خمد).
(5) الخليل، العين: (خمد).
(6) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (خمد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 28.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

اعتراف الظالمين بظُلمهم أوّلُ باب هلاكهم

قال هؤلاء الظالمون - عند تيقُّنهم هلاكهم معترفين بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك: يا هلاكنا، إنّا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بربِّنا، وهذا اعترافٌ صريحٌ منهم بالكُفْر الموجِب للعذاب، وما زالوا يُرَدِّدون تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظُّلم، حتى حصدناهم حصدًا، وخمدت حركاتهم، وسكنت أصواتهم خمودًا كالنّار التي أصبحت خامدةً لا حياة فيها، وعقابهم هذا حقٌّ وعدلٌ جزاء إنكارهم النُّبوَّة، وجعلهم معجزات النَّبي عبثًا ولعبًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الفصل في قوله: ﴿قَالُواْ﴾:

أصوات الهاربين تُثبت فزعهم وهلعهم

فُصلت هذه الجملة عن سابقتها لكونها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا عن جملة ﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ كأنَّ سائلًا سأل عمّا يقولونه حين يسرعون هاربين؛ فيُجاب بأنَّهم أيقنوا حين يرون العذاب أنَّهم كانوا ظالمين، فيقرِّون بظلمهم ويُنشئون التَّلهُّف والتَّندُّم بقولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، هذا إن جعلت جملة ﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ معترضة، وإن جعلتها مقول قول محذوف كانت جملة "﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾ جَوابًا لِقَوْلِ مَنْ قالَ لَهُم لا تَرْكُضوا على وجْه التَّهكُّم بِهِم ويكونُ فصْلُ الجُملَةِ؛ لِأنَّها واقِعَةٌ في مَوْقِعِ المُحاورةِ كَما بَيَّناهُ غَيْرَ مَرَّةٍ؛ أيْ قالوا: قَدْ عَرفْنا ذَنْبَنا وحُقَّ التَّهكُّمُ بنا؛ فاعْتَرفوا بذَنْبِهِم"[(1)].

دلالة التعبير بفعل القول ماضيًا:

ندمٌ ولات حين مندم

في قوله ﷻ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾ ورد الفعل ﴿قَالُواْ﴾ ماضيًا، وذلك للدلالة على تحقُّق وقوع القول منهم وحصوله مُقرّين بكونهم ظالمين بما فعلوه في دنياهم كأنَّهم ندموا ولات حين مَنْدَمِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 26.

سرُّ التعبير بلفظ الويل دون غيره:

استحقّوا الويل بـمـا كسبته أيديهم

(ويْلٌ) معناه: قُبْحٌ، وقد يُستعمل على التَّحسُّر، ومَن قال: "ويْلٌ وادٍ في جهنّم"؛ فإنه لم يرد أنّ ويْلًا في اللّغة هو موضوع لهذا، وإنَّما أراد مَن قال اللّه تعالى ذلك فيه فقد استحقّ مَقرًّا من النّار، وثبت ذلك له[1]، والمشهد ههنا حقيقٌ بالتَّحسُّر، ولوم النفس على نعمةٍ لم يُحسنوا تقديرها.

بلاغة الاستعارة في لفظ الويل:

النِّداء بلفظٍ جامعٍ للتَّحسُّر والهلاك والإذهاب يناسب شدّة الهم

في القول استعارةٌ مَكنيَّة، حيث شبَّه الويل وهو الهلاك بالشخص الحي الذي يُدعى للإنقاذ، ثم حذف المُشبَّه به ورمز إليه بلازِمِه، وهو النِّداء لأنَّه لا يُنادَى إلّا العاقل وهو تخييل قرينة المَكنيِّ، وقد شاع عند المُفسِّرين إطلاق الويل على الهلاك، والتَّعبير بلفظٍ جامعٍ بين التَّحسُّر والهلاك والإذهاب، ثم يقع منهم التَّندُّم والتَّحسُّر، وناهيك عن سوء الأمرين الحالَّين بهم؛ فأحلُّوا أنفسهم دار البوار.

مرجع الضمير في ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾:

أهل الظُّلم في غباء محكم وعمًى في الدُّنيا والآخرة

التّعبير بالضمير هنا في لفظ النداء يعود على هؤلاء الظالمين الذين قالوا ذلك منادين على ويلهم، قال البقاعي: "إشارة إلى أنّه حلّ بهم؛ لأنَّه لا ينادي إلّا القريب، وترفُّقا له كما يقول الشخص لمَنْ يضربه: يا سيدي - كأنَّه يستغيث به ليكُفَّ عنه، وذلك غباوةٌ منهم، وعمًى عن الذي أحلَّه بهم، لأنَّهم كالبهائم لا ينظرون إلّا السَّبب الأقرب"[2].

مجيءُ الكلام مُؤكَّدًا مُسندًا إليهم:

إذا أدمن القلبُ الظُّلمَ عشَّش فيه واتَّخذه سكنًا

ورد قوله تعالى على لسانهم حكايةً لكلامهم ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تعليلًا لحلول الهلاك بهم؛ فجاء الكلام مُؤكَّدًا بقولهم:

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (ويل).

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 395.

﴿إِنَّا كُنَّا﴾؛ أيّ: كان الظلم منّا جِبلَّة وطبعًا لا يفارقنا، وهذا اعترافٌ صريح منهم بحصول ذلك ووقوعه، وقولهم هذا ندمٌ منهم وتحسُّرٌ دون جدوًى، ومن خصائص التوكيد بـ"إنَّ" كونها تربط الجملة الواقعة فيها بما قبلها، ولو أُسقطت لذهب رونق الكلام وصار الكلام مُفكَّكًا لا ميزة فيه ولا روح له، ولمّا كانت رابطة للجملتَيْن مُنع استعمال الفاء بدلًا عنها، - وأيضًا - تُهيئ النَّكِرة فتجعلها صالحة لأن يُتحدَّث عنها ويُبتدأ بها، ويُحذف معها الخبر لأنَّها تُغني عنه.

سرّ التعبير بفعل الكينونة ماضيًا مُضافًا إليهم:

حـاذر أن تجني ثمار النَّدم من بذور الظلم

ورد الفعل ﴿كُنَّا﴾ ماضيًا لتحقُّق وقوع الظُّلم منهم وكونه حاصلًا لا محالة، فضلًا عن كونه أصبح كالخلقة فيهم والطبع لكثرة ما مارسوه؛ وهذا اعتراف منهم على سبيل التَّحسُّر والتَّندُّم الحاصل لمّا عاينوا هلاكهم واستئصالهم وألّا مهرب لهم منه على الإطلاق؛ فهم خليقون بأن يحلَّ بهم هذا العذاب؛ فاعترفوا بأنَّهم ظالمون دون غيرهم لما ارتكبوه من تكذيب الأنبياء وقتلهم.

نكتة التَّعبير باسم الفاعل ﴿ظَٰلِمِينَ﴾:

اتِّحاد حالهم مع الظُّلم يُلاصقونه ويُلاصقهم

ورد التّعبير باسم الفاعل ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ للدلالة على ثبوت الظُّلم منهم واستمراره؛ فصارت صفة (الظُّلم) ملازمة لهم لا تنفك عنهم بحالٍ من الأحوال؛ فصاروا أشدَّ لصوقًا بها، مع لحاظ قرينة فعل الكون الدّالِّ على رسوخ الصِّفة فيهم؛ كالطبع بحسب ما مرّ بيانه.

دلالة حذف مُتعلّق اسم الفاعل:

تكذيبُ الرُّسل الكـرام حجْبٌ لسبيل الهدى والرشاد

يُحذف متعلّق الفعل سواء أكان فاعلًا أم مفعولًا؛ لأنَّ الحديث دومًا مُنصَبٌّ على وقوع الحدث دون النَّظر إلى مَنْ وقع منه الفعل أو عليه، وهنا حُذف متعلِّق اسم الفاعل؛ والتقدير: "ظالِمِينَ (يعني

لأنفسنا) حين كذَّبنا الرسل، وذلك أنَّهم اعترفوا بالذَّنب حين عاينوا العذاب، وقالوا ذلك على سبيل النَّدامة ولم ينفعهم النَّدم"[1].

معنى الفاء في ﴿فَمَا﴾:

عدلُ الله تعالى في عقاب مَن يستحق

الفاء هنا عاطفة لجملة ﴿فَمَا زَالَت﴾ على قولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ من عطف الخبر على الإنشاء؛ إذ إنَّ الأخيرة اشتملت على النِّداء بالويل والثبور، والفاء العاطفة معناها التَّعقيب، والتعقيب في كلِّ شيء بحسبه، وهو يكون لما بَعُدَ في العادة تعقيبًا لا على سبيل المُضايفة، ويرى البقاعي سببية الفاء في ﴿فَمَا﴾؛ "أيّ: فتسبَّب عن إحلالنا ذلك البأس بهم أنه ما زالت"[2]؛ فالفاء "للتَّفريع على جملة ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾"[3].

دلالة التعبير بالفعل ﴿زَالَت﴾ ماضيًا:

دعوة قديمة حديثة لا تنقطع بعد معاينتهم العذاب

جاء الفعل ﴿زَالَت﴾ هنا ماضيًا للدلالة على تحقُّق هذا الفعل وحصوله ووقوعه منهم بلا محالة؛ وذلك تصويرٌ لحالتهم التي كانوا عليها في ندائهم بالويل والثبور وما آل إليه حالهم.

عود الضمير في الفعل ﴿زَالَت﴾:

الحسرة دليل الاعتراف بالظلم

في قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ ورد ضمير تأنيث الفعل هنا عودًا على مقالة هؤلاء الظالمين حين قالوا متحسِّرين على ما وقع منهم بوضعهم الأشياء في غير موضعها: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وهذا اعترافٌ منهم بالظُّلم الواقع منهم.

دلالةُ إيثارِ اسم الإشارة ﴿تِّلۡكَ﴾:

للخائف أقوال مكرَّرة فلا يهتدي لكلام جديد

المُراد باسم الإشارة الدّالِّ على المُشار إليه البعيد ﴿تِّلۡكَ﴾ بيان كون ما نطقوا به أمرًا شديدًا مهولًا، وهو الدُّعاء على أنفسهم بالويل

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/ 222.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 395.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 26.

والثُّبور حين رأوا أنَّ الهلاك والعذاب النّازل بهم صار أمرًا مُحتَّمًا وقوعه لا محالة، وجاء مؤنَّثًا لأنها دعوى كأنَّه قيل: فما زالت تلك دعواهم يُكرِّرونها للدُّعاء على أنفسهم؛ لأنَّ شأن الأقوال التي يقولها الخائف أن يُكرِّرها إذ يغيب رأيه فلا يهتدي للإتيان بكلام آخر، بخلاف الكلام المسوق جوابًا فإنَّه لا داعي إلى إعادته[1].

إيثار التَّعبير بلفظ الدَّعوى، ومرجعُ ضميرها:

إقبالُ الويلِ على القُرى الظّالمة أمرٌ كائنٌ لا محالة

عُبِّرَ بلفظ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ "لأنَّ المولول كأنَّه يدعو الويل، فيقول تعالى: يا ويل فهذا وقتك"[2]؛ فالمَقْصود منه هو الدُّعاءُ على أَنْفُسِهِم بالويْلِ، والدُّعاءُ يُسَمَّى دَعْوى كما في قَوْلِه تَعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ في سورَةِ يونُسَ [الآية 10][3]، والضمير في لفظ الدعوى عائد على هؤلاء الظالمين من أهل القرية الموصوفة فيما سبق بكونها ظالمة واعترافهم هم بكونهم ظالمين في زمانهم الذي كانوا يعيشون فيه.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في: ﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾:

انتهاءٌ مؤلمٌ لكن كلّه عدل

إيثار الحَرْف "﴿حَتَّىٰ﴾ مُؤْذِنٌ بنِهايَةِ ما اقْتَضاهُ قَوْلُه تَعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾"[4]، فـ(حتى) لا تُستعمل إلّا لما كان آخرًا أو مُتَّصلًا به، فتقول: (نمتُ حتى آخر الليل)؛ لأنَّ آخر الليل هو آخر جزء من الليل، والصباح ملاقٍ لآخره، ولا يجوز أن تقول: (نمت حتى منتصف الليل) و(نمت حتى ثلثه)؛ لأنَّ منتصف الليل ليس آخر الليل وكذلك ثلثه، فـ (حتى) تُستعمل غاية لآخر الأمر[5].

اختيار التَّعبير بالجعل دون سواه:

قوّة في الفعل تُناسب مع عظمة جرمهم

"الفعل (جعل) لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلّها، وهو أعمّ من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 26.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 565.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 17/ 26.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 26.
(5) السّامرّائيّ، معاني النحو: 3/ 35.

(فعل) و(صنع) وسائر أخواتها، ويتصرَّف على خمسة أوجه: منها (التَّصيير)؛ أيْ: تصيير الشيء على حالة دون حالة، نحو: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: 16]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 3][1]، وهو المعنى المقصود في الآية هنا على رأي جمهرة المُفسِّرين، والمُراد: صيَّرناهم حصيدًا خامدين فهو أعم وأوسع وأشمل من التعبير بلفظ الفعل والصُّنع وما شابههما.

نكتة الإسناد في ﴿جَعَلْنَٰهُمْ﴾:

طلاقة قدرة الله تعالى وأخذه الأليم الشديد

جاء فعل الجَعْل هنا مُسنَدًا إلى ضمير الذّات العليَّة ﷻ: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ﴾ بيانًا لقدرته ﷻ، وأنَّه هو القادر على تصييرهم إلى هذه الحالة الفانية المذكورة هنا، وهذا من تعظيم شأن كلٍّ من المُسنَد والمُسنَد إليه، فالتَّصيير تحويل وتغيير، والمُصَيِّرُ لهم هو اللّٰه تعالى؛ فجاءت هذه الجملة بيانًا قويًّا لما آل إليه حالهم.

مرجع الضَّمير في فعل الجَعْل:

ضمير الغيبة يُجَسِّد غيبتهم عن الحياة ووقوعهم في العذاب الشديد

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ﴾ عاد ضمير الغيبة (هم) على هؤلاء الظالمين الذين سبق ذِكْرهم، فلمّا وقع منهم الاعتراف بالظُّلم صيَّرهم اللّٰه تعالى إلى هذه الحالة المذكورة.

دلالة قوله تعالى: ﴿حَصِيدًا﴾ صيغةً:

مصير الظّالمين معروفٌ، واللهُ لا يُخلف وعده

آثر الذكر الحكيم التعبير بـ﴿حَصِيدًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾، و(حصيد) هنا على وزن (فعيل) وهي صيغة مبالغة، و﴿حَصِيدًا﴾ بمعنى محصودين على استواء الجَمع والواحد في (فَعيل)؛ بمعنى: مفعول، ليُلائم ﴿خَٰمِدِينَ﴾، ويجوز أنْ يُجعل ﴿حَصِيدًا﴾ تشبيهًا؛ أيْ: جعلناهم مِثلَ الحصيد؛ كما تَقُولُ: جعلناهم رمادًا؛ أيْ: مِثْلَ الرَّمادِ، وجعل غَيْرُ واحِدٍ إفْرادَ الحصيد لهذا التَّأويلِ، فإنَّ مَثَلًا

(1) الرّاغب، المُفردات: (جعل).

لِكونه مصدرًا في الأَصْلِ يُطلق على الواحد وغيره؛ وهو الخبرُ حقيقةً في التَّشبيه البليغ[1].

دلالة صيغة (فاعل) ﴿خَٰمِدِينَ﴾:

تشبيه الظالمين قَبلَ هَلاكِهم بِزَرْعٍ حسنِ المَنْظَرِ والطَّلْعَةِ

يقول الشيخ الطّاهر بن عاشور: "والخامِدُ: اسْمُ فاعِلٍ من: خَمَدَتِ النّارُ تَخْمُدُ - بِضَمِّ الميم - إذا زالَ لَهيبُها، شُبِّهُوا بِزَرْعٍ حُصِدَ؛ أيْ: بَعْدَ أنْ كانَ قائِمًا عَلى سُوقِه خَضِرًا؛ فهو يَتَضَمَّنُ تَشْبِيهَهَم قَبْلَ هَلاكِهِم بِزَرْعٍ في حُسْنِ المَنظَرِ والطَّلْعَةِ، كَما شُبِّهَ بِالزَّرْعِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: 29].

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾:

عذابٌ خمدتْ منه الحركات، وسكنتْ منه الأصوات

ورد قولُه تعالى: ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ تشبيهًا بليغًا، فقد شُبِّهوا بعد حلول العذاب بهم ونزوله ساحتهم بالحصيد وهو الزرع المحصود؛ لأنَّ فعيلًا هنا بمعنى مفعول، ووجه الشَّبه بين الطَّرفيْن هو الاستئصال من منابت الزَّرع، ثمَّ شُبِّهوا بالنّار المُنطفئة التي لم يبق فيها إلّا الحَجَر المُنطفئ فلا ينتفع به على الإطلاق، فلا يرى مَن يشاهدهم إلّا أجزاء متفرِّقة وقِطَعًا متناثرة حلَّ بها الفناء وركبها الهلاك.

محلُّ الجملة ووجه إعرابها:

لا قيام لأهل الظُّلم مرَّةً أخرى؛ فقد حصدهم العذاب وأخمدهم

وقعت جملة ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ مفعولًا به ثانيًا؛ لأنَّ حُكمهما حُكمُ الواحد إذْ إنَّ معنى الآية: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود كما تقول: (جعلته حلوًا حامضًا) جعلته جامعًا للطَّعميْن، وقد يجوز جعل ﴿خَٰمِدِينَ﴾ صفة لقوله ﴿حَصِيدًا﴾[2]، أو هي حال مُبيِّنة لمآلهم وما وصلوا إليه.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 565، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 17 - 18.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 565.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخُمُودُ والهُمُودُ والخُبُوُّ والإطفاءُ:

إذا خمدت النارُ سكن لهبها، وإذا طفئت همدت[1]؛ فالهمود انطفاءٌ تامٌّ، والخمود "انقطاعٌ للحادّ الذي شأنه أن ينفذ من الشَّيء كانقطاع اللهب الذي كان ينفذ من النار بالدفن أو غيره مع عدم انطفاء الجمر"[2]؛ فخمود النّار: أن يسكن لهبها ويبقى جمرها وهمودها ذهابها البَتَّة[3]؛ أيْ: تصبح ساكنةً دارسةً باليةً[4]، والخُبوُّ: انطفاءُ لهيب النار وسكون حرّها كأنما تَصوَّر عليها خباءٌ يسترها من رمادٍ ويغشيها[5]، ومعنى السكون وبقاء الجمر المتضمِّن في لفظ الخمود يناسب حسرتهم ودعاءهم على أنفسهم بالويل والثبور.؛ وليس الهمود النهائي، أو الخبوّ بذهاب الحرّ.

حسرتهم ودعاؤهم على أنفسهم بالويل يتطلّبان فناءهم بعد وقتٍ

والإخماد يُسْتَعْمل في الكثير، والإطفاء في الكثير والقليل، والخمود يكون بالغلبة والقهر، والإطفاء بالمداراة والرفق، ولِهذا يُستعمل الإطفاء في الغَضب، لِأَنَّهُ يكون بالمداراة والرفق والإخماد يكون بالغلبة، ولِهذا يُقال خمدت نيران الظُّلم والفتنة[6]، ومعنى الغَلَبَة يناسب سياق عقابهم، ولا يُناسبه معنى المداراة والرفق.

(1) الخليل، العين: (خمد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خمد).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 300.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 109.
(5) السمين، عمدة الحفّاظ: (خبو).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 300.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ [الأنبياء: 16 - 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

كلُّ شيءٍ في كون الله تعالى خُلِق بحكمة ولحكمة يعلمها الله تعالى

لما أنكر هؤلاء النُّبوَّة وجعلوا معجزات الأنبياء عدمًا وعبثًا ولعبًا أبان تعالى أنه ما خلق السَّماء والأرض وما بينهما إلّا بالعدل فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾؛ أيِّ: وما أوجدنا السَّماوات والأرضِيْنَ إلّا بالحقِّ؛ أيِّ: بالعدل والقسط، لا للهو واللَّعب، فإنا خلقناها لفائدة دينيَّة هي أن تكون دليلًا على معرفة الخالق لها ولمنافع الدنيا وغيرها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٰعِبِينَ﴾: (لعب) أَصْلانِ يَتفرَّعُ مِنْهُما كَلِماتٌ: إحْداهُما اللَّعِبُ[1]، وهو الهزل، ضدّ الجدّ، واللعب فعلُ ما لا فائدة فيه، وهو أيضًا: ما فعل من غير قصدٍ صحيحٍ، وهو: كل عملٍ لا يجري على فاعله نفعًا[2]، ومعناها في الآية: العمل أو القول الذي لا فائدة تُتحصَّل منه، ولا نفعٌ يُرتجى منه، ولا مَفسَدة تُدفع فيه ولا ضرَّ، وإنَّما يُقصد به إرضاء النَّفس حين تميل إلى العبث، فهو الباطل الذي ليس فيه حكمة[3].

2) ﴿لَهْوًا﴾: (لهو) أَصْلانِ صَحيحانِ: أحدُهُما يَدُلُّ على شُغْلٍ عَنْ شَيْءٍ بشَيْءٍ؛ والآخَرُ على نَبْذِ شَيْءٍ مِنَ اليَدِ، ولهيتُ عن الشَّيْءِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لعب).
(2) السمين، عمدة الحُفّاظ: (لعب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 32.

إذا تَركْتَهُ لِغَيْرِهِ[1]، فاللّهو: الشُّغل عن مهمّات الأمور[2]، وصرف الهمّ عن النَّفس بالقبيح[3]، وبما لا يُحسن أنْ يُصرف به[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحكيمُ لا يخلق شيئًا سُدًى وهَمَلًا، حاشاه من ذلك

بعد أنْ أنكرَ هؤلاء الظالمون دعوة الرّسل للإيمان باللّه تعالى، ولم ينتفعوا بالمعجزات التي أرسل بها رُسُلَه؛ بيَّن تعالى أنَّه ما خلق شيئًا إلّا بحكمةٍ ولحكمة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، والمعنى:"إنَّنا لم نخلق السماوات والأرض وما بينهما عبثًا، وإنَّما خلقنا هذه المخلوقات بحكمتنا وقدرتنا، وقوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ استئنافٌ مُقرّرٌ لمضمون ما قبله، من أنَّ خلق السَّموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثًا؛ وإنَّما لحِكَمٍ بالغة"[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوصل بواو العطف:

دعـوةٌ للتَّفكير والاستدلال وإعمال العقل

الواو حرف عطف أو استئنافيّة، والجملة إشارةٌ إجماليةٌ مسوقةٌ لعرض البدائع والعجائب التي انطوى عليها خلقُ السّماوات والأرض، وبيان أن تكوينَ العالم وإبداعَ بني آدمَ مؤسَّسٌ على قواعد الحِكَمِ البالغةِ المُستتبِعة للغايات الجليلةِ وما فيها للعظة، ولتكون مطارح اعتبار وحافزًا للتَّفكير والاستدلال؛ فإنّ ما حُكي من العذاب الهائلِ والعقاب النازلِ بأهل القرى من مقتَضيات تلك الحِكَم ومتفرِّعاتها؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(2) السمين، عمدة الحُفّاظ: (لهو).
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 398.
(4) القونوي، حاشية البيضاوي: 17/ 396.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 194.

لأنّ للمخاطَبين المُقتدرين بآثارهم ذَنوبًا مثلَ ذَنوبهم[1]، ويُلمحُ فيها الدلالة على الوعيد.

دلالة النَّفي بـ ﴿وَمَا﴾:

﴿وَمَا﴾ هنا نافية بمعنى: لم نخلق السماء والأرض وما بينهما من مخلوقات للَّعب واللّهو، و(ما) النّافية لها صدر الكلام، وهي هنا داخلة على الفعل الماضي ﴿خَلَقْنَا﴾ بمعنى لم، وجعل سيبويه - رحمه الله تعالى - فيها معنى التَّأكيد لأنَّها تجري مجرى (قد) في النَّفي، فكما أنَّ قد فيها معنى التَّأكيد فكذلك ما جعل جوابًا لها[2].

كـلُّ شيء في خَلْق الله تعالى مخلوقٌ لمُهِمَّةٍ على حسب ما اقتضت حكمته تعالى

وفضلًا عن معنى التَّوكيد فإنّ في دخول (ما) على الماضي دلالةً على انتفاء الحدث وانقضائه مرَّةً واحدةً من غير تجدُّدٍ وتكرارٍ؛ أيْ: نفي الحدث بصورته المُنقضية التّامّة، والمعنى هنا: ما خلقنا السَّماء والأرض بصورتَيْهما التّامَّة الكاملة المُنصرِمة المُنقضية لاعبين.

خلقُ السماء والأرض تمَّ وانقضى مرّةً واحدةً

دلالة التَّعبير بالخلق دون غيره:

إيثار لفظ (الخلق) بما يحمله من دلالات: التقدير المستقيم، وإبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء، ولا مثال سابق، الخاصّ بالله تعالى وحده[3]، مقصود ههنا لكون خلق السماوات والأرض هو من الإبداع والإيجاد المُقدَّر على غير مثال سابق، وكان الغرض والمقصود الأسمى هو كون الخلق للنَّظر والاعتبار وآية باهرة على قدرته سبحانه لذا ورد التعبير بفعل الخلق؛ "ولِذلك كَثُرَ تَعْقيبُ ذِكْرِ نِظامِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ بِذِكْرِ الجَزاءِ الآجِلِ والبَعْثِ وإهْلاكِ بَعْضِ الأُمَمِ الظّالِمَة، أوْ تَعْقيبُ ذِكْرِ البَعْثِ والجَزاءِ الآجِلِ والعاجِلِ بِذِكْرِ نِظامِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ"[4].

إيجادٌ مُحكمٌ لا حذو له ولا نظير دالٌّ على قدرة الخالق ﷻ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 59، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 293.
(2) الزركشي، البرهان: 4/ 405 - 406.
(3) الراغب، المُفردات: (خلق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 29.

سرُّ إضافة فعل الخلق إلى ضمير العظمة:

صنعُ الله تعالى في غاية الإبداع والإمتاع والنَّفع

ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ مُسنَدًا إلى ضمير العظمة الذي يُراد به الله ﷻ؛ لأنَّ خلق السماوات والأرض لمّا كان أمرًا لا يُوجد مثله للإحكام وبديع الصُّنع، وكونهما مخلوقين لا على مثال سابق أو حذو يُنسج على منواله؛ إذ لا يقدر على هذا إلّا اللّه تعالى، ومن هنا نسب فعل الخلق إليه تعظيمًا وتشريفًا لما أُضيف إليه فعل الخلق، فالإضافة هنا إضافة تشريف وتعظيم، إلى ما في الإضافة هنا؛ لأنَّه أخصر طريق لإحضاره في ذهن السّامع.

سرُّ التعريف في ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

عَظَمَة خلق السماء وسَعة الأرض مدعاةٌ لتعظيم الله تعالى وإجلاله

ورد لفظا ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ هنا مُعرَّفيْن بـ(أل) العهديَّة، ولمّا لم يتقدَّم ذِكْرٌ صريحٌ أو كنائيٌّ لهما عُرِّفا بالعهد العلميِّ أو الحضوريِّ، فأعلم السّامع بالمقصود من خلقهما، وأُحضر له في الذِّهن حضورًا تامًّا؛ فجاء تعريفهما بـ(أل) العهديَّة العلميَّة أو الحضوريَّة لغرض إحضار هذا الخَلق العظيم في ذهن السّامع وإعلامه به.

المُراد بـ ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

تعدد وسائل الاستدلال بين خلق السَّماء والأرض وما بينهما من مخلوقات

(ما) هنا اسم موصول بمعنى (الذي)، واسم الموصول من الأسماء المُبهَمَة يحتاج دومًا إلى الصِّلة التي تُزيل إبهامه، وورد هنا لكونه الوسيلة الوحيدة للمعرفة، ومُرادٌ به - أيضًا - تعظيم أمر الخلق وتفخيمه مع زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو بيان قدرة اللّه تعالى في إيجاد الأمور العظام؛ ومنها خلق السماوات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق.

لا حدود لما بين السَّماء والأرض من المخلوقات، ولا إحصاء ولا عدّ

وفي دلالة (ما) على العموم شمول كلِّ مخلوق بين السماء والأرض من غير تحديد، أو تقييد؛ لكونها تقع لذوات ما لا يُعقل، ولصفات العقلاء؛ فهي أوسع استعمالًا، وهذه السّعة تناسب لا محدودية المخلوق بينهما.

معنى (بين) وسِرُّ التَّنصيص عليها:

توجيه العقول للتَّدبُّر فيما بين السَّماء والأرض من مخلوقات

(بَيْن) لفظٌ موضوع للخلالة بين الشَّيئَيْن ووسطهما، ولا يُستعمل (بين) إلّا فيما كان له مسافة، نحو: بين البلدَيْن، أو له عدد ما اثنان فصاعدًا[1]، وما بين السَّماء والأرض مسافة وخلالة بين الشَّيئَيْن يصلح معها ذِكْر (بين)، وسرُّ التَّنصيص على ذِكْر البينيَّة هنا أيضًا أنَّه لمّا كان خلق السماوات والأرض من الأمور العظام استُطرد للحديث عمّا يشملانه من المخلوقات؛ فورد التعبير بقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تتميمًا وتكميلًا لذلك، "ولِأَجْلِ هذا اطَّرد أَوْ كادَ أَنْ يَطَّرِدَ ذِكْرُ لَفْظِ (وما بَيْنَهُما) بَعْدَ ذِكْرِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الفرقان: 59] في مِثْلِ هذا المَقام؛ لِأَنَّ تَخْصيصَ (ما بَيْنَهُما) بالذِّكْرِ يَدُلُّ على الِاهْتِمامِ بِهِ؛ لِأَنَّ أشرفه هو نَوْعُ الإنْسانِ المَقْصودِ بالعِبْرَةِ والِاسْتِدْلالِ وهو مَناطُ التَّكْليفِ"[2].

التعبير بلفظ (اللَّعب) ودلالته:

إبداع الله تعالى في خلقه مؤسَّس على قواعد الحكمة البالغة

"اللعب عمل للذة لا يراعى فيه داعي الحكمة كعمل الصبي؛ لأنَّه لا يعرف الحكيم ولا الحكمة وإنما يعمل للذة"[3]، فهو الفعل الذي لا يقصد به مقصد صحيح"[4]، "لبيان كمالِ تنزّهه تعالى عن الخَلْق الخالي عن الحِكمة بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحدٌ في استحالة صدورِه عنه سبحانه؛ بل إنَّما خلقناهما وما بينهما لتكون مبدأً لوجود الإنسان وسببًا لمعاشه، ودليلاً يقودُه إلى تحصيل معرفتِنا التي هي الغايةُ القصوى بواسطةِ طاعتِنا وعبادتنا"[5]؛ فاللعب باطل لعدم وجود حكمة مقتضاة في عمله وهو يضادُّ الحكمة.

---

(1) الراغب، المفردات: (بين).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 30.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة ص: 268.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 18.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 59.

بلاغة الاحتراس في لفظ ﴿لَٰعِبِينَ﴾:

ذِكْرُ خلقِ السّماء والأرض يقتضي علّةَ خلقهما

ومعنى ﴿لَٰعِبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾؛ أيّ: "غير مريدين بذلك تحقيق الحقائق وإبطال الأباطيل؛ بل خلقنا لكم ذلك آية عظيمة كافية في الوصول إلينا ليظهر العدل في جزاء كل بما يستحقّ، مشحونة بما يقوت الأجسام، ويُهيّج النفوس ويشرح الصدور، ويريح الأرواح ويبعث إلى الاعتبار، كلَّ مَن له استبصار للدلالة على حكمتنا ووجوب وحدانيتنا فاتخذتم أنتم ما زاد على الحاجة لهوًا صادًّا عن الخير، داعيًا إلى الضَّيْر"(1)، فنفي اللَّعب هنا احتراسٌ ورد حفاظًا على المعنى من كلِّ ما يُفسده أو يُغيِّره، فلمّا ذكر خلق السماء والأرض وما بينهما؛ أبان أنَّ خلقهما لم يكن لعبًا أو عبثًا، أو هو تكميل لأداء المُراد من ذِكْر هذا الخَلْق.

موقع جملة ﴿لَٰعِبِينَ﴾ من الإعراب:

وجود السّماء والأرض تكميلٌ لأداء المُراد من ذِكْر هذا الخلق

جملة ﴿لَٰعِبِينَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ حالٌ من الفعل في قوله: ﴿خَلَقۡنَا﴾، وهي هنا حالٌ لازمةٌ لصاحبها لا تنفك عنه لعدم استقامة المعنى بدونها(2)؛ فليست منتقلةً لا تتحوَّل من حالٍ إلى حالٍ.

دلالة التّعبير باسم الفاعل ﴿لَٰعِبِينَ﴾:

خلقُ السّماوات والأرض آيةٌ عظيمةٌ كافيةٌ في الوصول إلى الخالق ﷻ

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ جاء التّعبير بلفظ اللَّعب هنا اسم فاعل دلالة على الثُّبوت والاستمرار؛ فجاء نفي اللَّعب عنه ﷻ هنا بما يدلُّ على ثبوت ذلك باسم الفاعل.

سرُّ الفصل في قوله: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فُصلت جملة ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ﴾ عن سابقتها لكمال الاتّصال

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 395.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 32.

اللعب ليس من شأن الخالق ﷻ

لكونها مُفسِّرة أو معلِّلة لجملة ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾؛ فجاءت "مُقَرِّرَة لِمَعْنَى جُملَةِ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ تَقْرِيرًا بالاِسْتِدْلالِ على مَضْمونِ الجُملَةِ، وتعليلًا لِنَفْيِ أنْ يَكونَ خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ لَعِبًا؛ أيْ: عَبَثًا بأنَّ اللَّعِبَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِنا، أوْ على الفَرْضِ والتَّنازُلِ: لَوْ أرَدْنا اللّهو لَكانَ ما يَلْهو به حاصِلًا في أشْرَفِ الأماكِنِ من السَّماواتِ؛ فإنَّها أشَدُّ اخْتِصاصًا باللّه تَعالى إذْ جَعل سُكّانَها عِبادًا لَهُ مُخْلِصينَ"[1].

دلالة ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ﴾:

يفعل الله تعالى ما يريد فعله بما تُوجبه حكمته

﴿لَوۡ﴾ شرطيَّة امتناعيَّة تدخل على الماضي وتُفيد عدم تحقُّق جملتيْها؛ والمعنى: لو أردنا اتخاذ لهوٍ لاتَّخذناه، ولكن ذلك لا يكون، وهذا تعريضٌ ببيان قدرته على فعل ما يُراد فعله إلّا أنَّه يستحيل أن يفعل ذلك لعظمته ﷻ، ولهذا قيل: هي حرفٌ لما كان سيقع لوقوع غيره، أو هي لتعليق ما امتنع بامتناع غيره، وكونها شرطيَّة يقتضي امتناع ما يليها واستلزامه لتاليه.

إيثار التعبير بالإرادة مُسندة ﴿أَرَدۡنَآ﴾:

لفت الأنظار إلى وجوب الاعتبار بخلق السماوات والأرض

تُستعمل الإرادةُ تارة في المبدأ، وهو: نزوع النّفس إلى الشيء، وتارة في المنتهى، وهو الحكم فيه بأنَّه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل، فإذا استعمل في اللّه؛ فإنه يُراد به المنتهى دون المبدأ، فإنَّه يتعالى عن معنى النُّزوع، فمتى قيل: أرادَ اللّه كذا؛ فمعناه: حكم فيه أنه كذا وليس بكذا، وتذكر الإرادَةُ ويُراد بها معنى الأمر، وكذلك معنى القصد[2]؛ فالتعبير بالإرادة دليلٌ قويٌّ في الرَّدِّ على مَن ظنُّوا أن خلقه السماوات والأرض من قبيل الهزل؛ فجاءت الإضافة للتَّشريف لما أضيف إليه ضمير العظمة وهو فعل الإرادة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 33.
(2) الراغب، المفردات: (رود).

سرُّ مجيء ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾:

وردت ﴿أَن﴾ في جملة ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ لتأكيد الإرادة، وورودها رابطٌ لجملتها بما قبلها، وهو بيان اتِّخاذ اللّهو المُترتِّب على فعل الإرادة، ووجودها أضفى على النَّظم رونقًا لا يتحقَّق بعدم وجودها، فلو أُسقطت ﴿أَن﴾ صار الكلام مُفكَّكًا لا روح فيه ولا ميزة، والجملة فيها مزيدُ بيانِ بُعْدِ خلق السماوات والأرض عن كونه لهوًا أو لعبًا حاشاه تعالى أن يصدر منه ذلك البتَّة.

لا يفعل ربنا شيئًا إلّا لحكمةٍ ولا يترك إلّا لحكمة

دلالةُ اختيارِ فعلِ الاتِّخاذ في معنى الجمع:

"الأَخْذُ: حَوْزُ الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول، وتارةً بالقهر، ويُعدّى إلى مفعولَيْن ويجري مجرى الجعل"[1]، وورود فعل الأخذ مجموعًا تعظيمًا وتشريفًا له ﷻ مع مزيد بيان قدرته على فعل ما يريد وما يذره، فيعبَّر بالجمع عن المفرد مُرادًا به التَّعظيم والتَّشريف.

عظمة الفعل من عظمة فاعله

فائدة صيغة الافتعال:

الاتِّخاذ من أفعال التحويل والتَّصيير، وصيغته تدلُّ على قوّة الفعل، والمبالغة في تحصيله، فضلًا عن قيد القصد والتَّعمُّد فيه ممّا يُقرِّر معنى الإمكان على إرادة الاتّخاذ ويُحقِّق دلالة قدرته ﷻ وبلحاظ دلالة التَّعظيم المُتحقِّق من جمع الفعل ﴿نَّتَّخِذَ﴾.

قدرة الله تعالى على الاتّخاذ مُتحقّقةٌ لا ريب

فائدة المصدر المُنسبك ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾:

يُفيد المصدر المؤوَّل الدلالة على الزمن: الماضي، أو الحال، أو الاستقبال، بحسب الفعل بخلاف المصدر الصريح، ويدلُّ - ولا سيّما مع ﴿أَن﴾ - على مجرّد معنى الحدث دون احتمال زائد عليه، ففيها - يعني ﴿أَن﴾ - تحصينٌ من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال، ومن هاتيْن الوظيفتيْن المعنويّتيْن للمصدر المُؤوَّل نستطيع

إطلاق زمن الاتِّخاذ، وعدم تحديد كيفيَّته أدلّ على مُطلَق القدرة

(1) الراغب، المفردات: (أخذ).

توجيه قصديَّة استعماله في قوله تعالى: ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ دون المصدر الصَّريح (اتّخاذ) باستمرار زمن الاتِّخاذ دون تقييده بزمنٍ مُحدَّد، وذلك أدعى لمُطلَق القدرة، وأدلُّ على تمام الإمكان.

أمّا دلالة المصدر المُؤول على الحدث دون معنًى زائد عليه؛ ففيه ملمحٌ بيانيٌّ بديعٌ تحريره: أنّ المبتغى الإشارة إلى إمكان اتّخاذ السماء والأرض وما بينهما لهوًا، من غير النَّظر إلى كيفيّة هذا الاتّخاذ فهو أمر يخضع لكمال قدرته تعالى التي لا يُعجزها شيءٌ.

إيثار لفظ اللّهو مُنكَّرًا:

عـدم تحديد اللّهو أدلُّ على كمال قدرته تعالى

مجيءُ لفظ اللّهو على صيغة التَّنكير، ووقوعه في سياق النَّفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: 36] أدلّ على العموم، والشُّيوع في آحاد الشَّيء، والإبهام؛ لأن التنكير يستلزم خفاء المعرفة، والمعنى: أيُّ لهوٍ كانَ قلّةً أو كثرةً أو كيفيّة، وإنْ دلّت على التّمام؛ أيْ: لهوًا تامًّا مبالغًا فيه، وذلك كلّه أدلُّ على كمال القدرة، وتعدد دلالات اللّهو يناسب تنكيره فهو "يعمّ كل ما يلهي عن الغايات والمطالب، وهو يُطلق على الأسباب التي تلهي الإنسان عن الغايات العليا، كالزَّخارف والطَّنافس... وغير ذلك ممّا يعني به أهل الدنيا والسلاطين الذين في لهوهم يعبثون ويلعبون"(1).

بلاغة الترتيب في ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

الغفلة أصلُ كل عبث، وزيغٌ عن الحقّ

قُدّم اللعب على اللّهو ههنا وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [مُحمَّد: 36] تنبيهًا على أنَّ الاشتغال باللّعب الذي معناه الاستهزاء والعبث مُعلّلٌ باللّهو الذي معناه الذهول والغفلة؛ فالإقدام على اللَّعب علَّته اللّهو والذُّهولُ عن الحقّ(2).

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4842.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 120.

بيان الحقيقة في وضع المُظهَر موضعَ المُضمَر:

معنى اللّهو مُرادٌ على حقيقته لا مجازه

مجيء قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا﴾ عقيب قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ من باب وضع المُظهَر موضع المُضمَر من غير لفظه السابق؛ لأنَّ اللّهو ما يُتلهى به ويُلعب، وليس في الكلام السابق رائحةٌ من معنى الولد والمرأة، فلا يُحمل إلّا على ظاهره، ومن المعلوم أن حمل اللفظ على المجاز والعدول عن الحقيقة من غير صارفٍ وداعٍ قوي غير جائز، لا سيما إذا انضمَّ معه قرينة إرادة الحقيقة، هو مقتضى المقام[1]، فوضع المضمر موضع المظهر، والمضمر لا يكون إلّا بعد الظّاهر لفظًا أو مرتبة، أو لفظًا ومرتبة، ولمّا كان اللّهو قد ذكر فأغنى الضمير عن إعادته، والسّر في ذلك هو تمكين ما بعد الضمير في نفس السامع لتشوّقه إليه، ودعوى أن مرجع الضمير دائم الحضور في الذّهن ولذا عُبِّر به دون الاسم الظاهر.

معنى اللّام الدّاخلة على فعل الاتِّخاذ:

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا﴾ اللام واقعة في جواب ﴿لَوۡ﴾ الامتناعيَّة الشَّرطيَّة، وتسُمَّى اللّام غير العاملة وهي المسبوقة في جواب ﴿لَوۡ﴾ فتُفيد تأخرَّه لأمر الاتِّخاذ.

دلالة ضمير التّعظيم:

التّعظيم سبيل بيان القدرة والجلال

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ ورد فعل الاتِّخاذ مُسنَدًا أو مُضافًا إلى ضمير العظمة ﴿لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ﴾؛ إشارة إلى تعظيم المُتكلِّم ﷻ بيانًا لقدرته وإرادته على فعل الأشياء، فلو أراد سبحانه الاتِّخاذ لفعل؛ لكن حاشاه أن يقع ذلك منه، ومرجع الضمير في الفعل وهو المفعول الأول العائد على اللّهو المذكور في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا﴾.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 307.

خطاب لأصحاب العقول الصغيرة على طريق الفرض والتقدير المحال

سرُّ تكرار الفعل (اتَّخذ):

ورد فعلُ الاتِّخاذ مكرّرًا في قوله ﷻ: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾؛ وهو إمّا من قبيل المشاكلة اللَّفظيَّة لوقوعه في صحبة فعل الاتِّخاذ الأول، أو هو من قبيل المجاز المرسل لعلاقة السّببيَّة؛ لكون الشيء المنقول عنه وهو الاتِّخاذ سببًا ومؤثِّرًا في غيره مُعبِّرًا به من قبيل ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: 194]، والتّعبير بفعل الأخذ مُكرَّرًا من ردِّ العَجْز على الصَّدر، فضلًا عن أنَّ بينهما جناسَ اشتقاق قوّى المعنى وأظهره؛ فلمّا قال أوّلًا ﴿أَن نَّتَّخِذَ﴾ أعاد علينا اللفظ مرَّةً أخرى مع استحالته علينا؛ لأنّا لا نفعل إلّا لحكمة ولا نترك إلّا لحكمة، وهذا صنيعنا.

هل هناك مَنْ يملك منعَه سبحانه من فعل ما يُريد؟

معنى ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾:

يُفيد حرف الجرِّ في قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنَّآ﴾ ابتداء الغاية لكون الاتِّخاذ مبدوءًا منه ﷻ؛ أيْ: (من جهتنا دون أن يمنعنا أحدٌ).

كلُّ ما يتنافى مع حكمته ﷻ ومع ذاته الكريمة محالٌ أن يحدث

المُراد بالظَّرفيَّة المُسندة ﴿لَّدُنَّآ﴾:

و﴿لَّدُنَّآ﴾ بمعنى (عندنا) ولكنها أخص من (عند)؛ لأنها تدل على الابتداء لنهاية؛ أيْ: إنَّ اللَّعب من لدنّا مبتدئ، وذلك لا يسوغ ولا يجوز[1]، و"الظَّرفيةُ المُفادَةُ مِنْ لَدُنْ ظَرْفيةٌ مَجازيةٌ، وإضافةُ لَدُنْ إلى ضَميرِ الجَلالَةِ دَلالَةٌ على الرِّفْعَةِ والتَّفْضيلِ... أيْ: لَوْ أردْنا أنْ نتَّخذ لهوًا لما كانَ اتِّخاذُهُ في عالَم شَهادَتِكُم، وهذا اسْتِدْلالٌ باللُّزومِ العُرْفي؛ لِأَنَّ شَأْنَ مَنْ يَتَّخِذُ شَيْئًا لِلتَّفكُّه به أنْ يَسْتَأْثِرَ به ولا يُبيحَهُ لِغَيْرِهِ"[2]؛ فالآية هنا من قبيل تعليق المُحال على المُحال، وذاك أنَّ كلا الأمرَيْن يتنافى مع حكمته ﷻ ومع ذاته الكريمة.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4842.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 33.

موقع جملة ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾:

يجوز في جملة ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أن تكون شرطية وجواب الشرط محذوف دلّت عليه جملة ﴿لَوْ﴾ الشّرطية التي قبلها ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، ويجوز أن تكون ﴿إِن﴾ نافية، والجملة مستأنفة لتقرير الامتناع المُستفاد من ﴿لَوْ﴾ ومؤكّدة للنفي الثابت بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾؛ والتقدير: (ما كنا فاعلين ذلك)؛ لأنَّه لا يليق بالذات الكريمة ولا يُتصور أن يكون منها، وهو الرأي الأوْجَه؛ لأنّ في الأوّل تكلّفًا في التقدير، وعدم اتّساق مع النّصّ الأوَّل[1]، قال البقاعيُّ: "ولمّا كان هذا ممّا ينبغي أن تُنزَّه الحضرة القُدُّوسيَّة عنه وعن مجرد ذِكْره ولو على سبيل الفرض؛ أشار إلى ذلك بأداة شرط أخرى فقال: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ أيّ: له، ولكنَّه لا يليق بجنابنا فلم نفعله ولا نكون فاعلين له"[2].

مُحال أن يقع شيء في كونه تعالى دون أن تقتضيه حكمته سبحانه

دلالة التعبير بفعل الكينونة ماضيًا:

ورد لفظ الكينونة هنا ماضيًا لتحقيق وقوعه وحصوله كما وردت (كان) هنا مؤكِّدة فعله ﷻ إذا أراد أمرًا من الأمور فلا يستحيل عليه سبحانه فعله، كما أفاد الفعل بيان قدرته ﷻ على إرادة الأشياء وعظيم تصرُّفه في ملكه حسبما شاءت إرادته واقتضت حكمته، وهو - عزَّت حكمته - لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء.

عظيمٌ تصرُّفه تعالى في مُلْكِه حسبما شاءت إرادته واقتضت حكمته

إيثار التعبير باسم الفاعل ﴿فَٰعِلِينَ﴾:

اسم الفاعل دالٌّ في أصل استعماله على الثبوت والاستمرار وأنَّ فعله ﷻ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، ومجيء التعبير به هنا أقوى وأبلغ من الفعل دلالة على أنَّ ثبوت فعله واستمراره راسخ دائمٌ لا ينقطع، فإذا أُريد التَّعبير عن الثُّبوت والاستمرار جيء باسم الفاعل وهكذا.

فعله ﷻ راسخٌ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 33، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4842.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 499.

تقدير متعلّق اسم الفاعل:

فعل ما لا يَليق بجلاله ﷻ محالٌ عليه سبحانه

حذف متعلّق اسم الفاعل ﴿فَٰعِلِينَ﴾ هنا؛ إذ القصد منه إلفات النَّظر إلى الحدث لا إلى مَن وقع منه أو عليه الفعل، والمُراد: كنّا فاعلين اتِّخاذ هذا اللّهو؛ ولكنه لا يليق بجنابنا فلم نفعله، ولا نكون فاعلين له.

توجيه المتشابه اللّفظي:

الاسْـتِـدْلالُ بإتْقانِ نِظامِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ على خَلْقِ المَخْلوقاتِ

بين قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾ [ص: 27]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾ [الدُّخان: 38]، أوجه تشابه واختلاف؛ توصيفها: أنّ آية سورة الأنبياء: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ اتَّفق صدرها مع صدر آية سورة (ص)، واختلف العَجُز، واتَّفقت مع عَجُز سورة الدُّخان، وورود صدر آية سور الدُّخان مجموعًا فيه السَّماوات لتعدُّدها.

وردت آية سورة الأنبياء بعد حديث القرآن عن إهلاك بعض القرى الظّالمة، وذكرت السُّورة عنهم أنَّهم حين أدركوا حلول العذاب بهم واستئصالهم؛ اعترفوا بظلمهم وما ارتكبوه من جرائر كانت سببًا في تدميرهم وإذهابهم بالكليَّة؛ ذكَّرهم اللّه ﷻ ببيان خلق السماء والأرض لمهمّات عظيمة للعِظَة والاعتبار، وأنَّ خلقهم لم يكن عبثًا أو ضربًا من اللّهو.

أمّا آية سورة (ص)؛ فوردت في معرض الحديث عن التَّفضُّل على نبي اللّه داود ﵇ بخلافته في الأرض وطلب الحُكم منه بين النّاس بالعدل والحقِّ، ذكر القرآن بعدها الحديث عن خلق السماء والأرض، فلمّا كانت الخلافة على أمور الناس وأحوالهم؛ ناسبها الحديث عن أحوال السَّماء وما فيها والأرض وما عليها إلّا أن الذِّكر

الحكيم هنا قرن هذا الخلق بكونه خَلقًا لا يعتريه الباطل ولا يحوم حوله كما يعتقد الكفرة المبطلون الذين لا يعنيهم هذا الأمر العظيم؛ وعليه استطرد الحديث عن الجزاء الذي ينتظرهم، والمآل الذي يصيرون إليه؛ فورد الحديث مُطوَّلًا.

وقد وردت آية سورة الدُّخان مشابِهةً لآية سورة الأنبياء؛ إلّا أنَّ لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الدخان: 38] ورد فيها مجموعًا لتعدُّد ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الدخان: 38]، فليست سماءً واحدةً، وجاءت الآية هنا بعد ذِكر الحديث عن جبّار الأرض وطاغيتها فرعون، وعن إهلاكه ونجاة موسى عليه السلام ومَن معه، واختيار اللّٰه تعالى لهذه الجماعة المؤمنة، واعتراض الكفرة على أمر البعث والنشور مُكذِّبين ذلك كله، ومُطالِبين بعودة آبائهم الأوَّلين ظنًّا منهم عجز الخالق سبحانه وتعالى عن ذلك؛ فجاء الرَّدُّ من اللّٰه عز وجل بتذكيرهم بمَن سبق من الأمم وإهلاك اللّٰه لهم، فعاد بالحديث عن أكبر شيءٍ في الوجود منهم وهو خلق السماوات والأرض، وأنَّه ما خلقهما للعب؛ وإنَّما خلقهما بالحقِّ مع عدم علمهم بذلك؛ إمّا جهلًا منهم؛ وإمّا كِبْرًا وعِنادًا.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

اللَّعب واللّهو:

المَرحُ شدَّة الفَرح والمَسَرَّة والنشاط حتّى يجاوزَ قَدْرَه[1]، والتَّسلّي والسِّلوان هو ما يُسلّي الإنسانَ من أحزانه وكمده، والسَّلوة: رخاء العَيْش مع غفلة[2].

اللعب الباطل الذي ليس فيه حكمة، واللّهو الشُّغل عن مُهمّات الأمور

أمّا اللَّعب واللّهو؛ فبحسب ما سبق في شرح المفردات من معانٍ للفظ اللعب بأنّه: الهزل، ضدّ الجدّ، وطلب المزح والفرح بما لا يحسن أن يُطلب به، وفعلُ ما لا فائدة فيه، ومن غير قصدٍ صحيحٍ،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصِّحاح: (مرح).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سلا)، والسمين، عمدة الحُفّاظ: (سلو).

وللفظ اللّهو بأنّه: الشُّغل عن مُهمّات الأمور، وصرف الهمِّ عن النَّفس بالقبيح، وبما لا يحسن أنْ يُصرف به، وهو: ما يشغل الإنسان عمّا يعنيه ويهمه، فإنّ اختيار كلّ لفظ في مكانها يناسب تمامًا سياق وروده فيها؛ فمعنى اللَّعب في الآية: العمل أو القول الذي لا فائدة تُتحصّل منه، ولا نفع يُرتجى منه، ولا مفسدة تُدفع فيه ولا ضرّ، وإنَّما يُقصد به إرضاء النَّفس حين تميل إلى العبث، فهو الباطل الذي ليس فيه حكمة.

وأمّا اللّهو في الآية التّالية؛ فهو الاشتغال عن عظائم الأمور، ممّا يهمّ المرء، ويعنيه، وهذه المعاني غير متضمَّنةٍ في لفظي: المرح، والتسلّي الدّالّيْن على معنى الفرح وإذهاب الحزن.

﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ [الأنبياء: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تنزيهُ الذّاتِ العليّة عن اتِّخاذ اللّهو واللَّعب

لمّا نفى ﷻ عن ذاته اتِّخاذ اللّهو، وأنه ما خلق السماوات والأرض إلّا للتَّنبيه على قدرته على هذا الخلق، وأنهما مخلوقتان للعظة والاعتبار؛ بيَّن ﷻ هنا منهجه في إذهاب الباطل ومحوه بما يحتويه هذا الباطل وهو الشيطان وتسويلاته وما اجترأ به الكفار من وصفهم اللّه تعالى - وحاشاه - بما لا يصحُّ وصفه به ﷻ، والحقُّ هنا هو القرآن الكريم والمبادئ التي تضمَّنها وهدى إليها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقۡذِفُ﴾: (قذف) أَصْلٌ يَدُلُّ على الرَّميِ والطَّرْحِ، ويأتي بمعنى: الإلقاء، والوقوع، والدفع بغلظ إلى مسافة بعيدة كالسفينة في الماء بجريها، وخُصّص بالرميّ القويّ من بعيد[1]، ومنه رميُ الجسم المبطل بشيء يأتي عليه ليُتلفه أو يُشتِّته[2]، وفي قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ [سبأ: 48] إلقاءُ الحقِّ من وحيٍ وشرعٍ إلى أنبيائه بالحقّ لا بالباطل[3].

2) ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾: الدَّمغ كلمةٌ واحدةٌ لا تتفرَّع ولا يُقاس عليها، ومنه الدِّماغ المعروف، ودمغَهُ: ضربَهُ على رأسه حتى وصل إلى الدِّماغ، وتُسمّى الدامغة؛ أيْ: كسَر دِماغَه وشجّها، ومنه جاء الدّمغُ بمعنى: القهر والأخذ من فوقٍ، كما يَدْمَغُ الحقُّ الباطلَ، ومعنى

(1) الخليل، العين، وابن دريد، الجمهرة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قذف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 34.
(3) الراغب، المفردات: (قذف).

﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ هنا؛ أيّ: يعلو الباطلَ ويغلبه ويُبطله ويمحقه ويزيله كما يُزيل القذف الجسم المقذوف(1).

3) ﴿زَاهِقٞۚ﴾: (زهق) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على تَقدُّم ومُضيٍّ وتجاوُز، وكلّ شيء هلك وبَطل واضمحلَّ فقد زَهق؛ منْ ذلك: زَهقتْ نَفْسُهُ؛ أيّ: ذهبتْ وخرجتْ، والزّاهِقُ من السِّهام: الَّذي وقع وراء الهدف دون الإصابةِ، ومِنْ ذلك: زَهق الباطِلُ؛ أيّ: مَضى(2)، وانفلت من موضعه وهلك(3).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحقُّ باقٍ أبلجُ، والباطلُ ذاهبٌ لَجلجٌ

يُخبر اللّه تعالى بأنَّه يقذف بالحقِّ الذي منه الجدُّ على الباطل الذي منه اللّهو فيمحقه فإذا هو زاهق، فلا يليق به سبحانه اتّخاذ اللّهو وليس من شأننا ذلك، وهذا تنزيهٌ لذاته ﷻ عن اللَّعب؛ لأنَّه أمام الحقِّ الثّابت لا وجود له لأنَّ الهلاك لاحق به لا محالة، فالعذاب والمهانة لاحقان بكم بسبب وصفكم اللّه تعالى بما لا يليق بعظمته.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التعبير بـ﴿بَلۡ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ﴾:

كـلام يـهـدم كلامهم بالحجة والبرهان

﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ لِلْإِضْرابِ عن اتِّخاذِ اللّهو وعنْ أنْ يَكونَ الخَلْقُ لَعِبًا إِضْرابَ إبْطالٍ وارْتِقاءٍ؛ أيْ: بَلْ نَحْنُ نَعْمِدُ إلى باطِلِكُم فنقْذِفُ بالحَقِّ عليه كَراهيةً لِلْباطِلِ، بَلْهَ أنْ نَعْمَلَ عَملًا هو باطِلٌ ولعِبٌ"(4)، فـ﴿بَلۡ﴾ للإضراب النّافي لما قبله، لا مُجرَّد الإضراب الانتقالي؛ وهي هنا تدلُّ أشدَّ الدِّلالة على نفي اللَّعب عن

(1) الخليل، العين، وابن دريد، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دمغ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 34.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قذف).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 34.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 33.

أفعاله فوق النَّفي السّابق ﷻ عما تتَّصف به الحوادث من لعب، وتزجية الأوقات؛ فهو القادر القهّار الذي خلق كل شيء[1].

بلاغة الاستعارة في فعل القذف والدمغ:

قوة الحق تَدُكُّ رأس الباطل

ورد التعبير بفعل القذف ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ على سبيل الاستعارة المَكنيَّة؛ إذ شُبِّه الحقُّ والباطل وهما أمران معنويّان بشيئَيْن مادّيَّيْن محسوسيْن يقذفان ويدفعان، ثم حُذِفَ المُشبَّهُ به هذان الشيئان، ورُمز إليهما بلازم من لوازمهما؛ وهما القذف والدَّمغ، وإثبات هذا اللّازم استعارة تخييليَّة؛ وهي قرينة المَكنيَّة مبالغةً في تجسيد الإطاحة والإذهاب للباطل مع علوِّ الحق عليه، وأيضًا تصويرًا لإبطال الباطل وإهداره وإذهابه كليَّةً مُشبَّهًا بجُرم صلبٍ أو صخرة قويَّة قلبه قذف به على جرم أملس رخوٍ أجوف فأذهبه وأهلكه، والاستعارة هنا من قبيل استعارة محسوس لمعقول[2].

وجه الاستعارة التمثيلية ودلالتها

ويحتمل أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية، شُبِّهت هيئة الباطل في ضعفه وذهابه بهيئة شيء هشٍّ رخوٍ يُحطَم بأقل صدمة له؛ وعليه فقد استُعير لفظ القذف والدَّمغ لغلبة الحق على الباطل وإذهابه له بالكليَّة بطريق التمثيل فكأنَّه رُمي بجُرم صلب قويٍّ على دماغ الباطل فشَجَّه، قال الشَّريف الرضيُّ: "وهذه استعارة لأنّ حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة التي يرجم بها كالحجارة وغيرها، فجعل سبحانه إيراد الحقِّ على الباطل بمنزلة الحجر الثقيل الذي يرضُّ ما صكَّه ويدفع ما مسَّه"[3].

وُرود الفعل مضارعًا في معنى الجمع:

إثبات قدرة الله على إثبات الحقِّ وجعله برهانًا وإذهاب الباطل

ورد الفعل ﴿نَقۡذِفُ﴾ مُضارعًا للدَّلالة على التَّجدُّد والحدوث

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4843.
(2) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص: 21 - 22.
(3) الشريف الرضي، تلخيص البيان، ص: 181.

مع استحضار صورته الماضية في النفوس، وجاء مجموعًا للتَّعظيم منسوبًا إليه ﷻ دلالة على مزيد عظمته وقدرته على إثبات الحقِّ وجعله برهانًا وإذهاب الباطل؛ فهو سبحانه لا يُعجزه شيء؛ فالملك مُلْكُه، والأمرُ أمرُه.

معنى الباء في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

وَقْعُ الحقِّ على الباطل كوقع القذائف المُدمِّرة على الشَّيء الهَيِّن

في قول المولى ﷻ: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ دخلت الباء على (الحقِّ) لتأكيد الاتِّصال؛ أيْ: لتأكيد شدَّة ارتباط الفعل بالفاعل؛ لأنَّ الفعل يطلب فاعله طلبًا لا بُدَّ منه، والباء تُوصِل الأول إلى الثّاني، فكأنَّ الفعل يصل إلى الفاعل وزادته الباء اتِّصالًا[1]، ومجيئها هنا أبلغ من أن يُقال: نقذف الحقَّ؛ لأنَّ الباء قوت الفعل هنا كما مرَّ.

دلالة استعمال لفظ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُعرَّفًا:

قُوَّة أثر الحقِّ وعظمة شأنه

ورد لفظ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ معرَّفًا في قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ تخصيصًا له بكونه من عندنا، وتنصيصًا على قوَّة أثره فعُرِّف لمزيد التصوير والفائدة المرجوَّة منه، وتعظيمًا لشأنه، فالحقّ "هو هذا الذكر الحكيم الذي أنزلناه جدًّا كُلّه وثباتًا جميعه، لا لهو فيه ولا باطل، ولا هو مقارب لشيء منهما، ولا تقدرون أن تتخذوا شيئًا منه لهوًا اتِّخاذًا يطابقكم عليه مُنْصِف؛ فنحن نقذف به على الباطل الذي أحدثتموه من عند أنفسكم؛ فيدمغه؛ أيْ: فيمحقه مَحْقَ المكسور الدِّماغ"[2].

مفهوم ﴿عَلَى﴾ وسرُّ ورودها:

عُلُوُّ الحقِّ الخالص الثّابت على الباطل الرَّخو الفاسد

تأتي ﴿عَلَى﴾ مُفيدةً الاستعلاء؛ إمّا حقيقة، وإمّا مجازًا، ووردت هنا دالَّة على عُلُوِّ الحقِّ الخالص الثابت على الباطل الرَّخو الفاسد؛ فهي هنا مستعارةٌ لعُلُوِّ الحقِّ وظهوره على الباطل استعارةً تبعيَّة في الحرف مبالغةً في هذا العُلُوِّ وتصويرًا لهذه الحالة القويَّة.

---

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 252.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 396.

بلاغةُ الطِّباق في الآية:

شـتّـان مـا بين الـحقِّ والباطل في الحال والمآل والعاقبة

ورد الطِّباق؛ وهو الجمع بين الشيء وضدِّه هنا؛ فقد طُوبق بين الحقّ؛ وهو الأمر الثّابت المقطوع بصحَّته وصلاحه، وبين الباطل؛ وهو الأمر الفاسد الذي لا ثبات له ولا بقاء، وهذا الطِّباق من شأنه أن يُبرز بجلاء محاسن الضِّد.

معنى الفاء في الفعل ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾:

لا يستطيع الباطل منازلة الحقِّ أو مجاراته

فاء ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ عاطفةٌ؛ ومعناها: التَّعقيب، فجاء دمغ الباطل وإذهابه عقيب قوله: ﴿نَقۡذِفُ﴾؛ فأفادت الفاء أن دمغ الباطل كان بعد دفع الحق عليه بلا مهلة، والتَّعقيب - كما قيل - في كلِّ شيء بحسبه.

بلاغة التَّعبير بفعل الدَّمغ واختياره هنا:

ثِـقَـلُ الـحـقِّ والـحـقـيـقـة عـلى عـقـول أهـل الـبـاطـل وأفئدتهم

الدَّمغ مأخوذ من كسر الدماغ، والمفهوم العامُّ منه كسر الجسم الصلب الأجوف الذي يُحدِث صوتًا فيؤثِّر فيه تأثيرًا بالغًا يصعب التئامه لشدَّته، ولذلك قال عزَّ من قائلٍ: ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾؛ ولم يَقُلْ: (فيُذهبه أو فيُبطله)؛ لأنَّ الدَّمغ إنَّما يكون عن وقوع الأشياء الثِّقال على طريق الغَلَبَة والاستعلاء، فكأنَّ الحقَّ أصاب دماغَ الباطل فأهلكه فقتل، ولذلك قال سبحانه من بعد: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾، والزاهق: الهالك"[1].

مرجع الضمير في الفعل ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾:

الباطلُ أمام قوّة الـحـق سـرابٌ بقيعةٍ يحسبه الظّمآن ماءً

يُوضع الضَّمير موضع الاسم الظّاهر لسبقه في الكلام فيُعاد عليه بضميره إيجازًا واختصارًا؛ لكونه معلومًا عودُه عليه، والضمير لا يعود إلّا على مشاهد محسوس، فضمير ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ عائد على الباطل المذكور، وهو إذ ذاك غير موجود، فلمّا سبق علمه كان بمنزلة المُشاهَد الموجود فصحَّ عود الضمير إليه.

---

(1) الشريف الرضي، تلخيص البيان ص: 181.

معنى ﴿فَإِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾:

لا يلبث الباطل أمام الحقِّ طرفة عين

و﴿فَإِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ فجائيَّة؛ وهي من حروف المعاني الدّالَّة على المفاجأة التي هي عبارة عن موافقة الشيء في حالٍ أنت فيها، ولا تقع بعدها إلّا الجملة الاسميَّة، ومن النُّحاة مَنْ يرى أنَّ المفاجأة نقلها إلى المكان عن الزّمان، "ودلَّ حَرْفُ المُفاجَأةِ على سُرْعَةِ مَحْقِ الحَقِّ الباطِلَ عِنْدَ وُرودِهِ؛ لِأنَّ لِلْحَقِّ صَوْلَةً فهو سَريعُ المَفْعولِ إذا ورد ووضُحَ"(1).

سِرُّ وُرُود ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

لا ثبات يدومُ للباطل، فهو زاهقٌ لا محالةَ

ضمير الفصل إنَّما سُمّي ضميرًا تجوُّزًا لمجيئه على صورة الضمير، وسُمّي ضمير فصل لفصله بين المبتدأ والخبر، ولذا فهو لا محلَّ له من الإعراب، وهو يُفيد التَّوكيد والاختصاص، وما بعده يكون خبرًا لا صفة، ووُرُوده هنا في ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ تأكيدًا على زهق الباطل، وأنَّ هذا الإزهاق خاصٌّ بالباطل لَمَحْقه وإذهابه، ودلَّ على أنَّ قوله: ﴿زَاهِقٌ﴾ خبر لهذا الضمير؛ فمجيئه هنا قويٌّ وأكَّد على محق الباطل ودحره.

دلالة التَّعبير باسم الفاعل ﴿زَاهِقٌ﴾:

قوَّة الحقِّ تجتثُّ جذور الباطل وأصله وإن طال بها الأمد

الاسم في أصل استعماله دالٌّ على الثُّبوت والدَّوام، ومجيء اسم الفاعل ﴿زَاهِقٌ﴾ دلَّ على ثبوت إزهاق الباطل وذهابه بالكليَّة، وأنَّ هذا أمرٌ ثابتٌ مُتقرِّر في الأذهان لا محالة، قال أبو السَّعود: "والجملة الاسميَّة من الدلالة على كمالِ المسارعةِ في الذهاب والبطلان ما لا يخفى؛ فكأنَّه زاهقٌ من الأصل"(2)، والزّاهق: الهالِك الذي خرجت نفسه من الأسف على شيء.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 34.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 60.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾:

وجوب الاعتبار بهلاك الباطل وأهله

ورد العطف في قوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ على ما هو عليه وعيدًا شديدًا لأولئك الكافرين الذين نسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به، فوصفوه بأنَّ له صاحبة وولدًا حاشاه سبحانه عمّا يقولون، فهذا وعيد لقريش أو لجميع الكُفّار من العرب بأنَّ لهم أيضًا مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب، "فعندما انْتَهتْ مُقارَعتُهُم بالحُجَجِ السّاطِعَةِ لإبْطالِ قَوْلِهِم في الرَّسولِ وفي القُرْآنِ ابْتِداءً مِنْ قَوْلِه تَعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: 3] إلى قَوْلِهِ: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: 5]، وما تَخَلَّل ذلك مِنَ المَواعِظِ والقَوارِعِ والعِبَرِ، خُتِمَ الكَلامُ بِشَتْمِهِم وتَهْديدِهِم بقَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾؛ أيْ: مِمّا تَصِفونَ به مُحَمَّدًا ﷺ والقُرْآنَ"(1).

سرُّ ورود الجار والمجرور مقدَّمًا:

مَن سلك سُبُلَ الباطل فجزاؤه الويل والثُّبور

تقدَّم هنا الجارُّ والمجرور ﴿وَلَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ لتخصيصه بالمُسنَد إليه، والمُراد: الويل لكم لا لغيركم بسبب ما اقترفتموه، ولبيان كونه خبرًا لا صفة لأنَّ الخبر والصِّفة متقاربان، إلّا أنَّ الخبر أقوى من الصِّفة في دلالته؛ فهو أدلُّ على شأنه وخطره أكثر من الصِّفات، ومنها ورد تقديمه، ولأنَّ الصِّفة تتقدَّم موصوفها دون الخبر؛ فقد ورد مقدَّمًا هنا لقوّته في الدّلالة على المُراد منه.

إيثار التعبير بلفظ ﴿ٱلْوَيْلُ﴾:

عذابٌ وخسرانٌ وهلاكٌ وهوانٌ لكلِّ مَن آثر هواه على رضا مولاه

الويل دعاء بالسّوء والهلاك؛ فهي اسم للعذاب، وجاء معرَّفًا بـ(أل)؛ لكونه معهودًا لدى السّامعين عهدًا علميًّا بأنَّه إذا أطلق فلم يُردْ به إلّا العذاب والخسران وإحضار صورته وما فيه من الهوان والهلاك، إذ لم يُعهد أن أُريد به الخير مطلقًا؛ بل هو باب الجحيم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 36 - 35.

معنى (ما) في قوله: ﴿مِمَّا﴾:

ما نزلت مصيبة إلّا بما كسبت أيدي أهلها

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ بمعنى (من)؛ وهي هنا تعليليَّة "متعلِّقةٌ بالاستقرار الذي تعلَّق به الخبرُ، أو: بمحذوف هو حال من الويل، أو: من ضميره في الخبر، و(ما) إمّا مصدريَّة أو موصولةٌ أو موصوفةٌ؛ أيّ: واستقر لكم الويلُ والهلاكُ من أجل وصفِكم له سبحانه بما لا يليقُ بشأنه الجليلِ، أو: بالذي تصفونه به من اتِّخاذ الولد، أو كائنا مما تصفونه ﷻ به، وكون الخطاب لِمَن سَمِعْتَ ممّا لا خفاء فيه ولا بُعد، وأبعدَ كلَّ البُعدِ مَن قال: إنَّه خطابٌ لأهل القرى على طريق الالتفات من الغيبة في قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ إليه"[1].

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَصِفُونَ﴾:

الويل والهلاك لكلِّ مَن وصف الله سبحانه بما لا يليقُ بشأنه

في قوله ﷻ: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾؛ ورد الفعل ﴿تَصِفُونَ﴾ مُضارعًا للدَّلالة على تجدُّد الوصف منهم واستمراره وحدوثه شيئًا فشيئًا لا ينقطع مع استحضار صورته في النفس وإن كانت ماضية منسوبًا إليهم؛ لكونهم هم أصحابه.

دلالة جملة ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾:

مَن سلك سبل الباطل فهو بعيد عن العقل محجوب عن الإدراك

وردت جملة ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ تذييلًا مؤكِّدًا لمفهوم إزهاق الباطل ومحوه كلّيًّا وإن لم يكن بينهما اشتراك في اللَّفظ؛ وإنَّما ورد على سبيل البيان بأنَّ مَن سلك سبل الباطل فجزاؤه الويل والثُّبور؛ قال البقاعيُّ: "أيّ: من وصفكم لكلِّ شيء بما تهوى أنفسكم من غير إذن منّا لكم، لأنَّكم لا تقفون على حقائق الأمور، فإن وصفتم القرآن بشيء ممّا تقدّم، ثم قذفنا عليه بما يُبيِّن بطلانه؛ بانَ لكلِّ عاقلٍ أنَّه يجب عليكم أن تنادموا الويل بميلكم كل الميل، وإن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 60، والآلوسي، روح المعاني: 17/ 20.

وصفتم اللّه أو الدنيا أو غيرهما؛ فكذلك إنَّما أنتم مُتعلِّقون بقشور وظواهر لا يرضاها إلّا بعيد عن العقل محجوبٌ عن الإدراك"[1].

وجه تقدير المفعول في الفعل ﴿تَصِفُونَ﴾:

لـن يـجـنـي الواصفون اللهَ تـعـالى بـمـا لا يليق بجلاله إلّا الويل والخيبة والخسران

حُذف المفعول هنا إيجازًا واختصارًا؛ أيّ: ممّا تصفون به اللّه ﷻ بما لا يليق بشأن الجليل أو ما تصفونه به - حاشاه - من اتِّخاذ اللّهو، أو أنَّه حُذِف لتوجيه النفوس لإثبات الفعل للفاعل دون النظر إلى مفعوله، لكون ما وصف هؤلاء اللّه تعالى بما لا يُوصف به سبحانه، وقد يُحذف لقصد التعميم سواء أكان وصفهم اللّه ﷻ أو القرآن الكريم أو غيرهما.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 400.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: 19 - 20]

كـلُّ مَـن في السـماوات والأرض ملك لله تعالى

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بعدما نزَّه اللّٰه تعالى نفسه عن اللّهو، وأثبت لنفسه الحكمة والتدبير، وبيَّن ما لأهل الظلم من عذاب؛ بيَّن أنه سبحانه يملك كلَّ مَن في السماوات الأرض، فهم مخلوقون ومملوكون له سبحانه، والملائكة المُقرَّبون منزَّلون لكرامتهم عند اللّٰه تعالى منزلة المقربين، ولكونهم في محل ظهور سلطانه، وهم لا يَعيَوْن ولا يتعبون، وهم دائمو التسبيح والتعظيم، وهو عندهم كنفس ابن آدم.

شرح المفردات:

1) ﴿يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾: (حسر) أصلٌ واحدٌ، وهو كشفُ الشّيء؛ ومنه الحسرة؛ أي: التَّلهُّف على الشيء الفائت، وذلك بانكشاف أمره في جزعه وقلَّة صبره، وحسر البصر إذا كَلَّ، وذلك بانكشاف حاله في قلة بصره وضعفه[1]؛ وعلى هذا فكلّ المعاني التي ذُكرت في معجمات اللغة من الإعياء والتعب، وانحسار القوة من فرط غمّ، والكمد على الشَّيْءِ الفائِت، والغمّ، والجزع، والندم عليه، والملل، وقلّة الصبر تعود إلى انكشاف الحال[2]؛ وعليه فمعنى ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ في الآية: لا يتعبون تعبًا شديدًا يقتضيه عملهم العظيم، ولا يكلّون.

2) ﴿يَفۡتُرُونَ﴾: (فتر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على ضَعْفٍ في الشَّيْءِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسر).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المُحكَم، والراغب، المُفردات: (حسر).

والفُتورُ: سكونٌ بعد حدَّة، ولينٌ بعد شدّة، وضَعْفٌ بعد قوّة، وانكسارٌ بعد صلابة، وارتخاء وانبساط بعد انكماش، وانقطاع بعد مدَّة، ومنه (الفَتْرَةُ): ما بين الرسولَيْن من رسل الله ﷺ[1]، وقوله: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾؛ أيْ: لا يسكنون عن نشاطهم في العبادة ولا يقطعون عبادتهم.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ملائكة الله تعالى عبادتهم موصولة دون فتور أو ملل

الآية الكريمة "استئنافٌ مُؤكِّد لما قبله من أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته تعالى؛ أيْ: وله وحده سبحانه جميع مَن في السماوات والأرض، خلقًا، وملكًا، وتدبيرًا، وتصرفًا وإحياءً، وإماتةً، لا يخرج منهم أحد عن علمه وقدرته ﷻ، ثم بيَّن سبحانه نماذج من عباده الطائعين له، بعد أن حكى أقوال أولئك الضالين، فقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ عطف مطلع الآية:

لله تعالى جميعُ المخلوقات خلقًا ومُلكا وتدبيرًا وإحياءً وإماتةً وغير ذلك

وجملة ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: "استئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل، وأنَّه تعالى يُحِقُّ الحقَّ ويُزْهق الباطل؛ أيْ: له تعالى خاصَّة جميعُ المخلوقات خلقًا ومُلكًا وتدبيرًا وتصرُّفًا وإحياءً وإماتةً وتعذيبًا وإثابةً من غير أن يكون لأحدٍ في ذلك دخلٌ ما استقلالاً أو استتباعًا"[3]؛ لأنّ "كُلَّ مَنْ في السَّماواتِ والأرْض عبادٌ لله تَعالى مَخْلوقونَ لِقَبولِ تَكْليفِه والقيام بما خُلِقوا لِأجْلِه، وهو تَخلُّصٌ إلى إبْطالِ الشِّرْك بالحُجَّةِ الدامغة بعد الإفاضَة في إثْباتِ صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ وحُجّيةِ القُرْآنِ"[4].

(1) الخليل، العين، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فتر).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 195.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 60.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 35.

الكلّ عبيده ومماليكه، فكيف يُتَّخذون آلهة تُعبدُ من دونه سبحانه؟!

معنى اللّام في ﴿وَلَهُۥ﴾:

لام ﴿وَلَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لام المِلْك الحقيقي؛ وهو ما يكون لما حصل وثبت وهي جارَّة، قال الرّاغب: "وليس نعني بالمِلْك مِلْك العين؛ بل قد يكون مِلْكًا لبعض المنافع، أو لضرب من التّصرّف، فمِلْكُ العين نحو: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: 18]، وملك التّصرّف كقولك لِمَنْ يأخذ معك خشبًا: خُذْ طرفك لآخذ طرفي، وقولهم: للّه كذا، نحو: للّه درُّك، فقد قيل: إنَّ القصد أنّ هذا الشيء لشرفه لا يستحقّ مِلْكه غير اللّه، وقيل: القصد به أن يُنسب إليه إيجاده؛ أيْ: هو الذي أوجده إبداعًا"(1).

مَردُّ كلّ الموجودات إلى مُوجدِها وحده ﷻ

سرُّ تقديم الجارّ والمجرور في ﴿وَلَهُۥ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ورد ﴿وَلَهُۥ﴾ مُقدَّمًا مُرادًا به الاختصاص؛ لكون ما في السماوات والأرض له ﷻ لا لغيره، ولم يدَّع أحدٌ على الإطلاق خلقهما أو إيجاد ما فيهما.

كل شيء في الكون باتّساعه وشموله مِلكٌ لله الغني

دلالة القصر:

القصر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قصرُ إفراد قصرًا حقيقيًّا، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف طريقه التَّقديم، ليقصر فيه الحُكمَ على واحدٍ موجود هو اللّه تعالى، وأُريد بهذا الرَّدُّ على المشركين؛ وهم الذين أشركوا مع اللّه سبحانه غيره في الألوهيَّة لفساد معتقدهم.

مدحٌ وثناءٌ على الملائكة الكرام

دلالة ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن﴾:

و﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يَعُمُّ العُقَلاءَ وغيْرَهُم وغُلِّبَ اسْمُ المَوْصولِ الغالِبُ في العُقَلاء؛ لأنَّهُم المَقْصودُ الأوَّلُ، ويجوز في ﴿مَن﴾ هنا العطف على ﴿مَن﴾ الأُولى، أخبرَ تعالى عن مَنْ في السماوات

(1) الرّاغب، المُفردات: (لام).

والأرض، وعن مَنْ عنده بأنَّ الكلَّ له في ملْكِه، ليكون من باب ذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ لِلاهْتِمام به والتَّنبيه على شرفه؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ شَمل مَنْ عنده"(1).

دلالة حرف الجرِّ في ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

التعبير بـ﴿فِي﴾ الدّالَّة على الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للدلالة على الاستقرار والتَّمكُّن في كلٍّ من السماوات والأرض لا ينفكّون عنها أبدًا.

بيان المُراد بالعنديَّة في ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾:

الأصل أنَّهم ممدوحون لكونهم عند مالك المُلك ﷻ

أُريد بـ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ الملائكة المُقرَّبون أو الملائكة مُطلقًا عليهم السلام، والمُراد بالعنديَّة عنديَّة الشَّرف لا عنديَّة المكان، وقد شُبِّه قُرب المكانة والمنزلة بقُرب المكان والمسافة، فعُبِّر عن المُشبَّه بلفظٍ دالٍّ على المُشبَّه به؛ فهناك استعارة تصريحيَّة، وقيل: "عبّر عنهم بذلك إثرَ ما عبّر عنهم بمَنْ في السموات تنزيلًا لهم لكرامتهم عليه ﷻ وزُلْفاهم عنده منزلةَ المُقرَّبين عند الملوك بطريق التَّمثيل وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾.

دلالة التعريف في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

سَعَة مُلْكِه جلَّ شأنه وغِناهُ محلٌّ للعِظة والاعتبار

ورد لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ هنا معرَّفًا بـ(أل) العهديَّة لكونهما معهودَيْن معلومَيْن لا يغيبان عن المشاهد، تعظيمًا لشأنهما، وبيانًا لمكانتهما في الخلق؛ إذ هما أعظم مخلوقَيْن خلقهما الله تعالى، ولم يدَّعِ أحدٌ قدرته على خلقهما أو إيجادهما مع خلقهما على غير مثالٍ سابقٍ، فورد التَّعريف للتَّعظيم والتَّشريف لهما، وخصّا بالذِّكر لاشتمالهما على المنافع الجسيمة والفوائد الجَمَّة الكثيرة؛ فهما محلُّ العِظَة والاعتبار.

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المَصون: 8/ 139، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 35.

مفهوم النَّفي في قوله: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

﴿لَا﴾ تكون للنَّفي؛ وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وتعمل عمل (إنْ) النافية للجنس؛ أيْ: إنَّها تنفي ما أوجبته (إنْ)، ولهذا تُشَبَّه بها في الأعمال، ويُنفى بها المضارع مُرادًا به نفيُ الدَّوام، والنَّفي بها يتناول فعل المُتكلِّم وفعل المُخاطَب، والمُراد في قوله سبحانه: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ نفي تكبُّرهم واستعظامهم عن عبادة الله تعالى ولا يحسبون أنفسهم كذلك؛ بل هم مُخْبِتون طائعون لربِّهم، فلا يَرِدُ الاستكبار أو العظمة على بالهم، ولم يمرَّ بخاطرهم أبدًا؛ فهم الذّاكرون المُقرَّبون.

ملائكة الله الكرام لا يعرفون الكِبْر ولا يمرُّ بخاطرهم أبدًا

إيثار التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

ورد الفعل ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ مضارعًا للدلالة على نفي تجدُّد الاستكبار والعظمة منهم واستمراره مع استحضار صورتهم تلك، وهم عباد الله المخلصون - صلوات الله عليهم أجمعين - فلا استكبار يقع منهم ولا عظمة يتَّصفون بها لعلمهم الكامل بجلال خالقهم وطاعة أوامره والوقوف عند حدودها، ويُلاحَظ هنا بناء الفعل على زيادة حرفِ السّين مع التّاء مبالغةً في نفي الاستكبار لا التَّكبُّر فحسب.

ملائكة الله يعلمون جلالَ خالقهم وطاعة أوامره والوقوفَ عند حدودها

موقع جملة ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ إعرابيًّا:

في جملة: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ وجهان إعرابيّان؛ أحدهما: أنَّها حالٌ مِنْ (مَنْ) الأُولى أو الثانية أو منهما معًا، ويجوزُ أنْ يكون ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ مُبْتَدأً وجُملَةُ لا يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِه خَبرًا، وعلى كلا الوجْهَيْن فإنّ جُملَةَ ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ يَكونُ المَقْصودُ مِنْها التَّعْريضَ بالَّذينَ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَةِ اللّه ويَعْبُدونَ الأصْنامَ وهُمُ المُشْرِكونَ(1).

الكِبْرُ هو بداية الانحراف والبُعد عن الله تعالى، هكذا فعل إبليس

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 140، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 35.

مفهوم ﴿عَنۡ﴾ في ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾:

المَلائكة خلقوا على الطّاعة لا يُفارقونها قَدْرَ أُنملة

﴿عَنۡ﴾ حرف جرٍّ يقتضي مجاوزة ما أُضيف إليه نحو غيره وتعديه عنه، وهو أعمُّ من (على)؛ لأنَّه يُستعمل في الجهات السّت"[1]، والمُراد به في قوله: ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾: لا يتجاوز الملائكة ﷵ عبادة ربِّهم ﷻ إلى عبادة غيره كفعل بعض البشر؛ لأنَّهم جُبِلوا على الطّاعة لا يفارقونها قَدْر أُنْمُلة؛ فلا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

سرُّ التعبير بالعبادة دون سواها:

إفـراد المَلائكة الكرام بالتَّسبيح والتحميد والعبادة استحقاقٌ لله تعالى وحده

"العُبودِيةُ: إظهار التّذلّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنها غاية التّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، ولمّا كان اللّه جلَّ شأنه هو المُوجِد والآمِر؛ استحقَّ وحدَهُ أن يُفرده هؤلاء الملائكة الكرام المقرَّبون بالتَّسبيح والتَّحميد والعبادة والذِّكر.

دلالة العطف في: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾:

المَلائكة لا يعرفون التعب ولا يُصيبهم الإعياء والملل

لمّا نفى اللّه تعالى عن ملائكته الكرام استكبارهم وتعظُّمهم عن عبادته وأنَّهم طائعون مُخبِتون له تعالى؛ عاد مُعبِّرًا عنهم بصفةٍ أخرى؛ وهي نفي التَّعب عنهم في هذه العبادة؛ فهم لا يَكلّون ولا يتعبون، ولا يُصيبهم الإعياء والملل؛ لأنَّ اللّه ﷻ أقدرهم على ذلك ومنحهم ذِكْرَه والثّناءَ عليه، والتَّعبير بهذه الجملة تتميمٌ لبيان أدب هؤلاء الملائكة وعُلُوِّ هِمَّتهم، عرفوا قدر ربِّهم؛ فأخلصوا له العبادة لعلمهم بكونه جديرًا بها دون غيره سبحانه.

بلاغة التَّعبير بـ﴿يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ على صيغة الاستفعال:

المَلائكة لا يَقعُ مِنْهُم استحسارٌ مهما ثقُلت الأعمال

السّين والتاء في المصدر (الإسْتِحْسارُ) للمبالغة في وصف الحُسور؛ لكون صيغة (الاستفعال) منبئةٌ عن المبالغة، لتدلّ على

(1) الزركشي، البرهان: 4/ 286.

أن الاسْتِحْسارَ - وهو التعب الشديد - لا يصدر من الملائكة مع ثقل عملهم ودوامها؛ أيّ: إنّ عباداتِهم بثقلها ودوامها حقيقةٌ بأن يُستَحسَر منها ومع ذلك لا يستحسرون؛ فناسب نفيُ الوصفِ العملَ في الشدّة والقوّة، وهذا من بديع اصطفاء الألفاظ المناسبة للسياق في القرآن الكريم، وتنبغي الإشارة إلى أنّه ليس المراد هنا إفادة نفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصلِه في الجملة، فلا يُفْهَمُ مِنْ نَفْي الحُسورِ القَوي أنَّهُم قَدْ يَحْسُرونَ حُسورًا ضَعيفًا، وهو ما يُعَبِّرُ عَنْهُ أهلُ المَعاني بأنَّ المُبالَغة في النَّفْي لا في المَنْفي[1].

وجه حذف مُتعلِّق الفعل ﴿يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾:

من المعلوم أنّ حياة الملائكة كلُّها عبادة

حُذِف متعلِّق الفعل ﴿يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ للعلم به، والتقدير: (لا يكلُّون ولا يتعبون عن عبادته)؛ فحُذف إيجازًا لذِكْره سابقًا في نفي فعل الاستكبار، ولأنَّ المقصود هو وقوع الفعل دون النَّظر إلى مَن وقع عليه الفعل لكونه المقصود الأسمى والغرض المنشود من ذِكْرِه، فلمّا ذكر الفعل والفاعل؛ فُهِمَ منهما المفعول.

سرُّ الفصل في ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

تسبيح ملأ الليل والنهار، تسبيحٌ وقوده المحبة

فُصلت جملة ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ عن سابقتها لشِبْه كمال الاتِّصال، كأنَّ قائلًا قال: فما عمل هؤلاء الملائكة الكرام؟ فقيل: "يسبِّحون"؛ فوردت الجملة هنا استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن الجملة السّابقة، فهم دائمون في العبادة مواظبون عليها لا ينقطعون عنها أبدًا.

إيثار التعبير بالفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُونَ﴾:

ليس عند الملائكة وقتٌ فارغٌ كَبَني البشر؛ فهم مُستغرقون في التَّسبيح والذِّكر

جاء التَّسبيح في الآية الكريمة على صيغة الفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ لتجدُّده واستمراره منهم عليهم السلام مع استحضار صورته في الأذهان؛ فهو تسبيحٌ مُتجدِّدٌ لا ينقطع منهم؛ فتسبيحهم كالنَّفس لبني آدم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 60، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 36.

تقديرُ مفعولِ التَّسبيح:

حُذف مفعول الفعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ هنا إيجازًا واختصارًا، ولكونه معلومًا لا يُنكر، والمُراد: يُسبِّحون اللّهَ تعالى تسبيحًا يليق بجلاله، ومعلوم أن فعل التَّسبيح مُتعلِّق بفاعله، وهو الملائكة هنا؛ فانصبَّ الحديث على الفعل وهو الحدث وفاعله، وحُذف المفعول لقصد الأوليْن دون النَّظر إلى المفعول لفهمه من الحديث.

الملائكة الكرام لا يصرفون تسبيحهم وعبادتهم لغير الله تعالى

سرُّ تخصيص ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بالذِّكر:

معلوم أنَّ الليل والنَّهار ظرفان لحياة الناس ومعاشهم، وعليهما قيام الدُّنيا ومصالح العباد، وهما الوقتان اللَّذان تُحدُّ بهما حياة البشر ومماتهم؛ فالليل للعباد سكنٌ ومُستقرٌّ، والنَّهار محلُّ المعايش والأرزاق، فهدوء البشر في ليلهم وحركتهم في نهارهم؛ أمّا الملائكة المُقرَّبون فحياتهم بالذِّكر والعبادة والتَّسبيح ليل نهار لا تنقطع صلتهم لربِّهم ذكرًا وثناءً وتمجيدًا دون كَللٍ أو مَلَلٍ مع اعترافهم بفضل اللّه تعالى عليهم، والظَّرفان هنا مُتعلِّقان بالفعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، والأصْلُ في الظَّرْفِ أنْ يَسْتَوْعِبَهُ الواقِعُ فيهِ؛ أيْ: يُسَبِّحونَ في جَميعِ اللَّيْلِ والنَّهارِ؛ فصار تسبيحهم مُستغرِقًا الزَّمن كلَّه، والمُراد أنَّ تسبيحهم في جميع آناء الليل والنهار دائمًا.

عـملُ الملائكة ذِكْرٌ دائمٌ وعبادةٌ متَّصلة ليلًا ونهارًا لا تنقطع أبدًا

إيثار التعبير بالمضارع ﴿يَفۡتُرُونَ﴾:

مجيءُ الفعل ﴿يَفۡتُرُونَ﴾ على صيغة المضارعة دالٌّ على تجدُّد عبادتهم وتسبيحهم وعدم انقطاع عبادتهم الزَّمن كلَّه مع ما أفاده التَّعبير بالمضارع من استحضار صورتهم وهم يُسبِّحون ويَذكرون، والتَّعبير بهذا الفعل كناية عن الهِمَّة والنَّشاط اللَّذيْن يتمتَّع بهما هؤلاء الملائكة المقربون الذين وصفهم اللّه تعالى بعدم انقطاعهم عن تسبيحه وذِكْره والثَّناء عليه بما هو أهلٌ له ﷻ.

همةٌ ونشاط يتمتَّع بهما هؤلاء الملائكة المقربون

موقع جملة ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ من الإعراب:

لا ينقطعون عن ذِكر ربِّهم والثَّناء عليه ولا يعرفون الخمول

جاءت جملة ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ حالًا من فاعل الفعل ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وهي حال مُبيِّنة لصاحبها؛ وهم هؤلاء الملائكة الذين لا ينقطعون عن ذِكر ربِّهم والثناء عليه، وهي حال لازمة لكونها ملازمةً لهم لا ينفكُّون عنها؛ ويجوز فيه الاستئنافُ فضلًا عن الحاليَّة[1]، وقوله بالاستئناف يقصد كونها مفصولةً عن قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ لشِبْه كمال الاتِّصال جوابًا عن سؤال مَن سأل: وما حالهم مع هذا كلِّه؟ فقيل: لا يفترون، أو هو استئنافٌ نحويٌّ مُتمِّمٌ لمُراد التَّسبيح المذكور دالٌّ عليه.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

الإنكار من لوازم التَّأكيد في الخطاب

قال تعالى في سورة فُصِّلت: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ٣٨﴾ [فُصِّلت: 38]، وقد اقترن التسبيح وعدم السأمة بالاستكبار الذي هو من لوازم الإنكار فأكّده بالضمير (هم)، وعطف بالواو، ولما لم يُصرّح هنا بإنكار منهم، ولا ما يستلزمه من الاستكبار؛ لم يُؤكّد بالضمير، ولا عطف بالواو فقال: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾[2]، والسَّآمَةُ: المَلالَة ممّا يكثر لَبْثُه، فعلًا كان أو انفعالًا، والضَّجر والمَلَل من الإعياء[3]؛ وبهذا فهي تجمع بين معاني: يستحسرون ويفترون، إعياءً وتعبًا وسكونًا وانقطاعًا؛ فاستغنى بها في آية فُصِّلت.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القذف والرّمي:

قـوة الـوحـي بالحق للأنبياء صـلـوات ربي عليهم يُناسِب قـوَّة الـرِّسـالـة وعِظَمَها

القَذْفُ: الدَّفع بقوّة إلى مسافةٍ بعيدةٍ كالسَّفينة في الماء بجريها، فخُصّص بالرمي القويّ من بعيد، واصطفاؤه في الآية يناسب دلالته

(1) السمين الحلبي، الدُّر المصون: 8/ 141.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 402.

(3) الراغب، المفردات: (سأم)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 301.

في السّياق؛ فهو إلقاءٌ للحقِّ من وحْيٍ وشرعٍ إلى أنبيائه بالحقِّ لا بالباطل، وذلكم مظنَّة القوَّة وامتداد التأثير وبعد زمانه وأثره، وهذا المعنى لا يُؤدّيه الرَّمي لما يحتمله من دلالة نبذ الشيء، وعدم اشتراط القوَّة والبُعد[1].

الدَّمغ والمَحْق والمَحْو:

قــوَّة الــحـقِّ تُـنـاسـب شـدَّة دمغ الباطل

الدَّمغُ: القهر والأخذ من فوقٍ، كما يَدْمَغُ الحقُّ الباطلَ، أمّا المَحْقُ: فهو النُّقصان، والمَحو: يدلُّ على الذَّهاب بالشَّيء وذهاب أثره[2]، ويُلْحظ أنَّ الدّمغ يتضمّن معنى الغَلَبَة من فوق، والإبطال والمَحْق، وهو يناسب وقع الشِّدَّة في إزالة الباطل المناسب لقوّة الحق الإلهيّ المُبطل له، والمُتمثِّل بالوحي والرُّسل والرّسالات، بما تحمله من خير للبشرية، ونبذ للشَّرِّ بأنواعه؛ وهذا معنى لا يتضمَّنه لفظا المَحْق والمحْو.

الزّاهق والذّاهب والزائل:

بإلقاء الحقِّ لا أثر يبقى للباطل

الزّاهق كلّ شيء هلك وبَطل واضمحلّ؛ من ذلك: زَهقتْ نَفْسُهُ؛ أيْ: ذهبت وخرجتْ، وزَهق الباطِلُ؛ أيْ: مَضى[3]، وانفلت من موضعه وهلك[4]، أمّا ذَهابُ الشَّيْءِ: فمُضيّهُ[5] من غير معنى أنَّه هلك، والزَّوال: مفارقة الوطن والتَّنحّي، ويُقال في شيء قد كان ثابتًا[6]، وإيثار لفظ (زاهق) في الآية لاجتماع معنى المُضيِّ والبطلان والهلاك فيه؛ فلا أثر يبقى للباطل بإلقاء الحقِّ وظهوره عليه.

الفتور والسكون:

نـشـاط الملائكة في العبادة دائمٌ بـلا انـقـطـاعٍ أو سكونٍ أو ضعفٍ

الفُتورُ ضَعْفٌ في الشَّيْءِ، وسكونٌ بعد حدّة، ولينٌ بعد شدّة، وهو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رمى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (محق)، و(محو).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قذف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 34.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذهب).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (زول).

انقطاع بعد مدّة، ومنه (الفَتْرَةُ)، وهي ما بين الرَّسولَيْن من رسل الله ﷺ[1]، أمّا السُّكون فيَدُلُّ على خِلافِ الاِضْطِرابِ والحَركةِ، فهو: ثبوت الشيء بعد تحرُّك[2]؛ وبذلك يكون معنى الفتور أنسب لسياق الآية، فقوله: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾؛ أيّ: لا يسكنون عن نشاطهم في العبادة ولا يضعفون، ولا يسكتون، ولا يقطعون عبادتهم، ولا ينفكّ نشاطهم عن ذلك.

(1) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات: (سكن).

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 21 - 23]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

توبيخ المشركين وإثبات الوحدانيّة

قال الفخر الرّازي: "اعلم أنَّ الكلام من أول السُّورة إلى هنا كان في النُّبوّات وما يتَّصل بها من الكلام سؤالًا وجوابًا، وأمّا هذه الآيات فإنَّها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد"، ويقول البقاعي في مناسبة هذه الآيات لما قبلها: "ولَمّا كانُوا عِنْدَ هَذا البَيانِ جَديرينَ بأَنْ يُبادِرُوا إلى التَّوْحيدِ فلَم يَفْعَلُوا؛ كانُوا حَقيقينَ بَعْدَ الإعْراضِ عَنْهم - بِالتَّوْبيخِ والتَّهَكُّمِ والتَّعْنيفِ"[1] وإجمالًا "فبعد أن بيَّن سبحانه أنّ من مخلوقاته مَن يقوم بتسبيحه وعبادته بدون انقطاع أو فتور؛ أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وبإقامة الأدلة على وحدانيته، واستحالة أن يكون هناك مَن يشاركه في ألوهيته فقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنشِرُونَ﴾: (نشر) أصلٌ يدلُّ على فتح شيء وتشعبه، ونشرَ الثَّوب، والكتاب نَشْرًا: بَسطهُ، وأَنْشَر اللهُ الريحَ: أحياها بعد مَوْت، وأَرْسلها نَشْرًا ونُشْرًا، والنُّشور: الحياة بعد الموت، يُقال: نَشرهُمُ الله؛ أيْ: بَعثهم[3]؛ فالمعنى المحوريُّ للنَّشر تفرُّقٌ ببسطٍ وامتداد، ومن مجازه: نَشر اللهُ الميّت؛ إذا أحياه؛ لأنَّه إذا حَيّ انبسط؛ والبعثُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 402.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 196.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سِيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية: (نشر).

أدقّ؛ لأنَّه إثارة وإقامة يظهر فيهما الامتداد والانبساط[1]، وقوله تعالى ﴿يُنشِرُونَ﴾ من إنشار الأموات؛ أيّ: بعثهم وإحياؤهم[2].

2) ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾: (فسد) كلمة واحدة، هي الفساد: نَقيضُ الصَّلاح، وفَسَّد الشّيءَ: إذا أبارَه، وفَسد الشّيءُ: بَطل واضْمَحلّ، ويكون بمعنَى: تَغيَّر[3]، وهو بمعنى خروج الشَّيء عن الاعتدال، قليلًا كان أو كثيرًا، ويُستعمل في النَّفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة[4]، وخلاصة القول في الفساد: أنّه يشمل إهلاك الزَّرع والنَّسل؛ أي: الثروة العامَّة والأضرار التي تَمسُّ النّاسَ مباشرةً، أو بالغشّ والإهمال في إدارتها، ومن الغش والخيانة الارتشاءُ والمحاباة، ويشمل السرقة، ونهب المال العامّ، وسَفْك الدماء، وبهذه المعاني كل ما تصرّف من هذا اللفظ في القرآن الكريم[5].

3) ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾: (سبح) أصلان: أحدهما أنّه جنسٌ من العبادة، ومنه التَّسبيح، وهو تنزيه اللّٰه جل ثناؤه من كل سوء، وعن كل ما لا ينبغي أن يُوصَف به، والعرب تقول: سبحان من كذا؛ أيّ: ما أبعده، وأصْلُه: المَرُّ السَّريعُ في الماء، وفي الهَواء، وفي عبادة اللّٰه تعالى، ثم جعل التَّسبيح عامًّا في العِباداتِ قولًا كان، أو فِعْلًا، أو نيَّةً[6]، وغالبُ ما في القرآن من التَّرْكيب تُفسَّر فيه (سَبَّح) وتصْريفُها: بالتَّنْزيه والبَراءَة من أنْ يُنسَب إليه تعالى ما لا يَليقُ به[7]، أو أنْ يصفه مخلوقٌ بوصف؛ فهو أمر بتنزيه ذاته وصفاته ﷻ عن أحوال النقائص[8].

4) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: (عرش) أصلٌ يدلُّ على ارتفاع في شيءٍ مبنيٍّ، ثمَّ يُستعار في غير ذلك[9]، والعَرْش في كلام العرب سرير الملك؛ لأنَّه يُصْنَع منبسطًا مرتفعًا عن الأرض[10]،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نشر).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 61، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 38.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (فسد).
(4) الراغب، المفردات: (فسد).
(5) المعجم الاشتقاقي: (فسد).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (سبح).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عرش).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 149.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرش).
(10) الأزهري، التهذيب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عرش).

وكلّ بناءٍ يُسْتَظلُّ به فهو عرشٌ؛ ومنه المسقّف، وقد كُنّي به عن العزّ والسُّلطان والملكة، وعَرْشُ الله: ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلّا بالاسم، وعبَّر به عن ملكوت ربنا؛ لأنَّه ملك الملوك(1).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يُـنـازِع اللـهَ تـعالى في مُلكِه أحدٌ

"اتخذ المشركون آلهةً من الأرض من دون الله يحيون الموتى من قبورهم؛ أيْ: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله ندًّا وعبدوها معه؟! والمُراد بالآية: التَّذكير بخواصِّ الألوهيَّة التي منها إحياء الموتى من قبورهم، فإن المشركين وإن لم يصرحوا بذلك؛ فإنهم بادعائهم الألوهيَّة لها يُثبتون تلك الصِّفة لها، ووصف الآلهة بكونها من الأرض إشارةً إلى أنَّها من الأصنام المعبودة في الأرض، وهذا تهكُّمٌ بهم وتوبيخٌ وتجهيلٌ لهم".

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَمِ﴾ ودلالة التعبير بها:

إبْطالُ الإشْراكِ وإبْـطـالُ تَـعـدُّدِ الآلِهَةِ

أفتُتحتِ الآيةُ الكريمة بـ ﴿أَمِ﴾ المنقطعةُ؛ لكونها تقدَّرُ بـ(بل) المؤذنة بإضراب الانتقال عمّا قبلها وهمزة الاستفهام المؤذنة بالإنكار لما بعدها، والمُنكَر: هو اتخاذهم آلهةً ينشرون الموتى(2)، وعطْفُ الإضرابِ الانتقاليِّ للجملة على الجملة المتحقّق بـ﴿أَمِ﴾ المنقطعة غرضُهُ الانتقال من إثْباتِ صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ وحُجّية دَلالَةِ القُرْآنِ إلى إبْطالِ الإشْراك، انْتِقالًا من بَقيَّةِ الغَرضِ السّابقِ الَّذي تَهيَّأ السّامعُ لِلانْتِقالِ منْهُ بمُقْتَضى التَّخلُّص الَّذي في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ إلى التَّمحُّضِ لِغَرض إبْطالِ الإشْراكِ وإبْطالِ تَعدُّدِ الآلِهَةِ(3).

(1) الأزهري، التهذيب، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عرش).
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 566، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرّ المصون: 8/ 141.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 37.

بيان الحكمة من الخلق توبيخٌ للمنكر

ومن معاني الإضراب الذي تفيده ﴿أَمِ﴾: "الانتقالُ من فنٍّ إلى فنٍّ آخر من التوبيخ إثرَ تحقيق الحقّ ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة، وأنهم قاطبةً تحت ملكوته وقهره، وأن عبادَه مُذعِنون لطاعته ومُثابرون على عبادته، مُنزّهون له عن كل ما لا يليقُ بشأنِه من الأمور التي من جملتها الأندادُ"(1).

إيثار التّعبير بالفعل ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ ماضيًا:

اتّخذ المشركون آلهةً في غاية العجز وعدم القدرة

الأخذ: هو حوز الشيء وتحصيله تارةً بالتّناول، وتارةً بالقهر، والاتِّخاذ افتعال من الأخذ(2) يدلّ على المبالغة في تحصيل الفعل؛ أيْ: إنّهم بالغوا في اتخاذ آلهةٍ من الأرض، وصوغُهُ على هيئةِ الفعل الماضي دالٌّ في أصل وضعه على التّحقُّق والحصول، فجعل الاتّخاذ واقعًا منهم لا محالة، فعبّر عن المستقبل بلفظ الماضي تنزيلًا لما هو مُتحقّق الوقوع كالواقع.

مرجع الضَّمير في الفعل ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

لا يُصلح الوجودَ إلّا إلـهٌ واحدٌ، كما أنّه لم يُوجَد إلّا بربٍّ واحدٍ

الضمير هنا "عائِدٌ إلى المُشْرِكينَ المُتَبادِرينَ من المَقام في مِثْلِ هذه الضَّمائِرِ، ولهُ نَظائِرُ كَثيرَةٌ في القُرْآنِ، ويجوزُ جَعْلُهُ التِفاتًا عَنْ ضَميرِ ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، ويجوزُ أنْ يَكونَ مُتَناسِقًا مَع ضَمائِرِ ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِ﴾ [الأنبياء: 5] وما بَعْدَهُ"(3).

سرُّ تنكير ﴿ءَالِهَةً﴾:

اتِّخاذُ آلهةٍ لا نفع منها ولا جدوى، دالٌّ على سفاهة مَنْ عَبَدَها وسوء تفكيره

ورد لفظ الآلهة هنا مُنكَّرًا للتّقليل والتّحقير؛ لكونها لا نفع منها ولا جدوى؛ فهي لا تُغني عنهم من عذاب الله شيئًا؛ إذ هي لا تملك من أمرها مثقال ذرة من خير أو شرٍّ أو نفع أو ضرٍّ" فهل هذه الآلهة التي اتخذوها تستطيع أن تُعيد الحياة إلى الأموات؟ كلا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 61.
(2) الراغب، المفردات: (أخذ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 37.

إنَّها لا تستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم، وما دام الأمر كذلك فكيف أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهةً لا تستطيع أن تفعل شيئًا من ذلك أو من غيره؟ إنَّ اتخاذهم هذا لَمِن أكبر الأدلة وأوضحها على جهالاتهم وسفاهاتهم وسوء تفكيرهم"[1].

سرُّ تقييد وصف الآلهة بكونها ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعريضٌ بجهل هؤلاء المشركين وغباوتهم إذ يعبدون ما يصنعونه بأيديهم

وصْفُ الآلهة بكونها من الأرض إشارة إلى أنَّها من الأصنام المعبودة في الأرض، وهذا تهكُّمٌ وتوبيخٌ وتجهيلٌ وتحقيرٌ لهم على سفههم هذا، وهم لم يصلهم منها نفعٌ ولا ضرٌ ولا حياةٌ ولا نشورٌ البتَّة، وهذا كلُّه تعريض بأنَّ مَنْ كانوا مثل ذلك لا يستحقّون بحال من الأحوال أن يكونوا معبودين أو أن يُتَّخذوا آلهة.

سرُّ تخصيص الأرض بالذِّكر هنا:

تعديد آلهة مخلوقة لا قدرة لها دليل سفه أهل الأرض، واختلال أحلامهم

معنى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أيْ: إنَّ أصنامهم التي يعبدونها ويشاهدونها هي أرضيّة مصنوعة من حجارتها ونحوها، وهي وكل ما فيها طَوْع مشيئته، وفي هذا الاستفهام تهكُّمٌ بهم بالإشارة إلى أنَّهم عبدوا ما هو من أدنى ما في الأرض مع أنَّه ليس في الأرض ما يستحقُّ أن يُعبد؛ لأنَّ الإنسان أشرف ما فيها، ولا يخفى ما له من الحاجة المُبعدَة من تلك الرُّتبَة السّماء[2].

شتّان بين مَنْ يعبد الخالق دون تعبٍ أو فتورٍ، وبين مَن يعبدُ آلهةً مخلوقة

"وذِكْرُ الأرْضِ هُنا مُقابَلَةٌ لهذه الآلهة مع أهْلِ السَّماءِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يفترون عن تسبيحه ليل نهار[3]، وأراد بالمقابلة هنا المقابلة المعنوية، وفي هذا إشارة بيِّنة إلى أنَّ أهل السَّماء لا يفعلون فِعالَ أهل الأرض؛ فأهل السَّماء يعبدون إلهًا واحدًا مُنزَّهًا عن المُماثلة والمُشاركة، وهم

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 402، 403.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 37، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4846.

يفعلون ذلك بيقين راسخ لعلمهم بصاحب المُلك والملكوت، وأهل الأرض اختلَّت أحلامهم وتسفَّهت آراؤهم فعدَّدوا آلهةً لا تُسمن ولا تُغني من جوع دليلًا على فساد المُعتقَد وسفاهة العقول والأحلام.

دلالة ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾:

آلهة المشركين التي يزعمونها لا تُحيي ميتًا ولا تنشره فتخرجه إلى الحياة

ضمير الفصل من أدوات توكيد الكلام؛ فيُؤتى به لتوكيد مضمون الجملة التي ورد فيها، فضلًا عن معنى الاختصاص مع دلالة أنَّ ما بعده خبر لا صفة، فوروده في الآية ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ لتوكيد توبيخ هذه المعتقدات من هؤلاء المشركين، وأنَّ آلهتهم التي يزعمونها لا تُحيي ميتًا ولا تنشره فتخرجه إلى الحياة، ثمَّ جعل الحديث خاصًّا بهذه الآلهة دون سواها وألّا ينشر غيرها مع أنَّها لا قدرة لها على نشر الموتى من قبورهم، كما دلَّ على أن جملة ﴿يُنشِرُونَ﴾ بفعلها وفاعلها ومفعولها المحذوف خبرٌ لهذا الضمير؛ وليست صفة له.

إيثار التعبير بالفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾ دون غيره:

تحدٍّ يُلجم الكفار ويُظهر سفههم

النُّشور اسمٌ لظهور المبعوثين من الأرض وانكشاف أعمالهم للخلائق[1]، وهو في الآية ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ "مَسوقٌ لِلتَّهكُّم وإدْماجٌ لإثْباتِ البَعْثِ بطريقة سوق المَعْلوم مساق غَيْرِه المُسَمّى بتجاهل العارف، إذْ أبْرَز تَكْذيبَهُم بالبَعْثِ الَّذي أخْبَرهُمُ اللّه على لِسانِ مُحَمَّدٍ ﷺ في صورَةِ تَكْذيبِهِم اسْتِطاعَةَ اللّه ذلك وعجْزَهُ عَنْهُ؛ أيْ إنَّ الأوْلَى بالقُدْرَةِ على البَعْثِ شُرَكاؤُهُم، فكانَ وُقوعُ البَعْثِ أمرًا لا يَنْبَغي النِّزاعُ فيه، فإنْ نازَعَ فيه المُنازِعونَ فإنَّما يُنازِعونَ في نِسْبَتِه إلى اللّه ويرومونَ بذلك نِسْبَتَهُ إلى شُرَكائِهِم، فأُنْكِرَتْ عليهم هذه النِّسْبَةُ على هذه الطَّريقَةِ المُفْعَمةِ بالنُّكَتِ"[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 285.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 38.

التعبير بالفعل المضارع ﴿يُنشِرُونَ﴾:

أغلقوا عقولهم فكانوا حقيقين بعد بالإعراض عنهم بالتّوبيخ والتّهكم والتّعنيف

الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾ ورد هنا مضارعًا للدّلالة على تجدُّد النشر وحدوثه شيئًا فشيئًا مع استحضار صورته الماضية أمام النّاظرين، وهو ترسيخ للتهّكم بهم لعدم قدرتهم على بعث الموات.

تقدير متعلّق الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾:

لا يستحقُّ أن يكون معبودًا إلّا مَن قدر على الإحياء والإيجاد من العدم

حُذف متعلِّق الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾ هنا؛ لكونه معلومًا بدلالة الحال والسّياق؛ لأنَّ المراد بالنشر المقصود في الآية هو نشرُ الأموات وإحياؤهم، والمعنى: هم يبعثون الأموات؛ إذ لا يستحقُّ الإلهيَّة إلّا مَن يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم، والإنعام بأبلغ وجوه النِّعم وهو اللّه ﷻ.

مرجع الضمير في الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾:

لا تصحّ الألوهيَّة دون القُدرة على الإنشار

الضمير في الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾ عائدٌ على الآلهة المزعومة التي اتَّخذها هؤلاء المشركون أندادًا من دون اللّه تعالى، والضمير الأول - وهو ضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ - مقدَّم فيه معنى التَّخصيص للتَّنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار المُوجِبة لمزيد الإنكار، وقيل: إنَّه قُدِّم للتقوى، لكونه ترشيحًا لما أبداه من أنَّ الإلهيَّة لا تصحُّ دون القدرة على الإنشار، "وجُوِّزَ أنْ تَكُونَ جُملَةُ ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ مُسْتَأْنَفَةً مُقَدَّرًا مَعَها اسْتِفْهامٌ إنْكاريٌّ لِبيانِ عِلَّةِ إنْكارِ الاتِّخاذِ"[1]، ومرجعُ الضَّمير في الفعل إلى هذه الآلهة يدور عليه الإنكار والتَّجهيل والتَّشنيع عليها لعدم جدواها وقدرتها على هذا الإحياء والبعث البتَّة.

سرُّ الفصل في قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾:

خطابٌ حكيمٌ ينتفع به أصحاب العقول الواعية

فُصِلَتْ جملةُ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكمال الاتِّصال؛ لكونها عطف بيان للإنكار الوارد في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 17/ 22.

﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومن هنا وردت مفصولةً لا معطوفة، وهي هنا إبطالٌ لتعدُّد الإله، قال البقاعي: "ولمّا كان الجواب قطعًا: لم يتَّخذوا آلهةً بهذا الوصف، ولا شيء غيره سبحانه يستحق وصف الإلهيَّة، أقام البرهان القطعيَّ على صحَّة نفي إلهٍ غيره ببرهان التَّمانع، وهو أشدُّ برهانٍ لأهل الكلام"[1].

معنى ﴿لَوۡ﴾:

العقول المدرِكة يستحيل عندها أن تتعدد الآلهة

أتت ﴿لَوۡ﴾ في قوله ﷻ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ للدلالة على عدم تحقُّق وجود الآلهة أو تعدُّدها لامتناع ذلك وفساد حصوله؛ أي: امتنع الفساد في الكون لامتناع أن يكون فيهما غير اللّه.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كَانَ﴾ ماضيًا:

إقامة الحُجَّة على سبيل الفرض لدحض موقف الكافرين

الفعل الماضي دالٌّ في استعماله على تحقُّق الفعل وحصوله، والمراد في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾: لو حصل ووقع بشكل قطعيٍّ راسخ وجود آلهة أخرى غير اللّه تعالى لفسدتِ السماوات والأرض ومَن فيهن ولكنَّ ذلك لم يكن، فالتعبير بالماضي لمزيد الإنكار عليهم.

التَّعبير بحرف الظَّرفية (في):

السَّماء والأرض موضع الأسرار ما بقي الليل والنَّهار

الحرف (في) من حروف الجرِّ الدّالَّة هنا على الظَّرفية، وتارة يكون الظرف والمظروف حسّيين وتارة يكونان معنويين، والظرف في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ حقيقة لكون كلٍّ من السَّماء والأرض أمريْن محسوسيْن يراهما الخلائق جميعًا، ودلَّ استعمال حرف الظَّرفيَّة على التَّمكُّن والاستقرار في هذيْن المخلوقيْن العظيميْن؛ إذ لا يتعدّاهما الخلق سواء من أهل السماء من الملائكة أو من أهل الأرض فإنَّ الوجود يكون فيهما، فليس في الكون شيء غيرهما؛ فهما المخصوصان بالذِّكر.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرَر: 12/ 403.

دلالة عود ضمير المثنى ﴿فِيهِمَآ﴾:

عاد ضمير الظَّرفيَّة المُثنَّى في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾ على كلٍّ من السَّماوات والأرض؛ فلا شيء أو مخلوق يُقصد سواهما، والمعنى: "لَوْ كانَ في السَّماواتِ والأرْضِ آلِهَةٌ أُخْرَى ولم يَكُنْ جَميعُ مَنْ فيها مِلْكًا للّه وعِبادًا لَهُ؛ لَفسدتِ السَّماواتُ والأرْضُ واخْتَلَّ نِظامَهُما الَّذي خُلِقَتا بِهِ، وهذا اسْتِدْلالٌ على بُطْلانِ عَقيدَةِ المُشْرِكينَ إذْ زَعموا أنَّ اللّه جَعل آلِهَةً شُرَكاءَ لَهُ في تَدْبيرِ الخَلْقِ، أيْ: إنَّهُ بَعْدَ أنْ خَلَق السَّماواتِ والأرْضَ أقامَ في الأرْضِ شُرَكاءَ لَهُ"(1).

محـاورةٌ عقلية تـثـبـتُ بُـطْـلانَ عَقيدَةِ المُشْركينَ الزاعِمين وجود آلِهَـةٍ من دون الله

دلالة تنكير ﴿ءَالِهَةٌ﴾:

النَّكرة هي ما شاع في جنسه دون أن يدلَّ على معيَّن، وتنكير ﴿ءَالِهَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ غرضه التقليل والتَّحقير من شأن هذه التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع ولا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًّا ولا حياةً ولا نُشورًا، وقرائن الأحوال وسياقات الكلام على تحقير هذه الآلهة المزعومة؛ إذ لو كانت نافعةً لنفعت نفسها أوَّلًا.

هـل تستحقُّ مـثـل هـذه الآلهة المزعومة العاجزة تعريفًا يُذكر؟!

مفهومُ الاستثناءِ في الآية:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ للوصف بمعنى (غير)؛ لأنَّه لا ارتباط بين المُستثنى والمُستثنى منه حتى يجعل أحدهما مُستثنى من الآخر، فما قبلها لا يشمل ما بعدها بأي نوعٍ من الشمول؛ بل بينهما غيريَّة مُطلقة فلا ارتباط، والدَّليل رفع لفظ الجلالة؛ إذ لو كان مُنقطعًا لكان منصوبًا، فدلَّ على أنَّه لا استثناء قط، وعلى ذلك تكون (لا) وصفًا بمعنى (غير)، ويكون المعنى أنَّه امتنع التالي في هذه الشَّرطيَّة؛ وهو الفساد؛ لأنَّه يُخالف الحِسّ(2)؛ وفيها إثبات

تَفسدُ الرَّعية بتدبير الإلهيْن لما يحدث بينهما مـن التَّغالب والتَّناكر والاختلاف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 38، 39.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4847.

الإلهيَّة للّه ونفيها عمّا عداه؛ لأنَّ (لولا) المفيدة للامتناع، مفيدةٌ للنَّفي أيضًا؛ فالكلام في قوَّة أن يُقال: (ما فيهما آلهة إلّا اللّه)[1].

سرُّ إظهار اسمه الأعظم ورفعه:

نظام العالم العُلوي والسُّفلي وكماله دليلٌ على أن المُدبِّر واحدٌ

إظهار اسمه الأعظم المُتفرِّد بصفة الكمال في موضع إثبات الوحدانيّة يُناسب تفرُّده بالجلال والكمال والألوهيَّة، ورُفع على أنَّ ﴿إِلَّا﴾ صفة بمعنى غير، "ولا يجوز أن يكون بدلًا؛ لأنَّ المعنى يصير إلى قولك: (لو كان فيهما اللّه لفسدتا)، ألا ترى أنَّك لو قلتَ: (ما جاءني قومُك إلّا زيدٌ) على البدل لكان: جاءني زيدٌ وحده، وقيل: يمتنع البدل لأنَّ ما قبلها إيجابٌ.

الإعراب بالنصب ودلالته

ولا يجوز النَّصب على الاستثناء لوجهَين: أحدهما أنَّه فاسدٌ في المعنى، وذلك أنَّك إذا قلتَ: (لو جاءني القوم إلّا زيدًا لقتلتهم)؛ كان معناه أنَّ القتل امتنع لكون زيد مع القوم، فلو نُصبت في الآية لكان المعنى: إنَّ فساد السّماوات والأرض امتنع لوجود اللّه تعالى مع الآلهة، وفي ذلك إثبات إلهٍ مع اللّه، وإذا رُفعت على الوصف لا يلزم مثل ذلك لأنَّ المعنى: لو كان فيهما غير اللّه لفسدتا، والوجه الثاني: أنَّ ﴿ءَالِهَةٌ﴾ هنا نَكِرة؛ والجمع إذا كان نَكِرةً لم يُستثنَ منه عند جماعة من المُحقِّقين؛ لأنَّه لا عموم له بحيث يدخل فيه المُستثنى لولا الاستثناء"[2].

دلالة جمع ﴿ءَالِهَةٌ﴾ في مقابلة الذّات العَليَّة:

تعدُّد الآلهة عند المشركين خير دليل على ألوهيَّة الله تعالى وحده لا شريك له

"وإيرادُ الجمع لوروده إثرَ إنكار اتخاذِ الآلهة لا لأنَّ للجمعية مدخلاً في الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما"[3]، وقال البقاعي: "لو كان فيهما آلهة غيره ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لقضاء العادة بالخلاف بين المُتكافئين المُؤدّي إلى ذلك، ولقضاء العقل بإمكان الاختلاف

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 403.
(2) العكبري، إملاء ما مَنَّ به الرحمن: 2/ 131، 132.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 61.

اللّازم منه إمكان التّمانع اللّازم منه إمكان عجز أحدهما اللّازم منه ألّا يكون إلهًا لحاجته، وإذا انتفى الجَمعُ، انتفى الاثنان من باب الأوْلى؛ لأنَّ الجمع كلّما زاد حارب بعضهم بعضًا؛ فقلّ الفساد كما نُشاهِد"[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَفَسَدَتَا﴾:

اللّام واقعة في جواب ﴿لَوْ﴾؛ والمعنى عليه: (لو حصل وتحقَّق وجود آلهة أخرى غير اللّه تعالى في السماوات والأرض تدبُّر أمرهما لتحقَّق وقوع الفساد والخراب لهما وخروجهما عن نظامهما البديع الذي أوجده اللّه تعالى لا خلل فيه ولا اضطراب، ولما رُئيَ هذا الكون يسير بنظام دقيقٍ، ويقوم على عملٍ مُحكَم؛ أبان ذلك عن أنَّ له إلهًا قادرًا حكيمًا لا يُشاركه أحدٌ فيه على الإطلاق).

دعوة للتَّفكُّر في عاقبة الأمور لو تعدّدت الآلهة

دلالة التَّعبير بلفظ الفساد دون غيره:

الفساد خروج عن جادَّة الصَّواب والاعتدال، فإذا تعدَّدتِ الآلهة في الكون؛ أخرج هذا التَّعدُّد الكون القديم لاختلاف الأمزجة والأهواء حينئذٍ، وهي كناية دقيقة عن هذا النِّظام الذي أحكم اللّه كونه عليه بما لا يستطيع غيره إخراجه عن هذا الخلق المُحكَم؛ فاللفظة "مَسوقَةٌ لإِثْباتِ الوحْدانيةِ لا لإِثْباتِ وُجودِ الصّانِعِ إذْ لا نِزاعَ فيه عِنْدَ المُخاطَبينَ، ولا لإِثْباتِ انْفرادِه بالخَلْق، إذْ لا نِزاعَ فيه كَذلك، ولكِنَّها مُنْتَظِمَةٌ على ما يُناسِبُ اعْتِقادَهُمُ الباطِلَ لِكَشْفِ خَطئِهِم وإعْلانِ باطِلِهِم"[2].

مــن فســاد عقولهم أنَّهم يُقرّون بوحدانيَّة اللــه تـعـالى ويؤمنون بتعدد الآلهة

بلاغة الاستعارة في لفظ الفساد:

في لفظ الفساد استعارةٌ مكنيَّة؛ إذْ شُبِّهت السّماء والأرض في صلاحهما ونظامهما بالثَّمرِ يُترَكُ بفعل فاعل حتَّى يصيبه الفساد

أيُّ قـدرة غير قــدرة اللــه تُفسدُ السماء والأرض وهو من المُحال؟!

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 403.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 39.

ويخرج عن دائرة الصلاح، ثمَّ حُذف المُشبَّه به ودُلَّ عليه بلازِمِه - وهو الفساد - على سبيل الاستعارة المَكنيَّة، ولإثبات هذا اللّازم استعارة تخييليَّة وهي قرينة المَكنيَّة، مبالغة في خروج هذيْن المخلوقيْن عن دائرة الصَّلاح مع تدخُّل مؤثِّر خارجيٍّ أدّى إلى فسادهما.

إيقاظ ضمير المرتاب لتوحيد ربّ الأرباب

إعجاز المبالغة في نظم الآية:

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ إخراجٌ للكلام مخرجَ الشكّ للمبالغة في العَدلِ، لتهزيز ضمائر أهل الريبة، ودمغ باطلهم ببراهين الحق، وإيقاظ أذهانهم إلى أنّ ما يرَوْنَه من انتظام الكون بسمائه وأرضه دليلٌ على وحدانية اللّه تعالى، فيأتي ملزوم الآية بتقدير: (لكنّهما ما فسدتا، فليس فيهما آلهة إلا اللّه) [1].

تنزيهٌ لله تعالى عن كلِّ نقص

معنى الفاء في قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عاطفة لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، "وفُرِّعَ على هذا الاِسْتِدْلالِ إنْشاءُ تَنْزِيهِ اللّه تَعالى عَنِ المَقالَةِ الَّتي أبْطَلَها الدَّليلُ بقَوْلِه تَعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أيْ: عَمّا يَصِفونَهُ به مِنْ وُجودِ الشَّريكِ"[2]، "فلمّا أفاد هذا الدليل أنه لا يجوز أن يكون المُدبِّر لها إلّا واحدًا، وأنَّ ذلك الواحد لا يكون إلّا اللّه قال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: فتسبَّب عن ذلك تنزُّه المُتَّصِف بصفات الكمال"[3].

جعلُ الجماد الَّذي لا يَعْقِلُ ولا يُحسُّ شَريكًا في الإلَهيةِ أمرٌ تأباه العقول

سرُّ وُرود التَّسبيح ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾:

اصطفاء التسبيح هنا في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهٌ له ﷻ عمّا قال الجاهلون المُعانِدون في حقِّه

(1) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص: 39 - 40.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 44.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 403، 404.

تعالى؛ والمعنى: تنزيهًا لله ﷻ وتبرئة لذاته أن يكون له نِدٌّ أو شريكٌ في أُلُوهيَّته، تعالى الله عمّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا، يقول الفخر الرازي: "إنَّ الله تَعالى بَعْدَ ذِكرِ الدَّليلِ العامِّ نَبَّه على نُكْتَةٍ خاصَّةٍ بعَبدةِ الأَصْنام؛ وهي أنَّهُ كَيْفَ يَجوزُ لِلْعاقِلِ أَنْ يَجْعَلَ الجَمادَ الَّذي لا يَعْقِلُ ولا يُحِسُّ شَريكًا في الإلَهيةِ لِخالِقِ العرش العظيم ومُوجِد السماوات والأَرضينَ"(1).

غرضُ إظهارِ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ورد لفظ الجلالة في مقام الإظهار؛ وذلك "للإشعارِ بعلَّةِ الحُكْم؛ فإنَّ الأُلوهيَّةَ مناطٌ لجميع صفاتِ كمالِه التي من جملتها تنزّهُه تعالى عما لا يليق به، ولتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوعة"(2).

دلالةُ إعادةِ وصفِ الذّاتِ العليّة بالرُّبوبيَّة:

ورد لفظ الرُّبوبيَّة بعد ذِكْر الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ "لتأكُّد التنَّزُّه مع ما في ذلك من تربية المهابة، والظّاهر أنَّ المُراد حقيقة الأمر بالتَّنزيه، وقيل: المُراد بالتَّعجيب ممَّن عبد تلك المعبودات الخسيسة وعدها شريكًا مع وجود المعبود العظيم الخالق لأعظم الأشياء، والكلام عليه أيضًا كالنتيجة لما قبله من الدَّليل"(3).

سرُّ التَّنصيص على ذِكْر العرش مُضافًا إليه تعالى:

جملة ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ صفةٌ للاسم الجليل مُؤكِّدة تنزيهه ﷻ ردًّا على هؤلاء المشركين، إذا كان ﷻ خلق أعظم شيء في الوجود مع تملّكه جميع المخلوقات؛ ومنها ما هو أعظم من خلق الإنسان؛ وهي

الذي حاورهم بعقولهم قادرٌ على أن يُنزل بهم أشدَّ العذاب

كما فتح ربُّنا بابَ العذاب لنَفِرَّ منه فتحَ بابَ رحمتِه لِنَفِرَّ إليه

إذا كان الله تعالى ربًّا للعرش الذي هو سقف المخلوقات فربوبيَّته لغيره أوْلَى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 131.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 62.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 17/ 28.

السماوات والأرض؛ ومنها العرش والكرسي، أَبَعْدَ هذا كلِّه يحتاج إلى مُساندٍ له أو مساعدٍ في خلق ما خلق؟ قال ابن عاشور: "ووَصْفُهُ هُنا بـ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ لِلتَّذْكيرِ بأنَّهُ انْفَرد بخَلْقِ السَّماواتِ؛ وهو شَيْءٌ لا يُنازِعونَ فيهِ؛ بَلْ هو خالِقُ أَعْظَمِ السَّماواتِ وحاويها - وهو العَرْشُ - تَعْريضًا بهم بإلْزامِهِم لازِمَ قَوْلِهِم بانْفِرادِه بالخَلْقِ أنْ يَلْزَمَ انْتِفاءُ الشُّرَكاءِ لَهُ فيما دونَ ذلك"[1].

مفهوم ﴿عَمَّا﴾ وسرُّ ورودها:

لم يكتفوا باعتناقهم الشِّرك؛ وإنَّما تجاوزوا حدَّهم فوصفوا الله تعالى بما لا يليق

في قول اللّه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نجد أنَّ ﴿عَمَّا﴾ مُكوَّن من جزئَيْن: (عن)، و(ما)، أمّا (عن) فهي تقتضي مجاوزة ما أُضيف إليه نحو غيره وتعدّيه عنه، وهي هنا مبيِّنة مجاوزة هؤلاء المشركين الحدَّ في وصفهم اللّه تعالى بما لا يليق من وجود آلهة تُشاركه في ألوهيَّته حاشاه تعالى عن ذلك.

وأمّا (ما)؛ فهي اسم موصول بمعنى: (الذي)؛ وهي من الأسماء الخبريَّة التي يستوي فيها التَّذكير والتَّأنيث والإفراد والتَّثنية والجمع، فإنْ كان المُراد بها المُذكَّر؛ كانت للتَّذكير بمعنى (الذي)، وإن كان المُراد بها المُؤنَّث؛ كانت للتَّأنيث بمعنى (التي)، والمُراد هنا: تنزيه اللّه تعالى عن الذي يصفونه به من وجود هذه الآلهة المزعومة، وأُقيمت عليهم الحُجَّة بأنَّ وجود هذه الآلهة يؤدّي لا محالة إلى فساد نظام الكون.

دلالة التعبير بالفعل المضارع ﴿يَصِفُونَ﴾:

جعلوا لله الصّاحبة والولد، وحاشاه ثمَّ حاشاه

في قول اللّه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ دلَّ الفعل المضارع ﴿يَصِفُونَ﴾ على تجدُّد هذا الوصف واستمراره منهم مع استحضار صورة هذا الوصف في النفوس لتسفيه ما اجترحوه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 44.

وما تقولوا به عليه عزَّ سلطانُهُ، فصار هذا الوصف مُتجدِّدًا مُستمرًّا لا ينقطع على مرِّ الزمان إلى يوم الناس هذا.

تقدير متعلّق الفعل ﴿يَصِفُونَ﴾:

لا يجوز أن يكون المدبّر للسماوات والأرض إلّا واحدًا هو الله تعالى

حُذف متعلِّق الفعل ﴿يَصِفُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لأنَّ نظر السّامع، أو المشاهد مُنصرفٌ إلى وقوع الحدث - الفعل وفاعله - دون الالتفات إلى مَن وقع عليه الفعل وهو المفعول، وهو محذوف من الجملة؛ لكونه معلومًا بدلالة الحال والسّياق، والمُراد: عمّا يصفه به المشركون من الشِّرك والولد؛ فأغنى ذِكْر الفعل والفاعل عن المفعول للعلم به كما ذكرنا.

موقع جملة ﴿يَصِفُونَ﴾ من الإعراب:

تعدُّد الآلهة فسادٌ للكون مع ما يحدث لهذا الكون من خلل

جملة ﴿يَصِفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب صلة الموصول، والجملة هنا واردة إمّا للتَّنبيه على خطأ زعم هؤلاء فيما زعموا من نسبة الآلهة بوجودهم مع الإله الواحد ﷻ، وإمّا واردةٌ لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو نفي وجود الآلهة أصلًا؛ إذ إن وجودهم هو فساد الكون مع ما يحدث لهذا الكون من خللٍ لتنازع الأهواء وتشتُّت الآراء، وجوز أن تكون (ما) في ﴿عَمَّا﴾ مصدريَّة، والمُراد نفيُ وصفِهم هذا كلّه من الأساس.

سرُّ فصل جملة ﴿لَا يُسۡـَٔلُ﴾:

عظمة الخالق ﷻ وكمال قدرته لا يقدر أحدٌ على معارضته وسؤاله

فُصلت جملة ﴿لَا يُسۡـَٔلُ﴾ عن سابقتها؛ إمّا لكمال الاتِّصال؛ لكونها بيانًا للحالة التي يجب أن يكون عليها الإله الحقُّ الذي يفعل في كونه ما أراد دون أن يتعرَّض له أحدٌ من مخلوقاته بسؤالٍ ما؛ لأنَّ من شأن الخالق ألّا يتجاوز المخلوق حدَّه معه، وإمّا لشبه كمال الاتِّصال على الاستئناف البيانيِّ، كأنَّ سائلًا سأل في شأنه بعد ذلك في كونه هذا؛ فجاء الجواب: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾، فورود

الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تفرُّده سبحانه بالسلطان بحيث لا يسأله أحدٌ عمّا يفعله.

وجه إعرابها حالية ودلالته

ويجوز أن تكون الجملة حاليَّة؛ لتُكمل مَدْلول قَوْله تَعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾؛ فالمَعْنَى أنَّ مَنْ عِنْدَهُ - وهُمُ المُقَرَّبونَ من المَخْلوقاتِ - هُم مع قُرْبِهِم يُسْألونَ عَمّا يَفْعَلونَ ولا يَسْألونَهُ عَمّا يَفْعَلُ؛ أيْ: لَم يَبْلُغْ بهِم قُرْبُهُم إلى حَدِّ الإدْلالِ عليه وانْتِصابِهِم لِتَعقُّبِ أفْعالِهِ"[1].

دلالة النَّفي بـ ﴿لَا﴾:

لا يُتوجَّه إليه بسؤال؛ لأنَّ خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال

﴿لَا﴾ دالَّة على النَّفي؛ وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وقد يُنفى المضارعُ مُرادًا به نفي الدَّوام، والنَّفي بها يتناول فعل المُتكلِّم، وتخلص المضارع للاستقبال، والمُراد بالنفي هنا نفي وقوع السُّؤال في جميع الأحوال في الحال والاستقبال؛ لأنَّه ﷻ ليس محلًّا للتَّساؤل عن إيجاد ما يُوجد أو انعدام عُدِمَ، فلا يقع في ملكه إلّا ما أراده ﷻ؛ فهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع مبنيًّا للمفعول:

الخالقُ لا يُسأل، وانتفاء وقوع السُّؤال أصلًا امتناعٌ لتعيين السّائل

ورد الفعل ﴿يُسْـَٔلُ﴾ مضارعًا في قوله تعالى ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ للدَّلالة على عدم تجدُّد هذا السُّؤال مع استحضار هذه الصُّورة، وورد مبنيًّا للمفعول إيجازًا واختصارًا، أو لكونه معلومًا للسّامع، أو لعدم تعلُّق غرضٍ بذِكْره؛ والمعنى: لا يسأله أحدٌ من خلقه عمّا يفعله ﷻ؛ إذْ ليس بمقدور أحدٍ فعلُ ذلك، فلمّا انتفى وقوع السؤال أصلًا؛ امتنع تعيين السّائل، وقد يكون القصدُ التَّعميم؛ أيْ: لا يَسْألُ سائلٌ اللّه تَعالى عَمّا يَفْعَلُ، وكانَ مِمَّنْ يَشْمَلُهُمُ الفاعِلُ المَحْذوفُ هُم مَنْ عِنْدَهُ مِنَ المُقَرَّبينَ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 45.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 45.

دلالة مجيء الفعل ﴿يَفۡعَلُ﴾ مضارعًا:

أفعاله تعالى في الكون مُتجدِّدة مستمرَّة لا تنقطع

وَرَدَ فعل جملة السؤال هنا ﴿يَفۡعَلُ﴾ مضارعًا للدلالة على تجدُّد فعله سبحانه واستمراره مع استحضار هذه الصورة لبيان أن وقوع أفعاله في الكون متجدِّدة مستمرّة لا تنقطع إمّا بنفع مَن أراد اللّه لهم النَّفع أو بهلاك مَن يستحق أن يُصيبه هذا الهَلاك وأهل المَكْر لهم مكرهم.

سرُّ عطف الإثبات على النَّفي وتقديم النفي:

لا يملك الإنسان لنفسه شيئًا لعجزه وضعفه وقلّة حيلته

نفى ﷻ أن يسأله أحدٌ من خلقه تأكيدًا لوحدانيَّته وقدرته؛ أيْ: لا يسأله سائلٌ عمّا يفعله بعباده من إعزازٍ وإذلالٍ وهدايةٍ وإضلالٍ ...الخ؛ لأنَّه هو الرَّبُّ المُتصرِّف في شئون خلقه، وعَطْفُ المُثبتِ على المَنْفيِّ يُقوّي الأوَّل ويُؤكِّد الثّاني؛ فالخالق لا يُسأل، والمخلوق هو المسئول، و"تَقْديمَهُ على جملَة ﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ اقْتَضتْهُ مُناسَبةُ الحَديثِ عَنْ تنزيهه تَعالى على الشُّرَكاء؛ فكانَ انْتِقالًا بَديعًا بالرُّجوع إلى بَقيةِ أحْوالِ المُقَرَّبينَ؛ فالمَقْصودُ أنَّ مَنْ عِنْدَهُ مَع قُرْبِهِم ورِفْعَةِ شَأْنِهم؛ يُحاسِبُهُمُ اللّه على أعْمالِهِم؛ فهُم يَخافونَ التَّقْصيرَ فيما كُلِّفوا به مِنَ الأعْمالِ؛ ولِذلك كانوا لا يَسْتَحْسِرونَ ولا يَفْتُرونَ"[1].

دلالةُ ضمير الفَصْل ﴿وَهُمۡ﴾:

دعوة للتَّفكُّر في موقف السُّؤال بين يدي الجبّار

ضمير الفصل يفيد التأكيد والاختصاص، وأنَّ ما بعده يكون خبرًا لا صفة وهو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ عائدٌ على العباد؛ "أيْ: والعباد يُسألون عمّا يفعلون نقيرًا وقطميرًا؛ لأنَّهم مملوكون له تعالى مُستعبَدون، وفي هذا وعيدٌ للكَفَرَة، والظّاهر أنَّ المُراد عموم النَّفي جميع الأزمان؛ أيْ: لا يُسأل سبحانه في وقتٍ من الأوقات عمّا يفعل، وخص ذلك الزَّجّاج بيوم القيامة؛ والأول أوْلى وإن كان أمر الوعيد على هذا أظهر"[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 45.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 29.

مرجع الضَّمير في الفعل ﴿يُسۡـَٔلُونَ﴾:

قطعَ اللهُ تعالى على المشركين كلَّ حُجَّة؛ إذ ساق لهم الأدلَّة وأرسل لهم الرُّسل

الضَّمير في الفعل إمّا أن يكون راجعًا إلى الآلهة المزعومة، وإمّا أن يكون راجعًا للعباد الموقوفين للسؤال عن أفعالهم؛ فقد ساق اللّه تعالى لهم الأدلة وأرسل لهم الرسل ليقطع عليهم الحُجَّة بذلك؛ فالضمير ليس براجعٍ إلى ما رَجع إلَيْه ضمير ﴿يَصِفُونَ﴾؛ لِأَنَّ أولَئِكَ لا جَدْوى لِلْإخْبارِ بأنَّهُم يَسْألونَ إذْ لا يَتردَّدُ في العِلْم بذلك أحدٌ، ولا براجعٍ إلى ﴿ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِعَدمِ صِحَّةِ سُؤالِهم[1].

بلاغة الكناية في فعل السُّؤال:

المُتدبِّر الحقّ في خلق الله وحسن تدبيره لا يجد للانتقاد سبيلًا

السُّؤالُ في الآية "بِمَعْنَى المُحاسَبةِ، وطلب بَيانِ سَببِ الفِعْلِ، وإبْداءِ المَعْذِرَةِ عَنْ فِعْلِ بَعْضِ ما يُفْعَلُ، وتخلُّصٍ مِنْ مَلامٍ أوْ عِتابٍ على ما يُفْعَلُ، فكوْنُهُم يُسْألونَ كِنايَةٌ عَنِ العُبودية؛ لِأنَّ العَبْدَ بمَظِنَّةِ المُؤاخَذةِ على ما يُفْعَلُ وما لا يفعل، وبمظنَّة التَّعرُّض لِلْخَطأ في بَعْضِ ما يُفْعَلُ، وفي هذا إبْطالٌ لِإلَهيَّةِ المُقَرَّبينَ الَّتي زَعمها المُشْرِكونَ الَّذينَ عَبدوا المَلائِكَة وزعموهُم بَناتِ اللّه تعالى، بطَريقَةِ انْتِفاءِ خاصّيَّةِ الإلَه الحَقِّ عَنْهُم إذْ هُم يُسْألونَ عمّا يَفْعَلونَ، وشأْنُ الإلَه ألّا يُسْأل، وتُسْتَخْرَجُ من جملَة ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ كِنايَةٌ عَنْ جَريانِ أفْعالِ اللّه تَعالى على مُقْتَضى الحِكْمَةِ بحَيْثُ إنَّها لا مَجالَ فيها لانْتِقادِ مُنْتَقِدٍ إذا أتْقَن النّاظِرُ التَّدبُّرَ فيها، أوْ كُشِفَ لَهُ عَمّا خَفي مِنْها"[2].

سرُّ وُرودِ الطِّباق في الآية:

اللهُ تعالى سائلٌ وعبدُهُ مسئولٌ

ورد في الآية ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ نفيُ السُّؤال أولًا، ثم عُطف عليه إثبات السُّؤال، ويُسمَّى هذا طباق السَّلْب الذي يجمع بين المُثبَت والمَنْفيِّ تأكيدًا لتنزيهه ﷻ عن وجود الشريك، ومعلومٌ أنَّ الضِّدَّ يُظهر حُسْنَه الضِّدُّ، فلا سؤال للخلق مع الخالق حاشاه ذلك.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 46.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 46.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّشر والحياة:

إثبـات الكمال الأزلـيِّ للخالق والـنَّـقـص عند المخلوق

النَّشر يدلُّ في أصله على فتح شيء وتشعُّبه وتفرُّقٍ ببسطٍ وامتدادٍ، والنُّشور: الحياة بعد الموت، يُقال: نَشرهُمُ اللّه؛ أيْ: بَعثهم[1]؛ لأنَّ البعث إثارةٌ وإقامةٌ يظهر فيهما الامتداد والانبساط[2]، أمّا الحياة فهي خلاف الموت، وليس فيه المعاني التي تتضمَّنها لفظة النَّشر، وقوله تعالى ﴿يُنشِرُونَ﴾ من إنشار الأموات؛ أيْ: بعثهم، وإحياؤهم؛ ومن هنا فهو أنسب في سياقه لما فيه من تهكُّم بهم لعدم قدرتهم على بعث الموات.

الصِّفة والنَّعت:

من شدّة كفرهم وصفوه عزَّ شأنه بما لا يليـق به، تعالـى عمّا يصفون

"النَّعْتُ وصْفُ الشَّيْءِ بما فيه مِن حُسْن، ولا يُقالُ في القَبيحِ إلّا أن يَتكلَّف مُتَكلِّف، فيقولُ: نَعْتَ سَوْءٍ؛ والوصْفُ يُقالُ في الحَسن والقَبيح"[3]، والنَّعت يكون للحاليَّة، كالطويل والقصير، والصِّفة للفعل، والنَّعت ما كان خاصًّا بمحلٍ من الجسد؛ كالأعرج مثلًا، والصِّفة للعموم، كالعظيم والكريم؛ فاللّه تعالى يُوصَف ولا يُنعت[4]، ولما كانت الصفة دالّة على العموم، وخرج لفظ الوصف إلى أداء معنيي الحسن والقبح، وكان وصفهم له لا يليق بعظمته وجلاله سبحانه عمّا يصفون؛ أوثر لفظ ﴿يَصِفُونَ﴾ في سياق الآية دون (ينعتون) المختصّ بدلالة الحُسن.

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكَم، والراغب، المُفردات، وابن الأثير، النهاية: (نشر).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نشر).

(3) ابن الأثير، النهاية: (نعت).

(4) الزبيدي، تاج العروس: (نعت).

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ [الأنبياء: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكرار الاستفهام تقبيحٌ لفعل العباد

"لما قام الدّليل ووضح السبيل واضمحل كلُّ قالٍ وقيلٍ؛ فانمحقت الأباطيل؛ قال مُنبِّهًا لهم على ذلك فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾[1]؛ فكرَّر الإنكار عليهم استعظامًا للشِّرك ومبالغةً في التَّوبيخ؛ والمعنى: هل اتخذوا آلهةً من دون اللّه تصلح للعبادة والتَّعظيم؟!.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُونِهِۦٓ﴾: (دون) أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على المُداناةِ والمُقارَبة، يُقالُ هذا دونَ ذاكَ؛ أيْ: هو أقْرَبُ مِنْهُ[2] ولِدونَ تسعةُ معانٍ، منها: مَعْنى تحتَ، والسّاقِط من النّاس وغيرِهم[3]؛ فـ(دون) "ظرفُ مكانٍ ويُعبَّر به عن المنزلة الدّنيَّة"[4]، واستُعمل في معنى قُرْب المسافة؛ لأنَّ المنخفض قريبُ التناول ومن كونِ الشيء أقربَ من شيء بعدَه، واستُعمل في معنى الاختصاص بالشيء من حيث إنَّ الأقرب إلى الشيء يحوزه أوَّلًا قبلَ غيره، ويؤول هذا الاختصاص إلى معنى الغيريَّة، وبهذا جاء التركيب... ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ في سياق التّعبير عن اتخاذ الكفار آلهة غير اللّه تعالى[5].

2) ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾: البُرْهان: الحُجّة، وإيضاحُها، والبيان لها،

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 405.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (دون).
(4) السمين، عُمدة الحُفّاظ: (دون).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دون).

والدَّليل، وهو من (أبْرَه الرجل): غَلب الناسَ، وأتى بالعجائب، والبُرْهان أوكدُ الأدلّة؛ لأنّه الدليل القاطع، فهو أخص من الدليل الواضح، وهو الذي يقتضي الصدق أبدًا لا محالة، وبه قِوام الدعوى وصُلوحها[1]؛ لأنَّه يؤيِّدها فتقوى وتغلب، وبدونه تكون دعوى فارغة؛ فهو الدليل الذي يُوقع اليقين، ولم يأت في القرآن من التركيب إلّا (البرهان) بمعنى الحُجَّة[2].

3) ﴿ذِكْرُ﴾: (ذكر) أصلان: أحدهما خلافُ النسيان، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيْء وتَذكُّره، ثم حمل عليه الذِّكْر باللِّسان؛ أي: جَرْيُ الشيءِ على لسانك[3]، وإظهاره، ومنه الذِّكر: الوعظ؛ لأنَّه إذا تذكَّر قد يزدجر، والذِّكر: الصَّلاة للّٰه تَعالى، والدعاءُ، والثناءُ... ومنه (أهل الذِّكر)، والذِّكرُ: وصفه ﷺ من حيث إنه مُبَشَّرٌ به ومذكورٌ في الكتب التي نُزّلت قبله، والذِّكر: الكتب القديمة المُنزَّلة، والقرآن الكريم[4]، والمُراد بـ ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ القرآن، وبـ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ﴾: جميعُ الكتب السّالفة المعروفة: التوراة، والزبور، والإنجيل، وكتاب لقمان[5].

4) ﴿ٱلْحَقَّۖ﴾: الحقُّ نقيض الباطل، وهو: إيجابُ الحُكم[6]، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكام الشيء وصحّته[7]، وأصلُه: المطابقة، والموافقة[8]، وصدق الحديث، واليقين بعد الشكِّ، والإحكام، والتَّصحيحُ، والإثبات[9]؛ ومن بديع اصطفاء اللفظ القرآنيِّ المناسب للسّياق أنْ تتضمّن لفظة ﴿ٱلْحَقَّۖ﴾ المعاني المعجميَّة التي وردتْ تفسيرات لها.

5) ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: أصل (عرض) ما يُخالِفُ الطّولَ، ومن معانيه: الظهور، وعرضتُ له الشّيء؛ أيْ: أظهرتَه له وأبرزتَه إليه، والإعراض عن الشّيء: الصَّدُّ عنه، ويُقال: أعْرَض فلانٌ؛ أيْ: ذهب عَرْضًا وطولًا، وإذا قيل: أعْرَض عنّي؛ فمعناه: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ، وأصلُهُ: من (ولى في عرضه)؛ أيْ: ناحيته؛ فكأنَّه انحرف عنه وولّاه عُرْضه: جانبه، أو عارِضَه:

(1) الأزهري، التهذيب: (بره)، والجوهري، الصّحاح: (برهن)، والراغب، المُفردات، وابن الأثير، النهاية، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (بره).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بره - برهن).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(4) الأزهري، التهذيب، والسمين، عمدة الحفاظ: وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 47.
(6) الخليل، العين: (حق).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(8) الراغب، المفردات: (حق).
(9) الأزهري، التهذيب، وابن سيده، المحكم: (حق).

جانبَ وجهه لا مقدَّمه[1]، ومعنى اللفظة في الآية الكريمة: مُولُّونَ عن النَّظر في الأدلَّة التي يُدعونَ إلى معرفتها والنَّظر فيها[2].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

على المُدَّعي إثباتُ الدَّليل لإنجاح دعواه

"كرَّر تعالى الإنكار على المشركين استفظاعًا لشأنهم، واستعظامًا لكفرهم؛ فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ ... كما أن العقل - كما تقدَّم - يرفض وجود إلهين، وأشار فيما يأتي إلى الدَّليل النقليِّ فقال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ﴾ ... وبذلك اتَّفق القرآن وجميع الكتب السَّماوية السّابقة على الأمر بالتَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك ... وأكثر هؤلاء المشركين لا يعرفون الحقَّ، ويُعرضون عنه، ولا يميزون بين الحقِّ والباطل، فلا تنفع فيهم الأدلَّة والبراهين".

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستفتاح بـ ﴿أَمِ﴾:

اتّخاذ آلهةٍ خاليةٍ من خصائص الألوهيّة منتهى الباطل والسَّفَه

﴿أَمِ﴾ هنا كالسابقة حرف عطف للإضراب، وهو إضراب انتقاليٌّ من اتِّخاذهم آلهةً ليس لها قدرة في شيء، وأنه لو كان التَّعدُّد لكان الفساد، إلى إظهار بطلان ما اتَّخذوه آلهة مع خلوها من خصائص الأُلوهيَّة، وتبكيتُهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيقُ أن جميع الكتب السَّماويةِ ناطقةٌ بحقيقة التَّوحيد وبطلانِ الإشراك وبيان أنَّ اتخاذ شريك للّه تعالى لا يُؤيِّده العقل؛ بل يُخالفه ويُنكره، وكلُّ دعوى لابد لها من دليلٍ نقليٍّ أو عقليٍّ، فأين الدَّليل وقد طولبوا بالبرهان؟![3].

(1) الجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عرض).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 48.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 62، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4848.

وجملة ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ تأكيد للإضراب الانتقاليِّ في جملة ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بمثله استعظامًا لفظاعته، وليُبنى عليه استدلالٌ آخر كما بُني على نظيره السّابق؛ فإنَّ الأوَّلَ بُني عليه دليل استحالةٍ من طريق العقل، وهذا بُني عليه دليلُ بطلانٍ بشهادة الشَّرائع سابقها ولا حقها، فلقَّن اللّه تعالى رسوله ﷺ أن يقول: هاتوا برهانكم؛ أيِّ: هاتوا دليلًا على أنَّ للّه شركاء من شواهد الشَّرائع والرُّسل[1] على سبيل التَّعجيز والتَّحدّي بإثبات البرهان على دعواهم الباطلة هذه.

تأكيد الإضراب استعظامٌ لشنيع شِركهم

بلاغة الاستفهام في الآية:

جاء الاستفهام الذي تتضمنه ﴿أَمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ لإنكار الواقع؛ أيِّ: لتوبيخهم على اتّخاذهم آلهةً غير اللّه تعالى واستقباحه واستعظامه؛ والمعنى: بل اتَّخذوا آلهة متجاوزين إيّاه تعالى مع ظهور شئونه الجليلة المُوجِبة لتفرُّده بالأُلوهيَّة مع ظهور خُلُوِّهم عن خواصِّ الأُلوهيَّة بالكلّيَّة[2].

البرهان القاطع على استحالة تعدُّد الإله على الإطلاق

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾:

﴿مِن﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾؛ إمّا لبيان الجنس، وقالوا إنها لا تنفكُّ عنه مُطلقًا، ولها علامتان: أوَّلهما أن يصحَّ وضع (الذي) موضعها، وأن يصحَّ وقوعها صفةً لما قبلها، وقيل: أن يُذكر شيءٌ يكون تحته أجناس إذا أُريد أحدها وجب بيانه، ولمّا تعدَّدت الآلهة التي اتَّخذوها وصارت لها مُسمَّياتها المختلفة صارت كلُّ واحدة منها مبيَّنة باسمها الخاص بها ولها عابدوها.

اتِّخاذ آلهة تكون عوضًا أو بديلًا عن الرَّبِّ الخالق سفاهة أحلام

ويجوز أن يُراد بـ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ البدل من حيث العِوض عنه؛ فصار كالسَّبب في حصول

جواز أن يُراد بها البدل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 48.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 62، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4848.

العِوض فكأنَّه منه أتى، والمعنى عليه: اتَّخذوا آلهةً تكون عِوضًا أو بديلًا عن الرَّبِّ الخالق والإله القادر المُقتدِر لسفاهة أحلامهم، وقد يُراد بها التَّبعيض بوقوع البعض موقعها، أو بعموم ما قبلها لما بعدها إذا حذفت؛ أيِ: بعض مَن اتَّخذ.

مفهوم ﴿دُونِهِۦٓ﴾ ومرجع الضمير فيه:

آلـهةٌ لا تُجدي نفعًا ولا تدفع ضرًّا هي والعدم سواء

تُستعمل (دون) للقصور عن الشيء[1]، ولمّا كانت الآلهة المزعومة المُتَّخذَة للعبادة من قِبَلهم عُبِّر عنها بلفظ الدّونيَّة لكونها لم تصل في شرف القَدْر ورفعة المكانة وعدم التَّمكن من فعل شيء أو إبطاله بالكليَّة؛ وصفت بذلك، فلا يُرجى نفعها ولا تَرد غائلة؛ فصارت هي والعدم سواءً، ومرجع الضمير في قوله: ﴿دُونِهِۦٓ﴾ من الآية: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾؛ أيْ: من دون اللّه تعالى؛ فلا عقل يقبل ذلك، ولا نقل يُصدِّقُه؛ فالأَوْلى تركها؛ "فنبَّه على أنَّ كلَّ شيء دونه، وأثبت أن آلهتهم بعض من ذلك بإثبات الجارِّ؛ فقال مُنبِّهًا لهم مُكرِّرًا لما مضى على وجهٍ أعمّ، طالبًا البرهانَ تلويحًا إلى التَّهديد: ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ من السَّماء أو الأرض وغيرهما"[2].

سرُّ ورود ﴿ءَالِهَةًۖ﴾ نكرةً:

اتِّـخـاذ هـذه الأصـنـام آلـهةً كالمستجير من الرَّمضاء بالنّار

ورد لفظ ﴿ءَالِهَةًۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ نكرةً لرداءة نوعها وحقارة أمرها وقلَّة جدواها ونفعها؛ إذ لا قيمة لها تُذكر فلا تجلب نفعًا ولا تدحر ضُرًّا، ومَن تعبَّدها فاتَّخذها إلهًا كان كالمُستجير من الرَّمضاء بالنّار، فهي وعابدها حَصَبُ جهنم هم لها واردون، وإن كانت هي في حقيقتها ستُعلن براءتها من هؤلاء العابدين لها كما سيرد على لسانها يوم القيامة.

(1) الراغب، المفردات: (دون).

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 405، 406.

سرُّ التعبير بفعل الأمر وبيانه:

طـلـبٌ يُـفـحـم الخصمَ ويُلزِمُهُ الحُجَّة

الأمر ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ لرسول اللّه ﷺ، أو لكلِّ مَنْ يصلح له الخطاب على سبيل التَّبكيت وإلقام الحَجَر، وهذا ما يُعرف بإفحام الخَصْم وإلزامه الحُجَّة، ومعلوم أنَّ الأمر هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء، ويكون من الأعلى إلى الأدنى، وأُريد به هنا التَّعجيز؛ لكونهم لا يستطيعون ذلك لإقامة الحُجَّة عليهم عقلًا ونقلًا.

دلالة التعبير بالفعل ﴿هَاتُواْ﴾:

دعـوة لـلـتَّـحـدّي الـغـرض منها إظهار عجزهم

الفعل في قول اللّه تعالى: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ فعلُ أمرٍ مُرادٌ به التَّحدّي في مواجهة هؤلاء المُدَّعين وجود هذه الآلهة المزعومة، وهو مبنيٌّ على الكسر دائمًا إلّا مع واو الجماعة كما هنا، ومجيء الفعل هنا مناسبٌ لتقريرهم مرَّةً ثانيةً على اتِّخاذ الآلهة؛ فزاد الأمر بذِكْر قوله فيما سبق - من دونه - وذلك مبالغة في إنكار ذلك الاتِّخاذ وبيان فساده، وعليه ورد التعبير بالفعل ﴿هَاتُواْ﴾ قصدًا إلى تعجيزهم وتحدّيهم في إثبات دلائلهم على دعواهم الباطلة تلك.

مرجع الضمير في ﴿هَاتُواْ﴾:

المـيـدان مفتوح للجميع ليأتوا ببرهانهم، ولكن أنَّـى ذلـك مع عَـجَـزَةٍ يعبدون عَجزةً!

عاد الضَّمير هنا في الفعل في قوله: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ إلى هؤلاء المشركين الذين زعموا وجود آلهة من دون اللّه تعالى، وهذا مناط التَّحدّي والتَّعجيز لهم مع كونهم لا قدرة لهم على الإتيان بإثبات ذلك.

إيثار التَّعبير بلفظ (البرهان) مُسنَدًا إليهم:

لا صحـة لـقـولٍ لا دليلَ عليه في عامَّة الأمور

البرهان قولٌ يشهد بصحة الشيء، ودليل وحجّة يوقعان اليقين، وهو - بحسب ما مَرَّ ذِكْرُه - أوْكدُ الأدلّة؛ لأنّه الدليل القاطع؛ فهو أخصُّ من الدَّليل الواضح، وهو الذي يقتضي الصِّدق أبدًا، والمُراد بقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾: أقيموا دليلكم وبرهانكم على ما تدّعونه من جهة العقل والنَّقل؛ فإنه لا صحَّةَ لقولٍ لا دليلَ عليه ولا يصل إلى درجة اليقين في الأمور الدّينيَّة ولا سيما في مثل هذا

الشَّأنِ الخَطير، والسِّرُّ في إضافة البرهان إليهم الإشعار بأنَّ لهم برهانًا فهو ضربٌ من التَّهكُّم بهم[1].

غرض التَّعبير باسم الإشارة القريب:

برهانُ ربنا جَلَّ وَعَلَا ظاهرٌ للجميع لا يحجبه عن نفسه إلّا متكبِّرٌ

يُقصد من الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ﴾ "تَمييزُهُ وإعْلانُهُ بحَيْثُ لا يَسْتَطيعُ المُخاطَبُ المُغالَطة فيه ولا في مَضْمونِهِ؛ أيْ: إنَّ كُتُبَ الذِّكرِ؛ أيْ: الكُتُبَ الدّينيَّةَ في مُتَناوِلِ النّاسِ؛ فانْظُروا هَلْ تَجِدونَ في أحدٍ مِنْها أنَّ للّه شُرَكاءَ، وأنَّ اللّه أذِنَ باتِّخاذِهِم آلِهَةً"[2]، ووُرود اسم الإشارة هنا مقصودٌ به ما بعث اللّه تعالى به الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من الكتب؛ فالإشارة هنا للوحي والقرآن وسائر الكتب السَّماويَّة.

اختيارُ لفظ الذِّكر المُشار إليه:

دعـوة جميع الأنبياء واحدةٌ وهـي دعـوة البشريَّة إلى التَّوحيد

مجيء الذِّكر مُعرَّفًا باسم الإشارة القريب في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾ لقصد تمييزه أكمل تمييز كما تبيَّن من إضافته إليه ﷺ وإلى الأنبياء السّابقين عليهم الصَّلاة والسَّلام بإحضاره في ذهن السّامع، وعليه يكون أكثر تصوُّرًا له حتَّى لا يغيب عنه شيء من أوصافه، وقد يحتمل تعريضًا بأنَّه هو الصَّواب، وأنَّ ما ادَّعاه المشركون لا برهان عليه، أمّا الذِّكر الَّذي أُوحي إليَّ وإلى مَن سبقني من الأنبياء الكرام؛ فهو الحقُّ الثّابت والشَّرف الدّالُّ على وحدانيَّة اللّه تعالى.

معنى ﴿مَن﴾ هنا:

دعوى المُشركين ضربٌ من المُحال لـعـدم وجـود البرهان والدَّليل عليها

﴿مَن﴾ اسم موصول بمعنى (الذي)، والموصولة تُوصف بالمُفرد وبالجملة، وأصلها أن تكون مستعملةً للعاقل، وإن وردت في غيره فعلى المجاز، وقيل: "مَن يعلم بدلًا عن مَنْ يعقل" لإطلاقها على الباري

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 62.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 47.

سبحانه؛ لأنَّه يُوصف بالعلم لا بالعقل لعدم الإذن فيه، وأُريد به في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ الذين آمنوا به ﷺ وعمومه فيمن آمن بالأنبياء السّابقين أيضًا، وهو هنا - أيْ: لفظ ﴿مَن﴾ - مضافٌ إلى لفظ ﴿ذِكْرُ﴾، ودلَّت هذه الإضافة على التَّشريف والتَّعظيم.

سرُّ التَّعبير بلفظ المعيَّة:

اتِّفاق الشَّرائع على صحَّة ما جاء به النَّبيُّ ﷺ

والمَعيةُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿مَن مَّعِيَ﴾ مَعيةُ المُتابَعة؛ أيْ: مَنْ مَعي من المُسلمين، وهذا ذِكْرُ الأُمَّةِ الَّتي هي مَعي؛ أيِ: الذِّكْرُ المُنَزَّلُ لِأجْلِكُم، ودُخولُ ﴿مَن﴾ على (مع) نادِرٌ، ولكِنَّهُ اسْمٌ يَدُلُّ على الصُّحْبَةِ والِاجْتِماعِ أُجْري مَجْرَى الظَّرْفِ فدخلَتْ عليه ﴿مَن﴾ كَما دَخلتْ (على) قَبْلُ وبعْدُ وعِنْدَ[1]، ومعيَّة المتابعة هنا معيَّة تشريفٍ وعلوّ رتبةٍ تحصّلت بالاصطفاء والصُّحبة والنُّصرة، وبذل النفس والمال في سبيل نصرة دين اللّه تعالى.

دلالة إضافة الذِّكر إلى جملة المَعيَّة:

اتِّحاد المنبع والمقصد بين الشَّرائع والكتب المُنزَّلة من الله تعالى

إضافة لفظ ﴿ذِكْرُ﴾ إلى ﴿مَن مَّعِيَ﴾ مِنْ إضافَةِ المَصْدَرِ إلى المَفْعولِ كَقوْلِه تَعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: 10]، والمُرادُ بِذِكْر المَعيّة: القُرْآنُ، وبذِكْرُ مَنْ قَبْلي: يشمل جَميعَ كُتُبِ الأُمَمِ السّالِفَةِ المَعْروفَةِ: التَّوْراةُ والزَّبورُ والإنْجيلُ وكِتابُ لُقْمانَ[2]؛ أي: ممّا هو مذكورٌ في الكتاب المُنزَّل عليَّ والكتب المنزَّلة على مَن سبقني من الأنبياء بنفي اتِّخاذ الآلهة.

سِرُّ العطف في قوله: ﴿وَذِكْرُ﴾ وغرضُ التِّكرار فيه:

دعوةٌ أخرى تُثبتُ نقيضَ مُدَّعاهم

ورد قوله تعالى: ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ معطوفًا على سابقه لاتِّفاق الجملتيْن في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، كما أن بينهما اتِّصالًا تامًّا في أداء المعنى المُراد، وبينهما جامع هو إثبات وحدانيَّة اللّه تعالى

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 306.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 47.

في الوحي المُنزَّل عليه ﷺ والكتب السَّماويَّة المنزَّلة على الرُّسُل السّابقين وإبطال دعوى وجود الشُّركاء له ﷻ، ومجيء الوصل بين الجملتيْن قوى المُراد من التَّعبير وأثبته للسّامع.

الكتاب المُنزّل حاضرًا مطابقٌ لما سبقه في الدَّعوة إلى التَّوحيد ونفي الشِّرك

مفهوم (قَبْل) في ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ﴾:

(قَبْل) ظرفٌ للزَّمان السّابق، أو المكان السّابق وضدُّه (بعد)؛ وهو ظرفٌ مبهمٌ لا يُفهم معناه إلّا بالإضافة لفظًا أو تقديرًا، وفي قوله تعالى: ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ﴾ ورد ملفوظًا به وهو حديثه ﷺ عن كتب مَن سبقه من الأنبياء، وفي التَّصريح بالحديث عنهم ناسبًا إليهم أنَّ ما جاؤوا به مذكور ليكون في ذلك المزيد من تقوية حجَّته وبرهانه، فصارت الكتب جميعها مَن نزل حاضرًا مطابقًا لما نزل سابقًا؛ فكان التَّبكيت وإقامة الحُجَّة أقوى في إبطال دعواهم من أساسها لفسادها.

مع كلِّ هذه الحُجَج والبراهين يقف الكِبْرُ مانعًا من الإيمان

معنى ﴿بَلۡ﴾ وإيثارها:

لمّا لم يجد المشركون - الذين ادَّعوا وجود آلهة شركاء لله تعالى في خلقه - شُبهةً أو دليلًا يُثبتون بهما دعواهم؛ اقتضى الحال الإعراض عنهم غضبًا، والمُراد: لا يجدون برهانًا لشيءٍ من ذلك على الإطلاق؛ فجاء قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ إضرابًا وانتقالًا إلى نفي علمهم الحقِّ أو اتِّخاذه سبيلًا لهمزٍ.

مَنْ يعلم الحقَّ، وتهيّأت نفسه لقبوله قليلٌ

عِلَّة تحديد الأكثريَّة دون الجميع:

في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ "أُسْنِدَ هذا الحُكْمُ إلى ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ لا لِجَميعِهِم تَسْجيلًا عليهِم بأنَّ قَليلًا مِنْهُم يَعْلَمونَ الحَقَّ ويجْحَدونَهُ، أَوْ إيماءً إلى أنَّ قَليلًا مِنْهُم تَهيَّأتْ نُفوسُهُم لِقَبولِ الحَقِّ، وتِلْكَ هي الحالَةُ الَّتي تَعْرِضُ لِلنَّفْسِ عِنْدَ هُبوبِ نَسَماتِ التَّوْفيقِ عليها مِثْلَ ما عَرَضَ لِعُمَرَ بْنِ الخَطّابِ

حينَ وجد اللَّوْحَ عِنْدَ أُخْتِه مَكْتوبًا فيه سورَةُ طه؛ فأقبل على قِراءَته بشراشره؛ فما أتمَّها حَتَّى عَزم على الإسْلام"[1].

المُرادُ من نفي العلم:

في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ نُفي العلم عنهم كناية عن جهلهم عن الحقِّ؛ فنُفي اللّازم - وهو العلم - مع وجود ملزومه - وهو الجهل - بما هو واجب ألّا يكون من شأنهم؛ ولكن لمّا كانوا لا يطلبون علم الحقِّ ومعرفته صاروا جاهلين له محكومًا عليهم بفساد عقولهم وضلالة نفوسهم، ولو علموا الحقَّ واهتدوا به لما وصفوا اللّه تعالى بما لا يليق به؛ فهو إمّا مكابرةً منهم، وإمّا عمًى في قلوبهم.

لو علموا الحقَّ واهـتـدوا بـه لما وصـفـوه تعالى بما لا يليق به لـكـنَّـه الـعَـمَـى والكِبْر

إيثار التعبير بالحقِّ معرَّفًا:

أصل الحَقّ: المطابقة والموافقة[2]؛ والحقُّ المُراد هنا في الآية هو إثبات الوحدانيَّة المُطلقة للّه تعالى، ونفي وجود الشُّركاء أو الآلهة المزعومة التي يدَّعيها هؤلاء المُشركون مع عدم وجود البرهان أو الدَّليل عليها، وجاء الحقُّ هنا مُعرَّفًا بـ(أل) الجنسيَّة المُستغرقة لجميع الكمالات الحقَّة للّه تعالى، سواء قُصد به جنس الحقِّ دون النَّظر إلى أفراده، أو قُصد فردٌ غير معيَّن من هذه الأفراد وهو استغراقٌ حقيقيٌّ شمل كلَّ أفراد هذا الحقِّ من الاعتراف الكامل بوحدانية اللّه تعالى ونفي الشُّركاء، وتنزيهه عمّا لا يليق بجلاله.

الـحـقُّ الـثّـابـت المقطوع به هو تـوحـيـده ﷻ ونفي الشُّركاء له

ويحتمل أن يكون التَّعريف للعهد؛ أي: الحقُّ الثّابت المقطوع به؛ وهو توحيده ﷻ، ونفي الشُّركاء له في خلقه وتصريف شئون العباد.

معنى الفاء في ﴿فَهُم﴾:

إذا فقد الناس الـتَّـمـيـيـز بين الـحـقِّ والباطل فـلـن ينتفعوا بموعظة

الفاء في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ لمجرَّد السَّببيَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 48.
(2) الزَّركشي، البرهان: 4/ 247.

والرَّبط، والمُراد أنَّهم لا يعلمون الحقَّ بسبب إعراضهم ونفورهم منه، ولأجل إعراضهم انصرفوا عن الحقِّ إلى الباطل بدليل أنَّ قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ﴾ إضرابٌ من جهته تعالى غير داخل في الكلام المُلقَّن، وانتقال من الأمر بتبكيتهم بمطالعة البرهان إلى بيان أن الاحتجاج عليهم بما لا ينفع لفقدهم التَّمييز بين الحقِّ والباطل.

سرُّ مجيء ضمير الفصل ﴿فَهُم﴾:

مصير كلِّ متكبِّرٍ جاهلٍ هو الإعراض عن مُراد الله تعالى ودعوته

ضمير الفصل هو أحد أدوات توكيد الكلام والدلالة على الاختصاص؛ والمعنى في قوله تعالى: ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾: اختصاصهم بكونهم مُعرضين عن الحقِّ لجهلهم به، وعدم اعترافهم بوحدانيَّة اللّه تعالى، وهذا ما دفعهم إلى ادِّعاء الشُّركاء له ﷻ في أُلوهيَّته، كما أنَّه يَرد دالًّا على أن ما بعده خبر لا صفة فجملة ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ هنا هي خبرها، ومعلوم أنَّ الخبر أقوى في الدَّلالة من الصِّفة؛ لكونه عمدة في الكلام.

التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ دون الفعل:

ثباتهم على الضَّلال بعدما قارعتهم البراهين أمرٌ عجيب

اسم الفاعل دالٌّ على الثبوت والاستمرار، وفي قوله تعالى: ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ لّما كان الإعراض صفةً ثابتةً لهم لا تنفكُّ عنهم بحالٍ من الأحوال عُبِّر باسم الفاعل للدّلالة على ذلك، وربَّما بُولِغ في الأفعال فوردت بصيغة الاسميَّة؛ لأنَّه للشَّأن والصِّفة.

تقدير متعلّق ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾:

لو كانت لديهم رغبةٌ في الهُدى والتفتوا أدنى التفاتٍ لتبيَّن لهم الحقُّ

حُذف مُتعلِّق اسم الفاعل في قوله عزَّ من قائل: ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّ الحديث مُتوجِّهٌ فيه إلى وقوع الفعل وفاعله دون النَّظر إلى ما وقع عليه الفعل؛ لكونه معلومًا بدلال الحال وسياق الكلام؛ إذ التقدير: "مُعْرِضونَ عن النَّظرِ في الأدِلَّةِ الَّتي تَدعوهُم أنْتَ إلى مَعْرِفَتِها

والنَّظرِ فيها"[1]، وهؤلاء لم يعرفوا الحقَّ وأعرضوا عنه، وما مَيَّزوا بين الحقِّ والباطل فلا تنفع فيهم الأدلَّة والبراهين.

المُتشابِه اللَّفظيُّ: بيان أوجه الاتِّفاق والافتراق في الآيات التالية:

لكلِ حدثٍ حديثٌ، وهذا منهج القرآن

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾، وقال في الزُّمَر: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣﴾ [الزُّمَر: 43]، وقال في الشُّورى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾ [الشُّورى: 9].

بدأت الآيات الثلاث بـ(أم) المنقطعة المُؤْذِنة بأنَّ الكلام بعدها مسوقٌ مساقَ الاستفهام، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ لإنكاره عليهم اتِّخاذ آلهة أو شفعاء أو أولياء يظنُّ في كلِّ واحد منها جلب النَّفع أو دفع الضُّرِّ، وذلك لفساد المُعتقَد والمجادلة بالباطل لدحض الحقِّ.

واتَّفقت الآيات الثلاث في التَّنصيص على ذِكْر الظَّرفيَّة (دون)، وهو من ظروف المكان المُبهمَة، والدّالّ على السُّفل في المكان والمنزلة، أو كما قيل: هو تقصير عن الغاية وسواء كان اسمًا أو صفةً بمعنى الرِّداء أو بدونها؛ فهو باقٍ على ظرفيَّته.

كما اتفقت الآيات الثلاث على التعبير بلفظ (الاتِّخاذ)؛ وهو افتعال دالٌّ على المبالغة في تحصيل فعل (الأخذ) الذي هو حَوْزُ الشَّيء وتحصيله، وهو جارٍ مجرى الجَعْل، ومرجع الضَّمير في الآيات الثلاث عائد على المشركين المُتبادرين من مقام الحديث عنهم كما هو معلوم.

واختلفتِ الآيات الثلاث في أنَّ الأولى من سورة الأنبياء وصفت المُتَّخذ بكونهم **آلهة**، والإله هو الواحد الذي يُتوجَّه إليه بالعبادة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 48.

والقصد دون سواه، وما عداه قاصر عن منح وإعطاء ما يطلبه العابد من معبوده، فاتِّخاذه إذن دليل على خللٍ نفسيٍّ وعقليٍّ لا يليق بمَن خلقهم اللّه تعالى وكرَّمهم على سائر مخلوقاته؛ ولكنَّه عمى القلب والبصيرة؛ فدلَّ الإضراب الانتقاليُّ على فساد هذه المُعتقدات.

ولمّا كان الأمر كذلك هنا؛ حاجَّهم اللّه تعالى عن طريق الوحي إلى رسوله ﷺ بإثبات صدق دعواهم وإقامة البراهين العقليَّة والنَّقليَّة على مدَّعاهم هذا؛ لأن ما أوحاه اللّه تعالى إليه وإلى الأنبياء السّابقين ناطقٌ بكَذِبهم وزُورِهم مع إثبات التَّوحيد الخالص والألوهيَّة المُطلقة في جميع هذه الشَّرائع، لا يتخلَّف واحدٌ منّا عن نظيرتها؛ ولكن أنَّى للمُكابر الجاهل للحقِّ أن يعترف بضلاله.

وفي آية سورة الزُّمَر؛ وهي الثانية هنا ذَكَرَ القرآن اتِّخاذهم **شفعاء** من دون اللّه، والشفيع مأخوذ من ضمِّ شيء إلى شيء، وضمِّ ما هو أعلى حُرمةً ومرتبةً إلى مَن هو أدنى منه ظنًّا من طالب الشفاعة جلب الخير أو دفع الضُّر؛ فسار نحوه كأنَّه شفعٌ له، فتعدّوا حدود اللّه تعالى، وأسندوا أمورهم إلى الباطل الذي لا يُجدي نفعًا ولا يصدُّ مكروهًا نزل، ثم أمر ﷻ نبيَّه ﷺ ببيان فساد هذه الشفاعة؛ لأنَّ هؤلاء المشفوع بهم لا يملكون من أمرهم شيئًا لعدم وصفهم بالعقل، فهي حجارة صمّاء اتَّخذت وهمًا وباطلًا سبيلًا للعبادة، وهل طلبتم منها يومًا شيئًا فصدَّقتكم ومنحتكم مبتغاكم، ادعوها ليلًا ونهارًا سرًّا وجهارًا هل تجيبكم؟

ثمَّ عَبَّر القرآن تعبيرًا دقيقًا حين نفى عنهم ملكيَّتهم من أمرهم شيئًا ونفي عنهم وصفهم بالعقلاء بالفعل المضارع المتجدِّد المستمر، فإذا كان مَن يُدعى لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا شفيعًا لكم مع علمكم بما كان من أمر أبيكم إبراهيم عليه السلام وكيف حطَّم هذه الأصنام المزعومة آلهة فأي عقل عندكم؟ وأي كِبْرٍ هذا وأي عناد؟

أمّا آية الشورى وهي الآية الثالثة هنا فعبَّرت تعبيرًا آخر بنسبة **الولاية**، والولي مُستعارٌ لمعنى القرب مكانًا أو نسبة أو دينًا أو صداقة أو مناصرة واعتقادًا، فالولاية إذن مناصرة ومساندة، والولي والمولى مستعملان بمعنًى واحد هو المعاضدة والقوَّة، وهناك ولاية حقٍّ وهي ولاية اللّه تعالى، وولاية باطل كما فعل هؤلاء حين اتَّخذوا من دون الوليِّ الأكبر المالك

المقتدر وهو اللّه تعالى أولياء ظنّوا أنَّهم مانعوهم ومناصروهم من عذاب اللّه تعالى يدفعون عنهم ويجلبون لهم ما يكون سبب سعادتهم، وما هم إلّا كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً فيشتد ظمأه ولا يروي عطشه ففيهم الهلاك.

وقد ردَّت الآية بأعلى أساليب الحِجاج حين نفت هذا الزَّعم الخاطئ والفكر الضّال على طريق أسلوب الحكيم بإثبات أمر لا يستطيع هؤلاء الأولياء فعله أبدًا، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩﴾ [الشورى: 9] هل في مقدور أوليائكم فعل هذا؟ ومَن ذا يُقاوم السيل إذا هدر.

وهكذا أثبت اللّه تعالى قيوميَّته وصدق بلاغه في الآيات الثلاث، وردَّ على الزّاعمين بالأدلَّة والبراهين ناطقًا بعزَّة حكمته قائلًا: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البرهان والدَّليل والحُجَّة:

إثبات الألوهيّة يحتاج دليلًا قاطعًا، يُوصل إلى اليقين وهو البرهان

تتفق هذه الألفاظ في أن جميعها ترمي إلى إزالة اللَّبس والغموض ليتَّضح، وتتكشف نتائج، لكن بينها فروق دقيقة فالبُرهانُ: الحُجَّةُ القاطِعَةُ المُفيدَةُ لِلعِلم، وأمّا ما يُفيدُ الظَّنَّ فهو الدَّليلُ، والبرهان بحسب ما أُصِّلَ في شرح المفردات: أوكدُ الأدلّة؛ لأنّه الدليل القاطع الذي يُوصل إلى اليقين، فهو أخصُّ من الدَّليل الواضح؛ لكونه يُثبت الادِّعاء بوضوح وبشكل أكيد؛ ولأنه "ما فصل الحقَّ عَن الباطِل وميَّز الصَّحيح من الفاسِد بالبَيانِ الَّذي فيهِ"(1)، وهذا المعنى علّة اختياره في سياق الآية لخطورة الشأن الذي تم تناوله وهو اتخاذهم آلهة

(1) الكفوي، الكليات، ص: 249.

من دون اللّه وهو يحتاج إلى دليل قاطع لا مراء فيه وهذا المعنى لا يؤدّيه الدليلُ؛ لكونه إبانة الشَّيء بأمارة تتعلمها، ودلَّهُ على الطريق: عرّفه وسَدَّده إليه؛ ومنه الدّلالة: ما يُتوصّل به إلى معرفة الشَّيء[1]، فضلًا عن حضور دلالة الظَّنّيَّة فيه التي لا تناسب إثبات عظائم الأمور كالألوهيّة.

أمّا الحُجَّة فهي القصد، ومنها اشتُقَّ معنى الغَلَبَة بالحُجّة والظَّفرُ عند الخصومة؛ لأنّه القصد إلى الحقّ المطلوب[2]، ومعنى الغلبة غير مُراد في سياق الآية؛ فليس للّه ندٌّ أهلٌ ليحاججه على سبيل الغَلَبَة ولن يكون، فهو وحده سبحانه القادر الغالب المُتصرِّف بالكون كلّه بما فيه.

الإعراض والإدبار والصَّدُّ والتَّوَلّي:

المُعرضُ معاندٌ غير مُلتفتٍ إلى الحقيقة متقصّد الابتعاد عنها

مرّ في شرح المفردات أنّ معنى أعرض؛ أي: ولَّى، فدلالة الإعراض في اللغة تدور حول الانصراف، والبُعد عن الشيء، والانحراف عنه، وحقيقتة عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه، واستُعمل في التَّرك والإمساك عن المخالطة والمحادثة[3]، والإعراض: الانْصِراف عن الشَّيء بالقَلْبِ، أمّا التولّي: فقد يكون لحاجَة تَدْعو إلى الانْصِراف مَع ثُبوت العقد[4]، والتَّولّي: إذا عُدّي بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وترك القرب، والتَّولّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، و"المعرض والمُتولّي يَشْتَرِكانِ في ترك السلوك، إلّا أن المُعرِض أسْوأ حالًا؛ لِأن المُتَولي مَتى نَدم سهُل عليه الرُّجوع، والمُعرِض يحْتاج إلى طلبٍ جَديدٍ، وغايَة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (دل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دلّ - دلل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حج).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 108.

(4) الراغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (ولي).

الذَّم الجمع بَينهما"[1]، أمّا الصَّدُّ فإنَّ مُعظم باب (الصّاد والدّال) يؤول إلى إعراض وعدول إلى أحد الجانبيْن وميل، والصَّدُّ: صرف الشَّيء ومنعه، وهو اعتراضٌ بقَويٍّ أو كثيفٍ يَرُدُّ المُقبِل أو يمنعه كالجبل، ويُلحظ في الصَّدِّ معنى الحَمل على المَنْع والعدول، وهو ليس مرادًا في الآية[2]، والإدبارُ: الانهزام والفرار من العدو[3]؛ وهو معنًى لا يتناسب مع المُراد في الآية.

(1) الكفوي، الكليات، ص: 28.

(2) الجوهري، الصِّحاح: (صدد)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صد)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صدد - صدى).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 289.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّوحيدُ دعوةُ كلِّ نبيٍّ

لمّا كان التّقديرُ بياناً لِما في الذِّكرينِ: (ولو أقبلوا على الذِّكر لَعلموا أنّا أوحينا إليك في هذا الذِّكرِ أنَّه لا إله إلّا أنا، وما أرسلناك إلا لِنوحيَ إليك ذلك)، عطف عليه هذه الآيةَ لتقريرِ المعنى، وللإيذانِ بأنَّ التّوحيد دعوةُ كلِّ نبيٍّ[1] فلَمّا أظْهَرَ لِرَسولِه أنَّ المُعاندينَ لا يَعْلَمونَ الحَقَّ لِإعْراضِهِم عَنْ تَلَقّيه أقْبَلَ على رَسولِه ﷺ بِتَأْييد ما قرّره الذّكر الذي معه والذّكر الذي جاء قبله بتعميمه في شرائع سائرِ الرّسل سَواءٌ مَنْ أُنْزِلَ عليه كِتابٌ ومَنْ لَم يَنْزِلْ عليه كِتابٌ، وسَواءٌ مَنْ كانَ كِتابُهُ باقيًا مِثْلَ موسَى وعيسَى وداوُدَ عليهم السلام ومَنْ لَم يَبْقَ كِتابُهُ مِثْلَ إبْراهيمَ عليه السلام فأخبر أنَّه ما أرسل من رسولٍ إلّا جاءَ مقرّرًا لتوحيد اللّه، وإفرادِه بالألوهيَّة، والأمر بعبادتِه سبحانه[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُوحِيٓ﴾: (وحي) أصلٌ يَدُلُّ عَلى إلقاءِ عِلمٍ بسرعةٍ في إخفاءٍ أو غَيرِه إلى غَيرِكَ، فقد يكون بإشارةٍ ببعضِ الجوارحِ، فالوحيُ الإشارةُ السّريعةُ، وقد يكونُ الوَحْيُ بكتابٍ أو رسالةٍ أو بسماعِ كلامٍ أو بنفثٍ في الرّوعِ أو غرزٍ في الطّبع، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلَى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ فهوَ وحْيٌ كَيْفَ كانَ، و﴿نُوحِيٓ﴾ في الآية بمعنى ما يُلقيه اللّه تعالى من عندِه إلى الرّسل عن طريق جبريل عليه السلام[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 407.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 422، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 48.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وحي).

2) ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾: (عبد) أصلٌ يَدُلُّ على الحصرِ والتّذليل، ومنه ما عَبَدك عَنّي، أي: ما حَبَسك، وطريقٌ معبَّدٌ، أي: ممهّدٌ مذلَّلٌ، والعُبوديَّةُ: إظهار التّذلّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنها غاية التّذلّل بحيث يكون تذلّل العبدِ محصورًا لعابدِه، ولا يستحقّ العبادةَ إلّا من له غايةُ الإفضال، وهو اللّه تعالى ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، وعَبَد اللّه عبادة: تألّه له، أي: جعل نفسه مملوكًا، وعَبْدًا للّه بهذا التألّه، والعِبادَةُ في الاستعمالِ القرآني، ضربان: عِبادَةٌ بالتّسخير، وهو الذي يكون بسجود المخلوقاتِ طوعاً، وكرهاً، وعِبادَةٌ بالاختيار، وهي لذوي النُّطق، وهي المأمور بها في نحو ما جاء في الآية في قوله: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أصلُ العبادة إفرادُ اللّه تعالى بالألوهيَّةِ والإخلاصُ له في العمل

يقولُ اللّه تعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك - يا محمد ﷺ - مِن رَسولٍ إلى أمّة منَ الأمم إلّا نوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلّا اللّهُ، فأخلصوا لي العبادة، وأفردوا لي الألوهيَّةَ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عقيدةُ الأنبياء جميعًا واحدةٌ، والشّرائعُ مختلفةٌ

بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في الآية:

جاءت الآية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ معطوفةً على قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٤﴾ [الأنبياء: 24]؛ لأنَّ الكلامَ من عطفِ الخبر على الخبر، وللاشتراكِ في الجهة الجامعة، أي: تعاقب الرّسل جميعًا على الأمرِ بتوحيدِ اللّه، والنّهي عن الإشراكِ به ﷻ وهذِه العَقيدَةُ مِنْ تَوحيدِ اللّه لَم تَختَلِفْ فيها النُّبوّاتُ، وأنَّ كلَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عبد).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 427.

رسولٍ بلَّغ قومَه بتوحيد اللّه تعالى، وإنّما وقع الاختلافُ بين الأنبياء في أشياء مِنَ الأحكام[1].

دلالةُ النّفي بـ﴿وَمَآ﴾:

لمّا كان (ما فعل) نفيًا لـ(لَقد فعل)[2] دلَّ النّفيُ في قولِه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ على أنَّه ردٌّ على تكذيب المشركين لرسولِ اللّه ﷺ في أنّه لم يوحَ إليه، وعلى تكذيبهم له ﷺ بأنْ يكون اللّه تعالى فلمّا كذّبوا وعاندوا وأصّروا، جاء النّفي بـ﴿وَمَآ﴾ لجوابِهم وللرَّدِّ عليهم بطريق التأكيد بسبب عنادِهم وإصرارِهم على التّكذيب.

أسلوبُ التّأكيد يُستعملُ مع المعاندين لإثباتِ كذبِهم وصدْقِ المدّعي

الغرضُ مِنَ القصر في الآية:

دلَّ القصرُ بـ﴿وَمَآ﴾ و﴿إِلَّا﴾ في قولِه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ على أمرين: أحدهما تقريرُ إرسالِ اللّه تعالى للرّسل، فكأنَّ إرسالَهم ممّا لا ينبغي الشّكُّ فيه والثّاني تخصيصُ إرسال اللّه للرّسل بالوحي إليهم بتبليغ التّوحيد وإفرادِ اللّه تعالى بالعبادة، لا يتجاوزُ إرسالُهم إلى أمرٍ آخر، ليفيدَ أنَّ كلَّ ما يبلّغونَه قائمٌ على توحيدِ اللّه وإفرادِه بالعبادةِ، وأفادَ القصرُ دفعَ ما قد يتوهّمُه المخاطَبون مِنْ أنْ يكون إرسالُ الرّسلِ لأمرٍ آخرَ، وتقريرَ ما يبلّغون به من أمرِ التّوحيد وتخصيصِ العبادة له تعالى، فالقصر قصرُ إفرادٍ.

كـلُّ مـا يبلّغُه الـرّسـلُ دائـرٌ على توحيد الله وتخصيصِه في العبادة

دلالةُ التّعبير بطريق النّفيِ والاستثناءِ في أسلوبِ القصر:

أفاد القصرُ بطريق النّفي بـ﴿وَمَآ﴾ والاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ أنَّ المشركين قدِ ارتكبوا الخطأ وأصرّوا عليه، فهو تنبيهٌ

الـخـطـأُ في العقيدة قبيحٌ وأقـبـحُ منه الإصرارُ عليه

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 133، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 49، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 422.

(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

لهم على خطئهم وتقريعٌ على إصرارِهم، ذلك أنَّ النّفي والاستثناءَ هو الطّريق الأوفى لمواجهة ما يُنكره المخاطَبُ.

معنَى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن قَبْلِكَ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ للابتداء، ولمّا دخلت على ظرف الزّمان أفادت تعيينَ ابتداءِ الوقتِ، بمعنى أنَّ جميعَ الرّسل ابتداءً من قبلِك قد أوحى اللّه إليهم بتبليغ قومِهم أمرَ التّوحيد وإفرادِه بالعبادة، لتفيد النّصَّ على عيسى وموسى عليهما السلام، فدلّت ﴿مِن﴾ على أنَّ الإشعارَ بأنَّ أمرَ توحيد اللّه تعالى وتبليغِه وإفرادَه بالعبادةِ قد كانَ قريبَ العهدِ بالمخاطَبين[1].

اللهُ تعالى يُرسلُ الرّسلَ عندَ حاجةِ النّاس إليهم

سرُّ إضافة الظّرفِ إلى ضميرِ الخطابِ:

لم يقل (وما أرسلنا من قبل من رسولٍ) بل قال ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ للنَّصِّ على رسالتِه ﷺ كما أنَّ في ذكر كافِ الخطابِ تشريفًا له ﷺ بمخاطبةِ اللّه تعالى له.

ما جاء به رسولُ الله ﷺ هو عينُ ما جاءت به الرّسل من قبله

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ على المفعول ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ للعناية بالظّرف والاهتمامِ به بتقريرِ معنى القبليَّة؛ والاتّحادِ في المقصود منَ الرسالات.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن رَّسُولٍ﴾:

﴿مِن﴾ حرفُ جرٍّ مزيدٌ لتوكيدِ النّفي وللنّصِّ على العموم، بمعنى أنَّ جميعَ الرّسل جاؤوا بتبليغِ التّوحيد وبالأمرِ بإفرادِ اللّه تعالى بالعبادةِ.

الغرضُ من تنكير ﴿رَّسُولٍ﴾:

لمّا جاء لفظُ ﴿رَّسُولٍ﴾ نكرةً في سياقِ النّفي في قولِه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا

كلُّ المرسلين جاؤوا بالتّوحيد

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 407.

﴿مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ أفادَ النّصَّ على العموم، كما أنَّ التّعبير باللّفظ المفردِ ﴿رَّسُولٍ﴾ إيذانٌ أنَّ الحكمَ المذكور قد أُوحيَ إلى كلِّ فردٍ منهم عليهم الصّلاة والسّلام، فيكونُ أبلغَ في تقريرِ المعنى وبيانِه.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿نُوحِيٓ﴾:

الموحى إلى الرّسل علمٌ متحقّقٌ، لا شُبهةَ فيه ولا شكَّ

أفاد التّعبير بلفظ ﴿نُوحِيٓ﴾ في قوله ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ أنَّ التّبليغَ بالرّسالةِ يكون في خفاءٍ وأنّه يكون من عندِ الموحي، وأنَّ الموحَى إلى الرّسل هو علمٌ متحقّقٌ، لا شبهةَ فيه ولا شكَّ.

دلالةُ التّعبير بالمضارع في ﴿نُوحِيٓ﴾:

عبَّرَ بصيغة المضارع ﴿نُوحِيٓ﴾ لحكايةِ الحالِ الماضية استحضارًا لصورة الوحي[1]؛ إظهارًا لمنَّةِ اللّه تعالى على الرّسلِ، وعلى النّاس، ولتقريرِ المعنى في نفسِ المخاطَب.

سرُّ إسنادِ الفعل إلى الضّمير الدّالّ على التّعظيم ﴿نُوحِيٓ﴾:

تعظيمُ الوحيِ وتعظيمُ الموحَى إليه من تعظيمِ الله تعالى

عبَّرَ بنون العظمة في قوله: ﴿نُوحِيٓ﴾ للإشعار بأنَّ الإيحاء إلى الرّسل لا يقدرُ عليه إلّا اللّه تعالى الملك الواحدُ الأحدُ، وفيه تنبيهٌ على تعظيم الوحيِ وتعظيم الموحى به، كما أنَّ في التّعبير بنون العظمة مناسبةً مع قولِه ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾[2].

دلالةُ التّقييد بجُملةِ الحال:

الوحيُ بتوحيد اللّه وإفرادِه بالعبادة مقترنٌ بإرسال الرّسل

لمّا كان الحالُ يأتي لبيانِ هيئةِ صاحبه بمعنى وصفه وكان مقترنًا معه في الوقتِ وكانت جملةُ ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ حالًا[3] من فاعل ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، أفادَتِ الجملةُ هنا أنَّ الإيحاء بتوحيدِ اللّه تعالى وتبليغه والأمرِ بإفرادِه تعالى بالعبادةِ مقترنٌ بإرسالِ الرّسلِ كلِّهم غيرُ منفكٍّ عنه، تعظيمًا لشأنِ التّوحيدِ واهتمامًا بشأنه.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 63.

(2) العليمي، فتح الرحمن: 4/ 350.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 49.

الوحي يكون لمِن اصطفاه الله تعالى من عبادِه لتبليغِ الرسالة

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول به:

بعدَ تتّبُّعِ الفعل ﴿نُوحِيٓ﴾ وما جاء من مادّتِه في القرآن الكريم، وجدنا أنَّه لم يردْ إلّا بتقديم الجارِّ والمجرور على مفعولِه سواءً أكان مفعولُه مصدرًا مؤوَّلًا أم اسمًا صريحًا، ونكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول مع فعلِ الإيحاء في قوله: ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، هو أنّه لمّا كان الوحيُ بمعنى الإشارة الخفيَّة السّريعةِ، وكان هذا المعنى يقتضي تخصيصًا بمن يكون له هذا النّوعُ من الإشارة اقترن الجارّ (إلَى) مع مجروره بفعلِ الإيحاء وتقدَّم على مفعولِه في جميعِ التّراكيب البليغة، ليفيدَ هنا تخصيصَ الرَّسولِ بالموحَى به دونَ غيرِه من سائرِ النّاس، كما أنَّ في التّقديم تشريفًا، وعنايةً، واهتمامًا بالرّسولِ الموحى إليه، بمعنى لأنَّه تعالى اصطفاه أوحى إليه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾:

تكامُلُ المعاني في القراءاتِ بين تعظيمِ شأنِ الوحي والمُوحي، وشأنِ المُوحَى إليهم

قرأ حفصٌ عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ بالنّون وكسر الحاء، وقرأ الباقون: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ بالياء، بفتح الحاء على ما لم يُسمَّ فاعلُه[1]. فمن قرأ: ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ بالنّون، فالفعل لله ﷻ، أي: نحن نُوحي إليه، ويكونُ إسنادُ فعل الإيحاءِ إلى ضمير العَظَمَة: لتعظيم شأنِ الوحي، وشأنِ مَن أوحَى إليهم، ومَن قرأ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ فلتفخيم شأنِ المُوحَى إليهم، فالمعنى واحدٌ ومتقاربٌ[2]. ومن بلاغة القراءات هنا أن إحداهما إجابةٌ عن سؤال مقدَّر في الأخرى. فقراءة الفعل على ما لم يُسم فاعله تطرح سؤالا: مَن الذي يوحي إليهم؟ فكانت الإجابة في القراءة الأخرى مصرحة بأن اللّه ﷻ هو الذي يوحي إليهم، وهي التي دل عليها

(1) ابن الجزري، النشر: 2/296.

(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 163، وابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 428.

الفعل ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾. وقد صرح الحق ﷻ بالموحَى إليه هنا: وهي كلمة التوحيد؛ لأنه صرح بالرسول، ففيه نوع من الخصوصية. فالمصدر المؤوّل ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ في محلّ جرّ بحرف جرٍّ محذوف هو الباء متعلّق بـ: (نوحي) أي: (نوحي إليه بأنّه لا إله إلا أنا). أما في الآية الأولى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [الأنبياء: 7] ففيها عموم فناسب حذف المفعول به.

فائدةُ التّعبير بالمصدر المؤوّل:

لا يختلفُ معنى التّوحيد من رسولٍ إلى رسولٍ آخرَ، ولا من زمنٍ إلى زمنٍ

عبَّرَ بالمصدرِ المؤوّل دون المصدر الصّريح الدّالِّ على معنى التّوحيد في قولِه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الموحى به إلى جميعِ الرّسل هو توحيدُ اللّه تعالى نفسَه، مع ثباتِ هذا المعنى، ليفيدَ أنَّ توحيدَه ﷻ أمرٌ ثابتٌ تصوّرُه دون احتمال معنًى زائدٍ عليه، فلا يختلف معنى التّوحيد من رسولٍ إلى رسولٍ آخرَ ولا من زمنٍ إلى زمنٍ، ففي المصدر المؤوّل تحصينٌ من الإشكال وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[1].

دلالةُ التّوكيد بـ(أنَّ):

أفادت (أنَّ) في قولِه ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملة، لتقريرِ معنى توحيدِ اللّه في نفوس الرّسل الموحى إليهم بهذه الكلمة.

فائدةُ التّعبير بضمير الشّأنِ في قولِه ﴿أَنَّهُۥ﴾:

التّعبير بضمير الشّأنِ لتهيئةِ المخاطَبِ إلى حسنِ التّلقّي لعظمِ شأنِ الخبر

لمّا كان المقامُ مقامَ تفخيم وتعظيم، فالموحي هو اللّه تعالى الملكُ العظيم، والموحَى إليه هو المرسَلُ من اللّه، والموحَى به هو كلمةُ التّوحيد التي هي أعظمُ كلمةٍ مع الأمرِ بإفرادِ العبادةِ له سبحانَه فلمّا كان المقامُ ما ذُكِرَ عبَّرَ بضمير الشّأنِ في قولِه

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 93.

﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ للإيذانِ بعظمِ ما يُذكَرُ بعد الضّمير لتهيئةِ المخاطَبِ إلى حسنِ تلقّيه، والإصغاء إليه، كما أنّه لمّا كانت جملةُ الخبرِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ مفسّرَةً للإبهام في ضمير الشّأنِ كان الكلامُ على طريق التّفسير بعدَ الإبهامِ، والقصدُ منه تعظيمُ الخبرِ وتفخيمُ شأنه[1].

إيثار اختيارِ النّفي والاستثناءِ طريقا للقصر:

ضـلالُ كـلِّ من أنكرَ عبادةَ الله أو أشرك به غيرَه

عُبِّرَ عن إثباتِ ألوهيَّة اللّه تعالى وتوحيدِه بأسلوب القصر بالنّفي والإثباتِ في قولِه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ للتّأكيد وللإيذانِ بأنَّ المشركين في جميعِ الأمم مخطئون في شركِهم، وأنَّهم مصرّون على خطئِهم في إنكارِ ألوهيَّة اللّه تعالى وتوحيدِه، وأنَّ الحقَّ في أن يعتقدوا توحيدَ اللّه تعالى وأنَّه المتفرِّدُ باستحقاقِ العبادةِ.

نكتةُ مجيءِ المقصور عليه بصيغة ضميرِ المتكلِّم ﴿أَنَا۠﴾:

الـكلامُ في أمور التّوحيد يكون مُحكمًا لا شُبهةَ فيه

عبِّرَ بضمير المتكلِّم المفرد ﴿أَنَا۠﴾ في قوله ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، ولم يجرِ الكلامُ على ما سبقَ من التّعبير بنونِ العظمة، فلم يقل: (أنَّه لا إله إلّا نحن) لئلا يجعلوا ذلك وسيلة إلى شبهةٍ، وهي ما ادّعوه من تعدّدِ الآلهة، ولذلك قال ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ بالإفراد[2].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾:

كلُّ عبادة فيها شوبُ شركٍ هي عدمٌ

الفاء في قولِه ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ تفريعيَّةٌ، ولمّا فرَّع فيما أوحى إلى الرّسل الأمرَ بعبادتِه على الإعلانِ بأنَّه لا إله إلّا هو سبحانه أفاد التّفريعُ أنَّه تعالى هو وحده المستحقُّ للعبادةِ، وأنَّ الإشراك على أيِّ صورة من صُوَره ليس فيه عبادةٌ للّه تعالى[3]، فكانَ تقديم نفي الألوهيَّة عن كلِّ شيٍ، وإثباتُه للّه تعالى كالدّليل والحجَّةِ الذي يترتّب

(1) الرضي الاستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب: 3/ 69.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 407، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 502.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 49، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4851.

عليه وجوبُ إفرادِ اللّه تعالى بالعبادة، فتُرِكَ التَّصريحُ بالأمرِ بتخصيصِ العبادة للّه تعالى لفهمه من المقام، وسياق الكلامِ[1].

معنَى الفاء ودلالتُها في قولِه ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾:

أمرُ التّوحيدِ لا يحتاجُ إلى طلبٍ لوضوحِه وظهورِ دلائلِه

لمّا كانت الفاء عاطفةً وكان المعطوفُ في قولِه ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ طلبًا بصيغة الأمرِ أفادَ أنَّ قولَه ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ على معنى نوحي إليه الأمرَ بتوحيدِ اللّه والأمرَ بتبليغِه، فحَسُنَ العطفُ وانتظمَ المعنى، ونكتةُ عدم مجيء معنى التّوحيد بصيغة الأمرِ ومجيئِه بصيغة الجملةِ الاسميَّة الدّالَّةِ على الثبوتِ بيانُ أنَّ تقريرَ أمرِ التّوحيدِ لا يحتاجُ إلى طلبٍ لوضوحِه وظهورِه.

بلاغةُ الالتفات من الإفرادِ إلى الجمع في قولِه ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾:

مناسبةُ التّوحيد للإفراد ومناسبةُ العبادة للجمع للإشارةِ إلى الاجتماعِ عليها

عُبِّرَ بالمفرد في الموحى إليه، فقال تعالى ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ لعودِ الضّمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾ على لفظ ﴿رَّسُولٍ﴾ ثمَّ عُدِلَ إلى الجمع في قولِه ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾، ولَم يَأْتِ التَّركيبُ (فاعْبُدْني)، فجاء على طريق الالتفات؛ لأنّه لَمّا كانَ ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ عامًّا لَفْظًا ومَعْنًى[2] لمجيئِه في سياقِ النّفي، أُفرِدَ على اللَّفظِ في قَوْلِه ﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ للاهتمام بأمرِ التّوحيد، ولتقريره على كلِّ فردٍ من الرّسلِ عليهم السلام ثُمَّ جُمِعَ على المَعْنَى في قَوْلِه ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ للتّنبيه إلى شأنِ الاجتماعِ على العبادةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العبادة والطاعة:

العبادة هي تذلّلٌ يرادُ به تعظيمُ الله تعالى وحده والطّاعةُ هي موافقةُ أمرِ المُطاع والامتثالُ له

الفرق بينهما هو أنَّ العبادةَ غايةُ الخضوع، ولا تُستحَقُّ إلا بغايةِ الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يُعبد غيرُ اللّه تعالى ولا تكون العبادةُ إلّا مع المعرفة بالمعبود، وأمّا الطّاعة فهي الفعل الواقعُ على حسب ما أراده المريدُ متى كان المريدُ أعلى رتبةً ممَّنْ يفعل ذلك، وتكون

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 407.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 422.

الطاعةُ للخالق والمخلوق، والعبادةُ لا تكون إلّا للخالق، والطّاعةُ في مجاز اللّغة هي اتِّباعُ المدعوِّ الدّاعيَ إلى ما دعاه إليه، وإن لم يقصد التَّبعَ، كالإنسان يكون مطيعًا للشَّيطانِ، وإن لم يقصد أن يطيعَه، ولكنَّه اتَّبعَ دعاءَه وإرادته[1] كما أنَّ العبادة هي خضوعٌ وتذلّلٌ، وهي فعلٌ لا يرادُ به إلا تعظيمُ اللّه تعالى بأمره، وإذا ذُكرت الألوهيَّة ناسبها ذكرُ العبادة؛ لأنَّ العبادة تذلّلٌ للإله، وأمّا الطّاعة فهي موافقةُ أمر المطاع والامتثالُ له، وإذا ذُكر الأمرُ ناسبه ذكرُ الطّاعة؛ لأنَّ الطّاعة موافقةُ أمر الآمرِ، والطّاعَةُ تُستَعْمل لموافقة أمر اللّه وأمرِ غَيره، والعِبادَة تَعْظيمٌ فلا تكون إلّا للّه[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 221.

(2) الكفوي، الكليات، ص: 583.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾

[الأنبياء: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحقُّ واحدٌ والباطلُ يتنوّعُ ويتعدّدُ

لَمّا بَيَّنَ اللّه تعالى بِالدَّلائِلِ الباهِرَةِ في قوله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ كَوْنَهُ مُنَزَّهًا عَنِ الشَّريكِ والضِّدِّ والنِّدِّ، وفرغَ من بيانِ باطِلِهم فيما اتّخذوا من دون اللّه آلهةً انتقل إلى بيانِ باطلٍ آخرَ، فأَرْدَفَ ذَلِكَ بِبَراءَته عَنِ اتِّخاذِ الوَلَدِ، فجاءت هذه الآيةُ[1]، فانتفى بذلك كلُّ فردٍ يُطلَقُ عليه هذا الاسمُ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾: الكرمُ وصفٌ لا يقال إلّا في المحاسن الكبيرة، وهو اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحمَدُ ويُثنى عليه لأوصافِه الجميلةِ، وكلُّ شيءٍ شَرُفَ في بابِه في نفسِه، أو في خلقٍ من أخلاقِه، فإنَّه يوصَف بالكرم، فيقال مَلَكٌ كريمٌ، وعرشٌ كريمٌ، وكتابٌ كريمٌ، ورجلٌ كريمٌ، والإكْرامُ والتَّكْريمُ: أن يوصَلَ إلى الإنسانِ إكرامٌ، أي: نفعٌ لا غرضَ له فيه ولا مصلحةٌ، أو أنْ يُجعلَ ما يوصَلُ إليه شيئًا كريمًا، أي: شريفًا، وقوله في الآية: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ بمعنى جعلَهم كرامًا بتقريبِهم وتفضيلِهم ورفعةِ منزلتِهم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كمالُ المخلوقِ في تحقيقِ عبوديتِه لله تعالى وأن لا يقدِّمَ قولَه على قولِ الله ورسولِه

كذَّبَ اللّه تعالى من جعلَوا للّه ولدًا، فأخبرَ أنَّ فريقًا من المشركين قالوا: الملائكةُ بناتُ اللّه، وهم خُزاعَةُ مِنْ سُكّانِ ضَواحي مَكَّةَ الذين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 134، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 49.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 385، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 50.

كانوا يَزْعُمونَ أنَّ المَلائِكَةَ بَناتُ اللّه وشارَكَهُم في هَذا الزَّعْمِ بَعْضٌ مِنْ قُرَيْشٍ وغَيْرِهِم مِنَ العَرَبِ، فردَّ اللّه تعالى عليهم منزّهًا نفسَه عمّا وصفوه به، وأكّدَ إبطالَ قولِهم فأخبر عن الملائكةِ بأنَّهم عِبادٌ مخلوقونَ له تعالى، فهم ملكُه، لكنَّهم مشرَّفونَ مقرّبون عنده في منازلَ عاليةٍ، ومقاماتٍ سامية، فليسوا هم بأولاد؛ إذ عبوديّتهم تُنافي أن يكونوا أولادًا للّه ﷻ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو في قوله ﴿وَقَالُواْ﴾:

التّعجيبُ من الإشراك بالله مع أنَّ الرّسلَ جميعًا جاؤوا بالتّوحيد

جاءتِ الآية ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ معطوفةً على قولِه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾، والجامعُ بينهما هو أنَّه تعالى لمّا علّق بالإيحاء إلى الرّسل منشورَ التّوحيد، وتوقيعَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ وجعلَه مقرَّرًا عندَ جميعِ الرّسل، عطفَ عليه هذه الآية للتّعجيبِ من قولِهم والإنكار عليهم، فكان قولُه تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ ذريعةً وتخلصًا إلى قوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾[2].

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿وَقَالُواْ﴾:

إظهارُ القولِ القبيحِ، ونشرُه يدلُّ على عدم استحياءِ صاحبِه منه

عبِّرَ بصيغة الماضي في قوله ﴿وَقَالُواْ﴾؛ للإشعار بوقوعِ قولِهم القبيح وإظهارِهم له من غيرِ استحياءٍ منهم على هذا القولِ، وجيء بالكلامِ بحكايةِ قولِهم لإظهار بُطلانِ مقالتِهم وبيانِ تنزّهه تعالى عن ذلك إثرَ بيان تنزّهِه سبحانه عن الشركاء على الإطلاق[3].

الغرضُ من إسناد الفعلِ إلى ضمير الجماعةِ:

عبِّرَ بضمير الجماعة في قوله ﴿وَقَالُواْ﴾؛ لإفادةِ أنَّ من قال هذا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 49، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 400، والمراغي، تفسير المراغي: 17/ 21.

(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 10/ 329.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 63.

أشنعُ منَ القول القبيحِ الاجتماعُ عليه وإظهارُه بين النّاس

القولَ القبيح الشّنيعَ هم جماعةٌ من النّاس، وأنَّهم لم يكتفوا باعتقادِه بل قالوه واجتمعوا على اعتقادِه وإعلانِه، ففيه توبيخٌ شديدٌ لهم، وتقبيحٌ لقولِهم لاجتماعِهم عليه، وقد ذكر المفّسرون أنَّ جماعةً من المشركين وهم قومٌ من خزاعةَ وغيرِهم قالوا: الملائكة بنات اللّه[1].

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

سفاهةُ المشركين في نسبة اتّخاذ الولدِ لله ﷻ

لمّا كان الاتّخاذُ بمعنى حَوزِ الشّيء وتحصيله بقوّة[2]، أفادَ التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ معنى المبالغة في الاتِّخاذِ والتّقريبِ كما يُبالِغُ في الحوزِ والتّحصيلِ والاجتهادِ فيه مَنْ يكونُ له ولدٌ لحاجتِه إليه؛ للإيذانِ بِعظمِ قبحِ مقالتِهم واعتقادِهم، وعظيمِ إشراكِهم باللّه تعالى.

الغرضُ من إسناد الفعلِ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

لـولا رحمـانيَّةُ الله تعالى لصَبَّ عـلى المشـركين العذابَ صبًّا

لمّا أُسنِدَ فعلُ الاتّخاذِ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾ كان التَّعرّضُ لعنوان الرّحمانية مُنبِئًا عن كون جميع ما سواه تعالى مربوبًا له تعالى نعمةً منه، أو مُنعَمًا عليه؛ لإبراز كمالِ شناعةِ مقالتِهم الباطلةِ[3]، مع تضمينِ الكلامِ دليلًا آخر على افترائِهم، وفيه كذلك بيانُ أنَّه لولا رحمانيَّته تعالى لصبَّ عليهم العذابَ صبًّا بسبب قبحِ هذه المقولةِ وشناعتِها، وأيضًا في التّعبير بوصفِ الرّحمانيَّةِ إشعارٌ بتماديهِم في طغيانِهم وكفرِهم مع توالي نعمِ اللّه عليهم، لأنّهم وصفوه بالرّحمن المُنبِئ عن إحساسِهم بنعمِه العظيمة.

غرضُ تنكيرِ المفعول به ﴿وَلَدٗاۗ﴾:

تجهيلُ القائلين فـي نسـبة الـولـد لـلـه تـعالى وتحقيرُ مقولتِهم

جاء لفظُ ﴿وَلَدٗاۗ﴾ منكَّرًا في قولِه ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ لتجهيل القائلين في مقولتِهم، فلو عرفوا اللّه تعالى لَمَا نسبوا إليه ولدًا، كما أنَّ في التّنكيرِ معنى التّحقيرِ والإهانةِ، بمعنى

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 286، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 49.
(2) الراغب، المفردات: (أخذ).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 63.

تحقيرِ مقولةِ أن يكون لله تعالى ولدٌ، والَّذينَ قالوا ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ أرادوا أنَّهُ اتَّخذَ بَناتٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ [النَّحل: 57].

سرُّ التّعبيرِ بجملةِ الاعتراض ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾:

لفظُ التّسبيحِ هو مَجمَعُ تنزيه اللهِ تعالى وأعظَمُهُ وأشرفُهُ

سبَّح اللّهُ تعالى ذاتَه، بلفظ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ وهو مَجمَعُ التّنزيه، وأعظمُه وأشرفُه، وسرُّ مجيءِ التّسبيح بعد ذكرِ مقالتِهم القبيحة في قولِه ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾ هو بيانُ الدّليل على بطلانِ قولِهم، فالوَلَدَ لا بُدَّ أنْ يَكونَ شَبيهًا بِالوالِدِ فلَوْ كانَ لله ولَدٌ لأَشْبَهَهُ مِنْ بَعْضِ الوُجوهِ، وفي الاعتراض بهذه الجملة مبادرةٌ بالتّنزيه والتّقديس.

بلاغةُ الإضراب بـ﴿بَلۡ﴾:

العبوديّةُ تنُافي الولادةَ

(بل) في قولِه ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ للإضراب الإبطاليّ؛ لِتفيد إبطالَ ما قبلَها وردَّه، مع إثباتِ ما بعدها وتقريره[1]، ليفيدَ ما بعدَها قصرَ الموصوفِ على الوصفِ قصرًا إضافيًّا مع بيانِ الدّليلِ على بطلانِ ما أُضربَ عنه بطريقة أخرى سوى التّسبيحِ، لأنَّ دليلَ التّسبيحِ دليلٌ ناشِئٌ من وصفِ ذاتِه الشّريفة، ودليلَ الإضراب في قولِه ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ ناشِئٌ من أوصافِ الملائكة وكلِّ من هو عبدٌ للّه تعالى، ولمّا كان الكلامُ هنا لإبطالِ المقالةِ التي صدرت عن بعضِ المشركين، ويدخل معهم النّصارى واليهودُ الذين جعلوا للّه تعالى ولدًا، كان الإبطالُ على سبيلِ الرّدِّ، والمعنى: ليس كما قالوا وما قالوه باطلٌ، إنّما هم عبادٌ للّه أكرمهم بعبادتِه، والعبودية تنافي الولادةَ[2].

الغرضُ من حذف المسندِ إليه في قولِه ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾:

مِن أجمَلِ الأوصافِ التي تليقُ بالملائكة أنّهم عبادٌ مكرمون

تقديرُ الكلامِ في قولِه: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾: بل هم عبادٌ

---

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/ 369.

(2) الطبري، جامع البيان: 18/ 428، والزمخشري، الكشاف: 3/ 112، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 135.

مكرمون[1]، ونكتةُ حذف المسند إليه(هم) أنَّه لمّا أفادت ﴿بَلْ﴾ الإبطالَ، كان الكلامُ على معنى القطعِ لاستئنافِ كلامٍ آخرَ، وهذا من المواضعِ التي يكثر فيها مجيءُ المسندُ (الخبر) من غيرِ مسندٍ إليه (المبتدأ)[2]، لتوجيه النّظر إلى المسنَدِ، ولأنَّ محطَّ الحكم عليه، وللإشعارِ بأنَّ المسندَ ممّا لا يكونُ لغير المسنَدِ إليه المعلومِ من سياقِ الكلامِ لتقدِّم ذكرِه لفظًا، أو معنًى.

الغرضُ من تنكيرِ المسنَد ﴿عِبَادٌ﴾:

كثرةُ عبادة الله تُعلي قدرَ العابد وتُعظم منزلتَه

أفادَ تنكيرُ لفظِ ﴿عِبَادٌ﴾ في قولِه ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ تفخيمَ العبادِ المكرمين، وأنَّهم ليسوا مثَل سائرِ العبادِ، وفيه تنبيهٌ إلى كثرةِ عبادتِهم للّه تعالى ومداومتِهم عليها واستغراقِهم فيها، إذ وصفُ العبادةِ مُشعرٌ بملازمتِه للموصوفِ.

سرُّ تقييدِ المسنَد بالوصف ﴿مُّكْرَمُونَ﴾:

كـثرةُ العبادة ترقّى بالعابدِ إلى منزلة الإكرامِ

جاءت الصّفةُ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ قيدًا للموصوف في قولِه ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، بيانا لمكانتهم عند ربهم، وردًّا على مقالةِ العرب في الملائكة والنَّصارى في عيسى بن مريم واليهودِ في عزير، وإشعارًا بأنَّ اصطفاء اللّه تعالى لبعضِ عبادِه وتكريمِهم قد يكون سببًا في نسبة بعض القومِ ما يتنزّه اللّه تعالى عنه، وإيذانا بجهلِ أصحابِ هذه المقولةِ باللّه تعالى وبصفاتِه الكريمة[3].

نكتةُ التَّعبير بصيغة المبنيّ للمفعول ﴿مُّكْرَمُونَ﴾:

لا مزيةَ للملائكة في أنفسِهم، ولا كرامةَ، لولا أنَّه تعالى هو الذي أكرمَهم

عبِّرَ بصيغة المبني للمفعول في قولِه ﴿مُّكْرَمُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ من قال هذه المقالةَ جاهلٌ بأنَّه تعالى هو الذي أكرمَهم وأنَّ عبادتَهم

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 916.
(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 147.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 112، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 79، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 63.

له سبحانه وقربَهم منه بفضلِ كرمِه عليهم، فلا مزيةَ لأنفسِهم ولا كرامةَ لولا أنَّه تعالى هو الذي أكرمهم، كما أنَّ في التَّعبير بصيغة المبنيّ للمفعول رعايةً للفاصلةِ ومناسبةً لرؤوسِ الآي.

﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ [الأنبياء: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الكرامةُ عند الله تقتضي عدمَ تقديمِ أيِّ قولٍ على قول الله ورسولِه

لمّا ذكر اللّه تعالى وصف الملائكة بأنَّهم عبادٌ مكرمون ذكرَ وصفًا آخر من أوصافِهم تقريرًا لعبوديَّتِهم وردًّا على شركِ المغالين منَ الكافرين وتنبيهًا إلى بيانِ السّببِ في كونِهم عباداً مكرَمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡبِقُونَهُۥ﴾: أصل السَّبْقِ: التّقدّم في السّير، ويقال سبقَه في الأمرِ تقدَّمه، ومنه السبْقُ في الجري، والِاسْتِباقُ: التَّسابُق، ثمَّ يُتجوّز به في غيره من التّقدّم كالإفلاتِ والمضيِّ وإعجاز الملاحق، وممّا جاء بمعنى الإفلات، قولُه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، ويستعار السَّبْقُ كذلك لإحراز الفضل والتّبريز، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10][1]، ومعنى ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ لا يقولون حتَّى يقولَ ويأمرَ وينهى، فهم يتبعون قوله، ولا يقولون شيئًا حتى يقولَه[2].

2) ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾: أصلُ القول هو الكلامُ المفيدُ المسموع، فيستعمل القولُ للمركّب من الحروف المبرز بالنّطق، مفردًا كان أو جملةً، كما يقال للمتصوّر في النّفس قبل الإبراز باللفظ: قَوْلٌ، فيقال: في نفسي قولٌ لم أظهره، وللاعتقاد نحو فلان يقول بقول الشّافعيِّ[3]، والقول هنا بمعنى الكلام.

3) ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾: الأمرُ بسكون الميم يأتي بمعنيين: أحدهما الشأنُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبق).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 285، والزمخشري، الكشاف: 3/ 112.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قول).

وجمعه الأُمورِ، والآخرُ مصدر أمرتُه، إذا كلّفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عام للأفعال، والأقوال كلِّها، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، وقال ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: 154][1]، و﴿بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ في الآية بمعنى: إذًا أمر بأمرٍ أطاعوا[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ ذي رتبةٍ دنيا لا يُسابِقُ من فوقَه بالقولِ، بل يكون تبعًا له في كلامِه

يُخبر اللّه تعالى عمَّن زعموهم أولادًا له سبحانَه مُثنيًا عليهم بأنَّه لا يسبق قولُهم قولَه تعالى، ولا يعملون إلّا بأمره كما هو شأنُ العبيد المطيعين لسيِّدِهم المنقادين له، فهم تابعون لمولاهم في أقوالهم وأفعالهم دائِمًا، لا يخالفونَه في قولٍ أو عملٍ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

الدّليلُ على أنَّ الملائكة عبادٌ مكرمون هو أنَّهم لا يَسبقون الله بالقولِ وأنَّهم بأمرِه يعملون

لَمّا جاءت جملة ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ صفةً أخرى لقولِه ﴿عِبَادٞ﴾ اقتضى الكلامُ الفصلَ؛ لأنَّ الصّفة على معنى اتّصافِ الموصوفِ بالمعنى، فلا يكونُ بين الصّفة والموصوف حرفُ عطفٍ، ولمّا كان الكلامُ مسوقًا لبيان أوصافِ الملائكة مفيدًا الثَّناءَ عليهم بهذه الأوصافِ تعدّدَ الوصفُ لبيان مجملِ أحوالِهم، فإنَّ ما قبلَه مسوقٌ لما ذكرَ، لِأنَّه لمّا قال ﴿عِبَادٞ﴾ كان شاهدًا على أنّهم عبادُ الملك الواحدِ الأوحدِ، فأعقبَه بما ينادي على صدقِ أنَّهم عبادٌ له سبحانه فكأنَّ هذه الصفة بمثابة الدّليل على كونهم عبادًا مكرمين، فقال ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾.

دلالةُ النّفي بـ﴿لَا﴾:

إفادةُ (لا) النّافية معنى استمرار النّفي وعدم تقييده بزمنٍ

لّما كان حرف النّفي ﴿لَا﴾ في قولِه: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ غيرَ مقيَّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أمر).
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/ 376.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1106.

بزمنٍ هنا بحسبِ ما جاء في الاستعمال كما في قوله ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوۡمٌۚ﴾ [البقرة: 255] أشعرَ النّفيُ بـ﴿لَا﴾ باستمرارِهم على هذا الوصفِ.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَسۡبِقُونَهُۥ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالفعل المضارعِ ﴿يَسۡبِقُونَهُۥ﴾ استمرارَ نفي سبقِ قولِ الملائكة لقولِ اللّه تعالى وتجدّدِه وقتًا فوقتًا، بمعنى أنَّ هذا الوصفَ ملازمٌ لهم.

بلاغة إسنادِ الفعلِ إلى الملائكة دون قولِهم:

نفيُ سبقِ أيِّ وصفٍ للملائكة ثناء عليهم

لم يقل: (لا يسبق قولُهم قولَه) مع أنَّه هو المرادُ الأوّل من الكلامِ؛ بل قال ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، فجاء الكلام على طريق المجازِ العقلي؛ إذ أسندَ فعلَ السّبقِ إلى ذاتِ الملائكة، وجعل القولَ محلَّ السّبقِ وهو قرينة على المجازِ للمبالغة في الثّناء عليهم، كما أنَّه لمّا عُبِّرَ بالسّبق بين الملائكة وبين ذاتِ اللّه تعالى كان تشنيعًا على القائلين بهذه المقالةَ الشّنيعة من أن يقال: (لا يسبق قولُهم قولَه)، ولَعُدِمَ التّعريضُ الذي نذكره تاليًا وفات التّنبيه على استهجانِ سبقِهم بالقولِ على اللّه تعالى ما لا يليق به سبحانه[1].

بلاغة التّعريض:

من ظنّ أنّ قوله يسبق قولَ الله تعالى فقد تصدّى لمغالبتِه تعالى في السَّبق وهو من أشنع الكفرِ

في قوله ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ تعريضٌ بالقائلين على اللّه تعالى ما لم يقلْه، ووجهُه أنّه تعالى لمّا حكى عنهم القولَ الشّنيعَ، ثمَّ نفى عن الملائكة السّبقَ بالقولِ؛ فُهم من عَرَضِ الكلامِ أنَّ المشركين يظنّون أنّهم يسبقونَ اللّه تعالى بالقولِ، حيث قالوا في حقِّه تعالى ما لم يقلْه، وما لا يمكنُ أن يقولَه، وفيه تعريضٌ عامٌّ لجميع المخاطَبين بأن من سبق قولُه قولَه تعالى فقد تصدّى لمغالبته تعالى في السّبق، والعياذ باللّه تعالى[2].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 505.

(2) ابو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 63، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 505.

فائدة الجملة الخبريَّة:

أفاد الخبرُ في قوله ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أنَّ قولَ الملائكة لا يسبقُ قولَ اللّه تعالى، أي: إنَّهم يَتْبَعون قولَه ولا يقولون شيئًا حتَّى يقولَه ويأذنَ به خوفًا منه تعالى وتأدُّبًا معه[1] ويفيد أيضًا أنَّهم لا يَقولونَ إلّا ما أُذِنَ لَهُم أن يَقولوه وأنَّ قولَهم تبعٌ لقولِ اللّه تعالى[2].

لا يخرج قولُ الملائكة عن أن يكونَ طاعةً لربِّهم

نكتةُ تخصيصِ نفي السّبقِ بالقول دون العمل:

لمّا كان صدورُ القولِ أشدَّ استباقًا من العمل، فهو أقلُّ كلفةً وأسرعُ ظهورًا عُلِّقَ نفيُ السَّبقِ بالقولِ دونَ العملِ في قوله ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾؛ للإيذانِ بتَوَغُّلِهم في طاعةِ اللّه تعالى والامتثالِ لأمرِه، والمعنى: لا يَصْدُرُ مِنْهُم قَوْلٌ قَبْلَ قَوْلِه.

القولُ أشدُّ استباقًا منَ العملِ؛ لأنَّه أقلُّ كُلفةً وأسرعُ ظهورًا

الغرضُ منَ التّعريف بـ(اللّام) في قولِه ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

أُنيبتِ اللّامُ في ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ منابَ الإضافة في قوله: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، والتّقدير: (لايسبقونَه بقولِهم)، ونكتةُ إنابةِ اللّام منابَ المضافِ إليه إفادةُ اللّفظ معنى العموم، ليستغرقَ كلَّ قولٍ لهم[3].

إفادةُ التّعبير (بِالقَوْلِ) معنًى العموم، ليستغرقَ كلَّ قولٍ للملائكة

دلالةُ مجيء الجملةِ صفةً:

أفادت جملةُ ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ التّي وقعت صفةً لـ﴿عِبَادٞ﴾[4] اتّصافَ الملائكة بأنّهم لايسبقونه تعالى بالقولِ، على معنى ملازمةِ هذه الصِّفةِ لهم وعدمِ انفكاكِها عنهم.

سرُّ التّقييد بصفةٍ ثانيةٍ:

لمّا أخبر اللّه تعالى عن صفتِهم بأنَّ قَوْلَهُم تابعٌ لِقَوْلِه أتبعَ ذلك بوصفِهم بصفةٍ أخرى، في قوله ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾، فبيَّن أنَّ

تعدّدُ الصّفاتِ على سبيل المدح مبالغةٌ في الثّناء

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 338.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 423.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 112، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 49، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 505.

(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 916، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 483.

عَمَلهُم أيْضًا كَذَلِكَ مَبْنيٌّ على أمرِه لا يَعْمَلونَ عَمَلًا ما لَم يُؤْمَروا بِهِ[1]، وتعدّدُ الصّفات على سبيل المدح مبالغةٌ في الثّناء عليهم بتنزيههم عمّا نُفي عنهم وإثباتِ مبادرتِهم إلى فعلِ ما يُؤمَرون به.

فائدةُ الواو في ﴿وَهُم﴾:

غايةُ الطّاعةِ وكمالُ الأدبِ الجمعُ بين طاعة القولِ وطاعةِ العمل

لَمَّا كان الواقفُ عمّا لم يؤذَنْ له فيه قد لا يفعلُ ما أُمِرَ به عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ بالواو لإفادةِ أنّهم جمعوا بين صفتَين إحداهما توقُّفهم بالقولِ على إذنِه، والأخرى الإيذانُ بأنَّهم بأمرِه يعملون، وليفيدَ التّشريكُ بالواوِ أنَّ قولهم وعملَهم طاعةٌ للّه تعالى، فجمعوا بين الطّاعة في القولِ، وفي الفعلِ، وذلك غايةُ الطّاعة، وكمالُ الأدبِ، فذكرَ من أوصافِهم ما هو من دَيدن العبيد المؤدّبين[2].

نكتةُ المغايرةِ بالجملة الفعليّةِ والاسميّةِ في الصّفتَين، والنّفي والإثبات:

عدمُ تقديمِ قولهم على قول اللّه متجدّدٌ وعملُهم بأمره ثابتٌ

أفاد التّعبيرُ عن نفي سبقِ قولِهم لقولِ اللّه تعالى بالجملة الفعلية في قولِه ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ تصويرَ حالةِ الملائكة للإشعارِ بكمالِ طاعتِهم للّه تعالى، ولمّا كان المقصودُ بيانَ ثبوتِ أحوالِهم وأفعالِهم في ظهورِ وصفِ عبوديّتهم للّه تعالى جاءت جملة ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ اسميَّةً، وقد جاءتِ الصّفة الأولى على طريق النّفي فقال ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ لتنزيهِهم عمّا لا ينبغي أن يتّصفوا به؛ لأنَّهم عبادٌ مكرمون، ولو قيل (يتبعُ قولُهم قولَه) لَما أفادَ سوى إثباتِ المتابعةِ بالقولِ دونَ تنزيهِهم عن السّبق به، ثمَّ جاءتِ الصّفةُ الثّانية على إثباتِ طاعتِهم له تعالى، أي: إذا أُمِروا بأمرٍ فعلوا، فجمعَ في الوصفين تنزيهَهم عنِ المعصيةِ وإثباتَ الطّاعةِ لهم، فأفادَ مجموعُ الصّفتين ذكرَ طاعتِهم، وحُسنَها في القول والعمل جميعًا، وذلك غايةُ الطّاعةِ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 135.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 49، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 408.

نكتةُ إظهارِ الضّمير ﴿وَهُم﴾:

في إظهار الضّمير تـقـريـرُ حـكـم الـخـبرِ للمبتدأ وتثبيتُه في أذهانِ المخاطَبين

أُظهرَ الضّميرُ ﴿وَهُم﴾ في قولِه ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ ليعودَ على الملائكة بما اتّصفوا به من الأوصاف المذكورةِ، فالمرادُ بـ﴿وَهُم﴾ الملائكةُ الذين اتّصفوا بأنَّهم عبادٌ مكرمون لا يسبقونه بالقول، والمعنى: هؤلاء العبادُ المكرمون الذين لا يسبقونه بالقول بأمره يعملون، كما أنَّ في إظهار الضّمير تقريرَ حكمِ المسندِ للمسندِ إليه وتثبيتَه في أذهانِ المخاطَبين ولاسيّما في مقامِ القصرِ، وهو من البلاغة في معرضِ الرّدِّ.

الغرضُ منَ التّعبير بالمسند جملةً فعليةً:

كلُّ عملٍ يعملُه الملائكةُ هو بأمر الله، وهذا من أوصاف العبيدِ مع الملك الواحدِ الأوحد

لمّا جاء المسندُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قوله ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ جملةً فعليَّةً أفاد تقوّيَ الحكم، وسببُ تقوّيه هو أنَّ المبتدأ لكونه مبتدأً يستدعي أن يُسنَدَ إليه شيءٌ، فإذا جاء بعده ما يصلح أن يُستند إليه صرفه المبتدأُ على نفسه فينعقد بينهما حكمٌ، ولمّا كان الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ متضمِّنًا لضمير الواو الذي يعود على المبتدأ اكتسى الحكمُ قوَّةً، والمرادُ تحقيقُ عملِهم بأمرِه تعالى، وليس المقصودُ تخصيصَ العملِ بأمرِه تعالى بهم، وقد أفادَ التّعبيرُ بالفعل المضارع استمرارَ عملِهم بأمرِه تعالى لا بغيرِ أمرِه وتجدّدَه وقتًا فوقتًا مع ثبوتِ الوصفِ لهم.

بلاغةُ القصر بتقديم متعلّق الفعل ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾:

الآمرُ المطلقُ هو الله

لمّا تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ على عاملِه ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قوله ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ أفادَ قصرَ عملِهم على أمرِه تعالى بمعنى أنَّهم بأمرِه الذي يريده يَعْمَلونَ لا بأمرِ غيرِه، كما يفيد القصرُ أنَّهم لا يعملون سواه، فالقصرُ المستفادُ من تقديم الجارّ معتبرٌ بالنّسبة إلى غيرِ أمرِه لا إلى أمرِ غيرِه، لأنَّه لا أمرَ لغيرِه عليهم أصلًا[1].

(1) ابو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 64.

فيفيد بلازمِه أن لا آمرَ مطلقًا إلّا اللّهُ تعالى، وأفادَ القصرُ ثلاثةَ معانٍ هي: أنَّهم لا يعملون أيَّ عملٍ قطُّ إلّا بأمرِه، وأنَّهم يعملون ما أُمروا به، كما أنَّهم لا يأمرون بأمرٍ حتى يأمَرَ ﷻ به، ليكون القصرُ مضمّنًا الإيجازَ، وحسنَ البيانِ.

بلاغة الكناية:

تنزيهُ الملائكةِ عن ما لا يليقُ بهم وإثباتُ ما هو مدحٌ لهم

لمّا نفى البيان القرآني سبقَ الملائكة للّه تعالى بالقولِ وأثبتَ أنَّهم بأمرِه يعملون أفاد قوله تعالى ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾: على طريقِ الكناية تعظيمَهم وتوقيرَهم[1] والثّناءَ عليهم بتنزيهِم عما لا يليقُ بهم وإثباتِ ما هو مدحٌ لهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 50.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلمُ بأنَّ الله تعالى يعلمُ ما تقدَّم وما تأخّر سببٌ للتّشمير إلى الطّاعة والعبادةِ

لمّا أخبر اللّه تعالى عن طاعةِ الملائكة وحُسنِها في القولِ والعمل ذَكَرَ ما يَجْرِي مَجْرَى السَّبَبِ لِهَذِه الطّاعَةِ، فإنَّهم لَمّا عَلِموا كَوْنَهُ سُبْحانَهُ عالِمًا بِجَميعِ المَعْلوماتِ عَلِموا كَوْنَهُ عالِمًا بِظَواهِرِهِم هُم وبَواطِنِهِم وبما قدَّموا، وما أخّروا، فكانَ ذَلِكَ داعيًا لَهُم إلَى نِهايَةِ الخُضوعِ وكَمالِ العُبوديَّةِ فجاءت هذه الآية[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡفَعُونَ﴾: (شفع) أصل يدلُّ على مقارنةِ الشّيئين، تَقولُ: كانَ فرْدًا فشَفَعْتُهُ، والشَّفعُ ضمُّ الشَّيءِ الى مثله، ويقال لِلْمَشْفوعِ: شَفْعٌ، والشَّفاعةُ الانضمامُ الى آخرَ ناصرًا ومعينًا له وسائلًا عنه، وأكثرُ ما يستعملُ في انضمامِ مَنْ هو أعلى مرتبةً وحرمةً الى مَنْ هو أدنى، ومنه الشَّفاعةُ في القيامةِ[2] ومعنى ﴿يَشۡفَعُونَ﴾ يتوسّطون عند اللّه تعالى لدفعِ مكروه عن أحدٍ أو جلب منفعةٍ، والمقصود من الشفاعة إظْهارُ كَرامَةِ الشّافِعِ بِتَنْفيذِ الإرادَةِ الأَزَلِيَّةِ عُقَيْبَ دُعائِهِ.

2) ﴿مُشۡفِقُونَ﴾: (شفق) أصلٌ يدلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيْءِ وضعفٍ فيه، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ، فمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: أَشْفَقْتُ مِنَ الأمرِ، إذا رَقَقْتَ وحاذَرْتَ، والإشْفاقُ عنايةٌ مختلطةٌ بخوفٍ وحذرٍ؛ لأنّ المُشْفِقَ يحبّ المشفَقَ عليه ويخاف ما يلحقُه، فإنْ عُدّيَ بـ(مِنْ) فمعنى الخوف فيه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 135، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 64.
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شفع).

أظهرُ، وإنْ عُدّيَ بـ(على) كان معنى الاعتناء فيه أظهرَ[1]، ومعنى ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ خائفون حذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيَه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُكرمون عند الله تعالى شأنُهم مراقبةُ الله في جميع شؤونِهم

أخبر اللّه تعالى أنَّه يعلمُ ما مضى من أعمالِ الملائكة وأمورِهم ويعلم ما هم عاملون، فلا يخفى عليه أيُّ شيءٍ ممّا قدَّموا وأخَّروا، فلا يزالون يراقبونه في جميع شئونهم، وردَّ على الكافرين الذين يتوهّمون أنَّ الملائكة تشفع لهم فأخبر أنَّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى اللّه شفاعتَه من عباده المؤمنين ومع كلِّ الأوصاف التي تدلُّ على قربِهم منه تعالى فإنَّهم بسببِ خشيتِهم منه تعالى مشفقون وخائفون وحذرون أن يعصوه ويخالفوا أمره ونهيه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في قوله ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾:

معـرفةُ اللـه سـببٌ لـكـمالِ طـاعـتِه ودوامِ مراقبتِه

جاءتِ الجملةُ على طريق الفصل؛ لأنَّها استئناف بيانيٌّ قُصد به أن تكون جملة ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ كالعلَّة لما قبلَها والتّمهيدِ لما بعدَها، فإنَّه لعلمهم بإحاطته تعالى بما قدَّموا، وأخَّروا من الأقوالِ، والأعمالِ، لايزالون يراقبون أحوالَهم، فلا يقدرون على قول، أوعمل بغير أمرِه تعالى، أو يقال إنَّ علمَه تعالى بجميع أحوالِهم وإحاطتَهم بذلك سببٌ لتعظيمِهم له سبحانه الموجبِ لأن لا يسبقوه بالقولِ وأن يكونوا بأمرِه يعملون تادُّبًا[3].

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾:

علمُه سبحانه محيطٌ بكلّ عملٍ في كلِّ وقتٍ

عبِّرَ بصيغة الفعل المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ للإيذانِ باستمرارِ تعلُّقِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شفق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 429.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 49، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 64، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 506.

علمِه تعالى بما قدّموا وما مضى من أعمالِهم وبما أخَّروا وما سيوجدُ في المستقبل.

سرُّ إضمارِ المسنَدِ إليه في ﴿يَعۡلَمُ﴾:

علـمُ اللـه تعالى بأحوالِ عبادِه مُقترنٌ برحمانيَّتِه بهم

لمّا كان الضّميرُ في قوله ﴿يَعۡلَمُ﴾ عائدًا إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ لأنَّه جاء في مفتتح الحكاية عن الملائكة أفاد التّعبيرُ بالضّمير دون الاسم الظّاهر (اللّه) أنَّ علمَه تعالى بما قدَّموا وأخّروا مقترنٌ برحمانيَّتِه بهم وبغيرِهم، وأيضًا لمّا كان المرادُ بيانَ سبب كونِ الملائكة لا يسبقونه بالقول وهم بأمرِه يعملون عبِّر بالضّمير للإشعارِ بارتباط هذه الجملة بما قبلها.

الغرضُ من التّعبير بـ ﴿مَا﴾ الموصولةِ:

علمُ الله تعالى يستغرقُ جميعَ ما يُقدِّمُ العبادُ وما يُؤخّرون

عبِّرَ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ دون (الذي) في قولِه ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ أعمُّ الموصولات وأشملُها، ولشدّة عمومِها تأتي لتغليب غيرِ العاقل على العاقل، والغرضُ من التّعبير بـ ﴿مَا﴾ إفادةُ استغراق علمِه تعالى لكلِّ ما قدّموا وأخّروا.

بلاغةُ الاستعارةِ:

الإحاطةُ التّامّةُ زمانًا ومكانًا

في قوله تعالى: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ استعارةٌ، فيحتملُ أن يكون قولُه ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مستعارًا لِما هو مُلاحَظٌ لهُم مِنَ المعلوماتِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الذي يُظهِرُهُ صاحبُهُ يجعلُه بَينَ يديه، ويكون قولُه ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مستعارًا لِما خَفيَ عنهُم؛ لِأنَّ شأنَ ما يُجعلُ خَلفَ المَرءِ أنْ يكونَ مَحجوبًا مخفيًّا، ويحتملُ أن يكون المرادُ بـ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ المستقبلَ، لِأنَّ ما بينَ أيدي المَرءِ هو أمامهُ، فهو يستَقبلُهُ ويشاهدُهُ، ويسعى للوصولِ إليه، والمرادُ بـ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ الماضي؛ لأنَّه ما وراءَ ظَهرِه، فهوَ قَدْ تَخلَّفَ عَنْهُ وانْقَطَعَ ولا يُشاهِدُهُ، وقَدْ تَجاوَزَهُ ولا يَتَّصِلُ بِهِ، وقيل العكسُ، لِأنَّ المُتَقَدِّمَ السّابِقَ يَمشي بَيْنَ يَدَي المرء، فيكونُ تمثيلًا لحالة السّبق والمضيّ، والذي يكون في الخلفِ

يكون متاخّرًا فيكون تمثيلًا لحالةِ المستقبل، وعلى كلا التّوجيهين فالتّركيب مجازيٌّ بطريق الاستعارة التّمثيليَّةِ المستعملةِ لما سبقَ من الأعمال وما تأخّر، ولمّا كان ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ و﴿خَلْفَهُمْ﴾ اسمَيْ مكانٍ قُصد بهما الزّمانُ كان أصلُ الكلامِ من تشبيه الزّمان بالمكانِ؛ لأنَّ الحوادث كما تحتاج إلى الزّمان تحتاج إلى المكان، ونكتةُ التّشبيه بالمكانِ هو أنَّ الذي بين يدي المرءِ يكون أمامَه بقربٍ منه فشأنُ ما بينَ الأيدي أن يكونَ واضحًا ظاهرًا للعيانِ لقربِه فهو بمثابة تشبيه المعقول بالمحسوس، أو تشبيه ما هو خفيٌّ بما هو جليٌّ، وأجاز بعضُ المفسّرين أن يكون التّركيب على طريق الكناية للزّمان الماضي والمستقبل أوِ العكس[1].

بديعُ الطّباقِ:

العِلْمُ بما مضى وما يتأخّرُ يقتضي العِلْمَ بالحالِ وما هم عليه

عبَّرَ بالطّباق في قوله ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ لإفادة التّعميم لجميع أمورِهم وأحوالِهم؛ فإنَّ العلم بما مضى، وما يتأخّر يقتضي العلمَ بالحالِ وما هم عليه، ليفيد التّعبيرُ بالطّباقِ أنَّ جميع أمورهم لا تخلو من هذين الأمرين، والمعنى لا يخفى عليه شيءٌ من أمورِهم وأحوالِهم[2].

فائدةُ عطف جملةِ القصر في قولِه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾:

الإذنُ بالشّفاعة ليس إذنًا مطلقًا، فهو مخصوصٌ بمن أذنَ الله له بالشّفاعة

جاءت جملةُ القصر ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، معطوفةً على ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ لإفادة التّخصيص، بمعنى تَخصيص الكلامِ بالذِّكرِ لبعضِ ما شملَهُ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، أو هو تصريحٌ بلازم نفي السّبقِ بالقولِ، اهتمامًا بشأنِه؛ لِأَنَّهُ ممّا كَفَروا بِسَبَبِهِ إذْ جَعَلوا الآلِهَةَ شُفعاءَ لَهُم عِنْدَ اللَّه[3]، وفيه إيذانٌ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 386 - 12/ 506، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 22 - 8ب/ 180.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 509.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 51.

بمهابتِهم للّه تعالى وقطع الأمرِ على الكافرين، أي: فلا تطمعوا في شفاعتهم لكم بغير رضاه، كما صرَّح بلازم الجملة الثانية أي: لازم قوله ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ فقال: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ وسبب مجيء لازمِ الجملة الثّانية الإيذانُ بدوامِ عبوديَّتِهم للّه تعالى وخوفِهم منه المشوبِ بتعظيمِه[1]، والقصرُ في قوله ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ إما قصرُ القلبِ من تخصيصِ الموصوف وهم الملائكة عند المخاطبين بوصفٍ مكانَ آخرَ أو قصرُ إفراد بمعنى أنَّ المشركين لمّا كانوا يعتقدون أنَّ الملائكة أولادُ اللّه ﷻ كانوا يتوهّمون أنَّ الملائكة بيدها الشّفاعةُ، فهي تتشفّع لمن ارتضى اللّه ولغيره، فجاء القصرُ في الكلامِ؛ ليفيد إزالةَ الشّركة عن غير من ارتضى اللّه، وقصْرَ شفاعتِهم على من ارتضى اللّه الشَّفاعة له، والوجه الأوّل أولى وأظهرُ.

سببُ إيثار القصرِ بالنّفي و﴿إِلَّا﴾:

> **تأكيدُ بُطلان المقولاتِ يقتضي التّعبيرَ بأقوى الطّرق والأدواتِ**

سُلِكَ القصرُ بطريق النّفي والإثباتِ في قوله ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾: لإيذانِ المخاطَبين بأنَّهم مخطئون في اعتقادِهم أنَّ الملائكة تشفع لهم وإن أصرّوا على شركِهم وكفرِهم وإعلامِهم أنَّهم مستمرّون على خطئهم، ومصّرون عليه بسببِ أقوالِهم القبيحة وأفعالِهم الشّنيعة.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿يَشۡفَعُونَ﴾ مضارعا:

> **الشَّفاعةُ مَزيَّةٌ وكرامةٌ يختصُّ اللّـهُ بها مَنْ يشاءُ**

عبِّرَ بلفظ ﴿يَشۡفَعُونَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾؛ للإيذانِ برفعةِ مقامِهم وكرامتِهم عند اللّه تعالى في الدّنيا والآخرة، فالشّفاعة مَزيَّةٌ يَخْتَصُّ اللّهُ بها مَنْ يَشاءُ، وقد تكون بالدّعاء والثّناء على اللّه تعالى بما هو أهلُه، ولَيْسَ في الشَّفاعَةِ بِهَذا المَعْنَى أنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ يَرْجِعُ عَنْ إرادَةٍ كانَ أرادَها لِأجْلِ الشّافِعِ وإنَّما هيَ إظْهارُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 409، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 502.

كَرامَةٍ لِلشّافِعِ بِتَنْفيذِ الإرادَةِ الأزَليَّةِ عُقَيْبَ دُعائِهِ[1] وقد أفاد التّعبيرُ بصيغة المضارع استمرارَ نفي شفاعتِهم وتجدّدِها في الدّنيا والآخرة إلّا لمن ارتضى اللّه تعالى له الشّفاعة.

فائدة اللّام في ﴿لِمَنِ﴾:

تُفيد اللّامُ في قوله ﴿لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ الاختصاصَ، بمعنى اختصاصِ شفاعة الملائكةِ لمن ارتضى اللّه تعالى الشّفاعةَ له، فلا تتناولُ شفاعتُهم غيرَه.

الغرضُ من التّعبير بالاسم الموصول (مَنْ):

الشّفاعةُ ممكنةٌ للجميع، ولا تشملُ إلّا من ارتضى اللّه الشّفاعة له

لّما كانت الشّفاعةُ تكون للعقلاء الذين تستوجب ذنوبُهم العقابَ عبِّرَ بـ(مَنْ) في قوله ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ التي للعاقل؛ للإيذانِ بإمكانِ الشَّفاعة لجميع العقلاء من الإنس والجنِّ وشمولِها لِمَن ارتضى اللّه تعالى الشَّفاعةَ له.

نكتةُ التّعبير بصيغة افتعل في لفظ ﴿ٱرۡتَضَىٰ﴾:

إرضاء اللّه طريقٌ إلى تحصيل الشّفاعةِ يومَ القيامةِ

أفاد التّعبيرُ بصيغة (افتعل) في قوله ﴿ٱرۡتَضَىٰ﴾ معنى المبالغة، أي: لا يشفعون إلّا لِمَنْ أرضى اللّه تعالى وتحقَّق برضاه سبحانه، فيُشعرُ الكلامُ بأنَّ من يرتضي اللّه شفاعتَه هو حقّق رضا اللّه تعالى عنه، ويحتملُ أن تكون صيغةُ افتعل بمعنى الإظهارِ، ومنه اعتظم، أي: أظهرَ العظمةَ، أي لا يشفعون إلّا لِمَنْ أظهر اللّه تعالى رضاه عنه يومَ القيامةِ، أي: لا يشفعون إلّا لِمَنْ أرادَ هوَ أنْ يُظْهِرَ رضاهُ وكَرامَتَهُ عِنْدَهُ، "كَما يُسْنَدُ إلَى الكُبَراءِ مُناوَلَةُ المَكْرُماتِ إلى نُبَغاءِ التَّلامِذَةِ في مَواكِبِ الامتِحانِ"[2]، ويمكنُ الحملُ على المعنيين تكثيرًا للمعنى.

فائدةُ حذفِ المفعول به:

حُذِفَ مَفْعولُ ﴿ٱرۡتَضَىٰ﴾ لِأَنَّهُ عائِدُ صِلَةٍ مَنْصوبٌ بِفِعْلٍ، فالضّمير

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/ 255.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 21.

المحذوفُ عائدٌ على الاسم الموصول (مَن) في قوله ﴿لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾، والمرادُ المشفوعُ له، والتّقدير: (ولا يشفعون إلّا لمَن ارتضاه)[1]، ونكتةُ الحذف إفادةُ العموم، بمعنى أنَّ ارتضاءَ اللّه ليس مخصوصًا بشخصٍ معيَّن، ولا نوعٍ معيَّن من النّاس، وليفيدَ أنَّ منِ ارتضاه اللّه تعالى ارتضى الشّفاعةً له، ويحتملُ أن يكون المحذوفُ (الشّفاعةَ له) لدلالة السّياق عليه، وباعتبار أنَّ لفظ ﴿يَشۡفَعُونَ﴾ يقتضي مشفوعًا له، والمعنى: لا يشفعون إلّا لمن ارتضى الشّفاعةَ له، ويكون المرادُ المشفوعَ له كذلك، كما يحتملُ أن يكون المحذوفُ (الشفيعَ) بمعنى لا يشفعون إلّا من ارتضى اللّهُ الشّفيعَ، أي لا يؤذن لأحد بالشّفاعة إلّا من كان مرضيًّا مرتضى دينًا وعملًا، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه: 109][2].

من ارتضاه الله تعالى لدينه وعبادتِه ارتضى شفاعتَه

بلاغةُ التّتميم بطريق العطفِ:

تفيد واو العطف في قوله: ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ التّشريكَ بين الوصفين، فلمّا وصفهم بأنَّهم لا يسبقونه بالقولِ، وهم بأمره يعملون، ثمَّ وصفَهم بأنَّهم لا يشفعون إلّا لمن ارتضى تمَّم وصفَهم بالثّناء عليهم، فقال ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ أي: وهم مَع هذا كلِّه منْ خَشْيَتِه مُشْفِقونَ، ففي العطف تتميمٌ في غاية الحُسن، وفائدته بيانُ وصفِهم على سبيل التّرقّي بأنَّهم يضبطون أنفسَهم، ويراقبون أحوالَهم كلَّها سابقَها، ولاحقَها، فاستحقّوا كرامته سبحانه وقُربَ منزلتِهم عنده[3].

التّرقّي في الثّناءِ على الملائكة لإظهار كرامتِهم وقُربِ منزلتِهم

فائدةُ إضافةِ المصدرِ إلى المفعول في قوله ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾:

المصدرُ في قولِه ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾ مضافٌ إلى المفعول، والتَّقدير:

إضافةُ المصدرِ إلى المفعول وحذفُ فاعلِه أبلغُ، وأدلُّ على المقصود

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 51.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 338، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 51.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 112، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 49، والطيبي، حاشية على الكشاف: 10/ 331، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 423.

(من خشيتهم منه)[1]، وسببُ حذفِ الفاعل والإضافة إلى المفعول هو أنَّه لمّا كان الكلامُ في سياق الإخبار عنهم كان معلومًا من هو فاعلُ الخشيةِ، فكان ذكرُه مع المفعولِ تَكرارًا يخلُّ بالنّظم ويضعفُ تأليفَه، ولو قيل (من خشيتِهم منه) من غيرِ حذفٍ أفادَ أنَّهم يخشونَ أمرًا معيَّنًا، أو أمورًا من اللّه تعالى، ولَفات المقصودُ من أنَّهم لا يخشونَ إلّا اللّه تعالى في جميعِ أقوالِهم وأفعالِهم، فكان ما في نظم القرآن أبلغَ وأدلَّ على المقصودِ.

فائدةُ القصرِ بتقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾:

رعايةُ الفاصلةِ تكونُ مقرونةً بفائدةٍ أخرى في مجاري القرآنِ

لمّا قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾ على متعلَّقِه وهو الخبر ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ في قوله ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ أفاد الكلامُ القصرَ بمعنى هم من خشيته لا من خشيةِ غيرِه مشفقون[2]، كما أفاد التّقديمُ رعايةَ الفاصلة وتناسب رؤوسِ الآي.

فائدة ﴿مِّنۡ﴾:

الجمعُ بين الخشية والإشفاقِ من صفات العبادِ المُكرمين

﴿مِّنۡ﴾ في قولِه ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ تعليليّةٌ، والمعنى بسببِ خشيتِهم منه تعالى مشفقون، فتكونُ خشيتُهم منه تعالى سببًا لإشفاقِهم، وتحتملُ ﴿مِّنۡ﴾ أن تكون صلةً لاسم الفاعل ﴿مُشۡفِقُونَ﴾، والمعنى أنَّهم يخشون اللّه تعالى ومع ذلك يحذرون من وقوع تقصيرٍ في خشيتهم[3].

فائدةُ التّعبيرِ باسم الفاعل:

الإشفاقُ لا يفارقُ عبادَ الله المكرمين

عبَّرَ في الخبر عن المبتدأ بصيغة اسم الفاعل، فقال ﴿مُشۡفِقُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم متّصفون بالإشفاق لا يفارقُهم، وأنَّ هذا الوصفَ مستمرٌّ فيهم، وفي حالةِ تجدّدٍ منهم.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 55، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 64.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 502.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 32.

فائدةُ حذفِ متعلّق اسمِ الفاعل:

لّما كان الملائكة مشفقين من أن يحلَّ بهم عذابُ اللّه تعالى ومشفقين من أن يشفعوا إلّا بإذنِه ومشفقين من التّقصير في حقِّ اللّه تعالى حُذفَ متعلَّقُ اسم الفاعل ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ للإحاطةِ به[1]، ليفيد الحذفُ العمومَ، ويحتملُ أن يكون الحذفُ على معنى ثبوت وصفِ الإشفاق لهم بمعنى أنَّ من شأنِهم الإشفاقَ من عذاب اللّه تعالى بسبب خشيتِهم منه أو لا يكونُ منهم إلّا الإشفاقُ من عذابِه، فأفاد حذفُ المتعلَّق المبالغةَ في المدح والثّناء عليهم بما انْطَوَوا عليه من خشيةِ اللّه وحذرِ عذابِه.

إفادةُ حذفِ المتعلَّقِ المبالغةَ في المدح والثّناء عليهم

دلالةُ التّعبير بالجملة الاسميّةِ:

أفاد التَّعبيرُ بالجملة الاسميّة ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ ثبوتَ هذا الوصفِ لهم على سبيل الثّناء عليهم، وبيانِ كرامتهم عند اللّه تعالى أي: إنَّ الإشفاق من خشيتِه صفةٌ ثابتةٌ لهم لاتنقطعُ في الدّنيا ولا في الآخرة[2].

الإشفاقُ من خشيةِ الله صفةٌ ثابتةٌ للملائكةِ لاتنقطعُ في الدّنيا، ولا في الآخرة

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشية والإشفاق:

فُرِّقَ بينَ الخشيةِ والإشفاقِ بأنَّ الخشيةَ خوفٌ مَشوبٌ بتعظيم ومهابةٍ، ولذلك خُصَّ بها العلماءُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، والإشفاقَ عنايةٌ مختلطةٌ بخوفٍ وحذَرٍ؛ لأنَّ المُشْفِقَ يحبُّ المشفَقَ عليه ويخافُ ما يلحقُه، فإذا عُدّيَ بـ(مِنْ) فمعنى الخوفِ فيه أظهرُ، وإذا عدّيَ بـ(في) فمعنى العنايةِ والحنوِّ والعطفِ فيه أظهرُ، فإذا قيل أشفقَ منه فقد تضمّن اللفظُ معنى الخوفِ والعنايةِ ولكنَّ الخوفَ فيه أظهرُ، وإذا قيل أشفقَ عليه كان معنى العنايةِ فيه أظهرَ[3].

الخشيةُ خوفٌ مَشوبٌ بتعظيمٍ ومهابةٍ، والإشفاقُ عنايةٌ مختلطةٌ بخوفٍ وحذَرٍ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 16/ 8.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 33.

(3) الراغب، المفردات: (شفق)، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 50، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 502.

﴿۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [الأنبياء: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعذيبُ المتبوعِ يقتضي تعذيبَ التّابعِ

لمّا نفى اللّه تعالى الشَّريك مطلقاً، ثمَّ مقيداً بالولديّة أتبعه التَّهديدَ على ادّعائه بتعذيبِ المتبوعِ المقتضي تعذيبَ التّابعِ، فقال: ﴿۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دُونِهِۦ﴾: يدور معنى الكلمة على كَوْنِ الشّيء منخفضًا في أسفلِ شيء، وينبئُ اللّفظ عن دنوٍّ أي: قُربٍ كثيرٍ وانحطاطٍ قَليلٍ، ثمَّ اتَّسع فيه واسْتعْمل في انحطاط المحسوس كقولهم: ثوبٌ دونٌ أي رَديء، وفي تفاوت المراتب المعنويّة، كقولهم (زيد دون عمرو في الشّرف)، ثمَّ اتّسع في هَذا المُسْتَعار فاسْتعْمل في كلِّ تجاوزِ حدٍّ وتخطّي حُكم إلَى حكم، وإن لم يكن هُناكَ تفاوت وانحطاطٌ، وهوَفي هَذا المَعْنى مجازٌ في المرتبَة الثّالِثَة، فيكون قريبًا من معنى (غير) كَأنَّهُ أداةُ الاسْتِثْناء نَحْو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الزمر: 3][2]، و﴿دُونِهِۦ﴾ في الآية بمعنى غير.

2) ﴿نَجۡزِيهِ﴾: الجزية في الأصلِ خَراجُ الأرضِ، ويدور معنى الكلمة على قيام الشَّيْءِ مَقامَ غَيْرِه ومُكافَأته إيّاهُ سواء أكان في الخير أم في الشَّرِّ، وفي الدُّعاءِ جَزاهُ اللّه خَيْرًا أيْ قَضاه لَهُ وأثابَهُ عليه، ويُقالُ جَزَيْتُ فُلانًا وجازَيْتُهُ، وتَجازَيْتُ دَيْني على فُلانٍ أيْ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 409.
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (دون)، والكفوي، الكليات، ص: 451.

تَقاضَيْتُه، وجزيتُ حقَّه أي قضيتُه، ولم يجئ في القرآن إلّا جزى دون جازى، وذاك أنّ المجازاة هي المكافأة، وهي مقابلةُ نعمةٍ بنعمة هي كفؤُها، ونعمةُ اللّه لا كُفْءَ لَها، ولهذا لا يستعمل لفظُ المكافأة في حقِّ اللّه ﷻ[1]، ومعنى ﴿نَجۡزِيهِ﴾ نقضيه حقَّه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّه تعالى لا يحابي أحدًا حتَّى أكرمَ الخلقِ عندَه

أخبرَ اللّه تعالى في هذه الآية أنَّه لا يحابي أحدًا حتَّى أكرمَ الخلقِ عندَه، وأنَّ حالَ الملائكة كحالِ سائر المكلّفين في الوعدِ والوعيد، فأخبرَ أنَّه من يدَّعى من الملائكةِ أنَّه إلهٌ من دونِ اللّه - وإنْ كان ذلك لا يقع منه لعصمتِهم، لكنَّه على سبيل الفرضِ - فجزاؤُه جهنَّمُ على ما ادَّعى، ولا يغني عنه ما سبق من أوصافِه ومرضيِّ أفعالِه، وهكذا نجزي كلَّ مَنْ ظلمَ نفسَه، فكفرَ باللّه وعبدَ غيرَهُ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

فرضُ الشِّرك وبيانُ عقوبتِه للمقرّبين عند اللّه تعالى لبيانِ فظاعة الشّرك وتعظيمِ شأنِ التّوحيد

أفادتِ الواو عطف ﴿۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ على ما قبْلَها من الآياتِ التي وصفت كرامتَهم عليه سبحانه وقُربَ منزلتهم عنده، فبعدَ أن أثنى عليهم، وأضاف إليهم تلك الأفعالَ السَّنيَّةَ والأعمال المرضيَّة، فاجأ بالوعيد الشّديد، وأنذر بعذاب جهنّمَ من أشرك منهم، وهو على سبيل الفرضِ والتّمثيل، لإحاطة علْمه تعالى بأنَّه لا يكون كما قال: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: 88]، فقصدَ بذلك تفظيعَ أمرِ الشرك، وتعظيمَ شأن التوحيد[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جزى).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 17/ 22.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 113، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 423.

الغرضُ منَ التّعبير بأسلوب الشّرطِ:

إذا كان الوعيدُ للمقرّبين عند الله إن أشركوا فكيف يكونُ حالُ مَن يدّعي الألوهيّةَ ومَن يتّبعونهم

عبّر بأسلوبِ الشّرط في قوله ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾ المفيدِ معنى التّعليق؛ ليكون الكلامُ على سبيلِ الفرضِ والتّمثيل؛ لأنَّ أداةُ الشَّرْطِ تَدْخُلُ على المُمكِنِ والمُمتَنِعِ نَحْوَ قَوْلِه تعالى ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] وهَذا شَرْطٌ، والشَّرْطُ لا يَلْزَمُ وُقوعُه[1]، فجاء الكلامُ بأسلوبِ الشّرط المقتضي استبعادَ أن يكون مثلُ هذا القول من الملائكة، ليكونَ على طريق الاحتجاج والاستدلال للوصول إلى الإذعان والتّسليم، أي: فإذا كان هذا هو شأنَ المقرّبين إلى اللّه، فكيف يكون شأنُ غيرهم ممّن يدّعي الألوهيَّة وممّن يتّبعونهم؟!

بلاغةُ مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر:

العُدول عن (إنْ) إلى (مَنْ) من بلاغة نظم القرآن

لّما كان الكلام على الفرضِ والتّمثيل، لاستحالة وقوع ذلك القول المعيَّن من الملائكة الذين لا يسبقون اللّه تعالى بالقولِ مطلقًا، وهم بأمرِه يعملون كان الظّاهرُ أن يأتي الشّرط بصيغة (إنْ) التي تفيد استحالة الوقوع أصلًا، فعُدلَ إلى اسم الشّرط (مَنْ) في قولِه ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّ المقصودَ الحكمُ على الأفرادِ التي اشتمل عليها فعلُ القولِ وليس على فعلِ القولِ فقط، ولهذا قال ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾، فعاد اسمُ الإشارة إلى اسم الشّرط (مَنْ) المرادِ به الذّواتُ المتّصفةُ بالقولِ الشَّنيع، ولو جيء بـ(إنْ) فقيل (وإن أحدٌ منهم يقل إني إله من دونه) كما هو فصيحُ القول بتقديم الاسم على الفعل كان الحكم على فعلِ القولِ فقط؛ لأنَّ محطَّ النّظر مع (إنْ) هو فعل الشّرط، لتعّلق (إنْ) الشَّرطية بالفعل وليس بالذّات، ولَما صحَّ الجزاء بما ذُكر في الآية، مع أنَّ التّعبير بـ(وإن أحدٌ منهم يقل) فيه ضعفٌ في نظم الكلامِ، وفيه تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على الفعل، فيفيد التّخصيصَ، بمعنى أنَّ الجزاء المذكور خاصٌّ بمن يقول هذا القولَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 423.

من الملائكة، والمقامُ ينافيه، لأنَّ الكلامَ جاء على سبيل الفرضِ لأبلغيَّة التّهديد للمشركين الذين يقولون هذا القول القبيحَ، وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ العدولَ عن (إنْ) الشّرطيّةِ إلى (مَنْ) لِلدَّلالَةِ على العُمومِ مع الإيجازِ(1).

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَقُلۡ﴾:

استحالةُ وقوعِ ذلك القولِ المشين من عباد الله المكرمين

عبِّرَ بصيغة المضارع ﴿يَقُلۡ﴾ في قوله ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾ الذي جاء في سياق الشّرط؛ للإيذانِ باستحالةِ وقوعِ هذا القول من الملائكة المعصومين، وليشملَ الجزاءُ كلَّ من يقول هذا القولَ في المستقبل.

فائدةُ (مِنْ) في قوله ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

اسمُ الشّرط يفتقرُ للبيان

تحتملُ (مِنْ) في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ من قوله: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ﴾ أن تكون بيانيَّةً أي هي لبيان مدلولِ اسمِ الشّرط والفاعل في قولِه ﴿وَمَن يَقُلۡ﴾، وهو الظّاهرُ؛ لأنَّ السّياق فيهم، كما تحتملُ أن تكون للتّبعيضِ، والمعنى: من يقل من الخلائق، فيدخلُ الملائكة دخولًا أوّليًّا(2).

الغرضُ من تقديم شبه الجملة ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على مقول القول:

لمّا ذكر الملائكةَ مع كرامتِهم عند الله على سبيل الفرضِ عُلِمَ حكمُ غيرِهم بطريق الأولى

لمّا كان الضّمير في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ عائدًا على الملائكة، لِتقدُّم ذكرِهم واقتضاءِ السّياق له كانَ المعنى: ومن يقل من الملائكة، وفائدةُ تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على مقول القول في قوله ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ الإشعارُ بأنَّ الكلامَ نصٌّ فيهم، والتّنبيهُ على كونِهم بمعزل عمّا قالوه في حقِّهم، فيكونُ أبلغَ في الرّدِّ والتّهديد؛ لمجيئِه على سبيل الفرض والتّمثيلِ(3)، ولمّا ذكرَ الملائكة مع قُربِهم وشرافتِهم على سبيل الفرضِ عُلِمَ حكمُ غيرِهم بطريق الأولى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 52.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 508.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 64، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 189.

الغرضُ من تتابُعِ تأكيدِ مقولِ القولِ:

تأكيدُ مضمونِ الجملة يقتضي التّأكيدَ

أفادت (إنَّ) واسميّةُ الجملةِ في قوله ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملة وتقريرَها، بمعنى أنَّ ادّعاء الألوهيَّة لا يمكن أن يصدرَ من أحدٍ، فإذا صدرَ فلا يكون إلّا افتراءً وكذبًا، ولهذا لا يقال مثلُ هذا القول الشّنيعِ إلّا مؤكَّدًا؛ لأنَّ أيَّ مخاطَبٍ يُنكره، ليفيدَ أنَّ إنكارَه واضحٌ لا شُبهةَ فيه.

فائدةُ حرفِ الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾:

استغراقُ جميع الرّتبِ الدّونيةِ يقتضي التّعبيرَ بمن قبْلَ دون

يفيد حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ الابتداء، وفائدةُ مجيئِه النّصُّ على استغراق جميع الرّتب التي تحتَ رُتبةِ الإلهيَّة، وأنَّ كلَّ من هو من دونِ اللّه لا يستحقُّ أن يكونَ إلهًا.

نكتةُ التّقييد بالجارِّ والمجرور ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾:

مَـن يـدّعـي الألوهيَّةَ هو من الظّالمين لتعدّيه في ادّعـائِـه حقًّا ليس له

لمّا كان الجارّ المجرور ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ صفةً للفظ ﴿إِلَٰهٞ﴾ في قوله ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ وكانتِ الصّفةُ قيدًا للموصوف أفاد أنَّه لا يكون لهذا الكون إلّا إلهٌ واحدٌ، لأنَّه قال ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ بمعنى استحالَةِ وقوعِ الشّركة في الألوهيَّة وامتناعِ وقوعِها، ولمّا ثبتَ أنَّ اللّه تعالى هو الإلهُ دلَّ على أنَّ من يدّعي الألوهيَّةَ هو من الظّالمين لتعدّيه في ادّعائِه حقًّا ليس له.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿دُونِهِۦ﴾:

الإيـذانُ بخسّةِ كـلِّ مـخـلـوقٍ يدّعي الألوهيّةِ

أفاد التّعبيرُ بلفظ ﴿دُونِهِۦ﴾ في قوله ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ أنَّ المعنى: ومن يقل منهم إنّي إلهٌ من غيرِ اللّه، وعبَّرَ بالدّون إيذانًا بخسَّة كلِّ مخلوقٍ يدّعي الألوهيَّةَ، فأفاد التّعبيرُ بلفظ ﴿دُونِهِۦ﴾ معنيين، مع عذوبةِ اللَّفظِ وحسنِ النّظم.

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَذَٰلِكَ﴾:

لمّا كانت الفاءُ الواقعةُ بين جملتين تفيد التّرتّب والسّببيَّة وكان الشّرطُ في أصلِه سببًا لوقوعِ الجزاء، أفادتِ الفاء في قوله ﴿فَذَٰلِكَ

﴿نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ تحقيقَ أنَّ من يقول هذا القول الشّنيع يترتّبُ عليه أن يكون جزاؤه جهنَّمَ، ولمّا كان الشّرط على سبيل فرضِ هذا القولِ من الملائكة وكان مقطوعَ الانتفاء لأنَّهم ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ دلَّ على انتفاء وقوعِ الجزاء لهم، ليدلَّ على أنّ الشّرط إنَّما فُرِضَ تهديدًا للمشركين ولمن يقول مثلَ هذا القول الشّنيع[1].

أسلوبُ الشّرطِ في الآيـةِ إنَّما فُـرِضَ تهديدًا للمشركين ولمن يقول مثلَ هذا القول الشّنيع

نكتةُ التّعبير باسم الإشارة (ذَلِكَ):

عبِّرَ باسم الاشارة (ذَلِكَ) في قوله ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ لتمييز المشار إليه أكملَ تمييز وتعيينِه بذكرِه بوساطة الإشارة إليه حسًّا، وأُدخِلَ اسمُ الإشارَةِ في جوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّه لمّا كان اسمُ الإشارة عائدًا على اسم الشّرط ﴿وَمَن﴾ أفادَ تحقيقَ تعليقِ الجزاء على الشّرط لِلدَّلالَةِ على أنَّ مضمونَ الجزاء في قوله ﴿نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ مستحَّقٌّ لِمَنْ ثبتَ له مضمونُ الشّرطِ، وهو جديرٌ به، كما أنَّ في التّعبير بـ﴿فَذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى فاعلٍ فعلَ، ويلزمُ منها الإشارةُ إلى الفعل، فهي إشارة إلى أنَّ ذلك القول إجرامٌ وأنَّ صاحبَه يستحقُّ به جهنَّمَ[2]، وعبِّرَ باسم الإشارة للبعيد للإشعارِ ببعدِ من يقول إنّي إله من دون اللّه، أي إنَّه ذلك هو اللّعين الذي لا يصلح للتّقريب أصلاً ما دام على ذلك[3].

ادّعاءُ الألوهيَّة إجرامٌ، وصاحبُ القول يستحقُّ به جهنَّم

بلاغةُ مجيء المسنَد جملةً فعليةً:

أفاد مجيءُ المسند جملةً فعليَّةً في قوله ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ تقوّيَ الحكم، بمعنى تحقيقِ أن يكون جزاءُه جهنَّمَ دونَ تخصيص جهنَّمَ به، فجزاؤه محقّقٌ مؤكّدٌ.

مصيرُ الكفّار إلى النّار أمرٌ محقّقٌ مؤكّدٌ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 508.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 52، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4854.

(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 410.

دلالةُ التّعبير بالفعل المضارع ﴿نَجۡزِيهِ﴾:

عبّرَ بالفعل المضارع للإشعار بتجدّد الجزاء لكلٍّ من يقول هذا القولَ الشّنيعَ، وتجدّدُ العقوبة تفظيعٌ لها.

براعةُ الجمعِ بين فائدة الخبر ولازمِها:

جهـنّمُ مـأوَى المُبعدين

جُمِعَ في قولِه تعالى ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ بين فائدة الخبر ولازمِها، وكلاهما مقصودان، ففائدةُ الخبر في قوله ﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ هي الإخبار عمّن يدّعي الألوهيّةَ بأنَّ جزاءه جهنّمُ يتعذّبُ فيها، ولازمُ الفائدة هو: الإيذانُ بقوّةِ ملكوتِ اللّه تعالى وعزّةِ جبروته واستحالةِ كونِ الملائكة بحيث يُتوهّم في حقّهم ماتوهَّمه أولئك الكفرةُ، ومن لازم الفائدةِ كذلك الإعلامُ بأنَّ جهنّم مأوى المبعدين، وبيانُه أنَّه لمّا أخبرَ عن الملائكة بأنَّهم عبادٌ مكرمون ممّا يفيدُ أنَّهم مقرَّبون، ولهم منزلةٌ كريمةٌ عنده تعالى وكان جزاءُ من يدّعي الألوهية منهم - على سبيل الفرضِ - جهنَّمَ أفادَ أنَّ جهنَّم مأوى المبعدين المطرودين، وأيضًا لمّا أخبر عمّن يدّعي الألوهيّة بأنَّ له عذابَ جهنَّم أفهم بلازمِه تعذيبَ أتباعِه؛ لأنَّه من بابِ الأولى[1].

بلاغةُ التّشبيه:

ادّعـاءُ الألوهيّة شـركٌ وظـلـمٌ فـيـسـتـحـقُّ صاحبُه فظاعةَ العذاب

في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تشبيهٌ لطيفٌ، وبيانُه أنَّه لمّا كان اسمُ الإشارة يعود على المصدر المفهومِ منَ الفعل ﴿نَجۡزِيهِ﴾ كان التّقديرُ: (مِثلُ جزاء الظّالمين وهو جهنَّمُ نجزي المُثبِتينَ للّه شريكًا)؛ للإشعار بأنَّه جزاءٌ فظيعٌ، وفيه توكيد لمضمون ما قبلَه، لأنَّه تعالى أخبر أنَّه سيجزي جهنَّمَ من يقول ذلك القول، ثمَّ قرَّر المعنى وأكّده بأنَّ الجزاء المذكور هو جزاء الظّالمين، فأفاد

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 410.

انَّهم استحقّوا جهنَّم بعقوبتين أحدهما إحداهما إشراكُهم باللّه، والأخرى ظلمُهم بادّعاء حقِّ الألوهيَّة[1].

فائدةُ الاستئناف البيانيّ:

الـجـزاءُ شاملٌ لكلِّ ظالمٍ

جاء قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على طريقة الاستئناف البياني، وبيانُه أنّه لمّا كان الكلامُ مقتضيًا السّؤالَ عن غير هذا من الظَّلمة، كان كأنَّه قيل: فما حالُ الظّالمين الذين يشركون باللّٰه تعالى، فقيل ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] لتفيد جملةُ الاستئناف معنى العموم والكليَّة.

فائدةُ القصرِ بطريقة تقديمِ الجارِّ والمجرور:

جـزاء الـظّـالمين يزيد يومَ القيامة على حسبِ نوعِ الظّلم

لمّا تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على عاملِه في قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كان الكلامُ على القصر، والمعنى: مثلُ ذلك الجزاء نجزي الظّالمين لا مثلَ غيره؛ إشعارًا بفظاعته وشدّته، ولمّا كان الكلامُ مسوقًا في بيانِ فظاعة عذابِ من يدّعي الألوهيّةَ كان القصرُ المستفادُ من تقديم الجارِّ والمجرور معتبَرًا فيه النِّسبةُ إلى النُّقصان دونَ الزّيادة، أي: نجزي الظّالمين مثل ذلك الجزاء، لا جزاءَ أنقص منه، فقد يزيدُ عليه على حسبِ نوعِ الظّلمِ الذي يرتكبُه[3].

إيثارُ التّعبير باسم الفاعل المشتقِّ:

المرادُ منَ الظّالمين هنا المشركون

عبّر بلفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون غيرِه في قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّه لمّا كان الظّلمُ هو وضعَ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه على جهةِ التّعدّي، أفاد أنَّ من يدّعي الألوهيّةَ قد تعدّى بإشراكِه وادّعاءِ الرّبوبيَّة، فاستحقَّ أن يكون من الظّالمين؛ لأنَّه بهذا القولِ قد تجاوزَ طورَه، فوضعَ الألوهيَّةَ، والعبادةَ في غيرِ موضعِهما، فالمرادُ منَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 64، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 52.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 410.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 64.

الظّالمين هنا المشركون[1]، وقد أفاد التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل أنَّ المرادَ من الظّالمين من صار الظّلمُ وصفًا ثابتًا لهم، والمعنى: مثلُ هذا الجزاء الفظيع جدًّا نجزي الظّالمين كلَّهم ما داموا على ظلمِهم[2]، وقد عبَّرَ بصيغة اسم الفاعل الذي هو من المشتقّاتِ؛ للإشعار بعِلّيَّةِ المأخَذِ، وسبب الجزاءِ، بمعنى أنَّ ظلمهم هو سببُ جزائِهم بجهنَّم، ففيه بيانُ مناط الجزاء فيفيدُ العموم كلَّما تحقَّقَ المناط، أي: الظّلمُ سببُ الشّرك باللّه تعالى.

معنى اللّام ودلالتُها في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

تفيدُ اللّام في قوله ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الاستغراقَ، بمعنى: نجزي الظّالمين كلَّهم من غير استثناء[3].

بلاغةُ جملةِ التّذييل:

كلَّ ظالمٍ مُشركٍ بالله تعالى جزاؤه جهنَّمُ لا ينقصُ من جزائه شيءٌ

أفادت جملةُ التّذييل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: عمومَ المعنى، وكلّيّتُه مع إيجاز اللّفظ واختصارِه، بمعنى أنَّ كلَّ ظالمٍ مشركٍ باللّه تعالى له نفسُ الجزاء المذكور لا ينقصُ منه، والتّعبير بلفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع تذييل الكلام يفيد أنَّ ما أشير إليه هو من العادات التي لا تتخلَّف، وأنَّه محقَّقٌ، فهو بمثابة السُّنن الفعليَّة الثّابتةِ، ويؤيّده مجيءُ الفعل ﴿نَجۡزِي﴾ بصيغة المضارع الدّالِّ على التّجدّد والاستمرار، فيقتضي أنَّ جزاء الظّالمين المشركين المذكورَ هو من عاداتِ اللّه تعالى التي لا تتخلَّفُ معهم، ومثله قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: 101] وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ [يونس: 13] وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠﴾ [الصافات: 80]، ولهذا يأتي مثلُ هذا الأسلوب في جُمل

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 49، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 64، والقنوجي، فتح البيان: 8/ 320.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 410.

(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 410.

التّذييل، أو في موضعِ الاستئناف غالبًا، ولمّا جاءت جملةُ التّذييل على معنى العموم، وتضمّن الوعيدُ من يدّعي الألوهيَّةَ ممّن قال اللّه فيهم ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ﴾ أفادت الجملة التّعريضَ بكلٍّ من يقول ذلك، وبالنّصارى الذين يدّعون إلَهيَّةَ عيسَى عليه السلام لأنَّهم يَقولونَ عليه ما لَم يَقُلْهُ، ففيه إبطالٌ لقولِهم، والحكمُ عليهم بأنَّهم ظالمون في قولِهم المذكور، وفيه كذلك الوعيدُ بجهنّم لهم[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجزاء والعقاب:

الجــزاءُ يكون في الـخـيرِ وفي الشّرِّ، والعقاب مختصٌّ بالعذاب

الفرق بينهما هو أنَّ الجزاءَ ما فيه الكفايةُ من المقابلة، ففيه معنى قضاءِ الحقِّ كاملًا والاكتفاءِ به، ومِنْه قَولُ النّاس: اجتَزَأْتُ بكَذا وكَذا، وتَجَزَّأْتُ بِهِ، وأجْزَأْتُ بِهَذا المَعْنى، والمعنى: اكتفيت به، ويكون الجزاء في الخير والشّرِّ، أي: يكون ثوابًا، ويكونُ عِقابًا، وأمّا العقاب والعقوبةُ فهي جزاءُ الشّخص بما فعل سوءًا، فالعقوبة والعقاب والمعاقبةُ مختصَّةٌ بالعذاب، وإنَّما سُمّيَتْ عُقوبَةً؛ لِأنَّها تتلو الذّنبَ وتكونُ بعدَه[2]، ولمّا كان السّياق في بيان توفية حقٍّ من يقول من الكافرين إنّي إلهٌ من دون اللّه وقضاء حقِّ الظّالمين بسبب ظلمِهم عبِّرَ بـ﴿نَجۡزِيهِ﴾ و﴿نَجۡزِي﴾ دون نعاقبُ.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 508، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 52.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (جزى، عقب).

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ٣٠﴾

[الأنبياء: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـأكـيـدُ أمـرِ التّوحيد بذكرِ الدّلائل الأرضيّةِ والسّماويّة

لمّا نزّه الله تعالى ذاتَه عن الشّريك شَرَعَ الآنَ في الدَّلائِلِ الدّالَّةِ على وُجودِ الصّانِع، وهذه الدَّلائِلُ أيْضًا دالَّةٌ على كَوْنِه مُنَزَّهًا عَن الشَّريكِ، لِأنَّها دالَّةٌ على حُصولِ التَّرْتيبِ العَجيبِ في العالَمِ، ووُجودُ الإلَهَيْنِ يَقْتَضي وُقوعَ الفَسادِ، فهذه الدّلائل تدلُّ من هذه الجهة على التَّوْحيدِ، فتَكونُ كالتَّوْكيدِ لِما تَقَدَّمَ، وفيها أَيْضًا رَدٌّ على عَبَدَةِ الأَوْثانِ مِنْ حَيْثُ إنَّ الإلَهَ القادِرَ على مِثْلِ هَذِه المَخْلوقاتِ الشَّريفَةِ كَيْفَ يَجوزُ في العَقْلِ أنْ يُعْدَلَ عَنْ عِبادَتِه إلَى عِبادَةِ حَجَرٍ لا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ، فهذا وجهُ مناسبة الآية لما قبلها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَتْقًا﴾: يدور معنى الكلمة على الضّمّ والالتحام خلقةً كان، أو صنيعةً، ومنه المرأةُ الرّتقاء المنضمّة الشّفرين، والرَّتقُ هو الشَّيءُ المُصْمَتُ الذي يكونُ بعضُه مضمومًا إلى بعضٍ، والرَّتْقُ الظُّلمةُ، ولمّا كان الرّتقُ ضدَّ الفتقِ كان إصلاحُ الفتقِ وإلحامُه رتقًا، و﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ بمعنى كانتا شيئًا واحدًا وحقيقةً متّحدةً، ليس بينهما ثقبٌ، أي: كانتا مصمتًا مُلتَئِمًا[2].

2) ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾: (فتق) أَصلٌ يدلُّ على فتْحٍ في شَيْءٍ، أو هو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 136، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 411.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 285، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 430، وأبو عمر الزاهد، ياقوتة الصراط، ص: 359.

الفصلُ بين المتّصلين، وهو ضدّ الرّتق، ويقال للصُّبْحِ فتقٌ؛ لبدوِّ الفجر فيه من بين الظّلمةِ، وأَفْتَقَ القمر إذا صادف فتقًا فطلع منه، وأفتق قَرنُ الشّمس: إذا أصاب فتقًا من السَّحاب فبَدا مِنْهُ، ويقال: فتَق الخياطَةَ يفتِقُها إذا فتحها، وفصل بين الجزئين، ومنه قولهم: فُتِقَتْ السَّماءُ بالقَطْرِ، والأرضُ بالنَّبتِ، ولمّا كان الفتقُ ضدَّ الرّتقِ كان إصلاحُ الفتقِ بالرَّتقِ، وإصلاحُ الرَّتقِ بالفتقِ، ومعنى ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ ففصلناهما بعد أن كانا متّصلين[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خلقُ الله يدلُّ على وحدانيّتِه تعالى

شرع اللّه تعالى في هذه الآيات في ذكر الدّلائل الكونيّة على وجودِه تعالى وعلى وحدانيَّتِه وتفرّده بالألوهيَّة، فقال مقرِّرًا: ألم يعلمِ الذين كفروا أنَّ السّماوات كانت لاصقةً بالأرض لا فضاء بينهما، أي: ملتحمتين متّصلتَين، ففصلناهما، وأزلنا اتّحادَهما، وأحْيَيْنا بِالماءِ الَّذي يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ مِنَ الحَيَوانِ والنَّباتُ والشَّجَرُ، أفلا يصدّقون بذلك، مع أنَّ الدّلائلَ بين أيديهم، وقد أتاهم الخبرُ به عن اللّه تعالى، فيقرّوا بألوهيّة من فعل ذلك ويفردوه بالعبادة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام المجازيِّ:

توبيخُ الكافرين على عدمِ إيمانِهم مع ظهورِ الدّلائلِ على ألوهيَّةِ الله وتوحيدِه

يحتملُ الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أن يكون تقريريًّا، فيكونَ استفهامًا بمعنى الإثبات، أي: (قد رأى الذين كفروا)، وفائدةُ مجيء الاستفهام بمعنى الإثبات توبيخُهم على عدم إيمانِهم مع ظهور الدّلائل على ألوهيَّة اللّه وتوحيدِه[2]، أو يكونَ

(1) أبو حيان، تحفة الأريب، ص: 250.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 386.

استفهامًا تقريريًّا عن إعراضِهم عنِ استماعِ الآياتِ التي وصفتْ بدءَ الخلقِ فيذعنوا إلى الإيمانِ باللّه وتوحيدِه، كما يحتملُ أن يكون استفهامًا إنكاريًّا بمعنى أنَّه ينكرُ عليهم إهمالَهم النّظرَ سواء أكان بالمشاهداتِ البصريَّة التي تورث العلمَ بزيغ العقائدِ الباطلة التي كانوا ينتحلونها، وصدقِ ما جاء به رسولُ اللّه ﷺ أم كان بالنّظر العلميّ، الذي يدلُّ بلوازمِه على توحيد اللّه تعالى[1].

تنوّعُ القراءة القرآنيّة بإثبات الواو وحذفِها وثراءُ المعنى:

عطفُ الدّليل على الدليل يُقوّيه، والاستئنافُ إقامةٌ للحجّة على الكافرين

قَرَأ ابْنُ كثير ﴿أَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بِغَيْرِ واو، وقَرَأ الباقونَ بِالواو أي: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[2]، فمن قرأ بالواو كانت الجملة معطوفةً على ما قبلَها عَطْفَ الِاسْتِدْلالِ على الخَلْقِ الثّاني بِالخَلْقِ الأوَّلِ، وما فيه مِنَ العَجائِبِ[3]، أو تكونُ من عطف الاستدلال على وجود اللّه ووَحدانيَّته في قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [الأنبياء: 22] لتضمّن قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ التَوْبِيخَ لِمَنِ ادَّعى مَعَ اللّه آلِهَةً، ودَلالَةً على تَنْزِيهِه عَنِ الشَّريكِ، والجُمل التي بين الآيتين اعتراضيةٌ، وعلى قراءة إسقاطِ الواو تكون الجملةُ استئنافًا، وابتداءَ كلام للتّذكير، وإلزامِ الحجّة على الكافرين، والاسْتِفْهامُ على كِلْتا القِراءَتَيْن يحتمل أن يكون تقريريًا، أو إنْكاريًا، فلا يتأثّر معنى الاستفهام بإثباتِ الواو أو إسقاطِها.

دلالةُ الرّؤية في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ﴾:

إشارةُ القرآن إلى أنَّ العلمَ بأنَّ السّماواتِ والأرضَ كانتا رتقًا ممكنٌ بطريق العلمِ والنّظر

يحتملُ أن يكون لفظُ الرّؤية في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بمعنى العلم، فإذا كان الاستفهام على معنى التّقرير كان المعنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 53.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 323، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 467. قال الداني: "في مصاحف أهل مكة ﴿أَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بغير واو بين الهمزة واللام، وفي سائر المصاحف ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالواو"، يُنظر، الداني، المقنع، ص: 108.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 52.

إثباتَ علِمهم بأنَّ السّماواتِ والأرضَ كانتا رتقًا، ويحتملُ أن تكون الرّؤية بصريّةً، وعلى الوجهين يتوجّه سؤالٌ، فيقال: متى رأوهما - رؤيةَ قلبٍ بمعنى العلم أو رؤيةَ مشاهدة - رتقا حتى جاء تقريرُهم بذلك؟ والجوابُ هو أنَّه لم يقصد إثباتَ علمِهم وتقريرَه أو إثباتَ رؤيتِهم البصرية وتقريرَها، بل هو أسلوبٌ يقصَدُ به إثباتُ ما يخبَرُ عنه بأنَّه محقَّقٌ لاشكَّ فيه، وأنَّ التّمكّن من العلمِ به ممكنٌ بطريق النّظر والتّفكير، فإنَّ المخاطَبين وإن لم يعلموهما لكنَّهم متمكِّنون من علمِها إمّا بطريق النّظر والتفكير، فإنَّ الفتقَ عارضٌ مفتقرٌ إلى مؤثِّرٍ قديمٍ، وإمّا بالاستفسار من العلماء ومطالعةِ الكتب[1]، أو يقال - كما ذهب الزّمخشري وغيرُه - أنَّه لمّا كان الخبرُ واردًا في القرآن الذي هو معجزةٌ في نفسه، قام مقامَ المعلوم والمرئي المشاهد، ليفيد أنَّ إخبارَ القرآن بهذا الحدثِ الكونيِّ هو معجزةٌ في نفسِه كافٍ في الإيمانِ بالله تعالى[2].

نكتةُ التّعبير بصيغة المثنّى في قولِه ﴿كَانَتَا﴾ و﴿فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ﴾:

السّماوات فُتِقَتْ بمجموعِها عن نوعِ الأرضِ

لم يأتِ الكلامُ بصيغةِ الجمع، فيقال: (أنّ السّماواتِ والأرض كنّ رتقا) ولا (ففتقناهن) مع أنَّ السّماوات جمعٌ بألف وتاء، فجاء اللّفظان بصيغة المثنّى فقال ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾، وسببُه أنَّه لمّا ضَمَّ إلى السّماواتِ الأرضَ، جاء بصيغة المثَّنى لأنَّهما صنفان، فالسّماوات نوع واحدٌ باعتبار الجنسِ والأرض نوعٌ آخر[3]، ونكتةُ جعل السّماوات صنفًا برأسِه هي الإشارةُ إلى أنَّ السّماوات كلَّها شيءٌ واحدٌ وضَمَّ إليها الأرضَ، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطِر: 41]، وأفادَ

---

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 503، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 113، وزين الدين الرازي، أنموذج جليل، ص: 337.

(3) معمر بن المثنى، مجاز القرآن: 2/ 87، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 433، والزمخشري، الكشاف: 3/ 113.

الكلامُ أنَّ الفتقَ كان لفصلِ السّماوات جميعًا عن الأرض، وليس لفصل كلِّ سماء عن الأخرى.

تأكيدُ الأصلِ يكونُ بمعنى التّكوين

نكتةُ التّعبير بـ﴿كَانَتَا﴾:

عبّر بـ﴿كَانَتَا﴾ في قولِه ﴿كَانَتَا رَتۡقٗا﴾؛ للإشعار بأنَّ الرّتقَ متمكّنٌ من السّماوات والأرضِ أشدَّ تمكّنٍ، ليستدلَّ به على عظيم القدرة في فتقِهما(1).

برهانٌ علميٌّ لنظرية التّكوين المعروفةِ بالانفجارِ الكونيّ العظيمِ

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿رَتۡقٗا﴾:

الرَّتقُ هو الملتصِقُ بعضُه ببعضٍ المبهمُ الذي لا صدعَ فيه ولا فتح(2)، وعبّر بالمصدرِ المفرد ﴿رَتۡقٗا﴾؛ للإشعارِ بأنَّ السّماوات والأرضَ كانتا شيئًا واحدًا مصمتًا، ولم يقل (مرتوقتين) كما هو المناسبُ مع ذكر السّموات والأرض، لدفع توهّم أنّهما كانا شيئين متباينَين ولم يكونا شيئًا واحدًا، فجاء بصيغة المصدر ﴿رَتۡقٗا﴾ للدّلالة على المعنى المطلوب، أي: إنَّ السَّماءَ على ما هيَ عليْهِ، والأَرْضَ على ما هيَ عليْه كانَتا رَتْقًا.

وليس التّعبيرُ بالمصدر من أجلِ المبالغة في حصول الالتئام، بل هو تعبيرٌ يدلُّ على الإشارة الكونيّة لِما كانت عليه السّماوات والأرضُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ السّماوتِ والارضَ كانتا موجودتين قبل الفتق، فإنَّه لا يَجوزُ كَوْنُهُما رتقًا إلّا وهُما مَوْجودتانِ، والرَّتْقُ ضِدُّ الفَتْقِ فإذا كانَ الفَتْقُ هوَ الفصلَ والمفارقةَ، فالرَّتْقُ يَجِبُ أنْ يَكونَ هوَ الالتئامَ والاتّصالَ، ويكونُ المراد من الرّؤية على هذا المعنى رؤيةَ القلب التي بمعنى العلم، وفي هذا التفسير بيانٌ لمعجزة من معجزات القرآن إذ أخبر عن آيةٍ كونيَّةٍ لم يكن يعلمُها القوم ولا معاصروهم وقتَ نزول القرآن.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 53.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 79.

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ السّماء قبل المطر رتقٌ والأرضَ قبل النّبات رتقٌ، فإذا مطرت السّماء فقد فتقت وإذا أنبتت الارض فقد فتقت، ويكونُ المرادُ من ﴿أَوَلَمۡ يَرَ﴾ الرّؤيةَ البصريّةَ، ويكونُ الاحتجاجُ بالمحسوس، وهذا التّوجيهُ يناسبُ قولَه بعد ذلك ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ أي: من الماء الذي أوجده الفتقُ فيظهرُ معنى الآية ويتوجّه الاعتبارُ[1]، وعلَى جميعِ التَّقاديرِ فالمقصودُ مِنْ ذلكَ أيضًا الاستدلالُ علَى أنَّ الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ وأنشأهما بعدَ العدم قادرٌ علَى أنْ يخلقَ الخلقَ بعدَ انعدامِهِ، قالَ تَعالَى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ [الإسراء: 99][2].

دلالةُ التّعبير بصيغة المصدرِ ﴿رَتۡقٗا﴾:

إشعارُ التَّعبير بأنَّ السَّماواتِ والأرضَ كانتا في ظُلمةٍ وقتَ الرّتق

لمّا جاء المصدرُ ﴿رَتۡقٗا﴾ على معنى الوصف كان بمعنى اسمِ المفعول، والتّقدير: (كانتا شيئًا رتقًا، أي: مرتوقًا)[3]، ونكتةُ التّعبير بالمصدر دون اسمِ المفعول المبالغةُ في الوصف، بمعنى تقرير التصاق بعضِهما ببعضٍ من غيرِ فرجةٍ بينهما والإيذانِ بأنّهما كانا شيئًا واحدًا مصمتًا، ففيه إشعارٌ بالظّلمة التي كانت في داخلِ الرّتق، ويحتملُ أن يكون الكلامُ على حذف مضافٍ، أي: كانتا ذواتَيْ رتق[4].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾:

اللـه عـلى كـلّ شيء قادرٌ

الفاء في قوله: ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ عاطفةٌ للتّرتيب والتّعقيب، وجاء التَّعقيبُ بالفاء؛ لأنَّه لم يكن بين الرَّتقِ والفتقِ أمرٌ كونيٌّ آخرُ، وكلُّ شيءٍ من فعلِ اللّه تعالى يكون بقوله تعالى؛ "كن" فيكون ولا فاصل من الزمان بين قول اللّه "كن" وما يكون[5]، فاللّه على كلّ شيء قادرٌ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 432، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 390، والزمخشري، الكشاف: 3/ 113.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 55.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 113.

(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 390.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4856.

بديعُ طباقِ الإيجاب:

تباينُ السَّماواتِ والأرضِ حصلَ بالفتقِ، ولا يناسبُ مقابلةَ الرَّتقِ إلّا الفتقُ

ورد طباقُ الإيجاب بين لفظي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ولفظيْ ﴿رَتۡقٗا﴾ و﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾، فقد طابق الرّتق بالفتق، وبيانُه أنَّ الفتق هو الفصلُ بين الشّيئين اللّذين كانا ملتئمَين أحدُهما متّصلٌ بالآخر، فإذا فُرّق بينهما فقد فُتِقا[1]، ويفيد الفتقُ حصولَ الفصل من غيرِ أيّ ضررٍ يحصل في المفتوقَين ومنه فتق الخياطةِ، ولهذا لم يقل (فشققناهما)؛ لأنَّ الانشقاق هو التّصدّعُ والفطور والفروج، وفيه معنى فسادِ المشقوقين، مع أنَّ الكلامَ على بديع الخلقِ بالفتقِ وبدءِ الحياةِ وأثرِ الفتقِ في انتفاعِ النّاس من آثارِه، وقد عبَّرَ بالانشقاق في بيانِ ما يترتّب على القولِ بنسبة الولد للّه تعالى من انهيار التّركيب البديع ودمارِ المشقوقِ، كما في قولِه تعالى ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: 88 - 90]، وقال تعالى في بيان بدءِ انقراضِ العالَم الدُّنْيَويِّ بجَميعِ نِظامِه ومَجْموعِ أجْسامِه والإيذانِ باختلالِه ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق: 1] وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: 25]، فاستعمل الفتق لبدءِ الحياةِ، واستعمل الشقَّ للإيذانِ بنهايتِها، ولم يقل: ففصلناهما؛ لأنَّ الفصل يومئُ إلى وجودِ مفصلٍ بينهما وهو لا يناسبُ الرّتق، فكان التّعبير بالفتق هو المناسبَ للمقابلة بالرّتقِ لا غيره، فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها مقامٌ، فتنتظم الإشاراتُ الكونيَّة في القرآن مع اختيار اللّفظة المناسبةِ، وأفادَ التّعبيرُ بالفتق كذلك عدمَ فسادِ المفتوقَين بعدَ الفتقِ ومنه فتقُ الخياطِ للثّوب، وكذلك أفاد ذكرُ الفتقِ أنَّ ظهور السَّماوات والأرضِ وبدوَّهما بعدَ ظلمةٍ كانتا فيها، فجاء أسلوبُ الطّباق على أحسن ما يكون وأتمّه، وعبّر بالفعلِ

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 56.

الماضي الدّالِّ على حدَثانِ الفتقِ إيماءً إلى حدوثِ الموجوداتِ كلِّها وأنَّه ليس منها أزليٌّ[1].

وقد عبّرَ بالرّتق عنِ التئام السّماوات والأرضِ؛ للإشعار بأنَّ الرّتق لا يكون إلّا بين متقابلَين، ولمّا كان الفتق ضدَّ الرّتق عبّر بلفظ ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ للإشعار بأنَّه لا يفصلُ بين شيئَين كانا رتقًا من غيرِ ضررٍ، أو أذىً يحصل في المرتوقين إلّا بالفتق، فانتظمت الإشارةُ العلميّةُ في الآية بدقّة اختيار اللّفظ المعبّر عنِ المعنى العلميّ في النّظم القرآنيّ، كما أفاد التّعبيرُ أنَّ تباينَ السَّماوات والأرض حصلَ بالفتقِ، كما أفاد التّعبير بالطّباق بين ﴿رَتۡقٗا﴾ و﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ أنَّ المادّة صارت شيئَين اثنين لاثالثَ لهما؛ لأنَّه عبَّرَ بصيغة المثنى مع اعتبار لواحقِهما المعبَّرِ عنِ الجميع بالخليقةِ.

معنى الواو ودلالتُها، في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

التّرقّي والتّنويعُ هو السّبيلُ للبيانِ عن إبداعِ خلقِ الله

الواو لعطف جملةِ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ على ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ من عطف الجملةِ الاسميّةِ على الاسميّةِ بتقدير (أنّا)[2]، ويكون الاستفهامُ المجازيّ المرادُ به التّقريرُ واردًا على جملة ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ كذلك، وعلى ما بعدها، والتقدير: (أو لم ير الذين كفروا أنّا جعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ)، وتفيد الواو التّرقّي والتّنويعَ في الإخبار عن إبداعِ خلق اللّه تعالى مع تقرير علمِ الذين كفروا بما يشاهدونه من بدائع هذا الخلقِ العظيم.

وعطفُ الدّليل المحسوسِ المشاهدِ على الغيب تحقيقٌ له

ويلمحُ في الواو في ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ التّرتيبَ والتّرتّبَ، أي: إنَّ جعلَ اللّه تعالى كلَّ شيءٍ حيٍّ من الماء وبدوَّ الأمرِ وظهورَه كان بعدَ فتق السّماوات والأرضِ، فكأنَّ فتق السّماوات والأرض كان سببًا لوصف الماء بهذه الصّفة، وفيه إشعارٌ بأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 54.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 511.

الحياةَ بدأت بعدَ فتقِ السّماوات والأرضِ، ولمّا كان هذا بأمر اللّه ﷻ وقدرتِه، وكانت هذه الواقعةُ لم يشهدها إنس ولا جانٌّ وكان في استطاعة المشركين أن يكذِّبوها أتبعَ هذه الحقيقةَ بحقيقةٍ يؤمن بها كلُّ ذي عقل، وهي توقُّفُ شؤون الحياة والأحياء على الماء، فذكر الدّليلَ الأوَّلَ الذي يُشعِرُ أنَّ في إمكانِ الكافرين أن يعلموه، ثمَّ أردفَه بالدَّليلِ الثّاني المشاهَد المحسوسِ، فكان ذكرُ الحقيقة المشاهدة دليلًا على التّسليم بالحقيقة الأولى التي لم يرها أحدٌ يوم حدثت.

إيثارُ التّعبير بلفظِ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

لفظُ الجعلِ يدلُّ على الإبداع في الخلقِ

أوثر التّعبيرُ بلفظ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ على خلقنا؛ لأنَّه لّما كان الجعلُ في الغالب هو حالة بعدَ الخلقِ، أي: هو إيجاد شيءٍ من شيءٍ عبَّرَ بعد فتق السّماوات والأرضِ بالجعل دون غيرِه، كما أنَّه لم يقل: (خلقنا) قصدًا إلى معنى الإبداعِ الذي يدلُّ على ألوهيَّة اللّه تعالى ووحدانيَّته، وللتّنبيه على عجيب خلقِه تعالى وأنّه لا يقدرُ على مثلِه إلّا اللّه الواحدُ الأحدُ.

دلالةُ التّعبير بالمسنَد إليه (نا) الدّالِّ على التّعظيم:

جعلُ الماء مادَّة الحياة أو ما يكونُ به قوامُها دليلٌ على وجودِ اللّه تعالى ووحدانيَّتِه

أفاد مجيءُ المسند إليه بصيغة نون العظمة (نا) مع الفعلين ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾، ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ أنَّ فتقَ السّماوات عن الأرضِ الذي لم يحصل به أيُّ ضررٍ في المفتوقَين لا يقدرُ عليه إلّا اللّه تعالى وأنَّه من فعلِ الملك الواحدِ الأحد، ومثلُه التّعبيرُ بنون العظمة في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، فإنَّ جعلَ الماء مادَّةَ الحياة أو ما يكون به قوامُها وسببُها هو من فعل الإله الملك الواحد الأحدِ.

توجيهُ الفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ بين أن يتعدّى لمفعولٍ أو لاثنين:

تـعـدّدُ الاعتبار ثـراءٌ للمعنى، وإيـجـازٌ في التّعبير

في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ يحتمل الفعلُ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ أن يكون بمعنى خلقنا، فيتعدّى لمفعول واحدٍ، والتّقدير: (وخلقنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ)، ويكون ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ حالًا من ﴿حَيٍّۚ﴾ وهوفي الأصل

صفةٌ له، فلمّا تقدَّم عليه صارَ حالًا، ليفيد أنَّ جعلَ كلِّ شيءٍ حيٍّ حالَ كونِه من الماء هو أمرٌ لازمٌ غيرُ منفكٍّ عنه، ويحتمل أن يكون الفعل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمعنى صيّرنا فيتعدّى إلى مفعولين، والتّقدير: (صَيَّرْنا كُلَّ شَيْءٍ حَيّ بِسَبَبٍ مِنَ الماءِ لا بُدَّ لَهُ مِنْهُ)، فيكونُ الجارّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ مفعولًا ثانيا قُدّم على المفعول الأول للاهتمام به[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

الماءُ ابتداءُ الحياة وسببُها لكلِّ حيٍّ

تحتملُ ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أن تكون سببيّةً، والمعنى: (وجعلنا بسبب الماء كلَّ شيءٍ حيّ)، ويجوز أن يكون الفعلُ على هذا التّوجيه بمعنى (خلقنا) أو (صيّرنا) كما تحتمل ﴿مِنَ﴾ أن تكون ابتدائيّةً[2] بمعنى: (وجعلنا كلَّ شيء حيٍّ مبتدأً خلقُه من الماء)، أي كلُّ شيءٍ حيٍّ خُلِقَ من الماء، ويكون الفعل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمعنى خلقنا[3].

الغرضُ من حذفِ المضاف إلى ﴿كُلَّ﴾:

من براعةِ بلاغةِ القرآن دلالةُ المتأخّر على حذفِ المتقدِّم

حُذِفَ المضافُ في الكلام في قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، والتّقدير: (وجعلنا من الماء حياةَ كلِّ شيءٍ حيٍّ)، ولو ذكر المضاف ضَعُفَ النَّظْمُ وانخرمت بلاغتُه؛ لِتَكَرُّرِ لَفْظِ الحَياةِ من غيرِ فائدةٍ، واخْتَلَفَ المقصودُ، لأنَّ المرادَ الحكمُ على الأشياء بالحياةِ بسبب الماء، أو أن يكون المرادُ ابتداءَ حياتِها بالماء كما تقدَّم، فحُذف المضافُ، وجاءت الصّفةُ ﴿حَيٍّ﴾ قرينةً على المحذوف[4]، فجاءتِ الصّفةُ مقيّدةً للعمومِ ليصحَّ المعنى ويدلَّ على المضاف المحذوف.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 113، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 138، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 917، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65.
(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 917.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 59، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 316، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 56.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 485.

نكتةُ التّعبير بـ: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾:

ذوات الأرواح والشّجرُ والنّباتُ لها حياةٌ أو موتٌ وتوصفُ بهما

لّما كان لفظُ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ عامًّا دلَّ على أنَّ المراد بالحيِّ ما يكونُ من ذوات الأرواح ومن غيرها مثل الزّروع والنّبات والأشجار التي تحيا بالماء، فإنَّ النّباتَ والشّجر من الماء صار ناميًا، وصارَ فيه الرُّطوبَةُ والخُضرَةُ والنّورُ والثَّمَرُ، ليفيد أنَّ ذوات الأرواح، والشّجر، والنّبات لها حياةٌ، أو موتٌ، وتوصفُ بهما[1].

دلالةُ العمومِ في لفظِ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾:

الـدَّلـيـلُ إنْ كـانَ مُـشـاهَـدًا كـانَ أقْـرَبَ إلَى التّسليم والإذعـانِ وحـصـولِ المقصود

لفظُ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ في قوله ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ وإنْ كانَ عامًّا، إلّا أنَّ القَرينَةَ المُخَصِّصَةَ قائِمَةٌ، فإنَّ اللّه تعالى قالَ: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحِجر: 27]، وجاءَ في الأخْبارِ أنَّ اللّه تَعالَى خَلَقَ المَلائِكَةَ مِنَ النّورِ، فيكونُ اللّفظ من العامِّ المخصوص بالمشاهدةِ وبالقرينة الخارجيَّة، ويكونُ التّعبيرُ بلفظ العموم فيما هو مشاهدٌ، فإنَّ الدَّليلَ إنْ كانَ مُشاهَدًا مَحْسوسًا كانَ أقْرَبَ إلَى التّسليم والإذعانِ وحصولِ المقصود[2].

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيّ في قوله ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تـنـوّعُ المقاصدِ المـتـولِّـدةِ مـنَ الاسـتـفـهـام الإنكاريّ

الاستفهامُ في قوله ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إنكاريٌّ، بمعنى (إنكار ماهم عليه من عدم الإيمانِ بما دعاهم إليه رسول اللّه ﷺ من وحدانيَّة اللّه تعالى)، ويتولَّدُ من الإنكارِ توبيخُهم وتقريعُهم وتبكيتُهم والتعجّبُ من ضعفِ عقولِهم ومن حالِهم في عدم إيمانِهم مع قيام الأدلة وظهورِها على وجوب الإيمانِ باللّه تعالى وتوحيدِه[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 434، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 138.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 138، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 425.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 390، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 425، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4856.

معنى الفاء ودلالتُها:

الفاء في قولِه ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لترتيب التّوبيخ بعدم الإيمان على ما قبلها، وهي مؤخَّرةٌ عن تقديم، والمعنى: (فألا تؤمنون)، وأخّرت الفاء لوجوب الصّدارة في الكلامِ للاستفهام، ليفيد العطفُ بالفاء أنَّ ما تقدَّم ذكرُه من تصرِّفه تعالى في هذين الكونَين من دلائل الإيمانِ يتسبَّبُ عنه إنكارُ عدمِ إيمانهم، كما أنَّ في الاستفهام المجازيّ حثًّا على الإيمان، وتحصيله والتّرغيب فيه.

الحثُّ على الإيمان وتحصيله والتّرغيب فيه

الغرضُ من حذف متعلّقِ الفعل ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

أفاد حذفُ متعلَّق الفعل ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ في قوله ﴿أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ عمومَ الإنكارِ على المخاطَبين من الكفّار والمشركين، أي: أفلا يؤمنون بأنَّ الله تعالى هو المتفرّدُ بالألوهيَّة، وبأنَّ شيئاً من السّماوات والأرضِ وما بينهما، وما فيهما لا يصلحُ للإلهية، لا على وجه الشّركة، ولا على وجه الانفراد، وبأنَّ كلَّ ما سواه من مخلوقاته مقهورةٌ تحت ملكوته وقدرتِه، وبأنَّ الذي جعل من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ قادرٌ على البعث للحساب للثّواب أوِ العقاب[1].

الإيمانُ إذا أُطلق انصرف إلى الإيمان الصّحيح، وهو الإيمانُ بالله، وبوَحدانيَّتِه

دلالةُ مجيء الفعل بصيغة المضارع:

عبِّرَ بصيغة المضارع في قوله ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإشعارِ بتجدّد دلائلِ الإيمانِ وظهورِها التي تقتضي تجدّدَ الإيمانِ واستمرارَه.

تجدّدُ الدّلائل تنشيطٌ للإيمان في القلوب

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفتق والفصل:

الفرقُ بينهما هو أنَّ الفتقَ يكون بين شيئَين ملتئَمَين أحدهما متّصلٌ بالآخر، فإذا فرّق بينهما فقد فُتقا وتباينا، وإن كان الشَّيءُ واحدًا ففرِّقَ بعضُه من بعض قيل قُطِعَ وفُصِلَ وشقَّ ولم يُقل فُتِقَ،

الفتقُ لشيئين ملتئَمَين، والفصلُ يكون للشّيء الواحدِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 414، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65.

كما أنَّ الفصلَ يدلُّ على أنَّ هناكَ موضعًا للفصل، ومنه مفصلُ الجسدِ، فلا يناسبُ الفصلُ لمعنى الرّتقِ الذي يُطلق على الشّيئين الملتئمَين أي إذا لم يكن بينهما فرجةٌ ولا مفصلٌ، كما أنَّه لو قال في الآية (ففصلناهما) لأفادَ انَّهما كانا موصولَين، وهذا ينافي معنى الرّتقِ[1].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فتق، فصل).

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣١﴾ [الأنبياء: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تنوّعُ الأدلّةِ على وجودِ الصّانعِ، وعلى وحدانيّته

لمّا شرع اللّه تعالى في ذكر الدّلائل على وجود الصّانع وعلى كونه منزّهًا عن الشّريك فذكر في الآية السابقة الدّليلَ الأوّل ذكرَ في هذه الآية دليلًا آخرَ من آثارِ فتق السّماوات والأرضِ، وبدأ بذكر الأرض؛ لأنّه لمّا كان من القدرة الباهرة ثباتُ الأرض من غير حركة، وكان الماءُ أدلَّ دليل على ثباتها، وكانت الأرضُ أقربَ في الذِّكرِ من السماء أتبعَ ذلك بذكر دليلِ الأرض فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ الآيةَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: المعنى المحوريّ للكلمة يدور على ثبات الشّيء بلزوم أسفله، أو باطنه ما يمسكه بتمكّن، كرسوِّ العمود في الأرض، يقال: رَسا الشَّيءُ يَرْسو، إذا ثَبَتَ واستقرَّ، والرّاسي: هوَ الدّاخِلُ في الأرْضِ بثباتٍ وتمكّنٍ، ومنه رَسا الجَبَلُ: ثَبَتَ أصلُه في داخلِ الأرض، ورَسَت السفينة: بلغ أسفلُها القَعْرَ، ولا يستعمل الرّسوُّ في الأصل إلّا في الأجرام الكبار، ومن المجاز قولُهم: رَسَتْ أقْدامُهُم في الحَرْبِ بمعنى ثبتت[2]، و﴿رَوَٰسِيَ﴾ جمع راسية وهي صفةٌ لِلجبالِ الثّابتة[3].

2) ﴿تَمِيدَ﴾: (ميد) أصلان صحيحان: يَدُلُّ أحدهما على

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 426، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 413 - 414، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 57.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رسو).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 434.

حركة واسعة تردّديةٍ، ويطلق الميدُ على اضطرابِ الشّيء العظيم كاضطراب الأرض، ومادَ يَميدُ ميدًا إذا تحرَّكَ يمينًا وشمالًا، ومادَتِ الأغْصانُ تَميدُ: تَمايَلَتْ، ولمّا كان الميدُ فيه معنى الدّوران أطلق على مائدة الطّعام لأنّها يُلتَفُّ حولَها، ومعنى ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: (لئلّا تتحرك وتضطرب بهم)[1].

3) ﴿فِجَاجًا﴾: الفَجُّ: شُقَّةٌ يكتنفُها جبلان، ويستعمل في الطّريق الواسع بين جبلين، أو في جبلٍ واحدٍ، وجمعه فِجاجٌ، والأصل فيه قولُهم: فجَّ رجليه وأفجَّها، وفجَّ ما بينهما إذا فتَحَهما، وباعدَ ما بينهما، فقيل للطريق بين جبلين: فج؛ لأنَّه كأنّه فرَّجَ بين الجبلين، و﴿فِجَاجًا﴾ في الآية جمع فجٍّ بمعنى الطريق الواسع بين الجبلين.

4) ﴿سُبُلًا﴾: يدور المعنى المحوريّ للجذر (سبل) على امتداد إلى أسفلَ مع اتّصالٍ كالثّياب الممتدّة إلى الأرض، وذنب الفرس يصلُ إلى الأرض، أو يكاد إذا أرسله، والأصلُ من السَبَل، وهي الثّياب المُسْبَلَة المرسلةُ إلى الارضِ، والسَّبيلُ: الطّريق الذي فيه سهولةٌ وامتداد بحيث يوصل إلى مكانٍ آخر، وجمعه سُبُلٌ، و﴿سُبُلًا﴾ في الآية بمعنى (طرقًا يسهلُ السّير فيها وتوصل إلى المقاصد والغايات لامتدادِها).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

في خلقِ الأرضِ عبرةٌ مشاهَدةٌ للمتأمّلين على وجود الله وعظيمِ خلقِه

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن آثار فتق الأرضِ في حدِّ ذاتِها، وهو فتقُ التّكوين، فقال تعالى: (وجعلنا في هذه الأرض جبالا ثوابتَ، لئلّا تميدَ، وتضطربَ بهم، فيثبتوا على ظهرها، ويتمكّنوا من الاستقرارِ عليها، وجعلنا في الأرض طرقا ميسّرة سهلةً بين جبالها يسلكها النّاس من بلدٍ إلى بلدٍ، ومن إقليم إلى آخر ليتمكّنوا من السّيرِ فيها، والتّنقّل في البلدانِ، ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ميد).

ومهامِّ أمورهم المعيشيّةِ، وليهتدوا بعظيم هذا الخلقِ، وهذا التّدبير إلى وجودِ الصّانعِ ووَحدانيَّته، والمقصودُ إتمامُ المنَّة وإظهارُها في أنَّه تعالى سخَّر سطحَ الأرضِ للنّاسِ ليسلكوا منها طرقًا واسعة)[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل بالواو في الآية:

الجمعُ بين الدّلائل الكونيَّةِ على وجودِ الإله الواحدِ الأحدِ

جاءتِ الآية ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ بطريق الوصل بالواو معطوفةً على قوله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ والتّقدير: (أولم ير الذين كفروا أنّا جعلنا في الأرضِ رواسيَ)، والجهةُ الجامعة بينهما كونُهما من الدّلائل الظّاهرة على وجود اللّه تعالى ووَحدانيّته، فتندرجُ هذه الآية كذلك ضمنَ الاستفهامِ المجازيّ المرادِ به التّقريرُ لظهور العلمِ به، أوِ الإنكارُ عليهم لعدم الاعتبارِ بالآياتِ الظّاهرة.

الغرضُ من تقديم الجار والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على المفعول به ﴿رَوَٰسِيَ﴾:

الأرضُ هي المقصودةُ بالفعل

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على المفعول ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ للاهتمام بمكان الجعل المذكورِ، وللتّنبيه إلى أنه لا أحدَ يقدرُ على أن يجعل في الأرض الجبالَ الثّابتةَ الرّاسية سوى اللّه تعالى الذي له كمالُ القدرة والحكمة.

الغرضُ من حذف الموصوفِ وذكرِ الصفة:

رسوُّ الجبال، وثباتُها آيةٌ عُظمى على وجود الله، ووَحدانيّتِه

حُذف الموصوفُ وذُكرتِ الصّفة في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ وبيانُه أنَّه لمّا كان التّقدير: (وجعلنا في الأرضِ جبالًا رواسيَ) كان الكلامُ على حذف الموصوف (جبالًا) وإقامة الصفة ﴿رَوَٰسِيَ﴾ مقامَه[2]، والنّكتةُ فيه الإشعارُ بعظم هذه الصّفة وأنَّ الآية الكبرى في رسوِّ هذه الجبال، وفيه تكثيرٌ للمعنى؛ لأنَّ المعنى: (جعلنا

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 50، والمراغي، تفسير المراغي: 17/ 26، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 57.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4856.

الجبال وجعلناها راسيَةً)، ولو ذُكرَ الموصوف لكانت الآيةُ واحدةً، وهو جعلُ الجبال راسيَةً، والمقام مقامُ تعدادٍ للآياتِ الدّالَّة على وجودِ اللّه تعالى ووحدانيَّته.

سرُّ التّقييد بقولِه ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾:

المَيدُ سببٌ لتثبيتِ الأرضِ والتّثبيتُ سببٌ لجعْلِ الجبالِ فيها

لمّا كان جعلُ الرّواسي في الأرض من أجل أن لا تضطربَ الأرضُ بالنّاس على الدّوام، ولا تدورَ بهم، كان قوله ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ على معنى التّعليل، فإمّا أن يكون التّقدير: (لئلّا تميدَ بهم)، بحذف حرف التّعليل، ولا النّافية، وإمّا أن يكون التّقدير: (كراهة أن تميد بهم على الدّوام) بحذف مضافٍ[1]، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ الأولى من هذين الوجهَين أن يكون الكلامُ على معنى بيانِ علَّة خلقِ الجبال وبيانِ طبيعة الأرضِ، والتّقدير: (وجعلنا في الأرض رواسى لأجل أن نثبتها إذا مادَتْ بهم)، وإنّما قدّم الميدَ اهتمامًا بشأنِه، ولأنَّه هو سببُ تثبيت الأرضِ، والتّثبيتُ سببٌ في جعلِ الجبال فيها، فجعل الميدَ هو السّببَ وصار الكلام: (وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد فنثبتها)، ثمّ حذف قوله (فنثبتها) لأمن الإلباس؛ لأنّه فُهم من السّياق إيجازًا واختصارًا، فالمرادُ أنّ اللّه تعالى يثبت الأرضَ بالجبال إذا مادت، وهذا لا يأبى وقوعَ الميد والميلانِ، لكنه مَيدٌ يستعقبُه التّثبيتُ، وكذلك الواقعُ من الزّلازل إنّما هو كاللّمحة، ثمّ يثبتها اللّه تعالى[2].

نكتةُ مجيء التّعليل مؤخَّرًا عن الفعل:

خلقُ الجبال لتثبيتِ الأرضِ ولحِكمٍ لا تُحصى ومنافعَ لا تُستقصى

لمّا جاء قولُه ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ على معنى العلَّةِ لجعل الرَّواسي في الأرضِ في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾، فهو على معنى المفعول لأجلِه، ولمّا جاء في موضعِه من الكلام ولم يتقدّم على

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 62.
(2) ابن المنير، الانتصاف، حاشية على الكشاف: 3/ 114.

الفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، أفاد أنَّ هذه العلّة لا تفيدُ التّخصيصَ، فليس خلقُ الجبال لهذه الحكمة فقط، بل لحِكم لا تُحصى، ومنافعَ لا تُستقصى[1]، ولكنَّه ذكرَ الحكمةَ الأظهرَ والأهمَّ والأوضحَ التي ينتفع منها كلُّ من على الأرض، مبالغةً في إظهارِ المنّة، وبيانُ هذه الحكمة من جعل الجبال في الأرضِ معجزةٌ من معجزات القرآن، فما كان أحدٌ من المخاطَبين وقتَ نزول القرآن، ولا الأمم المعاصرون لهم يعلمون شيئًا من هذه الآيات الكونيّةِ التي أيَّد صحّتَها تقدّمُ العلوم[2].

بلاغةُ الكناية:

تثبيتُ الأرضِ بالجبال لأجلِ استقرارِ النّاس عليها وتمكّنِهم فيها

في قوله تعالى ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ كنايةٌ، وبيانُه أنَّه لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّه جعلَ الجبالَ الرّواسيَ في الأرضِ كي لا تميد بالنّاس ولا تضطربَ بهم على الدّوامِ أفاد الكلام بلازمِه أنَّ المرادَ من جعل الرّواسي في الأرض هو استقرارُ النّاس عليها وتمكُّنُهم فيها[3]، ففيه إظهارٌ للمنَّة بالدّليل، وفي أنَّ الكونَ خُلِقَ لأجلِ الإنسانِ.

مرجعُ الضّمير في ﴿بِهِمۡ﴾ ودلالتُه:

الذين كفروا أحوجُ من غيرِهم إلى التّنبيه إلى دلائلِ وجودِ الله ووحدانيّتِه

الضّميرُ في ﴿بِهِمۡ﴾ في قوله ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ وإن كان عائدًا على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لكنّه لم يُقصد به خصوصُ الكافرين؛ لأنَّ اللّه تعالى جعل الجبالَ في الأرض لئلّا تميد، وتضطربَ بجميع النّاس، وليس الأمرُ مخصوصًا بالكافرين، ونكتةُ عوْدِ الضّمير على الذين كفروا مع أنَّه يُقصد به العمومُ الإيذانُ بأنَّهم أحوجُ من غيرِهم إلى التّنبيه إلى دلائل وجودِ اللّه، ووحدانيَّته.

نكتةُ تكريرِ الفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

في تكرير الفعل (وجَعَلْنا) إيذانٌ باختلافِ الآيات، وإطنابٌ لتوفية مقامِ الامتنان حقَّه

كُرِّرَ الفعل ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ في قوله ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 37.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 17/ 27.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 387.

بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تعدادٍ للأدلَّة على وجود اللّه تعالى ووحدانيَّتِه وللإيذانِ باختلافِ المجعولين، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما آيةٌ من آياتِ اللّه تعالى لايقدرُ عليه إلّا اللّه الواحد الأحدُ، كما أنَّ في التّكرير إطنابًا لتوفية مقامِ الامتنان حقَّه[1].

دلالةُ عوْدِ الضّمير في ﴿فِيهَا﴾:

ظهورُ منَّةِ اللهِ على الإنسانِ في أن جعلَ الطّرقَ الواسعةَ في الجبالِ والسّهولِ

يحتمل الضّميرُ المجرور في قوله ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ أن يعود إلى الرّواسي ويؤيّدُه أنَّ الفجاج هي الطّرق الواسعة بين الجبال، والمعنى: (جعلنا في الرَّواسي فجاجًا سبلًا)، كما يحتمل أن يعود إلى الأرض، والمعنى: (جعلنا في الأرض فجاجًا سبلًا يهتدون بها في حياتِهم ومعيشتِهم)، وهذا المعنى أعمُّ، وهو أظهرُ بدلالة السّياق؛ لأنَّه إذا كانت الفجاجُ في الأرض دخل السّهلُ والجبل فيه، فإنَّ ذلك كلَّه من الأرض، وقد جعل اللّه لخلقه في ذلك كلِّه فجاجًا سبلًا، ولا دلالةَ تدلُّ على أنّه عنى بذلك فجاجَ بعض الأرض التي جعلها لهم سبلًا دون بعض، فالعمومُ بها أولى[2].

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

تهيئةُ المكانِ عنايةٌ بالإنسان

قُدّم الجارّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المفعول ﴿فِجَاجًا﴾ للاهتمام بالمكان الذي جعل اللّه فيه فجاجاً سبلًا، وللتّنبيه إلى أنّه لا أحدَ يقدرُ على أن يجعل في الأرض أو في الجبال هذه الفجاجَ السّالكةَ سوى اللّه تعالى الذي له كمالُ القدرة والحكمة.

سرُّ تقييدِ الفجاج بـ ﴿سُبُلًا﴾:

ذكرُ النّعمةِ بالإجمالِ ثمّ التّفصيلِ كشفٌ لقدرِها

يحتملُ أن يكون لفظ ﴿فِجَاجًا﴾ في قوله ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ في الأصل صفةً للسُّبل، وأصلُ الكلام: وجعلنا فيها سبلًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 435، والواحدي، التفسير البسيط: 15/ 61، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 80.

فجاجًا، فلمّا تقدّمت ﴿فِجَاجًا﴾ على موصوفِها جعلت حالًا، لبيان أنَّ الرّواسيَ خُلقت على هذه الحال من السّعة، أي: ليدلَّ على أنّه في حال جعْلِها سبلًا كانت واسعةً ولو أتى به صفةً لم يدلَّ على ذلك، ويحتمل أن يكونَ ﴿سُبُلًا﴾ في قوله: ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ بدلًا من ﴿فِجَاجًا﴾، فيدلّ ضمنًا على أنّه خلقَها ووسّعها للسّابلة، فإنَّ الفجَّ قد لا يكون طريقًا نافذًا مسلوكًا، فلمّا ذكر الفجاجَ بيّن أنّه جعلها سبلاً نافذةً مسلوكةً للمسافرين والسّابلة، مع ما يكونُ في البدلِ من توكيد المعنى وتقريرِه وتوضيحِه لإفادته ذكرَ الشّيءِ مرَّةً بعد أخرى بطريق الإجمال ثمَّ التّفصيل، ويحتملُ كذلك أن يكون ﴿سُبُلًا﴾ عطفَ بيانٍ وتفسيرًا للفجاج، والمعنى على الإيضاحِ والبيانِ للمعطوف عليه(1).

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ:

تقديمُ اللّفظ وتأخيرُه في آيات القرآن راجعٌ إلى سياق الآيةِ ومقامِها

جاء في آية سورة الأنبياء تقديمُ الفجاج على السّبل فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ وجاء في سورة نوح تقديمُ السّبل على الفجاج فقال: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠﴾ [نوح: 20]، فإنَّ في الفجاج معنى الوصف، فما لها قُدِّمتْ على السُّبلِ في آية سورة الأنبياء ولم تؤخَّرْ كما في آية سورة نوح؟ وجوابُه من جهة المعنى أنَّ آية سورةِ نوحٍ أفادت الإعلام بأنَّه تعالى جعل فيها طرقا واسعة، لتقديم السُّبل على الفجاج، وهو المناسبُ للمقام، لأنَّها واردةٌ على سبيل الامتنان كما أنَّ اقتران اللّفظ بـ(سَلَكْنا) يقتضي تقديمَ السّبل لأنَّها هي التي تُسلك، وأمّا آية سورة الأنبياء فإنَّها لبيان أنّه تعالى حين خلقها جعلها على تلك الصّفة من السّعة، وهي واردة للاستدلالِ والاعتبار والحثِّ على إمعان النظر وذلك يقتضي الإجمال ثمَّ التّفصيلَ(2).

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 62، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65، وابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 514.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 114.

نكتةُ التّعبير بلفظِ (لَعَلَّ):

التَّعبيرُ بـ(لَعَلَّ) من أسلوب العظماءِ في إنشاء الرّجاءِ في المستقبل

لّما كان لفظُ (لَعَلّ) لإنشاء الرّجاء المفيدِ توقّعَ الحصول من غير قطعٍ في الأمرِ أفاد التّعبيرُ بـ(لعلَّ) في قوله ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أنَّ الاستدلالَ بالسّبل الفجاج قد ينقطعُ، وأنَّه قد يقع في الاهتداء بها الخطأُ[1]، والتّعبيرُ بـ(لَعَلَّ) من أسلوب العظماء في إنشاء الرّجاء في المستقبل، ويحتملُ أن تكون (لَعَلَّ) للتّعليل، بمعنى لكي يهتدوا[2].

مرجعُ الضّمير في قولِه ﴿لَّعَلَّهُمۡ﴾:

مـنَّـةُ الـلـه في جعلِه الأشياءَ في الأرضِ على ما يلائمُ الإنسانَ ويُصلحُ أحوالَه

يعود الضّميرُ المنصوبُ في قوله: ﴿لَّعَلَّهُمۡ﴾ على ما يعود إليه الضّميرُ في قوله ﴿بِهِمۡ﴾، فيُقصد به جميعُ النّاس، ولا يختصُّ بالكافرين، ونكتةُ عود الضّمير على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مع أنَّه يُقصد به العمومُ ذكرُ منَّةٍ أخرى عليهم في جعلِ اللّه تعالى الأشياءَ في الأرضِ على نحو ما يلائم الإنسانَ، ويُصلحُ أحوالَه.

الغرضُ من حذف متعلَّقِ الفعل ﴿يَهۡتَدُونَ﴾:

الاهتداءُ على معنى العموم فيفيدُ الاهتداءَ إلى المصالحِ وإلى الإيمانِ

لّما جاء الاهتداءُ في سياق ذكر الجبال والفجاج والسّبل، كانَ تقديرُ الكلام: (لعلّهم يهتدون في مسالكهم وتصرفهم في البلاد، ويهتدون إلى مصالحِهم)، كما أنَّه لّما جاء في سياق ذكرِ الدّلائل على وجود اللّه تعالى ووحدانيّته كان تقديرُ الكلام: (لعلهم يهتدون إلى وحدانيَّة اللّه بظهور الأدلَّة ووضوحها، فيعلموا أنَّ وجود الرّواسي والسّبل الفجاج لو كان بالطبيعة كانت على نمط واحد مساويةً للأرض متساويةً في الوصف، وأنَّ كونَها على غير ذلك دالٌّ على أنَّ صانعها قادرٌ مختارٌ متفرّدٌ بأوصاف الكمال، ليفيدَ أنَّه تعالى أراد من جميع المكلّفين الاهتداءَ، والأولى الجمعُ بين المعنيين بأن يكون المرادُ الاهتداءَ إلى البلاد، وإلى المصالح، والاهتداءَ إلى وجودِ اللّه تعالى

---

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 388.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 139، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 515.

ووحدانيَّتِه، والمعنيان يشتركان في أصل مفهوم الاهتداءِ، ويقوّي دلالةَ العموم حذفُ متعلَّق الفعل، وحينئذٍ تكون الآيةُ متناولةً للأمرين جامعةً للمعنيين، ففي حذف متعلَّق ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ إيجازٌ بديعٌ[1].

بلاغةُ التَّعريض:

توبيخُ الغافلين لعدم اهتدائِهم مع أنَّ ظهورَ دلائلِ التَّوحيد أمامَ الأعين

على القول بأنَّ المرادَ من قوله ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ الاهتداءُ في السّبل وإلى البلاد والمصالح كان في التَّعبير بلفظ الاهتداء دون غيرِه تعريضٌ بالكافرين الذين لم يهتدوا إلى الإيمانِ وتوبيخُهم، مع أنَّ دلائلَ التّوحيد قائمةٌ ظاهرةٌ أمامَ أعينهم.

فائدةُ مجيءِ المسنَد جملةً فعليّةً في قوله (لَعَلَّهُم يَهْتَدون):

في قولِه ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ جاء المسنَدُ ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ جملةً فعليّةً ليفيدَ تقوّيَ الحُكم وتحقيقَه، بمعنى أنَّ من ينظرُ في هذه الدّلائل ويسترشدُ بها لا يكونُ منه إلّا الاهتداء إلى المصالح الدّنيويّةِ والأخرويّةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الميل والميد:

الميلُ يكونُ في جانبٍ واحدٍ، والميدُ هو الاضطرابُ بحركات متواليةٍ يمنةً ويسرةً

الفرقُ بينهما هو أنَّ الميلَ يكونُ في جانب واحد، والميدُ هو الاضطراب بحركات متواليةٍ في جهتين مختلفتَين، أي: منَ الجانبين، أي: بالميل مرّةً، يمنةً، ومرّةً يسرة[2]، فيحصُل لمَنْ تميد به الأرض دورانٌ، وفُقدانُ توازُنٍ، وعدمُ استقرارٍ، كما أنَّ الميدَ فيه خطورةٌ، وهو مكروه، ويتحذَّر منه، وأمّا الميلُ فلا يشترط فيه عدمُ الاستقرار، ولا الخطورةُ، وقد يكون مرغوبًا، فكان لفظُ الرّواسي هو الأنسبَ بالميد، فلكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها مقامٌ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 139، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 414، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 57.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 215.

السّبل والطّرق:

السَّبيلُ هو الطّريقُ المعتادُ الّذي فيه سهولةٌ وامتدادٌ، وأمّا الطّريقُ فهو أعمُّ

من حيث المأخذُ اللّغويُّ فإنَّ الطَّريق هوَ كلُّ ما يطرقه طارقٌ بالأرجلِ، مُعْتادا كانَ أو غير مُعْتاد، وأمّا السّبيل من الطّرق فهو ما كانَ مُعْتادَ السّلوك، وكان فيه سهولة وامتدادٌ، وسمّي الطّريق سبيلًا لامتدادِه، والطّريقُ لا يقتضي السّهولة، كما أنَّ السّبيل اسمٌ يقعُ على ما يقعُ عليه الطّريق وعلى ما لا يقع عليه الطّريقُ، فتقولُ سبيلُ اللّه وطريقُ اللّه، وتقول سبيلُك أن تفعل كذا ولا تقول طريقُك أن تفعل به، فيضاف إلَى القاصد ويُراد بِه القَصْد، كما أنّ السّبيل أغلبُ وقوعًا واستعمالًا في الخير وفيما يكون فيه منفعةٌ، ولا يكاد اسمُ الطّريق يراد به الخيرُ إلّا مقترنا بوصف، أو إضافة تخلّصه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][1]، فكان ذكرُ السّبل مع الفجاج في معرضِ المنّة وتسهيلِ العيش في الأرض أنسبَ من ذكر الطّريق.

(1) العسكري، ص: 298، والكفوي، الكليات، ص: 513.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ٣٢﴾

[الأنبياء: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بحكمِ الطّباقِ ناسبَ ذكرُ خلقِ السّماء بعد خلقِ الأرضِ للتّدبّر فيها

لمّا دلَّهم بالسّموات والأرض على عظمته، ثمَّ فصَّلَ بعض ما في الأرض لملابستهم له، وخَصَّ الجبالَ لكثرتها في بلادهم، أتبعه ذكرَ السّماء فجاءت هذه الآية[1]، ولمّا ذُكِرَ الاعْتِبارُ بِخَلْقِ الأرْضِ وما فيها ناسَبَ بِحُكْمِ الطِّباقِ ذِكْرَ خَلْقِ السَّماءِ عَقِبَهُ إلّا أنَّ حالَةَ خَلْقِ الأرْضِ فيها مَنافِعُ لِلنّاسِ، فعَقَّبَ ذِكْرَها بِالِامتِنانِ بِقَوْلِه تَعالَى ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ وبِقَوْلِه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، وأمّا حالُ خَلْقِ السَّماءِ فلا تَظْهَرُ فيه مَنْفَعَةٌ، فلَم يُذْكَرْ بَعْدَهُ امتِنانٌ، ولَكِنَّهُ ذَكَرَ إعْراضَهُم عَنِ التَّدَبُّرِ في آياتِ خَلْقِ السَّماءِ الدّالَّةِ على الحِكْمَةِ البالِغَةِ فعَقَّبَ بِقَوْلِه تعالى: ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَقۡفٗا﴾: (سقف) أَصْلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في إطلالٍ وانحناءٍ، ومِنْ ذَلِكَ سَقْفُ البيتِ، لِأَنَّهُ عالٍ مُطِلٌّ، وهو غِطاءُ فضاءِ البَيْتِ المَوْضوعُ على جُدْرانِهِ، ونعامة سقفاءُ: طويلة العنق، لامتداده معقوفًا، وكلُّ ما ارتفع فأظلَّك هو سقفٌ، ومنه السّقيفةُ التي تكونُ كالظلَّةِ أمامَ البيتِ، والسَّماءُ سَقْفٌ على التّشبيه بسقف البيت لإحاطتِها بالأرضِ وعلوّها وإطلالِها عليها[3].

2) ﴿ءَايَٰتِهَا﴾: آيةُ الرّجل: شخصُه، ويقال خرج القوم بآيتهم،

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 415.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 58.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سقف)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 58.

أي: بجماعهم لم يَدَعوا شيئًا، فالآية فيها معنى الجسامةِ والعظمة، والآيةُ جملةٌ من كلمات القرآن، أو جماعةٌ من حروفِه، وسمّيت بذلك لجسامة المعنى الذي تحمله ولأنَّها من اللّه تعالى، ولهذا أطلقت الآيةُ على العلامة العظيمة التي تكون ظاهرةً لايمكن إنكارُها، وأطلقت على العلامات الظّاهرة الجسيمة التي تدلُّ على وجودِ اللّه تعالى ووحدانيَّتِه، والآياتُ هنا ما وضعه اللّه في السّماء من الكواكب والنّجوم وغيرها ممّا ينتفع منه النّاسُ وتتفاوت بها المعرفةُ بحسب تفاوت منازل النّاس في العلم[1].

3) ﴿مُعۡرِضُونَ﴾: العَرْضُ هو الَّذي يُخالِفُ الطّولَ، فخُصَّ العرضُ بالجانب، والأصل فيه أن يكون في الأجسام، وعرضَ المتاعَ يَعْرِضُهُ عَرْضًا، فكأنَّه قد أراه عَرضَهُ، ومِنْ ذَلِكَ عَرْضُ الجُنْدِ: أَنْ تُمِرَّهُم عَلَيْكَ، وذَلِكَ كَأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَى العارِضِ مِنْ حالِهِم، ويقال أَعْرَضَ لي كذا، أي: بَدا عَرْضُهُ فأمكن تناولُهُ، فإذا عُدّي الفعل بـ(عَنْ) أفاد معنى التّولّي والابتعاد عن المعروض من غير رغبةٍ فيه، فيقال: أعرضَ عن الشّيءِ بمعنى تولَّى عنه؛ لأنَّه إذا كان كذلك فقد ولّاه مبديًا عُرضَهُ، وكلُّ (أَعْرَضَ) ومشتقّاتُه ومصدرُه واسمُ الفاعل (معرِضٌ) هو بهذا المعنى[2] و﴿مُعۡرِضُونَ﴾ هنا بمعنى ذاهلين عن الآيات، فلا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون[3].

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

الحثُّ على الاستدلال بالآيات السّماوية على وحدانيَّة الله والتّذكير بهذه النّعم العظيمة

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية دليلًا آخر على وجودِه ووحدانيَّته ونعمةً عظيمةً أخرى تعمُّ أهلَ الأرضِ جميعًا، فقال: ﴿وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا محفوظًا مِنَ السُّقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ، ومع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرض).
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 503.

هذا فالكُفّارُ عن الاعتبارِ بآياتِ السَّماءِ غافِلونَ لاهونَ عن التَّفكُّرِ في تلك الآيات الدّالّة على وحدانيتنا، وعظيمِ قدرتنا، وإحاطة علمنا).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل بالواو في الآية:

دلائـلُ ظـاهـرةٌ عــلى وجــود الصّانع

جاءتِ الآية ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ بطريق الوصل بالواو معطوفةً على قوله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ والتّقدير: (أو لم ير الذين كفروا أنّا جعلنا السماء سقفاً محفوظاً)، والجهة الجامعةُ بينهما كونُهما من الدّلائل الظّاهرة على وجود الصّانعِ ووحدانيّته، فتندرج هذه الآيةُ كذلك ضمنَ الاستفهام المجازيّ المرادِ به إقرارُ علمِهم بهذه الآياتِ لظهورِها، ومشاهدتِها أوِ الإنكارُ عليهم لعدم الاعتبار بها.

نكتةُ إفراد ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

لمّا ذكـر سمـاءً واحــدةً وكـان هــذا شأنُـها، فـكـيف ببقية السّماوات!

أفرِدَتِ السّماءُ في قوله ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ مع أنَّ المذكور قبلها في قوله ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ جاء بصيغة الجمع، أي: لم يقل (وجعلنا السّماوات سقفا محفوظًا)؛ لأنَّ لفظ السّماء هنا على إرادة الجنسِ[1] ولأنَّ الظّاهر من السّماوات هو السَّماء الدنيا، فيكون ذكرُ الحفظ لها أبينَ في الدّلالة وآياتُها أظهرَ في الاعتبار لعموم النّاس، أو يقال: إنَّه لمّا ذكر سماءً واحدةً، وكان هذا شأنُها، فكيف ببقية السّماوات، ففيه مبالغةٌ في عظمِ الآياتِ وتكثيرٌ لها.

بلاغةُ التّشبيه:

السّماءُ إحاطةٌ وعنايةٌ بمن هي سقفٌ لهم، مع سَعتِها وعُلوِّها وعظمِ خلقِها

في قولِه ﴿ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا﴾ تشبيهٌ، حيث أُطلِقَ السَّقفُ على السَّماءِ على طَريقَةِ التَّشبيه البَليغ، فجاء المفعول مشبهًّا والحالُ مشبهًّا به، أي: جَعَلْناها كالسَّقفِ؛ لأنَّ السّماء ليست موضوعةً على عمدٍ من

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 415، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 503.

الأرضِ أو ما هو كالجدار الذي يوضع عليه السّقفُ، قالَ تعالَى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2] أي: لا شُبْهَةَ في كَوْنِها بِغَيْرِ عَمَدٍ[1]، والغرضُ من التّشبيه البليغ الإيذانُ بأنَّها تضمّنت مقاصدَ سقف البيت من الإحاطة والعناية بمن هي سقفٌ لهم، مع سَعتِها وعلوِّها وعظم خلقِها، وأنَّها بالمقارنةِ مع السقوف هي أفضلُ، فإنَّ ما يُعهدُ من السُّقوف هو أن لا يسقط منها إلّا ما يضرُّ، وهذه مشحونةٌ بالمنافع، فأكثرُ ما ينزل منها ما لا غنى للنّاس عنه من الآت الضّياء وعلامات الاهتداء والزّينة التي لا يقدَّرُ قدرُها[2]، ولمّا كان لفظُ السقف يقتضي الارتفاعَ أفاد أنَّ هذا السّقف مرفوعٌ رفعًا لا يطمع أحدٌ أن يناله بنقضٍ أو يبلغه بحيلة، كما قال تعالى ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ [الطور: 5]، فكان رفعُه سببًا في حفظه من أن يبلغَه أحدٌ[3].

الغرضُ من حذف متعلّق المشتقّ:

تــنــوّعُ معنى الحفظِ للسّماء

حُذف متعلَّقُ اسم المفعول ﴿مَّحْفُوظًا﴾ ليفيد العمومَ، فهذا السَّقفُ محفوظٌ بالإمساكِ بقدرتِه تعالى من أنْ يقعَ على الأرض، ومن أنْ يسقط عليهم كما يجري الوقوع، والسُّقوطُ على سائر السُّقوفِ، كقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: 65]، وهو محفوظٌ من أن يزولَ ومحفوظٌ منَ الهَدمِ والنَّقْضِ، ومن أنْ يبلُغَهُ أحَدٌ بِحيلةٍ، ومحفوظٌ بالملائكةِ من الشَّياطين، كما قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾ [الحجر: 17][4].

سرُّ التّقييد بالنّعت:

السّماءُ على طولِ الدّهرِ غيرُ مُتزايلَةٍ ولا مُتغيِّرةٍ في كونِها سقفًا محفوظًا

أفاد مجيءُ ﴿مَّحْفُوظًا﴾ نعتًا لقوله ﴿سَقْفًا﴾ تقييدَ الموصوف بمعنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 58.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 415.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 64.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 436، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 391، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 342.

أنَّ السّماء جُعلت بعدَ الفتقِ على هذه الصفة، ويقتضي هذا المعنى التّذكيرَ بعظم هذه الآية، فهي منذ أن فتقت عن الأرض صارت سقفًا محفوظا للأرضِ، ليفيد أنَّها على هذا الوصفِ طولَ الدَّهْرِ غيرَ مُتزايلَةٍ ولا مُتغيِّرةٍ.

بلاغةُ الكناية:

السَّماءُ مع العالَمِ كبيتٍ واسعٍ فيه ناسٌ

لَمّا ذكر اللّه تعالى أنَّه جعل السّماء ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أفادَ بلازمه على طريق الكناية أنَّه تعالى حافظٌ لِمَنْ تحت السَّقفِ بإمساكه بقدرته، وأنَّ النّاسَ في عنايةِ اللّه تعالى ورعايتِه من أن يسقط السَّقفُ عليهم.

بلاغةُ الإدماج:

إدماجُ الدّليل على وجود الله ووحدانيَّتِه بمنّته تعالى على العبادِ

في قوله ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ إدماجٌ، وبيانُه أنَّه لَمّا كان المقصودُ من الآية بيانَ الدّليل على وجودِ اللّه تعالى ووحدانيّته أُدْمِجَ في خلال ذلك منَّةٌ، وهي حفظُ السّماء من أن تقعَ على بعضِ الأجرامِ الكائنةِ فيها، أو بعض أجزائِها على الأرضِ، فيهلكَ النّاسُ، وتفسدَ الأرضُ، وتتعطّلَ منافعُها، فذكر في الآية العبرةَ، وهي الغرضُ المقصودُ مدمجةً بذكر المنَّة العظيمة التي لا ينفكُّ منها أحدٌ منَ النّاس[1].

معنى الواو ودلالتُها في قوله ﴿وَهُمۡ﴾:

أيُّ جهلٍ أعظمُ من جهلِ مَنْ أعرضَ عن آياتِ السّماء، ولم يتدبّرْها ويعتبرْ بها

تحتملُ الواو في قوله ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ أن تكون استئنافيَّةً، والجملةُ مستأنفةٌ للإشعار بأنَّ الكافرين ثابتون على الإعراض عن الآياتِ، كما تحتملُ أن تكون حاليَّةً[2]، والجملة حالٌ مقدّرةٌ، والتّقديرُ: (وجعلنا السّماء سقفًا محفوظًا والحالُ هم عن آياتِنا معرضون)؛ لتفيد الحالُ التّعجيبَ من جهلِ الكافرين حين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 58.

(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 490، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 58.

يرون آياتِ السّماء، فيعرضون عن التفكّر فيها والاعتبار بها، أي: معَ أنَّنا وضعنا الآيات الظّاهرة في السّماء الدّالّةَ على الصّانع الدّالّ على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة، وأيُّ جهلٍ أعظمُ من جهلِ من أعرضَ عنها ولم يذهبْ به وهْمُهُ إلى تدبُّرِها، والاعتبارِ بها، والاستدلالِ على عظمة شأن من أوجدها عن عدم، ودبّرها ونصبها هذه النّصبة، وأودعها ما أودعها ممّا لا يعرف كنهَه إلّا هو، عزَّتْ قدرتُه ولطف علمُه.

دلالةُ مرجعِ الضّمير في قوله ﴿وَهُمْ﴾ ودلالةُ جمعِه:

الإعــــراضُ عن آياتِ الله سببٌ للذَّمِّ

لمّا كان السّياقُ في توبيخ كفّار مكّةَ على كفرِهم وإشراكِهم باللّه تعالى دلَّ على أنَّ الضّمير (هُم) في قوله ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ يرجع إليهم، ولمّا كان تعليقُ ذمِّهم على الاسم المشتقِّ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ دلَّ على أنَّ سبب ذمِّهم هو إعراضُهم عن آياتِ السّماء التي وضعها فيها كالأدلَّة والعبرِ، فيدخل في الذَّمِّ والتّوبيخ كلُّ من يُعرِضُ عن آيات اللّه، ولم يتدبَّر فيها ويعتبرْ بها فيؤمنُ باللّه تعالى ويفردُه بالعبادة، وقد عبّرَ بضمير الجمع (هُم)؛ للإيذانِ بأنَّ المُعرضين عن الآياتِ الظّاهرةِ هم الذين كفروا بما اتَّصفوا به من إقرارِهم بما تقدَّم ذكرُه من الآيات العظيمة لظهورِها ولانتفاعِهم بها في حياتِهم، ففيه معنى التّعجيبِ منهم وممّا اتّصفوا به.

الغرضُ من تقديم شبه الجملةِ على متعلَّقِه:

غـرضُ التّقديم لفتُ الانتباه إلى تدبّر الآياتِ

أفاد تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ على متعلَّقه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ الاهتمامَ بالآيات التي وضعها اللّه في السّماوات، للإشعار بعظمِها ووضوحِها في الاستدلال على وحدانيَّة اللّه والتّنبيه على ظهور المِنَّة بها.

فائدة التقييد بالمتعلّق ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾:

لمّا كان المرادُ في قوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ذمَّهم على

الإعراض عن الاعتبار بآياتِها وليس عن نفسِ الآيات كان تقييد الإعراض بنفسِ الآياتِ لسببٍ، وهو الإشعارُ بعظم جهل الكافرين وكأنَّهم قد تولَّوا عنها حسًّا ولم يروها لمّا لم يعتبروا بها في كونِها آياتٍ بيّناتٍ على وجودِ اللّه تعالى ووحدانيَّته، ويفوت هذا لوقيل: وهم عن الاعتبار بآياتها معرضون.

مـن لـم يعتبرْ بـآيـاتِ السّماء فهو بمثابةِ من تولَّى عنها حسًّا ولم يشاهدْها

نكتةُ التّعبير بلفظ الآيات جمعا:

عبّر بصيغة الجمع في قوله ﴿ءَايَٰتِهَا﴾، وذلك لما تَشْتَمِلُ عليه السَّماءُ مِنَ الشَّمسِ والقَمَرِ والكَواكِبِ والنّجوم والأفلاك والشُّهُبِ وسَيْرِها وشُروقِها وغُروبِها وظُهورِها وغَيْبَتِها، وابْتِناءِ ذَلِكَ على حِسابٍ قَويمٍ وتَرْتيبٍ عَجيبٍ، وكُلُّها دَلائِلُ على الحِكْمَةِ البالِغَةِ، فلِذَلِكَ سَمّاها آياتٍ، وكَذَلِكَ ما يَبْدو لَنا مِنْ جِهَةِ السَّماءِ مِثْلَ السَّحابِ والبرق والرّعد والمطر النّازل منها وغيرها ممّا يرينا اللّه تعالى من آياتِها في الآفاق[1].

آيــاتُ الـسّـمـاء هي كلُّ ما يكونُ من جهةِ السّماء

الغرضُ منَ الإضافة:

الإضافة في قولِه ﴿ءَايَٰتِهَا﴾ للاختصاص، ليفيد أنَّ المرادَ الآياتُ المختصَّة بالسَّماء، فأضاف الآياتِ إلَى السَّماءِ؛ لأنَّها مجعولَةٌ فيها، للإشعار بظهورِها في السّماء، بحيث لا يمكن الإعراضُ عنها وعن تدبّرها والاعتبارِ بها، وفي الإضافة إشارةٌ إلى عظمة هذا العالم العلويِّ، وأنَّ السّماء كونٌ عظيم، احتوت آياتٍ عظيمةً، وأنَّ كلَّ ما لاح في هذا الكون، هو آية من آيات هذا الكون العظيم الذي فتقه اللّه تعالى بعد أن كان رتقًا، وقَدْ أضافَ اللّه الآياتِ إلَى نَفْسِه في مَواضِعَ من القرآن كما في قولِه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]، لِلإعلامِ بأنّه تعالى هو الفاعِلُ لَها[2].

إضـافـةُ الآيـاتِ إلَى السَّماءِ لأنَّها مجـعـولَـةٌ فيها وقدِ احتوتها

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 115، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 58 - 59.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 374، وعبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 870.

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿مُعۡرِضُونَ﴾:

لّما كان المُعرض عنِ الشّيء عالما به أفاد التّعبير بلفظ ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ أنَّهم متفطّنون لِما يردُ عليهم من السماء من المنافع الدّنيويّةِ كالاستضاءة بقمرِها والاهتداءِ بكواكبِها ونجومِها وآياتِ اللّيل والنّهار وحياةِ الأرض بأمطارِها وغيرِها من المنافع الجسيمةِ المتعلِّقة بآيات السّماء، غيرُ متفكّرين ولا مُعتبرين في كونِها آياتٍ بيّناتٍ على وجود الخالق ووحدانيَّته[1]، ليفيدَ الوصفُ توبيخَهم على إعراضِهم والتّعجيب منه.

الكافرون لا يهمّهم من آياتِ الله إلّا منافعُهم ويَغفلون عن كونِها دلائلَ التّوحيد

بلاغةُ الكناية:

في قولِه تعالى ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ كنايةٌ، وذلك أنَّه لمّا أثبت لهم وصفَ الإعراض عن الآياتِ أفادَ بلازمِه أنَّهم لا يتدبّرون فيها، لينتقل منه إلى لازمٍ آخر وهو الإعلامُ ببقائِهم على الكفر فماداموا ثابتين على الإعراض عن الآياتِ فهم لا يتدبَّرون فيها ولا يتفكّرون ولا يتّعظون، وماداموا كذلك فهم باقون على ما هم عليه من الكفرِ والضّلال[2].

إعراضُ الكافرين عن آياتِ الله يفيدُ بلازمِه بقاءَهم على الكفر والضّلالِ

بلاغةُ التّعريض:

في قوله ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ تعريضٌ على سبيل المدح للمؤمنين وحثّهم على التفكّر بآيات اللّه، وذلك أنَّه لّما أسندَ الإعراضَ عن الآياتِ للذين كفروا أفاد الكلامُ حثّ الذين آمنوا على الاعتبار بآياتِ السّماء التي جعلها اللّه تعالى فيها، ليكونوا في نظرٍ دائمٍ إلى آياتِ هذا الوجودِ، وفي تفكيرٍ متّصلٍ في أسراره وعجائبه، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانِهم، فهم كما وصفهم اللّه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 191].

الكافرون مُعرضون عن آياتِ الله والمؤمنون مُقبلون عليها يتدبّرون فيها ويتفكّرون

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 140.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعراض والغفلة:

الغـفـلـةُ تـركُ الــشّيء سـهـوًا لقلّة التّحفّظ، والإعــراضُ تـركُ الــشّيءِ عـمـدًا رغبةً عنه

الغفلةُ عبارة عن عدم التّفطّن للشّيء فيغيبُ عن بالِ الإنسان فلا يتذكّره، ممّا يقتضي تركَه والسّهوَ عنه بسبب قلَّة التّحفُّظ والتّيقُّظ، وقد يغفلُ الإنسان ثمَّ يعود عن غفلتِه، والإعراضُ هو التّولّي عن الشّيء عن عمدٍ مع عدم الرّغبة فيه، فالإعراض أشدُّ من الغفلة[1].

(1) الراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (غفل - عرض).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتابعُ آياتِ اللهِ الدّالَّةِ على وحدانيَّتِه وتعدادُها تذكيرًا بنعمِه تعالى على الإنسانِ

لمّا ذكر السّماءَ ذكرَ ما ينشأُ منها، وذكر أعظمَ آياتِها في سياق تعدادِ الدّلائل على وحدانيَّة اللّه ونعمِه على النّاسِ فجاءت هذه الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلَكٖ﴾: الفُلك هو السفينةُ، وأطلقَ على مجرى الكواكب ومدار النّجوم، وهو من مُصطَلَحاتِ القُرْآنِ ومِنْهُ أَخَذَهُ عُلَماءُ الإِسْلامِ وهوَ أَحْسَنُ ما يُعَبَّرُ عَنْهُ عَنِ الدَّوائِرِ المَفْروضَةِ الَّتي يُضْبَطُ بِها سَيْرُ كَوْكَبٍ مِنَ الكَواكِبِ وخاصَّةً سَيْرُ الشَّمسِ وسَيْرُ القَمَرِ، وتسميتُه بذلك لكونه كفلك البحرِ وهوَ المَوْجُ المُسْتَديرُ الذي يجيء ويذهبُ، ومنه سمّيت السّفينة فُلكًا، فأخذ الفَلَكُ من معنى الاستدارة والعلوِّ، والأَظْهَرُ أَنَّ القُرْآنَ نَقَلَهُ مِنه، بِتَنْزيلِ اسْمِ الجَمعِ مَنْزِلَةَ المُفْرَدِ، والأَصْلُ الأصيلُ في ذَلِكَ كُلِّه فَلْكَةُ المِغْزِلِ - بِفَتْحِ الفاءِ وسُكونِ اللّامِ - وهيَ خَشَبَةٌ مُسْتَديرَةٌ في أَعْلاها مِسْمارٌ مَثْنِيٌّ يَدْخُلُ فيه الغَزْلُ ويُدارُ لِيَنْفَتِلَ الغَزْلُ[2]، و﴿فَلَكٖ﴾ في الآية هو مجرى الكواكب والقطب الذي تدور به النّجوم[3].

2) ﴿يَسۡبَحُونَ﴾: السّبحُ المرُّ السّريع في الماء، وفي الهواء، يقال: سَبَحَ سَبْحاً وسِباحَةً، والأصلُ فيه هو الجري في الماء من غير انغماسٍ، والسّبح الجَريُ والدّوَران، واستعير السّبحُ لمرّ النّجوم في الفلك نحو:

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 416.
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فلك)، وابن الهائم، التبيان، ص: 232.
(3) ابن الهائم، التبيان، ص: 232.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40]، ولجري الفرس ولسرعة الذّهاب في العمل[1]، و﴿يَسۡبَحُونَ﴾ في الآية بمعنى يَجْرون[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تفصيلُ ذكر آياتِ السّماء

والله خلقَ لكم اللَّيل والنَّهار نعمةً منه عليكم، وحجَّةً على عظيم سلطانِهِ، فهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم وأمور دنياكم وآخرتكم، وخلق الشَّمسَ والقمر، كلٌّ واحدٍ من النّجوم والشّمس والقمر يجري في فلَكِه كما يجري من يسبح في الماء، فالشَّمسُ تجري في مدارها، والأرضُ تجري حولَ الشَّمسِ في سنةٍ وحولَ نفسِها في يوم وليلة، والقمرُ يجري حول الأرض كلَّ شهر، وهكذا سائرُ النّجوم والكواكب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل بالواو في الآية:

تتابعُ الآياتِ على بيانِ الدّلائل على وجودِ الله تعالى ووحدانيّتِه وبيان منّتِه تعالى على المخاطَبين

عُطِفَتِ الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ على قوله ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ بالواو؛ لاشتراكِهما في الجهة الجامعة، وهي بيانُ الدّلائل على وجودِ الله تعالى ووحدانيَّتِه وبيانُ منّتِه تعالى على المخاطَبين والنّاس أجمعين في خلقِه، وحسنِ تدبيرِه، وجاء الوصلُ بعطف الجملة الخبريّة على الجملة الخبريّة.

نكتةُ ذكرِ خلق اللّيل والنّهارِ بعد ذكر خلْقِ الأرضِ والسّماء:

ظاهرُ السّياقِ يدلُّ على سَبْقَ خلقِ المكانِ على الزّمانِ

في مجيء ذكرِ خلقِ الزّمان في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بعد ذكر خلقِ المكان في الآية السّابقة الذي يشمل الأرضَ والسّماء إيماءٌ إلى سبق خلقِ المكانِ على الزّمان، فإنَّ الواو في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وإن لم تُفِدْ وجوبَ التّرتيب لكنَّ

---

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبح).

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 365، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 438.

(3) المراغي، تفسير المراغي: 17/ 28.

ظاهرَ السّياق يومئُ إليه؛ لأنَّه ذكر أنَّ السّماواتِ والأرضَ كانتا رتقًا ففتقهما، ثم ذكرَ خلقَ الأرضِ والسّماء، ثمَّ بعد ذلك ذكر خلْقَ اللّيل والنّهار والفَلَكَ الذي يظهرُ به الزّمان، قال الزّركشيُّ "وهَذِه مَسألَةٌ مُهِمَّةٌ قَلَّ مَنْ تَعَرَّضَ لَها أعني سَبقَ المَكانِ على الزَّمانِ وقَد صَرَّحَ بِها الإمامُ أبو جَعْفَرٍ الطَّبَريُّ في أوَّلِ تاريخِه"[1].

بلاغةُ الالتفاتِ:

تنبيهُ المخاطَبين إلى عِظمِ الآياتِ التي اعتادوا على ظهورِها والنّظرِ إليها

جاء الكلام في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ على طريق الالتفات حيث التفت من ضمير المتكلم (نا) في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ إلى ضمير الغائب (هوَ)[2]، ومنَ الإخبار بالجملة الفعلية ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ إلى الاسميَّة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾ الموجبِ لتأكيدِ الاعتناءِ بفَحْوى الكلام، وفائدتُه استدرارُ أسماع المخاطَبين وتأكيدُ الاعتناء بفحوى الكلام والتّنبيهُ إلى عِظمِ الآياتِ التي اعتادوا على ظهورِها والنّظرِ إليها والتي هم متلبِّسون فيها في جميع أوقات حياتِهم ومعاشِهم.

سببُ إيثار التّعبير بالقصر بتعريف المسنَد والمسنَد إليه:

المعبودُ هو الذي يَخلقُ، ومَنْ لا يَخْلُقُ لا يُعبَدُ

لمّا جاء المسندُ والمسندُ إليه معرفتين في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أفاد الإسنادُ القصرَ، وسُلك في الآية القصرُ؛ لأنَّ المخاطَبين قدِ اعتادوا على هذه الظّاهرة الكونيَّة، وعلى رؤية الشمس والقمر كلَّ يوم، فلا يتفكّرون فيها ولايعتبرون في أنَّ اللّه تعالى هو الذي خلقها، وهو قصرُ إفرادٍ إضافيٍّ بتخصيص خلق اللّيل والنّهار والشَّمسِ والقمر باللّه تعالى وذلك بتنزيل المخاطَبين منَ المشركين منزلةَ من يعتقدُ أنَّ أصنامَهم مشاركةٌ للّه تعالى في خلق هذه الأشياء؛ للإيذانِ بأنَّ المعبود هو الذي يخلقُ، ولأنَّهم لمّا

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 242.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 65 - 66، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 438.

عبدوا الأصنامَ، والعبادةُ شكرٌ، لزمهم أنَّهم يشكرونها وقد جعلوا شركاءَ للّه فلزمهم أنَّهم يزعمون أنّها شريكةٌ للّه في خلقِ ما خلقَ، لينتقل من ذلك إلى إبطال إشراكِهم إيّاها في الإلهيَّة[1]، وأفادَ القصرُ إثباتَ الخلق للّه تعالى ووحدانيَّةَ الخالق.

الغرضُ من التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

ذكــرُ الـصّـلـةِ إحـضـارٌ للمِنّةِ العظيمة

عبّرَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ لإحضاره في ذهن المخاطَبين بوساطة صلةِ الموصول ﴿خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ التي يعلم المخاطَبون انتسابَها إلى اللّه تعالى، للاستدلال بما هو معلوم عند المخاطَبين على وحدانيَّة اللّه تعالى وإفرادِه بالعبادة، وفيه كذلك إيماءٌ إلى وجه القصر الإفرادي، فكأنّه قال: الذي خلق هذه الأشياءَ لاينبغي أن يُشرَكَ به، ويجبُ له التّفرّدُ بالألوهيَّة.

نكتةُ العُدول عن فعل الجعْلِ إلى فعل الخلقِ:

جــيء بفعـل الـجـعـل؛ لأنَّ القصد ذكرُ خلقِ هــذه الأشـيـاء لـذاتِـهـا لا ذكـرُ آثارِها

لمّا عُبِّرَ بفعل الجعل في قوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ وقوله ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ كان الظّاهرُ أن يعبَّر بفعل الجعل في هذه الآية أيضًا، لكنَّه عبّرَ بفعل الخلق فقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، ونكتةُ العدول هي أنَّه لمّا كانتِ المِنَّةُ والعِبْرَةُ في إيجادِ نَفْسِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ونَفْسِ الشَّمسِ والقَمَرِ، لا في إيجادِها على حالَةٍ خاصَّةٍ، أي لمّا كان القصدُ ذكرَ خلقِ هذه الأشياء لذاتِها لا ذكرَ آثارِها أو بعضِ آثارِها جيءَ هُنا بِفِعْلِ الخَلْقِ لا بِفِعْلِ الجَعْلِ[2]، وأيضًا لمّا كانت آيةُ الليل والنّهار والشّمس والقمر قدِ اعتاد المخاطَبون عليها جيء بفعل الخلقِ الدّالِّ على الإيجاد والإنشاء ابتداءً تعظيمًا لشأنِ هذه الآياتِ التي لا ينبغي الغفلةُ عنها، وإيذانًا بأنَّها وحدَها تكفي دليلًا على وجودِ اللّه تعالى ووحدانيَّته.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 59.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 871، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 59.

سرُّ البدءِ بذكر خلقِ اللّيل قبل النّهار:

لمّا كان العَدَمُ سابِقًا لِلْوُجود بدأ بذكر خلق اللّيل الذي هو ظلمةٌ قبل ذكر خلقِ النّهار

في قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بدأ بذكر خلق اللّيل قبل خلق النّهار، والسّرُّ فيه هو أنَّه لمّا كانَ اللّيلُ جزئيًّا مِنْ جُزْئيّات خَلْقِ الظُّلْمَةِ الَّتي أَوْجَدَ اللّه الكائنات فيها قَبْلَ خَلْقِ الأجْسام الَّتي تُفيضُ النّورَ على المَوْجودات، فإنَّ الظُّلْمَةَ عَدَمٌ والنّورَ وُجوديٌّ وهوَ ضِدُّ الظُّلْمَةِ، والعَدَمُ سابِقٌ لِلْوُجودِ بدأ بذكر خلق اللّيل الذي هو ظلمةٌ، والظّلمةُ هي الحالة السّابقةُ لوجود الأجرام النّيّرة، واللّيْلُ ظُلْمَةٌ تَرْجِعُ لِجُرْمِ الأرْضِ عِنْدَ انْصرافِ الأشِعَّةِ عَنِ الأرْضِ[1].

بديعُ المقابلةِ بين اللّيل والنّهار والشّمس والقمر:

العلاقةُ الضّدّيةُ المتناغمةُ سرُّ صلاحِ الكون للإنسان

في قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ قوبل بين اللّيل والنّهار لظهور منَّة الخلق فيهما وفي المقابلة بينهما، فإنَّه لا تظهرُ المنَّة على النّاسِ ظهورًا بيّنًا بليغًا إلّا عند تصوّر المقابلة، فلكلِّ نوعٍ منافعُه وآثارُه، كما أنَّ تعاقبَهما له منافعُ كذلك، وأمّا مناسبةُ ذِكرِ خلقِ القمرِ مقابلَ خلقِ الشّمسِ فهي الإشعارُ بالعلاقة الكونيَّة بين الشّمس والقمر فيما يتعلَّق بمنافع أهلِ الأرضِ، كما أنَّ فيها تذكيرًا بمنَّة إيجادِ ما ينيرُ على النّاس بعضَ النّور في بعضِ أوقاتِ الظّلمة[2].

التّوجيهُ النّحويّ بين الاستئناف والحاليَّة:

ذكرُ الأضداد يثير سؤالًا عن كيفيةِ تناغمها

تحتملُ جملة ﴿كُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ وهو الظّاهر؛ لأنَّهُ لَمّا ذَكَرَ الأشْياءَ المُتَضادَّةَ بِالحَقائِقِ أوْ بِالأوْقاتِ ذِكْرًا مُجْمَلًا في بَعْضِها الَّذي هوَ آياتُ السَّماءِ، ومُفَصَّلًا في بَعْضٍ آخَرَ وهوَ الشَّمسُ والقَمَرُ، وكانَ المَقامُ مُثيرًا في نُفوسِ السّامِعينَ سُؤالًا عَنْ كَيْفيَّةِ سَيْرِها وكَيْفَ لا يَقَعُ لَها اصْطِدامٌ أوْ يَقَعُ مِنْها تَخَلُّفُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 59.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 60.

عَنِ الظُّهورِ في وقْتِه المَعْلوم، فأُجيبَ بأنَّ كُلَّ المَذْكوراتِ لَهُ فضاءٌ يَسيرٌ، والذي حسَّن كونَ الجملة استئنافًا جريانُها جريانَ المثل في حكايتِه والتّمثيل به، فالمعنى الذي جاء به السّياقُ خاصٌّ واللّفظ عامٌّ، كما تحتمل أن تكون حالًا من الشّمس والقمر، وجاز انفرادُهما بهذه الحالِ مع عطفهما على اللّيل والنّهار لعدم اللَّبْس؛ لأنَّ اللّيل والنّهار زمانٌ فلا يُتصوَّر فيهما السَّبحُ في الفلك أصلًا، ففي تنوّع التّوجيه ثراءٌ للمعنى(1).

الغرضُ من الحذفِ المعوّضِ عنه بالتّنوين في قولِه ﴿كُلٌّ﴾:

الحذفُ إيجازٌ وحملٌ على التّدبّر، وتقديرِ المحذوف

التّنوينُ في قولِه ﴿كُلٌّ﴾ عِوَضٌ عَنِ المُضافِ إلَيْهِ، وحذفُ المضافِ يفيد الإيجازَ، ويحتمل أن يعود إلى الشّمس والقمر فيكون التقدير: (كلٌّ واحدٍ منهما)، ويحتمل أن يعود على المجرّاتِ والنّجوم والكواكب ويدخلُ فيها الشّمس والقمر دخولًا أوليًّا، والتّقدير: (كلُّهم أو كلُّ تلكَ)، فيثبت معنى الجمع على ظاهره في لفظ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ وتكونُ المجرّات والنُّجوم مذكورةً لعوْدِ الضّمير إليها(2).

الغرضُ من تنكير ﴿فَلَكٖ﴾:

من بديع خلقِ الله أن جعلَ لكلِّ واحدٍ من الشّمس والقمر وغيرِهما من النّجومِ فلَكًا على حِدَةٍ

جاء لفظُ ﴿فَلَكٖ﴾ في قولِه ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ منكّرًا للتّعميم بقرينة كونِه في سياق لفظِ العمومِ ﴿كُلٌّ﴾، دلَّ على أنَّ المرادَ منه اسمُ الجنسِ بمعنى أنَّ كلَّ واحدٍ من الشّمس والقمر وغيرِهما من النُّجوم له فلَكٌ على حِدَةٍ، فاكتُفي بما يدلُّ على الجنس اختصارًا، ولأنَّ الغرضَ الدّلالةُ على الجنسِ.

بلاغةُ الاستعارة:

سيرُ الكواكبِ وغيرِها في السّماء مثلُ السّابح الذي لا ينغمسُ في الماء ولا يخرجُ منه

لفظ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ في قوله ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ مُسْتَعارٌ للسَّيرِ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 115، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 66، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 517.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 115، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 60.

في متَّسَع لا طرائِقَ فيه مُتلاقيةً كطرائِقِ الأرضِ، فشبَّه جريانَ هذه الآياتِ بمن يسبحُ في اليمّ؛ لأنَّه يجري في فلكه بقدرة أودعَها فيه، وبنظام ثابت، ووجهُ الشّبه الجريُ المعروف في السّباحة والدّورانُ وعدمُ الانغماسِ، ثمَّ حذف المشبَّه وذكرَ المشبَّه به على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّةِ، والغرضُ من التّشبيه راجعٌ إلى المشبَّه، وهو سرعةُ سيرِ الكواكبِ في الفضاء الواسعِ العظيم وتقريبُها للمخاطبين وبيانُ أنَّها لا تنغمسُ ولا تخرج عن مجالِها كحالِ السّابحِ لا ينغمسُ في الماء ولا يخرج منه، وعبّرَ بضمير الجمع الذي للعاقل (الواو) ترشيحًا للاستعارة؛ فلم يُقَل: (كلّ في فلكٍ يَسبحن أو تسبحُ)؛ لأنَّ السّابح عاقل يدخل في العقلاء عادةً، فلمّا وُصفتِ الشّمس والقمر بالسّباحةِ التي تكون مكتسبةً، فهي من أفعال العقلاء، جُمع جَمعَ العقلاء، وأجرى الخبر عنهما مجرى الخبر عنهم فعبِّر بضمير الجمع الواو، وهذا التّوجيهُ ممّا أجمع عليه علماءُ اللّغة والمعاني، ومثلُه قولُه تعالى ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: 4](1)، وحسَّن مجيءَ الفعلِ مسندًا إلى ضمير الجمع مراعاةُ الفاصلة ورؤوسِ الآي.

وقد يقال إنَّ تشبيهَ جريِ الشّمسِ والقمر والنّجوم بمن يسبح في اليمِّ ضعيفٌ؛ لأنَّ جريَها أسرعُ من جري السّابح في اليمِّ؟، وجوابُه أنْ يقالَ إنَّه لمّا كان حقُّ التّشبيه أن يكون المشبَّه به أقوى أو اعرفَ أو أشهرَ من المشبَّه جاء التّشبيه في الآية من النّوع الثّاني الذي هو أعرفُ عند المخاطَبين، والقصدُ هو بيانُ طريقة جري هذه الأشياء في الفَلَكِ، فليس النّظرُ إلى الأقوى أوِ الأسرع بلِ النّظرُ إلى الأعرف عند المخاطَبين، فجاء التّشبيه على وجهه في كون المشبَّه به أبلغَ من حيث إنَّه أعرفُ من المشبَّه وأظهرُ لكونِه محسوسًا(2).

دلالةُ عودِ الضّمير:

إن كان المضافُ المحذوف في قولِه ﴿كُلّٞ﴾ يعود إلى الشّمسِ والقمر كان التّعبير بضمير الجمع في قوله: ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ للإشارة إلى طوالع الشمس والقمر المتكرّر الذي جعلهما جمعا، ولأنَّ الطّوالع تختلف معها الشّمس، فتكون الشّمس قريبةً من الأرض في أحد مطالعها وتكون بعيدةً عنها في مطلع آخر، والقمر يبدو في النَّظر هلالًا، ثمّ يكبر حتى يصير بدرًا؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 439، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 391، والواحدي، التفسير البسيط: 15/ 69.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 439، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 517.

اختلافُ المعنى باختلاف عودةِ الضّمير

ولذلك كانتِ الشّمس والقمر بمطالعهما متعددين، فصحّ أن يعود إليهما الضّمير ضميرَ جمع، فالجمع باعتبار تعدّدِ المطالع، فهو اعتباريٌّ، وإن كان المضاف المحذوف يعود إلى مجموعِ آياتِ السماء وخصوص الشّمس والقمرِ، فالمرادُ كلُّ تلك في فلكٍ يسبحون[1].

تنوّعُ إعراب ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ وثراءُ المعنى:

وجوهُ الإعراب تثري المعنى مع إيجاز اللّفظ

الجملة الفعليةُ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ في قوله ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾، يتنوَّع إعرابُها، وينبني على هذا التّنوّع ثراءُ المعنى، وبيانُه أنَّ لفظ ﴿كُلّٞ﴾ مبتدأٌ وخبره يحتملُ أن يكون ﴿فِي فَلَكٖ﴾ أو جملة ﴿يَسۡبَحُونَ﴾، أو على تعدّد الخبر[2]، فإذا كان الخبرُ شبهَ الجملة ﴿فِي فَلَكٖ﴾ كانت جملةُ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ حالًا، بمعنى أنَّ اللّه تعالى خلقَ كلَّ واحدٍ من النّجوم والشّمس والقمر في فلكٍ وهي بهيئةِ السّباحة في فلكِها، فالحال مقارنةٌ للخلق، وإذا كان ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ خبرًا كان ﴿فِي فَلَكٖ﴾ حالًا متقدّمًا على عاملِه، بمعنى أنَّه تعالى خلق هذه الأشياء سابحةً في فلكِها، وأفاد تقديمُ الجارّ والمجرور القصرَ بمعنى أنَّ لكلِّ واحدٍ منها فلكًا على حدةٍ، وأنّها لاتسبحُ إلّا في فلكِها إلى أن يأذن اللّه تعالى بالقيامةِ، كما يحتمل أن يكون ﴿فِي فَلَكٖ﴾ خبرًا أوّلَ و﴿يَسۡبَحُونَ﴾ خبرًا ثانيًا، ليفيدَ تعدّدَ الدّلائل والمنن وتكثّرَهما.

بديعُ الجناسِ المقلوبِ:

حروفُ قولِه تعالى (كُلٌّ في فلَكٍ) تُقرَأُ مِنْ آخِرِها على التَّرْتيبِ كَما تُقرَأُ مَنْ أوّلِها

مِنْ بَدائِعِ الإعْجازِ في هَذِه الآيَةِ أنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ﴾ فيه مُحَسِّنٌ بَديعيٌّ فإنَّ حُروفَهُ تُقْرَأُ مِنْ آخِرِها على التَّرْتيبِ كَما تُقْرَأُ مَنْ أوَّلِها، مَعَ خِفَّةِ التَّرْكيبِ ووَفْرَةِ الفائِدَةِ وجَرَيانِه مُجْرَى المَثَلِ مِنْ غَيْرِ تَنافُرٍ ولا غَرابَةٍ، مع ملاحظة أنَّ المشدَّد من الحروفِ كالمخفَّفِ،

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 115، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 517، وابن التمجيد، حاشيته على البيضاوي: 12/ 517.

(2) أبو البقاء العكبري، التبيان: 2/ 1082، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 487، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 50.

ومن حسن هذا النّوع من الجناس حصولُ الدّهشة به والاستغراب عند السّامع، فيستدعي ميلَه إلى حسنِ الإصغاء والتّنبُّه إلى المعنى، ومِثْلُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ [المدّثر: 3] بطَرْحِ واوِ العَطْفِ، وكِلْتا الآيَتَيْنِ بُنيَ على سَبْعَةِ أحْرُفٍ، ولم يذكرِ الأدباءُ وأهلُ المعاني أنَّه قد وقع في كَلامِ العَرَبِ، فهوَ مِنْ مُبْتَكَراتِ القُرْآنِ[1]، وليس في القرآن سوى هاتين الآيتين على هذا النّوع منَ البديع.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجعل والخلق:

الجعلُ إيجادٌ وإبداعٌ، والخلقُ إيجادٌ وإنشاءٌ

الجعلُ هو إيجادُ شيءٍ من شيءٍ، فهو محصَّلٌ من آخرَ كأنَّه من ضمنِه، ولهذا عبَّرَ بعد فتق السماوات والأرضِ بالجعل دون غيرِه، كما أنَّ الجعلَ فيه معنَى الإبداع الذي يكون آيةً على قدرةِ الجاعلِ وعظيمِ فعلِه، ففيه معنى التّقدير والتّسوية، والجَعْلُ خلقٌ لأمرٍ موصوفٍ بوصفٍ معيّنٍ، فهو خلق لأمر أراده اللّه تعالى في التّكوين، وهو أن يكون لأمرٍ نافعٍ للعباد، وأمّا الخلقُ فهو إيجادٌ وإنشاءٌ[2].

(1) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 2/ 305، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 71 - 72.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 78، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4856.

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤﴾

[الأنبياء: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الدّنيا دارُ ممرٍّ وليست دارَ مقرٍّ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآياتِ السّابقة الأدلَّةَ على وجودِه ووحدانيّته في ألوهيَّتِه، وكانَتْ تِلْكَ الآياتُ الكونيَّةُ من أصولِ النّعم الدّنيويَّةِ أتبعَه بهذه الآية للإيذانِ بأنَّه تعالى جعل هذه الآياتِ والنّعمَ العظيمة لا لتبقى وتدومَ أو يبقى فيها من خُلقت الدّنيا لأجلِه، بل خلقَها للإفادة منها وتصريفِها فيما ينتفعُ منها في الآخرة، وأنَّه تعالى خلقَ هذه الدّنيا للابتلاء والامتحانِ، ولكي يُتوصَّل بها إلى الآخرة التي هي دارُ الخلود[1]، وأيضًا لمّا ذكر اللّه تعالى القاطعَ للأعمار الطّوال والقصار، بتوالي اللّيل والنهار، المقتضي فناءَ كلِّ شديدٍ وإبلاءَ كلِّ جديد، عطف عليه قولَه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَشَرٖ﴾: يدور معنى الكلمة على ظُهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنْسانِ، وعبّر عن الإنسان بالبَشَر اعتبارًا بظهور جلده منَ الشّعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصّوفُ أو غيرُه، ويُستعملُ لفظُ البشر للواحد والجمع، فيقال هذا بشرٌ وهؤلاء بشرٌ، وخُصَّ في القرآن كلُّ موضعٍ اعتُبر منَ الإنسانِ جثّتُه وظاهرُه بلفظِ البشرِ، كما أنَّه إذا عبِّرَ بلفظ البشر قُصِدَ به تساوي النّاس في البشرية[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 142.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 416.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بشر).

2) ﴿ٱلۡخُلۡدَۖ﴾: يدور معنى الكلمة على تبرّي الشّيء من اعتراض الفسادِ، وبقائِه على الحالة التي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأ عنه التّغييرُ والفسادُ تصفُه العرب بالخلود، والخوالدُ في الأصلِ هي الجبال، والصّخور لطول بقائها بعد دروس الأطلال ومنه رَجُلٌ مُخَلِّدٌ، إذا أبْطَأ عَنْهُ المَشيبُ وبقي مدّة طويلةً، ثمَّ أطلقَ الخلدُ على الثّباتِ والملازمةِ، فيقال: خلَدَ وأخلدَ، ومنه جنَّةُ الخلدِ، وأطلقَ الخلدُ استعارةً على دَوام البقاء في دار لا يخرج منها، لمن يمكنُ عليه الموتُ أوِ الفناءُ، فلا يوصفُ اللّه تعالى بالخلدِ، والخُلودُ في الجنّة بقاءُ الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفسادِ عليها[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا بقاءَ في الدّنيا ولا خلودَ فيها

بيَّنَ اللّه تعالى أنَّ مصيرَ جميعِ البشرِ إلى الموتِ، فيقولُ تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ - : وما جعلنا لأحدٍ من بني آدم يا محمّد ﷺ من قبلك دوامَ البقاء في الدنيا فنخلدُك فيها، أفإنْ مِتَّ فهم يُخَلَّدونَ فيها؟! كلّا، لا يكونُ هذا، فهُم ميِّتونَ بكلّ حال عشتَ أو متّ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواو في الآية:

عـــدمُ خـلـودِ البـشـرِ هـو من صـلاحِ الـدّنـيا واستمرارِ الحياة فيها

في قوله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ عُطفَ الآيةُ بالواو على ماقبلها لاشتراكهما في عطف الجملة الخبريّةِ على الخبريَّة، وفي الجهة الجامعة، فإنَّ ما قبلها كان في بيان ذكر الآيات التي بها قوامُ الحياة الدنيا وهي خلقُ اللّيل والنّهار والشّمس والقمرِ فعطف عليها ما به صلاحُ الدّنيا، وهو نفيُ الخلودِ للبشرِ في هذه الحياة، كما أنَّ ما قبلها تعدادٌ لآياتِ اللّه في هذه الدّنيا، فعطفَ عليها ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خلد).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 439.

كان سُننًا للّه قضاها على عبادِه في هذه الدّنيا كذلك، لتكمّل هذه السّننُ انتظامَ الحياة في هذا العالم.

دلالةُ النّفي بـ(ما):

النّفيُ بـ(ما) للمبالغةِ في الرّدِّ على الكافرين

عبّرَ بـ(ما) في قوله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا﴾ دون (لم) أي لم يقل (ولم نجعل)؛ لِلمبالغةِ في النّفي، ويُشعر النّفيُ بـ(ما) أنّها جاءت ردًّا على الكافرين الذين كانوا يتمنّون موتَ رسولِ اللّه ﷺ ليشمتوا بموته ﷺ وتصفو لهم الدّنيا بعده، فنزَّلَ تمنّيهم ذلكَ منزلةَ من يتوهّم أنَّه لا يموت أبدًا، وأنَّه سيخلدُ في الأرضِ، فجاء النّفيُ بـ(ما) للرّدِّ عليهم في ما توهّموه جهلًا منهم.

بلاغةُ الاستعارة:

نفيُ الخلود للبشرِ في الدنيا إبداعٌ في تقدير الله تعالى وبه دوامُ صلاحِ الحياةِ الدّنيا

في قوله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ استعيرَ الجعلُ للتّقدير[1] واشتقّ منه الفعل ﴿جَعَلۡنَا﴾ بمعنى (قدّرنا)؛ للإيذانِ بأنَّ هذا التّقديرَ إبداعٌ من اللّه تعالى في هذا الكونِ، وبه دوامُ صلاح الحياة الدّنيا، والجامعُ في الاستعارة وقوعُ الإنجاز في الجعل والتّقدير، وهو استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ بطريق استعارة المحسوسِ للمعقول، والغرضُ من الاستعارة راجعٌ إلى المشبَّه، أي: للمبالغة في بيانِ المشبَّه وهو تقديرُ اللّه تعالى ولِتحقيقِ نفي وقوعِ الخلدِ لبشرٍ من قبْلِ رسولِ اللّه ﷺ.

سرُّ إيثارِ إقامةِ المُظهر مقامَ المُضمر:

قضاءُ الله بالموتِ سنَّةٌ في جميع خلقِه

لّما كانت الآيات السّابقة ذكرت المشركين أوِ النّاسَ بصيغة ضمير الغائب كان الظّاهرُ أن يقال: (وما جعلنا لهم من قبلك الخلد)، فأوثرَ إقامةُ المظهر ﴿لِبَشَرٖ﴾ في قوله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ﴾ مكانَ المُضمر؛ لأنَّ المظهر يفيدُ العمومَ واستغراقَ أفرادِ الجنسِ لمجيئِه نكرةً في سياق النّفي، لبيان أنَّ قضاء اللّه بالموتِ سنَّةٌ في جميع

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4860.

خلقِه، ولو قيل (وما جعلنا لهم من قبلك الخلد) لانحصر النّفيُ فيهم، فكان السّلبُ الكلّيّ محصورًا في السّلبِ الجزئيِّ، وهو خلاف المقصود ومنافٍ سنَّةَ الله في هذه الحياةِ(1).

بديعُ القولِ بالموجب:

القول بالموجبِ لإثباتِ الحجَّة على المعاندين وتبكيتِهم بإلزامِهم بالتّسليم

جاء قولُه تعالى ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ على طَريقَةِ القَوْلِ بِالموجَبِ وهو محسِّنٌ معنويٌّ، أي: إنَّ الحكم - وهو الموت لرسول الله ﷺ - الذي كانَ يتمنّاه المشركون مسلَّمٌ لزومُه له ﷺ وسيموت كما كانوا يحرصون عليه ليصفوَ لهم الحالُ، ولكن لا يفيدُهم؛ لأنَّهم لن يروا موتَه، وهُم بِحالِ مَنْ يَزْعُمونَ أَنَّهُم مُخَلَّدونَ، فإنَّهم سيموتون كذلك، فأفادت الآيةُ إقامةَ الحجّة عليهم بالدّليلِ وتبكيتَهم بتسليم الوصفِ الذي أرادوه والبناء عليه لإلزامِهم الحجّةَ بسببه من غيرِ إثباتٍ للحكم الذي قصدوه، أي إنَّ الأمرَ كما كنتم تتمنّون فإنَّه ﷺ سيموت، ولكنَّكم ستموتون قبله ولن تخلدوا كما تتوهّمون، ومثلُه في القول بالموجبِ قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾(2).

سرُّ إسنادِ الفعل للضّمير الدّالّ على التّعظيم (نا):

تقديرُ الموت على جميع البشرِ دليلٌ على عظمة الله المتفرِّد بالبقاء

أُسندَ الفعلُ إلى ضمير العظمة في قوله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا﴾ للإشعار بأنَّ تقدير الموت على جميع البشرِ هو بما لله تعالى من العظمة التي اقتضت تفرّدَه بالبقاء، وأنَّه لا يقدر على هذا إلّا الإله الواحدُ الأحدُ(3).

بلاغةُ القصرِ بتقديم المفعولِ الثّاني ﴿لِبَشَرٖ﴾ على المفعول الأوّل:

أصل الكلامِ في قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾،

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 360.
(2) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 2/ 278، والدسوقي، حاشية على شرح المختصر: 4/ 146، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 36.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 416.

وماجعلنا الخلدَ لبشرٍ من قبلكِ، فقُدِّم في الآية المفعول الثّاني ﴿لِبَشَرٖ﴾ على الأوّل ﴿ٱلۡخُلۡدَۖ﴾، ليفيدَ القصرَ الإضافيّ؛ لأنَّ السّياق في بيان نفي خلود المشركين وأنَّهم سيموتون كما كانوا يتمنّون الموتَ لرسول اللّه ﷺ فلمّا كانوا هم المقصودين عبّرَ بلفظ ﴿لِبَشَرٖ﴾ الذي يستغرقُهم ويستغرقُ غيرَهم، ليكون الكلامُ على طريقة القول بالموجب كما تقدَّم، والقصرُ إضافيٌّ على طريقةِ القلبِ كما يومئ إليه القولُ بالموجبِ، ويكونُ تخصيصُ البشر لاقتضاء المقام؛ لأنَّ عدم الخلد يشمل البشرَ والحيوانَ[1].

تخصيصُ البشرِ ينفي الخلودَ لاقتضاء المقامِ، فعدمُ الخلود يشملُ البشر والحيوان

الغرضُ من مجيء الاسمِ نكرةً في سياق النّفي:

لمّا جاء الاسمُ النّكرةُ ﴿لِبَشَرٖ﴾ في سياق النّفيِ في قوله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ أفاد اللّفظُ العمومَ، ليشملَ البشرَ كلَّهم، وعلى أيِّ حالٍ يكونون عليه، فيستغرقَ زمانَهم ومكانَهم، فيدخل فيه الأنبياء والرّسلُ المقرّبون عند اللّه تعالى وأتباعُهم من المؤمنين كما يدخل في العمومِ غيرُهم من المشركين الذين عارضوا الأنبياء والرّسلَ وكذَّبوهم، ففيه تحذير للمشركين المكذّبين من أنَّ الموتَ قريبٌ منهم وأنّهم سيُحاسَبون على شركِهم وتكذيبِهم.

تحذيرُ الكافرين من أنَّ الموتَ قريبٌ منهم وأنَّهم سيُحاسبون على كفرهم

سرُّ تقييدِ الفعل بالظّرف:

لمّا جاء الجارُّ والمجرور ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ صفةً للاسم النّكرة ﴿لِبَشَرٖ﴾ دلَّ على تخصيص العموم، ليفيد عمومَ نفي الخلدِ عن أيِّ بشرٍ قبل رسولِ اللّه ﷺ وجاء التّقييدُ بظرف الزّمان ليناسبَ ذكرُ خلقِ الزّمان اللّيلَ والنّهار الدّالّ على أنَّ الموتَ يكون بتواليهما، وليفيدَ عمومَ الاستيعابَ، فإنَّ أيَّ بشرٍ لا ينفكُّ عن زمانٍ يكون فيه.

التّقييدُ بظرف الزّمان لِعمومَ الاستيعابِ، فإنَّ أيَّ بشرٍ لا ينفكُّ عن زمانٍ يكون فيه

فائدةُ حرفِ الجرّ ﴿مِّن﴾:

أُثبِتَ حرفُ الجرِّ في قوله ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ للنّصِّ على أنَّ هذا

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 518.

الموتُ المقدَّرُ على جميع البشرِ أمرٌ عامٌّ وحتميٌّ لا يُستثنى منه أحدٌ

الجعل يستغرقُ كلَّ أجزاء الزّمن الماضي من بداية الزّمن الذي قبلَ زمنِك مستغرقًا كلَّ الأوقات التي قبلَه، أي: إنَّ تقدير الموتِ وقضاءَه على جميعِ البشرِ هو أمرٌ عامٌّ لا يُستثنى منه أحدٌ.

الغرضُ منَ الإضافة في ﴿قَبۡلِكَ﴾:

الإضافةُ تشريفٌ للزّمن بإضافتِه له ﷺ

أفادتِ الإضافةُ في قوله تعالى ﴿قَبۡلِكَ﴾ تشريفَ رسولِ اللّه ﷺ لأنَّه جعل الحكمَ متعلِّقًا بزمانٍ منسوبٍ إليه.

معنَى (اللّام) في قولِه ﴿ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ ودلالتُها:

(اللام) في قوله ﴿ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ لنفي جنس الخلد فلا استثناءَ لبشر، وفي التّعبير بالجنس إلزامٌ للحجّة، وقطعٌ للأطماع في خلودهم في الدنيا.

موقعُ جملة ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ مما قبلها ودلالتُه:

إن كان رسولُ اللّه سيموت فلا خلودَ لأحد بعده

الفاء في قوله ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ عاطفةٌ، وهذه الجملة تقدَّم فيها حرفُ الاستفهام عن موضعِه، وألفُ الاستفهام داخلةٌ في المعنى على جواب الشرط، وقدّمت في أول الجملة؛ لأنَّ الاستفهام له صدرُ الكلام، والتّقدير: (أفهُم الخالدون إن متّ)، والفاء عاطفةٌ جملةً على جملة، فالتَّفريعُ كانَ على ما في الجُملَةِ الأولَى مِنَ القَوْلِ بِالموجَبِ، أيْ: ما هُم بِخالِدينَ، فإن متَّ أفهم الخالدون؛ فيكون الشّرط متعلِّقًا بما قبله على سبيل التّرتّب، فالفاء تفيدُ سببيَّة ما قبلها لِما بعدها[1]، أي: لمّا قدّرَ اللّه تعالى أنَّه ما جعل لبشرٍ من قبلِك الخلدَ ترتّب عليه أنْ يقال: إن متَّ أفهم الخالدون.

بلاغةُ الاستفهام المجازيّ:

الإخبارُ عن موتِ رؤوسِ الكفرِ قبل موتِ رسول اللّه ﷺ

في قولِه ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ جاء الاستفهام إنكاريًّا ليفيد الإنكارَ عليهم والتّسليةَ للرّسول ﷺ بمنع شماتتِهم، فالمنكر

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 70، والزمخشري، الكشاف: 3/ 115، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 81، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 51، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 12/ 518.

تقديرُ خلودهم على تقدير موته الموجب للإنكار عليهم في تمنيهم لموته ﷺ والمرادُ بإنكار خلودِهم ونفيه إنكارُ ما هو مدارٌ له وجودًا وعدمًا من شماتتهم بموته ﷺ فإنَّ الشماتةَ بما يعتريه أيضًا ممّا لا ينبغي أن تصدر عن العاقل، كأنّه قيل: أفإن متَّ فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك، وفي الإنْكارِ الَّذي هوَ في مَعْنَى النَّفْيِ إنْذارٌ لِرؤوس الكفرِ المكذّبين من أهلِ قريشٍ بِأنَّهُ لا يَرَى مَوْتَهُ مِنهُم أحد[1].

بلاغةُ مجيء الكلام على خلاف مقتضَى الظّاهر:

إيماءٌ إلى طول عمرِ النّبيِّ ﷺ حتّى يكمل دعوتَه

لّما كان موتُ النّبيِّ ﷺ كائنًا لا محالةَ بما يفيده قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ كان الظّاهرُ استعمالَ (إذا) في قولِه ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُؤذنُ بتحقُّق وقوع الشّرطِ مع اقترانِه بالفعل الماضي ﴿مِّتَّ﴾، فكان في العدول إلى استعمال (إنْ) التي تفيد احتمالَ وقوع الشّرط دون الجزم به إيماءٌ إلى طولِ عمرِ النّبيِّ ﷺ حتى يكمل دعوتَه دفعًا لتلك الشّماتةِ التي كان يُضمرها نحوه المشركون، فأُخرج الكلامُ وكأنَّ موتَه ﷺ ممّا لا يُجزم به، ويستبعدُ وقوعُه في زمنٍ قريب كما كان يتمنّاه المشركون، أو يقال: إنَّ مجيء الشّرط معلّقًا بـ(إنْ) تمهيدٌ لتقريبِ فكرةِ وقوع موته ﷺ عندَ الصّحابة من غير جزم بها؛ لأنَّهم لا يتحمّلون وقوعَ مثل هذه المصيبة العظيمة مباشرةً التي تقطّع الفؤاد وتحرقُ الأكباد، فإيرادُ الشّرط بهذه الصورة تسكينٌ للفؤاد[2].

فائدةُ مجيء الفعل بصيغة الخطاب في قولِه ﴿مِّتَّ﴾:

الخطابُ لتشريفِ رسول الله ﷺ وتكريمِه

لّما كان الخطاب على معنى إقبال المخاطَب على المخاطِب ومواجهتِه له، أفاد التّعبيرُ بصيغة الخطاب في قولِه ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 70، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 51، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 417.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 518، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 360.

تشريفَ سيّدنا رسولِ اللّه ﷺ لما تفيده صيغةُ الخطاب هنا بمعونة السّياق من معنى قربِ المخاطِبِ - وهو اللّه تعالى - منه ﷺ فموتُه ﷺ تقريبٌ وتشريف وموتهم إبعادٌ وإهانةٌ.

نكتةُ تعلّقِ الاستفهام الإنكاري بالضّمير (هُم):

محطُّ الإنكارِ ذواتُ المشركين للمبالغةِ في توبيخِهم وإهانتِهم

لمّا كان الإنكار على المشركين في تمنّيهم موتَ رسولِ اللّه ﷺ للشّماتةِ به ﷺ تعلَّق الإنكارُ في قولِه ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ بالضّمير (هُم) لأنَّه محطُّ الإنكار، فكأنَّه قيل: إنْ فُرِضَ الخلدُ لأحدٍ، فلن يكون لهم؛ للمبالغةِ في توبيخِهم وإهانتِهم إذ كانوا يريدون الشّماتةَ برسول اللّه ﷺ ولهذا لم يقل: (أيخلدون هم)، كما أنَّ في تقديم الضّمير رعايةً للفاصلةِ، وتناسبِ رؤوس الآي.

الغرضُ من مجيء جملةِ جواب الشّرط اسميّةً:

الكفّارُ ثابتون على الوهم

لمّا جاء طرفا الإسناد في الجملة الاسميّة معرفتَين في قولِه ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أفادت الجملةُ القصرَ، بمعنى الإنكارِ على أن يكونوا هم خاصَّةً خالدين، للإشعار بأنَّهم كانوا يرون منزلتَهم فوقَ منزلةِ النّبيِّ ﷺ وفي التّعبير بالجملة الاسميّة، إشعارٌ بأنَّهم كانوا ثابتين على وهمِهم في أنَّهم سيبقون بعدَ موتِ النّبي ﷺ فيشمتون به بعد موتِه.

بلاغةُ التّذييل:

تذييلُ الكلام لتأكيدِ ما قبلَه وتقريرِه

قوله تعالى ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾: جملة تذييليَّةٌ، وفيها تأكيدٌ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فإنّه لمّا نفى أن يكون لبشرٍ من قبل رسولِ اللّه ﷺ الخلدُ فُهِمَ منه نفيُ خلودِهم بدلالة السّياق، وفائدتُه ظهورُ المعنى لمن لم يفهمه، والتّأكيدُ عند من فهمه، وذهب بعضُ علماء البلاغة إلى أنَّ هذه الجملة من نوع جُمل التّذييل، الذي لا تجري فيه الجملة مجرى المثل السّائر، لارتباط هذه الجملة بما قبلها بفاء التّرتيب[1].

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 208، والبهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/ 612.

بديعُ سَوق الكلامِ مساق غيرِه:

تجاهلُ العارف أسلوبٌ للإنكارِ والتّوبيخ

جاءت جملة ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ على طريقة ما يسمَّى بسَوق الكلام مساق غيرِه، أو بتَجاهُلِ العارفِ، وهو محسِّنٌ معنويٌّ[1]؛ فإنَّ المشركين يعلمون أنَّهم ليسوا بخالدين في هذه الدّنيا، فساق هذا الأمرَ المعلومَ مساقَ غيرِه بطريق الإنكار عليهم، وفائدةُ هذا اللّون البديعي في الآية توبيخُهم على تمنّيهم موتَ رسولِ اللّه ﷺ قبلهم ليشمتوا بموتِه ﷺ والمبالغةُ في ذمِّهم على هذا التّمنّي.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 427، والعصام، الأطول شرح التلخيص: 2/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 94.

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نـفـيُ الخـلـود يـعـني إثـبـات الموت

لمّا قال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾ نتج منه الحكمُ الكلّي الذي يشمل جميعَ النّاس، فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَآئِقَةُ﴾: الذّوق هو اخْتِبارُ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ومنه ذوق المأكولِ، والمَذاق: طَعْمُ الشَّيْءِ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجازًا فيُقالُ: ذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ بمعنى اخْتَبَرْتُهُ، وكُلُّ ما نَزَلَ بِإنْسانٍ مِنْ مَكْروهٍ فقَدْ ذاقَهُ، والذَّوْقُ: يَكونُ فيما يُكره ويُحمد، وكثر في القرآن استعمالُ لفظ الذّوق في ما يقع للإنسانِ من عذابٍ أو مكروه، لأنّ ذلك - وإن كان في التّعارف للقليل - فهو مستصلحٌ للكثير، فخصّه بالذّكر ليعمّ القليل، والكثيرَ، وذقت الأمرَ خبرتُه، وأمر مُستَذاقٌ أي: مُجَرَّبٌ مَعْلومٌ.

2) ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾: يدور المعنى المحوري للكلمة على شدَّةٍ تحوز الشّيء - أو حَوْزِ الشّيء بشدّة - لمدًى طويل، وأصلُ الكلمة من البليَّةِ، وهي النّاقة تُعْقَل عند قَبْر صاحبها، فلا تُعْلَفُ حتى تموت، ويقال: بَليَ الثّوب بِلًى وبَلاءً، أي: خَلِقَ، لطول الاستعمال مع الامتهان، وبَلَوْتُهُ: امتحنته، واختبرته كأنّي أخلقته من كثرة اختباري له ليتبيَّن حالُه، وسمّي الغمُّ بلاءً من حيث إنَّه يبلي الجسم، ويَكونُ البَلاءُ في الخَيْرِ والشَّرِّ؛ لأنَّ الامتحان والاختبار قد يكون بالخير فيشكرُ، كما يكون بالشرِّ فيصبر، غير أنَّ الأكثر في الشَّرِّ أن يقال: بلوته أبلوه

بلاءً، وفي الخير: أبليته أبليه إبلاء وبلاء[1]، و﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ في الآية بمعنى نختبركم[2].

3) ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾: يدور معنى الكلمة على الابتلاء والاختبار، وأصلُ الكلمة من إدخال الفضّة أو الذّهب النّارَ لتظهر جودته من رداءته، ويقال: فتنت الفضّة والذّهَب: أذَبْتها بالنّار للتّصفية، أو للصّوغ، ويسمَّى الصّائغُ الفتّان، وفتَنْت الرّغيف في النّار: أحرقته، والفَتْنُ: الإحْراقُ، وشَيْءٌ فتينٌ: أيْ مُحْرَقٌ، واستعمل اللفظُ في تمحيص حقيقة ما في القلوب بتعريضها للشَّدائد كما يُصْهَر الذّهب، أو الفضّة فيمتاز خَبَثُها عن جوهرهما الخالص، و﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ هنا بمعنى الاختبار والامتحان[3].

المَعْنى الإجْماليّ:

الدّنيا دارُ ابتلاءٍ، واختبارٍ، لا دارُ بقاء

أكَّدَ اللّه تعالى أنَّ أحدًا لايبقى في هذه الدّنيا فقال: كلُّ نفسٍ ذائقةٌ مرارةَ مفارقةِ جسدها في الدّنيا، فلا يبقى أحدٌ من ذواتِ الأنفسِ المخلوقةِ كائنًا ما كانَ، ونختبركم بالمضارّ الدّنيوية من الفقر، والآلام وسائر الشّدائد، وبنِعم الدّنيا من الصّحّة واللّذة، والسّرور، والتّمكين من حصول ما تريدون امتحانًا منّا لكم وإلَيْنا تُرْجَعونَ يومَ البعثِ فنجازيكم بأعمالِكم، حسب ما يوجد منكم من الصّبر والشّكر[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في الآية:

مجيءُ الجملة بطريق الفصل، لأنَّها تأكيدٌ لما قبلَها كما أنَّها ممهّدةٌ لِما بعدها

جاءتِ الآية ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ بطريق الفصل؛ لأنَّها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 439، والبغوي، معالم التنزيل: 3/ 288، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 81.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 71.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 439، والمراغي، تفسير المراغي: 17/ 30.

بمنزلة التّوكيد لما قبلها، فإنَّه لمّا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أفاد بمفهومه أنَّ كلَّ نفسٍ تموت، كما أنَّ هذا الجملة بمثابة الاستدلال والبرهان على الإنكار على خلودِهم[1] وهي مكمِّلةٌ لما قبلها تقريرًا، وتأكيدًا، واستدلالًا ممهّدةٌ لما بعدها، بالتّذكير بأنَّ ما يقدّمونه في حياتِهم، هو اختبارٌ لهم، وأنَّهم سيرجعون إلى اللّٰه تعالى بعدَ موتهم للجزاء.

بلاغةُ التّذييل في قوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾:

مــن بــراعــة أسلوبِ القرآن مـجـيءُ جملةِ التَّذييل في صدر الآية

جملة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ تذييلٌ لما قبلها مع أنَّها صدرُ آيةٍ، والسّببُ هو أنَّ معنى الآيةِ مُستوفى بمفهومِه في الآية التي سبقت عندما أخبر تعالى أنَّه لم يَجعَلْ لبَشرٍ قبْلَ نَبيِّه الخُلْدَ، فتكونُ الجملة من التَّذييل الذي يخرج مخرجَ المثل السّائر؛ لاستقلال الجملة بنفسها بحيث يتمثَّلُ بها في الكلام، ولما فيها من معنى العمومِ والكلّيَّةِ، ويدخل في الخبرِ المشركون المنكَرُ عليهم تمنّي موتَ رسول اللّٰه ﷺ دخولًا أوّليًّا، والإشعار بأنَّهم بعملهم هذا إنّما يفعلون الشّرَّ، كما يدخل فيه المؤمنون لتنبيههم إلى المبادرة إلى فعل الخير واجتناب الشّرِّ، ومثلُ هذه الجملة التي تفيد تأكيدَ ما قبلها وعمومَ معناها تُستعمل في المواطن الجامعةِ والمواقف الحافلة؛ لأنَّ تلك المواطن تجمعُ بطيءَ الفهمِ وسريعَه، وتنطبق على الجميع[2].

دلالةُ التَّعبير بلفظِ العموم:

استغراقُ جميع الأنفسِ المخلوقة في الحكم عليها بذوقِ الموتِ

في قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ أفاد التّعبيرُ بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ استغراقَ كلِّ فردٍ يطلقُ عليه نفسٌ، على معنى الإحاطة لكلِّ الأفرادِ المخلوقة، ولمّا كان لفظ ﴿كُلُّ﴾ مبتدأً وأخبر عنه بقوله

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 51، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 43.

(2) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/ 208، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 51، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4861.

﴿ذَآئِقَةُ﴾ أفادَ أنَّ المراد معنى ما أضيفت إليه، فجاء الإخبارُ عن كلِّ فردٍ من أفرادِ النّفس المخلوقة بأنَّها ذائقة الموت.

سببُ إيثار الإضافةِ إلى النّفس:

لفظُ النّفسِ مشعرٌ بالرّوح التي تكون في جسدٍ

قال اللّه تعالى ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾، ولم يقل: كلُّ إنسان، أو كلُّ بشرٍ؛ لأنَّ لفظَ النَّفسِ مشعرٌ بالرّوح، وأنَّ لهذه الروح جسدًا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: 93]، أي: أرواحكم، والموت أمرٌ يحلُّ بالنّفسِ فتخرج به الرّوح من الجسد، كما أنَّه أفادَ أنَّ النّفس هي التي تذوق مرارةَ فراق الجسدِ، والموت ينصبُّ عليها ابتداءً.

الغرضُ من إسناد الذّوق إلى النّفس:

لا يقال الإنسانُ يذوق الموتَ بل يقال نفسُ الإنسانِ أوِ النّفسُ تذوق الموت

في قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أَسْنِدَ ذوقُ الموت إلى النّفس، وفيه إشعارٌ بأنَّ ذوق الموت يكون للنّفس، فيصحُّ أنْ يقال الإنسان يموت أو البشر يموت، ولا يصحُّ أن يقال: الإنسان يذوق الموت؛ لأنَّ ذوق الموت متعلِّقٌ بالنّفسِ التي يكون فيها الرّوح، لارتباط الذّوق بالإدراك الذي يكون بالرّوح، فكان التّعبيرُ القرآنيّ في إسنادِ ذوق الموت إلى النّفسِ أنسبَ وأبلغَ.

سرُّ الإضافة في قولِه: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾:

ذوقُ مرارة الموتِ واقعٌ لا محالةَ وإن تأخّر

الإضافة في قولِه ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ للملابسة، لتفيد أنَّ النّفسَ تزهق بملابسة أيسر جزء من الموت، ففي الإضافة تهويلٌ لشأنِ الموتِ[1]، ولمّا كان المعنى على المستقبل أي سيذوق الموتَ كانت الإضافة على تقدير الانفصال[2]، والتّقدير: (ذائقةٌ الموتَ)، وجيء باسم الفاعل مضافًا؛ لِلإشعار بشدَّة ملازمة النّفس للموتِ وعدم انفكاكِها عنه، وللإيذانِ بأنَّ ذوق مرارة الموتِ واقعٌ لا محالةَ، وبأنَّ

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 354.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 70، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 1492، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 143.

النّظر إلى النّفس الذّائقةِ التي اختُبرت وستُجازى بعد الموت، وليس النّظرُ إلى حدث ذوقِ الموتِ، لأنّه بالإضافة يرادُ الاسمُ، فإنَّ الإضافةَ من خصائص الأسماء، وأمّا النّصب فيدلُّ على إرادةِ الحدثِ.

بلاغةُ الاستعارة:

الموتَ كالشّيءِ المحسوسِ الذي يُذاقُ بالفمِ، ولابدَّ من تجرُّعِ مرارته

جاء الكلام في قولِه: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ على الاستعارة، حيثُ شُبِّه الموتُ بمأكولٍ يذاقُ بجامع الإدراك، ثمَّ حُذِفَ المشبَّه به وأُبقي شيءٌ من لوازِمه وهو الذّوق، فالاستعارة مكنيَّة[1]، وفائدةُ التَّعبير عن المعنى بطريق الاستعارة بيانُ شدَّة التصاق مرارةِ مفارقة النّفس لجسدِها، وإنّما حسُنَ وصفُ النّفسِ بذلكَ لِما يُحسُّ به مِن كربِ الموتِ وعذابِه، فكأنّ الموتَ شيءٌ محسوسٌ يذاقُ بالفم، ولابدَّ من تجرُّعِ مرارتِه، وذوقُ الموت بمعنى ذوق مرارةِ مفارقة النّفسِ للجسدِ، والمراد ذوقُ مرارة مقدّماتِ الموتِ من الآلام العظيمة؛ لأنَّ الموتَ قبلَ دخولِه في الوجود يمتنع إدراكه، وحالَ وجودِه يصير الشّخصُ ميِّتًا، والميّتُ لا يُدرِكُ شيئًا[2].

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر:

تذكيرُ النّاس بأنّهم في هذه الدّنيا في حالةِ اختبارٍ بالبلايا والنِّعم

في قوله ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ يحتمل الخطابُ أن يكون للنّاس كافَّةً، فيكون على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ الخطاب، وإن كان لمعيَّنٍ، فإنَّه قد جاء لغير معيَّنٍ على معنى إرادةِ عمومِ النّاس فيكون الخطابُ بطريق التّلوينِ، فإنَّه نصَّ على العموم في قولِه ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ ثمَّ أرادَ العمومَ بطريق الخطاب، وفائدتُه تذكير كلِّ مخاطَبٍ بأنّه في وضعِ الاختبار بالبلايا والنّعم، وأنّ هذا الاختبار هو اختبارٌ عظيم، لأنَّه من عند الملك العظيم، كما يحتمل أن يكون الخطابُ للكفرة

(1) االكرماني، لباب التفاسير، ص: 1492، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 81، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 14.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 143، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 51.

بطريق الالتفات من العموم إلى خصوص الكافرين، لتنبيهِهم إلى شناعة أعمالِهم وقُبحها[1].

بلاغةُ الاستعارة:

سُمّي الامتحانُ في الدّنيا ابتلاءً لأنَّـه في صـورة الاختبار

لمّا لم يجز الاختبارُ في شأنِ علّام الغيوب، كان ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ مستعارًا لمعنى نعاملكم معاملة المختبِر بأن نمكِّنَكُم من الشَّرِّ لتفعلوه أو تتجنَّبوه، ومن الخير لتفعلوه، لأنَّه تعالى يُجازي على ما تعملونه لا على ما يعلمُه منكم، فالاستعارة تمثيليّةٌ، وسُمّيَ ذلكَ ابتلاءً، لأنَّه في صورةِ الاختبار[2].

معنى الباء ودلالتُها في قوله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾:

الباء في قوله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ للإلصاق، أي: بأن يلتصق بكم أو يختلط بكم الشّر والخير[3] فهم المقصودون بالابتلاء، وهو الملصق بهم لا بسواهم.

معنى اللام ودلالتُها:

يتفاوتُ النّاس في أنواع الابتلاء بالخير والشّرّ

اللام الدّاخلة على الاسمين في قولِه: ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾ للجنس بمعنى قصد الحقيقة، أي: نبلوكم بما يطلق عليه شرٌّ، وما يطلق عليه خيرٌ، ولا يقتضي الاستغراقَ لكلِّ أنواعِ الشرِّ، وكلِّ أنواعِ الخير.

الغرضُ من التّعبير بأسلوبِ الطباق:

كما يكون الشّرُّ ابـتـلاءً يكـون الخيرُ كذلك

الشَّرُّ والخيرُ في قوله تعالى ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ عامٌّ في الفقرِ والغنى والمرضِ والصّحةِ والمعصية والطاعة والشدّة والرّخاء، وبالجملة كُلُّ ما يصحُّ أن يكون فتنةً وابتلاءً[4] وجاء التّعبير بأسلوب الطباق لبيان مناط الأمر في الحياة وأن مداره على الابتلاء

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 66.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 116، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 143، و497، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 51.

(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 418.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 81، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 428.

بالمتضادّين، دفعًا لتوهّم أنّ الشرّ وحده ابتلاءٌ، وأنّ الخير إكرام لا ابتلاء كما يظن الكفّار كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الفجر: 15].

الغرضُ من تقديم الجارّ والمجرور:

تقديمُ الوسيلةِ على الغرض بيانٌ لاتّحاده

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور مع معطوفِه ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ﴾ على ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ أعمال الاختبار راجعةٌ إلى هذين الأمرين تنبيهًا لهم، وللاهتمامِ بهما بتجنّب الشّرِّ وملازمة الخير، كما أنَّ في التّقديم تقريرًا للمعنى لتقوّي الخبرِ، ولا يفيدُ التَّقديم القصرَ(1).

سرُّ تقديم ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ على ﴿وَٱلۡخَيۡرِ﴾:

الابتلاءُ بالشّرّ أكثرُ من الابتلاء بالخيرِ

قُدِّمَ الشَّرُّ على الخيرِ، في قوله ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾؛ لأنَّه لمّا ذكر النّفس في قوله ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أفادَ أنَّ النّفوس أسرعُ شيءٍ إلى الشّرِّ، وأنَّه من طبع النّفوس، فكان تقديمُه مناسبًا لتقدُّم ذكرِ النّفسِ، ولأنَّ الابْتِلاءَ بالشّرِّ أكْثَرُ، ولأنَّ أكثرَ النّاس يستجيبون لداعي الشّرِّ لإغواء إبليس إليه، ولِأنَّ العَرَبَ تُقَدِّمُ الأقَلَّ والأرْدَأ، ومنْهُ قوله تعالى ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: 49] وقوله ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: 32]، كما أفادَ التّقديمُ أنَّ الاختبار بالشَّرِّ أشدُّ في ذاته من الاختبار بالخير، فإنَّه، وإنْ يبدُ أخذُه حلوًا، ولكنَّه مرٌّ(2).

الغرضُ من إسناد البلاء إلى الضّمير العائدِ على الله تعالى:

تمكينُ الخير والشّرِّ منَ المبتلى بيدِ الله وحده

في قوله ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ أسندَ الفعل (نَبْلُو) إلى ضمير الجمع الواو المفيدِ للتّعظيم العائد إلى اللّه تعالى؛ للإشعار بأنَّه تعالى هو الذي يمكنهم ويسهلُ لهم النّجدين نجدَ الخير ونجدَ الشر، فقد قال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 10]، ولمّا كان ضميرُ الجمع مفيدًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 66، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 65.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 81، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 428، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 418.

تعظيمَ الفاعل دلَّ على تعظيم الفعل، بمعنى تعظيمِ الابتلاء بالفتنة بالشّرِّ والخير.

تنوّعُ إعرابِ ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ وثراءُ المعنى:

تنوّعُ المعنى على وفقِ تنوّعِ التّوجيه النّحويّ

في نصبِ ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ ثلاثةُ أوجه، وهكذا في كلِّ مصدرٍ نكرةٍ منصوبٍ، أحدُها: أنَّه مفعول مطلقٌ للفعل ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ ليكون مصدرًا من غيرِ لفظِه، وفائدةُ مجيء المصدر من غير لفظِه بيانُ أنَّ الابتلاء هو فتنة وامتحان، ليظهر الصّالحُ من غيرِه، وهذا الوجه اختاره كثيرٌ من المفسّرين، والثّاني: أنّه مصدرٌ في موضع الحال، أي: فاتنين، والمعنى نبلوكم بالشّرِ والخير مظهرين ذلك، والثّالث: أنّه مفعول لأجلِه، والمعنى نبلوكم بالشّرّ والخير لأجل إظهار جودتكم ورداءتكم[1]، وعلى الأوجه الثلاثة فإنَّ المرادَ أنَّ الابتلاء بالشّر والخيرِ أمرٌ عظيمٌ لا يثبت له إلّا المُوفَّقُ، كما أنَّه لمّا كانت الفتنة متعلّقةً بالفعل ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ أفادت أنَّ هذه الفتنة من اللّه، ومتى كانت الفتنة من الله فإنّها تكون على وجه الحكمة، ويفيدُ تنكيرُ ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ تفخيمَ الفتنة وتعظيمَها، أي: الاختبار بالشّرِّ والخير في هذه الدنيا.

بلاغةُ الاستعارة:

أهلُ الخير مقرّبون عند الله، وأهلُ الشّر مذمومون مُبعدون

أصلُ الفتن إدخالُ الذّهب النّار؛ لتظهر جودته من رداءته، فيكونُ في التّعبير بلفظ ﴿فِتۡنَةٗۖ﴾ في قوله ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ استعارة بتشبيه تصفيةِ من يعمل الخير ممّن يعمل الشّرَّ بفتنةِ الذّهب، وتصفيتِه من غيرِه، ثمَّ حَذف المشبَّه، وأبقى المشبَّه به على سبيل الاستعارة التّصريحية الأصليَّة، والمعنى: (نبلوكم كما يفتن الذهب المرغوب المحبوب إذا أريدت تصفيته بمخالطة النّار

---

(1) أبو البقاء العكبري، التبيان: 2/ 918، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 428، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 497.

له)، وفائدةُ الاستعارة بيانُ عظمِ الفتنة ومعاناتِها، وأنَّ من يعملون الخير مرغوبٌ فيهم، مقرّبون، ومن يعملون الشّرَّ مذمومون[1].

دلالةُ الواو في ﴿وَإِلَيْنَا﴾:

تقريرُ المعاني المهمّة بيانٌ لقدرِها

الواو في قوله ﴿وَإِلَيْنَا﴾ استئنافيَّةٌ، لتفيد تقريرَ الجملة التي تتلوها والاهتمامَ بها، فكأنَّه لها معنى مستقلٌّ، لأنَّ الآية على قصرِها قد ذكرت الموتَ والحياةَ والبعثَ.

بلاغةُ القصرِ بتقديم الجارِّ والمجرور على الفعل:

إلى الله تعالى رجوعُ الخلقِ لا إلى غيرِه سبحانه

لّما جاء الجارُّ والمجرور مقدّمًا على الفعل في قولِه ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أفاد التّقديمُ الاختصاصَ، والمعنى: (ترجعون إلينا وحدنا لا إلى غيرِنا)[2]، ويكون الملك يومئذٍ للّه فيكونُ الحساب، ثم الجزاءُ للطائعين والعقاب للعاصين.

فائدةُ التّعبير بضمير العظمة (نا):

القادرُ على الإرجاع هو الله وحده، كما قدرَ على الخلق وحده

أفاد التّعبيرُ بضمير العظمة في قولِه ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أنَّه لا يقدرُ على إرجاعكم يومَ القيامة كما كنتم في الدنيا سوى اللّه تعالى الملك الواحدِ الأحدِ.

دلالةُ التّعبير بالمضارع مبنيًّا للمفعول:

الفاعلُ متعيّنٌ معروفٌ لا حاجةَ لذكره

في قوله ﴿تُرْجَعُونَ﴾ أفاد التّعبيرُ بصيغة المبني للمفعول الإشعارَ بعِظَم الإعادة يوم البعث، فكأنَّهم في غيبوبةٍ عمّن يُرجعهم إلى الحساب ليجازيَهم على أعمالِهم.

الغرضُ من حذف متعلّق ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾:

الإيجازُ والاختصارُ ملائمٌ لهول الموقف

لّما جاءت جملةُ ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد إثبات الموتِ على كلِّ نفسٍ، وبعد بيان وقوعِ الاختبار في هذه الدنيا، أفادَ أنَّ المعنى: (وإلينا

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 418، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 54.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 66.

ترجعون بعدَ الموتِ للجزاء)[1]، وفائدةُ حذف المتعلَّق الدّالَّ على الزّمان الإيجازُ في الكلام للعلم به، ومراعاةُ الفاصلة ورؤوس الآي.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

في الرّجوع معنَى الإقبال إلى من يُرجَعُ إليه

لفظ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ مأخوذٌ من الرّجوع، وهو العودُ إلى ما كان منه البدء، ويستعملُ اللّفظ بمعنى رجوع الخلق يومَ البعثِ إلى تمام خلقتِهم التي كانوا عليها، ولمّا قال ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ أفادَ أنَّ البدءَ من اللّه تعالى ليفيدَ بلازِمه أنَّ اللّه تعالى هو الذي خلقهم، وفي الرّجوعِ معنى الإقبال إلى من يُرجَعُ إليه[2]، والمعنى: (وإلينا ترجعون يومَ القيامةِ لنجازيكم على أعمالِكم)، وإن كان الخطابُ في قولِه: ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ على معنى عموم النّاس أفادَ الخبر بلازمِه الوعدَ للمؤمنين والوعيدَ للكافرين، وإن كان الخطابُ للكافرين أفادَ الوعيد المحضَ لهم[3].

بلاغةُ التّعريض في قوله ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾:

المقصودُ من الدّنيا الابتلاءُ للمجازاة في الآخرة

في قوله ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ تعريضٌ بالمخاطبين عمومًا ويدخل فيه الكافرون دخولًا أوّليًّا بمعونةِ السّياق إلى أنَّ المقصود من هذه الحياة الدّنيا هو الابتلاءُ والتّعريضُ للثواب والعقاب على سبيلِ المجازاةِ على الأعمال التي وقع الاختبار عليها[4].

التوجيه البلاغي للقراءات في ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾:

القراءة مع القراءة كالآية مع الآية

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ قراءتين مشهورتين، فقرأ الجمهور ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بالبناء لما لم يسمّ فاعله، وقرأ يعقوبُ - وحده - بالبناء للفاعل ﴿تَرۡجِعُونَ﴾ في كلّ ما كان فيه الرجوع إلى الآخرة، فحجَّة قراءة الجمهور ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ أنّه من (أُرۡجِعَ)

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 418.

(2) الراغب، المفردات: (رجع).

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 66، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 54.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 51، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 66.

إذا فُعِلَ به الرجوع، فاللّه سبحانه هو وحده القادر على إرجاعهم، ونظير هذا المعنى قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الكهف: 36]، وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 62][1]، وأمّا قراءة يعقوب بالبناء للفاعل ﴿تَرْجِعُونَ﴾ فجعل فعل الرّجوع منهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]، فهو فاعل في اللّفظ دون المعنى، نحو: (مات زيدٌ).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الابتلاء والامتحان والاختبار:

الابتلاء كثرةُ الاختبار وطولُ مدّةٍ فيه، فهو من بَلِيَ الثّوب بِلًى وبَلاءً، أي: خَلِقَ، وبَلَوْتُهُ بمعنى اختبرته كأنّي أخلقته من كثرة اختباري له، ففيه معنى طولِ المدّة والتّكليف، ويقال ابتلاه بالخير والشّرِّ، فيُقصد بالابتلاء إظهارُ الجيّد من الرّديءِ، وأمّا الامتحان فهو بمعنى بيانِ حقيقة الشّيء بإزالةِ ما يشوبه بطولِ نظرٍ وتدبّرٍ فيه، ويُقصد بالامتحان إظهارُ الخالصِ من الشّيء والمصفّى منه[2]، وأمّا الفرقُ بين الابتلاء والاختبار فيُقال إن الِابْتِلاء يَقْتَضي اسْتِخْراجَ ما عِنْد المُبْتَلى من الطّاعَة، والمَعْصيَة، والاختبارَ وُقوعُ الخَبَر بِحالَة في ذَلِك، والخَبَر العلمُ الَّذي يَقع بكنه الشَّيْء وحَقيقَته[3].

الابتلاء كثرةُ الاختبار وطولُ مدّةٍ فيه، والامتحان بيانُ حقيقة الشّيء بإزالةِ ما يشوبُه بطولِ نظرٍ

الابتلاء والفتنة:

الفرق بينهما هو أنَّ الفِتْنَةَ أشدُّ الاختبار وأبلغُه، والقصدُ من الفتنة إظهارُ الحالةِ وتبيينُها، وأصله عرضُ الذَّهَب على النّار ليتبين صَلاحُه من فساده، وأمّا الابتلاء فهو اختبارٌ مُشعر بطولِ مدّتِه، ويكون بالخير وبالشّرِ كما تكون الفتنة كذلك.

الفتنة أشدُّ الاختبار وأبلغُه

(1) ابن الجزري، النشر: 208/ 2، والفارسي، الحجّة: 5/ 422.
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلي، محن).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 215.

الرجوع والعَود:

الرَّجـوعُ فعلُ الـشّئ ثـانـيـةً، وفـيـه معنى الإقبال، والعودُ هـو الـرّجـوع الـقـويّ الـذي يكون بعدَ مدَّةٍ من الزّمن

الفرق بين الرّجوع والعود هو أنَّ الرجوع فعلُ الشّئَ ثانيةً، ومصيرُه إلى حالٍ كان عليها، والرّجوع إلى الشّيء يفيد معنى الإقبال إليه، من غير إدبارٍ، فيقال: رَجَعَ إِلَيْه أي أقبل، والرّجوع هو العودُ إِلَى ما كانَ عليه مَكانا أو صفةً أو حالًا، يُقال: رَجَعَ إِلَى مَكانَهُ وإِلَى حالَة الفقر أو الغنى، ورجع إِلَى الصِّحَّة أو المَرَض أو غَيره من الصِّفات، وأمّا العودُ فيستعمل في الرّجوع القويّ الذي يكون بعدَ مدَّةٍ من الزّمن، ومنه العَوْد وهو الجَمَل المسنّ الَّذي فيه بَقيَّةُ قوَّة، وعوّد الرّجل تعويداً إذا أسنّ، ويستعمل العودُ في الابتداء مجازا، فيقال قد عاد إليَّ من فلان مكروه، وإن لم يكن قد سبقه مكروه قبل ذلك، وتأويله أنَّه لحقني منه مكروه، وأمّا تردّون فهو من الرّدِّ وهو رجوع على معنى انعكاس الجانب وقد يكون فيها معنى القبح، ولهذا يُقال للْمَرْأة إذا اعتراها شَيْء من جمالٍ وفي وجهِها شَيْء من قَباحة: هيَ جميلَة، ولَكِن في وجهِها بعضُ الرَّدَّة، ويقال في فلان رَدَّة، أي: يَرتدّ البَصَر عَنهُ من قُبحِه، ومنه الرِّدَّة، وهي الرّجوع عنِ الإسلام إلى الكفرِ للإيذانِ بقبحِ الرّدة[1].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجع، ردد، عود).

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾ [الأنبياء:36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

موقف الكفّار من إيذاء النّبيّ ﷺ

لَمّا تحدَّثت الآيات السّابقة عن معبودات قريش التي عبدتها وهوَّنت من شأنها وأبانت عن عَجْزها وضعفها، وكان ذلك ممّا يغُمُّ المشركين؛ بيَّنت هذه الآية ردَّ فِعلهم على التَّهوين من شأن معبوداتهم؛ فشرعوا في الاستهزاء بالرَّسول ﷺ والتَّنقيص من قدره، وذلك عند رؤيتهم له ﷺ بقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾.

ومِنَ المناسبات بينَهما: أنَّ اللّه ﷻ لمّا أخبرَ عَن مَطاعنِ المُشْرِكين في القُرآنِ الكريمِ ومَن جاءَ به ﷺ؛ ذَكَر وصْفًا آخَرَ لِما يُؤْذي به هؤلاءِ المُشْرِكون رسولَ اللّه ﷺ حينَ رُؤيتهم لَه؛ إذْ ذلك أخصُّ من أذاهُم إيّاه في غَيْبته، فقالَ سُبحانه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾: (أخذ) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنى حيازَةِ الشَّيءِ وجَمعِهِ[2]، وهذا المَعْنى يكونُ تارةً بالتَّناوُلِ، وتارةً بالقَهْرِ والغلَبَةِ[3].

ومِنْ هذا البابِ وُرُودُ المادَّةِ مرادًا بها التَّحصيلُ، كقولِهم: اتَّخذَ فلانٌ مالًا، أي: كسَبَهُ، وفِعْلُ (اتَّخذَ) هُو افتعالٌ مِنَ الأخذِ، والمرادُ به: الأخذ للنَّفْسِ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 75.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (أخذ).
(4) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أخذ).

والاتِّخاذُ الوارِدُ في قولِ الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يُرادُ به الجَعْلُ والتَّصْيِيرُ، أي: يجعلونَهُ ويُصيِّرونَهُ محلَّ الهُزءِ، وهو جعلٌ وتصييرٌ في أذهانِهم لا في الواقِعِ ونَفْسِ الأمرِ.

2) ﴿هُزُوًا﴾: (هزأ) تدلُّ تَصريفاتُها على معنى السُّخرية[1]، والهُزْءُ: مزحٌ في خفية، وقد يقال لما هو كالمزح؛ فممّا قُصِد به المزح قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: 58]، والاستهزاء: ارتياد الهزء، وإن كان قد يُعَبَّر به عن تعاطي الهُزْءِ، ويأتي الهُزْءُ بمعنى الاسْتِخْفافِ[2]، وكأنَّ هذا تفسيرٌ باللّازم؛ فإنَّ الذي يُسْتَهْزَأُ به؛ يُستهانُ بشأنِه، ويُستخفُّ به[3]، وهذا هُو المَعْنى الوارِدُ في قولِ الله ﷻ: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

وحكى ابنُ جرير أنَّ الاستهزاءَ في كلام العرب معناه: إظهارُ المُسْتَهْزِئ لِلمُسْتَهْزَأ به مِنَ الفِعْلِ والقولِ ما يُرضيه في الظّاهِرِ، ولكنَّ ذلكَ يُورثُه مَساءَةً في الباطِنِ[4].

3) ﴿ءَالِهَتَكُمۡ﴾: (أله) تدور اشتقاقاتُها على مَعْنى التَّعبُّدِ، ومِنْهُ: الإلهُ وهو المعبودُ، ويُقال: تألَّهَ الرَّجُلُ؛ إذا تَعَبَّدَ[5]، ويقال: أَلِه فلانٌ يأله إلاهةً، أي: عبد يعبُد عبادةً، والله: هو المعبودُ بحقٍّ.

وجَمعُ إلَهٍ: آلِهَةٌ، وليس لفظُ الإله متعيِّنًا في المعبودِ الحقِّ، وإنَّما ذلك المَعْنى حاصل في اسم (الله)؛ فإنَّ معناه الإلهُ الحقّ، ولذا ما يُقال من أنَّ لفظ (إله) حقُّه ألّا يُجمَعَ غير صحيح، والمراد بالآلهة: المَعْبوداتُ بالباطِلِ، وهُو المُراد في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[6].

4) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: (رحم) تدلُّ اشتقاقاتُها عَلى الرِّقَّة والعطفِ والرَّأفة[7]، ومِنْهُ: المَرْحَمَةُ؛ وهي الرَّحْمَةُ، كما قال تَعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد:17]؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا بِرَحْمَةِ الضَّعيف والتَّعطُّفِ عليه[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هزأ).
(2) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: (هزأ).
(3) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 303.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أله).
(6) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (أله).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(8) الخليل، العين: (رحم).

والرَّحْمَةُ من صفاتِ اللهِ تَعالى صِفَةٌ تَقْتَضي الإحسانَ والإنعامَ[1]، وليست هيَ الإحسانَ ذاتَهُ، ولا إرادَتَهُ.

والرَّحمَنُ: اسْمٌ للهِ تَعالى مُتَضَمِّنٌ وصفَ الرَّحمةِ للهِ سُبحانه بِاعْتبارِ كمالِ اتِّصافه بها[2]، ولا يُطْلَقُ الرَّحمن إلّا على اللهِ تعالى من حيث إنَّ معناه لا يَصِحُّ إلّا له[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

جُحودُ الكُفّارِ بالرَّحمنِ ﷻ

بيَّنت هذه الآيةُ بَعْضًا من سفاهات كفّار مكَّة تجاه النَّبيِّ ﷺ حين مُروره عليهم، فيسخرون منه، وصَوَّر القرآن هذا المشهد بقوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الآيةَ، أي: إذا رآكَ الكُفّارُ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - ؛ أشاروا إليكَ ساخِرينَ مِنك بِقَوْلِ بعضِهم لبعضٍ: أهَذا الرَّجلُ الذي يَذْكُر آلِهتَكم بسوءٍ ويَعيبُها؟ لكنَّهم جَحدوا بِالرَّحْمن ونِعَمِه، وبِما أنزلَهُ من القرآنِ والهُدى[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُملَةِ بِما قَبْلَها:

تواصُل إيذاء الكُفّارِ لِلنَّبيِّ ﷺ

وُصِلَ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ بما قبلَهُ من الآياتِ؛ للاشْتراكِ في ذِكْرِ مطاعِنِ المُشْرِكين في القرآنِ الكريمِ وفي النَّبيِّ ﷺ، وذلك لأنَّ اللهَ سُبحانه قالَ عَنْهُم: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ﴾ [الأنبياء:3]، فعَطَف عليه قولَه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[5]؛ لبيانِ وصفٍ آخرَ كانوا يُؤذونَ به النَّبيَّ ﷺ حينَ يَرونَهُ[6].

(1) ابن عثيمين، مذكرة على العقيدة الواسطيَّة، ص: 23.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 42.
(3) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (رحم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 440، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسر، ص: 325.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 419.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 75.

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِ (إذا):

مُخالَطَةُ النَّبيِّ ﷺ قَـوْمَـهُ لِدَعْوَتِهِم

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ بـ (إذا) دون (إن)؛ لأنَّها دالَّةٌ في الأصلِ عَلى القَطْعِ بِوقوعِ مَدْخولِها وتَحَقُّقِه، وفي هذا دلالة على أنَّ رُؤْيَتَهُم للنَّبيِّ ﷺ متحقّقةٌ - لكونه غيرَ معتزِلٍ قومَهُ - واسْتِهْزاءَهم به متحقَّقٌ مقطوعٌ به كلَّما رَأَوْهُ، وهذا مِنْهُم في غايَةِ الضَّلال والانحرافِ.

وفي التَّعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ أيضًا: إشارة إلى مدى العناء الذي تحَمَّله رسولُ اللّه ﷺ من إيذاء قومِه في عَرْضه الدَّعوةَ عليهم صباحَ مساءَ، وهم يُقابلون ذلك بالسُّخرية منه والاستهزاء به عليه الصَّلاة والسَّلام كلَّما رأوهُ.

سِرُّ التَّعبير بالرُّؤية في قوله: ﴿رَءَاكَ﴾:

وُضـوح المـرئيِّ وظهورُه

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبير بالرؤية في قولِه: ﴿رَءَاكَ﴾ دون غيرها مِن النَّظر والبَصر لوجودِ فرق بينَها، فأصلُ مادَّة (رأى) يدلُّ على العلم بالشَّيء إمّا بالعينِ أو بالقلبِ، بخلاف مادَّة (بصر)؛ فإنَّها تدلُّ على وضوح الشَّيء، تقول: أبصرتُه؛ إذا رأيتَهُ، أمّا (نظر) فإنَّها تدلُّ على تأمُّلٍ للشَّيءِ ومعاينةٍ له؛ هذا من جِهَةِ اللُّغة[1].

أمّا في الاستعمالِ القُرآنيِّ؛ فلِكُلِّ لفظ ما يُميِّزه؛ فمادَّة البصر في القرآن يدور معناها حولَ الإدراك بحاسَّة البصرِ، وهيَ العينُ والإدراكُ بالبَصيرَةِ، وشواهدُ القرآنِ على ذلك كثيرة، فممّا ورَدَ في استعمالاتِ البَصَر بِمَعْنى الجارحةِ قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:78]، ومن استعمالاته بمعنى البصيرة قولُه سُبحانَهُ: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس:43].

وأمّا النَّظر؛ فأصلُ معناه التَّحديق بحاسَّة الإبصار نحوَ الشَّيء،

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 133.

وهذا في نفسِه لا يُؤدّي إلى إدراك الشَّيءِ؛ لأنَّ النَّظر تحديقٌ والإبصارَ إدراكٌ، والنَّظر أدنى مراتب الإدراك بالعينِ، ويُطْلق النَّظر على التَّأمُّل والاعتبار كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس:101].

وأمّا الرُّؤية فتُستَعمل للإدراك بحاسَّة البصر على الحقيقة، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ [الأنعام:76]، وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ﴾ [الأنعام:77] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، وتُطْلق على الإدراك بالفكر والعقل، نحو قولِه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النجم:11].

ولمّا كان للتَّعبير بالرّؤية دلالةٌ في تحقُّق المرئيِّ، عبّر بها هنا؛ لأنَّ المرادَ رسولُ اللّه ﷺ، ولم ينسب للكفّار التَّعبير بالبصر؛ لأنَّ من معانيه الإدراكَ بالبَصيرَةِ، وكفّار مكَّة سُلِبت منهم البصيرة، ولم يُعَبّر بالنَّظر عن الكُفّار؛ لفقدهم التَّأمُّلَ والاعتبارَ، إذْ لو وُجِد عندَهُم التَّأمّل والبصيرة القلبيَّة ما سَخِروا مِن رسولِ اللّه ﷺ.

وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالرُّؤية: تصويرُ سخريَّة المشركين واستهزائِهم - قاتلهم اللّه - بشخصِ النَّبيِّ ﷺ، فكأنَّ مجرَّد الرُّؤية منهم للرَّسول ﷺ تُثير سخريَّتهم حرصًا مِنْهُم على هَدَفِهم الخبيثِ في إضعافِ مكانَتِه ﷺ عند مَن يَتَطَلَّعون إلى الإيمانِ بهِ.

دِلالة التَّعبير بالماضي ﴿رَءَاكَ﴾:

تحقُّق رؤية الكُفّار للرّسول ﷺ وعدم استخفائه عَنْهُم

آثَر القرآنُ الكريم التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿رَءَاكَ﴾ دون المضارع؛ للدّلالة على تحقُّق رؤيتهم للرَّسول ﷺ، وأنَّه لم يَسْتَخْفِ عن أعينِهم، وفي هذا دليل على عظمةِ رسول اللّه ﷺ وشجاعته في إبْلاغ الدَّعوة، وتسفيه أصنامهم.

دِلالة تقديم المفعول في ﴿رَءَاكَ﴾:

قُدِّم المفعول على الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾؛ للدّلالة على العناية بشخصه ﷺ، وأنَّه محلٌّ للرّؤية من هؤلاء القوم؛ فهو

المخصوص برؤيتهم دون غيره مِمّن يمُرُّ على الذين كفروا، وفي هذا دليل على ملاحقة أعيُنِ الكفّار للرّسولِ ﷺ دون غيره مِنَ الأشخاص؛ لأنَّه راية الإسلام، فإذا قُضي عليه - من وجهة نظر الكفّار - بتشويه شخصيَّته وتجريدها من جلال النُّبوَّة وهيبة الرِّسالة؛ فقد قُضيَ على الإسلام.

إظهار عظمة الرَّسول ﷺ وشجاعته في إبلاغ الدَّعوة

بَراعَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضمارِ؛ على تقدير: (وإذا رأوكَ إن يتَّخذونك إلّا هزُوًا)، لكن أُظْهِرَ لأجلِ التَّنبيه على أنَّ ظُلْمَهم الذي أوجَب لهم ذلك هُو الكفرُ وإن كانَ في أقَلِّ درجةٍ، والمرادُ مِن ذلكَ تَشْنيعُه والإيماءُ إلى أنَّه يَطْمِسُ الفكرَ مُطْلَقًا[1].

ليس بعدَ الكفر ذنبٌ

ومِن أسرار التَّعبير بالإظهار في موضع الإضمار: تعيينُ الكفّار المعاصرين لرسول اللّه ﷺ وتحديدُهم، وهم الذين وقعت منهم هذه السُّخريّة، ولو جاء التَّعبير بالإضمارِ - على مقتضى الظّاهِرِ - لَتُوُهِّم أنَّ الأمر ينصرف إلى مُطْلَق الذين كفروا، وهذا غير مرادٍ بدليل السّياق الذي ورد فيه مشهد السُّخريّة من كفّار مكَّة.

إيثارُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ:

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ - بدلًا مِنَ الاسْمِ الظّاهِرِ (الكافرون) مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ - لإرادَةِ التَّعليلِ والإيماء إلى عِلَّةِ بناءِ حُكم الاستهزاءِ المذكور بعدُ، وأنَّ الباعثَ عليه هُو الكُفْرُ.

الكُفْرُ هُوَ الباعِثُ عَلى الاسْتِهْزاءِ

وفيه إشارة إلى اشتهارهم بما وقَعَ في حيِّز الصِّلة وهو الكُفْرُ، وشمولِ كُلِّ من تلبَّس بالكفر.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 419.

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

تَمَكُّن الكفرِ في قُلوبِهم

دل التَّعبير بالفِعْلِ الماضي ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ على أنَّ الكفر رسَخ في قُلوبهم وتمَكَّن منهم؛ فأفسد فطرتَهُم حتّى فقدوا الاستعدادَ للإيمان، وأيضًا فيه تبشيعٌ للكفر بكُلِّ صُوَرِه، ولو كان بِكفرانِ النِّعمة.

دلالةُ حذفِ متعلِّق الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

بَيانُ كُفْرِهم بِكُلِّ ما يجِبُ الإيمانُ به

لم يَرِد في السّياق القرآنيّ ما الذي كفر به هؤلاء مَع وضوحه وظهورِه؛ لأنَّ الغرض إفادةُ العموم في جحود الكافرين؛ فلم يَقْتَصِر كفرُهم على رسولِ اللّه ﷺ ولا على المعجزة التي نَزَلَت عليه - وهي القرآنُ - بل كفروا بكلِّ ما يَنْبغي أن يُؤْمِنوا به.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دون (الذين أشركوا):

الـشِّـرك أخـصُّ مِنَ الكُفْرِ

عبَّر القرآن الكريم بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دون (الذين أشركوا)؛ لأنَّ الكفر أعَمُّ من الشِّرك؛ إذِ الكفرُ يقَعُ على ذنوبٍ كثيرة، منها: الشِّرك باللّه؛ فالشِّرك يتعلق باللّه تَعالى مِن جهةِ التَّوحيد والعمل والطّاعة، بينما الكفر يتعلَّق بالجحودِ والإنكار في نواحي الإيمان والنِّعم الإلهيَّة، فبينَهُما عموم وخصوصٌ؛ فكل مشركٍ كافرٌ، وليس كلُّ كافرٍ مشركًا[1].

لذلك آثَر القرآنُ الكريم التَّعبير بالكفر في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ كفّار مكَّة جمعوا بين الكفر والشِّرك، وهذا مُنْتهى القبح، فلا غرابة مِن وقوع الاستهزاءِ مِنْهُم بالرَّسول ﷺ.

دلالة ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾:

الـنَّـفـي بـ (إنْ) أقوى من النَّفي بـ(ما)

آثر القرآن الكريم التعبير بـ﴿إِن﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ لأنَّها بِمَعْنى (ما) النّافيةِ[2]، والنَّفي بـ ﴿إِن﴾ أقوى من النَّفي بـ (ما)، والمَعنى: ما يَتَّخذونك إلّا محلًّا للسُّخريَّة والاستهزاءِ.

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 258.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 82.

دِلالَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ:

اسْـتِـغْـراقُ الاسْتِهْزاءِ جَميعَ أحْوالِ المُشْركينَ

في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أسلوبُ قصرٍ، وطريقُهُ النَّفْيُ بـ﴿إِن﴾ والاستثناءُ بـ﴿إِلَّا﴾، والمَعْنى: ما يتَّخذونَك إلّا مهزوءًا بِه، ففيه قصرُ معاملةِ المُشْركين للرَّسول ﷺ على اتِّخاذِهم إيّاه هُزُوًا، كأنَّه قيلَ: ما يفعلونَ بِكَ إلّا اتِّخاذك هُزُوًا(1).

دلالة النَّفي والاستثناءِ على القَصر:

لـيسَ في طَـبْـعِ الـكُـفّـارِ غيرِ الاستهزاءِ

في إيثارِ النَّفْي والاسْتِثناءِ في إفادَةِ القَصْر دِلالة على المبالغة؛ لكونِ ذلك يُفيد استغراقَ الاستهزاءِ في جميعِ أحْوالِهم، أي: لَم يُعامِلوه بمعاملةٍ أُخرى غير الاستهزاء، فقَصروا معاملتَهُم لَه عليه؛ فلَيْسَ لَدَيْهِم في أَنْفُسِهم فراغٌ لِسَماعِ الحقِّ والإنصاتِ إلَيْهِ، وإذا رأوا النَّبيَّ ﷺ رَؤوفًا بِهِم رحيمًا مُتواضِعًا؛ أغْرَتْهُم هذه الرُّؤية بأن جَعَلوا هذه الصِّفاتِ الجليلةَ لِرَسولِ اللّه ﷺ محلًّا للاسْتِهْزاءِ(2)!

دلالة التَّعبير بالمُضارع: ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾:

تَـجَـدُّد سُخريَّةِ الـكُـفّـار واستمرارُها

دل التَّعبير بالفعلِ المضارع ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ على تجدُّد الاستهزاءِ والسُّخريَّة منهم بالرَّسول ﷺ، وقد سجَّل القرآنُ الكريمُ كثيرًا مِن سُخْريَّتهم به ﷺ بأنَّه شاعر أو ساحر أو كاهن، إلى غيرِ ذلك مِن صُوَرِ الاستهزاءِ التي لا تَخْفى على مَن يقرأ السّيرة النَّبويَّة وما فيها مِن أحداثٍ ووقائعَ في هذا الشَّأن.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿هُزُوًا﴾:

الاسْتِهْزاءُ طَبْعٌ لِأَهْلِ الإشْراكِ

والهُزْوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ مصدَرٌ وُصِفَ به أو هو مصدرٌ بمعنى اسْمِ المفعولِ، أي: إن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 66، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 45.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4862.

يتَّخذونه إلّا مَهْزوءًا بِه[1]، والتَّعبير بالمصدَرِ أشدُّ مبالغَةً مِن الوَصْفِ باسْمِ المَفْعولِ، والمَعْنى أنَّهم كانوا كَثيري الاسْتِهْزاءِ بك[2].

سِرُّ التَّعبير بالاستهزاء دون السُّخريَّة:

جاء التَّعبير القرآنيُّ في وصف موقف الذين كفروا من الرَّسول ﷺ بالاستهزاء في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ دون أن يقولَ: (إلّا سخريَّة)، مع قُرْبِهما في المعنى لغةً، حيثُ إنَّهما يدلّان على الاحتقارِ مع أنَّ النّاظر في استعمال القرآن الكريم لَهُما يجِدُ فرقًا في الدّلالة؛ فمادَّة السُّخريَّة في أغلب صُوَرِها تتميَّز بالشِّدَّة ووجود سببٍ يدعو لذلك، ومِنَ الأمثلةِ على هذا موقفُ قوم نوح مع نوح عليه السلام عند صُنعه السَّفينةَ، وصَوَّر القرآن ذلك بقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨﴾ [هود:38]، وكان السَّبب في السُّخريَّة هو صناعة السَّفينة.

دِلالَةُ الحَذْفِ فِي الآيَةِ:

الإيجاز في اللَّفظِ ثراءٌ للمعنى

في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ قولٌ محذوفٌ، والتَّقدير: (ما يتَّخذونك إلّا مهزوءًا به؛ يقولونَ: أهذا الذي يَذْكُر آلهتَكم)[3]، وقرينةُ حذفِ القولِ ما تقَرَّر مِن أنَّ الاستهزاءَ يكون غالبًا بالقَوْلِ[4].

وفُصلَت جملةُ القولِ عمّا قَبلها؛ لِوُرودها استئنافًا بيانيًّا؛ إذْ إنَّ قولَهُ سُبحانه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يَبْعَثُ في نفسِ المُتلقّي سؤالًا وهُو: ما وجهُ استهزائِهم؟ أو ماذا كانوا يقولونَ في اسْتِهْزائهم؟ فجاءَ الجوابُ: يقولونَ ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 190.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 147.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 82، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 190.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66.

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في ﴿أَهَٰذَا﴾:

تقليل المُشْركينَ من رُتْبَته ﷺ

دلَّ الاستفهام في قولِ اللّه تعَالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ على محاولَةِ المُشْركينَ التَّقليلَ والتَّحقير من شأنه ﷺ، وذلك مِن خلال هذا الاستفهامِ الصّادر من الرُّؤساء والقادة لأتباعهم أو من بعض الكفّار لبعض، يقولونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ عَلى وجْه الاسْتِصغارِ للنَّبيِّ ﷺ، كما دلَّ عَلى ذلكَ قولُ اللّه سبحانه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾.

ويجوزُ أن يُرادَ بالاسْتِفهام التَّعجُّبِ؛ وهو آيلٌ إلى مَعْنى الإنكارِ والتَّحقير؛ لأنَّهم يتَعجَّبون من صدورِ هذا الذِّكْرِ منهُ ﷺ لآلهتهم؛ لاعْتِقادِهِم فيه ﷺ منزلةً دون المنزلَةِ الحقَّةِ التي لَهُ، ففي هذا جَمعٌ بينَ التَّعجُّب والتَّحقير[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ (هَذا):

تَـنْـويـعُ أهْـلِ الـشِّـرْكِ مِـنْ طَرائِقِ الاسْتِهْزاءِ

اسمُ الإشارةِ (هذا) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ مستعملٌ في التَّحقير، وهذه الدّلالةُ يُقَوّيها دلالةُ الاستفهامِ عَلى المَعنى نفسِه، والمعنى أنَّهم يستَقِلّونَه، ويستقِلّون أن يقولَ ذلكَ عَن آلِهَتِهم[2].

ومِن أسرار التَّعبير بالإشارة: الإيماءُ إلى محاولة قادةِ الشِّرك في مكَّة الإمعانَ في التَّقليل مِن شخصِ النَّبيِّ ﷺ في نظر أتباعه ونظر مَن يتطلَّعون إلى الإيمان به، ويُؤكِّد هذا المعنى استخدامُ اسم الإشارة (هذا) الموضوعِ للقريب دون اسم الإشارة (ذلك) الموضوع للبعيد، وجوَّز الطّيبيُّ أن يكون اسمُ الإشارةِ (هذا) مُسْتَعْملًا في التَّعظيم؛ ليستقيمَ مَعْنى الاستهزاءِ في أسلوبِ الاستفهام ﴿أَهَٰذَا

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 419، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 148.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9539.

﴿ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، والمَعْنى: هذا النَّبيُّ المُعظَّمُ يَذْكُرُ آلِهَتَكُم ويَعيبُها[1]، يقولون ذلك على وجه التَّعريض به.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ دون (يسبُّ آلهتكم):

حِرْصُ أهلِ الباطلِ على تعظيم آلهتهم المزعومَةِ

عبّر القرآنُ الكريم عن مقولةِ قادةِ الكفر لأتباعهم في شأنِه ﷺ وموقفه مِنَ الأصنام التي تعبدها قريشٌ بقوله: ﴿يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ دون (يسبُّ آلهتكم)؛ ولم يُصَرِّحوا بسَبِّ الآلهة تعظيمًا لها؛ لاعتقادِهم فيها أنَّها تنفع وتضرُّ؛ فلا ينبغي لأحَدٍ أن يَعْتَديَ عليها أو يعيبَها، بل إنَّ تعظيمَها وتقديسَها أمرٌ مطلوب في زعمهم الباطلِ.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ فِعْلِ الذِّكْرِ:

الذِّكْرُ يكونُ بالخَيْرِ والشَّرِّ

حُذف متعلّق الذِّكر لدلالة السّياق عليه؛ فالمقامُ مقام ذِكْرِ العَدُوِّ، ولا يَصْدُر مِنَ العدُوِّ إلّا السّوء، وهذا واضحٌ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ فإنَّه يُراد به الذِّكْرُ بالسّوء، والقرينَةُ عَلى ذلكَ المقامُ؛ وذلك لأنَّهم يعلَمون ما يَذْكُر به آلهتَهم مِمّا يَسوؤُهم؛ إذِ الذِّكر قد يكونُ بالخير وقد يكونُ بالشّرِّ، فإنْ صُرِّح بمتعلّقه تعيَّن أحدُهما بحسَبِ ذلك المُتعلّق، وإن لم يُصرَّح به - كما في هذا الموضع - يُلجأ إلى القرينَةِ، وهي هنا سياقُ الآية، ومن المعلوم أنَّ الرَّسول ﷺ لا يذكرها إلّا بسوء؛ لذا فالذِّكْرُ في قوله: ﴿يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ لا يكون إلا بالسّوء، كالذي في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ [الأنبياء:60][2].

دلالة التَّعبير بالجُملة الحاليَّة:

نعي القرآن للكفّار إنكارهم ذِكْرَ آلهتهم بسوء

دلَّ التَّعبير بالجملة الحالية ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ على نَعْيِ القرآن للكفّار إنكارهم على الرَّسول ﷺ ذِكْرَ آلهتهم بسوء، مع أنَّهم يَكْفُرون بذكر الرَّحمن؛ فمَن هذه حالُه لا ينبغي أن يُنْكر على

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 348.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66.

من يَعيب آلهتهم ويجترئ على مقامها في حالٍ هم فيها قائمون على جُرم غليظ؛ إذ كفروا بالرَّحمن الذي وسعهم برحمته؛ فلم يُعَجِّل لهم العذاب، وأفاض عليهم من فضله وإحسانه، فما لهم يَغارون على آلهتهم الصّمّاء الخرساء، ولا يغارون على مقام الرَّحمن[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُملَةِ الاسْمِيَّةِ:

استِمرارُ المُسْتَهْزِئينَ عَلى الكُفْرِ والجُحودِ

عبّر القرآنُ الكريمُ عنِ الحالِ بالجملة الاسميَّة في قول الله سبحانَه: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ للإيماء إلى استمرارهم على الكفرِ والجحودِ بربِّهم ﷻ؛ لأنَّ الجُملة الاسميَّةَ تدلُّ على الثُّبوت والاستمرارِ بالقرائنِ، كما في هذه الآيةِ؛ إذْ مقامُ الإنكارِ عليهم قرينَةٌ عَلى دوامِ هَذا الكُفر مِنْهُم.

نُكْتَةُ تَكْرارِ الضَّميرِ (هُم):

تَعْظيمُ ما أتى بِهِ الكُفّارُ مِنَ القَبائِحِ

كُرِّر الضَّمير (هُم) في قول الله ﷻ: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ لإرادةِ التَّأكيدِ؛ تحقيقًا لدَوامِ كُفْرِهِم معَ ظُهورِ الأدلَّةِ الموجبةِ إقلاعَهم عنْهُ، وتعظيمًا لِما أتوا به مِنَ القباحَةِ؛ وأنَّهم كافرونَ بالرَّحمنِ بظواهِرِهم وبَواطنِهم[2].

ويَجوز أن يكونَ المراد بالضَّمير ﴿وَهُم﴾ الأوّل: القوم الذين كانوا يَفْعلون ذلكَ الفعل، والثّاني: إبانة لاختصاصِهم به، مع ما في إعادته من التأكيد والتعظيم لِفِعْلِهم[3].

سِرُّ اخْتيارِ اسْمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

رَحْمَةُ الله تَعالى تُقابَلُ بالإيمانِ لا بِالكُفْرانِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبير باسْمِ الرَّحمن في قولِ الله تَعالى: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مرادًا به الله سُبحانَه، والمعنى: إذا ذُكِرَ اللهُ تعالى كانوا به كافرينَ، ولكن عُبِّر باسم الله تعالى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 15/ 218، والخطيب، التفسير القرآني: 6/ 898.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 144، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 420، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 67.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 443.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ لأنَّه أبلغُ في بيانِ ضلالِهم وانحرافِهم؛ إذْ هُم كافرونَ بالذي يَرْحَمُهم، وكان خليقًا بهم أن يُقابِلوا عظيمَ رحمتِه سُبحانه بالإيمانِ لا بالكُفران(1).

دِلالَةُ إضافَةِ ﴿بِذِكۡرِ﴾ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

جُحودُ الكَفَرَةِ بِتَوْحيدِ الله تَعالى

إضافةُ ﴿بِذِكۡرِ﴾ إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مِنْ إضافة المَصدَرِ إلى مَفعولِه، والمَعْنى: وهُم إذا ذُكِرَ الرَّحمن بتَوْحيدِه هُم كافِرون(2).

ويجوزُ أن يكونَ مِن إضافةِ المَصدَرِ إلى فاعلِه، أي: وهُم بتَذْكير الرَّحمن لَهُم جاحِدون(3).

ولا تَنافيَ بينَ المَعْنَيين؛ إذْ هُم كافِرون بذلكَ كُلِّه.

ومما يذكر في سر إضافةِ الذِّكْرِ إلى اسمِ الرَّحمن أنه جاء جريًا على ما كانوا عليه مِن إبائِهم أن يكونَ الرَّحمنُ اسمَ اللّه تعالى، كما قال اللّهُ ﷻ عَنْهُم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ٦٠﴾(4) [الفرقان:60].

دِلالَةُ التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ:

تَأْكيدُ مَعْنى التَّخْصيصِ

في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ، وأصلُ النَّظم: (وهُم كافرونَ بذِكْرِ الرَّحمن)، وقُدِّمَ لإرادَةِ التَّخصيصِ، أي: هُم بذِكْرِ الرَّحمن وحدَهُ كافرون، فهُم جاحدونَ بألوهيَّةِ اللّه تعالى(5)، وهو قصر إضافيٌّ؛ لأنَّهم جاحدونَ بِالبَعْثِ أيضًا.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بضميرِ الفَصْلِ ﴿هُمۡ﴾:

بَيانُ سُخْفِ عُقولِ الكافرينَ

في ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 82.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 194.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4863.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 66.
(5) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4863.

﴿كَٰفِرُونَ﴾ تأكيدٌ لمعنى التَّخصيصِ المستفادِ مِن تقديمِ ما حقُّه التَّأخير.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ عَنْ وصْفِ الكُفْرِ بالاسْمِ:

دَوامُهُم على الكُفْرِ واسْتِمرارُهُم في الجُحودِ

في التَّعبيرِ عَن كُفْرِهم بالاسْمِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ في قولِ اللّٰه تَعالى: ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ إشْعارٌ بدَوامِ كُفْرِهِم واسْتِمرارِ جُحودِهِم؛ لأنَّ الاسمَ دالٌّ على الثُّبوت، وعلى الاسْتِمرارِ بالقَرائن، كَما في هذِه الآيةِ.

مُناسَبَةُ كَلِمَةِ الفاصِلَةِ لِمَضْمونِ الآيَةِ:

رَدُّ عَجُزِ الآيةِ على صَدْرِها من فنّ التصدير

جاءَت فاصلةُ هذه الآية ﴿كَٰفِرُونَ﴾ ردًّا لعَجُزِ الآيةِ عَلى صَدْرِها؛ إذْ قَد ورد في صَدْرِها مادَّةُ الكفر في قوله سُبحانه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وفي إعادةِ ذِكْرِ وصفِ الكُفر في فاصلةِ الآية تأكيدٌ على دوامِ كُفرهم واستمرارهم عليه واختصاصهم به، وذلك ظاهرٌ مِن تقديمِ الضَّمير ﴿هُمۡ﴾، وصياغة اسمٍ من مادَّة الكفر؛ وهُو دالٌّ على الدَّوام بالقرائنِ[1].

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ المُناسِبَةِ لِسياقاتِها

تشابَه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مع موضع سورةِ الفُرقان: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان:41]، فمَوْضِعُ سورة الأنبياءِ ورَدَ فيها الفاعلُ مُظْهرًا، وفي سورة الفرقان ورَدَ الفاعلُ مُضْمرًا.

ووجهُ المُغايرَةِ بَيْنَهُما: أنَّ الكُفّار الذين عاصَروا النَّبيّ ﷺ لَم يتقَدَّم قبلَ آيةِ سورَةَ الأنبياءِ أو فيما يَليها مِن آياتِ السّورَةِ خِطابٌ

---

(1) رشا بنت عبد الله الزيد، الفواصل القرآنية في سورة الأنبياء وعلاقتها بمقصودها: دراسة بلاغية، ص: 242 - 243.

يَخُصُّهم، وإنَّما تَقدَّمها قولُ اللَّه ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء:30]، وهذا يَتناوَلُ كُلَّ كافِرٍ مِنَ العرَبِ أو مِنْ غَيْرِهِم، سواءٌ أكانوا مُعاصِرين للنَّبيِّ ﷺ أو غيرَ معاصرينَ، ثُمَّ لَم يَرِدْ بعدَ هذه الآيةِ ما يُنافي عُمومَها، ولِذا تَعَيَّن إظهارُ الفاعِل في قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ إذْ لَو أُضْمِر فورَد النَّظم القرآنيُّ: (وإذا رأوك)؛ لَما صَلَح رجوعُه إلّا على المَذْكورين قبلُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وليسَ ذلكَ خاصًّا بالمُعاصرين، فلم يَكُن مُناسِبًا.

بخلافِ آية الفُرقان؛ فإنَّه تقدَّمها قولُ اللّه سُبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ﴾ [الفرقان:32]، والمُنَزَّل عليه القُرآن معلومٌ وهُو النَّبيُّ ﷺ، فالقائلونَ مُعاصرون، فلمّا سبقَ ذِكْرُهم بِخُصوصهم، واحتيجَ بعدُ إلى الإخبارِ عَنْهُم؛ جيء بالضَّمير الدّالِّ عليهم؛ إذِ الإضْمارُ أوجَزُ مِنَ الإظْهارِ(1).

ومِمّا يَلْزَمُ ذِكرُه في متشابه الآيتين: اختلاف التَّعقيب في كُلٍّ منهما؛ ففي سورة الأنبياء خُتِمت الآية بقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وذلك أنَّهُ لَمّا تقدَّم في سورة الأنبياء الحديثُ عن اتِّخاذ كفّار مكَّة معبودات لا تُغْني عَنْهُم مِنَ اللّه شيئًا، وبيَّن القرآنُ فسادَ مرتكبهم هذا في آياتٍ عِدَّةٍ، منها قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنبياء:21] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء:22]، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ [الأنبياء:24]، لكلِّ ذلك ناسب موضع الأنبياء التَّعقيب المذكور فيها.

أمّا موضعُ سورة الفرقان؛ فقَد تقدَّمه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:7]؛ فأنكروا كون الرَّسول من البشر، فجرى مع ذلك وناسبه قولُهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: 41] تعجُّبًا واستبعادًا أن يكون الرُّسل من البشر، وقد ردَّ القرآن عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾ [الفرقان:20]؛ فظهر التَّناسب في كل منهما(2).

---

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 346.
(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 347.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاسْتِهْزاءُ والسُّخْريَةُ:

الاسْتِـهْـزاءُ أعَـمُّ مِنَ السُّخْريَةِ

الفَرْقُ بينَهُما مِن وجهين؛ لفظيٍّ ومعنويٍّ[1].

فأمّا اللَّفظيُّ؛ فهو أنَّ الغالبَ في فِعْلِ الِاسْتِهْزاءِ أنْ يتعدَّى بحرف الجرِّ (مِنْ)، والغالبَ في فعل السُّخريَة أن يتعدَّى بالباء، وتعديةُ كلِّ واحدٍ بالحرف المذكورِ مُطَّردٌ في القرآنِ الكريم لا يتخَلَّفُ، ولكنْ ورَدَ مِنْ غير الغالبِ في كلامِ العربِ.

وأمّا المعنويُّ؛ فهو أنَّ الاستهزاءَ لا يلزمُ مِنْهُ سبقُ فعلٍ مِنَ المُستهزَأِ به يقتضي ذلك، أمّا السُّخريَةُ فإنَّها لا تكون إلّا على فعلٍ صَدَرَ مِنَ المَسْخورِ مِنْهُ.

والقولُ بأنَّ الاستهزاءَ لا يَلْزَمُ مِنْهُ سَبْقُ فِعْلٍ مِنَ المُسْتَهزَأ به يَقْتَضي ذَلِكَ؛ لا يَنْفي وجودَ فعلٍ أصلًا، وإنَّما ينفي اللُّزومَ، فقد يوجَدُ وقد لا يوجَدُ؛ فهو بِهَذا أعَمُّ مِنَ السُّخريَةِ.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص254، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/ 147.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ٣٧﴾

[الأنبياء:37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حِلْمُ الله تعالى عَنِ الكُفّارِ؛ جَرَّأَهُم عَلى مَزيدٍ مِنَ الجُحودِ

لَمّا كانَ الكفّار يستعجلون عذابَ اللّه وآياتِه، وهذا ظاهرٌ في إلْحاحِهم على ذلك؛ جاءت هذه الآية لِتَنْهاهُم عن هذا الاستعجال بقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

ومن المناسباتِ أيضًا: أنَّ الآية السّابقة لّما ذَكَرت اسْتِهْزاء المُشْرِكين برَسولِ اللّه ﷺ؛ وقع في نفوس المؤمنين حُزْنٌ لذلك، ورغبة في سُرعة الانتقام مِنَ الكافرين، واستعجال لذلك؛ فجاءت هذه الآية ببيان طبيعة الإنسان بأنَّه مخلوق من عجل، وأنَّ اللّه تعالى يمهل ولا يهمل، ولذلك قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

ومِنَ المُناسَبات أيضًا: لَمّا كان مِن آيات الكفّار الأوَّلين التي طَلبوها: العذابُ بِضُروبٍ مِنَ الهَوْلِ، وكان الكفّارُ المعاصرونَ للنَّبيِّ ﷺ قد طلبوا ذلك أيضًا واستعجَلوا به، وكان الذي جرَّأهم على هَذا الطَّلب حِلْمُ اللّه سبحانَه عَنْهُم بإمهالِه لَهُم؛ قالَ مُبَيِّنًا علَّةَ ذلكَ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَجَلٍۚ﴾/﴿تَسْتَعْجِلُونِ﴾: (عجل) تدلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى سَبْقِ تَحْصيلِ شَيْءٍ قَبْلَ أوانِه، وهو من مقتضى الشَّهوة؛ فلذلك صارت مذمومَةً في أكثَرِ القرآنِ، حتى جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: "العَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ"[2]، ومِنْهُ سَمَّتِ العربُ ولَدَ البقرةِ عجلًا؛

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 420.

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، الحديث رقم: (20296)، وهو حديث حسن، كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، الحديث رقم: (1795).

لِولادَته قَبْلَ بُلوغِ الوَقْتِ الذي أَلِفَتِ العربُ أَنْ تَلِدَ النّوقُ بَعْدَهُ؛ فإنَّها تلِدُ لاثْنَيْ عَشَرَ إلى خَمسَةَ عَشَر شهرًا، بخلافِ البَقَرِ فإنَّها تَلِدُ لِتِسْعَةِ أشْهُرٍ[1].

والعَجَلَةُ: طَلَبُ الشَّيءِ وتَحَرّيه قَبْلَ وقْتِه[2]، ومِنْهُ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾.

2) ﴿ءَايَٰتِى﴾: الهمزَةُ والياء والحرفُ المعتَلُّ[3] تدلُّ علَى بقاءِ الشَّيءِ في مكانه شاخِصًا، عَلامَةً لِشَيْءٍ وأمارَةً عليهِ[4]، ومِنْهُ قولُهم: خرجَ القومُ بآياتِهم، أي: جماعتِهم؛ فلَم يَدَعوا شيئًا ممّا مِنْ شأنِه أنْ يكونَ شاخصًا إلّا حَمَلوهُ، وفيه مَعنى الكَثْرَةِ والجسامَةِ أيضًا، والآيَةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ ملازمٌ لشيءٍ باطنٍ يُعْرَفُ بِهِ، حسّيًّا كان أو عقليًّا[5].

والآية تطلَقُ على كُلِّ جملةٍ مِنَ القرآنِ قصيرةً كانت أم طويلَةً، وآياتُ اللّه تعالى المذكورةُ في قوله سُبْحانَه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: مَواعيدي بالعَذاب[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنْسانُ مَطْبوعٌ عَلى العَجَلَةِ

بيّنَ اللّه تعالى في هذه الآية ما جُبِلَ عليه الإنْسانُ، فقالَ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ يُبادِرُ الأشياءَ ويَسْتَعْجِلُ وقوعَها، وقَدِ اسْتَعجلت قُريشٌ العذابَ واسْتَبْطَأَتْ حلولَهُ، فأنْذَرَهُم اللّهُ ﷻ بأنَّه سَيُريهم ما يَسْتَعْجِلونَه مِنَ العذابِ، فلا يَسْألُوهُ تَعْجيلَهُ وسُرْعَتَه[7].

(1) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجل).
(2) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (عجل).
(3) في اشتقاق (الآية) خلافٌ، يُنظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 1/ 242.
(4) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي).
(5) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، ص: 101.
(6) جلال الدين المحلي، تفسير الجلالين، ص: 424.
(7) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الجُملَةِ عَمّا قَبْلَها:

طَبْعُ الإنْسانِ قائِمٌ عَلى العَجَلَةِ

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ عمّا قبلُ؛ لوقوعِ الجملةِ تعليلًا، وذلك لأنَّ كفّارَ الأمَمِ السّابقة لمّا طَلبوا حلولَ العذابِ عليهِم على وجه التَّحدّي والاستبعادِ، وكان الكفّار المعاصرونَ للنَّبيِّ ﷺ سَلكوا هذا المَسْلَكَ كذلك، واستعجَلوا به، وكان حِلْمُ اللّه سبحانه عَنْهُم هو الذي جرَّأهم على ذلكَ الطَّلب وهذا الاستعجالِ؛ بيَّن اللّه ﷻ علَّةَ ذلك وهو طَبْعُ الإنسانِ القائمُ على العجلةِ، فقالَ سُبحانَه: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾[1].

دلالة الجُملَةِ الاعتراضيَّة:

بَيانُ عِلَّةِ اسْتِعْجالِ العَذابِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ جملةٌ اعتراضيَّة بينَ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وقوله سُبحانَهُ: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾، وهيَ كالمُقدِّمة لجُملة: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾؛ إذ ذُكرَ جُرْمُهم باستهزائِهم بالنَّبيِّ ﷺ، ورتَّب على ذلكَ وعيدًا بإرسالِ العذابِ عليهم، وجَعَل بينَ ذلك جملةَ ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ لبيانِ علَّةِ هذا الاستعجالِ، سواءٌ أجُعِلَ هذا الاستعجالُ مِنَ الكُفّار بقصدِ التَّهكُّمِ والاستهزاءِ، أم جُعِلَ استعجالُ العذابِ مِن أهلِ الإيمانِ الذين أثارَهُم استهزاءُ الكُفّار بالنَّبيِّ ﷺ، فاستعْجَلوا حلولَ الوعيدِ بالمُسْتَهْزئينَ[2].

سِرُّ بِناءِ الفِعْلِ ﴿خُلِقَ﴾ لِلمَفْعول:

ذِكْرُ ما جُبِلَ عليه الإنْسانُ

بُنيَ الفِعْلُ ﴿خُلِقَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ للمَفْعول أو لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه؛ لأنَّ الفاعلَ مَعْروفٌ لا يُجْهَلُ، وهُو اللّه ﷻ، والمقصودُ مِن إيرادِ الجُملة هُو بيانُ ما جُبِلَ عليه الإنسانُ[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 420.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 67.

(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 420.

وفي هذه الصّيغَةِ أيضًا: مراعاةُ الأدب معَ اللّه تَعالى في عدَمِ نِسْبَةِ هذه الصِّفة (العجلة)؛ لأنَّها غيرُ محمودةٍ في الغالِبِ، وهذا واقِعٌ في القرآنِ في أكثرَ مِن موضعٍ، فمِن ذلك قولُ اللّه تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء:28] وقوله سبحانه: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج:19].

فالنّاظِرُ في هذه الآيات يَجِدُ أنَّ الفعلَ بُنِي لِما لَم يُسَمَّ فاعله، بخلاف ما ورَدَ في مَقام الإنعامِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون:12]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ﴾ [الإنسان:2]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التين:4].

دِلالَةُ اللّامِ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

استغراق جميع أفراد الجِنْس

اللّام في الإنسانِ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ يُراد بها الجِنْسُ، أي: خُلِقَ هذا النَّوعُ المُسَمّى إنسانًا مِنْ عجلٍ، والمَعْنى: أنَّ جِنْسَ الإنسانِ طَبْعُه العَجَلَةُ وعدَمُ التَّأنّي، وهَذا أظْهَرُ[1]، وممّا يؤكِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء:11].

وجوَّز بعضُ أهلِ العِلْمِ أن تَكونَ اللّام للعَهْدِ، والمُرادُ بِالإنْسانِ: آدَمُ عليه السلام[2].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في الآيَةِ:

لُـزومُ العَجَلَةِ لِلإنْسانِ وعَدَمُ انْفِكاكِه عَنْها

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ مجازٌ بالاسْتِعارَةِ، وذلكَ لأنَّه قَدْ شُبِّهت شدَّةُ مُلازمَةِ وصفِ العَجلةِ للإنسانِ بِكَوْنِها مادَّةَ خلقِه، فالاستعارَةُ تَصْريحيَّةٌ، ووجهُ هَذا المعنى: أنَّ قلَّة الصَّبرِ في الإنسانِ مِن مُقْتَضيات التَّفكيرِ في المحبَّة والكراهية، فإذا فكَّر في أمرٍ محبوبٍ؛ استعجلَ حُصولَه بِداعي الحبِّ، وإذا فكَّر في

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 420، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 150.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 447 - 448.

أمرٍ مَكْروهٍ؛ اسْتَعْجلَ دَفعه أو إزالتَهُ بِداعي الكُرْهِ، ولا تَخْلو أحوالُ الإنسانِ عَن هَذَيْنِ الحالَيْنِ، ولِذا كانَ عَجولًا بالطَّبع، كأنَّه مخلوقٌ مِنَ العَجَلةِ(1).

دِلالة التَّعبير بخَلْقِ الإنسانِ مِن عَجَلٍ:

التَّعبيرُ عَنِ الإنْسانِ بِكَوْنِه مخلوقًا مِنَ العَجَلةِ فيه مبالغةٌ في الإعلامِ بِلزومِ العجلةِ لَهُ وعدَمِ انفكاكه عنها(2) إلّا بالرّياضة الإيمانيَّة ولا سيما الصَّلاة، كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ [المعارج: 19 - 23]، فاستثنى المُصَلّين؛ للإيماء إلى أنَّ الإنسانَ بالرّياضة الإيمانيَّة يتحَوَّل عن الحالِ التي خُلِقَ عليها إلى حالٍ أخرى، وهيَ حالُ الحِلم والصَّبر، وذلك مِن جملةِ آثار الصَّلاة في تعديلِ السُّلوك(3).

من آثارِ الصَّلاة تَعْديلُ سُلوكِ صاحِبِها

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِنۡ﴾:

حَرْفُ الجَرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ دالٌّ على الابتداءِ، أي: كأنه ابْتُدِئَ خَلْقُ الإنسانِ مِنَ عجَلٍ، وذلك لا على وجْه الحَقيقةِ، وإنَّما عَلى الوجه المَجاز بالاستعارَة، كقولك: (خُلِق زيدٌ مِنَ الكرم)، فجُعِلَ ما طُبع عليه بمنزلة المَطْبوع هو منه مبالغةً في لزومه له(4).

ابْتِداءُ خَلْقِ الإنْسانِ مِنَ العَجَلة وتمكنها من جبلته

حِكمة ذِكْرِ عَجَلَةِ الإنسان في ثَنايا هذه الآياتِ:

ذُكِرت العجلةُ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾؛ لأنَّه لّما ذُكِر الكفّار المُسْتَهْزئونَ بالنَّبيِّ ﷺ؛ أَوْرَثَ ذلك في نفوس

الإشارَةُ إلى ما وقَعَ في نُفوسِ المُؤْمنينَ مِنْ حُبِّ سُرْعَةِ الانْتِقامِ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 194، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 68، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4863 - 4864.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 345.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 12/ 522.

أهْلِ الإيمانِ سُرْعةَ الانتقامِ مِنْهُم، واستعجلَت نفوسُهم ذلكَ، فبيَّن اللهُ تعالى سُبحانه طَبْعَ الإنسانِ؛ وأنَّه عجولٌ، فقالَ: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾[1]، أمّا هُو سبحانَهُ؛ فإنَّه "يُملي لِلظّالِمِ حَتَّى إذا أخَذَهُ لَم يُفْلِتْهُ"[2].

سِرُّ اختلافِ التَّعبيرِ بينَ هذه الآيَةِ وبينَ قولِهِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾:

دقَّة البيانِ القُرْآنيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

خُصَّت سورة النِّساء بالحديثِ عَن ضَعْفِ الإنسانِ في قولِهِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء:28]، وذلك لأنَّ آيَةَ سورة النِّساء صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾، فلَمّا أُريد بيانُ سببِ ذلك وبيان عظيم إنْعامِ الله على الذين آمنوا؛ ناسبَهُ الحديث عَن ضَعْفِ الإنسانِ بقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: 28].

أمّا آية الأنبياء؛ فقد تَقَدَّمها قولُهُ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآيةَ، ويَعْقُبُها قولُهُ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، فدَلَّ ذلك على تَعَجُّلِ الإنسانِ الكافر بالتَّكذيبِ والإنْكارِ واسْتِعْجالِ العَذاب؛ فكأنَّه مَخْلوقٌ مِن عجَلٍ؛ لِذَلِكَ ناسَبَ التَّعبير بقولِهِ: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾.

عِلَّةُ فصلِ جُملَةِ ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾:

قولُ اللهِ تَعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ وقع استئنافًا بيانيًّا؛ "لأنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآيةَ يثير في نفوس المسلمين تساؤلًا عن مدى إمهال المشركين، فكان قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ استئنافا بيانيا؛ جاء معترضًا بين الجمل التي تحكي أقوال المشركين وما تفرع عليها"[3].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 343، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 150.

(2) حديث رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (4686)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2583).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 67.

دِلالَةُ الخِطابِ في قَوْلِه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾:

كُلُّ ما هُوَ آتٍ قَريبٌ

الخطابُ في قولِه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ يجوزُ أن يكونَ للكُفّارِ على وجْه التَّهديدِ والوعيد، ويجوز أن يكونَ لأهل الإيمانِ على مَعْنى: لا تَسْتَعْجِلوا إحلالَ عَذابي بالكُفّار، سَيأتيهم حَتْمًا، وكُلُّ ما هُوَ آتٍ قريبٌ، والمعنى: سَأُريكُم نِقْماتي بالمُسْتَهْزِئينَ إمّا في الدُّنيا بعذابِ الاسْتِئْصالِ، وإمّا في الآخِرَةِ بِعَذابِ النّار[1].

دلالة السّينِ في قولِه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾:

تَأْكيدُ انْتِقامِ اللهِ تَعالى مِنَ المُسْتَهْزِئينَ

السّينُ في ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ يُرادُ بها تأكيدُ الفِعْلِ[2] في المُسْتَقْبَلِ؛ لأَنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ واردٌ عَلى جِهَةِ التَّهديد والوعيدِ للمُشْركينَ بما سَيَلْقَوْنَ عَلى يَدِ المُؤْمنينَ مِن هَوانٍ وذُلٍّ عِنْدَما يَرَوْنَ آياتِ الله تعالى يومَ بَدْرٍ.

دِلالَةُ إسْنادِ فِعْلِ الإراءَةِ إلى اللهِ تَعالى:

تَعْظيمُ شَأْنِ الإراءَةِ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإراءَةِ إلى اللهِ سُبْحانَهُ في قول الله ﷻ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ تعظيمًا لشأنِ هذه الإراءةِ، ولازمُ ذلكَ شِدَّةُ العذابِ الذي سَيَحُلُّ بهؤلاءِ المُسْتَهْزِئينَ، وفيه ضَرْبٌ مِن ضُروب التَّوكيدِ في إيقاعِها[3].

دِلالَةُ التَّعبير بالآياتِ في قَوْلِه: ﴿ءَايَٰتِى﴾:

عَظَمَةُ آياتِ الله تَعالى وجَلالَتُها

عبَّر القرآن الكريم بـ (آيات) في قوله: ﴿ءَايَٰتِى﴾ دون غَيْرِها؛ لأنَّها تدُلُّ على معانٍ متعدِّدةٍ، ويُرادُ بها أدلَّة التَّوحيد وصِدْق الرَّسول ﷺ، وتُطْلَقُ أيْضًا على الهلاكِ المُعَجَّل في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، وتُطْلَقُ على الآيات الكونيَّة كما في قولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت:53]، والمرادُ بها آثارُ القرون الماضية، وهيَ آياتٌ عظيمة دلَّ على ذلك إضافتها في قوله: ﴿ءَايَٰتِى﴾[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4864.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4864.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 445.

بَلاغَةُ النَّهْيِ عَنِ الاسْتِعْجالِ ودِلالَتُهُ:

كَفُّ النَّفْسِ عَن مطلوباتها

النَّهي في ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ يُرادُ به الزَّجر والتَّهديدُ، إذا كان الخطابُ متوَجِّهًا إلى الكُفّار المستهزئينَ بالنَّبيِّ ﷺ، والمعنى: سأريكم انْتِقامي مِنْكُم وعِقابي إيّاكُم أيُّها الكفرَةُ، فلا تَتَعجَّلوا ذلك؛ فإنَّه آتٍ لا محالةَ.

ويجوزُ أن يكونَ النَّهيُ على بابِهِ، إذا وُجه الخطابُ إلى أهلِ الإيمانِ الذين استعجَلوا حلولَ العذابِ بالكُفّار، فنُهوا عنِ اسْتِعْجالِهِم العذابَ مع أنَّ نُفوسَهُم مجبولَةٌ عَلى العَجلةِ؛ ليَحْجِزوها عمّا تُريدُه، ويكون المقصودُ مِنَ النَّهْيِ عنِ العَجلةِ الأمرَ بتحصيلِ الأسبابِ الجالبةِ كفَّ النَّفْسِ عن مُقْتَضاها، فيؤولُ النَّهْيُ عنِ الاستعجالِ إلى الأمرِ بِالصَّبر؛ لأنَّ النَّهي عنِ الشَّيء يَسْتَلْزِمُ الأمرَ بِضِدِّه[1].

سِرُّ التَّعبير بقولِهِ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾:

تَصْويرُ شِدَّةِ الاسْتِعْجالِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقولِهِ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ دون (فلا تعجلون)؛ لأنَّها أبلغُ في الدّلالة؛ إذْ هيَ تدُلُّ على الطَّلب في إيجاد العجلةِ بالعذابِ أو غيره؛ فالفِعْلُ يُصَوِّر حالَ الاستعجالِ عِنْدَهُم، فنَهاهُم اللّهُ تعالى عَن ذَلِكَ[2].

دِلالَةُ حَذْفِ ياءِ المُتَكَلِّمِ مِنْ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾:

التَّخفيفُ اللَّفظيُّ مِن مَقاصِدِ الكَلامِ البَليغِ

حُذِفَت ياءُ المُتَكَلِّم من ﴿تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾، والأصلُ: (فَلا تَسْتَعْجِلوني)، وذلكَ لأجْلِ التَّخفيفِ، مع الإبقاءِ عَلى حَرَكَتِها وصلًا، وكَسْرُ النُّونِ قَبْلَها دليلٌ عَلى الياءِ المَحْذوفَةِ[3].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 48، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 210.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 84.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 68.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ فِعْلِ الاسْتِعْجالِ:

حَـذْفُ المُتَعَلَّقِ إيجازًا لِدِلالَةِ السّياقِ عليه

حُذِفَ متعلَّق فعلُ الاستعجالِ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، إيجازًا. والتَّقدير: (فلا تَستعجِلوني بالإتيانِ بها)(1)، أي: بالآياتِ المُرادِ بها انتقامُ اللّه تعالى مِنَ الكفَرَةِ.

مُناسَبَةُ كَلِمَةِ الفاصِلَةِ لِمَضْمونِ الآيَةِ:

التَّأكيدُ على ذَمِّ العَجَلَةِ في الأُمورِ

خُتِمت هذه الآيةُ الكريمةُ بـ﴿تَسْتَعْجِلُونِ﴾؛ وهي فاصِلَتُها، وهذه الفاصلةُ مُصَدَّرَةٌ؛ لأنَّه قَدْ تقدَّم لفظٌ مِن مادَّتها في صَدْرِ الآيةِ؛ وهُوَ لَفْظُ ﴿عَجَلٍۚ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾، والنُّكتةُ مِن خَتْمِ الآيةِ بـ﴿تَسْتَعْجِلُونِ﴾ مسبوقًا بـ (لا) النّاهيَةِ ليسَ لِمُجَرَّدِ النَّهْيِ عنِ العَجَلَة، وإنَّما جيءَ بِها لتقويةِ المَقْصودِ القولِ الأَوَّلِ الذي هُو التَّصريح بأنَّ طَبْعَ الإنسانِ العجلَةُ، وذلكَ ليرتَكِزَ في الذِّهْنِ ذَمُّ العجلةِ في الأمورِ(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَجَلَةُ والسُّرْعَةُ:

العَجَلَةُ مَذْمومَةٌ والسُّرْعَةُ مَحْمودَةٌ

الفَرْقُ بَيْنَهما: أنَّ السُّرْعَةَ هي التَّقدُّمُ فيما ينبغي أن يُتقدَّمَ فيه، أو هُوَ عَمَلُ العَمَلِ في أوَّلِ وقْتِه الذي هُوَ أَوْلى بِهِ، بخلافِ العَجَلَةِ فإنَّها طَلَبُ الشَّيءِ في غَيْرِ وقْتِه الذي لا ينبغي تقديمُهُ عليهِ، وعلى هذا فالعَجَلَةُ مذمومَةٌ والسُّرْعَةُ محمودَةٌ(3).

وقد تَرِدُ العَجَلَةُ مقيَّدَةً بما يُخْرِجُها عَنْ حيِّزِ الذَّمِّ، كما في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه:84]، فتكونُ بمَعْنى السُّرْعَةِ(4).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 289، ورشا بنت عبد الله الزيد، الفواصل القرآنية في سورة الأنبياء وعلاقتها بمقصودها: دراسة بلاغية، ص: 243 - 244.

(3) أبو هلالٍ العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 204، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 11/ 384.

(4) أبو هلالٍ العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 204.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [الأنبياء:38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اسْتِهْزاءُ الكَفَرَةِ بِأَهْلِ الإيمانِ

لمّا ذكرَ اللّه تَعالى في الآية السّابقة العجلَةَ ونَهى عَنْها؛ ذكرَ في هذه الآيةِ استمرارَ الكُفّار عليها ومُضيَّهم فيها، فقالَ مُبَيِّنًا استعجالَهم بالعذابِ عَلى وجْه الاستهزاءِ بأهلِ الإيمانِ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾: (وعد) تدلُّ اشتقاقاتُها على تَرْجيَةٍ بقولٍ[2]، ومنه: الوَعْدُ والوَعيدُ، إلّا أنَّ الوَعدَ يكون بالخير والشّرِّ، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ [المائدة:9]، وقال سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ [الحج:72]، بخلاف الوعيدِ؛ فإنَّه لا يكون إلّا بالشّرِّ[3].

والوعدُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ هو وعْدٌ بالشَّرِّ؛ إذِ المُراد به العَذابُ[4].

2) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: (صدق) تَدُلُّ تصريفاتُها على قُوَّةٍ في الشَّيْءِ قولًا كان أو غيرَه، ومِنْهُ قولُهم: هذا شيءٌ صَدْقٌ، أي: صلبٌ، ومِنْهُ سُمّيَ الصِّدقُ - نقيضُ الكذِبِ - بذلك؛ لقوَّته في نفسِه[5].

والصّادِقُ: المُتَّصِفُ بالصِّدقِ، والصِّدْقُ: هو إخبارٌ عَنِ المُخْبَر

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 421.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والواحديّ، التّفسير البسيط: 2/ 510.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 444.

(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).

بِه على ما هو عليه في الواقعِ، ولا يكون محمودًا شَرْعًا إلّا مع العِلْمِ بأنَّهُ كذلك(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استِعْجالُ الكُفّارِ بالعَذابِ استِهْزاءً

في هذه الآيةِ يُبَيِّنُ اللهُ تَعالى استِعْجالَ الكُفّارِ بالعَذابِ استِهْزاءً؛ فيَقولون عَلى وجه الاستِهْزاءِ والسُّخريَّة: مَتى يَجيئُنا هَذا الذي تَعِدُنا به مِنَ العَذاب إنْ كُنْتَ - يا محمد ﷺ - وأتباعُك صادِقين فيما تَعِدونَنا به مِن ذَلِكَ؟(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها:

استِمْرارُ صورِ العِنادِ والاسْتِهْزاءِ من الكفّار

قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ معطوفٌ على جُملَة: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾، بيانًا لِمَقالةٍ شنيعَةٍ أُخْرى مِن مَقالاتِ هَؤُلاء المُكَذِّبين في تَلَقّيهم دعوةَ النَّبيِّ ﷺ عَلى وجه العِنادِ والاستِهْزاءِ(3).

وفي هَذا دليلٌ على إصْرارِ الكُفّار على الاسْتِهْزاءِ والسُّخْريَّة مِنَ الرَّسول ﷺ وأصحابه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

استِمرارُ سُخْريَةِ الكُفّارِ مِنْ أهْلِ الإيمانِ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارِع ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دون الماضي (قالوا)؛ لِلإيماءِ إلى استِمرارِ استِهْزائِهم وسُخْريتِهم مِن أهلِ الإيمانِ؛ إذْ إنَّ مَقالَتَهُم هذه ناشِئَةٌ عَنِ الاستهزاءِ وصادِرَةٌ على وجْهِه، وازدادوا شَرًّا وضَلالًا باستِمرارِهم عليهِ، وكأنَّ التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِع يُصَوِّر الحالَ التي كان عليها أهلُ الكُفْرِ في مكَّة مِن تَرْديدِ مَقولَتِهم في وجْه رَسولِ اللهِ ﷺ وصحابته كُلَّما رأَوْهُم يَقولون استِهْزاءً: مَتى هذا الوعدُ.

---

(1) أبو البقاء الكفويّ، الكُلّيّات، ص556.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 444، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 69.

ويُؤَكِّد هذا اختيارُ مادَّة القولِ في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، حَيْثُ يَدُلُّ عَلى رَفْعِ أصْواتِهم في كُلِّ مُناسبَةٍ وعندَ كُلِّ مَوْقِفٍ استعجالًا لِلعَذابِ مَتى هذا الوعدُ إن كنتُم صادِقين.

دِلالَةُ الاسْتِفهامِ في الآيَةِ:

تَهَكُّمُ الكُفّارِ بِاسْتِعْجالِ العَذابِ ناشِئٌ عَنْ يقينهم عَدَمَ وُقوعِهِ

الاستفهامُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هو استفهامٌ عَنْ وقتِ مَجيءِ العذابِ الذي كان يَتَوَعَّدُهم به المُسْلِمون، وقد قالَ الكُفّار ذلكَ اسْتِعْجالًا لِمَجيئِه على وجْه التَّهَكُّم والاستهزاءِ والإنْكارِ، مَجازًا مُرْسلًا مُرَكَّبا، لا طَلَبًا لتَعْيين وقْته، والقَرينَةُ الدّالَّةُ عَلى ذلكَ حاليَّة، ويُقَوّيها قولُهم بَعْدُ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ المُشْركينَ كانوا جازِمينَ بعدَمِ حُصولِ هذا الوعْدِ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾:

سُلوكُ الكُفّارِ مَسالِكَ مُتَنَوِّعَةً في اسْتِهْزائِهِم

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دون (ذلك) الذي يكون للبعيد؛ للدّلالة على أنَّهُم يَقولونَ ذلكَ حينَ يَعِدُهُم الرَّسول ﷺ والمُسْلِمونَ معَهُ، وليسَ بَعْدَ زمَنِ القَوْلِ.

وفي التَّعبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ دلالةٌ عَلى التَّحقير، أي: متى هذا الوعدُ الحقيرُ الذي تَتَوعَّدوننا به، وإنَّما كان ذلك تحقيرًا؛ لأنَّهم لم يكونوا يُصَدِّقونَ بهِ، وإلا فهو عظيمٌ في نَفْسِه، ويجوزُ أن يكونَ ذلكَ تَعْظيمًا على وجه الاسْتِهْزاءِ والتَّهكُّم، فيكون فيه استعارَةٌ تهكُّميَّة.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالوَعْدِ:

حِلْمُ الله تَعالى يَقْتَضي إمهالَهُ العِبادَ

عَبَّر القرآنُ الكريمُ بالوَعْدِ على لسانِ المُشْركينَ في طلَبِ اسْتِعْجالِ العَذابِ دون التَّعبير بالعذاب، فقال اللّهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 145، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 83، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 431، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 48، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 69.

﴿ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وذلك إمّا من بابِ التَّهكُّم؛ لِعِلْمِهِم بِعَدَمِ وُقوعِه؛ لأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ يُمهِلُ ولا يُهْمِلُ، أو لأنَّ الوعدَ يُسْتَعْمَلُ في الخَيرِ والشَّرِّ، والمرادُ إتيانُ الآياتِ مِنَ السّاعة ومُقَدِّماتها[1].

دِلالَةُ اللّامِ في ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

الكُفّارُ مُتَوَعَّدونَ بِعَذابِ الدُّنيا والآخِرَةِ

اللّام في ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ للعَهْد، والمرادُ به ما توعَّدهم به القرآنُ الكريم مِن نَصْرِ رسولِه ﷺ وعذابِ الاستئصالِ الذي يَحُلُّ بالمُكَذِّبين المُعانِدين[2].

ويجوز أن يُرادَ بالوعدِ يومُ القيامة[3]، بقرينةِ الآيَةِ بَعْدَها: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، فيكونُ المَقْصودُ ما يَحُلُّ بِهِم في الآخرة مِن عذابِ النّار.

ولا مانِعَ مِن الجَمعِ بينَ المَعْنَيين؛ لعَدَمِ التَّنافي بَيْنَهُما، وذلكَ لأنَّ الكُفّار مُتَوَعَّدون في الشَّرْعِ بعذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخِرَةِ مَعًا.

بلاغَةُ مَوْقِعِ هذه الآيَةِ:

اسْتِعْجالُ العَذابِ مِنْ آثارِ العَجَلَةِ التي طُبِعَ عليها الإنْسانُ

جاءت هذه الآيةُ بعدَ الآيَةِ السّابقة للتَّأكيدِ عَلى مَضْمونِها وارْتِباطِها بما بَعْدَها في تَرَقُّبِ المُسْلِمينَ الجوابَ عَن قَوْلِهِم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وبيان ذلكَ أنَّه لمّا ذكر اللّهُ تعالى أنَّ طَبْعَ الإنسانِ العجلةُ في قوله سُبْحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾؛ أشارَ إلى فرْدٍ مِنَ الأفرادِ النّاشِئَةِ عَن هَذِه العَجَلَةِ، فذَكَرَ اسْتِعْجالَ الكفّار العذابَ الذي تُوُعِّدوا به، أو استعجالَ أهلِ الإيمان نَصْرَهم على الكُفّار وحلولَ العذابِ بِهِم[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 84.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 69.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 191.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 69.

دِلالَةُ الشَّرْطِ في ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

في التَّعبيرِ بالشَّرط في قولِ اللّه تَعالى حِكايةً لقولِ الكُفّار: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ زيادَةٌ في الاستهزاءِ والتَّهكُّم المُستَفادَيْن مِنَ الاستفهامِ في قوله قَبْلُ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، ففي الشَّرْطِ زيادةٌ في الإلهابِ والتَّهييج تَكْذيبًا وإنْكارًا للعَذابِ الذي تُوُعِّدوا به.

زيادَةُ التَّهَكُّمِ والتَّكْذيبِ لِلعَذابِ المُتَوَعَّدِ بِهِ

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بـ ﴿إِن﴾:

حرفُ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ دالٌّ على الشَّكِّ، كما هو الأصلُ في دِلالَتِه، وعُلِّقَ الشَّرط بِه في قول اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ دون (إذا)؛ للدّلالة على نُدْرة الصِّدْقِ عِنْدَ أهلِ الإيمانِ في زَعْمِ هَؤلاءِ المُعانِدين، وأنَّ هذا الصِّدْقَ نادِرٌ غيرُ مجزومٍ بوقوعِه، وهذا مِن أساليبِ الكُفّار في مُحاوَلَةِ النَّيْلِ مِن أهْلِ الإيمانِ بِطَعْنِهِم في أهَمِّ الصِّفات التي يَحْرِصُ عليها العربيُّ ولَو لَم يَكُنْ مُسْلِمًا؛ فكيفَ بالمُسْلِمِ الذي يَعْرِفُ أنَّ الكذِبَ حرامٌ.

اتِّهامُ الكُفّارِ لأهْلِ الإيمانِ بالكذبِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ:

في التَّعبير بفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كُنتُمۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ زيادةٌ في الإلهابِ والتَّهْييجِ لقَصْدِ التَّكذيب، فقولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: عَريقينَ في وصف الصِّدْقِ جدًّا، بحيثُ تكونونَ قَدِ اتَّصفتُم به قبلُ واستمرَّ مَعَكُم حتّى صارَ طَبْعًا راسِخًا[1].

زيادَةُ الإلْهابِ والتَّهْييجِ تَكْذيبًا

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالتَّشْكيكِ في الصِّدْقِ دونَ التَّصْريحِ بِالكَذِبِ:

عبَّر القرآنُ الكريمُ عَن مَوْقِفِ المُشْرِكينَ في التَّشْكيك في صِدْقِ المُؤمنينَ بِقَوْلِه حكايةً عَنْهُم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ دون التَّعبيرِ بِضِدِّه وهُو الكَذِبُ، وهُو المُوافِقُ لِغَرَضِهم مِنَ الذَّمِّ، لَكِن لَمّا كانَ هَذا مِن

أهْلُ الإيمانِ هُم أهلُ الصِّدق

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 421.

بابِ الاتِّهام وليسَ مِن بابِ الحَقيقَةِ؛ جاءَ التَّعبيرُ مَبْنيًّا على الشَّكِّ، وفي هذا دِلالَةٌ عَلى أنَّ أهلَ الإيمانِ هُم أهْلُ الصِّدقِ.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِالجَمعِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ دونَ الإفْرادِ:

تَبْلِيغُ أهْلِ الإسْلامِ دَعْوَةَ رَسولِهِم عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

جاءَ التَّعبيرُ القُرْآنيُّ بضَميرِ الجَماعَةِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، ولم يأتِ بِضَميرِ الإفرادِ، كما ورَدَ معَ بعضِ الأنبياءِ في نَحْوِقوله تَعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف:70]؛ حيثُ جُعِلَ الخِطابُ للرَّسول وحدَهُ، كما في قوم عادٍ مَعَ هودٍ، وفي قوم نوحٍ، وقوم صالِحٍ؛ فكلُّهم جَعَلوا الخِطابَ بصيغَةِ الإفرادِ؛ لأنَّ الرَّسول لِكُلِّ قومٍ من هذه الأقوامِ هو الذي يَعِدُهُم وحدهُ، أمّا في آيةِ الأنبياءِ؛ فقد جاءَ التَّعبير بضمير الجمعِ؛ لأنَّ المُسْلمينَ كانوا يُبَلِّغون ما أُرْسِلَ به رَسولُهُم، ويُعْلِنونَهُ للكُفّارِ، وفي هذا دليلٌ عَلى قيامِ المُسْلِمينَ بِتَبْليغِ الدَّعوة، ولأجْلِ ذلكَ كانَ المُسْلِمونَ يَتَعَجَّلون وعيدَ المُشْرِكينَ[1].

دِلالَةُ حَذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ:

طَيُّ ما دَلَّتِ القَرائِنُ عَلى تَعْيينِه اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

جوابُ الشَّرط محذوفٌ؛ لِدِلالَةِ ما قَبْلَهُ عليه ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وذلكَ أنَّ استعجالَهُم العذابَ، واستبطاءَهُم حُلولَهُ، وطَلَبَهُم إتيانَهُ في قوَّةِ التَّصريح به، والتَّقديرُ: (إن كُنْتُم صادِقين فلْيأتِنا هذا العذابُ بِسُرْعَةٍ)[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 69.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67.

﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٣٩﴾ [الأنبياء:39]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نَفْيُ العِلْمِ عَنِ الكُفّارِ في الحالِ والمآلِ

لمّا غالى الكُفّار في السُّخرية والاستهزاءِ فيما تقدَّمَ، وكان ذلكَ دليلًا على أبلغِ الجَهْلِ المُسْتَحْكِم؛ استأنَفَ اللّهُ تعالى الجوابَ عَن كلامِهِم في هذه الآيةِ بِنَفْيِ العِلْمِ عَنْهُم في الحالِ والمآلِ عَلى طريقِ التَّهَكُّم بِهِم، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكُفُّونَ﴾: (كفّ) تدلُّ تَصْريفاتُها عَلى قَبْضٍ وانْقِباض، ومِنْ ذَلِكَ: كَفُّ الإنْسانِ، وتَثْنِيَتُها: كَفّانِ، وسُمّيَتِ الكَفُّ كَفًّا؛ لأنَّها تَقْبِضُ الشَّيْءَ[2]، وحَقيقَةُ الكَفِّ عِنْدَ الإنْسانِ: الرّاحةُ مَعَ الأصابِعِ[3]. ومِمّا يَرْجِعُ إلى أصلِ القَبْضِ قولُهُم: رجُلٌ مَكْفوفٌ؛ لِمَن قُبِضَ بَصَرُه، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:28] أي: كافًا لَهُم عنِ المعاصي، والهاءُ فيه للمُبالغة، وهذا في أحدِ القولينِ[4]، ويُطْلَقُ الكفُّ على المَنْعِ والصَّرْفِ، ومِنهُ قولهم: كَفَّ الرَّجلَ عن الأمرِ وكَفْكَفَه؛ أي: مَنَعَه وصَرَفَه، ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: لا يَمنَعونَ ولا يَصْرِفون ولا يَدْرَؤُونَ[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 421.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كف).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (كف).
(4) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (كف).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 71.

2) ﴿يُنصَرُونَ﴾: (نصر) تَدورُ مادَّتُها حول مَعْنى إتيانِ خيرٍ وإيتائه بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقُوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[1]، ومِنْهُ سمّيَ المَطرُ نصرًا[2]، والنَّصْرُ على العَدُوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقُوَّةِ النّاصِر وغَلَبَتِه[3].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بمعنَى: لا يُدفع عَنْهُمُ المَكْرُوهُ.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

خُلُوُّ الكُفّارِ مِنَ العِلْمِ يجعَلُهُم لا يُـدْركـون العَواقِبَ

في هذه الآيةِ يُبَيِّن اللّهُ تعالى جَهْلَ الكُفّار بقوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المُسْتَعْجلينَ عذابَ ربِّهم ماذا يكونُ لَهُم مِنَ البلاءِ حينَ تَلْفَحُ وجوهَهُم النّارُ، وتحيط بهم مِنْ كُلِّ جانبٍ؛ فلا يَقْدِرونَ عَلى دَفْعِها عَن وُجوهِهِم، ولا عَن ظُهورِهِم، ولا يجدون لَهُم ناصِرًا يَنْصُرُهم، فيَسْتَنْقِذُهُم حينئذٍ مِنْ عذابِ اللّه سُبْحانَه؛ لو يَعْلمون هذا لَما أقاموا على ما هُم عليه مِنَ الكُفْرِ باللّه ﷻ، ولَسارَعوا إلى التَّوْبَةِ مِنْهُ والإيمانِ باللّه تعالى، ولَما اسْتَعْجَلوا لأنْفُسِهم البلاءَ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ الجُملَةِ عَمّا قَبْلَها:

الـجـوابُ عَـمّا يـدورُ بِخَـواطِرِ أهلِ الإيمانِ

فُصِل قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ عمّا قبله - ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ - لكونه استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتين شبهُ كمال الاتّصال، وذلك أنَّ الجملة الثّانية واردةٌ جوابًا عن سؤال يُفهم من التي قبلها؛ إذْ إنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يُثير في

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/ 79، ومحمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نصر).

(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).

(3) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 486.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 445، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.

نفوس أهل الإيمان سؤالًا وهو: ماذا يكون جوابهم عن استهزائهم وتَهَكُّمهم؟ فجاء الجواب: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[1].

الاسْتِمرارُ عَلى طَريقِ الضَّلالَةِ مانِعٌ مِنْ تَحْصيلِ العِلْمِ النّافِعِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿لَوۡ﴾:

عُلِّقَ الشَّرْطُ بـ ﴿لَوۡ﴾ في قولِ اللّٰه سُبحانه: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾؛ للإشارَةِ إلى أنَّهم لا يَعْلَمون ذَلك ولَن يَعْلَموهُ ما داموا سالِكين طريقَ الاسْتِهْزاءِ والضَّلالة؛ وذلكَ لأنَّ الأصلَ في اسْتِعْمالِ (لَو) أن تَكون لِما يُقْطَعُ بِانْتِفائه، وأنَّ عِلْمَهُم بذلك يكونُ حينَ يقَعُ العذابُ عليهِم في نارِ جهنَّم، فيكونُ حينئذٍ عينَ اليَقين.

تَصْويرُ حالِ الكُفّارِ عِنْدَ مُعايَنَةِ العَذابِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡلَمُ﴾:

عُبِّرَ عنِ العِلْمِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡلَمُ﴾ من قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾، ولَم يُعَبَّر بالماضي (لو عَلِم)، وإن كان في مَعْنى المُضيِّ؛ للدّلالةِ عَلى اسْتِمرارِ عدَمِ عِلْمِهِم، وذلكَ لأنَّ الفعلَ المُضارِعَ الواقِعَ مَوْقِعَ الفِعْلِ الماضي ليسَ نَصًّا في الدّلالة على انْتِفاءِ اسْتِمرارِ الفِعْلِ، بَل يُفيدُ استمرارَ انتفائه أيْضًا بحسَبِ المَقام، كَما في قولِكَ: لو تُحسن إلَيَّ؛ لَشَكَرْتُكَ، فإنَّ معناهُ أنَّ الشُّكْرَ انْتَفى لاسْتِمرارِ انتفاءِ الإحْسانِ، لا لانْتِفاءِ اسْتِمرارِ الإحْسانِ، ففَرْقٌ بينَ اسْتِمرارِ الانتفاءِ وبينَ انْتِفاءِ الاسْتِمرارِ[2].

وفي التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِع ﴿يَعۡلَمُ﴾ أيضًا تصويرٌ لحالِهم عندَ مُعايَنَتِهِمُ العذابَ الشَّديدِ ونزولِه بِهِم[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 421، وابن عاشور: 17/ 70.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 421، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 48.

(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4866.

دِلالة التَّعبير بالعِلْمِ:

العِلْمُ الحَقُّ عاصِمٌ مِنَ الانْحِرافِ

العِلْمُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ بِمَعْنى المَعرفةِ، فيتعدَّى الفِعْلُ لمفعولٍ واحدٍ فقط، والمعنى: لو يَعْرِفونَ حينَ حُلولِ العذابِ بِهِم وما فيه مِنَ الفَظائِعِ والعَظائم؛ لَمَا اسْتَهْزَؤوا به واسْتَعْجَلوه[1].

واسْتَظْهَرَ أبو حَيّان أنَّ مفعولَ ﴿يَعۡلَمُ﴾ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: (لَو يَعْلَمُ الذين كَفروا مجيءَ المَوْعِدِ الذي اسْتَعْجَلوهُ حينَ لا يكُفّون عن وُجوهِهِم النّار؛ لَمَا كَفروا واسْتَعْجَلوا واسْتَخَفّوا)[2].

وفي التَّعبيرِ به دِلالَةٌ على جَهْلِهِم وعدَمِ إدْراكِهِم عواقبَ قَوْلِهِم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

بَلاغَةُ تَنْزيلِ الفِعْلِ المُتَعَدّي مَنْزِلَةَ اللّازِمِ:

المُبالَغَةُ في نَفْيِ العِلْمِ عَنِ الكُفّارِ إثْباتِ لجَهْلِهِم

جوَّز بعضُ أهلِ العلم بالتَّفسيرِ أن يكونَ فِعْلُ العِلْم متعدّيًا في الأصلِ إلى مَفْعولَيْن، ولكنَّه - في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ - نُزِّلَ مَنْزِلَةَ اللّازِم، فلا يكونُ واقعًا عَلى مفعولٍ به أصلًا، والمَعْنى: لَو كانَ لَهُم عِلْمٌ ولَم يكونوا جاهِلين؛ لَمَا اسْتَعْجَلوا العذابَ واسْتَخَفّوا به[3]، وهذا أبلغُ في نَفْيِ العِلْم عَنْهُم وإثباتِ ضِدِّه لَهُم.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بِاسْمِ المَوْصولِ دونَ الضَّمير:

الكُفْرُ باللّه تَعالى سَبَبُ شِدَّةِ الهَوانِ في الآخِرَةِ

عُبِّر بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ دون ذِكْرِ ضَميرِهم، فلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (لَو يَعْلَمونَ حينَ لا يَكُفّون)؛ للتَّنبيه بِما في حيِّز الصِّلة على علَّة اسْتِحقاقهم العذاب[4]، وللدّلالة

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 151 - 152.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 432.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 151 - 152.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 67، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 48.

عَلى أنَّ الذين اسْتَعْجَلوا العذابَ هُمُ الكُفّار، وللإشارَةِ إلى أنَّ الكُفْرَ سببُ ذلكَ الهوانِ العظيمِ الذين يَؤولُ إليه أمرُهُم في الآخِرَة[1].

عِلَّةُ إيرادِ الاسْمِ المَوْصولِ جَمعًا:

كَثْرَةُ أهلِ الكُفْرِ مَعَ اختِلافِ مَشارِبِ كُفْرِهِم

إيرادُ الاسمِ الموصول جَمعًا في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فيه إشْعارٌ بِكَثْرَةِ أهلِ الكُفْرِ، ولأنَّ للكُفْرِ صُوَرًا متعدِّدةً، كُلُّ نوعٍ مِن أنواعِه يندرِجُ تحتَه أفرادٌ كثيرُونَ، ولا سيما إذا حُمِلَ التَّعبير على الذين كَفَروا مَعَ الأقوامِ السّابقة أيضًا.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

تَحَقُّقُ وَصْفِ الكُفْرِ موجِبٌ العَذابَ في الآخِرَة

جيءَ بِصِلةِ المَوْصولِ فعلًا ماضيًا ﴿كَفَرُواْ﴾ مِنْ قولِه سُبْحانَهُ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾؛ للدِّلالَةِ علَى تحقُّقِ وصْفِ الكُفْرِ فيهِم وتَمَكُّنه في قُلوبِهم؛ لدرجَةِ أنَّهم فقدوا الحقيقةَ التي يَنْبَغي البَحْث عنها، وطَلبوا استعجالَ العذابِ.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ فِعلِ الكُفْرِ:

كُفْرهم بجَميعِ ما أوْجَبَ اللّهُ تَعالى الإيمانَ بِهِ

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ وهُو المَكْفورُ به؛ لإرادَةِ العُموم؛ وذَلِك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مؤذِنٌ بذَلِكَ، والمَعْنى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤْمِنوا به شَرْعًا.

دِلالَةُ حَذْفِ جوابِ ﴿لَوۡ﴾:

تَعْظيمُ العَذابِ وتَهْويلُهُ

حُذِفَ جوابُ ﴿لَوۡ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لإرادة التَّهويلِ والتَّعظيم، ولِتَذْهَبَ النَّفس فيه كُلَّ مذهبٍ، والتَّقدير: (لَرَأوا هولًا لَم يُدْرِكوا كُنْهَهُ ولَم يعرفوا أمرَهُ)، وفيه إشارة إلى أنَّ الكلماتِ لا تفي ببيانِ هَذا الهَوْلِ[2].

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4866.

(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4866.

عِلَّةُ فصْلِ جُملَةِ ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾:

تقرير جَهْلِ الكُفّارِ وبَيانُ اسْتِمرارِهم عَليه

فُصِل قولُ اللّه تَعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾؛ لكونِه استئنافًا نحويًّا، فلا يُقدَّر سؤالٌ قَبْلَهُ، وهذا الاستئنافُ يُراد به تقريرُ جَهْلِهم وبيانُ استمرارِهم عليه إلى ذلكَ الحينِ، والمَعْنى: حينَ يَرَوْنَ ما يَرَوْن؛ يَعْلَمون حقيقَةَ الحالِ[1].

واختارَ الطّيبيُّ أن يكون استئنافًا بيانيًّا، فتكون الجُملَةُ ناشئَةً عَن سُؤالٍ مقدَّرٍ، وذلك لأنَّ اللّه سبحانه لَمّا نَفى عَنْهُمُ العلمَ في قولِه: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أورَثَ ذلكَ سُؤالًا في نفسِ المُتلقّي وهُو: حينَ لَم يَحْصُل لَهُم علمٌ الآن، فمَتى يَحْصُل؟ فجاءَ الجوابُ: يَعْلمون ذلك حينَ لا يَنْفَعُهم العلمُ، وهو وقتُ حُلولِ عذابِ النّارِ بهم[2].

واسْتَظْهَرَ الآلوسيُّ أن يكونَ لَفْظُ ﴿حِينَ﴾ مفعولًا به لـ ﴿يَعۡلَمُ﴾[3]، والتَّقديرُ: (لَو يعلمونَ ذلك الوقت)، ولا يَصِحُّ أن يكونَ ظَرْفًا؛ لأنَّهم قَد عَلِموا العذابَ وذاقوهُ.

دِلالَةُ إضافَةِ ﴿حِينَ﴾ إلى الجُملَةِ:

الإعْلامُ بِظُهورِ عَذابِ الكُفّارِ في الآخِرَةِ

أُضيف ﴿حِينَ﴾ إلى الجُملة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾، وهي جُملَةٌ جاريَةٌ مَجْرى الصِّفة التي حَقُّها أن تَكونَ معلومةَ الانْتِسابِ إلى المَوْصوفِ عندَ المُخاطَب، والواقِعُ أنَّ الكُفّارَ يُنْكِرون ذَلِكَ، والنُّكْتَةُ في ذلك الإعلامُ بأنَّه مِنَ الوُضوح والظُّهور بحَيْثُ لا حاجَةَ لَهُ إلى الإخْبارِ بِهِ، وإنَّما حقُّهُ أن يَنْتَظِمَ في سِلْكِ ما هُو مُسَلَّمٌ مَفْروغٌ مِنْهُ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 349.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 48.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالضَّميرِ في ﴿يَكُفُّونَ﴾:

تَكامُلُ المَعاني المُحْتَمَلَةِ لِلقُرْآنِ الكَريمِ

جاءَ التَّعبير بالضَّمير في قوله تَعالى: ﴿يَكُفُّونَ﴾ مِن قولِ اللّٰه سُبْحانَهُ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾؛ لتعدُّد المراد به[1]، فيَجوزُ أن يكونَ الضَّمير عائدًا إلى ملائكَةِ العَذاب مع عَدَم سَبْقِ ذِكْرِهم، إلّا أنَّه معلومٌ مِنَ المَقام، والكفُّ على هَذا بِمَعْنى الإمساك، والمَعْنى: حينَ لا يُمسِكُ الملائكَةُ اللَّفْحَ بِالنّار عن وجوه الكافِرين، وتكون هذه الآية في مَعْنى قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾ [الأنفال:50].

ويجوز أن يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى الكُفّار المَذْكورين في الصِّلة - ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ -، والكَفُّ على هذا الوجْه بِمَعْنى الدَّرء والدَّفع، والمَعْنى: حينَ لا يستطيع الكُفّار دفعَ النّار عن وُجوههم بأيديهم ولا عن ظُهورِهم.

وهذا الوجْهُ أظهرُ؛ لِعَوْدِ الضَّمير على مذكورٍ، وهو قولُ أكْثَرِ أهلِ العِلْم بالتَّفسير.

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في ﴿يَكُفُّونَ﴾:

بَيانُ عَدَمِ اسْتِطاعَتِهِم دَفْعَ العَذابِ عَنْ أنْفُسِهِم

على القَوْل بِعَوْدِ الضَّمير في ﴿يَكُفُّونَ﴾ مِن قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ إلى الكُفّار أنْفُسِهم؛ فيكونُ الكَفُّ بِمَعْنى الدَّرْءِ والسَّتْر، وذلكَ مجازٌ بعلاقَةِ اللُّزوم، والمُراد: نفي الاستِطاعَة، فالمَعْنى: لا يَسْتَطيعون دفعَ النّار عن وُجوهِهم بأيْديهم ولا عَن ظُهورِهِم، فأُطْلِقَ اللّازِمُ وهُو عدمُ الكَفِّ بمَعْنى عدم الدَّرء، وأُريدَ المَلْزوم وهُو عدمُ الاسْتِطاعَةِ، عَلى طَريقَةِ المَجاز المُرْسَل بِعلاقَةِ اللّازميَّة[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 70 - 71.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 71.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِ ﴿يَكُفُّونَ﴾ دونَ غَيْرِه:

تَصْويرُ حالِ عَجْزِ الكَفَرَةِ في الآخِرَةِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالكَفِّ دون غَيْرِه؛ لأنَّ الكفَّ هنا أبلَغُ مِن المَنْعِ؛ حيثُ يُعَبَّر به عَنِ الدَّفع مُطْلقًا على أيِّ وجهٍ كان؛ لأنَّ أصل الكفِّ الانقباضُ والتَّجمُّع، ومنهُ سُمّيت الكفُّ كفًّا لأنَّها تقبِضُ على الأشياءِ، وعلى هذا فالكفُّ عن الفعلِ هُو الامتناعُ عنْ موالاة الفعلِ وإيجاده حالًا بعدَ حالٍ، ولذلكَ استخدمَهُ القرآنُ في دفعِ الأعداءِ مِن أهل الكتابِ ومِن غيرهم عن رسولِ اللّه ﷺ في قوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾ [البقرة:137]؛ لأنَّ عداوةَ أهل الكتاب والكفّار متوالية ومتجَدِّدة حالًا بعد حالٍ، فناسبَ لذلك التَّعبير بالكفِّ؛ واسْتَخْدَمه أيضًا في كفايةِ اللّه بَعَبْدِه؛ بخِلاف المنعِ، فهُو أخَفُّ درجَةً مِنَ الكفِّ؛ لذلك يُطْلَقُ عَلى ما يتعَذَّر لأجله الفِعْلُ على القادرِ.

وفي التَّعبيرِ بالكَفِّ تصويرٌ لحالِ العَجْزِ التي تُصيبُهُم عِنْدَما يَرْفَعون أكُفَّهم حَوْلَ وُجوهِهِم لدَفْعِ العذابِ، ولَكِنَّهم لا يَسْتَطيعون[1].

سِرُّ تَخْصيصِ الوُجوه والظُّهورِ بِالذِّكْرِ:

إحاطَةُ النّارِ بِجَميعِ أجْسادِ الكُفّارِ

خُصَّت الوجوهُ والظُّهور بالذِّكْرِ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾؛ لكون الوُجوه أشرفَ ما في الإنسانِ ومستقرَّ حواسِّه، ولِكَوْنِ الظُّهور أشدَّ ما في الجَسدِ[2].

وفي التَّنصيص عَلى الوُجوه والظُّهور معًا إشارَةٌ إلى القُدّام والخَلْفِ، ففي ذَلِكَ تَنْبيهٌ عَلى عُموم إحاطَةِ النّار بِجَميع أجْسادِهِم بحَيْثُ لا يَقْدِرون على دَفْعِها بأنفُسِهم عَن جانِبٍ مِن جَوانِبِهِم[3].

وفيه إشارَةٌ إلى شدَّةِ عَجْزِهم؛ فإذا عَجَزوا عَنِ الدَّفع عنِ الوُجوه والظُّهور؛ فالعَجْزُ عَن غَيْرِها مِن بابٍ أَوْلى، ولأنَّ الظُّهور يأنَفُ

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 128.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 83، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 432، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 422.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68.

النّاس مِن ضَرْبِها لِما فيها مِنَ الإهانَةِ والخِزْي، فالمُراد بِالظُّهور هُنا الأدبار، ويُؤَكِّد هذا أنَّ القرآن الكريم في مقام الحَرْبِ نَهى عن تولية الأدبار في قولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ [الأنفال:15].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الوُجوه عَلى الظُّهورِ:

الـوَجْـهُ أشْـرَفُ أعْضاءِ الإنْسانِ

قُدِّم ذِكْرُ الوجوه عَلى الظُّهور في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾؛ لِكَوْن الوجه أشرفَ الأعْضاء، ولأنَّ الإنسانَ أحرَصُ على الدَّفع عَنْهُ مِن غيرِه مِن سائرِ أعضائِه، فإذا عَجَز عَنِ الدَّفع عنه، فهُو عَن سِواه أعْجَزُ(1).

سِرُّ اخْتِلافِ التَّعْبيرِ بَيْنَ هذِه الآيَةِ وآيَةِ العَنْكَبوتِ:

دِقَّــةُ الـنَّـظْـمِ القُرآنيِّ في انْتِقاءِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِمَقاماتِها

النّاظِرُ في موضِعِ آيةِ الأنبياءِ يَجِدُ أنَّها ذكَرَت الوجوهَ والظُّهور في قولِه: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ﴾، بينَما في موضِعِ سورةِ العَنْكَبوتِ ذكر أنَّ العذابَ يَغْشاهُم مِن فوْقِهم ومِن تَحْتِ أرجُلِهم، قال اللّهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:55] الآية.

وسِرُّ ذلك أنَّ موضِعَ الأنبياءِ تَقَدَّمه قولُه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، فذُكِر فِعْلُ الرُّؤية في قولِه: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾، واستقبالُ المَرْءِ يكونُ بِالوُجوه، وذلكَ عَن طريقِ العَيْن، وهيَ في الوَجْه.

وقولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ يصدُرُ مِنَ الكُفّار عندَ مُلاقاةِ الرَّسول بِوجوهِهم أو عندَ إدْبارِه عَنْهُم، والإدبارُ هُو تَوْلِيَةُ الظَّهر؛ لذَلِكَ ذَكَر القرآنُ وُجوهَهُم وظُهورَهُم في موضِعِ الأنبياءِ، أمّا في العَنْكبوتِ؛ فقد تقدَّمَهُ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٩﴾ [التوبة: 49] والإحاطة عامّة تشمل كُلَّ الجوانب، ومِن هذه الجوانبِ: الفوقيَّة والتَّحتيَّة، فناسَبَ كُلُّ موضِعٍ ما ورَدَ فيه.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 195.

تأكيد نفي حصول النصر للكفرة

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِالضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾:

جيءَ بالضَّمير ﴿هُمۡ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، وكان يجوز أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (ولا يُنصرون)، ولكن جيء بالضَّمير لزيادة التَّعيين، ولتأكيد نَفْي حُصول النَّصرِ لَهُم.

دوام انتفاء النصر للكفار

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُنصَرُونَ﴾:

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُنصَرُونَ﴾ من قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ لإفادَةِ الدَّوام والاسْتِمرارِ، والمَعْنى: لا يَتَجَدَّد لَهُم نَصْرٌ، لا ظاهِرًا ولا باطِنًا[1]، فليسَ المقصودُ انْتِفاءَ دوام النَّصْرِ وإن كانَ يَحْصُل لَهُم مرَّة مثلًا، بلِ المرادُ: دوامُ انْتِفاءِ نَصْرِهِم.

انعدام ناصر الكفار انعدامًا مطلقًا

دِلالَةُ بناءِ الفِعْلِ ﴿يُنصَرُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ:

بُني الفعلُ ﴿يُنصَرُونَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للدِّلالة عَلى العُموم، أي: لا يَحْصُلُ لَهُم نَصْرٌ أبدًا، لا بِأنْفُسِهِم، ولا بأحدٍ مِنْ غَيْرِهِم أيًّا كانَ[2]، وفي هَذا دليلٌ عَلى فُقْدانِ كُلِّ أعوانِ النَّصر الذّاتيَّة والخارجيَّة؛ فلا يَنْصُرون أنفُسَهُم ولا يَنْصُرُهم غَيْرُهم.

تهويل جنس العذاب وتعظيمه

بَلاغَةُ حَذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ:

﴿لَوۡ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ شرطيَّةٌ، وجوابُ الشَّرط محذوفٌ، ونُكْتَةُ ذلك: تَهْويلُ جِنْسِه، فتَذْهَب النَّفسُ كلَّ مَذهبٍ في تَقْديرِه[3].

والتَّقديرُ: (لَو يَعْلَمونَ ذَلك لَمَا اسْتَعْجَلوا العذابَ، أو لَمَا كانوا عَلى ما هُم عليه مِن الكُفْرِ والاسْتِهْزاءِ بالرَّسول ﷺ وبالدّين، أو لَرَأَوْا هَوْلًا لَم يُدْرِكوا كُنْهَهُ ولَم يَعْرِفوا حقيقَتَهُ)، أو نحو ذلكَ مِمّا يَحْتَمِلُه المَقامُ ويُجَوِّزُه السّياق.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 422.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 422.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 83، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 290، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 70، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4866.

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾ [الأنبياء:40]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إتْيانُ عَذابِ النّارِ الكُفّارَ بَغْتَةً

لمّا بيَّنت الآيةُ السّابقةُ أنَّ الكُفّار يَسْتَعْملون العذابَ المَوْعودَ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، وبيّن القرآنُ أنَّ سببَ ذَلك الاستعجالِ هُو عدَمُ عِلْمِهم بهَوْلِ وقْتِ وُقوعِه وما فيه مِنَ العَذابِ الشَّديدِ؛ جاءَت هذه الآيَةُ ببيانِ كيفيَّة وُقوعِه، فقال: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ﴾[1].

ومِن أوجه التَّناسُب بينَ الآيتين: أنَّ اللّهَ تَعالى لمّا ذكَر في الآية السّابقة أنَّهُم لا يَسْتَطيعون كفَّ النّار عَن وُجوهِهم وظُهورِهم؛ بيَّن في هذه الآية علَّةً مِنْ عِلَلِ ذلكَ وهيَ أنَّ النّار تأتيهم بغتةً فتَفْجَؤُهم فتَغْلِبُهم، فقالَ سُبْحانه: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَغۡتَةٗ﴾: (بغت) تدلُّ اشتقاقاتُها عَلى المُفاجأةِ بأمرٍ شديدٍ أو مَكْروهٍ، كَنُزولِ العَدُوِّ فجأةً[3]، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ أي: تأتيهم فجأةً فتُحَيِّرهم[4].

2) ﴿يُنظَرُونَ﴾: (نظر) تدورُ تصريفاتُها على تأمُّلِ الشَّيءِ ومعايَنَتِه، ومِنْهُ قولُهم: نظرتُ إلى الشَّيءِ، أي: عايَنْتُه، ونظرتُه، أي: انْتَظَرْتُه، كَأنَّكَ تَنْظُرُ إلَى الوَقْتِ الذي يَأْتي فيه[5].

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 504.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 118.
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بغت).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 81.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نظر).

وأنْظَرْتُه: أخَّرْتُه[1]، والإنظارُ الإمهالُ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

عَجزُ الكُفّارِ عَنْ دَفعِ العَذابِ

بيَّنت هذه الآيةُ أنَّ النّار التي تَلْفَحُ وجوهَ هَؤُلاء الكُفّار لا تأتي إلّا مُفاجأةً بِحَيْثُ لا يَشْعُرون بمَجيئِها، فتَجْعَلُهم مَبْهوتينَ مُتَحَيِّرين، فلا يُطيقون حينئذٍ دَفْعَها عَن أنْفُسِهم، ولا يُؤَخَّرون بالعذابِ بِها لِتَوْبَةٍ يُحْدِثونَها[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ الجُملَةِ عَمّا قَبْلَها:

بَيانُ سَبَبِ عَدَمِ قُدْرَتِهِم عَلى كَفِّ النّارِ عَنْ وُجوهِهِم

فُصِل قولُ اللّه تَعالى: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ عمّا قبلَه، فلَم يُعطَف بالواوِ؛ لِوُقوعِها اسْتِئْنافًا بيانيًّا؛ إذِ الجُملةُ المتقدِّمَةُ وهي قولُهُ سُبحانه: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ تُثير في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا، وهُوَ: ما سببُ عدمِ قُدْرَتِهم عَلى كفِّ النّار عَن وُجوهِهم وهيَ أشرَفُ أعْضائِهِم؟ فجاءَ الجوابُ في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

دِلالَة التعبير بـ ﴿بَلۡ﴾:

الرَّدُّ عَلى طالِبي ميعادٍ لِلوَعْدِ

جاءَ التَّعبيرُ بِـ ﴿بَلۡ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾؛ لأنَّها عاطفةٌ هذه الجملةَ على جُملَةِ: ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾، أي: لا يَكُفّونَها بَل تأتيهِم النّارُ أو القيامَةُ بغتةً[4].

و﴿بَلۡ﴾ العاطفةُ هَهنا إضرابيَّةٌ، وهو إضرابُ انتقاليٌّ لا إبْطاليٌّ؛

---

(1) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نظر).

(2) نشوان الحِمْيَريّ، شمس العلوم: (نظر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 445، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 68.

انْتُقِل مِن تهويلِ ما أُعِدَّ لَهم إلى التَّهديد بأنَّ ذلك سَيَحِلُّ بِهم فجأةً؛ وهو أشدُّ شيءٍ على النُّفوس؛ لعدَم تَهَيُّئِها له وتَوَطُّنِها عليه، وهُو مُتَضَمِّنٌ الرَّدَّ على طالِبي ميعادٍ لِلوَعْدِ وقَدِ اسْتَبطَؤوهُ[1]، وفي ذلكَ انْتِقالٌ مِن بيانِ السَّببِ إلى بيانِ كيفيَّة وقوعِ الموجودِ.

ومِن أسرارِ التَّعبير بـ ﴿بَلۡ﴾: الدّلالَةُ عَلى تَهْويلِ ما أُعِدَّ لَهُم مِنَ العذابِ يومَ القيامَة، وأنَّه يَحُلُّ عليهِم بغتةً وفجأةً؛ وهُو أشدُّ على النُّفوس.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالضَّميرِ في ﴿تَأۡتِيهِم﴾:

السّاعَةُ تُصَيِّرُ الكافِرينَ إلى عَذابِ النّارِ

جاء التَّعبير بالضَّمير المُسْتَتِر في ﴿تَأۡتِيهِم﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾؛ لتَعَدُّد المراد به؛ فيجوزُ أن يعودَ إلى السّاعة التي تُصيِّرهم إلى العَذاب، ويَجوزُ أن يكونَ مَرْجِعُ الضَّمير هو النّارَ أو العقوبةَ[2].

ولا تَنافِيَ بينَ هذه المَعاني؛ لأنَّها مُتآيِلَةٌ، وذلكَ لأنَّ السّاعةَ تُصيِّرهم إلى عذابِ النّار وهُو عقوبةٌ لَهُم.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالإتْيانِ في قَوْلِه: ﴿تَأۡتِيهِم﴾:

في (الإتْيانِ) مَعْنى السُّهولَةِ، بِخِلافِ (المَجيءِ)

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالإتيانِ دونَ المَجيءِ في قولِه: ﴿تَأۡتِيهِم﴾؛ لوُجود فرْقٍ بينَهُما؛ فالإتيانُ يَحْمِل مَعْنى السُّهولة، وفي هَذا إشارَةٌ إلى أنَّ أمرَ السّاعة وما يقَعُ فيها مِن أهوالٍ ومشاهدَ وعذابٍ للكافرين أمرٌ يسيرٌ على اللّه تعالى، ولذلكَ ذُكِر هَذا الفعْل في مواضعَ عديدَةٍ في القُرآن للتّأكيد على ذلك، قالَ تَعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس:24]، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل:1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 48 - 49، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 71، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4867.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 83، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 432.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ ﴿تَأۡتِيهِم﴾:

اسْتِحْضارُ الكُفّارِ مَشْهَدَ العَذابِ

دلَّ التَّعبيرُ بِالمُضارِعِ، الذي يَدُلُّ عَلى التجدُّدِ والحُدوثِ عَلى اسْتِحْضارِ صورَةِ المَشْهَدِ الذي يكون فيه الكُفّار عندَ إتيانِ السّاعة بمَشاهِدِها وأهوالِها أو النّار، وهيَ تَلْفَحُهم، ولا يملكون لأنفُسِهم هُروبًا أو خُروجًا مِن هذا المشهَدِ.

بَلاغَةُ الإضْمارِ في مَوْضِعِ الإظْهارِ:

ظُهورُ السّاعَةِ لِكُلِّ أحَدٍ أتَمَّ الظُّهورِ

إذا كان الضَّمير المستتر في ﴿تَأۡتِيهِم﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ عائدًا إلى السّاعة، وهي غيرُ متقدِّمة الذِّكْرِ، فيكون في الآية إضمارٌ في موضِع الإظهار؛ إذْ مُقتضى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (بل تأتيهم السّاعة بغتةً فتبهتهم)، ولكن عُدِلَ عن ذلك إلى الإضمار؛ للإشعار بأنَّ السّاعة معلومةٌ ظاهرةٌ غايَةَ الظّهور لكُلِّ أحدٍ، فهي مستحضرةٌ في كُلِّ ذِهْنٍ، فكانَ الإضمارُ كافيًا في الدّلالة عليها[1].

نُكْتَةُ تَقْييدِ الإتْيانِ بِالحالِ ﴿بَغۡتَةٗ﴾:

عَـذابُ البَغْتَةِ أشَدُّ وقْعًا عَلى النُّفوسِ

قُيِّدَ الإتيانُ بالحال ﴿بَغۡتَةٗ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك أشَدُّ وقْعًا على النُّفوسِ؛ إذِ البَغْتَةُ تَمنَعُ الاستعدادَ والتَّأهُّبَ للأمرِ النّازِلِ والتَّوطُّنَ عليهِ، وتَمنَعُ الحِفاظَ عَلى النَّفْسِ[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾:

التَّـنْـبـيـهُ عَـلى سَـبَـبِ البَـهْـتِ والحَيْرَةِ

عبَّر القُرآنُ الكريمُ بِالفاءِ في قولِه: ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ دونَ الواوِ؛ لدلالَتِها على السَّببيَّة والتَّعقيب مِن دون مُهْلة، فالبَهْتُ والحَيْرَةُ مسبَّبانِ عَن إتيانِ السّاعة أو العذاب بغتةً.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 422.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 71، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9542.

دِلالَةُ التَّعبير بِقَوْلِه: ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾:

شِـدَّةُ دَهْـشَـةِ الكُفّارِ وعَظيمُ حَيْرَتِهِم

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبير بقوله: ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾؛ لِما لهذه المادَّةِ مِن دلالَةٍ لُغَويَّة تُناسِب هذا المَشْهَد مِنَ الحيرَةِ التي تُصيبُ الكافرينَ فلا يَعْقِلون ولا يُدْرِكونَ، كما قال القرآنُ الكريمُ تَصْويرًا لذلك بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج:2]، وذلكَ لِحَيْرَتِهم في أنْفُسِهم.

فالتَّعبير بالبَهْتِ يُصَوِّر صورةَ المُفاجأة التي أدْهَشَتْهُم وحيرتهم فلا يستطيعونَ ردَّها؛ لأنَّها جاءت دَفْعَةً واحدَةً.

دِلالَةُ الفاءِ في ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

يَـأْسُ الكافِرينَ مِنْ دَفْعِ العَذابِ عَنْ أنْفُسِهِم

الفاءُ في ﴿فَلَا﴾ من قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ لِلتَّفريع، فقد سبَّب عن بَهَتِهِم - المذكورِ في قولِه: ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ - قولَه: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: لا يَطْلبونَ طَوْعَ ذلكَ لَهُم في ذلك الحينِ لِيَأْسِهِم مِنْهُ(1).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

عَجْزُ الكَفَرَةِ عَنْ مُدافَعَةِ العَذابِ ورَدِّهِ

في التَّعبير بفِعْلِ الاستطاعَةِ في قولِ اللّٰه تَعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ دون (فَلا يَرُدّونها) مع أنَّه أخْصَرُ؛ لأنَّ نفي الرَّدِّ قد يُفهَم مِنْهُ قُدْرَتُهم على تَحَمُّل ما باغَتَهُم مِنَ العذاب، ولِذا لم يَحْتاجوا إلى ردِّه، بِخِلافِ نَفْيِ اسْتِطاعَتِهِم الرَّدَّ، فهُوَ دالٌّ على مُحاوَلَتِهِم الردَّ لِشِدَّةِ وقْعِ العذابِ عليهم، ولكنَّهم عاجِزون عَن دَفْعِهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرَّدِّ دونَ الدَّفْعِ:

الدَّفْعُ أعَمُّ مِنَ الرَّدِّ

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرَّدِّ دون الدَّفع في قوله تَعالى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾؛ لأنَّ الرَّدَّ يَحمِلُ مَعْنى صَرْفِ الشَّيء عَن وجْهه، بِخِلافِ الدَّفعِ؛ فهُوَ رَدُّ الشَّيءِ إلى أوَّل حاله وآخره، ولأنَّ الرَّدَّ يَحْمِلُ مَعْنى الكراهة، وهذا المَعْنى يَرِدُ كثيرًا في القُرآنِ الكَريم في

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 422، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 72.

مَشاهِد يوم القيامةِ، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [البقرة:85]، وقوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة:105]، فالرَّدُّ جاء هنا لِتَصْويرِ حالِ الكراهيَّة عند رَدِّهم إلى أشَدِّ العذابِ أو الرَّدّ للحِساب، ولِذَلِكَ كانَ مِنَ المُناسب أن يُعَبَّر في مَشْهَدِ مَجيءِ السّاعة بغتة بالرَّدِّ دون الدَّفْع؛ لأنَّ الرَّدَّ لا يكونُ إلّا إلى خَلْفٍ، بِخِلافِ الدَّفْع فيكون إلى الأمام وفي الخَلْفِ جميعًا[1].

دِلالَةُ ذِكْرِ المُسْنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾:

زيادةُ التَّقْريرِ والإيضاحِ

ذُكِرَ المسنَدُ إليه ﴿هُمۡ﴾ من قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾، ولو حُذِفَ بأنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا يستطيعون ردَّها ولا يُنْظَرُونَ)؛ لأدَّى أصلَ المَعْنى، إلّا أنَّهُ ذُكِرَ المسنَدُ إليه ﴿هُمۡ﴾ قصدًا إلى زيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وذلكَ كَمَن يُمسِكُ بِمُجْرِمٍ عاثَ في الأرضِ فسادًا، فيُقال على رُؤوسِ الأشهادِ: هذا الذي قَتَلَ، هذا الذي سَرَقَ، هذا الذي أفْسَدَ.

دِلالَةُ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْه عَلى المُسْنَدِ الفِعْلِيّ:

المُبالَغةُ في نَفْيِ إمهالِ الكُفّارِ

في تقديم المُسْنَدِ إلَيْه على المُسْنَدِ الفعليِّ في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ تأكيدٌ للنِّسبةِ؛ إذْ تكرَّرت مرَّتين؛ إحداهُما في نِسْبَةِ فِعْلِ الإنْظارِ إلى ضَميرِ ﴿هُمۡ﴾، والأخرى في نسبتِه إلى واوِ الجماعة، فكان ذلكَ مُفيدًا تأكيدًا بعدَ تقريرٍ؛ مُبالغةً في نَفْيِ إمهالِ الكَفَرَةِ المُقْتَضي تحقُّقَ حلولِ العَذابِ بِهِم.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُنظَرُونَ﴾:

استِمرارُ انْتِفاءِ إنْظارِ أهْلِ الكُفْرِ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُنظَرُونَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾؛ للدّلالَةِ على الدَّوام والاسْتِمرارِ، والمَعْنى: لا يَتَجَدَّد لَهُم إنْظارٌ للعذابِ بحالٍ مِنَ الأحوالِ، فالمرادُ: دوامُ انْتِفاءِ إنْظارِهم، وليسَ انتفاءَ دوامِ الإنْظارِ؛ لأنَّهم أُنْظِروا زمنًا طَويلًا لعلَّهم يُقْلِعون

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 130.

عن ضلالِهِم؛ لِذَلِك كانَ اخْتيار ﴿يُنظَرُونَ﴾ دونَ غيرِه دليلًا عَلى التَّذكير بإمهالِهِم في الدُّنيا.

دِلالَةُ بِناءِ الفِعْلِ لِلمَفْعولِ ﴿يُنظَرُونَ﴾:

انْعِدامُ إنْظارِ الكُفّارِ انْعِدامًا مُطْلَقًا

بُنِي الفعلُ ﴿يُنظَرُونَ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للدِّلالةِ عَلى العُموم، أي: لا يَحْصُلُ لَهُم إنْظارٌ أبدًا مِنْ أيِّ أحدٍ كانَ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاسْتِطاعَةُ والقُدْرَةُ:

الاسْتِطاعَةُ مُتَقَدِّمَةٌ عَلى القُدْرَةِ

الاستطاعةُ: اسمٌ للمعاني التي يُتمكَّن بها ممّا يُراد مِن إحداث الفِعْلِ[1]، بخلاف القُدْرَة فإنَّها اسم للهَيْئَةِ التي بها يُتمكَّن من فعل شيءٍ ما[2]، وعليه فإنَّ الاستطاعةَ متقدِّمةٌ على القُدْرَة؛ لِتَعَلُّقها بإرادةِ إحْداثِ الفِعْلِ، بخِلافِ القُدْرَةِ فتتعلَّق بالفِعْلِ ذاتِه.

الرَّدُّ والدَّفْعُ:

الرَّدُّ أخَصُّ مِنَ الدَّفْعِ

بينَ الرَّدِّ والدَّفع عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ، وذلكَ لأنَّ الدَّفْعَ أعَمُّ مُطْلقًا مِنَ الرَّدِّ؛ إذِ الرَّدّ لا يكونُ إلّا إلى خلفٍ، بخلافِ الدَّفع؛ فإنَّه يكون إلى قُدّامٍ وإلى خلفٍ جميعًا[3].

(1) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (طوع).
(2) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (قدر).
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾ [الأنبياء:41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استِهزاءُ الكُفّارِ بِعُمومِ الأنبياءِ والرُّسُلِ

لمّا ذكَر اللهُ تَعالى فيما سبق اسْتِهزاءَ الكُفّار بالنَّبيِّ ﷺ وبالدّين، ثُمَّ ذكَر جزاءَ ذلك الاستهزاء؛ أتبَعَهُ في هذه الآيةِ بما يَدُلُّ عَلى أنَّ ذلك ليسَ خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ، بَلِ الحُكْمُ عامٌّ في الرُّسُلِ جميعًا؛ فكلُّ مَن تقدَّم مِنَ الرُّسُلِ وقَع من أُمَمِهم الاستهزاء بِهِم وحَلَّ بِهِم العِقاب والهلاكُ في الدُّنيا والآخِرَة، وفي ذَلِكَ تسليةٌ لَهُ ﷺ وتأسيَةٌ، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾: (هزأ) تدلُّ تَصريفاتُها على معنى السُّخريَّة[2]، ويأتي الهُزْؤُ بمعنى الاسْتِخْفافِ[3]، وكأنَّ هذا تفسيرٌ باللّازِمِ؛ فإنَّ الذي يُسْتَهْزَأُ به؛ يُستهانُ بشأنه ويُستخفُّ به[4]، وهذا هُو المَعْنى الوارِدُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

وحكى ابنُ جرير أنَّ الاستهزاءَ في كلامِ العَربِ مَعْناهُ: إظهارُ المُسْتَهْزِئِ لِلمُسْتَهْزَأِ به مِنَ الفِعْلِ والقولِ ما يُرضيه في الظّاهِرِ، ولكنَّ ذلك يورثُهُ مَساءَةً في الباطِنِ[5].

2) ﴿فَحَاقَ﴾: (حيق) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنى نزولِ شيءٍ بشيءٍ، تقول العربُ: حاق به السُّوءُ يحيقُ؛ أي: حلَّ ونزلَ[6]، وقد يردُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هزأ).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: (هزأ).
(4) محمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 303.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيق).

بمعنى الإحاطَةِ لأجل الإهلاك، ومنهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1].

3) ﴿سَخِرُواْ﴾: (سخر) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَى الاحْتِقار والاستِذْلالِ[2]، ومِنْهُ قَوْلُهم: سَخِرْتُ مِنْهُ، أي: هَزِئْتُ به وتهكَّمتُ[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بَيانُ سُنَّةِ الله تَعالى في إهْلاكِ المُسْتَهْزِئين

في هذه الآيةِ بَيانُ سُنَّةِ اللّه تَعالى في إهْلاكِ المُسْتَهْزِئينَ الذين اسْتَهْزَؤوا بِرُسُلٍ مِن رُسُلِ اللّه الذين أرْسَلَهُم مِن قَبْلِكَ إلى أُمَمِهم، فحلَّ بِهِم الذي كانوا به يَسْتَهْزِؤونَ مِنَ البلاءِ والعَذاب الذي كانَت رُسُلُهم تُخَوِّفُهم نُزولَهُ بِهم، فلَنْ يَعْدُوَ هؤلاءِ المُسْتَهْزِؤونَ بكَ مِن هؤلاءِ الكَفَرة أن يكونوا كأسْلافِهم مِنَ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ رُسُلَها، فيَنْزِلُ بهم مِن عذابِ اللّه تَعالى وسَخَطِه باسْتِهْزائِهم بِكَ نَظيرُ الذي نَزَل بِهِم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ الجُملَةِ بِما قَبْلَها:

تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ وتَطْمينُهُ

قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ معطوفٌ على جُملَةِ: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾، والقصدُ مِن ذلك تَطْمينُ النَّبِيِّ ﷺ وتَسْلِيَتُه[5]، والجُملتانِ مُتَّفِقتانِ في الخَبَرِيَّة، وبينَهُما وجْهٌ حسَّنَ هذا العطفَ وهُو اتِّفاقهما في الفعليَّة.

ويجوزُ أن تكونَ مَعْطوفَةً عَلى جُملَةٍ مقدَّرة تقديرُها: واسْتَهْزَؤوا بَك، ولَقَد اسْتَهْزَأ أُمَمٌ بِرُسُلٍ مِن قبلك، والأوَّلُ أوْلى[6].

(1) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(3) الخطابي، غريب الحديث: 2/ 289.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 446، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 73.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147.

بَلاغَةُ تَأْكيدِ الجُملَةِ بِـ(اللّامِ) و(قَدْ):

تَسليَةُ النَّبيِّ ﷺ بما حَدَثَ لإخوانِه مِنَ الرُّسُلِ وهَلاكِ أعْدائِهم

أُكِّد قولُ اللّه سُبحانَه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ باللّام الموطِّئة للقسم وبـ (قد) التي للتَّحقيق، وفي هذا التَّأكيدِ نِكاتٌ[1]، **منها**: أنَّ فيه عنايةً بالخبَرِ؛ لبيانِ أهمّيَّتِه، **ومنها**: أنَّ فيه مزيدَ تسليةٍ للنَّبيِّ ﷺ بمُساواة إخْوانه مِنَ الرُّسُل وبتَعْذيبِ أعْدائه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أحْزَنَه استهزاءُ النّاس بِنَبيِّهم الذي جاءَ لِهدايَتِهم، ولكونِ الوحدانيَّة حقًّا لا يُستهزَأُ بها، بل إنَّ عِبادَتَهم الأوثانَ هي الخَليقَةُ بالاستهزاءِ، فجاءَ التَّأكيد لمواساته عليه الصَّلاة والسَّلام، وليوقِعَ في نفسِه عليه الصَّلاة والسَّلام بأنَّ دعوةَ الحقِّ لا يُعارِضُها الفُضلاءُ، وأنَّ مِن طبيعة الأخِسّاء أن يَهْبِطوا في خُصومَتِهم إلى دَرَكِ الاستهزاءِ.

ومن هذه النكات: أنَّ التَّأكيد في الخَبَرِ هُو باعتبارِ ما تفرَّع عَنْهُ من ذِكْرِ حُلول العذاب بالمُشْركين؛ لأنَّ حالَهم حالُ مَن يَتَرَدَّد في أنَّ سببَ هَلاكِ الأُمَمِ المُتَقَدِّمة هو الاستهزاءُ بالرُّسل؛ إذْ لولا هَذا التَّردُّدُ مِنْهُم لَكانوا قد أخَذوا الحَيطةَ لأنفُسِهم مع النَّبيِّ ﷺ الذي جاءَهُم، فنَظَروا في أدِلَّة صِدْقه وتأمَّلوها وما أعْرَضوا عَنها، أو أنَّهُم نُزِّلوا منزلَةَ المُتَرَدِّد إن كانوا يَعْلَمونَ ذَلِكَ؛ لعَدَمِ جَرْيِهم عَلى مُقْتَضى هَذا العِلْم.

دِلالَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ لِلمَفْعولِ:

حُلولُ العَذابِ مِنْ آثارِ الاسْتِهْزاءِ

حُذِفَ فاعلُ الاستهزاءِ ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ هَهُنا هُو بيانُ تَرتُّب أثَرِ الاستهزاءِ، وهُو حُلولُ العذابِ ونُزولُه لا تَعْيين المُسْتَهْزئينَ[2]؛ ولأنَّه لا يتعَلَّق غرضٌ بذِكْرِ الفاعل؛ فإنَّ العقوبةَ تتعلَّق بالاستهزاءِ أيًّا كان

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 423، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4867.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147.

فاعِلُه؛ إذْ لَو ذُكِرَ الفاعِلُ لرُبَّما فُهِم أنَّ العقوبةَ إنَّما حصَلَت لأنَّ الفاعلَ هُم هَؤُلاء المَذْكورون، ولَو كانَ غَيْرُهم لَم تَكُن العُقوبَة كذلكَ أو أنَّهم لَم يُعاقَبوا.

دِلالَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿بِرُسُلٍ﴾:

بَيانُ اسْتِحْقاقِ حُلولِ العَذابِ بِالمُسْتَهزِئين

نُكِّر لفظُ ﴿بِرُسُلٍ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ للدّلالَةِ عَلى التَّكْثيرِ والتَّفْخيم، فهُم رُسُلٌ ذَوو عددٍ كَبير، ومَقامُهُم عِنْدَ اللّه تعالى وفي أقوامِهم عظيمٌ[1]، وهذا أبْلَغُ في بَيانِ اسْتِحْقاقِ حلولِ العذابِ بالمُسْتَهزئ بِهِم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿بِرُسُلٍ﴾ دونَ (أنْبياء):

الرَّسولُ أفْضَلُ مِنَ النَّبيِّ

عَبَّر القرآنُ الكريمُ بـ ﴿بِرُسُلٍ﴾ دونَ (أنْبياء) في قولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ للدّلالة على عُتُوِّ الأُمَم السّابقة وطُغْيانهم في الاسْتِهْزاءِ بِرُسل اللّه تَعالى وهُم أعْلى قَدْرًا؛ فإذا وقَعَ مِنْهُم مَعَ الرُّسُل فوُقوعُه مَعَ الأنْبياءِ والعُلَماءِ والصّالحينَ أيْسَرُ؛ بَل إنَّهُم قَتَلوا الأنبياءَ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مِّن﴾ في قَوْلِه: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

تَأكيدُ المَعْنى وتَقْوِيَتُهُ

في التَّعبيرِ بِـ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ نُكتَتانِ:

إحداهُما: توكيدُ المَعْنى وتَقْوِيَتُهُ؛ وهُو الدّلالَةُ الغالبَةُ على (مِنْ) المُقْتَرِنَة بـ (قَبْلُ) و(بَعْدُ).

والأُخْرَى: أنَّه لمّا كان معنى التَّنكير في ﴿بِرُسُلٍ﴾ عَدَمَ الاستغراق؛ أكَّده بالخافض[2]؛ ليَشْمَلَ جميعَ الرُّسُل مِن قَبْلِه ﷺ، وعَلى هذا تكونُ ﴿مِّن﴾ ابتدائيَّةً، أي: مِن أوَّل مَن يُقالُ لَهُ رسولٌ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 423، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4867.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 423.

اسْتِهْزاءُ الكُفّارِ بِعُمومِ المُرْسَلينَ

نُكْتَةُ وصْفِ الرُّسُلِ بِـ ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

في وصْفِ الرُّسُل بـ ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ إيذانٌ بأنَّ الاستهزاءَ واقِعٌ عَلى النَّبيِّ ﷺ أيضًا كَما هُو واقِعٌ عليهم، وإلّا لَم تَكُن فائِدَةٌ في هَذا الوَصْفِ؛ لأنَّ كَوْنَ الرُّسُل قَبْلَهُ أمرٌ معلومٌ لا يُجهل[1].

حَثُّ النَّبيِّ ﷺ عَلى الصَّبْرِ عَلى إيذاءِ الكَفَرَةِ

دِلالَةُ الجُملَةِ الخَبَرِيَّةِ في الآيَةِ:

قولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ جملة خبريَّةٌ، ولا يُراد بها مُجَرَّد إعلام المُخاطَب بما تَضَمَّنَتْهُ هذه الجُملَةُ، وإنَّما المُرادُ بها تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ وتعزيةٌ لَهُ، وهي مُتَضَمِّنَة معنى الأمرِ بالصَّبر؛ إذِ المَعْنى: إنِ اسْتَهْزأ بِكَ هؤلاءِ، فلا تَحْزَن؛ لأنَّه قَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ من قبلكَ ذَوي عددٍ كثيرٍ وقَدْرٍ كبيرٍ، فاصْبِرْ كَما صَبَروا[2].

الاسْتِهْزاءُ بالرُّسُلِ سَبَبٌ لِحُلولِ العَذابِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفاءِ في ﴿فَحَاقَ﴾:

الفاءُ في ﴿فَحَاقَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تَدُلُّ على أنَّ ما بَعْدَها مُسَبَّب لِما قَبْلَها، أي: أنَّ حُلولَ العَذابِ ونُزولَ العِقاب بِهَؤلاء كانَ سَبَبُه اسْتِهْزاءَهُم بالرُّسُلِ عليهم الصَّلاة والسَّلام، وفي الفاءِ أيْضًا مَعْنى التَّعقيب[3]، وأنَّ نزولَ العذابِ بِهِم لَم يَطُل أمَدُه بَعْدَ صُدورِ الاستهزاءِ مِنْهُم، ولا يُنافي هَذا إمهالَ اللّه تَعالى لَهُم؛ لأنّه مَهْما طالَ زمَنُ الإمهالِ فإنَّه بالنِّسْبَةِ إلى نُزولِ العِقابِ عليهم يَسيرٌ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ ﴿فَحَاقَ﴾:

اخْتيرَ فِعْلُ ﴿فَحَاقَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 290.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4868.

﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنَّ هذه المادَّةَ تدُلُّ على النُّزولِ والوُجوبِ والوقوع، وفي هَذا دِلالَةٌ على أنَّ العقابَ نزَلَ وحَلَّ بِهِم، وهُم حَقيقونَ به؛ لِما فعَلوا مِن السُّخريَّة بِرُسُلِ اللّه عليهم الصَّلاة والسَّلام، ولأنَّها تُستَعْمَلُ في إحاطَةِ المَكْروه، فلا تُستَعْمَلُ في الخَيْرِ البَتَّة، ولأنَّها تدُلُّ على الشُّمول واللُّزوم وتَمكُّن ذلك مِنْهُم، بِمعَنى أنَّ العذابَ نَزَل بِهِم نُزولًا شامِلًا، وأحاطَ بِهِم مِن كُلِّ جِهَةٍ إحاطَةً تامَّة، بحَيْثُ لَم يُفْلِتْ مِنْهُم أحَدٌ(1).

اخْتِصاصُ الحَيْقِ في الاسْتِعْمالِ بِالمَكْروه

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَوْصولِ وصِلَتِه ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾:

السُّخْرِيَةُ سَبَبٌ لِنُزولِ العَذابِ

عُبِّر بالمَوْصولِ وصِلَتِه ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، ولم يَرِد في النَّظْمِ القُرآنيِّ: (فَحاق بالسّاخِرين)؛ للإيماءِ إلى تَعْليلِ الحُكْم وهُو قولُه سُبْحانَهُ: ﴿فَحَاقَ﴾(2).

دِلالَةُ تَخْصيصِ السّاخِرينَ بِعِقابٍ خاصٍّ:

خِسَّةُ الاعْتِراضِ بِالسُّخْرِيَةِ

خُصَّ السّاخِرون بعِقابٍ خاصٍّ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنَّهُم في مُعارَضَتِهم بِهذا النَّوْعِ مِنَ المُعارضَةِ كانوا أخِسّاء في ذاتِ أنْفُسِهِم(3).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ الجَرِّ (مِنْ) في قَوْلِهِ: ﴿مِنۡهُم﴾:

تَعْظيمُ شَأْنِ الرُّسُلِ عليهم السلام

الجارُّ والمَجْرورُ (مِنْهم) متعلّق بـ ﴿سَخِرُواْ﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، والضَّمير المجرورُ راجِعٌ إلى الرُّسُلِ في قولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، والفائِدَةُ مِنْ إيرادِه زيادةُ تقريرِ كون العذابِ من أجلهم؛ تعظيمًا لشأنِهم وترفيعًا لمكانتهم(4).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 212.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، 4868.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.

بَيانُ عُلُوِّ مَنْزِلَةِ الرُّسلِ عليهم السلام

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿مِنۡهُم﴾:

الضَّمير المجرور في ﴿مِنۡهُم﴾ من قولِ الله تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ عائدٌ إلى الرُّسُلِ، وهو الأظهرُ؛ لبيانِ عُلُوِّ مَرْتَبَتِهم[1].

وجوَّز بعضُ أهل العلم عودَ الضَّمير إلى أُمَمِهم، والتَّقدير: (فحاقَ بالذينَ سَخِروا مِن أُمَم الرُّسُل)، فتكون (مِن) على هذا الوجه بيانيَّةً، ورُدَّ هذا الوجهُ بأنَّه على خلاف الأصلِ، مِن جهة عَوْدِ الضَّمير على غير مذكورٍ.

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الضَّمير راجع إلى المُسْتَهْزئين، فيكونُ قولُه: ﴿مِنۡهُم﴾ حالًا من ضمير الفاعلِ في ﴿سَخِرُواْ﴾، ورُدَّ بأنَّ التَّقدير على هذا: فحاقَ بالذين سَخِروا كائنينَ مِنَ المُسْتَهْزئين، وهَذا لا حاجةَ إليهِ؛ لأنَّ ذلكَ مَفْهومٌ مِن قَوْلِه: ﴿سَخِرُواْ﴾[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى الفاعِلِ:

المُسارَعَةُ إلى بَيانِ نُزولِ الشَّرِّ بالمُسْتَهْزئينَ

قُدِّم الفاعلُ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على الجارِّ والمجرورِ ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ مِنْ قولِ الله سُبْحانَه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ والنُّكتَةُ في هذا التَّقديم المُسارعَةُ إلى بَيانِ لُحوقِ الشَّرِّ ونُزولِ العذابِ بِهِم[3]، ولأنَّ المَعْنى يَقْتَضي ذلك، فلا يَصِحُّ أن يُقالَ: (لقَد اسْتُهْزِئَ برسلٍ مِن قبلكَ، فحاقَ ما كانوا به يَسْتهزئون بالذين سَخِروا منهم)؛ لأنَّ الضَّمير في ﴿كَانُواْ﴾ عندَ ذلكَ لا يَعودُ عَلى مَذْكورٍ مُتَقَدِّمٍ؛ لأنَّه لَم يَتَقَدَّم ذِكْرٌ للمُسْتَهْزئينَ؛ فالفِعْلُ مَبْنيٌّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه، بِخلافِ قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فإنَّ الضَّمير في ﴿كَانُواْ﴾ يعودُ عَلى المُتَقَدِّم وهُم الذين سَخِروا مِنْهُم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/ 445.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114.

دِلالَةُ الجُملَةِ الخَبَرِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَحَاقَ﴾:

كِفايَةُ الله تَعالى نَبيَّهُ ﷺ شَرَّ المُسْتَهْزِئين

الجُملة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، مُتَضَمِّنة إخبارَ اللّه تَعالى بِما جَرى لِمَن اسْتَهْزَأ بالرُّسل السّابقين عليهم الصَّلاةُ والسَّلام، والمقصودُ مِنْها الوعيدُ والتَّهديد لِمَن اسْتَهْزَأ بالنَّبيِّ ﷺ، وفيها تثبيتُه عليه الصَّلاة والسَّلام على عدَم الاكْتِراثِ بِهِم؛ لأنَّ مصيرَهُم إلى الهلاكِ والعذابِ الأليم المُرَتَّب على استهزائِهم، وأنَّه سُبحانه يكفي نبيَّه ﷺ شرَّهم وإذايَتَهُم[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مَّا﴾:

تَهْويلُ العَذابِ وتَفْظيعُهُ

اختيرَ التَّعبيرُ بـ ﴿مَّا﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لتَعَدُّد المرادِ بها؛ فيجوزُ أن تَكون اسْمًا موصولًا بمَعْنى (الذي)، والمَعْنى: فأحاطَ بِهِم الذي كانوا به يَسْتَهْزئون، والنُّكْتَةُ في التَّعبيرِ بالاسْم الموصولِ: تهويلُ هذا العذابِ وتَعْظيمُهُ؛ لأنَّ في الاسم الموصولِ إبْهامًا يَصْلُحُ لِهَذِه الدّلالة، فتَذْهَب النَّفْسُ كُلَّ مذهَبٍ في مُحاولَة تَعْيينه.

ويجوزُ أن تكون ﴿مَّا﴾ مصدريَّةً، والتَّقدير: (فأحاط بِهِم وبالُ استهزائِهم)[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

تَصْويرُ حالِ الاسْتِهْزاءِ واسْتِحْضارِها في الذِّهْنِ

في التَّعْبير بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ إيماءٌ إلى اسْتِمرارِهِم - قبلَ حُلول العذابِ بِهِم - عَلى هذا الاستهزاءِ ودَوامِهِم عليه، وفيه تصويرٌ لهذا الاستهزاءِ الحاصلِ في الماضي بِصورَةِ الحاصلِ الآن؛ لِقَصْدِ اسْتِحْضاره في الذِّهن زيادةً في التَّهويل والتَّشْنيعِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/ 444.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114.

الإعدامُ بكمالِ المُلابَسَةِ بَيْنَ العَذابِ والاسْتِهْزاءِ

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في ﴿فَحَاقَ﴾:

في قول اللّه ﷻ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ مجاز مرسل، وذلك لأنَّ الذي أحاطَ بهم هُو العذابُ والعِقاب لا الاستهزاءُ نفسُه ولا المُستَهْزَأُ به، ولكِنَّ التَّعبير القرآنيَّ دلَّ على أنَّ الاستهزاءَ ذاتَهُ هُو الذي يَحيق للإشارَةِ إلى الجزاءِ وِفاقًا للجَريمَة؛ فهُو مجازٌ مُرْسَلٌ بعَلاقَة السَّببيَّة، حيث أُطلق السَّبَبُ على المُسَبَّب، والنُّكتة في ذلك: إرادةُ المُبالغَةِ، والإيذان بكَمالِ المُلابَسَة بَيْنَهُما، وأنَّ العذابَ ملازم لهذه السُّخرية لا ينفكُّ عنها بحالٍ، فحيثُما وُجد التَّطاول على أولياء اللّه تعالى؛ وُجد معه عذابُ اللّه تعالى وسخطُه على المُستَهْزئين بِهم[1].

تَشْنيعُ شَأْنِ الاسْتِهْزاءِ

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى مُتَعَلَّقِهِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ على مُتَعلَّقه ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ لإرادَةِ الاهتمامِ بالمقدَّمِ وهو المستهزأ بِهِ، تعظيمًا له، وتشنيعًا لشأن السُّخرية به.

وفي التَّقديم معنًى آخرُ لفظيٌّ وهو رعايةُ تَناسُب الفواصلِ؛ إذْ لَوْلا هذا التَّقديم لفاتَ التَّناسب الصَّوتيُّ بين أواخِرِ الآيِ[2].

المُغايَرَةُ بَيْنَ الألفاظِ تَفَنُّنًا في التَّعبيرِ

نُكْتَةُ التَّنْويعِ بَيْنَ الاسْتِهْزاءِ والسُّخْرِيَةِ في الآيَةِ:

نوَّع التَّعْبيرُ القرآنيُّ في اسْتِعْمالِ مادَّة السُّخريَّة والاستهزاءِ مَعَ قُرْبِهما في المَعْنى في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فذكر الاستهزاءَ أوَّلًا ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾؛ لكونه الأشهرَ في الاستعمالِ، ولمّا أُعيدَ جاء التَّعبير بالسُّخرية - ﴿سَخِرُواْ﴾ - ، ولمّا أُعيد ثالثًا؛ رُجِعَ إلى فِعْلِ الاستهزاءِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 97، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 196، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/ 44.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 114، والآلوسي، روح المعاني: 4/ 97.

- ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ - ؛ لكونه أخفَّ مِنْ (يَسْخَرون)، كلُّ ذلكَ مِنْ بابِ التَّفنُّن في التَّعبير، وهو من بديع فصاحةِ القُرآن الكريم(1).

ومِمّا يُذْكَر في سِرِّ ذلكَ التَّنْويع في الاسْتِعْمالِ أنَّ الكُفّار اسْتَهزؤوا بالرُّسُل عليهم السلام وبما جاؤوا به وسَخِروا مِنْهُم ومن أعمالِهم كما حدَثَ ذلك مِن قوم نوحٍ مَعَ نوحٍ، وكما حدَثَ مَعَ غيرِه مِنَ الأنبياءِ؛ حَيْثُ وقَعَ مِنْهُم الاسْتِهْزاء بالأنْبياءِ مِن غَيْرِ فِعْلٍ يُستهزَأُ به مِن أجلِه إلّا دَعْوى الرِّسالة أو النُّبوَّة؛ وأمّا السُّخريَّة فتدُلُّ على فِعْلٍ يقَعُ مِنَ المَسْخورِ مِنْهُ أوَّلًا، كما حدثَ مَع نوح عليه السلام عندما كانَ يَصْنَعُ السَّفينة، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود:38].

نَوْعُ الفاصِلَةِ في الآيَةِ وفائِدَتُها:

الفاصلَةُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ هي ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وهي فاصلةٌ مصدَّرةٌ؛ لوُرودِ مادَّتِها في صَدْرِ الآيَةِ ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾، وفائدةُ ذلك تَسْلِيَةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومَن تَأسّى به في دَعْوَتِه إلى تَوْحيدِ اللّه سُبْحانَه، كَما أنَّ فيها تهديدًا ووعيدًا لِمَنِ اسْتَهْزأ مِنْهُ وسَخِرَ به في زَمانِه وفي الأزْمِنَة بعدَهُ(2).

تَسْلِيَةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومَنِ اقْتَدى بِهِ

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(حاقَ) و(أحاطَ):

الإحاطَةُ أعَمُّ مِن الحَيْقِ، وذلك لأنَّ الفعلَ (حاقَ) لا يُسْتَعْمَلُ في الخَيْرِ، وإنَّما هو خاصٌّ بإحاطَةِ المَكْروه، بخِلافِ الفعلِ (أحاطَ)؛ فيَكونُ في الخَيْرِ ويَكونُ في الشَّرِّ، فهُوَ أعمُّ(3)، ولذا قالَ اللّه تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق:12].

الحَيْقُ أخَصُّ مِنَ الإحاطَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 147.

(2) رشا بنت عبد الله الزيد، الفواصل القرآنية في سورة الأنبياء وعلاقتها بمقصودها: دراسة بلاغية، ص: 245.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 148.

﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٢ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ۝٤٣﴾ [الأنبياء:42 - 43]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

لا حافِظَ لِلخَلْقِ إلّا اللهُ تَعالى

لمّا بيّن اللّهُ فيما سبَقَ أنَّ الكُفّار في الآخِرَة لا يكفّون عَن وُجوهِهم النّار ولا عَن ظهورِهم؛ أتبَعَهُ في هذه الآيَةِ بأنَّهم لولا أنَّ اللّه تعالى يَحْرسُهم ويَحْفَظُهم لَما بَقوا في السَّلامة؛ فقالَ اللّهُ تَعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ لِهَؤلاء الكفّار الذين يَسْتَهْزئون ويَغْتَرّون بما هُم عليه ﴿مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1].

ومِن أوْجُه التَّناسب بَيْنَهُما: أنَّ اللّهُ تعالى لَمّا هَدَّدَهُم بِحلول العذابِ عليهِم، بحيثُ لا يُمكِنُهُم دَفعُه عَن أنفُسِهم، وبيَّن لَهُم على وجْه الوَعيد ما حلَّ بأشباهِهم مِنَ المُسْتَهْزئين بالرُّسُل، وكانَ الأمانُ عَن مِثْلِ ذلكَ لا يَكون إلّا بِشَيْءٍ يوثَقُ به؛ أمَرَ اللّهُ سُبحانَهُ نَبيَّه ﷺ أن يَسْألَهُم مُقَرِّعًا ومُبَكِّتًا لَهُم: مَن الذي يَحْفَظكم مِن بأس اللّهِ، فقالَ: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٢ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾: (كلأ) تدلُّ تصريفاتُها على معنَيَين كُلّيَّين؛ أحدهما: حِفْظُ الشّيء وتَبْقِيَتُه، والآخرُ: ضربٌ مِنَ النَّباتِ؛ وهو الكَلَأُ. أمّا الحِفْظُ والتَّبْقِيَة؛ فمنهُ الكِلاءةُ، وهي الحفظ، يقال: كلأهُ اللّهُ

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 505.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 118.

سُبحانَهُ، أي: حَفِظَهُ، ومِنْهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾[1]، والمُكلأ مَوْضِعٌ تُحْفَظُ فيه السُّفن[2].

2) ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: (عرض) تدلّ اشْتِقاقاتُها عَلى مَعْنى الظُّهور والبروز، يُقال: عرَضَ الشَّيءُ؛ إذا ظَهَر وبرَزَ، وقيلَ: إنَّ المادَّة تدورُ على مَعْنى العَرْضِ الذي هو ضدُّ الطُّول، يُقال: اعْتَرض الطَّريقَ؛ إذا سارَ عرضًا، وسُمّي الرَّفضُ إعراضًا؛ لأنَّ الرّافض أظهر خلافَ الشَّيءِ، أو لأنَّه كالواقفِ عرضًا في وجه الشَّيءِ، وأعْرَضَ: أظْهَرَ عُرْضَهُ، أي: ناحيَته؛ فإذا قيل: أعْرَضَ لي كذا، أي: بَدا عُرْضُه فأمكَن تَناوُله، وإذا قيل: أعْرَض عنّي؛ فمَعْناهُ: ولّى مُبْدِيًا عُرْضَه، والإعراضُ: الصَّد والتَّولّي والرَّفض، تقول: أعرضَ عنه؛ أي: صدَّ وتولَّى، والمُعْرِضُ: المُتَوَلّي[3]، وهو المقصودُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾.

3) ﴿تَمۡنَعُهُم﴾: (منع) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها على حَجْزِ ظاهرِ الشَّيْء ما في باطِنه شديدًا، فلا يكونُ فيه مَنْفَذٌ إلى ما بِداخِلِه، ومِنْهُ: المَنْعُ؛ وهُو تَحْجيرُ شَيْءٍ والحَيلولة دونَ الوصولِ إليه، ومِنْ هذا المعنى: المَنْعُ الذي هو ضدُّ الإعطاء[4].

وَقولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم﴾ أي: تُجيرُهُم وتَحْفَظُهُم[5]، بِمَعْنى: الحَيْلولَة دون وُصولِ العذابِ إلَيْهِم.

4) ﴿نَصۡرَ﴾: (نصر) تَدورُ مادَّتُها حول معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بِما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقُوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[6]، ومِنْهُ سمّيَ المطرُ نَصرًا[7]، والنَّصْرُ على العَدُوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقُوَّةِ النّاصر وغَلَبَتِه[8]، والاسْتِنْصارُ: طَلَبُ النَّصْرِ.

وقولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ بِمَعْنى: لا يَسْتَطيعونَ دفعَ المَكْروه عَنْهُم.

---

(1) الخليل، العين، والجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كلأ).
(2) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (كلأ).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).
(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (منع).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 84.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/ 79، ومحمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (نصر).
(7) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(8) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 486.

5) ﴿يُصۡحَبُونَ﴾: (صحب) تدلُّ تصريفاتُها على مقارنَةِ شيءٍ ومقارَبَتِه[1]، ومِنْهُ الصّاحبُ، وهُوَ المُلازِمُ، سواءٌ أكانَ إنْسانًا أم حَيوانًا أم مَكانًا أم زَمانًا، مِنْ غيرِ فرقٍ بَيْنَ أنْ تَكونَ مُصاحَبَتُه بالبَدَنِ - وهُوَ الغالِبُ والأصلُ - أوْ بالعِنايةِ والهِمَّةِ[2]، ولا يُقال في العُرْفِ إلّا لِمَن كَثُرَت مُلازَمَتُه، ويُقال لِمالكِ الشَّيءِ: هُو صاحبهُ، وكذلكَ لِمَن يَملِكُ التَّصرُّف فيه[3].

ومن هذا الباب قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾؛ فإنَّ معناه: يُمنَعونَ ويُجارون ويُحفظون، كما يَحْفَظُ الأديمُ الجسمَ أو الجارُ جارَهُ؛ فهذا المَعْنى مِن لَوازِمِ المُصاحبَةِ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا رادَّ لِقَضاءِ اللهِ تَعالى عِنْدَ نُزولِه ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه

في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ يقولُ اللّٰهُ تعالى لنبيِّه ﷺ قُل يا مُحَمَّد لِهَؤلاء الذين اسْتَهْزؤوا بكَ واسْتَعْجَلوا العذابَ: مَن يَحْفَظُكُم ويَحْرُسُكم - باللَّيل إذا نِمتُم، وبالنَّهار إذا تَصَرَّفْتُم - مِن أمرِ الرَّحمن إن نزَلَ بِكُم، ومِن عذابه إن حلَّ بكم؟ بَل هُم عن ذِكر مواعظِ ربِّهم وحُجَجِه التي احتجّ بها عليهم مُعْرِضون، لا يتدبَّرون ذلكَ، فلا يَعْتَبِرون به جَهْلًا منهم وسَفَهًا.

أم لهؤلاءِ الذين اسْتَعْجَلوا العذابَ آلهةٌ تَمنَعُهم إن نَحْنُ أحْلَلْنا بِهِم عذابَنا وأنزلنا بِهِم بَأْسَنا مِن دونِنا؟ وكيفَ تَسْتَطيعُ آلِهَتُهُم التي يَدْعونَها مِن دونِنا أن تَمنَعَهم مِنّا وهيَ لا تستطيعُ نصرَ أنفُسِها، وهُم مِنّا لا يُجارونَ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(2) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (صحب).
(3) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (صحب).
(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صحب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 446 - 447، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الخِطابِ بِالأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

تَوْجيهُ الخِطابِ لِلنَّبيِّ ﷺ لِكَوْنِه المُبَلِّغَ عَنِ الله سُبْحانَهُ

الخِطاب بالأمرِ في قول اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ موجَّهٌ لِلنَّبيِّ ﷺ، أي: قُل يا نَبيَّنا لِهَؤلاء المُستَهزئين بك الجاحِدين نبوَّتكَ: مَن يَحْفَظُكم مِن بأسِ اللّه تعالى حينَ يَحُلُّ عَلَيْكُم[1].

وهذا الأمر جارٍ على أصلِه من إرادَةِ طلبِ الفعلِ على وجه الإلزامِ؛ لكونِه صادِرًا مِن اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ.

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في ﴿مَن يَكۡلَؤُكُم﴾:

تَقْريعُ الكُفّارِ وتَبْكيتُهُم وتَوْبيخُهُم

﴿مَن﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ استفهاميَّة، وهذا الاستفهامُ خارِجٌ عَن أصلِ دِلالته مِن إرادةِ طلَبِ العِلْمِ بِشَيْءٍ لَم يكُن معلومًا مِن قبلُ إلى مَعْنى التَّقْريع والتَّوْبيخ والتَّبكيت[2]، بقرينَةِ المقام، وبقرينةِ قولِه بعدُ: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾، أي: أنَّ اللّهَ تَعالى لمّا أمرَ رسولَهُ ﷺ بِسُؤالِهِم عنِ الحافظ؛ بيَّن لهُ بعدُ أنَّهم لا يَصْلُحون لذلكَ؛ لإعراضِهِم عن ذِكْرِ مَن يَكلَؤُهم[3].

ويَجوزُ أن يكونَ المُرادُ مِنَ الاسْتِفهام التَّذكيرَ والتَّنبيهَ عَلى ما هُم فيه مِن نِعَم عَظيمَة، ويَجوز أن يكونَ المرادُ بالاستفهام النَّفيَ والإنكارَ، والتَّقدير: (قُل لَهُم لا حافظَ لَكُم باللَّيل والنَّهار مِن الرَّحمن)[4]، وإذا كانَ كذلكَ فكَيْفَ تعبُدون غيرَهُ؟ أو أن يُراد به التَّقرير؛ بِمَعْنى: لَو سُئِلوا مَن يَكْلَؤُكُم من عذابِ الرَّحمن؛ أُلْجِئُوا إلى الإقْرارِ بأنَّ الذي يَحْفَظُهُم اللّهُ سُبْحانَهُ؛ لأنَّهم يَعْلَمونَ أنَّه لا يَنْفَعُ ولا يضرُّ إلّا هو تَعالى، ولذلك يُخْلِصون له الدُّعاء في حالِ الشِّدَّة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 83 - 84، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 69.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 423، والشنقيطي، أضواء البيان: 722/ 4.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 118، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 433.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 3/ 448.

ولا يَدْعون معَهُ غَيْرَه[1]، ولا تنافيَ بينَ هذه الدّلالاتِ كلِّها؛ إذِ النِّكات البلاغيَّة تتوارَدُ ولا تَتزاحَم.

دَوامُ نَفْيِ الحافِظِ مِنَ العَذابِ غَيْرِ الله سُبْحانَهُ

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾ مادَّةً وصيغَةً:

آثَرَ القُرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالكِلاءَةِ في قولِه: ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾ دونَ الحِفْظ؛ لِوُجودِ فرْقٍ بينَهُما؛ فالكِلاءَةُ: حِفْظُ الشَّيءِ وتَبْقيَته، يُقال: كلأك اللّهُ: حَفِظَكَ وأبْقاكَ؛ فالكِلاءَةُ إمالَةُ الشَّيءِ إلى جانِبِ يَسْلَمُ فيه مِن الآفة، ولذلكَ فهيَ أخَصُّ مِن الحِفْظِ؛ فقَد يُحْفَظُ الشَّيء ولا يَسْلَمُ من الآفة.

وأمّا عن صيغَتِه في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾ مِن قَولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ للدّلالةِ عَلى الدَّوام والاستِمرار، أي: لا يَحْفَظُكم أحدٌ باللَّيل والنَّهار على وجْه الاسْتِمرار مِن عذابِ اللّه تَعالى حين يَحُلُّ بِكُم، وهذا النَّفْيُ المُسْتَفادُ مِنَ الاستفهام مُتَوَجِّه لأصلِ الفعل وهُو الحِفْظ، لا إلى الاستمرارِ؛ إذْ لَو تَوَجَّه النَّفي للاستمرارِ لأفادَ أنَّ هناك مَن يَحْفَظُهُم من عذابِ اللّه سُبْحانَه ولَكِنْ لا يَدوم حِفْظُه لَهُم، وإنَّما مقصودُ الآية استمرارُ هَذا النَّفي بقرينةِ المَقام.

وفيه توبيخٌ لِلمُشْرِكينَ عَلى عِبادَتِهم لِهَذِه الأصْنام التي لا تَحْفَظُهُم ولا تَدْفَعُ عَنْهُم المَكْروهَ.

لِكُلٍّ مِنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ آفاتٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ

بَلاغَةُ الطِّباقِ بَيْنَ اللَّيلِ والنَّهارِ:

في الجَمع بينَ اللَّيل والنَّهارِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ قَصْدٌ لاسْتيعاب الأزْمِنَة كلِّها، والتَّقْديرُ: (مَن يَكلَؤُكم في جَميعِ الأوقاتِ؟)[2].

وفي التَّنصيصِ عَلى ذِكْرِ اللَّيل والنَّهار أيضًا: لِما لِكُلِّ واحدٍ من

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 154.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 73.

الزَّمنَيْنِ مِنَ الآفاتِ المُخْتَصَّة به، والمعنى: مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيل إذا نِمتُم، وبِالنَّهار إذا تَصرَّفْتُم في مَعايِشِكُم[1].

دِلالَةُ تَقْديمِ اللَّيْلِ عَلى النَّهارِ:

المُفاجَأةُ بِالعَذابِ لَيْلًا أكْثَرُ، ووَقْعُها فيه أشَدُّ

قُدِّمَ اللَّيل على النَّهار في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾؛ لأنَّه زمنُ المَخاوف؛ إذِ الظَّلام يُعينُ أسبابَ الضُّرِّ على الوُصول إلى مُبْتغاها مِن إنسانٍ أو حَيَوانٍ أو عِلَلِ الأجْسام، ولِكَوْنِ المفاجآت بالعذابِ في اللَّيل أكثَر، ويكونُ وقعُها فيه أشدَّ؛ إذِ اللَّيل محَلٌّ للاطمئنانِ، فالمُباغتَةُ فيه أنْكى وأشَدُّ[2]؛ لأنَّهُم غَيْرُ مُتَوَقِّعين لِحدوثِ شَيْءٍ مِن وُقوعِ العَذابِ، بَل يَفْجَؤُهم به، ولِذَلك جاءَت آياتٌ في القُرآنِ الكَريم، ورد فيها تقديمُ اللَّيل على النَّهار، ومِنْ ذَلك قَوْلُهُ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس:50]، وقولُهُ: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس:24]، فقُدِّم اللَّيل على النَّهار؛ لأنَّ التَّخويفَ به أعْظَمُ وأشَدُّ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾ في قَوْلِه: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾:

أثَرُ مَعاني الحُروفِ في بَيانِ دَقائِقِ المَعاني القُرْآنيَّةِ

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللهِ سُبْحانَه: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ حرفُ جرٍّ، وهي ومَجْرورُها مُتَعلِّقان بالفعل ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾، والمَعْنى: مَن يَحْفَظُكم مِن عذابِ اللهِ تعالى وبَأْسِه، ونظيرُهُ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ [هود:63][3].

وجوَّز بعضُ أهلِ العلم أنْ تَكون ﴿مِنَ﴾ بمعنى البدَلِ، والتَّقدير: (مَن يَحْفَظُكم باللَّيل والنَّهار بَدَلَ الرَّحمن)، أي: غَيْرِه؟[4].

ولا تَنافي بينَ المَعْنَيَيْن، بَل هُما مُتآيلانِ يُصَدِّق أحدُهما الآخَرَ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 147.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 69، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 74، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4869.
(3) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 154.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 344.

تغذيبُ أهلِ الإجْرامِ مِنْ آثارِ رَحْمَةِ الله تعالى

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾:

في اخْتيارِ اسْم اللّه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ نكاتٌ[1]:

إحْداها: أنَّ في ذلك تَلْقينًا لِلجَواب؛ ليقولَ العاقلُ: أنتَ الكالِئُ الحافظ يا ربَّنا لكلِّ الخلائقِ برحمتكَ، فهو كقولِ اللّه سُبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الإنفطار:6]؛ فإنَّه خَصَّ اسمَه الكريمَ بالذِّكْرِ تلقينًا للجواب.

ثانيها: لَمّا كان لا مُنْعِم بالكِلاءَة ولا بغيرِها مِن النِّعم إلّا اللّهُ تعالى؛ ذكَّرهم بذلك بِصِفة الرَّحمة، ففي ذلك إيذانٌ بأنَّ كِلاءَته لَهُم من آثار رحمته العامَّة.

ثالثُها: فيه إشارة إلى أنَّ حلولَ العذابِ بِهِم بعدَ ذلك الاستهزاءِ من آثار رحمَتِه؛ لأنَّ عقابَ أهلِ الإجرامِ مِن الرَّحمةِ، ووَجْهُهُ: أنَّه إذا حلَّ العذابُ بالفُجّار؛ فهو رحمةٌ للأبرارِ، إذْ مِنَ الرَّحمة ألّا يُسَوّى بينَ المُحسنِ والمُسيء.

رابِعُها: أنَّ فيه تنبيهًا إلى شدَّته، وتنديمًا لَهُم؛ حيثُ عذَّبهم مَن سبَقَتْ رحمتُهُ غضبَهُ.

غَفْلَةُ الكُفّارِ عَنْ سَطْوَةِ الله تَعالى وأمنُهُم مِنْ مَكْرِهِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿بَلۡ﴾:

﴿بَلۡ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ للإضْرابِ الانْتِقاليّ؛ انتُقِلَ مِن وصفٍ للمشركينَ إلى وصفٍ آخرَ لَهُم؛ فهُم يَسْتَهْزئونَ ويَجْهلونَ ولا يَنْتَبهونَ مَع وُجودِ المُنَبِّه المُرْشِد الذي يُرْشِدُهم إلى رَبِّهم؛ لِذَلِكَ جاءَ التَّعبير بـ ﴿بَلۡ﴾؛ لأنَّه لَمّا كان الاستفهامُ في قولِه: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ مرادًا به النَّفيُ، أي:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 146، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 424، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 69، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 196، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4869.

لا حافِظَ لَكُم مِن عذابِ اللّه تعالى حين يحُلُّ بكُم؛ أعقبه بالإضراب عَنْهُ بقوله: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ أي: هُم في أمنِهم مِن سَطْوَتِه مُعْرِضون، غيرُ ذاكرينَ لهُ أصلًا، فضْلًا عَن أن يَرْتَقوا إلى خَشْيَةِ بَأْسِه[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿هُمۡ﴾:

بَيانُ شِدَّةِ إعْراضِهِم

دَلَّ التَّعبير بِـ: ﴿هُمۡ﴾ في قَوْلِه تَعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ عَلى اخْتِصاصِهم بِهَذا الإعْراضِ؛ حتّى كأنَّهم - لشدَّة إعْراضِهِم - وحْدَهُم المُعْرِضون عَن ذِكْرِ رَبِّهم الذي أنْعَمَ عليهم وأفاضَ بِواسِعِ رَحْمَتِه.

دِلالَةُ إضافة ﴿ذِكۡرِ﴾ إلى ﴿رَبِّهِم﴾:

انْغِماسُ الكُفّارِ في الغَفْلَةِ ودَوامُهُم عليها

الإضافَةُ في ﴿ذِكۡرِ رَبِّهِم﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبحانه: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ مِن إضافَةِ المَصْدَرِ إلى المَفْعولِ، والمَعْنى: بَل هُم عن تذكُّرِ ربِّهم مُعْرِضون، أي: في غَفْلَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ عنه[2] مع أنَّه خالِقُهُم وحافِظُهم باللَّيْلِ والنَّهار.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالرُّبوبِيَّةِ:

إعْراضُ الكَفَرَةِ عَمَّنْ يكلؤهم بالليل والنهار

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالرُّبوبيَّةِ فقال اللّهُ ﷻ: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ تعريضًا بمُخالَفَتِهم ما يدَّعونَهُ؛ إذْ كانوا يدَّعون أنَّهم أشْكَرُ النّاس للإحْسانِ، وفي مُقابِلِ ذَلِكَ هُم مُعْرِضونَ عَن أعْظَم مَن يُحْسِنُ إلَيهِم، بَل لا يُحْسِن إليهِم غيرُهُ[3].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿رَبِّهِم﴾:

بُلوغُهُم الغايَةَ في الضَّلال

في إضافَةِ اسْمِ الرَّبِّ إلى ضَميرِهِم تَنْبيهٌ عَلى كَوْنِهم تَحْتَ مَلَكوته وتَدْبيره، وفي ذلكَ مِنَ الدّلالَةِ على كَوْنِهم في الغايَةِ القُصْوى مِنَ الغَيِّ والضَّلال ما لا يَخْفى[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 424.

(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4869.

(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 424.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 69.

بَلاغَةُ الالتِفاتِ في الآيَةِ:

انْـحِـطـاطُ الـكُـفّـارِ عَـنْ رُتْبَةِ التَّشْريفِ بِالخِطابِ

في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ التفاتٌ مِنَ الخِطاب في ﴿يَكۡلَؤُكُم﴾ إلى الغيبة في ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم﴾؛ وكان مُقْتضى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (بَل أنتُم عَن ذِكْرِ رَبِّكم معرضون)، ولكن عُدِل عَن الخِطاب إلى الغَيْبَة؛ لِقَصْدِ الإنْكارِ علَيْهِم وتوبيخِهِم إذْ تَركوا عبادةَ ربِّهم الحافظِ لَهُم وعبَدوا غيرَه، فكانَ الألْيَق بالمَقام ألّا يُوَجَّه الخطابُ إليهم؛ لِما في الخطابِ مَن التَّشريف، وهُم لَيْسوا أهْلًا له[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُملَةِ الاسْميَّةِ:

الـخـتـم عـلى قُلوبِ أهْلِ الكُفْرِ فلا يَنْفُذُ إلَيْها خَيْرٌ

في التَّعْبير بالجُملةِ الاسميَّة ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ إشارَةٌ إلى اسْتِمرارِ إعْراضِهم، وأنَّ قلوبَهُم غُلْفٌ لا تُفْتَحُ لِذِكْرِ اللّه تَعالى وذِكْرِ نِعَمِه وآلائه[2].

مَوْقِعُ جُملَةِ الإضْرابِ:

التَّيْئيسُ مِنْ صَلاحِهِم

جُملَةُ الإضرابِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ ارتقاءٌ مِنَ التَّقريع المَجْعولِ للإصْلاحِ إلى التَّيْئيس مِن صَلاحِهِم، وذلكَ بِبيانِ اسْتِمرارِ إعْراضِهِم عَن ذِكْرِ رَبِّهِم سُبْحانَهُ ودَوامِهِم عَلى هذا الإعْراض، فلا يُرجى مِنْهُم الانتفاعُ بالقَوارِعِ والزَّواجر، والمقصودُ: الأمرُ بِتأخيرِ سُؤال التَّقريع والتَّوبيخ إلى حينِ تَوَرُّطِهِم في العذابِ؛ فإنَّهم سَيُدْرِكون أنْ لا كالِئَ لَهُم ولا حافِظَ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِه: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾:

تَـرْكُ التَّأمُّلِ في المَواعِظِ موجِبٌ الإعْراضَ

آثَر النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بِقَوْلِه: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى أنَّهُم لَم يُعْمِلوا عُقولَهُم، ولَم يَتَأمَّلوا في شيءٍ مِن مَواعظِ اللّه تَعالى

(1) عبد الجواد السيوطي، بلاغة القرآن في سورتي الأنبياء والحج، ص: 63.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4869.

لَهُم؛ ليَعْرِفوا أنَّه لا كالِئَ لَهُم سِواهُ، ويَتْرُكوا عبادةَ الأصنامِ التي لا تَحْفَظُهم ولا تُنْعِمُ علَيْهِم(1).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿أَمۡ﴾:

تَوْبيخُ الكُفّارِ وتَقْريعُهُم لِجَعلِهِم الأصْنامَ آلِهَةً

﴿أَمۡ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ مُنقطعةٌ بمعنى بَل الإضرابيَّةِ والهمزةِ، وهو إضرابٌ انتقاليٌّ مِن لَوْمِهم على جَهْلِهم بكِلاءَةِ اللّه تعالى لَهُم النّاشئَ عن إعراضِهم عن ذِكْرِ ربِّهم سبحانه، إلى لومِهم وتوبيخِهم وتَقْريعِهم لاعتمادِهم عَلى آلِهَتِهم ونِسْبَتِهم الحفظَ إلَيْها، وفي ذلكَ إنكارُ أن يكون لَهُم آلهةٌ تَقْدِرُ على ذلكَ.

والاستفهامُ المُستَفادُ مِن ﴿أَمۡ﴾ المنقطعةِ استفهامٌ إنكاريٌّ بمَعْنى إنْكارِ الواقعِ، وإنكارُ الواقعِ لَوْمٌ وتأنيبٌ، فقَوْلُ اللّه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ إنكارٌ لما يَعْتَقِدونَه مِن أنَّ آلهتَهم الباطلةَ تَمنَعُهم مِن دونِ اللّه سُبحانه(2).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِقَوْلِه: ﴿لَهُمۡ﴾:

تَوْبيخُ الكَفَرَةِ عَلى اعْتِقاداتِهِم الفاسِدَةِ

دلَّ التَّعبيرُ بقَوْلِه: ﴿لَهُمۡ﴾ على تَوْبيخِهم وإنْكارِ واقِعِهم الذي اعْتَقَدوه في آلِهَتِهم، مِن أنَّها تَمنَعُهم دون أن يَمنَعَهُم اللّهُ تَعالى؛ فكَأنَّهم خَصّوها بذلك، وأنّى لَهُم فِعْلُ الحِفْظِ مِن دون اللّه سُبحانَهُ؟!

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ فِعْلِ المَنْعِ:

لا تُغْني الآلِهَةُ الباطِلَةُ عَن عابِدِيها شَيْئًا

حُذِف مُتَعَلّق الفِعلِ ﴿تَمۡنَعُهُم﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾، والتَّقْديرُ: (تَمنَعُهُم بأسَنا أو عذابَنا مِن دونِنا، أو تَمنَعُهم مِن عذابِنا)؛ ونُكْتَةُ الحَذْفِ الإيماءُ إلى عُمومِ النَّفْي، وأنَّ آلهتَهُم الباطلةَ لا تَمنَعُهُم مِن أيِّ شيءٍ كانَ ولَو يَسيرًا، فكيفَ بِعَذابِ اللّه تَعالى؟!

---

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 506.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 433، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 69، والشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 155، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4870.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِقَوْلِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم﴾:

نُزولُ الآلِهةِ الباطِلةِ عَنْ رُتْبَةِ الوُجودِ

جاءَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ دون (أم تَمنَعُهُم آلِهَتُهم)؛ لأنَّ هذا التَّعبيرَ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْن: **أحدُهما**: بَل أَلَهُم آلِهَةٌ تَمنَعُهم من أن يَنالَهُم مَكْروهٌ يَقَعُ عليهم من جِهَتِنا، **والآخَرُ**: (أَلَهُم آلِهَةٌ غيرُنا تَحْفَظُهم وتَمنَعُهم)، فهذا التَّعْبيرُ فيه توجيهُ الإنكارِ والنَّفيِ إلى وُجود الآلهَةِ المانِعَةِ من العَذاب، لا إلى نَفْسِ الصِّفة، لِذَلِكَ لَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (أم تَمنَعُهُم آلِهَتُهم)، وذلكَ لأنَّ في نَفْيِ وُجودِها إيماءً إلى انْحِطاطِها عَن رُتْبَةِ الوُجود، فضْلًا عَن رُتْبَةِ المَنْعِ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿مِّن﴾:

كُلُّ الخَلْقِ تَحْتَ عَظَمَتِه وقَهْرِه سُبْحانَهُ

﴿مِّن﴾ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الابتداءِ، ولم يَرِد النَّظم القرآنيُّ: (تمنعهم دونَنا)؛ لأنَّ جميعَ الخَلْقِ تَحْتَ رُتبته ﷻ، فإدخالُ حرفِ الجَرِّ ﴿مِّن﴾ فيه إشارةٌ إلى تَحْقير هذه الآلهَةِ، والمعنى: أَلَهُم آلِهَةٌ تَمنَعُهم من مكروهٍ هُو تحتَ إرادَتِنا ومِن جِهَةٍ غيرِ جهتنا؟![2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِقَوْلِه: ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾:

في اخْتِلافِ التَّعَلُّقِ إثْراءٌ لِلمَعْنى

في التَّعبيرِ بِقَوْلِه: ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾ وجهانِ؛ أحدُهُما: أنَّه متعلِّق بقَوْلِه: ﴿تَمۡنَعُهُم﴾ قبلُ، والمَعْنى: أَلَهُم آلِهَةٌ تَجْعَلُهم في مَنَعَةٍ وعِزٍّ، والآخَرُ: أنَّه متعلِّق بمحذوفٍ؛ لأنَّه صفة لـ ﴿ءَالِهَةٞ﴾ أي: آلهة مِن دوننا تَمنَعُهم[3].

عِلَّةُ فصلِ جُملَةِ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ عَمّا قَبْلَها:

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 69.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 424 - 425.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 13/ 507.

لِكَوْنِه اسْتِئْنافًا مُقَرِّرًا لِما قَبْلَه مِن الإنكارِ، ومُوَضِّحًا بطلانَ ما يَعْتَقِدونَه، والمَعْنى: هُم لا يَسْتَطيعونَ أن يَنْصروا أنفسَهُم، فكيفَ يُتَوَهَّم أن يَنْصروا غيرَهُم؟!

مَنْ عَجَزَ عَنْ نَصْرِ نَفْسِهِ؛ فَهُوَ عَنْ نَصْرِ غَيْرِه أعْجَزُ

ويجوزُ أن يكونَ الفَصْلُ لوُقوعِ الجُملَةِ تَعْليلًا لِما قَبْلَها، والمَعْنى: إنَّ آلهتَهُم التي يَزْعُمون أنَّها مانِعَتُهُم؛ لَن تُغْني عَنْهُم شَيْئًا؛ لأنَّهم عاجِزون عن نَصْرِ أنفُسِهم، فكيفَ بِنَصْرِ غَيْرِهِم؟!(1).

سِرُّ نَفْيِ اسْتِطاعَةِ نَصْرِ النَّفْسِ:

انْحِطاطُ رُتْبَةِ الآلِهَةِ الباطِلَةِ عَمّا يَتَوَهَّمُهُ فيها عابِدوها

في نَفْيِ اسْتطاعَةِ نَصْرِ الآلهةِ أنفسِها في قولِه سُبْحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ مع أنَّه غيرُ مقصودٍ أصالةً؛ إذِ المقصودُ بيانُ قُصورِ رُتْبَتِها عمّا يتَوَهَّمُه فيها المُشْرِكون؛ وذلكَ لِلتَّنْبيه ابْتِداءً عن سُقوطِها عَن رُتْبَةِ نَصْرِ غَيْرِها سُقوطًا عَظيمًا؛ إذْ كَوْنُها عاجِزَةً عَن حِمايَةِ أَنْفُسِها مِنَ الآفاتِ؛ يُفيد عَجْزَها عَن حماية غيرِها مِن باب أَوْلى وأَحْرى(2).

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾:

العَجْزُ والضَّعْفُ وصْفانِ لازِمانِ لِآلِهَةِ المُشْرِكينَ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ مِن قولِ اللهِ سُبحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾؛ لإفادَةِ الدَّوامِ والاسْتِمرارِ، والمَعْنى: لا تَتَجَدَّدُ لَهُم استطاعَةٌ، بلِ العَجْزُ والضَّعْفُ ملازِمٌ لَهُم لا يَنْفَكُّ عَنْهُم بحالٍ.

وليسَ المَقصودُ انْتِفاءَ دوامِ الاستطاعَةِ وإن كانَت تحْصُل لَهُم مرَّةً مثلًا، بلِ المرادُ: دوامُ انْتِفاءِ استطاعَتِهم.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِضَميرِ العُقَلاءِ ﴿هُم﴾:

مُجاراةُ الخَصْمِ في فِعْلِهِ؛ لَيْسَتْ إقْرارًا لَهُ عليه

الضَّميرُ ﴿هُم﴾ - في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ - عائِدٌ عَلى آلهَتِهِم التي يَتَعَلَّقون بها مِن الأصنامِ والأوثانِ، و﴿هُم﴾

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 425، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 69، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 50.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 147.

ضميرٌ مَوْضوعٌ لِلعُقَلاء، وآلِهَتُهُم غيرُ عاقلةٍ، وإنَّما عُبِّر عَنْهُم بِضميرِ العُقَلاء مجاراةً لَهُم في عِبادَتِهم وليسَ إقْرارًا بأنَّها تَعْقِلُ[1].

أو أنَّ المُشْرِكينَ لَمّا تعلَّقوا بالعقلاءِ كالصّالحينَ، وغيرِ العُقلاءِ كالأصْنام؛ نُصَّ هنا عَلى العُقلاءِ فنُفيَ عَنْهُم استطاعَةُ المَنْعِ مِن بأسِ اللهِ تَعالى؛ ليَكونَ ذَلِك دالًّا على أنَّ غيرَ العقلاءِ عاجِزونَ عَن هَذا المَنْعِ بِطَريقِ الأولَويَّة والأحْرَويَّة.

دِلالَةُ تَقْديمِ ﴿هُم﴾ في قَوْلِه: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا﴾:

مَعيَّةُ الله تعالى ونَصْرُهُ لِأهْلِ الإيمانِ

قُدِّم الضَّميرُ ﴿هُم﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ لبيانِ أنَّ هؤلاء المُشْرِكينَ لَيْسوا هُم الذين يُصْحَبونَ مِنّا، بل إنَّ مَعيَّتنا وجِوارَنا ونَصْرَنا لِلذين آمَنوا بي وبِرُسُلي، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة:194]، وقولِه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:47]، ومثل ذلك يُقال في تَقْديمِ قولِه: ﴿مِّنَّا﴾ عَلى قولِه: ﴿يُصۡحَبُونَ﴾ أي: لا يُصْحَبون منّا، بل يُصْحَبون ممّن عَبدوهم مِن دونِنا، وقَد بَيَّن القرآنُ ذلكَ فقال اللهُ سُبحانَهُ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾ [يس: 74 - 75].

دِلالَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿يُصۡحَبُونَ﴾ لِلمَفْعولِ:

مِنْ لَوازِمِ الجِوارِ حِمايَةُ الجارِ

الفِعْلُ ﴿يُصۡحَبُونَ﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ إذا كان مِن الصُّحبة بِمَعْنى المُلازَمَة؛ فبِناؤُه للمَفْعولِ فيه وجْهانِ:

أحدُهما: أن يكونَ حُذِفَ الفاعِلُ لِلعِلْم به، والتَّقديرُ: (لا يَصْحَبُهُم اللهُ تعالى)، أي: لا يُؤَيِّدُهُم، وفي هذا نَفْيٌ لِما يَعْتَقِدُهُ المُشْرِكون مِن قَوْلِهِم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

والآخَرُ: أن يكونَ حُذِفَ الفاعلُ لإرادةِ العمومِ، والمَعْنى: لا

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4870.

يَصْحَبُهُم صاحبٌ، أي: لا يُجيرُهم جارٌ؛ إذِ الجِوارُ يَسْتَلْزِمُ حماية الجارِ، فيَكونُ كقولِه سُبْحانَهُ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر:29].

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الفِعْلُ ﴿يُصۡحَبُونَ﴾ مِن الفعلِ الرُّباعيِّ: أَصْحَبَهُ، بمعنى: مَنَعَهُ وحَفِظَه مِنَ المَكْروهِ، وفي بِنائِه للمفعولِ الوجهانِ المُتَقَدِّمان(1).

مُناسَبَةُ كَلِمَةِ الفاصِلَةِ لِمَضْمونِ الآيَةِ:

لا يَسْتَحِقُّ نَصْرَ اللهِ تَعالى إلّا مَنْ يُوَحِّدُهُ

الفاصلةُ في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ هي ﴿يُصۡحَبُونَ﴾، وهي فاصلة مُمَكَّنَةٌ، فإنَّ المَعْنى المُسْتَفادَ مِن جُملةِ الفاصلةِ يدلُّ على أنَّ تلك الآلهَةَ التي لا تَقْدِرُ على نَصْرِ نَفْسِها لا تَسْتَطيعُ نَصْرَكُم، بَل ولَسْتُم بِمَصْحوبينَ مِن اللهِ سُبْحانَه بالنَّصْرِ والتَّأْييدِ، فالعِقابُ واقِعٌ عليكُم قَطْعًا.

فالتَّمكينُ في الفاصلةِ يُؤكِّد أنَّ السَّلامة مِنَ العَذاب لا تأتي إلّا بِنَصْرِ اللّه سُبْحانَهُ، وأنَّ نَصْرَهُ لا يَسْتَحِقُّه إلّا مَن يُوَحِّدُه تعالى، ولا يُشْرِكُ به شَيئًا(2).

دِلالَةُ الجَمعِ بَيْنَ نَفْيِ نَصْرِ أَنْفُسِهِم ونَفْيِ صُحْبَةِ الله تَعالى إيّاهُم:

المشرك لا ينتفع بمعبوده

جَمع القُرآنُ الكريمُ بَيْنَهُما مِن باب الجَمعِ بينَ الآلِهَةِ وعابِديها حَيْثُ وصَفَ الآلهَةَ التي زَعَموها بِوَصْفٍ ذَكَرَهُ القُرآنُ في قوله تَعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: لا يَملكونَ لأَنْفُسِهم نَفْعًا ولا ضَرًّا؛ أمّا الذين عبدوا وهُم المُشْرِكون فقَد وصَفَهُم بِقَوْلِه: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ أي: يُجارون، والمَعْنى على هذا: لا تَنْصُرهم أوثانُهم واللّهُ لا يَصْحَبُهم بجوارٍ يَمنَعُهم لأنَّهم مشركونَ(3).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 75.

(2) رشا بنت عبد الله الزيد، الفواصل القرآنية في سورة الأنبياء وعلاقتها بمقصودها: دراسة بلاغية، ص: 221.

(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4870.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكِلاءَةُ والحِفْظُ:

الكِلاءَةُ أخَصُّ مِنَ الحِفْظِ

الكِلاءَةُ هيَ إمالة الشَّيْء إلَى جانب يَسْلَمُ فيه من الآفاتِ، ومنهُ قيلَ: كلأتُ السَّفينَة؛ إذا قَرَّبْتها من اليابسَةِ مَرْفَأِ السَّفينَة، والحفظُ: صَرْفُ المَكارِه عنِ الشَّيْءِ لأجْلِ ألّا يَهْلَكَ، وعليه فالحِفْظُ أعمُّ من الكِلاءة؛ لأنَّ الكِلاءة حفظٌ مع مُراعاةٍ ومُراقبَةٍ ومُتابَعةٍ مِن أجلِ أن يَبْقى سالِمًا[1].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 205، وعبد الجبار زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 485.

﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الأنبياء:44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـلـهُ ﷻ هُـوَ مَصْدَرُ النِّعَمِ

لَمّا أبطل اللّهُ ﷻ فيما سبَقَ زَعْمَ الكُفّار، أنَّ الأصنامَ نافعَةٌ لَهُم في قولِه: ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ جاءَت هذه الآيَةُ لِبيانِ أنَّ ما هُم فيه مِنَ الخَيْرِ والتَّمتُّع بالحياةِ العاجِلَةِ هُوَ مِنَ اللّه تَعالى لا مِن مانِعٍ يمنَعُهم من الهلاك ولا مِن ناصِرٍ يَنْصُرُهم عَلى أسبابِ التَّمتُّع؛ فقالَ: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾، فلا يَغْتَرُّ بذلكَ؛ لأنَّنا قادِرون على إنْقاصِ دارِ الكُفْرِ وتَمكين المُسْلمين مِنْها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَتَّعۡنَا﴾: (متع) تدل تصاريفاتُها على مَنْفَعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[2]، ومِنْهُ: المَتاع؛ وهو في الأصْل: كلّ شَيْءٍ يُنتفَع به ويُتبلَّغ به ويتزوَّدُ[3]، ومِنْهُ أيضًا قولُ اللّه تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ فإنَّ معناه: بسَطْنا عليهم مِنَ الدُّنيا ورَزَقْناهُم مِنْ زينتِها، ونَسَأْنا لَهُم في آجالِهم إلَى وقتِ وفاتِهم ولَم يَسْتَأْصِلهُم بِعذابٍ.

وكُلُّ موضعٍ ذُكِر فيه التَّمتُّعُ في الدُّنيا؛ فذلك على طَريقِ التَّهديدِ، وذَلِكَ لِما فيه مِن مَعْنَى التَّوسُّع[4].

2) ﴿نَنقُصُهَا﴾: (نقص) تدلُّ تصريفاتُها على ضدِّ الزِّيادَةِ[5]،

(1) القِنَّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 8/ 331.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمّد حسن جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(4) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (متع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقص).

وحقيقةُ النَّقصِ: ذهابُ جُزءٍ أو اخْتِلالُه مِن جِرْمِ الشَّيءِ المُتجمِّع بحَيْثُ يقِلُّ جِرْمُه أو يَخِفّ بعد ذهابِهِ[1]، ومِنْهُ النَّقْصُ؛ وهُوَ الخُسْرانُ في الحظِّ[2]، كما قال تَعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة:155].

وفِعْلُ النَّقصِ يُستعمَلُ لازمًا ومتعدّيًا، يُقال: نَقَصَ الشَّيءُ، ونَقصْتُهُ[3].

وقولُ اللّه سُبْحانَه: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ مَعْنَاهُ: نأتي أَرْضَ الكُفّار، فنَنْقُصها بما يدخُل في دينِك مِنَ القبائلِ والبِلاد المُجاوِرَة لَهُم[4].

3) ﴿أَطْرَافِهَآ﴾: (طرف) تدلُّ كثيرٌ مِنْ تصريفاتِها على حَدِّ الشَّيءِ وحرْفِه[5]، وطرفُ كلِّ شيءٍ: مُنتهاهُ، ومنه سُمّيت الأصابعُ أطرافًا[6]، وأطْرافُ الأرْضِ: نَواحيها، والواحِدُ مِنْها: طَرَفٌ[7]، وهو المرادُ في قولِ اللّه سُبحانَه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ في قولِ كثيرٍ مِنْ أَهْلِ العِلْم[8].

ويُسْتَعْمَل هذا التَّركيبُ (أطْراف الأرْض) بِمَعْنى أشرافِ الأرْضِ وعُلمائِها، وهُو القَوْلُ الآخَرُ في تفسيرِ قولِه تَعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ والمرادُ: موتُ عُلمائِها[9].

4) ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾: (غلب) تدلُّ اشتقاقاتُها على القُوَّة والقَهْرِ والشِّدَّة، يُقال: غَلَبَهُ يغلِبُهُ غَلْبًا وغَلَبًا وغَلَبَةً[10]، ومِنْه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم:3]، وقولُه سبحانَه: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

المَعْنى الإجماليُّ:

تبيِّن هذه الآيةُ أن الكُفّار وآباءهم اغترُّوا بالإمهالِ؛ لِما رَأَوْهُ مِنَ الأموالِ والبَنِين وطولِ

(1) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نقص).
(2) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نقص).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (نقص).
(4) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نقص).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طرف).
(6) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طرف).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (طرف).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 449.
(9) الزبيدي، تاج العروس: (طرف).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غلب).

الأعمارِ، فأقاموا عَلى كُفْرِهم لا يَبْرحونَهُ، وظنّوا أنَّهم لا يُعذَّبون، أفلا يَرَوْنَ أنّا نأتي الأرضَ فنَفْتَحُها لَهُ أرضًا بعدَ أرض حَواليَّ أرضِهم؟ أفلا يَخافونَ أن نَفْتَحَ لَهُ أرضَهم كما فتَحْنا لَهُ غيرَها، أفَهَؤلاءِ المُشْرِكون المُسْتَهْزئون بالنَّبيِّ ﷺ غالِبون، وقَد رَأَوْا قَهْرَنا مَن أحْلَلْنا بَأْسَنا بِساحتِه؟ لَيْسَ الأمرُ كَذَلك، بَل نَحْنُ الغالِبون[1].

انْتِفاءُ غَلَبَةِ الكُفّارِ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحْوالِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿بَلْ﴾:

﴿بَلْ﴾ في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ للإضرابِ عن الكلامِ المُتَقَدِّمِ إلى وعيدِهِم وأنَّهُم مِن أهلِ الاسْتِدْراجِ[2].

اسْتِدْراجُ اللّٰه تَعالى لِلكافِرينَ بِالنِّعَمِ لا يَمنَعُ مِنْ عَذابِهِم

وهَذا الإضْرابُ انتقاليٌّ؛ فقد انتُقل مِن بيانٍ إلى آخَر، فبيَّن سبحانَه حِمايتَهم مِن أنْ يأتيَهُم العذابُ بغتَةً، وأنَّ آلهتَهُم لا تَدْفَع عنهُم شيئًا مِن عذابِ اللّٰه تعالى، ثُمَّ انتقلَ إلى بيانِ بعضِ ما أوصلَهُم إلى الشِّرْكِ والإصرارِ عليه ومُعارضةِ الأنبياءِ عُمومًا ومحمَّدٍ ﷺ خاصَّة[3].

وفي هَذا الإضرابِ بيانٌ للدّاعي إلى حِفْظِهم وهُو تَمتيعُ اللّٰه تَعالى إيّاهُم بما قَدّر لَهُم مِنَ الأعمال، أو أنَّ فيه بيانَ سببِ استمرارِهِم عَلى الباطِل؛ وهُو أنَّ اللّٰه سُبحانه متَّعهم بالحياةِ الدُّنيا وأمهَلَهُم حتّى طالت أعمارُهم، فتوهَّموا أنَّهم باقون على هذا المَتاع والنَّعيم في الدُّنيا، وأنَّ ذلك حاصلٌ بِما هُم عليه مِن الطَّريقِ الباطلَة، فحَمَلَهُم ذلكَ عَلى لُزومِها[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 493، 18/ 449، ونخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 325.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 425، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 51.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4871.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 69.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالتَّمتيعِ ﴿مَتَّعۡنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

في التَّمَتُّع مَعْنى التَّوسِعَة والبَسْطِ في الدُّنيا

آثَر القُرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بالتَّمتيع دونَ غيرِه؛ لما يَحْمِلُه هَذا اللَّفْظُ مِن مَعْنًى لا يوجَدُ في غَيْرِه كالإعطاءِ مثلًا؛ لأنَّه يُطْلَق على كلِّ شيءٍ يُنْتَفَعُ به ويُتَبَلَّغ به ويُتَزَوَّد، وهذه المَعاني لا تَجِدُها في الإعْطاءِ أو التَّمليك.

ولأنَّ التَّمتُّع أيْضًا يَحْمِلُ مَعْنى التَّوسعَةِ والبَسْطِ في الدُّنيا مع نَسْءِ الآجالِ، ومِن معانيه أنَّه يَحْمِلُ مَعْنى الإمهالِ والاسْتِدْراكِ، لكُلِّ ذلكَ كانَ التَّعبيرُ بالتَّمتيع دونَ غيره.

ومِمّا يؤكِّد ذلك صيغةُ (فعَّل) التي تدلُّ على مزيدٍ مِنَ التَّمتُّع والاستغراق فيه والتَّمكُّن منهُ؛ لأنَّه جاء بصيغةِ الفِعْلِ الماضي الذي يدُلُّ على تحقُّق الشَّيءِ وثُبوته.

دِلالَةُ إسْنادِ الفِعْلِ ﴿مَتَّعۡنَا﴾ إلى ضَميرِ العَظَمَة:

عَظَمَةُ هَذا المَتاعِ

أُسْنِد فِعْلُ التَّمتيعِ ﴿مَتَّعۡنَا﴾ إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ على العظمَةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾؛ تنبيهًا على عظمَةِ هَذا التَّمتيعِ بالنِّعَم حتّى استغرقَ زمَنًا طويلًا مِن أعْمارِهِم، وكانَ ذلكَ عَلى وجْه الاسْتِدْراج.

وفيه دِلالَةٌ عَلى تَحْقيرِ الآلِهَةِ التي عَبَدوها مِن دونِ اللّه؛ لأنَّها لا تَملِك ذلكَ التَّمتيع لَهُم ولآبائهم.

دِلالَةُ تَلْوينِ الخِطابِ في قَوْلِه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا﴾:

الكُفّارُ أحِقّاءُ بالإعْراضِ عَنْهُم

وُجِّه الكلامُ إلى هَؤُلاء الكُفّار المُسْتَهْزِئين بالنَّبيِّ ﷺ عَلى وجْه الخطاب ابتداءً في قولِه: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، ثُمَّ أُعْرِض عَنْهُم من الخِطاب إلى طريقِ الغَيْبَةِ في قوله تَعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾؛ لأنَّ ما وُجِّه إليهم مِن إنْكارِ أن يَكْلَؤُهم أحَدٌ من عذابِ اللّه تَعالى؛ جَعَلَهُم أحْرياءَ وأحِقّاءَ

بالإعراضِ عَنْهُم(1)، كالذي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يُونُس:22]، وللإشارَةِ إلى عدَمِ المُبالاةِ بِهِم وأنَّهم مِن أهْلِ الاسْتِدْراجِ.

دِلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ التَّمتيعِ في قَوْلِه: ﴿مَتَّعۡنَا﴾:

كَـثْرَةُ المُـتَـعِ وتَنَوُّعُها

لَم تَذْكُرِ الآيةُ ما مَتَّعَ اللهُ تَعالى به هؤلاءِ الكُفّارَ وآباءَهم في قولِه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾؛ للدّلالة على الكثرةِ والتَّنوُّع، حيثُ مَتَّعَهُم بِسُلْطانٍ في القَبائلِ العربيَّة، وجَعَلَ لَهُم كلمةً مسموعَةً فيها، ومَتَّعهم بالإقامةِ في بلدِ اللهِ الحرامِ وهُم آمنونَ، والنّاس مِن حَوْلِهِم خائفون، ومَتَّعهم أيْضًا بتأمينِ تجاراتِهم وهيَ تَسير في البلاد مِن شَمالِها إلى جَنوبِها دون اعتراضٍ مِن أحدٍ، وجَعَلَهم رُؤساءَ في أمرِ الحجِّ، فجَعل لَهُم السِّقاية وسدانَة البيتِ وما يتعلَّق بأمرِ الكعبة، ومَتَّعهم أيضًا بكَثْرَةِ المالِ والبَنين إلى غيرِ ذلكَ مِمّا يَدْخل في المُتَعِ؛ لذلكَ كان الحذفُ؛ ليشمَلَ كُلَّ ذلك(2).

سِرُّ العُدولِ عَنِ الضَّميرِ إلى الإشارَةِ:

بَـيـانُ حَـقـارَةِ الـكُـفّارِ وضَـعَـةِ قَدْرِهِم

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ عدولٌ عن الضَّمير إلى الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فلم يَقُلْ: مَتَّعناهُم؛ للإيماءِ إلى تَحْقيرِهِم وضَعَةِ شَأْنِهِم(3).

دِلالَةُ عَطْفِ الآباءِ عليهم:

طـولُ زَمَـنِ الاسْتِدْراجِ لَيْسَ بِمانِعٍ مِنْ حُلولِ العَذابِ

في عَطْفِ الآباءِ عليهم في قوله سُبْحانَهُ: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ إيماءٌ إلى طولِ هَذا التَّمتيع وأنَّه اسْتَوْعَبَهُم واسْتَوْعبَ الأزمنَةَ قَبْلَهُم، ولَم يَكُن طولُ زمَنِ هَذا الاستِدْراجِ بِمانعٍ مِن حُلولِ عَذابِ اللهِ تعالى بِهِم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 51، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 75.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4871.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 51.

وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ هذه المُتَع تَسَلْسَلَ فيها الأبناءُ عَن الآباءِ، مِمّا يُؤَكِّد حِلْمَ اللّه تَعالى على هَؤلاء الكفّار في عَدَم سُرْعَة عِقابِهم.

دِلالَةُ عَدَمِ ذِكْرِ الفِعْلِ ﴿مَتَّعْنَا﴾ مَعَ الآباءِ:

التَّفْريقُ بَيْنَ المُتْعَةِ الظّاهِرَةِ والمُتْعَةِ غَيْرِ الظّاهِرَةِ

ذُكر الفعلُ ﴿مَتَّعْنَا﴾ معَ قولِه تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ دون ذِكْرِه معَ الآباءِ؛ فلَم يَقُل: (وَمَتَّعنا آباءَهم)؛ للتَّفريق بينَ المُتْعَتَيْن، فمُتعة الكفّار المعاصرين ظاهِرَةٌ لِلعيانِ، أمّا مُتعة مَن سبَقَ فغَيْرُ مَرْئِيَّة؛ لتَقَدُّم زمَنِها، لِذَلك لَم يُذْكَر الفعلُ تَفْريقًا بينَهُما.

وممّا يُؤَكِّد ذلك: التَّعبيرُ بلفظِ (الآباء)؛ فهُو يَشْمَلُ كُلَّ مَن تقدَّم مِن آبائهم، ويدخُلُ فيهم الأجدادُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿حَتَّىٰ﴾:

اسْتِمرارُ الكُفّارِ في غَفْلَتِهِم عَنْ مَكْرِ اللهِ تَعالى

﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ حرف غاية وجرٍّ، وفائدتُها بيانُ امتدادِ زَمَنِ هذا التَّمتيعِ الواقعِ عليهم عَلى وجْه الاستِدْراجِ حَتّى طالَت أعمارُهُم ولَم يَتَفَطَّنوا لِمَكْرِ اللّه تعالى بِهِم.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِقَوْلِه: ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾:

تَواتُرُ النِّعَمِ عَلى الكُفّارِ سَدَّ عليهِم مَنافِذَ الانْتِفاعِ

دلَّ التَّعبير بقولِه: ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ على بيانِ الحالِ النَّفسيَّة التي كان عليها الكفّار مِن الإنعامِ عليهم حتّى أغْرَتْهُم هذه الحالُ في طولِ بقائِها معَهُم ومعَ آبائِهم بالتَّطاوُلِ على اللّه تَعالى وعلى رسولِه ﷺ وصارت قلوبُهُم غُلْفًا، وصاروا صُمًّا عَن سماعِ الحَقِّ بُكْمًا عنِ النُّطْقِ به وما عَلِموا أنَّ ذلك مِن بابِ الاسْتِدْراجِ لَهُم[1].

دِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيْهِمُ﴾:

تَحْقيرُ الأعْمارِ المُنْقَضِيَةِ في غَيْرِ الطّاعاتِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ عَلى الفاعلِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾؛ لتَخْصيصِهم بِهَذا السُّلوك الكُفْرِيِّ الذي

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4871.

يُنْبئ عَن طُغْيانِهم وإعْراضِهم عن سُنَنِ اللّه سُبحانَهُ في كَوْنِهم مَعَ السّابقين في عَدَمِ الاتّعاظِ والاعْتِبار بما سَبَق.

وفي تَأْخير الفاعِلِ ﴿ٱلۡعُمُرُۗ﴾ تهوينٌ من قيمَتِه ومن شأنِه؛ لأنَّ العُمُرَ إذا لَم يَكُن في طاعَةِ اللّه تَعالى وطاعَةِ رَسولِه ﷺ لا قيمةَ لَه في حِسابِ الزَّمن.

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾:

إفـادَةُ مَعْنى التَّعْجيبِ مِنْ عَدَمِ اهْتِدائِهم

الهمزَةُ في ﴿أَفَلَا﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ استِفْهاميَّة، والاستفهامُ خرَجَ عَن أصلِه مِن إرادَةِ طلَبِ العِلْمِ بشَيْءٍ لَم يكُن معلومًا من قبلُ إلى مَعْنى التَّعجيبِ مِن عدَمِ اهْتِدائِهِم إلى علاماتِ اقْتِرانِ الوَعْدِ بالمَوْعودِ اسْتِدلالًا عَلى قُربِه بِحُصولِ عَلاماتِه وأماراتِه[1].

دِلالَةُ الفاءِ في ﴿أَفَلَا﴾:

إفادَةُ السَّبَبيَّةِ

الفاءُ في ﴿أَفَلَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ مؤخَّرة من تقديم، وهي تُفيدُ أنَّ ما قبْلَها سببٌ لِما بعدها، والتَّقدير: (أفلا يَرَوْنَ أنَّ الأرض تَنْقُص عليهِم مِن أطرافِها)[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿يَرَوۡنَ﴾:

الرُّؤْيَةُ أخَصُّ مِنَ النَّظَرِ والبَصَرِ

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّؤْيةِ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ دونَ غَيْرِها كالنَّظر والبَصَر؛ لِما تَتَمَيَّز به الرُّؤْيَة من أنَّها تُسْتَعْمَلُ للإدراك بِحاسَّة البصرِ وللإدراك بالفِعْلِ والعقلِ، وهُو المُناسِبُ لِهَذا السّياق في نُقْصانِ الأرْضِ مادّيًّا ومعنويًّا؛ فقد يَكونُ النُّقْصان مادّيًّا فيُرى بالعَيْنِ بأنْ يُؤْخَذ من أرضِ الكافرينَ وتُضَمّ إلى أرضِ المُسْلِمين أو بِنَقْصِ بَرَكَتِها وموت عُلمائِها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 76.

(2) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4871.

دِلالَةُ اللّامِ في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

إفادَةُ العَهْدِ العِلْميِّ في كَوْنِها أرْضَ العَرَبِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ للعَهْدِ العِلْميِّ، والمُرادُ بها أرضُ العَرَبِ؛ لأنَّ كُفّار العربِ هُم المُخاطَبون ابتداءً بهذه الآيةِ، وإن كانَتْ بَعْدُ تَعُمُّ، فالمَعْنى: أفلا يَرَوْنَ أنّا نأتي أرضَ العَرَبِ أو أرْضَهُم نَنْقُصُها مِن أطْرافِها[1].

وذكَر الآلوسيُّ أنَّ المُراد: أرضُ الكفرةِ[2]، ولا تنافيَ بينَ هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ؛ لأنَّ أرضَ العربِ كانَ الغالبُ عليها الكُفْرُ وقْتَ نُزول الآيةِ؛ إذِ السّورةُ مكّيَّةٌ بالاتِّفاقِ[3].

نُكْتَةُ العُدولِ عَنِ التَّعْبيرِ (أنّا نَنْقُصُ الأرْضَ):

تَصْويرُ كَيْفيَّةِ نَقْصِ الأرْضِ وانْتِزاعِها مِنَ الكُفّارِ

عَدَل النَّظْمُ القُرآنيُّ عن التَّعبير بـ (أنّا نَنْقُصُ الأرْضَ) إلى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾؛ لتَصوير كيفيَّة نَقْصِها وانْتِزاعِها من أيْدي الكُفّار، وذلكَ بإتْيان جُيوشِ أهْلِ الإسلامِ واسْتيلائِهِم عَلى أرضِهِم[4].

دِلالَةُ إسْنادِ فِعْلِ الإتْيانِ إلى الله تَعالى:

تَعْظيمُ شَأْنِ الجِهادِ والمُجاهِدينَ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإتيانِ إلى اللّه سُبْحانَه في قولِه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾، وكان الأصل: يأتي جُيوشُ أهلِ الإسلامِ، ولَكِنْ عُدِلَ عَن ذلكَ إلى ما في النَّظْم الكريم تَعْظيمًا لَهُم، وإيماءً إلى أنَّ ذلك واقِعٌ بقُدْرَتِه تَعالى ورِضاهُ وإرادَتِه، وهو الذي يَنْصُر مَن يشاءُ ويُعِزُّ مَن يشاءُ، وإذا كانَ اللّهُ سُبْحانَهُ هُو الذي يأتي الأرْضَ يَنْقُصُها من أطرافِها؛ فإنَّ جُنْدَهُ هُم الغالِبون، وفي ذلك تعظيمٌ للجهادِ والمُجاهِدينَ[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 51، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 76.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 51.
(3) مُجير الدّين العُلَيمي، فتح الرَّحمن: 4/ 340.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 51.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 51، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4872.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالإِتْيانِ مادَّةً وصيغَةً:

تَمامُ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وعُمومُها

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإتْيانِ في قولِه: ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ دون غيرِه؛ للدّلالة على أنَّ ما يُريدُه اللّهُ ﷻ مِن نُقْصان أرضِ الكافرينَ وزيادَة أرْضِ المُسْلمينَ أمرٌ يسيرٌ على اللّه تعالى؛ فلا توجَد موانِعُ مِن تحقيقِ ذلكَ مَهْما كانت قُوَّة الكافرينَ.

بَلاغَةُ التَّمثيلِ في الآيَةِ:

تَمْثيلُ حالِ الغازي في سَبيلِ اللهِ تَعالى

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ استعارَةٌ تمثيليَّة؛ حيثُ شُبِّهَتِ الهَيْئَةُ المُنْتَزَعَة من نقصانِ اللّه تَعالى لأرْضِ الكَفَرَة عَلى أيدي المُسلمين بالهَيْئَة المُنْتَزَعة مِن إتيانِ الجُيوشِ لأرضِ الكفَرَة وتَخْريبِ ديارِهم، فذُكِرَ اللَّفْظُ المُرَكَّب الموضوعُ للمُشَبَّه به واسْتُعْمِلَ في المُشَبَّه[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِقَوْلِه: ﴿نَنقُصُهَا﴾:

لَفْظُ النُّقْصانِ يَشْمَلُ المادِّيَّ والحُكْمِيَّ

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بِقَوْلِه: ﴿نَنقُصُهَا﴾ دون غَيْرِه؛ لِما يَحْمِلُه هذا اللَّفْظُ من معنًى لا يوجَد في غيره؛ فهُوَ يَدُلُّ على النُّقصانِ المادّيِّ بذهابِ جُزْءٍ مِنَ الأرضِ، والنُّقصانِ الحُكْميِّ باختلالِ أجزائه؛ فهُوَ يُطْلَقُ على معانٍ عِدَّةٍ؛ مِنْها الظُّهور عَلى أرْضِ الكافرينَ كُلَّما بُعِث رسولُ اللّه ﷺ إلى أرضٍ ظهَرَ علَيْها أو نُقْصان قوَّتها وسَيْطَرتها كما حدَثَ مَعَ الرّومِ والفُرْس، ونقص مُلْكُهُم وحُكْمُهم.

ويجوزُ أن يكون المُرادُ ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾؛ أي: نَحْشُرُهم يومَ القيامة مِن أطرافِ الأرضِ إلى المَحْشَر، فذلكَ نُقْصانُها[2].

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾:

الكُفّارُ مَغْلوبونَ ولَيْسوا بِغالِبينَ

الهَمزَةُ في ﴿أَفَهُمُ﴾ مِنْ قول اللّه سُبْحانَه: ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 529.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 348.

استفهاميَّةٌ، والاستفهامُ يُرادُ به النَّفيُ والإنكارُ، أي: ليس هَؤُلاءِ بغالِبين؛ كأنَّه قيلَ: أبَعْدَ ظُهورِ ما ذُكِر ورُؤْيَتِهم له تُتوهَّم غَلَبَتُهم[1].

ويجوزُ أن يُراد بالاستفهام تَقْريرُهُم بأنَّهم مَغْلوبون لا غالِبون[2]، وفي هذا إشارَةٌ إلى غلبَةِ المُؤْمنينَ معَ الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلام إمّا بالسَّيْفِ والجِهاد أو بالبُرْهان والحجَّة[3].

دِلالَةُ الفاءِ في ﴿أَفَهُمُ﴾:

إنْكارُ تَرَتُّبِ غَلَبَةِ الكُفّارِ عَلى ما تَقَدَّمَ

الفاءُ في ﴿أَفَهُمُ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ مؤخَّرة عَن تقديم، وهي هَهنا سَبَبيَّةٌ، والمُرادُ إنكارُ تَرَتُّب الغلَبِ عَلى ما ذُكِرَ مِن نَقْصِ أرضِ الكُفّار بِتَسْليطِ جُيوشِ المُسْلمين عليها[4].

ويجوزُ أن تكونَ للإفْصاحِ عَن شرطٍ مقدَّر، تقديرهُ: إذا كانَ اللّهُ تَعالى هُو الذي يَنْقُص الأرضَ مِن أطْرافِها؛ أفهُمُ الغالِبونَ.

نُكْتَةُ تَعْريفِ ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ باللّامِ:

أهْلُ الإسْلامِ هُمُ الغالِبونَ

في تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ تعريضٌ بأنَّ اللّه سُبْحانَهُ هُو الغالِبُ المَعْروفُ بالقَهْر، وأنَّ أهلَ الإسلام هُم المُتَعيِّنون للغلَبَةِ المَعْروفونَ بها؛ لأنَّهم مؤيَّدون مِنَ اللّه تَعالى[5].

مَوْقِعُ جُملَةِ ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾:

التَّعْجيبُ مِنْ حالِ أهْلِ الكُفْرِ في زَعْمِهِمُ الغَلَبَةَ

الجُملة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ مفرَّعَةٌ على جُملةِ الاستفهامِ المُرادِ به التَّعجيبُ وهو قولُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾، والمعنى: كيفَ يتَوَهَّمون أنَّهم غَلَبوا المُسْلِمين؟![6].

سِرُّ اخْتيارِ الجُملَةِ الاسْميَّةِ:

اخْتير التَّعْبيرُ بِالجُملَةِ الاسميَّة في قوله سُبْحانَه: ﴿أَفَهُم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 51، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 197.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/ 157.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 12/ 529.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 70، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4872.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 51، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 197.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 77.

تناقُص أهلِ الشِّرْكِ دليلُ غَلَبَةِ أهلِ الإسلامِ

﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ دونَ الجُملَةِ الفِعْليَّة؛ لأنَّها تدلُّ بتعريفِ طرَفَي الإسنادِ فيها عَلى القَصْرِ والحَصْرِ، والمَعْنى: ما هُم الغالِبون، وإنَّما المُسْلِمون الغالِبون، والدَّليل عَلى غلبَةِ أهْلِ الإسْلامِ تَناقُصُ أهلِ الشِّرك، وخُلُوُّ بُلْدانِهم مِن عدَدٍ كثيرٍ مِنْهُم(1).

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

الإشارة إلى نقصان الأرض حقيقة ومعنى

تشابهَت هذه الآيَةُ معَ قولِه تَعالى في سورَةِ الرَّعْدِ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد:41]، والنّاظِر في الآيتَيْنِ يَجِدُ اختلافًا في حَرْفِ العطف، فمَوْضِعُ الأنبياءِ بالفاءِ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾، وذلكَ لأنَّه بُدِئَ بقولِه: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ الآيةَ، فلَمّا كان ذلك سببًا لِما بَعْدَهُ؛ ناسَبَه العطفُ بالفاءِ بقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾.

أمّا موضِعُ سورةِ الرَّعد، فسبَقَهُ قولُه تَعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [الرعد:40] الآية، فلمّا أُريدَ مُواصلةُ الحديثِ عَن هؤلاءِ؛ ناسبَهُ العطفُ بالواوِ.

وممّا يُلاحظ في ذلك أيضًا أنَّه اسْتُعْمل في آيةِ الأنبياءِ النَّفيُ بِـ (لا)، وأمّا موضعُ الرَّعد فاسْتُعْمِلت (لم) فيه، فقال تَعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ [الرعد: 41]، ومِنَ المعلوم أنَّ (لَم) تَقْلِبُ زمنَ المُضارِعِ إلى الماضي، وهذا مُناسِبٌ لمَوْضِعِ الرَّعد؛ لأنَّ السُّؤال عن الرُّؤية في الرَّعد عن الماضي، أمّا موضِعُ الأنبياءِ فاسْتُعْمِلت (لا) فيه، وهيَ إذا دخلت عَلى المُضارعِ تَصْرِفُه إلى الاستقبالِ في الغالبِ، وهذا مُناسِبٌ لموضِعِ الأنبياءِ؛ لأنَّ السُّؤال عن الرُّؤية في الحالِ والاستقبالِ، وسياقُ الآياتِ بَعْدَ ذلك يُؤَكِّد هذا المعنى في قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ [الأنبياء:45] وقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء:46] الآية، وكلُّ ذلك في المستقبَل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 77.

وأمّا عن سِرِّ اختلافِ موضِعِ الأنبياءِ في خِتامِ الآيَةِ مع سورَةِ الرَّعدِ؛ فلأجل مُناسبَةِ كُلٍّ منهُما لِسياقِه، إذْ في سورَةِ الأنبياءِ حديثٌ عَن طولِ العُمُرِ في المُتْعَةِ للكافرينَ، وقَد أغراهُم ذلك بغلبَةِ المُسْلمين، فناسبه قولُه إنْكارًا عليهم: ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

أمّا خِتامُ سورَةِ الرَّعد؛ فقد تقدَّم ذِكْرُ حُكْم اللّه تَعالى، فجاء خِتام الآيةِ ببيان أنَّ حُكْمَ اللّه سُبحانَهُ لا مُعَقِّب لهَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّؤيَةُ والبَصَرُ والنَّظَرُ:

الــرُّؤيَــةُ أقْــوى مِــنَ الإبْــصــارِ، والإبْـصــارُ أقْـوى مِنَ النَّظَرِ

أوَّل ما تقع عليه العينُ مِنَ الصُّوَرِ نَظَرٌ، ومعرفةُ الخُبْرِ الحسّيِّ للصّورة بَصَرٌ، والنُّفوذُ إلى حقيقتِها رُؤيَةٌ[1].

فالنَّظَرُ: الإقبالُ بالبَصَرِ نحوَ المرئيِّ[2]، ولو لم يكُن فيه اعتبارٌ، ولذا قال اللّه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف:198]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠﴾ [البقرة:50]؛ فإنَّ اللّه تعالى قرَّرهم "على نظَرهم إليهم، وفيه: إشعارٌ بفَقْدِ بَصَرِهم؛ لضعف بصائِرِهم، من حيثُ لَم يقل: (وَأَنْتُم تُبْصِرُونَ)، ولذلك عادوا بعدَها إلى أمثالِ ما كانوا فيه مِنَ الشّكِّ والإباء على أنبيائهم بعدَ ذلكَ"[3].

وفي الاستعمال القرآنيِّ؛ وردت مادَّة (بصر) للإدراك بحاسَّةِ البصرِ، والإدراكِ بالبصيرة، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ [مريم:42]، وقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف:198].

وأمّا النَّظَرُ؛ فالغالب استعمالُهُ لتوجيه العينِ نحوَ شيءٍ، وقد

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 4/ 266.
(2) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 544.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 4/ 260.

يُستعمَلُ فيما معه تأمُّلٌ، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: 17]؛ فإنَّ النَّظرَ هُنا يُرادُ به: نظرُ العينِ المفيدُ الاعتبارَ بدقائق المنظورِ(1).

وأمّا الرُّؤيةُ؛ فتستعمَلُ للإدراك بحاسَّة البصر، وللإدراك بالفكرِ والعقل، إلّا أنَّ للرُّؤية مزيَّةً على الإبصار؛ لكونِها دالَّةً على علمٍ ثابتٍ لا يقبَلُ النَّقيضَ.

فالحاصِلُ أنَّ أقوَى الثلاثةِ من جهةِ الدِّلالةِ: الرُّؤيةُ، ثُمَّ الإبصار، ثم النَّظَرُ(2).

الغَلَبُ والفَوْزُ:

الغَلَبُ أعَمُّ مِنَ الفَوْزِ

الغَلَبَة تكونُ بفَضْلِ القُدْرَة، وتكون بفَضْلِ العِلم، يُقال: صارعَهُ فغَلَبهُ، وذَلِكَ بِسببِ قُدْرَته، ويُقالُ: حاجَّهُ فغلبَهُ، وذلك بِفضْلِ عِلْمِه وفِطْنَته(3).

والفوزُ هو الخَلاصُ مِنَ المَكْروه، معَ الوُصول إلى المَحْبوب، ولِذا سَمّى اللّهُ تعالى أهلَ الإيمانِ فائزين؛ وذلكَ لِنَجاتِهم مِنَ النّار ونَيْلِهم الجَنَّة(4).

فالفَوْزُ أخَصُّ مِنَ الغلَبِ؛ لكونِه نجاةً مِن مكروهٍ واقعٍ، ونيلًا لمحبوبٍ، بخلاف الغلبَة؛ فلا يلزمُ في الغالبِ أن ينالَ شيئًا غيرَ الغلبَة، ولا يَقْتَضي وقوعَهُ في شدَّة ومكروهٍ سابِقَيْن؛ ولِذا اخْتير في الآية ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ نَفْيُ الغَلَبَةِ - عن طَريقِ الاسْتِفهامِ - ؛ لأنَّ نفيَ الأعَمِّ يَسْتَلْزِم نفيَ الأخَصِّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 304.

(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 133 - 136.

(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 105.

(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 210.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ٤٥﴾ [الأنبياء:45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا استعجلوا عذابَ السّاعةِ أنذرهم بالوحي النّاطقِ بإتيانها وفظاعةِ أهوالها

بعد ما بُيّنَ من جهته تعالى غايةُ هولِ ما يستعجله المستعجلون، ونهايةُ سوءِ حالهم عند إتيانه، ونُعيَ عليهم جهلُهم بذلك وإعراضُهم عن ذكرِ ربِّهم الّذي يكلؤهم من طوارقِ اللّيل والنّهار وغيرُ ذلك من مساوئ أحوالهم أُمِرَ ﷺ بأنْ يقولَ لهم إنّما أنذركم ما تستعجلونه من السّاعةِ بالوحي الصّادقِ، النّاطقِ بإتيانها وبفظاعةِ ما فيها من الأهوالِ فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾[1].

إنذار الرّسول وتبليغاتُه وحيٌ من الله وأمرٌ منه تعالى

لَمّا كَرَّرَ ربُّ العِزَّة في القُرآنِ الأدِلَّةَ، وبالَغَ في التَّنبيه عليها على ما تقَدَّمَ؛ أتبَعَه بقوله لنبيّه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾، أي: بالقُرآنِ الّذي هو كلامُ رَبِّكم؛ فلا تَظُنّوا أنَّ ذلك مِن قِبَلي، بل اللّهُ تعالى آتيكم به، وأمَرَني بإنذارِكم[2].

وَسَّطَ بالحديث عن الوحي للانتقال من عذاب الاسْتِئْصال إلى عذاب النّار

لَمّا أراد أنْ ينتقلَ من عذابِ الاسْتِئْصالِ ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الأنبياء:44] إلى عَذابِ النّارِ ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ وُسِّطَ بينهما بما هو مُهِمٌّ من حديثِ الوَحْيِ، وهو قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ تَوكيدًا؛ ليُتَخَلَّصَ منه إليه[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُنذِرُكُم﴾: (نذر) أصلٌ يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 353.

الإنْذارُ: الإبلاغُ، وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعْضُهُم بَعْضًا، ونَذِرْتُ بِهِم فاسْتَعْدَدْتُ لَهُم وحَذِرْتُ مِنْهُم[1]، ولا يكون الإنذارُ إلا في التّخويفِ والتّحذير، ونَذِرَ بالشَّيْءِ وبالعَدوِّ: نَذْرًا عَلِمَهُ فحَذِرَه، وأنذَره أيضًا حذَّره وخَوَّفَهُ في إبلاغه، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المُحَذِّرُ والمُخَوِّف[2]، والإنْذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ[3]، ومعنى ﴿أُنذِرُكُم﴾: موافقٌ للمعنى اللُّغَويِّ، أي: أُعَلِمُكُم وأُخَوِّفُكم وأُحَذِّرُكُم بأسَ اللّه وعذابَه بوحيٍ من اللّه[4].

2) ﴿بِٱلْوَحْيِۚ﴾: (وحى) أصلٌ يَدُلُّ على إلْقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِه إلَى غَيْرِك، فالوحْيُ: الإشارَةُ[5]، وقال الرّاغب: أصلُ الوحي: الإشارةُ السّريعةُ والكتابة[6]، والوحيُ: الإشارةُ والكِتابَةُ والرِّسالة والإلْهام والكَلامُ الخفيُّ وكلُّ ما ألقيتَه إلى غَيْرِكَ[7]، ثُمَّ غلبَ الوحْيُ على ما يوحيه اللّهُ إلَى أنْبيائه، ويكون إمّا إلْهامًا، أو رُؤْيا، وإمّا أنْ يُنْزِلَ عليه كتابًا كما أُنْزِلَ على موسَى، أو قُرآنًا يُتْلَى عليه كَما أنْزَله على سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ[8]، والمرادُ بالوحي في الآية: أي: بتنزيلِ اللّه الّذي يوحيه إليّ من عنده، أي: بهذا القرآن[9].

3) ﴿ٱلصُّمُّ﴾: (صمّ) أصْلٌ يَدُلُّ على تَضامِّ الشّيءِ وزَوالِ الخَرْقِ والسَّمِّ، مِنْ ذَلِكَ الصَّمَمُ في الأُذُنِ[10]، والصَّمَمُ: انْسِدادُ الأُذُن، وثِقَلُ السَّمعِ، أو ذهابُ سَمعِها، والأصَمُّ هو الذي لا يسمعُ[11]، والصَّمَمُ: فقدانُ حاسّةِ السّمع، وبه يوصفُ من لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يقبله[12]، والمراد بـ﴿ٱلصُّمُّ﴾ في الآية: الكافرون المعرضون عن القرآنِ وما يُتلى عليهم من ذكرِ اللّه، فهُم بمنزلةِ مَن لا يَسمعُ؛ لعدمِ السّماعِ في كُلِّ ما يُنذَرون[13].

4) ﴿يُنذَرُونَ﴾: (نذر) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَخْويفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (نذر).
(3) الرّاغب، المفردات: (نذر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 449، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 292، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 434.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحى).
(6) الرّاغب، المفردات، ص: (وحى).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(8) الزَّبيدِيّ، تاج العروس: (وحي).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 449، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 292، والبَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 52.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صمّ).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدِيّ تاج العروس: (صمم).
(12) الرّاغب، المفردات: (صمم).
(13) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 91، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.

وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعْضُهُم بَعْضًا، ونَذِرْتُ بِهِم فاسْتَعْدَدْتُ لَهُم وحَذِرْتُ مِنْهُم(1)، ولا يكون الإنذارُ إلا في التّخويفِ والتّحذير، ونَذِرَ بِالشَّيْءِ وبِالعَدوِّ: نَذْرًا: عَلِمَهُ فحَذِرَه(2)، ومعنى ﴿يُنذَرُونَ﴾: يُخوَّفون(3).

المَعْنى الإجْماليُّ:

بلاغٌ من الله أنّ التّخويفَ والإنذارَ لا يكون إلّا بوحيٍ مِنه سبحانَه

أوضح البيانُ القرآنيُّ أنّ اللّه تعالى يأمر نبيَّنا محمدًا ﷺ أن يقول للمُشرِكينَ القائلين ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنبياء: 5]: ما أُخَوِّفُكم مِنَ العَذابِ إلّا بوحيٍ مِن اللهِ، وهو القُرآنُ الّذي يُنَزِّلُه عليَّ، ولا أُحَذِّرُكم مِن قِبَلِ نَفسي، ثم أَمَرَهُ أنْ يبيّن لهم أنّ الكافرَ باللّه لا يصغي بسمع قلبه إلى تذكّرِ ما في وحي اللّه من المواعظِ والذّكر، فيتذكّرَ به ويعتبر، فينزجرَ عمّا هو عليه، بل يعرضُ عن الاعتبارِ به والتفكّرِ فيه، كفعلِ الأصمّ الذي لا يسمعُ ما يُقال له ليعملَ به(4).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الفصل في الجملة:

تهكّمٌ باستعجالِ الكافرين للوعدِ استهزاءً به

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ عن الّتي قبلها؛ لكونها جاءتِ ابتداءً استئنافيًا، قُصِدَ منه الإتيانُ على جميع ما تقدّمَ من استعجالهم بالوعدِ تهكُّمًا بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [الأنبياء: 38]، أي: عُقِّبَ به أمرُ اللّه لرسولِه ﷺ أنْ يُخاطِبَهم بتعريفِ كُنْهِ دَعوتِه، وهي قَصْرُه على الإنذارِ بما سيَحُلُّ بهم في الدُّنيا والآخرة؛ إنذارًا مِن طريقِ الوحيِ المُنزَّلِ عليه مِن اللّه تعالى وهو القُرآنُ(5).

دلالة الاستئناف بفعل القول بصيغة الأمر:

عبّر البيانُ الإلهيُّ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (نذر).
(3) البَغويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 290، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 467.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 449.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 77.

﴿أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾؛ لبيانِ كُنْه دعوته ﷺ، وهي قَصْرُه على الإنذارِ بما سيحُلّ بهم في الدنيا والآخرة إنذارًا من طريقِ الوحي المنزَّل عليه من اللّه تعالى وهو القرآن، أي: إنّ هذا الأمرَ من عندِ اللّه سبحانه، وإنّ النَّبي ﷺ ليس سوى مُبلّغٍ ومنذرٍ ورسولٍ أمينٍ، فلا تُعرِضوا عن اللّه وقرآنه، ولا تَتَطلّبوا منّي آيةً غيرَ ذلك، ولا تسألوا عن تعيينِ آجالِ حلولِ الوعيد، ولا تحسِبوا أنّكم تُغيظونني بإعراضكم والتوغّلِ في كفركم[1].

اهتمامٌ بالمقولِ وتعريفٌ بأنّ رسول الله ﷺ مُنذِرٌ بالوحي

ولبيانِ علوِّ مقامِ الرّسالةِ، ومقامِ النّبيّ ﷺ، بجعله الوحيدَ المكلّفَ بإبلاغهم وإنذارهم، وفيه كذلك دلالةٌ على الاهتمامِ بالمقولِ، فإنّ أصلَ الأمرِ بالقولِ في مقامِ التّصدّي للتّبليغِ دالٌّ على الاهتمام.

بلاغةُ أسلوب القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

بيانُ بطلانِ ادّعاءِ المشركين بأنّ إنذارَهم من عند النَّبيِّ ﷺ لا من عند الله

المقصورُ به في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾: ﴿إِنَّمَآ﴾، والمقصور: ﴿أُنذِرُكُم﴾ وهو الموصوف، والمقصورُ عليه: ﴿بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾، وهو جارٌّ ومجرور يحملُ صفةً تدلّ على معنًى قائمٍ فيه، وهي صفةُ كونِ إنذارِ النَّبيِّ ﷺ لهم بالعذابِ من طريقِ الوحي وهو القرآن، والمقصورُ عنه: (كلّ الصّفاتِ ما عدا صفةِ كون الإنذارِ بالعذابِ من طريقِ الوحي)، ونوعُ هذا القصرِ باعتبارِ المقصورِ والمقصور عليه: قصرُ موصوفٍ على صفةٍ[2]، ونوعُه باعتبارِ الحقيقة والواقع: قصرٌ إضافيّ، وهو قصرُ قَلْبٍ؛ إذ كان الكافرون يدّعون أنّ إنذارَ النَّبيِّ ﷺ لهم بالعذابِ هو مِن عند نفسه، فيطلبون منْه آيةً غيرَ القرآن، ويسألونه تعيينَ آجالِ حُلولِ الوعيدِ، ويظنّون أنّهم بذلك يُغيظونه بإعراضهم والتوغّلِ في كفرهم، فقلبَ عليهم ادّعاءهم مبيّنًا لهم بهذا القصرِ أنّه لا ينذرهم إلا بوحيٍ من اللّه تعالى، لا من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.

عندِ نفسه[1]، وأنّ ذلك يوجبُ عليهم ألا يستهزئوا بالإنذارِ؛ لأنّهم لا يستهزئون بالنّبيّ ﷺ إنّما يستهزئون باللّه العليِّ العظيم الّذي يلجؤون إليه في شدائدهم في البرّ والبحر، وفي ذلك توكيدٌ للإنذارِ والتخويفِ؛ لأنّه صادرٌ عن اللّه تعالى، واللّهُ لا يخلفُ الميعاد[2].

سرّ التّعبير عن الإنذار بالمضارع:

الإنذاراتُ المتكرّرةُ بالوحي النّاطقِ إشارةٌ إلى حِلْمِ الله ورحمته

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن الإنذارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ بصيغةِ المضارع؛ للدّلالة على تَكَرُّرِ إنذارهم بإنذاراتٍ كثيرة، واستمرارِ هذا الإنذارِ من النّبيّ ﷺ لهم، وفي هذا إشارةٌ إلى حِلْمِ اللّه سبحانه ورحمتِه؛ إذ لا يُعجّل لهم العذاب، وعلى الرّغم من ذلك استمرّوا في تصامّهم عن سماعِ هذه الإنذاراتِ المتكرّرة.

بلاغة التّصريح بالوحي:

تشنيعٌ على الكافرين للغفلةِ المطبِقةِ على عقولِهم وقلوبهم

صرّح القرآنُ بلفظ (الوحي) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ - مع أنّ الأمرَ قائمٌ بين الكافرين وبين النّبيِّ ﷺ على أنّ ما يُنذرِهم به هو الوحي -؛ تشنيعًا على الكافرين للغفلةِ المطبِقةِ عليهم، فالذي يُنذرهم به النّبيُّ ﷺ هو من الوضوحِ بحيث لا يخفى على ذي عقلٍ ونظرٍ أنّه وحيٌ من عند اللّه، ولكن أنّى للصُّمِّ أنْ يسمعوا؟! فكان لا بدّ أنْ يُنخَسوا هذه النَّخسةَ، وأنْ يُقال لهم عن هذا النّور: إنّه نورٌ!![3]، كما أنّ في التّصريح بالوحي الصّادق النّاطق وهو من المسموعات مناسَبةً لذكر الصَّمَم، والصُّمُّ همُ المُنذَرون[4].

معنى الواو في قوله ﴿وَلَا يَسۡمَعُ﴾:

الــواو بين الاستئناف والعطف والحاليّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾؛ إمّا للعطف على ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾، وهو عَطْفُ استئنافٍ على استئنافٍ؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 905.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 434.

التَّذييل من قبيل الاستئناف[1]، أي إنّ قوله: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ من تتمّة الكلامِ الملقّن، تذييلٌ له بطريق الاعتراض قد أُمرَ عليه الصّلاة والسّلام بأنْ يقوله لهم توبيخًا وتقريعًا وتسجيلًا عليهم بكمالِ الجهلِ والعِناد[2]، أو أنْ تكون استئنافيّةً، ويكونَ قولُه: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ من جهته تعالى على طريقةِ قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢﴾ [الأنبياء:42]، وتؤيّده القراءةُ على خطابِ النّبيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، كأنَّه قيلَ: قُلْ لَهُم ذلك وأنتَ بمعزلٍ من إسماعهم[3]، أو أنْ تكونَ حاليّةً[4]، والمعنى: إنّما أنذركم بالوحي الآتي به المَلَكُ عن اللّهِ، والحالُ أنّكم لا تَسمعون، وذلك على قراءة الجماعة ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾، أمّا على قراءةِ ابن عامر: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ فالحالُ أنّك لا تُسمعهم[5].

توجيه النفي بلا:

إشارةٌ إلى إمكانِ إيمانِ بعض الكافرين وحثٌّ لهم على الإيمان

عبّر القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ بأداةِ النّفي (لا)؛ دون (لن) التي تدلّ على تأكيدِ النّفي أو تأبيده، فلم يقلْ مثلًا: (ولن يَسمعَ الصُّمُّ الدّعاءَ)؛ إشارةً إلى إمكانِ إيمانِ بعضِ الكافرين، وحثًّا لهم على الإيمانِ، وهذا ما كان، فإنّ مِن المخاطَبين مَن آمنَ بعد نزول هذه الآيات؛ إذ السُّورة مَكّيّةٌ.

سرّ إيثار حاسّة السّمع:

نسبةُ الصّممِ للمشركين بيانٌ لزيادةِ إعراضِهم عن الحقّ

آثرَ البيانُ الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ذِكْرَ حاسّةِ السّمعِ؛ للإشارةِ إلى زيادةِ إعراضهم عن الحقّ؛ لأنّ حاسّةَ السّمعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 319.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 427، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 323.

هي أوّلُ نافذة للعلم عند الإنسان، وهي أوّلُ حواسّه عملًا، فهو الإدراكُ الأوّل المصاحِبُ لتكوينِ الإدراكاتِ، فقبلَ أنْ يتكلّمَ الطفلُ لا بُدَّ أنْ يسمعَ أولًا؛ لينطقَ ما سمعه، والسّمعُ هو الآلةُ التي لا تتعطّل عن مَهَمّتِها، حتى ولو كان الإنسانُ نائمًا؛ لأنّ به يتمّ الاستدعاء[1]، ولذا كان من عادةِ القرآن الكريم تقديمُ السّمع على البصر[2]، والسّمعُ كذلك أشرفُ نِعَمًا وأعظمُ نَفْعًا من البصر[3]، وهو طريقُ تَلقّي الوحي[4]، ووسيلةُ بلوغِ دعوةِ الأنبياءِ إلى أفهامِ الأممِ على وجهٍ أكملَ من بلوغها بواسطة البصر[5].

فائدة التّعبير بفعل ﴿يَسۡمَعُ﴾ مضارعًا:

استمرارُ المشركين في التّصامِّ عن الحقّ دليلٌ على انطماسِ بصائرهم

جاء التّعبيرُ عن فعلِ السّمع بصيغةِ المضارع التي تدلّ على التّجدّد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾؛ للإشارةِ إلى المبالغةِ في إعراضهم هذا عن الحقّ، وبيانِ كمالِ جهلهم، وشدّةِ عنادهم، وانطماسِ بصائرهم؛ فهم مستمرّون في التّصامِّ عن سماعِ الحقّ سماعَ استفادةٍ.

وجه التّعريف في ﴿ٱلصُّمُّ﴾:

اللامُ للجنسِ المنتظمِ للمخاطبين انتظامًا أوّليًّا أو للعهد

أل التّعريف في ﴿ٱلصُّمُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إمّا عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذِكْريٌّ؛ وهم المشركون المعرِضون عن القرآن المخاطَبون بالإنذار ﴿أُنذِرُكُم﴾، والتقديرُ: (ولا يسمَعون إذا ما ينُذرَون)[6]، أو جنسيّةٌ تفيدُ الاستغراق، ودخَلَ في عُمومِه المُشرِكونَ المُعرِضون عن القُرآنِ، وهم المقصودُ من سَوقِ التَّذييلِ؛ ليَكونَ دُخولُهم في الحُكْمِ بطَريقةِ الاستدلالِ بالعُمومِ على الخُصوصِ[7].

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9550.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 152.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 345.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(6) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 119.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 89.

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿ٱلصُّمُّ﴾:

تشبيه الكافرين بالصُّمِّ تقريعٌ لهم بتركهم سمعَ ما يجبُ أنْ يُسمعَ

الصَّممُ انعدامُ إحْساسِ السَّمعِ عمَّنْ مِنْ شَأْنِه أنْ يَكونَ سَميعًا، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ مستعارٌ لعدم انتفاعِ الكافرين بالكلامِ المفيد الذي يحمل تخويفًا وإنذارًا لهم؛ فقد شبّه الكافرين بالصُّمِّ الذين فقدوا حاسّة السّمع، فطُويَ ذِكْرُهم، وصرّحَ بذكرِ المشبَّه به، وهذه استعارةٌ تصريحيّة[1]، فكان تَشْبيهًا لعدمِ الانتفاعِ بالمسموعِ بعدمِ ولوجِ الكلامِ صِماخَ المُخاطَبِ به[2].

وفي هذا ذمٌّ لهم وتقريعٌ بتركهم سماعَ ما يجبُ عليهم سماعه والانتهاء إليه، وقد تقولُ لمن تُقرّعه بترك ما تدعوه إليه: ناديتُك فلم تسمعْ[3].

وجه التّعريف في ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾:

في (ال) الجنسيّةِ مبالغةٌ لشدّةِ تصامِّ المشركين وفي (ال) العهديّةِ بيانٌ لحالهم

(ال) تعريف ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إمّا جنسيّة تفيد العموم، أي حال المشركين كحالِ الأصمّ الّذي لا يسمعُ أيَّ دعاءٍ، وفي هذا مبالغةٌ في التشنيعِ عليهم لشدّةِ تصامّهم عن سماعِ الحقّ، أو اللام عهديّة، والمراد بالدّعاء دعاءُ الإنذار، أي: بيانٌ لحالِ المشركين؛ فهم لا يسمعون إنذارَ النَّبيّ ﷺ لهم حين دعاهم سماعَ انتفاعٍ؛ إذ لم ينتفعوا بما فيه.

إيثار التّعبير بقوله ﴿ٱلدُّعَآءَ﴾:

إنذار المشركين بالأصوات العالية بيانٌ لكمالِ شدّةِ صممهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ لفظَ الدّعاء - الذي هو عبارة عن النِّداءِ بصوتٍ عالٍ قويّ مرتفع صادعٍ - على لفظ (الكلام) مثلًا، فلم يقل: (ولا يسمع الصُّمُّ الكلامَ)؛ لبيان كمالِ شِدّةِ الصَّمَمِ، وأنّهم لا تُجدي فيهم النُّذر[4]؛

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 530.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 91.
(4) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.

ولمناسبةِ السّياقِ الذي عبّر فيه بالإنذار ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ولحالِ هؤلاء المنذَرين[1]، فالخطابُ لأُناسٍ هم غايةٌ في الغفلة، فإنَّ الإنذارَ عادةً يكون بأصواتٍ عالية مكرَّرة مقارنةٍ لهيئاتٍ دالّةٍ عليه، فإذا لم يسمعوها يكون صَمَمُهم في غايةٍ لا غايةَ وراءَها[2]، ولأنَّه المُطابقُ للغرَضِ؛ إذ كان النَّبيُّ ﷺ داعيًا كما قال تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:108][3].

بلاغة التّذييل في جملة ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ﴾:

اعـــتراضٌ فـيـه تـوبـيـخٌ لـلـمـشـركـين وتجهيلٌ لهم

جملةُ ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ من تتمّة الكلام الملقَّن، وهي تذييلٌ له بطريقِ الاعتراض، قد أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بأنَ يقولَه لهم تَوبيخًا وتَقريعًا وتَسجيلًا عليهم بكَمالِ الجَهلِ والعِنادِ، ويؤكّد ذلك ويناسبهُ السّياقُ الذي جاء كلُّه للغرضِ ذاتِه من تعريف (الصّمم)، أو من وضعِ المُظهَر ﴿ٱلصُّمُّ﴾ موضعَ المُضمَر، أو من التّعبير بلفظِ الدّعاءِ المناسبِ لحالِ هؤلاء المنذَرين[4].

فائدة وضع الظّاهر موضع المضمر:

تـسـجيـلٌ على الـمـشـركـين بـالـتّـصـامّ عن آيـاتِ الإنـذار وإنكارٌ عليهم

وَضَعَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الظاهرَ ﴿ٱلصُّمُّ﴾ موضعَ المضمرِ (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، ولم يقلْ: (ولا يسمعون إذا ما ينذرون)؛ للتسجيلِ عليهم بالتّصامّ[5]، أي: التّصريحُ بتصامّهم وسدِّ أسماعهم إذا أُنذروا، ولم يكن الضّمير ليفيد هذا المعنى[6]، أي: هم على هذه الصّفةِ من الجرأةِ والجسارةِ على التصامُمِ عن آياتِ الإنذار[7]، وللدّلالةِ كذلك على صدورِ إنكارٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 35.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 434.
(7) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 119، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148.

شديدٍ وغضبٍ عظيمٍ وتعجّبٍ مِن نُبُوِّ أسماعِهم عن الوحي، وعدم إصاختِهم لِما ينفعهم، وإمعانِهم في ركوب الغيّ، والتعسّفِ في متاهاتِ الضّلال، وهذا فنٌّ عجيبٌ تميّز به القرآنُ الكريم(1).

توجيه القراءة في قوله ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ﴾:

في القراءةِ الأولى تسجيلُ الذَّمِّ على المشركين وفي الثّانيةِ تسليةٌ لرسولِ ربّ العالمين

قرأ جمهورُ القرّاء ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ بفتح الياء من ﴿يَسۡمَعُ﴾، وبرفع ﴿ٱلصُّمُّ﴾ على أنَّه فاعِلُ ﴿يَسۡمَعُ﴾(2)، أي جُعِلَ الفعلُ للكافرين، والمعنى: أنَّهم تَرَكوا اسْتِماعَ ما يجِبُ عليهم استِماعُه وقَبولُه، وقد كانوا يسمعونَ ويبصرون، ولَكنَّهُم لم يستعملوا هذه الحَواسَّ استِعمالًا ينفعهم فصاروا كمن لم يسمعْ ولم يبصر(3)، وفيه معنى الذَّمِّ لِمن كان قادرًا على سماعِ الحَقِّ فتَرَك استِماعَه.

وقرأ ابنُ عامر: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ بالتّاء وضمَّها، وبفتح ﴿ٱلصُّمَّ﴾ على أنَّه مفعولٌ به لـ ﴿تُسۡمِعُ﴾(4)، أي: أنت يا محمَّدُ ﷺ لا تقدِرُ أنْ تُسمِعَ الصُّمَّ(5)، أي: لا تُسْمِعُهم دعاءَك؛ لأنّهم لا يَعونه، كما قالَ سُبحانهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾ [فاطر:22]، والصُّمُّ ها هنا المُعرِضونَ عمّا يُتْلَى عليهم من ذكرِ اللّه، فهم بِمَنْزِلَةِ من لا يسمع(6)، والمقصودُ من ذلك تسليتُه ﷺ، كأنَّ اللّه يقول له: أرِحْ قلبك ولا تعلّقْه بهم، وارضَ بحكمِ اللّه فيهم(7). فمن بلاغة القراءة الثانية أنها أجابت عن تساؤل قد يجول في خاطر القارئ: مَن الذي سيُسمع هؤلاء الكفّار النِّداءَ بصوتٍ عالٍ قويٍّ مرتفعٍ صادعٍ؟ فكانت الإجابة في القراءة الأخرى التي فيها التصريح - عن طريق الخطاب - بأنه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 321.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 323.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات، ص: 467، وابن زَنْجَلَة، حجّة القراءات، ص: 468.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 323.
(5) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 119.
(6) ابن زَنْجَلَة، حجّة القراءات، ص: 468.
(7) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1201.

ﷺ هو من سيُسمِعُهم. وهذا الوحي إنما هو من اللّه جلَّ في علاه. فخلاصة القراءتين أنه من لم يلتفت إلى وعظ الرسول ﷺ، ولم يسمع عن اللّه ما يخاطبه به كان كالميّت الذي لا يسمع ولا يجيب.

دلالة ﴿إِذَا﴾ في قوله ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾:

تقييدُ تصامّهم عن سماعِ الحقّ بوقتِ إنذارِهم أبلغُ وأفظعُ

كلمة ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ظرفيّة زمانيّة، وفي التّعبيرِ بها تقييدُ نفيِ السماعِ بوقتِ الإعراضِ عند سماعِ الإنذار ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، مع أنَّ الصُّمَّ لا يسمعون الكلام إنذارًا كان أو تبشيرًا، وذلك لبيانِ كمالِ شدّةِ الصّمَمِ عندهم[1]؛ لأنّ مَن لا يَسمَعُ إذا خُوِّف؛ كيف يَسمعُ في غير تخويف!! فكان التّقييدُ بوقتِ الإنذارِ أبلغَ[2]، ولتَفظيعِ إعراضِهم عنِ الإنذارِ؛ لأنَّه إعراضٌ يُفْضي بهم إلى الهلاكِ، فهو أفظعُ من عدمِ سماعِ البشارةِ أو التّحديث، ولأنّ التّذييلَ مسوقٌ عقبَ إنذاراتٍ كثيرة[3]، ولأنّ المقامَ مقامُ إنذارٍ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾[4]، أي: لَيْتهم يتغافلون عن نداءٍ عادي، إنَّما يتغافلونَ وينصرفونَ ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ حين يُخوِّفهم نبيُّهم عذابَ اللّهِ، والإنذارُ والتَّحْذيرُ أوْلَى ما يجبُ على الإنسانِ الاهتمام به، ففيه مصلحتُه، ومن الغباءِ ألّا يهتمَّ به[5].

دلالة ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا يُنذَرُونَ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾، للتّوكيد[6]، أي: وإنْ طالَ الإنذارُ والتّحذيرُ وتكرَّرَ؛ فهُم لن يسمعوا، مما يدلّ على شدّة تصامِّهم.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(2) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 256.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 78.
(4) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 256.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9551.
(6) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.

وجهُ التّعبير عن الإنذار بالمضارع ﴿يُنذَرُونَ﴾:

استمرارُ تصامّ المشركين مع تكرارِ الإنذاراتِ تفظيعٌ لإعراضهم عن الحقّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن الإنذار في قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على تَكَرُّر إنذارِهم بإنذاراتٍ كثيرة، وعلى الرَّغم من ذلك يستمرّون في تصامّهم عن سماعِ هذه الإنذارات كلّما تكرّرت، ممّا يدلّ على تفظيعِ إعراضِهم عن هذه الإنْذارات المتكرّرة، مع أنّ الإنذارَ يكون عادةً بأصواتٍ عاليةٍ مكرَّرةٍ مقارِنةٍ لهيئاتٍ دالّةٍ عليه، فإذا لم يسمعوها يكون صَممُهم في غايةٍ لا غايةَ وراءَها[1].

سرّ بناء فعل الإنذار للمفعول في قوله ﴿يُنذَرُونَ﴾:

التّركيز على شدّة تصامِّ المُنْذَرين لا على المُنْذِر

آثرَ البيانُ الإلهيّ التّعبيرَ بالمبنيّ للمفعول ﴿يُنذَرُونَ﴾ في قوله: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ولم يأتِ بالمبنيّ للفاعل، فلم يقلْ: (إذا ما أنذرتهم)؛ للتّركيزِ على الحدثِ، وهو الإنذارُ، ولحصرِ الوعي فيه، وللإشارةِ إلى أنَّ الإنذارَ لا يكون إلا بطريقِ القرآن، ولا طريقَ غيرُه، ولزيادةِ التَّبكيتِ عليهم؛ أي: لشدّةِ تصامّهم لا يستمعون للقرآن من أيّ مُنذِرٍ كان، ولا يقدِرُ أحدٌ على إسماعِ هؤلاء الصُّمِّ[2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإنذار والتّبليغ والوعيد والتّحذير والتّخويف:

الإنذارُ إبلاغٌ مع تخويفٍ فهو أنسبُ لمن لا يأبه فيُصمُّ سمعَه عن الدّعاء

الإنذارُ يدلّ في أصله على التّخوّفِ، وهو: الإعلامُ والإبلاغُ المَقْرون بالتّخويفِ والتّحذير[3]، أمّا التّبليغُ في أصله فهو الوصولُ إلى الشّيء[4]، وإلى المُرادِ[5]، والبَلاغُ: الانْتهاءُ إلى أقصى المقصدِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (نذر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بلغ).

والمنتهى[1]، وبلَّغَ النّاسَ بالخبر: أوْصله إليهم، وأعْلَمَهم به، وأنهاه إليهم[2]، من غير تحذير أو تخويف فالإنذارُ أخصُّ من التّبليغ.

والوعيد أصْلُه من (وعَدَ) ويدلّ على تَرْجيةٍ بقولٍ، والوعد يُستعملُ في الخير والشرّ، والوعيدُ لا يكون إلا بِشَرٍّ[3]، فهو: تهديدٌ وتوعُّدٌ بالشّرّ، وإنذارٌ بما سيحدث[4]، وليس فيه إحسانٌ، وفي الإنذارِ إحْسانٌ من المُنْذِر؛ إذ يُعْلِمُ المُنذَرَ بالمخوَّفِ منه ليَحْذَره، والتّحذيرُ: أصلُه يدلّ على التَّحَرُّزِ والتَّيَقُّظِ[5]، والتَّخْويفِ وشِدّة الحَذر والفَزَعِ والتأهّبِ كأنّه يَحْذَرُ أنْ يُفاجَأ، وحذَّره من الشَّيءِ: أنذرَه ونبَّهه وجعله يَقِظًا[6]، والتّخويفُ أصلهُ يدلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ[7]، وهو توقّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومة، ويُضادُّه الأمن، ويُستعمل ذلك في الأمورِ الدّنيويّة والأخرويّة[8]، فالتّحذيرُ أخصُّ من الخوفِ[9]؛ لأنّه إخافةٌ تحملُ على الفَزَعِ والذُّعْرِ، ومن هنا كان اصطفاءُ لفظ الإنذار أنسبَ لِجحودهم وتَكبّرهم بوصفه تبليغًا مُقْتَرِنًا بالتّخويف.

(1) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بلغ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفَيّوميّ، المصباح المنير: (وعد).
(4) مَجْمَع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط، ومحمد محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حذر)، وابن منظور، لسان العرب: (حذر).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (حذر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (خوف).
(8) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(9) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 383.

﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٤٦﴾ [الأنبياء:46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

انتقالٌ من إنذار المشركين بعذابِ الدّنيا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة

بعد أنْ أخبرَ تعالى في الآية السّابقة عن حالِ المنذَرين الذين صَمّوا آذانهم عن سماعِ ما أُنذروا به، بيّنَ تعالى في هذه الآية أنّ حالهم سيتغيّر إلى أنْ يَصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسيرَ ممّا أُنذروا به، أو نالهم شيءٌ منه - ولو كان يسيرًا - نادَوا على أنفسهم بالهلاك، وأقرّوا بأنّهم كانوا ظالمين، فقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾[1]، وهذا انتقالٌ من إنذارهم بعذابِ الدّنيا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّسَّتۡهُمۡ﴾: (مسّ) أصلٌ واحدٌ يدلّ على جَسِّ الشَّيء باليد[3]، والمسُّ: مباشرةُ الجسم، والمسُّ يُقال فيما يكون منه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ[4]، وحقيقةُ المسّ: وضعُ اليدِ على شيءٍ ليُعرفَ وجودُه، أو ليُخْتَبَرَ حالُه، ثم يُسمّى كلُّ ما يصلُ إلى الشّيءِ ماسًّا على سبيلِ التّشبيه، فيُقال: فلانٌ مَسّهُ التّعبُ والنَّصبُ، وقد استُعمِل المسّ في أكثر ما ورَدَ في القرآن الكريم بمعنى الإصابةِ بمكروهٍ، وإيقاعِ الضُّرِّ ونحوه، ويُكنّى أيضًا بالمسّ عن الجماع، وعن الجنون[5]، ومعنى ﴿مَّسَّتۡهُمۡ﴾ في الآية: أصابتهم إصابةً حقيقيةً[6]، والمعنى ولئن أصابهم عذابٌ خفيف[7].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 434 - 435.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مس).
(4) الرّاغب، المفردات: (مسس)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 91.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مس).
(6) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.
(7) حاشية الصّاوي، ص: 1201.

2) ﴿نَفۡحَةٞ﴾: (نفح) أصلٌ يَدُلُّ على انْدِفاعِ الشَّيْءِ أَوْ رَفْعِه، ونَفَحَتْ رائِحَةُ الطّيبِ نَفْحًا: انْتَشَرَتْ واندَفعَتْ، ونَفَحَتِ الرّيحُ: هَبَّتْ[1]، أي: نَسَمَت وتحرَّكَ أوائِلُها، والنَّفْحَةُ: ما أصابَك من دُفْعَةِ البرد، ونَفَحَ فُلانًا بشيْءٍ: أعْطاهُ، ونفحهُ بالسّيف: ضربهُ ضربةً خفيفة، والنَّفْحُ: الضَّرْبُ والرَّميُ، والنَّفْحَةُ من العَذاب: القِطْعَةُ والدُّفْعَةُ مِنْهُ[2]، والمرادُ بالنَّفْحَة في الآية: النّصيبُ والحظُّ، أي: أصابتهم عقوبة[3]، أو طائفة أو دُفْعَةٌ يسيرة أو طَرَفٌ أو أدنى شيء من عذاب الله[4]، والمعنى: ولئن مسّهم شيءٌ قليلٌ من عذابِ الله كالرائحةِ من الشّيء دون جسمه[5].

3) ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾: ويلٌ: كلمةٌ مثل ويح، إلا أنَّها كلمةُ عذابٍ[6]، والويلُ: القُبوحُ والتَّعسُ، وقد تُستعملُ على التّحسّر[7]، وهي كلمةٌ للدُّعاء بالهلاكِ والعذابِ على من وقعَ في هَلَكةٍ يستحقُّها بقصدِ التّهديدِ والتّحذير[8]، وكلُّ مَن وقع في هَلَكةٍ دَعا بالويْل، ومعنى ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾: موافقٌ للمعنى اللّغويّ، فهو دعاءٌ على أنفسهم بالويلِ والهلاكِ وذلك على سبيل التّفجّع والتّحسّر[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تصويرٌ لندمِ الكافرين وعويلِهم لأدنى إصابةٍ من عذابِ الله

يُقسِمُ مُنْزِلُ الكتاب سبحانه بأنّه لئن أصابَ هؤلاء المستعجلين بالعذابِ أقلُّ شيءٍ من عذابِ ربّك يا محمّد بتكذيبهم لك وكفرهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفح).
(2) ابن سِيْدَة، المحكم، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (نفح).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 450.
(4) الماتُرِيديّ، تأويلات أهل السنة: 7/ 349، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 192، والنَّسَفِيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 406.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (ويل).
(7) الرّاغب، المفردات: (ويل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 346.
(8) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ويل).
(9) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 216.

بك لَيَعْلَمُنَّ حينئذ عاقبة تكذيبهم لك، وليعترفُنّ على أنفسهم بنعمةِ اللّه وإحسانه إليهم وكفرانهم أياديَه عندهم، وليقولُنّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ يا ويلنا ويا هلاكنا إنّا كنّا ظالمين في عبادتنا الآلهةَ والأنداد، وتركنا عبادةَ اللّه الذي خلقَنا وأنعمَ علينا، ووضَعْنا العبادةَ في غير موضعها[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة العطف بالواو في قوله ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾:

انتقالٌ من إنذار الكافرين بعذابِ الدّنيا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملةُ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾، والخطابُ للنّبيّ ﷺ، أي: أنذِرْهم بأنّهم سيندمون عندما ينالهم أوَّلُ العذابِ في الآخرة، وفي هذا انْتِقالٌ من إنذارهم بعذابِ الدّنيا إلى إنذارهم بعذابِ الآخرة[2].

دلالة اللّام الموطِّئة للقسم:

تأكيدُ إقرار المشركين باستحقاقهم العذابَ دليلٌ على تحقُّقِ وقوعِه عليهم

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ باللّام الموطّئة للقسَم المحذوفِ والمُضمَر قبلَها، وتقديره: (واللّه لَئِنْ مسّتهم نفحةٌ من عذابِ ربّك ليقولُنّ)، أي: غرضُ لامِ القسم تأكيدُ الجواب، وهو تأكيدُ وقوعِ إقرارهم باستحقاقهم العذابَ، ودعائهم على أنفسهم بالويلِ والهلاكِ واعترافهم بالظُّلم عند ملاقاتهم أدنى عذابٍ من عذابِ الآخرة، بما يدلُّ على تحقيقِ وقوعِ الجزاء عليهم وشدّتِه[3].

دلالةُ التَّعبير بالجملة الشّرطيّة:

دَلّتِ الجملةُ الشَّرطيّةُ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 450.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79.

سرعةُ إقرار المشركين باستحقاقهم العذابَ عند مَجيء دُفْعَةٍ يسيرةٍ من العذابِ

لَيَقُولُنَّ﴾ على اتّصالِ تعلّق حصولِ الجوابِ بحصولِ الشّرطِ وتلازمِهما، أي: تعلّقِ حصولِ قولهم وإقرارهم باستحقاقهم العذابَ، وتَعَجُّبِهِم مِنْ سُوءِ حالِهم بحصولِ مَسّ رائحةٍ يسيرةٍ من عذابٍ قليلٍ مَرّةً واحدة، وتلازمِ الأمرَينِ، بما يدلُّ على سرعة تأثّرِهم من مجيءِ دُفْعَةٍ يسيرةٍ من العذابِ.

نكتة التّعبير بـ (إنْ) الشَّرطيّة:

التّقليلُ المُتضمَّنُ في الآيةِ يفيدُ المبالغةَ في تهويل عذابِ الآخرة

عبّر البيانُ القرآنيُّ في الجملة الشَّرطيّة ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ بحرفِ الشَّرط (إنْ) وهي الّتي لا يكون التّعليقُ بها إلا في مُبهَمٍ مشكوكٍ فيه[1]؛ لمناسبةِ هذا التّشكيكِ لسياقِ الآيةِ المتضمِّنِ للتقليلِ؛ سواءٌ في لفظةِ المَسّ أو حقيقةِ النّفحةِ وبنائِها وتنكيرِها وغيرِ ذلك، ممّا يفيد المبالغةَ في تهويلِ عذاب الآخرة[2]، وللدّلالةِ على أنّ فعلَ الشّرط في الجملة ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾ لا يكون ماضيًا (لفظًا ومعنى)، وإنّما يكون ماضيًا (لفظًا فقط) والمعنى هو المستقبل، أي: إنّ هذا الفعلَ سيكون يومَ القيامةِ يومَ يَمَسُّهُمُ العذابُ، وأمّا إنْ كان المقصودُ من نفحةِ العذابِ ما أصابَ قريشًا من عذابِ الجوع - كما يرى بعض المفسّرين كمكّيٍّ بنِ أبي طالب وأبي حيّانَ[3] - ؛ فيكون استعمالُ (إنْ) للإشارةِ إلى عدمِ صِدْقِهم في إقرارهم بظلمهم.

إيثارُ لفظ المسّ في قوله ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾:

أقلُّ مسٍّ يكفي الكافرين ليُذْعِنوا

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿مَّسَّتْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾، وهو اللَّمسُ الخفيفُ أي أخفُّ اللّمسِ، وأَسْنَدَهُ إلى النَّفحة دون غيره من الألفاظ الدّالَّة على القوَّة فوق المسّ كالأخذِ والنُّزولِ واللّمسِ والإصابةِ وغيرِ ذلك[4]؛ مناسبةً للسّياقِ الذي استعملَ لفظَ

(1) ابن نور الدّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/ 309.

(2) النُّورْسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 45.

(3) مَكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 7/ 4762، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 435.

(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.

﴿نَفۡحَةٞ﴾ بجوهرها وبنائها وتنكيرها؛ لتحقيقِ المبالغةِ في تهويلِ العذابِ المستفادِ من التّقليل، وبيانِ سرعةِ تأثّرهم من مجيءِ دُفْعَةٍ يسيرةٍ من العذاب إثرَ بيانِ عدم تأثُّرهم من مجيء خبره، أي: وباللّه لَئِنْ أصابهم أدنى إصابةٍ أو أدنى شيءٍ من عذابه تعالى[1]؛ لَيُذْعِنُنَّ ويَتَطامَنُنَّ ويُعْلِنُنَّ ذُلَّهم وخضوعَهم، والإقرارَ على أنفسهم بأنّهم تصامّوا وأعرضوا، وقد رمقَ المتنبّي سماءَ هذه المبالغةِ فقال في وصف قوم جبناء:

وضاقتِ الأرضُ حتى كادَ هاربهم *** إذا رأى غيرَ شيءٍ ظنَّه رَجُلًا[2].

سرّ التّعبير بفعل المسّ ماضيًا:

تحقُّقُ وقوعِ إصابتهم بالعذاب يُنْبئُ بتحقُّقِ خَوفِهم وإقرارهم بظلمهم

مجيءُ الفعلِ بصيغةِ الماضي الّتي تدلّ على الوقوع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ﴾؛ للدّلالة على زيادةِ تأكيدِ تحقُّقِ وقوعِ إصابتهم بالعذاب، ومِنْ ثَمَّ تحقُّقِ الخوفِ منهم، والإقرار بظلمهم، والدّعاءِ على أنفسهم بالويل، وهذا يتضمّنُ تخويفًا لهم، هذا إنْ كانَ المقصودُ من العذابِ عذابَ الآخرة، وأمّا إنْ كان المقصودُ ما أصابَ قريشًا من عذابِ الجوع فتكون النَّفحةُ قد حَصَلَتْ لَمّا دعا النّبيّ ﷺ على كفّارِ قُرَيشٍ فقال: "اللّهمَّ اجْعَلْها عليهم سِنين كَسِنيّ يوسُفَ"[3]، فأخذَتْهُم سَنَةٌ أكلوا فيها العِظامَ والمَيْتَةَ مِنَ الجَهْد؛ حتى جعلَ أحدُهم يرى بينه وبين السَّماءِ كهيْئَةِ الدُّخانِ من الجوع، ويكون استعمالُ صيغة الماضي لكونِ هذا الحدثِ - أي مَسِّهم نفحةُ العذاب - قد وقَع؛ إذْ هو حكايةٌ عن أحداثٍ مضتْ.

سرّ التّعبير بـ ﴿نَفۡحَةٞ﴾ مادّةً وبناءً:

نفحةٌ واحدةٌ لا ثاني لها تكفي لتشتيتِ أمرهم وتَوْهين كيانِهم

عبّر البيانُ الإلهيّ بمفردةِ ﴿نَفۡحَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن

(1) البَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 53، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 79، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 322.

(3) صحيح البُخاريّ، كتاب: الدّعوات، باب الدّعاء على المشركين، الحديث رقم: (6393).

﴿مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ للمبالغةِ في الدّلالةِ على قلّةِ هذا العذابِ الّذي يجعلهم يسارعون في الإقرارِ والنّدمِ والدّعاء على أنفسهم بالهلاكِ يوم القيامة، بما يدلُّ على شدّته؛ لأنّ النّفح في معنى القلّة والنّزارة، فإنّ أصله هبوبُ رائحةِ الشَّيء، ويُقال نَفَحَتْه الدّابةُ: ضربَتْه بحدِّ حافرها، ونفَحَهُ بعطيّةٍ: أعطاه يسيرًا، وهي أهونُ شيءٍ فيه وأقلُّه، وهو بالنِّسبةِ للعذابِ أشبهُ بالرحمة، فكيف إذا وقعَ بهم العذابُ نفسُه لا نفحةٌ منه؟[1]، ولِأنّ بناء لفظ ﴿نَفۡحَةٞ﴾ على هيأةِ المَرّة، وهي لأقلِّ ما ينطلقُ عليه الاسم[2]؛ فمصدرُ المَرّة يأتي على فعْلَة، أي نفحةٌ واحدةٌ لا ثانيَ لها تكفي لتشتيتِ أمرهم وتوهينِ كيانهم وتصدّعِ صفوفهم، فكيف إذا عُزّزت بثانية أو ثالثة؟[3].

وهنا تنبيهٌ هامٌّ وهو أنّ التّاء الدّالّة على المرّة الواحدة في ﴿نَفۡحَةٞ﴾ لا تدخلُ على كلِّ مصدرٍ بل على المصادرِ الصّادرةِ عن الجوارحِ المُدْرِكَةِ بالحسّ نحو: قَوْمَةٌ وضَرْبةٌ وقَعْدَةٌ وأَكْلةٌ، وأمّا مصادر الأفعال الباطنة والخصالِ الجليلة الثّابتة نحو الصّبر والفهم والعلم فلا يُقال من ذلك علّمتُه عَلْمَةً، ولا فهّمتُه فهْمَةً، ولا صَبَّرْتُه صَبْرَةً[4]، وفي هذا مناسَبةٌ للسّياق الّذي يُعبِّر بالمسّ، بما يدلّ على أنَّ العذابَ عذابٌ ماديٌّ، وأنَّ إصابتَه إصابةٌ حقيقيّة[5]، لا رُوحيّةٌ فقط.

كما أنّ في التّعبيرِ بالنَّفحةِ تبكيتٌ للكافرين، يُقال: نَفَحَ الرّيحُ يَنْفُحُ نَفْحًا، وله نَفْحَةٌ طَيِّبة، أي: هُبوبٌ مِنَ الخيرِ، وقد يُسْتَعارُ ذلك للشرِّ، كما في هذه الآية[6].

فائدة تنكير ﴿نَفۡحَةٞ﴾:

نكّر البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿نَفۡحَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ إمّا لإفادةِ المبالغةِ في التّقليلِ والتّحقيرِ والتّصغير[7]؛ قال الزَّجّاج: "أي إنْ مسَّهُم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 906.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 36.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 322.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 322.
(5) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4873.
(6) الرّاغب، المفردات: (نفح).
(7) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 355.

أدنى شيءٍ من العذاب"[1]؛ لأنّ النفحَ في معنى القلّة والنّزارة[2]؛ إذ هي مجرّدُ رائحةِ عذابٍ، فهي الريحُ التي تحملُ آثارَ الأشياء دون حقيقتها[3]، وإذا كان العذابُ القليلُ وهو نفحةٌ من ريحٍ فيها عذاب، كالرّائحة مِنَ الشَّيءِ دون جسمه لمّا مَسَّهُم أوّلُها جعلهم يضطربون ويهلعون ويفزعون ويسارعون إلى الإقرار بظلمهم، وينادُون على أنفسهم بالويل، فكيف بالعذابِ الكبيرِ الذي يُهلكُهم بطَرْفةِ عينٍ فلا يدعُ لهم مجالًا للتّحسّرِ والدعاءِ بالويل، أي إنّ أثرَ العذابِ الكثير أكبرُ بِطَريقِ الأوْلى[4]، أو لإفادةِ الإبهامِ بالتّنكير ﴿نَفۡحَةٌ﴾ الذي يَتْبَعُه البيان ﴿مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ ليكونَ ذلك أوقعَ في النّفس، على الرَّغْم من أنّه لو قال: (نفحةُ عذابِ رَبِّكَ) لكان أخصرَ، لكنَّه أطنبَ لهذا المعنى[5].

نفحةٌ صغيرةٌ جدًّا من عذابِ الله كافيةٌ لأنْ تجعلَهم ينادُونَ بالويلِ والهلاك

معنى ﴿مِّنۡ﴾ في قوله ﴿مِّنۡ عَذَابِ﴾ وفائدته:

حرف الجرّ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٌ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ يحتمل معنيين:

مبالغةٌ في الدّلالةِ على شدّةِ العذابِ بالتّبعيض، وتأثيرٌ على النفوسِ بالبيانِ

أحدهما: إمّا التبعيض، والمعنى: مسّتهم نفحةٌ من بعضِ عذاب ربّك، وهذا التّبعيضُ يومئُ إلى التّقليلِ الدّالِّ على تهويلِ عذابِ اللّه سبحانه؛ إذْ إنّ نفحةً من بعضِ العذاب جعلتهم يندمون ويقرّون ويدعون على أنفسهم بالويل، فما الظنّ بالعذاب إذن؟!.

والثاني: وإمّا البيانُ بعد الإبهام الذي أفاده التّنكير؛ ليكون في النفسِ أوقعَ[6]، وفائدةُ التّعبير بالجار والمجرور هو تقييدُ النَّفحةِ بعذابِ اللّه

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 393.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 119.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9552.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 80.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.

في الآية الكريمة، تبكيتًا للكافرين وتهكّمًا بهم[1]؛ إذ "يغلبُ استعمالها في الخير"[2]، فأصلُ النفحةِ في الخير ثمّ استعير استعماله للشَّرِّ[3].

سرّ تعريف العذاب بالإضافة في قوله ﴿عَذَابِ رَبِّكَ﴾:

نفحةٌ من عذابِ الرّبّ الرّحيم تومئ بشدّةِ عذابِ الرّبّ القهّار

عرّف البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿عَذَابِ﴾ بالإضافةِ إلى لفظة ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ لإفادةِ معنى مقصودٍ من السياق كلِّه، وهو التّنبيهُ على وصفِ هذا العذاب بالقلّة والضآلة والحقارة؛ إذ لم يُضَفِ العذابُ إلى اسم دالٍّ على القهرِ والجبروت، بل أُضيفَ إلى أرَقِّ اسْم دالٍّ على الشَّفقة وهو (ربّ)؛ ليُبيّن مِنْ ثَمّ أنّ المذنبين يندمون ويتأسّفون على ما عملوا عند تعرّضِهم لنفحةٍ يسيرةٍ من عذاب الربّ الرّحيم[4]، ممّا يدلّ على عِظَم عذابِ اللّه وشِدّته وهَولِ شأنه، وفي ذلك تخويفٌ لهم، ودفعٌ لسماعِ الحقّ الّذي جاء في وحي القرآن والانقياد له.

ثمّ إنّ إضافة (العذاب) إلى (الرّبّ) مناسبٌ لمقام التّوجيه والتّأديب والتّخويفِ للكافرين ليعودوا عن كبرهم وتصامّهم عن سماعِ الوحي المنزَّل على المرسَل إليهم، وبخاصّةٍ أنّ السّورة مكّيّة، فالربُّ هو المربّي المؤدّب بنفحات منَ العذاب، وليس المَقامُ مَقامَ الحديث عن عذابِ انْتقامٍ ممَّنْ طُبع على قلبِه ولا أملَ في إيمانِه.

إيثارُ لفظِ الرّبوبيّة في قوله تعالى ﴿رَبِّكَ﴾:

عدمُ مراعاةِ الكافرين لمقامِ الرّبوبيّة إشارةٌ إلى عِلّيّةِ استحقاقهم شِدّة العذاب

آثرَ البيانُ القرآنيُّ ذِكْرَ لفظِ الرّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: (من عذاب اللّه)؛ لكونه أنسبَ لمقامِ شدّةِ ما يُلاقونه هنا؛ لأنّ فيه تنبيهًا على أنّهم لم يراعوا مقتضى الرّبوبيّة فوقعوا في هذه الشّدّة، كما أنّ في إيثاره إشارةً إلى شدّةِ استحقاقهم

---

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 217.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 906.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 201.
(4) مصطفى مُسْلِم، مباحث في إعجاز القرآن، ص: 136.

لهذا العذاب، وإلى تبكيتهم بوقوعه عليهم؛ لأنّ في الرّبوبيّة معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعارِ باللُّطفِ والإحسانِ والعطاء؛ فاللّهُ مُرَبٍّ لكلِّ مخلوقٍ بما عَمَّهُ بِهِ مِن أفضالِه، وناظرٌ في مصالحهم، ولا يُظلَم في ملكوته أحدٌ، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة:7 - 8]، ومع ذلك استحقّوا عذابه بما يدلّ على شدّةِ تصامّهم عن الحقّ وكفرهم به.

نكتةُ إضافةِ لفظِ (ربّ) إلى ضمير النّبيّ ﴿رَبِّكَ﴾:

في غمرة تهديدِ الكافرين تأتي البُشرى بالنَّصرِ للنّبيّ والمؤمنين

أضافَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (ربّ) في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ إلى كافِ الخطاب الّتي ترجع إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لأنّ الخطابَ في سياقِ الآيات موجّهٌ له ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾، وللتّنبيه إلى ما يريده اللّهُ بالنّبيّ ﷺ منَ التَّشريفِ والإكرام، وتحقيقِ الأمانِ له بالتّدبير له، أي: المالكُ والنّاظرُ والمدبّر لأمرك "المحسنُ إليك بنصركَ عليهم"(1)، وذلك في ظلّ الحديثِ عن إعراضِ الكافرين، وتعنّتهم على الرَّغم من إقامةِ الحججِ عليهم، والنّكتةُ هنا أنّه في غمرةِ التَّهديدِ والوعيدِ والتَّبكيتِ للكافرين المعرضينَ عن إنذارِ النّبيّ لهم بالقرآن وما تضمّنه من وعيدٍ لهم بالعذاب يكون التَّطمينُ والتَّسليةُ بالتَّأييدِ والنَّصرِ والتَّدبيرِ للنَّبيِّ ﷺ.

نكتةُ توكيدِ فعلِ القولِ باللّامِ وبِنُونِ التّوكيدِ الثّقيلة في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

شِـدّةُ عـذابِ النّفحة موجبةٌ سرعةَ التأثّرِ بالعذابِ وإنْ قلَّ

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ القسم المقدَّر في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ﴾ باللّام الواقعة في جوابه، وهو قولهم ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، وزادَ فعلَ القول (يَقولُنَّ) توكيدًا بدخول نون التّوكيد الثّقيلة؛ إذ إنّها بمنزلةِ القَسَم، وبمنزلةِ تكرارِ الفعل، وتُفيدُ كذلك مع التّوكيدِ الشُّمولَ والعمومَ عندما يكونُ الكلامُ لغيرِ الواحد، أي: إنّ هذا القولَ يصدرُ من الكافرين كلِّهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.

ونكتةُ هذَين المؤكِّدَين هي الدّلالة على سرعةِ تأثّر الكافرينَ بالعذابِ القليلِ ومناداتهم بالويل والهلاك على أنفسهم، وإقرارهم بظلمهم لمّا مسَّتْهم نفحةٌ من نفحاته، بما يدلّ على شدّةِ هذا العذاب.

سرّ التّعبير بفعل القول مضارعًا في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

تجدّدُ مناداتهم بالويلِ تصويرٌ لفزعهم وذهولهم عن كبرهم

أتى القرآنُ الكريم بفعلِ القول بصيغة المضارع التي تفيد التّجدّدَ والاستمرار والتّصويرَ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ للدّلالة على شدّة هذا العذاب؛ إذ إنّ نفحةً صغيرةً من بعضِ عذابِ الرّبّ الرّحيم سبحانه جعلتْهم يكرّرون مناداتهم بالويل والهلاك واعترافهم بظلمهم، فما ظنّك بحالهم عند نزولِ العذابِ الشّديد من المنتقم الجبّار ﷻ القائل: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾ [الفجر: 25 - 26]، وفيه كذلك تصويرٌ لفزعهم وخوفهم وذهولهم عن كبرهم، يقول البقاعي: "﴿لَيَقُولُنَّ﴾ - وقد أذهلَهم أمرُها عن نخوتهم، وشَغَلَهم قَدَرُها عن كبرهم وحَميَّتِهم - : ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ الّذي لا نرى الآن بحضرتنا غيرَه"[1].

فائدة النّداء بـ (يا) في قوله ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾:

بُعْدُ المشركين عن رحمةِ اللهِ، ويأسُهم منَ النّجاةِ من العذاب

عبّر البيانُ القرآنيُّ بأسلوبِ النّداءِ بأداةٍ تُستعمل في مناداةِ البعيدِ (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ إشارةً إلى بُعدِ المشركين عن رحمةِ اللّه والنّجاةِ من العذاب، فكأنَّهم نادَوا بالويْل لما عَرَضَ لههم من الأمرِ الفظيْع، والمعنى: يا ويلَنا الّذي لا نرى الآن بحضرتنا غيرَه ويا حُزْننا ويا هَلاكَنا ويا عَذابَنا احْضُرْ فهَذا وقتُك وأوانُك[2].

دلالةُ التّعبير بالمفعول المطلَق (ويلَنا):

تأكيدُ خوفِ المشركين وفزعهم وندمهم يومَ لا ينفعهم النّدم

الويل لفظٌ دالٌّ على الشَّرِّ أو الهلاك وما يَقْرُبُ منهما من سوءِ الحالة، ولم يُسمعْ له فِعْلٌ من لفظِه فلذلك قيل هو اسمُ مصدرٍ،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ويل).

وعومِلَ معاملةَ المصادر، يُنصَبُ على المفعوليّة المطلقة، ويُرفَعُ لإفادةِ الثَّباتِ[1].

ودلالةُ التّعبير بـ ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ - سواءٌ أكانت منادى مضافًا أم مصدرًا لفعل محذوف - تأكيدٌ لخوفهم وفزعهم ممّا هم مُقبلون عليه، وحسرتُهم وندمُهم يوم لا ينفعهم النّدم؛ لأنّ لفظةَ (ويل) كلمةُ عذابٍ[2]، وتُستعمل للدّلالة على التّحسّر[3]، وللدُّعاء بالهلاك والعذاب على مَنْ وقَعَ في هَلكةٍ يَسْتَحِقُّها[4]؛ لأنّ بناءها على المصدريَّة الّتي تفيد التّأكيد.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ "هذا القولَ صادرٌ عن مواجيدَ في النَّفس وفي الذِّهن قبلَ أنْ يُنْطَقَ بالكلمة"[5].

بلاغةُ التّوكيد بالوصف وبـ(إنّ) وبفعل الكون الماضي ﴿كُنَّا﴾:

تأكيدُ اعترافِ المشركين بظلمهم ترفُّقٌ منهم وتذلُّلٌ لعلّ الله أنْ يكفّ عنهم

أكَّد الكافرون اعترافهم بظلمهم كما بيّنَ النَّصُّ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بثلاثةِ مؤكّدات: وصفهم بالظُّلم ﴿ظَٰلِمِينَ﴾، وبـ (إنَّ) المؤكِّدة، وبفعل الكَونِ الماضي ﴿كُنَّا﴾ الدّالِّ على رسوخِ الظُّلم فيهم واستمراره[6]، وفي هذا التّأكيدِ لوقوعِ الظّلم منهم ترفُّقٌ منهم وتذلّلٌ لَعَلَّ اللّهَ يَكُفُّ عنهم[7].

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿ظَٰلِمِينَ﴾:

عِلّةُ إيجاب العذاب للمشركين ملازمتُهم للظّلمِ والتّصامّ عن سَماعِ الحقّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل المفيد للثُّبوت والدّوام واللُّزوم؛ للإيذان بملازمتهم للظُّلم ومداومَتِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 576، 13/ 183.
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (ويل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ويل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 346.
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (ويل).
(5) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9552.
(6) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4874.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.

عليه، فهُم عريقون في الظُّلم وفي إعراضهم وتصامّهم[1]، وفي هذا تنبيهٌ على العلّة الّتي أوجبتْ لهم العذابَ، وهي ظلمُ الكفر[2]، وأتى به مجموعًا ﴿ظَٰلِمِينَ﴾؛ لموافقة المفردات الّتي جاءت قبلها بصيغة الجمع ﴿مَّسَّتۡهُمۡ﴾، ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾، ﴿كُنَّا﴾، وكذلك للإشارة إلى اجتماعهم على الكفر، والتَّصامِّ عن الحقّ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسّ واللّمس والإصابة والإذاقة:

خـفّـة نفحة الـعـذاب تُـنـاسِبُ المسَّ بوصفِه اتِّصالًا بـإحـسـاس وإدراكٍ في أقلِّ درجةٍ

ذكر البيضاويُّ أنّ "المسّ اتِّصالُ الشَّيء بالبشرة بحيث تتأثّر الحاسَّةُ به، واللَّمس كالطَّلب له؛ ولذلك يقال: أَلْمَسُهُ فلا أجِدُه"[3]؛ لأنَّ "اللّمس منَ الالتِماس بمعنى طلبِ شيءٍ من المُساوي، ولّما كان الطّلب لا يستلزم وجودَ المطلوب صحّ أنْ يُقال أَلْمَسُه فلا أجدُه، أي: أطلبه فلا أجده بخلاف المسّ، فإنّه منَ المُحال أنْ يُقال: أمَسُّه فلا أجد المَمسوس[4]، والمسّ يُقال فيما ينال الإنْسانَ منَ الأذى، والنّفحة ممّا يُحِسُّه جِلْدُ الإنسان فناسبَ اللّفظ الدّالَّ على الاتّصال بالبشرة، والمَسُّ أدنى درجاتِ الإصابة؛ إذِ الإصابةُ تأثُّرُ اللَّحم والعظم معًا[5]، لأنَّ أصلَها يدلّ على نزولِ شيءٍ واستقرارِه قرارَه[6]، فالمسُّ أقلّ تَمَكُّنًا منَ الإصابةِ، وكأنّه من مقدّماتها، أو من أقلِّ درجاتِها، وأمّا الشّيءُ المُصيبُ لشيءٍ، فهو متمكّن منه أو فيه، والنَّفحة مِنْ أدنى درجاتِ العذاب فناسَبَ لفظَ المسّ دونَ الإصابةِ الّتي تعني شِدّة تأثُّرِ الجسم.

وقد فرّق العسكريُّ بين اللَّمس والمسّ، فذكر أنّ اللّمسَ يكون باليد

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 7/ 435.
(3) البَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 1/ 90.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 3/ 449.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 3/ 450.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).

خاصّةً؛ ليُعْرَفَ اللَّينُ من الخشونةِ، والحرارةُ من البرودةِ، والمسُّ يكون باليدِ وبالحَجَرِ وغير ذلك، ولا يقتضي أنْ يكون باليد، والمسُّ: إيصالُ الشّيءِ بالبَشَرةِ بحيثُ تتأثَّرُ الحاسّة[1].

ومن هنا فإنّ المسّ يُستعارُ للإصابةِ في إيصالِ الإدراك؛ إذ حقيقةُ المسّ: الالتِصاقُ الخفيف بين شيئَين على وجه الإحساس[2]، في حين أنّ الإذاقة تُستعار للإصابةِ بجامعِ الإحساسِ في إيصالِ الإدراك؛ إذ حقيقةُ الإذاقة: إحساسُ طرفِ اللسانِ بأحوال الطُّعوم، وتكون بأقلّ ما يوجد به الطَّعم، وتُستعمل في الإعطاءِ القليل، وتشيرُ إلى الإحساسِ بأدنى إصابة، كإصابةِ اللّسانِ بالذَّوقِ، فالإذاقةُ هي الإدراكُ والإحساسُ بأدنى إصابة[3].

العذاب والعقاب:

مـقـامُ بَـدْءِ الإنـذارِ يُناسِبُ نَفْحَةَ العذابِ بِـوَصْـفِـه أدنى صُـوَرِ التَّحذيرِ والتَّخْويفِ

العِقابُ يُنْبِئُ عنِ اسْتِحْقاقٍ، وسُمّيَ بذلك؛ لأنَّ الفاعِل يَسْتَحِقُّهُ عَقيبَ فِعْلِه، فيكون العقابُ جزاءً على فِعْلِ المُعاقَبِ، ويجوز أنْ يكون العَذابُ مُسْتَحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ، فالظّالمُ المُبتدي بالظُّلم يُعذَّبُ بدون اسْتحقاقٍ، وأصلُ العِقاب التّلْوُ، وهو تأديةُ الأوّل إلى الثّاني، يُقال: عَقَبَ الثّاني الأولَ إذا تلاه، وعِقابُ اللِّصّ بالقطعِ الَّذي يَتْلو سَرقته[4]، وأصلُ العذاب الإيجاعُ والنَّكالُ والمنعُ بأيِّ وسيلةٍ كانت.

إذنْ: العِقابُ هو عذابٌ يكون عَقِبَ الذَّنْبِ، ويكون لِمُستحقّه، في حين أنّ العذابَ قد يكون عقابًا وقد لا يكون، أي قد يكون باستحقاقٍ وقد لا يكون باستحقاق، واصطفاؤه يُناسِب الإنذار والتّخويف بنفحة العذاب لا إيقاعًا للعقوبة على كفرهم وجحودهم المُقتَضي للعذاب الأشدّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/ 77، والشّهاب، عناية القاضي: 3/ 59، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 2/ 396.

(3) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 23.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾

[الأنبياء:47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ التَّخويفِ من عذابِ يومِ القيامةِ يُخبرُ سبحانه عن عدلِه الّذي لا يفارقُ قدرتَه

لَمّا بيّن القرآن ما افْتُتِحَتِ السّورة به من اقترابِ السّاعةِ بالقدرةِ على الحسابِ واقتضاءِ الحكمة له، وأنّ كلَّ أحَدٍ مَيّتٌ ولا يستطيع شيئًا منَ الدَّفعِ عن نَفْسِه فضلاً عن غيره، وأنّ الآياتِ خُتِمَتْ بإقرارِ الظّالمِ بظلمه، وكان الجَورُ عادةَ كثيرٍ منَ النّاس عندَ القدرةِ، بَيّنَ أنّه سبحانه بخلافِ ذلك؛ فذكر بعضَ ما يفعل من العدل في ساعة الحسابِ في الآخرة، فقال عاطفًا على قولِه ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ﴾ [الأنبياء: 40] قولَه ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾[1].

بعد ذِكْرِ الحالِ في الدّنيا أعْقَبَهُ بذِكْرِ المآلِ في الآخرة

لَمّا ذَكَرَ حالهم في الدُّنيا إذا أُصيبوا بشيء - على رأيِ مَنْ فسّر نفحةَ العذاب الّتي مسّتهم بعذابِ الدُّنيا من الجوعِ الّذي بالكافرين بمكّة - عَقّبَ ذلك بما يكون في الآخرة الّتي هي مقرّ الثّواب والعقاب مِنْ وضْعِ الموازين، فأخبرَ تعالى عن عدله، وأسند ذلك إلى نفسه بنونِ العَظَمة فقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَضَعُ﴾: (وضع) أصلٌ يدلُّ على الخفضِ للشيءِ وحَطِّه، ووُضِعَ في تجارته: خَسِرَ[3]، ووَضَعَتِ المرأةُ: ولدَتْ، والتَّواضُعُ: التّذلّل، والمَوْضِعُ: المكان، والمَوْضِعُ أيضًا: مصدرُ قولِك وضَعْتُ الشّيءَ من

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 7/ 435، وابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 4/ 85.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).

يَدي وضْعًا[1]، ووضَعَ الشَّيءَ في المَكانِ: أثْبَتَه فيه، ووضَعَ الدَّيْنَ عنه وضْعًا: أسقطَهُ عنه، والوَضْعُ ضدّ الرَّفع[2]، والوضْعُ أعَمُّ من الحطّ، ويُعبَّر بالوضْع عن الإيجادِ والخلق[3]، ومعنى ﴿وَنَضَعُ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويّ، وهو حطُّ الشّيء ونَصْبُهُ في مكان، أي: ونُحضِرُ الموازينَ العادلة، ونقيمُها[4].

2) ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾: (وزن) أصْلٌ يَدُلُّ على تَعْديلٍ واسْتِقامَةٍ، والزِّنَةُ قَدْرُ وزْنِ الشَّيْءِ[5]، والوزْنُ: المثقالُ، والوزْنُ: التَّقْديرُ، والوزْنُ: ثَقْلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ مثلِه، والميزانُ معروف، وهو الآلَةُ الَّتي تُوزَنُ بِها الأشياء، وقيل: الميزانُ: العَدْل، والميزانُ: الكِتابُ الَّذي فيه أعمال الخَلْق، وجائِزٌ أنْ يُقالَ للميزانِ الواحِدِ بأوْزانِه مَوازينُ؛ ومِنْه قوْلُه تَعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ يُريدُ الميزانَ[6]، واختلف العلماء في المراد بالموازين هنا: فذهب الجمهور إلى أنّها حقيقيَّةٌ توزنُ بها صحائفُ الأعمال، وقيل: وضعُ الموازين تمثيلٌ لإرْصادِ الحسابِ السَّويِّ والجزاءِ على حسبِ الأعمال بالعدل والنَّصَفَة، من غير أنْ يُظلَمَ مثقالَ ذَرَّةٍ[7].

3) ﴿ٱلْقِسْطَ﴾: (قسط) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على معنيين مُتَضادّين والبناءُ واحدٌ، يُقال: أقْسَطَ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ إذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسِطٌ إذا جارَ، فالقِسْطُ بالكسر: العَدْلُ، والمُقْسِطُ: في أسماء اللّه تعالى هو العادل[8]، والإقْساطُ: العدلُ في القسمة والحكم، والقِسْطُ: الحِصّة والنَّصيب، وتقَسَّطوا بينهم الشّيء: اقتسموه بالتّسويةِ والعَدْل[9]، والقِسْطُ أيضًا: الميزانُ، سُمّي به؛ لأنّه يعدلُ هذا الجانبُ منه بهذا، ومن ذلك جاء الإقساطُ: العدلُ في القسمة، كأنّما هو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[10]، ومعنى ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ في الآية: العدل[11].

---

(1) الجوهريّ، الصِّحاح: (وضع).
(2) الزَّبيدِيّ، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(3) الرّاغب، المفردات: (وضع).
(4) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 217، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 81، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 198.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزن).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (وزن).
(7) القاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 198، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 82.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قسط).
(9) الخليل، العين، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (قسط).
(10) الجوهريّ، الصِّحاح، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قسط).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 451، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 198.

4) ﴿مِثْقَالَ﴾ (ثقل) أَصْلٌ واحِدٌ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ كَلِماتٌ مُتَقارِبَةٌ، وهو ضِدُّ الخِفَّةِ[1]، والأَثْقالُ: الأحمالُ الثَّقيلة، ومِثْقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ مِنْ مِثْلِه، وقولُه تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40] أي: زِنةِ ذرّة[2]، والمِثْقالُ: ما يوزن به، وأصلُه في الأجسام ثم يُقال في المعاني[3]، وكُلُّ شَيْءٍ لَهُ قَدْرٌ ووزنٌ يُنافَسُ فيه فهو ثِقْلٌ[4]، ومعنى ﴿مِثْقَالَ﴾ في الآية: ميزانه من مثله ومقداره[5]، أي وزْنُ حَبّةٍ من خَرْدَلٍ[6].

﴿حَبَّةٍ﴾: الحَبُّ: مَعْروفٌ مِنَ الحِنْطَةِ والشَّعير، والواحد حَبّة[7]، والحبّةُ من الشّيء: القطعةُ منه، والحَبُّ: الزَّرْعُ صَغيرًا كانَ أم كَبيرًا[8]، والحَبَّةُ: حَبَّةُ الطَّعام: حَبَّةٌ من بُرٍّ أو شعير أو عَدَس أو رُزٍّ، وكلُّ ما يَأْكُلُهُ النّاس، والحِبَّةُ بكسر الحاء بُزورُ البُقولِ والرَّياحين، واحِدُها حَبّ[9]، ومعنى ﴿حَبَّةٍ﴾ في الآية موافق للمعنى اللّغويّ: أي الواحدةُ والقطعة من الخردل.

5) ﴿خَرْدَلٍ﴾: يُقال خَرْدَلَ الطَّعامَ خَرْدَلَةً: أَكَل خيارَهُ وأطايبَه، وخَرْدَلَ اللَّحْمَ: إذا قَطَع أعضاءَه وافِرَةً، أو قَطَعَهُ صِغارًا وفَرَّقَهُ[10]، والخَرْدَلُ معروفٌ، واحدتُه خَرْدَلَةٌ، ويُضْرَبُ بها المثلُ في القلّة والتّلاشي[11]، وهو نباتٌ عُشبيٌّ، يَنْبَتُ في الحقول وعلى حواشي الطُّرق، بذوره لاذعةٌ تُستعمل في الطبِّ، ويُتَبَّل بها الطعام، وبِحَبِّه يُضرَب المثلُ في الصِّغَر[12]، والمعنى في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ.

6) ﴿حَٰسِبِينَ﴾: الحَسْبُ: العَدُّ والإِحْصاءُ، وحَسَبْتُهُ أَحْسَبُهُ إذا عَدَدْتَه، والمعدودُ محسوبٌ، والحَسيبُ في أسماءِ اللّه تعالى: هو الكافي[13]، والحسابُ: استعمالُ العَدَدِ

(1) ابن فارس مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (ثقل)، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (ثقل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ثقل).
(4) الكَفَوِيّ، الكلّيّات، ص: 323.
(5) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 86.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 452.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حب).
(8) الجوهريّ، الصِّحاح، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (حبب).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيّده، المحكم: (حب).
(10) الزَّبيدِيّ، تاج العروس: (خردل).
(11) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 497.
(12) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خردل).
(13) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).

والتَّقديرُ، والحسيبُ بمعنى المُحاسب: وهو مَنْ يحاسِبُك، ثم يُعبَّرُ به عن المُكافِئ بالحساب، و(حَسْبُ) يُستعمل في معنى الكفاية[1]، ومعنى ﴿حَٰسِبِينَ﴾ في الآية: عادّين مُحْصِينَ[2]، وقيل: كفى بنا عالِمينَ حافظين؛ لأنّ مَنْ حَسَبَ شيئًا عَلِمَهُ وحَفِظَه[3]، وقيل: مُجازين على ما قدَّموهُ من خيرٍ أو شرٍّ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانٌ لحسابٍ عادلٍ توزنُ فيه الأعمالُ في يومٍ لا تُظلمُ فيه نفسٌ

يَتَحَدَّثُ البيانُ القرآنيُّ عن ربِّ العزَّةِ ﷻ بأنَّه: يُقيمُ الموازينَ العادِلةَ يومَ القيامةِ؛ لِوزنِ أعمالِ العِبادِ عند حسابِهم، فلا يَظلِمُ اللّهُ نفْسًا يومَ القيامةِ بالنَّقصِ من حسناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغيرِ ذَنْبِها، أو بالزّيادةِ في سيِّئاتِها، وإنْ كان الَّذي للعبدِ مِنْ عملِ الحسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وزنَ حَبَّةٍ مِن خَردلٍ، جِئنا بها لِتوزنَ في الميزانِ وكفَى بنا عالِمينَ بأعمالِ العِبادِ، حافِظينَ لها، مُثبِتينَ لها في الكتابِ، عالِمينَ بمقاديرِها ومقاديرِ ثوابِها وعِقابِها واستِحقاقِها، موصِلينَ للعامِلينَ جزاءَها، ولن نظلمَهم شيئًا؛ فليس في الحسابِ أحدٌ مِثلُنا[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في المَطْلَعِ:

جــزاء الـكـفـر والتّكذيب واقعٌ مـحـقَّـقٌ يـومَ الحساب

يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قوله ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ عاطفةً عطفَتْ هذه الجملةَ على جُملة: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ﴾؛ لِمُناسبةِ قولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، ولبَيانِ أنَّهم مُجازَونَ على جَميعِ ما أسْلَفوهُ من الكُفْرِ وتَكذيبِ الرَّسولِ، بَيانًا

(1) الرّاغب، المفردات: (حسب)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 402.
(2) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 294، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 35.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 96.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 485.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 524.

بطريقِ ذِكْرِ العُمومِ بعدَ الخُصوصِ في المُجازَيْنَ، فشابَهَ التَّذييلَ؛ من أجلِ عُمومِ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾، وفي المُجازَى عليه؛ من أجلِ قولِه: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ مِن ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله ﴿مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، وأنْ تكونَ نونُ التَّعظيمِ للمتكلِّمِ العظيمِ سبحانَه التِفاتًا لمُناسبةِ الجزاءِ للأعمالِ؛ ولذلك فرَّعَ عليه قولَه تعالى: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾[1]، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ معترضةً، وأنْ تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَنَضَعُ﴾ وإيثارُ صيغةِ التَّعْظيم:

وَضْعُ موازينِ العظيم تنبيهٌ للغافلين ونَفْيٌ لوقوعِ أدنى ظُلمٍ

في التّعبير بوَضْعِ الموازين في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ - سواءٌ أُريد به معناه الحقيقيُّ أم المَجازيُّ - تنبيهٌ للغافلين، أي: فليبادرِ الغافلون المعرِضون والمستهزئون المكذِّبون؛ لأنَّ موازينَ الحسابِ تُوضَعُ لِتُنْصَبَ وليُرْصَدَ الحسابُ، وما هذه الموازين إلا واحدةٌ من نواميسِ الكونِ القائم على القسطِ والعدل، تشهدُ بالوحدانيّة التي هي محورُ السّورة"[3]؛ تطمينًا لهم وتعريضًا بالكافرين[4].

وَضْعُ الميزان والحكمُ على الخلائق بالعدل يسيرٌ عند العظيم الخالق

وأبرزَ البيانُ القرآنّي فعْلَ ﴿وَنَضَعُ﴾ في مظهرِ العَظَمة باستعماله صيغةَ التّعظيم؛ إشارةً إلى سهولته عنده ﷻ، وإنْ كان هذا مُتَعذِّرًا عندنا؛ لكثرةِ الخلائق وأعمالِ كلٍّ منهم[5]، وإشارةً إلى أنّ عَظَمَتَهُ في إحاطةِ علمِه وقدرته تأبى وقوعَ أدنى ظُلم منْ أيِّ أحدٍ؛ لأنّ العادةَ جَرَتْ بأنَّ المَلِكَ قد يكونُ عادلًا، ولكنْ قد يقعُ الظُّلم من بعض أتْباعِه فقال بعدها ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾[6]، وفي استعمالِ صيغةِ التّعظيم كذلك دلالةٌ على وجوبِ تعظيمِنا اللّهَ وحدَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 80.
(3) البَغَويّ، معالم التّنزيل في تفسير القرآن: 7/ 111.
(4) محمد نديم فاضل، التضمين النحوي في القرآن الكريم: 2/ 291.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.

لَفْظا (الوَضْعِ)، و(الميزانِ) بينَ بلاغةِ المَجازِ والحقيقة:

الفِعْل ﴿وَنَضَعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ إمّا أنّه مستعمَلٌ في معناهُ الحقيقيِّ وهو النَّصْبُ للموازين، وذلك إذا كان المرادُ بالموازين الحقيقةَ لا المجازَ، أي: إنّها موازينُ جعلَها اللّهُ لوَزْنِ أعمالِ العباد، لا تُشْبِهُ موازينَ الدُّنيا، ولكنَّها على مِثاله تقريبًا سواءٌ أكانتْ ميزانًا واحدًا للكلّ، أم ميزانًا واحدًا لكلِّ عَبْدٍ[1]، وإمّا أنّه مستعمَلٌ في معناهُ المجازيّ، وهو "إرصادُ الحسابِ السّويّ، والجزاءُ على حسبِ الأعمال بالعدل والنَّصَفَةِ مِنْ غيرِ أنْ يُظلَمَ أحدٌ مثقالَ ذرَّةٍ"[2]، فإذا كان المرادُ بالموازين المجازَ، أي: مَثَلٌ للعدْلِ في الجزاء، فهو مُستعارٌ للعدلِ في الجَزاءِ لِمشابهته الميزانَ في ضبطِ العدلِ في المعاملةِ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:25]، والوضْعُ: ترشيحٌ ومُستعارٌ للظُّهورِ[3]، وسواءٌ أُريد المعنى الحقيقيُّ أم المجازيُّ لِلَفْظَي ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ فالغرضُ هو بيانُ دِقّة عدلِ اللّه سبحانه وعظمةِ هذا العدل في يومٍ لا تُظلمُ فيه نفسٌ شيئًا.

في نَصْبِ الموازين أو إظهارِ العدلِ الإلهيِّ بيانُ دِقّةِ حِسابِ اللهِ وعظيمِ عَدْلِه

وَجْهُ جمعِ ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن لفظ الموازين بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾؛ إمّا للدلالةِ على أنّ اللّهَ جعلَ لكلِّ أحدٍ من العبادِ ميزانًا خاصًّا به توزنُ به أعمالُهُ[4]، أو للعبدِ الواحدِ موازينُ يوزَنُ بكلِّ واحدٍ منها صِنفٌ من أعمالِه، وهو ظاهرُ القرآنِ الكريم، لقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف:8]، وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف:9]، وظاهرُ القرآنِ لا يجوز العدولُ عنه إلّا بدليلٍ يجبُ الرُّجوعُ إليه[5].

دِقّةُ حِسابِ الله تعالى، وفخامةُ عدلِه، وعظمةُ قِسْطِه سبحانَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 82.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 30.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 30.
(5) الشَّنْقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 159، فصول في أصول التّفسير، ص: 146.

ويمكن أن يكون المرادُ أنَّه ميزانٌ واحدٌ، وإنّما أُطْلِق عليه اسمُ الجمعِ تفخيمًا وتعظيمًا له[1]، فالعَرَبُ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحدِ تفخيمًا له، أو أنَّه إنَّما جُمِعَ باعتبارِ ما يوزَنُ فيها؛ ليوافقَ الآثارَ الواردةَ في أنَّه ميزانٌ عامٌّ، أي: باعتبارِ تعدُّدِ الأعمالِ الموزونةِ فيه وكثرتِها، وكثرةِ الأشخاصِ العاملينَ الموزونةِ أعمالُهم[2]، فلكلِّ أحدٍ وزنٌ يَخُصُّهُ[3]، أو أنّ الموازينَ جمعُ موزونٍ، والموزونُ هو الحسناتُ والسيئاتُ، وجمعُ (الموزونِ) على (موازينَ) جمعٌ قياسيٌّ مُطَّرِدٌ[4]، والمعاني السابقة لجمع الموازين تشير كلُّها إلى أمرٍ مشتَرَكٍ، وهو دِقّةُ حِسابِ اللّه تعالى، وفخامةُ عدلِه، وعظمةُ قِسْطِه سبحانَه.

سِرُّ توحيدِ ﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ والوصفِ به:

وَصْفُ الموازينِ بالقِسطِ كأنَّها العدلُ ذاتُه

جاء وصْفُ الموازينِ بلفظ ﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ موحَّدًا؛ إمّا لأنّه مصدرٌ وُصِفَ به، ويقعُ على القليلِ والكثير"[5]، وهو بمنزلة قولك للقوم: أنتُم رِضًى وعَدْلٌ[6]، وذلك للمبالغةِ في اتّصافها بالعدل، كأنَّها في أنفُسِها قِسْطٌ[7]، أو على حذفِ المضافِ، أي: ذواتِ القِسْطِ[8]، ويجوزُ أنْ يكونَ مفعولًا لأجْلِه، أي: لأجْلِ القِسطِ، أو لأنّه لَمّا كانت الموازين آلةَ العدلِ، وصَفَها به مبالغةً[9]؛ لأنَّ الميزانَ قد يكونُ مستقيمًا وقد يكونُ بخلافِه، فبيَّنَ أنَّ تلك المَوازينَ تجري على حدِّ العدلِ والقِسْطِ، وأكَّدَ ذلك بقوله:

(1) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1202.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 345، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 82.
(3) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 4/ 85.
(4) الشِّربينيّ، السِّراج المنير: 1/ 464.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.
(6) الفَرّاء، معاني القرآن: 2/ 205.
(7) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 120، والبَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 53، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9554.
(8) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 394.
(9) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 428.

﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾[1]، فهو إخبارٌ عن العدلِ بأنّه سبحانه يعدلُ بينهم يومئذٍ[2].

دلالة اللّام في ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

لأجلِ العدلِ تُوضعُ الموازينُ يومَ القيامة

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تحتمِلُ أنْ تكونَ للعلّةِ مع تقديرِ مضافٍ، أي: لأجلِ يوم القيامةِ، أي: الجزاء في يوم القيامةِ؛ وتحتمِلُ أنْ تكونَ للتّوقيتِ بمعنى (عِنْدَ) الّتي هي للظّرفيَّةِ الملاصقةِ كما يُقالُ: كُتِبَ لِثَلاثٍ خَلَوْنَ من شهْرِ كذا، وكقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:1] أيْ: نَضَعُ الموازينَ عندَ يومِ القيامة[3]، أو بمعنى (في) فلا يحتاج إلى تقديرِ محذوف[4]، أي نضعُ الموازين في يوم القيامةِ الّتي كانوا يستعجلونها[5]، ويرى أبو زَهرة أنّه الأوضحُ والأبينُ[6]، وقد استعملَ اللّام عِوَضًا عنها لبيانِ العلّة؛ لأنّ الجزاءَ عِلّةٌ في وضعِ المقاديرِ، أي لبيانِ العدْلِ الذي من أجله كانت القيامة[7]، وليشمل كذلك - مع ما يوضَعُ فيه - ما وُضِعَ الآنَ لِأَجلِ الدُّنْيَوِيَّةِ فيه[8]، أو لِلاخْتِصاصِ[9]، أي وضْعُ الموازينِ مختصٌّ بيومِ القيامة.

إيثارُ لفظِ (يوم القيامة) دونَ غيرِه:

التّعبير بيومِ القيامةِ أنْسَبُ لقيامِ النّاسِ ولإقامةِ العدل في ذلك اليوم

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بلفظ (يوم القيامة) في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ولم يُعبِّر مثلاً بلفظِ (الساعة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 148.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السنة: 4/ 363.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 84.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 531.
(5) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 120، والزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 341، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(6) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4875.
(7) محمّد عبد المنعم القِيعيّ، الأصلان في علوم القرآن، ص: 282.
(8) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.
(9) السّامُرّائيّ، معاني النَّحْو: 3/ 68.

أو الآخرة)؛ لكونِ لَفْظِ (يوم القيامة) - الّذي هو مأخوذٌ مِنْ قيام النّاس لربّ العالمين أَنْسَبَ لمقام إقامةِ العدل في ذلك اليوم العظيم ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 5 - 6]، وأَنْسَبَ للسّياق الّذي ورد فيه لفظُ ﴿وَنَضَعُ﴾ والّذي معناه في الآية: (النَّصْبُ والإِرْصادُ للموازين، أي: ونُحْضِر ونُقيمُ الموازينَ العادلة[1]، وبخاصّةٍ أنّه قد ورد في السّياق كذلك ذِكرُ يوم القيامة بلفظٍ آخرَ ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ بما يحقّقُ تفنُّنًا في الكلام.

دلالةُ حذفِ المضافِ في قوله ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

الحذفُ أبلغُ اختصارًا وموافقةً للسّياق، ولأنّ ما يُلْحَظ لا يُلْفَظ

حذفَ البيانُ الإلهيُّ المضافَ في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ إذِ التّقدير: (ونضعُ الموازينَ القِسْطَ لحساب يومِ القيامةِ، أو لحكم يوم القيامَة، أَوْ لأجلِ أَهْلِه)[2]؛ فكان الحذفُ اختصارًا؛ للعلم به، فالعربُ لحدَّةِ ذِهنِها لا تَلْفِظُ ما يُلْحَظ؛ فلفظُ الموازين يدلُّ بشيءٍ مِنَ الملاحظةِ على الحسابِ والحُكْم؛ إذ هي في اللغةِ الآلةُ التي توزَنُ وتُحسبُ بِها الأشياءُ، ولأنّ من أسماءِ يوم القيامة: يومَ الحساب، ويومَ الفصل، ويومَ الجزاء.

معنى الفاء في قوله ﴿فَلَا تُظۡلَمُ﴾:

إيفاءُ الجزاءِ وِفاقَ العملِ نَفْيٌ للظُّلم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ للتّفريع، فقد فُرِّعَ على وضْعِ الموازينِ تَفريعَ العِلَّةِ على المعلولِ، أو المعلولِ على العِلَّة، والظُّلمُ: ضِدُّ العدْلِ، ولذلك فُرِّعَ نَفيُه على إثباتِ وضعِ العدْل[3]، وكذلك للتّرتيب، أي لِترتيبِ انْتفاءِ الظُّلم على وضْعِ المَوازين[4]، وللسّببيّة؛ أي تسبَّبَ عن وضْعِ الموازينِ أنَّهُ لا تُظلَم نفسٌ شيئًا مِنْ عَملِها[5].

(1) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 217، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 81، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 198.

(2) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 4/ 85.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 84.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم:

(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 532.

بلاغةُ النَّفيِ بـ (لا) دونَ (ما) وفائدتُه في قوله ﴿فَلَا تُظۡلَمُ﴾:

المرادُ نَفيُ عُمومِ وقوعِ الظّلمِ يومَ القيامةِ لا نَفْيُ عمومِ وقوعِه في الحال

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفي بحرفِ (لا) في قوله: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ دون (ما) فلم يقلْ: (فما تُظلمُ نفسٌ شيئًا)؛ لأنّ من معاني (لا) أنّها تُخَلِّصُ المضارعَ للمستقبل بخلاف (ما) فإنّها تُخَلِّصُ المضارع للحال، وليس المقصودُ في الآية نَفْيَ عمومِ وقوعِ الظُّلم في الحال، وإنّما المقصود نفيُه يومَ القيامة.

سِرُّ بِناءِ الفِعلِ ﴿تُظۡلَمُ﴾ للمفعول:

عَظَمَتُهُ سبحانه في إحاطَةِ عِلْمِهِ وقُدرتِه تأبى وقوعَ الظلمِ يومَ الحساب

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ المبني للمفعولِ ﴿تُظۡلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾؛ لتركيزِ الانتباه على الحدثِ ذاته، وهو عدمُ الظُّلم، وحصرُ الوعي فيه، فلا يتوزّع في غيره، ولإفادة العموم[1]، وخاصّة أنّ الفعلَ جاء في سياقِ النّفْي، إذ لو أتى بالمبني للمعلوم لَقَيَّدَه بفاعلٍ واحدٍ فقط، أي: لَنَفَى وقوعَ الظُّلم من الفاعل المذكور فقط، فلو قال: (فلا يَظْلِمُ ربُّك نفسًا شيئًا)، لاقْتَصرَ نفيُ وقوعِ الظُّلم من الله فقط، ولكن لَمّا بُنِيَ الفعلُ للمفعول أفادَ نَفْيَ وقوعِ الظّلم في يوم الحسابِ والحقّ والعدلِ من الله وملائكتِه ومن المخلوقات لبعضها، وبخاصّةٍ أنّه جَرَتِ العادةُ بأنّ المَلِكَ قد يكونُ عادلًا، ولكنْ قد يقعُ الظلمُ من بعض أتباعه، فبيَّنَ سبحانَه أنّ عظَمَتَهُ في إحاطةِ عِلْمه وقُدْرَتِه تأْبى وقوعَ الظّلم من أيِّ أحد[2]، وإفادتُه للعموم جاءتْ متناسبةً مع سياقِ الآية التي توحي كلُّها بالعموم والشُّمول؛ عموم النَّفْي للظُّلم، أو عموم الظُّلْم المَنْفيِّ لكلِّ نفسٍ، في شيء ما من الأشياء، وجاء التّعبير بالجمع ﴿ٱلۡمَوَٰزِينَ﴾ وبالمصدر ﴿ٱلۡقِسۡطَ﴾ للدلالة على تناهي العدْلِ المُطْلَق.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.

إيثارُ لفظُ النَّفْس مفردًا منكّرًا:

الظُّلمُ مَنْفيٌّ يومَ القيامة عنْ كلّ نفسٍ منَ النّفوس

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ بلفظ ﴿نَفۡسٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ مفردًا؛ لأنّ استغراقَ المفردِ أشملُ[1]، وهذا يتناسبُ مع السّياق المتضمّنِ المبالغةَ في نَفْي عموم الظّلم النَّفْيَّ الشّاملَ لكلّ نفسٍ منَ النّفوس، لكونِ لفظِ ﴿نَفۡسٞ﴾ وقعَ نكرةً في سياقِ النَّفي، والمعنى: قد نُفيَ الظُّلمُ عن كلّ نفسٍ[2]، ووُفّي كلُّ ذي حقّ حقَّه إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرّ[3].

فائدة التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطْلَقِ:

تأكيدُ نَفْي أيِّ شيءٍ من الظُّلم دليلٌ على عِظَمِ هذه الموازين ودقّتها

﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ منصوبٌ على المفعوليّة المطلقة لـ ﴿تُظۡلَمُ﴾ بالمعنى، أيْ: لا تُظْلَمُ ظلمًا ما[4]، أو لا تُظْلَمُ شيئًا منَ الظُّلْم، ووقوعُه - أي المفعول المطلق - في سياقِ النَّفي دلَّ على تأكيدِ العموم من فِعْلِ ﴿تُظۡلَمُ﴾ الواقعِ أيضًا في سياقِ النَّفي، أيْ لا تُظْلَمُ بِنَقصٍ من خَيْرٍ استحقَّتْهُ ولا بزيادةِ شيءٍ لم تستحقَّه[5].

كما أنّ التّعبير بلفظ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ دون ظلمًا؛ للدّلالة على القِلّة[6]، التي تتناسبُ مع المبالغةِ في نَفْي عموم الظُّلم، وهذا يشيرُ إلى عِظَم هذه الموازين ودقّتها، وأنّها تزنُ الجليلَ والحقيرَ والكبير والصغير من الأقوال والأعمال.

دلالة الواو في قوله ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ﴾:

التّأكيدُ على نَفْي عمومِ الظُّلم

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ﴾ أنْ تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه جملة ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾[7]، والتّقدير: (أيْ وإنْ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 532.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 532.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 532.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 321.

كانَ العَمَلُ أو الظُّلْمُ مقْدارَ حَبَّةٍ فلا تُظلمُ نفسٌ شيئًا)، وهذا على قراءةِ الجماعةِ بالنَّصْب ﴿مِثْقَالَ﴾[1]، أو أنْ تكونَ استئنافيّةً، وهذا على قراءةِ نافعٍ بالرفع ﴿مِثْقَالُ﴾[2]، أو حاليّةً، وجُملةُ ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ في مَوْضِعِ الحال[3]، والمعنى: فلا تُظلم نفسٌ شيئًا وإن كان حالُ هذا العملِ أو الظُّلم مثقالَ حبّةٍ من خردلٍ، أو للتّأكيد، والمعنى: فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئًا إنْ كان مثقالَ حبّةٍ من خردل[4].

والواو هنا على اختلافِ معانيها عاطفةً كانت أو استئنافيةً أو حاليّةً أو للتّأكيد تؤكّد نَفْيَ عموم الظُّلم في الآية الكريمة.

فائدة (إنْ) في قوله ﴿وَإِن كَانَ﴾:

تأكيدُ نَفْيِ عمومِ الظُّلمِ يومَ القيامةِ مهما كانَ العملُ أو الظُّلم قليلًا

يجوز أنْ تكونَ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ وصْليَّةً، أيْ: أنَّها لمجرَّد الوصلِ والرَّبطِ في مقامِ التَّأكيدِ، وليس المقصود منها الشَّرط، أي: أنّها دالّةٌ على أنَّ مضمونَ ما بعدها من شأْنه أنْ يُتوهَّمَ تخلُّفُ الحُكْمِ عنهُ، فإذا نصَّ على شمولِ الحُكْمِ إيّاهُ عُلِمَ أنَّ شُمولَهُ لِما عداهُ بطريقِ الأَوْلى[5]، وبيان ذلك: أن قولَهُ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ جوابُ سُؤالٍ مُتعجِّبٍ من الحُكْم، وهو قولُهُ: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ﴾ فكَأنَّهُ قالَ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ فأُجيبَ بتقريرِ ذلك، ويجوز أنْ تكون (إنْ) شرطيّة؛ ومفادها مجرّد التأكيد[6].

دلالة صيغة مِفْعال وإيثارُ لَفْظِ المِثْقال:

عِلْمُ الله محيطٌ بكلّ شيءٍ لا يغيبُ عنه أدقُّ الأعمالِ ولا أصغرها

استعملَ البيانُ القرآنيّ لفظ ﴿مِثْقَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ ومعناه في اللغة: ميزانُ الشيءِ من مثله[7].

(1) البَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 53.
(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 18/ 105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85، 3/ 307.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 85.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 307.
(7) الجوهريّ، الصِّحاح، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (ثقل)، والقُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 86.

أي وزنُ حبّةٍ من خردلٍ[1]، وصيغةُ مثقال على وزن مِفْعال، لكونه اسم للآلة التي يُعرفُ به مقدارُ ثقلِ الشيء.

وفي الإتيانِ بالمثقالِ لوزنِ حبّةٍ واحدةٍ من الخردلِ - الّذي يضرب بها المثل في الصغرِ والقلّةِ والتّلاشي - [2] مبالغةٌ أيّما مبالغة، ليدلّ على عِظم إحاطةِ علم اللّه سبحانه بكلّ شيء، إذ لا يغيبُ عنه أدقُّ الأعمال وأصغرها وأحقرها، وإنّ ما هو أعظمُ من حبّةِ الخردلِ يكونُ أولى بالحكم، ولا يضيعُ عنده سبحانه أجرُ أيِّ عملٍ وإنْ تناهى في الصغر، أوْ لم يُرَ، كالنّيّة الخفيّة مثلاً.

توجيه القراءة في قوله ﴿مِثۡقَالَ﴾:

معنى القراءتيْنِ مُتّحدُ المآل وهو أنّه لا ظُلمَ يومئذٍ

قرَأ جمهورُ القرّاء: ﴿مِثۡقَالَ﴾ بالنَصبِ على أنّهُ خَبَرُ ﴿كَانَ﴾، أمّا اسْمُها فضميرٌ عائدٌ إلى ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دلَّتْ عليه الجملةُ السّابقةُ، وتكون جملةُ ﴿أَتَيۡنَا بِهَاۗ﴾ مستأنفةً، والمعنى: وإنْ كانَ العَمَلُ أو الظُّلمُ مقدارَ حبّةٍ فلا تُظلم نفسٌ شيئًا.

وقرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿مِثۡقَالُ﴾ مرفوعًا على أنَّ ﴿كَانَ﴾ تامّةٌ، و﴿مِثۡقَالُ﴾ فاعلٌ، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ﴾ [البقرة:280][3]. وجملةُ ﴿أَتَيۡنَا بِهَاۗ﴾ جوابٌ للشَّرطِ، والمعنى: وإنْ حصلَ للعبدِ مثقالُ حبّةٍ من خردَلٍ أتينا بها[4].

وهذا التّوجيه عند مَنْ عَدّها شرطيّة، ومعنى القراءتيْن مُتَّحِدُ المَآلِ، وهو: أنَّه إنْ كانَ لِنَفْسٍ مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من خَيْرٍ أو من شَرٍّ يُؤْتَ بها في ميزانِ أعمالِها وتُجازَ عليها[5]. فمن بلاغة القراءات هنا أن الحذف والإضمار في قراءة الجمهور أوضحته

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 452.

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 497، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خردل).

(3) ابن الجزري، النشر: 2/324.

(4) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 394.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 86.

القراءة الأخرى. فالحجة لمن نصب أنه أضمر في ﴿كَانَ﴾ اسمًا، تقديره: (وإن كان الشيءُ مثقالَ حبّة من خردل من عمل أو ظلم أتينا بموزونها). وهذا الشيء هو المذكور قريبا قبلُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾. والقراءة الأخرى أوقعت الفعل مباشرة عليه بجعله فاعلا: (وإن وقع مثقالُ حبةٍ من خردل من عمل أو ظلم أتينا بموزونها).

وَجْهُ تنكير ﴿حَبَّةٍ﴾:

المبالغةُ في الصّغرِ والدّقةِ كنايةٌ عن إحاطةِ العلمِ ودقّة الحساب

نَكَّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿حَبَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾؛ للمبالغةِ في إفادةِ معنى التّقليل؛ لأنّ الخردلَ حبٌّ في غايةِ الصّغرِ والدّقّة، أي: إنّ مادّته تدلُّ على القلّة، فإذا عبّر بحبّة واحدة ونُكِّرَ لفظُها فإنّ ذلك يفيدُ المبالغةَ في التّقليل، بما يدلُّ على تصويرٍ لإحاطةِ علمه سبحانه، والتّناهي في دقّة حسابه، وعدم مغادرته لشيءٍ من أعمالِ النّاس[1].

معنى حرف الجرّ ﴿مِّنۡ﴾:

من عظمةِ قدرة اللهِ إحصاءُ الأعمالِ مهما بلغتِ الغايةَ في القلّة

المقصودُ من الإتيان بحرف الجرّ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ﴾ توكيدُ عظمةِ قدرةِ اللّه على الإحاطة بالأعمال التي عَمِلَها الإنسانُ في الدّنيا في صحيفة عمله لتوزن، وإن كانت في نهايةِ الحقارةِ والقلّة، وكفى باللّه عادًّا ومُحصيًا على النّاس أعمالهم؛ إذ لا يخفى عليه شيءٌ منها سواءٌ أكان ذلك قليلًا أم كثيرًا[2].

إيثار لفظ ﴿خَرۡدَلٍ﴾ مُنَكَّرًا:

المبالغةُ في القلّةِ دليلٌ على أنّه لا يضيع عند الله شيءٌ مهما صَغُر

آثرَ القرآنُ لفظَ ﴿خَرۡدَلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ﴾؛ تمثيلًا على القلّة والحقارة؛ لأنّه غايةٌ في القلَّةِ[3]، ولذا

(1) سيّد طنطاويّ: التّفسير الوسيط: 9/ 217.
(2) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 217.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.

يُضربُ به المثلُ عند العرب في القلّة والتّلاشي[1]، والغرضُ من التعبير به مُنَكَّرًا المبالغةُ في القلّة، أي: المبالغةُ في أنَّ شيئًا من الأعمالِ صغيرًا كان أو كبيرًا غيرُ ضائعٍ عند الله تعالى[2]، وهذا يدلُّ على استقصاء كلِّ شيء؛ لأنّ حَبّة الخردلِ تدلُّ على صِغَر الحجم، وكلمةَ مثقالٍ تدلُّ على صغَر الوزن، فجمعَ بين صِغَر الحجمِ وصغرِ الوزن[3].

سِرُّ إيثارِ فِعْلِ ﴿أَتَيْنَا﴾ دون (جئنا):

الحسابُ عند العظيم مُطاوِعٌ وسَهلٌ وسريعٌ فلا يُعجِزُه شيءٌ

آثرَ البيان القرآنيّ مفردةَ ﴿أَتَيْنَا﴾ دون (جئنا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ للدّلالة على سهولةِ الحسابِ وسرعته ومطاوعته عند العظيم سبحانه الّذي لا يُعجزه شيءٌ؛ لأنّ الإتيانَ في اللّغة يعني المجيءَ بسهولة، بخلافِ المجيءِ الّذي يكونُ في الشَّيء الّذي فيه صعوبة وشِدَّةٌ للوصول إليه[4].

نكتة التّعبير بفعل الإتيان ماضيًا:

منتهى الغاية في التأكيد في اللغة العربية استعمال الماضي للمستقبل

عبّر البيانُ القرآنيّ بلفظ الماضي في فعل الإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِهَاۗ﴾ مع أنّ الإتيان لم يقعْ بعدُ، وسيكون في المستقبل، أي: في يوم القيامة ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1] تعبيرًا عن مجيء يوم القيامة، وذلك لِأنّ القيامةَ مؤكَّدَةُ الوقوعِ بلا أدنى شكٍّ وكأنّ أحداثها الّتي ستقع؛ كالماضي الّذي وقع، وهو مما لا شكّ فيه عند أحدٍ أبدًا، والمعنى: وسيأتي الله قطعًا بذلك العَمَلِ المُعَبَّرِ عنه بِمِثْقالِ حَبَّةِ الخَرْدَلِ وزنًا ليُجازي عليه بلا أدنى شكٍّ.

سرّ إضافة فِعْل الإتيان إلى ضمير العَظَمة:

العادلُ العظيمُ في علمه وقدرته لا يكون حسابُه إلا دقيقًا وعادلًا

أضافَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ الإتيان إلى ضمير العَظَمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ﴾؛ تأكيدًا على دقّة

---

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 497، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خردل).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 150.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9558.
(4) الرّاغب، المفردات: (أتى).

هذا الحسابِ وعدالته؛ فالذي يُحضِرُ عملَ العبادِ أو ظلمَهم - مهما بلغَ في صغره - هو اللّه الذي يعلمُ كلّ شيءٍ وقادرٌ على كلّ شيء، فلا حسابَ بعد حسابِ اللّه ولا أدقَّ منه ولا أعدلَ، والمعنى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ بما لنا من العَظَمَةِ في العِلْمِ والقدرةِ وجميع صفاتِ الكمالِ فحاسبْناهُ عليها[1].

معنى الباء في قوله ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾:

دلالـةُ الإلصاق بيانٌ لكمالِ عدْلِ اللّه سبحانه ودقّةِ حسابِه

الباءُ في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ للإلصاق؛ فالإحضارُ ملتصقٌ بها لا ينفكُّ عنها، أيْ: أتينا بأعمالهم التي لهم أو عليهم، فإنْ كانتْ لهم علموا أنَّ اللّه لا يظلمهم، بل يبحثُ لهم عن أقلِّ القليلِ من الخير، وإنْ كانتْ عليهم عَلموا أنَّ اللّهَ يستقصي كلَّ شيءٍ في الحسابِ[2].

دلالة تأنيث الضّمير ﴿بِهَا﴾:

لا يغيبُ عن علم اللّه وحسابِه شيءٌ مهما كان قليلًا

الضّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ راجعٌ إلى المِثْقالِ، وهو مُذكَّرٌ، وتَأْنيثُ ضميره لإضافَتِه إلى ﴿حَبَّةٍ﴾، أي اكتسبَ التّأنيثَ من المُضاف إليه؛ مبالغةً في تَحْقيرِ هذا العمل بضميرِ التَّأنيثِ والتّقليلِ من شأنه[3].

معنى الواو في ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾:

إظهارُ عظمةِ اللّه بإحضارِ الأعمال ووزنِها بقدرةِ مَنْ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾[4]، والمعنى العامُّ الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه هو أنّ كِلَيهما يتحدّث عن بيانِ عظمة اللّه سبحانه يوم الحساب ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾، و﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾، ولكنّ الجملةَ الأولى تُقَرِّرُ عظمةَ اللّه وقدرتَه في إحضارِ الأعمال بِما له من العَظَمَةِ في العِلْمِ

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9558.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 86.

والقُدْرَةِ وجميعِ صفاتِ الكمالِ، وأمّا الجملة الثانية فتُقَرِّرُ عظمتَه سبحانه في وزْنِ هذه الأعمالِ بقُدْرةِ مَنْ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يكونُ في الحسابِ أحدٌ مِثْلَه[1].

لا حسابَ بعد حسابِ الله فلا أدقَّ منه ولا أعدلَ، وفي هذا الأمانُ كلُّه

إيثار التّعبير بالفعل ﴿وَكَفَىٰ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل ﴿وَكَفَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ لتقويةِ اتِّصافِ فاعله سبحانه ﴿بِنَا﴾ بوصْفٍ يدلُّ عليه التَّمييزُ المذكورُ بعدَهُ ﴿حَٰسِبِينَ﴾، أيْ: أنَّ فاعلَ ﴿وَكَفَىٰ﴾ أجْدَرُ مَنْ يَتَّصِفُ بذلك الوصْفِ؛ إذ إنّ أصْلَ التَّرْكيبِ: كَفَيْنا النّاسَ، بحيث يحصلُ إبْهامٌ يُشوِّقُ السّامِعَ إلى معرِفَةِ تفصيلِهِ، فيأْتونَ باسْمٍ يُمَيِّزُ نوعَ تلك النِّسبةِ ليتمكَّنَ المعنى في ذهنِ السّامعِ[2]، والتَّقْديرُ: (وكفى النّاسَ نَحْنُ في حالِ حِسابِهِم)، أي: إنَّهم لا يتطلَّعونَ إلى حاسِبٍ آخَرَ يَعْدِلُ مِثْلَنا، وهذا تأْمينٌ للنّاسِ مِنْ أنْ يُجازى أحدٌ منهم بما لا يستحِقُّهُ، وفي ذلك تَحْذيرٌ من العذابِ وترغيبٌ في الثَّوابِ[3].

توكيدُ كفايةِ الله في الحسابِ يوم القيامة مدحٌ لحسابه

معنى الباء في قوله ﴿بِنَا﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾ حرف جرٍّ دخلَ على فاعلِ فعلِ ﴿وَكَفَىٰ﴾ لِتَوْكيدِ نسبة الكفايةِ إلى الله، أي: إنَّ فاعلَ ﴿وَكَفَىٰ﴾ أجْدَرُ مَنْ يَتَّصِفُ بوصفِ الحساب، وقد غَلَبَ إدخال الباء في مثل هذا التركيب[4]، وقال الزّجّاج "دخلَتِ الباء في ﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾؛ لأنَّه خبرٌ في معنى الأمر، والمعنى اكتفوا بالله حسيبًا"[5]، أو أنّها دخلتْ لشدّة التصاقِ الفعل بالفاعل، وتجيءُ في الأغلبِ في مدحٍ وفخرٍ، وكأنها تعطي معنى اكتفِ بالله، أي: ما أكفاه سبحانَه في هذا![6].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 429.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 73، 17/ 87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 87.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 73، 17/ 87.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 394.
(6) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 3/ 445.

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿حَٰسِبِينَ﴾:

حسابُ العظيم لأعمال الخلق ضبطًا وعلمًا ومجازاةً حسابٌ ثابتٌ

عبّر القرآنُ بصيغة اسم الفاعل ﴿حَٰسِبِينَ﴾ المفيد للثّبوت والدّوام في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ حسابَهم ثابتٌ وملازمٌ لهم في الدّنيا والآخرة؛ سواءٌ أكان بضبطِ حساب أعمالِهم وهو العَدُّ والإحْصاءُ، أي كفى بنا عادّين مُحْصين[1]، أي: إنَّهُ لا يَغيبُ عَنّا شَيءٌ من أعمالِهم، أم كان بضبط حِفْظِ أعمالهم صغيرِها وكبيرِها، أي: كفى بنا عالِمينَ، أم كان كِنايَةً عن المُجازاة[2]، أي كفى بنا مُجازينَ على ما قَدَّموهُ من خيرٍ أو شرٍّ[3]، والمعنى: فكفى به سبحانه حاسبًا، أي: عالمًا بأعمال العباد، حافظًا لها، مثبتًا لها في الكتاب، عالمًا بمقاديرها ومقاديرِ ثوابها وعقابها واستحقاقها، مُوصِلًا للعاملين جزاءَها[4].

وأتى باسم الفاعل مجموعًا مُراعيًا فيه ضميرَ العظمةِ من قوله تعالى: ﴿بِنَا﴾[5]، المعنى: وكَفى بنا بما لنا مِنَ العظَمَةِ حاسبينَ، أيْ: لا يكونُ في الحِسابِ أحَدٌ مِثْلَنا[6]، فلا مزيدَ على علمنا وعدلنا[7]، وفي هذا تَوعُّدٌ من جهةِ أنَّ معناهُ أنَّهُ لا يَروجُ عليه شَيءٌ مِن خِداعٍ ولا يَقْبَلُ غَلَطًا، ولا يَضِلُّ ولا يَنْسى، إلى غيرِ ذلكَ مِن كُلِّ ما يَلْزَمُ منهُ نَوعُ لَبْسٍ أو شَوْبُ نَقْصٍ، ووعْدٌ مِن جِهَةِ أنَّهُ يَطَّلِعُ على كُلِّ حَسَنٍ وإنْ دَقَّ وخَفيَ[8].

وجهُ نَصْبِ قولِه ﴿حَٰسِبِينَ﴾ على التّمييز:

اللهُ هو المحاسبُ الحقُّ لا أحدَ غيره

انتصب ﴿حَٰسِبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؛ على التّمييز؛ لما في نِسبةِ الكفاية في الحسابِ إلى اللّه مِنَ الإجمالِ الذي

(1) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 294، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 35.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 7/ 436.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 485.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 524.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 87.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 430.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(8) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 430.

يحتاجُ إلى بيانٍ، وذلك ليتشَوَّقَ السّامِعُ إلى مَعْرِفَةِ بيانِه، فيُؤْتَى باسْم يُمَيِّزُ نَوْعَ تلكَ النِّسبَةِ ليتمكَّنَ المعنى في ذهنِ السّامِعِ[1]، والتّمييز هنا محوّلٌ عن فاعل، إذ أصلُ التّركيب: وكفى حسابُ اللّه، وفي هذا وعدٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين تقتضيه قوّةُ الكلام.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القِسْط والعَدْل:

القِسْطُ في اللّغة: العدلُ، والحِصّةُ والنّصيبُ، والإقْساطُ: العدلُ في القسمة والحكم، فهو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[2]، والعَدْلُ في اللّغة: يدلّ على الاستواءِ في أحد معنَيَيْهِ[3]، وهو: ضِدّ الجَور، تقول: هو يعدلُ أي: يحكمُ بالحقّ والعدل، وتعديلُ الشّيء: تَقْويمُه، وإذا مال شيءٌ وأقَمتَه قُلْتَ: عَدَلْتُه، أي أقمتَه فاعْتَدَل، أي اسْتَقامَ[4]، وقد فرّق بينهما العسكريُّ فقال: "القِسْط هو العدلُ البيّنُ الظّاهر، ومنه سُمّي المِكيالُ قِسْطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنّه يصوّر لك العدلَ في الوزن حتّى تراه ظاهرًا، وقد يكونُ من العدلِ ما يخفى، ولهذا قُلنا: إنّ القِسْطَ هو النَّصيبُ الّذي بُيِّنَتْ وجوهُهُ"[5].

القِـسْـطُ هو الـعَـدْلُ البيّنُ الـظّـاهـر، والعدلُ استواءٌ واستقامةٌ

إذن: القِسْطُ أخصُّ من العدل؛ لدلالةِ القِسْط على العدلِ في الحكم، وأمّا لفظُ العدل فأعمُّ من ذلك[6]، وغاية نَصْبِ الميزان في مَشهدِه المَهيب العظيم يوم القيامة تحقيقُ الحكم البيّن الظّاهر في عدله الّذي لا يخفى منه شيء، والقِسطُ يناسبُ هذا المعنى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 73، 17/ 87.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قسط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).
(4) الخليل، العين، والفَيّوميّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 225.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾

[الأنبياء:48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

إرسالُ الرُّسلِ من البشرِ عادَةُ الله في أنْبيائِه

لَمّا ذَكَرَ ما أتى به رَسولُهُ ﷺ مِنَ الذِّكرِ وحالَ مُشْرِكي العربِ معَهُ، وقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ أتْبَعَهُ بأنَّ ذلك عادَةُ الله في أنْبيائِه، فذَكَرَ ما آتى موسى وهارونَ إشارَةً إلى قِصَّتِهما مع قومِهما مع ما أُوتوا مِنَ الفُرْقانِ والضّياءِ والذِّكرِ فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1].

فصلَ بعدَ إجمالٍ تسليةً لِلْقلبِ الشّريف للنّبيّ ﷺ

لَمّا تَكَلَّمَ في دلائِلِ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ والمَعادِ شَرَعَ في قَصصِ الأنْبياءِ عليهم السلام؛ تَسْليَةً لِلرَّسولِ عليه الصّلاة والسَّلامُ فيما يَنالُهُ مِن قَوْمِه، وتَقْوِيَةً لِقَلْبِه على أداءِ الرِّسالَةِ، والصَّبْرِ على كُلِّ عارِضٍ دونَها، وذَكَرَ ههنا منها قصَصًا: أوَّلُها قِصَّةُ موسى وهارون عليهما السلام فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[2]، أي: بعد أنْ أجْمَلَ سبحانَه حالَ الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [الأنبياء: 7] إلى قَوْلِه تَعالى: ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾ [الأنبياء: 9] أتْبَعَهُ بنوعِ تَفْصيلٍ فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾: (فرق) أصلٌ يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئين، والفَرْقُ: تَفْريقٌ بَين الشَّيْئَيْنِ حتَّى ينفرق، والفُرْقانُ: كِتابُ الله تعالَى فرَقَ به بَيْنَ الحقِّ والباطِلِ[4]، وكُلُّ ما فُرِقَ به بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 150، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 436، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 9/ 909.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 150، والصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1202.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

فهو فُرْقان، والفُرقانُ: الحجّةُ، والبرهانُ، والنّصر[1]، ومعنى ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ في الآية: الكتابُ الذي يفرّقُ بين الحقّ والباطل، وهو التّوراةُ في قول بعضهم، أو الحقّ آتاه اللّه موسى وهارون فرّق بينهما وبين فرعون، وقضى بينهم بالحقّ[2]، أو البرهانُ الذين فرَّق به بين حقّه وباطل فرعون، أو النّصر الذي أوتي موسى[3].

2) ﴿وَضِيَآءً﴾: (ضوأ) أصلٌ يَدُلُّ على نورٍ، والضَّوْءُ والضُّوءُ بفتح الضّاد أو ضمها بِمَعْنًى واحدٍ وهو الضّياءُ والنّورُ[4]، وضَوَّأتُ عنه حتى وضَحَ، أي: بَيَّنْتُ عنه حتى أضاءَ، والضّياءُ ما أضاءَ لَك[5]، والضَّوْءُ: ما انتشر من الأجسام النّيّرة، وسَمَّى اللّهُ سبحانه كُتُبَهُ المنزّلَة ضياءً من حيثُ إنّها تنيرُ وتُبصرُ منِ اهتدى بها[6]، ومعنى ﴿وَضِيَآءً﴾ هنا: التّوراة استضاؤوا بها حتى اهتدَوا في دينهم[7]، أو المعنى وضياءً يُستضاءُ به في ظلماتِ الحيرة والجهالة[8]، ونورًا يهدي الناس إلى مسالكِ حياتهم دون عَطَب[9]، وهو مَجازٌ في الهدى والعلم[10].

3) ﴿وَذِكْرًا﴾: ذَكَرْتُ الشّيءَ: خِلافُ نَسيتُهُ، ثم حُملَ عليه الذِّكْرُ باللّسان، ويقولون: اجْعَلْهُ منكَ على ذُكْرٍ - بضمّ الذّال - أي لا تَنْسَهُ[11]، والذِّكْرُ: الحِفْظُ للشّيءِ تَذْكُرُه، وجَرْيُ الشّيءِ على لسانكَ[12]، والذِّكْرُ: تارةً يقال ويراد به هيئةٌ للنّفس بها يمكنُ للإنسانِ أنْ يحفظَ ما يقتنيه منَ المعرفة، وهو كالحفظ إلّا أنّ الحفظَ يُقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يُقال لحضورِ الشّيء القلبَ أو القولَ[13]، وكثيرٌ من صيغ التّذكير والتّذكُّر تصلح لما هو ضدّ النّسيان ولمعنى الوعظ وهو منه؛ لأنّه إذا

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (فرق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 452 - 453.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 98.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضوأ).
(5) الخليل، العين: (ضوأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (ضوأ)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 389.
(7) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 99.
(8) البَيْضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 53.
(9) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9563.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 89.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(12) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (ذكر).
(13) الرّاغب، المفردات: (ذكر).

تذكّر قد يَزْدَجِر[1]، ومعنى ﴿وَذِكۡرٗا﴾ هنا: أي تذكيرًا لمن اتّقى اللّه بطاعته وأداءِ فرائضه واجتناب معاصيه، ذَكَّرهم بما آتى موسى وهارون من التّوراة[2]، الّذي فيه ذِكْرٌ للمتّقين كي يذكروه ويعملوا بما فيه ويتّعظوا بمواعظه[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شـروعٌ في ذكـرِ قَصصِ الأنبياءِ تسليةً للنّبي ﷺ بـإقـامـةِ الـحـجّـةِ على أعدائه

المعنى الإجماليُّ في البيان الإلهيّ: ولقد آتَينا موسى وهارونَ ما يُفرَقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، وآتَيناهما التّوراةَ مُضيئةً طريقَ الحَقِّ لهما ولمن اتّبعهما في أمرِ دينهم، وتذكيرًا لمنِ اتّقى اللّه بطاعته وأداءِ فرائضه واجتنابِ معاصيه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾:

تسليَةٌ للنَّبي ﷺ عـلـى ما يُلاقيه من قومِهِ

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ على جُملَة ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾ [الأنبياء:5] إلى قوله: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥﴾ [الأنبياء:5]؛ لإقامَةِ الحُجَّةِ على المشركينَ بالدَّلائلِ العقليَّةِ والإقناعيَّةِ والزَّجريَّةِ، ثمّ بدلائلِ شواهدِ التّاريخِ وأحوالِ الأُمَمِ السّابقةِ الشّاهدةِ بتنْظيرِ ما أوتيَهُ النَّبيُّ ﷺ بما أوتيَهُ سَلَفُهُ مِنَ الرُّسُلِ والأنْبياءِ، وأنَّهُ ما كانَ بِدْعًا من الرُّسُلِ في دعْوتِه إلى التَّوْحيدِ، تلك الدَّعْوةُ الَّتي كذَّبَهُ المشركونَ لأجلِها مع ما تَخَلَّلَ ذلك من ذِكْرِ عِنادِ الأقْوامِ، وثَباتِ الأقْدامِ، والتَّأْييدِ مِنَ المَلِكِ العَلّامِ، وفي ذلك تَسْلِيَةٌ لِلنَّبي ﷺ على ما يُلاقيه من قَوْمِه بأنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسُلِ السّابِقينَ كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ [الإسراء:77][5].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 453.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 99.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 453.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 87 - 88.

ويمكن أنْ تكون الواو استئنافيةً، والجملةُ مستأنفةً مسوقةً للشروعِ في قصصِ الأنبياءِ عليهمُ الصّلاة والسّلام؛ تسليةً لرسولِه ﷺ فيما يكابده من قومه، وتقويةً لقلبِه، وحَفْزًا لاستدامته في تأديةِ الرّسالة[1].

بلاغة التّصدير بالتّوكيد القَسَميّ (لام القسم، وقد):

كمالُ الاعتناءِ بتَنْظيرِ ما أوتيَهُ النَّبيُّ ﷺ بما أوتيَهُ سَلَفُهُ مِنَ الرُّسُلِ

صَدَّر القرآنُ الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ بالتّوكيد القَسَميِّ، أي: بـ(لام القسم) الّتي تفيد التّوكيد وبـ (قد) الّتي تفيد التّحقيق؛ لتَنزيل المشرِكينَ في جَهْلِ بعضهم بذلك، وذُهولِ بعضهم عنه، وتناسي بعضِهم إيّاهُ مَنزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ تلك القِصَّةَ، والغرضُ من هذا التّأكيد هو إظْهارُ كَمالِ الاعْتِناءِ بمَضْمونِه[2]، بتَنْظيرِ ما أوتيَهُ النَّبيُّ ﷺ بما أوتيَهُ سَلَفُهُ مِنَ الرُّسُلِ والأنْبياءِ، وأنَّهُ ما كانَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ؛ إقامَةً للحجّة على المشركينَ بدَلائِلِ شواهِدِ التّاريخِ وأحْوالِ الأُمَمِ السّابقةِ[3].

علّة إيثار لفظ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ دون (أنزلنا أو أعطينا):

الإيتاءُ عمومٌ في العطاءِ وقوّةٌ وثباتٌ وقرارٌ للمؤتَى

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ دون (أنزلنا) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ فلم يقل: (وأنزلنا الفرقان)؛ للإشارةِ إلى أنّ المقصودَ ليسَ خصوصَ التّوراةِ التي أنزلها اللّهُ على موسى، وإنّما المقصودُ هو عمومُ ما آتاهُ اللّه لموسى منَ الفرقانِ الّذي يشملُ كلّ فارقٍ بين أمرين، فآتاه اللّهُ تعالى انْفِلاقَ البحرِ بعصاه، وإخراجَ بني إسرائيل من الذّلّ والهوانِ إلى العزّة والقوّة، وغيرها من المعجزات الواضحة الفارقة[4]، ولو كان التّعبير بلفظ الإنزال لما تضمّن المعانيَ الّتي يتضمّنُها الإيتاء.

كما آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ دون (أعطينا)؛ لكونِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 325.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 88.
(4) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4878.

الإيتاء أنسبَ للمقامِ الّذي هو مقام النّبوّة - وهو مقامُ قوّةٍ - ؛ إذِ الإيتاءُ أقوى منَ الإعطاءِ؛ لأنّ الإعطاءَ له مطاوِعٌ، والفعلُ الّذي له مطاوِعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعوله من الّذي لا مطاوِعَ له[1]، لذلك استعملَ القرآنُ الإيتاءَ دون الإعطاءِ للأشياءِ العظيمة ذات الثّباتِ والقرارِ مثل (الملك والحكمة والسّبع المثاني والقرآن العظيم)[2]، ولكونه كذلك أنسبَ للسّياق الّذي تضمّن ذِكْرَ (الفرقان، والضّياء، والذّكر) وهي عطاءاتٌ مادّيّةٌ ومعنويَّةٌ لم يتملَّكْها موسى، ولا تتوقّف على قَبوله، وهذا هو معنى الإيتاء في اللّغة، بخلاف الإعطاءِ الذي يكونُ في الأشياءِ المادّيّة؛ إذْ أصلُهُ التّناول، وفيه دليلٌ على التّملّك[3].

سِرُّ إضافةِ الفعل ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ إلى ضمير التّعظيم:

تَنْبيهٌ على جَلالَةِ المـؤْتَى، وحُـجَّـةٌ على مَنْ يكفرون بنظيره

أَخْبرَ البيانُ الإلهيُّ عن الفُرْقانِ بإسنادِ إتْيانه إلى ضميرِ الجلالةِ والتّعظيم (نا) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾؛ للتَّنبيه على أنّ الفرقان الّذي أوتيَه موسى وهارون عليهما السلام؛ ليس إلّا وحيًا من الله تعالى كما أُوتيَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم القرآنَ الّذي هو مثلُه وحيًا من الله تعالى، فكَيْفَ يُنْكِرونَ إيتاءَ القُرْآنِ وهم يَعْلَمونَ أنَّ موسى وهارون قد أُوتيا مثلَه؟! وفيه تنبيهٌ كذلك على جلالةِ ذلك المُؤْتَى[4]، وتعظيمُ المؤتي سبحانه، وتربيةُ المهابة تُجاهَهُ.

نكتةُ البَدْءِ بقصّةِ موسى وهارون وتقديمِها على قصّةِ إبراهيم عليه السلام:

في سياقِ تَنْظيرِ ما أوتيَـهُ النَّبي صلى الله عليه وسلم بِـما أوتيَـهُ الـرُّسُـلُ تقديمٌ لِمَنْ كتابُه موجودٌ يعرفهُ العرب

ابتدأ البيانُ القرآنيُّ بذِكْرِ موسى وأخيه هارونَ مع قومِهما، وقدّم قصّتَهما على قصّة إبراهيم عليه السلام مَعَ أنّه جَدُّهما الأعلى، وذلك لأنّ موسى صاحبُ شريعةٍ دُوِّنَتْ في كتابٍ موجودٍ عندَ أهلِه يعرفُه العرب، وأُخِذَ به حتّى في النَّصرانيَّة الّتي جاءتْ مِنْ بعدِه، ولأنَّ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85.
(2) الزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (أتى)، والكَفَوِيّ، الكلّيّات، ص: 212.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 89.

إتيانَ موسى بِالشَّريعَةِ أوسعُ أثَرًا لإقامةِ نظامِ أُمَّةٍ يلي عَظَمَةَ شَريعَةِ الإسْلامِ[1]، ولأنّه مِنْ أكثرِ الرُّسلِ الّذين تَعِبوا في دعوتِهم، فقد تَعِبَ موسى مع المؤمنين به فضلاً عنِ الكافرين به[2]، ولِأنَّ القرآنَ ليس كتابَ تاريخٍ حتى تُرَتَّبَ أخبارُه ترتيبًا زمنيًا، كترتيبِ كتب التّاريخ، وإنَّما يُذكَرُ مِنْ قَصصه مواضعُ العِبرة ومواطنُ الموعظة[3]، مراعيًا السّياقَ الواردَ فيه.

نكتةُ الجمعِ بين موسى وهارون عليهما السلام وتقديمِ موسى في الذّكْرِ:

إيماءٌ بعظمةِ رسالةِ موسى وهارون وعظمةِ رسالةِ النبيّ ﷺ

جمَعَ القرآنُ بينَ موسى وهارونَ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ في إيتائهما الفرقان والضّياء والذِّكر؛ لأنّهما المكلَّفينِ بتبليغِ الرّسالة، فرسالتُهما واحدة، وهم فيها شركاءُ ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص:34][4]، وللإيماءِ بعَظَمَةِ هذه الرِّسالة؛ إذْ أُرْسِلَ بها رسولانِ، وعَظَمَةِ رسالةِ النّبيِّ ﷺ في سياقِ التّنْظيرِ بينهما، ولكنّه قدّم موسى في الذِّكر؛ لأنّه كُلِّفَ بالنُّبوّة قبل هارون، وهو مِنْ أُولي العزم مِنَ الرّسلِ، وهو مَنْ أُوتيَ هذا الكتابَ، ولأنّ هارونَ وزيرٌ له من أهله، بحسب قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾ [طه:29 - 30].

إيثار لفظ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ على (الكتاب)، و(التوراة):

أوسعُ دلالةً وأبلغُ في بيانِ المقصود

آثرَ النصُّ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ على (الكتاب) و(التّوراة)؛ لاتّساعِ دلالته؛ إذِ الفُرقانُ هو ما يُفَرَّقُ به بين الحَقِّ والباطِلِ من كلامٍ أو فِعْلٍ[5]، وهو بذلك يشملُ الاسمَ والمسمّى؛ فيشمل التّوراةَ وما احتوتْهُ من أحكامٍ وحِكمٍ فرّقتْ بينَ الحقِّ والباطلِ، وبين قومٍ ليس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 88.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9559.
(3) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4878.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9559.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 89.

لهم سلطانٌ وقانونٌ يحكمهم في ماضيهم، وإنْ صاروا من بعدها لهم قانون يحكمهم وسلطانهم من أنفسهم، كما قال تعالى مُنْعِمًا عليهم: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: 20] ويشمل كذلك نجاةَ بني إسرائيل في البحر؛ إذ فرَقَ اللّهُ البحرَ ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشّعراء: 63][1]، والنَّصْرُ الَّذي أوتيَه موسى عليه السلام كقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:41]، وكذلك بقيّة المُعْجزات الفارقة بين المُعجزةِ والسِّحْرِ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢٣﴾ [غافر:23]، ويشمل الشَّريعَةَ الفارِقَة بين العَدْلِ والجَوْرِ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:53][2]؛ لكونِ الفرقانِ مصدرًا يدلُّ على المبالغة، تقول: فرَّق تفريقًا وفرقانًا، فزيادةُ الألف والنّون تدلُّ على زيادةٍ في المعنى، ولذا فالفرقانُ لا تُستعمل إلا للأمورِ الجليلةِ العظيمة، وبذلك ناسبَ أنْ تُستعمل في الحديث عن موسى عليه السلام وقصّته[3].

سِرُّ عطف (الضّياء) و(الذِّكر) على ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾:

تَغايُرُ الصِّفات بِمنزلةِ تغايرِ الذَّواتِ

دخلَتْ الواوُ في قوله: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا﴾ على الصفة؛ كما تقول: مررتُ بزيدٍ الكريم والعاقل، فعلى هذا يكون حالاً، أي: الفرقان مضيئًا، أو: هي عاطفة، أي: آتيناه ثلاثةَ أشياءَ: الفرقان والضّياء والذِّكْر[4]، وعند البصريّين أنّ الواو لا تُزاد، ولا تأتي إلا بمعنى العطف، وهذا كلّه من نعوتِ التوراة: الفرقان والضّياء والذِّكر، فعُطِفَ بعضها على بعض[5]؛ بتنزيلِ تغايرِ الصِّفاتِ منزلةَ تغايرِ الذَّواتِ، فلا يلزمُ عطفَ الشَّيءِ على نفسه[6]، والمعنى: لقدْ آتَيْنَاهُما

(1) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4878.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 89.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9562.
(4) زكريا الانصاري، إعراب القرآن العظيم، ص: 395.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 394.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 533.

وحيًا مضيئًا ساطعًا يُعينُ على التّفريق بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وكِتابًا واعظًا مُذكِّرًا يَتَّعِظُ به النّاسُ[1]، أو يكون الفرقانُ هو التّوراة، والتّقدير: (آتيناهما التّوراة وآتينا بها ضياءً وذِكْرًا لِلْمُتَّقين)، أي هي في نَفْسِها ضياءٌ وذِكرٌ، أو (وآتيناهما ضياءً وذكرًا بما فيه من الشّرائعِ والمواعظِ)[2].

نُكتةُ تَعريفِ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ وتَنْكيرِ ﴿وَضِيَآءً﴾ و﴿وَذِكْرًا﴾:

الفرقانُ معهودٌ والضّياءُ والذِّكْرُ عامّانِ فخْمانِ

جَعَلَ النَّصُّ القرآنيُّ لفظ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ مُعَرَّفًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾؛ للإشارة إلى أنّ الفرقان في الآية أمرٌ معهودٌ عند اليهودِ وعند العربِ، سواءٌ أكان المرادُ منه التوراة، أم نجاةُ بني إسرائيل في البَحر؛ أو بقيّةُ المُعْجِزات الفارقة بَيْنَ المُعْجِزَةِ والسِّحْرِ، ولذا عرّفها بـ(أل) العهديّة، وأمّا تنكيرُ لَفْظَي ﴿وَضِيَآءً﴾ و﴿وَذِكْرًا﴾ فلإفادَة التّفخيم والعموم؛ فالضّياءُ هو كلُّ ما يُستضاءُ به، فالضّياءُ يكشفُ ظلمات القلبِ والعقيدة، وظلماتِ الضّلالِ والباطل، وهي ظلماتٌ يَتوهُ فيها العَقْلُ ويَضِلُّ فيها الضَّمير، والذِّكْرُ يشملُ الموعظةَ والتّذْكيرَ بكلِّ ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم، وكذلك الشّرف[3].

إيثار لفظ الضّياء على النّور:

مبالغةٌ تؤكّد وضوحَ ما جاء به موسى عليه السلام

آثر البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظ ﴿وَضِيَآءً﴾ على لفظ (نورًا) في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾؛ لأنَّ في الضَّوءِ مُبالَغَةً[4]؛ إذ الضّياءُ أقوى وأعظمُ من النُّور، ويدلّ على ذلك قوله تَعالَى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:5][5]، والغرضُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71، بتصرّفٍ بسيط.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 121.
(3) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 121.
(4) الزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (ضوأ)، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 533.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 6/ 14.

من هذه المبالغةِ الدّلالةُ على وضوحِ ما جاء به موسى من التّوراةِ وحُسنِه، ومن ثَمّ التّأكيدُ على تحققِ القصدِ من تَنْظيرِ ما أوتي النَّبيُّ ﷺ من ذِكْرٍ مباركٍ في أسلوبه ومضمونه بما أوتيَ موسى وهارون عليهما السلام من توراةٍ تُضيءُ طَريقَ الحَقِّ لمن آمنَ بها.

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة في لفظ الضّياء:

تشبيهُ التوراة بالضّياءِ بيانٌ لأثرِها في الهدايةِ والخيرِ

في لفظ ﴿وَضِيَآءٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ﴾ استعارةٌ تصريحيّة متضمَّنة؛ إذ شبَّهَ التوراةَ بالضّياء، فطوى المشبَّه (التّوراة) وأبقى المشبَّه به (الضّياء)[1]، وهي متضمَّنةٌ لتشبيه الحيرةِ والجهلِ بالظّلمة[2]، وفي هذه الاستعارةِ بيانٌ لأثرِ التّوراةِ في الهدايةِ والخيرِ، ولأثرِ الجهلِ والحيرةِ في الضّلال.

بلاغة المجاز في لفظ الضّياء:

التّوراةُ ضياءٌ لا ظلامَ معه ولا ظُلْمَ للمستبصرِ بهدايتها

الضّياءُ: النّورُ، يُستعمَلُ مجازًا في الهُدى والعِلْم، "لأنَّ مِنْ شأنِ مَنْ كان في الضّياء ألّا يضع شيئًا إلا في موضعه"[3]، وهو استعمالٌ كثيرٌ، وهو وجهٌ للمُرادُ هنا ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ﴾، وقد قال تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:44][4]، أي: التّوراة ضياءٌ لا ظلامَ معه، ولا ظُلْمَ للمستبصرِ بهدايتها.

معنى اللام في قوله ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾:

الذِّكرُ خاصٌّ بالمُتَّقين لانتفاعهم به دون غيرهم

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ تحتملُ أن تكونَ لامَ الاختصاص، أي: التّذكيرُ والوعظ خاصٌّ للمتّقين الّذين ينتفعون به، وتَخْصيصُ المُتَّقينَ بالذِّكْرِ - وإنْ كان عامًّا للجميع - ؛ لانتفاعهم به دون غيرهم[5]، أي: إنَّ الّذين تستشعرُ قلوبُهم خشيةَ اللّه ولم يَرَوه،

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 533.

(2) الشّهاب الخَفاجيّ، عنايه القاضي وكفاية الراضي: 6/ 257.

(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 431.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 89.

(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 533.

ويعملون للسّاعةِ ويستعدّون لها هم الّذين ينتفعون بالضّياء، ويسيرون على هداه، فهم المُستضيئونَ بأنوارِه المُغتنِمونَ لمغانِم آثارِه، أو أن يكون الذِّكر بمعنى البيان، أي: بيانُ ما يحتاجونَ إليه منَ الشَّرائعِ والأحْكام، فيكون التّخصيص بالمتّقين؛ لأنّهم المؤمنون به دون غيرهم[1]، أو أنْ تكونَ اللّامُ لامَ التَّقْوِيَة، فيكونَ المجرور باللّام في معنى المَفْعولِ، أي: الَّذين اتَّصفوا بتقوى اللّه؛ بامتثالِ أوامرِه واجتِنابِ نَواهيه؛ لأنَّهُ يُذَكِّرُهم بما يَجْهلونَ وبما يَذْهَلونَ عنه ممّا عَلِموهُ ويُجَدِّدُ في نُفوسِهم مُراقبةَ ربِّهم، أو أنْ تكونَ اللّامُ لامَ العِلّة؛ أيْ ذِكْرٌ لِأجْلِ المُتَّقينَ، أي: كتابٌ يَنْتَفِعُ بما فيه المُتَّقونَ دون غيرِهم مِنَ الضّالّينَ[2].

نكتة إيثار وصفِهم بالمتّقين:

التّـقـوى هي الغايةُ العُظمى مـن الموعـظـةِ والذِّكر

وصفَ القرآنُ المُنْتَفِعين بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ بالمتّقين دون غيره من الأوصاف؛ للإشارةِ إلى امتلاءِ قلوبهم بالتّقوى ومخافةِ اللّه ﷻ[3]، أي: الَّذين صارَ وصف التّقوى لَهم شِعارًا يُعرَفون به، وحامِلًا لَهم على التَّذْكيرِ لما يَدْعو إلَيْه الكِتابُ مِنَ التَّوْحيدِ الَّذي هو أصْلُ المُراقَبةِ[4]، ولأنّ التّقوى هي من أعلى ثمراتِ الانتفاعِ بالموعظةِ والذِّكر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضّياء والنّوّر:

الـضّـيـاءُ أقـوى وأعـظـمُ وأبـلـغُ وأخصُّ من النّور فالضّياءُ ما كان من ذاتِ الـشّيءِ المـضيء، والـنّـورُ ما كان مستفادًا من غيره

الضّياءُ أقوى وأعظمُ من النّور، ولذا شَبَّهَ اللّه هُداه بالنّورِ دون الضَّوْءِ وإلا لَما ضَلَّ أحدٌ، ويدلّ عليه قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس:5][5]، وهو أخصّ من النّور؛ إذ الضَّوءُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 89.
(3) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4879.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 431.
(5) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 2/ 329، وأبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 6/ 14.

نورٌ قويٌّ[1]، والضّوءُ أبلَغُ بِحَسبِ الاِسْتِعْمال، والضّوء لِما هو قائمٌ بِالذّاتِ كالشَّمسِ والنّار، والنّورُ لِما هو قائمٌ بالعَرَضِ والاكتسابِ من الغَيْر[2]، والضّوءُ فرْعُ النّور، وهو الشُّعاع المُنتشِر، و"النّور: هو الضّياء المُتَشَعْشِعُ الَّذي تَنْفُذُهُ أنوارُ الأبْصار فتصل بِه إلَى نظرِ المُبْصَرات، وهو يتزايدُ بتزايدِ أسبابه"[3]، والضّوءُ ما كان من ذاتِ الشّيءِ المضيءِ، والنُّورُ: ما كان مستفادًا من غيره[4]، والضّياءُ فيه نورٌ وفيه حرارةٌ، والنّورُ فيه ضَوءٌ وليس فيه حرارة[5]، ولقوّة الضّياءِ ودلالةِ المبالغةِ فيه على وضوحِ ما جاء به موسى من التّوراةِ وحُسنِه أوثِرَ استعمالُه ههنا تعريضًا بمَنْ جحدَه وأنكره على وضوحه، وها هنا أمرٌ جديرٌ بالملاحظة وهو أنّه لا ينبغي تفسير قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النّور: 35] على أنَّ اللّه استفاد النّور من غيره، بل التفسير الصحيح أنه تعالى منوّر السموات والأرض، فهو الذي يَشُعُّ النّورُ والضّياءُ منه ﷻ، ولم يكتسب نوره من غيره، بل كان من ذاتِه جلّ وعزّ.

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 231.
(2) الزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (ضوأ).
(3) ابن الجوزيّ، نُزْهَةُ الأَعْيُنِ النّواظِر، ص: 599.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 8/ 5071.

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾

[الأنبياء:49]

خشيةُ الله بالغيبِ من أهمِّ ثمراتِ التَّقوى

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّقوى في قوله ﴿وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ذَكَرَ ما أنتَجَتْهُ هذه التّقوى، وهو خشيةُ اللّه، والإشفاقُ من عذابِ يوم القيامَةِ[1]، أي: بَيَّنَها بوصفهِم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾: (خشي) أصلٌ يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، فالخَشْيَةُ: الخَوْفُ[3] المَشوبُ بعظَمَةٍ ومَهابَةٍ، وهي: الرَّجاءُ والعلم[4]، وقيل: خوفٌ يشوبهُ تعظيمُ المخوَّف منه، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه[5]، ومعنى ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾: يخافون ربَّهم غائبين عن الآخرةِ وأحكامِها[6]، مُعظِّمين له مؤمنين بأُلوهيَّته مُصدّقين لكلّ ما يأمر به، طائعين لأوامره ونواهيه[7].

2) ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: (غيب) أصلٌ يَدُلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيونِ، ومِنْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ مِمّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّهُ[8]، وكلُّ مكانٍ لا يُدْرَى ما فيه فهو غيْبٌ، وكذلكَ المَوْضِعُ الَّذي لا يُدْرَى ما وراءَه[9]، والغَيْبُ: ضِدُّ الحُضورِ، وضِدُّ المُشاهَدَةِ، فهو كلُّ ما غابَ عَنِ العُيونِ سَواءٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 437.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 431.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (خشي).
(5) الرّاغب، المفردات: (خشى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 505.
(6) ابن جرير، مفاتيح الغيب: 18/ 454، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 100.
(7) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4879.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غيب).

أكانَ مُحصَّلاً في القُلوب أم غَيْرَ مُحصَّلٍ[1]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيبُ عنه شيءٌ، كما لا يعزبُ عنه مثقال ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأرض[2]، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما غاب عن عيون الناس، والمعنى: يخشون ربّهم في خاصّتهم لا يريدون بذلك رياءً ولا لأجلِ خوفِ الزواجر الدنيوية والمذمّة من الناس[3].

3) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: (سوع) أصلٌ يَدُلُّ على اسْتِمرارِ الشَّيْءِ ومُضيِّه، مِنْ ذلكَ السّاعَةُ سُمّيَتْ بذلكَ، يُقالُ جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ، أيْ: بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ[4]، والسّاعَةُ: الوقت الحاضر، وهي في الأَصْلِ تُطْلَق بمعْنيين: أحدُهما أنْ تكونَ عِبارَةً عَنْ جُزْءٍ مِنْ أربعةٍ وعِشْرينَ جُزءًا هيَ مجموعُ اليَوْمِ واللَّيْلَةِ، والثّاني أنْ تَكونَ عبارة عَنْ جُزْءٍ قَليلٍ مِنَ النَّهارِ أوِ اللَّيْلِ، يُقالُ: جلستُ عِنْدَكَ ساعَةً مِنَ النَّهارِ: أي وقْتًا قليلًا منه، ثُمَّ استعير لاسْم يَوْمِ القيامَةِ[5]، قيل سُمّيَتْ بذلكَ لأنَّها تَفْجأُ النّاس في ساعَةٍ، فيَموت الخَلْقُ كلُّهُم عِنْد الصَّيْحَة الأولى[6]، أو أُطْلِقَتْ على القيامة باعتبارها الأمدَ، أو غايةَ المهلة التي أُمهِلَها النّاس على الأرض[7]، والمراد بالسّاعة في الآية: يوم القيامة، أي: وهم من السّاعة الّتي تقومُ فيها القيامة خائفون من أهوالها وعذابها[8]، فهم يخافونَ الحساب؛ لأنّهم يستصغرون حسناتِهم ويستكثرون سيئاتِهم[9].

4) ﴿مُشْفِقُونَ﴾: (شفق) أصلٌ يَدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيْءِ[10]، والشَّفقةُ: رِقَّةٌ مِنْ نُصْحٍ، أوْ حُبٌّ يؤدّي إلَى خَوْفٍ، تَقولُ: أنا مُشْفِقٌ عَلَيْكَ، أيْ: أخاف، وأشْفَقَ عليه: حَذِرَ، وأشْفَقَ مِنْهُ: جَزِعَ[11]، ولي عليه شَفَقَةٌ، أي: رحمة ورِقَّةٌ وخوفٌ من حلولِ المكروه به مع نُصْحٍ[12]،

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (غيب).
(2) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سوع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوع).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوع).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 454، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 100.
(9) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4879.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفق).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (شفق).
(12) الزَّمَخْشَرِيّ، أساس البلاغة: (شفق).

فالإشفاقُ: عِنايَةٌ مختَلِطَةٌ بخَوْفٍ؛ لأنَّ المُشْفِقَ يُحبُّ المُشْفَقَ عليهِ، ويخافُ ما يَلْحَقُه[1]، ومعنى ﴿مُشۡفِقُونَ﴾: أيِّ: خائفونَ وجلونَ[2]، ومعنى الإشفاق من السّاعة: الإشفاقُ من أهوالها، فهم يُعِدُّون لها عُدَّتها بالتّقوى بِقَدْرِ الاسْتطاعة[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وصفُ حالِ المتّقين الّذين ينتفعون بما جاءَ به موسى وهارون عليهما السلام

يذكر البيانُ القرآنيُّ صفةَ حالِ المتّقين الّذين ينتفعون بما جاء به موسى وهارون بنوعين من الصّفات: أُوْلاهُما: أنّهم يخشونه، أي: يخافونه معظّمين له مؤمنين بألوهيَّته مصدّقين لكلِّ ما يأمرُ به، طائعين لأوامرِه ونواهيه وهو غائبٌ عنهم، عَلِموه بالعقلِ والنَّقلِ فهُم يعبدونَه كأنَّهم يرونه، والوصف الثّاني: أنَّهم يعرفونَ أنَّ اللّه تعالى لم يخلقِ النّاسَ عَبَثًا، بلْ لهم بعثٌ وحسابٌ وعقابٌ، وهم يستشعرون الخوفَ من نتيجةِ الحسابِ؛ لأنَّهم يستصغرون حسناتِهم ويستكثرون سيئاتِهم[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المؤمنون مستحقّون للحكمِ عليهم بالتقوى

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن صفةِ المتّقين بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الاسم الظّاهر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾، ولم يقل سبحانه: (الخاشين لربِّهم)؛ للإيماءِ إلى وجه استحقاقهم لحكم اللّه لهم بالتّقوى، فخشيتهم للّه بالغيبِ وإشفاقهم من الساعةِ دليلٌ على تقواهم للّه، ولقصدِ الإبهامِ الذي من أسراره هنا التّشويقُ لمعرفة ما يرادُ بيانُه؛ وهو فعل خشيةِ اللّه بالغيب، والوجل من يوم القيامة، والتّركيز عليه لا على شخوصِهم، والتّنبيه على التّعميم، أي: كلّ الّذين يخشونَ ربّهم بالغيب، ويستشعرون الخوفَ نتيجةَ الحساب.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (شفق).

(2) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 295، والبَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 53.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.

(4) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4879.

بلاغة التّعريض بالوصف بالاسم الموصول وصلته:

في مدحِ خشيةِ المتّقين بالغيبِ تعريضٌ بغيرهم

في وصفِ المتّقين بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ تعريضٌ باليهود، وأنّهم ليسوا على هذه الصفةِ، فهم ماديّون، لا يتعاملون إلا بالحسّيات، ولا يؤمنون باللّه إلّا إيمانًا طفيفًا قلقًا، ولا يعملون للآخرة، ولا يُشفقون ممّا يلقاهم فيها من عذابِ اللّه[1]، وتعريضٌ كذلك بكلّ من لم يهتدِ بكتاب اللّه تعالى؛ بدلالةِ مفهومِ المخالفة، فليسَ هو مِنَ الَّذينَ يخشونَ ربَّهم بالغيبِ، وهؤلاء هم فرعونُ وقومهُ[2]، وكلُّ الكفرَةِ حيثُ لا يتأثّرونَ بالإنذارِ ما لم يُشاهدوا ما أُنْذروه[3].

فائدة تخصيص المتّقين بِصِفَتَي الخشيةِ بالغيب والإشفاق من السّاعة:

خشيةُ اللهِ بالغيبِ والإشفاقُ من السّاعةِ من أعلى صفاتِ الإيمانِ وأهمِّها

خصّ البيانُ القرآنيُّ المتّقين في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ بصفتينِ هما: خشيةُ اللّه بالغيب، والإشفاقُ من أهوالِ الساعة دونَ بقيّةِ الصّفات؛ لكونِهما من أعلى صفاتِ الإيمان وأهمِّها[4]، وللاختصار؛ إذ إنّ الصِّفَةَ الأولى تشيرُ إلى أهمِّ حالَةٍ لهم فيما يتعلّقُ بالدُّنيا، والصفةَ الثانيةَ تشيرُ إلى أهمّ حالةٍ لهم فيما يتعلّقُ بالآخِرَة.

سرُّ فصْلِ جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

في بيانِ صفاتِ المتّقين مدحٌ لهم

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ عن التي قبلها: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لأحدِ احتمالين:

الأوّلُ: لِما بين الجملتين من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ الجملةَ الثانيةَ جاءتْ في محلّ جَرٍ على الوصْفيَّةِ للمتّقين بصفتين؛ الأولى: أنّهم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 910.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 199.
(4) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 13.

يخشون ربّهم بالغيب، والثانية: أنّهم وُجِلون من أهوالِ السّاعة، أيّ: أرْدَفَ صفتَهم الإجماليّةَ بتفصيلٍ يُعْرَفُ به المُرادُ.

الثّاني: لِما بين الجملين من شبه كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مبنيٌّ على سؤالٍ مقدَّرٍ نشَأ مِن السّياقِ؛ وذلك أنّه لمّا ذَكرت الآيةُ السّابقة أنّ التّوراة كِتابٌ يَنْتَفِعُ بِما فيه المُتَّقونَ دونَ غَيْرِهم مِنَ الضّالّينَ، كأنَّه قيل: ما صفاتُ هؤلاء المتّقين؟ فقيل: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾، وتكون الجملةُ في محلّ رفعٍ، أي: هم الّذين يَخْشَون ربَّهم بالغيب.

نكتة التّعبير عن فعل الخشية بالمضارع المجموع:

خشيةُ المتّقين لله بالغيب مستمرّةٌ متجدّدةٌ منهم

التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ حدوثِ خشيةِ اللّه بالغيب عندهم وتجدّدِها، أي: كلَّما تكشَّفَتْ لهم حقائقُ الكونِ وأسرارُه ازدادوا للّه خشيةً، ومنه مهابةً وإجلالاً، على الرغم من أنَّهم لا يَروْنه بأعينهم، إنما يَرَوْنَه في آثار صُنْعِه، أو أنّ إيمانهم بالأمورِ الغَيْبيَّة التي لا يشاهدونها مستمرٌّ، فكأنّها - بعد أنْ أخبر اللّهُ بها - مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم، أو أنّ خشيتهم لربِّهم مستمرَّةٌ في خَلَواتِهم عن الخَلْق، فمهابةُ اللّه والأدبُ معه تلازمُهم حتى في خَلْوتِهم وانفرادهم(1)، ولإفادةِ استحضارِ هذه الحال الّتي عليها المتّقون صورةً مُثارةً في المُخيّلة، بما يُظهر حُسْنَ فِعْلِهم وعظيمَ شأنِهم.

وقد جاءتْ صيغة الجمع مناسبةً لحالهم، فقد اجتمعوا وأجمعوا على الإيمانِ باللّه بالغيبِ المذكورِ آنفًا، ودَعَوا إليه، وأُوذوا في سبيله، وفيه إشارةٌ إلى أهمّيَّةِ الاجتماع على الخير، بوصفه أحدَ المثبِّتات على الحقِّ؛ فيَدُ اللّه مع الجماعة.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9565.

إيثار لفظ الرّبوبيّة وإضافتها إليهم:

كـثرةُ إحسـانِه سبحانه تقتضي استمرارَ خشيةِ المتّقين

آثَر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة وأضافها إليهم في قوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾؛ لِما فيها من تنبيهٍ على ما يريدُه الله بهم من التّشريفِ والإكرامِ والإحسانِ، وإشعارٍ باللطفِ بهم، وتبيينٍ لمقتضياتِ هذه الخشيةِ من كونه سبحانه المُحسنَ إليهم بعد الإيجادِ بالتَّربية وأنواعِ الإحسانِ(1).

معنى الباء في ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾:

معنى الإلصاق مُـؤْذِنٌ بتَلَبُّسِ خـشـيـتِـهـم بالغيب، ومعنى الظَّرفيّةِ مُـؤْذِنٌ بخشيتـهـم في خَلَواتِهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ للإلصاقِ، والمَعْنى - على اعتبار ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من الفاعل - : يخشون ربَّهم متلبِّسين بالغيبِ، أي: غائبين ومنفردين عن النّاس(2)، والمعنى - على اعتبار ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من المفعول - : يخشون ربَّهم متلبِّسين بالغَيْب، أي غائبًا عنهم من حيثُ إنَّه تعالى غيرُ مُشاهَدٌ لهم محجوبٌ عنهم حجابَ العِزّة(3).

ويمكن أنْ تكون بمعنى (في) الظَّرفيَّةِ، لتنزيلِ الحالِ منزلةَ المكان، أي الحالةُ الغائبةُ، وهي حالَةُ عَدَمِ اطِّلاعِ أحَدٍ عليهم، والتَّقدير: (يَخْشَوْنَ رَبَّهم في غيبهم) - وهو ما غاب عن أعين النّاس - أي في خاصَّتِهم، لا رياءً ولا خوفًا من الزَّواجِرِ الدّنيويّةِ والمذَمَّةِ من النّاس(4).

وَجْهُ تخصيص الخشية بالغيب:

بـيـانُ فـضـلِ الإيمان بالغَيْب عـلـى الإيـمـان بالشَّهادَة

أتى تَخْصيصُ الخشيةِ بالغيبِ في قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنَّ أكثرَ ما يجبُ أنْ يُؤْمَنَ به المؤمنُ غائبٌ؛ كالباري سبحانه وصفاتِه، والمَلائكَةِ والبعثِ والحشرِ والنَّشْرِ، والصِّراطِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 431.
(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1203.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 534.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.

والميزانِ وغيرها، ولفضلِ الإيمانِ بالغَيْب على الإيمانِ بالشَّهادَة[1]، ولأهمّيَّته؛ لأنّ مَنْ يؤمن بالغيبِ يؤمنُ بالشّهادة بطريقِ الأولى، ولأنّ مَنْ لا يؤمنُ بالغيبِ في الدّنيا لا يُقبَل إيمانُه يوم القيامة؛ لأنّه لم يَعُدْ هناك غيبٌ، قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام:158].

معنى الواو في قوله ﴿وَهُم﴾:

حالُ المتّقين تجمعُ بين خشيتهم بالغيبِ وإشفاقهم من السّاعة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ تحتمل أنْ تكونَ استئنافيّةً، والجملةُ استئنافُ إخبارٍ عنهم، أو أنْ تكونَ عاطفةً، والجملةُ معطوفةٌ على صِلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهي قوله تعالى: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ فتكونَ الصِّلةُ الأُولى مُشعِرةً بالتَّجدُّدِ دائمًا؛ كأنَّها حالَتُهم فيما يتعلَّقُ بالدُّنيا، والصِّلةُ الثّانيةُ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ عنه بالاسم المُشعِرِ بثُبوتِ الوصْفِ، كأنَّها حالَتُهم فيما يتعلَّقُ بالآخرةِ[2].

سرّ التّعبير بالضّمير (هم):

المُبالَغةُ بديمومةِ إشفاقِ المتّقين من السّاعة وقصرُه عليهم

في التَّعبيرِ بالضَّمير (هم)، وتصديره وبناءِ الحكم عليه في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ مُبالَغَةٌ؛ لأنَّ الجملةَ الاسميّةَ تفيدُ الدوامَ والثَّباتَ، أي: إنّ الخوفَ عندهم ثابتٌ دائمٌ، فما لم يكن الخوفُ دائمًا لا يُعبأ به، ولأنّ التّقديمَ يفيدُ معنى التَّخصيص والقصرِ المفيد للحُكمَينِ المختلفَين: إيجابيٍّ صريح، وسلبيٍّ ضمنيٍّ، فالمبالغةُ مستفادةٌ من الحكم الإيجابي؛ لإفادته أنَّ الإشفاقَ مقصورٌ عليهم، وأمّا الحكم السّلبيُّ الضّمنيُّ فيُستفاد منه التّعريض بالمشركين بأنّهم لم يخافوا من السّاعة، ولذا لم يَتَهَيَّؤوا لها بأنواعِ القُرُباتِ، والمعنى: وهم مُشفقون،

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 1/ 461.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 437.

أي: خائفون من السّاعة دون مَنْ عداهم، ومَنْ عداهم لا يشفقون منها، أي: الإشفاقُ مقصورٌ عليهم لا يتجاوزهم إلى مَنْ سِواهم(1).

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾:

الإشـفـاقُ من أهـوالِ السّاعةِ يجعلُ المؤمنين يُـعِـدّونَ لَـها عُدَّتَها

حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لبيان المُشْفَق منْه؛ وهو السّاعةُ على حذفِ مضافٍ، أي: من أهوالِ السّاعة، والمعنى: أنّهم مشفقون مِن أهْوالِها، وسائِرِ ما يَجْري فيها مِنَ الحِسابِ والسُّؤالِ، فهم يُعِدّونَ لَها عُدَّتَها بِالتَّقْوى بِقَدْرِ الاسْتِطاعَةِ.

تخصيصُ ذِكْرِ السّاعة وإشْفاقُ المتّقين منها:

السّـاعـةُ مـن أعـظـمِ الـغَـيْـبـيّـاتِ، وأهوالُها أعْظَمُ حامِلٍ عَلى كُلِّ خَيْرٍ

خصَّ النصُّ القرآنيُّ ذكرَ السّاعة وإشفاقَ المتّقين منها بالذِّكْرِ بعْدَ وصْفِهم بالخشيةِ على الإطلاقِ في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾؛ للعنايةِ بشأنِ السّاعة؛ حيث إنّها من أعظم المخلوقات، وأعظم المُخَوِّفاتِ(2)، والإيمانُ بها من أركانِ الإيمان في كلّ الرِّسالاتِ السّماويَّة، وهي كذلك من أعظمِ الغَيْبِيّات الّتي امتُدِحَ المتّقونَ بالإيمان بها؛ لكثرةِ المُماراة والمُجادلة فيها، وتكذيبِ الأمم رُسَلَها في إخبارهم بها، فهيَ محطُّ الأنْظارِ، ومحلُّ البحثِ والجدلِ بين المنكرين والموحّدين، لِما فيها من غُيوبٍ متعلّقةٍ فيها، ولذا كثُرَ الحديثُ عن قيامِ السّاعة وإثباتِ البعث، وخاصّةً في السّورِ المكّيّة.

والإشفاق منها للتَّنصيص على اتِّصافِهم بضِدِّ ما اتَّصفَ به المُستعجِلونَ(3)، والمعنى: وهم مِنَ السّاعةِ الَّتي نَضَعُ فيها المَوازينَ، وقد أعْرَضَ عنها الجاهِلونَ مع كوْنِها أعْظَمَ حامِلٍ على كُلِّ خَيْرٍ، ومُبْعِدٍ من كُلِّ ضَيْرٍ مُشْفِقون؛ لِأنَّهم لِقيامِها مُتَحَقِّقونَ، وبنصْبِ المَوازينِ فيها عالِمون(4).

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 534.

(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1203، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 219.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.

(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 431.

نكتة تقديم شِبْه الجملة ﴿مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ على الخبر:

اهتمامٌ بذكر السّاعةِ وتشويقٌ لحال الوجِلين منها

قدّم النصُّ القرآنيُّ شِبْهَ الجملة ﴿مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ على الخبر ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾؛ لِما يحقّقه من إحكام في اللّفظ من خلال الأثرِ الصوتيِّ لحروف المدّ اللّيّنة الجوفيّة الهوائيّة الّتي تتناسبُ مع سياقِ الخشية والإشفاق، ولما يحقّقُه من إحكام في المعنى بتأكيدِ مقام الإيمانِ بقيام السّاعةِ الذي هو أحد رُكْنَي الإيمان، وهما الإيمان بالله واليوم الآخر الذي كَثُرَ التّركيزُ عليه في السور المكيّة، وكذلك في التّقديم اهتمامٌ بالمقدَّم وهو ذكر السّاعة، وتشويقٌ إلى المؤخَّرِ وهو الإشفاقُ منها.

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿مُشۡفِقُونَ﴾:

الإشفاقُ الدائمُ والثابتُ من أهوالِ السّاعةِ سببٌ لاستحقاقهم لقب المتّقين

استعملَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ اسم الفاعل ﴿مُشۡفِقُونَ﴾ دون الفعل (يشفقون)؛ للدّلالةِ على ثباتِ صفةِ الإشفاقِ من أهوالِ الساعة، والإعدادِ المستمرِّ لها بالتّقْوى بِقَدْرِ الاستطاعةِ عند هؤلاء المتقين؛ فهم لِقيامها مُتَحَقِّقونَ، وبنصْبِ المَوازينِ فيها عالِمون؛ وذلك لكون اسمِ الفاعل يدلُّ على حدثٍ ثابتٍ غير محدّدٍ بزمن، بخلافِ الفعلِ الذي يفيدُ تقييد الحدثِ بزمنٍ معيّن، بما يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغةِ في الثبوتِ والدّوام والاستمرارِ.

وتكرار التعبيرُ بصيغةِ الجمع ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾، ﴿رَبَّهُم﴾، ﴿وَهُم﴾، ﴿مُشۡفِقُونَ﴾؛ للتّنويه على أنَّ الحديثَ عن جماعةِ المتّقين، وللإشارةِ إلى كثرةِ المشفقين.

بلاغة التّعريض في لفظ الاشفاق:

في مدحِ المتّقينَ المشفقينَ من أهوالِ السّاعةِ تعريضٌ بمنْ أنكرها

الإشفاقُ خَوْفٌ يُصاحبُه الحذر ممّا تخاف، وفي وصفِ المتّقين في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ بكونهم مشفقين من أهوالِ الساعةِ، وما يقعُ فيها من حسابٍ دقيقٍ، أي خائفين خوفًا مصحوبًا

بالحذرِ منها؛ مخافةَ أنْ تقومَ عليهم قبل أنْ يُعِدّوا أنفسَهم لها إعدادًا كاملًا يُفرحهم بجزاءِ اللّه ساعة يَلْقَوْنَه، وفي هذا الوصف تعريضٌ بأولئك الكافرينَ الجاحدينَ الّذين يُنكرونها، ويستعجلون حدوثَها، فلا يخافون قيامَها ولا يحذرونها بالاستعدادِ لها.

العدول عن الجملة الفعليّة إلى الاسميّة:

حالُ المتّقين فيما يتعلّق بالآخرة هو الإشفاقُ الدائم

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن الخطابِ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إلى الخطابِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾؛ لضَرْبٍ من التَّأكيدِ والمُبالَغةِ، فقد جيءَ بالاسميَّة هنا تنويهًا بالخاصِّ بعْدَ العامِّ، فالخشيةُ مِن اللّه مستمرّةٌ متجدّدةٌ ملازمةٌ لهم، ولكنَّها من السّاعةِ أكثرُ مُلازَمةً، وأشَدُّ امتلاكًا لقُلوبِهم، وأسْرًا لجَوارِحِهم، بما يجعلُهم يتفادَون كلَّ ذنْبٍ؛ خَشيةَ مواجهتِها بما هم فيه[1]، وأمرٌ ثانٍ هو دَيمومةُ الإشفاق من السّاعةِ واستمرارُها، خصوصًا اللَّذانِ تُفيدُهما الجملةُ الاسميَّةُ أكثَرَ ممّا تُفيدُهما الجملةُ الفِعْليَّةُ الَّتي تتوزَّعُ على الأزمنةِ[2].

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشية والخوف والرّهبة والهيبة والوجل:

أشدُّ الخوفِ خوفُ المتّقين تعظيمًا للخالق ومهابةً لعلمهم بعظمته

الخَشْيَة: خَوْفٌ وذُعْرٌ، وهي أشدّ الخوف، والخشْيَة: خَوْفٌ شديدٌ مَشوب بعظَمَةٍ وتعظيم للمخوَّف منه، وأكثر ما يكون ذلك عن علْمٍ بما يُخشى منه[3]، فالخشيةُ للعلماءِ العارفين، وعلى قَدْرِ العِلْمِ والمعرفةِ تكون الخشية[4]، والخَوْفُ: أصلهُ يدلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ[5]،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 327.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 327.

(3) الرّاغب، المفردات: (خشى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 505، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خشي).

(4) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 546.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خوف).

والخوفُ: توقُّعُ مكروه عن أمارةٍ مَظْنونَةٍ، أو معلومة، ويُضادّه الأمنُ[1]، والخوفُ فيه قلقٌ واضطرابٌ، ويُعبَّر عنه بالجَزَع[2]، الخَوْف يتَعَلَّق بالمكروه، والخشية تتَعَلَّق بمُنزلِ المَكْروه، ولا يُسمَّى الخَوْف من نفسِ المَكْروه خشيَة[3]، والرّهبةُ: مخافةٌ مع تحرّزٍ واضطراب[4]، وطولُ الخَوْف واستمرارُه؛ لذا قيل للرّاهب راهِبٌ؛ لِأنَّهُ يداوم الخوف[5]، والهيبةُ: مخافةٌ مع إجلال، وتوقير، وتعظيم، والتَّقيَّةُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، والمؤمنَ يَهابُ الذُّنوبَ والمعاصيَ فيَتَّقيها[6]، والوجلُ: استشعارُ الخوف[7]، ورَجَفانُ القَلْب وانْصِداعُه لذِكْرِ مَنْ يُخاف سَطْوتُه وعُقوبتُه أو لِرُؤْيته[8]، ولمّا كان خوف المُتَّقين أشدَّ ما يكون تعظيمًا للخالق ومهابةً منه عن علمٍ ومعرفةٍ بعظمته، وسعة علمِه، وقدرتِه، وسلطانِه، ناسَبَ أنْ يُعبِّر عن ذلك بفعل الخشيةً؛ فالخشيةُ حالةٌ تحصلُ عند الشّعور بعظمةِ الخالقِ وهيبته وخوفِ الحجب عنه، وهذه حالةٌ لا تحصل إلا لمن اطّلعَ على حالِ الكبرياء وذاقَ لذّةَ القُرْبِ، فالخشيةُ خوفٌ خاصٌّ[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 541.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.
(4) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (هيب).
(7) الرّاغب، المفردات: (وجل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 286.
(8) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 165.
(9) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 218.

﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠﴾ [الأنبياء:50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحديثُ عن القرآنِ بعد فرقانِ موسى الّذي يُقِرّ به الكافرون توبيخٌ لهم

لَمّا ذكَرَ اللّهُ فُرقانَ موسى عليه السلام، وكان العَرَبُ يُقرّون به، ويُشاهِدونَ إظهارَ اليهودِ للتمَسُّكِ به والمُقاتَلةِ على ذلك والاغتِباطِ؛ حَثَّهم على التمسّك بالكتابِ الّذي هو أشرَفُ منه، والّذي أُرْسِلَ مع محمّد ﷺ، ووبّخهم على إنكارهم صِدقَه فقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾[1]، فعَقَّبَ التَّعْريضَ بالَّذينَ لَم يَهْتَدوا بِكِتابِ اللّه الّذي أنزله على موسى بِذِكْرِ المَقْصودِ مِن سَوْقِ الكلامِ النّاشِئَ عنه، وهو المُقابلةُ بقوله ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ حثًّا للمخاطبين من العربِ وتوبيخًا لهم وتهديدًا[2]، وتذكيرًا للمخاطبين من اليهود بوجوب الإيمان بالقرآن؛ لأنّه منزّلٌ من عند اللّه مثل التّوراة الّتي يؤمنون بها[3].

توسيطُ خبَرِ إنزالِ القرآنِ بين قصّة موسى وإبراهيمَ عليهما السلام

لَمّا ذَكَرَ ما آتى موسى وهارونَ عليهما السلام أشارَ إلى ما آتى مُحَمَّدًا ﷺ فقالَ: ﴿وَهَٰذَا﴾ أي القُرْآنُ ﴿ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ أيْ كَثيرةٌ مَنافِعُهُ، غَزيرٌ خَبَرُهُ[4]، بل أثْبَتُ الكُتُبِ وأكْثَرُها فوائِدَ، موسِّطًا إيّاه سبحانه بين قصّةِ موسى وهارون، وقصّةِ إبراهيم (حاطمَ الأوثان) فكذلك القرآن؛ إذ أزالَ الأوثانَ من الجزيرة العربية، بوصفه أكملَ كتابٍ للشرائع، فلا يَعروهُ تغييرٌ ولا تبديلٌ[5]، فقد تكفّل العظيم سبحانه بحفظه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذِكۡرٞ﴾: تقدّم شرح معنى الذِّكر وأصلُه في تفسير الآية

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 432.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.
(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 369.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 437.
(5) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4879.

(48)، وخصوص المعنى في قوله تعالى هنا: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ﴾، أي: وهذا القرآنُ الذي أنزلناه على محمّد ﷺ ذكرٌ لمن تذكّر به، وموعظةٌ لمن اتّعظ به[1].

2) ﴿مُنكِرُونَ﴾: (نكر) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إلَيْها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيْءَ وأنْكَرَهُ: لَم يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَم يَعْتَرِفْ به لِسانُهُ، والإنْكارُ: خِلافُ الاعْتِرافِ، والاستنكارُ: استفهامُك أمرًا تُنكِرُهُ[2]، والإنْكارُ: الجُحودُ، والمُناكَرَةُ: المُحارَبَةُ، والتَّناكُرُ: التَّجاهُلُ، والمُنْكَرُ مِنَ الأمر: خِلافُ المَعْروفِ، والنَّكِرَةُ إنكارُك الشَّيْءَ، وهو نَقيضُ المَعْرِفَةِ، وكلُّ ما قَبَّحَهُ الشَّرْعُ وحَرَّمَهُ وكَرِهَهُ فهو مُنْكَرٌ[3]، ومعنى ﴿مُنكِرُونَ﴾، أي: جاحِدونَ أنّه منزَّل من عند اللّه مكذِّبون به[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المعنى الإجماليّ في البيان الإلهيّ: إنّ هذا القُرآنَ ذِكْرٌ لِمن تذكَّرَ به، وموعظةٌ لمن اتّعظَ بِهِ، وعَمِلَ بأوامِرِه واجتَنَب نواهيَه، كثيرُ الخَيرِ، عَظيمُ النَّفعِ، في الدّنيا والآخرة، أنزَلْناه على مُحَمَّدٍ ﷺ كما أنزَلْنا التوراةَ إلى موسى وهارون ذِكْرًا للمتّقين، أفتُنكِرونَ نزولَه من عندِ اللّهِ، وهو في غايةِ الظُّهورِ والبَيانِ؟!، وكيف تُنكِرونَ كَونَه مُنَزَّلًا من عِندِه سُبحانَه مع اعترافِكم بأنَّ التَّوراةَ مُنَزَّلةٌ من عندِه[5].

إنـــزالُ الـقـرآن ليس بِـدْعًـا ولا عَجَبًا إنّـما أمرٌ مسبوقٌ وسُنّةٌ معروفةٌ

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستئناف في الآية:

بـيـانُ إعـجـازِ الـقـرآنِ وتوبيخُ مَنْ جَحَدَ صِدقَه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 454، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 100.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيديّ، تاج العروس: (نكر).

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 100، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 3/ 291، والنَّسَفِيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 407.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 454.

﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استئنافيّةٌ، والجملةُ مستأنفةٌ لخطابِ أهلِ مكَّةَ ومحاورتهم حولَ القرآنِ الكريم الذي أُنزلَ بلسانهم[1]، وفي هذا الاستئنافِ - بعد ذكرِ شأنِ موسى وهارون والمدح لمن آمنَ وصدّقَ وخشيَ اللّهَ بالغيبِ، وعملَ للسّاعةِ واستعدّ لها، والتّعريض بمن أعرض - بيانٌ بأنّ القرآنَ ليس بِدْعًا ولا عجبًا، إنّما هو أمرٌ مسبوقٌ وسنّةٌ معروفة، وتوبيخٌ وتقريعٌ لمن أنكره وجحدَ صدقَه ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، فماذا تنكرون منه، وقد سَبَقَتْ به الرِّسالاتُ؟

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للقريب:

في بيانِ قربِ القرآنِ من الأفهامِ والانتفاعِ به زيادةُ تقريعٍ وتوبيخٍ لمن أنكره

عبّر البيانُ القرآنيُّ في الإشارة إلى القرآن باسم الإشارة الدالّ على قُربِ المُشارِ إليه في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾؛ إيذانًا بغايةِ وُضوحِ أمرِهِ[2]، وإيماءً إلى سهولةِ تناوُلِه عليهم[3]، وقُربِه من الأفهام، والانتفاعِ به، والاهتداءِ بهديه[4]، لأنَّ حُضورَه في الأذهانِ وفي التِّلاوةِ بمَنزِلَةِ حُضورِ ذاته[5]، فهو المعهودُ الممتازُ بالبلاغةِ والبراعة[6]، فهم يسمعون تلاوته، ويتحدّاهم أنْ يأتوا بمثله فيعجَزون، ويعاينون آثارَه في إيمانِ المؤمنين[7]، ولأنّه سبقَ ذكرُه في السّياق في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾، ومناسبةً للمقام الّذي يقتضيه من حيثُ تسميتُه (ذِكْرًا)؛ لأنّ ذِكْرَ الشّيءِ يقتضي قُرْبَه، وقُرْبُ الشّيءِ يقتضي ذِكْرَهُ وحضورَه في الذِّهْن، ولأنَّ في قُرْبِه تقريرًا للمخاطبين بحضورِه ومثولِه أمامَ أعينهم لاستقباحِ إنكارهم لشيءٍ دانٍ منهم، يرونه ويحقّقونه، وما كان شأنُه ذلك فما أجهلَ مَنْ يُنكِرُه؟![8].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 325.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 432.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 911.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 534.
(7) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4880.
(8) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 372.

وفي هذا كلّه زيادةُ تقريعٍ وتوبيخٍ لهم، فهُم يُنكرون ما هو قريبٌ منهم بسماعِ تلاوتِه من النَّبيِّ ﷺ، وبما يعرفونه فيه ويشاهدونه من البلاغة والبراعة، وما هو قريبٌ إلى أفهامهم، وهو سببٌ في هدايتهم وإصلاحِهم بما يحملُه من ذكرى وموعظةٍ، وهو سببُ رفعةِ شأنِهم، وفي المقابل يُقرّون بما هو بعيدٌ عنهم وهي التّوراة التي لم يَرَوْها ولم يقرؤوها، وهي قد حُرِّفَتْ وبُدِّلَتْ، ولن تكون سببًا في هدايتهم وإصلاحِهم ورفعةِ شأنهم.

سرّ التّعبير بالذِّكر وتنكيره:

القرآنُ ذِكْرٌ يُتْلَى ويُكَرَّرُ، وبه يُتَّعظُ ويُذكَّرُ، وبشرفه يعلو شأنُ المؤمنِ ويكْبُرُ

وصَفَ البيانُ الإلهيُّ القُرْآنَ وعرّفه في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ﴾ بأنَّهُ ذِكْرٌ؛ لِأنَّ لَفظَ الذِّكْرِ جامِعٌ لِجَميعِ الأوْصافِ المُتَقَدِّمَةِ من الفرقانِ والضّياءِ والذِّكرى للمتّقين[1]، ولأنّه الكلام الَّذي شَأْنُهُ أنْ يُذْكَرَ، أيْ يُتْلَى ويُكَرَّرَ[2]، وأنْ يُذكِّرَ بالعذابِ والثّواب، وفيه تذكيرٌ بالله تعالى، وإذا امتلأتِ القلوبُ به كان فيها ذكرٌ دائم، وبه تطمئنُّ القلوبُ، وتذهبُ الوساوسُ، ولا تضطربُ، ولا تفزعُ ولا تهلعُ ولا تجزعُ[3]، ولأنّه شرفٌ للعرب، ولكلّ من يؤمنُ به[4]، ولِمُناسَبَةِ المَقام؛ إذ وُصِفَ بالوصفِ الأخيرِ لِلتَّوْراة: ﴿وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، ولموافَقَتِه لما مَرَّ في صَدْرِ السُّورَةِ الكَريمَةِ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾ [الأنبياء:2][5].

وفي هذا كلِّه إيحاءٌ وإعلامٌ بأنّه ينبغي ألّا يزولَ عن الخاطر، وألا يتطرّق إليه نسيانٌ؛ لأنه ذِكْرٌ من عندِ الله ولأنّه مباركٌ، فيه نعيمُ الدُّنيا والآخرة، والجاهلُ مَنْ يَحْرِمُ نفسَه الخيرَ والبركة[6]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 163.
(3) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4880.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 219.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(6) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 372.

وتنكيرُهُ لإفادةِ التّفخيم والتّعظيم، فهو ذكرٌ عظيمٌ[1]، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقدَّرُ قَدْرُهُ.

توجيه نَعْتِ الذِّكْر بلفظ ﴿مُّبَارَكٌ﴾ وتنكيرُه:

القرآنُ كثيرُ الخَيْرِ غزيرُ النَّفْعِ وأثْبَتُ الكُتُبِ وأكْثَرُها فوائِدَ

وصفُ القُرآنِ بالمُبارك في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾، أي: يعُمُّ نواحي الخيرِ كلَّها؛ لأنَّ البَرَكَةَ زيادةُ الخَيْرِ؛ فالقُرآنُ كُلُّهُ خَيْرٌ من جهةِ بلاغَةِ ألْفاظه وحُسْنِها، وسُرعةِ حفظِه وسهولةِ تلاوتِه، وهو أيضًا خَيْرٌ لما اشتملَ عليه من أفْنانِ الكلام، والحِكْمَةِ والشَّريعَةِ، واللَّطائِفِ البَلاغيَّة، وهو في ذلك كلِّه آيَةٌ على صِدْقِ الَّذي جاءَ به؛ لأنَّ البَشَرَ عجزوا عن الإتيانِ بمثلِه، وتَحدّاهم النَّبيُّ ﷺ بذلك فما استطاعوا، وبذلكَ اهْتَدَتْ به أُممٌ كثيرةٌ في جميعِ الأزْمانِ، وانْتَفَعَ به مَن آمَنوا به، فكانَ وصْفُهُ بأنَّه مُبارَكٌ وافيًا على وصْفِ كتابِ موسى عليه السلام بأنَّهُ فُرْقانٌ وضياءٌ[2]، وهو مع ذلك كتاب يُتَبَرَّكُ به[3]، وهو أثْبَتُ الكُتُبِ وأكْثَرُها فوائِدَ[4].

وتنكيرُهُ لإفادةِ التّفخيم والتّعظيم لهذه البركة الّتي لا يسعها حَدٌّ، ولا يوفّيها قَدْرٌ، فهي بركةُ كلامِ اللّه الخالدةُ بخلوده سبحانه، وفي هذا إعلامٌ وإيحاءٌ بأنّه ينبغي على العاقل أنْ ينتفعَ ببركاتِ القرآن، وأنَّ الجاهلَ هو الذي يَحْرِمُ نفسَه من الخيرِ والبركة.

إيثار فِعْل (الإنزال) ماضيًا معظَّمًا بالإضافة إلى الضمير:

إنزالُ القرآن من العظيم رِفْعَةٌ لقَدْرِ القرآن وبيانٌ لزيادة شرفه

جُعِلَ الوحْيُ إلى الرَّسولِ ﷺ إنْزالًا في قولُه تعالى ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ ولم يقل: آتيناه كما ذَكَرَ ربُّنا في قوله عند الحديث عن موسى وهارون ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ وعند الحديث عن إبراهيم ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾؛ لِما يَقْتَضيه

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 432.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 90.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 432.

الإنْزالُ مِن رِفْعَةِ القَدْرِ، إذْ عُدَّ مُسْتَقِرًّا في العالَمِ العُلْوِيِّ حَتّى أُنْزِلَ إلى هَذا العالَمِ، وزادَهُ تَشريفًا بإسنادِ إنزالِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ[1]، ولِما فيه من تمييزٍ عن بقيّة الكتب؛ إذ هو خاتَمُها والمهيمن عليها، ولِما فيه من تَسليةٍ للرَّسولِ ﷺ؛ إذْ أنكَرَ ذلك المُشرِكون كما أنكَرَ أسلافُ اليهودِ ما أنزَلَ اللّهُ على موسى عليه السلام[2].

بلاغة الاستفهام بـ(الهمزة) ﴿أَفَأَنتُمْ﴾:

توبيخٌ للمشركين المنكرين وحْيَ القرآنِ لكونهم أعرفَ الناسِ ببلاغته

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ مجازيٌّ إنكاريٌّ؛ والخطابُ لأهلِ مكّة تقريعٌ لهم[3]؛ لإنكارِهم القرآنَ بعْدَ ظُهورِ كونِ إنزالِه كإيتاءِ التَّوراةِ؛ فإنَّ ذلك بَعْدَ ملاحظَةِ حالِ التَّوْراةِ مِمّا لا مَساغَ له أصلًا[4]، وفيه توبيخٌ وتعجُّبٌ مِن إنكارِهم صِدْقَ هذا الكتابِ، ومِن استمرارِهم على ذلك الإنكارِ[5]، أي أَنْكَرَ عليهم رَدَّهُ، ووبَّخَهم في سياقٍ دالٍّ عَلى أنَّهم أقَلُّ مِن أنْ يَجْتَرِئوا على ذلك، مُنَبِّهًا عَلى أنَّهم أوْلى بِالمُجاهَدَةِ في هذا الكتابِ مِن أهْلِ الكتابِ في كتابِهِم؛ فكيف ترتَضون أن تكونوا أدنى منهم مع تَشْريفِكم عليهم، وعلى غيرِهم مع أنَّكم لا تُنْكِرون كتابَهم!! والمؤمَّلُ منكم أنّه لو أنْكَرَهُ غيرُكم لكانَ ينبغي لكم مُناصبَتُهُ العِداءِ، فكيفَ يكونُ الإنْكارُ مِنكُم؟! وأنتم أعرفُ النّاسِ ببلاغته[6]، وهذا دليلٌ واضحٌ على جحودكم للحقِّ بعد أنْ تبيَّنَ لكم[7]، وقد يكون هذا الإنكارُ كذلك لليهود[8]، ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ المعانيَ النّاشئةَ من الإنكارِ المجازيِّ مثل: التّقريع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 91.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 437.
(3) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1203.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(5) البَيْضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 53، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 437، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 91.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 432.
(7) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 219.
(8) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 911.

والتّوبيخ والتعجّب لا تتعارض معه، ولا ضيرَ في الجمع بينها؛ لأنّ المقامَ يقتضيها جميعَها[1].

معنى الفاء في ﴿أَفَأَنتُمۡ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ عاطفةٌ تفيدُ التّرتيبَ، والتّقدير: (وهذا ذِكْرٌ مباركٌ أفأنْتم له مُنْكِرون)[2]، فالفاءُ رَتَّبتِ الاستفهامَ الدّالَ على استنكارِ الواقع - وهو عدمُ الإيمانِ في الوقتِ الذي كان يجبُ الإيمان به - على الحقيقة الثّابتة للقرآن، وهي كونُه ذِكْرًا مباركًا، أي: يترتّبُ على هذه الحقيقة سؤالُهم أأنْتُم له مُنْكِرون[3].

كَوْنُ القرآنِ ذِكْرًا مباركًا يَسْتَوْجِبُ الإنكارَ على مَن يُنكِرُه

وهذا التّرتيبُ يشيرُ إلى قُبحِ إنكارهم، وأنّه جريمةٌ عقليّةٌ، وهو جحودٌ بما قامَ الدَّليلُ عليه من التَّوحيدِ وإعجازِ القرآن.

عَوْدُ الضَّمير ﴿أَفَأَنتُمۡ﴾:

الضّميرُ ﴿أَفَأَنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ قد يكونُ خطابًا للمشركين، وفيه تهديدٌ لهم، وتعريضٌ باليهود، أي: أفأنتم منكرون لهذا الذِّكر، غيرُ آخذين بهديه، كما هو الشَّأنُ عند اليهودِ مع كتابهم؟ وقد يكون الخطابُ لليهودِ، والمعنى: أفأنتم منكرون لهذا الكتابِ، كما ينكرهُ هؤلاء المشركون، وقد عرفتم وجهَهُ بما عندكم من كتابِ اللّه الّذي في أيديكم؟[4].

الخطاب بالضّمير بين التّهديدِ والتّعريضِ على إنكار القرآن

وَجهُ إظهار الضّمير ﴿أَفَأَنتُمۡ﴾ وتقديمُه:

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الضّميرَ ﴿أَفَأَنتُمۡ﴾ سواءٌ أكانَ عائدًا إلى المشركين أم إلى اليهود، وقدّمهُ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ

استحقاق المشركين للتّوبيخ لمعرفتهم ببلاغةِ الكتابِ المنزَّلِ بِلُغَتِهِم

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 372.

(2) قُدمت الهمزة لأن من خصاصها تقديمها على العاطف تنبيها على أصالتها في التصدير، السيوطي، الإتقان: 2/ 168.

(3) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4880.

(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 911.

﴿مُنكِرُونَ﴾، فلم يقل: (أفيُنْكَر)؛ مبالغةً في توبيخهم؛ لكونِ هذا التّقديمِ والإظهارِ جعلَ الجملةَ اسميّةً، بما يدلّ على ثباتِ هذا الوصفِ فيهم، ولأنّهم لّما كانوا عارفين ببَلاغة القُرآن كان إنكارهم أشنعَ من إنكارِ غيرهم، فكأنَّ الإنكارَ منحصرٌ فيهم[1]، ولهذا فسّرها الطَّبَريُّ بقوله: "أفأنتم أيّها القوم لهذا الكتابِ الّذي أنزلناه على محمَّدٍ مُنكِرون"[2].

بلاغةُ تقديم شِبْه الجملة ﴿لَهُۥ﴾ على الخبر:

جحودُ الكافرينَ لصدقِ القرآن خاصّة دون غيره دلالةٌ على حمقهم وكِبْرِهم

قدّم القرآنُ شبهَ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾ على الخبر ﴿مُنكِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؛ لأنّ له خصوصيّةً في قبح الإنكار، ولذا سُرِّعَ به فقُدِّم؛ لأنّ الإنكارَ من حيث إنّه إنكارٌ قد يُستحسنُ إنْ كان لشيءٍ ضارٍّ، أمّا إيقاعُه على القرآن المُكَنَّى عنه بالهاء في ﴿لَهُۥ﴾ فهذا هو مُنكَرُ المنكرات[3]، ومِنَ المفسّرين مَنْ رأى في التّقديم حصرًا، أي: حصرَ إنكارَهم للقرآن؛ لأنّهم معترفونَ بغيره ممّا في أيدي أهلِ الكتاب[4]؛ وذلك مبالغةً في تقريعهم وتوبيخهم المتحقِّق من الاستفهام، والمعنى: أفأنتم للقرآنِ خاصّةً دون كتابِ اليهودِ تُنْكِرون؟ فإنّهم كانوا يراجعون اليهودَ فيما ظهرَ لهم مِنَ المُشْكلات[5]، وفيه دلالةٌ على عظيم حُمقِهم وكِبْرهم، فضلًا عن أنّ في التّقديم إحكامًا وجمالًا في المعنى[6].

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿مُنكِرُونَ﴾:

الجحودُ والإنكارُ للقرآنِ صفةٌ ثابتةٌ ومستمرّةٌ في الكفارِ

عبّر النصُّ القرآنيُّ باسم الفاعل ﴿مُنكِرُونَ﴾ في قوله تعالى:

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 535.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 454.
(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 373.
(4) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 257.
(5) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 219.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 535، والخَفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 257.

﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دون صيغةِ الفِعل، فلم يقلْ: (أفأنتم له تُنكرون)؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في بيانِ ثباتِ صفةِ الجحودِ والإنكارِ للقرآن فيهم، واستمرارها منهم، والتعبيرُ بصيغةِ الجمعِ هي حديثٌ عن جماعةِ المتّقين من قومِ موسى وخطابٌ لجماعةِ المشركين من قومِ النّبيّ ﷺ، وللإشارةِ إلى كثرةِ المنكرين الجاحدين لرسالةِ النّبي ﷺ، ولمعجزةِ القرآن.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

حالُ الكافرينَ ثابتةٌ على جحودِ صِدْقِ القرآنِ وقتَ الخطاب

عبّر النصُّ القرآنيُّ عن توبيخِ الكافرين وتقريعِهم لإنكارهم صِدْقَ القرآن - وهم أدرى النّاس ببلاغته - بالجملة الاسميّة دون الفعليّة؛ لأمرينِ:

الأوَّل: ليَتَأتّى جَعْلُ المُسنَدِ اسْمًا دالًّا على الاتِّصافِ في زمَنِ الحالِ؛ لكونِ إنْكارِهم حاصِلًا منهم في حالِ الخِطابِ، **والثّاني**: لجَعْلِ الجُملةِ دالَّةً على الثَّباتِ في الوصْفِ[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 91.

﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١﴾

[الأنبياء:51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قِصَّةُ إبراهيمَ مع قَومِه شاهِدٌ على بُطلانِ الشِّركِ الذي كان مُماثِلًا لحالِ المُشركينَ

بعد أنْ أنكرَ القرآنُ على المشركين كفرُهم بما أُنزِل على النّبيّ ﷺ مِنَ الذّكرِ المباركِ - وهم أولى النّاس بتصديقِه - أعْقَبَ بذِكْرِ قصَّةِ إبراهيمَ مع قَومِه شاهِدًا على بُطلانِ الشِّركِ الذي كان مُماثِلًا لحالِ المُشركينَ بمكَّةَ الّذي جاء مُحمَّدٌ ﷺ لِقَطعِ دابِرِه؛ لأنَّ إبراهيمَ كان المَثَلَ الأوَّلَ قبل مجيءِ الإسلامِ في مُقاومةِ الشِّركِ؛ إذ قاومَه بالحُجَّةِ وبالقوَّةِ وبإعلانِ التّوحيدِ(1).

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رُشْدَهُۥ﴾: (رشد) أَصْلٌ يدلّ على استقامةِ الطّريق، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خلافُ الغَيِّ(2)، ونقيضُ الضّلال، وأَرْشَدَه اللّهُ إلى الأمر: هداهُ، والرُّشْدُ هو صلاحُ الأمرِ وكونُه على الوجه الصّحيح، وهو استقامةٌ على الطريقِ الحقّ مع تصلّبٍ فيه(3)، وقيل: الرُّشْدُ والرَّشَدُ والرَّشاد: الهدايةُ والاستقامة(4)، ومعنى ﴿رُشْدَهُۥ﴾ في الآية: هُداه(5)، أي: الاهتداء لوجوه الصّلاحِ في الدّين والدّنيا(6)، وقيل المراد بالرُّشْد هنا: النُّبُوّة(7).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 92.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (رشد).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 93.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 100.
(6) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 121، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 151، والبَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 53.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 151.

2) ﴿عَٰلِمِينَ﴾: العِلْمُ: نَقيضُ الجَهْلِ، وتَعَلَّمتُ الشَّيءَ إذا أَخَذْتُ عِلْمَهُ[1]، وعَلِمتُ الشَّيءَ: عَرَفْتُه حقَّ المعرفة، وعَلِمَ بالشَّيْءِ: شَعَرَ، وعَلِمَ الأمرَ وتَعَلَّمَه: أتقنَه، والعالِمُ: الّذي يَعْمَلُ بما يَعْلَم[2]، والعِلْمُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِه، وهو معرفةُ الشَّيء على ما هو عليه، والعالِمُ في وصف اللّه هو الّذي لا يخفى عليه شيء[3]، ومعنى ﴿عَٰلِمِينَ﴾ في الآية، أي: علمنا أنّه أهلٌ لِما آتيناه[4]، وأنّه مَوضعٌ لإيتاء الرّشد، وأنّه يصلحُ لِلنُّبُوَّة[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إخبـارٌ بأنّه سبحانه آتى إبراهيمَ رشدَه وأنّه عالمٌ بأنَّ إبراهيمَ أهلٌ لهذا الإيتاء

المعنى الإجماليّ في البيان الإلهيِّ: ولقد آتَينا إبراهيمَ الاهتداءَ لوجوه الصلاحِ من رفضِ الأصنام، ومن النُّبوَّةِ فما دونَها، مِن قَبْلِ موسى وهارونَ، ووفَّقْناه للحَقِّ، وأنقَذْناه من بينِ قَومِه وأهلِ بَيتِه من عِبادةِ الأوثانِ، كما فعَلْنا ذلك بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وكنّا بإبراهيم عالِمينَ أنَّه ذو يقينٍ وإيمانٍ باللّه وتوحيدٍ له، وأنّه لا يشركُ به شيئًا، أي كنّا عالمين أنّه أهلٌ لذلك الهُدى[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة العطف بالواو في الآية:

العطفُ على قصّةِ إبراهيم تصديقٌ لرسالةِ النبيّ ﷺ لتشابه حالَيْهما

عَطَفَ البيانُ الإلهيُّ قولَه ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ على قوله ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ بجامعِ أنَّ كُلًّا من محمَّدٍ وإبراهيمَ عليهما الصّلاة والسّلام مرسلٌ من ربِّ العالمين لهدايةِ قومه إلى عبادةِ اللّه الواحدِ الأحد، لِما بين القومينِ من تشابهٍ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(3) الرّاغب، المفردات: (علم)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 111.
(4) النَّسَفِيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 407.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 102.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 455.

عبادتهم للأصنام، إلا أنّ الآيةَ الأولى تتحدّثُ عن إيتاءِ اللّه الرّشدَ لإبراهيم في محاجّةِ قومه بالأدلّةِ العقليّةِ والسّمعيّة؛ لإبطالِ هذا الشّرك، والثانية تتحدّثُ عن إنزالِ الذّكرِ المباركِ بما يتضمّنه من توحيدِ اللّه وإبطالِ شركِ قومه.

بلاغة التّوكيد بـ(اللّام) و(قد):

تشنيعٌ على العربِ المشركين المنكرين شريعةَ إبراهيم

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ تأكيدُ الخبَرِ عنه بـ(لام القسَم) وبـ(قد) الّتي تفيد التَّحقيق؛ لتَنزيلِ العرَبِ في مُخالَفتِهم لشَريعةِ أبيهم إبراهيمَ مَنزِلةَ المُنكِرِ؛ لكونِ إبراهيمَ أوتيَ رُشْدًا وهَدْيًا[1]، أي: تأكيدُ إتيانِ إبراهيم العلمَ والإدراكَ، والنَّفاذَ إلى الحقائق في وسطِ الجهالةِ التي مَنعتِ العقول من الإدراك السّليم، وكيف انتهى به تأمّله إلى الإدراكِ الكامل لمعنى الألوهيّة المنزّهة عن المشابهةِ للحوادثِ في أفولها وظهورها، وفي فنائها وبقائها[2].

سرّ إضافة الفعل ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾ إلى ضمير التّعظيم:

في تفخيمِ الرُّشدِ الّذي أوتيه إبراهيم تصديقٌ للنّبيّ الذي كان على ملّته

الإخْبارُ عَنْ إيتاءِ إبْراهيمَ الرُّشْدَ بِإسْنادِ الإيتاءِ إلى ضميرِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾، أي: آتَيْناه بِما لنا مِنَ العَظَمَةِ[3]؛ للتّنبيه على تربيةِ المهابة تُجاه المؤتي سبحانه، وعلى تَفْخيمِ ذلك الرُّشْدِ الَّذي أوتيَهُ إبراهيم، وعلى أنَّه إيتاءٌ مؤكّد بعظمتنا، فهو إيتاءٌ مِنَ اللّه تعالى ووحْيٌ كما أوتيَ مُحَمَّدٌ ﷺ القُرْآنَ، فكيف يُنْكِرون إيتاءَ القُرْآنِ وهم يَعْلَمونَ أنَّ إبراهيم عليه السلام ما جاءَ إلّا بِمِثْلِه؟[4].

غرضُ ذكر إبراهيم مُقدّمًا على نوح ومؤخّرًا عن موسى عليهما السلام:

ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ قِصَّةَ إبْراهيمَ في سياقِ توبيخِ المشركين

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 92.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4881.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 433.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 92.

إبراهيمُ المثلُ الأوّل في مقاومةِ الشِّركِ والأقربُ لحالِ النّبيّ مع قومه

وتقريعِهم على جحودهم صدقَ القرآن الكريم، وهم أولى النّاس بتصديقه، على الرُّغم من إقرارهم برسالةِ موسى وهارون؛ لأنّ إبراهيمَ صاحبُ دعوةٍ ورسالةٍ كموسى وهارون ومحمّد عليهم الصّلاة والسّلام، ولأنّه أبو هؤلاء الأنبياء، وشَريعَتُه أشْهَرُ شَريعَةٍ بَعْدَ شَريعَةِ موسى، ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ موقفَ إبراهيمَ من قومه العابدين للأصنام هو نفسُ الموقف الذي يقفهُ محمّدٌ ﷺ من قومه، أي: إنّ في ذلك تورُّكًا على المُشْرِكينَ مِن أَهْلِ مَكَّةَ إذْ كانوا على الحالةِ الَّتي نَعاها جَدُّهم إبْراهيمُ على قَوْمِهِ، وكَفى بِذَلِك حُجَّةً عليهم[1]، ولأنَّ حالَ إبراهيم أشبَهُ بحالِ النَّبيِّ ﷺ من حيثُ إيتاءُ الكتابِ، وكثْرةُ الدَّلائلِ القاهرةِ، ومُقاساةُ الشِّدَّةِ، وثِقَلُ أعْباءِ النُّبوَّةِ والدَّعوةِ، وكثرةُ التَّوابِعِ والأُمَّةِ، وأنَّ حالَ إبراهيمَ عليه السلام أقرَبُ إليه مِن حالِ نوحٍ عليه السلام، ولذا روعيَ في تأخُّرِه هذه اللَّطيفة[2].

إيثار لفظ (الرّشد):

الـرّشـدُ قـوّةٌ بـعـد الـهـدايـةِ واستقامةٌ وثباتٌ عـلى الـطـريـقِ الحقِّ مع تصلّبٍ فيه

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الرُّشد في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾، ولم يقل: آتينا إبراهيمَ هُداه؛ لكونِ الرّشد أوسعَ دلالةً من الهدى؛ فهو ليس مجرّدَ هدايةٍ إنّما هو هدايةٌ واستقامة[3]، وثباتٌ على الطّريقِ الحقِّ مع تصلّبٍ فيه[4]، وقوّةٌ بَعْدَ الهِدايَةِ، فالرُّشدُ هدايةٌ إلى الطّريقِ الأسَدِّ الصّحيحِ الصائبِ الأقْصَدِ، بخلافِ الهداية التي هي في أصلها الدّلالةُ المطْلَقة[5]، والمعنى: آتيناه صَلاحَهُ وإصابَتَهُ وجْهَ الأمرِ، واهْتِداءَهُ إلى عَيْنِ الصَّوابِ وأَدَلِّ الدَّلالَةِ وأَعْرَفِ العُرْفِ، وأشْرَفِ القَصْدِ الَّذي جبلناه عليه[6]، ولكونه بهذا المعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 92، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 911.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 361.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 93.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رشد).
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 434.

الّذي يعمّ وجوهَ الصّلاحِ بأسرها يحقّقُ غايةَ اختصارٍ مع جزالة المعنى[1]، ولكونه أنسبَ مع السّياقِ الّذي أُضيفَ فيه الفعل ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾ إلى ضميرِ التّعظيم، وأنسبَ مع علوِّ مقام أبي الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام، وعظيم شأنه.

توجيه إضافة الرُّشد إلى إبراهيم عليه السلام:

رشدُ إبراهيم رُشدٌ انفردَ به بين قومه وكانَ مَضرِبُ المثلِ قائمًا به

إضافَةُ (الرُّشدِ) إلى ضميرِ إبْراهيمَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ مِن إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه، أي: الرُّشْدُ الَّذي أُرْشِدَهُ، وفائدةُ هذه الإضافةِ التَّنبيهُ على عِظَمِ شَأْنِ هذا الرُّشْدِ الَّذي أوتيَه، أيْ رُشْدًا يليقُ به، ولأنَّ رُشْدَ إبْراهيمَ قد كانَ مَضْرِبَ الأمثالِ بين العربِ وغيرهم، أيْ: هو الَّذي عَلِمتُم سُمعَتَهُ الَّتي طَبَّقَتِ الخافِقَيْنِ فما ظَنُّكم بِرُشْدٍ أوتيَهُ من جانبِ اللّه تعالى، فإنّ الإضافة على معنى اللّامِ المُفيدةِ للاختصاص، فكأنَّه انفرَدَ به بين قومِه، وأنّه رُشْدٌ مخصوصٌ به، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إبْراهيمَ كانَ قَدِ انْفَرَدَ بالهُدى بَيْنَ قَوْمِه، وزادَهُ تَنويهًا وتَفخيمًا تَذييلُه بالجُملةِ المُعترِضة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، والمعنى: واللّه لقد آتينا بجلالتنا وعِظَم شأنِنا الرُّشْدَ اللّائِقَ بِعُلوِّ مَقام خليلِ الرّحمن وعِظَم شَأْنِه وبِأمثالِه مِنَ الرُّسُلِ الكِبارِ[2]، وهو الاهْتِداءُ الكامِلُ المُسْتَنِدُ إلى الهدايةِ الخاصَّةِ الحاصلةِ بالوحْي، والاقْتِدارُ على إصْلاحِ الأُمَّةِ بِاسْتِعْمالِ النَّواميسِ الإلَهيّةِ[3]، ويشملُ الخِلّةَ والإمامةَ العامّة، وكونَه قدوةَ المحقّقين والمستدلّين على التّوحيد وغير ذلك ممّا لم يؤتَ نبيٌّ قبلَه ولا بعدَه سوى نبيِّنا عليه الصّلاة والسَّلامُ[4]،

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 535.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 437.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 360، والبِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 434، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 535.

وفي هذا كلِّه تعريضٌ بالمشركين لمُخالفتهِم شريعةَ أبيهِم إبْراهيمَ في محاربةِ الأوثانِ، وتحقيقِ التَّوحيد على الأرض.

دلالة ﴿مِن﴾ مع ﴿قَبۡلُ﴾:

إبراهيمُ سابقٌ في رُشده فقد أُوتيَه قبلَ نُبُوَّته وقبلَ موسى ومحمّدٍ عليهما السلام

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ ابتدائيّة، ويختلفُ المعنى وفْقَ معنى ﴿قَبۡلُ﴾، أي: فإمّا أنْ يكون مِن قبْلِ إيتاءِ موسى وهارونَ التَّوراةَ، وإنّما قدّمَ ذِكْرَ إيتاءِ التَّوراةِ لِما بَيْنَه وبينَ إنْزالِ القُرآنِ مِنَ الشَّبه التّامِّ[1]، أو للتَّنبيه على أنَّه ما وقَعَ الابتداءُ بإيتاءِ الذِّكْرِ لموسى وهارونَ إلّا لأنَّ شَريعتَهما لم تزَلْ مَعروفةً مَدروسةً[2]، وإمّا أنْ يكون المعنى من قبل محمّد ﷺ[3]، أو من قَبْلِ نبوّة إبراهيم، أي: وفّقناه للنّظرِ والاستدلالِ[4]..

توجيه العطف بالواو:

إيتاءٌ عظيمٌ مترتّبٌ على علمِ الله الأزليِّ بأنّ إبراهيمَ يستحقّه

عطفَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ على جملةِ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾؛ بجامع أنّ الفاعلَ في كلٍّ منهما هو اللّه ﷻ، أي: في ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾ و﴿وَكُنَّا﴾، ولكنّه في الأُولى أخبرَ عن إتيانه إبراهيمَ الرشدَ، وفي الثانية أخبرَ عن مدحِ إبراهيمَ بكون اللّه عالمًا علمًا أزليًّا بأنَّ إبراهيم أهلٌ لإيتاءِ الرُّشْدِ وصالحٌ لِلنُّبوَّةِ، قال البَيضاويُّ: "عَلِمنا أنّه أهلٌ لما آتيناه"[5]، وفي هذا العطفِ بين الجملتين إشارةٌ إلى زيادة تفخيمِ هذا الإيتاءِ من اللّهِ، وعظم مكانةِ إبراهيم عنده؛ لأنّها أفادتْ أنّه إيتاءٌ مترتّبٌ على علمه الأزليّ سبحانه بأنّ إبراهيم يستحقّه.

سرّ التعبير بفعل الكون الماضي المعظّم:

في تأكيدِ علمِ اللهِ بحالِ إبراهيم ظاهرًا وباطنًا مدحٌ للرُّشْدِ الّذي اختُصَّ به

آثر البيانُ الإلهيُّ استعمالَ فعلِ الكون الماضي مضافًا إلى جمعِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 93.
(3) النّسَفِيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 408.
(4) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(5) البَيْضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 53.

التّعظيم ﴿وَكُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾؛ للدّلالةِ على مدحِ الرُّشْدِ الّذي اخْتُصَّ به إبراهيمُ ﷺ؛ بتأكيدِ علم اللّه لحالِ إبراهيم ظاهرًا وباطنًا، أيْ إنَّهُ يَسْتَحِقُّ ما أُهِّلَ لهُ، وهذا نحوَ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:124][1]، لأنّ قوله ﴿وَكُنَّا﴾ تفيدُ معنى الأزليّة[2]؛ أي علمه بحالِ إبراهيم ﷺ وشؤونه علمُ إحاطةٍ وشمول، والمعنى: وكُنّا بما لنا مِنَ العَظَمَةِ عالمِين بإبراهيم ظاهِرًا وباطِنًا، وأنّه خَيِّرٌ يَدومُ على الرُّشْدِ، ويَتَرَقّى فيه إلى أعْلى دَرَجاتِه لِما طَبَعْناهُ عليه بِعَظَمَتِنا من طبائِعِ الخَيْرِ[3].

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على الخبر:

اهْتِمامٌ وعِنايَةٌ بإبراهيم ﷺ وبرُشْدِه

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، ولم يقل: (وكنّا عالمين به)؛ للاهتمام والعنايةِ بالمقدَّم وهو إبراهيمُ ﷺ، ورفعةِ شأنِ الرُّشْدِ الّذي اخْتُصَّ به، ولِما يُحَقِّقُهُ هذا التّقديم من إحكامٍ في اللّفظِ والمعنى.

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿عَٰلِمِينَ﴾:

عِلْمُ الله الأزَليُّ الثّابتُ بأحوالِ إبراهيم شاهدٌ على كمالِ رُشْدِه

استعملَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، صيغةَ اسمِ الفاعلِ ﴿عَٰلِمِينَ﴾ ولم يستعملْ صيغةَ المضارعِ: (وكنّا نعلمُ به)؛ للدّلالةِ على ثباتِ صفةِ علم اللّه الأزليّ بكلّ جزئياتِ أحوالِ إبراهيمَ ﷺ في كلِّ الأوقات والأمكنة، أي: عالمِينَ بنشأته وتربيته وأفعاله وأقواله، وكيف ربّيناهُ، وكيف صُنِعَ على أعْيننا، وربّينا فيه روحَ الحقِّ وتَتَبُّعَه والوصولَ إليه[4]، وجاء اسمُ الفاعلِ مجموعًا؛ لإفادةِ التّفخيم والتّعظيم لِعلْمِ اللّه سبحانه.

(1) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 4/ 86.

(2) لكونها في حقّ الله تعالى، ينظر: الرّاغب، المفردات: (كان).

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 434.

(4) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4881.

بلاغة جملة الفاصلة الاعتراضيّة:

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ بين جملةِ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ وجملةِ ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾؛ إذ أصلُ الكلام (ولقد آتينا إبراهيم رُشدَه من قبلُ؛ إذ قال لأبيه وقومه)، والغرضُ منها المبالغةُ في التنويه بأهليّةِ إبراهيم عليه السلام للرّشد الكامل، والتّفخيم والتّعظيم لشأنِ هذا الرّشد الّذي أُوتيَهُ من جانبِ اللّه تعالى وانفردَ به، والمعنى: آتَيناه رُشدًا عَظيمًا على علم مِنّا بأنَّه أهلٌ لذلك الرُّشدِ، وهذا العِلمُ الإلهيُّ مُتعَلِّقٌ بالنّفسيَّةِ العظيمةِ الّتي كان بها محَلَّ ثَناءِ اللّه تعالى عليه في مواضِعَ كَثيرةٍ مِن قرآنِه، أي: عَلِمَ مِن سَريرتِه صِفاتٍ قد رَضيَها وأحمَدَها، فاستأْهَلَ بها اتّخاذَه خَليلًا، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢﴾ [الدّخان:32]، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام:124][1].

علِمُ الله بأحوال إبراهيم مبالغةٌ في التنويه بأهليّة رشده وتفخيمٌ لهذا الرُّشدِ

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّشد والهدى والحِكْمة والحلم:

الرُّشد: خلافُ الغَيِّ والضّلال، وهو استقامةٌ على الطّريق الحقّ مع تصلّبٍ فيه، والهداية وصلاحُ الأمرِ على الوجه الصّحيح بإصابة الصّواب[2]، والهدى: خِلافُ الضَّلالَة، وأصله التَّقَدُّمُ لِلْإرْشادِ[3]، والدّلالةُ بلطفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المطلوب، بالإرشاد، والتّعريف، والبيان[4]، والاهتداءُ يختصُّ بما يتحرّاه الإنسانُ على طريقِ الاختيار، إمّا في الأمور الدّنيويّة، أو الأخرويّة[5].

شدّة ضلال قوم إبراهيم عليه السلام تَتَطلّب شدّةً في إظهار الحقّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 93.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رشد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (هدى).

(5) الرّاغب، المفردات: (هدى).

والحكمةُ: مَعْرِفَةُ أَفْضَلِ الأشياء بِأَفْضَلِ العُلومِ، ويُقالُ لِمَنْ يُحْسِنُ دَقائِقَ الصِّناعات ويُتقنها حَكيمٌ[1]، والحكمةُ: إصابةُ الحقّ بالعلمِ والعقل، والحكمة من الله: معرفةُ الأشياءِ وإيجادها على غايةِ الإحكامِ، ومن الناس: معرفةُ الموجوداتِ وفعل الخيرات[2]، وسُمّيَتِ الكلمةُ الواعظةُ حكمةً لأنّها تمنع عن التّورّط في الجهل[3].

والحِلْمُ: الأناةُ، والعقلُ، وتَرْكُ العَجَلَة، وضبطُ النَّفس والطَّبْعِ عَن هَيَجانِ الغَضَب، وهو خِلافُ الطَّيْشِ[4]، والحِلْمُ: التّروّي والتّدبّر قبل الحكم[5].

ولمّا تضمّنَ الرُّشدُ معنى الصّلاح والهداية إلى الطّريقِ الحقّ مع تصلُّبٍ فيه، ناسب سياق مواجهة إبراهيمَ ﷺ لأبيه وقومه لاتّسامِها بالشّدّة، والقوّة، والتّهديد.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 441.
(3) العسكريّ، الوجوه والنَّظائر، ص: 180 - 181.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيدِيّ، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (حلم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلم).

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢﴾ [الأنبياء:52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ إجمالِ المدحِ بإيتاءِ إبراهيمَ الرّشدَ جاء بيانُه وتعليلُه

بعد أنْ أعْظَمَ البيانُ الإلهيُّ المَدْحَ لإبراهيم، وأنّه آتاهُ الرُّشْدَ اللّائقَ به أطنبَ في تَفْسيرِ هذا الرُّشْدِ وهو الدُّعاءُ إلى تَوْحيدِ اللّه، ورَفْضِ ما عُبِدَ من دونِه، وأنَّهُ عالمٌ بما آتاهُ به عليه السلام فقال: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾[1]، ويُعَدُّ هذا تعليلًا لوصفه؛ ليُوقفَ على كمالِ رُشدِه وغايةِ فضله[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾: (مثل) أصلٌ يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومَثِيلٌ كَشَبيهٍ[3]، والتِّمثالُ: الصّورةُ، والجَمْعُ التَّماثيل، ومَثَّلَ لَهُ الشّيءَ: صوَّره حَتَّى كأنّه يَنْظُرُ إليه، والتِّمثالُ: اسْمٌ لِلشَّيْءِ المَصْنوع مشبَّهًا بِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِ اللّه، وأصلُهُ مِنْ مَثَّلْتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ إذا قدَّرتُه على قَدْرِه، ويكونُ تَمثيلُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ تَشْبيهًا بِهِ[4]، ومعنى ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويّ، أي التّماثيل: الأصْنام، والصّورُ المجسَّمة الّتي صنعتموها مماثلين بها ما فيه روحٌ كالإنسان أو الحيوان[5].

2) ﴿عَٰكِفُونَ﴾: (عكف) أَصْلٌ يَدُلُّ على مُقابَلَةٍ وحَبْسٍ، يُقالُ: عَكَفَ يَعْكُفُ ويَعْكِفُ عُكوفًا، وذَلِكَ إقْبالُكَ على الشَّيْءِ لا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 103، والبِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 90، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4882.

تَنْصَرِفُ عَنْهُ[1]، وقيل عَكَفَ على الشَّيْءِ: أقامَ، والعُكوفُ: الإقامةُ في المَسْجِدِ، ويُقالُ لِمَنْ لازَمَ المَسْجِدَ وأقامَ على العِبادة فيهِ: عاكِفٌ ومُعْتَكِفٌ[2]، والعُكوفُ: اللَّبْثُ والإقامةُ، وقيل: هو الإقبالُ على الشّيء وملازمته على سبيلِ التّعظيم[3]، ومعنى ﴿عَٰكِفُونَ﴾ في الآية: مقيمون على عبادتها[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ رُشدِ إبراهيمَ حـرصُـهُ على انـتـشـالِ أبيه وقـومـه من حضيضِ الشّرك

المعنى الإجماليُّ في البيان الإلهيِّ: وكنّا عالمين بإبراهيم أنّه ذو يقينٍ وإيمانٍ باللّه وتوحيدٍ له، لا يشركُ به شيئًا في وقتِ قيلِه لأبيه آزَرَ وقومِه المُشرِكينَ: ما هذه الأصنامُ التي أنتم مُقيمونَ على عِبادتِها، والحالُ أنّكم مثَّلتُموها ونحتُّموها بأيديكم على صورِ بَعضِ المخلوقاتِ، فكيف تعبُدونَ ما تَنحِتون؟![5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

بـيـانٌ وتـعـليـلٌ لـكـمـالِ رُشْـدِ إبـراهـيـمَ عليه وسـلـم وغـايَـةِ فضْلِه

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ هذه الآية ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ عن الّتي قبلها ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بين الجملتين من كمالِ اتّصال، أي اتّحاد تامٍّ في المعنى؛ سواءٌ أكان بسببِ كونِ هذه الجملة وما بعدها بمنزلةِ عطف البيان على ما قبلها[6]، بأنْ تكون بيانًا لِما جابَه به إبراهيمُ أباه وقومَه من قولٍ سديدٍ يدلُّ على شجاعته ورُشْدِه[7]، أم بسببِ كونها مستأنفةً

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عكف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عكف).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 109.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 455، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 103.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 455.
(6) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 374.
(7) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 221.

تفيدُ تعليلَ ما قبلها[1]، أي: اذْكُرْ وقتَ قولِه لهم ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ لتقفَ على كَمالِ رُشْدِ إبراهيم وغايَةِ فضْلِه[2].

سرّ التّعبير بـ ﴿إِذۡ﴾:

ظرفيّةٌ تفيدُ بيانَ الرّشدِ أو مفعوليّةٌ تفيدُ تعليلَه

تحتمل ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ أنْ تكون ظَرْفًا لـ "آتَيْنا" على أنَّه وقتٌ مُتَّسِعٌ وقعَ فيه الإيتاءُ وما تُرُتِّبَ عليه مِن أفْعالِه وأقْوالِه[3]، أو ظَرْفًا لـ﴿رُشۡدَهُۥ﴾ وهو لاختصاص الوصفِ بإبراهيمَ عند إرشادِه النّاسَ وقتَ هذا القول[4]، أو ظَرْفًا لـ ﴿عَٰلِمِينَ﴾؛ والمعنى: وكُنّا به عالِمينَ إذْ قال؛ فيكونُ الكلامُ مُتَّصِلًا ولا يوقَفُ على قوله: ﴿عَٰلِمِينَ﴾[5]، إشارَةٌ إلى أنَّ قوله لَمّا كانَ بإذْنٍ منّا ورِضىً لَنا نَصَرْناهُ - وهو وحْدَهُ - على قَوْمِه كُلِّهم، ولو لم يكُنْ يُرْضينا لَمَنَعْناهُ منهُ بنَصْرِ قَوْمِه عليه، وتَمكينِ النّارِ منهُ[6]، ويحتملُ أنْ تكونَ مَفْعولًا به لِمُضْمَرٍ مُسْتَأْنَفٍ وقَعَ تَعْليلًا لِما قَبْلَهُ، أي: اذْكُرْ لقومِك من مشركي العربِ الّذين يفخرون بإبراهيم نسبًا، ويدَّعون اتّباعه كيف جاهدَ قومَه في هذا الشِّرك[7]، حين قال لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ لِتَقِفَ على كمالِ رُشْدِه وغايَةِ فضْلِه[8]، ويكونُ الكلامُ قد تَمَّ عند قوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾، ويوقَف عندها[9]، ويجوز أنْ يكون بدلاً من موضعِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾[10].

نكتة التّعبير بفعل القول ماضيًا:

محاورةٌ حدثت في الزمنِ الماضي وانتهت

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالفعل الماضي ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ

(1) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4881.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 362.
(5) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 434.
(7) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4881.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(9) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(10) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 362.

﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾؛ للدّلالة على أنّ فعلَ القولِ من إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه قد وقعَ وتحقّقَ في الزّمن الماضي؛ بدلالة ﴿إِذۡ﴾ الّتي هي ظرفٌ للزّمن الماضي، ولأنّ صيغةَ الفعلِ الماضي تناسبُ السّياقَ الّذي جاءَ الحوارُ فيه كلُّه بصيغةِ الفعل الماضي ﴿قَالَ﴾.

إيثار لفظ الأبوّة:

من أخلاق النّبوّة حرصُ إبراهيمَ على استمالةِ قلبِ أبيه وعلى إخلاصه

في إيثار لفظِ الأُبوّة في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ على الاسم العَلَم (آزر) إشارةٌ إلى إخلاصِ إبراهيم عليه السلام في نُصرةِ الحقِّ ودَحْرِ الباطل؛ إذ لم يمنعْه من ذلك حبُّ حبيبٍ، ولا ولايةُ قريبٍ[1]، وإشارةٌ إلى تأدّبِ إبراهيمَ وتلطّفه مع أبيه استمالةً لقلبه.

توجيه العطف بالواو ﴿وَقَوۡمِهِۦ﴾:

الجمعُ بين المُحاجّتين اختصارٌ وتركيزٌ على معنى الإنكار

عطَف البيانُ القرآنيُّ قومَ إبراهيمَ على أبيه بحرفِ الواو في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؛ لإفادة اشتراكهما في مخاصمةِ إبراهيم لهما، ووقوعِ إنكاره عليهما، وإفادةِ أنّ مخاصمته ومناظرته عليه السلام مع أبيه غيرُ مخاصمته مع قومه، واحتجاجه عليهم، كما حكاه اللّهُ تعالى في سورةِ الأنعام وغيرها، لكنّ البناءَ ها هنا على الإيجازِ والاختصارِ، ولذا جمعَ بين المحاجّتَينِ وسَبَكَهُما محاجّةً واحدة أوردَ فيها القدرَ المشتركَ بينهما.

إيثار لفظ القوم دون العشيرة أو المِلّة:

دعوةُ إبراهيم دعوةُ خيرٍ لعموم قومه الّذين خالفوه في عقيدته

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظ (القوم) في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ ولم يقلْ: (رهطه أو ملّته أو عشيرته)؛ لِما في لفظ (قوم) من التّلطُّف؛ لأنَّ قومَ الرجلِ لا بُدَّ أن يَنْصُروه ويَقْبَلوا ما جاء بِهِ.

ولكونه أشملَ من الرهطِ الّذين هم الجماعة من الرِّجال لا يتجاوزُ عددُهم عشرةً، وهم القرابةُ الأَدْنَوْنَ. فالقومُ في سياقِ استعمالِ

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 375.

القرآن الكريم، وإضافته إلى الأعلام كقوم موسى، وقوم شعيب، وقوم فرعون؛ يقطعُ بمعنى الكثرة فيهم، وشمولِهم لكلّ الأقاربِ الأَدْنَوْنَ والأباعد، ولكونه أنسبَ من لفظ الملّة التي هي الطّريقة الّتي يُتعبَّد بها، أي هي الشّريعة والدّين[1]؛ إذ لم يكن إبراهيم عليه السلام يوافقُ قومه في هذه الطّريقة الوثنيّة، ولم يشاركهم في طقوسها، ولذلك عبّر بقوله في سياقِ الآية ﴿أَنتُمْ﴾، وكذلك القوم أنسبُ من لفظ العشيرة الّتي أصلها من المعاشرة أي المُخالَطَةِ والمُداخَلَة، وهي الجَماعَةُ مِن أقارِبِ الإنْسانِ يَجْمَعُهُم أمرٌ واحِدٌ، وكأنّ إبراهيم يتبرّأ من مخالطتهم والاجتماع معهم على أمرٍ واحد، كما أنّ عشيرة الرّجل: بنو أبيه الأدْنونَ، وخطابُ إبراهيم لم يكن لهؤلاء فقط، بل كان لعامّةِ قومه، ولهذا كان التّعبيرُ بلفظ قوم أنسبَ.

وجه نسبة القوم إلى إبراهيم عليه السلام:

اهتمامُ إبراهيم بقومه وحرصُه عليهم تلطّفٌ بهم وانتزاعٌ لطاعتهم

نَسَبَ البيانُ القرآنيُّ القوم إلى إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾؛ للإشارةِ إلى اهتمامِ إبراهيم وحرصه على قومه الّذين تربطهُ معهم علاقاتٌ آكَدُ من غيرهم، وانتشالِهم من هُوَّةٍ تَرَدَّوا فيها جميعًا، وهذا الاتّجاهُ الرّامي إلى إنقاذِ العشيرة الأقربين من الضّلالِ قبل غيرهم أكّده كتابُ اللّه في خطابه لخاتَمِ الرُّسل؛ إذ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء:214][2]، وللإشارةِ كذلك إلى تلَطُّفِه؛ لانتزاعِ شَفَقَتِهم وطاعتهم حتى ينزلوا على نصحه، ويستجيبوا لدعوته، ولا يتّهموه، فهم قومُه وإليهم ينتسب، وقومُ الرجلِ لا بُدَّ أن ينْصُروه ويَقْبَلوا ما جاء بِهِ.

نكتة تقديم أبيه على قومه:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ لفظَ أبيه على قومه في قوله تعالى: ﴿إِذْ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ملل).

(2) المكّيّ النّاصريّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 4/ 131.

الإنكارُ على الأبِ أوّلًا الّذي نصيحته أهمُّ؛ أوْقَعُ أثرًا في غيره وأبلغُ

﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾؛ لِما فيه من حُسْنُ ترتيب؛ إذ بدأ أوّلًا بذِكْرِ أبيه؛ لرعايةِ الصّلة بين الابنِ وأبيه، فأبوه هو الأهمُّ عندَه في النّصيحةِ وإنقاذِه مِن الضّلالِ[1]، لأنَّ الدعوةَ إلى الحقّ خيرٌ، فالأوْلى به الدّاني قبل القاصي، وإبراهيمُ كان أبوهُ دانيًا إلى قلبه[2]، ولأنّه يريد أنْ يطمئنَّ الناسُ إلى ما يدعو إليه، وأنّه خيرٌ، وإلا ما بدأ بأبيه[3]، ولأنّ الإنكارَ لعقيدةِ القوم إذا خوطب به الأبُ أوّلاً وهو الّذي له تأثيرُ الهيبةِ والحبِّ في نفسِ إبراهيم، كان أثره في غيره أوقعَ، وتأثيره أبلغَ[4].

فائدة الاستفهام بـ﴿مَا﴾:

إثباتُ إبراهيم عليه السلام لجهل قومه وإنكاره عليهم وتحقيره لِأصْنامِهِم

الاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ يجوز أنْ يكون مسلَّطًا على التماثيلِ - كما عليه أغلب المفسرين - لبيانِ عدمِ الملاءمةِ بينها وبين اختصاصها بالعبادة، وفي هذا الاستفهامِ من إبراهيم عليه السلام عن ماهيّة هذه التّماثيل مع علمه بتعظيمهم لها تقريرٌ لحقيقتها من كونها حجارةً لا تسمعُ ولا تعقل، وحَطٌّ لقدرِها، وتصغيرٌ لشأنها وسخريةٌ منها[5]، واستجهالٌ لهم؛ إذ جاء بـ﴿مَا﴾ الاستفهامية التي تُستعملُ غالبًا بما لا معرفةَ فيه ولا علم[6]، وهي لغيرِ العاقلِ؛ لتنبيههم إلى التأمّلِ في شأنها، وكأنّه يومئُ بذلك إلى أنّهم لو تأمّلوا قليلاً لأدركوا أنّ مثلَ هذه الأحجارِ والخُشُبِ لا تغني عنهم قليلًا ولا كثيرًا[7]، ومن ثَمَّ تنبيهُهم على فسادِ فعلهم، وتوقيفُهم على الخطأ الذي هم عليه؛ إذ عبدوا ما يصنعونه بأيديهم[8].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4881.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9574.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9574، والمَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 375.
(5) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 375.
(6) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 364.
(7) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 43.
(8) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 221.

بلاغة تَجاهُلِ العارفِ:

استدراجهم للإجابة بما أجابوا به تمهيدًا لِتَخْطِئَتِهِم

يجوز في الاستفهام أنْ يكون مُسلَّطًا على الوصْفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، فكأنَّه قال: ما عِبادتُكم هذه التَّماثيلَ؟ ولكنَّه صيغَ بأُسلوبِ تَوجُّه الاستفهامِ إلى ذاتِ التَّماثيلِ؛ لإبهامِ السُّؤالِ عن كُنْه التَّماثيلِ في بادئِ الكلامِ؛ إيماءً إلى عدَمِ المُلاءَمةِ بينَ حَقيقتِها المُعبَّرِ عنها بالتَّماثيلِ، وبينَ وصْفِها بالمَعْبوديَّةِ المُعبَّرِ عنه بعُكوفِهم عليها، وهذا من تَجاهُلِ العارفِ، استعمَلَهُ تمهيدًا لتَخْطِئَتِهم بعْدَ أنْ يَسمَعَ جوابَهم فهُم يَظُنّونَهُ سائِلًا مُسْتَعْلِمًا، ولذلك أجابوا عن سُؤالِه بقولِهم: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فإنَّ شَأْنَ السُّؤالِ بكلمةِ ﴿مَا﴾ أنَّهُ لِطَلَبِ شرحِ ماهيَّةِ المَسْؤولِ عَنْهُ[1]، أي: المرادُ من الاستفهامِ الاستدراجُ ليجيبوا بما أجابوا تمهيدًا للكرِّ عليه وإبطالِه[2].

سرّ التّعبير باسم الاشارة للقريب ﴿هَٰذِهِ﴾:

تنبيهُ إبراهيمَ عليه السلام على انحطاطِ التَّماثيلِ وتحقيرِ شأنها

الإشارَةُ إلى التَّماثيلِ باسمِ الاشارةِ المستعمَلِ للقريب ﴿هَٰذِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؛ لِزيادَةِ كَشْفِ مَعْناها الدّالِّ عَلى انْحِطاطِها عَنْ رُتْبَةِ الأُلوهيَّةِ[3]، أي: تدُلّ على تحقيرِ شأنها في مثل هذا المقامِ والسّخريةِ منه[4]؛ لأنَّ الإشارةَ تتضمّن أنّها حجارةٌ محسوسةٌ لا تضرّ ولا تنفع[5].

إيثارُ لفظ التّماثيل:

تسميةُ إبراهيم لمعبودات قومه بصورٍ لا روح فيها تحقيرٌ وتصغيرٌ لشأنِها

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرِ عن الأصنامِ بلفظِ ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؛ تقريرًا لحقيقتها من أنّها مجرّد صور وأشكال صنعوها وصوّروها، ولا تَعْدُ هذا الوصفَ السّلبيّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 94.
(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 373.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 94.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 364.
(5) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4882.

العقيم[1]، أي: سَلَبَ عنها الاستقلالَ الذّاتيَّ[2]، وفي هذا زيادةٌ في التّحقيرِ من أمرها، والتّوهينِ من شأنها، فإنَّ التّمثالَ هو الشيءُ المصنوعُ من الأحجارِ أو الحديد أو نحو ذلك، على هيئةِ مخلوقٍ من مخلوقاتِ اللّه تعالى كالإنسانِ والحيوان، أي هي صورٌ لا أرواحَ لها[3]، يقال: مثّلْتُ الشّيءَ بالشّيءِ إذا شبّهتَه به، فهو ﷺ سمّاها باسمها الحقيقيّ الّذي تستحقّه، دون أنْ يجاريَهم في تسميتها آلهة[4]، وفي هذا التّحقيرِ لها والتّصغيرِ من شأنها - بجعلِها صورًا لا يَعتدّ بها من له مُسْكةُ عقلٍ - مبالغةٌ في إبطالِ عبادةِ تلك التّماثيل[5]، كما أنّ في إطلاقِ لفظِ التّماثيل دون اسم الآلهة - كما كانوا يُعبِّرون عنها - تأكيدًا لرُشْدِ إبراهيم ﷺ، وحَذَرَه من إلقاءِ الكلامِ على عواهنه[6].

سرّ التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّتِيٓ﴾:

إيماءُ إبراهيم بعلّةِ تجهيلِه لأبيه وقومه إنكارٌ عليهم وتنبيهٌ لفَسادِ فعلهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِيٓ﴾ وصِلَتِه ﴿أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ تركيزًا على الصِّلة؛ لأنّ القرآنَ يأتي بالاسم الموصولِ عندما تكون صلته هي الّتي عليها مدارُ الحكم، وإيماءً بعلّةِ تجهيل إبراهيم لأبيه وقومه وإنكاره عليهم، وتنبيهه لفَسادِ فعلهم وتحقيرِ أصْنامِهم؛ لتخصيصهم إيّاها بالعبادةِ المستمرّة على الرغم من أنّها لا تستحقّ، فهي أدنى من ذلك بكثير؛ إذ هي مجرّدُ صورٍ لا روحَ فيها، وقصدًا للإبهام الذي يفيده الاسم الموصول ﴿ٱلَّتِيٓ﴾، والّذي يُناسبُ سياقَ التّجهيلِ لهم باستعمالِ اسم الاستفهام ﴿مَا﴾، ويومئُ بتهويلِ فعلهم الشّنيع.

نكتة التّعبير بالضّمير ﴿أَنتُمۡ﴾ والجملة الاسميّة:

اسْتِهانَةُ إبراهيمَ بقومِه وتَوْقيفُه لهم على سُوءِ صَنيعِهم

عبّر البيانُ الإلهيُّ في خطابِ إبراهيمَ لأبيه وقومه بقَوْلِه ﴿أَنتُمۡ﴾

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 375.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 94.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 536.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 221.
(5) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 364.
(6) المَكّيّ النّاصريّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 4/ 131.

في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ اسْتِهانَةً بِهِم وتَوْقيفًا لهم علَى سوءِ صَنيعِهِم[1]، كما أنّ الإتيان بـ ﴿أَنتُمۡ﴾ جعلَ الجملةَ اسميّةً؛ لتفيدَ ملازمتَهم عبادة هذه التّماثيل دون نفعٍ ولا جدوى[2].

علّة التّعدية باللّام دون على:

تقبيح إبراهيم لقومه لعبادتهم تماثيلَ لا روح فيها

جعل البيانُ القرآنيُّ تَعْديَةَ العُكوف باللّام ﴿لَهَا﴾ دون (على) في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، فلم يقل: عليها عاكفون، مع أنَّ المعنى: يعكفون على عبادتها، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ [الأعراف:138]؛ لأنّ العكوف يمكن أن يتضمّن معنى العبادة، بما يفيدُ استمرارَ العبادة[3]، ويحتمل أن يُنَزَّلَ لفظُ ﴿عَٰكِفُونَ﴾ منزلةَ اللّازم، وتكونُ اللّامُ للاختصاص دون التّعدية، والمعنى: أَنْتُم فاعِلونَ العُكوفَ لها، أو واقفون لها[4]، أي: أَنْتُم لِأجلِها وحْدَها، مع كَثْرَةِ ما يُشابِهُها وما هو أَفْضَلُ مِنها، مُوْقِعونَ الإقْبالَ عليها مواظِبونَ على ذلك، فبِأيِّ مَعْنىً اسْتَحَقَّتْ مِنكم هَذا الاخْتِصاصَ، وفي كلا المعنيين تقبيحٌ لهم، وبيانٌ لاستغراقهم في الضّلالةِ؛ سواء أكان ذلك باستمرارهم على عبادتها أم بتخصيصها بالعبادة دون غيرها.

وجه تقديم شبه الجملة على الخبر:

التأنيبُ من إبراهيمَ لقومه لعبادتِهم تماثيلَ لا تستحقُّ العبادة

قدّم القرآن الجارَّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على الخبر ﴿عَٰكِفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ لإفادة الاختصاص، أي: أنتم لِأَجْلِها وحْدَها عابدون، وفي هذا التّقديم تأنيبٌ لهم وتقبيحٌ؛ إذ لا مَعْنى لاستحقاقها منهم هذا الاخْتِصاص، وهي مِثالٌ لِلْحَيِّ في الصُّورَةِ وهو أَعْلى مِنها بِالحَياةِ الَّتي أفاضَها اللّه عليه[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 94.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.

(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 121، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.

(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 435.

سرّ التّعبير باسم الفاعل ﴿عَٰكِفُونَ﴾:

استمرارُ قومِ إبراهيم العكوفَ على أصنامهم تقتضي المبالغة في الإنكار عليه

عبّر القرآن باسم الفاعل ﴿عَٰكِفُونَ﴾ الذي يفيدُ الدّوامَ والثّبات، دون الفعل (تعكفون)؛ مبالغةً في الإنكارِ عليهم في كونهم ثابتين مستمرّين في العكوفِ على عبادتها، والمعنى: عاكِفونَ مُوَقِّعُونَ الإقْبالَ عليها مواظِبونَ على ذَلِكَ[1].

علّة إسناد العكوف إلى ضميرهم المجموع ﴿أَنتُمۡ﴾:

عكوفُ قومِ إبراهيم على التّماثيلِ بيانٌ لإفراطهم في عبادتها

جَعَلَ القرآنُ العُكوفَ مُسْنَدًا إلى ضَميرِهِم المجموع في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ إبْراهيمَ لَم يَكُنْ مِن قَبْلُ مُشارِكًا لَهم في ذلِكَ فيُعْلَمُ منهُ أنَّهُ في مَقامِ الرَّدِّ عليهم[2]، ولبيانِ أنّه كما نَسَبَ الأصنامَ إلى الإفراطِ في الحقارةِ نسبهم إلى الإفراطِ في العُكوف؛ بالضّميرِ المرفوع، وبناءِ الخبرِ عليه المُفيد لتقوية الحكم، وتخصيص العكوف بالذّكر[3].

نكتة التّعبيرُ بمطلق العكوف وتضمينه معنى العبادة في ﴿عَٰكِفُونَ﴾:

ملازمةُ عبادةِ تماثيلَ صنعوها بأيديهم دليلٌ على قُبحِ فعلِهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بمطلقِ العكوفِ وضمّنه معنى العبادة في قوله تعالى: ﴿لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؛ لإفادةِ ملازمة أبي إبراهيم وقومه عبادةَ الأصنام واستمرارِهم على ذلك[4]؛ لأنّ العُكوفَ هو ملازمةُ الشّيءِ الشّيءَ بلا انفكاكَ لأحدِ الشّيئين عن الآخر، وفي هذا تفظيعٌ لفعلهم وتنفيرٌ لهم منه، وتوكيدٌ للإنكارِ عليهم وتَوْبيخهم على إجْلالِها؛ إذِ انْكبّوا على تعظيمِ من لا يستحقّ التعظيمَ، وتعلّقوا بعبادةِ تماثيل هم صنعوها بأيديهم[5]، يُحِبّونها، ويُطَأْطِئون رؤوسهم في حضرتها، ولأنّ في التّعبير بالعكوفِ المتضمّنِ معنى العبادة تفنُّنًا

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 435.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 364.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 222، والمَطْعَنيّ: التّفسير البلاغيّ، ص: 374.

في العبارة؛ إذ صرّح بلفظِ العبادة في الآية الّتي بعدها: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّماثيل والأصنام والأوثان:

عبادة الصّورة والمثال المصنوع باليد دليلُ الجهلِ وتغييبٌ للعقل

التِّمثالُ: الصّورةُ، ومَثَّلَ لَهُ الشّيءَ: صوَّره حَتَّى كأنَّه يَنْظُرُ إليه، والتِّمثال: اسْمٌ لِلشَّيْءِ المَصْنوعِ مُشَبَّهًا بِخَلْقٍ مِنْ خَلْقِ اللّه[1]، سواءٌ أعُبِدَتْ أم لم تُعبَد، أي: يتميّز لفظ التّمثال بمعنى التّمثيل والتّصوير، والصَّنَمُ: ما يُتَّخَذُ مِنْ خَشَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ نُحاسٍ فيُعْبَدُ[2]، وهو شيءٌ من الحجارةِ يُصنع على مثالٍ حَيٍّ، أمّا الوثَنُ: فهو قِطعةٌ من حجرٍ خام لم يشكّل أو يعالج أو يصنّع كانوا يقدّسونه[3]، ومن هنا قيل للواثِنِ: الثّابتُ الدّائم[4]، وسُمّي وثَنًا لانْتِصابِه وثَباتِه على حالَةٍ واحِدَةٍ من وثَنَ بالمَكانِ أقامَ بِهِ، فهو واثِنٌ[5]، وفي اختيار لفظ التّماثيل إيماءٌ إلى معنى الصّورة والمثالِ لا الحقيقة، ومِنْ ثمَّ فإنَّ عبادتها دليلُ جهلٍ، وغباءٌ، وتغييبٌ للعقل؛ حتى وإن كانت حقيقةً!! فكيف بالمثال!؟

(1) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنم).
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 6/ 3735.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (وثن).
(5) الزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (وثن).

﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء:53]

بعدَ سؤالِ تجهيلٍ وإنكارٍ أتى جوابُ قومِ إبراهيمَ بما يوجبُ مزيدَ التوبيخ

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا سألهم عن عبادتهم المستمرّة لتماثيلَ لا جدوى منها، ولا نفعَ لها، على الرَّغم من مرورِ زمنٍ على عبادتهم لها، ولم يكنْ لهم ملجأٌ يُعتدّ به التجؤوا إلى التّقليدِ البَحْتِ الّذي تَوهَّموا إقناعَهُ به؛ إذْ حَسِبوهُ مِثْلَهم يُقَدِّسُ عَمَلَ الآباءِ ولا يَنْظُرُ في مُصادَفَتِه الحَقّ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَدْنَآ﴾: (وجد) أَصْلٌ يَدُلُّ على أَصْلٍ واحِدٍ، وهو الشَّيُّ يُلْفيه[2]، ووجدَ: فعلٌ تامٌّ معناه إصابةُ ذاتِ الشيء، أي: العثورُ عليه في الحيّز، ويأتي بمعنى العلم، والوُجْدُ بالضمّ: بمعنى الوُسْع والطاقة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: 6] أي: الموجودُ في الحوزةِ من الشّيء[3]، يُقال: وجَدَ مطلوبَه: أصابَهُ وأدركه وظفِرَ به، وعَثَر عليه، ووجَد الحوارَ صريحًا: عَلِمه وعَرَفه، ووجَدَ الشّخصُ: استغنى وصار ذا مال[4]، ومعنى ﴿وَجَدْنَآ﴾ في الآية: أَلْفَينا كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة:170].

2) ﴿عَٰبِدِينَ﴾: (عبد) أَصْلٌ يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ، ومنه طريقٌ مُعبَّدٌ، وهو المَسْلوكُ المُذَلَّلُ[5]، ومَعْنَى العبادةِ في اللُّغَة: الطّاعةُ مَعَ الخُضوعِ، والعَبْدُ: الإنسانُ - حُرًّا كانَ أو رَقيقًا -[6]، وأصلُ العُبوديَّة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجد).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (وجد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

الخضوعُ والذّلُّ، والعِبادةُ: الطّاعةُ، والتَعَبُّدُ: التَنَسُّكُ[1]، والعِبادَةُ أبلغُ منها، لأنَّها غايةُ التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا مَنْ له غاية الإفْضالِ، وهو اللّه تعالى[2]، ومعنى ﴿عَٰبِدِينَ﴾ في الآية: من العبادة وهو الخضوع والذلّ للأصنام، وهذا إشراكٌ باللّه تعالى.

المَعْنى الإجْماليّ:

طريقةُ التّقليدِ جوابُ سذاجةٍ وجهلٍ وعجزٍ عنْ أدنى شبهةٍ من دليل

المعنى الإجماليّ في البيانِ الإلهيِّ: لَم يَكُنْ لأبي إبراهيمَ وقومه حُجَّةٌ سِوى صَنيعِ آبائِهِمُ الضُّلّالِ، فأجابوا إبراهيم عليه السلام بقولهم: وجدنا آباءنا لهذه الأوثانِ عابدين، فنحنُ على مِلّةِ آبائنا نعبدُها كما كانوا يعبدونها، أي: نَعبُدُها اقتداءً بهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصلِ الآية عن سابقتها:

استئنافٌ بيانيٌّ يتضمّنُ جوابًا لا حُجَّةَ فيه ولا برهان

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾ عن الّتي قبلها؛ إمّا لأنّها جاءتْ جوابًا عن سؤال إبراهيم عليه السلام ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ على طريقةِ المُحاوراتِ الّتي يُحذفُ فيها العاطفُ كراهيةَ تكراره بتكرارِ أفعالِ القولِ، أو لكونها استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ مقدّرٍ نشَأ عنها مِن السّياقِ، وذلك أنّه بعد أنْ سألهم إبراهيم عن سببِ عبادتهم لهذه التّماثيل، كأنَّه قيل: ماذا كان رَدُّهم إذن؟ فقيل: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾.

دلالة التّعبير بفعل القول المجموع الماضي:

اعتمادُ قوم إبراهيم للتّقليدَ الأعمى أمرٌ متحقّقٌ منهم أطبقوا عليه

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالماضي المجموع ﴿قَالُواْ﴾ في قوله: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ للدّلالة على أنّ فعلَ القولِ من أبي إبراهيم وقومِه قد وقعَ وتحقّق؛ فهو حكايةٌ لِما قالوه في ردِّهم على إبراهيم عليه السلام،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (عبد).

(2) الرّاغب، المفردات: (عبد).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 456، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 348.

ولأنّ صيغةَ الفعل الماضي تناسبُ السّياق الّذي جاءَ الحوارُ فيه كلّه بصيغةِ الفعلِ الماضي (قال)، وأمّا التّعبيرُ بصيغةِ الجمع فلِلْإشارة إلى افتقادِ قومِه للحُجّة وانغماسهم في الضّلالةِ هو أمرٌ مُتَحَقِّقٌ عند مجموع قومه، وأنَّ مضمونَ القولِ وهو الاعتماد على تقليد الآباء والأجداد قد أطبقوا واتّفقوا عليه، ورضيَ به جميعُهم؛ أي: جالتْ به صدورُ بعضهم، ونطقتْ به ألسنةُ آخرين.

فائدة الجملة الخبرية:

تقليدُ الآباءِ دون تدبّرٍ أو تفكّرٍ دليلُ تحجّرِ العقول وانطماسِ البصائر

الجملةُ الخبريّة ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ هي حكايةُ ما قاله أبو إبراهيم وقومُه في ردّهم على إبراهيم ﷺ، وقد أفادتِ الدّلالةَ على تحجّرِ عقولهم، وانطماسِ بصائرهم؛ إذ قلّدوا فعلَ آبائهم بدون تدبّرٍ أو تفكّرٍ[1]، وأفادتْ كذلك إقرارَهم بالعجزِ عن جوابٍ مقنعٍ، واستشعارهم ما يلزمهم في عبادةِ ما يصنعونهُ بأيديهم، وقد تقدّم وجودهم على وجودها، فأجابوا بالتّقليد[2].

إيثار فعل ﴿وَجَدۡنَآ﴾ دون غيره:

حالُ قوم إبراهيم من التّمسك بالباطل يُنبئُ عنه مقالُهم

آثَرَ القرآنُ الكريم استعمالَ فعل ﴿وَجَدۡنَآ﴾ دون غيره: في قوله تعالى: ﴿وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا﴾ ولم يقل: (رأينا أو شاهدنا أو ألفينا)؛ لكون لفظ ﴿وَجَدۡنَآ﴾ أنسبَ في التّعبيرِ عن عنادهم وتمسّكهم بباطلهم، وأنّهم متأكّدون ممّا يعبدون؛ إذ يتميّز لفظ (وجد) بمعنى إصابَة الشَّيءِ والإحساس بِهِ، ومن معانيه العلم، والمعرفة والرؤية، فهو يشملُ الإلفاءَ واللّقاء والمشاهدة والرؤية[3].

وجه جمع الآباء:

تسويغُ قوم إبراهيم عبادة التّماثيل باجتماع آبائهم على ذلك

عبّروا بلفظِ الآباءِ بصيغةِ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَجَدۡنَآ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 222.
(2) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/ 348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجد)، وابن الجوزيّ، نُزْهَةُ الأَعْيُنِ النّواظِر، ص: 615.

﴿ءَابَآءَنَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنّ فعلَ العبادةِ للأصنامِ لم يكنْ فعلًا فرديًّا، وإنّما هو فعلٌ اجتمعتْ عليه كلمةُ الآباءِ الأقربون منهم والأبعدون، وفي ذلك تعليلٌ منهم لاقتدائهم بفعلِ الآباء، ولذلك كان ردُّ إبراهيم عليه السلام بأنَّ الباطِلَ لا يصيرُ حقًّا بكَثرةِ المُتَمَسِّكينَ به[1]، في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿لَهَا﴾ على المفعول الثّاني:

أصنامُ المشركين محلُّ عنايتِهم وأمارةُ ذلك تخصيصُهم إيّاها بالعبادة

قدّم القرآنُ الجارّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على المفعول الثّاني ﴿عَٰبِدِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾؛ للاختصاصِ بما يفيدُ الدّلالةَ على استمرارِ عبادةِ آبائهم للأصنامِ وحدَها دون غيرها[2]، وللإشارةِ إلى اهتمامهم بها والعنايةِ بشأنها.

فائدة التّعبير بلفظ العبودية في قوله ﴿عَٰبِدِينَ﴾:

إصرار قوم إبراهيم على عبادة مَن لا ينطقُ ولا يَسمعُ مبالغةٌ في الحمق والجهالة

في التّعبيرِ بلفظِ العبوديّة في قوله تعالى: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾؛ إيماءٌ إلى تضمينِ العكوفِ ﴿أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ - في الآية السابقة - معنى العبادة[3]، وإلى المبالغةِ في تسويغ فعلهم؛ وهو اختصاصُ أسلافهم هذه الأصنامَ بالخضوعِ والعبادة، وفيه إشارةٌ إلى الإقرارِ على أنفسهم، وإنْ لم يقصدوا ذلك بأنّ عبادتهم للأصنامِ عبادةٌ عنْ غيرِ فهْمٍ؛ لأنَّ العبادةَ طاعةُ عُبّادٍ لأوامرِ معبودِهم، فبماذا أَمَرَتْهُمُ الأصنامُ؟[4].

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿عَٰبِدِينَ﴾:

احتجاجُ قوم إبراهيم باستمرارِ آبائهم بعبادةِ الأصنام تسويغٌ لباطلهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ باسم الفاعل ﴿عَٰبِدِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾؛ للدّلالة على المبالغةِ في استمرارِ

---

(1) ابن عادل، اللّباب: 13/ 519.

(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4882.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9575.

اتّصاف آبائهم بالوصفِ باسم الفاعلِ ﴿عَٰبِدِينَ﴾؛ لأنّ اسمَ الفاعل يدلُّ على الثباتِ والدوام، والمعنى: استمرّ آباؤنا على عبادتها، وما استمرّوا عليه فهو حقٌّ، ولا دليلَ عندنا سوى ذلك[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(وجدنا) و(ألفينا) و(لقينا) و(رأينا) و(شاهدنا):

مـن قـوّة الاحساس بالتّماثيل كأنّهم ظفروا بثمين

(وجَدْنا): أصبنا الشَّيْء وأحسسنا بِه بعد أنْ لم يكن ذَلِك[2]، ومن معانيه: الإصابةُ والمصادفةُ، والعلمُ، والرؤيةُ، ووجَدَ مطلوبَه: أصابهُ وأدركه وظفِرَ به، وعَثَرَ عليه[3]، ومعنى (ألفينا): وجَدْنا وصادَفْنا ولَقينا[4]، وبذا يكون (وجدنا) أوسعَ دلالةً من (ألفينا)؛ إذ هو إصابَةُ الشَّيْء والإحساسُ بِه.

و(لقينا): يدلُّ على تَوافي شَيْئَيْنِ وتقابلِهما، وكلُّ شيءٍ اسْتَقْبَلَ شَيْئًا أو صادَفَهُ فقدْ لقيَه مِنَ بَينِ الأشياء كُلِّها[5]، ويُقالُ ذلك في الإدراكِ بالحسّ، وبالبصرِ، وبالبصيرة[6]، و(رأينا): يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة[7]، والرُّؤيةُ بالضمّ: إدراكُ المرئيِّ، وذلك أضْرُبٌ؛ الأوّلُ: النّظرُ بالعين الّتي هي الحاسّة وما يجرّي مجراها، والثّاني: بِالوَهْمِ والتّخيُّل، والثّالث: بالتّفكّر، والرّابع: بالقلب، أي بالعقل[8]، و(شاهدنا): أصلُه يَدُلُّ على حُضورٍ، وعِلْمٍ، وإعْلامٍ، ومُعايَنَة[9]، والشَّهادةُ: الحضورُ مع المشاهدةِ، إمّا بالبصر

(1) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4882.
(2) ابن الجوزيّ، نُزْهَةُ الأَعْيُنِ النّواظِر، ص: 615.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجد)، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (وجد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (لفا).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقى).
(6) الرّاغب، المفردات: (لقى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(8) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(9) الزَّبيدِيّ، تاج العروس: (شهد).

أو البصيرة[1]، ويتميّز لفظ (لقينا) بمعنى التّقابل والمصادفة والوجود القويّ، ويتميّز لفظ (رأينا) بالنّظرِ والإبصارِ بعينٍ أو بصيرةٍ، ويتميّز لفظ (شاهدنا) بمعنى الحضورِ والعلم والمعاينة.

(1) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 352.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٥٤﴾ [الأنبياء:54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد استناد قومِ إبراهيمَ إلى مَحْضِ التَّقْليدِ جاءهمُ الحُكْمُ باشتراكهم مع آبائهم في الضّلال

بعدما سأل إبراهيمُ قومَه عن سببِ عبادتهم الأصنامَ: هلْ تَسْتَحِقُّ هذه الأصنامُ ما تَصْنَعونَ مِنَ العُكوفِ عليها؟ ولَم يَكُنْ لهم مَلْجَأٌ مِنْ جوابٍ يُعْتَدُّ به فغالَوا في الجَهْلِ غَيْرَ مُحْتَشِمينَ مِن إقْرارِهِم عَلى أَنْفُسِهِم بِهِ، وذلك بِالِاسْتِنادِ إلى مَحْضِ التَّقْليدِ بَعْدَ إفْلاسِهِم مِن أدْنى شُبْهَةٍ فضْلًا عَنْ دَليلٍ؛ بعدها اسْتَأْنَفَ اللّه تعالى الإخْبارَ عَنْ جَوابِهِ؛ الّذي أبطلَ به هذا التّقليدَ عَلى طَريقَةِ التَّوْكيدِ القَسَميِّ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: (ضلّ) أَصْلٌ يدلُّ على ضياعِ الشيءِ وذهابُه في غيرِ حقّه، وكلُّ جائرٍ عن القَصْدِ ضالٌّ[2]، والضَّلَلُ: ضدّ الهدى والرّشاد، وفَقْدُ ما يوصِّل إلَى المطلوبِ، والضَّلالُ يُقال لِكُلِّ عُدولٍ عَن الحَقِّ، عَمدًا كانَ أو سَهوًا، يَسيرًا كانَ أو كثيرًا[3]، وضلَّ الشَّيءُ: خفيَ وغابَ[4]، والضّلالُ: العُدولُ عَن الطّريقِ المُسْتَقيم، ويُستعملُ ممّن يكون منه خطأٌ ما[5]، ومعنى ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾: أي: في ذهابٍ عن سبيلِ الحقّ، وجَوْرٍ عن قصدِ السّبيل[6]، وفي خسران[7].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 442، والبِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 435، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).

(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).

(4) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضلل).

(5) الرّاغب، المفردات: (ضلّ).

(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 456.

(7) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 486.

2) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بين) أصلٌ واحدٌ، وهو بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، وبانَ الشّيءُ وأبانَ إذا اتّضح وانْكَشَفَ، وفلانٌ أبْيَنُ من فلانٍ: أي أوضحُ كلامًا منه[1]، والتَّبْيينُ: الإيضاحُ، والوضوحُ، والبَيانُ: ما بُيِّنَ به الشَّيءُ من الدَّلالَةِ وغيرِها، وهو إظْهارُ المَقْصودِ بأبلغِ لفظٍ، وأصلُه الكَشْفُ والظُّهورُ[2]، ومعنى ﴿مُّبِينٍ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ، أي: بَيّنٌ لمن تأمَّلَه بعقل[3]، فهو ضلالٌ واضِحٌ ظاهِرٌ لا يَخْفَى على أحَدٍ ولا يَلْتَبِسُ على ذي عَقْلٍ[4].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

إنكارُ إبراهيم لعبادةِ الأصنامِ ببيانِ ضلالِ عُبّادها من الأبناءِ والآباء

قال إبراهيمُ لقومه - بعدما أجابوه عن عبادتهم للأصنامِ وهو الاقتداءُ بآبائهم - : لقد كنتُم أيّها القومُ أنتم وآباؤُكم بعبادتكم لهذه الأصنامِ في بُعْدٍ وجَورٍ واضحٍ بيِّنٍ عن الحَقّ، لا يخفى على عاقلٍ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ﴾:

استئنافٌ يبيّنُ إبطالَ إبراهيمَ لكلامِ قومِه المستندِ إلى مَحْضِ التَّقليد

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ﴾ عن الّتي قبلها؛ إمّا لأنّها جاءَتْ جوابًا عن كلامِ قومِ إبراهيمَ المستندِ إلى محضِ التّقليدِ بَعْدَ إفْلاسِهِم من أدْنى شُبْهَةٍ فضْلًا عَنْ دَليلٍ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ على طريقةِ المُحاوراتِ الّتي يُحذفُ فيها العاطفُ كراهيةَ تكرارِه بتكرارِ أفعالِ القولِ[6]، أو لكونها استئنافًا بيانيًّا مَبنيًّا على سُؤالٍ مُقدَّرٍ نشَأ عنها مِنَ السّياقِ، أي: ممّا قبلَها، وذلك أنّه بعد أنْ أجابوا إبراهيمَ عن سؤاله لهم عن

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 456.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 486، والقاسِميّ، محاسن التّأويل: 7/ 200.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 456.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 435.

سببِ عبادتهم الأصنامَ ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ كأنَّه قيل: فماذا كانَ جوابُ إبراهيمَ؟ فقيل: ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ﴾[1].

توجيه التّوكيد بـ (اللّام) و(قد) و(كان) وضمير الفصل (أنتم):

مبالغةُ إبراهيمَ في الردّ على المشركين وبيانُ ضلالِ المقلِّدِ والمقلَّد

أكّد البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ على لسانِ إبراهيم ضلالَهم بـ (اللّام) الموطئةِ للقَسَم، وبـ(قد) الّتي تفيدُ التّحقيق، وبـ(كان) الدّالّةِ على الدّوام والاستمرار، وبضميرِ الفصلِ المؤكّد، وجمعَ بين ضلالهم وضلالِ آبائهم، فكان جامعًا بين ضلالِ المقلِّدِ والمقلَّدِ[2]، وذلك لأنّهم جاؤوا في جَوابه في الآية السّابقة بما توهَّموا إقْناعَهُ به، وهو أنَّ عِبادَةَ تِلْكَ الأصْنامِ كانَتْ مِن عادَةِ آبائِهِم فحَسِبوهُ مِثْلَهم يُقَدِّسُ عَمَلَ الآباءِ، ولا يَنْظُرُ في مُصادَفَتِه الحَقَّ[3]، ولِذَلِكَ لَم يَلْبَثْ أنْ أجابَهم بهذه المؤكِّداتِ مبالغةً في الرّدِ عليهم، وبيانِ ضلالهم، وإبطالِ جَوابِهم بطَريقةِ التَّوكيدِ القَسَميِّ[4].

دلالة فعل الكون الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾:

اسْتِقْرارُ المشركين على الضّلالِ وعلى تمَكُّنِهم منه وانْغماسِهم فيه ثابتٌ مستمرٌّ

استعملَ البيانُ الإلهيُّ فعلَ الكون الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ للدّلالة على أنّ مُطْلَقَ اسْتِقْرارِهِم عَلى الضَّلالِ وعلى تمَكُّنِهم منه وانْغماسِهم فيه[5]، لا على اسْتِقْرارِهِمُ الماضي الحاصِلِ قَبْلَ زَمانِ الخِطابِ فقط المُتَناوِلِ لَهم ولِآبائِهِم، أيْ: واللّه لَقَدْ كُنْتُم مُسْتَقِرّينَ عَلى ضَلالٍ عَظيمٍ ظاهِرٍ؛ لِعَدَمِ اسْتِنادِهِ إلى دَليلٍ ما[6]، وذلك لأنّه باستعمالِ فعلِ الكونِ الماضي أصبحتْ الجملةُ تدلّ على الثّباتِ والاستقرار.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9575.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4883.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.

سرّ التّوكيد بالضّمير المنفصل ﴿أَنتُمۡ﴾:

زيادةُ اختصاصِ المـقـلِّـديـن بالتّوبيخِ على تقْليدٍ يوجِبُ مزيدَ استنكار

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ توجّهَ الخطابِ لقوم إبراهيمَ بالضّميرِ المنفصل ﴿أَنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ﴾؛ لِأجْلِ صِحَّةِ العَطْفِ؛ لِأنَّ الضَّميرَ المَرْفوعَ المُتَّصِلَ وهو التّاء في ﴿كُنتُمۡ﴾ حُكْمُهُ حُكْمُ جُزْءِ الفِعْلِ[1]، والعطفُ على ضميرٍ هو في حكمِ بعضِ الفعلِ ممتنعٌ[2]، ولِما في ذِكْرِ هذا التّوكيدِ اللّفظي من زيادةِ اختصاصهم بالتّوبيخ على جوابِهم باتّباعهم طريقةَ التَّقْليدِ الَّذي يوجِبُ مَزيدَ التَّنْكيرِ؛ لِأنَّهم إذا كانوا عَلى خَطَأٍ مِن أمرِهِم لَم يَعْصِمهم مِن هَذا الخَطَأِ أنَّ آباءَهم أيْضًا سَلَكوا هَذا الطَّريقَ[3]، ولذلك فسّرها الطّبريُّ بقوله: "لقد كنتُم أيّها القومُ أنتم وآباؤُكم"[4].

دلالة العطف في قوله ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ﴾ بالواو:

حُكْمٌ بالاشتراك بين قومِ إبراهيم وآبـائـهـم في الضّلالِ

عَطفَ النَّصُّ القرآنيُّ الآباءَ على المخاطبين من قومِ إبراهيم في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ﴾؛ لإفادة اشتراكهم في التّخطئةِ، والحُكْم بالتّسويةِ بينهم وبين آبائهم في الضّلال، وإلزامهم الحجّةَ المتوجّهةَ على سلفهم[5]؛ ليَعْلَموا أنَّهم لا عُذْرَ لَهم في اتِّباعِ آبائِهم، ولا عُذْرَ لِآبائِهم في سَنِّ ذَلِكَ لَهم لِمُنافاةِ حَقيقَةِ تِلْكَ الأصْنامِ لِحَقيقَةِ الأُلوهيَّةِ واسْتِحْقاقِ العِبادَةِ[6]، وأنَّ المقلّدين والمقلَّدين جميعًا منخرطون في سلكِ ضلالٍ لا يخفى على مَن به أدنى مُسْكَةِ عقلٍ، لاستنادِ الفريقين إلى غيرِ دليل، بل إلى هوى متّبعٍ وشيطانٍ مُطاعٍ[7]، وفيه إشارةٌ كذلك إلى أنَّ الباطِلَ لا يصيرُ حَقًّا بكَثْرةِ المُتَمَسِّكينَ به[8].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 10/ 363.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 363.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 152.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 456.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 507.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(7) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 363.
(8) ابن عادل، اللّباب: 13/ 519.

توجيهُ التّصريح بذكر (الآباء):

تأكيدُ إبراهيمَ على إبطال عبادة قومه للأصنام بإبطال نهجِ سلفهم في ذلك

صرّح البيانُ الإلهيُّ على لسانِ إبراهيم بذكرِ الآباء في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ﴾، ولم يقل: (لقد كنتم في ضلال مبين) على الرَّغم من أنّ ميمَ الجماعةِ تشملهم؛ لأنّهم لَمّا ذَكروا لَهُ آباءَهم، وأنّهم اقتَدَوا بهم في عبادةِ الأصنام وتأسَّوا بهم، صرَّح بذكرهم بيانًا لاشتراكهم في التَّخۡطِئَةِ بدونِ هَوادَةٍ؛ ليَعۡلَموا أنَّهم لا عُذۡرَ لَهم في اتِّباعِ آبائِهم، ولا عُذۡرَ لِآبائِهم في سَنِّ ذَلِك لَهم؛ لِمُنافاةِ حَقيقَةِ تِلۡكَ الأصۡنام لِحَقيقَةِ الأُلوهيَّةِ واسۡتِحۡقاقِ العِبادَةِ[1]، ولو أنّه عبّر بقوله: (لقد كنتم في ضلالٍ مبين) لظُنَّ أنّ التّخطئةَ للمخاطَبين فقط دون الآباء.

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾:

بيانُ تمكّنهم من الضّلال وانغماسِهم فيه

عبّر البيانُ القرآنيُّ بحرفِ الجرّ ﴿فِي﴾ الّذي يفيدُ الظّرفيّةَ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ولم يقلۡ: (لقد كنتم أنتم وآباؤكم ضالّين)؛ للتّنبيه على أنّهم متوغّلون ومتمكّنون في الضّلال بحَيۡثُ لا يُرجى خلاصهم إلا بتوفيقٍ عظيم[2]، وأنّه ضلالٌ قديمٌ موروثٌ[3]، قَدۡ أحاطَ بِهم إحاطَةَ الظَّرۡفِ بِالمَظۡروفِ والمَسۡلوكِ بِالسِّلۡكِ[4].

إيثار التّعبير بلفظ ﴿ضَلَٰلٖ﴾:

وصفُهم بالضّلالِ بيانٌ مُبكِّتٌ لحقيقةِ حالهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الضّلالِ دون لفظِ الغفلة مثلًا في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ لكون المعاني اللّغويّة للضّلال أنسبَ هنا للسياقِ الذي ذُكر فيه الرُّشد، وهو نقيضُ الضّلال ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾، وأنسبَ لحالهم؛ فقد كانوا يبذلون جهدًا في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 538.
(3) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 258.
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 436.

عبادتهم لهذه الأصنامِ الّتي لا تستحقّ العبادةَ، فهي لا تضرُّ ولا تنفعُ، وهو جهدٌ ضائعٌ لا قيمةَ له؛ لأنّه في غير محلّه، وهذا أصلُ الضّلال في اللّغةِ فهو من ضياعِ الشّيء وذهابِه في غير حقّه[1]، ومن معانيه أيضًا الخطأ، والعدول عن الطّريقِ المستقيم[2]، وهو ضدُّ الهداية والرّشاد[3]، وهذا كلّه ينطبقُ على حالهم؛ إذ كانوا بعبادتهم لهذه الأصنام مخطئين منحرفين عن الطّريقِ المستقيم طريقِ الهدى والرّشاد، طريقِ عبادةِ الواحدِ الأحد.

نكتة تنكير لفظ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

ما أحـاطَ بقوم إبراهيم وتمكّنَ مـنـهـم ضـلالٌ عجيبٌ لا يُقادَرُ قَدْرُه

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، لإفادةِ التّهويل؛ أي: في ضلالٍ عجيبٍ عظيم لا يُقادَرُ قَدْرُهُ[4]، وفي هذا مزيدٌ من التّشنيع عليهم والتّوبيخِ لهم.

سِرُّ وصف الضّلال بالمبين:

الـدّلـيـلُ على انْـطـمـاس بصيرة المشركين انْغماسُهم في ضلالٍ ظاهرٍ لا شُبهةَ فيه

وصَفَ القرآنُ ضلالَ قومِ إبراهيم ﵇ وآبائِهم بأنّه مبينٌ في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، للتّأكيدِ على تَمَكُّنِ الضّلالِ منهم وانْغماسِهم فيه[5]، وعلى انطماسِ بصيرتهم؛ لكونه ضلالًا ظاهرًا بَيِّنًا بَواحًا لا شُبهةَ فيه، بِحَيْثُ لا يَخْفى على أحَدٍ مِنَ العُقَلاءِ، وكَوْنُهُ كَذَلِكَ إنما هو لِعَدَمِ اسْتِنادِهِ إلى دَليلٍ ما[6].

نكتةُ التّعبيرِ باسم الفاعل ﴿مُّبِينٍ﴾:

الجحودُ والإنكارُ لـلـقـرآنِ صفةٌ ثابتةٌ ومستمرّةٌ في كفّارِ قريش

عبّر البيانُ القرآنيُّ باسم الفاعل ﴿مُّبِينٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، للدّلالةِ على المبالغةِ في بيانِ ثباتِ وضوحِ هذا الضّلالِ الّذي تمكّن منهم، فليس به نَوْعٌ من الخَفاءِ، واستمرارُ هذا الوضوح؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضلّ)، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (ضلل).
(3) الخليل، العين: (رشد).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 72.

لأنّ اسمَ الفاعل يدلُّ على الثُّبوتِ والدّوام، ولأنّه جاء في سياقِ جملةٍ اسميّةٍ تدلّ كذلك على الثّبوتِ والدّوام.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّلال والخطأ والزَّيغ والميل والتّيه:

ضـلالُ قـوم إبـراهـيـم عليه السلام عدولٌ عن الحقّ بقصد

الضّلالُ: يدلُّ على ضياعِ الشّيءِ وذهابه في غيرِ حقّه[1]، وهو: ضدّ الهدى والرّشاد، والضَّلالُ يُقال لِكُلِّ عُدُلٍ عَن الحَقِّ، عَمدًا كانَ أو سَهوًا، يَسيرًا كانَ أو كثيرًا[2]، ويُستعمل بمعنى الخطأ[3]، والخَطأ: ضدّ الصّواب، وهو: مالم يُتَعَمَّد، ويُقال لمَنْ أرادَ شيئًا وفَعَلَ غيرَهُ، أو فعلَ غيرَ الصّواب[4]، والزّيغُ: مَيْلُ الشَّيْءِ[5] عنِ القَصْدِ، وعَدْلِه عن الاستقامة[6]، وقد ذكر العسكّريُّ أنّ الزَّيغَ مطلقًا لا يكون إلّا في المَيلِ عن الحقّ[7].

والمَيلُ: انْحِرافٌ في الشَّيْءِ إِلَى جانِبٍ مِنْهُ، والعُدولُ من جهةِ الوسط إلى أحدِ الجانبين، ويُستعمَلُ في الجَوْرِ[8]، والتّيهُ: يدلّ في أصله على الحَيرةِ[9]، والضَّلالِ والذّهابِ في الأرضِ تَحيُّرًا وهلكةً، والتّائِهُ: المُتَكَبِّرُ أوِ الضّالُّ المتحيِّرُ[10].

ولّما تميّز الضّلال بأنّه ضدّ الهدى والرّشاد، وبمعنى الضّياع، والعدول عن الحقّ بقصدٍ؛ ناسبَ انحرافَ قوم إبراهيم عليه السلام وقَصْديّةَ فعلِهم بتقليد آبائهم مِنْ غير تَدَبُّر، ولا تَفَكُّر.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(2) الزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (ضلل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (خطأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زيغ).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 157، والفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 154، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (زوغ).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 213.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ميل)، والرّاغب، المفردات: (ميل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 133.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تيه).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبِيدِيّ، تاج العروس: (تيه).

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥﴾ [الأنبياء:55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا استبعدوا تضليل آبائهم ظنّوا أنّ ما قالهُ إبراهيم هو على وجه الملاعبة

لَمّا سَمِع المشركون مَقالَة إبراهيم عليه السلام وهم مستبعِدون أن يكون ما هم عليه ضلالٌ، ومتعجِّبون مِن تَضليله عليه السلام إيّاهم؛ إذْ كان قد نشأ بينهم، ولم تَكُنْ عادَتُه مواجَهَةَ أحَدٍ بما يَكْرَهُ، ممّا جعلهم يتردّدون في كَوْنِ ذَلِكَ منهُ عليه السلام عَلى وجْه الجِدِّ، ويظنُّون أنَّهُ لَم يَقُلْ ذَلِك عَلى ظاهِرِه، فقالوا مستفهمين: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾[1].

لما شدّد إبراهيمُ في الإنكار استبعدوا أن يكون جادًّا

لَمّا حَقَّق إبراهيم على قومه أنَّ الباطِلَ لا يَصيرُ حَقًّا بِسَبَبِ كَثْرَةِ المُتَمَسِّكينَ بِهِ، ولَم يَجِدوا مِن كَلامِه مَخْلَصًا، ورَأَوْهُ ثابِتًا عَلى الإِنْكار، قَوِيَّ القَلْبِ فيه، وكانوا يَسْتَبْعِدونَ أنْ يَجْرِيَ مِثْلُ هَذا الإنْكارِ عليهم مَعَ كَثْرَتِهم وطولِ العَهْدِ بِمَذْهَبِهم، فعِنْدَ ذَلِكَ قالوا لَهُ: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ موهمينَ بِهَذا الكَلامِ أنَّهُ يَبْعُدُ أنْ يُقْدِمَ عَلى الإنْكارِ عليهم جادًّا في ذَلِك[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقّ) أصلٌ يدلُّ على إحكام الشّيءِ وصحّته، ويُقال: حَقَّ الشَّيْءُ: وجبَ، والحقُّ: نقيضُ الباطل[3]، وأصلُ الحقّ: المطابقةُ والموافقةُ، والثّباتُ، ومن معانيه: الصّدقُ، والصّوابُ، والصّحيحُ، وضدُّ الباطلِ الزّائف، والعدلُ، والإسلامُ، وأمرُ النّبيّ ﷺ، وما أتى به من القرآن[4]، ومعنى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ في الآية: بالصّدقِ والشّيءِ الثّابتِ المطابقِ للواقع[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 443، والبِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 436، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 152.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(4) الزَّبِيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حق).
(5) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 228، والبِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 91، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 43.

2) ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾: اللَّعِبُ واللَّعْبُ: ضِدّ الجِدِّ، ويُقال لِكلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لا يُجْدي عليه نَفْعًا إنما أنتَ لاعِبٌ[1]، أو كان فعلُه غيرَ قاصدٍ به مَقْصِدًا صحيحًا، وهو بمعنى الهزل[2]، ومعنى ﴿مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾: من الهازلين أو العابثين في القول[3]، أي: تلعبُ بنا وتهزأ[4]، والمراد باللّعبِ هنا لعب القول وهو المسمّى مزحًا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سؤالٌ مغرورٍ مُعطِّلٍ لفكرِه بتأثيرِ الوهمِ والتّقليد

قال أبو إبراهيم وقومُه له متعجّبين حينما صُدموا بِرَدِّه الشّديد، وبحجّته الّتي قَرعَتْ أسماعهم، وملأتْ نفوسَهم ألَمًا وحُزْنًا: أجئتَنا فيما تقول بالخيرِ والحقّ الصّريحِ الّذي يجبُ علينا اتّباعه أم أنتَ من اللّاعبين اللّاهينَ الّذين يقولونَ ما يقولون بقَصْدِ الهزلِ والملاعبة؟! وهكذا المغرورُ المخدوعُ مُزَعْزَعُ العقيدةِ حينما يُجابَه بالحقائقِ النّاصعةِ يستبعِدُ أنّ ما عليه هو وأبوه ضلالٌ وخطأ، فيتعجّب لذلك[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآية عن الّتي قبلها:

استئنافٌ يُبيّنُ استبعادَ قومِ إبراهيمَ لكلامِه أنْ يكونَ على سبيلِ الجِّدِ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ عن الّتي قبلها؛ إمّا لأنّها جاءتْ جوابًا على كلامِ إبراهيم الّذي بَيَّنَ فيه ضلالهم وضلالَ آبائهم العجيبَ الظّاهرَ الّذي لا يخفى على عاقلٍ، بقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وذلك على طريقةِ المُحاوراتِ الّتي يُحذفُ فيها العاطفُ كراهيةَ تكراره بتكرارِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (لعب).
(2) الرّاغب، المفردات: (لعب)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 25.
(3) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 275.
(4) الماتُريديّ، تأويلات أهل السنة: 7/ 353.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(6) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 222، والحجازي، التّفسير الواضح: 2/ 540.

أفعال القولِ، أو لشِبْه كمالِ اتّصال، أي: قد جاءت استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ مُقدَّرٍ نشَأ عنها مِن الآية الّتي قبلها، وذلك أنّه بعد أنْ حقّقَ إبراهيم ضلالَهم المبينَ بقوله: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وحالَهم في استبعادِ كون ما هم عليه ضَلالًا، كأنَّه قيل: فماذا كانَ جوابُهم؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾[1].

سرُّ التّعبير بفعل القول الماضي المجموع:

اتِّفاقُ قومِ إبراهيم على إنكار قولِه يُشيرُ إلى سوءِ حالهم وضلالهم

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالماضي المجموع ﴿قَالُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾؛ للدّلالة على أنّ فعلَ القولِ من والدِ إبراهيم وقومه قد وقعَ وتحقّقَ؛ لأنّ الماضي يدلّ على زمنِ وقوعِ الحدثِ قبلَ زمنِ نزولِ الآية، فهي حكايةُ قِصّةٍ حدثَتْ وانتهتْ ولم تتكرّر، ولأنّ صيغةَ الفعل الماضي تناسبُ السياق الّذي جاء الحوارُ فيه كلّه بصيغةِ الفعلِ الماضي (قال).

وأمّا التّعبيرُ بصيغةِ الجمع ﴿قَالُوٓاْ﴾ دون التّصريح بذكرِ أبي إبراهيم وقومه؛ فإنّه للاختصارِ؛ فقد سبقَ ذكرُهم ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾؛ ولو ذَكَرَهم لطالَ الكلام بلا فائدة، كما أنّ التّعبيرَ بصيغةِ الجمع فيه إشارةٌ إلى أنّ قومه قد أطبقوا على هذا القول واتّفقوا عليه، ورضيَ به جميعُهم؛ أي: جالتْ به صدورُ بعضهم، ونطقتْ به ألسنةُ آخرين، ممّا يدلّ على سوءِ حالِ قومه وانغماسهم في الضّلالةِ كما وصفهم إبراهيمُ عليه السلام.

بلاغة الاستفهام بالهمزة في قوله ﴿أَجِئۡتَنَا﴾:

تَعَجُّبُ قومِ إبراهيم وإنْكارُهم لقوله الّذي أذهلهم

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ استفهامًا حقيقيًّا لا مجازيًّا مشوبًا بمعنى التّعجّب، أي: لاستبعادِهم أنْ يكونَ ما هم عليه ضلالًا بَقَوا متعجّبينَ من

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 376.

تضليله إيّاهُم، وحسِبوا أنَّ ما قاله إنّما قالَه على وجْه المِزاح والمُداعبةِ، فقالوا لَه: هذا الذي جئتنا بِه، أهو جِدٌّ وحَقٌّ، أم لِعَبٌ وهَزْلٌ؟[1]، ويحتمل أنْ يكونَ مجازيًّا لا حقيقيًّا، أي: هو اسْتِفْهامُ استبعادٍ وتعجّب أنْ يكونَ ما قاله لهم على سبيلِ الجِّدِ[2]، أو هو استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى النّفي، فهو لإنكارِ الوقوع، ومعناه: ما جئتنا بالحقّ، بل أنتَ من اللّاعبين؛ لأنّ الضّلالَ استغرقَ قلوبَهم، وسدَّ مسامعَ الإدراكِ في أفكارهم، فحسِبوا أنَّ ذلكَ هو الحقُّ[3].

سرّ التّعبير بلفظ المجيء فعلًا ماضيًا:

قُـــوّةُ مجيء إبراهيمَ بالحقّ استدْعى تعجُّبَ قومِه منه

عبَّر النَّصُّ القرآنيُّ بلفظِ المجيء في قوله: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ ولم يُعبّر بلفظِ الإتيان؛ لأنَّ المجيءَ أعمُّ وأشْمَلُ وأنسبُ للمقامِ والسّياق؛ فهو تمامُ الإتيانِ، ويُعبَّرُ به عن القصدِ بالأمرِ والتّدبيرِ له[4]، ويكونُ في الشَّيء الّذي فيه صعوبةٌ وشدَّةٌ للوصولِ إليه[5]، ويُقال باعتبارِ الحصولِ[6]، وهذه المعاني أعمُّ من مجرّد الإتيان، وأنسبُ مع المقامِ؛ إذ حالُ إبراهيم هو حالُ قوّةٍ في الدّعوةِ إلى الحقِّ والأمرِ به، والقولُ منه بالإنكارِ قد حصلَ وانتهى، وكان عن قصدٍ وتدبيرٍ، وهو أنسبُ مع السّياقِ سواءٌ أكان ذلك في استعمالِ لفظ (الحقّ) الّذي يدلُّ على القوّةِ والتّدبيرِ، أم في الاستفهام الإنكاريِّ أو التّعجّبيِّ أو التّقريريِّ ﴿أَجِئۡتَنَا﴾، أو في لفظ ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾ الّذي جاء مقابلًا وضِدًّا للمجيء بالحقّ.

وأتى بفعل ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ بصيغةِ الماضي دون المضارع؛ للدّلالة على تحقّقِ وقوعِه، أي: وقوع فعلِ المجيءِ بالشَّيء العظيم، وهو الإنكارُ

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 122.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 57.
(3) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4883.
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 361.
(5) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(6) الرّاغب، المفردات: (جاء).

عليهم بالقولِ الّذي تعجّبوا منه أشدَّ التّعجّبِ، أي توكيدًا لمواجهته إيّاهم، وتوطئةً لتوجيه دَهْشتِهم، أو إنكارهم إذا حُمِلَ هذا الاستفهامُ على المجاز[1]، كما أنّ التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي ناسبَ معنى المجيء الّذي هو الحصولُ والتّحقّق، ووافقَ عادةَ القرآنِ الّتي لم يَرِدْ لفظُ المجيءِ في القرآنِ إلّا ماضيًا؛ بما يفيدُ الحدوثَ الفعلي وتحقّقَ الوقوعِ.

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة في المجيء:

مِنْ ضلالِ المشركينَ استبعادُ كونِ ما يُطالبُهم به إبراهيمُ هو الحقّ

في لفظ المجيءِ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ؛ لأنَّ المشركين لم يريدوا من إبراهيمَ قدومَه بالحقِّ من مكانٍ إلى مكانٍ، بل المرادُ منه مطالبتُهُ إيّاهم بتركِ عبادةِ الأصنامِ، وتوحيدِ اللّٰه وقصرِ العبادةِ عليه سبحانه[2]، أي إنّهم شبّهوا مطالبةَ إبراهيم لهم بالحقّ بقدومه بالحقّ من مكانٍ إلى مكانٍ هم فيه، وحذفوا المشبّه وصرّحوا بذكرِ المشبّه به؛ ليجيء المعنى في صورةٍ واضحةٍ قريبةٍ من الأذهان، تُبْرِزُ استبعادهم لأن يكون ما يُطالبهم به هو الحقّ، وتأكيدهم على أنّه لَعِبٌ وهَزْلٌ؛ لأنّ المجيءَ يُعبَّرُ به عن القصدِ بالأمرِ الّذي فيه صعوبة وشِدَّة للوصول إليه والتّدبيرِ له[3]، وهذا إفراطٌ في معاندتهم وتحدّيهم.

بلاغة الإيجاز بالحذف في القول:

حذْفٌ يشيرُ إلى ما تُكِنُّهُ صدورهم من إرادةِ تحقيرِ لإبراهيم

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ أداةَ النداءِ والمنادى (يا إبراهيم) في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، فلم يقلْ: قالو: (يا إبراهيم أجئتنا)؛ اختصارًا، وللإشارةِ إلى ما تُكِنُّه صدورهم من إرادةِ تحقيرِ إبراهيم عليه السلام وعدمِ الاعتدادِ به، أي: يكونون قد كَنَّوا بحذفِ اسمه من الكلامِ عن احتقارهم، وعدمِ الاكتراثِ بما يقول[4].

---

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 376، 377.

(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 376.

(3) الرّاغب، المفردات: (أتى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 361.

(4) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 376.

معنى الباء في قوله ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تردُّد المشركين في عَدِّ قولِ إبراهيمَ على وجه الجِدِّ

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ لِلْمُصاحَبَةِ، والمعنى: أجئتنا بقولٍ ملاصقٍ مطابقٍ للحقّ لا ينفكُّ عنه، أي: هل هو ملاصقٌ وملابسٌ لاعتقادك؟ لأنّهم لشدّة انغماسهم في الضّلالةِ تردّدوا في اعتبارِ ما كان من إبراهيم عَلى وجْه الجِدِّ، والمَعْنى: أجئتنا بِالحَقِّ في اعْتِقادِكَ أم أرَدْتَ به المَزْحَ[1].

سِرُّ إيثار لفظ الحقّ مادةً وصيغةً:

شكُّ قومِ إبراهيم بما دعاهم إليه اغترارٌ منهم أنّهم وآباءهم على الحقّ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبير بلفظ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ دون التّعبيرِ بالجِدِّ الّذي يقابلُ اللَّعِب؛ مراعاةً لحالِ المخاطبين من قوم إبراهيم، فإنَّهم لإنْكارِهِم أنْ يَكونَ ما عليه آباؤُهم ضَلالًا، وإيقانِهم أنَّ آباءَهم عَلى الحَقِّ، شَكّوا في حالِ إبْراهيمَ؛ أنَطَقَ عَنْ جِدٍّ مِنهُ وأنَّ ذَلِكَ اعْتِقادُهُ، ولذا عَبَّروا (بِالحَقِّ)[2].

كما أنّه آثرَ صيغةَ المصدر ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ على الرَّغم مِنْ أنّه عبّرَ في الجملةِ الثّانية باسم الفاعل ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي لم يقلْ: أجئتنا جادًّا؛ للإشارة إلى أنّ ما أنكروه على إبراهيم عليه السلام هو الحقُّ نفسُه غيرَ ملتبسٍ بفاعل، قاصدين بذلك تعريةَ ما قاله لهم إبراهيم عليه السلام من أنْ تكونَ له أدنى صلةٍ بالحقّ أو الجَدِّ[3].

دلالة العطف بـ ﴿أَمۡ﴾:

اتّصالٌ يَطلبُ تعيينَ أحدِ الأمرين، وانقطاعٌ يجزمُ باتّهام إبراهيمَ بأنّه من الهازلين

تَحْتَمِلُ ﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أنْ تكون[4]: متّصلةً، وإنْ كان بعدها جملةٌ؛ لأنّها في حكم المفردِ؛ إذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 95.
(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ، ص: 677.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 57.

التّقديرُ: (أيُّ الأمرَيْنِ واقعٌ: مجيئُك بالحقِّ أم لَعِبُك؟)[1]، أو منقطعةً، واخْتاره الطّيبيُّ؛ لأنّ الاستفهامَ وقعَ في مقامِ المقاوَلَةِ بين خليلِ اللّه ﷺ وبين أعداءِ اللّه، وبيانُ ذلك أنّهم لمّا سَمِعوا منهُ ﷺ ما يَدُلُّ عَلى تَحْقيرِ آلِهَتِهِم وتَضْليلِهِم وتضليلِ آبائِهِم عَلى أبْلَغِ وجْهٍ، وشاهَدوا منهُ الغِلْظَةَ والجِدَّ طَلَبوا منهُ ﷺ البُرْهانَ، فكأنَّهم قالوا: هَبْ أنّا قَدْ قَلَّدْنا آباءَنا فيما نَحْنُ فيه فهَلْ معكَ دَليلٌ عَلى ما ادَّعَيْتَ ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾، ثُمَّ أضْرَبوا عَنْ ذَلِكَ وجاؤوا بـ﴿أَمۡ﴾ المُتَضَمِّنَةِ لِمَعْنى (بَلِ) الإضْرابيَّةِ و(الهَمزَةِ) التَّقْديريَّة، فأضْرَبوا بـ﴿أَمۡ﴾ التي بمعنى (بل) عَمّا أثْبَتوا لَهُ، وقَرَّروا بِالهَمزَةِ خِلافَهُ عَلى سَبيلِ التَّوْكيدِ والبَتِّ، وذَلِكَ أنّهم قَطَعوا أنَّهُ لاعِبٌ ولَيْسَ بِمُحِقٍّ البَتَّةَ.[2] أي: كأنّهم قالوا: أجئتنا بالحقّ يا إبراهيم، ثمَّ جزموا بأنّه من اللّاعبين الهازلين.

فائدة تنوّع الجملتين بين الفعليّة والاسميّة:

ممّا يزيدُ الوصلَ حُسنًا اتّحاد الجملتين في الكيفيّة كأنْ تكونا اسميّتين أو فعليّتين أو غير ذلك، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ عَدَلَ عن ذلك في قوله تعالى ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾؛ لأنّه قصدَ في الأولى ﴿أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ الحدوثَ، وكأنّهم يقولون: أحَدَثَ منك مجيءٌ بالحقّ ولم تكن كذلك؟! وفي الثّانية ﴿أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ الثباتَ؛ ليفيدوا الاستمرارَ والدّوام، والمعنى: أم أنتَ مستمرٌّ في لعبكِ الّذي عهدناه فيك، ولو قالوا: أم لعبتَ، وجاؤوا بالفعليّة لأفادوا أنّ اللّعبَ حادثٌ طارئ، وأنّه كان قبل ذلك جادًّا غيرَ هازلٍ، وهذا غيرُ مرادٍ لهم[3].

حكمٌ من قوم إبراهيم بأنّ مجيئه بالحقّ حدثٌ طارئٌ ولَعِبَهُ بالقول أمرٌ ثابتٌ

كما أنّ في ذلك إيذانًا بأنّ ما يَقولُه إبراهيمُ من وصفهم وآباءهم بالضّلال المبين هو عَلى وجه المُداعَبَةِ والمِزاح منه لا على

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 8/ 169.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 365.

(3) محمد أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 300.

وجه الجِدِّ هو الراجحُ عندهم[1]، أي كأنَّهم حَكَموا عليه بِأنَّهُ لاعِبٌ هازِلٌ في مَقالَتِه لَهُم[2]، وأنّ ذلك أمرٌ محقّقٌ ثابتٌ، وبأنّ كونَه حقًّا أمرٌ مشكوكٌ فيه عندهم غيرُ ثابت[3]، وفي هذا دليلٌ على انغماسهم في الضّلال وتمكّنه منهم، وعلى إصرارهم على هذا الضّلال.

وجه التّعبير بالضّمير ﴿أَنتَ﴾:

تأكيد حُكم قوم إبراهيم عليه باللّعبِ دليلٌ على عنادهم

عبّر البيان الإلهيُّ في ردّ قوم إبراهيم له بالضّمير ﴿أَنتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾، ولم يقلْ: أجئتنا بالحقّ أم باللّعب؛ لِما في ذكرِ هذا الضّمير من زيادةِ اختصاصهم لإبراهيم عليه السلام باللّعبِ والهزْلِ، وتأكيدِ حكمهم عليه بالهزلِ، ولكونِ المجيءِ بالضّمير ﴿أَنتَ﴾ اقتضى أنْ تكونَ الجملةُ اسميّةً تدلّ على الثّباتِ والاستقرارِ، أي للدّلالةِ على أنّهم قصدوا تحقيقَ كونه من اللّاعبين، وحكموا عليه بذلك حُكمًا مؤكَّدًا ثابتًا مستمرًّا[4]، وفي هذا هروبٌ منهم من الإتيانِ بالحجّة إلى اتّهامه بالهزل وفي هذا دليلٌ على شدّةِ عنادهم.

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله:

بيانٌ لموقفِ المشركينَ من تضليلِ إبراهيم لهم ولآبائهم

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ بيانيّة، والمعنى: أجئتَ بالحقّ أم أنتَ لاعبٌ، ومجيئُها هنا يشيرُ إلى كونهم بالَغُوا في الحكم على إبراهيم بتوغُّلِ كلامِه ذلك في بابِ المزح، بحيث يكونُ قائِلُه مَعْدودًا من الفريقِ الموصوفِ باللَّعِبِ والهزل[5]، وفي هذا إشارةٌ منهم إلى أنّهم لا يُعيرونَ كلامَه التفاتًا.

سِرُّ إيثار لَفْظِ اللّعب في قولهم ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾:

في عدمِ نِسبتِهم الباطلَ إلى إبراهيم إشارةٌ إلى ضعفِ حُجّتهم

المُرادُ بِاللَّعِبِ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ لَعِبُ القَوْلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 7/ 443.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 164.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 164، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4883.
(5) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.

وهو المُسَمّى مَزْحًا، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بلفظِ اللّعبِ في قولهم دون لفظِ البطلان، أي لم يقولوا: من المبطلين؛ للإشارة إلى أنّهم أرادوا بتأويلِ كَلامِ إبراهيم بالمَزْحِ التَّلَطُّفَ مَعَهُ، وتَجَنُّبَ نِسْبَتِه إلى الباطِلِ اسْتِجْلابًا لِخاطِرِه لِما رَأوْا من قُوَّةِ حُجَّتِه[1]، وكذلك لتحقيقِ طِباقٍ إيجابي فيه غموضٌ ودقّةٌ، وذلك بين الجِدّ الذي عبّر عنه القرآن ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ واللّعبِ المفهومِ من اسمِ الفاعل ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾[2]، وهما لفظان متضادّان يزيدُ تقابلُهما الكلامَ حُسْنًا وطرافةً، ويدلّ على تمكّنهم من الضّلالِ وشدّةِ عنادهم، ورفضهم لِما يقولُ، فقد جعلوا الحقَّ منه أمرًا طارئًا عليه، واللّعِبُ منه أمرًا ثابتًا فيه.

نكتة التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾:

مبالغةُ المشركين في الحكمِ على إبراهيم برسوخه في وصف الهزل

عبّر البيانُ القرآنيُّ باسم الفاعل ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾، ولم يقل: أم أنتَ ممّن يلعبُ؛ للإشارةِ إلى أنّهم بذلك قصدوا إثباتَ قيامِ الوصفِ وهو اللّعبُ بالموصوفِ إبراهيم عليه السلام، وثباته واستمراره عليه؛ لأنّ اسمَ الفاعلِ يدلُّ على الثبوتِ والدّوام؛ إذ هو غيرُ محدودٍ بزمنٍ بخلافِ الفعل.

وأمّا نكتةُ مجيئه جمعًا لا مفردًا فهي الإعلامُ بأنّ إبراهيمَ عليه السلام قد استقرَّ وصفُه عندهم ورسخَ فيمن يُطلَقُ عليهم اللّاعبون[3]، أي بالغوا في الحكم بتوغُّلِ كلامِه ذلك في بابِ المزحِ، بحيث يكونُ قائلُه مُتمكّنًا في اللَّعبِ عريقًا فيه، ومَعْدودًا من الفريقِ الموصوفِ باللّعبِ والهزل الَّذينَ يقتصر أمرُهم في إثْباتِ الدَّعاوى على اللّعِبِ واللّهو[4] أي إنّهم لا يُعيرون كلامه التفاتًا، ولا يجعلون له غايةً[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 677.
(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 677.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(5) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4883.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللّعب واللّهو والعَبَث:

الجاهلُ لا يفرّق بين حديث الجِدّ ذي الجدوى، وبين اللّهو والعبث

اللّعبُ: ضدّ الجدّ، ويُقالُ لِكلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لا يُجْدي عليه نَفْعًا[1]، وكان فِعْلُه غيرَ قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا[2]، فهو: فعلُ ما لا فائدةَ فيه، وهو بمعنى الهزل، الّذي هو ضدّ الجِدّ[3]، وهو عملٌ لِلَذّةٍ لا يُراعَى فيه داعيَ الحِكْمَة؛ كعمل الصَّبي؛ لِأَنَّهُ لا يعرف الحِكْمَة، وإنَّما يعمل للذّة[4]، ليتحقّق فيه معنى العبثيّة الّتي هي عدمُ القصدِ والجدوى[5]، واللّهو: أصلُه يدلّ على انشغالٍ بشيءٍ عن شيءٍ[6]، وقيل هو ما شغلَكَ مِنْ هوىً أو طربٍ، وهو الصُّدوف عن الشّيء[7]، واللّعبُ به والتّشاغل عمّا يَعنيه ويُهمّه[8]، ومن معاني اللّهو في القرآن الكريم: الاستهزاءُ، وضربُ الطّبلِ والملاهي، والولدُ، والسّرورُ الفاني، والغناءُ، والشّغلُ والمنع[9]، والعَبَثُ: هو الفِعْلُ لا يُفَعَلُ على اسْتِواءٍ وخُلوصِ صَوابٍ[10]، وهو أنْ يَخْلِطَ بعمله لَعِبًا، فيقال لِما ليس له غَرَضٌ صحيح[11]، واللّعبُ فِعْلٌ، واللّهو انْصرافٌ وانْشغالٌ، وقد لا يكون فِعلًا؛ مثلُ الغَفْلَة، فهي من أفعالِ القلوب، فيتميّزُ لفظُ اللّعبِ بأنّه ضدُّ الجِدّ، وأنّه فِعلٌ لا فائدةَ منه، ويتميّز لفظُ اللّهو بمعنى الغَفلةِ والتّشاغلِ عن

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (لعب).
(2) الرّاغب، المفردات: (لعب).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 25.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لعب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لهو).
(7) الخليل، العين: (لهو).
(8) الرّاغب، المفردات: (لهى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 45، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (لهو).
(9) ابن الجوزيّ، نُزْهَةُ الأَعْيُنِ النّواظِر، ص: 536.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبث).
(11) الرّاغب، المفردات: (عبث).

شيءٍ بشيءٍ، وفي العَبثِ معنى الخلط والعشوائيّة، وعدمِ القصد الصّحيح، ومن هنا كان لفظُ اللّعب أنسبَ الألفاظِ لسياق وصفِهم لإبراهيمَ عليه السلام بعدم جدوى حديثه، وعَبَثيّته، وانتفاءِ الحكمة منه، حاشاه من وصفهم.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦﴾ [الأنبياء:56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا تَهاونَ ولا مُداراةَ في مواجهَةِ الباطِلِ والشِّرْكِ

لّمّا ظنَّ القومُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام يمازحُهم ويلاعبُهم بما خاطبَهم به في أصنامِهم بقوله: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أظهرَ عليه السلام ما يعلمون به أنّه جادٌّ في قوله، وفي حرصِه على إظهار الحقِّ الّذي هو التَّوحيد، وذلك من خلال القولِ أوَّلًا ثمَّ الفعلِ ثانيًا فقال لهم: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَطَرَهُنَّ﴾: (فطر) أَصْلٌ يَدُلُّ على فتْحِ شَيْءٍ وإبْرازِه، والفِطْرَةُ: التي طُبِعَتْ عليها الخليقةُ من الدِّين[2]، وفطَرَ الشَّيءَ يَفْطُرُه: شَقَّهُ، وتَفَطَّرَ الشّيءُ: تَشَقَّقَ، وتَفَطَّرَتِ الأرض بالنَّباتِ إذا تَصَدَّعَتْ، وفطَرَ الأمرَ: ابْتَدَأه وأنْشَأه، وفطَرَ اللهُ الخَلْقَ: خلَقَهُم وبدأهم، والفِطْرَةُ: الابْتِداءُ والاخْتِراعُ[3]، ومعنى قوله ﴿فَطَرَهُنَّ﴾: خَلَقَهُنَّ وأبْدَعَهُنَّ[4]، أي: الّذي خلقَهُنّ من عدم وأنشأهُنَّ في هذا الوجود ابْتداءً من غيرِ مثالٍ سابقٍ يُحتذى، وشقّ بهما ظُلمةَ العدم[5].

2) ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: (شهد) أصْلٌ يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[6]، يقال: شَهِدَ الحادثَ: عايَنَه، وشهِدَ الشّاهدُ عند الحاكم: بَيَّنَ ما يَعْلَم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب أو التّفسير الكبير: 22/ 153.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (فطر).
(4) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 91، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4883، والهَرَرِيّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 18/ 122.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).

وأظْهره[1]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: حضورٌ مع مُشاهدةٍ، والشَّهادَةُ: قولٌ صادرٌ عن علمٍ حصلَ بمشاهدةِ بصرٍ أو بصيرةٍ، وقد يُعبَّر بالشّهادةِ عن الحكم، وعن الإقرار[2]، والشَّهادَةُ: خَبرٌ قاطعٌ، والشّاهِدُ: العالِمُ الّذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَهُ، والشَّهيدُ مِنْ أسماءِ اللّه: الأمينُ في شَهادَتِه، والحاضرُ، والَّذي لا يَغيب عَنْ عِلْمه شَيْءٌ[3]، ومعنى ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ في الآية، أي: من الشّاهِدينَ على أنَّهُ ربُّ السّمواتِ والأرْضِ، وأنا أُبَيِّنُ بالدَّليلِ ما أقول[4]، فأنا من العالِمينَ بِه المُتَحَقِّقين له والمبرهنين عليه، فإنّ الشّاهدَ على الشَّيْءِ هو مَنْ كانَ عالِمًا بِهِ، مُبَرْهِنًا عليه، مُبَيِّنًا لَهُ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ ما في الكونِ يشهدُ بوحدانيّةِ الخالقِ المدبِّر وبطلانِ عبادةِ أوثانٍ مصنوعةٍ

أضْربَ إبراهيمُ عن سُخفِهم وشركِهم هذا، وقطعَ عليهم طَريقَ الهزْلِ واللّعبِ الّذي أرادوا أن يسوقوه إليه، ومضى يُقرِّرُ الحقَّ الّذي يدعوهم إليه: ﴿رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ إنّه الربّ الّذي يجب أن يوحَّد، وأن يُعبَد، وإنْ كانوا لا يرَونه كما يرون آلهتهم المزعومة؛ فإنّ آثارَه تدلُّ عليه، وآياتُه في الكونِ تشهدُ على عظمته وجلاله وقدرته وعلمه، فكان إبراهيمُ أوّلَ الموحِّدين وأوَّلَ الشّاهدين على ذلك[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة حرف الإضراب ﴿بَلْ﴾:

إبطالٌ وتسخيفٌ مـن إبراهيـمَ لقولِ المشركين وفعلِهم

ابتدأ إبراهيمُ ﷺ كلامَه بحرف ﴿بَل﴾ في قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمۡ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهد).
(2) الرّاغب، المفردات: (شهد)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 295.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(4) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(5) البَيْضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 54، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 487.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 913.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ فأفادَتِ الإضرابَ الإبطاليَّ، والّذي وقعَ عليه الإبطالُ: إمّا أنْ يعود إلى مقالهم منِ اعتقادِ كونِها أربابًا لهم كما يُفصِحُ عنه قولُهم في سورة أخرى: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾ [الشعراء:71]، ففنَّد دعواهم بأنّ هذه الأصنامَ أربابٌ وآلهةٌ، ويكون التّقدير: (ليس الأمرُ كذلك)[1]؛ بأنّي مثلُكم في عبادتكم للأصنام واتّخاذها أربابًا، بل إنَّني أعبدُ ربَّ السّموات والأرض، الخالقَ لكلِّ شيء، والمستحقَّ وحده العبادةَ دون سواه[2]، أو أنّه يعودُ إلى ادِّعائهم أنَّ كلامه معهم هزْلٌ ولَعِبٌ، فأقام البرهانَ على ما ادّعاه بانيًا على ما تقديرُه: ليس كلامي لَعِبًا، بل هو جِدٌّ، وهذه التَّماثيلُ ليستْ أربابًا[3]، وإنَّني جئتكم بالحقِّ الَّذي لا ريبَ فيه.

إيثار لفظ الرُّبوبيّة في قوله ﴿رَبُّكُمۡ رَبُّ﴾:

تدبيرُهُ سبحانه للكونِ كلِّه يستلزمُ أحقّيّتَهُ باختصاصِه بالعبادة

آثرَ النّصُّ القرآنيُّ كلمةَ ﴿رَّبُّكُمۡ﴾، و﴿رَبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتّرغيبِ بتذكيرهم بالنِّعم، واستمالتِهم نحو الحقّ، واستنزالهم إلى قبوله، وأنّ جميعَ ذلك مَسوقٌ لمصالحهم، فالرُّبوبيّة فيها معنى الإحسان والعطاء والرَّحمة والتَّربية، وفيها إشعارٌ باللُّطف ما لا يخفى[4]، وللإيذانِ بأحقّيَّةِ الأمرِ بعبادته، فإنَّه الخالقُ لكلّ شيءٍ، الّتي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدون والسّموات والأرض[5]، والمدبِّرُ لأمورِكم، وهو مَنْ ربّاكم تحت ظلالِ عَطْفه، وأنعمَ عليكم بجزيلِ برّه ولطفِه، وهو جديرٌ باختصاصِه بالعبادةِ، لا مَنْ كانَ بمعزلٍ عن كلِّ ذلك[6]؛ لأنّ فيها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4883.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 436، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 136.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 436.

معنى الشّكر وإظهارَ الاحتياجِ إليه سبحانه[1]، وفي هذا إرشادٌ إلى أنَّه ينبغي لهم أنْ يرعَوُوا عن غيّهم، ويعلموا مَنْ يستحقُّ العبادة، فيعبدونه ويخضعونَ له، وبذلك يهتدون إلى الطَّريقِ السَّويِّ[2].

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيّة إلى ضمير الأبِ والقوم:

استمالةٌ من إبراهيم لأبيه وقومه وتطمينٌ لقلوبهم إنْ آمنوا بربّهم

أضافَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ الرّبوبيّةِ إلى أبيه وقومِه في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ استمالةً لقلوبهم بالإشارةِ إلى مدى عنايةِ اللّه بهم وإحسانه ورحمته ولطفهِ، وفي هذا تطمينٌ لقلوبهم، وإزالةٌ للمخاوفِ الّتي قد يتوقَّعونها من تركِ عبادةِ الأصنام، فمن ربّاكم وتولَّى أمركم لا يمكن أنْ يتخلَّى عنكم، أو يظلمَكم، ويجورَ عليكم، فهو خالقُكم ومالكُ أمركم ورازقكم، ومالكُ العالمين[3]، وفيه إشارةٌ إلى الشَّرفِ الّذي ينالوه إنْ أخلصوا له العبادةَ، كما فيه تعريضٌ بهم إنْ عدلوا عن هذا الشّرف وأصرّوا على عبادةِ أوثانٍ لا تضرُّ ولا تنفع.

وجه تكرار لفظ الربِّ:

تقريرُ إبراهيم لمعنى الرُّبوبيّةِ ومقتضياتها لَفْتًا لانتباه قومه

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ كلمة ﴿رَبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ ولم يقل: (بل ربُّكم خالقُ السَّموات والأرض وأنا على ذلكم من الشّاهدين) وذلك أوّلًا تقريرًا لمعنى الرُّبوبيَّةِ ومقتضياتها في السّمواتِ والأرض، وهذا لم يكنْ ليتحقّق لو لم يعبِّر بقوله (ربُّ السموات والأرض)، فهو الخالقُ سبحانه للسّمواتِ والأرض، والمدبِّر لشأنهما، وثانيًا تأكيدًا لإعلاءِ شأنِ الرُّبوبيَّةِ الَّذي ينبغي أنْ يلفتَ انتباهَهم، ويعودوا من خلاله إلى صوابهم ورُشدهم، فربُّ السَّموات والأرضِ، وربُّ الخلق كلِّهم هو ربُّهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 326.
(2) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 45.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 58.

نكتة تقييد الرُّبوبيّة بالسَّموات والأرض:

كلُّ ما في السَّموات والأرضِ من خَلْقٍ وتدبيرٍ يَنطقُ بوحدانيّة الخالقِ المدبِّر

قيَّد النَّصُّ القرآنيُّ الرُّبوبيّةَ بالسَّموات والأرضِ في قوله: ﴿رَبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنّ إبراهيمَ عليه السلام أرادَ أنْ يُعلِمَ أباه وقومَه بأنَّ ربَّهم هو الربُّ العظيم الَّذي خلقَ السَّمواتِ والأرض، والّذي يُدبّر أمرَهما، وليستْ تلكَ التَّماثيلُ التي لا نزاعَ عندهم في أنَّها لم تَخْلُق السَّمواتِ والأرض، بل هي مصنوعةٌ منحوتةٌ من حجارةِ الأرض، فما هي إلّا مربوبةٌ مخلوقةٌ، وليستْ أربابًا ولا خالقة[1]، وللإشارةِ كذلك إلى ضرورةِ النَّظر في السَّمواتِ والأرض، لكونِهما من طُرقِ الاستدلال بما فيهما من عظيم خَلْقِه، وتدبيره سبحانه على إثباتِ الخالقِ الواحد، بما يؤدّي النَّظرُ فيهما إلى العلم بحقيقةِ الرَّبِّ الواحدِ الَّتي تُمَيِّزُه من حقائقِ المخلوقات[2].

سرُّ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الربُّ الّذي فطرَ وأبدعَ هو المستحقُّ للعبادةِ

عبّر النَّصُّ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ ووصفَ به كلمةَ ﴿رَبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ زيادةً في التّعريفِ بالربّ العظيم، وتركيزًا على الصِّلة؛ لأنّ القرآنَ يأتي بالاسمِ الموصول عندما تكون صلتُه هي التي عليها مدارُ الحكم، ومن ثمَّ تكون فائدةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته هي الإيماءُ بِعلَّةِ استحقاقِ اللّه الرُّبوبيَّةَ، وهي إمّا خَلْقُه السَّموات والأرض، أي إنَّ الخالقَ الّذي خلقها لمنافعِ العبادِ هو الّذي يَحْسُنُ أنْ يُعبَد؛ لأنَّ مَنْ يَقْدِرُ على ذلك يَقْدِرُ على أنْ يَضُرَّ وينفعَ في الدُّنيا بالتَّوفيق والتَّأييد، أو باستعجالِ العقوبة، وفي الآخرةِ بالعقابِ والثَّواب[3]، وإما خَلْقُه سبحانَه لأصنامِهم الّتي يعبدونها، فهي من جملةِ المخلوقاتِ الّتي خلقها اللّه سبحانه، فكيف تكون آلهةً؟!!! على الخلافِ في عَوْدِ الضَّمير (هنَّ).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 117.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153.

إيثارُ صيغة الماضي في ﴿فَطَرَهُنَّ﴾:

تذكيرٌ لعَبَدَةِ الأصْنام أنَّ مَن ابْتدأ خَلْق ما صُنعث منه هو مَنْ يستحقّ العِبادَةَ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بفعل ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ بصيغةِ الماضي؛ لتحقُّقِ وقوعِ الخلقِ ومرورِ الزَّمن عليه، وجريًا على الدَّلالة الأصل لصيغة الماضي على زمنِ وقوعِ الحدثِ قبلَ زمنِ التَّكلُّم، وفَطْرُ السمواتِ والأرض ليس فيه معنى التجدّد، وجاء ذلك في مقابلِ ذِكْرِ عبادتهم للأصنام؛ لأنَّ الأصنامَ من آثارِ هذا الفَطْر الَّذي كان وتحقَّق؛ إذ هي مصنوعةٌ من تُربةِ الأرضِ ومائها، أو على هيئةِ كواكبِ السّماء من الشّمسِ والقمر، فاللّهُ قد خلقَ السَّمواتِ والأرضَ قبل أنْ تُصنعَ هذه التّماثيل، وقبل أنْ يَتَوَجَّهوا إلى عبادتها واتِّخاذها من دونِ اللّه آلهةً، وفي هذا إبطالٌ لِفِعْلِهم.

سرُّ إيثار التّعبير بـ﴿فَطَرَهُنَّ﴾:

إثباتُ الأسْبَقيّة في خَلْقِ السّموات والأرضِ أدلُّ على معنى الربوبيّة

عبَّر النَّصُّ القرآنيُّ بكلمةِ ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ دون خَلَقَهُنّ أو جَعَلَهُنّ؛ لأنّ الفَطْرَ تكوينُ ذواتِ السّموات والأرض فهو أدقُّ من الجعل، كما لم يقل: (خَلَقَهُنَّ) مع أنّ الخلقَ في اللّغة يعني إيجادَ الأشياء بتقديرٍ ونظام لا جُزافًا[(1)]، وعلى مثالٍ لم يُسبقْ إليه[(2)]، أي إبداعُ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ[(3)]، لأنّ مَقْصِدَ الآياتِ إثباتُ الأسْبَقيّة في خَلْقِ السّموات والأرضِ قبل أنْ يُخْلَقوا، وقبل أنْ تُصنعَ أصنامُهم، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: ما كنتُ أعرف معنى فاطرِ السَّماواتِ حتى اختصم إليّ أعرابيّان في بئرٍ فقال أحدُهما: أنا فطرتُها أي اخترعتُها وأنشأتُها[(4)]، وفي هذا السّياق تكونُ الإشارةُ بهذا اللّفظ أنسبَ لما مرّ ذِكْرُه في بدايةِ السّورة من شَقِّ الأرضِ مِنَ السَّماء، أو شَقِّ الوجود كلِّه من وحدةٍ كانت تجمعُه، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).

(3) الرّاغب، المفردات: (خلق)، والفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 566.

(4) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 2/ 273.

﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:30](1)، أو شَقِّ ظلمةِ العدم بهما(2)؛ لأنَّ كلمةَ (فَطَرَ) تعني الشَّقَّ والفَتْقَ، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك:3] أي من شقوق(3).

عَوْدُ الضَّمير في ﴿فَطَرَهُنَّ﴾:

في بيان أنّ مَنْ يُخلَقُ لا يَخلِقُ حُجَّةٌ على المشركين

في مرجعِ الضّمير (هُنَّ) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ قولان: **أحدُهما**: أنّه يرجعُ إلى السَّموات والأرض، لكونها لَمّا لم تبلغْ في العددِ الكثيرَ منه جاء الضَّميرُ ضميرَ القلّة(4)، وفي عَوْدِ الضَّمير على السّموات والأرض يتحقّقُ وجودُ وصفِ اللّه بالإيجادِ لهنّ إثرَ ربوبيّته تعالى لهنّ، بما يشيرُ إلى التَّأكيدِ والتَّنبيه على هذا الإيجاد لهنّ بما فيهنَّ منَ المخلوقاتِ الَّتي من جملتها أنتم وآباؤكم وتماثيلكم لا يكون بمعزلٍ من الربوبيّة(5)، **والقولُ الآخر**: أنّه يرجعُ إلى التَّماثيل؛ لأنَّه أَدْخَلُ في تَضْليلِهم، وأظهرُ في إلزام الحجَّة عليهم(6)، لِما فيه من التَّصريحِ المُغني عن التَّأمّلِ في كون ما يعبُدونه من جملةِ المخلوقاتِ التي خلقها اللّهُ سبحانه، فكيف تكون آلهة؟!(7).

معنى الواو في قوله ﴿وَأَنَا۠﴾:

جَمعٌ بين إبطالِ إبراهيم لربوبيّة تماثيل قومه وشهادتِه على ربوبيَّةِ الله سبحانه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عاطفة(8)، عطفتْ الجملة على جملة ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ ففيهما استمرارٌ لمحاجَّة إبراهيمَ عليه السلام قومَه مع تنوّع حجّته، فبعد أنَّ أبطلَ

---

(1) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 436.
(3) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 2/ 273.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 44، وقد قطعَ به ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73.
(6) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 122، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 539.
(8) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 42، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 289.

اعتقادهم بأنّ تماثيلَهم أربابٌ، أو أبطلَ ادّعاءهم أنَّ كلامَه معهم هزْلٌ، وأقام البرهان على ما ادّعاه بأنّ ربّهم ربُّ السَّموات والأرض أكْمَلَ بشهادتِه على ذلك وامتثالِه لتحقيقِ العبوديَّةِ لربِّهم الحقِّ قولاً ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فأفادتِ الواوُ في الآيةِ الجمعَ بين إبطالِ إبراهيمَ لربوبيّة تماثيلِ قومِه وإقامةِ البرهانِ على ربوبيّة اللّه سبحانَه، وبينَ شهادةِ إبراهيمَ على تِلكمُ الرُّبوبيَّة.

دلالة التَّعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾:

توكيد إبراهيم لعِظَم شهادته على ربوبيَّة الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ليُفيدَ معنى الاستعلاءِ المجازيِّ؛ ليُكَنّي به عن تَمَكُّنِ الشَّهادة عندَه على ربوبيَّة اللّه تعالى، وفي هذا زيادةُ توكيدٍ لعِظَم هذه الشَّهادة، ولأنَّ المقامَ مقامُ الرُّبوبيَّة، ولأنّ السّياقَ سياقُ عُلُوٍّ ورفعةٍ وعظمةٍ لمَنْ يشهد بربوبيَّته، لهذا ناسبَ أنْ يُذكَرَ حرفُ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰ﴾.

سرّ التّعبير باسم الإشارة الخاصّ بالبعيد:

تعظيمُ إبراهيم للمشهودِ عليه تنبيهٌ للمخاطبين على أهمّيّته

جاء البيانُ القرآنيُّ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُم﴾ المُشار به للبعيد في قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الَّذي يشيرُ إلى ربوبيَّةِ اللّه تعالى ووصفِه بالاختراعِ والخلْقِ لهذا العالم[1]، وجاء اسم الإشارة بصيغةِ البُعد، مع أنّ المُشار إليه قريبٌ سبقَ ذكرُه للتوِّ في قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾؛ كنايةً عن تعظيم المشهود عليه، وبُعْدِ منزلتِه ومكانته، وتنبيهًا للمخاطَبين على أنّه الأمرُ البيّنُ.

وفي استعمال صيغةِ الجمع ﴿ذَٰلِكُم﴾ دون (ذلك)؛ مراعاةٌ للمُشار إليه ﴿رَبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ وهو جمعٌ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444.

ومراعاةٌ للمخاطَبين وهم أبوه وقومه؛ إذ هم جمعٌ لا فردٌ[1]، فضلًا عمّا في التَّعبيرِ بالجمعِ من معنى التّوكيد[2].

علّة تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾:

بيانُ إبراهيمَ لأهمّيَّة ربوبية الله المشار إليها

قدَّم البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ على ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم وهو المُشارُ إليه في قوله ﴿ذَٰلِكُم﴾ وللتّشويقِ بالمؤخَّرِ وهو الشَّهادة بربوبيَّةِ اللّه سبحانه[3]، وذلك على اعتبارِ شبه الجملة مُتَعَلِّقَةً باسم الفاعل ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ من باب التَّوسع والتَّجوّز على خلافِ الأصل، بأنْ تكون (أل) في اسم الفاعل ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ موصوليَّةً بمعنى (الَّذين) وليستْ للتَّعريف،[4]، وأمّا إذا تعلّقَ بمحذوف تقديرُه: وأنا شاهدٌ على ذلكم من الشّاهدين، أو على جهةِ البيان، أي (وأنا أعني على ذلكم)، فلا يوجد تقديم في الآية.

معنى حرف الجر ﴿مِّنَ﴾:

تبعيضٌ يدلُّ كَثرةِ الشّاهدينَ بتوحيدِ الله في مختلفِ الأزمان والأقطار

جاء النَّصُّ القرآنيُّ بحرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ لإفادةِ معنى التَّبعيض، والمقصودُ أنَّ الّذين يشهدون على الرُّبوبيَّةِ كثيرون، وأنا بعضٌ منهم[5]، والمراد بـ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أنّهم الّذين شهدوا بتوحيد اللّه بالإلهيّة في مختلفِ الأزمان أو الأقطار، وليس من هُم في زمانه؛ إذ لم يكنْ يومئذٍ في قومه من يشهدُ ببطلانِ إلهيَّةِ أصنامهم[6].

نكتة التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بصيغةِ اسم الفاعل ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ في

(1) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 17/ 56.
(3) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 521.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.

شهادةُ إبراهيمَ والمؤمنينَ على ربوبيّةِ الله دائمةٌ ثابتةٌ لا تزولُ ولا تتغيَّرُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنَّ اسمَ الفاعل يدلّ على الدَّوام والثُّبوت والاستمرار، بما يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغةِ لثبوتِ ودوام الشّهادة من إبراهيم عليه السلام النّاتجة عن عِلْم يُشبهُ عِلْمَ المشاهدَةِ والمعاينة؛ فالدَّليلُ عنده يُثبِتُ اليقينَ كالمعاينةِ الَّتي يراها ويشهدُها، أي: منَ العالمينَ به على سبيلِ الحقيقةِ المُبرهنين عليه[1].

وجاء بصيغةِ الجمع ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ للدّلالةِ على كثرةِ الشّاهدين على توحيدِ الله على مرِّ الزمان، فإبراهيمُ واحدٌ من زُمرةِ هؤلاء الشّاهدين، والمعنى: ما قلتُه أمرٌ مفروغٌ منه، وعليه شهودٌ كثيرون، فهو مَقالٌ مصَحَّحٌ بالشُّهود[2]، فضلًا عن أنّ الجمعَ أبلغُ من كلمةِ (شاهد)[3]؛ إذِ الشَّهادةُ من الجماعةِ ليستْ كالشَّهادةِ منَ الواحد، فهي أثبتُ وأرسخُ وأدوم، وهو كذلك مُناسِبٌ للسّياق الّذي وردَ بصيغة الجمع: ﴿أَنتُمْ﴾، ﴿عَٰكِفُونَ﴾، ﴿وَجَدْنَآ﴾، ﴿ءَابَآءَنَا﴾، ﴿عَٰبِدِينَ﴾، ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾، ﴿رَّبُّكُمْ﴾، وللفاصلةِ الغالبةِ في آياتِ سورة الأنبياء.

بلاغة حشد المؤكّدات في جملة الفاصلة:

المبالغةُ في تأكيدِ شهادةِ إبراهيم بيانٌ بأنّ ربوبيّةَ الله أمرٌ مفروغٌ منه محقَّقٌ بالشّهود

اشتملَتْ جملةُ الفاصلة ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ على عدّةِ مؤكِّدات، وهي: التّعبيرُ بالضّمير (أنا) دون قولِه (وأشهد على ذلك)، ممّا جعلَ الجملةَ اسميّةً تفيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ وقوّةَ الحكم وبقاءَه، فشهادةُ إبراهيم ثابتةٌ لا تتبدّل، فضلا عن أنّ التَّعبيرَ بـ(أنا) يفيد تأكيد إبراهيم لعلْمِه بذلك؛ ليمنَحهم الثِّقةَ بأنَّه المرشدُ الأمينُ عندهم، وأنَّه لا يَكْذِبُهم فيما يقولُ[4]، ويُفيد كذلك تأكيدَ إعلامِ إبراهيم لهم بأنّه مُرْسَلٌ منَ الله لإقامةِ دين التّوحيد؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444.
(3) حاشية القُونَويّ: 12/ 540.
(4) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.

لأنّ رسولَ كلِّ أمّةٍ شهيدٌ عليها، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النساء:41][1].

والتّعبيرُ باسم الفاعل مجموعًا ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وباسم الإشارة مجموعًا ﴿ذَٰلِكُم﴾، وتقديمُ شبه الجملة ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾؛ دالٌّ على الاهتمامِ بالمقدَّم، والتّشويقِ للمؤخَّر؛ فضلًا عن أنّ استعمالَ لفظِ الشهادة يفيدُ المبالغةَ في التأكيدِ والتحقيق، كقول الرجل إذا بالغَ في مدحِ أحدٍ أو ذمِّه: أشهدُ أنَّه كريمٌ أو ذميمٌ، ويفيدُ أنّ إبراهيمَ قادرٌ على إثباتِ ما ذكره لهم بالحُجَّة، فالدَّليل عنده يُثْبِتُ اليقينَ كالمعاينةِ الَّتي يراها ويَشْهَدُها[2]، وأنَّه ليس مثلَ قومِه الّذينَ اكْتَفَوا بقولهم: أنَّهم وجدوا آباءَهم كذلك يفعلون[3].

فائدة الجمع بين الدَّليل العقليّ والدَّليل السَّمعيّ في جواب إبراهيم لقومه:

حشدُ الأدلّة من إبراهيمَ مبالَغةٌ في إبطالِ عقيدةِ قـومـه وإثـبـاتِ ربوبيّة الله

جمعَ إبراهيمُ عليه السلام في رَدِّه على أبيه وقومه في قوله تعالى: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ بين الدّليلِ العقليِّ والدّليل النقليِّ؛ مبالغةً في إبطالِ ما ادّعاه قومه من ربوبيّة التّماثيل، وإثباتِ ربوبيّة اللّه سبحانه، أمّا الدَّليل العقليُّ، فإنَّه قد علمَ كلُّ واحدٍ أنَّ اللّهَ وحدَه الخالقُ لجميع المخلوقات، والمدبِّرُ لهنَّ، بجميع أنواعِ التَّدبير، فيكون كلُّ مخلوقٍ مفطورًا مدبَّرًا متصرَّفًا فيه، ويدخلُ في ذلك جميعُ ما عُبِدَ من دون اللّه؛ فهل يليقُ بذوي الألباب والنُّهى أنْ يَعبُدوا مخلوقًا متصرَّفًا فيه؟!! لا يملكُ نفعًا ولا ضَرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ويَدَعوا عبادةَ الخالقِ الرّازق المدبِّر؟!! وأمّا الدَّليل السَّمعيُّ: فهو المنقولُ عن الرُّسل عليهمُ الصَّلاة والسَّلام، فإنَّ ما جاؤوا به معصومٌ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.

(2) زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153.

يُغَلَّطُ، لأنَّه لا يُخْبِرُ بغيرِ الحقِّ، ومِنْ ذلك شهادةُ الرُّسلِ على ذلك خُصوصًا أنَّها من واحدٍ مِن أُولي العزمِ، وهو خليلُ الرَّحمن[1].

بلاغة المقابلة في الآية:

اتّهامٌ لإبراهيمَ بالهزلِ قابَلَهُ إعلامٌ منه بأنّه مُرْسَلٌ من الله لإقامةِ دينِ التّوحيدِ

قابلَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ إبراهيم عليه السلام بأنّه مُرْسَلٌ من اللّه لإقامةِ دينِ التّوحيدِ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ اتّهامُ قومه له بالهزلِ ﴿أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ من حيثُ الأسلوبُ والتَّركيبُ بما يُحقّقُ جمالًا وتمامًا في المعنى؛ أمّا من حيثُ الأسلوبُ فالكنايةُ في كلا الموضعين؛ إذْ ليس المقصودُ باللّعبِ اللّعِبَ الحقيقيَّ، وليس المقصودُ بالشَّهادة الشَّهادةَ الحقيقيَّة؛ لأنَّه لا شهادةَ مِنَ المُدّعي، بلِ اسْتُعيرتِ الشَّهادةُ لتحقيقِ الدَّعوى بالحجَّة والبرهان[2]، وأمّا من حيث التَّركيبُ؛ فبناءُ الخبر في الجملتَينِ على الضَّمير؛ كأنَّه قال: لستُ مِنَ اللّاعبينَ في الدَّعاوى، بل من العالِمين فيها بالبراهين القاطعة والحُجَج السّاطعة كالشّاهد الَّذي تُقطَعُ به الدَّعاوى[3]، ويكون قولُه فاصلًا في النِّزاعات والقضايا، فلستُ مثلَكم أقول ما لا أقدرُ على إثْباته، فإنّكم لم تَقْدِروا على الاحْتِجاج على مذهبِكم، ولم تزيدوا على أنْ تقولوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزخرف:22][4].

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: ص526، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9578.

(2) الهَرَريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 18/ 123.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 58.

(4) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 45.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾

[الأنبياء:57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

انتقالٌ منْ دَلالةٍ قوليَّةٍ إلى دَلالةٍ فِعليَّةٍ ومن إثباتِ الإله الحقّ إلى إبطالِ الباطلِ

لَمّا ردَّ إبراهيمُ عليه السلام على قومِه بالقول المنبِّه على دَلالة العقلِ، وأقامَ البرهانَ على إثباتِ الإله الحقِّ فلم ينتفعوا أتبَعَه بالتَّهديدِ على إبطالِ الباطلِ وهدمِه ومحوِ آثارِه، فانتقلَ من المُحاجَّة القَوليَّة إلى تغييرِ المُنكرِ؛ لأنَّ إزالةَ المُنكر - حَسْبَما أمكَنَ - واجبٌ، ما لم يترتَّبْ عليها المَضرَّة، وذلك ثقةً باللّٰه، ومحاماةً عن دينه، وجمعًا بين القول والفعل[1]، وانتقالًا من إثباتِ الإله الحقّ إلى إبطالِ الباطل[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾: (كيد) أصلٌ يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ، ولذا يُسَمُّون المَكْرَ كيدًا[3]، والكيدُ: التّدبيرُ المحكَمُ الشَّديدُ وتنفيذُه، وهو أيضًا: الخُبثُ، والمُضارَّة[4]، والكيدُ من المَكيدة: وهو الاحْتيالُ والاجْتهادُ فيما يَقْصِدُهُ الإنسانُ، وغَلَبَ في المَكر، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذموم أكثَرَ[5]، والمرادُ بقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾: لأُريدَنَّ بهم سوءًا، وأنّهم لو أطبقوا على كَيده لم يَقْدِروا على ذلك[6]، أو لَأَفْعَلَنَّ بها ما يسوؤكم بضَربٍ من الحيلة[7].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 437، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 540، والصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين: 4/ 112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 97.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 437.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كيد).
(5) الرّاغب، المفردات: (كيد)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 441.
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 442.
(7) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 92.

2) ﴿تُوَلُّواْ﴾: ولَّى الشَّيءُ وتولَّى: أدْبَرَ، وولَّى عَنْهُ: أعْرَضَ عَنْهُ أو نَأى، والتَّوْلية تَكونُ انْصِرافًا، وقد تَكونُ إقْبالًا، والتَّولّي يَكونُ بِمَعْنَى الإعْراضِ، ويَكونُ بِمَعْنَى الاتِّباعِ[1]، والتَّولّي: معناه الانصرافُ إعراضًا وإدبارًا[2]، والتَّولّي: في القرآن على أربعة أوجهٍ: الانصرافُ، والإباءُ، والإعراضُ، والهزيمة[3]، ومعنى ﴿تُوَلُّواْ﴾ في الآية: الانصرافُ ذاهبين، ورُوِيَ عن ابن مسعودٍ أن انصرافَهم هذا كان إلى عيدٍ لهم[4].

3) ﴿مُدْبِرِينَ﴾: (دبر) أصْلٌ هو آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ خِلافُ قُبُلِهِ[5]، ودابِرُ العَيْشِ: آخِرُهُ، ودَبَرَ بِالشَّيْءِ: ذَهَبَ بِهِ، ودَبَرَ الرَّجُلُ: ولَّى، وأدْبَرَ: ذَهَبَ، (واللَّيلِ إذْ أدْبَرَ)، أي: ولَّى لِيَذْهَبَ، والمُدابِرُ: المولّي المُعْرِض عَنْ صاحِبِهِ[6]، وأدْبَرَ الشَّخْصُ: مَضى وذَهَبَ ووَلَّى، عَكْسُ أقْبَلَ، وأدْبَرَ النَّهارُ: انْقَضى[7]، وتَدابَرَ القومُ: إذا ولَّى بعضُهم عن بعض[8]، ومعنى ﴿مُدْبِرِينَ﴾ في الآية: ذاهِبينَ مُنْطَلِقينَ عنها، وقد جعلوها وراءَ أدْبارِهم، أي: في غَيْبَتِهم عنها[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في التَّهديد إصرارٌ وشدّة عزمٍ على تحطيم الأصنامِ والقضاءِ عليها

أسَرَّ إبراهيمُ ﷺ في نفسه أنَّه يريد أنْ يتحوَّل من القولِ إلى الفعلِ، وأراد أنْ يُريَهم هذا القولَ في صُورةٍ عمليَّةٍ، بعد أنْ لم يجدْ لقوله آذانًا تسمع، أو قلوبًا تعي، وأكَّد هذه النّيةَ، وأقسمَ باللّه الَّذي

(1) ابن منظور، لسلن العرب، والزَّبيدِيّ، تاج العروس: (ولي).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).
(3) ابن الجوزيّ، نُزْهَةُ الأَعْيُنِ النّواظِر، ص: 215.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 104، والبَغَويّ، معالم التَّنزيل: 3/ 291، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(7) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دبر).
(8) الرّاغب، المفردات: (دبر).
(9) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 488، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.

فطرَهم وفَطَرَ كلَّ شَيءٍ أنْ يجتهدَ في تحطيمِ أصنامهم، بعدَ أنْ ينصرفوا بعيدًا عنها، ويولُّوها أدبارَهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة العطف بالواو في الآية:

جمعٌ بينَ تَغْيير إبراهيمَ للمُنكرِ بالقولِ وتَغْييره باليد

عُطف قولُ إبراهيمَ ﷺ: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾؛ وهي جملةُ قسم على جملةِ ﴿بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ﴾[2]، والرّابط بينَهما أنَّهما مَقولُ القولِ لإبراهيم عليه السلام في رَدِّه على أبيه وقومه، جمعَ فيه بين التّهديدِ بإبطالِ الباطلِ وبين هدمه ومحوِ آثاره، أي: بينَ تغييرِ المنكر بالقولِ والتّهديد بتغييره باليدِ، وتَظهرُ البلاغةُ في هذا العطف أنَّ إبراهيم عطفَ النَّتيجةَ - وهي إقامةُ البُرهانِ على إبطالِ الباطلِ بهَدْمِه ومَحْوِ آثاره - على المقدِّمةِ وهي إقامةُ البُرهانِ على إثباتِ الإله الحقّ، ومن بلاغةِ العَطْفِ أنْ تُرتَّبَ النَّتائجُ على المقدِّمات.

بلاغة القَسَمِ بقوله ﴿وَتَٱللَّهِ﴾:

تـأكـيـدٌ مـن إبراهيمَ لعزمِه عـلـى كـسـرِ الأصْنامِ وتَعَجُّبٌ منه على تَيَسُّرِ ذلك

جاء النَّصُّ القرآنيُّ بالقَسَم باسم اللّه الأعْظم في قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ تأكيدًا لعزمه على تغييرِ المُنكرِ من اتِّخاذهم الأصنامَ آلهةً، وذلك بالكيدِ لها وتحطيمِها، وجاء التّأكيدُ هنا بالقَسَم؛ لأنّ ما سيفعلُه إبراهيم ممّا قد يُنْكَرُ لِشدّةِ عُسْره وصعوبَتِه[3]، وزادَ إبراهيم على التَّأكيدِ معنى التَّعجُبِ باستخدام التّاء حَرْفًا لِلْقَسَمِ بَدَلًا من واو القسم[4]؛ لأنّها لَمّا كانتْ نادرةً في أدواتِ القَسَم جُعلَتْ للنّادرِ من المعاني، والنّادرُ من المعاني يُتَعجَّبُ منه[5]، وكأنَّ إبراهيمَ عليه السلام تعجَّبَ من تسهيلِ الكيدِ على يَدِه مع أنَّ الأمرَ مقنوطٌ منه في

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 913، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 97، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 97.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 437.
(4) الزَّمَخْشَريّ، الكشّاف: 3/ 122، والتّحرير والتّنوير: 17/ 97.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 10/ 170.

نفسِه لصعوبتِه وتعذُّرِه، خصوصًا في زمنِ النُّمرود مع عُتُوِّه وقوّةِ سلطانِه واستكبارِه وتهالكِه على نصرةِ دينه؛ فاحتيج إلى نوعٍ من الحيلِ في إخفاءِ آلةِ الكَسْر[1].

وفي استعمال التّاء دون غيرها زيادةُ تأكيدٍ؛ لأنَّ قومَ إبراهيم ربّما لن يُصدِّقوا ما سيقوله؛ لأنَّهم ظنّوا أنّه من اللّاعبينَ عندما قال لهم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فأقْسَمَ إبراهيمُ عليه السلام بأقوى أدواتِ القَسَمِ[2]؛ لأنّ التّاءَ لا تدخلُ إلّا على الجلالةِ المعظّمةِ على الرّاجح[3].

وجه إظهار لفظ الجلالة:

تَعظيمُ إبراهيم لـلـمُـقْـسَـمِ به تـرْهـيـبٌ للقومِ وتخويفٌ لهم

أظهر النَّصُّ القرآنيُّ اسم الجلالة (اللّه) في القَسَم ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ لمناسبته لحرفِ القسمِ التّاءِ الّذي لا يأتي في الرّاجح إلَّا مع الاسم الأعظم، ولتعظيم القَسَم الّذي أقسمَ عليه سيدُنا إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّ اسمَ (اللّه) هو اسمُ الذّاتِ الّذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال في القدرةِ والقهرِ ترهيبًا لقومه وتخويفًا لهم.

بلاغة التّوكيد باللّام ونون التّوكيد الثّقيلة:

مبالغةٌ في إصرارِ إبـراهـيـمَ على المُضِيِّ فيما أرادَ

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ القَسَم ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ بلامِ التّوكيد الواقعة في الجواب، وزادهُ توكيدًا بالنّون المشدَّدة الملازمةِ للقسم؛ إذْ إنّها بمنزلةِ القَسَم، وبمنزلةِ تكرارِ الفعل، وهي تفيدُ - كذلك مع التّوكيد - الشمولَ والعمومَ عندما يكونُ الكلامُ لغيرِ الواحد، أي: إنَّ إبراهيمَ عليه السلام ماضٍ في وعيدِه لقومه بأنَّه سَيَكيدُ جميعَ أصنامِهم بعد أنْ يولُّوا مُدْبرينَ، وأنّه أرادَ أنْ يقطعَ عليهم أيَّ شكٍّ أو ظنٍّ بأنّه

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 122، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 540، والبِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/ 122.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 17/ 57.

(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 437، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 295.

يلاعبُهم ويمازحُهم فيما يقول، أو أنَّه غيرُ جادٍّ في قوله بأنَّهم في ضلالٍ مبين.

وتأكيدُ الفعلِ هنا واجبٌ؛ لأنَّه مضارعٌ، جاء في جوابِ القسَم، وجاء مُثبَتًا غيرَ مَنفيٍّ، ومستقبلًا لزمنٍ آتٍ، وغيرَ مفصولٍ عن لامه بفاصلٍ[1].

إيثار فعل الكيد:

اجتهادُ إبراهيم في كسرِ الأصنام إيذانٌ بصعوبةِ ذلك

آثر النَّصُّ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ الكيد دون غيره في قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ فلم يقل: (لَأُحَطِمَنَّ أصنامَكم أو لَأَمكُرَنَّ بأصنامِكم)؛ لِما يشتملُ عليه لفظُ الكيدِ من معالجةِ الشَّيء بِشِدَّةٍ[2]، ومِنْ معنى التَّدبيرِ المحكم الشَّديدِ في تنفيذِهِ[3]، ومِن إيقاعِ المكروه بالغيرِ قَهْرًا سواءٌ عَلِمَ أم لا[4]، وهو أقوى من المَكْر[5]، وهذه المعاني أنسبُ مع المَقام سواءٌ مع حالِ إبراهيم عليه السلام الّذي عالجَ أمرَ الأصنامَ بتدبيرٍ مُحْكَم شديد، يقصد إبراهيمُ منه إبطالَ شركِهم، وشَرَعَ في تنفيذِه بشِدَّةٍ واجتهادٍ واستعمالِ الحيلةِ لانتهازِ الفُرصةِ المُناسِبَة، وذلك لوجودِ صعوبةٍ في زمن النُّمرود، على عُتوِّه واستكباره، وقوّة سلطانِه[6]، أم مع حالِ المشركين، فقد علموا ما قام به إبراهيم بعد ذلك، فضلًا عن أنّ استعمال لفظ الكيد الذي يتوقّف على استعمالِ الحيل عَزْمٌ من إبراهيم عليه السلام على الإرشادِ إلى ضلالهم بنوعٍ آخرَ؛ إذْ قَصَدَ بذلك أنْ يحتاطوا في الحفظِ فيكونُ الظَّفَرُ بالمطلوب أتمَّ في التَّبْكيت، وأوْضَحَ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم ليَعودوا إلى رُشْدِهم[7].

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/ 209، وابن هشام، مُغْنِي اللّبيب، ص: 444، والدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 636.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(3) الزَّبيدِيّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كيد).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259 - 260.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259 - 260.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 58، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 46.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 58.

سرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾:

في كَيدِ إبراهيمَ المُتجدِّدِ والمُتكرِّرِ للأصنامِ إصرارٌ منه بالقضاءِ على الشّرك

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالمضارع ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾؛ ليُفيدَ الاستقبالَ من الزَّمانِ لفعلٍ لَمّا يَقَعْ بَعْدُ، ويُنْتَظَرُ وقوعُه في الزَّمن المستقبل؛ لأنَّه لَمّا تأكَّد باللّام والنّون تبيَّن أنَّه للمستقبلِ وجوبًا؛ لأنَّ الحالَّ لا يُؤَكَّدُ بهما[1]، ثُمَّ إنَّ المُضارِعَ يعطي معنى التَّجدُّد والتَّكرار، وهذا ما أراده إبراهيم عليه السلام فكَيْدُه لا يَنْقطعُ ولا يَتوقَّفُ عن الأصنام، بل هو مُسْتَمِرٌّ في كُلِّ زمانٍ، ولا سيَّما زمنَ النُّمرود إلى أنْ يقضيَ على أصنامِهم، وفي هذا بيانٌ لإصرارِ إبراهيمَ عليه السلام القضاءَ على الشّرك.

بلاغة الاستعارة أو المشاكلة التَّقديريَّة في لفظ الكيد:

كـيـدُ إبـراهـيـمَ لأصـنـامِـهـم دلـيـلٌ عـمـليٌّ عـلـى بُـطْـلانِ اسـتـحـقـاقِـهـا للعبادةِ

عبَّر النَّصُّ القرآنيُّ عن تكسيرِ الأصنامِ وتحطيمِها بالكيدِ في قولِ إبراهيم: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ عن طريق الاستعارةِ أو المشاكلةِ التَّقديريَّة، من بابِ التَّوسُّعِ في الكلام، وذلك بالنَّظر إلى حالِ المخاطَبين وفهمِهم واعتقادِهم، فقومُ إبراهيم يزعمون أنَّ الأصنامَ تضرُّ وتَنْفع، وتَكيدُ وتَمكرُ، وتستطيعُ أنْ تدافعَ عن نَفْسِها، ومِنْ ثَمَّ فلا يَسْتَطيعُ أنْ يَمَسَّها بسوءٍ إلّا على سبيلِ الكَيد[2]، ويزعُمون كذلك أنّها تَملِك الشُّعور، أي: يقع الضرر عليها[3]، وبذلك يقيمُ إبراهيمُ الدَّليلَ العمليَّ على بُطلانِ عبادةِ الأَصْنام، وكأنَّه يقولُ بلسانِ الحال: سأكيدُ أصنامَكم، وسأستعمل معها الحيلة، فلو كانتْ تعقلُ فلْتَمنَعْني حين أُكَسِّرُها، ولْتَرُدَّ الفأسَ من يدي، وإنْ كنتُ على حقٍّ فلنْ تَشْعُرَ بي[4].

(1) ابن هشام، مُغْنِي اللّبيب، ص: 444.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 97، والهَرَرِيّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 18/ 124.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 97، والهَرَرِيّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 18/ 124.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9579.

ويُمكن أنْ يُفسَّر الكَيدُ بأنَّه للكافرين؛ لأنَّ الحيلةَ للعاقِل، والأصنامُ ليستْ من العقلاء، لكن يُقَدَّر المضاف، أي لأكيدنَّ أصحابَ أصنامِكم وسَدَنَتَها، أو على تَقديرِ مفعولٍ، والمعنى: لأكيدنَّكم في أصنامِكم، أي: أفْعَلَنَّ بها ما يَسوؤكم بِضَرْبٍ مِنَ الحيلة[1]؛ فيكون بذلك الفِعْلِ قد أنْزلَ بِهِمُ الغَمَّ[2].

نكتة جَمعِ الأصنامِ ﴿أَصْنَـٰمَكُم﴾:

تهديدُ إبراهيم بكيد جميع التّماثيل تحقيرٌ لها واستخفافٌ بعقولِ عابديها

التَّماثيلُ الَّتي يعبدها قومُ إبراهيمَ كثيرةٌ، وليستْ تِمثالًا واحدًا، ويدُلُّ على ذلك أنّ إبراهيمَ قد استثْنى من تحطيمِها الصَّنمَ الأكبرَ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء:58]، وقيل: كانتْ الأصنامُ سبعينَ صنمًا مصطفَّةً، ومعها صنمٌ عظيمٌ، وكان هو مقابلَ بابِ بيتِ الأصنام[3]، وقد جاءَ البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ الجمعِ لكلمةِ الأصنام في الآية ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم﴾ ولم يقتصرِ التَّهديدُ على الصَّنم الأكبرِ؛ ليشملَ بتهديدِه جميعَ الأصنامِ المعهودةِ الّتي سبقَ ذكرُها، والّتي جعلها إبراهيمُ جُذاذًا؛ لأنّ ضمير ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ [الأنبياء: 58] يعودُ على هذه الأصنام الّتي توعّدَها إبراهيمُ عليه السلام، وفي هذا مبالغةٌ في التّحدّي والتّهديد، وللإشارةِ إلى الاستخفافِ بعقولِهم؛ إذ يعبدونَ آلهةً كثيرةً ومتعدّدة، ولم يعبدوا الواحدَ الأحدَ الفردَ الصَّمَدَ.

توجيه نسبة الأصنام إليهم ﴿أَصْنَـٰمَكُم﴾:

تحقيرٌ واستخْفافٌ بهم وتهكُّمٌ وتجهيلٌ لهم

جاء البيانُ القرآنيُّ بقولِ إبراهيم مخاطبًا قومَه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم﴾ فنسبَ الأصنامَ إلى قومه، لبيانِ أنَّ هذه الأصنامَ من صُنْعِ أيديهم، وأنّها مِلْكٌ لهم؛ لأنَّ نسبةَ الإضافةِ ألصقُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 437.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 98.

بالمضاف إليه، وفي هذا استخفافٌ بهذه الأصنام الَّتي صارتْ آلهةً تُعبَد من دونِ اللّٰه، وتحقيرٌ لها، وفيه تهكُّمٌ وتجهيلٌ لقومه[1].

دلالة التّعبير بالظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ دون الجارِّ (مِن):

كيدُ إبراهيم لأصنامهم لم يكنْ بمجرّد تولّيهم

العربُ تُثبِتُ (مِن) قبلَ (بَعْدَ) وتحذفها وفْقَ ظَرفِ الزَّمن الّذي سيقعُ فيه الفِعل، فإنْ كان في بعض الزَّمان أثْبتَتْ (مِن)، وإنْ كان في الزّمن كلِّه حَذَفَتْها، وهنا حَذَفَ النَّصُّ القرآنيُّ (مِن) في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾؛ وتوجيه ذلك: أنَّه لّما كان عزمُه على إيقاعِ الكيدِ في جميعِ الزَّمان الَّذي يقعُ فيه تَوَلّيهم في أيِّ جُزءٍ تيَسَّرَ له مِنه أسقطَ الجارَّ[2]، أي إنَّ كيد إبراهيم ﵇ لأصنامهم لم يكنْ عند تَولّيهم، وإنّما في أيِّ زَمَنٍ من زمانِ التَّولّي تَيَسَّرَ له ذلك.

نكتة التّعبير بالمصدر المؤَوَّل ﴿أَن تُوَلُّواْ﴾:

تأكيدٌ على ملازمةِ إيقاعِ الكيدِ في أيِّ جُزءٍ تَيَسَّر من زَمَنِ تَوَلّيهم

المصدر المؤوَّلُ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ في محلِّ جرٍّ؛ مضافٌ إليه، والمعنى: (لأكيدنّ أصنامَكم بعد تَوَلّيكم مُدبرينَ)، وقد آثرَه النَّصُّ القرآنيُّ؛ تقويةً للمعنى وتأكيدًا على ملازمةِ إيقاعِ الكيدِ في أيِّ جزءٍ من زمنِ تَوَلّيهم تَيَسّرَ له ذلك، وجاء فعل التَّولّي بالمضارع؛ ليكون أنسبَ وأقربَ للمعنى المراد، فأفادَ التَّجَدُّدَ والحدوثَ والاستقبالَ، بخلافِ ما لو عبَّر بالمصدر الصَّريح (تَوَلّيكُم)؛ لاسْتَلْزَمَ ذلك أنْ يكون الكيدُ بِمُجَرَّدِ تَوَلّيهم عن مكانِ وجودِ الأصْنام، ولَو لَم يَتَيَسَّرْ له ذلك.

نكتة التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿مُدۡبِرِينَ﴾:

تأكيدٌ لمعنى التَّوليةِ وإفادةٌ لاستمرارِها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ باسم الفاعل مجموعًا في قوله: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ تأكيدًا لمعنى التَّوْليَةِ وإفادةِ استمرارها، أي: إنَّ كيدَه لأصنامهم سيستمرُّ في أيِّ جزءٍ من زمنِ تَوْلِيَتِهم تَيَسَّرَ له، وهذا لا يتحقَّقُ إلا بذهابهم كلِّهم وانصرافهم عن عبادةِ الأصنام.

---

(1) نووي الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 47.

(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 437، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 97.

وجَمعُ اسمِ الفاعلِ مناسبٌ للسّياق؛ لأنَّ المخاطبَ قومُه، والمرادُ أنْ يُوَلُّوا كلُّهم، من غيرِ أنْ يَبقى أحدٌ حتى لا يُفضَحَ أمرُه، فناسبَ أن يأتيَ الحالُ بصيغةِ الجمع.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الكيد والمكر والتَّدبير:

ناسب الكيدُ التَّهديدَ بإيقاع المكروه بأصنامهم لما في اللَّفظ من القوّة

الكيدُ: من المكيدة وهو الاحتيالُ والاجتهادُ فيما يقصدهُ الإنسانُ، وغَلَبَ في المَكْرِ[1]، وهو أيضًا: الخبثُ، والمَضَرّةُ، والتَّدبيرُ المحكمُ الشَّديدُ وتنفيذُهُ[2]، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذموم أكثَرَ[3].

والمَكْرُ: الاحتيالِ والخِداع[4]، وهو تدبيرٌ يُخْفَى ويُخْتَزَن لأحْداثٍ أو أُمورٍ لتقعَ في المستقبل على نحوٍ ما[5]، وهو صَرْفُ الغَيرِ عما يَقْصِدُه بحيلةٍ مِنَ الحيل، وذلك ضربانِ: محمودٌ، ومذموم[6]، فالمَكرُ على هذا تقديرُ ضَرَرِ الغيرِ من غير أنْ يَعلمَ به سواءٌ أكان على وجهه أم لا، أي لا يكون إلا في خفاء، وأمّا الكيدُ فهو اسمٌ لإيقاعِ المكروه بالغيرِ قهرًا سواءٌ علم أم لا، والكيدُ أقوى من المَكر، والشّاهدُ أنَّ الكيدَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِه، بينما المَكرُ يَتَعَدَّى بحرفٍ، فيقال: كاده يَكيدُه، ومَكَرَ به، ولا يُقال مَكَرَه، والذي يَتَعَدَّى بنفسِه أقْوى[7]، والتَّدبيرُ: أنْ يُدَبِّرَ الإنْسانُ أمرَهُ، بأنْ يَنْظُرَ إلَى ما تَصيرُ عاقِبَتُهُ[8]، والتَّدَبُّر: التَّفَكُّرُ فيه، والتَّدبيرُ: احتياطٌ واستعدادٌ[9].

ولما كان معنى الكيدِ إيقاعُ المَكْروه بالغَيرِ قَهْرًا، سواءٌ علمَ أم لا،

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 441.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كيد).
(3) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكر).
(6) الرّاغب، المفردات: (مكر)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/ 104.
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259 - 260.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر).
(9) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دبر).

ولقوّته ناسَبَ سياقَ تهديدِ إبراهيمَ ﷺ بتحطيم أوثانِهم، ولا يُناسِبُ ذلك الفعلُ لفظَ (المَكر) لما يَتَضَمَّنُه من خَفاءٍ، ولا فعل (التَّدبير) الذي يتضمّن التحوُّط والاستعداد، والنَّظر في عاقبةِ الأمر.

التَّولي والإدبار والإعراض:

التَّوَلّي: الإعْراضُ، والنَّأْي، والتَّوْلية، وتَكونُ انْصِرافًا، وقد تَكونُ إقْبالًا، والتَّولّي يَكونُ بِمَعْنَى الإعْراضِ، ويَكونُ بِمَعْنَى الاتِّباع[1]، فالتَّولّي: معناه الانْصرافُ إعراضًا وإدبارًا[2]، وهو في القرآن على أربعة أوجه: الانصرافُ، والإباءُ، والإعراضُ، والهزيمة[3]، والإدبار: آخِرُ الشَّيْءِ[4]، ودَبَرَ الرجلُ: ولَّى، وأَدْبَرَ: ذَهَبَ[5]، وأدبر الشَّخصُ: مضى وذَهَبَ، وأدبرَ النَّهارُ: انقضى، وتدابرَ القومُ: إذا ولَّى بعضُهم عن بعضٍ[6]، والإعراضُ: التَّوْلِيَةُ مُبْدِيًا عُرضَه[7]، وأعرضَ عن فلانٍ كأنّه انحرفَ عنه وولّاه عُرْضه أي جانبَه أو عارِضَه[8]، وأعرضَ عن صديقِه: أدارَ ظهرَه له غيرَ مكترثٍ أو مهتمٍّ به، وصدَّ عنه، وتجاهله، وجفاه[9]، فالألفاظ الثّلاثة تشترك بمعنى الانصرافِ والتَّرْكِ والتَّباعُدِ.

التَّـولّي يكون إعراضًا ويكون إقبالاً ولا يدلّ على جهةٍ، والإدبارُ هو الانصرافُ عن الشَّيءِ

ويتميّزُ التَّولّي بأنّه أعَمُّ مِنَ الإدبارِ والإعراضِ، فهو الإعْراضُ والإدْبارُ مُطْلقًا، أي البُعد عن الشَّيء دون تحديدِ جهةٍ مُعَيَّنَةٍ، أمّا الإدْبارُ فهو الانْصرافُ عن الشَّيءِ وتَرْكُه في جهةِ الوراء، أي دُبُرَه وخَلْفَه، ولهذا اصْطُفيا في سياقِ الآية معًا ليَدُلّا على الانصراف تاركينَ أصنامهم وراءَ ظهورِهم.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).
(3) ابن الجوزيّ، نُزْهَةُ الأَعْيُنِ النّواظِر، ص: 215.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(6) الرّاغب، المفردات: (دبر)، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دبر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 55.
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(9) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عرض).

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ [الأنبياء: 58]

ما عُظِّمَ من دونِ الله هَلَك، وخسرَ مَن عَظَّمه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كان قوم إبراهيم عليه السلام في غايةِ التَّعظيم لأصنامِهم لرسوخِ أقدامِهم في الجهل؛ لم يقع في أوهامهم قطُّ أنَّ إبراهيم عليه السلام يُقدِم على ما قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]، وعلى تقدير إقدامِه الَّذي هو عندهم من قَبيل المحال، وأنّه لا يقدِرُ على ذلك؛ تولَّوْا إلى عيدهم، وقصدَ هو ما كان عزمَ عليه فشمَّر في إنجازه تشميرًا يليقُ بتعليقه اليمين بالاسْم الأعظم ﴿وَتَاللَّهِ﴾ [الأنبياء: 57] فجعلَهم قِطَعًا مُهشَّمةً مُكسَّرةً مُفتَّتةً إلّا كبير الأصنام، لعلَّهم يرجعون إلى الحقِّ وترك عبادة تلك الأصنام الَّتي لا تستطيع دَفْعَ الضُّرِّ عن نَفْسها فكيف عن غيرها؟[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُذَاذًا﴾: (جذّ) أصلٌ واحد، إمّا كسرٌ وإمّا قطعٌ، والجَذُّ: كسرُ الشَّيءِ وتفتيتُه، يُقال: جَذَذْتُ الشَّيءَ: كَسَرْتَه وفتَّتَه، وجَذَذْتُه: قطعتَه، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: 108]؛ أيْ: غيرَ مقطوع[2]، وأبْنِيةُ كلِّ ما كُسِرَ وقُطِعَ على فُعال: مثل الحُطام والرُّفات والدُّقاق[3]، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾؛ أيْ: كسَّرهم وفَتَّتَهم[4].

2) ﴿كَبِيرًا﴾: (كبر) أصل يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر، يُقال: هو كبيرٌ وكُبارٌ وكُبَّار، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾ [نوح: 22]، والكِبْرُ:

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 438.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (جذّ).
(3) الزَّجاج، معاني القرآن: 3/ 396.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 38 - 39، والسُّيوطي، الدُّرُّ المنثور: 5/ 636 - 637.

مُعظمُ الأمر، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ [النُّور: 11]؛ أيْ: معظمَ أمرِه[1]، وقولُه تعالى: ﴿كَبِيرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: الصَّنَمَ الأكبر؛ أيْ: كسَّر الأصنامَ إلّا أكبرَها[2]، وجائزٌ أن يكون أكبرُها عندهم في تعظيمهم إيّاه، لا في الخِلْقة[3]، ويُحتملُ الأمران؛ يعني في التَّعظيم والخِلْقة[4].

3) ﴿يَرْجِعُونَ﴾: (رجع) أصلٌ كبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يدلُّ على رَدٍّ وتكرار، تقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إذا عاد[5]، وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾؛ أيْ: لكي يرجعوا إلى إبراهيم ودينِه وإلى ما يدعوهم إليه بوجوب الحُجَّة عليهم في عبادة ما لا يدفعُ عن نَفْسه[6]، ويجوز أن يكون المعنى، أيْ: يرجِعون إلى الصَّنم الكبير فيسألونه فلا يُجيبُهم، فيظهر لهم أنَّه لا يقدر على شيء[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تكسيرُ إبراهيمَ عليه السلام للأصنام لإقامة الحُجَّة على قومه

حَلَفَ نبيُّ اللّه إبراهيم عليه السلام أن يُكسِّر أصنام قومه بعد أن يُولُّوا مُدبرين، فلمّا تولَّوْا، ذهب إليها بخُفية، فجعل أصنامهم قِطَعًا، وكانت مجموعةً في بيتٍ واحد، إلّا صنَمهم الكبير، فإنَّه تركه لمقصد أن يرجِعوا إليه، ويستحلوا حُجَّته، ويلتفتوا إليها، ولا يُعرِضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[8].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في صدر الآية الكريمة:

المسارعةُ في إهلاكِ الطّاغوتِ وأدواته

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ فصيحة؛ أيْ: فولّوا فجعلَهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 396، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 38 - 39.
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 396.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 154.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(6) ورجّح ابن عطيَّه هذا المعنى، وضعَّف القول الَّذي يليه، فقال: "ولكن يُضعِّف ذلك دخولُ التَّرجّي في الكلام"، المحرَّر الوجيز: 4/ 86.
(7) ابن جُزَيّ، التَّسهيل: 3/ 59.
(8) السَّعدي، تيسر الكريم الرَّحمن، ص: 469.

جُذاذًا[1]، أفادتِ التَّعقيب؛ أيْ: جعل أصنامَهم عقِبَ تولّيهم قطعًا[2] مُهشَّمةً مُكسَّرةً مُفتَّتة، والذي يُراجع الآيةَ السابقة على هذه يجد أن إبراهيم عليه السلام وسَّعَ الدائرةَ الزَّمانيَّةَ التي يسعى إلى أن يُحقّق فيها الكيدَ الذي وعدَهُم به في قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]؛ وذلك أن قال: ﴿بَعۡدَ أَن﴾ [الأنبياء: 57]، ولم يَقُلْ: (من بعد أن)، ومِمَّا يُمهّد لتحقيقه بإحكام، فلما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا﴾ الآية؛ فعبَّر بالفاء: أعلم ذلك أنه تمكَّنَ مِن تحقيق كيده بسرعةٍ وسهولةٍ عقِبَ تولّيهم مُدبرينَ مباشرةً، فكأنَّ الفاء قيَّدَت وخصَّصَت هذا الزمانَ الوسيعَ؛ فكانت هذه الآيةُ مِن تمامِ ما قبلها؛ ليس من جهةِ المضمونِ وترتيبِ الأحداثِ بعضِها على بعضٍ فحَسْبُ، ولكن أيضًا مِن خلالِ هذه الجهةِ الخاصةِ التي طرفاها: غيابُ (مِن) مِن قبل كلمة ﴿بَعۡدَ﴾ [الأنبياء: 57] من ناحية، ومن ناحية أخرى: وجود الفاء.

إنفاذُ الوعيدِ في محلِّه المناسب قُربَى لصاحبِه وحُـجَّـةٌ على خصومِه

بلاغةُ الإيجاز بالحذف في صدر الآية:

لَمّا توعَّد إبراهيمُ عليه السلام قومَه قائلًا: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]، وسواء أكان هذا الوعيدُ منه سرًّا، أم جَهْرًا، أو أكثر كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى﴾؛ جاء من تمام القصَّة أنَّ إبراهيم نفَّذَ وعيدَه فدخل على بيت الأصنام خُفيةً، فكسَّرهم قِطَعًا بفأسٍ في يده حتَّى لم يُبْقِ إلّا الكبير، ثمَّ علَّق الفأسَ في عُنقه؛ لإقامة الحُجَّة على قومِه والاستهزاء بهم[3]، فقد طَوَى القرآنُ معنى تولّي القوم مدبرين، ومعنى دخولِ إبراهيم عليه السلام بيتَ الأصنام، وكيفيته وملابساته؛ للتّنبيه على أن ما قام به إبراهيم أخَذ صفة السرعة والخفاء والتَّمكُّن؛ وذلك مِن مظاهرِ إحكامِ الكيدِ لأصنامهم.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 710، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 59.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 438.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 576، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 154.

سرُّ التَّعبير بالفعل (جعلَ) مادَّةً وصيغة:

الدلالة على تصيير إبراهيم الآلهةَ المزيَّفة كِسَرًا وقِطَعًا

آثر النَّظْمُ الكريمُ الفعلَ (جعلَ)؛ لأنَّ مادة الجَعْل تعني التَّصيير؛ أيْ: صيَّر إبراهيمُ عليه السلام الأصنامَ مهشَّمةً، وجاءت صيغةُ الفعل (جعلَ) بالماضي للدَّلالة على تحقُّق ما قام به إبراهيمُ عليه السلام بتمامه، حيث جعل الأصنام كلَّها مُكسَّرةً مُفتَّتةً إلّا كبيرَها أبقاه على حاله، ولم يُعبِّر القرآن بالمضارع؛ على جهة استحضار الصورة؛ كما هو سُنَّتُه في غير قليلٍ مِن المواضع؛ إبلاغًا في بيان حقارة هذه الأصنام وبطلانها؛ فتكسيرُها بيد مخلوقٍ يدلُّ على أصل هذا المعنى، والتعبيرُ بالماضي دون المضارع إبلاغٌ في بيانه؛ فإنَّ ما حلَّ بها من قِبَلِ إبراهيم عليه السلام هو الأصلُ لها وفيها.

إيثارُ لفظ ﴿جُذَٰذًا﴾ مادَّةً وصيغة:

الإفـراطُ في تهشيم رموز الكفر مزيدُ اسْتهانةٍ بها وبأصحابها

آثر النَّظمُ الكريمُ اسْتخدامَ لفظ ﴿جُذَٰذًا﴾ بضمِّ الجيم - على قراءة -، وهو اسْمٌ، جَمعُ جُذاذةٍ، وهي فُعالةٌ من الجَذِّ، وهو القَطْعُ؛ أيْ: كسَّرهم وجَعَلَهم قِطعًا، وجاءت صيغتُه بالجمع لبيان أنَّهم لَمّا أفرطوا في تماديهم في عبادتِها، وهي مصنوعةٌ بأيديهم لا تضرُّ ولا تنفع، أراد أن يُشاهدوا بأمِّ أعيُنِهم إفراطًا في حَطْمِها وتماديًا في الاستهانةِ بها[1]، فإبراهيمُ يواجِه تعظيم قومه تلك الأصنام غايةَ التعظيم؛ فلوحِظَ ذلك في فعلِه بها؛ فحقَّرَها بفعله كما يُحقِّرها بقوله؛ فجعلها قطَعًا كثيرةً جدًّا؛ على ما يُفْهِمُه جمعُ الكثرة: ﴿جُذَٰذًا﴾؛ وهو بهذا يُشاكِلُ اعتقادَ قومِه في الأصنام، ويُؤْنِس بهذا ويؤيِّدُه قولُه بعدُ: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾؛ فنَسَب إليه الفعل؛ تعريضًا وتهكُّمًا.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءة ﴿جُذَٰذًا﴾ بكسر الجيم:

قُرئت ﴿جُذَٰذًا﴾ بكسر الجيم: ﴿جِذَٰذًا﴾، وهي قراءة الكسائي،

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 576، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 98.

المبالغةُ في تكسير الأصنام إزهاقٌ لمعبودات الكفّار

وقرأ الباقون بضمِّها[1] على أنَّها مصدر، واحدتُها (جِذاذة) بكسر الجيم، والإخبارُ بالمصدر للمبالغةِ في تكسير تلك الأصنام وجعلِها قِطَعًا مُتناثرة[2]، فقراءةُ الضَّمّ مِن جهة الاسميَّة تدلُّ على أوَّلِ حركةِ الفعلِ، وقراءةُ الكسرِ مِن جهةِ المصدرية تدلُّ على أقصى حركة الفعل، وأنَّ إبراهيم عليه السلام كان يترقَّى في التَّكسير؛ حتى يبلُغ فيه منتهاه؛ كأنَّه يخوضُ معركةً مع قومه في صورةِ أصنامهم؛ وهذا يُحقّقُ ما سبَق ذِكْرُه من دلالة صيغة جمع الكثرة ﴿جُذَٰذًا﴾.

نكتةُ استثناء ﴿كَبِيرًا﴾:

كون الكبيرِ يشهدُ على مَنْ دونه ثقةً في قوله

استثنَى بيانُ القرآن من فِعلة إبراهيمَ عليه السلام كبيرَ الأصنام ليسألوه عندما يرجعون عن الكاسرِ المُحطِّم لتلك الأصنام؛ لأنَّ من شأن المعبود أن يُرجَعَ إليه في المُلمّات[3]، وأنَّى لذاك الكبير أن يُعبَد، وهو لم ينطق باسْمِ الكاسر، ولم يدافع عن شركائه في المعبوديَّة المزعومة؟

نكتة الغيبة في عَوْدِ الضَّمير في: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾، و﴿لَّهُمْ﴾:

ضميرُ الغَيْبة للأصنام استهانةٌ بها وازدراء لشأنها

يعودُ الضَّمير في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ و﴿لَّهُمْ﴾ إلى الأصنام؛ أيْ: كسَّر الأصنامَ إلّا كبيرًا للأصنام[4]، وفي هذا العَوْدِ بضمير الغائب ازْدراءٌ بتلك المعبوداتِ المُزيَّفة، واسْتهانةٌ بها وهي لا تملك مدافعةَ مَنْ أراد تكسيرَها، وكيف يكون وهي لا ترى ولا تسمع ولا تملك أيَّ قدرةٍ لردِّ ما يُرادُ بها من التَّحطيم والإهلاك والإذلال؟! وهذا إمعانٌ في تحقيرها وإثباتِ بُطلانها، وهذا ما تتظاهرُ عناصر السياق عليه.

علَّةُ فصل ﴿لَعَلَّهُمْ﴾، ودلالةُ حرف التَّرجّي:

جاء قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ علَّةً لما قبله؛ فغابت

(1) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 44، وأبو عمرو، التّيسير، ص: 155، وابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 254.

(2) العُكْبَري، إملاء ما منّ به الرَّحمن: 2/ 134، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 98.

(3) أبو السُّعود العُكْبَري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 3/ 711.

(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 396، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 38 - 39.

الواو؛ لأنَّهُ الأصل في مثل هذا الفصل اللَّفظيّ بين العلَّة والمعلول، أيْ: لكي يكونَ ما فعله إبراهيمُ ﷺ علَّةً وسببًا ليرجعوا إلى دينه، وإلى ما يدعوهم إليه بوجوبِ الحُجَّةِ عليهم في عبادة ما لا يدفع عن نفسه، ويتنبَّهوا على جهلهم وعظيم خطئهم[1]، ويجوز أن تكون جملة ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ بمعنَى: ينصرفون من عيدهم، فيَرَوْنَ الأصنامَ على تلك الصِّفة وكبيرهم لم يُصبْه ما أصابهم؛ فيتبيَّن لهم ضلالتُهم[2]، والعلية باقية على هذا المعنى، وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾؛ أيْ: رجاءَ أن يرجعَ الأقوامُ إلى استشارة الصَّنم الأكبر ليُخبرَهم بمَنْ كسَّر بقيَّةَ الأصنام؛ لأنَّه يعلم أنَّ جهلهم يُطمِعُهم في اسْتشارةِ الصَّنم الكبير، ولعلَّ المُرادَ كذلك اسْتشارةُ سَدَنته ليخبروهم بما يتلقَّوْنه من وحْيه المزعوم[3].

الرَّجاءُ في العَوْدِ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بظهور ضلالتهم وجَهْلهم

عَوْدُ الضَّمير في: ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾، وسرُّ التَّعبير بالضَّمير:

الضّميرُ في ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ يعودُ إلى أهل الضَّلال - وهم آزرُ وقومُه - والتَّعبيرُ عنهم بالضَّمير للتَّعريف بما هم عليه من الجَهلِ المُطْبقِ والضَّلالةِ المُترسِّخة في قلوبهم بعبادتهم لتلك الأصنام الَّتي لم تستطع أن تدافع عن نَفْسِها، ففي الإبانة عنهم بالضمير؛ إلحاقٌ لهم بالأصنام التي يعبدونها من دون الله، وفي ذلك غايةُ سفهِهِم وحقارتِهم وضعفِهم؛ بسبب عبادتهم هاتيكَ الأصنام.

أهلُ الضَّلالةِ يُفصِحون عن هويّتهم بعبوديّتهم لآلهةٍ مُزيَّفة

فائدةُ التقديم في: ﴿إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾:

تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ما حقُّه أن يُقدَّم عليه وهو قوله: ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ لإفادة الحصر؛ أيْ: حصر الرُّجوعِ للصَّنم الأكبر؛ فهو المُعوَّل عليه في العَوْد لعلَّه يجيبُ عابديه عند سؤالهم له: مَنْ فعل

تخصيصُ العَوْدِ للصَّنم الأكبر الَّذي لا يملك جوابَ مَنْ عبده

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 86.
(2) ابن جُزَيّ، التَّسهيل: 3/ 59.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 98.

هذا بآلهتِنا؟! وكذلك ليستبين القومُ سبيلَ ما هم عليه من الإيغال في الضَّلالة والوقوعِ في بَراثِن الجهلِ المُطبق، إذ كيف يجيبُهم وهو لا يستطيع الكلام، ولم يرَ ما حلَّ بتلك الآلهة من حَوْله من التَّكسير والتَّهشيم؟! وهذا التقديمُ منسلٌّ مِن رَحِم كونِه: ﴿كَبِيرًا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾؛ فما دام كبيرًا فلا بد أن يكون الإقبالُ عليه هو، ولا بد أن يكون موضع العناية والاهتمام.

نكتة إيثار التعبير بالرجوع ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وسرُّ الورود مضارعًا:

مكابرةُ عُبّاد الأصنام، واستمرارُهم في جهلهم وإشراكهم

دلَّ الفعل ﴿يَرْجِعُونَ﴾ على أنَّ الرُّجوع في أصلِه يكون لِمَنْ يُسجَدُ له ويُؤهَّل للعبادة، وهو رجوعٌ ابتغاءَ حلِّ كلِّ مُشكِلٍ، فإذا رجعوا إلى ذلك الصَّنم الكبير، فإنَّما يكون رجوعُهم دليلًا على مُكابرتهم لعقولِهم ورُسوخِ الإشراك في أعراقهم، فإذا رجعوا إليه مع عدم تحقُّق أيِّ فائدةٍ دينيَّةٍ في رجوعهم إليه؛ تبيَّن أنَّه في هذه الحال عاجزٌ تمامَ العجز، لا ينفع ولا يضرّ، وظهرَ أنَّهم في عبادته على جهلٍ عظيم[1].

وجاءت صيغة ﴿يَرْجِعُونَ﴾ بالمضارع للدَّلالةِ على أنَّهم لو استمرُّوا في الرُّجوع إلى ذاك الصَّنم وتجدَّدَ منهم هذا الرّجوع إليه؛ لوجدوا أنفسهم لا يتلقَّوْنَ منه أيَّ جواب عمّا حصل، فهو أصمُّ أبْكمُ وهم لا يعقلون، وهذا التجدُّد والاستمرار في المضارع يُلاحِظُ كونَ ذلك الصنم كبيرًا؛ فمِثْلُه يُرجَعُ إليه على جهة الكثرة والتكرار والاستمرار، وهذا إمعانٌ في التَّهكُّم بهم، والتعريض ببطلان تلك الأصنام.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُذاذ والقَطْع:

الجُذاذُ الكَسْرُ والقَطْعُ ظاهرًا حسّيًّا، والقَطْعُ هو ذلك ظاهرًا وخافيًا

الجُذاذُ: بمعنى الكسر والقطع، والجَذُّ: كسرُ الشَّيءِ وتفتيتُه؛ قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾.

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 576.

وجَذّذتُه: قطعتَه، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108]؛ أيْ: غيرَ مقطوع(1)، والقطعُ: يكون ظاهرًا وخافيًا؛ كالقطع في الشَّيء المُلزق المُموَّه، ويُستخدم في المعاني، فيُقال: قطعَه في المناظرة؛ لأنَّه قد يكون ذلك من غير أن يظهر، ومن غير أن يقطع شَغَبَه وخصومتَه(2)، والجُذاذُ هو الذي يُوقِع المعنى المقصود في أُنُف فهم المتلقي من أول مرَّة.

الكبير والعظيم:

الكبيرُ والعظيمُ متشابهان حِسًّا ومعنًى، ويفترقُ العظيمُ بمَن له صفةُ السُّؤددِ والسُّلطان

الكبيرُ يكون في التَّعظيم والخِلْقة، ويُقال: كبيرُ الجثَّة وكبيرُ الشَّأن، وكذلك يُقال في العظيم، كما قال تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام: 15]؛ فسمّاه عظيمًا لِعِظَم ما فيه من الآلام والبلاء، ولَمّا اتَّسعَ لأن يكون فيه العِظَمُ؛ استحقَّ بأن يُوصفَ بأنَّه عظيم، وعظيمُ القوم هو الَّذي ليس فوقه أحدٌ منهم، فلا تكون الصّفةُ به إلّا مع السُّؤدُدِ والسُّلطان فهو مُفارق بهذا للكبير، ويُطلَقُ لفظُ العظيم على مَن جاوز حدودَ العقول أن تقفَ على صفاتِ كماله، ونعوتِ جلالِه فهو العظيمُ المطلَقُ، وهو اللّهُ لا أحدَ سواه، وأصلُ العِظَم في الأجسام، ثمَّ اسْتُعمِلَ في مُدركات البصائر، وهي متفاوتةٌ في العِظَم تفاوت الأجسام، كتفاوتها في الكِبَر، فيقال هذا كبير، وذاك أكبرُ منه(3).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (جذّ).

(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة ص: 407.

(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 361 - 362، والكفوي، الكلِّيّات: 3/ 239، ولامنس، الفرائد، ص: 208.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩﴾ [الأنبياء: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

صدمة فإنكار فاتّهام

لَمّا عاد قومُ إبراهيمَ عليه السلام من عيدهم فوجدوا آلهتَهم المُزيَّفة على تلك الحالة من الكَسْرِ والحَطْم؛ علموا أنَّه لا بدَّ لهم عند ذلك من أمرٍ هائل؛ فاستُؤنِفَ الإخبار عنه بقوله: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ فقرَّروا أنَّ صاحبَ تلك الفِعلة من الظّالمين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾: (أله) أصلٌ واحد، وهو التَّعبُّد، فالإلهُ: اللّهُ تعالى، وسُمّيَ بذلك؛ لأنَّه معبودٌ، ويُقال: تألَّهَ الرَّجلُ إذا تعبَّد، وخُصَّ (إلهُ) بالباري تعالى ولتخصُّصه به، قال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]، و(إلهُ) جعلوه اسْمًا لكلِّ معبودٍ لهم كما قالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾[1].

2) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: (ظلم) يظلِمُ ظُلمًا، والظُّلمُ: وضعُ الشَّيء في غير موضعه المُختصِّ به، وأعظمُ الظُّلم الكفرُ والشّركُ والنِّفاقُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أيْ: بفعله تكسير الأصنام، مُتجاوزًا به الحدَّ[2]، فهو الظلمُ اللغويُّ، ويصحُّ أنْ يُلْحَظَ فيه المعنى الاصطلاحي؛ أيْ: إنَّ القرآنَ أراد الإلماح إلى أنَّ مَنْ فعل هذا قد صار مُشركًا وكافرًا في معتقد هؤلاء القوم.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

مُـرودُ الظّالمِينَ عـلى ظلمِهم يدفعُهم لاتِّهامِ مَـن خالفَهم بالظُّلم

حين رجع قومُ إبراهيمَ عليه السلام من الاحتفال بعيدِهم، وشاهدوا ما فعله الخليلُ بأصنامِهم من الإذلال الدّالِّ على عدم إلهيَّتها وعلى سخافة

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (أله).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلم).

عقول عابديها؛ قالوا مُستنكرين: من فعل هذا التَّكسيرَ والتَّحطيم بآلهتنا؟ إنَّه في صنيعه هذا من الظّالمين الَّذين تجاوزوا حدَّهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ الخبر بطريقة المحادثة ﴿قَالُواْ﴾:

المبـالـغـةُ في إنكارِهم لما فعله إبراهيمُ عليه السلام

جاء الخبر بطريقة المحادثة بالسُّؤال في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ مبالغةً في إنكارِهم وتوبيخهم وتشنيعهم، حيث إنَّ تلك الآلهةَ المُزيَّفة بين أيديهم، وهم يَرَوْن ما أصابها من التَّكسير والإذلال؛ فإقدامُهم على إنكار تلك الفعلة الشَّنيعة في بصائرهم بالاستفهام واقعًا مقولًا لقولٍ لهم؛ يُشعر بقوةٍ بكمال اهتمامهم بتلك الأصنام وباعتقادهم فيها.

إيثارُ اسمِ الموصول ﴿مَن﴾:

الـدَّلالـةُ على شـنـاعـةِ فعـل إبـراهـيـمَ في اعتقادِ قومِه

اسْمُ الموصول ﴿مَن﴾ يُستعمَلُ في الخَطْبِ الجلَل، والأمر الأهمّ، كأنَّهم قالوا: الَّذي فعل هذا الفعلَ الفاحشَ بآلهتِنا لشديد الظُّلم[2]، وهو اسم موصول عامٌّ، وإنَّما استعملوه - وإن كان قد سبَق وعدٌ مِن إبراهيم بفعل هذا - للتّنبيه على أنَّ ذلك عندَهم لا ينبغي أنْ يكونَ مِن أيّ أحَدٍ على الإطلاقِ، ذَكَرًا كانَ أو أُنْثَى، عظيمًا كان أو حقيرًا، كبيرًا كان أو صغيرًا، وهكذا.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿فَعَلَ﴾ دون (جذَذَ):

الفعلُ يسبقُه تـصـوُّرٌ، ولـه غـرضٌ قـائـمٌ يسوقُ صاحبَه إليه

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ ﴿فَعَلَ﴾ دون (جَذَذَ)؛ لأنَّ ما قام به إبراهيمُ عليه السلام ليس مجرَّدَ تكسيرٍ وقَطْعٍ لتلك الأصنام المزعومةِ آلهةً من دون اللّه تعالى، وإنَّما هو فعلٌ ناشئٌ عن تصوّرٍ سابقٍ في ذهنِ إبراهيمَ عليه السلام وهو عقيدةٌ قائمةٌ على توحيد اللّه لا شريك له، وهم ما خاطبوه بتعبيرِ الفعلِ إلّا لعلمهم أنَّ ما أقامه

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/ 174.

(2) العُكْبَري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 134، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 439.

الخليلُ ﵇ على بُطلانها يُميلُ القلوبَ إلى اعْتقادِ أنَّ هذا الفعلَ حقٌّ لا رَيْب فيه[1].

دلالةُ الباء في: ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾:

بيانُ إلصاق الآلهة بقوم إبراهيم، أو إفادةُ أنَّ ما قام به إبراهيم مُلصَق بآلهتم

الباءُ في قوله: ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ للإلصاق؛ أيْ: مَنْ فعلَ هذا الأمرَ العظيم الشَّنيع بمَنْ هم خاصَّتنا من الآلهة؟! ويجوزُ أن يُرادَ أنَّ الفعلَ الَّذي قام به الخليلُ ﵇ مُلصقٌ بآلهتِهم لدرجة أنَّه أحْدثَ فيهم هذا الكَسْرَ والحَطْم[2].

سرُّ التعبير بلفظ الآلهة بعد أن صاروا جذاذًا:

في قولهم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ لم ينظروا إلى ذات الجذذ؛ لأنه لا يُطابق معتقدهم في الأصنام؛ وإنّما الذي يطابقه أن ينظروا إلى غاية الجذذ ومآله؛ من حيث إنه فعلٌ له غايةٌ خاصَّةٌ.

وقد عبَّروا عن الأصنام بالآلهة؛ ليُؤَسِّسُوا على ذلكَ ما أرادوا بيانَه مِن عِظَم شناعةِ ما فُعِلَ بها، وأنَّهم فقهوا أنَّ ما فُعِلَ بها كان لقَصْدِ إثباتِ بطلان كونها آلهةً، وإلّا فلا حاجةَ إلى تكسيرها وتقطيعها مِن غير ملاحظة هذا.

فائدة الإضافة في: ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾:

المبالغةُ في تشنيع فعلِ إبراهيمَ بآلهةٍ جديرةٍ بالتَّوقيرِ بزعمِهم

أُضيف (إله) إلى ضمير المُتكلِّمين ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾؛ مبالغةً في تشنيعهم على إبراهيمَ ﵇؛ بإفهام أنّ ما فُعِلَ بتلك الأصنام إنَّما فُعِلَ بهم؛ لانتسابهم إليها، فكانت الجريمة عندهم جريمتَيْن، وفي هذه الإضافة تمهيد قويٌّ لما سيأتي بعدُ مِن محاكمتهم فاعلَ ذلك، وهو إبراهيم ﵇؛ أيْ: مَنْ فعلَ هذا الكَسْرَ والحَطْمَ لشديدُ الظُّلم، معدود في الظَّلمة، إمّا لجرأته على الآلهة الحقيقةِ عندهم

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 439.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 61.

بالتَّوقير والإعظام، وإمّا لأنَّهم رَأَوْا إفراطًا في حَطْمِها وتماديًا في الاسْتهانةِ بها[1].

علَّةُ فصل جملة ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

تقريرُ إنكارِ الكَفَرةِ لتكسير إبراهيمَ لأصنامِهم

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافًا مُقرِّرًا لما قبلَه من إنكارِ الكَفَرَةِ الظّالمين فعلَ خليلِ اللّه ﷺ من تكسيرِ أصنامِهم وتحطيمِها، فهو معدودٌ عندهم من جملة الظّالمين لجرأته ﷺ على إهانة أصنامهم وإذلالِها وإذلالِ عَبَدَتِها، أو لإفراطِه في الكَسْرِ والحَطْم، وتماديًا في الاسْتهانة بها، أو بتعريضِ نَفْسِه للهَلَكة[2]، فمضمونُ هذه الجملةِ نتاجُ ما قبلها، ويلزم مضمونَها معنى الاستفهام من الإنكارِ التوبيخي وما يصحبه من معانٍ أخرى سبَق ذِكْرها؛ وإذن فبينهما كمال اتّصال معنويٍّ من نوع التّوكيد؛ فغابت الواو لذلك.

نكتةُ توالي التَّوكيدات ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

المؤمنُ المُصلحُ يُعدُّ ظالمًا في نظرِ الكَفَرَة الظّالمين

ذُيِّلتِ الآيةُ الكريمة بتوكيداتٍ عديدة وهي: (إنّ)، و(اللّام) في ﴿لَمِنَ﴾، والتَّعريف باللّام في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ وهي تدلُّ على أنَّ القوم كانوا على غايةٍ خطيرةٍ من مكابرتِهم لعقولِهم، واعتقادِهم في آلهتِهم وتعظيمِهم لها ممّا جعلهم يُنكِرونَ أشدَّ الإنكار فعلَ إبراهيمَ في تكسيرها حتَّى عدُّوه من جملةِ الظَّلَمَة المارقين والمُعتَدين المُخرِّبين[3].

دلالة حرف الجر في: ﴿لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

بيانُ صفة مَنْ كسَّر أصنامَ الكَفَرة فجعلهم جذاذًا

(مِنْ) في قوله ﷻ: ﴿لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تحتمل معنَيَيْن؛ تبعيضيّة، أو تفسيريَّة بيانيَّة؛ أي: الَّذي فعل هذا الكَسْرَ والحَطْمَ بآلهتِنا إنَّه معدودٌ من جملة الظّالمين[4].

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 576، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 711.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 711، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 61.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 576.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 61.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الآلهة والأصنام:

الإلهُ المعبودُ بحقّ، والصَّنمُ معبودٌ بغيرِ حقٍّ

الإلهُ: أَلَهَ فلانٌ يألَه الآلهة: عبَدَ، فالإلهُ هو الَّذي يحقُّ له العبادة، فلا إلهَ إلّا اللّه، وليس كلُّ معبودٍ يحقُّ له العبادة، فالأصنامُ معبودةٌ والمسيحُ معبودٌ، ولا يحقُّ له ولها العبادة، وسُمّيَ غيرُ اللّه إلهًا على وجه الضّلال، وهي تسميةُ العرب الأصنامَ: (آلهة)، وأمّا قولُ النّاس: لا معبودَ إلّا اللّه؛ فمعناه أنَّه لا يستحقَّ العبادة إلّا اللّه تعالى[1].

والصَّنَمُ: ما كان مُصوَّرًا من فضَّةٍ أو ذهبٍ أو غير ذلك[2]، كانوا يعبُدونها مُتقرِّبين به إلى اللّه تعالى، وجمعُه أصنام، قال تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: 74]، وكلُّ ما عبد من دون اللّه؛ بل كلُّ ما يشغلُ عن اللّه تعالى يُقال له: صنَم، وعلى هذا الوجه قال إبراهيمُ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: 35]؛ أي: اجْنُبْني عنِ الاشتغالِ بما يصرِفُني عنك[3].

الظّالم والكافر:

الظُّلمُ مفهومٌ عامٌّ، والكفرُ أحدُ أفرادِه وأخطرُها

أصلُ الظُّلم: نقصانُ الحقّ، ونقيضُه: الإنصاف، والظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غير موضعِه المختصِّ به، إمّا بنقصانٍ أو زيادة، وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه، والظّالمُ مَن قام بذلك، والكافرُ والمشركُ والمنافقُ ظالمٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: 13]، والظّالمُ مَن ظلمَ النّاس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشّورى: 42]، والَّذي يظلمُ نفسَه يُسمَّى ظالمًا، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: 32]، وأعظمُ الظُّلم للنَّفس الكفرُ باللّه تعالى، وكلُّ الَّذي سبق ظلمٌ للنَّفس، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٣٣﴾ [النّحل: 33][4].

(1) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 68، والرّاغب، المفردات: (أله).
(2) العسكري، الفروق اللُّغويّة: ص323، والكفوي، الكلّيّات: 2/ 108.
(3) الرّاغب، المفردات: (صنم).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 172، والرّاغب، المفردات: (ظلم).

والكفرُ: سَترُ الشَّيء، وسُمّيَ الزّارع كافرًا لسَترِه البِذْرَ في الأرض، ومَن جَحَدَ النِّعمةَ يُسمَّى كافرًا؛ لأنَّه سترَ النِّعمةَ بتركِ أداءِ شُكرِها، وأعظمُ الكفر: جحودُ الوحدانيَّة أو الشَّريعةِ أو النُّبوَّة، ولذلك يُطلق اسْمُ الكافر على مَنْ لا إيمانَ له، والكفورُ في جحودِ النِّعمة أكثرُ استعمالًا، والكفرُ في الدّين أكثر، والكفورُ فيهما جميعًا، قال تعالى: ﴿فَأَبَىٰ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝٩٩﴾ [الإسراء: 99][1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 443، والرّاغب، المفردات: (كفر)، والكفوي، الكلّيّات: 4/ 12.

﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ٦٠﴾ [الأنبياء: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جعلُ السَّماعِ وسيلةً للتّهمة

لَمّا أنكر عُبّادُ الأصنامِ ما فعلَه إبراهيمُ عليه السلام من الكَسْرِ والحَطْم واتّهموه بالظُّلم؛ قال مَن سمع توعُّدَ إبراهيمَ إيّاهم بأن يكيدَ أصنامَهم بعد أن يُولُّوا مُدبرين: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتٗى﴾: الفتيُّ: الطَّريُّ من الإبل، والفَتَى من النّاس: واحدُ الفِتيان، وهو الطَّريُّ من الشَّباب، يُقال: فتًى بيِّنُ الفَتاء، والأُنثى: فتاةٌ، والمصدرُ: فتاءٌ وهو الشَّباب، قال تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، ويُكنَّى بهما عن العبدِ والأَمَة، قال تعالى: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ﴾ [النِّساء: 25]؛ أيْ: إمائكم[2]، وقوله تعالى: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾؛ أيْ: شابٌّ، وهو إبراهيمُ عليه السلام[3].

2) ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾: ذكَرَ يذكُرُ ذِكرًا، وذكرتُ الشَّيء، خلاف نسيته، ثمَّ حُمِلَ عليه الذِّكرُ باللِّسان، ويقولون: اجْعلَه منك على ذُكْرٍ بضمِّ الذّال، أيْ: لا تَنْسَه، قال اللّه تعالى: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42][4]، وقوله تعالى: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾؛ أيْ: يذكرُهم بالسُّوء؛ أيْ: يعيبُهم ويسبُّهم ويستهزئ بهم[5].

المَعنى الإجماليُّ:

جنَّدَ إبراهيمُ عليه السلام شبابَه لتحطيم الآلهةِ المُزيَّفة

قال مَنْ سمعَ إبراهيمَ عليه السلام قبل ذلك يحلفُ باللّه ويتوعّد الكافرين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (فتى).
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 565.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ذكر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 39، والبغوي، معالم التَّنزيل: 5/ 324.

لَيكيدَنَّ أصنامَهم المزعومة من دون اللّٰه: سمعْنا شابًّا، يذكرُهم بالسُّوء ويسبُّهم ويستهزئ بهم، يُقال له: إبراهيم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الجملة في صدر الآية:

شـيـوعُ خـبرِ تـوعُّـدِ إبراهيـمَ لأصنامِهم

جاء قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ اسْتئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن القولِ السابق في الآية السابقة؛ لأنَّهم كلّهم لم يكونوا قد علموا مقالة إبراهيم عليه السلام، والقولُ السابقُ في قوله: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ هو قولٌ للجميع[2]؛ الذي سمِع مقالة إبراهيم والذي لم يسمعها؛ لأنَّ الكل لم يكونوا يتوقَّعُون ذلكَ؛ فكأنَّ سائلًا سأل عن حال مَن سمعَ مقالته عليه السلام: هل قال شيئًا لمَن لم يسمعها؟ فلهذا غابت الواو، ثم مجيءُ: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ بعد: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾: يُشْبِه مجيء الجواب بعد السؤال؛ فلهذا أيضًا فُصِل الثاني من الأول لفظًا.

إيثارُ الفعل ﴿سَمِعۡنَا﴾ مادّةً وصيغةً:

تـحـقُّـقُ فـعـلِ السَّماعِ بصوتٍ آكدُ من السَّماعِ بواسطة

في قوله تعالى: ﴿سَمِعۡنَا﴾ حصولُ السَّمع من الَّذين قالوا: سمعنا؛ أيْ: سمعوه عليه السلام بالذّات يذكرُهم؛ يعني: سماعًا بصوت، ويمكن أن يُراد: قد سمعوا من النّاس أنَّه عليه السلام يذكرُهم بسوء، وفي كلا الحالَيْن مع صيغة الماضي يُرادُ تحقُّقُ عينِ السَّماع من مقال إبراهيمَ في الأصنام أنَّه سيكيدُهم وسيجعلُهم جُذاذًا؛ قِطَعًا مُكسَّرةً محطَّمة[3].

فائدةُ التَّعبير بـ (نا) الدّالَّة على الفاعلين:

تحقُّقُ السَّماعِ لوعيدِ إبراهيمَ من جماعةٍ من عَبَدَةِ الأصنام

ظاهرُ قوله تعالى: ﴿سَمِعۡنَا﴾ يدلُّ على أنَّ القائلين جماعةٌ لا واحد، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا من قبلُ قد عرفوا من إبراهيم عليه السلام وسمعوا ما يقوله من سوء في آلهتِهم المزعومة، فغلبَ على قلوبهم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 174، والخازن، لباب التَّأويل: 3/ 299.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 154، والآلوسي، روح البيان: 9/ 61.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 447، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 711 - 712.

أنَّه الفاعل، ولو لم يكن إلّا قولُه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ [الأنبياء: 52] إلى غير ذلك لكفَى[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿فَتَىٰ﴾ وفائدةُ تنكيره:

إجرامُ الكافرين مع مَنْ يخالفُ عقيدتَهم ويُهينُ معبوداتِهم

الفَتَى: الذَّكَرُ الَّذي قويَ شبابُه، والأصلُ في إطلاقه أنَّه صفةُ مَدْحٍ دالَّةٌ على اسْتكمالِ خِصالِ الرَّجل المحمودة، لكنَّ إطلاقه هنا بهذا اللَّفظِ لعدم معرفتِهم له، أو وقوفهم على أوصافه الَّتي تحدِّدُ شخصيَّتَه والوصول إليه، فالمرادُ: أيُّ شابٍّ من الشَّباب، فهو يصدُقُ على أيِّ فتًى[2]، وجاء تنكيرُه لهذه العلَّة، أو هو ازدراءٌ منهم له لتكسيرِه أصنامهم، وإهانته معتقداتهم، ويجوز أن يكونوا قد عبَّروا عنه بـ: ﴿فَتَىٰ﴾؛ اعتذارًا لآلهتهم؛ بأنَّ هذا فعلُ مَن به ضعف في عقلِه وفكره؛ لحداثة سنِّه؛ لئلا يُسْمَعَ له؛ ولهذا فذكرُه إيَّاهم بسوءٍ ناشئٌ عن ذلك أيضًا، ويكون تنكيرُه؛ لإفادة ضعفه وصغاره في أعينهم.

إيثارُ الفعل ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ مادَّةً وصيغة:

البـلاغـةُ مع تحقُّق المبالغةِ والاستمراريَّةِ في ذكر آلهةِ الكافرين بالسُّوء

في نسبة الذِّكر إليه عليه السلام وجعلِ جملته ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ صفةً لـ ﴿فَتَىٰ﴾ بلاغة ضافية، لِما في ذلك من إيقاعِ الفعل على المسموع منه، فيفيدُ أنَّهم سمعوه بدون واسطة[3]، وقوله: ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ بصيغة المضارع أقوى في معنَى الاستمراريَّة والتّجدُّد، وذلك بتكرير الإسناد إلى إبراهيمَ عليه السلام، هذا الفتى الَّذي ما فتئَ يُداومُ على ذِكْر آلهتِهم المزيَّفة المزعومة بالسُّوء والتَّهديد والوعيد، حتَّى جاء الوقتُ الَّذي نفَّذَ فيه وعيدَه وأبْرَمَ تهديدَه.

سرُّ التَّعبير بضمير الغائبين في: ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾:

ورد التَّعبير في قولِه تعالى: ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ بضمير الغائبين (هم)

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 155.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 439، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 99.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 61.

ولم يَقُلْ: يذكرُ الآلهة، لوجهيْن؛ أحدُهما: تقدُّمُ ذِكْرِهم في قوله تعالى: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾، والثّاني: أنَّ المُرادَ بقوله: ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾؛ أيْ: يعيبُهم؛ أيْ: يذكُرُهم بالنَّقصِ والعَيْبِ[1]، فهم لم يستحسنوا أن يُسندوا العيبَ إلى آلهتهم فيقولوا: يعيبُ آلهتَنا، أو يسبُّ آلهتَنا.

النّأيُ بآلهتهم أن تكونَ محلًّا للعَيْب أو السَّب

بلاغةُ التَّعبير بالفعل ﴿يُقَالُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ﴾ في موضع الصِّفة لـ ﴿فَتًى﴾ وصيغةُ ﴿يُقَالُ﴾ مضارعٌ مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه، دالٌّ على أنَّ المُنتصبينَ للبحث في القضيَّة لم يكونوا يعرفون إبراهيمَ عليه السلام، أو أنَّ الشُّهداءَ أرادوا تحقيرَه بأنَّه مجهولٌ لا يُعرَف، وإنَّما يُدْعَى أو يُسمَّى إبراهيم؛ أيْ: ليس هو من النّاس المعروفين، فهو ليس ذا منزلةٍ رفيعةٍ حتَّى يُشارَ إليه بالبَنان، وفعلُ القول إذا بُني للمفعول كثيرًا ما يضَمَّنُ معنى الدَّعوة أو التَّسمية؛ فلذلك حصلتِ الفائدةُ من تعديته إلى المفرد[2].

صاحبُ الدَّعوةِ للحقِّ مجهولُ الهويَّةِ عند أهلِ الباطل

فائدة الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥٓ﴾، ونكتة تقديمِهِ:

رُفِعَ لفظ ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ على أنّه نائبُ فاعل: ﴿يُقَالُ﴾، والأصلُ أن يتقدَّم على الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥٓ﴾ فيُقال: (يُقال إبراهيمُ له)، لكنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخير، وتأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ في هذا السّياق؛ إنَّما كان لتأكيدِ تهوينِ أمرِ إبراهيمَ عليه السلام، وأنَّه لا يُقدَّمُ في الذِّكر عندهم؛ بل هو مُؤخَّرٌ خاصَّةً بفعلتِه تكسيرَ أصنامِهم وتحطيمَهَا وإذلالَها وعابديها، وتأخيرُ ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ في الذِّكر إنَّما هو نتاج بناء فعل القول للمفعول، وذِكْرِه باسمه مجرَّدًا.

ليست لِمَن يصدَعُ بالحقِّ مكانةٌ عند أهل الباطل يُقدَّمُ ذِكْرُه من أجْلِها

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفتَى والرَّجُل:

الفتَى من النّاس: الطَّريُّ من الشَّباب، يُقالُ: فتًى؛ أيْ: فتًى بَيِّنُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/ 92، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 61.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 99 - 100.

الفتَى والرَّجُلُ متقاربان في المعنَى، والرَّجُلُ فيه زيادةُ قُوَّةٍ

الفَتاء؛ أيْ: بَيِّن الشَّباب[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: 13]، والرَّجُلُ: ضدُّ المرأة، والجمعُ: رجال، وإطلاقُ لفظِ (رَجُل) يفيدُ القُوَّةَ على الأعمال، ولهذا يُقالُ في مَدْحِ الإنسان: إنَّه رَجُل[2]، والأَبَرُّ بسياقِ التّهوينِ مِن شأن مَن يريدُ إهانة أصنامهم وإثبات بطلانها مِن جهة ادِّعاء الألوهيَّة لها: التّعبيرُ بالفَتى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (فتى).
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 249، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (رجل).

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ٦١﴾ [الأنبياء: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لَمّا شاهدَ القومُ كسْرَ أصنامهم المزعومة وتحطيمَها، وقيل: إنَّ فاعلَه إبراهيمُ ﵇؛ قالوا فيما بينهم: ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾، أيْ: بمرأى منهم، يشهدون ما سيحِلُّ به من العذاب[1]، تنكيلًا به وردعًا لغيره.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأۡتُواْ﴾: (أتو، أتي) أصل يدُلُّ على مجيءِ الشَّيء وإصحابه وطاعتِه، والأَتْوُ: الاسْتقامةُ في السَّيْر، وتقولُ العرب: أَتَوْتُ فلانًا بمعنى أتيتُه، ويمكن أن يكون من (أتي): تقول: أتاني فلانٌ إتْيانًا وأَتْيًا وأَتْيةً وأَتْوَةً واحدةً، يُقال: تِني بفلانٍ: ائْتِني، وللاثْنَيْن: تياني به، وللجمع: تينني، وأتَيْتُ الأمرَ من مَأْتاهُ ومَأْتاته، وآتيْتُ فلانًا على أمره مُؤاتاةً، وهو حُسْنُ المطاوعة[2]، وقوله: ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ﴾؛ أيْ: إتيانًا ظاهرًا؛ أيْ: أمروا بعضَهم أن يُؤتَى به ظاهرًا[3].

2) ﴿أَعۡيُنِ﴾: (عين) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على عُضْوٍ به يُبصَرُ ويُنظَر، العينُ الجارحة النّاظرةُ لكلِّ ذي بَصَرٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ [المائدة: 45][4]، والعَيْنُ: الَّذي ينظر للقوم، سُمّي بذلك لأنَّه إنَّما ينظرُ بعينه[5]، وفلانٌ بعيْني: أي: أحفظُه وأرعاه، ويُستعارُ (العَيْن) لمعانٍ هي موجودةٌ في الجارحة بنظراتٍ مختلفة، وقيل للمتجسِّسِ: عَيْنٌ تشبيهًا بها في نظرِها، ولَمّا كانتِ العَيْنُ أفضلَ الجوارح قيل لأفاضل القوم: أَعْيانٌ، وشُبِّه نبعُ الماءِ بالعَيْن لما فيها من الماء، ومن عَيْن الماء اشتُقَّ: ماءٌ مَعينٌ؛ أيْ: ظاهرٌ للعيون، ويُقال: عِنْتُ البِئْرَ؛ أي: آثَرْتُ عَيْنَ مائها، قال تعالى: ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾ [الملك: 30][6]، وتقولُ العربُ:

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 155.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتو) و(أتي).

(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 565.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عين).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (عين).

(6) وقيل: الميم فيه أصليَّة، وإنَّما هو من (معنت)، ينظر: الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 237، والرّاغب، المُفردات: (عين).

إذا ظهرَ الأمرُ وشُهِرَ كان ذلك على أعْين النّاس، يُرادُ: بأعْيُن النّاس[1]، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أيْ: على رؤوس النّاس[2]، أو: بمَرْأى منهم[3].

3) ﴿يَشۡهَدُونَ﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على حُضورٍ وعلمٍ وإعلام، لا يخرُج شيءٌ من فروعِه عن هذه المعاني، من ذلك الشَّهادة؛ فهي تجمعُ كلَّ تلك الأصول[4]، والشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضورُ مع المشاهدة، إمّا بالبصر، وإمّا بالبَصيرة، والشُّهودُ بالحضور المُجرَّد أوْلَى، والشَّهادةُ مع المشاهدة أوْلَى، قال تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحجّ: 28]، وقال سبحانه: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا﴾ [النُّور: 2]، وقوله تعالى: ﴿يَشۡهَدُونَ﴾؛ أيْ: يشهدونَ عليه بما قالَه فيكون ذلك حُجَّةً عليه بما فعل؛ أيْ: كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنةٍ[5]، أو أنَّ المُرادَ يشهدون عقابَه وما يُصنَع به[6]، والقوْلان أوْلى بتمامِ المعنَى[7].

المَعْنى الإجماليُّ:

لَمّا بلغ نمروذَ وأشرافَ قومه خبرُ ما فعله إبراهيمُ عليه السلام، كرهوا أن يأخذوه بغير بيّنة، فأمروا بعضَهم أن يأتيَ به ظاهرًا بمرأى من النّاس؛ ليكون ذلك حُجَّةً عليه، يستحلُّون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به، لعلَّهم يحضرون عقابه حتَّى ينزجرَ غيرُه عن الاقتداءِ به في مثل هذا[8].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ تكرار الفعل ﴿قَالُواْ﴾ وبيانُ القائل، وسبب الفصل:

لَمَّا عُلِم للجميع أن إبراهيم هو الفاعلُ: كانت النَّفسُ تتوقَّعُ حُكمهم عليه قولًا؛ ليتم بعدُ فعلًا؛ فقيل: ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ﴾ من غير واو؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، ولَمّا كان قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى﴾ يدلُّ على أنَّ هذا القولَ؛ كان من بعضهم لبعض؛ أيْ:

---

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 40.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 40.
(3) البغويّ، معالم التَّنزيل: 5/ 324، والخازن، لباب التَّأويل: 3/ 299.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (شهد).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 40، والماورديّ، النُّكت والعيون: 3/ 451.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 40.
(7) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 206، والزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 396.
(8) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 565.

إقامة الحُجَّة على إبراهيم بإشهار فعله

قال بعضُهم لبعضٍ: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى﴾، دون إرادةِ تعظيمه مع شُهرتِه وشُهرةِ أبيه وعظمتهما فيهم؛ جاء القول الثّاني: ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ﴾؛ أيْ: مُسبِّبين عن هذا كارهين لأن يأخذوه سرًّا، فيُقال: أُخِذَ بغير بيِّنة، وهم كَفَرَةٌ وهو قد خالفهم في دينهم، فكان لا بدَّ عندهم من إشهارِ قولِهم هذا ليُعلم أمامَ الجميع بفعله الَّذي قام به[1]، لذا كان القائلُ هنا السّائلين الَّذين تقدَّم ذِكرُهم من قبل في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾[2].

إيثارُ فعلِ الإتيانِ على المجيء:

إشهارُ إبراهيمَ باضطحابِه على مَلَأٍ من قومه

الإتيانُ يدلُّ على مجيء الشَّيء مجيئًا ظاهرًا، وقولُ القائل: أتى فلانٌ يقتضي مجيئه بشيءٍ، أمّا جاء فلانٌ فهو كلامٌ تامٌّ لا يحتاج إلى صلة، ولهذا يُقال: جاء فلانٌ نفسُه، ولا يُقال: أتى فلان نَفْسُه، فلا بدَّ من صلةٍ مع فعلِ الإتيانِ دون المجيء[3]، وهذا المعنَى ظهرَ في سياق الآية جليًّا، فقولُه تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ﴾ يقتضي المجيء مصحوبًا مع شيءٍ ظاهر، وهو هنا إبراهيمُ عليه السلام ليتحقَّق ما يريدون من إظهارِه أمامَ الملأ، ولذلك أتى بعده بقوله: ﴿بِهِۦ﴾، وأيضًا الإتيان يستعملُ في المجيء السهل المُتمَكَّن منه، والحصولُ على إبراهيم كذلك لشهرته فيهم.

دلالةُ فعلِ الأمر ﴿فَأۡتُواْ﴾، ونكتةُ تصديره بالفاء:

حرصُ الظّالمين على الإتيانِ بالمتَّهم البريء والإسراعِ في عقوبته

دلَّ فعل الأمر في قوله: ﴿فَأۡتُواْ﴾ على وجوب اصطحابِ إبراهيمَ عليه السلام مع ما يكنُّه هذا الوجوبُ من أنَّ الطُّغاة لا يُقدِّمون الأدلَّة العادلة المُقنعة على من يريدون محاكمتَه أو إدانتَه أو إيقاعَ العقوبة به، فأمرُهم في حدِّ ذاته حكمٌ بالإدانة وعدمِ البراءة، وهو عندهم الحقُّ الَّذي لا جدالَ فيه، وإظهارُهم لأدلَّةٍ إيهامٌ بإنصافهم وعدالتهم،

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 439.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 712، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 565.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أتي)، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 152.

وصُدِّرَ فعلُ الأمر بالفاء لإفادة التَّعقيبِ والإسراعِ في الإتيانِ به ﵇، فإنَّ مَن يُدينُه الظّالمون لا بدَّ من الإسراع في عقوبته(1).

حرص الكفرة على رؤية النّاس مصيرَ مَن يُخالفُهم

علّةُ تعديةِ الفعل بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

حرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾ يفيد الاستعلاء، وهو واردٌ على طريق المَثَل؛ أيْ: يثبت إتيانُه في الأعْيُنِ ويتمكَّن فيها ثبات الرّاكب على المركوب وتمكُّنه منه، فقد اسْتُعيرت ﴿عَلَىٰٓ﴾ لتمَكُّن الرُّؤية وتحقُّقِها في أبصار المشاهدين(2).

دلالةُ قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾:

إظهارُ تهمةِ إبراهيمَ، ثمَّ عقوبته على تمام رؤية النّاس

دلَّ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ على تمام المعاينة والمشاهدة؛ أيْ: بمَرْأى منهم ومَنْظر(3)؛ أي: على رؤيتهم؛ أيْ: ظاهرًا لهم(4)، فإذا ظهرَ الأمرُ وشُهِر؛ كان ذلك على أعْيُنِ النّاس؛ أيْ: بأعْيُنِ النّاس(5)، فكأنَّ تلك الرُّؤية أصبحت لصيقةً بأعيُنهم لا تغادرها، والتَّعبيرُ بـ﴿أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أقوى في الدَّلالة من القول (نهارًا)؛ من حيث إرادةُ المبالغة في ظهور الرُّؤية والتصاقها بالأعين، فإنَّ ذلك قد لا يتحقَّقُ بتمامه ولو كان في وضَحِ النَّهار لدى الجميع أو بعضهم.

علّة فصل ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾:

تَرجّي العقوبة بعد تمكُّن الرُّؤية

جاءت هذه الجملة: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ تعليلًا لما قبلها من مجموع الأمر وما يتعلَّق به؛ فلهذا غابت الواو على الأصل؛ لأنَّ المُعَلَّل والتَّعليل كالشَّيء الواحد؛ كالمُضاف والمُضاف إليه؛ هل يُعطَف المُضاف إليه على المضاف؟

وجاء الفصلُ بـ ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾؛ لأنَّ التَّرجّي أوفقُ بحصولِ الشَّهادة، وحضورِ العقوبة بعد تمكُّن الرُّؤية(6).

---

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 577.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 62.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 577.

(4) العُكْبَري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 134.

(5) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 40.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 62.

سرُّ إيثار ﴿يَشْهَدُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

آثر النَّظمُ الكريمُ الفعل ﴿يَشْهَدُونَ﴾؛ لتحقُّقِ مدلوله، وهو حضورُ عقوبة إبراهيمَ ﷺ ومِنْ ثمَّ إيراد البيِّنة المتهافتةِ في حقّه أمامَ النّاس[1]، ثمَّ إظهار ما يُصنَعُ به ويعاتَبُ ويُعاقَب[2]، أو أنَّ المرادَ يشهدون بفعله وبقوله ذلك، ومجموعُ الوجهَيْن أَوْلى بالمقام[3]، وأفادت صيغةُ المضارع تجدُّدَ واستمراريَّةَ هذا الشُّهود العَلَني في أنظار النّاس على مستوى الفرد والجماعة؛ ليستمرَّ زجرُهم عمَّن تُسوِّلُ له نفسُه في المستقبل القيامَ بفعل إبراهيمَ ﷺ فلا يتَّخذه قدوةً له.

حضورُ فعلِ إبراهيم، وعقوبته لزَجْرِ غيره حاضرًا ومستقبلًا

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإتيان والمجيء:

الإتيانُ يدلُّ على مجيء الشَّيء مجيئًا ظاهرًا، وهو يقتضي مجيء الآتي بشيءٍ معه، ولذلك لا بدَّ من صلةٍ مع الفعل (أتى)؛ فلا يقال: أتى فلانٌ نفسُه، وأمّا المجيءُ فهو يقتضي مجيء الشَّيء بنَفْسِه، فإذا قيل: جاءَ فلان، فهو كلامٌ تامٌّ لا يحتاج إلى صلةٍ؛ ولهذا يُقال: جاءَ فلانٌ نفسُه[4]، وظاهرٌ كون الأبلغ هنا التعبير بالإتيان.

الإتيانُ مجيءٌ بشيء، والمجيءُ يكون بنفسِ الجائي فحَسْب

العَيان والظّاهر:

العَيان هو الأمرُ الظّاهر للعَيْن، وعاينه مُعاينةً وعيانًا وعَيانًا: رآه بعينه، وهو كالقول: هو بمرأى منّي؛ أيْ: أراه بعيني، ويقولون: لقيتُه عَيْنَ عُنَّةٍ؛ أي: عيانًا، ولقيتُه عيانًا ومُعاينةً: لقيته مُشاهدةً؛ أيْ: لم أشُكّ في رؤيتي إيّاه، ويُقال: شاهدُ عيان: شاهدٌ عينيٌّ ثابتٌ، وهو مَنْ رأى الحَدَثَ معاينَةً؛ أيْ: مشاهدةً، ويشهد بذلك[5].

يشتركان فيما يقع تحت رؤيا العين، والأوَّل خاصٌّ والثّاني عامٌّ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 155.
(2) الخازن، لبابُ التَّأويل: 3/ 299، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 712.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 155، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 62.
(4) ابن فارس، مقاييسُ اللُّغة: (أتي)، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 152.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومجموعة من المؤلِّفين، المعجم الوسيط: (عين).

والظّاهرُ هو الَّذي انكشفَ وبَرَز، من ظهرَ الشَّيءُ يظهرُ ظُهورًا، فهو ظاهر، ولذلك سُمّي وقتُ الظُّهرِ والظَّهيرة، وهو أظْهرُ أوقاتِ النَّهار وأضوَؤُها، والأصلُ فيه كلِّه ظَهْرُ الإنسان، وهو خلاف بَطْنِه، وهو يجمعُ البروزَ والقُوَّة[1]، وظهرَ الشَّيءُ أصلُه: أن يحصل شيءٌ على ظَهْرِ الأرض فلا يَخْفى، ثمَّ صارَ مُستعارًا في كلِّ بارزٍ مُبْصَرٍ بالبَصَرِ والبَصيرة، قال تعالى: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: 26]، وقال سبحانه: ﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20][2]، والأنسب بسياق إقامة الحُجَّة على إبراهيم ومحاكمته؛ لاتهامه - مِن قِبَل قومه؛ التعبيرُ بما هو مِن باب العيان: ﴿أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾.

الرُّؤيةُ كالشَّهادة لا تكونُ إلّا لموجود، ولكنَّها أعمُّ منها

الشَّهادة والرُّؤية:

الشّاهدُ نقيضُ الغائب في المعنَى، والشَّهادةُ: علمٌ بوجود الأشياء لا مِنْ قِبَلِ غيرِها، ولهذا سُمّيَ ما يُدْرَك بالحواسّ ويُعلَمُ ضرورةً: شاهدًا، فالشَّهادةُ علمٌ يتناولُ الموجود[3]، والشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضورُ مع المشاهدة، إمّا بالبَصَر وإمّا بالبصيرة، قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحَجّ: 28][4]، والرُّؤيةُ لا تكون إلّا لموجودٍ كالشَّهادة، وكلُّ رؤية لم يعرض معها آفةٌ فالمَرئيُّ بها معلومٌ ضرورةً، والرُّؤيةُ في اللُّغة على ثلاثةِ أوْجُه؛ **أحدها**: العلمُ، كما في قوله: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ٧﴾ [المعارج: 7]، **والآخرُ** بمعنَى الظَّن كما في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ٦﴾ [المعارج: 6]؛ أي: يظنُّونه، واستعمالُ الرُّؤية في هذيْن الوجهيْن مَجاز، **والثّالثُ**: رؤية العين، وهي حقيقة[5]، والشهادة أقوى في نفسها من الرؤية في نفسها؛ فهي أقوى في مقام إقامة الحجة على إبراهيم عليه السلام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظهر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظهر).
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 305.
(4) الرّاغب، المفردات: (شهد).
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 263.

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢﴾ [الأنبياء: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

اسْتِئنافُ إنكارِهِم لتحطيمِ أصنامِهم بعد إحضارِ الفاعلِ لإذلالِهم

لَمّا كان معلومًا أنَّهم لا يتأخَّرونَ عن إحضار إبراهيمَ عليه السلام؛ لأنَّ في إحضاره بمَرْأى من النّاس - مع ذكر ما فعله بآلهتهم - حُجَّةً لهم عليه كما يتوهَّمون؛ استأنَفَ أخبارَه لما يقعُ التَّشوُّفُ له فقالوا منكرين عليه مقرِّرين له بعد حضورِه على تلك الهيئة: أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا[1] ؟! فهو استئنافٌ بيانيٌّ على غرار ما قبله.

المَعنى الإجماليُّ:

سؤالُ إبراهيمَ عن فِعْلِه لإدانتِه ومعاقبته

لَمَّا أتوا بإبراهيم عليه السلام - على أعين الناس الذين أتوا من كل حدب وصوب - سأله الذين وُكِّل إليهم أمر محاكمته إن كان هو الَّذي كسَّر أصنامَهم أم لا؟ وذلك لإقامة الحُجَّةِ عليه في زعمهم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصْل الجُملةِ في صدر الآية:

استفهامٌ مَبنيٌّ على استفهامٍ سابقٍ لإدانة إبراهيم

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ﴾ اسْتئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكاية قولهم[3] عندما قالوا من قبل: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ فجاء الكلام هنا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا﴾ مُتَّسِقًا مع بحثهم عن الفاعل الَّذي قام بتكسير آلهتِهم وإذلالها، أو أنَّ النَّفس المراقبة لحركة معنى القصة من شأنها أن تسأل عن قولهم لإبراهيم حين يأتون به على أعين الناس لعلهم يشهدون، فهو استئناف بياني.

بلاغةُ الإيجاز بالحذف:

القرآنُ يحذفُ ما لا يُحتاج إليه، فالبلاغة الإيجاز

وقع من قبل هذا السُّؤال ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ﴾ حذفُ جملةٍ تقتضيها

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 440.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 566.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 711.

دلالةُ الاقْتضاء، والتَّقدير: (فأتَوْا به فقالوا: أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا؟) طلبوا منه الاعترافَ بذلك ليُقدِموا على إيذائه، فظهر منه ما انْقلبَ الأمرُ عليهم حتَّى تَمَنَّوُا الخلاصَ منه، فقال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾[1]، وقد طوَى التنزيلُ الحكيمُ معنى إتيانهم به للإيجاز؛ لأن المحذوف لا يتعلّق به حُكم في السّياق، وللدّلالة على تمكُّنهم من الإتيان به وإحضاره وسرعة ذلك.

بلاغةُ الاسْتفهام في: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ﴾:

سـؤال تقريـريٌّ وإنـكـاريٌّ مبنيّ على الإقصاء

في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا﴾ نوعٌ خاصٌّ من أنواعِ الاستفهامِ المُشرَبِ بالبلاغة العالية حيث جمع بين نوعيْن من أنواع الاسْتفهام: الإنكاريّ التّوبيخيّ؛ لأنّه قد فعل، والتَّقريريّ[2]؛ لذلك أيضًا؛ وهو سؤال عما يعلمونه تجاهلاً منهم بقصد التوبيخ والتقرير، أيْ: قالوا مُنكِرين عليه مُقرِّرين: ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا﴾؟ ففي داخل إنكارهم تقريرٌ بفعله، كأنَّهم سألوا وأجابوا، وخاصموا وحكموا، وهو من باب تجاهل العارف[3].

بلاغةُ اسمِ الإشارة:

قد يكونُ تقبيح الـفعـل تقبيحًا للفاعل

قولُه: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى الفعل الفاحش الحقيرِ الَّذي قام به إبراهيمُ ﵇ حسب زَعْمِهم، وفيه تنبيهٌ على أنَّ إتيانهم به ومسارعتهم إلى إحضاره بمَرْأى من النّاس إنَّما كان بسبب هذا الفعلِ الشَّنيع الَّذي قام به، وهو أمرٌ مُحقَّقٌ غنيٌّ عن البيان لا مناصَ منه[4]، والقربُ في: ﴿هَٰذَا﴾ يرمزُ إلى ما ذُكِر من المعنى في نُورِ السياقِ، وإلى جرأة إبراهيم في فعله هذا؛ أيْ: إنَّ إبراهيم لم يَرَ هذا شيئًا بعيدًا مستحيلًا؛ بل رآه قريبًا ممكنًا، فأقدم عليه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 155، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 100.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 440.
(3) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص: 51.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 440، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 712.

دلالةُ الباء في ﴿بِـَٔالِهَتِنَا﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔالِهَتِنَا﴾ للإلصاق؛ أيْ: فعلتَ ما فعلتَه مُلصقًا بالآلهةِ في تكسيرها وتحطيمها، ويمكن أن يُرادَ بها الظَّرفيَّة؛ أيْ: فعلتَ هذا الفعل في آلهتِنا؛ أيْ: في تكسيرِها وتفتيتِها، والباءُ حينئذٍ في موضع (في)، والأوْلَى حملُها على الإلصاق الدّالِّ على الإحاطة والتَّمكُّن من الشَّيْء؛ لأنَّ المقصود بيانُ تمكُّنِه ﷺ منها؛ ولذا تجرَّأ عليها؛ ففعل بها ما فعل.

من شأن الباطل أن يُـحـاط به لِحقارتِه وهَوانِه

فائدةُ الإضافة في قوله: ﴿بِـَٔالِهَتِنَا﴾:

أضاف النّظمُ الكريم - في قوله تعالى: ﴿بِـَٔالِهَتِنَا﴾ - الآلهة إلى ضمير المتكلِّمين؛ لإعلام إبراهيم أنه بفعلِه هذا قد آذنهم بالحرب غيرَ مبالٍ بهم وبحقهم في الاعتقاد، وبقوتهم أيضًا؛ ففيها مِن التهديد ما فيها، ويُستفاد من الإضافة أيضًا على سبيل الإشارة: الدلالة على أنَّهم هُمُ الَّذين كانوا يعبدونها من دون الله، وفي ذلك تلويحٌ إلى أنَّهم ما كانوا يعدُّون إبراهيمَ ﷺ من عَبَدَة الأصنام، وخاصَّةً أنَّ ذلك ورَدَ في سياق الإنكارِ عليه مع تقريرِ ما فعلَه من تكسير تلك الآلهة.

ليس أحقر مِن إلـهٍ يُدافِع عنه عابدوه

نكتةُ تأخيرِ النِّداء في الآية:

أخَّر النَّظمُ القرآنيُّ النّداءَ في ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ إلى ذَيْل الآية، وحقُّه أن يُقدَّم، فيُقال: (أأنتَ يا إبراهيمُ فعلتَ هذا بآلهتنا؟) وتأخيرُ النّداء؛ لأنَّه ليس هو المُعوَّلُ عليه في السّياق؛ فهم يعلمون أنَّ إبراهيمَ ﷺ هو مَنْ فعلَ هذا؛ بل اهتمامُهم مُنصَبٌّ على القيام بهذا الفعل القَبيح في زعمهم، وهو تكسيرُ آلهتهم وإذلالُها، فهو تشنيعٌ لعبادتهم لها، وتحطيمٌ لكبريائهم، والأوْلى مِن ذلك سياقًا: أن يكونَ تأخيرُ النداءِ المشتملِ على ذِكْر إبراهيم إبلاغًا في تقريره بالفعل مع إنكاره عليه إنكارًا توبيخيًّا، وهذا مُؤسَّسٌ على عِلْمهم بأنَّ الفاعل (إبراهيم).

تـقـديم الأهـمِّ على المهمِّ

﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾

[الأنبياء: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابلةُ إنكارِ فعل المُصلِح بالتهكُّم بالمنكِرين

لَمّا أحضروا إبراهيمَ عليه السلام على مَرْأى من النّاس وهم منكرون عليه مقرِّرون، وسألوه عن فعله الفاحش بآلهتهم قبل أن يُوقعوا به العقوبة المنتظرة؛ قال عليه السلام مُتهكِّمًا بهم ومُلزِمًا لهم بالحُجَّة: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾: (سأل) يُقال: سأل يسألُ سُؤالًا ومَسألةً، ورجلٌ سُؤَلَةٌ: كثيرُ السُّؤال، والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المال، والسُّؤال للمعرفة يكون تارةً للاستعلام وتارةً للتَّبكيت؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨﴾ [التَّكوير: 8] ولتعرُّف المسؤول، وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ لتبكيت الكَفَرَة الّذين يعبدون أصنامًا صمّاءَ لا تضرُّ ولا تنفع[1].

2) ﴿يَنطِقُونَ﴾: (نطق) يُقال: يَنْطِقُ نُطْقًا ومنطِقًا، ويكون هذا لما لا نفهمُه نحن، قال تعالى: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النَّمل: 16][2]، والنُّطقُ في التَّعارف: الأصواتُ المُقطَّعة الّتي يُظهرُها اللِّسانُ وتَعيها الآذان، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾ [الصّافّات: 92] ولا يَكادُ يُقال إلّا للإنسان، ولا يُقالُ لغيره إلّا على سبيلِ التَّبَع[3]، وقوله تعالى: ﴿إِن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (سأل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نطق).
(3) الرّاغب، المفردات: (نطق).

كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: إنْ كانوا ممَّن يمكنُه النُّطقُ، ويَقدرُ على الكلام ويَفهمُ ما يُقالُ له[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبكيتُ عَبَدَةِ الأصنامِ والازْدِراءُ بعقولِهم

أجابَ إبراهيمُ عليه السلام عن سؤال الكافرين الظّالمين: (أأنت فعلتَ هذا التَّكسيرَ بآلهتِنا؟!) - مُبكِّتًا إيّاهم ومُقيمًا للحجَّة عليهم: بل فعله كبيرُ الأصنام؛ فاسألوهم إنْ كانوا يتكلَّمون! وأنَّى لهمُ الكلامُ وهم جمادٌ لا يتكلَّمون[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ ﴿بَلۡ﴾ ومعناها:

الإضرابُ لمدلولِ الاستفهامِ من تُهمةِ إبراهيمَ واعتمادُ مُتَّهمٍ آخَرَ

قوله تعالى: ﴿بَلۡ﴾ إبطالٌ لأنْ يكونَ إبراهيمُ عليه السلام هو الفاعلَ لذلك، فنفَى أن يكونَ فعَلَ ذلك؛ لأنَّ ﴿بَلۡ﴾ تقتضي نَفْيَ ما دلَّ على كلامِهم من اسْتفهامه؛ أيْ: إذا جاءت بعد اسْتفهامٍ أفادتْ إبطالَ المُستفهَمِ عنه[3].

المُرادُ بالخبرِ في: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾:

انتفاءُ تعدُّدِ الآلهة، وإثباتُ الوحدانيَّة

قوله تعالى: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ هذا الخبرُ مُستعملٌ في معنَى التَّشكيك؛ أيْ: لعلَّه فعلَه كبيرُهم إذْ لم يقصدْ إبراهيمُ نسبةَ التَّحطيم إلى الصَّنَم الأكبر على الحقيقة؛ لأنَّه لم يدَّعِ أنَّه شاهدَ ذلك، ولكنَّه جاء بكلامٍ يُفيدُ ظنَّه بذلك، حيث لم يَبْقَ صحيحًا من الأصنام إلّا الكبير، وفي تجويز أن يكونَ كبيرُهم هذا الَّذي حطَّمهم إخطارُ دليلِ انْتفاءِ تعدُّدِ الآلهة؛ لأنَّه أوْهَمَهم أنَّ كبيرَهم غضب من مشاركة تلك الأصنامِ له في المعبوديَّة، وذلك تدرُّجٌ إلى

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 566.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 174.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 100، 102.

دليل الوحدانيَّة، فإبراهيمُ ﵇ في إنكاره أن يكونَ هو الفاعلَ أرادَ إلزامَهُمُ الحُجَّةَ على انْتفاءِ ألوهيَّةِ الصَّنَمِ العظيم، ومن ثَمَّ انْتفاءُ ألوهيَّةِ الأصنام المُحطَّمة بطريق الأوْلى[1].

دلالةُ الجناس في: ﴿فَعَلَ﴾ و﴿فَعَلْتَ﴾:

كان إبراهيم ﵇ شديدَ اليقظةِ في المناظرة

جاء ﴿فَعَلَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ و﴿فَعَلْتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ وكلاهما مُشتقٌّ لفظًا ومعنًى من الفعل الدّالِّ على الحَدَثِ وفاعله، ومكوَّنٌ من نفس الحروف، وبصيغة الفعلِ الماضي؛ للدَّلالة على القيام بالفعل - وهو هنا تكسير الأصنام - وتحقُّقه بتمامه، وإعادتُه بعينه إبلاغ في التبكيت، والإلزام بالحجة.

فائدةُ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

التَّهكُّمُ بعبَدَةِ الآلـهةِ المزيَّفة، وقبـاحـةُ شِـرْك الكافرين

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى قوله: ﴿كَبِيرُهُمْ﴾ وهو تقييدٌ له؛ أيْ: هذا الَّذي أشيرُ إليه، والَّذي تركتُه بغير كَسْر، يدلُّ على أنَّه كان فيهم كبيرٌ غيره، وهذا - مع كونه تهكُّمًا بهم وكنايةً عن أنَّهم لا عقلَ لهم لعبادتِهم مَنْ يعلمون أنَّه لا يقدرُ على فعلٍ ما - تنبيهٌ على قباحةِ الشِّرك، وأنَّه لا يرضَى به إلهٌ؛ بل يُهلكُ مَن عبدَ غيرَه، وكلَّ ما عُبدَ من دونه إن كان قادرًا غيرُه على مقامه العظيم، ومنصبه الجسيم[2].

بلاغةُ الأمر: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾:

جعلُ المتَّهمِ هو المتَّهَم

لَمّا أخبر ﵇ بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، ولم يكن أحدٌ رآه حتَّى يشهدَ على فعله، وكانوا قد أحلُّوهم بعبادتهم، ووضع الطُّعمَ لهم محلَّ مَنْ يعقل، أدارَ الحُجَّةَ عليهم مع التَّهكُّم بعقولهم، فأمرهم بسؤالهم، فقال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾؛ أيْ: عن الفاعل ليُخبرَكم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 100 - 101.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 440.

به[1]، وما هم بمُخبرين ولا ناطقين، وهذا حالُ المؤمن في صدعه بالحقِّ وقدرته على إرباك خصومه وجَعْلِ ما اتَّهموه به من الظّلم بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم أحقُّ بلزومه فيهم وإقرارِهم به، وإن لم يُعلنوه ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وهذا ما أدَّاه هذا الأمرُ.

الدلالة على تهافتهم وبطلان شركهم

وفي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ وما اكتنفَه في السّياق من قبلُ ومن بَعدُ تعبيرٌ جليٌّ عن تهافُتهم، وبطلانِ ما هم عليه من الشِّرك، وقد جاء الأمر ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ اعتراضًا بين الكلامَيْن؛ أيْ: إن قدَروا على النُّطق قَدَروا على الفعل، فأراهم عليه السلام عجزَهم عن النُّطق والفعل، وكأنَّ في ضمنه: أنا فعلتُ ذلك[2].

عَوْدُ الضَّمير في ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾:

الكل في البطلان سواء

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ يعود إلى جميع الأصنام؛ أي: الآلهة المُحطَّمة وما بقي منها قائمًا؛ أيْ: فاسألوا آلهتَكُمُ المزوَّرةَ عن الفاعل ليخبروكم به[3]، وتسليطُ السُّؤال عليهم جميعًا إثباتٌ لبطلانهم جميعًا، وقرينةٌ على إرادة تهكُّمه بهم حين قال لهم: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾.

نكتةُ الاعتراض بقوله: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾:

آلهةٌ لا تقدِرُ على النّطقِ لن تقدرَ على الفعل

جعل إبراهيمُ عليه السلام النُّطقَ شرطًا للفعل، فقال: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[4]، ولذلك كان قولُه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ اعتراضًا بين الكلامَيْن، كما تقول: عليه الدَّراهم فاسْأله إن أقرَّ، والمعنَى: إن قدروا على النُّطق قدَروا على الفعل،

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 441.
(2) الزَّجّاج: معاني القرآن: 3/ 397.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 101.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 268.

فأراهم عَجْزَهم عن النُّطق والفعل[1]، وجيء بالأمر بالسُّؤال اعتراضًا أيضًا؛ لتقرير مضمون الكلام وتوكيده من طريق إفادته عجز الأصنام عن الكلام الذي هو أدنى من الفعل، ليَثْبُتَ عجزُها عن الفعل بطريق الأَوْلى.

فائدة الفعل ﴿كَانُواْ﴾:

المبالغة في نفي أن يكون من الأصنام نطقٌ وإبانة

جاء فعل الشَّرط ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ للدَّلالة على تحقُّق عدم نُطقهم، إذ كيف يمكن أن يكون منهم نُطقٌ حاضرًا، إن لم يكن منهم نُطقٌ فيما مضَى؟! وهم أصنامٌ مصنوعة صمّاءُ بكماءُ لا حولَ لهم ولا قوَّةَ ألبتة، والمعنى: إن كان مِن ديدنهم وطبعهم وشأنهم أن يكون منهم نطق وإبانة.

دلالة إيثار ﴿يَنطِقُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تبكيتُ عَبَدَةِ الآلهة المُزيَّفة والسخرية منها

آثر الخطاب القرآني الفعلَ ﴿يَنطِقُونَ﴾ دون (يَسْمعون) أو (يعقلون) مع أنَّ السُّؤالَ موقوفٌ على السَّمع والعقل أيضًا؛ إذْ إنَّ نتيجةَ السُّؤال هي الجواب، وإنَّ عدمَ نُطقِهم أظهرُ، وتبكيتَهم بذلك أدْخل، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قولُه تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، وهم لم يحصل منهم أيُّ نُطقٍ، ولن يكون منهم نُطقٌ أبدًا، ولذا جاء النَّظمُ بصيغة المضارع ﴿يَنطِقُونَ﴾ للدَّلالةِ على ذلك، ثم إنَّ النُّطق يلزم منه السَّمع والعقل؛ فهو أبلغ في إقامة الحُجّة على قوم إبراهيم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السُّؤال والاسْتفهام والاسْتفتاء:

تشترك كلها في طلب الجواب، والسُّؤالُ أعمُّ فهو بالقول والفعل وعمّا يعلم وعمّا لا يعلم

السُّؤالُ طلبُ الخبر وطلبُ الأمر والنَّهي، وهو أن يسأل السّائلُ

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 397.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 64.

غيرَه، أو يأمرَه بالشَّيء، أو ينهاه عنه[1]، والسُّؤال لا يكون إلّا كلامًا، ويمكن أن يكون بالقول والفعل، وهو يستدعي جوابًا باللِّسان أو باليد[2]، ويجوزُ أن يكونَ السؤال عمّا يعلم السّائلُ وعمّا لا يعلم، وأمّا الاسْتفهام فلا يكون إلّا لما يجهلُه المُستَفْهِم أو يشكُّ فيه، وذلك أنَّ المُستفهِمَ طالبٌ لأنْ يفهم[3]، والاسْتفتاء: طلبُ الجواب عمّا يُشكل من الأحكام، وهو معنَى الفُتْيا والفَتْوَى[4]، فظهر بهذا أنَّ السؤال أقوى وأبلغ في إقامة الحُجّة عليهم.

النُّطق والكلام:

النُّطق إرادةُ الكلام الّذي هو فعلُ النُّطق

النُّطق إرادة اللِّسان في الفم بالكلام، ولذا لا يُوصفُ اللّه تعالى بالنُّطق، ويُوصَفُ بالتكلّم، قال اللّه تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النِّساء: 164][5]، والنُّطقُ: الأصواتُ المُقطَّعةُ الّتي يُظهرُها اللِّسانُ وتعيَها الآذان؛ قال تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢﴾ [الصّافّات: 92][6]، والكلامُ: هو ما يُتكلَّمُ به قليلًا كان أو كثيرًا[7]، وهو حروفٌ مُقطَّعةٌ تُعرَفُ بأصواتٍ يُظهرها اللِّسانُ وتعيَها الآذان، ولذلك كان الكلام وما أشبَهه هو معنَى الفعل (نطَقَ)[8]، وأهلُ اللُّغة لم يفرِّقوا بينهما، قال الجوهريّ: النُّطقُ: الكلام[9].

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 45، والرّاغب، المفردات: (سأل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سأل)، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 286 - 287.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 48.
(4) الرّاغب، المفردات: (فتى).
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 541 - 542، والكفوي، الكلّيّات: 4/ 18.
(6) الرّاغب، المفردات: (نطق).
(7) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 541 - 542، والكفوي، الكلّيّات: 4/ 18.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نطق).
(9) الجوهري، الصِّحاح: (نطق).

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤﴾ [الأنبياء: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اعـتراف الكفّارِ بـظـلـمـهـم في عبادةِ أصنامِهم

لَمّا كان روحُ الكلامِ إقرارَه بالفعل، وجعلَهم ﷺ بوضع الهُزء؛ لأنَّهم عبدوا ما لا قدرةَ له على دفاعٍ أصلًا، وأُسقِطَ في أيديهم، فلم يك لهم بدٌّ من الوقوع في بُؤرة الخِزْيِ عن ذلك الحال قولُه تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ رجوعَ المُقِرِّ بجريمتِه المُتحقِّقِ من مَحْضِ باطله؛ فقالوا: إنَّكم أنتُم الظّالمون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَجَعُوٓاْ﴾: رجَعَ الشَّيءُ بنفسِه يَرْجِعُ رُجوعًا، ورجَعَهُ غيرُه: يَرْجَعُ رَجْعًا، وأرْجعَه غيرُه بالألف، والرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءِ، أو تقديرُ البَدْءِ مكانًا كان، أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله، فالرُّجوعُ: العَوْد، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: 8]، والرَّجْعُ: الإعادةُ، والرَّجْعةُ، والرَّجعةُ في الطَّلاق، وفي العَوْدِ إلى الدُّنيا بعد المماتِ، قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التَّوبة: 83]، وقال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [المائدة: 48][1]، وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: رَجَع بعضُهم إلى بعضٍ رجوعَ المُنقطِع عن حُجَّته المُتفطِّن لصحَّة حُجَّةِ خصمِه المراجِعِ لعقله[2].

المَعنى الإجماليُّ:

وجَـحـدُوا بها واسْـتيقَنَتْها أنفُسُهم ظُلْمًا وعُلُوًّا

يقول تعالى مُخْبِرًا عن قومِ إبراهيمَ حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بالملامَةِ في عدمِ احْترازِهم وحراستهم لآلهتهم،

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رجع).
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 566.

فقالوا: إنَّكم أنتُم الظّالمون في ترككُم لها مُهلةً لا حافظَ لها[1]، أو أنَّ رجوعَهم كان رجوعَ المُنقَطِعِ عن حُجَّته المُتفَطِّن لصحَّة حُجَّة خَصْمِه المُراجِعِ لعقله، وذلك أنَّهم تنبَّهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينَهم وبين إبراهيمَ ﵇ أنَّ مَنْ لا يقدِرُ على دفعِ المَضَرَّةِ عن نَفْسِه ولا على الإضرارِ بمَن فعل به ما فعلَه إبراهيمُ بتلك الأصنام، يستحيل أن يكون مُستحقًّا للعبادة، ولهذا اعترفوا بأنَّهم همُ الظّالمون[2]، ويمكن أن يكونَ كلا المعنَيَيْن داخلًا فيما عناه السّياق، والمشهدُ الَّذي دارتْ به أحداثُ القصَّة وما أوحَت به من معانٍ ومقاصد.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في افْتتاح الآية:

من شأن الدَّليل العليّ أن تُذعن لــه الـعــقــولُ والقلوبُ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ﴾ عاطفةٌ جملتَها على ما قبلها، وهي الفصيحة، أفصحت عن مُقدَّرٍ قبلَها، وأظهرت أنَّ في الكلام شيئًا محذوفًا، زاد في كمال حُسْنِها وفصاحتها في كونِها مبنيَّةً على التَّقدير، مُنبئةً عن المحذوف[3]؛ أيْ: لَمّا قال لهم إبراهيمُ: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾، تفكَّروا فتحقَّقوا أنَّهم على الباطل، فلاموا أنفسهم واعترفوا بجهالتهم وعبادة ما لا يضرُّ ولا ينفع[4]، ويمكن أن تكون الفاءُ سببيَّةً؛ أيْ: لَمَّا عبدوا ما لا قُدرةَ له على دفاعٍ أصلًا تسبَّب عنه قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[5]، وكلا الوجهيْن يؤدّي إلى ذات المقصود، فكأنَّهما وجهان لمفادٍ واحد.

بلاغةُ الاستعارة في الفعل ﴿فَرَجَعُوٓاْ﴾:

إنما يُـرْجَـعُ إلى الحقّ عند ظهور أدلّته

الرُّجوعُ الَّذي عبَّر عنه قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ﴾ هو رجوعٌ إلى

(1) ابن كثير، مفاتيح الغيب: 3/ 174.
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 566.
(3) الأزهري، التَّصريح: 2/ 186.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 441.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 441.

أنفسِهم وهو مُستعارٌ لِشَغْل البالِ بشيءٍ عَقِبَ شَغْلِه بالغَيْر، كما يرجع المرءُ إلى بيته بعد خروجه إلى مكانٍ غيرِه[1]، وتلك استعارةٌ تمثيليةٌ، وذلك يُفيد التَّحقُّق من هذا الرُّجوع بعد وضوح الأدلَّة.

معنَى ﴿إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وفائدتُه:

الاستقامةُ بالرّجوع إلى الأنفُس جمعًا وفُرادَى

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يجوزُ أن يكون معناه: فرجعَ بعضُهم إلى بعض؛ أيّ: أقبلَ بعضُهم على خطاب بعضٍ، وأعرضوا عن مخاطبةِ إبراهيم؛ أيْ: فقال بعضُهم لبعض: إنَّكم أنتُمُ الظّالمون، ويجوز أن يكون معناه: فرجعَ كلٌّ واحدٍ إلى نَفْسِه؛ أيْ: ترك التَّأمُّل في تُهمةِ إبراهيمَ، وتدبّرَ في دفاع إبراهيمَ، فلاحَ لكلٍّ منهم أنّ إبراهيمَ بريء؛ فقال بعضُهم لبعض: إنَّكم أنتُمُ الظّالمون[2]، والرُّجوع بتقييدِه بـ ﴿إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ في كلا الحالَيْن يفيدُ اسْتقامتَهم حين رجَعوا إلى أنفُسهم[3]؛ لأنَّ هذا القيد معناه أنهم فكَّرُوا في حالهم وحال إبراهيم، ووازنوا بينهما؛ بقرينة قولهم بعدُ: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

دلالةُ الفاء في ﴿فَقَالُوٓاْ﴾:

الاعترافُ بالحقِّ بعد ظهورِ الأدلَّة الدّامغة

الفاءُ في قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عاطفةٌ، تفيدُ التَّعقيب؛ أيْ: أعقبَ انْصياعَهم إلى الحقِّ بعد ما تبيَّن لهم قوَّةُ حُجَّةِ إبراهيم عليه السلام أن قالوا يخاطبُ بعضُهم بعضًا مؤكّدين لأنَّ حالَهم يقتضي إنكارهم لظُلمهم: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4].

فائدةُ التَّوكيد في: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

من ضعفِ النَّفْس أن تغفل عن باطلها، فتقرَّ بالحق

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مفيدٌ للحَصْر والتعريف بـ(أل) يفيد التوكيد؛ أيْ: أنتُم ظالمونَ لا إبراهيم؛ لأنَّكم ألصقتُم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 103.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 103.
(3) الكشّاف، الزَّمخشري: 2/ 577.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 441.

التُّهمة بأنَّه ظلم أصنامنا مع أنَّ الظّاهرَ أن نسألَها عمَّن فعل بها ذلك، ويظهرُ أنَّ الفاعلَ هو كبيرُهم[1].

إيثارُ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

الكفرُ بالله وعبادةُ غيرِه أشدُّ الظُّلمِ وأقبحُه

الظُّلم: تجاوزُ الحدّ، ومخالفةُ الحقّ في وضع الشَّيء في غير موضعه المختصِّ به، إمّا بنقصانٍ أو بزيادة[2]، وقومُ إبراهيمَ تجاوزوا حدَّهم في اتِّهامه ومسألتِهم إيّاه، وآلهتُهم حاضرةٌ لم يسألوها عمَّن فعل هذا بها[3]، وتجاوزوا حدَّهم بعبادتهمُ الأصنامَ الصَّغيرة مع وجود الصَّنم الكبير[4]، وتجاوزوا الحدَّ في عبادة مَنْ لا يتكلَّم، فكان مقتضَى ذلك أن يتصفوا بالظلم على جهة الاستمرارية؛ أيْ: أنتُم الظّالمون أنفُسَكم بعبادتِكم مَن لا يقدرُ على الكلام[5]، وجاءت كلمةُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لتدلَّ على اسْتيعابِ تلك الوجوه جميعها؛ بما فيها مِن (أل) الدّالَّة على معنى الكمال؛ أيْ: إنَّكم أنتم الكاملون في باب الظلم؛ وهم بذلك قد أقرّوا على أنفُسِهم بتمامِ كُفرهم وقَبول حُجَّةِ إبراهيم.

الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

الرُّجوع والعَوْد:

الرُّجوعُ العَوْدُ إلى ما كان، والعَوْدُ يكون كذلك، ويُستعمَلُ في الابْتِداء

الرَّجوعُ فعلُ الشَّيء ثانيةً، ومصيرُه إلى حالٍ كان عليها، والعَوْدُ يُستعمَلُ في هذا المعنى على الحقيقة، ويُستعمَلُ في الابتداء مجازًا؛ يُقال: قد عادَ إليَّ من فلان مكروه، وإن لم يكن قد سبقَه مكروهٌ قبل ذلك، وتأويلُه أنَّه لحقني منه مكروه[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 103.
(2) الرّاغب، المفردات: (ظلم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 41.
(4) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 5/ 364.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 325.
(6) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 250، والكفوي، الكلّيّات: 2/ 390.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾

[الأنبياء: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـثّـبـاتُ على الحقِّ رتبةٌ فوقَ اتّباعِهِ

لَمّا كان رجوعُهم إلى الضَّلال بعد هذا الإقرار الصَّحيح الصَّريح ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في غاية البُعد، عبَّرَ بأداتِه مُشيرًا إلى ذلك فقال: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ﴾؛ أي: انْقلبوا في الحالِ غير مُسْتَحْيين ممّا يلزمُهم من الإقرارِ بالسَّفَه حتَّى كأنَّهم قَلَبَهم قالبٌ لم يمكِنْهم دفعَه، فصار أعلاهم أَسْفَلَهم برجوعهم عن الحقِّ إلى الباطل[1]، فهذه الآيةُ ممسِكةٌ بما قبلها؛ كأنَّهما آية واحدة تذكر حالَيْن مختلفَيْن تمام الاختلاف لعنصرٍ بشريٍّ واحدٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُكِسُواْ﴾: (نكس) أَصْلٌ يدُلُّ على قَلْبِ الشَّيء، منه النَّكْسُ: قلبُكَ شيئًا على رأسِه وجعلُ أعلاه أسفلَه ومُقدَّمه مُؤخَّرَه، والوِلادُ المَنْكوسُ: أن يخرجَ رِجْلاهُ قبلَ رأسِه[2]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾، ومن النَّكْسِ في العُمُر، قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ [يس: 68][3]، قال الفرزدق:

وإذا الرِّجالُ رأَوْا يزيدَ رأيتهم *** خُضُعَ الرِّقابِ نواكسَ الأبصارِ[4]

وقوله تعالى: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾؛ أيْ: رجعوا على أمرِهم الأوَّل الشّرك باللّه بعد المعرفة والصِّدق من قول إبراهيم[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 442.
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: 10/ 71.
(3) الرّاغب، المفردات: (نكس).
(4) ديوان الفرزدق: 1/ 304، وهو من شواهد سيبويه، الكتاب: 3/ 633، والمُبرِّد، الكامل: 2/ 57 - 58.
(5) الماوردي، النُّكت والعيون: 3/ 452.

2) ﴿رُءُوسِهِمْ﴾: (رأس) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعٍ وارتفاع، والرَّأسُ: رأسُ الإنسان وغيره، والرَّأسُ: الجماعة الضَّخمة، وجمعُه رؤوس، قال تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4][1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الانقلابُ إلى المجادَلةِ بعد الاستقامةِ بالمراجعة

شبَّه ﷻ عودَةَ قوم إبراهيمَ عليه السلام - عَبَدَةَ الأصنام - إلى الباطل: بصيرورة أسفلِ الشَّيء بأعلاه، ثمَّ قالوا بعد أن نُكِسُوا مخاطِبين إبراهيمَ عليه السلام قائلين: لقد علمتَ أنَّ النُّطقَ ليس من شأن هذه الأصنام[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

قد يكون استعمال حرف المعنى إيجازًا بالغًا

أفادت ﴿ثُمَّ﴾ هنا التراخي الرُّتْبي، وقد احتاج هذا الحال معهم إلى مدَّةٍ زمنيَّةٍ هي الفاصلة في حياتهم؛ إمّا يستقيم فيها أمرُهم أو ينكُصون على أعقابِهم ويعودون إلى كفرِهم، وهذا مما يلمح إليه ﴿ثُمَّ﴾، فتكون جمعًا بين معنييْن باعتباريْن لا تعاند بينهما؛ كالجمع بين الحقيقة والمجاز الذي قال به كثيرٌ من كبار أهل العلم.

بلاغة التّمثيل المُرَكَّب:

تمثيلُ ما عليه الظّالمون من شناعة كُفرهم

ولمّا كان رجوعهم إلى الباطل بعد الدُّخول في دائرة الحقِّ بقول بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ غريبًا عجيبًا في بابه؛ احتاج إلى التّمثيلِ لكمال توضيحه؛ فشُبِّه تحوُّلُ رأيهم عن الصَّواب إلى معاودةِ الضَّلال - بهيئة مَن تغيَّرت أحوالُهم من الانْتصاب على الأرْجُل إلى الانْتصاب على الرُّؤوس منكوسين؛ ثم استُعيرت الهيئة أو الحال المُشبَّه بها للحال المُشبَّه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة المُركَّبة؛ فهو من تمثيلِ المعقول بالمَحسوس، والمقصودُ به التَّشنيع[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: والرّاغب، المُفردات: (رأس).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 566.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 103 - 104.

القول بأن التنكيس حقيقيٌّ لا مجازي

ويرى الزّمخشريّ أن الكلام هنا على الحقيقة؛ أيِّ: (قُلبوا على رؤوسهم حقيقةً لفرط إطراقهم خجلًا وانكسارًا وانخزالًا مِمَّا بهتهم به إبراهيم عليه السلام فما أحاروا جوابًا إلا ما هو حجّة عليهم)[1]، والأعلى سياقا أنه استعارة تمثيلية لانقلابهم وارتدادهم إلى الباطل؛ فقد أبرز السياق رفضهم للحق، وصوَّر ضعف عقولهم، وتعطيلهم لوسائل الإدراك؛ إذ هم مستمسكون بفعل الآباء: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء: 53]، وما إبراهيم في اعتقادهم إلا مِن اللاعبين.

سرُّ إيثارِ الفعل ﴿نُكِسُواْ﴾ مادَّةً وصيغة:

إنما تَعظُمُ المخالفةُ مع عِظَمِ الدليل

قد آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الفعلِ ﴿نُكِسُواْ﴾ المبنيِّ للمفعول؛ أيِّ: نَكَسَهم ناكِسٌ، والعجيب والغريب أن يحصل هذا النكس بغض النظر عن السبب فيه؛ كأنه لا مجال لأحد ولا لشيء أن يكون سببًا في حصوله؛ لعظيم قوة الدليل الذي أتاهم به إبراهيم عليه السلام، ولمَّا كان النكس يُستعمل في التحوُّل من الحَسَن إلى القبيح، ومن الجيد إلى السيء؛ كان مِن البلاغة والتناسب التعبيرُ به هنا[2].

فائدةُ حرفِ ﴿عَلَىٰ﴾:

انكسارُ أهلِ الباطل عند وقوعهم في مغبَّة ظُلمهم

جاء النَّظمُ الكريمُ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ لإفادةِ الاسْتعلاء؛ أي: عَلَتْ أجسادُهم فوقَ رؤوسهم بأنِ انْكَبُّوا انْكبابًا شديدًا بحيث لا تبدو رؤوسُهم[3]، أو أنَّهمُ انقلبوا على رؤوسهم حقيقةً لفَرْطِ إطْراقِهم خجلًا وانْكسارًا وانْخزالًا ممّا بهتَهم به إبراهيمُ عليه السلام، فما أحاروا جوابًا إلّا ما هو حُجَّة عليهم[4].

---

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/ 577.
(2) بسيوني فيود، روافد من نهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص: 58.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 577.

سرُّ استعمال ﴿رُءُوسِهِمۡ﴾:

تأكيدُ خذلانِ الكفرةِ وقُبحِ باطلهم

لَمّا كان أصلُ النَّكْسِ قلبَ الشَّيءِ بحيث يصيرُ أعلاه أسفلَه؛ ذَكَرَ القرآن الحكيم في الآية: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ الرأسَ مع دخوله في أصل المعنَى للتَّأكيد، وقد يُستعمل النَّكسُ لغةً في مُطلَقِ قلبِ الشَّيءِ من حالٍ إلى حالٍ أخرى، فيكون ذِكْرُ الرَّأس هنا للتَّصوير والتَّقبيح[1].

دلالة موقع ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾، وسرُّ الحذفِ، والتعبير بـ﴿لَقَدۡ﴾:

مِن شأنِ أهلِ الباطل التزلزل

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ جوابُ قَسَم محذوف، والقَسَم وجوابُه معمولان لقولٍ مُضْمَر، وذلك القولُ المُضمَر حالٌ من المرفوع في ﴿نُكِسُواْ﴾، والتَّقدير: (نُكِسوا قائلين: تاللّه لقد علمت)[2]، ووراء حذف القول والإفصاح عن القَسَم ما يُشعر باندفاع هؤلاء الكفرة، وعدم تفكّرهم، ولذا ذكروا ما هو حُجَّة لإبراهيم عليهم، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ﴾ نجد أنَّ (اللّام) موطِّئة للقَسَم، و(قد) حرف تحقيق، وكلاهما يُفيد التأكيدَ وتحقّقَ ما بعدهما في قوله تعالى: ﴿عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾؛ أيْ: ما أردتَ بقولك: فاسألوهم إن كانوا ينطقون إلّا التَّنصُّلَ من جريمتك[3].

بلاغةُ الخبر في: ﴿عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾:

الخبرُ المُؤكَّد باتِّصاف الأصنام بعدمِ النُّطق

الفعلُ ﴿عَلِمۡتَ﴾ مُعلَّق عن العملِ لوجودِ حرف النَّفي بعدَه، فجاءت جملةُ ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ خبريَّةً لكنَّها غيرُ مجرَّدةٍ للخبر؛ بل هي تُفيد التَّأكيدَ فيما أتت من أجله؛ أيْ: تفيدُ تقويةَ الاتِّصافِ بانعدام النُّطق، وذلك بسبب انْعدامِ آلتِه وهي الألْسُن[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 64.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 325، والسَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 8/ 179.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.

الإشارة للقريب أقوى أدلَّة التَّنديد

بلاغةُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

لَمّا اعْترفَ الكفّارُ بأنَّهم على باطل، كان ممّا جلَّى اعترافَهم وأظْهرَ سفاهةَ عقولهم وأسْقطَ كبرياءهمُ الفارغ، إشارتُهم لتلك الأصنامِ الآلهة المزيَّفة الحاضرة أمامهم بقولهم: ما هؤلاء؛ أيْ: ما هؤلاء الأصنام صحيحهم ولا جَريحهم ينطقون، فهم لا فائدةَ تُرجَى فيهم[1]، فقد واجهوا إبراهيم بما هو له - لا لهم - مِن جهة استحضارهم وتمييزهم باسم الإشارة، ومن جهة ضعفهم وعجزهم عن أن يكون منهم نطق.

مَنْ لا يستطيعُ النُّطقَ لا يستطيعُ الإفهام، وهو معدومُ العقل

سرُّ إيثار ﴿يَنطِقُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الفعل ﴿يَنطِقُونَ﴾ للدَّلالة على عدم اسْتطاعةِ تلك الأصنامِ المحطَّمةِ المقهورة النَّفعَ والضُّرّ؛ فجعل ذلك ملزومًا لعدم نُطقِها؛ لأنَّ النُّطق هو واسطةُ الإفهام، ومَنْ لا يستطيعُ الإفهام مع استمرار ذلك منه - كما عبَّرت عنه صيغةُ المضارع ﴿يَنطِقُونَ﴾ - يتبيَّن أنَّه معدومُ العقلِ[2]، ثم هم أعادوا النُّطق الذي ذَكَرَه إبراهيم من قبل في قوله: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾؛ ليكون أقوى في استحضار أمرهم بسؤال الأصنام؛ لينبني على ذلك دوامُ معركتهم مع شخصِ إبراهيم؛ فإن في أمره استهزاءً بهم لا محالة؛ ألا ترى إلى قولهم بعدُ: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؟.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يشتركان في انقلاب الشّيء وعَوْدِه، والأوَّلُ يغلبُ في الأعيان، والثّاني في المعاني

النَّكس والانْتكاس:

النَّكْسُ: قلبُ الشَّيء على رأسِه، وجعلُ أعلاه أسفلَه ومقدَّمه مؤخرّه، وهو من الفعل: نَكَسَ يَنْكُسُ نَكسًا، وانْتكاسةُ المريض:

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 442.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.

مُعاودتُه المرض بعد أن شعرَ بشفاءٍ، وانْتكَسَ: وقع على رأسه، وانْتكسَ الغِطاءُ: انْقلب، وهو من الفعل: انْتكَسَ، ينتكِسُ، والمصدرُ انْتكاسًا، وانْتكساةً، والانْتكاسةُ: تغيُّرٌ من الجيِّدِ إلى السَّيِّئ(1).

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نكس).

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾ [الأنبياء: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِنْ فيكَ أُدينُكَ

لَمّا تسبَّبَ عن قولهم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ إقرارُهُم بأنَّهم لا فائدةَ فيهم، فاتَّجهت لإبراهيمَ عليه السلام الحُجَّةُ عليهم، استأنف سبحانه وتعالى الإخبارَ عنها بحكاية قول خليله مُنكِرًا عليهم، موبِّخًا لهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ﴾: عَبَدَ يَعبُدُ عبادَةً، ولا يُقالُ إلّا لِمَن يعبُدُ اللّهَ تعالى، يُقال منه ما تقدَّم، ويُقال: تعبَّد يتعبَّدُ تعبُّدًا، فالأوَّلُ خاصٌّ بعبادة اللّه، والمُتعبَّدُ: المُتفرِّد بالعبادة، والعبادةُ تدلُّ على لينٍ وذُلٍّ تجاهَ المعبودِ الحقِّ سبحانه وتعالى، لذلك يُقال للمسلمين: عُبّادٌ؛ أيْ: يعبُدون اللّهَ تعالى[2]، والعبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّل، والعبادةُ أبلغ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا مَنْ له غايةُ الإفضال، وهو اللّهُ تعالى، ولهذا قال جل جلاله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23][3]، ومن صرف العبادة لغير اللّه فهو كافرٌ باللّه عابدٌ لغيره تعالى، وهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

2) ﴿يَنفَعُكُمۡ﴾: نَفَعَ يَنْفَعُ نَفْعًا، والاسْمُ: المنفعة، والنَّفعُ: ما يُستعانُ به في الوصولِ إلى الخيرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخير فهو خيرٌ، فالنَّفعُ خيرٌ، وضدُّه الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ [الفرقان: 3][4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 442.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عبد).
(3) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(4) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (نفع).

3) ﴿يَضُرُّكُمۡ﴾: ضرَّ يَضُرُّ ضَرًّا، والاسْمُ: الضَّرَر، والضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نَفْسِه لقلَّةِ العلمِ والفَضلِ والعفَّة، وإمّا في بَدَنه لعدمِ جارحةٍ ونَقْص، وإمّا في حالةٍ ظاهرة من قلَّة مالٍ وجاه، قال تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء: 84]، يُقال: ضرَّهُ ضُرًّا: جَلَبَ إليه ضُرًّا[1]، وقوله تعالى: ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾؛ أي: في أيِّ وجَهٍ من وجوه النَّفع والضُّرّ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ لا ينفعُ ولا يضرُّ لا يستحقُّ أن يكون إلهًا معبودًا

توجَّه إبراهيمُ عليه السلام بإقامةِ الحجَّةِ على قومِه الكافرين بعد اعترافهم بعدم قدرةِ أصنامِهم على النُّطق بأنَّ هذه الأصنام إذا كانت لا تنطقُ وهي لا تنفعُ ولا تضرُّ، فلِمَ تعبدونَها من دون اللّه؟![2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة في صدر الآية:

تبكيتُ عبادةِ أصنام لا تنطِق

فُصلت الجملة: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عن قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ للاستئناف البياني؛ كأنَّهم قالوا: فكيف تأمرُنا بسؤالهم وهم مستمرّون على عدم النُّطق؟! فقال عند ذلك مُبكِّتًا لهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾[3].

بلاغةُ الاسْتفهام في الآية:

الاسْتفهامُ الإنكاريُّ على مَن يَعبُدُ ما لا ينفع ولا يضرُّ شيئًا

لَمّا اعترف عُبّادُ الأصنام بأنَّها لا تنطق، جاءت فرصةُ إبراهيمَ عليه السلام ليُدلي بحُجَّته القويَّة أمام بصائرهم لعلَّها تستفيقُ من غَفْلتها، فقال بأسلوبِ الاسْتفهام الإنكاريّ على عبادتهم إيّاها وزائدًا عليهم بأنَّها لا تنفع ولا تضرّ ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا

(1) الرّاغب، المُفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (ضرر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 174.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.

﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؛ أيّ: أتعلمون ذلك فتعبدون من دون الله[1]، والبلاغةُ في أداء تلك المعاني مِن الإنكار والتوبيخ والتعجب ونحو ذلك بالاستفهام الذي محض معناه التنبيه؛ لأن قومه فقراء إليه بشدة؛ لعظيم غفلتهم وجهلهم ومكابرتهم ورفض للهدى بعد ما تبيَّنَ.

من شأن المُحاجّ في الحقِّ كمال اليقظة لخصمه

دلالةُ الفاء في ﴿أَفَتَعْبُدُونَ﴾:

لَمّا اعترفَ القومُ بأنَّ الأصنام لا تستطيع النُّطق؛ واجههم إبراهيمُ عليه السلام مرشدًا إيّاهم، ومُفرِّعًا على اعترافهم بأنَّها لا تنطق بالاستفهام؛ أيِّ: فكيف يعبدونها وهي على تلك الحالةِ الصَّمّاءِ البكماءِ لا حولَ لها ولا قُوَّة؟![2] فترتيب إنكار العبادة على قولهم المذكور من الحكمة والبلاغة في المناظرة والحِجاج.

إظهارُ التَّذلُّل لا يكونُ إلّا لِمَنْ له غايةُ الإفضال

سرُّ إيثارِ ﴿أَفَتَعْبُدُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

آثر النَّظمُ الكريمُ اسْتعمالَ الفعل ﴿أَفَتَعْبُدُونَ﴾؛ لأنَّ القومَ علموا أنَّ ما هم عليه باطلٌ؛ أيِّ: أتعلمونَ ذلك فتعبُدون غيرَ اللّه عز وجل؟ وذلك أن حالهم وموقفَهم مِن الأصنام يدلُّ على كمال خضوعهم لها، والألصق بذلك العبادة، ثم هم فوق ذلك مستمرّون في إذلالِ أنفُسِهم وإهانةِ عقولِهم لجماداتٍ ليس لها أيُّ إفضالٍ أو إنعامٍ على عابديها وغيرِهم[3].

هل يستوي اللهُ وآلهتهم المزعومة؟

فائدةُ التقييد بجملة: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

نبَّه إبراهيمُ عليه السلام قومَه بقولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ جميعَ الرُّتَبِ تتضاءلُ دون رتبة الإلهيَّة؛ أيِّ: من أدْنَى رتبةٍ من تحتِ رُتبةِ المَلِكِ الَّذي لا ضرَّ ولا نفعَ إلّا بيدِه لاستجماعه صفات الكمال[4]،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 65، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 65.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 442.

فهذا القيد المشتمل على اسم الجلالة المسيطر على جميع الأسماء والصفات مِن شأنه الزيادةُ في تحقير تلك العبادة والمعبود والعابد، وتقويةُ معاني الاستفهام؛ حيث يلفتهم إلى الموازنة بين معبودهم وبين الإله الحق اللّه ﷻ الذي بيده جلبُ كلِّ نفع، ودفعُ كلِّ ضررٍ.

سرُّ تقديم النَّفع على الضُّرّ:

المعبودُ بحقّ يجلبُ النّفعَ لعابديه قبلَ دفعِ الضُّرّ

لَمّا كان القومُ في محلّ ضرورة بسبب تكسيرِ أصنامهم، راجين مَنْ ينفعُهم في ذلك، قدَّم النَّفعَ فقال: ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[1] والأصلُ في المعبودِ بحقٍّ أنَّه يجلبُ النَّفعَ لعابديه أوَّلًا، ثمَّ يدفعُ الضُّرَّ عنهم ثانيًا، فإذا لم يحقّق لهم الأوَّل، فكيف يقيهم من الثّاني؟! ثمَّ كيف يُتوجَّه إليه بالعبادة وهو دون الرُّتَبِ كلِّها؟

بلاغة الطِّباق في الآية، وفائدةُ المضارعة فيها:

جَلْبُ النَّفعِ ودَفْعُ الضُّرّ من خصائص الإله الواحد المعبودِ بحقّ

النَّفعُ والضُّرُّ من أنواعِ طباقِ الإيجاب، وتتجلَّى بلاغةُ هذا النَّوع هنا في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ في إثارة ذِهْنِ أولئك الَّذين يعبدون الأصنام وجَذْبِ انتباهِهم، وتقوية المعنَى المُراد من هذا التَّضاد؛ وهو أنَّ كلًّا من الضِّدَّيْن غيرُ مُتحقِّق في المعبودين بالباطل لا في جلبِ نَفْعٍ ولا في دَفْعِ ضُرٍّ ليخافوه[2]، وهذا الطباق امتدادٌ للموازنة بين معبود إبراهيم ومعبودهم، والتي فتَح البابَ لها القيدُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وبهذا الطِّباق يمتهد مشهد الموازنة؛ إحسانًا إليهم بدعوتهم إلى إطالة النَّظر؛ لعلهم يراجعون أنفسهم، فيرجعون إلى الحقِّ.

في المضارعة دليل على دوام انقطاع رجائهم من الأصنام

وصيغة المضارع تشير إلى الدَّليل على نتيجة الموازنة؛ فكلما جدَّدَ الواحدُ منهم رجاءَ جلبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ من تلك الأصنام لم يجد شيئًا؛ فيعلم أن اللّه معبودَ إبراهيم هو الإله الحق؛ الذي يكون منه ما انتفَى عن هذه الأصنام.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 442 - 443.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 443.

الأصنامُ لا قدرة لها على نفعٍ بشيءٍ أو دفعِ ضرٍّ لأيِّ شيءٍ

دلالةُ تنكير ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

جاء قولُه: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرةً للدَّلالة على عموم أيِّ شيءٍ حتَّى لو كان في غاية الصِّغَر والقِلَّةِ ممَّن يستطيعه العابدون، فكيف بالمعبودين وهم لا يقدرون على هذا الشَّيء الحقير في جلبه إن كان نفعًا أو دَفْعِه إن كان ضُرًّا؟! وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على تحقير شأن الأصنام والازْدراء بها[1]؛ فالتعبيرُ بالشيء مع تنكيره إبلاغ في بيان حقيقة معبود القوم.

مَنْ لا ينفعُ بشيءٍ ولا يضرُّ بشيءٍ لا يُعبَد قطعًا

بلاغةُ الإيجاز في حذف ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في ﴿يَضُرُّكُمۡ﴾:

لم يذكرِ النَّظمُ الكريم لفظ (شيئًا) بعد ﴿يَضُرُّكُمۡ﴾، كما فعله في جملة: ﴿لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ وهذا من بلاغة الإيجاز بالحذف، حيث دلَّ الأوَّلُ المذكورُ على الثّاني المحذوف، فإذا كانت الآلهةُ المزيَّفةُ لا تنفعُ شيئًا فهي من باب أوْلى لا تدفع ضرّ أيّ شيء؛ فهذا مِن شواهد فنِّ الاكتفاءِ، والإتيانُ به مع النَّفع أوَّلًا دون الثاني مؤسس على تقديم ذِكْر النفع على ذِكْر الضرر؛ لنكتة بلاغية، ويمكن أن يكون المعنَى في هذا الحذف: وما تعبدونه من دون اللّه لا ينفعكم بشيءٍ إن عبدتموه، ولا يضرُّكم بشيء إن تركتموه، فإنَّ العلم بحاله المُنافية للأُلوهيَّة ممّا يُوجبُ الاجتنابَ عن عبادته قطعًا[2]، وهذا من مآل معنى الكلام، فلا حاجة إلى تقدير هذه المحذوفات.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

العبادة والدُّعاء:

العبادةُ أعمُّ من الدُّعاء، وهو جزءٌ منها مع خضوعٍ وتذلُّلٍ لله في كلَيْهما

العبادةُ: غايةُ الخضوع، ولا تُستحقُّ إلّا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يُعبَدَ غيرُ اللّه تعالى، ولا تكون العبادةُ إلّا مع المعرفة بالمعبود، ولا تكون إلّا للخالق ﷻ، فهي تدلُّ على لين وذُلٍّ تجاه

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 88.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 714.

المعبود ﷻ، وهي غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال، وهو اللّهُ ﷻ[1].

والدُّعاءُ: طلبُ الفعل دعا يَدْعُو، وهو من معاني العبادة للّه، ودَعَوْتُه: إذا سألتُه، وإذا اسْتغثتُه، قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: 56]، والدُّعاءُ إن كان للّه تعالى؛ فهو مثلُ المسألة معه اسْتكانةٌ وخضوع، وإذا كان لغير اللّه جازَ أن يكونَ معه خضوع، وجاز ألّا يكونَ معه ذلك، كدعاء النَّبيّ ﷺ أبا جهلٍ إلى الإسلام لم يكن فيه اسْتكانة، ويُعدَّى هذا الضَّربُ من الدُّعاء بـ (إلى) فيُقال: دعاه إليه، وفي الضَّربِ الأوَّل بالباء، فيُقال: دعاهُ به، تقول: دعوتُ اللّهَ بكذا، ولا تقولُ دعوته إليه؛ لأنَّ فيه معنى مُطالبتِه به وقَوْدِه إليه، والدُّعاءُ قد يكونُ بعلامةٍ من غيرِ صوتٍ ولا كلام، ولكن بإشارةٍ تُنبئُ عن معنى: تعال، ولذا يُسنَدُ الدُّعاء إلى اللّه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [البقرة: 221][2].

النَّفع والإفادة:

النَّفعُ أعمُّ من الإفادة، وهما يشتركان في إيصالِ الخير

النَّفعُ ما يُتوصَّلُ به إلى الخير، فالنَّفعُ خير، وقد يكون من غير قصدٍ من جهة النّافع، تقول: ينفعني العدوُّ بما فعله بي إذا أراد بكَ ضرًّا فوقع نفعًا، والفائدةُ: ما اسْتفدْتُه من علم أو مالٍ، وجمعُه: فوائد، وأفَدْتُ المالَ: استفدْتُه، وأعطيتُه، وهما ضدٌّ، وأفدتُه: اسْتفدْتُه، فالإفادةُ تكون لك، وتكون لغيرِك، تقول: أفدتُ فلانًا؛ أيْ: أعطيتُه ما يُفيدُه، وهما يتفايَدان بالمال: يُفيدُ كلٌّ صاحبَه[3].

الضُّرّ والضَّرّ والضَّرر والضِّرار:

الضَّرُّ: خلافُ النَّفع، ويكونُ حَسَنًا ويكون قبيحًا، فالقبيحُ: الظُّلم

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 349، والرّاغب، المفردات: (عبد).

(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 231، 294، 534 - 535، والكفوي، الكلّيّات: 2/ 333، والجرجاني، التّعريفات، ص: 38، والرّاغب، المفردات: (دعا).

(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (فاد).

تشترك فيما هو خلاف النَّفع، وتختلف من حيث المبالغةُ والعددُ والابْتداءُ والجزاء

وما بسبيله، والحسنُ: شربُ الدّواءِ المرِّ رجاء العافية، والضُّرُّ بالضَّمّ: الهُزالُ وسوءُ الحال، ورجلٌ مضرور: سيِّئ الحال، يُقال: ضرَّه ضُرًّا: جلب إليه ضُرًّا، ومن وجْهٍ آخرَ أنَّ الضُّرَّ أبلغُ من الضَّرَر؛ لأنَّ الضَّررَ يجري على ضَرَّه يَضُرُّه ضَرًّا، فيقعُ على أقلِّ قليل الفعل؛ لأنَّه مصدرٌ جارٍ على فعلِه، كالصِّفةِ الجاريةِ على الفعل، والضُّرُّ بالضَّمِّ كالصِّفةِ المعدولةِ للمبالغة[1]، والضَّررُ: أي لا يضرُّ الرَّجلُ أخاه فيُنْقِصُه شيئًا من حقِّه، والضِّرار: فعالٌ من الضُّرّ؛ أيْ: لا يُجازيه على إضراره بإدخالِ الضَّررِ عليه، والضُّرُّ: فعل الواحد، والضِّرار: فعل الاثْنَيْن، والضُّرُّ: ابتداءُ الفعل، والضَّررُ: الجزاءُ عليه، والضُّرّ: ما تضُرُّ به صاحبَك، وتنتفعُ به أنت، والضِّرارُ: أن تضرَّه من غير أن تنتفع، وقيل: هما بمعنًى واحد، وتكرارُهما للتَّأكيد[2].

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 328، والرّاغب، المفردات: (ضرر).

(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 328، وابن الأثير، النّهاية: (ضرر).

﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [الأنبياء: 67]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأصنامُ الّتي لا تملكُ النَّفعَ والضُّرّ، هي وعُبّادُها في غاية الحقارة

لَمّا أثبت إبراهيمُ عليه السلام أنَّ معبوداتِهم هذه في حيِّزِ العَدَم، فكانوا لعبادتِها دونها؛ اسْتأنفَ تبكيتَهم لذلك بأعلى كلماتِ التَّحقيرِ الّتي لا تُقالُ إلّا لما هو في غايةِ القذارة؛ فقال: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُفّٖ﴾: أفَّ يَؤُفُّ أفًّا: إذا تأفَّفَ من كَرْبٍ أو ضَجَر، ورَجُلٌ أفّافٌ: كثيرُ التَّأفُّف، وأُفِّ، خفضًا بغير نُون، وأُفٍّ خَفْضًا مع النُّون، وذلك أنَّه صوتٌ، كما تُخفَضُ الأصوات، فيُقال: طاقِ طاق، ومن العرب مَنْ يقول: أفٌّ له، والأفَفُ: الضَّجَرُ[2]، وأُفٍّ: خفضٌ على التَّشبيه بالأصوات، كما يُقالُ: صَهٍ وقهٍ[3]، وأُفٍّ معناه قِلَّة، وتُفّ إتباع، مأخوذٌ من الأفَف، وهي الشَّيءُ القليل[4]، والعربُ تقول: جعل فلانٌ يتأفَّفُ من ريحٍ وجدها: أُفٍّ أفٍّ[5]، وأصلُ هذا نفخُك للشَّيءِ يسقطُ عليكَ من ترابٍ أو رماد، وللمكان تريد إماطةَ أذى عنه، فقيل لكلِّ مُستَثْقَل[6]، وقوله تعالى: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ﴾؛ أيْ: نتنًا لكم[7] وقُبْحًا لكم[8]، وهو تعبيرٌ عن كُره إبراهيمَ للأصنام واستثقاله لكلِّ مُستَثْقَل[9].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 443.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفّ).
(3) أبو بكر الأنباري، الزّاهر: 1/ 181 - 182.
(4) أبو بكر الأنباري، الزّاهر: 1/ 180، والأزهري، تهذيب اللُّغة: 1/ 172.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 121.
(6) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 147.
(7) الزَّجاج، معاني القرآن: 3/ 398.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 42.
(9) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 147.

احتقارُ عُبّادِ الأصنام وآلهتِهم المزيَّفة

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عبَّر إبراهيمُ ﷺ عن كُرهِه لتلك الآلهةِ المُزيَّفةِ ولعابديها الظّالمين، فقال: أفلا تتدبَّرون ما أنتُم عليه من الضَّلالِ والكفر الَّذي لا يَروجُ إلّا على جاهلٍ ظالم فاجر؟! فأقام عليهم الحُجَّةَ وألزمَهم إيّاها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 83][1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

التَّضجُّرُ من تشبُّثِ الكافرين بباطلِهم بعد وضوح الحقِّ لهم

بلاغةُ اسْمِ الفعل في صدر الآية:

قولُه تعالى: ﴿أُفِّ﴾ اسْمُ فعلٍ مضارعٍ دالٌّ على الضَّجَر؛ أيْ بمعنَى: أتضجَّر، وهو صَوْتٌ إذا صُوِّتَ به عُلِمَ أنَّ صاحبَه مُتضجِّر، فهو منقولٌ من صورة تنفُّسِ المتضجِّر لضيقِ نفسِه من الغضب فهي لفظةٌ وتُقالُ عند المُستَقْذَراتِ من الأشياء، فيُستعارُ ذلك للمكروه من المعاني، فقد أضْجَر إبراهيمَ ما رأى من ثباتِهم على عبادتِها بعد انقطاعِ عُذْرِهم، وبعد وضوحِ الحقِّ وزهوقِ الباطل، فتأفَّفَ بهم[2].

المبالغة في رفض الأصنام التي يعبدونها من دون الله

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات ﴿أُفِّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أُفِّ﴾ فيه ثلاثُ قراءات متواترة: ﴿أُفٍّ﴾، و﴿أُفَّ﴾، و﴿أُفِّ﴾[3]، و﴿أُفٍّ﴾ نكرة بمنزلة غاقٍ وغاقٍ[4]؛ لأنَّها مُنوَّنة، فهي بمعنَى التَّضجُّر، وإذا لم يُنوَّنْ فهو معرفة، والتَّنوين فيه على جهة النَّكرة[5]، و﴿أُفَّ﴾ بالفتح دون تنوين، وهي بمنزلة قولهم: مُدَّ يدَك تعبيرًا عن الغضب، و﴿أُفِّ﴾: بمنزلة مُدِّ؛ أيْ هي تأفُّفٌ لما يجده

---

(1) ابن كثير، التَّفسير العظيم: 3/ 174.

(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 88، والزّمخشري، الكشّاف: 2/ 577، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.

(3) الأولى: قراءة نافع وأبو جعفر وحفص عن عاصم بالكسر والتَّنوين: ﴿أُفٍّ﴾، والثّانية: قراءة ابن كثير، وابن عامر ويعقوب بالفتح دون تنوين: ﴿أُفَّ﴾، والثّالثة: قراءة الباقين بالكسر دون تنوين: ﴿أُفِّ﴾، يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/ 306، والسَّمين الحلبي، الدُّر المصون: 7/ 342.

(4) غاقٍ: حكاية صوت الغراب، فإن نكّرتُه نوَّنته، ويُقال: سمعت غاقٍ غاقٍ وغاقٍ غاقٍ، ثمَّ سُمِّي الغراب غاقًا، فيُقال: سمعت صوت الغاق، ينظر ابن منظور، لسان العرب: (غوق).

(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 234.

من أمر يُزعجُه، ومعناه: يقول: أُفٍّ أفٍّ[1]، ولَمَّا كان إبراهيمُ ﵇ أُمّةً وحدَه، فقد كان رفضُه للباطل ليس كمثله رفضُ غيرِه له: كان الإبلاغُ في رفضِ تلك الأصنام وعبادتها وذمّ ذلك كله وذم عابديها بداخلِ النَّفس والحِسّ؛ على ما تُصوِّره تلك القراءاتُ الثلاثُ: صورةً لذلك، واللّه أعلم بسر كتابه وما دلَّ عليه القيدُ في الآية السابقة في قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾؛ مِن حقارة العابد والمعبود والعبادة: صرَّحَت به هاتيك الآية. فبلاغة القراءات هنا في جمع كلّ أنواع التضجر بشتى صوره من إبراهيم ﵇ لهذه المعبودات ولِمَن عبدوهم.

دلالةُ الخطاب في ﴿لَّكُمۡ﴾:

التَّضجّرُ من عَبَدةِ الأصنام

دلَّت اللّام في ﴿لَّكُمۡ﴾ مع كافِ الخطاب للجمع على بيان المُتأفَّفِ بسببِه؛ أيْ: أفٍّ لأجْلِكم أيّها العابدون لتلك الأصنام الصَّمّاءِ البَكْماء الَّتي لا تنفعُ ولا تضرّ[2]، وهذا مبالغةٌ في التأفُّف من الأصنام وعبادتها؛ لأنّ التّأفف لا يتعلّق بالأشخاص في الأصل.

دلالةُ اللّام في ﴿وَلِمَا﴾:

الاستقلالُ بالذَّمِّ دليلُ كمالِ رفضِ المذموم

اللّامُ في ﴿وَلِمَا﴾ للاخْتصاص؛ أيْ: أفٍّ لتلك الأصنام المعبودةِ بدون وجه حقٍّ من أولئك المُستَقْذَرين، فهو تأفّفٌ معنويٌّ من أحجارِهم ومنهم، لقولِ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التَّوبة: 28][3]، وذِكْرُ اللّامِ يُشعِر باستقلال تسلُّط معنى قوله: ﴿أُفّٖ﴾ لـ (ما تعبدون)؛ لأنَّ المقصود كمالُ ذمِّ العابد والمعبود والعبادة جميعًا؛ لأنَّ الذّامَّ هنا أُمَّةٌ وحدَه.

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 121، وأبو بكر الأنباري، الزّاهر: 1/ 181 - 182.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 450.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4890.

نكتةُ التَّعبير بـ (ما) وعطفِها على ما قبلَها:

الأصـنـامُ وعابدوها بَلَغوا غايةَ النَّجاسة والقَذارة

(ما) في قوله: ﴿وَلِمَا﴾ اسْمٌ موصولٌ بمعنَى (الَّذين) للمبالغة في التَّأفّفِ والتَّضجُّر من المعبودات، بما فيها مِن إبهام يُشعر بغاية حقارة ما تصدق عليه (ما)؛ كأنَّه والعدم سواء؛ فهي حجارةٌ لا تنفعُ شيئًا ولا تضرُّ، وعُطِفتْ على ما قبلَها للاشْتراك في معنَى القذارة المُستَوْعِبِ للمعبوداتِ وعابديها.

إيثارُ الفعل ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الاستمرارُ في عبادةِ غيرِ الله غايةُ الكِبْر والضَّلال

أتى بيانُ النَّظمِ الكريم بالفعل ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ وبصيغة المضارع للدَّلالةِ على انصراف قوم إبراهيم إلى عبادة غير الله، وأصرُّوا على الكفر رغم أنها لا تنفع ولا تضر، ولبيان اسْتمرارِهم على ما هم عليه من الضَّلال والكِبْرِ رغم تلاشي كلِّ حيلةٍ لهم تُنجدُهم عمّا هم عليه من الكُفر، وبُزوغِ كلِّ أسبابِ ظهورِ الحقِّ وانْبلاجه في دعوةِ إبراهيمَ عليه السلام، وبالجملة: فإنَّ ما قيل في نظير ذلك في الآية السابقة في قوله: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ﴾ يُقال هنا.

بلاغةُ الاسْتفهام في الآية:

مع شدة وضوح الجُرْمِ يكونُ علوُّ الإنكار

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ لإنكار الوقوع؛ أيْ: بمعنَى النَّفي مع التَّوبيخ، والتَّحريضِ على التَّفكيرِ والتَّعقُّل[1]؛ لأنَّ هذا مُؤسَّسٌ على تنزيلهم الأصنام منزلةَ الإله الحقِّ، وذلك لا يكون من عاقلٍ أبدًا.

سرُّ إيثار الفعل ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ مادّة وصيغةً:

العقلُ أداةُ التَّفكيرِ الرَّشيد، فإذا عُطِّلَ ضلَّ صاحبُه وتاه

لَمّا تسبَّبَ عن فعلِهم هذا وضوحُ أنَّه لا يُقِرُّ به عاقل، أنكرَ عليهم ووبَّخهم - كما تقدَّم - على ترك التَّفكيرِ باستخدامِ آلتِه وهو العقل، فكان في ذلك تنبيهٌ لهم على أنَّ فسادَ ما هم عليه يُدرَكُ ببديهة العقل، وأين أنتُم من استعمال عقولكم وتجديد تسليطها على

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4890.

الأشياء وفيما يعود عليكم بالسَّدادِ والرَّشاد، وأنتم شيوخٌ قد مرَّت بكم الدُّهور وحَنكتْكُمُ التَّجارب[1] ؟!

نكتةُ إظهارِ اسْم الجلالة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾:

تشنيعُ عبادةِ غير الله

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ أظهرَ اسْم الجلالة لزيادةِ البيانِ ولمزيد اسْتقباحِ وتشنيعِ عبادةِ غيره، وما فعله إبراهيمُ ﷺ لم يكن إلّا لإظهار وحدانيَّة اللّه، وانتصارًا لدينه[2]، ولكمال غيابِ جلاله وجماله تعالى من قلوب القوم؛ فكانوا فقيرينَ إلى استحضارِ ذلك؛ إحسانًا إليهم، ورحمةً بهم، وذلك يتحقق بإعادة اسم الجلالة بلفظه دون ضميره.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أفٍّ) و(أتضجَّرُ):

أفٍّ كلُّ مُسْتَثقَلٍ ولو كان قليلًا، والتَّضجُّر تبرُّمٌ مع قَلَقٍ من غمٍّ

أفّ: صوتٌ من الأصوات، وفيه لغاتٌ عديدة، والأفَفُ: الضَّجَرُ، وأفّ: مأخوذٌ من الأفَف، وهي الشَّيءُ القليل، وأفّ: معناه القِلَّة[3]، والعرب تقول: جعل فلان يتأفَّف من ريحٍ وجدها أُفٍّ أفٍّ[4]، وأصله: نفخُك للشَّيء يسقطُ عليكَ من تراب أو رماد، وللمكان تريد إماطةَ أذًى عنه، فقيل لكلِّ مُستَثقَلٍ مُتضجَّرٍ منه[5]، والضَّجَرُ: من ضَجِرَ يَضْجَرُ ضَجَرًا، وهو أصلٌ يدلُّ على اغْتمام بكلام، وضَجِرَتِ النّاقةُ: كثُرَ رُغاؤها، يُقال: رجُلٌ ضَجِرٌ وضَجُورٌ؛ أَيْ: قلِقٌ، فالضَّجَر: القَلَقُ من الغمّ، وأضْجَرَه فلان: سبَّب له القلق، فهو مُضْجَر، وتضجَّر: تبرَّم، فهو ضَجِرٌ ومُتضجِّر[6].

العقل والفهم:

العقلُ: هو القوَّةُ المُتهيِّئَةُ لقَبول العلم، ويُقال للعِلم الَّذي يستفيدُه

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 443.
(2) الآلوسي، روح البيان: 9/ 65، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 105.
(3) أبو بكر الأنباري، الزّاهر: 1/ 180، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفّ).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 121.
(5) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 147.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ضجر).

العقلُ أوسعُ مدلولًا من الفَهْم، ومَن لا عقلَ له سديدًا لا فهمَ له رشيدًا

الإنسانُ بتلك القوَّة: عقلٌ، وهو العلمُ الأوَّلُ الَّذي يزجُرُ عن القبائح، وكلُّ مَنْ كان زاجرُه أقوى كان أعقل، والعقلُ يمنع صاحبَه عن الوقوعِ في القبيح ويكون سببَ هدايته، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: 43]، وهو من قولك: عقلَ البعيرَ إذا شدَّه فمَنعَه من أن يثور، ولهذا لا يُوصَفُ اللهُ به، والعَقْلُ: الحفظ، يُقال: أَعْقَلْتُ دراهمي؛ أيْ: حفظتُها، ومنه: العقلُ يحفظُ صاحبَه من القبائح، ويُقال: عَقَلَ الصَّبيُّ إذا وجدَ له من المعارف ما يفارقُ به حدودَ الصِّبيان، وخلافُ العقلِ الحُمق، والبُعدُ عن الحقِّ، قال تعالى في ذمِّ الكافرين: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٧١﴾ [البقرة: 171][1].

والفَهْمُ: تصوُّرُ المعنَى من لفظِ المخاطِب، والفَهْمُ: إدراكٌ خفيٌّ دقيق، وهو أخصُّ من العلم، والفَهْمُ: هو العلمُ بمعاني الكلام عند سماعه خاصَّة؛ ولهذا يُقال: فلانٌ سيّئُ الفَهْم، إذا كان بطيءَ العلم بمعنى ما يسمع، والفهمُ لا يُستعملُ إلّا في الكلام، ويمكن استعمالُه في غيره كالإشارة؛ تقول: فهمتُ ما قلتَ، وفهمتُ ما أشرتَ به إليّ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 366 - 367، والرّاغب، المفردات: (عقل).

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 414، والكفويّ، الكلّيّات: 3/ 357.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ [الأنبياء: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لَمّا بيَّن اللهُ تعالى ما أظْهرَه إبراهيمُ عليه السلام من دلائل التَّوحيد، وإبطالِ ما كانوا عليه من عبادة التَّماثيل؛ أتبعَه بما يدلُّ على جَهْلِهم، وأنَّهم قالوا: حرِّقوه وانْصُروا آلهتكم[1].

عندما يُبهَتُ الظّالمون يستخدمون البَطْشَ والتَّعذيب

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرِّقُوهُ﴾: (حرق) قولُهم: حرَقتُ الشَّيءَ إذا بَرَدْتَ وحَكَكْتَ بعضَه ببعض، قال تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ [طه: 97]؛ أيْ: لَنَبردَنَّه بالمبارِد، والحَرَقُ: النّار، وتحرَّقَ الشَّيءُ بالنّارِ واحْتَرَقَ، والاسْمُ: الحُرْقةُ والحَريق[2].

2) ﴿وَٱنصُرُوٓاْ﴾: نَصَرَهُ على عَدُوِّه ينصُرُهُ نَصرًا، والاسْمُ النُّصْرة، النَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْن، قال تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصَّفّ: 13]، ونُصْرَةُ اللهِ للعَبْد ظاهرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51][3]، وقوله تعالى: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ أي: انْصروها بالانْتقامِ من إبراهيمَ عليه السلام الَّذي فعل بها ما فعل من التَّكسيرِ والإذلال[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

قال بعضُهم لبعضٍ لَمّا أعْيَتْهُمُ الحيلةُ في دفعِ إبراهيمَ عليه السلام، وعجزوا عن مجادلتِه، وضاقَتْ عليهم مسالكُ المناظرة: حرِّقوا إبراهيم، انْصرافًا منهم إلى طريق الظُّلم والغَشم، وميلًا منهم إلى

عَجزُ الظّالمينَ عن مُقارعةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ يدفعُهم للانْتقام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 157.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّازي، مختار الصّحاح: (حرق).
(3) الرّاغب، المُفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (نصر).
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 567.

إظهارِ الغَلَبَة بأيّ وجهٍ كان، وعلى أيِّ أمرٍ اتَّفق، ولهذا قالوا: انْصروا آلهتَكم من إبراهيمَ الَّذي كسَّر أصنامَكم وأذلَّها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة في صدر الآية:

المُبطِلُ إذا قُرِعت شُبهتُه بالحُجَّةِ لجأ إلى المناصَبة

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ اسْتئنافٌ بعد اتّصالٍ مفهوم من السّياق، تقديره: (قال بعضُهم لبعضٍ لَمّا عجزوا عن المحاجَّة: ﴿حَرِّقُوهُ﴾)، وهذا دَيْدَنُ المُبطِلِ المحجوجِ[2]، وهم قد صرَّحُوا لإبراهيم بما قصدَه من أمرهم بسؤال كبير الأصنام نوعَ تصريحٍ في قولهم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، وهو عليه السلام قد استثمر ذلك، بتوجيههم توجيهًا لطيفًا إلى الموازنة بين معبودهم ومعبوده، ثم علَتْ نبرةُ حِجاجِ إبراهيم وانفعالِه بالتوحيدِ مع ضميمة شديد كرهه لغيره؛ فأبدى تضجُّره بالقول والفعل المحسوسَيْن على ما تُفهِمه القراءات الثلاث في قوله: ﴿أُفّٖ﴾؛ فكان ذلك كلُّه من شأنه أن يُحرِّك المُتلقّين إلى أن يسألوا عن موقف القوم من ردِّ إبراهيم، فكانت هذه الآية استئنافًا بيانيًّا.

سرُّ إيثارِ الفعل ﴿حَرِّقُوهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الحُجَّةُ مُحرِقةٌ، والنارُ كذلك مُحرِقةٌ

التَّحريقُ: المبالغة في الإحراق، ولذلك قالوا: حرِّقوه، فهم يريدون المبالغةَ في تعذيبه بالإحراق - أيْ حرقًا مُتلفًا - وإكثارِ حَطَبِه؛ لما في قلوبهم من المبالغةِ في كُرهه، فقدِ امتلأتْ قلوبُهم غَيْظًا وحقْدًا على خليلِ اللّه عليه السلام، وجعلوا ذلك التَّحريقَ في مقابلِ ما قامَ به من تكسيرٍ وتحطيمٍ لأصنامهم، حتَّى جعلَها جُذاذًا فتاتًا مُتكسِّرًا تفرَّقت أجزاؤها[3]، وذلك أنه قد أحرق قلوبهم بنيران محاجَّته وحُجَجِه.

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 567.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 578، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 714.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4890 - 4891.

علّة إسنادِ الأمرِ بالإحراقِ إلى جميعِهم:

إحراقُ القوي ليس كإحراق الضعيف

أَسْنِدَ قولُ الأمر بإحراقه إلى جمعهم؛ لأنَّهم قبلوا هذا القولَ وسألوا مَلِكَهم - وهو النَّمروذ - إحراقَ إبراهيمَ ﵇ فأمَر بإحراقه؛ لأنَّ العقابَ بإتلافِ النُّفوس لا يملكُه إلّا وُلاةُ أمورِ الأقوام[1]، ولأن في قلوبهم وأنفسهم كمال إحساس بضعفهم جميعًا في مقابلِ واحدٍ فقط؛ هو إبراهيم ﵇؛ لأنَّ اللّه قد جعلَه أُمَّةً في قوله وفعله، وفي أبصار قومه وبصائرهم.

دلالةُ عطف ﴿وَٱنصُرُوٓاْ﴾:

إنما جُعِلَ اللسانُ على الفؤاد دليلًا

قولُه تعالى: ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أمرٌ منهم للأخذِ بثأرِهم عن الحَطْم الَّذي أوْقعه إبراهيمُ ﵇ في آلهتِهم، حيث صغَّرَ به أمرَهم، وأضْعفَ به شأنَهم، وأذلَّ كبرياءهم[2]، وقد سمَّوْا هذا نَصْرًا بناءً على زعمِهم ووهمِهم، وإن كان في حقيقته هزيمةً نكراء، وكِبْرًا في الدِّفاع عن ضلالهم، فعطفُ هذه الجملة على ما قبلها من عطف العلّة والسبب على المعلول والمُسبِّب؛ فهي مِن تمام ما قبلها، وسبحان مَن أظهر ضعفهم وباطلهم على ألسنتهم؛ فكيف تُنصر الآلهةُ؟، أهي الناصرةُ أم المنصورةُ؟!

فائدةُ الإضافةِ في ﴿ءَالِهَتَكُمۡ﴾:

بيانُ كِبْرهم وإثارتهم العواطف المنحرفة للانتقام

أفادت إضافةُ (آلهة) إلى ضمير المخاطَبين بقوله تعالى: ﴿ءَالِهَتَكُمۡ﴾ لإثارةِ الحَميَّةِ الجاهليَّة والعصبيَّةِ الطّائشة في نفوس الظّالمين للمسارعة بالانتقام من إبراهيمَ ﵇ الَّذي حطَّم آلهتَهم وكسَّرَ معبوداتِهم الباطلة.

بلاغةُ جملةِ الشَّرطِ ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾:

ختمَ النَّظمُ الكريمُ الآيةَ بجملةِ الشَّرط ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾؛ أيّ:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 105.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4891.

حثُّ الظّالمين على الثّأر من إبراهيمَ عليه السلام

إنْ كنتم ناصرينَ آلهتَكم نصرًا مُؤزَّرًا فاخْتاروا له ذلك، وإلّا فرَّطتم في نُصرتها، وكأنَّكم لم تفعلوا شيئًا ما فيها، وذلك لحثِّهم على تحريقه نُصرةً لآلهتِهم، فأخَّر جملةَ الشَّرطِ لهذا الغرض، ويُشعرُ بذلك العدولُ عن: إنْ تنْصروا آلهتكم فحرِّقوه[1]، فجوابُ الشَّرط مُقدَّر، والمُقدَّر كالثابت، وفي نظم جملة الشَّرط مؤخرةً إطنابٌ؛ فإن بها يتكرر معنى الأمر بالإحراق ونُصرة الآلهة؛ إبلاغًا في دفع ما أحسُّوا به مِن كمال ضعفهم وفسادهم وحقارتهم أمام إبراهيم عليه السلام.

إيثارُ أداةِ الشَّرط ﴿إِن﴾:

قطعُ أيِّ تردُّدٍ في إحراقِ الدّاعي إلى الحقّ

آثرَ نظمُ الآية استعمالَ أداةِ الشَّرط ﴿إِن﴾ للدَّلالة على أنَّه كان في بعضِهم تردُّدٌ أو عطفٌ أو عدمُ إيمانٍ جازم بما هم فيه من الضَّلال[2]، ويجوز أن تكون على معنى الفرض والتقدير؛ أيْ: بمجرَّد توهُّم إرادة فعل النُّصرة فاختاروا له ذلك التحريق.

دلالة ﴿كُنتُمۡ﴾:

من شأن الرؤساء تحريض الأتباع

عَبَّر التنزيل الحكيم بمادة الكون - وكان من الممكن أن يُقال: (إن فعلتم)؛ لأن القائلين أرادوا تحريك مخاطبيهم بقوة إلى فعل النُّصرة بالتحريق؛ والمعنى: إن كان من شأنكم وديدنكم وفي طبعكم ومُكنتكم أن تفعلوا ذلك؛ أيْ: أنتم أهل لذلك كلِّه، وإلّا فالمهانةُ والعارُ والشَّنارُ[3]، واتركوا الجدالَ فإنَّه يُورِثُ ضدَّ ما تريدون، ويُؤثر عكسَ ما تطلبون[4].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الحَرْق والتَّحريق:

الحَرْقُ إيقاعُ الحرارة في الشَّيء، والتَّحريقُ المبالغةُ فيه

الحريقُ: النّار، والحَرَقُ: فعلُ الإحراق، يُقال: أحْرَقَ كذا فاحْترق،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 65.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4891.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4891.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 444.

قال تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج: 22]؛ أيْ: عذابَ النّار، فحرقُ الشَّيء: إيقاعُ حرارةٍ فيه من غيرِ لهيب، كحرقِ الثَّوب بالدَّقّ[1]، والتَّحريقُ: المبالغةُ في حرقِ الشَّيء، قال تعالى: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ [طه: 97]، حتَّى إنَّه اسْتُعيرَ للمبالغةِ في الأذيَّة في قوله: أحرقَني بلومِه: إذا بالغَ في أذيّتِه بلَوْم[2].

(1) ابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات: (حرق).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حرق).

﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اللهُ يتولَّى مَن صدَعَ بالحقِّ بغَوْثِه وولايتِه

لَمّا قرَّر الظّالمونَ تحريقَ إبراهيمَ عليه السلام بقولهم: حرِّقوه، جاء الغَوْثُ الإلهيُّ بأمرِ اللّه النّار - وهي خَلْق من خَلْقه - أن تكون بَرْدًا وسلامًا فلا تصيبُه بضُرّ، ويَسلَمُ من بردِها وحرِّها وحَرْقِها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرۡدٗا﴾: بَرَدَ يَبرُدُ بَرْدًا، فهو بارد، والبَرْدُ خلافُ الحرِّ، وبَرَدَ الماءُ حرارةَ جَوْفي يَبْرُدُها[2]، ويُقالُ: برَدَ كذا؛ أي: اكْتسبَ بردًا، وبرَّدَ الماءَ؛ أيْ: أكسبَه بَرْدًا؛ نحو: ستبردُ أكبادًا وتبكي بواكيًا[3].

2) ﴿وَسَلَٰمًا﴾: سَلِمَ يَسْلَمُ سلامةً وسلامًا، والسِّلْمُ والسَّلامةُ: التَّعرّي من الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشّعراء: 89]؛ أيْ: مُتعرٍّ من الدَّغَل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: 71] فهذا في الظّاهر[4]، وقوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾؛ أيْ: لا حرَّ فيها ولا إحراق، ومُتعرّية من البردِ المؤذي، فيسلم منها إبراهيمُ عليه السلام[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

اللهُ يدافع عن عباده المؤمنين

أضْرَمَ الظّالمونَ النّار، وذهبوا بإبراهيمَ عليه السلام إليها، فعند ذلك أمرَ اللّهُ عز وجل النّارَ أن تكون بَرْدًا لا تحرقه، وسلامًا عليه مع وجودِ بردِها وانتفاءِ حرِّها، معجزةً من اللّه لنبيِّه وخليلِه إبراهيم عليه السلام[6].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 66.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برد).
(3) هذا عجز بيت لمالك بن الرّيب، وصدره: وعطّل قلوحي في الرِّكاب فإنَّها، وهو في: ابن فارس، المُجمل: 1/ 124، والزَّمخشري، أساس البلاغة، ص: 19.
(4) الرّاغب، المُفردات: (سلم).
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 578.
(6) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 567.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الجملة ﴿قُلْنَا﴾:

مـعـيـة الـلـه تحفظ صاحبها وتصونه

جملةُ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مفصولةٌ عن الّتي قبلَها؛ إمّا لأنَّها وقعتْ كالجواب عن قولهم: حرِّقوه، فأشْبهت جُمَلَ المجاوَرة، وإمّا لأنَّها استئنافٌ عن سؤالٍ ينشأُ عن قصَّةِ التَّآمُرِ على الإحراق، وبذلك يتعيَّن تقديرُ جملةٍ أُخرى؛ أيْ: فألْقَوهُ في النّار، قلنا: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1]، والذي يُراجِعُ السِّباقَ يجدُ استحضارَ إبراهيمَ عليه السلام لاسم الجلالة الدّالِّ على الإله الحقِّ الذي يدعو قومَه إلى الاستسلام له والإيمان به، وهذا من شأنه أن يُحرِّكَ المُتلقّي اليقظ إلى أن يسأل عن معيّة اللّه لعبده إبراهيم الذي يجاهد في سبيله هذا الجهاد الذي آلَ به إلى التّحريق ووضعه في النار؛ فكان قولُه: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ﴾ الآية؛ جوابًا لهذا، فهذه الآية استئنافٌ بيانيٌّ.

دلالة موقع الآية الكريمة:

الإسـراعُ إلى الإحـسـان من كمال الإحسان

إذا كانت آية: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ معطوفة على آية: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ كانت آية: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ اعتراضًا بينهما؛ فهي مقدّمة من تأخير؛ لأن الأصل الإجمالُ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيْنَٰهُ﴾، ثم التّفصيل: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وقد دلّ وقوعُها اعتراضًا على إسراع القدرة الإلهية إلى حفظ إبراهيم وحمايته ورعايته والعناية به.

علّةُ إسنادِ الفعل إلى ضميرِ العظمة:

مَن يُكرمه اللهُ فلا مُهين له

لَمّا أظهرَ القومُ غايةَ ظُلمهم وبطشهم بإبراهيمَ عليه السلام بأمرهم بإحراقِه بالنّار، أراد اللّهُ الّذي له القوّةُ جميعًا سلامة إبراهيم عليه السلام

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 106.

منها؛ فعبَّر عن ذلك بقوله سبحانه اسْتئنافًا لجوابِ مَنْ زادَ تشرّفُه إلى ما كان من أمره بعد الإلقاء فيها: ﴿قُلۡنَا﴾؛ أيّ: بعظمتِنا وبأمرِنا النّافذِ الَّذي لا رادَّ له[1]، ثمّ إنّ القوم أرادوا بتحريق إبراهيم إهانته؛ لأنّه أهان آلهتهم وأهانهم بحججه العقلية الرائعة الواضحة المُقنِعة؛ فأراد اللّه سبحانه تعظيمه بجعل النار بردًا وسلامًا، ونبَّه على ذلك في أنف الكلام؛ فأسند القول إلى صيغة العظمة: ﴿قُلۡنَا﴾.

بلاغةُ النِّداء ﴿يَٰنَارُ﴾:

لَمّا كانتِ النّارُ تنفعلُ لما أرادَه اللّهُ منها، كما ينفعلُ مَنْ يعقلُ؛ عبَّر القرآن الكريم عن ذلك بالقولِ لها والنِّداء؛ فقال ﷻ: ﴿يَٰنَارُ﴾[2].

دلالةُ الأمرِ ﴿كُونِي﴾:

جُعلَتِ النّارُ لمطاوعتِها فعلَ اللّه وإرادته كمأمورٍ أُمِرَ بشي فامتثلَه[3]، وهذا دليلٌ على أنَّ كلَّ شيءٍ مُسخَّرٌ للّه وبأمرِ اللّه، كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الفتح: 4]، وأمرُه تعالى نافذٌ؛ بل سريع النَّفاذ: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: 50].

كلُّ شيءٍ تحت أمرِ اللهِ ووفق حُكْمِه

نكتةُ الجمعِ بين كونها بَرْدًا وسلامًا:

قولُه تعالى: ﴿بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾؛ أيّ: ذاتَ بَرْدٍ وسلام، فبُولِغَ في ذلك، فكان ذاتُها بردًا وسلامًا[4]؛ على ما يُفهِمه التعبير بالمصدر، ولَمّا كان البردُ قد يكون ضارًّا بإبراهيم ﵇، قال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾؛ فكانت كذلك، فلم تحرق منه إلّا وثاقَه[5].

ليس كمثل اللُّطفِ بالكُمَّل اللطفُ بغيرهم

قولُه: ﴿بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ بين التشبيه وعدمه:

أظهرَ اللّهُ تعالى معجزتَه لإبراهيمَ ﵇ إذْ وجَّه إلى النّارِ تعلُّقَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 445.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 451.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 578.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 451.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 445.

الإرادةِ بسَلْبِ قوَّةِ الإحراق، وأن تكون بَرْدًا وسلامًا إن كان الكلامُ على الحقيقة، أو أزالَ عن مزاجِ إبراهيمَ التَّأثُّرَ بحرارةِ النّار، إن كان الكلامُ على التَّشبيه البليغ؛ أيْ: كوني كبَرْدٍ في عدم تحريقِ المُلْقَى فيك بِحَرِّك، وأمّا كونُها سلامًا، فهو حقيقةٌ لا محالة، وذَكَر ﴿وَسَلَٰمًا﴾ بعد ذِكْرِ البَرْد كالاحْتراس؛ لأنَّ البَرْدَ مُؤْذٍ بدوامه ربَّما إذا اشْتدّ، فعقَّب ذِكْرَه بذِكْر السَّلامِ لذلك، وإنَّما ذكرَ ﴿بَرۡدًا﴾، ثمَّ أتبع بـ ﴿وَسَلَٰمًا﴾، ولم يقتصر على ﴿بَرۡدًا﴾ لإظهارِ عجيبِ صُنعِ القُدرة الإلهيَّة إذْ صيَّر النّارَ برْدًا[1].

قدرته تعالى في سَلْبِ خاصيَّة النار وجَعْلِها بردًا وسلامًا

سرُّ التَّخصيص بـ ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ذِكْرًا ولفظًا:

المبالغةُ في حصولِ النَّفعِ لإبراهيمَ فحَسْب

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يتنازعُه بردًا وسلامًا، وهو أشدُّ مبالغةً في حصول نفعهما له[2]، فجاء التَّقييدُ به؛ لأنَّ المُرادَ اختصاصه عليه السلام بهذا دون غيره[3]، وقال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ دون (عليه)؛ لأنَّ لجلال اللّه وجماله حضورًا عظيمًا في قلبه؛ إذ هو أمة وحده، ودون (النبي إبراهيم) أو (الرسول إبراهيم)؛ للدلالة على شدة قرب معيته تعالى منه، ووصفُ النّبوة والرسالة يُوهِمُ وجودَ وسيطٍ بين إبراهيم وبين اللّه ربه، وغيابُ ذلك ونحوه يُفْهِمُ كون اتصاله بربه مِن غير وسيطٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بحرفِ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾:

إحاطة عناية اللّه سبحانه وتعالى بإبراهيم

لَمّا كان المرادُ حياةَ إبراهيمَ عليه السلام بالمحافظة عليها؛ فقد عبَّر القرآن الكريم بحرف الاسْتعلاء؛ فقال: ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ أيْ: فكان ما أرَدْنا من سلامته[4]، والنَّجاةِ بحياته تامَّة دون أن يصيبَها أيُّ إحراقٍ أو إيذاء؛ فقد كان إبراهيم عليه السلام مُحاطًا بعناية اللّه ربه سبحانه وتعالى.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 106.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 106.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 445.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 445.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البرد والصِّرّ والزَّمهرير:

الثَلاثةُ مشتركةٌ في معنَى البرودة، والصِّرُّ أشدُّها فهو يُهلِكُ الحرْثَ، وأوسطُها الزَّمهرير

البردُ خلافُ الحرِّ[1]، والصِّرُّ بكسر الصّاد بَردٌ يضربُ النَّباتَ والحَرْث، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ [آل عمران: 117]، وريحٌ صَرْصَرٌ؛ أيْ: باردة، قال تعالى: ﴿رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ [فصلت: 16] لفظُه من الصَّرّ، وذلك يرجع إلى الشِّدَّةِ لما في البرودةِ من التَّعقُّد[2]، والزَّمهرير: شدَّةُ البَرد، قال تعالى: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾ [الإنسان: 13][3]، فأدنى هذه الثلاثة هو البرد، وذلك أقربُ إلى أن تكون فيه السلامة.

السَّلام والأمن والأمان:

السَّلامُ خُلوصُ الآفاتِ الظّاهرة والباطنة، وهو سبيلٌ للأمانِ من الخوف

السَّلامُ والسَّلامةُ نقيضا الهلاك، والخُلوصُ من الآفاتِ الظّاهرة والباطنة، يُقال: سَلِمَ الرَّجُلُ من عِلَّته، إذا كان يُخافُ عليه الهلاكُ منها، أو على شيءٍ من جسده، ويُقال للمتبرِّئ من العَيْب: سالمٌ من العَيْب[4]، والأمانُ والأمنُ والأمانةُ في الأصل مصادر، ويُجعَلُ الأمانُ تارةً اسمًا للحالةِ الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ في الأمن، وتارةً اسمًا لما يؤمَّنُ عليه الإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: 72]، وأصلُ الأمنِ والأمان: طُمأنينةُ النَّفْسِ وزوالُ الخوف، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران: 97][5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برد).
(2) الرّاغب، المُفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (صرر).
(3) الرّازي، مختار الصّحاح: (زَمْهر).
(4) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 281 - 282، والجُرجاني، التَّعريفات، ص: 350.
(5) الرّاغب، المُفردات: (أمن).

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ [الأنبياء: 70]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كـادوا لإبراهيم بعدما أوجعهم في أصنامهم

لَمّا قدَّمَ ما نبَّه على شدَّةِ الاهتمامِ به لإفهامه أنَّه حكمَ بسلامتِه من كيدِهم عند همِّهم به، فكيف بما بعده؟ قال عاطفًا على ما تقديرُه: (فألقوه فيها ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ بإضرارِه بالنّار ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾)(1)، وهذه الآيةُ تلخيصٌ شديدٌ لمقطع القصة، ثم هي ترجعُ إلى قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾؛ رجوعًا يُفهِمُ أن قومه فهموا هذا الكيد واستوعبوه، فقابلوه بكيدٍ آخَرَ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَيۡدٗا﴾: (كيد) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معالجةٍ لشيءٍ بشدَّة، قال أهلُ اللُّغة: الكَيْدُ: المعالجةُ، قالوا: وكلُّ شيءٍ تعالجُه فأنت تكيدُه، هذا هو الأصلُ في الباب، ثمَّ يُسمُّونَ المَكْرَ كَيْدًا، قال اللّهُ تعالى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ [الطُّور: 42](2)، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾؛ أيْ: مَكْرًا عظيمًا بالإضرار به(3).

2) ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾: (خسر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على النَّقص، فمن ذلك: الخُسْر والخُسران، ويُقال: خَسَرْتُ الميزانَ وأخْسَرتُه، إذا نَقَصْتُه، والخُسْرُ والخُسْران: انتقاصُ رأسِ المال، ويُنسَب ذلك إلى الإنسان، فيُقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل فيُقال: خَسِرت تجارته، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢﴾ [النّازعات: 12](4)، وقوله تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 446.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 715، والشّوكاني، فتح القدير: 3/ 567.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (خسر).

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾؛ أيْ: أخْسَرَ من كلِّ خاسر، بأن ردَدْنا مكرَهم عليهم، فجعلْنا لهم عاقبةَ السُّوء، كما جعلْنا لإبراهيمَ عاقبةَ الخير(1).

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ حارسٌ أولياءَه من كيد الكائدين

أرادَ عَبَدَةُ الأصنامِ المَكرَ بإبراهيمَ ﷺ بإضرارِه بالنّار، فجعلَهمُ اللّهُ بما له من الجلال همُ الأخْسرين، وذلك أنَّهم أرادوا بما صنعوا له من العذاب أن يكون أسْفلَ منهم، فجعلَهم اللّهُ همُ الأسفلَ بفضيحتهم في الدُّنيا الموجبةِ للعذابِ في الأُخْرى، فكانَ ذلك بنفسِ فعلهم الَّذي كادوه به(2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في صَدْرِ الآيةِ:

عطفتِ الواوُ إرادةَ كيدِهم على فعلِهم بتحريقِ إبراهيم

في قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ جاءت الواوُ عاطفةً على ما تقدَّم: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ فقد كادوا له بتحريقه في النّار وجعلِه أمام أعْيُنِ النّاس، فهذه إرادتهم الَّتي أبْطلَها اللّه، وانقلب كيدُهم عليهم بأمرِ اللّه ونُصرته لنبيِّه(3)، فهذه الواو رشَّحَت معنى الكيد على الأمر بالتّحريق وبالنّصرة، وهذا فيه معنى التّعليل للتّحريق؛ فهو ليس مجرد إحراق؛ وإنّما هو إحراق شديد؛ لأنَّ دافعه الكيدُ بإبراهيم ولإبراهيم؛ فتكون جملةُ القول ومقوله: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ اعتراضًا بين الكلامَيْن.

نكتةُ التعبير بالإرادة وصيغتها:

من شأن أهل الباطل المبالغة في الانتقام

الإرادةُ تسبقُ العَزْمَ على القيام بالفعل، فقوله: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾، وقد تحقَّقت فيهم تلك الإرادة، وثبتت كأنّها الأصل فيهم،

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 567.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 446.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 446.

ولهذا وردت فعلًا ماضيًا؛ أيْ: هيَّؤوا ودبَّروا له ما يوقعونَه في فخِّ مكرِهم بما صنعوا له من العذاب، وبما يحقّقُ إيذاءه بتحريقه في النّار، دون أن يكون له حيلةٌ يستطيع بها الخلوصَ ممّا صنعوه له، ولذلك جاءت الإرادةُ هنا مُتَّسِقةً مع قولهم: حرِّقوه وانْصُروا آلهتَكم، وهم ضامنون لهذا التَّحريق واثقون من نصرِهمُ الكاذب وهذا كله مُؤسَّس على إدراكهم كيده لأصنامهم.

سرُّ التقديم في ﴿بِهِۦ كَيۡدٗا﴾:

المبالغةُ في إنزالِ العذابِ بمَن أقامَ الحُجَّةَ عليهم

جاءَ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿كَيۡدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ للمبالغةِ في اهتمامِهم وحرصهم على شخص إبراهيمَ عليه السلام في إنزال كيدِهم به، بما دبَّروه له من التَّحريق بالنّار؛ لأنَّ القضية عندهم آلت إلى أن تكون قضية أشخاص لا قضية عقيدة؛ لينحرفوا عن القضية الأُمِّ؛ لأنَّهم عالِمون بخسارتهم فيها، لكنَّها العصبية المقيتة التي تدفعهم إلى البقاء على فساد اعتقادهم، وذلك من سمات أهل الباطل.

نكتةُ تنكير ﴿كَيۡدٗا﴾:

المكرُ العظيمُ بالإضرار بالنّار

تنكيرُ قوله: ﴿كَيۡدٗا﴾ للدَّلالة على المكر العظيم الَّذي أرادوا إيقاعه بإبراهيم[1]، وكان هذا الكيدُ أشدَّ أنواع العذاب وأفتكَها في الجسد، وهو التَّحريقُ بالنّار الَّتي تتلفُ الجَسد ولا تُبقي فيه ولا تَذَرُ، تعبيرًا عن شدَّةِ غَيْظِهم من إبراهيمَ عليه السلام وقسوة قلوبهم الَّتي تأجَّجتْ حقدًا على مَنْ حطَّمَ آلهتَهم وأذلَّها وأذلَّهم.

دلالةُ الفاء في ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ﴾:

التَّعقيبُ المباشر لما أرادوه من الكيدِ بإبراهيمَ وتحريقه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ﴾ للتَّعقيبِ المباشر لما أرادوه من كيدِهم بإبراهيمَ عليه السلام بتحريقه بالنّار؛ فقد جاء الحُكمُ الإلهيّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 715.

بسلامته من كيدِهم عند همِّهم به، فكيف كذلك بما بعده[1]؟ والفاء أفادت أن هذا الجَعْل قد كان عقب تحقُّق الإرادة منهم وفيهم، فالفاءُ إفصاحٌ إلى حدٍّ ما بما أَفْهَمَه نظمُ آية: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ اعتراضًا على ما سبَق بيانه، وكأن إفهام المعنى بالاعتراض لمتلقّين، وإفهامه بالفاء لآخرين.

سرُّ إيثار (جَعلْنا) مادَّةً وصيغةً:

أبطَلَ اللهُ كيْدَ الظّالمين بإبراهيمَ بكَيْدِه وجَعلَهمُ الأخسرين

آثرَ النَّظمُ الكريم الفعل (جَعَلْنا) في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾؛ لأنَّ الجَعْلَ فيه معنَى التَّصيير والتَّهيئة والتَّبعيَّة، وكونه محصَّلًا من آخر[2]، وأولئك أرادوا الكَيْدَ بإبراهيمَ عليه السلام بقولهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وأرادوا بذلك إظهارَ خسارته على أعْيُن النّاس، فجعلَ اللّهُ من كيْدِهم بإبراهيمَ وإعلانِ خسارته خسارتَهم هم لا إبراهيمَ، وهذا الجعلُ بصيغةِ الماضي دليلُ التَّحقُّقِ التّامّ لخسارتهم، وخاصَّةً أنَّه أُسْنِدَ لـ (نا) الدّالَّة على الفاعلين وهي نون العَظمة للّه وحده.

نكتةُ إيثار لفظ ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ على ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾:

تـجـارةُ صُـنّـاعِ الآلـهـةِ المزيّفة خـاسـرة، وهـم في الدُّنيا والآخرة أسفل سافلين

جاءت خاتمةُ الآيات في قصَّة إبراهيمَ عليه السلام مع قومه هنا في سورة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾؛ بينما خُتِمتْ آياتُها في سورة الصّافّات بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ٩٨﴾ [الصافات: 98]؛ لأنَّ ما هنا تقدَّمه أنَّ إبراهيم كادَهم، وأنَّهم كادوه، وأنّه غَلَبَهم في الكَيْد، فخسرت تجارتُهم حيث كسَّر أصنامَهم، ولم يبلغوا من إحراقه مُرادَهم، فناسبَ ذِكْرُ ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، وما في الصّافّات: تقدّمَه قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ٩٧﴾ [الصافات: 97]؛ فأجَّجُوا نارًا عظيمة، وبَنَوْا بنيانًا عظيمًا، ورفعوا إبراهيمَ إليه، ورموه منه إلى

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 446.
(2) الرّاغب، المُفردات: (جعل).

أسفل، فرفعَه اللّهُ إليه، وجعلَهم في الدُّنيا من الأسْفلين، وردَّهم في العُقْبَى أسفلَ سافلين، فناسبَ ذِكْرُ ﴿ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصافات: 98][1].

فائدة التعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ صيغة دون (الخاسرين):

الخاسرون لفظٌ عامٌّ، والأخسرون خاصٌّ بمَن هو أخسَرُ من غيرِه

الخُسْرُ والخُسْران: انتقاصُ رأسِ المال، ويُنسب ذلك إلى الإنسان، فيُقال: خَسِرَ فلان، والخاسرُ: اسْمُ فاعلٍ لِمَنْ خسرَ مالَه أوْ جاهَه وهو الأكثر، أو خَسِرَ صحَّته وسلامتَه أو عَقْلَه وإيمانَه وثوابه، قال اللّهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزُّمر: 15]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: 121]، وكلُّ خُسرانٍ ذَكَرَه اللّهُ تعالى في القرآن فهو على هذا المعنَى الأخير دون الخُسرانِ المتعلِّقِ بالمقتَنياتِ الدُّنيويَّة والتّجارات البشريَّة، وأمّا ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ فهي صيغةُ مفاضلة على وجْه الذَّمّ؛ أي: اسْمُ تفضيلٍ مسلوب المفاضلة؛ أيْ: أخْسَرُ من كلِّ خاسر[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإرادة والمشيئة:

المشيئةُ ابتداءُ العَزْمِ على الفعل، والإرادةُ حصولُه وهي أخصُّ، وقد يتعاوران توسُّعًا

الإرادةُ: العَزْمُ على الفعل أو التَّرْكِ بعد تصوُّرِ الغاية المترتِّبة عليه من خَيْر، أو نَفْع، أو لذَّةٍ ونحو ذلك، والإرادةُ تكون لما يتراخَى وقتُه ولما لا يتراخَى، والإرادةُ متى حَصَلَتْ صدرَ الفعلُ لا محالة، وأمّا المشيئةُ فتكون لما لم يتراخَ وقتُه كما تقول: فعلتُ كذا شاء زيدٌ أو أبَى، فيُقابل بها إيّاه، وذلك إنَّما يكون عند محاولةِ الفعل، وكذلك مشيئتُه إنَّما تكون بدلًا من ذلك في حالِه، والمشيئةُ ابتداءُ العزم على الفعل، فتكونُ الإرادةُ أخصَّ منها، فنسبةُ المشيئةِ إلى الإرادةِ نسبةُ الضَّعفِ إلى القوَّة، والظَّنِّ إلى الجَزْم، فإنَّكَ ربَّما شئتَ شيئًا ولا تريدُه لمانعٍ عقليٍّ أو شرعيٍّ، وقد يُطلَقُ كلٌّ منهما على الآخر توسُّعًا[3].

(1) زكريّا الأنصاريّ، فتح الرَّحمن: 1/ 376 - 377.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (خسر).
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 35، والكفوي، الكلِّيّات: 1/ 105، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 230.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا نجّى اللهُ إبراهيمَ من قومه؛ ضمّ إليه لوطًا في النّجاةِ

لَمّا كانَ إنجاءُ اللّه لإبراهيمَ عليه السلام - وهو وحده - ممَّن أرادوا به هذا الأمرَ العظيم من العجائب، فكيفَ إذا انضمَّ إليه غيرُه، ولم يكن في الآخرين آيةٌ تمنعُهم عنه، كما كان في إبراهيمَ عليه السلام؛ فقال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ بعظمتِنا ﴿وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ الَّتي باركناها بالخيراتِ الدُّنيويَّة والدّينية، وهي أرضُ الشّام[1]، فالجَمْع بين إبراهيم ولوط في هذه النجاة جعل هذه الآية كأنها من تمام ما قبلها، فألَّفَ ذلك بينهما تأليفًا قويًّا.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰرَكۡنَا﴾: (برك) أصلٌ واحد، وهو ثباتُ الشَّيء، ثمَّ يتفرَّعُ فروعًا يقاربُ بعضُها بعضًا، ومنها: البرَكةُ: وهي من الزّيادةِ والنَّماء، والتَّبريكُ: أن تدعُوَ بالبرَكة[2]، والبَركةُ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٍ﴾ [الأعراف: 96]، وسُمّي بذلك لثبوتِ الخير فيه ثبوتَ الماءِ في البِرْكة[3]، وقوله تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾؛ أيْ: بالخِصبِ وكثرةِ الأشجارِ والثّمارِ والأنهار، ومنها بُعِثَ أكثرُ الأنبياء[4].

2) ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾: (علم) أصلٌ صحيحٌ واحد يدلّ على أثرٍ بالشَّيء يتميَّز به عن غيره، ومن الباب: العالمون؛ ذلك أنَّ كلَّ جنْسٍ من الخَلْق فهو في نَفسه مَعْلَمٌ وعَلَمٌ[5]، والعالَمُ: الخَلْق، والجمعُ: العَوالِم، والعالمون:

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 447 - 448.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: 10/ 230 - 231، والرّاغب، المُفردات: (برك).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 715 - 716، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 568.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علم).

أصنافُ الخَلْق من الملائكةِ والجنِّ والإنسِ دون غيرها، والعالَمُ: اسْمٌ للفَلَك وما يحويه من الجواهر والأعراض، وأمّا جمعه فلأنَّ من كلِّ نوعٍ من هذه قد يُسمَّى عالَمًا، فيُقال: عالم الإنسان، وعالم الملائكة، وأمّا جمعُه جمع السَّلامة فلِكَون النّاس في جملتهم، والإنسانُ إذا شاركَ غيرَه في اللَّفظ غلَبَ حكمُه[1]، والأظهرُ في السياق أن يكون: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ مُرادا به النـاسُ وما يعيشون معَه على ظهر هذه الأرض.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نجاة الأنبياء من ظُلْمِ أقوامهم بمعجزاتٍ إلهيّة

يقول تعالى مُخبرًا عن إبراهيم ﷺ أنَّه سلَّمه اللّهُ من نار قومه، وأخْرجَه من بين أظهُرِهم مهاجرًا إلى بلاد الشّام، كما أنَّه تعالى نجَّى ابنَ أخيه لوطًا ﷺ من القرية الَّتي كانت تعملُ الخبائث، ما سبقهم بها من أحدٍ من العالَمين، وأخذ إبراهيمُ لوطًا معه إلى أرض الشّام[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ في ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

سُنَّةُ اللهِ هي إنجاءُ أنبيائه ونصرُهم على عدوِّهم

جاء العطفُ في صدر الجملة في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ على ما قبله، وهو عطفُ نجاةٍ على نجاة، فالأولى نجاتُه من ضُرِّ النّار، والثّانيةُ نجاتُه من الحُلُول بين قوم عدوٍّ له كافرين بربِّه وربِّهم، وهي نجاةٌ من دار الشِّرك وفساد الاعْتقاد، فهما نجاتان تدلّان على عِظَم إبراهيمَ ﷺ خصوصًا وأنَّها سُنَّتُه مع أنبيائه ورسله عمومًا[3]، والقرنُ بينه وبينَ لوط في آية مستقلة يفيد أن ثمة مقصدًا للسورة يُؤدَّى بجميعِ قصص الأنبياء فيها مجموعة، لا بكلِّ واحدة منها على الاستقلال، وفي قصة إبراهيم إبراز للإله الواحد الأحد إبرازًا قويًّا؛ كما في الآيتَيْن السّادسة والسّتين والسّابعة والسّتين.

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 176، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4892.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 108.

تخصيصُ لوطٍ عليه السلام بالذِّكْر:

آمـــنَ لـــوطٌ بعمِّه إبراهيم وصدَّقه؛ فحقق له النَّجاة معه

خصَّص النَّظمُ الكريمُ نبيَّ اللّه لوطًا عليه السلام بالذِّكر؛ لأنَّه كان ابنَ أخي إبراهيمَ عليه السلام وصديقَه لكونه آمنَ به وصدَّقه، وأنَّه لَمّا جاء الملائكةُ مُبشِّرين إبراهيمَ وامرأتَه بالولد؛ ذهبوا من عنده إلى لوط، فدكُّوا قريتَه دكًّا؛ لأنَّها كانت تعمل الخبائث ما سبقهم بها من أحدٍ من العالَمين، وأنَّه أخذه معه إلى الأرض المباركة[1].

سرُّ استعمال ﴿إِلَى﴾:

التَّضمين من ضروبِ الإيجاز العالية

يمكن أن يكون لاسْتخدام حرف ﴿إِلَى﴾ وجهان اثْنان: **الأوَّل:** أن يكون الفعلُ ﴿نَجَّيۡنَٰهُ﴾ تعدَّى بـ ﴿إِلَى﴾؛ لأنَّه[2] ضُمِّن معنَى (أخْرجْناه بنجاتِنا إلى الأرض)، **والثّاني**: أن يكون الفعل تعدَّى بها؛ لأنَّه ضمن معنى: (انتهى)؛ للدَّلالةِ على أنَّ هناك غايةً طويلة؛ فإنهما خرجا من أرض العراق إلى حران، ثم من حران ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

دلالة أل التعريف في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الأرضُ المباركة هي أرضُ الشّام

تعريف كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا﴾ للعهد، أي: الأرض الَّتي صار إليها إبراهيمُ ولوط عليهما السلام وهي أرضُ الشّام، وبركتُها ما فيها من الخِصْبِ والأشجار والأنهار، وبُعث منها أكثرُ الأنبياء[4]، وخُصِّصت بالوَصْفِ في ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا﴾ للعلْم بها.

سرُّ الإسنادِ في: ﴿بَٰرَكۡنَا﴾:

البركةُ من الله لا من أحدٍ سواه

في قوله تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ أُسنِدَ الفعل إلى (نا) الدّالةِ على عظمة اللّه جل جلاله؛ لأنَّ البَركةَ من اللّه - لا من غيرِه - في خَلْقه وأرْضِه، فالبركةُ: وفْرةُ الخيرِ والنَّفع، وهما من خَلْق اللّه وحدَه سبحانه وتعالى[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 447، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4892.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 452.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 452، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 447.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 452.
(5) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 448، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 108.

نكتة إيثار ﴿فِيهَا﴾ على (حولها):

تخصيصُ التَّعدّي بحرفِ الجرّ ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾؛ لأنَّ ﴿فِيهَا﴾ تفيد الظَّرفيَّةَ المكانيَّة أي: في الأرض المباركة، وهي أرضُ الشّام، فالبركةُ مُستوعبَةٌ لجميع أرضِ الشّام، أي: بما فيها من المياه الَّتي بها حياةُ كلِّ شيءٍ من الأشجار والزُّروع وغيرها، وما ظهرَ في أرضِها من الأنبياءِ الَّذين ملؤوا الأرضَ نورًا[1]، وهذا تصوير لما قد كان وثبت.

بـركـةُ أرضِ الشّام بما بُعث فيها من أنبياء وبما فيها من خيرات

إيثارُ لفظِ ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ مادَّةً وصيغة:

آثر النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ ظهورَ الأنبياء عليهم السلام من أرض الشّام كان نورًا للعالَمِينَ من العراق إلى الشّام، ثمَّ امتدَّت شرائعُهم إلى غيرهم في بقاع الأرض، وكانت مكَّةُ للعرب حرمًا آمنًا تُجبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيء، وكانت كذلك للنّاس أجمعين؛ ففي بَطْحائها وُلِدَ خيرُ الخَلْقِ محمَّدٌ ﷺ وظهر[2]، وهذا العالَمُ بأكمله آلةٌ في الدَّلالةِ على صانعه، وكلُّ نوعٍ من أنواع العالَمِينَ يُسمَّى عالَمًا، فبركةُ تلك الأرض بأنبيائها وخيراتها تعمُّ كلَّ العالَمِين: عالَمَ الإنسانِ وغيره[3].

العالَمُ من خَلْقِ الله، ونورُ أنبياءِ الله وشرائعُهم عمَّ كلَّ العالَمِين

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البركةُ والزّيادة:

البرَكةُ هي الزّيادةُ والنَّماءُ من حيث لا يُوجَدُ بالحسِّ ظاهرًا، فإذا عُهِدَ من الشَّيء هذا المعنَى خافيًا عن الحسِّ؛ قيل هذه برَكة، واشتقاقُها من البُروك، وهو اللُّزومُ والثُّبوت، لثبوتها في الشَّيء، ويوصَفُ بها كلُّ شيء لزمَه وثبتَ فيه خيرٌ إلهيٌّ، وليس لضدّها اسْمٌ

كلُّ بَرَكةٍ زيادة، وليس كلُّ زيادةٍ بَرَكة

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 578.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4893.

(3) الرّاغب، المُفردات: (علم).

معروف، فلذلك يُقال فيه: قليلُ البركة، ولا يُسنَدُ فعلُ البركةِ إلّا إلى اللّه، فلا يُقال: بارك زيدٌ في الشَّيء، وإنَّما يُقال: باركَ اللّهُ فيه(1).

والزّيادةُ أن ينضمَّ إلى ما عليه الشَّيءُ في نفسِه آخر، يُقال: زِدْتُهُ فازْداد، قال تعالى: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ [يوسف: 65]، يُقال: زادَ مالُ فلان بما ورثه عن والده، ويُقال: ازْدَدْتُ فضلًا، أيِ: ازْدادَ فضلي، وهو من باب ﴿سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130]، وذلك قد يكون زيادةً مذمومة، كالزّيادة على الكفاية، وقد تكون زيادةً محمودة، نحو قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، وهي النَّظر إلى وجه اللّه الكريم، وقال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247]؛ يعني زيادة معنويَّة وحسّيَّة(2).

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 96، والكفوي، الكلّيّات: 1/ 431.
(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 97، 386، 551، والرّاغب، المفردات: (زيد)، والكفوي، الكلّيّات: 2/ 409.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾

[الأنبياء: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يكرمُ الله تعالى أنبياءَه بمعجزاتٍ وهباتٍ لقاءَ صَبْرهم على الإيذاء

لَمّا أُولِدَ لإبراهيم رغم شيخوختِه وعُقم امرأتِه وكان ذلك دالًّا على الاقْتدارِ على البعث الَّذي السّياقُ كلُّه له؛ قال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾، ولَمّا كان قد يُظنُّ أنَّه - لتولُّدِه بين شيخ فانٍ وعجوزٍ مع يأسها عقيم - كان على حالةٍ من الضَّعف، لا يُولَدُ لمثله معها، نفَى ذلك بقوله: ﴿وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾؛ أيْ: زيادةً على ما دعا إليه إبراهيمُ ﷷ، ثمَّ قال: ﴿وَكُلّٗا﴾ من هؤلاء الأربعة ﴿جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾[1]، وإذا كان إبراهيم واحدًا واجَه جماعةً؛ فأرادوا به كيدًا؛ فإن اللّه جعله أمة وحده، وإذا كان الإنجاء في قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا﴾ الآية من الفوز العظيم لإبراهيم المقابل لجعل قومه الأخسرين؛ فإن تلك الهبة منه أيضًا؛ فظهر بذلك كله أن هذه الآية من تمام الآيتيْن قبلها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَهَبۡنَا﴾: (وهب): يُقال: وهَبْتُ الشَّيءَ هِبَةً ومَوْهِبَةً وموهبًا، واتَّهبتُ الهبةَ: قبلتُها[2]، والهِبَةُ: أن تجعلَ ملككَ لغيرك بغيرِ عِوَض، قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [ص: 30]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾[3]، ويُوصف اللّه بالواهب والوهّاب بمعنى: أنَّه يُعطي كُلًّا على اسْتحقاقه[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 448.
(2) ابن فارس، المُجمَل: (وهب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (وهب).
(4) البيهقيّ، الأسماء والصّفات: ص97.

2) ﴿نَافِلَةً﴾: (نفل): النَّفْلُ والنّافلةُ: عَطيَّةُ التَّطوُّع؛ ومنه: نافلةُ الصَّلاة، فالنَّفْلُ: الزّيادةُ على الواجب، ويُقال له: النّافلة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: 79][1]، وقولُه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾؛ أيْ: ولَدُ الوَلد، فهو الزّيادةُ على الولد[2]، وورَدَ أنَّ النّافلةَ هنا بمعنَى العطيَّة، وإسحاقُ ويعقوبُ عليهما السلام كلاهما من عطاء اللّٰه أعطاهما إيّاه[3].

3) ﴿صَٰلِحِينَ﴾: (صلح): يُقال: صَلُحَ الشَّيءُ يَصلُح صلاحًا، ويُقال: صَلَحَ بفتح اللّام، ويُقال: صَلَحَ صُلُوحًا، والصَّلاحُ: خلافُ الفساد؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][4]، وقولُه تعالى: ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾؛ أيْ: كلُّ واحدٍ من هؤلاء الأربعة: إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب، جعلناه صالحًا عاملًا بطاعة ربِّه تاركًا لمعاصيه[5].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

هباتُ الله لنبيّه إبراهيمَ عليه السلام لا تنقطع

وهبَ اللّٰهُ جل جلاله نبيَّه إبراهيمَ عليه السلام حين اعتزَلَ قومَه إسحاق، وبعد ما كَبُرَ سِنُّه وكانت زوجتُه عاقرًا قد أصابها اليأس من الإنجاب؛ بشَّرته الملائكة بإسحاقَ، وزاد نافلةً له يعقوبَ بنَ إسحاق عليهما السلام[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَوَهَبۡنَا﴾:

الجمعُ بين معجزتَيْن لنبيّ الله إبراهيم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ عاطفةٌ لفعلِ الهِبَة على فعل الإنجاءِ المتقدِّمِ في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾؛ فجمع اللّٰهُ له معجزتيْن:

(1) ابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المُفردات: (نفل).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 48، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 569.
(3) ابن أبي حاتم، تفسيره: 8/ 2457، والبغوي، معالم التَّنزيل: 5/ 330.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (صلح).
(5) الخازن، لباب التَّأويل: 3/ 303، والشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 569.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: ص470.

الإنجاءَ من كيدِ أعدائه والحرقِ بالنَّار، وهبتَه الولدَ ووَلَدَ الولد، وزوجُه عاقرٌ وقد بلغ من الكِبَر عِتيًّا، وقد أشارَ ﷻ إلى هبة اللّه لإبراهيمَ ولدَه إسماعيلَ بالإشارةِ إلى نجاتِه إلى الأرضِ المباركة مكَّة وما حَوَتْ وما حولها من منًى وعَرَفاتٍ والمشعرِ الحرام(1)، وكأنَّ هذه الهبة من آثار البركة المذكورة في قوله: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثم يجمعُ بين هذه الهبة والتّنجية من قبلها ويؤلِّف بينهما تفصيل فوز إبراهيم وفلاحه في مقابلة حال قومه في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾.

إيثارُ ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ في قوله: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ لبيان أنَّ اللّه تعالى وهب نبيَّه إبراهيمَ إسحاقَ ويعقوبَ عطيَّةً وفضلًا منه تعالى من غير أن يكون جزاءً مُستحقًّا، وقد كان إبراهيمُ في حال شيخوخته وكانتِ امرأتُه عقيمًا؛ فجاءت هذه الهِبَةُ مِنَّةً من اللّه على نبيّه وزوجه، فكما أنَّ اللّهَ يعطي الولدَ لِمَن لا تلدُ في العادة البشريَّة؛ فكذلك هو سبحانه يُحيي يوم القيامة النّاس ويبعثُهم من قبورهم، وهذه الهبة قائمةٌ في علم اللّه مُتحقِّقةٌ في قدَرِه؛ فلهذا نظمت فعلًا ماضيًا، وأُسْنِدَ فعلُها إلى نون العَظَمَة لبيان قدرة اللّه في هبة ما يشاءُ لِمَن يشاء(2).

اللهُ يهبُ ما يشاءُ لِمَن يشاء عطيَّةً منه، وإن تخلَّفت الأسباب

فائدة الضّمير في ﴿لَهُۥٓ﴾، وتقديمه على ﴿إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ جاء القَيْدُ ﴿لَهُۥٓ﴾ تصريحًا بأنَّه سبحانه وهبَ لإبراهيمَ إسحاق، ومن ورائه يعقوب عليه السلام؛ لبيان أن إبراهيم في حال الامتنان والهبة هو إبراهيم في حال البلاء؛ حين أراد به قومه كيدًا وألقوه في النار؛ تمهيدًا لذِكْر صفة الإمامة في آية: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: 73]؛ فمِثْلُه إمامٌ يُقتدى به،

حَصْرُ النُّبوَّةِ في ذريَّة إبراهيمَ عليه السلام أعظمُ الهبات الإلهيَّة

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 893.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 160، والبقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 448.

وقد خصَّ اللّه إبراهيم بذلك؛ فسياق الامتنان يُشعر بأنَّ تقديم: ﴿لَهُۥٓ﴾ على: ﴿إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ للقصر والاختصاص، وقد جعلهما معًا مع أنَّ إسحاقَ أبٌ ويعقوبَ ابنُه؛ لأنَّهما كانا نبيَّيْن، وذلك لِعِظَم منزلة إبراهيم وشرفِ مكانتِه عند اللّه، وتوالتِ النُّبوَّةُ في ذُرّيَّته إلى خاتم الأنبياء محمَّد ﷺ، ولعل ذلك كان إجابة لدعاء إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافّات: 100][1].

سرُّ تخصيصِ إسحاق ويعقوب:

إكرامُ اللّه لإبراهيمَ في حياته مع كِبَرِ سِنّه بولدٍ وحفيدٍ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ إسحاقَ ويعقوبَ عليهما السلام بالذِّكْر؛ لأنَّ هبةَ إسحاقَ لإبراهيمَ عليه السلام ازْديادُه له على الكِبَرِ، وبعد أن يئستْ زوجُه سارَّةُ من الولادة؛ وهبةَ يعقوبَ ازدياده لإسحاقَ بنِ إبراهيمَ في حياةِ إبراهيم، ورؤيتُه إيّاه كهلًا صالحًا[2]، فذِكْر يعقوب من تمام الامتنان على إبراهيم وكماله.

سِرُّ اختصاص يعقوب بكونه ﴿نَافِلَةٗۖ﴾:

ولادةُ يعقوب زيادةٌ وفضلٌ من غيرِ سؤال

النّافلةُ: الزّيادةُ غيرُ الموعودة، وقولُه تعالى: ﴿نَافِلَةٗۖ﴾ جاء في حقِّ يعقوبَ خاصَّةً؛ لأنّ اللّه تعالى أكرمَ به نبيَّه إبراهيمَ عليه السلام زيادةً وفضلًا من غيرِ سؤال[3]، وإن كان قولُه تعالى: ﴿نَافِلَةٗۖ﴾ حالًا من إسحاقَ ويعقوبَ؛ كان المعنى: عطيَّةً زائدةً، وهو شأنُ الحالِ الواردةِ بعد المفردات أن تعودَ إلى جميعها[4]، لكنَّ يعقوب عليه السلام جاء زيادةً على ما سأل وهو إسحاق، فتختصُّ بيعقوب، ولا لَبْسَ فيه؛ للقرينة الظّاهرة[5].

دلالةُ الواو والتَّنوين في قوله: ﴿وَكُلّٗا﴾:

عطاء اللّه وإحسانه إلى أوليائه لا حدَّ له

الواو في قوله: ﴿وَكُلّٗا﴾ عطفت ما بعدها على ما بعد الواو في

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4894.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 109.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 578.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 716، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 109.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 716.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ على جهة التَّرقِّي في ذِكْر عناصر الامتنان؛ فهبة الوجود سابقة على جعلهم صالحين، وإذا كان وجودُ إسحاق ويعقوب على جهة الهبة في سياق تأييد إبراهيم الموهوب بالفوز والفلاح في مقابلة جعل قومه ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾: فإن في ذلك بذرة أن يكونوا صالحين؛ إذ مِن شأن مِثْلِ إحسانه تعالى على مِثْلِ إبراهيم عليه السلام أن يتم ويكمل، وأن يلتقي طرفا حلقته، ويكون مقطعها أشبه بمطلعها، والتَّنوينُ عِوَضٌ عن المضاف إليه؛ أيْ: وكلُّهم جعلْنا صالحين، والمُرادُ: إبراهيمُ وإسحاقُ ويعقوب، لأنَّهم الَّذين كان الحديثُ الأخير عنهم، وأمّا لوطٌ عليه السلام؛ فإنَّما ذُكِرَ على طريق المَعيَّة، وسيُخصّ بالذِّكر بعد هذه الآية(1).

سرُّ تقديم ﴿وَكُلًّا﴾ على عامله:

الأنبياءُ هم مجمَعُ الخيرِ والصَّلاح

تقدَّم قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا﴾ على عامله؛ فلم يَقُلْ: وجعلنا كُلًّا؛ لمزيد الاهتمامِ بهؤلاء الأنبياءِ البَرَرةِ الأخيار، وتخصيصهم بالثَّناءِ من الله عليهم بنُبوَّتهم الَّتي هي مجمعُ الخيرِ والصَّلاحِ والفلاحِ لهم ولغيرِهم، وفي التقديم مع ضميمة لفظ المقدم تنبيه لطيف على سبْق تهيئة كُلِّيَّاتِهم لأنْ يتّصفوا أو تتّصفَ بالصّلاح، وعلى شمول الصّلاح كُلِّيَّةَ كلٍّ منهم.

إيثارُ ﴿جَعَلْنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان

لفظُ ﴿جَعَلْنَا﴾ فيه معنى التَّهيئة والتَّصيير؛ فقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾؛ أيْ: صالحين في أنفُسِهم مُهيَّئين - لطاعتِهم لله - لكلِّ ما يُريدونَه، أو يُرادونَ له، أو يُرادُ لهم(2)، وقد تحقَّق هذا الجعلُ فيهم، فكانوا خيرَ ترجمةٍ عمليَّةٍ لهذه التَّهيئة الرَّبّانيَّة؛ لذا جاء النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ الماضي والمُسنَد إلى نونِ العظمةِ الإلهيَّة: ﴿جَعَلْنَا﴾؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 109.

(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 448.

ففي الجَعْل معنى إصلاح اللّه لهم؛ ليكونوا صالحين صلاحًا عليًّا في بابه، وصيغةُ الماضي فيها إشعارٌ بأن هذا الجَعْل كان مصاحبًا للجَعْل في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾؛ وكأنّه من جزاء إبراهيم على صبره على كيد قومه له؛ كما أن الماضي في: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ كذلك.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿صَٰلِحِينَ﴾:

جريان الصلاح في النسل نعمة عظيمة

الصَّلاحُ في الأنفُسِ رتبةٌ عظيمةٌ من رُتَبِ القُربِ إلى اللّه، لذا وهبَها اللّهُ تعالى لكلٍّ من الجدِّ والابنِ والحفيد؛ أيْ: جعلهم من المستقيمين في طريقِهم إلى الحقّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ العاصي هالكٌ، لا يصلُح لشيءٍ وإنْ طالَ عمرُه، واشتدَّ أمرُه؛ لأنَّ العبرةَ بالعاقبة، وذلك إذا بقيَ على عصيانِه دون توبةٍ صادقةٍ منه[1]، والظاهرُ أن الصلاح في نفسه ليس صفةً خاصَّةً بالأنبياء، فلا تكون مناط مدح أحدٍ منهم بها على إرادة أصل الاتّصاف بها، وإنّما على إرادة العلوِّ فيها، وجهةُ الامتنانِ والمدحِ هنا هو اتّفاقهم جميعًا في الصّلاح.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الهبة والإعطاء:

الهـبةُ تمليكُ المـال، وليس في الإعطاءِ تمليك

الهِبَةُ تقتضي التَّمليك، فإذا وهبتَه المال فقد ملَّكتَه إيّاه، وأمّا الإعطاء فهو اتّصالُ الشَّيءِ إلى الآخذِ له، ألا ترى أنَّك تُعطي زيدًا المالَ ليردَّه إلى عمرو، وتُعطيه ليتّجرَ لك به، ثمَّ كَثُرَ استعمالُ الإعطاء حتَّى صار لا يُطلقُ إلّا على التَّمليك؛ فيُقال: أعطاه مالًا إذا ملَّكه إيّاه، والأصل ما تقدَّم[2].

النّافلةُ والزّيادة:

النّافلةُ: عَطيَّةُ التَّطوُّع، وهي الزّيادةُ على الواجب، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: 79]؛ أيْ: زيادةً على الفريضة،

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 449، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4894.
(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 59.

كلاهما مُشترِكٌ في معنَى الزّيادة، ولكنَّ مفهوم الزّيادة أوسع

وتُطلقُ النّافلةُ على ولَدِ الولد، فهو الزّيادةُ على الولد[1]، وأمّا الزّيادةُ: فهي النُّموُّ، يُقال: زادَ مالُ فلان بما ورثَه عن والده، فالزّيادةُ: أن ينضمَّ إلى ما عليه الشَّيءُ في نفسِه آخر، يُقال: زِدْتُه فازداد نحو: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 65]، وقد تكون الزّيادةُ محمودةً نحو: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]؛ أيِ: النَّظرُ إلى وجه الله الكريم، وقد تكون مذمومة كالزّيادةِ على الكفاية، وما فيه نوعُ سَفاهة، وقد تكون الزّيادة معنويَّةً وحسّيَّةً، كما في: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247][2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نفل).
(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 551، والكفوي، الكلّيّات: 2/ 406، والرّاغب، المفردات: (زيد).

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إصلاحُ حالِ الأنبياء الدّعاةِ وجعلُهم هُداةً وعابدينَ تُقاةً

لمّا ذَكَرَ اللّه سبحانه أنّه وهبَ لإبراهيم إسحاقَ ويعقوبَ عليهما السلام، وأعطاهُم رُتبةَ الصّلاحِ في أنفسِهم، ذَكَرَ هنا أنّه أعطاهُم رُتبةَ الإصلاحِ لغيرهم[1]، بجعْلِهم أئمّةً هُداةً، ورُسلًا دعاةً، علمًا بأنّ الإمامةَ المنوطةَ بهم، ليست إمامةً زمنيّةً ماديّةً، ولكنّها إمامةُ قدوةٍ روحيّة، التزموا بها وجوبًا، بأمرِ اللّه العليِّ الحكيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَئِمَّةٗ﴾: (أمّ) أصلٌ واحدٌ، وله فروعٌ كثيرةٌ، فالإمام: كُلُّ مَن اقتُدِي به وقُدِّمَ في الأمورِ، والنّبيّ ﷺ إمامُ الأئمّة، والخليفةُ إمامُ الرّعيّة، والقرآنُ إمامُ المسلمين[2].

فكلُّ من يؤتَمُّ به سواءً أكان إنسانًا فيُقتدَى بقوله أوْ فعلِه، أم كتابًا، أم غيرَ ذلك مُحِقًّا كان أم مُبطِلًا، سُمّي إمامًا، وجمعُه: أئمَّةٌ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۢ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء: 71] أي: بالّذي يَقتدونَ به[3]، فيكون معنى ﴿أَئِمَّةٗ﴾ في الآية: جعلْناهم رؤساءَ يُقتَدَى بهم في الخيرِ[4].

2) ﴿يَهۡدُونَ﴾: (هدي) أصل، والهُدى: نقيضُ الضّلالة، والهدى زوالُ الحيرة، وهو ضدُّ العَمَه الّذي هو الحَيْرَةُ، ومنه قولُ الشّاعر:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 449.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمم).
(3) الراغب، المفردات: (أمم).
(4) الواحديّ، البسيط: 15/ 128.

واسألْ ولا تنسَ إنْ كنتَ امرءًا عَمِهًا *** إنّ السُّؤالَ هُدًى إنْ كنتَ حيرانا[1]

ومنه قولُهم: هديتُهُ الطّريق هدايةً، أي تقدّمتُهُ لأُرشدهُ، وكُلُّ مُتقدّم لذلك هاد، ويُقال: أقبلت هوادي الخيل، أي: أعناقُها؛ لأنّهُ المتقدّمُ، والهاديةُ: العصا، لأنّها تتقدّمُ مُمسكها كأنّها تُرشدُهُ[2]، والهُدى هو الرَّشادُ والدَّلالَةُ[3]، وهو كذَلِكَ البَيانُ، والهدى إخْراجُ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ، والهُدى الهادي في قوله جَلَّ وعَزَّ: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ [طه: 10]، أيْ: هاديا؛ وهو منَ التّعبيرِ بالمصدرِ عنِ اسم الفاعل، والطَّريقُ يُسَمّى هُدًى[4]، مبالغةً في المدحِ لهُ، فَيَكونُ معنى ﴿يَهۡدُونَ﴾ في هَذِهِ الآيَة: يُرشِدونَ العِبادَ، ويُنقذونَهم مِنَ الضّلالِ.

3) ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾: (وحي) أصلٌ يدلُّ على إلقاء علْم في إخفاءٍ أَوْ غيرِه إلى غيرك، فالوَحْيُ: الإشارةُ، والوَحْيُ: الكتابُ والرِّسالةُ، وكُلُّ ما أَلقيتَه إلى غيرك حتّى عَلِمَه فهو وحيٌ كيفَ كان[5]، ويقال للكلمةِ الإلهيّة الّتي تُلقَى إلى أنبيائِه وأوليائِه: وحيٌ، وذلك أضرُبٌ: إمّا برسولٍ مُشاهَدٍ، تُرى ذاتُه ويُسمَع كلامُه، وإمّا بسماع كلامٍ من غير معاينة كسماع موسى عليه السلام كلامَ اللّه، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوعِ، وإمّا بإلهام؛ نحو: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخيرٍ نحوَ قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النّحل: 68]، أوْ بمنام، أو بغير ذلك[6]، والوحي في الآية، هو تبليغُ اللّه عز وجل أوامرَه ونواهيَه، إلى رُسلِه بواسطة جبريلَ عليه السلام.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه سُبحانه أنّه جعلَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم السلام، قُدوةً للنّاس يدعونَهم إلى عبادة اللّه وطاعتِه ويَهدونَهم بإذنِه تعالى، وأوحَى إليهم فِعْلَ الخيرات وإقامةَ شرائعِ الدّينِ بين النّاسِ منَ العباداتِ والمعامَلات، وإقامَ الصّلاة على وجهها، وإيتاءَ الزّكاة،

(1) البيت لأُمَيّة، كما قال أبو على الفارسي، الحجّة للقراء السبعة: 2/ 215، ينظر في معنى العمه: أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 32، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 56، وكذلك: أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 37.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هدي).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدي).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).

(6) الراغب، المفردات: (وحيَ).

فامتثلوا لذلك، وكانوا مُنقادينَ مُطيعين للّه وحده دون أحدٍ سواه[1]، فاستحقّوا أن يَخصّهم اللّه بشرف البلاغِ، وعُلوِّ المقام في العبوديّة، بفعْلِ أشرف العبادات، كالصّلاة والزّكاة، امتثالًا لأمرِ اللّه تعالى، وتعظيمًا لشرعِه وهُداه.

اصطفاءُ الله سبحانه آلَ إبراهيم قُدوةً للنّاس في الهدايةِ والعبادةِ والصّلاحِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾:

بيانُ تشريفِ إبراهيمَ وذرّيّتِه بهدايته للعبادة وتزكيته

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾، على ما قبْلَه بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ والاقترانِ، بمعنى أنّ اللّه سبحانه قد جمعَ لإبراهيمَ عليه السلام منَ التّكريم، بأن وهبَه إسحاقَ، ثمّ زاده بأن وهبَه يعقوبَ بنَ إسحاقَ في حياته ورؤيتِه إيّاه كهلًا صالحًا، وعَطفَ على ذلك صلاحَهم ثمَّ عطفَ عليه جعْلَهم أئمّةً للنّاس رُؤساءَ، يُؤتَمُّ بهم في الخير، في طاعة اللّه تعالى، وفي اتّباع أمرِه ونهْيِه، ويُقتدَى بهم في ذلك، وهنالك تقارنٌ في الخيال بين صورة الصّلاحِ النّفسيِّ وصورة الإصلاحِ الغيريِّ؛ إذِ الخيالُ يربطُ بين صورتَي الصّلاح والإصلاحِ لِما بينَهما منَ التّلازمِ والاقتضاءِ، وتوالي العطْفِ يفيدُ الامتنانَ وتلاحُقَ النِّعَمِ وتكاثرَها وتواليَها[2].

سرُّ التّعبير بالفعل (جَعَلَ) في الآية:

تصْييرُ إبراهيمَ عليه السلام وذريّتِه أئمّةً في الدّين

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ التّعبيرَ بالفعلِ (جعل)، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من (فعلَ وصنعَ)، وسائرِ أخواتِها، ويتصرّفُ على خمسةِ أوجهٍ حسبَ السّياقِ الّذي يردُ فيه[3]، وهوفي هذه الآية بمعنى التّصْيير، فقد صيّرَ اللّه الكريم بمنِّه إبراهيمَ وذرّيّتَه عليهم السلام رؤساءَ يُقتدَى بهم في الخير، وفيه إلماحةٌ إلى أنَّ هنالك

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 472.
(3) الرّاغب، المفردات: (جعل).

تغييرًا اختصَّه اللّه تعالى بهم، ولم يصدرْ عنهم مَلَكةً واقتضاءً ذاتيًّا لولا فضلُ اللّه عليهم وإرادتُه التّكوينيّةُ بتمْييزِهم واختيارِهم.

نُكتةُ إسنادِ الفعْلِ إلى ضميرِ العظمةِ (نا):

عظمةُ الواهبِ سبحانه في اصطفاء ذرّيّةِ إبراهيمَ عليه السلام دون العالمين

أُسنِدَ الجعلُ في قوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالةِ على عظمةِ الواهب ﷻ، وعظيم فضلِه على أنبيائه، ولاسيما إبراهيمَ عليه السلام، فقد نجّاه بقُدرتِه العظيمةِ منَ النّار، ووهبَه الذُّرّيّةَ على الكِبَر، وصيّر ذرّيّتَه أنبياءَ يُقتدَى بهم في الدّين والصّلاح، لينوّهَ بهم في القرآن الكريم، باعتبارِهم النّموذجَ الأمثلَ للبشريّة، في جعْلِهم قُدوةً للنّاس على مدَى الزّمان الّذي عاشوا فيه، من حيث إنّ إرسالَ الرُّسل من ذريّةِ إبراهيمَ، إشارةٌ إلى جلالة الاصطفاءِ، وكرم المَحتِد، المُتوارَثِ كابرًا عن كابر، وفي ذلك الإسناد إبرازٌ للفاعل الحقيقيِّ بصورة العظمةِ والإجلالِ، الَّذي تُسندُ إليه الأفعالُ كلُّها حتى لا يغيبَ عن بال المادحينَ للأنبياء صورةُ الفاعلِ الحقيقيِّ الَّذي اصْطفاهم وجعَلَهم صالحين وأئمّةً هادينَ إلى الصِّراط المستقيم.

أثرُ تَكرارِ الفعل (جَعَلْنا) في النّظم:

تأكيدُ اصطفاءِ إبراهيمَ وذرّيّتِه منَ الأنبياء عليهم السلام

يدلُّ تَكرارُ الفعلِ (جعل) في قوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾، بعد أن قال قبله: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72]، على التّأكيدِ المُظهرِ للاهتمام بهذا الجعْلِ الشّريفِ، وهو جعْلُهم هادين للنّاس، بعد أن جعَلَهم صالحين في أنفسِهم، فأعيدَ الفعلُ ليكونَ له مزيدُ استقرارٍ في نفسِ المُتلقّي فيسألَ اللّه تعالى الجعْلَ على منوالِهم والاهتداءَ بأنوارِهم، ولأنّ في إعادة الفعل، إعادةَ ذكْرِ المفعول الأوّل، وهو إبراهيمُ وذرّيّتُه عليهم السلام، فكانت إعادتُه وسيلةً إلى إعادة ذكْرِ المفعولِ الأوّل[1]، وهو بذلك يُعطي فسحةً لتكييفِ الجملةِ، واستيعابِ المعنَى، وفقًا لما يتماشى مع غرضِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 109.

السّياقِ، وفي توظيفِ (التّكرار الفعليّ) ما يدلُّ على توالي النِّعم وتلاحُقِ الكمالاتِ المتعلّقةِ بالنّفسِ والغيْرِ؛ إظهارًا لقَدرِهم الشّريفِ، وإبرازًا لمكانتِهم العظيمةِ الَّتي صيّرَهمُ اللّه تعالى إليها، وقد تعلَّقَ الجعلُ الأولُ بكلِّ واحدٍ منهم؛ لأنَّ صلاحَهم الذّاتيَّ متعلِّقٌ بكلِّ واحد منهم، وأمّا الجعلُ الثاني فقد تعلَّقَ بمجموعِهم، وذلك التّغايرُ يدلُّ على أنَّ الإصلاحَ المتعدّي للغير قد وقعَ في مجموعِهم دون كلِّ واحدٍ منهم كما هو الواقعُ في الإمامةِ لهم والهدايةِ بالأمر الإلهيِّ.

بَلاغةُ فنّ الاستعارةِ في السّياقِ المُبين:

هدايةُ الإرشادِ خاصّةٌ بالرُّسل وهدايةُ التّوفيق والإيصال لله الأجلّ

استُعير الفعلُ ﴿يَهۡدُونَ﴾ في قوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾، لمعنى الفعل (يَدْعونَ)، بجامعِ أنَّ الدّعوةَ للخير دلالةٌ وهدايةٌ إليه، والمعنَى: أنّهم يَدعون النّاس إلى دين اللّه تعالى[1]، وإن لم يَقبَلوه[2]، والحاملُ على القول بالاستعارة هنا أنّ الهدايةَ بيد اللّه وحدَه، وإنّما الأنبياءُ يَدعونَ النّاسَ ويُرشِدونَهم إلى طريق الحقّ، كما يدلُّ مجيءُ الفعل ﴿يَهۡدُونَ﴾ بصيغة المضارع على لزومهم الاستقامةَ ودوامِ دعوتِهم، إلى طريق اللّه ﷻ، ولمّا كانت الدّعوةُ إلى اللّه تعالى منهم دائمةً مُستمرةً متواليةً ترتَّب عليها الهدايةُ والإيصالُ إلى الطريق المستقيم؛ فأوثرَ التَّعبيرُ بـ(الهداية) على التَّعبير بمجرّد (الدعوة) والإرشاد؛ إعلاءً لقدْرِهم ورفعًا لمكانةِ دعوتِهم على سائرِ الدّعوات، وبذلك يتناسبُ اختيارُ (الهداية) مع (الإمامة)؛ لأنّ من شأن الإمامِ المتقدّمِ على جماعتِه أنْ يَهديَهم ويدلَّهم على الطريقِ والعاقبةِ الحسنةِ، بخلاف مجرّدِ (الدعوة).

دلالةُ التّقييد بالجملةِ الفعليّةِ ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾:

وردتِ الجملةُ ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ في قوله تعالى ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 161.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 554.

تقييدُ الهدايةِ باتّباعِ أوامرِ الله ونواهيه من أسبابِ الرِّضا والقَبولِ

﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ في موضع الحالِ منَ المفعولِ الأوّلِ مُقيِّدةً لمعنى الإمامةِ، أي: إنّهم أئمّةُ هُدًى وإرشادٍ[1]، كما يُستفادُ من هذا التّقييدِ أنّ الدّعوةَ إلى الحقِّ، والمنْعَ عنِ الباطل، لا يجوزُ إلّا بأمرِ اللّه تعالى؛ لأنّ الأمرَ لو لم يكن معتبَرًا، لَما كان في قوله ﴿بِأَمۡرِنَا﴾ فائدةٌ[2]، والهدايةُ بأمرِ اللّه تعالى، توفيقٌ عليٌّ، وتسديدٌ جليٌّ، تنقشعُ به سُحُبُ الضّلالةِ، وتتوارَى به ملامحُ الجهالةِ، وتتبدّى بها معالمُ اليقين، وخصائصُ الحقّ المُستبين، ويكونُ توفيقُ اللّه للهُداة والدّعاةِ سبيلًا لإبراز حقيقةِ الإمامةِ المُبلِّغة عنِ اللّه، بما قيّدَتْه الآيةُ الآنفةُ، ونلمحُ في اختيار (الحال) جملةً فعليّةً بصيغةِ المضارعِ دلالةً على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لحدَثِ الهدايةِ، وكأنّ الهدايةَ تصدرُ منهم في جميعِ أحوالِهم وأقوالِهم وهيئاتِهم.

دلالةُ لفظِ ﴿يَهۡدُونَ﴾ على الصّلاحِ والبلاغِ:

صلاحُ النّفسِ شرطٌ في إصلاحِ الآخرين حالةَ الهدايةِ بأمرِ الله تعالى

يُستفادُ من لفظ ﴿يَهۡدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾، أنّ الأنبياءَ كاملون في أنفسِهم مهتدونَ؛ لأنّ من صلُحَ ليكونَ قُدوةً في دين اللّه، فالهدايةُ محتومةٌ عليه مأمورٌ هو بها، ليس له أن يُخِلَّ بها، ويتثاقلَ عنها، وأوّلُ ذلك أن يهتديَ بنفسه؛ لأنّ الانتفاعَ بهُداه أعمُّ والنّفوسَ إلى الاهتداءِ بالمهدي أميَلُ[3]، كما يُستفادُ من اللّفظ أيضًا تحديدُ الوظيفةِ الأصليَّةِ للأنبياءِ والدّعاة والمرشدينَ إلى الحقِّ تعالى؛ فهم يقدِّمون الهدايةَ والدّلالةَ الموصلةَ للمطلوب والحقِّ.

دلالةُ عدمِ ذكرِ المفعولِ به للفعل ﴿يَهۡدُونَ﴾:

حُذفَ معمولا الفعل ﴿يَهۡدُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 110.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 161.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 127.

أهمّيةُ الدّعوةِ إلى صراطِ الله في الدّلالةِ على هدايةِ الله

﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾، والتّقديرُ: (يَهدونَ النّاسَ طريقَ الحق)، والنّكتةُ في حذفِهما التّركيزُ على فعل الهدايةِ، لأهمّيّته في ذاته، والاقتصارِ على إثبات معنى الفعلِ، لإفادة الوجودِ المجرّدِ في الشّيءِ دونَ التّعرّضِ للمعمول[1]، فيُجعلُ المتعدّي كغيرِ المتعدّي في أنّك لا ترى له مفعولًا، لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلامُ مُنصبّا إلى غرضٍ منَ الأغراض، جُعل سياقُه له وتوجّهُه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[2]، كما يُستفادُ من تنزيل المُتعدّي منزلةَ اللّازم أنَّ صفة الهداية قد لابستْ هؤلاءِ الأنبياءَ ولازمَتْهم في جميع شؤونِ حياتِهم، فهم لا يتجرّدون عنها في أقوالِهم وأفعالِهم، وفي ذلك التّنزيلِ أيضًا توجيهٌ ربانيٌّ للدّعاةِ والمُرشدين أن يَقصدوا من فعلِهم الدَّعوةَ ذاتَها والإرشادَ نفسَه دونَ الاكتراث بنتائج الدّعوةِ وثمراتِ الإرشاد الَّتي تتحقّقُ بكثرةِ الأتباعِ وتكاثُرِ المُهتدين، كما أفاد تحويلُ المُتعدّي إلى لازم أنَّ اتّصافَ المُرشدين بالهداية كافٍ في نشر أثَرِها في الأتباع، وانتشارِ نورِها عند الآخرين.

دلالةُ ضميرِ الجمْعِ في ﴿يَهۡدُونَ﴾:

بيانُ أنَّ مُهمّةَ الأنبياءِ عليهم السلام جميعًا هي التّوحيدُ

يدلُّ ضميرُ الجمعِ في ﴿يَهۡدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ على أنّ دعوةَ جميعِ الأنبياءِ واحدةٌ، وهي الدّعوةُ إلى توحيدِ الله، وإخلاصِ العبادةِ له سبحانه وتعالى، وتركِ عبادة ما سواه، مِصداقًا لكثيرٍ منَ الآيات منها: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيّنة: 5]، وقولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: 25]، وقولِه أيضًا: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النّحل: 36] فتشابهت مُهمّةُ الأنبياءِ عليهم السلام، في الوسيلةِ والغايةِ،

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

كما أفادَ الضّميرُ الرّبطَ بين جعْلِهم أئمّةً والهدايةِ الّتي لا تنفكُّ عنهم، إذِ الضّميرُ يربطُ بين الحالِ وصاحبِه ممّا يولّدُ تماسكًا في النّصّ وارتباطًا بين مكوّناته.

دلالةُ الباءِ على الملابسةِ في قوله: ﴿بِأَمۡرِنَا﴾:

بيانُ أنّ إرشادَ الأنبياءِ ﷺ النّاسَ هو الوحيُ في الأساسِ

تعدّى الفعلُ ﴿يَهۡدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ بحرف الجرّ (الباء)، ومعناه هنا (الملابسةُ)، أي: إنّ الأنبياءَ يُرشدون النّاسَ مُتلبّسين بما أنزل اللّه عليهم، منَ الوحْيِ والأمرِ والنّهيِ، فكأنّه قال: (يهدون بكتابنا) لا يَخرجون عمّا أمرناهم فيه من أوامرَ، وإنّما عبّرَ عنِ الكتاب بالأمرِ مجازًا لعلاقةِ الحاليّةِ، فسُمّي الكتابُ الّذي يَعملونَ به ويأتمرون بأوامره بالأمرِ؛ لأنّها حالةٌ فيه، وفي ذلك تشخيصٌ دقيقٌ لمناطِ العملِ بالكتابِ، وهو الالتزامُ بالأوامرِ الواقعةِ فيه، وقيل: المعنى: (يَهدون النّاسَ إلى ديننا بأمرنا إيّاهم بإرشادِ الخلقِ، ودعائهم إلى التّوحيد)[1]، وهدايةُ النّاسِ الملابسةُ لأمرِ اللّه، تكون دعوةً للحقِّ وإلى صراطٍ مستقيم، وما كان متلبّسًا ومختلطًا ومتداخلًا بأمرِ اللّه فهو المناطُ باليقينِ، والمُرتبطُ بالنّهجِ الواضحِ المُستبين.

دلالةُ الارتباطِ بين (الهداية) و(أمر الله):

اتّباعُ مَن يَهدي بأمر الله سبيلُ الأنبياءِ المُكلَّفين منَ الله

ارتبطتِ الهدايةُ والإرشادُ بأمرِ اللّه، في قوله تعالى: ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾، للإشارةِ إلى طاعةِ الأنبياءِ ﷺ، لربِّهم أوّلًا، ولبيانِ صواب ما يدعون إليه، وأنّه الحقُّ لا ريبَ فيه[2]، وأنّ الدّعوةَ إلى الحقِّ والمنعَ عنِ الباطل، لا يجوزُ إلّا بأمرِ اللّه تعالى، وجعْلُهم يَهدون بأمرِ اللّه، أي: يُهتدَى بهم في أمرِ اللّه، أو يُؤتمُّ بهم في الخير، أو يَهدون النّاسَ بأمرِ اللّه إياهم بذلك، ويدعونَهم ببصيرةٍ إلى كنفِ الهدايةِ، ومَسلك العنايةِ، وعبادةِ اللّه تعالى، تحقيقًا لشرفِ تلك الغاية.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 305.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4895.

نُكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾:

توقيرُ أمرِ الله العظيمِ يعكسُ الامتثالَ لوحْيِه الكريم

أُضيفَ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ إلى ضمير (نا) الّتي تدلُّ على تعظيم الآمرِ سُبحانه، وعلياء قدْرِه، ممّا يترتّبُ على ذلك عِظَمُ الأمرِ في نفسه؛ لأنّ المضافَ يكتسبُ تشريفَه وعظمَتَه منَ المضاف إليه، لتعدّدِ صفاتِه الحميدة، ومواهبِه الجزيلةِ، فإنّ مثلَ هذا التّعبيرِ يُعبّرُ به الملوكُ والعظماءُ النّافذُ أمرُهم ونهْيُهم، ويَستلزمُ هذا التّنويهَ بشأنِ وحْيِ اللّه وتفخيمَ قدْرِه، وإدخالَ المهابةِ في قلوب العبادِ، فهو أمرٌ من عند العظيم سبحانه[1].

دلالةُ واوِ العطفِ في قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾:

بيانُ ما جمعَ لذرّيّة إبراهيمَ عليه السلام بين النّبوّةِ والشّرفِ والإرشادِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾، على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾، بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ والاقتران؛ إذ يتقارنُ في الخيال جعلُهم أئمّةً مُرشدين والإيحاءُ إليهم بفعلِ الصّالحات، فجمع اللّه لذرّيةِ إبراهيم عليه السلام بين الإمامةِ والهدايةِ والإرشادِ، وبين الاختصاصِ بالوحْيِ والنّبوّةِ والرّسالةِ، وذلك من أعظم النِّعَم عليهم في أنفسِهم، وعلى أبيهم إبراهيمَ عليه السلام[2]، وهي عطايا متلاحقةٌ منَ اللّه تتوالى على هؤلاء البَررةِ، ممّن حملَ مشعلَ الهدايةِ، وانقطع للدّعوةِ والعبادةِ، والقربِ منَ اللّه تعالى، وكان الوحْيُ إليهم بالشّريعةِ المنزّلةِ عليهم، لتحقيقِ مرادِ اللّه كما أوحَى به عليهم، وفي ذلك محضُ تقديرِهم، ومناطُ سعادتِهم، في العاجلةِ والآجلةِ.

سرُّ إسنادِ الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ إلى ضميرِ العظمةِ:

تفخيمُ شأنِ الوحيِ بالأمرِ المرادِ في قلوبِ العبادِ

أُسنِدَ فعلُ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ إلى ضميرِ (نا)، للدّلالةِ على عظمةِ الموحي سبحانَه، فهو مصدرُ الوحيِ الأوحدُ، وفيه أيضًا الدّلالةُ على عظمةِ اللّه جل جلاله وعلياء قدرِه، مع إدخال المهابةِ في قلوب العباد، لتفخيم

---

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 161.

وحْيِ العظيمِ سبحانه، وامتثالِ أوامره ونواهيه، ونلمحُ أيضًا عظمة الوحْيِ نفسِه وفخامةِ شأنه وجلالةِ قدْرِه من عظمَةِ الموحي وهيبَتِه، وفي ذلك إرشادٌ للموحَى إليهم أن يُعظِّموا وحْيَ الله ويُفخِّموا أمرَه بالعملِ والالتزامِ بشرعِه.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ في الآية:

ملمحُ بلوغِ الوحْي وانتهائِه إلى الأنبياءِ عليهم السلام

عُدّيَ الفعلُ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾ بحرف الجرّ (إلى) الدّالِّ على الوصول والانتهاءِ، للتّعبيرِ عن بلوغِ الوحْي للأنبياء عليهم السلام، وانتهائِه إليهم انتهاءَ تمكُّنٍ واستقرارٍ بواسطة رسولِ اللّه منَ الملائكة، وهو جبريلُ عليه السلام، وفي تشخيص الموحَى إليهم دون غيرِهم إجلالٌ لهم وبيانٌ لامتيازِهم عن غيرهم، وأفاد ضميرُ الجمعِ الرّبطَ بين الجُملتَين المتعاطفتَين لتبدوا كأنّهما لُحمةٌ واحدةٌ في سياقٍ نَصّي متماسكٍ، والضّميرُ العائدُ إلى الأئمّةِ الهُداةِ يُعطي التّعليلَ الواضحَ لسرّ الاجتباءِ والإيحاءِ إليهم دون من سِواهم منَ النّاسِ.

نُكتةُ تقدّمِ شبْهِ الجملةِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على معمول الفعلِ:

اختصاصُ الواهبِ سبحانَه إبراهيمَ عليه السلام وذرّيّته بالنّبوّة

تقدّمَ شبْهُ الجملةِ الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به، في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، لنُكتة بلاغيّةٍ، وهي الاختصاصُ بشرفِ النّبوّةِ، لأنّ الإيحاءَ هو التّنبئةُ، بمعنى اختصاصِ إبراهيمَ عليه السلام وذرّيّته، بالوحيِ دون غيرِهم، وفي ذلك تكريمٌ وتشريفٌ للأب وذرّيّته[1]، كما أفاد تقديمُ شبْهِ الجملةِ على معمول الفعْلِ اختصاصَهم بإيحاءِ فعْلِ الخيرِ إليهم دون مَن سواهم، وفي ذلك كمالُ المدحِ لهم، فكلُّ ما يصدرُ عن هذه الذّرّيةِ الطيّبةِ من إرشادٍ وسلوكٍ وصفاتٍ فهي من ثمراتِ تخصيصِ الوحْيِ إليهم دون غيرِهم بفعلِ الخيراتِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 452.

دلالةُ الجمْعِ بين (الوحْيِ) و(فعلِ الخيرات):

بلوغُ الكمالِ بالجمْعِ بين العلمِ والعملِ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، الجمعَ بين العلمِ المتمثّلِ في قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾؛ لأنّ الوحْيَ والإلهامَ نقلُ معلوماتٍ ممّا يستلزمُ اكتسابَ علم وفهم، والعملِ المُتمثّلِ في قوله: ﴿فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾؛ إذ تعلّقَ الإيحاءُ بمطلوبٍ عمليٍّ يستلزمُ الامتثالَ والقيامَ بالفعل للخير، وذلك للدّلالةِ على كمال الأنبياءِ ، بانضمام العملِ إلى العلم[1]، فقد ألهمَ اللّه ﷻ نفوسَهم العلمَ والشّرائعَ وكلّفَ جوارحَهم فعْلَ الخيراتِ والانهماكِ بها.

دلالةُ عبارةِ ﴿فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ في الآية:

الأمـرُ للأنبياء أمـرٌ لأتباعِهم بمضمون الأحكامِ

اختلفَ المُفسّرون رحمهمُ اللّه في دلالة قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، فاستشكلَ بعضُهم كونَ فعْلِ الخيرات، وإقام الصّلاة وإيتاءِ الزّكاة، ليس من الأحكام المختصّةِ بالموحَى إليهم، بل هم وغيرُهم في ذلك مشتركون فيه، فقال إنّ قوله: ﴿فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، أصلُه: (أنْ تُفْعَلَ الخيراتُ، ثمّ فِعْلًا للخيراتِ، ثمّ فِعْلَ الخيراتِ)[2]، فبنَى الفعلَ للمفعول حتّى لا يكونَ المصدرُ مضافًا، من حيث المعنَى إلى ضميرِ الموحَى إليهم، فلا يكونُ التّقديرُ: (فعْلُهم الخيراتِ)، بمعنى أنّه ليس مختصًّا بالمخاطَبين منَ الموحَى إليهم وحدَهم، بل هي لهم ولغيرهم[3]، وعلى هذا التّخريجِ تكونُ الخيراتُ مفعولةً للنّاس كلِّهم، فحُذفَ الفاعلُ للتّعميم مع الاختصارِ لاقتضاء المفعولِ إيّاه، ويجوزُ أن يكونَ فعلُ الخيرات، هو الموحَى به، أي وأوحَيْنا إليهم هذا الكلامَ واللّفظَ المخصوصَ وهو ﴿فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، فيكونُ لفظُ فعلِ الخيرات هو الموحَى به إليهم ليبلِّغوه للنّاس أجمعين، وحينئذٍ يكونُ المصدرُ قائمًا مقامَ الفعل مُرادًا به الطّلبُ، والتّقديرُ: (افعلوا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 56.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 127.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 452.

الخيراتِ)، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمّد: 4][1]، على أنّه يمكنُ دفعُ الاستشكالِ بأنَّ الإيحاءَ إلى الأنبياء عليهم السلام بأن يفعلوا الخيراتِ ويُقيموا الصّلاةَ ويُؤتوا الزكاة أمرٌ للأتباع أيضًا؛ لأنَّ من شأنِ الأئمّةِ الهُداة أن تكونَ أفعالُهم وأقوالُهم محلَّ الاقتداءِ والامتثالِ، وفي ذلك التَّعبير تطْمينٌ لقلوب الأتباع بأنّهم لا يكلَّفون إلّا بما يُكلَّفُ به الأنبياءُ والدّعاةُ والمرشدون أنفسُهم، فتخضعُ نفوسُهم لأوامرِهم وتمتثلُ جوارحُهم لآدابِهم.

بَلاغةُ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ في الآية:

أفضلُ العباداتِ البدنيّةِ الصّلاةُ وأفضلُ العباداتِ الماليّةِ الزّكاةُ

عُطِف في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ خاصٌّ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾، على عامٍّ، وهو قولُه تعالى: ﴿فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، وبلاغتُه التّنبيهُ على مزيَّةٍ وفضْلٍ في الخاصّ، حتّى كأنّه لفضْلِه ورفعتِه، جزءٌ آخرُ مُغايِرٌ لما قبلَه، فتخصيصُ إقام الصّلاةِ وإيتاءِ الزّكاة بالذّكرِ بعد شمولِ الخيراتِ إيّاهما، تنويهٌ بشأنِهما؛ لأنّ بالصّلاة صلاحَ النّفس، إذِ الصّلاةُ تنهى عنِ الفحشاء والمُنكرِ، وبالزّكاة صلاحُ المجتمع، لكفايةِ عَوَزِ المُعوَزين[2].

كما أنَّ مجيء كلمة ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وهو جمعٌ معرّفٌ بـ(أل) يفيدُ الاستغراقَ والشّمولَ لكل أفرادِ الخيرِ وصوره المُتنوّعةِ، وتخصيصُ الصّلاةِ والزّكاة بالذّكرِ من بين صور الخيراتِ تنويهٌ بشأنِهما وخيريّتِهما، وأنّهما من أعلى صور الخيراتِ وأكملِ نماذجِه؛ لأنّهما أساسا العباداتِ البدنيّةِ والماليّة.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في السّياق:

اقترانُ لفظِ الصّلاةِ بإقامتِها تنويهٌ بجوهرِ الصّلاةِ وغرَضِها

وأوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لفظُ ﴿وَإِقَامَ﴾ على (إقامة)، وقد نصّ سيبَوَيه في باب (ما لحقتْه هاءُ التّأنيثِ عوضًا لما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 110.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 111.

ذَهب) على أنّه مصدرٌ بمعنى الإقامة[1]، وإن كان الأكثرُ (الإقامةَ) بالتّاء، وهو المَقيسُ في مصدرِ (أفعلَ) إذا اعتلّت عينُه، والنُّكتةُ في مجيئه محذوفَ التّاء، أنّه قابلَ ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، وهو بغير تاء، فتقعُ الموازنةُ والمشاكلةُ بين قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[2].

نُكتةُ تقديمِ ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾:

بيانُ أنّ الصّلاةَ ركنُ الدّين وأوّلُ ما يُحاسَبُ عليه يومَ الدّين

قُدِّمَ في قولِه تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ذِكْرُ إقامةِ الصّلاة على إيتاء الزّكاة إشعارًا بأهمّيةِ الصّلاةِ وتنويهًا بفضلِها، فهي عمادُ الدّين، من أقامَها فقد أقامَه، ومن هدّمَها فقد هدّمَه، والصّلاةُ مُتضمّنةٌ للإخلاصِ للمعبودِ، والزّكاةُ والنّفقةُ متضمّنةٌ للإحسان إلى عبيدِه، فعنوانُ سعادةِ العبدِ، إخلاصُه للمعبودِ، وسعيُه في نفعِ الخلْقِ[3]، والصّلاةُ أشرفُ العباداتِ البدنيّةِ، والزّكاةُ أفضلُ العباداتِ الماليّةِ، فقدّمَ ما تعلّقَ بصلاح الفردِ على ما تعلّقَ بصلاحِ المجتمعِ، لأنّ صلاحَ الكلِّ مرهونٌ بصلاح الجزءِ، ومجموعُ الصّلاةِ والزّكاةِ تعظيمُ الخالقِ، والشفقةُ على المخلوقِ[4].

كما أنَّ إقامةَ الصّلاةِ يَستطيعُها الغنيُّ والفقيرُ بخلاف الزّكاة، فكان تقديمُها بيانًا لإمكانِ قُدرةِ الكافّةِ على فعْلِها، وتَساوي الجميع في التّعبُّدِ بها، فيكونُ التّقديمُ لها لعمومِها باعتبار المُؤدين لها، وبهذا ينتقلُ النّصُّ منَ الأعمِّ وهو فعْلُ الخيرات إلى الأخصِّ منه وهو إقامُ الصّلاةِ وإلى الأخصِّ منهما وهو إيتاءُ الزّكاةِ، وفي ذلك التّرتّبِ منَ الحُسن والجمالِ ما يَروقُ ويُعجبُ.

دلالةُ الآية على وجودِ الصّلاةِ والزّكاةِ قبل الإسلام:

أشار قولُه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 83.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 183.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 40.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 136.

بيانُ مظاهرِ تحقيقِ العبوديّةِ للهِ ﷻ في كلّ الشّرائعِ السّماويّةِ

﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، إلى وجود الأمرِ بالصّلاة والزّكاة في الشّرائعِ السّابقةِ للإسلام، وهو ممّا تضافرت عليه النّصوصُ، إلّا أنّهما ليسا كالصّلاةِ والزّكاةِ المفروضتَيْن على هذه الأمّةِ المحمديّةِ على نبيِّها أفضلُ الصّلاة وأكملُ التّحيّةِ[1]، فقد أخبر تعالى عن عيسى عليه السلام، بأنّه قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: 31]، وقال عن إسماعيلَ عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: 55]، وحكى عن إبراهيمَ عليه السلام أنّه قال في دعائه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: 40]، فأخبرنا الله تعالى بمشروعيّةِ هذه العباداتِ للأنبياء ولأتباعِهم، قبْلَ نبيِّنا ﷺ، ولم يُخبِرْنا عن كيفيّة فعْلِهم للصّلاة، ومقاديرِ الأموالِ الّتي يجبُ إخراجُها، فهذا ممّا تختلفُ فيه الشّرائعُ، وفي هذا الإبلاغِ تخفيفُ التّكليفِ على هذه الأمّةِ وتهوينُ المشقّةِ؛ إذ معرفتُها بفرض الصّلاةِ والزّكاةِ على الأمم السّابقةِ مُهوّنٌ من صعوبة التّكليفِ ومُقلّلٌ من مشقّةِ الابتلاء والاختبار.

دلالةُ تصديرِ الجملةِ بفعْلِ الكينونةِ ﴿وَكَانُواْ﴾:

عبوديّةُ الأنبياءِ عليهم السلام تتّصفُ بالدّوامِ والثّبوتِ

استهلّ قولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، بفعل الكينونة ﴿وَكَانُواْ﴾، وهو يأتي في الأصلِ للاتّصافِ بالخبرِ في الماضي مع الانقطاع، غيرَ أنّه يخرجُ لدلالةِ الدّوام والاستمرارِ، فتختصُّ (كان) بمرادفة لم يزل كثيرًا، أي: إنّها تأتي دالّةً على الدّوام[2]، وهي الدّلالةُ المقصودةُ في هذه الآية، فالعبوديّةُ وصفٌ دائمٌ ثابتٌ للأنبياءِ عليهم السلام، وإنّما عبّرَ عنِ الاستمراريةِ بفعل الكونِ الماضي ليتناغمَ وينسجمَ مع الفعل الماضي ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾؛ ليكونَ بمثابةِ الإخبار عنِ امتثالِهم لِما أوحي إليهم في الزّمن الماضي المُناسبِ للإيحاءِ إليهم ماضيًا،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.

(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.

فلم يَتخلَّفوا عنِ التّكليفِ الماضي قيْدَ شعرةٍ، بل تحقّق منهمُ العملُ ماضيًا واستمرّوا عليه.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَنَا﴾ في الآية:

تخـصـيـصُ الأنـبـيـاءِ عليهم السلام اللهَ عز وجل وحدَه بالعبادةِ

تقدّمَ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَنَا﴾ على الخبر ﴿عَٰبِدِينَ﴾ للدّلالةِ على تخصيصِ اللّه عز وجل وحدَه بالعبوديّة، ويُقصدُ بالاختصاصِ هنا قصْرُ المسنَدِ إليه على المسنَدِ، والمعنى: (وكانوا لَنا خاصّةً دون غيرِنا عابدِينَ، لا يخطرُ ببالِهم غيرُ عبادتِنا)، كأنّه تعالى أشارَ بذلك إلى أنّهم وفَّوْا بعهدِ العبوديّةِ بعد أن أشارَ إلى أنّه سبحانه، وفّى لهم بعهدِ الرّبوبيّةِ[1]، كما أفاد تقديمُ الجارّ والمجرورِ على ﴿عَٰبِدِينَ﴾ أنَّ شرطَ العبادةِ الصّحيحةِ تخصيصُ اللّه تعالى بالعبوديّة، وإفرادُه بالطّاعةِ والخضوعِ له وحدَه، وفي التَّعبيرِ بالضّميرِ الدّالِّ على الجمعِ في ﴿لَنَا﴾ إشارةٌ إلى سرِّ إفراد العبوديّةِ به دونَ غيره؛ لأنّه العظيمُ الّذي لا يَستحقُّ غيرُه التّعظيمَ والعبادةَ، ولينسجمَ مع الضّمائرِ في ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ و﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ الدّالّةِ على عنايتِه العظيمةِ بهم ومن ثمّ أفْرَدوه بالعبادةِ والخضوعِ لعظمتِه.

سِرُّ استعمالِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿عَٰبِدِينَ﴾ في الآية:

اتّصافُ الأنبياءِ عليهم السلام بالعبوديّةِ على الدّوامِ

عُبِّرَ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، باسم الفاعل ﴿عَٰبِدِينَ﴾؛ للدّلالة على لزومِهم العبادةَ والدّوامَ عليها، حتّى تصيرَ العبادةُ وصفًا لهم، فهم في عبادةٍ مستمرّةٍ آناءَ اللّيل وأطرافَ النّهار[2]، و(العابدون) وإن كان اسْمَ فاعلٍ من حيث الصّيغةُ المشهورةُ، لكنّه بقرينةِ السّياقِ يفيدُ الاتّصافَ الملازمَ والاستمرارَ الدّائمَ، فهو (صفةٌ مشبّهةٌ) مفيدةٌ لدوامِ الوصفِ وثبوتِه، وفي ذلك كمالُ المدحِ لهم بالثّبوتِ على المبدأِ وعدمِ التّذبذبِ في العبادةِ، والعبادةُ غايةُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4895.

التّذلّلِ للخالقِ، ومُطلقُ الإقرارِ له بالوَحدانيّةِ منَ الخلائق، والبشرُ لا قيمةَ لهم خارجَ دائرةِ العبادةِ، فهي علّةُ خلْقِ المخلوقين منَ الثّقلَين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، وعليه فمعنى ﴿عَٰبِدِينَ﴾، أي: "مُديمين على العباداتِ القلبيّةِ والقوليّةِ والبدنيّةِ، في أكثر أوقاتِهم، فاستحقّوا أن تكونَ العبادةُ وصْفَهم، فاتّصَفوا بما أمرَ اللّه به الخلْقَ، وخلَقَهم لأجلِه"[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأئمّةُ والأنبياءُ:

كلّ نبيٍّ إمامٌ وليس كلُّ إمامٍ نبيًّا

يتجلّى الفرقُ بين لفظَيْ (أئمّة) و(أنبياء)، في علاقة العموم والخصوصِ المطلَقِ بينهما، فالإمامُ عامٌّ في كلِّ من يُؤتمُّ به، إنسانًا كان فيُقتدَى بقوله أو فعلِه، أو كتابًا، أو غيرَ ذلك مُحقًّا كان أوْ مُبطِلًا[2]، أمّا النّبيُّ فهو إمامٌ خاصٌّ بهداية النّاس إلى الخيرِ والرّشادِ، فيكونُ كلُّ نبيٍّ إمامًا، أي: مُقتدىً به، وليس كلُّ إمامٍ نبيًّا، فجعلَ اللّه في الآية الأنبياءَ ﷺ أئمّةً يَقتدي بهم النّاسُ، في خصالِ الخيرِ والعبوديّةِ للّه بيانًا لاستحقاقِهم الإمامةَ بالنّبوّةِ وتصريحًا بما عُلِم ضمنًا منها.

الهُدى والرُّشدُ:

الهُدَى يكونُ في العلْمِ والرُّشدُ يكونُ عادةً في العملِ إذا ذُكرا معًا

يتجلّى الفرقُ بين لفظَيْ (يَهدونَ) و(يَرْشُدونَ)، في اختلاف ضِدَّيْهما، فالرُّشدُ يُقابَلُ بالغَيِّ، والهُدى يُقابَلُ بالضَّلالِ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146] وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: 256] وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16] وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: 7]، والرُّشدُ والهُدى:

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 527.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمم).

الاستقامةُ عند انفرادِهما فيدخلُ أحدُهما في الآخر، فإذا اجتمعا فُرِّقَ بينَهما، وإذا ذُكِرَ الهدى وحدَه فإنَّه يشملُ الرُّشدَ لأنّه من لوازمه، وإذا ذُكِرَ الرُّشدُ وحدَه دخلَ فيه الهُدى لأنه من مُسبّباتِه، فالرُّشدُ يتضمَّنُ الهُدى لكونه سببًا له، والهُدى يتضمَّنُ الرُّشدَ لأنّه أثرٌ من آثاره، ولكن إذا ذُكِرا معًا - الهدى والرُّشدُ - فُرِّق بينَهما بأنَّ الهُدى الاستقامةُ في العلمِ، والرُّشدَ الاستقامةُ في العمل[1]، كما أنّ الهُدى يُستعملُ كثيرًا في سياق أحوالِ العبد الدّينيّةِ مع ربِّه ﷻ، أمّا الرّشدُ فيُستعملُ في ذلك، ويُستعملُ في أحوال الدّنيا، فيُطلقُ على سنّ البلوغ، وعلى حُسنِ التّصرّفِ في المال وضدُّه السّفَهُ، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 6]، فأوثِرَ في الآية لفظُ ﴿يَهۡدُونَ﴾ وإنِ اشتملَ على معنَى الرُّشدِ، لتعلّقِه بالأنبياءِ وهدايتِهم النّاسَ الحيارَى إلى طريقِ اللّه المستقيم، بخلافِ الرُّشدِ الّذي لا يَستلزمُ حالةَ الحَيرةِ في الغيِّ والانهماكِ في الأخطاء، إذ حالةُ الضَّلال تُرافقُها حَيرةٌ نفسيّةٌ وشكوكٌ مصيريّةٌ وحالةُ الغيِّ وممارسةِ الأخطاءِ العمليّةِ تخلو من تلك الهواجسِ والشُّكوكِ.

(1) ابن القيّم، مصباح التفاسير القرآنية الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية: 6/ 274.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [الأنبياء: 74 - 75]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

عطفُ قصّةِ لوطٍ بتفاصيلها على قصّة عمِّه إبراهيمَ عليهما السلام

لـمّا ذَكَرَ اللّه سبحانه ما أنعمَ به على إبراهيمَ عليه السلام، من نِعَم شتّى، على رأسِها ما وهبَه من ذريّةٍ صالحةٍ، من الأبناءِ الهادين، والأحفادِ العابدين، الّذين كانوا أنبياءَ مُبلِّغين، ورُسُلًا مُصطفَينَ، وذلك من أعظمِ الإنعامِ وأرْقاهُ، أتبعَهُ بذكر ما أنعمَ به على مَن هاجَرَ معه، فارًّا بدينه، وهو لوطُ ابنُ أخيه، لِما جَمَعَ بينَهما من قبلُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُكۡمٗا﴾: (حكم) أصلٌ واحدٌ، وهو المَنْعُ، وأوَّلُ ذَلِك الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وسُمّيتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ لِأنَّها تَمْنَعُها من اختلال سيْرِها، والحِكْمَةُ هَذا قياسُها، لِأنَّها تَمْنَعُ صاحبَها مِنَ الجَهْلِ[2]، والحُكم، بالضّمّ: القضاءُ في الشّيء بأنّه كذا أوْ ليس بكذا، سواءٌ لزم ذلك غيرَه أم لا، هذا قولُ أهلِ اللّغة، وخصّصَ بعضُهم، فقال: القضاءُ بالعدل، نقلَه الأزهريُّ[3]، والحُكْمُ أعمُّ مِنَ الحِكْمَةِ، فكلُّ حِكْمَةٍ حُكْمٌ، وليس كلُّ حُكمٍ حِكْمَةً، فإنّ الحكمَ أن يُقضى بشيءٍ على شيءٍ[4]، ولهذا العموم قيل في معنى الحُكم في الآية: الحِكْمةُ، والنُّبوةُ، والعِلمُ والمعرفةُ بأمر الدّين وما يقع به الحُكمُ بين الخُصوم[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 453.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حكم).
(4) الراغب، المفردات: (حكم).
(5) القرطبي، الجامع: 11/ 288.

2) ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾: (نجو) أصلان، يدلُّ أحدُهما على كَشْطٍ وكَشْفٍ، والآخرُ على سِترٍ وإخفاءٍ، والمقصودُ هنا الأوّلُ، فنجا الإنسانُ يَنجو نجاةً، ونَجاءً في السّرعة، وهو معنَى الذّهابِ والانكشافِ منَ المكان[1]، وكلُّ ما في القرآن من هذا التّركيب فهو بمعنَى الخُلوصِ من خطرٍ مُحدِقٍ أو عذابٍ أو غرقٍ أو كربٍ... إلخ، نحوَ قوله تعالى: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: 25]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ﴾ [الأنعام: 64][2] وهو بهذا المعنى في هذه الآية، فقد خُلِّص لوطٌ بفضل الله ممّا حلَّ بقومِه.

3) ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾: (قري) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، ومن ذلك القريةُ، سُمّيتْ قريةً لاجتماع النّاسِ فيها، ويقولون: قَريتُ الماءَ في المِقراة: جمعتُه، والمِقراةُ: الجفنةُ، سُمّيتْ لاجتماع الضّيفِ عليها، أو لِما جُمع فيها من طعام[3]."وفي كفايةِ المتحفّظ: القريةُ: كلُّ مكانٍ اتّصلت به الأبنيةُ، واتُّخذ قرارًا، وتقعُ على المدن وغيرِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، قال سيبَوَيه: هذا ممّا جاء على اتّساعِ الكلامِ والاختصارِ، وإنّما يريدُ أهلَ القريةِ فاختصرَ"[4]، ولم يأتِ منَ التّركيب في القرآن إلّا القريةُ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [يس: 13]، وجمعُها (القُرى) ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: 92][5]، فلا يخرجُ معنى القريةِ في الآية عن معنى الاجتماعِ لأناسٍ كثيرين داخلَ أبنيةٍ متّصلةٍ، وبذلك تتميّزُ عن أمكنةِ أهلِ الخيام والبدْوِ.

4) ﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾: جمعُ خبيثة، (خبث) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ الطَّيِّبِ، يقال: خبيثٌ، أي: ليس بطيّبٍ[6]، والخَبيثُ أيضًا: ما يُكرَه رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصلُه الرّديء الجاري مجرَى خَبَثِ الحديد، وذلك يتناولُ الباطلَ في الاعتقاد، والكذبَ في المقالِ، والقبيحَ في الفعال[7] فيكونُ معنى الخبائث في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قري).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قري).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبث).
(7) الراغب، المفردات: (خبث).

﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ خلافَ الطّيّبات، وهي كنايةٌ عن إتيانِهم الذّكورَ خاصّةً، وسائرِ ما كانوا يأتونَه منَ المنكرات[1].

5) ﴿فَٰسِقِينَ﴾ (فسق) أصلٌ واحدٌ، وهو الخروجُ عنِ الطّاعة، تقولُ العربُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَة عن قِشرها: إذا خرجت، والفأرةُ فويسِقةٌ[2]، وجاء هذا في الحديث: قال رسولُ اللّه ﷺ: "خمِّروا الآنيةَ، وأجيفوا الأبوابَ، وأطفئوا المصابيحَ، فإنّ الفويسِقةَ ربّما جرّتِ الفتيلةَ فأحرقت أهلَ البيت"[3]، والفِسقُ أعمُّ منَ الكفر؛ فكلُّ كفرٍ فسقٌ وليس كلُّ فسقٍ كفرًا، وأكثرُ ما يقال الفاسِقُ لمِنِ التزمَ حُكمَ الشّرع وأقرَّ به، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضِها، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فاسِقٌ، فلأنّه أخلَّ بحُكمِ ما ألزمَه العقلُ، واقتضتْه الفطرةُ[4]، ولهذا أُطلقَ على قومِ لوطٍ الكافرين، وصفُ ﴿فَٰسِقِينَ﴾ لشذوذِهم وخروجِهم عنِ الفطرةِ فأخلّوا بما تَقتضيه وتتطلّبُه.

6) ﴿رَحۡمَتِنَآۖ﴾ (رحم) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الرِّقّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يقال من ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رقّ له وتَعطّفَ عَلَيْه، والرُّحْمُ والمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بمعنىً، والرَّحِمُ: علاقةُ القرابةِ[5]، والرّحمةُ من صفات اللّه ﷻ، وعلى هذا قولُ النّبيّ ﷺ ذاكرًا عن ربّه: "أنّه لمّا خلقَ الرَّحِمَ قال لها: أنا الرّحمن، وأنتِ الرّحِمُ، شققتُ اسمكِ من اسمي، فمَن وصلكِ وصلتُه، ومَن قطعَكِ بَتَتُّه"[6]، ومذهبُ السّلفِ وسائرِ الأئمّةِ إثباتُ صفة الرّحمةِ وغيرِها منَ الصّفات الّتي ورد بها الكتابُ والسّنّةُ، ومنعُ التّأويل الّذي يَصرفُها عن حقائقِها اللّائقة باللّه تعالى[7]، فمعنى ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ أدخلنا لوطًا في رحمتنا بإنجائِنا إيّاه، ممّا أحلَلْنا بقومه منَ العذاب والبلاءِ[8].

(1) الواحديّ، البسيط: 15/ 130.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(3) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (6295).
(4) الراغب، المفردات: (فسق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(6) أخرجه أبو داود، الحديث رقم: (1694)، والترمذي، الحديث رقم: (1907)، وأحمد، الحديث رقم: (1659).
(7) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاوية، ص: 472.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 473.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

فضائلُ لوطٍ عليه السلام ونجاتُه ممّا حلَّ بقومِه من هلاكٍ ساحقٍ

يُخبرُ اللّه سبحانه أنّه آتى لوطًا النّبوّةَ وفصْلَ القضاءِ بين الخصوم وعلْمًا بأمرِ اللّه ودينِه، ونجّاه من قريتِه (سدوم) الّتي كان أهلُها يعملون الخبائثَ، إنّهم كانوا بسبب الخبائثِ والمُنكراتِ الّتي يأتونَها أهلَ سوءٍ وقُبْحٍ، خارجين عن طاعةِ اللّه، وأتمَّ اللّه عليه النّعمةَ فأدخلَه في رحمتِه، بإنجائِه ممّا حلَّ بقومه؛ لأنّه كان منَ الّذين يَعملون بطاعةِ اللّه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في الآيةِ الكريمةِ:

للجُملِ دورٌ في تواصلِ المعنى أو تلاحُقِه

استهلّ قولُه تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ بحرف الواو، ويحتملُ أن تكونَ للعطفِ أوِ الاستئناف، فمن جعلها للعطفِ جوّزَ أن تكون هذه الجملةُ معطوفةً على قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾، أو أن تكونَ معطوفةً على قوله: ﴿ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51][2]، ومن جعلَها للاستئناف قال بأنّ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ منصوبٌ بفعلِ (اذكُرْ) مُقدّرًا، وجملةُ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ مستأنفةٌ[3]، ونلحظُ في كلا التّوجيهَين الإعرابيّين نُكتةً لطيفةً؛ إذِ العطفُ يدلُّ على الاشتراكِ في الإيحاءِ والإتيانِ لكلِّ خيرٍ وفضيلةٍ سابقةٍ، والاسئنافُ يدلُّ على التّميّزِ والاستقلالِ في الحكم بيانًا لمكانتِه وإظهارًا لفضلِه.

نُكتةُ حذْفِ الفعلِ للمفعول ﴿وَلُوطًا﴾:

الاهتمامُ بشأن لوطٍ عليه السلام مُرتكَزٌ مهمٌّ في بناء القصّةِ

حُذف الفعلُ النّاصبُ لـ﴿وَلُوطًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ وتقديرُه: (اذكر أو آتينا) اهتمامًا بالنّبيِّ لوطٍ عليه السلام وإبرازًا له؛ لأنّه مُرتكَزُ الحدثِ ومصبُّ الاهتمامِ وبُؤرةُ الكلام، فإن

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.

كانتِ الجملةُ استئنافيّةً فقد حُذف الفعلُ (اذكر) تفخيمًا لشأن المذكورِ وإعلاءً لدورِه البارزِ، وإن كانتِ الجملةُ معطوفةً فتكونُ من باب الاشتغالِ بتقدير: (وآتينا لوطًا آتيناه) ويكونُ الفعلُ واجبَ الحذفِ لوجودِ مُفسّرِه، والنّصبُ هاهنا أحسنُ منَ الرّفع؛ لأنّ قبْلَ (آتينا) فعلٌ وهو قولُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ﴾[1]، وعلى التّوجيهَيْن للجملةِ استئنافًا أو عطفًا يكونُ هنالك حذفٌ للفعل إبرازًا للمفعول واهتمامًا بشأنِه؛ لكوْنِه مناطَ الحدث والعنصرَ الأبرزَ للقصّة، والدّليلُ على الاهتمام بالمتحدَّثِ عنه أنّه ذُكر مرّتين؛ تارةً بالاسم الظّاهر ﴿وَلُوطًا﴾ وأخرى بالضّمير العائدِ إليه في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾، فدلّ على أنّه محطُّ الاهتمام والمقصودُ بالتّنويهِ به وبشأنِه، وفي تركيب (الاشتغال) يُذكرُ الحدثُ مضمرًا مبهمًا فتتعلّقَ النّفوسُ بذكره، حتى إذا ما ذُكر زال الإبهامُ عنه، فيكونَ من إبهامِ الأمر أوّلًا ثمّ العملِ على تفسيره وبيانِه، وبذلك يتحقّقُ مزيدٌ منَ الإصغاء والإقبالِ على الإنصات.

علّةُ ذكرِ قصّةِ لوطٍ بعد قصّةِ إبراهيمَ عليه السلام:

مقاومةُ الأنبياءِ لأهلِ الشّركِ والفسادِ في أقوامِهم مَلمحٌ مشتركٌ بينهم

في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ أُعقبت قصّةُ إبراهيمَ بقصّة لوطٍ عليه السلام للمناسبةِ بينهما، وخُصّ لوطٌ بالذّكر من بين الرُّسل؛ لأنّ أحوالَه تابعةٌ لأحوال إبراهيمَ عليه السلام، في مقاومة أهلِ الشّرك والفسادِ، وقد تأخّرَ ذكرُ قصّتِه بعد أن جرى ذكرُه تبعًا لذكرِ إبراهيم عليه السلام، تنبيهًا على أنّه بُعث بشريعةٍ خاصّةٍ، وإلى قوم غيرِ القوم الّذين بُعث إليهم إبراهيمُ عليه السلام، وإلى أنّه كان في مواطنَ غيرِ المواطن الّتي حلَّ فيها إبراهيمُ عليه السلام، بخلاف إسحاقَ ويعقوبَ عليهما السلام في ذلك كلِّه[2].

(1) الواحديّ، البسيط: 15/ 129.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 111.

نُكتةُ إغفالِ ذكرِ قومِ لوطٍ عليه السلام:

تحقيرُ العُصاة بإخمالِ ذكرِهم وقمْعِ باطلِهم

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، اختصاصُ لوطٍ عليه السلام بالذّكر، وإغفالِ ذكرِ قومه، لحقارتِهم ومهانتِهم وسوءِ أفعالِهم، وخُبثِ نفوسِهم، حتّى انحطّوا عن مرتبةِ الحيوانيّة، في شذوذِ الفطرة، كما أنّ في ذكرِ لوطٍ منفردًا عن قومه، تنويهًا بشأنه، ورفعةً لذكرِه، وبيانًا أنّه لا يضرُّ النّبيَّ أنْ يكون قومُه مُفسدين غيرَ مَهديّين، فإنّه جاء لهداية الضّالّ وإصلاحِ الفاسدِ، فإن لم يَصلحوا دمّر اللّه عليهم وأنشأ قومًا آخَرين[1].

دلالةُ الفعل ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ في الآية:

تجديدُ التّذكير بمطلقِ الإنعامِ على الأنبياءِ الكرامِ

تكرّرَ الفعلُ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ للدّلالة على مُطلقِ الإنعام، على الأنبياء الكرام عليهم الصّلاة والسّلامُ، وكذلك لتطْريةِ الذّكر بَعْدَ البُعْد، وليظهر وجهُ عطْفِ الآية، على قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51][2]، والإتيانُ تأكيدٌ للعطاء المتلاحقِ الّذي لا ينضبُ، والّذي تلوّن في الآيات السّابقةِ بين المادّة والمعنَى، واتّسمَ بالخصوصيّةِ المُنوّهِ بها في كلّ قصّةٍ تندرجُ في هذا المجالِ، ونلمحُ في الفعل (آتى) إيصالَ العطاء والكرامةِ بصورة الإقبالِ والمجئ الدّالّةِ على الرّغبة والمحبّةِ في الإتيان كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177] فيكونُ دالًّا على الإنعامِ المُصاحبِ لإتيان صاحبِه معه، وهو أجلُّ صور التّفضيلِ والإكرام.

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى ضميرِ العظمةِ (نا):

عطاءُ العظيمِ لا يكونُ إلّا عظيمًا ومُناسبًا لقدْرِه

أُسند فعلُ الإيتاء ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ إلى ضميرِ (نا)؛ للدّلالة على عظمةِ المُؤتي سبحانه،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4896.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 112.

فعطاءُ العظيم عظيمٌ يليقُ بقدْرِه، وفيه أيضا تعظيمٌ لقدْرِ النّبوّةِ والعلْم الّذي يهَبُه الله ﷻ، لمَنِ اصطفَى من عباده، كما يحصلُ التفخيمُ لفعل الإتيان ويعظُمُ أثره ويجلُّ خطرُه على من سيق له العطاءُ والنّعمةُ.

دلالةُ لفظِ ﴿حُكۡمًا﴾ في الآية:

الحكمةُ تمنعُ صاحبَها منَ الزّلل في القولِ والعملِ

اختلفَ المفسّرون في تحديد معنَى الحُكم والعلم، في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾ على أقوال، فقيل: حُكْمًا أي حِكمةً، والمرادُ بها ما يجبُ فعله، أوْ نبوّةً، فإنّ النّبيَّ حاكمٌ على أمّته، أوِ الفصلُ بين الخصوم في القضاء، وقيل حفظُ صحفِ ابراهيم عليه السلام وفيه بُعْدٌ[1].

وقد حاول بعضُ العلماء التّرجيحَ بدلالة اللّغةِ، فقال إنّ أصلَ الحُكْم في اللّغة: المنعُ، وأصلُه منَ الحَكَمَةِ، الّتي توضَع في حنكِ الفَرَس؛ لأنّ الفَرسَ قد يَشْرُد بصاحبه، أو يتّجهُ إلى جهة غيرِ مرادةٍ لراكبه؛ لذلك يوضعُ في حنكِه اللّجامُ أوِ الحَكَمةُ، وهي قطعةٌ منَ الحديد لها طرفان، يتمّ توجيهُ الفرسِ منهما يمينًا أو شمالًا، ومن ذلك الحِكْمةُ، وهي وضْعُ الشّيء في موضعِه، ومنه الحُكْمُ، وهو: وضعُ الحقِّ في مَوْضعه بين المُتخاصمَين[2].

والقولُ بأنّ الحُكمَ هو الحكمةُ موافقٌ للسّياق، فإنّ الحكمةَ الّتي أوتيَها ذلك النّبيُّ الكريمُ، هي الّتي استطاع بها أن يُعاشرَ أولئك الشّواذَّ عنِ الطّبيعةِ الإنسانيّةِ الرّشيدةِ وهو يَدعوهم، ويأخذُهم بالهداية والإرشاد، والرّفقِ في القول، ويَستمرُّ في رعايتِهم هاديًا مرشدًا، من غيرِ سَأمٍ ولا مَلَلٍ[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 4/ 743، والشّعراويّ، التّفسير: 13/ 9594.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4896.

دلالةُ عطفِ ﴿وَعِلۡمَا﴾ على ﴿حُكۡمَا﴾ في الآية:

بيانُ أنّ العلمَ تحقيقٌ والحكمَ تطبيقٌ

عُطف العلمُ على الحُكم، في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمَا وَعِلۡمَا﴾ للاقتران الخياليّ بينهما؛ إذِ الحكمةُ والنّظرُ الثّاقبُ في عواقب الأمورِ وتَمْييزِ صحيحِها من فاسدِها تستدعي العلْمَ بل هي غايتُه وثمرتُه، ومن ثمَّ بدأ بالحُكم وعطَفَ العلمَ عليه للدّلالةِ على أنّه المقصودُ الأهمُّ، وما العلمُ إلّا وسيلةٌ من وسائله وآلةٌ لتحقيق مقاصدِه، فيكونُ تقديمُ (الحكم) على (العلم) من تقديم الأشرفِ والأهمِّ، وحالُ هذا النّبيِّ الكريم مع قومه يَستدعي تقديمَ الحكمةِ على العلم؛ إذِ العلمُ والمعرفةُ لا تَكفيان للدّعوةِ مع من تجرّدوا عن أبسطِ القيم الخُلقيّةِ الإنسانيّة، فتحتاجُ الدّعوةُ إلى الحكمةِ والتّأنّي بُغيةَ المعالجةِ، وقد ذكرَ بعضُ العلماء في علّةِ هذا العطفِ: أنّ العلمَ أنْ تُحقّقَ وتَعرفَ، أمّا الحكمُ فسلوكٌ وتطبيقٌ لما تَعلّمَ، فالعلمُ تحقيقٌ والحكمُ تطبيقٌ[1]، ولكنْ يُشكلُ على هذا الكلام ذِكْرُ الحُكم أوّلًا، والعلم ثانيًا، ولهذا فالقولُ أنّ الحكمَ هو النّبوّةُ، والعلْمُ، هو علمُ الشّريعةِ الّذي يختصُّ اللّه بعلْمِه الأنبياءَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ أوفقُ للتّرتيبِ[2]، فيَصطفي اللّه من شاء بالنّبوّةِ، ثمّ يَفتحُ عليه من علم الشّريعةِ، ما يحتاجُه النّاسُ في عباداتِهم.

سرُّ تنكيرِ لفظَيْ: ﴿حُكۡمَا وَعِلۡمَا﴾:

إيتاءُ الله نبيَّه لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حُكمًا كريمًا وعلمًا عظيمًا

في قَوْله تَعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمَا وَعِلۡمَا﴾ ورد لفظا ﴿حُكۡمَا وَعِلۡمَا﴾ نكرتَيْن، والنّكتةُ البلاغيّةُ في ذلك أنّ التّنكيرَ يدلُّ على الإبهام، والإبهامُ له علاقةٌ مباشرةٌ بالتّعظيم والتّفخيم، فإنّ من أرادَ أن يعظّمَ شيئًا أبهمَه بحيث لا يُكتَنَه وصفُه وتذهبَ النّفسُ فيه كلَّ مذهب، فقد آتى اللّه جَلَّ جَلَالُهُ نبيَّه لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حُكمًا وعلمًا عظيمًا حتى

(1) الشّعراويّ، التّفسير: 13/ 9594.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 112.

إنّه أبهمَ وصْفَه، كما يحتملُ التّنكيرُ الدّلالةَ على كثرةِ صور الحكمةِ وتنوّعِ أشكال العلْمِ وأفرادِه، ولذا عبّرَ عنهما بالمصدرِ الدّالِّ على الحقيقةِ والماهيةِ، فكأنَّ نفسَ الحُكمِ والعلم قد أوتيه هذا النّبيُّ الكريمُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الحكمَ والعلمَ نوعان خاصّان من أنواعِ الحُكمِ والعلْمِ.

دلالةُ العطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾:

عطـفُ نِعـمةِ التّـنجيـةِ على نـعـمةِ إتـيـانِ الحُكمِ والعلمِ مزيدُ إنعامٍ

عُطفَ قولُه تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، على ما قبلَه، بحرف الواو، الدّالِّ على الجمعِ والاقترانِ، بمعنَى أنّ اللّه جمعَ للوطٍ عليه السلام، أصنافَ النِّعم، فعطفَ على نعمةِ إيتاءِ الحُكمِ والعلم، نعمةَ التّنجية من أهل القريةِ، الّذين كانوا يعملون الخبائثَ، وما نزل بهم من عذابٍ[1]، وبين المُتعاطِفين شبْهُ التّضادّ؛ إذ إتيانُ العلم والحكم منحةٌ وتحليةٌ وجلبٌ للمصالح بصورة الإتيانِ، والتّنجيةُ من القوم الفاسقين تخليةٌ وإنقاذٌ وسلبٌ بصورة الإخراج، فالإتيانُ إدخالٌ والتّنجيةُ إخراجٌ، فيتحقّقُ الطّباقُ بين ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ و﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ وهو من مُستدعيات العطْفِ للاقتران بين المُتضادَّين وشبْهِهما في الخيال، وفي تقديم الإيتاءِ على التّنجية إشارةٌ إلى علّة التّنجيةِ وهي امتلاكُه عليه السلام العلمَ والحكمةَ الّتي مَنعَها قومَه فضلّوا عن سواء السّبيلِ، وفي هذا العطف إغداقٌ منَ اللّه تعالى بالنِّعم على لوطٍ عليه السلام، وفيه رعايةٌ لرمزيّةِ النّبوّةِ المكرّمةِ، في شخصِ هذا النّبيِّ المُرسلِ، وعنايةٌ بمَلمحِ العفّةِ والطّهرِ اللّذين يتجسّدانِ فيه، ويمثّلانِ نموذجًا متفرّدًا، يعكسُ الثّباتَ على الحقّ، والالتزامَ بالمبادئ، والحفاظَ على الفطرة النّقيّةِ، بعيدًا عنِ الفسادِ ومسالكِه ومَهاويه.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ في الآية:

تحقّقُ نجاةِ لوطٍ عليه السلام مـن عـذاب قومِه

عبّرَ النّظمُ الكريمُ بالفعل الماضي ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ في قوله تعالى:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، للدّلالة على تحقّقِ نجاتِه من عذاب القريةِ الفاسقِ أهلُها، وقد ذُكر في هذا الموضع نجاتُه وحدَه، ولم يُذكر نجاةُ أحدٍ معه، وذلك أنّ السّياق يدورُ حول ما اختصَّه اللّه به، وتفضّلَ عليه من نِعم، كما أنّ استعمال الماضي، مناسبٌ لسردِ أخبارٍ مضت من قصص الأنبياءِ السّابقين، لأخذ الدّروسِ والعبرِ منها.

وتحقيقٌ للتّوافقِ بين المتعاطفَين؛ إذ كلٌّ منهما ورد بصورة الماضي ممّا يدلُّ على تحقّقِ الوقوعِ الَّذي لا سبيلَ لإنكاره، والفعلان (آتينا ونجّينا) منَ الأفعال المُتعدّيةِ بالحرف؛ لكنَّ الفعلَ (أتى) متعدٍّ لواحدٍ ودخلت عليه الهمزةُ فعُدّي إلى اثنين، والفعلُ (نجَى) لازمٌ وعُدّيَ بالتّضعيف إلى واحد، وفي التّعديةِ دلالةٌ على وصول أثرِ الحدثِ إلى المفعول، فيكونُ دالًّا على حصول الإتيانِ والتّنجيةِ بشكلٍ قطعيٍّ، وإنّما عُدّي الفعلُ (نجَى) بالتّضعيف دون الهمزةِ لغرض إيجادِ التّكثيرِ في الفعل والمبالغةِ في حصولِه ووقوعِه مع التّعديةِ، ومن ثَمّ قال (نجَّينا) دون (أنجينا)، ولا يخفَى أنَّ لوطًا عليه السلام خرج منَ القوم قبْلَ هلاكِهم بمدّةٍ وجيزةٍ، فيحتاجُ الفعلُ الدّالُّ على نجاته إلى مبالغةٍ لصعوبة إخراجِه وعدمِ وقوعِ العذابِ عليه.

دلالةُ إسنادِ الفعل ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ إلى الضّمير (نا):

عظمةُ اللّه ﷻ في إنجائِه نبيّه لوطًا منَ العذابِ الفظيع

في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، أُسندَ الفعلُ (نَجَّى) إلى ضمير العظمة (نا) للدّلالة على عظمة المُنجي سبحانه، فبعظمتِه سبحانه أهلك قُرى لوطٍ، واقتلعَها من مواضعِها، ونجّى نبيَّه عليه السلام من ذلك العذابِ الفظيع.

نُكتةُ إفرادِ القرية في قوله ﴿مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ مفردًا، مع أنّها قد وردت مجموعةً في آيات أخرى؛ نحو قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩﴾ [الحاقّة: 9]، فالمُؤتفكاتُ

شيوعُ الفواحشِ في جميع قُرى لوطٍ وعمومِ العذاب

هي قُرى لوطٍ، وقيل إنّها كانت سبعًا، فعبّر عنها بالإفرادِ، لاتّفاق أهلِها على الفاحشة[1]، فعومِلت معاملةَ الواحدةِ؛ إذِ الجماعاتُ منَ النّاسِ الَّذين يكونون على منهجٍ واحدٍ يُنزّلون منزلةَ شخصٍ واحد، وتُنزّلُ بيئاتُهم المختلفةُ منزلةَ بيئةٍ واحدةٍ، ويُروى أنّها كلُّها قُلِبت إلّا واحدةً، لأنّها كانت محلَّ من آمن بلوطٍ ﷺ، والمشهورُ قلبُ الجميع[2]، وفي هذا الإفراد دلالةٌ على يُسْرِ عملية إنزالِ العذاب بهم، فكأنّ الجمعَ يتلاشى ويصيرُ بمنزلة شيءٍ واحدٍ، وكلُّه هيّنٌ على قُدرةِ اللّه تعالى وعظمَتِه، وأفاد تعريفُ القرية تعيينًا شخصيًّا دقيقًا لها، والتَّعيينُ يُضفي تحقيقًا لعمليّةِ التّنجيةِ فلم يَنجُ من مكانٍ مجهولٍ، بل حصلت له النّجاةُ من مكانٍ معروفٍ ومعلومٍ.

بَلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾:

حذفُ المضافِ وإقامةُ المضافِ إليه مكانَه منَ البيانِ الفصيحِ

نُسِبَ عملُ الخبائثِ إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، وقدِ اختلف العلماءُ في تخريج هذا التّعبيرِ على ثلاثة أقوالٍ:

أحدُها: وهو المشهورُ أنّه على حذفِ مضافٍ تقديرُه: أهلُ القرية، فيكونُ من مجاز الحذفِ وهو مجازٌ شائعٌ[3].

والثّاني: أنّه مجازٌ مرسلٌ، من باب إطلاقِ اسمِ المحلِّ على الحالّ فالعلاقةُ المحلّيّةُ[4].

والثّالثُ: أنّه حقيقةٌ لا مجازَ فيه[5].

والظّاهرُ أنّ القولَ الأوّلَ، هو الصّحيحُ؛ لأنّ أهلَ القرية هم

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 453.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 453، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 78، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 112.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 556.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/ 544.

الّذين يعملون الخبائثَ دون نفسِ القريةِ، ولأنّ الهلاكَ بهم نزلَ فنجّاه اللّه تعالى من ذلك[1]، قال أبو علي الفارسيُّ: ودافعُ جوازِ هذا (يقصدُ حذفَ المضاف وإقامةَ المضاف إليه مكانَه)، في اللّغة، كدافعِ الضّرورات، وجاحدِ المحسوسات في غيرِ اللّغة[2]، والسّرُّ في ارتكاب مجازِ الحذف المبالغةُ في التّنجية؛ إذ لم يُنجِهِ اللّه تعالى من أهلِها فقط، بل نجّاه من كلِّ ما يتعلّقُ بها من دورٍ وأبنيةٍ وزروعٍ؛ لأنَّ العذابَ نزل بالقرية وساكنيها، فيكونُ إيرادُ مجازِ الحذفِ محقّقًا لكمال التنجيةِ ومشيرًا إلى نزول العذابِ بالقريةِ وما فيها من ساكنين، ومن ثَمّ أشارَ إلى علّةِ نزول العذابِ بهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، والذي يُرجّحُ إرادةَ مجاز الحذفِ التّعليلُ الآتي بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾.

نُكتةُ إيثارِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾:

وصْمُ القريةِ بالفاحشةِ مُتناسبٌ مع فظاعةِ الفاحشةِ المُرْتَكَبةِ

في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، أوثرَ التّعبيرُ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾ وصِلتِه ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، لنُكتةٍ بلاغيّةٍ وهي قصدُ ما في الصّلة منَ الإيماء إلى تعليل الحكم، وهو أنّ سببَ تعذيبِ القريةِ وتنجيةِ لوطٍ عليه السلام منها، أنّها كانت ترتكبُ الفواحشَ، والأعمالَ الخبيثةَ، "ووُصفتِ القرية بأنّها كانت تأتي الخبائثَ، مع أنّ الّذي يفعلُها آحادُها، ولكنْ لأنّها عصتْ وطمتْ، كأنّما صارت الأرضُ ذاتُها تفعلُها"[3]، وأُبرزت بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾، من خلال جملةِ الصّلةِ الواردةِ بهذا المعنى المَسوقِ في الآية، ووصفُ القرية بأنّها تعملُ الخبائثَ مبالغةٌ في شيوع الفاحشةِ في جميع دورها وأبنيتِها وطُرقها ومزارعِها فضلًا عن مباشرة أهلِها لها، فيكونُ إشارةً إلى علّة نزولِ العذاب بالمكان والمكين معًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.

(2) الفارسيّ، الإغفال: 2/ 277.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4896.

دلالةُ فعلِ الكينونة ﴿كَانَت﴾ في سياق الآية:

ثبوتُ فعلِ المنكراتِ في أهل قرى لوطٍ المؤتفكاتِ

يدلُّ التّعبيرُ بفعل الكينونةِ ﴿كَانَت﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، على اعتياد قوم لوطٍ عملَ الخبائث، ورسوخِ ذلك في طباعِهم، ولذلك استحقّوا العذابَ، فاستعمالُ الفعلِ الماضي (كان)، يأتي في الأصل لاتّصافِ الاسم بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غيرَ أنّه يخرجُ لدلالة الدّوام والاستمرارِ، بمعنى (لم يزل)، أي أنّها تأتي دالّةً على الدّوام[1]، ويؤيدُ هذا المعنى أنّ خبرها وردَ بصيغة المضارعِ الدّالِّ على التّجدّد الاستمراريِّ للحدث، فهم في حالةِ ممارسةٍ للشّذوذ مُستمرةٍ حتى شملَ جميعَ أزمنةِ الماضي المستمرّ وربّما كان المعنَى أيضًا، أنّها وُصفت بفعل الكينونةِ الماضي ﴿كَانَت﴾، للدّلالة على زمن استغراقِ الوصف، وهو اتّصافُها بالفعل قبل إرسالِ لوطٍ لهم وبقاءِ ذلك الفعل إلى حين الهلاك، ودلالةُ الماضي عليه بهذا المعنى واضحٌ جليٌّ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿تَّعۡمَلُ﴾ عنِ ارتكاب الفاحشةِ:

قصدُ الفواحش وتكلّفُ عملِها مخالفةٌ أثيمةٌ للفطرةِ السّليمةِ

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، التّعبيرُ بالفعل (عمل) دونَ غيرِه؛ لأنّ العملَ لا يكونُ إلّا بقصدٍ، فهو أخصُّ منَ الفعل[2]، فقومُ لوطٍ قصدوا إلى قضاءِ شهوتِهم مع الذّكورِ مخالفين الفطرةَ التّي فطرَهمُ اللّه عليها، كما يُطلقُ الفعلُ (عمل) على معالجة الشّيءِ والدّأبِ عليه، ولهذا سُمّيتِ النّاقةُ الدّؤوبُ باليَعْمُلة، فقومُ لوطٍ تكلّفوا عملَ الفواحش، ودَأبوا عليها حتى صارت تلك الفاحشةُ المُهلكةُ عملًا لهم يمارسونَه كسائرِ أعمالِهم اليوميّة، كما يُشعرُ بذلك أيضًا، استعمالُ صيغةِ المضارعِ ﴿تَّعۡمَلُ﴾ الدّالّة على التّكرّر والاستمرارِ.

---

(1) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.

(2) الراغب، المفردات: (أمم).

نُكتةُ حذْفِ الموصوفِ في قوله ﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾:

جـوازُ حـذفِ المنعوتِ إذا عُقِلَ مـن نـعْتِه من فصيحِ البيانِ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، ذكرَ وصفِ ﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، لموصوفٍ تقديرُه: (الأعمالَ الخبائث)، مفهوم منَ السّياق، وممّا ذكرَه تعالى في غير هذه السّورة مُضافًا إلى كفرِهم باللّه، وتكذيبِهم نبيَّه، فقد كانوا يأتون الذُّكرانَ في أدبارِهم، ويَتضارطون في أنديتِهم، مع أشياءَ أُخر كانوا يعملونَها منَ المُنكرات[1]، وإنّما حُذف الموصوفُ وأُقيمت الصّفةُ مقامَه؛ لأنّها محطُّ الاهتمامِ؛ دون العملِ المفهوم من لفظِ (يعملون) فاكتُفيَ بالوصفِ الَّذي هو مقصدُ الذّمّ والإنكارِ، ويمكنُ أن يقال: إنَّ الخبائثَ جمعُ خبيثةٍ بمعنى الفَعلةِ الشّنيعةِ القبيحةِ النّجسةِ وهم يُقْدمون على نفس تلك الفَعلةِ المُسمّاة بالخبيثة، فلا حاجةَ حينئذٍ إلى تقدير موصوفٍ محذوفٍ، وهذا أبلغُ من وصفِ أعمالِهم بالخبيثةِ؛ لأنّهم يَجترحون بأفعالِهم الدّنيئةِ نفسَ الخُبثِ والنّجاسة.

دلالةُ (ال) في لفظِ: ﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾:

بيانُ أنّ فسادَ قـومِ لـوطٍ كان بارتكاب الأعمالِ الخبيثةِ

جاء اللّفظ المجموعُ ﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾، في قوله تعالى: ﴿كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾معرّفا بـ (ال)، وحينئذ تفيدُ (أل) الاستغراقَ والشّمولَ والعمومَ، أي: كانوا يعملون كلَّ عملٍ خبيثٍ، وهو المعنى المناسبُ لتعليل تنْجيتِه من تلك القرية، الّتي لم تتركْ عملًا خبيثًا إلّا اقترفتْه ولا صنعًا منكرًا إلّا اكتسبته، كما يحتملُ أن تكون عهديّةً، فتدلُّ على الخبائث الّتي ذُكرت في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: 29].

نُكتةُ الفصل في جملة كونِهم قومَ سوءٍ:

تعليلُ إهلاك قـومِ لـوط الـسّـيّـئـين الفاسقين

فُصل قَوْلُه تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾، عنِ الجملة السّابقةِ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 548.

﴿ٱلۡخَبَـٰٓئِثَۚ﴾، لوجود شبْهِ كمال الاتّصال بينهما، وهو أنْ تكونَ الجملةُ الثّانية جوابًا لسؤالٍ نشأ عنِ الجملة الأولى فتنفصلَ الثّانيةُ عنها كما ينفصلُ الجواب عنِ السّؤال[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾، تعليلًا لسبب إهلاكِهم وتنْجيةِ لوطٍ عليه السلام.

دلالةُ توالي المؤكِّداتِ في الآية الكريمة:

المبالغةُ في التّأكيدِ على عِلّيّةِ إهلاكِ قومِ لوطٍ

جاء قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾، مؤكَّدًا بأداة التّأكيدِ (إنّ) الّتي تُعدُّ أُمَّ المؤكِّدات، ثمّ توسّطه الفعلُ (كان)، الدّالّ على الدّوام والاستمرارِ، وإضافتِهم إلى السَّوء، كأنّما هم أهلُه لا يخرجون عن حيِّزه، ولا يخرجُ عنهم ثانيًا، والتّعبيرِ باسم الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿فَٰسِقِينَ﴾ الدّالِّ على الثّبوت والدّوام[2]، كلُّ ذلك مبالغةٌ في التّأكيد على عِلّيّةِ إهلاكِهم بذلك العذاب الفظيعِ، وهي سوءُ أفعالِهم وفسقِهم المتكرّر.

نُكتةُ إعادةِ الضّميرِ على أهل القرية ﴿إِنَّهُمۡ﴾:

نسبةُ الفسقِ لأهلِ القريةِ دون العمران

في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾، أُعيدَ الضّميرُ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ على أهل القريةِ دون ضمير القرية؛ لأنّ أهل القرية، هم الّذين كانوا يعملون الخبائثَ، دون نفسِ القريةِ، وهم الّذين يصحُّ وصفُهم بالفسقِ والخروجِ عنِ الطّاعة، ولأنّ الهلاك بهم نزل، فنجّى اللّه تعالى نبيَّه لوطًا عليه السلام من ذلك[3]، وهذا مُرجّحٌ للقائلين بمجازِ الحذف في الآية.

دلالةُ لفظِ (السَّوء) في الآية المحكمة:

غايةُ ذمِّ قومِ لوطٍ أن يوصَفوا بأنَّهم السَّوءُ عينُهُ

وُصِف قومُ لوطٍ عليه السلام، في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾، بأنّهم ﴿قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾، والسَّوْءُ - بفتح السّين وسكون الواو

---

(1) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/ 151.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4897.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.

- مصدرٌ، أي القبيحُ المكروهُ، وأمّا بضمّ السّين، فهو اسمُ مصدرٍ لِما ذُكر، ولاشكّ أنّ الوصفَ بالمصدر أبلغُ وأقوى، منَ الوصف بالاسم، ولهذا آثر النّظمُ القرآنيُّ هنا الوصفَ بالمصدر، مبالغةً في ذمّ قوم لوطٍ، حتّى كأنّهم لكثرة فجورهم السَّوْءُ ذاتُه.

بلاغةُ إضافةِ السّوء إلى القوم في قوله: ﴿قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾:

إضافةُ الموصوفِ إلى صفتِه للمبالغةِ من فصيح البيانِ في السّياقِ

في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾، أضيف لفظ ﴿قَوۡمَ﴾ إلى المصدر ﴿سَوۡءٖ﴾، وهي من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة، كما في قولهم: رجلُ صدقٍ، وفي هذا التّعبيرِ ما فيه منَ الذمّ لهؤلاء الفاسقين من قوم لوط(1)؛ لأنّ السَّوء مصدرٌ ليس له قومٌ ورجالٌ وأهلٌ يضافون إليه، فتكونُ الإضافة مفيدةً للذمّ والإهانةِ، وكأنَّهم نُسبوا إلى السَّوء لصيرورتِه شِعارًا لهم من كثرة قبائحِهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿فَٰسِقِينَ﴾:

بيانُ خروجِ قوم لوطٍ بالفسق عنِ الفطرةِ الإنسانيّةِ السّليمةِ

وُصفَ قومُ لوطٍ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ بالفسقِ، والفسْقُ: الخروجُ عن أوامرِ التّكليف، وهذا التّعبيرُ ككُلِّ التّعابير القرآنيّةِ مأخوذٌ من واقعيات الحياة عند العرب، فأصلُ الفِسْق من فَسقَتِ الرُّطبةُ عن قشرتِها، حين تستوي البلحةُ فتنفصلُ عنها القشرةُ حتّى تظهر منها الرُّطبةُ، فوصْفُ قوم لوطٍ بالفسق، بمعنى أنّهم خرجوا عن أوامرِ اللّه، وخرجوا عنِ الفطرةِ الإنسانيّةِ السّليمة، فكانوا أوّلَ من ارتكبوا فاحشةَ إتيان الذُّكران حتّى نُسب إليهم، قال تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ [الأعراف: 80](2)، وفي التّعبير بالصّفةِ المشبّهة على وزن اسمِ الفاعل دلالةٌ على ثبوت هذا العملِ فيهم ودوامِهم عليه حتى استحقّوا لقبَ (الفاسقين) على سبيل الدّوام والثّبوت.

---

(1) طنطاويّ، الوسيط: 6/ 388.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 15/ 9595.

دلالةُ العطْفِ بالواو في قوله: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ﴾:

عَطْفُ نعمةِ الإدخالِ في الرّحمةِ على نعمةِ الحُكمِ والعلمِ والتّنجيةِ

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ على ما قبْلَه بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ والاقتران، بمعنى أنّ اللّه الكريمَ جمعَ للوطٍ عليه السلام، نعمًا كثيرةً متعدّدةً، فعطفَ على نعمة إيتائِه الحكمَ والعلمَ، ونعمةَ تنجيتِه من أهل القرية الّذين كانوا يعملون الخبائثَ نعمةَ إدخالِه في أهل الرّحمةِ[1].

بلاغةُ المجازِ في إدخال لوطٍ في الرّحمة:

أهلُ الرّحمةِ هم مَن يُصطَفون للنّبوّةِ أو من يَدخلون الجنّةَ

اختلف المُفسّرون في قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾، فبعضهم أجْراه على ظاهره، وقال إنّ معناه: أدخَلْنا لوطًا في رحمتنا بإنجائِنا إياه، ممّا أحلَلْنا بقومه منَ العذاب والبلاءِ[2]، وبناءً على هذا التَّقدير فالظّرفيّةُ مجازيّةٌ؛ لأنَّ الرحمةَ أمرٌ معنويٌّ لا يكون ظرفًا حقيقيًّا كالمكانِ، وفي هذا التّركيب الظّرفيِّ ما يُعطي تشخيصًا للرّحمة وتجسيدًا لها، وكأنّها المكانُ الآمنُ الَّذي يستريحُ فيه هذا النّبيُّ الصّالحُ، وذهب غيرُهم إلى أنّ الآية تتضمنُّ مجازًا، ويحتملُ أن يكون مجازًا بالحذف، فيكون التّقديرُ: (في أهل رحمتِنا)، أي جعلْناه في جُملتِهم وعدادِهم، وبناءً عليه فالظّرفيّةُ حقيقيّةٌ.

كما يحتملُ أن يكونَ مجازًا مرسلًا، علاقتُه المحلّيةُ أي في جنّتِنا؛ لأنّها مكانُ الرّحمة، وتكونُ الظّرفيّةُ حقيقيّةً أيضًا، ويشهدُ لهذا الوجه حديثُ الصّحيحين: "قال اللّه عز وجل للجنّة: أنت رحمتي أرحمُ بكِ من أشاء من عبادي"[3].

ويجوزُ أن تكون الرّحمةُ مجازًا عنِ النبوّة، وبناءً عليه تكونُ الظّرفيّةُ مجازيّةً، ودليلُ هذا الوجه، قولُ اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 473.

(3) متّفق عليه؛ رواه البخاريّ، الحديث رقم: (4850)، ومسلم، الحديث رقم: (2846).

﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: 31] فردَّ اللّٰه عليهم: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزّخرف: 32] أي: النّبوّةَ[1]، وبعضُهم اعتبر سياقَ الآية، فقال: أنّ إنّ رحمةَ اللّٰه الّتي شرّفها بالنّسبة إليه سبحانَه، هي هجرةُ لوطٍ منهم، ونجاتُه منَ الهلاك الّذي كُتِبَ عليهم، وإيتاؤُه حظَّه في الآخرين، والتجاؤُه له سبحانه، كما قال تعالى: ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ [العنكبوت: 26][2].

دلالةُ ضميرِ العظمةِ (نا) في الآية:

قُـدرةُ العظيمِ عـلى إهـلاك الظّالمين وإنجاءِ عبادِه المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، يتجلّى استعمالُ ضميرِ (نا) الدّالِّ على عظمةِ المتكلّم سبحانه، وجليلِ قدْره، فقد أهلك العظيمُ سبحانه قرَى لوطٍ وقلَبَها بمن فيها، ومع هذا العذابِ الفظيعِ، تدارك العظيمُ، برحمته عبدَه ونبيَّه لوطًا عليه السلام، فنجّاه من قومه الفاسقين، ومنَ العذاب المهين، وتفيدُ هذه الإضافةُ التّشريفَ والتكريم لتلك الرّحمة الّتي حلّت بهذا النّبيِّ الكريم، وما ذلك إلّا دلالةٌ على كرامتِه عند اللّٰه تعالى ومنزلتِه العاليةِ لديه.

نُكتةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

بيانُ استحقاقِ لـوطٍ عليه السلام للتّكريم باعتبارِه منَ الصّالحين

فُصِل قَوْلُه تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، عنِ الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ لوجود شبْهِ كمال الاتّصالِ بينَهما[3]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تعليلًا وبيانًا لعلّة استحقاقِ لوطٍ عليه السلام دخولَ رحمته سبحانه، وكأنّه نشأ سؤالٌ عن سبب إدخالِ لوطٍ رحمتَه تعالى فأجاب عن ذلك بأنّه منَ الصّالحين.

دلالةُ إدراجِ المؤكّدات في الآية:

المبالغةُ في الثّناء عـلى لـوطٍ عليه السلام ترفعُ قدرَه بيقين

جاء قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مؤكَّدًا بأداة التّأكيدِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 69.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4897.
(3) التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 404.

(إنّ) التّي تُعدّ أمَّ باب التّوكيد، ثمّ شرّفه ربُّه سبحانه، بأن وصفَه بأنّه منَ الصّالحين، معدودًا من زمرتِهم، ومبالغةً في الثّناء على هذا النّبيِّ الكريمِ من ربّ العالمين، إذ يكفي اليقينُ برفيع قدرِه، وعلوِّ مقامِه، منَ الكلام الخبريِّ دون مؤكّداتٍ، فلمّا سيقتِ المُؤكّداتُ في الآية الكريمة، دلّ ذلك على متانة الوصْفِ بالصّلاح، وقوّةِ الاتّصاف به؛ لأنّ الّذي وصفَه به هو اللّه جلّ في علاه، وكفَى باللّه شهيدًا.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في ختام الجملةِ:

رسوخُ الوصفِ في المفردِ بانتزاعِه منَ الوصفِ مجموعًا

ورد في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وصفُ لوطٍ عليه السلام، بأنّه منَ الصّالحين ولم يقل إنّه صالحٌ، وذلك لأنّه جمعَ الوصفَ، ثمّ جعلَ الموصوفَ به واحدًا من جمعٍ، وفيه دلالةٌ على أصالة الفردِ في ذلك الوصف، على سبيل المبالغةِ، وكأنّه من طائفةٍ صارت كالنّوع المخصوصِ المشهورِ ببعض السّمات[1]، ولقد ورد هذا الأسلوبُ كثيرًا في القرآن، بالعُدول عن التّعبير بالمفردِ إلى التّعبير بالوصفِ مجموعًا، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣﴾ [الأعراف: 83]، ﴿۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [النّمل: 27]، ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ [الشّعراء: 29]، والآياتُ كثيرةٌ، وبين هذا الوصفِ والوصفِ السّابق الَّذي اختُتمت به الآيةُ السّابقةُ صنعةُ الطّباقِ لوجود شبْهِ التّضادّ بين ﴿فَٰسِقِينَ﴾ و﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فكان الفسقُ علّةً لإهلاكِهم وتعذيبِهم، وكان الصّلاحُ علّةً لدخولِه في رحمة اللّه ونجاتِه من عذابِهم، وهو درسٌ تربويٌّ متينٌ لكلّ مَن يقرأُ النّصَّ المبينَ.

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

القريةُ والمدينةُ:

يدلُّ اللّفظانِ على اجتماعِ البشرِ في مكانٍ وخُصّتِ المدينةُ عُرفًا بالقريةِ الكبيرةِ

يشترك كلٌّ من لفظَيِ (القَرْيَةِ) و(المدينة) في الدّلالة على تجمّعٍ بشريٍّ في رُقعةٍ معيّنةٍ، وظاهرُ الاستعمال القرآنيِّ أنّه لا فرقَ بينهما،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 427.

ففي سورة الكهف أخبرَ اللّه أنّ موسى والخضر عليهما السلام قدما إلى قريةٍ فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ [الكهف: 77]، ثمّ سمّى المكانَ ذاتَه بالمدينة عندما جاء وقتُ الفراق قائلًا: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82]، وكذلك في قصّة لوطٍ عليه السلام سمّى المكانَ قريةً بقوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ [الأنبياء: 74]، وسمّى المكانَ ذاتَه في سياق آخرَ بالمدينة في قوله: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]، وكذلك في سورة يس عندما بدأ الحديثَ عن أصحاب القرية، بقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ [يس: 13]، ثمّ سمّى المكانَ ذاتَه ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [يس: 20] في قوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾ [يس: 20]، وفي سورة يوسف عليه السلام قال إخوة يوسفَ لأبيهم عن مصرَ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، في حين وصفَ المكانَ ذاتَه بالمدينة: ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ [يوسف: 30]، ولهذا قال ابنُ عاشور: "والمدينة والقرية مترادفتان، وقد خُصّتِ المدينة في العُرف بالقرية الكبيرة"[1]، ولكن ذهبَ طائفةٌ من علماء البيانِ إلى تلمّسِ فروقٍ دلاليّةٍ واستعماليّةٍ بينهما، فقالوا إنّ غالبَ الاستعمال القرآنيِّ للقرية يكون في سياق الذّمّ والعذابِ، وهذا ظاهرٌ في كثير منَ الآيات[2].

المدينة متّسعة المُقام

وكذلك يظهرُ الفرقُ بالنّظرِ إلى اشتقاق كلِّ لفظ، فلفظُ القرية مشتقٌّ من (قَرَى)، وهو يدلُّ على جمع واجتماعٍ، ومن ذلك القريةُ، سُمّيتْ قريةً لاجتماع النّاس فيها[3]، وأمّا لفظُ (المدينة) فهو مأخوذ من مَدَنَ بالمكان: أقامَ به[4] فيطلقُ حينما يرادُ الاتّساعُ والإقامةُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 40.
(2) انظر السور والآيات الآتية: الأعراف: 4، والإسراء: 16، والأنبياء: 6، 11، 95، والحجّ: 45، 48.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قري).
(4) الجوهري، الصّحاح: (مدن).

فقالوا إنّ خبرَ مراودة امرأةِ العزيز ليوسف ﷺ عندما انتشر وذاع واتّسع مجالُه استعمل لفظَ المدينة بقوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ [يوسف: 30].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: 20]، بعد قوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ [يس: 13]، فاستعمل لفظَ (المدينة) للإشارة إلى السّعةِ؛ إذ كانت قريةً واسعةً ممتدّةَ الأطراف، بدليلِ أنّ الرَّجل جاء يَسعَى من أقصاها، أي: من أبعد مواضعِها؛ ولذلك عبَّر عنها هنا ثانيا بلفظ (المدينة) بعد التّعبيرِ عنها أوّلا بلفظ (القَرْيَة).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82]، فعبَّر عنها بلفظ (المدينة)؛ بعد أن ذكرها أوّلا بلفظ (القرية) لِما في لفظ (المدينة) من معنى الإقامةِ، فكان أنسبَ للسّياق للإشارةِ به إلى أنَّ النّاسَ يُقيمون فيها، فينهدمُ الجدارُ وهم مقيمون، فيأخذون الكنْزَ؛ ولهذا قال: (في المدينة).

﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرُ قصّةِ نوحٍ أبـي البشرِ الثّاني بعد قصّةِ إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السلام

لّما ذكرَ تعالى قصّةَ إبراهيمَ عليه السلام، وهو أبو العرب، وتنْجيتَه من أعدائِه، وأعقبَه بقصّة ابنِ أخيه المُزامنِ له لوطٍ، وما كان في قومه من شذوذٍ، انتهى بهم للهلاكِ الماحقِ، والاستئصالِ السّاحقِ، ذكر قصّةَ أبي البشر الثّاني نوحٍ، بعد آدمَ عليهما السلام؛ الّذي ليس أحدٌ إلّا من نسلِه، سام وحام ويافث[1]، مشيرًا إلى استجابة ندائِه، بهلاك أعدائِه، وإنجائِه وأهلِه منَ الكرب العظيمِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾: (جوب) أصلٌ واحِدٌ، وهو خَرْقُ الشَّيْءِ[2]، والجَوْبُ: قطعُ الجَوْبَة، وهي كالغائطِ منَ الأرض، ثمّ يُستعملُ في قطع كلّ أرضٍ، وجوابُ الكلام: هو ما يقطعُ الجَوْبَ فَيَصِلُ من فمِ القائل إلى سَمْعِ المُستمع، والجوابُ يقالُ في مقابلة السّؤالِ، والاستجابةُ قيل: هي الإجابةُ، وحقيقتُها التّحرّي للجواب، والتّهيّؤُ له، لكنْ عبّر به عن الإجابةِ، لقلّة انفكاكِها منها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60][3]، وفي أسماء اللّه المُجيبُ، وهو الّذي يقابلُ الدّعاءَ والسّؤالَ بالعطاء والقَبول[4]، فمعنى الاستجابة في الآية: قَبولُ الدّعاء وإعطاءُ المسؤول.

2) ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾: (كرب) أصلٌ يدلُّ على شدّةٍ وقوّةٍ، ومن الباب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 453.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جوب).

الكَرْبُ، وهو الغَمُّ الشّديدُ، والكُرَيْبَةُ: الشَّديدَةُ مِنَ الشَّدائِدِ، والكُرْبَةُ كالغُمّةِ، وأصلُ ذلك من: كَرْبِ الأرض، وهو قَلْبُها بالحفرِ، فالغمُّ يثيرُ النّفسَ إثارةَ ذلك، ويصحُّ أن يكون الكَرْبُ من: كَرَبَتِ الشّمس: إذا دنت للمَغيب، أو منَ الكَرَبِ، وهو عَقْدٌ غليظٌ في رشاءِ الدّلو، وقد يوصفُ الغمُّ بأنه عُقْدَةٌ على القلب، وقال ابنُ دريد: الكربُ: الحزنُ الّذي يأخذ بالنّفس وجمعُه كروب، وعنِ ابنِ السّكّيت: كَرَبَني الأمرُ يَكرُبُني كربًا: حَزَنني، غيره: اكتربت له: اغتمَمْتُ، وقال صاحبُ العين: هو مكروب وكريب، والاسمُ الكُربة، والجمعُ كُرَب[1]، وكلّ ما في القرآن من لفظِ (الكَرْب) فهو بهذا المعنى، فيكون معنى ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ في الآية: الغمَّ الشّديدَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكرُ قصّةِ نوحٍ عليه السلام واستجابةِ الله له بالحمايةِ والإنجاءِ

يأمرُ اللّه نبيّه محمّدًا ﷺ، بأن يذكرَ خبرَ نوحٍ عليه السلام، حين نادى ربَّه المجيبَ، فاستجاب له دعاءَه، فنجّاه وأهلَه المؤمنين به، من الغمِّ الشّديدِ[3]، ممّا لاقاه من عنَتٍ وإنكار، وتكذيبٍ واستكبار، على مدى قرونٍ عشرةٍ، لاقى فيها مرارةً وأذًى، ليس لها حدودٌ، حتّى جأرَ بالنّداء، فكان الجوابُ، ما لاقاه الكفرةُ من عقاب.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ لفظَيِ (الواو) و(إذ) في الآية:

ذكرُ نوحٍ عليه السلام بين العطفِ والاستئنافِ

استهلّ قولُه تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ بحرف الواو، وتحتملُ أن تكون للعطف، فيكونَ قولُه: ﴿وَنُوحًا﴾ معطوفًا على قوله ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾، مُشتركًا معه في عامله الّذي هو (آتينا) المُفسَّر بـ(آتينا) الظّاهرِ، والتّقديرُ: (وآتينا نوحًا حُكمًا

(1) ابن سيده، المخصّص: (كرب).
(2) القرطبي، الجامع: 11/ 306.
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.

وعِلمًا)، فحُذفَ المفعولُ الثّاني لـ(آتينا) لدلالةِ ما قبْلَه عليه، وبناءً عليه تكونُ ﴿إِذۡ﴾ بدلًا من ﴿وَنُوحًا﴾ بدلَ اشتمالٍ، وبناءً على هذا التّوجيه يتحقّقُ الإيجازُ بحذف الفعلِ والمفعولِ الثاني مع ما عُطف عليه، ويكونُ التّركيزُ منصبًّا على المفعول الأوّلِ؛ لأنّه مناطُ القصّةِ ومصبُّ الاهتمام، وتحتملُ أن تكونَ الواو للاستئنافِ، فيكونَ قولُه: ﴿وَنُوحًا﴾ منصوبًا على إضمار فعْلِ (اذْكُر)، والتّقديرُ: (واذكر نوحًا أي قصَّتَهُ)[1]، وبناءً عليه تكونُ ﴿إِذۡ﴾ منصوبةً بنفس المضافِ المقدّرِ، أي: خبرُه وقصّتُه الواقعُ في وقتٍ كان كيتَ وكيتَ، فتكون ﴿إِذۡ﴾ منصوبةً على الظّرفيّة الزّمانيّة في الماضي، وبناء على هذا التّوجيه يكون التّركيزُ منصبًّا على على ظرف الزّمان؛ لأنّ الذّكرَ لنوح قيّدَ بالظرف ليكون التّوقيتُ للاستجابة عنصرًا بارزًا يتمُّ الإفصاحُ عنه، وفي التّخريجين كلَيْهما، فإنّ الجملةَ تتوخّى اتّساقًا مع مضامين القصصِ المتلاحقةِ، من أجل إبرازِ العِبرةِ منها، وتجليّةِ الصّراع المُحتدِم، بين الرُّسل وأقوامِهم المكذّبين، بدءًا من نوحٍ عليه السلام، إذ قصّتُه نموذجٌ مُعبِّرٌ عن طول الصّراع وشدّتِه.

دلالةُ صيغةِ الماضي للفعل ﴿نَادَىٰ﴾:

تحقّقُ استجابةِ الله لدعاء عبدِه نوحٍ عليه السلام مُفصحٌ عنِ المرادِ

في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ﴾، أوثِر استعمالُ الفعل ﴿نَادَىٰ﴾ بصيغة الماضي الدّالّةِ على تحقّق الفعلِ والقطع بوقوعِه، ولا شبهةَ في أنّ المرادَ من هذا النّداء دعاؤُه على قومه بالعذاب، ويؤكّدُه حكايةُ اللّه تعالى عنه ذلك تارةً على الإجمال وهو قولُه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر: 10]، وتارةً على التّفصيل وهو قولُه: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]، ويدلُّ عليه أيضًا أنّ اللّه تعالى أجابه بقوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، وهذا الجوابُ يدلُّ على أنّ الإنجاءَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 453.

المذكورَ فيه، كان هو المطلوبَ في السّؤال، فدلّ هذا على أنّ نداءَه ودعاءَه كان بأن يُنْجيَه ممّا يَلحقُه من جهتِهم من ضروب الأذَى بالتّكذيب والرّدِّ عليه، بأن ينصرَه عليهم وأن يُهلكَهم[1]، ونلمسُ في اختيار هذه الصّيغةِ أنَّ هنالك مراحلَ سبقت وأوقاتًا استُنْفدت منَ الدعوة للقوم باللُّطف والتّوجيه، وأعقبَتْها مرحلةُ الإنذار والتّخويف مع الصّبرِ المُتطاولِ والجهدِ المُتكاثر، حتى لم يبقَ إلّا الدّعاءُ عليهم بالويل، الَّذي تأزّمَ وتطوّرَ إلى أن صار نداءً بصوتٍ مرتفعٍ مسموعٍ بالإهلاك والإغراقِ.

دلالةُ حذفِ معمولِ ﴿نَادَىٰ﴾ في سياق الآية:

لا يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه دعا إلّا الله ﷻ

في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ حُذف معمولُ الفعل ﴿نَادَىٰ﴾ إيجازًا، لكونِه معلومًا منَ السّياق، فقد قال بعدَه ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾، فالنبّي فالنبيُّ يُنادي ربّه ﷻ وحدَه، وقد جاء مُصرّحًا به في آيات أخرى، نحو قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر: 10]، وكذلك فإنّ سياقَ الآية التّأكيدُ على الفعل ﴿نَادَىٰ﴾ وأنّه الغرضُ الأصليُّ منَ الكلام دون معمولِه، ويتناسبُ حذفُ المفعول أيضًا مع غاية الاستعارةِ المُنبئةِ عن بلوغِه مرحلةً منَ الدّعاء والإلحاحِ فيه أوصلَتْه إلى النّداء والصُّراخ، فكان حذفُ المُنادى يحقّقُ التّركيزَ على اللّفظ المُستعار ودلالاتِه المُمتدّةِ، لإظهار عجْزِ العبد، وامتنانِ الربّ عليه بالإجابةِ، ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلامُ مُنصبًّا إلى غرض منَ الأغراض، جُعِل سياقُه له وتوجّهُه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[2].

سرُّ استعمالِ الفعلِ ﴿نَادَىٰ﴾ في الآية:

نـداءُ الـرّبِّ عندَ اشـتـدادِ الكربِ غايةٌ ووسيلةٌ

في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ﴾، استُعملَ فعلُ النّداء دون فعلِ الدّعاء لنُكتةٍ بلاغيّةٍ، وهي تصويرُ حالةِ الشدّة والغمِّ الّتي

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 162.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

عانى منها نوحٌ، بسبب كفرِ قومه، ممّا ألجأه إلى النّداءِ وهو رفعُ الصّوت بالكلام رفعًا قويّا، لأجل الإسماع، وهو مشتقٌّ منَ النّداء - بكسر النّون وبضمّها - وهو الصّوتُ المرتفعُ، ونلمسُ في استعارة ﴿نَادَىٰ﴾ بدلًا من (دعا عليهم) أنَّ الدّعاءَ على القوم الظّالمين كان بإلحاحٍ وانزعاجٍ وشدّةٍ ومبالغةٍ حتى بدأ الصّوتُ يعلو وكأنّه ينادي ويصرخُ بأعلى صوته، فأصلُ النّداء الجهرُ بالصّوت والصّياحُ به، ومنه سُمّي دعاءُ الشّخص شخصًا آخرَ ليُقبل إليه (نداءً)، لأنّ من شأنُه أن يُرفعَ الصّوتُ به[1]، ولهذا نجدُ النّظمَ القرآنيَّ يستعملُ النّداءَ في مواضع الشّدّةِ والكربِ كنداء أيّوبَ ﵇، في شدّة مرضه، قال تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: 83]، ونداءِ يونسَ ﵇ في بطن الحوت، وأَعْظِمْ بها من شِدَّةٍ بقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87].

دلالةُ حرفِ الجرّ ﴿مِن﴾ في الآية:

تقدّمُ نوحٍ على الأنبياء ﵈ سبقٌ في الدّعوةِ إلى الله

ورد في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ حرفُ الجرّ ﴿مِن﴾ الدّالّ على ابتداءِ الغايةِ الزّمانيّة، والنّكتة والنُّكتةُ في ذلك أنّه لـمّا كان دعاؤه لم يَستغرقِ الأزمنةَ الماضيةَ، أثبتَ الجارَّ، فقال: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي من قبلِ هؤلاء المذكورين: لوطٍ ومن تقدّمَه[2]، وفي تشخيصِ زمنِ ابتداءِ النّداءِ ما يُضفي فاعليّةً على القصّةِ القرآنيّة؛ لأنّها عبارةٌ عن مجموعةِ أحداثٍ تقعُ في زمان بشخوصٍ محدّدةٍ تهدفُ لتحقيقِ مغزى، فيُعطي بدايةَ الزّمن القصصيِّ حيويّةً على القصّةِ وتكاملًا لمكوّناتِها وعناصرِها الضّروريّةِ حتى يعيشَ القارئُ في ظرفِها وسياقِها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 199.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 452.

سنّةُ الله الماضيةُ وحكمتُه السّاريةُ في نصر أوليائِه ورسلِه

سِرُّ بناءِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ على الضّمّ في الآية:

جاء الظرفُ ﴿قَبۡلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ﴾، مبنيًّا على الضّمّ، وقد تقرّرَ في النّحو، أنّ بناءَه على الضّمّ، يدلُّ على مضافٍ إليه مَنويٍّ معناه، تقديرُه: من قبْلِ هؤلاء، أي قبلَ الأنبياء المذكورين، وفائدةُ ذكرِ هذه القَبْليّة، التّنبيهُ على أنّ نصرَ اللّه أولياءَه سنّتُه المرادةُ له سبحانه، وفي ذلك تعريضٌ بالتّهديد للمشركين المُعاندين لرسولِ اللّه ﷺ، ليتذكّروا أنّه لم تَشِذَّ عن نصْرِ اللّه رُسلَه شاذّةٌ، ولا فاذّةٌ[1]، وفي حذْفِ المضافِ إليه إيجازٌ وربطٌ بعناصرِ القصص بعضِها ببعض؛ إذ ينتقلُ الذِّهنُ إلى من تقدّم ذكرُهم منَ الأنبياء فيحصلُ الارتباطُ والتّماسكُ في تلك القصصِ المُتلاحقةِ.

ترتّبُ استجابةِ الدّعاء على الطّرقِ الدّؤوبِ لأبوابِ السّماءِ

نُكتةُ استخدامِ حرفِ (الفاء) في الآية:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ على ما قبْلَه بحرف (الفاء) الدّالِّ على التّرتيب والتّعقيبِ، والمرادُ بالتّعقيب تأكيدُ الإجابة[2]، بمعنى أنّ استجابةَ اللّه ﷻ لنوحٍ عليه السلام جاءت عقبَ ندائِه وتضرّعِه لربّه المجيبِ سبحانه، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبِه، كما يدلُّ على أنّ الاستجابة مُسبّبةٌ عنِ النّداء، فقد أمر اللّه عبادَه بالدّعاء ووعدَهم بالإجابة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]، وفي هذا الحرف العاطفِ ما يدلُّ على سرعة استجابةِ اللّه نداءَ عبده نوحٍ عليه السلام إذ لم يفصلْ بين ندائه واستجابةِ دعائه بفاصلٍ قصصيٍّ أو بحدثٍ خارجيٍّ، وهي رسالةٌ للدّعاة إذا ما تعرّضوا للاستهزاءِ والاستخفافِ بسرعة النّصر والغلبةِ.

زيادةُ اليقينِ بحكايةِ قصصِ الأنبياءِ والمرسَلين

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ :

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾، استعمالُ الفعلِ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 113.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4898.

بصيغة الماضي الدّالّةِ على تحقّقِ فعلِ الاستجابةِ وأنّها أمرٌ مفروغٌ منها مقطوعٌ بحصولها، واللّه سبحانه يقصُّ على نبيِّه محمّد ﷺ، قصصَ الأنبياء السّابقين تثبيتًا لقلبه، وتسليةً له عمّا كان يَلقاه من قومِه من ضروب الأذَى والتّكذيبِ.

سرُّ ورودِ الفاعلِ ضميرًا دالًّا على العظمة:

بيانُ عظمةِ الجبّار في نصرة أوليائِه الأبرارِ

أُسندَ الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالة على عظمةِ المجيبِ سبحانه، وعظمةِ الاستجابةِ في حدّ ذاتِها، وأنّه لا يستجيبُ للمضطرّ إلّا هو سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النّمل: 62]، ومثلُ هذا التّعبير بهذا الضّمير، يُعبِّرُ به الملوكُ والعظماءُ النّافذُ أمرُهم ونهيُهم، وفيه أيضًا إدخالُ المهابةِ في قلوب العبادِ، فالعظيمُ ينصرُ أولياءه، وكلُّ ما يصدرُ عنِ العظيم عظيمٌ[1].

نُكتةُ استعمالِ السّين والتّاءِ في قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾:

زيادةُ المبنَى تستلزمُ زيادةَ المعنى غالبًا

تضمّنَ قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ زيادةَ حروفِ السّين والتّاء في الفعل (استجاب)، فذهب بعضُ العلماء إلى دلالتِها على تأكيدِ الاستجابةِ والمبالغةِ في حصولِها، لأنّ السّينَ والتّاء للطّلبِ، أي إنّ الطّلبَ طلبُ الإجابة وإرادتُها له[2]، ولذا لم يقل (فأجبناه) بل انتقل إلى ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ ليفيدَ تقويةَ معنَى الإجابة، وأنّها أمرٌ مقطوعٌ بوقوعه لا سبيل للشّكِّ والارتيابِ فيه، ولاشكّ أنّ زيادةَ المبنَى تستلزمُ زيادةَ المعنى غالبًا، وقيل إنّ الاستجابةَ هي الإجابةُ، لأنّ حقيقتَها هي التّحرّي للجواب والتّهيّؤ له، ولكن عبّر به عنِ الإجابة لقلّةِ انفكاكِها منها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60][3].

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4898.
(3) الراغب، المفردات: (جوب).

سرُّ تعديةِ الفعل ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ باللّام:

تعدّى الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ باللّام الدّالّةِ على الغرضِ والعلّةِ والسّببيّةِ، أي إنّ الاستجابةَ كانت لأجل ندائِه ولِما تعرّض له من أذًى، فجاءتِ الاستجابةُ لأجلِه ولكرامته عند ربّه، ودلّت هذه السّببيّةُ على تأكيدِ الاستجابةِ وتقريرِها وأنّها أمرٌ مقطوعُ الحصولِ لا يتخلّفُ مع عباد اللّه الصّالحين وأوليائه المتّقين؛ فهي لأجل نوحٍ عليه السلام، وأنّه سبحانه أعطاه سؤالَه، فنجّاه وأهلَه منَ الكربِ العظيم.

عـنـايـةُ الـلـه سبحانه بعبدِه نـوحٍ عليه السلام دليلٌ على كرامتِه لديه

دلالةُ الفاء على العطفِ في قوله: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، على الاستجابة بحرف (الفاء) الدّالِّ على التّرتيب والتّعقيب، بمعنى أنّ إنجاءَ اللّه جل جلاله لنوحٍ عليه السلام، منَ الكرب العظيم، جاء عقبَ ندائه وتضرّعِه لربّه جل جلاله، واستجابةِ اللّه المجيبِ لدعائه، كما يدلّ عطفُ الإنجاء على الاستجابة على أنّ نداءَه كان بأن يُنجيَه اللّه جل جلاله، ممّا يَلحقُه من جهة قومِه، من صنوف الأذَى بسبب تكذيبِهم[1]، وفي (الفاء) تفصيلٌ وتعريفٌ بحدود الاستجابةِ وأبعادِها، وتوضيحٌ لهيئتِها وصورتِها بأنّها تمثّلت بالتّنجيةِ له ولأهله منَ الكرب العظيم، فهي بمثابةِ التّصوير للاستجابةِ المتقدّمة.

عـطـفُ الإنـجـاءِ عـلى استجابة الـدّعــاءِ مـنَ البيان المُفصح عنِ المراد

دلالةُ صيغةِ الماضي في الفعل ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾:

أوثِر في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، استعمالُ الفعل ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ بصيغةِ الماضي الدّالّةِ على تحقّق الفعل والقطْعِ بوقوعِه، فقد نَجّى اللّه نوحًا عليه السلام ومن آمن معه منَ الغرق، وفي هذا الإخبارِ بما وقعَ في الزّمن الماضي تطمينٌ للدُّعاة وتثبيتٌ لهم، فاللّه سبحانه يقصُّ على نبيّه محمّدٍ صلى الله عليه وسلم قصصَ

تحقّقُ نجاةِ نوحٍ عليه السلام ممّا حلّ بقومِه لُطفٌ منَ الله تعالى

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 549.

الأنبياء السّابقين تثبيتًا له، ولِتأخذَ أمّتُه العِبرةَ من مصير الأممِ المكذّبةِ لرُسلها.

سرُّ ورودِ الفاعل ضميرًا دالًّا على العظمة:

بيانُ قدرة العظيمِ في إنجاء عبادِه المُستضعَفين وإهلاكِ الظّالمين

أُسندَ الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ إلى ضمير (نا) للدّلالةِ على عظيم قدرةِ اللّه ﷻ في نُصرة عبادِه المستضعَفين وإنجائِهم من أذيّةِ الظّالمين وما يَلحقُهم منَ العذاب الأليمِ، وهذه هي العظمةُ الَّتي أنجت نوحًا عليه السلام ومن معه على أعوادٍ من خشبٍ تموجُ بها أمواجٌ كالجبال.

سرُّ استعمالِ صيغة الفعلِ (نجّى) دون (أنجى):

تغيّرُ المبنَى دالٌّ على تغيّرِ المعنَى

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، بالفعل (نجّى) دون (أنجى) للفرق الدّلاليّ الّذي تتميّزُ به الصّيغةُ الصّرفيّةُ لكلّ واحدٍ منهما، فإنّ (نجّى) على وزن (فعّل)، وهذه الصّيغةُ تفيدُ التّمهّلَ والتّلبّثَ والبقاءَ، مثل علّمَ وأعلَمَ، فعلّمَ تحتاجُ إلى وقت، أمّا أعلمَ فهو إخبارٌ دفعةً واحدةً، ومثالُه قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠﴾ [البقرة: 50]؛ لأنّهم لم يمكثوا في البحر طويلًا فقال: أنجيناكم، وكذلك في إبراهيمَ عليه السلام قال ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ [العنكبوت: 24]، ولم يقل: نجّاه، لأنّه لم يلبث كثيرًا في النّارِ بخلاف نوحٍ عليه السلام الَّذي لبث مدّةً في الفُلك حتى حصلت له التّنجيةُ منَ الطّوفان العظيم، كما أنّ هنالك إشارةً لطيفةً في الفعل (أنجى) من حيث الدّلالةُ على التّخليص منَ الكرب بأدنى جهدٍ وعملٍ، بخلاف الفعل (نجّى) الَّذي يفيدُ التَّخليص منَ الكرب بمحاولاتٍ وتعبٍ، وهذا التّفريقُ بالنّسبةِ لنا، وأمّا بالنّسبة لقدرةِ اللّه تعالى فليس هنالك عملٌ صعبٌ أو يسيرٌ، لكنَّ اللّه تعالى يخاطبُنا بمقتضى دلالاتِ لغتِنا، فنفهمُ منَ التّعبير أنَّ عمليةَ تنجية نوحٍ استغرقت وقتًا وجهدًا وفقَ

مقاييسِنا واعتباراتِنا، حتى نفهمَ مدَى استجابة اللّه تعالى لنبيّه نوحٍ ﵇ ومحبّتِه لعبادِه الصّالحين.

دلالةُ العطفِ على الضّمير: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ﴾:

تمامُ المنّةِ على نوحٍ بتنجيةِ الأقربين له من أهلِ المِلّةِ

في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ عُطف (الأهلُ) على الضّمير العائدِ لنوحٍ ﵇، زيادةً في الامتنانِ عليه بفضلِ اللّه سبحانه، فإنّ مِن أعظمِ النِّعم على العبدِ إقرارَ عينِه، وإسعادَ قلبِه، بنجاة أهلِه، والمقصودُ بأهل نوحٍ ﵇ أهلُ بيتِه، ما عدا أحدَ بَنيه الّذي كفر به، وقيل المرادُ بالأهل هنا: أهلُ دينِه، كما دلَّ على ذلك في آيات أخرى، ونلمحُ في عطف الأهلِ والأتباعِ عليه أنّه ﵇ إمامٌ لقومه وأهلِه ومتقدّمٌ عليهم، وأنّهم نالوا شرفَ التَّنجيةِ باتّباعِهم واقتدائِهم به، وفي ذلك تثبيتٌ للمؤمنين بالنّبيّ محمّد ﷺ بأنَّ نجاتَهم تكمنُ في اقتدائِهم واتّباعِهم لأوامرِه وسُننِه.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾ في السّياق:

الـدّلالـةُ على استغراقِ عشرةِ قرونٍ شدادٍ في دعوة القومِ إلى الرّشادِ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ بلفظ ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾، ومعناه الغمُّ الشّديد، وقد قيل في المقصود منَ الكرب وجوهٌ:

أحدُها: أنّه العذابُ النّازلُ بالكفّار، وهو الغرقُ، وهو قولُ أكثرِ المفسّرين.

ثانيها: أنّه تكذيبُ قومِه إيّاه وما لقيَ منهم منَ الأذَى.

ثالثُها: أنّه مجموعُ الأمرين، وهو قولُ ابنِ عبّاس ﵄، وهو الأقربُ، لأنّه ﵇، كان قد دعاهم إلى اللّه تعالى مدّةً طويلةً، وكان ينالُه منهم كلّ مكروهٍ، وكان الغمُّ يتزايد بسببِ ذلك، وعند إعلامِ اللّه تعالى إيّاه أنّه يُغرقُهم، وأمره باتّخاذ الفُلك، كان أيضًا على غمّ وخوفٍ، من حيث لم يعلم مَنِ الّذي يتخلّصُ منَ الغرق، ومنِ الّذي

يغرقُ، فأزال اللّه تعالى عنه الكربَ العظيمَ، بأن خلّصَه من جميع ذلك، وخلّصَ جميعَ من آمن به معه[1].

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ صفةً للكرب:

هلعُ النّفوسِ من خوفِ الغرقِ بالطّوفان

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، بلفظِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ صفةً لـ ﴿ٱلۡكَرۡبِ﴾، وذلك لتصويرِ معاناةِ نوحٍ عليه السلام، في دعوة قومِه طيلةَ ألفِ سنة إلّا خمسين عامًا، وما لقيَه منهم من ألوان السّخريّةِ والتّكذيبِ والأذى، وإضافةُ هذا الوصف إلى لفظ الكرب، يدلُّ على منتهَى البلاء؛ لأنّ أصلَ الكرب من كَرْبِ الأرض وهو قلْبُها بالحفرِ، إذِ الغمُّ يثيرُ النّفسَ إثارةَ ذلك، أو مِن كَرَبَتِ الشّمسُ، إذا دنت للمغيب، فإنّ الغمّ الشّديدَ تكاد شمسُ الرّوحِ تغربُ منه، أو منَ الكَرَبِ، وهو عقدٌ غليظٌ في رشاء الدّلو فإنّ الغمَّ كعُقدةٍ على القلبِ[2].

وقد قال بعضُهم إنّ الكربَ العظيم: هو الطّوفان، ووجهُ كونِ الطّوفان كربًا عظيمًا، أنّه يَهولُ النّاسَ عند ابتدائِه وعند مدِّه، ولا يزال لاحقًا بمواقع هروبِهم، حتّى يَعُمّهم فيبقوا زمنًا يذوقون آلامَ الخوف، فالغرقِ وهم يَغرقون ويَطْفون، حتّى يموتوا بانحباسِ التنفّس، وفي ذلك كلِّه كربٌ مُتكرّرٌ، فلذلك وُصفَ بالعظيم[3]، والغرضُ من وصف الكربِ العظيم أنَّ تنجيةَ اللّه لا يمنعُها كربٌ يسيرٌ أو عظيمٌ إذ قدرتُه مطلقةٌ لا حدودَ لها، لكن تظهرُ النّعمةُ والتّأييدُ بالنّسبة لنا، فلا نخشى همًّا ولا نخاف كربًا، كما يحملُ التّوصيفُ دلالةً على عظمةِ التّنجيةِ والمنّةِ وسرعةِ الاستجابةِ وأهمّيتِها

دلالةُ تلاحقِ الأفعالِ في الآية:

نصرُ الله قريبٌ وإن طال الزّمنُ فإنّ الله مُجيبٌ ومُنجٍّ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، تصويرَ قصّةِ نوحٍ عليه السلام مع

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 163.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 70.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 113.

قومِه، بإيجازٍ بليغٍ، وهذا من مزايا القصّ القرآنيِّ وتَفرّداتِه، فقد طوى اللّه سبحانه قرونًا متطاولةً من حياة نوح ﵇، واختصرها في أفعالٍ متلاحقةٍ ﴿نَادَىٰ﴾..﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾..﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾، للدّلالةِ على أنّ نصْرَ اللّه لعباده قريبٌ، وإن طالتِ المعاناةُ، وفي ذلك تثبيتٌ لقلب النّبيِّ ﷺ، ومن معه منَ المؤمنين، للصّبر على أذى المشركين اقتداءً بالسّابقين منَ الرُّسل، وفيه أيضًا البُشرى بأنّ العاقبةَ الحُسنى لعباد اللّه الصّالحين، بالنّصرِ والتّمكين.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستجابةُ والسَّمعُ:

عمومُ السّمع للإدراكِ والاستجابةِ لِما بين اللّفظين من عمومٍ وخصوصٍ مطلقٍ

يتجلّى الفرقُ بين لفظَيّ (استجاب) و(سمع)، في علاقة العموم والخصوصِ المطلقِ بينهما، فلفظُ (سمع) جنسٌ يشملُ أنواعًا، هي: سمعُ الإدراك، وسمعُ الاستجابةُ، وسمعُ التدبّر والاتّعاظِ، ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: 21]، فأثبت لهم سمعَ الإدراك، ونفَى عنهم سمعَ الاستجابةِ، والاتّعاظ.

ولقد أثبتَ اللّه لنفسه نوعَين منَ السّمع: سمعَ إدراكِ المسموع، وسمعَ إجابةِ المسموع، ففي قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: 1]، أثبت لنفسِه سبحانه سمعَ الإدراك، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]، أثبت لنفسه سبحانه سمْعَ الاستجابة، وفي قول المصلّي: (سمع اللّه لمن حمده) يُقصَد به الأمران جميعًا، يعني يسمعُ ويجيبُ من حمدَه بالإثابة.

وسمعُ الإدراك هو منَ الصّفات الذّاتيةِ، وأمّا سمعُ الاستجابة، فهو منَ الصّفات الفعليّة، لأنّه إن شاء استجاب، وإن شاء لم يَستجب، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]، فالاستجابةُ حصلت بعدَ الدّعاء، وكلُّ شيءٍ يكونُ له سببٌ من صفاتِ اللّه، فهو منَ الصّفاتِ الفعليّةِ.

﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾ [الأنبياء: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إغراقُ المُعاندين الكفرةِ بعد نجاة نوحٍ والمؤمنين البررة

لمّا ذكر تعالى أنّه استجاب لنوحٍ عليه السلام دعاءَه، ذكرَ في هذه الآية إغراقَ قومه ونجاةَ نوحٍ ومن معه مِنَ المؤمنين، وهذا الموضعُ واحدٌ من ثلاثةٍ وأربعين موضعًا في القرآن الكريم[1]، ذُكرت فيه هذه القصّةُ التّاريخيّةُ المفصليّةُ في تاريخ البشريّةِ، لتأكيدِ أنّ النّصرَ حليفُ من آمن باللّه، والتزمَ هُداه، وأنّ الهلاك من نصيب الكفرةِ من أهل السّوءِ الفاسقين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ﴾: (نصر) أصلٌ يدلُّ على إتيان خَيْرٍ وإيتائِه، ونصرَ اللّه المسلمين: آتاهم الظَّفَرَ على عدوِّهم، يَنصرُهم نصرًا[2]، والنَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، ونُصْرَةُ اللّه للعبد ظاهرةٌ، ونُصْرَةُ العبد للّه هو نصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظ حدودِه، ورعايةِ عهوده، واعتناقِ أحكامِه، واجتنابِ نهيِه[3]، وسائرُ ما في القرآن مِنَ الصّيغة: (نصر) و(ناصر) و(نصير)، فهو بمعنى المعونةِ حالًا أو مآلًا[4]، ونَصَرْناهُ في الآية يفيدُ التّعديةَ وتحصلُ معها المطاوعةُ، ومعناه: جعلناه منتصرًا[5].

2) ﴿سَوۡءٖ﴾: (سوأ) أصل، وهي من باب القُبْح، تقولُ رجلٌ أسْوَأُ،

(1) القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 440.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(3) الراغب، المفردات: (نصر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصر).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 56.

أي قبيحٌ، وامرأة سَوْآءُ، أي قبيحةٌ[1]، والسّوءُ: كلُّ ما يَغُمّ الإنسانَ منَ الأمور الدّنيويّةِ، والأخرويّةِ، ومنَ الأحوال النّفسيّةِ، والبدنيّةِ، والخارجةِ، من فواتِ مال، وجاهٍ، وفقدِ حميم ... الخ[2] والسَّيِّئَةُ: الفَعلةُ القبيحةُ، وهي ضدّ الحسنةِ، والسوأى تأنيثُ الأَسْوأ، وكلُّ (سوء) بضمّ السّين فهو القبيحُ بحسبِه اسمًا أو صفةً، وكلُّ (سَوء) بفتح السّين فهو مصدرٌ لإيقاع السّوء - بالضمّ -[3]، ومعنى ﴿قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾ في الآية وصفُهم بمبالغتِهم في أفعال السّوء واحترافِهم لها حتى صاروا يُنسبون إليها ويُضافون لها، وأنّه لا عملَ لهم إلّا ما يَسوءُ ولا يصدرُ عنهم إلّا السّيِّء[4].

3) ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾: (غرق) أصلٌ يدلُّ على انتهاءٍ في شيء يبلغُ أقصاه[5]، ومن ذلك الغَرَقُ وهو: الرُّسوبُ في الماء وفي البلاء، وغَرِقَ فلان يَغْرَقُ غَرَقًا، وأغْرَقَهُ، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ [يونس: 90][6]، فمعنى ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ في الآية رسوبُهم في الطّوفان وذهابُهم في الماء سُفلًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نصرُ اللهِ المؤزّرُ لنوحٍ ومن معه وإغراقُ المُعاندين بعذابِه وقدرتِه

يُخبر اللّه سبحانه بأنّه نصرَ بعظمتِه نوحًا عليه السلام من كيد القوم الّذين كذَّبوا بآياته الدّالّةِ على صدقه، وذلك لأنّهم كانوا أهلَ قُبْحٍ، فأغرقَهم بالطّوفان أجمعين[7]، وفي هذه الآية، نجدُ أنّ اللّه تعالى سلّط عذابَه الماحقِ، على قوم نوحٍ، وقد طال كفرانُهم، وتتالت شرورُهم، فأثبت قدرتَه على العذاب بالماء، بِما لا يقلّ فاعليّةً

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوأ).
(2) الراغب، المفردات: (سوأ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصر).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 452.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).
(6) الراغب، المفردات: (غرق).
(7) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.

وإهلاكًا عنِ العذاب بالنّار، مع أنّهما ضِدّانِ لا يلتقيان، وذلك من إعجازِ قُدرة اللّه الّتي لا يقدرُ عليها إلّا من خلق الماءَ والنّارَ، وهو العزيز الجبّارُ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو لجملة ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ﴾:

الانتقامُ من قوم نوحٍ بعد تنجيته مـن كـيـدهـم المفضوحِ

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾، على ما قبله لعلاقة (التّوسّط بين الكمالين) في الجُمل المتعاطفةِ لاتّفاقها في الخبريّةِ لفظًا ومعنًى، بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقترانِ، بمعنى أنّ اللّه ﷻ جمعَ لنوحٍ عليه السلام، منَ النّعمِ المتواليةِ بأن استجاب دعاءَه، ونجّاه منَ الكرب العظيم، وانتقمَ له من قومِه الّذين كذّبوه بأن نصرَه عليهم، كما أفاد العطفُ الاحتراسَ عن حصولِ مجرّدِ التّنجية من دون انتصارٍ وتأييدٍ؛ إذ لا يلزمُ من التّنجيةِ النّصرُ والغلبةُ، فجاء العطفُ محقّقًا الاحتراسَ ومُظهرًا النّصرَ والتمكين والتّأييد، كما أفاد العطفُ افتقارَ نوحٍ عليه السلام لكلٍّ منَ التّنجية والنّصر معًا.

دلالةُ صيغةِ الماضي في الفعل ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ﴾:

سنّةُ الله المعين أن ينصرَ رُسله ولو بعد حينٍ

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ استعمالُ الفعل ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ﴾ بصيغةِ الماضي الدّالّةِ على تحقّق الفعلِ، فقد نصرَ اللّه عبدَه نوحًا عليه السلام ونجّاه منَ الغرق بشكلٍ محقّقٍ، ومنعَه من كيدِ قومه المكذّبين بصيغةٍ مقطوعٍ بحصولِها، واللّه سبحانه يقصُّ على نبيّه محمّدٍ ﷺ، قصصَ الأنبياء السّابقين، تأييدًا له وتقويةً عمّا كان يَلقاه من قومه من ضروبِ الأذَى.

سرُّ ورودِ الفاعل ضميرًا دالًّا على العظمةِ:

بـيـانُ نـصـرة العظيمِ لعباده المستضعَفين وانتقامِه الأليم منَ الظّالمين

أُسند الفعلُ في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ﴾، إلى ضميرِ (نا) للدّلالةِ على عظيم قُدرةِ اللّه ﷻ في نُصرة عبدٍ واحدٍ على قوم كثيرين، ويَسري التّعظيمُ إلى الفعل نفسِه ليكونَ نصرًا عظيمًا مؤزرًا،

فالعظيمُ لا يُذلُّ من والاه، ولا يُعزّ من عاداه، وانتقامُه منَ المكذّبين، لنبيّه أليمٌ شديدٌ مناسبٌ لعظمتِه سبحانه.

سرُّ إيثارِ صيغةِ (نَصَرَ) على (انتَصَرَ):

من نـصرَه الله انتصرَ فلا غالبَ له منَ البشر

في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ عُبّر بالفعل (نصر)، فقال بعضُ المفسّرين: مطاوعُه انتصرَ، بمعنى نصرناه فانتصرَ[1]، يعني أنه عُدّي بـ﴿مِنَ﴾ كما عُدّي انتصرَ بها، يعنون أنّه إذا تعدّى النّصر كمطاوِعه وهو الانتصار بـ(من) دلّ على وقوع النّصر بجعلِه منتصرًا منهم لعدم تخلّفِ مطاوَعه عنه، لا على مجرّد الإعانة كما إذا تعدّى بعلى[2]، فيكونُ هذا التّوجيه مبنيًّا على تضمين (نصر) معنى (انتصر)، ويحصلُ النّصرُ بجعلِه منتصرًا، وقيل بأنّ حملَه على (فانتصرَ) يأباه ما ذُكر من دعائه عليه السلام بقوله (فانتصر) فإنّ ظاهرَه يوجبُ إسنادَ الانتصارِ إليه تعالى، مع ما فيه من تهويل الأمر[3] ويدلّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر: 10]، وإنّما قال النّبيّ نوحٌ عليه السلام: ﴿فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر: 10]، ولم يقل: (انْصُرْ) تنبيهًا أنّ (ما يَلحقني يلحقُك، من حيث إنّي جئتُهم بأمرك، فإذا نَصَرْتَني فقد انْتَصَرْتَ لنفسك)[4].

دلالةُ استعمالِ الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

علّـةُ الـهـلاكِ التّكذيبُ بآيات الله المنزّلةِ على رُسلِه الكرام

عُدِلَ في قوله تعالى ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ عنِ الوصفِ بالاسم الظّاهرِ إلى الوصف بالموصولِ لتقريعِهم بما في حيّز الصّلةِ، وهو التّكذيبُ بآيات الله، وذمُّهم بذلك من أوّل الأمر، كما أفادت جملةُ الصّلة الإيماءَ إلى علّةِ الغرق الّذي سيُذكر بَعْدُ، وهي تكذيبُهم بآيات ربِّهم ونبيِّه[5].

---

(1) الزمّخشريّ، الكشّاف: 3/ 128، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 56.

(2) الشهاب، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 264.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 78.

(4) الراغب، المفردات: (نصر).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 113.

دلالةُ ورودِ صلةِ الموصول فعلًا ماضيًا:

تحققُ التّكذيبِ بالآياتِ طوالَ مئاتِ السّنوات

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾، استعمالُ الفعل ﴿كَذَّبُواْ﴾ بصيغةِ الماضي الدّالّةِ على تحقّقِ الفعل، وهو تكذيبُهم بآيات اللّه، فقد كذّبَ قومُ نوح نبيَّهم الّذي دعاهم إلى الإيمان باللّه وعبادته، على امتداد قرونٍ طويلةٍ كما أخبرَ اللّه بذلك في آيات أخرى نحوَ قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]، كما أنّ صيغةَ الماضي هي الصّيغةُ المناسبةُ لسرد أخبارِ الأمم الماضية.

سرُّ اختيارِ صيغة ﴿كَذَّبُواْ﴾:

مبالغةُ قومِ نوحٍ في التّكذيب بآياتِ الله أفضَى إلى الهوانِ والهلاكِ

جاء الفعلُ ﴿كَذَّبُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾، بصيغة (فَعَّلوا) الّتي تفيدُ هنا تكثيرَ الفعل والمبالغةَ فيه، على حدّ قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: 23]، فزيادةُ المبنى تستلزمُ زيادةَ المعنى غالبًا، وفي الصّيغة الدّالّةِ على المبالغةِ ما يفيدُ الاستمرارَ والانهماكَ في التّكذيب المتّصل بزمن الإغراق، وفي ذكر الفاعل ضميرًا بالواو ما يدلُّ على حالة الاجتماعِ والاتّفاق على التّكذيب.

نكتةُ ورودِ الجارّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾:

طالَ تكذيبُ قوم نوح كلَّ ما أُنزلَ حتّى الآياتِ البيّناتِ

قُيّد الفعلُ ﴿كَذَّبُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ بالجارّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ للدّلالة على مفعول التّكذيب وهو آياتُ اللّه المبيّنةُ على لسان نبيّه نوحٍ عليه السلام، كما يدلُّ حرفُ الجرّ الباء من ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ على تقوية التّعدية، إذِ الفعلُ (كذّب) يتعدّى بنفسِه ودخولُ (الباء) لتقوية التّعديةِ وتثبيتِها بُغية تشخيص المُكذَّب به وإظهارِه للعيان، والتّكذيبُ بالآيات الدّالّةِ على صدق الرّسالة، مُعارضةٌ ومواجهةٌ، يقوم فيها الأقوامُ، بإنكار صحّةِ

الرّسالة، وتأكيدِ كذبِ الرّسول الّذي جاء بها إليهم، ولكنّ اللّه نصرَ عبدَه في نهاية المطاف، فأنجاه من كيدِهم، وأحاط بهم عذابُه فلم ينجُ منهم أحدٌ، فكان تعبيرُ السّياقِ بالجارّ تشخيصًا للمكذَّب به الَّذي طالَ الآياتِ الظّاهرةَ الواضحةَ الَّتي هي مناطُ خسارتِهم وسببُ هلاكِهم لا يُكشفُ عنها لو خلا النّصُّ من (الباء).

سرُّ إضافةِ (آيات) إلى ضمير العظمةِ (نا):

التّكذيبُ بآيات اللهِ العظيم ذنبٌ عظيمٌ

أُضيفتِ الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾، إلى ضمير العظمةِ للدّلالة على عظمتِها، تبعًا لعظمة مصدرِها، وهو العظيمُ سبحانه، وفيه إشعارٌ بفظاعة تكذيبِ قوم نوحٍ، فالتّكذيبُ بآيات العظيم، ذنبٌ عظيمٌ.

سرُّ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾ عن سابقتِها:

الإصرارُ على العناد والتّكذيبِ يوجبُ الإهلاكَ والتّعذيبَ

فُصِلَ قَوْلُه تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾، عنِ الجملة السّابقةِ، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ لوجود شبهِ كمالِ الاتّصال بينهما[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾، تعليلًا لنصر نوحٍ عليه السلام، لأنّ نصرَه يتضمّنُ إضرارَ القوم المنصورِ عليهم، كما وقعت تمهيدًا لما بعدها، من قوله تعالى ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، فإنّ الإصرارَ على تكذيب الحقِّ والانهماكَ في الشّرّ والفساد ممّا يوجبُ الإهلاكَ قطعًا[2]، وفي هذا الفصل ما يدلُّ على وجود سؤالٍ مقدّرٍ منَ المخاطَب مُفاده: ما علّة تنجيته وجعْلِه منتصرًا منهم، فجاء التّعليلُ والجوابُ (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) ليطفئَ ظمأ المتسائل ويعلّلَ الهلاكَ بالإغراق.

دلالةُ فعلِ الكينونة ﴿كَانُواْ﴾ في الآية الكريمة:

رسوخُ صفةِ السَّوء في قوم نوحٍ لمغالاتِهم في التّكذيبِ والإنكار

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾، توسّط فعلُ (كان) الّتي

(1) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/ 151.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 78.

تأتي للدّلالة على تمكّن الوصفِ على سبيل المبالغةِ، وهي تكون بصيغة الماضي غالبًا[1]، وذلك لنُكتةِ التّأكيد على رسوخ صفةِ السَّوء في قوم نوحٍ، وأنّه لا عمل لهم إلّا ما يسوءُ[2].

الغـرقُ مترتّبٌ على تكذيب قومِ نوحٍ لرسولِهم

دلالةُ (الفاء) في قوله: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ على ما قبله بحرف الفاء الدّالّ على التّرتيب والتّعقيبِ، والمرادُ بالتّعقيب، تأكيدُ سبب إغراقِهم أجمعين، بمعنى أنّ الطوفانَ الّذي أغرق قومَ نوح عليه السلام، جاء عقبَ مبالغتِهم في أفعال السّوء، والّتي من أعظمِها تكذيبُ نوحٍ عليه السلام، فيما جاء به من ربّه، واتّضحَ بهذا العطفِ نوعُ الانتصار منهم فكأنّه انتَشل بهذا الفُلك من بينِ المهزومين بالغرق بسبب إيمانه وعدمِ تكذيبه؛ إذ كان تكذيبُهم بالآيات سببًا للإغراق.

أخذُ العبرةِ من إهـلاكِ الأقـوامِ السّابقين يتجدّدُ في كلّ العصور

دلالةُ صيغةِ الماضي في الفعل ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾:

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، استعمالُ الفعلِ ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾، بصيغة الماضي الدّالّة على تحقّق غرقِهم وهلاكِهم، واللّه سبحانه يقصُّ على نبيّه محمّدٍ صلى الله عليه وسلم وقومِه، قصّةَ إغراقِ قوم نوحٍ عليه السلام، ليثبّتَ نبيَّه على المبدأ وليتّعظَ قومُه بمصيرِهم ويُبادروا إلى التّوبة والإيمان.

قــدرةُ العظيم على إغـراقِ قـومِ نـوحٍ بالطّوفان العميمِ

سرُّ الإضافةِ إلى ضمير العظمةِ في قوله: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾:

أُسنِدَ الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾، إلى ضمير (نا) للدّلالة على عظمة الجبّارِ سبحانه، وأنّ عذابَه أليمٌ شديدٌ مناسبٌ لعظمته سبحانه، لا جرمَ أنّهم أُغرقوا أجمعين بأمواج هائلةٍ كالجبال، كما وصفها جل جلاله: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود: 42]، وفيه أيضًا إدخالُ المهابة في قلوب العباد، فكلُّ ما يصدر عنِ العظيم عظيمٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 112.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 452.

دلالةُ لفظِ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ في الآية الكريمة:

عمومُ العذابِ لجميع المُكذّبين ولو كانوا من قرابةِ الرّسولِ الأدْنين

في قوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ عُبِّرَ بلفظ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾، وهو حالٌ من ضمير النّصبِ في ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾، لإفادةِ أنّه لم ينجُ منَ الغرق أحدٌ منَ القوم، ولو كان قريبًا من نوحٍ عليه السلام، فإنّ اللّه قد أغرق ابنَ نوحٍ، وهذا تهديدٌ لقريش، لئلّا يتّكلوا على قرابتِهم بمحمّدٍ ﷺ، فإنّ العذابَ إذا جاء عمّ جميعَ المكذّبين، ومعنى إغراقِهم أجْمَعينَ، يضمُّ صغيرَهم وكبيرَهم، ذكرَهم وأنثاهم، لأنّ الإصرارَ على تكذيب الحقِّ، والانهماكَ في الشّرّ والفساد، ممّا يوجبُ الإهلاكَ العامَّ[1]، وذكر البيضاويُّ أنّ إغراقَهم إغراقًا يجتثُّهم منَ الجذور، ولا ترى لهم من باقيةٍ، "لاجتماع الأمرَين تكذيبِ الحقّ والانهماكِ في الشّرّ، ولعلّهما لم يجتمعا في قومٍ إلّا وأهلَكهم اللّه تعالى"[2]، ونلمحُ في هذه الحال عظمَ قدرةِ اللّه تعالى على إهلاك القومِ الظّالمين؛ إذ كان الإهلاكُ حالةَ كونِهم مُجتمعين لا مُنفردين، وما ذلك إلّا لجلال قُدرتِه وعظيمِ سُلطانه، وأنَّ الجزاءَ من جنس العمل إذ كذبّوا نوحًا عليه السلام وهم مُجتمعون على ذلك التّكذيبِ مُتوافقون عليه لا يشذُّ عنهم أحدٌ، فجاءهم العذابُ فلم يترك منهم ضالًّا ولم يذرْ منهم على الأرض ديّارًا.

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/ 480.

(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 57.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ [الأنبياء: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الخُلوصُ من ذكر نوحٍ وقومِه إلى قصّةِ امتحانِ داوودَ وسليمانَ

لّما ذكرَ النّظمُ الكريمُ قصصَ بعضِ الرّسل، شرع في عدادِ جمْعٍ منَ الأنبياء، وقد روعيَ في تخصيصِهم بالذّكر ما اشتُهر به كلُّ فرد منهم منَ المزيّة الّتي أنعمَ اللّه بها عليه[1]، فذكرَ للنّبيِّ الخاتم ﷺ في السّياق القرآنيّ، قصّةَ داودَ وسليمانَ عليهما السلام، حين كانا يَحكمان في الزّرع، إذِ انتشرت فيه غنمُ القوم من غير أصحابِه، وأكلته ليلًا، وقد تمّ الحكمُ في القضيّةِ، وأخبرَ المولى أنّه كان عالمًا بما حكما، شاهدًا لمضمونِه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡكُمَانِ﴾: (حكم) أصلٌ واحدٌ، وهو المَنْعُ، وأوَّلُ ذلك الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلم، وسُمّيتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ لِأَنَّها تَمْنَعُها، والحِكْمَةُ هَذا قياسُها، لِأَنَّها تَمْنَعُ مِنَ الجَهْلِ[2]، والحُكْم أعمُّ من الحِكْمَة، فكلّ حِكْمَةٍ حُكْمٌ، وليس كلُّ حُكْم حِكْمَةً، فإنّ الحكمَ أن يُقضى بشيء على شيء، فيقول: هو كذا أو ليس بكذا[3]، ويَحكمان في الآية معناه: يقضيان بين المُتخاصمين[4].

2) ﴿نَفَشَتۡ﴾: (نفش) أصل يدلّ على انتشارٍ، من ذلك نَفْشُ الصّوف، وهو أن يُطَرَق حتّى يَتَنَفَّش، ونَفَشَتِ الإبل: تردَّدت وانتشرت بلا راعٍ، وفعلُها النَّفْشُ، وإبل نُفّاشٌ ونَوافِشُ[5]، قال ابنُ الأعرابيّ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) الراغب، المفردات: (حكم).
(4) الجوهري، الصّحاح: (حكم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفش).

يقال: نفَشَت الإبلُ تنفُشُ ونفَشَت تنفِشُ، إذا تفرّقت، فرعت باللّيل من غير عِلْم راعيها، والاسمُ: النَّفَش، ولا يكون إلّا باللّيل[1]، يقال: نفشتِ السّائمةُ، تنفُش نفوشًا، إذا رعتْ ليلًا بلا راعٍ، وهملت، إذا رعت نهارًا[2]، ومعنى انتفشت في الآية ما سبقَ من كونِها انتشرَتْ ليلًا فرَعَتْ[3].

3) ﴿شَٰهِدِينَ﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلُّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعْلام، لا يخرجُ شيءٌ من فروعه عنها، من ذلك الشّهادةُ، يَجْمَعُ الأصولَ الّتي ذُكِرَتْ من الحضور، والعلم، والإعلام، يقال شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادَةً، والمشْهَدُ: محضَرُ النّاسِ[4]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السّجدة: 6]، أي: ما يغيب عن حواسّ النّاس وبصائرِهم، وما يشهدونَه بهما[5]، فيكونُ معنى ﴿شَٰهِدِينَ﴾ في الآية: حاضرين غيرَ غائبين؛ أي: (كان ذلك بعلْمنا ومَرْأًى منّا، لا يخفَى علينا من أمرهم شيءٌ)[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نفشُ الغنمِ ليلًا في الزّرع وخلاصةُ حُكمِ داوودَ وسليمانَ فيه

يأمرُ اللّه رسولَه الكريمَ ﷺ بأن يذكرَ قصّةَ نبيِّ اللّه داودَ وابنه سليمانَ عليهما السلام، إذ يحكمان في قضيّةٍ عرَضَها خصمان، عَدَت غنمُ أحدِهما على زرع الآخر، وانتشرت فيه ليلًا، فأتلفَتِ الزّرعَ، فحكمَ داودُ عليه السلام، بأنْ تكون الغنمُ لصاحب الزّرع مُلْكًا بما أتلفَتْه، فقيمتُهما سواءٌ، وأخبرَ اللّه سبحانه بأنّه كان لحكمِهم شاهدًا لم يَغِبْ عنه[7].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (نفش).
(2) ابن الأثير، تهذيب اللغة: (نفش).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفش).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) الراغب، المفردات: (شهد).
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 139.
(7) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ﴾:

استخلاص العِبرِ ممّا ذُكرَ من قصّةِ داودَ وسليمانَ في الخبرِ

استُهلّ قولُه تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾، بحرف الواو، وتحتملُ أن تكون للعطف، فيكونَ قولُه ﴿وَدَاوُۥدَ﴾ معطوفا على قوله ﴿وَنُوحًا﴾، مُشتركا معه في عامله الّذي هو (آتينا)، والتّقديرُ: (وآتينا نوحًا وداودَ وسليمانَ) أي: (آتيناهم حُكمًا وعلْمًا)[1]، فحُذف المفعولُ الثّاني لآتينا لدلالة ما قبْلَه عليه، وبناءً عليه تكونُ ﴿إِذۡ﴾ بدلَ اشتمالٍ[2]، والغرضُ منَ الوصل والعطفِ الرّبطُ والاقترانُ في النّعمة اللّاحقةِ لهؤلاء الأنبياءِ من إيتاء اللّه لهم العلمَ والحكمَ، وتحتملُ أن تكونَ (الواو) للاستئناف، فيكونَ قولُه: ﴿وَدَاوُۥدَ﴾ منصوبًا على إضمار فعلِ (اذْكُر)، والتّقديرُ: (واذكرْ داودَ وسليمانَ) أي: قصّتَهما[3]، وبناءً عليه تكونُ ﴿إِذۡ﴾ منصوبةً على الظرفية بصفة المضاف المقدّر، أي: خبرَهما وقصّتَهما الواقعةَ في وقت كان كيتَ وكيتَ، فتكونُ ﴿إِذۡ﴾ منصوبةً على الظّرفيّة الزّمانيّةِ في الماضي، متعلّقةً بالمضاف المقدّر[4]، وبناءً على هذا التّوجيه يكونُ التّركيزُ منصبًّا على ظرف الزّمان؛ لأنّ الذّكرَ لداود وسليمانَ مقيّدٌ بالظّرف؛ ليكونَ التّوقيت عنصرًا بارزًا يتمُّ الإفصاحُ عنه، وفي التّخريجَين كلَيْهما، فإنّ الجملةَ تتوخّى اتّساقًا مع مضامينِ القصصِ المتلاحقةِ، من أجل إبرازِ العِبرةِ، وأخذِ الدّروس التّربويّةِ القيّمةِ.

دلالةُ عطْفِ الولدِ على الوالدِ في السّياق:

جمْعُ داود وسليمانَ عليهما السلام في قصّةٍ واحدةٍ

في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾، عُطف نبيُّ اللّه سليمان على أبيه داود عليهما السلام، بحرف الواو الدّالِّ على الجمع

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 17.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 128.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 454.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 184.

والاقتران، وذلك لأنّ سياقَ الآية ذكرَ قصّةَ حُكمِهما معًا في قضيّة واحدة، فعن ابنِ مَسعودٍ ﵁، في تفسير هذه الآية، قالَ: "كَرْمٌ قد أنبتَتْ عَناقيدُه فأفسَدَتْه، قالَ: فَقَضى داودُ بالغَنم لصاحِبِ الكَرْم، فقالَ سُلَيمانُ: غيرَ هذا يا نَبيَّ اللّهِ، قالَ: وما ذاك؟ قالَ: تَدفَعُ الكَرْمَ إلى صاحِبِ الغَنَم فيَقومُ عليه حتَّى يَعودَ كما كانَ، وتَدفَعُ الغَنَمَ إلى صاحِبِ الكَرم فيُصيبُ منها، حتَّى إذا كانَ الكَرمُ كما كانَ، دفَعْتَ الكَرْمَ إلى صاحِبِه، ودفَعْتَ الغَنَمَ إلى صاحِبِها"(1).

أثرُ صيغةِ المضارعِ ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ في سياق الآية:

تصويرُ قصّةِ حُكم داودَ وسليمانَ ﵉ واستحضارُ أحداثِها

في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾، أوثِر صيغةُ المضارعِ في الفعل ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ لحكاية الحالِ الماضية، "ومعنى حكايةِ الحال أن يُفرضَ الفعلُ الواقعُ في الماضي واقعًا زمنَ الإخبارِ فيخبرُ عنه بالفعل الحالِ نظرًا إلى أنّك لو أخبرتَ عنه وقتَ حصوله لكان بهذه العبارة"(2) وذلك لنُكتةِ استحضار الصّورةِ الماضية للقصّة في النّفوس وتصويرِها في القلوب، حتى كأنّ المخاطَبَ يعاينُها في تلك اللّحظة، وهذا التّصويرُ والاستحضارُ إنّما يتمكّنُ في أدائِهما الفعلُ المضارعُ دون غيره منَ الأزمنة(3)، وفائدةُ ذلك الاستحضارِ أن يعيشَ القارئُ مع الحدث ويتفاعلُ بأجوائِه ليكونَ أكثرَ قربًا منَ الشّخوصِ والمواقفِ والأهداف.

نُكتةُ استعمالِ الفعل ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ في القصّة:

اصطفاءُ الله سبحانه داودَ وسليمانَ ﵉ بالعلمِ والحكمِ

يدلّ الفعل ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾، على كونِ داودَ وسليمانَ ﵉، مَلِكين على رأس مملكةٍ، وقد كان داودُ أوّلَ من جُمعت له النّبوّةُ والملكُ في أنبياء بني إسرائيل، وبلغ ملكُ إسرائيلَ في مدّة داودَ حدًّا عظيمًا منَ البأس

(1) الحاكم، المستدرك، الحديث رقم: (4189).
(2) السجاعي، حاشيته على شرح قطر الندى، ص: 36.
(3) ابن المنيّر، حاشيته على الكشّاف: 2/ 47.

والقوّة وإخضاعِ الأعداء، وكان داودُ ملكًا نبيًّا يحكمُ بين النّاس، فوقعت هذه النّازلةُ، وكان ابنُه إذ ذاك قد كَبِرَ وكان يجلسُ على الباب الّذي يخرج منه الخصومُ، وكانوا يدخلون إلى داودَ من باب آخر، فعندما حكم داودُ بحكمه في القضيّة أبدى ابنُه سليمانُ حُكمًا آخرَ، أرفقَ بالخصمين وأقربَ للصّواب[1]، ونلمحُ في استعمال هذا الفعلِ دلالةَ وفرةِ العلمِ والفهمِ والحكمةِ لكلٍّ من هذين النّبيّين الكريمين؛ لأنّ من لوازم الحكمِ والفصلِ بين الخصومات توافرَ هذه العناصرِ ليكونَ الحكمُ مقبولًا والقضاءُ نافذًا.

بلاغةُ الإسنادِ إلى المثنّى في الآية:

جوازُ الاجتهادِ في القضاء للأنبياءِ عليهم السلام ولغيرِهم من بعدِهم

أُسندَ الفعلُ ﴿يَحۡكُمَانِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾، إلى المثنّى للدّلالة على أنّ كلّا من داودَ وسليمانَ، قد حكمَ في القضيّةِ المعروضةِ حُكمًا يختلف عنِ الآخر، والظّاهرُ أنّ كلًّا من داودَ وسليمانَ حكمَ بما ظهرَ له، وهو متوجّهٌ عنده مقبولٌ لديه، فحُكمُهما باجتهادٍ، ولم يكن عن وحيٍ منَ اللّه، وأنّ حكمَهما إنّما كان عن علمٍ أوتيَه داودُ وسليمان، فذلك منَ القضاء بالاجتهاد، وهو قولُ الجمهور، واستُدِلّ بهذه الآية على جواز الاجتهادِ للأنبياء ولنبيّنا عليهم الصّلاةُ والسّلامُ، وعلى وقوعه في مختلف المسائلِ[2].

وقيل: حَكمَ كلُّ واحد منهما بوحْيٍ من اللّه، ونُسِخ حُكمُ داودَ بحكمِ سليمان، والأوّل أرجحُ.

كما يظهرُ أنّ كلّا منَ الحُكمين صوابٌ، فقد رأى داودُ، أنّه لم يكن بين قيمةِ الحرث وقيمةِ الغنمِ تفاوتٌ، وأمّا سليمانُ فقد استُحسن حُكمُه حيث جعلَ الانتفاعَ بالغنم، بإزاءِ ما فات منَ الانتفاع بالحرث،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 454.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 117.

من غير أن يزولَ ملكُ المالك منَ الغنم، وأوجب على صاحب الغنم، أن يعملَ في الحرث إلى أن يزول الضّررُ الّذي آتاه من قِبَله[1]، فكان حكمُ سليمانَ أرفقَ بالخصمين.

وفي تثنية الضّميرِ إشارةٌ إلى أنَّ الحكمَ قد يختلفُ من قاضٍ لآخرَ حسبما يُؤدّيه علمُه واجتهادُه، ولا ضررَ في ذلك ما دام كلٌّ منَ الحَكمين والمُجتهدين يبتغيان الصّوابَ بقدرِ الطّاقةِ البشريّةِ.

دلالةُ ﴿ٱلْحَرْثِ﴾ في الآية الكريمة:

حكمُ داودَ وسليمانَ في قضية إتلاف زرعٍ أو غرسٍ

صُرّح في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾، بموضوعِ الخصومةِ، وهو الحرثُ، والحرثُ إنّما هو حرثُ الأرض، وجائز أن يكون ذلك زرعًا، وجائزٌ أن يكون غرسًا، وغيرُ ضائرٍ الجهلُ بأيّ ذلك كان[2]، فإن كان المقصودُ بالحرث الأرضَ المحروثةَ أوِ الزّرعَ نفسَه على أنّ المصدرَ بمعنى المفعول، كان تعبيرًا حقيقيًّا، وأمّا إن قُصد بالحرث (الكَرْمُ)، كان مجازًا عنه مع جواز إمكانِ الحقيقة، والعلاقةُ غيرُ ظاهرةٍ، والقولُ بأنّه تشبيهٌ بالزّرع ضعيفٌ[3]، والذي يظهرُ منَ الحرث إرادةُ الزّرع بعمومِه سواء أكان المزروعُ عنبًا أم غيره، وعلاقةُ المجازِ السّببيّةُ؛ إذِ الحرثُ للأرض سببٌ من أسباب الزّرعِ، وفائدةُ تشخيصِ دعوَى الحكم الاقترابُ بالقارئ منَ الحادثةِ والقصّة ليعيش في أجوائِها ويتكوّنَ لديه رأيٌ في القضية وحُكمِها، وأل في ﴿ٱلْحَرْثِ﴾ للجنس، فيفيدُ أنَّ حُكمَهما كان في قضيّةٍ تتعلّقُ بهذا الجنس منَ الأموال بغضِّ النّظرِ عن شخصِه ونوعِه.

دَلالةُ ﴿إِذْ﴾ في قوله ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾:

أثرُ وقوعِ حكمِ داودَ وسليمان آنَ القضيّة

وردَ في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾، لفظُ ﴿إِذْ﴾، وهي من ظروف الزّمانِ المخصّصةِ للمضيّ في أصل وضْعِها، وهي بمعنى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 72.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 321.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 558.

(حين)، وهي متعلّقةٌ بالفعل ﴿يَحۡكُمَانِ﴾، بخلاف ﴿إِذۡ﴾ الأولى فإنّها تتعلّقُ بالفعل المحذوف (اذكر)[1]، على أحدِ الاحتمالَين السّابقين، ومعنى ﴿نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾، أي انتشرت فيه الغنمُ فأتلفَتْه، وأصبحَ غيرَ ذي قيمةٍ، وقد تحاكمَ الخصمان صاحبُ الحرث وصاحبُ الغنم إلى داود عليه السلام[2]، وكان الظّرف ليلًا، لأنّ النّفش يكون رعيًا باللّيل، وعليه فقد أشارت ﴿إِذۡ﴾ الظّرفيّةُ إلى الحين المرادِ في السّياق، تأكيدًا لما يُفهم من سياق الفعل الواردِ بعده، وأفاد تكرارُ ﴿إِذۡ﴾ الظرفية تحديدًا لزمن الحكم وهو النّهارُ عادةً وتحديدًا لزمن الرّعي وهو اللّيلُ بقرينة (النّفش)، والغرضُ من هذا التّحديد تشخيصُ الزّمان الَّذي هو عنصرٌ بارزٌ من عناصرِ القصّة الجالبةِ للانتباه لتحقيقِ التّفاعلِ الكبيرِ بين أجواء القصّةِ وقارئِها، فكأنّه ينظرُ إليها ويُعاينُ أحداثَها بأزمنتِها.

سرُّ استعمالِ صيغةِ الماضي ﴿نَفَشَتۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أوثِر استعمالُ الفعل ﴿نَفَشَتۡ﴾، بصيغة الماضي الدّالّةِ على تحقّقِ الوقوع، فاللهُ سبحانه يقصُّ على نبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم، قصصَ الأنبياء السّابقين لأخذِ الدّروسِ والعبرِ منها.

معنَى لفظِ ﴿نَفَشَتۡ﴾ في الآية:

غفلةُ النّاسِ عن زروعِهم في اللّيل يجعلُها عرضةً للآفات

عُبّر في قوله تعالى: ﴿نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ بالفعل ﴿نَفَشَتۡ﴾، والنَّفْشُ: رعيُ الماشيةِ في اللّيل بغير راعٍ، كما أنّ الهَمَلَ رعيُها في النّهار كذلك، وكان أصلُه الانتشارَ والتّفرّقَ، كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥﴾ [القارعة: 5]، أي إذ تفرّقت وانتشرت فيه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4899.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4899.

غَنَمُ القَوْمِ ليلًا بلا راع، فرعَتْه وأفسدَتْه[1]، واختيارُ هذا اللّفظ لعلاقتِه بغفلة أصحابِ الزّرع عنه ليلًا، أمّا في النّهار فأصحابُه يقومون على خدمتِه وحراستِه، ونلحظُ في أصوات (النّفش) السّريانَ الهادئَ والانتشارَ المتغلغلَ في كلِّ الحرث حتى بلغ الانتشارُ كلَّ أوصال الزّرعِ بهدوء وقد خيّم الصّمتُ والسّكون على المكان.

وجهُ الإضافةِ في قوله: ﴿غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾:

وجوبُ الضّمان على المُلّاك لِما وقعَ في الزّرع من فسادٍ وهلاكٍ

في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أضيفَ الغنمُ إلى القوم، وهذه الإضافةُ بمعنى لام الملكِ، ولو لم يكن للغنم مالكٌ لَما توفّرت عناصرُ الدَّعوى الّتي تستلزمُ وجودَ الخصمَين، واستُفيدَ مِنَ ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ أنّ الغنم كانت ملكًا لجماعةٍ منَ النّاس والرّجال، وكذلك كان الحرثُ شركةً بينهم، كما يؤخذُ من كثيرٍ من رواياتِ المفسّرين، وأمّا ما وردَ في بعض الرّوايات الأخرى، من ذكر رجلَين، فإنّما يُحملُ على أنّ اللّذين حضرا للخصومةِ هما راعي الغنم وعاملُ الحرث[2]، كما يستفادُ من هذه الإضافة ﴿غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾، أنّ القوم كانت لهم قوّةٌ على حفظها[3]، وبالتّالي يلزمُهم الضّمان إذِ ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ مِن يقوم على الأمر بالرّعاية، لكنّهم فرّطوا في واجباتهم، وفُهم من هذه الإضافة أنَّ حكمَ داودَ وسليمان كان في حرثِ القوم فحُذف (القومُ) منَ الأول لدلالة الثّاني عليه.

أثرُ جملةِ ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ في السّياق:

تقريرُ حُكمِ داودَ وسليمان والعنايةُ به

خُتمتِ الآية بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾، للدّلالة على سَعة علمِه سبحانه، وإحاطته بكلّ شيء، فيُخبرُ ﷻ، أنّ حكمَ داودَ وسليمان كان بعلمِه وإحاطته سبحانه، لا يخفَى عليه من أمرهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 116.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 454.

شيءٌ، وقد وقعت هذه الجملة اعتراضًا مقرِّرًا للحكم ومفيدًا لمزيد الاعتناء بشأنه[1]، وقد يقال إنّه مادحٌ للحكم؛ كأنّه قيل: وكنّا مراقبين لحُكمِهم لا نُقرُّهم على خللٍ فيه، وهذا على طريقة قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطّور: 48]، في إفادة العنايةِ والحفظ[2].

سرُّ إسنادِ الفعل (كان) إلى ضمير العظمةِ:

تدخّلُ العظمةِ الإلهيّةِ في تغيير الحُكم إلى الأَوْلى والأعدلِ

أسندَ فعلُ الكينونةِ ﴿وَكُنَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾، إلى ضمير العظمة، للدّلالة على عظمةِ اللّه سبحانه وتعالى، بما له منَ العلم الشّاملِ، والقُدرةِ الكاملة، وعظمتُه سبحانه، لا تُقرُّ على خلاف الأولَى في شرعٍ منَ الشّروع، فلذلك غيّر حكومة داودَ، مع كونِه مأجورًا في اجتهاده، لأنَّ الأولى خلافُها، وهو ما حكمَ به ابنُه سليمانُ عليهما السلام[3].

بلاغةُ الجمعِ في قوله ﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾:

دلالةُ الآيةِ على أنّ أقلَّ الجمع اثنان

نُسِبَ الحكمُ في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾، إلى ضمير الجمعِ، في قوله ﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾، وكان الظّاهرُ (لحكمهما)، فقال بعضُ العلماء أنّ ضمير الجمْعِ راجعٌ لداود وسليمان عليهما السلام، ويؤيّده قراءةُ ابنِ عبّاس رضي اللّه تعالى عنهما (لحكمهما) بضمير التّثنيةِ، لأنّ الاثنين جمعٌ، وهو مثلُ قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ [النّساء: 11] يريد: أخوَين[4]، وقيل: هو للحاكِمَيْن والمتحاكِمَيْن، فجُمِعَ لِذِكْر القومِ الّذين تحاكموا إليه، والحكمُ لا ينفكّ عن تعلّقِه بالمحكوم له وعليه، ولذلك جُمِعَ[5]، وجوز أن يكون الجمعُ للتّعظيم، كما في ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾ [المؤمنون: 99][6]، وفي هذا التّعظيم للحاكمَين تعظيمٌ للحكم نفسِه وإشارةٌ إلى جدارة حكمِهما وقوّتِه ومتانتِه وإن كان أحدُ الحُكمين أرجحَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 267.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 71.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 454.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 208.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 93.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 71.

وأرفقَ منَ الآخر، والذي يدلُّ على إرادة تعظيم الحكم إضافتُه إلى الحَكمين فيعظمُ ويشرفُ لشرفِهما ومكانتِهما العظيمةِ، كما فُهم منَ التّغايرِ في الضّميرِ في ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ و﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾ اختلافُ زمنِ نسبةِ التّحاكم والحُكم إليهما بدليل العطفِ بالفاء في ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ ممّا يدلُّ على تقدّم وتأخُّرٍ في زمن الحُكم؛ فقد عبّرَ بضمير التّثنيةِ في ﴿يَحۡكُمَانِ﴾ لأنّهما كانا في مرحلة الاجتهادِ وإيجادِ الحلّ للخصومةِ فكلُّ واحدٍ منهما منفردٌ عنِ الآخر بقراره وحكمِه فثُنّيا، وعبّرَ بالجمع بعد أنِ انتهيا منَ الحكمِ وتوصّلا إلى القرارِ النّهائيِّ إذ عرفَ كلُّ واحد منهما حُكمَ الآخر بعد اجتماعِهما.

بلاغةُ تقديم شبْهِ الجملةِ ﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾ في الآية:

مُفاد الاهتمام بحكم داودَ وسليمانَ عليهما السلام

وردَ في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾، تقديمُ شبْه الجملة ﴿لِحُكۡمِهِمۡ﴾، على خبر كان ﴿شَٰهِدِينَ﴾ لنُكتةِ الاهتمام، بحكم داودَ وسليمان والاعتناءِ بشأنه[1]، ومن مظاهرِ الاهتمام به تعظيمُه بإضافته إلى ضمير الجمعِ مع أنّهما اثنان في الحقيقة، ولهذا الاهتمام أيضًا غيّرَ حكومةَ داود، مع كونِه مأجورًا في اجتهاده؛ لأنّ الأولى خلافُها، وهو ما حكم به ابنُه سليمانُ عليهما السلام[2]، وقد جمع السّياقُ في هذه الآية بين داودَ وسليمانَ، لغاية بيانِ نماذجَ مِمّا وهبَهما اللّه، فقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: 79]، مظهرٌ من مظاهر امتيازِه، وفي سورة الزّمر، يُبيِّنُ ما وهبَه اللّه تعالى لداود عليه السلام، فيقول: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ [الأنبياء: 79][3]، وما أوتي داودُ منَ المسخَّرات المقهورةِ على فعل ما لا فِكاكَ لها عنه، لا يقلُّ أهميّةً وقيمةً وفعاليّةً، عمّا أوتيه سليمانُ، وهو ما يُعبّرُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 267.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 454.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/ 9602.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحكم والفصل:

زيادةُ الفصلِ على الحكمِ بالبعدِ بين الطّرفَين

يظهرُ الفرقُ بين الحكمِ والفصلِ في المعنى الدّلالي لكلٍّ منهما، فالحكمُ يدلُّ على القضاء بين المُتحاكمين[1]، أمّا الفصلُ فهو بَوْنُ ما بين الشّيئين، قال اللّه ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [الصافات: 21]؛ أي هذا يومٌ يُفصَلُ فيه بين المُحسنِ والمسيءِ ويُجازى كلٌّ بعمله، ولهذا سُمّي يومُ القيامة بيوم الفَصْل، قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤﴾ [المرسلات: 14][2]، فيظهرُ بهذا أنّ الفصلَ أشدُّ من مجرّد الحكم بل هو ثمرةٌ من ثمرات الحكمِ بين المُحقّ والمبطلِ، ولهذا أكثرُ ما يُطلقُ في القرآن، عند اختلافِ جهةِ المفصول بينهما، كأن يذهبَ أحدُهما إلى الجنّة، والآخرُ إلى النّار، أمّا الحكمُ فلا يلزمُ منه ذلك، وقد يكونُ في ملّةٍ واحدةٍ، ويشهدُ لذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾ [النّحل: 124]، فاستعملَ الحكمَ؛ لأنّ الاختلافَ في ملّةٍ واحدةٍ، وهم اليهودُ، وكلُّهم يذهبون معًا إلى جهة واحدة مع بعضٍ، وأمّا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحجّ: 17]، فهؤلاء لا يَذهبون إلى جهة واحدة، فهم فئاتٌ مختلفةٌ، ولهذا يُفصلُ بينهم إلى جنّة أو إلى نارٍ.

النَّفشُ والرَّعْيُ:

الرّعيُ للغنم في الأزمنة كلّها ونفشُ الغنم باللّيل فقط وبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ

يظهرُ الفرقُ بين لفظَيّ (نَفَشَتْ) و(رَعَتْ)، في أصلِ الاشتقاق وفي الاستعمالِ، فأصلُ الرّعي المراقبةُ والحفظُ[3]، وأمّا أصلُ النّفش في اللّغة

---

(1) الراغب، المفردات: (فصل).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (فصل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رعي).

فالانتشارُ، كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: 5][1]، كما يظهرُ الفرقُ في الاستعمالِ، فالرّعيُ للغنم يكونُ بسَوْمِها في المرعى مطلقًا ليلًا أو نهارًا، ويُخصّصُ النّفشُ للغنم برعْيِها في اللّيل[2]، فبينهما حالةَ إضافةِ النّفش للغنم علاقةُ العمومِ والخصوصِ المطلقِ.

الشّاهدُ والشَّهيدُ:

الـشّهـيـدُ أبـلـغُ وأقوَى دلالةً منَ الشّاهد وكلاهما لـفـظٌ قـرآنيٌّ فصيحٌ

يشتركُ لفظا (شاهِدينَ) و(شهداء) في أصل الاشتقاق، وهو الشّهادةُ، وهو أصلٌ واحدٌ يَدُلّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعْلام، لا يخرج شيءٌ من فروعه عنها[3]، وشهدَ فلان بحقّ فلانٍ شهادةً، فهو شاهد وشهيد، وسُمّي القتيلُ في سبيل اللّه شهيدًا؛ لأنّه حيٌّ عند ربّه حاضرٌ، وقيل: لأنّ اللّه وملائكتَه شهودٌ له بالجنّة، وقيل: لأنّهم يَشهدون ملكوتَ اللّه ﷻ وملكَه[4].

ويختلف من ناحية معاني الصّيغِ الصّرفيّةِ، فلفظُ (شاهِدينَ)، جمع سلامة لـ (شاهد)، وهو اسم فاعل، وأمّا لفظ (شهداء) فهو جمع تكسير لـ (شهيد)، وهو على وزن (فعيل)، وهو صفةٌ مشبّهةٌ، ومعلومٌ أنّ الصّفةَ المشبّهةَ، أبلغُ من حيث هي مِن اسم الفاعل لأنّها تفيدُ الثّبوتَ، في حين يفيدُ اسمُ الفاعل مجرّدَ الحدوث.

كما أنّ لفظَ (شهيد)، يحتملُ أنّه بمعنى (فاعل)، أي شاهد، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: 143]، ويحتمل أنّه بمعنى (مفعول) مثل الشّهيد، في سبيل اللّه فهو مشهودٌ له بالجنّة، قال تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ [الحديد: 19] فهو أوسعُ دلالةً من لفظ (شاهد) الّذي يفيدُ الدّلالةَ على الفاعل فقط.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفش).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفش).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(4) الفيروز أباديّ، القاموس: (شهد).

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ترجيحُ حُكمِ سليمانَ على حكمِ أبيه مع الثّناءِ على اجتهادِهما ومقامِهما

لمّا ذكرَ البيانُ الإلهيُّ قصّةَ حكمِ داودَ وسليمان، في قضيّة الغنم والحرثِ، ذكرَ هنا ما اختصَّ به سليمانَ منَ التّفهيم، ثمّ أثنَى عليهما جميعًا بإيتاء الحكمِ والعلم، ذلك أنّ حكمَ سليمانَ كان أكثرَ سدادًا وصوابًا، مع كونِ حكمِ داود أيضًا سديدًا، لكنّ الأوّلَ أفضلُ، لإبقائِه ملكَ كلٍّ مُحيّزًا، عائدًا إلى صاحبه، مع طيبِ نفسِ كلٍّ منَ الخصمين، برضاهما بالحكم الصّادرِ عن سليمانَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾: (فهم) أصلٌ، ومعناه عِلْمُ الشَّيْءِ[1]، وفهّمته وأَفْهَمْتُهُ: إذا قلت له حتّى تصوّرَه، والاسْتِفْهامُ: أن يَطلبَ من غيره أن يُفَهِّمَهُ، وفهّمه الأمرَ: مكّنه أن يدركَه، وأن يُحسن تصوُّرَه، جعلَه يفهمُه، والفَهْمُ: هيئةٌ للنّفسِ بها يتحقّقُ معاني ما يُحسنُ، يقال: فَهِمْتُ كذا، وقيل: الفهم: تصوُّرُ المعنى منَ اللّفظ، وفي أحكام الآمديِّ: الفهمُ: جودةُ الذّهن من جهة تَهْيِئَتِهِ لاقتناصِ ما يردُ عليه منَ المطالب[2]، ومعنى قولِه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾، إمّا بأن جعلَ اللّه له من فضلِ قوّةِ الفهم، ما أدركَ به ذلك، وإمّا بأن ألقَى ذلك في روعِه، بأن أوحَى إليه وخصَّه به[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فهم).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (فهم)، وفي تاج العروس: تَهَيُّئِه، والتصويب من الأحكام للآمدي وهو المصدر الأصلي للنص المنقول.

(3) الراغب، المفردات: (فهم).

2) ﴿وَسَخَّرۡنَا﴾: (سخر) أصلٌ مُطَّرِدٌ مستقيمٌ، يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، من ذلك قولنا: سخّر اللّه ﷻ الشّيءَ، وذلك إذا ذلّله لأمرِه وإرادته[1]، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرض المختصّ قهرًا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: 13][2]، والتّسخيرُ: التّذليلُ، وسفنٌ سواخرُ مواخرُ، من ذلك، وكلُّ ما ذلَّ وانقادَ أو تهيّأ لك على ما تريدُ، فقد سُخِّر لك[3]، وليس في القرآن منَ التّركيب إلّا ما هو منَ السُّخرية أوِ التَّسْخير[4]، فيكونُ معنَى تسخيرِ الجبالِ لداودَ موافقتَها له في التّسبيح، فكان إذا سبّحَ بين الجبال سمعَها تُسبِّحُ مثلَ تسبيحِه[5].

3) ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾: (سبح) أصلٌ، وهو بابان: أحدُهما جنسٌ منَ العبادة، والآخرُ جنسٌ منَ السّعي، والمقصودُ هنا الأوّلُ، ومنه السُّبْحَةُ، وهي الصّلاةُ، ومنَ الباب التّسبيحُ، وهو تنزيهُ اللّه جلّ ثناؤه من كلِّ سوءٍ، والتّنزيهُ: التّبعيدُ[6]، وسائرُ ما في القرآن من هذا التّركيب فهو تنزيهُ اللّهِ عن أن يُنسَبَ إليه تعالى ما لا يليقُ به: منَ الشّريك أوِ الولدِ، أو نحوه، وبعضُه بالتّعظيم وهو لازمٌ للتّنزيه[7]، فمعنى يُسَبِّحْنَ في الآية: يُقَدِّسْنَ اللّه تعالى بقول: سبحانَ اللّه تعالى ونحوه[8].

4) ﴿فَٰعِلِينَ﴾ (فعل) أصلٌ يدلُّ على إحداث شيءٍ من عمل وغيره[9] يقال فَعَل يفعَل فَعْلًا وفِعْلًا، فالمصدرُ مَفْتوحٌ والاسْمُ مكسور[10]، واستُعملَ هذا التّركيبُ في القرآن الكريم في مقابلة القولِ، وفي ارتكاب المعاصي والمخالفاتِ، وفي إيقاع العذابِ، وفي مطلق العملِ[11]، والفعال اسمُ الفِعل الحَسَن؛ مثلُ الجود والكرم ونحوه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(2) الراغب، المفردات: (سخر).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (فهم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سخر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبح).
(8) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 73.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فعل).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (فعل).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فعل).

وروى أبو العبّاس عنِ ابن الأعرابي أنّه قال: الفعال: فعلُ الواحدِ خاصّةً في الخير والشّرّ، يقال: فلانٌ كريمُ الفِعال، وفلانٌ لئيمُ الفِعال[1]، ومعنى ﴿فَٰعِلِينَ﴾ في الآية: قادرين ومُنجِزين ما نريدُ من تسخيرِ الجبال والطّير لداودَ[2].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

تفهيمُ اللّه لسليمانَ والامتنانُ على داودَ بتسخيرِ الجبالِ له والطَّيرِ

يُخبرُ اللّه سبحانَه بأنّه قد فهّمَ سليمانَ الحُكمَ الأوفقَ، بمصلحة الطّرفَين مع العدل، وذلك بالفتحِ عليه، وإدراكِه الحُكمَ الصّائبَ السّديدَ، بتوفيقٍ منه رشيدٍ، وأثنَى على كلٍّ من داودَ وسليمانَ بإعطاء الحُكم والعلم لهما، وأنّه قد منّ على داودَ بتطويع الجبالِ تسبِّحُ معه إذا سبَّح، وكذلك الطّيرُ في عليائِها، وهي محلِّقةٌ في طبقات الجوّ، تُسبِّحُ اللّه، وتَلهجُ بحمدِه، بما هو أهلُه، وأنّه سبحانَه فاعلُ ذلك بحكمتِه وإرادتِه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الفاء) في الآية:

إلهامُ سليمانَ الفهمَ بعد قضاءِ أبيه في مجلسِ الحُكم

عُطِف قولُه تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، على ما قبْلَه بحرف الفاء، الدّالِّ على التّرتيبِ والتّعقيب، بمعنَى أنّ اللّه سبحانه، ألهمَ سليمانَ هذا الحُكمَ، عقبَ حكم أبيه داودَ في قضيّة الحرثِ والغنم، في مجلس القضاءِ ذاتِه، دون تأخيرٍ زمنيٍّ طويلٍ، فقد روي أنّه عندما حكمَ داودُ بين الخصمَين، خرجا فمرّا على سليمانَ عليه السلام، فأخبراه بحكم أبيه، فقال: غيرُ هذا أرفقُ بالفريقَين، فسمعَه داودُ، فدعاه فقال له: بحقّ البنوّةِ والأبوّةِ إلّا أخبرتَني بالّذي أرفقُ بالفريقين، فقال: أرى أن تُدفعَ الغنَمُ إلى صاحب الأرض، لينتفعَ بدَرِّها ونسْلِها

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فعل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 120.
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.

وصوفِها، والحرثَ إلى أرباب الغنم، ليقوموا عليه، حتّى يعودَ إلى ما كان، ثمّ يترادّا، فقال القضاءُ ما قضيتَ، وأمضى الحُكْمَ بذلك[1].

دلالةُ الفعل الماضي ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾:

سردُ القصصِ الماضيةِ لأخذِ الدّروسِ والعبرِ السّاميّةِ

في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، أوثِر استعمالُ الفعلِ ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾، بصيغة الماضي، الدّالّةِ على تحقُّقِ الوقوع، فاللّه سبحانه يقصُّ على نبيّه محمّدٍ ﷺ، قصّةَ حُكم داودَ وسليمانَ عليهما السلام.

سرُّ إسنادِ الفعل (فهّم) إلى ضمير العظمةِ:

لا علْمَ للعبدِ إلّا ما علّمَه ربُّه العليمُ سبحانه

أُسندَ الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، إلى ضمير (نا) الدّالِّ على عظمة اللّه ﷻ، فهو الّذي ألهمَ سليمانَ عليه السلام، الفهمَ الأصوبَ، للحكومةِ بما له سبحانه منَ العلمِ الشّاملِ، والقدرةِ الكاملةِ على رفع من يشاءُ من عباده، في درجات العلم والفهم[2]، قال سبحانه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76]، وتعظيمُ الفاعلِ يدلُّ على عظمة الفهمِ الّذي منحَه اللّه لعبدِه سليمانَ عليه السلام.

نُكتةُ استعمالِ الفعلِ ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾ بالتّضعيف:

تفهيمُ اللهِ الوهّابِ لعبدِه سُليمانَ الصّوابَ

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، على صيغة (فعّل) المضعّف، وذلك لإفادة التّعديةِ إلى المفعولَين، فجملةُ ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، فعلٌ وفاعلٌ و(الهاء) مفعولٌ به ثانٍ، و﴿سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ مفعولٌ به أوّلُ، وهذا في قراءة جمهور القُرّاء العشرة، وورد في قراءة شاذّة، عن عكرمة (فأفهمناها)، فعُدّي الفعلُ بالهمزة، كما عُدّي في قراءة الجمهور بالتّضعيف[3]، كما تدلّ صيغةُ التّضعيف على المبالغةِ في الفعل مع كثرةٍ فيه، مع تحقّق مُحاولاتٍ متعدّدةٍ في التّعليم والتّفهيم؛ لأنَّ القضيةَ تتكوّنُ من تفاصيلَ فتحتاجُ إلى نظرٍ فيها وحُسنِ فهمٍ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 79.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 454.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 455.

لمكوّناتِها فأوثِر التّعبيرُ فيها بصيغة المبالغةِ والكثرةِ، وفيه إرشادٌ للقضاة أن يُحسنوا الفهمَ ويُبالغوا في دراسة أجزاءِ القضيّةِ دراسةً معمّقةً وتفصيليّةً حتى يُلهَموا الفهمَ الأعمقَ والأدقَّ.

مرجعُ الضّميرِ في قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾:

أثَرُ التّقديرِ في تحديدِ مرجعِ الضّميرِ

اتصّل الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، بضمير (ها)، الدّالِّ على أنّ مرجعَه مؤنّثٌ، وكان المتبادَرُ أن يكون مذكّرًا؛ لأنّه راجعٌ على الحكم المذكورِ، في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾، فيقدّرُ مرجعُه المؤنّثُ بما يناسبُ السّياقَ، نحوَ: المسألةِ أوِ الفتيا أوِ الحكومة ... الخ[1]، والأمرُ في ذلك واسعٌ، ولعلَّ التّأنيثَ للضمير قُصد به تفهيمُ أجزاءِ الموضوع والقضيّةِ، وما الحكمُ إلّا القرارُ النّهائيّ الصّادرُ بعد النّظرِ والفهم، فالذي يناسبُ التّفهيمَ أجزاءُ القضيّةِ ومكوّناتُها، كما جرى تقديمُ المفعول الثّاني على المفعول الأوّل إذِ الأصلُ (ففهمنا سليمانَ المسألةَ) لإفادة اختصاصِ الفهم بسليمانَ دون غيره.

بلاغةُ فنّ جمْعِ المُؤتلفِ والمختلفِ في الآية:

التّسويةُ بين داودَ وسليمانَ في العلم وتفضيل سليمانَ بالفهمِ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ فنًّا من فنون البلاغةِ يُسمّى جمْعَ المؤتلفِ والمختلفِ، وهو عبارةٌ عن أن يريدَ المتكلّمُ التّسويّةَ بين ممدوحَين، فيأتي بمعانٍ مؤتلفةٍ في مدحِهما، ثمّ يرومُ بعد ذلك ترجيحَ أحدِهما على الآخر، بزيادة فضْلٍ لا يُنقِصُ مدحَ الآخر، فيأتي لأجل ذلك التّرجيح بمعانٍ تخالفُ معانيَ التّسويّة، ففي الآية ساوى أوّلُ الآية بين داود وسليمان عليهما السلام، في أهليةِ الحُكم، ثمّ رجّح آخرها سليمانَ، حيث يقول ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾، فأتى بما يقوم مقامَ تلك الزّيادةِ الّتي يرجُحُ بها سليمانَ لترشدَ إلى المساواةِ في الفضل، لتكونَ فضيلةُ السّنّ وما يَستتبعُها

(1) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 8/ 185.

من وفرة التّجاربِ وحِنكةِ الحياة قائمةً مقامَ الزيادة الَّتي رُجِّح بها سليمانُ في الحكم[1].

دلالةُ (الواو) في قوله ﴿وَكُلًّا﴾:

أثرُ حروفِ المعاني في تنوّع المعنَى القرآنيّ

تصدّرَ قولَه تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ حرفُ الواو، فجعله بعضُ المفسّرين للعطف، على حُكم سليمانَ وداودَ ﵉، في قضيّة الحرث والغنمِ، بمعنى أنّ الله أثنَى عليهما معًا في حُكمِهما، بأنّه آتاهما الحُكمَ والعلمَ وإن خصَّ سليمانَ بفهمٍ وتفهيمٍ أرجحَ.

وذهب بعضُ المُفسّرين إلى أنّ الواو هنا للاستئناف، وأنّ الكلامَ بعدها مستقلٌّ، عن قضيّة الحكم في الحرث والغنم، بل هو ثناءٌ عليهما بالحُكم والعلمِ، في غير هذه القضيةِ، واستدلّ أصحابُ هذا القول بأنّ الله سبحانه قال: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، بلفظ التّنكيرِ، ولو أراد الثّناءَ عليهما في هذه المسألة، بالحكم والعلم، لقال: (وكلّا آتينا حُكمَها وعلمَها)[2]، ومنَ المفسّرين من جعل هذه الآيةَ، غيرَ مختصّة بداود وسليمانَ فقط، فقد آتى اللّه سبحانه داودَ وسليمانَ والرّسلَ الّذين ذكرَهم، في أوّل هذه السّورة حكمًا وعلمًا[3].

بلاغةُ الاحتراسِ في الآية الكريمة:

دفعُ توهّمِ خطإِ داودَ في الحكمِ بتخصيص سُليمانَ بالفهم

في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، احتراسٌ بديع، وذلك بِدفعَ ما عسى أن يوهِمَه تخصيصُ سليمانَ ﵇ بالتّفْهيم، من عدم كوْنِ حكم داودَ ﵇ حكمًا شرعيًّا، أو أنّ حكمَ داودَ كان خطأً أو جَوْرًا، وإنّما كان حكمُ سليمانَ، أصوبَ وأرفقَ بالخصمَين[4]، وقد خرج هذا الكلامُ مخرجَ الثّناءِ عليهما لاجتهادِهما، وقد روي عنِ الحسن

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 344.
(2) الواحدي، البسيط: 15/ 140.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 475.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 79، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.

رحمه اللّه قولُه: (لولا هذه الآيةُ لرأيتُ القضاةَ قد هلكوا، ولكنّه أثنَى على سليمانَ ﷺ بصوابِه، وعذرَ داود ﷺ باجتهاده)[1].

دلالةُ تقديم المفعولِ به ﴿وَكُلًّا﴾ على عاملِه:

اختصاصُ داودَ وسليمانَ عليهما السلام بالحكمِ والعلم

تقدّمَ في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، المفعولُ به ﴿وَكُلًّا﴾، على عامله ﴿ءَاتَيۡنَا﴾، للدّلالة على اختصاص سليمانَ وداودَ ﷺ، من دون ناسِ زمانِهما بالحكم والعلم، ويمكنُ أن يقال إنّه تقدّمَ لغرضِ الاهتمام بهما عليهما الصّلاةُ والسّلامُ.

دلالةُ لفظِ ﴿حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ في الآية:

شيوعُ الحكمِ في النّبوّة والعلم بأحكامِ الله

يُخبرُ اللّه ﷻ، في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، أنّه آتى داودَ وسليمانَ ﷺ، الحكمَ والعلمَ، فقال بعضُ المفسّرين إنّ الحكمَ هو النّبوّةُ، وهذا له نظائرُ كثيرةٌ، وأنّ العلمَ المقصودَ، هو العلمُ بأحكام اللّه[2]، وذهب غيرُهم إلى أنّ الحكمَ هو الحكمةُ، وهو النّبوءة، والعلمُ: أصالةُ الفهم[3].

نُكتةُ التّنكير في لفظَيْ ﴿حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾:

بيانُ إيتاءِ الله داودَ وسليمان حظًّا عظيمًا من العلمِ والحُكم

جاء في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، لفظا الحُكم والعلم نكرتَين لنُكتةِ التّكثيرِ أوِ التّنويع، أي إنّ اللّه سبحانه آتاهما حُكمًا وعلمًا كثيرًا ونوعًا متميّزًا منهما، والّذي منه العلمُ بطرقِ الاجتهاد، والفصلِ بين المتخاصمين كما وقع في قصّة الغنمِ والحرث[4].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَسَخَّرۡنَا﴾:

الاستئنافُ بما اختُصّ به داودُ عليه السلام دون سائرِ الأنام

رُبط قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾، بما قبْلَه بحرف الواو الدّالِّ على الاستئناف، فبعدَ أن ذكرَ اللّه سبحانه كرامتَه العامّةَ ونعمَه المشتركةَ بين داودَ وسليمان ﷺ، شرع في بيان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 455.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 475.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 115.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 72.

ما اختصَّ به كلَّ واحد منهما منَ الكرامات الخاصّةِ والمُعجزات الباهرةِ[1]، ودفعًا لتوهُّم أنَّ تفهيمَ سليمانِ المسألةَ الَّتي وقع فيها التّخاصمُ يعني تفوّقَ سليمانَ على داودَ في النِّعم الأخرى فاستأنف الكلامَ ببيان فضلِ داودَ وما منحَه اللّه من نِعمٍ عظيمةٍ.

سرُّ إسنادِ فعلِ التّسخيرِ إلى ضمير العظمةِ:

بـيـانُ عـظـمـةِ الخالقِ المنّانِ في إنـطـاقِ الجماد والحيوانِ

أُسندَ التَّسخيرُ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾، إلى ضمير العظمةِ (نا)، للدّلالةِ على أنّه لا يقدرُ على تسخير تلك المخلوقاتِ إلّا خالقُها العظيمُ سبحانه، فبعظمته أنطقَ كلَّ شيءٍ، وجعلَه يسبّحُ بجلال وجهِه، وعظيمِ سلطانه، واستُفيدَ منه تعظيمُ الفعل في ذاته؛ لأنَّ من شأن الفاعل العظيمِ أن يُنجزَ الأفعالَ العظيمةَ.

نُكتةُ التّعبيرِ بالظّرفِ ﴿مَعَ﴾ في الآية:

مصاحبةُ الجبالِ والـطّـيرِ لـداودَ عليه السلام في التّسبيحِ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾، التّعبيرُ بالظّرفِ ﴿مَعَ﴾ لكونه نصًّا في المعيّة، بمعنَى أنّ داودَ عليه السلام، كان إذا سبّح بين الجبال سمع الجبالَ تسبّحُ معه مثلَ تسبيحِه، وهذا معنى التّأويبِ في قوله في الآية الأخرى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: 10]، إذِ التّأويبُ التّرجيعُ، مشتقّ من الأوبِ وهو الرّجوع، وكذلك الطّير إذا سمعت تسبيحَه، تغرّدُ تغريدًا مثلَ تسبيحِه، وتلك كلُّها معجزةٌ له[2]، واستُفيد منَ المعيّةِ المُتابعةِ والبَعديّةِ فهو يبدأ بالتّسبيح ثمّ يُنشدان بعدَه التّسابيحَ اقتداءً واهتداءً به وما ذلك إلّا إكرامًا له وتأكيدًا لإمامته.

دلالةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿مَعَ دَاوُۥدَ﴾:

تسخيرُ الجبالِ والـطّـيرِ لـداود عليه السلام مـحـضُ خصوصيّةٍ

تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾، شبْهُ الجملة الظرفيّةِ ﴿مَعَ دَاوُۥدَ﴾ على المفعول به وفعلِه: ﴿ٱلۡجِبَالَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.

﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ للدّلالة على الاهتمام بداود عليه السلام، وإظهارِ كرامته[1]، كما يحتملُ التّقديمُ اختصاصَ داود عليه السلام دون غيره بهذه المعجزة الخارقةِ، وهي تسبيحُ الجبال والطّيرِ عند تسبيحِه، كان داود يمرّ بالجبال والطّير مسبِّحًا، وكانت هذه المخلوقاتُ تتجاوبُ معه، قال قتادة: يُسَبِّحْنَ بمعنى أنّهنّ يصلّين معه إذا صلّى، وذلك يعني أنّه: كلّما سبّح داود، تسبّحُ معه الجبالُ والطّيرُ، على سبيل التّسخيرِ، وهو دليلٌ على التّخصيص بالكرامةِ والمنزلة العليّة عند ربّ البريّةِ[2].

سرُّ فصلِ جملةِ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ في الآية:

بيــانُ صـفـةِ تسخيرِ الجبالِ والـطّـيرِ لـداود عليه السلام

فُصلتْ جملةُ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ عنِ الجملة الّتي قبلَها، وهي قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾، لوجود كمالِ الاتّصال بينهما، وهو اتّحادُ الجملتَين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّلُ الثّانيةُ منَ الأولى منزلةَ نفسِها[3]، فقد وقعت جملةُ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ بيانًا لجملة ﴿وَسَخَّرۡنَا﴾، أو حالًا مبيّنةً لها[4]، فالجملةُ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ تحتملُ أنّها عطفُ بيانٍ للتّسخير إذ كشفت طبيعتَه وحدّدت نوعَه بالتّسبيح فيكونُ من قَبيل البيانِ بعد الإجمالِ، وهو أسلوبٌ يشوقُ السّامعَ للإصغاء والانتباه لباقي الكلامِ، وتحتملُ أنّها حالٌ مبيّنةٌ للإبهام الكامنِ في الفعلِ ﴿وَسَخَّرۡنَا﴾ وتفيدُ الحاليةُ مع البيانِ التّقييدَ للتّسخيرِ والتّوقيتَ له في وقت التّسبيحِ فيكونُ التّسخيرُ مقيّدًا بوقت التّسبيح.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في قوله ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾:

تجدّدُ التّسبيحِ مِـنَ الـجـبـالِ وسائرِ المخلوقاتِ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ استعمالُ صيغةِ المضارعِ دونَ غيرِها، لِما يفيدُه المضارعُ منَ التّجدّدِ والاستمرارِ، فيتجدّدُ التّسبيحُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 434 (بتصرّف).
(3) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.

منَ الجبال، في كلّ وقتٍ سبَّح فيه داودُ إكرامًا له ومعجزةً مصدّقةً بنبوّتِه، والتّسبيحُ إمّا أن يُحملَ على الحقيقة أو على المجازِ، وبالأوّل قال جماعةٌ وهو الظّاهرُ، وذكروا أنّ داودَ كان إذا سبّح بصوتِه الجميلِ الّذي عبّرَ عنه النّبيُّ ﷺ بالمزامير، سبّحتِ الجبالُ معه، بما يُشبهُ رجعَ الصّدى، ولكنّه صوتٌ، وليس رجعًا للصّوت، وقيل: إنّها كانت تصلّي معه إذا صلّى، وهو معنَى التّسبيحِ، والقائلون بالمجاز، حملوا التّسبيحَ على تسبيحِ من رآها، تعجّبًا من عظيم خلْقِها، وقدرةِ خالقِها، وهو خلافُ الصّحيحِ والمشهورِ، ذلك أنّها مُعجزةٌ خارقةٌ، والمعجزةُ تكونُ حقيقةً لا مجازًا، وتستمدُّ قوّتَها من وجودها الفعليِّ[1].

دلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾:

عطْـفُ الـطّـيرِ عـلـى الـجـبـالِ في التّسبيحِ أوِ التّسخيرِ

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ على ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ بحرف الواو، ويحتملُ أنّها للنّسقِ، فلا يلزمُ حينئذ منَ العطف دخولُ ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ في قيدِ التّسبيح؛ لأنّها معطوفةٌ على الجبال والعاملُ فيهما ﴿وَسَخَّرۡنَا﴾، ويحتملُ أنّ الواوَ للمعيّة فيكونُ ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ مفعولًا معه؛ أي: (الجبالَ يُسبّحْنَ مَعَ الطَّيرِ)، فيلزمُ دخولُها في قيدِ التّسبيح، وتكونُ حينئذ معمولًا للفعل ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾، والفرقُ بين المعنيَين أنها على الأوّل تكونُ الطّيرُ منَ المسخّرات كالجبال من دون دلالة على ترتيب بينهما؛ فكلٌّ منَ الجبال والطّير يردّدُ خلفَ داود عليه السلام، وعلى الثّاني تكونُ متبوعةً في التّسبيح إذِ الجبالُ تسبّحُ مع الطّيرِ فتكونُ الطّيرُ سابقةً للجبال، بمعنى أنّ داودَ عليه السلام كان يبدأُ التّسبيحَ ثمّ تتبعُه الطّيورُ، وبعد ذلك تتجاوبُ الجبالُ وهذا أشبهُ ما يكونُ في عمليات الإنشادِ وتجاوُبِ الآخرين معه بالتّرديد والمتابعة، وهذا هو الأنسبُ بنظمِ الكلام ولذا فصلَ بين المُتعاطفين ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ و﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ بالفعل ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾، وقيل في سبب العطف، إنّ الطّيرَ أكثرُ سُكناها الجبالُ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 119.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 456.

إنطاقُ الجمادِ باللّسانِ السّليمِ أعجبُ من إنطاقِ الحيوانِ البهيمِ

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ على ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ في التّسبيح:

قُدّمَ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾، ذكرُ الجبال على الطّير في التّسبيح؛ لأنّ تسخيرَها وتسبيحَها أعجبُ، وأدلُّ على القدرة، وأدخلُ في الإعجاز، لأنّها جمادٌ والطّيرَ حيوانٌ، إلّا أنّه غيرُ ناطقٍ، وإن كانت على جعلِ الواو في ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ للمعيّةِ الدّالّةِ على التّأخّر الزّمنيِّ في عمليّةِ التّسبيح إلّا أنّ تسبيحَها أدلُّ على الإعجاز، فقُدّمت لفظًا وإن تأخّرت وقوعًا، روي أنّه كان يمرُّ بالجبال مسبّحًا، وهي تجاوبُه، وكذلك الطّيرُ إذا سمعت تسبيحَه، تغرّدُ تغريدًا مثلَ تسبيحِه وتلك كلُّها معجزةٌ له[1].

لا يَستعصي على قُدرةِ الله شيءٌ

دلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾:

عُطفَ قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، على ما قبْلَه، بحرف الواو الدّالِّ على الجمع، لأنّه خرجَ مخرجَ التّذييلِ لِما قبْلَه، من تسخيرِ الجبال والطّيرِ، والتّقديرُ أنّه من شأننا أن نفعلَ أمثالَه، فليس ذلك ببدعٍ منّا، وإن كان بديعًا عندَكم[2]، وقيل معترضةٌ بين الإخبار عمّا أوتيه داودُ عليه السلام من كراماتٍ، لإزالة استبعادِ تسبيحِ الجبال والطّير معه[3]، وإرادةُ اللّه في الإعجاز، لا يُعجزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ولا غرابةَ أن ينطقَ الجمادُ، وأن يتشكّلَ وتدبَّ فيه الحركةُ والحياةُ، وفقَ مرادِ اللّه، وتطبيقًا لأمرِ كن فيكون، وهو لونٌ منَ المُعجزات، الّتي حبا بها اللّه رُسلَه في كلّ العصورِ، وكانت مُدهشةً للبشرِ، يَقفون منها موقفَ الانبهار والاستغرابِ، لخروجِها عنِ المألوفِ المعروفِ.

سرُّ استعمالِ فعلِ الكونِ مسندًا لضميرِ العظمةِ:

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، اجتلابُ فعْلِ الكون، إشارة

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 129.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 73.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 456.

إلى أنّ ما سبق ذكرُه من تسخير المخلوقاتِ، وخرْقِ العاداتِ، شأنٌ ثابتٌ للّه من قبلُ، وإن كان عند عبادِه عجبًا، وقدِ اتّفقَ نحوُ هذا للنّبيِّ ﷺ، فقد روي أنّ الطّعامَ كان يسبّحُ بحضرة النّبيِّ ﷺ، قال ابنُ مسعود: "ولقد كُنّا نسمَعُ تسبيحَ الطَّعامِ وهو يؤكَلُ"(1)، وفي اتّصاله بضمير العظمةِ إشعارٌ بعظمة الخالقِ القادرِ، على كلّ شيءٍ، بحيث لا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، والتّقديرُ أنّه من شأننا الفعلُ لأمثال هذه الأفاعيلِ، من تسخير الجبالِ وتسبيحهنّ والطّيرِ، لمن نخصُّه بكرامتنا، ولكلّ شيءٍ نريدُه، بما لنا منَ العظمة المحيطةِ، فلا تستكثروا علينا أمرًا(2)، وأدّى تعظيمُ الفاعل وتفخيمُه إلى تفخيم الخبر ليطابقَه، وفي التَّعبير باسم الفاعلِ ﴿فَٰعِلِينَ﴾ دلالةٌ على وقوع ذلك على سبيل الاستمرارِ والتّجدّد، وأنَّ هذه سنّتُنا في الفعل لا يمنعُنا عنها مانعٌ.

بيانُ أنّ سنّةَ الله ثابتةٌ في تفضيل أنبيائِه بما شاء من كراماتٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الفهم والعلم:

يتجلّى الفرقُ بين الفهم والعلم، في كون الفهم: هو العلمُ بمعاني الكلامِ عند سماعِه خاصّةً، ولهذا يقال: فلانٌ سيّءُ الفهم، إذا كان بطيءَ العلم، بمعنَى ما يسمعُ الكلامَ، ولذلك كان الأعجميُّ لا يفهمُ كلامَ العربيّ، ولا يجوزُ أن يوصفَ اللّه بالفهم، لأنّه عالمٌ بكلّ شيءٍ على ما هو به، فيما لم يزلْ، وقال بعضُهم: لا يُستعملُ الفهمُ إلّا في الكلام؛ ألا ترى أنك تقول: فهمتُ كلامَه، ولا تقول: فهمتُ ذهابَه ومجيئَه، كما تقول: علمتُ ذلك، كما يظهرُ الفرقُ بين لفظَيْ (فَهَّمَ) و(عَلَّمَ) في كون الفهم أخصَّ منَ العلم، فالعلمُ إدراكُ الشّيء على ما هو عليه في الواقع، سواء أكان المعلومُ خفيًّا أم جليًّا، بحيث

الـفـهـمُ عـلـمٌ بمعاني الكلامِ عـنـد سـمـاعِـه والعلمُ إدراكُ الـــشّيء على ما هو عليه في الواقعِ

(1) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (3579).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 456.

تحصلُ صورةٌ مطابقةٌ للواقع من دون معرفةِ التّفاصيل والدّقائقِ فيها، ويختصُّ الفهمُ بالإدراكِ للخفيِّ الدّقيقِ حتى يقفَ على تفاصيلِ المسألةِ المفهومةِ ومكوّناتِها، والدّليلُ على هذا الفرق، قصّةُ حكمِ داودَ وسليمانَ ﵉، في قضيّةِ الحرث والغنم، قال سبحانه في قصّةِ داودَ وسليمانَ ﵉: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، فخصَّ اللّه سبحانه الفهمَ بسُليمانَ؛ لأنّه أدرك الموضوعَ بتفاصيلِه وما هو الأفضلُ للجانبين قبۡلَ النّطقِ بالحكمِ، وعمّمَ العلۡمَ لداودَ وسليمانَ[1].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 414.

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ [الأنبياء: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسخيرُ الحديدِ لـداودَ بعد تسخيرِ الجبالِ والطّيرِ

لمّا ذكرَ البيانُ الإلهيُّ كرامةَ تسخيرِ الجبال لداودَ بالتّسبيح، أشارَ إلى كرامةٍ أخرى من كراماتِه، وهي تسخيرُ الحديد الّذي هو أقوى ترابِ الجبالِ، وأصلبُه وأصْفاه له[1]، وقد كان داودُ يصنعُ لبوسَ الحرب، بما أوتي من مهارةٍ في صناعة الحديدِ الّذي ألانَه اللّه له، فاستطاع به أن يقتاتَ من كدِّ يدِه، وأن لا يمدَّ يدَه لبيت المالِ العامّ، فكانت عفّتُه وهو الملكُ المسكُ بمقاليد المملكةِ، مَضربَ المثلِ في كلّ العصورِ والدّهورِ، وهي ثمرةُ تعليمِه صنعةَ اللّباسِ، لتُستعملَ في التّحصين منَ البأسِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَنۡعَةَ﴾: (صنع) أصلٌ واحدٌ، وهو عملُ الشّيء صُنْعًا، وامرأةٌ صَناعٌ ورجلٌ صَنَعٌ، إذا كانا حاذقَين فيما يصنعانِه[2]، والصِّناعَةُ: حرفةُ الصّانِع، وعملُه الصَنْعَةُ، وصَنْعَةُ الفرس أيضًا: حُسْنُ القيام عليه[3]، والصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنْعًا؛ لأنّ الصّناعةَ تستلزمُ حصولَ التّمرّنِ على العمل وكثرةَ الممارسةِ للصنعة، ولا يُنسبُ إلى الحيوانات والجمادات، كما يُنسبُ إليها الفعلُ[4]، فمعنَى لفظِ ﴿صَنۡعَةَ﴾ في الآية: إتقانُ عملِ دروعِ الحِلَق الدّقيقة[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 456.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (صنع).
(4) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 121.

2) ﴿لَبُوسٍ﴾: (لبس) أصلٌ يدلُّ على مخالطةٍ ومداخلة، من ذلك لَبِسْتُ الثّوب ألبَسُه لُبْسًا، وهو الأصلُ، ومنه تتفرّع الفروعُ[1]، وثوبٌ لَبيس: إذا أُكثِر لُبْسُه، ومُلاءَةٌ لَبيس بغَيْر هاء[2]، واللَّبوس عِنْد العَرَب السِّلاحُ كلُّها درعًا كانَ أو رمحًا أو سَيْفًا[3]، واللّبوسُ: ما يُلْبَسُ، وأنشدَ ابنُ السّكّيت:

البَسْ لكلِّ حالةٍ لَبوسَها *** إمّا نَعيمَها وإمّا بوسَها[4]

وقولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، يعني الدّروع[5]، وقيل: اللَّبوس، اسْمٌ عامٌّ للِّباس والسّلاح أيْضًا، من درع إلى رُمْحٍ وما أشبهَهما، مُذكّرٌ، فإذا نويتَ بها درع الحديد خاصّةً، أنّثتَ، وأنشد للعبّاس بن مرداس:

فَجِئْنا بألفٍ من سُلَيْم عليهمُ *** لَبوسٌ لَهُم من نَسْجِ داودَ رائِعُ[6]

وفي قوله جلّ وعزّ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، قالوا: هي الدُّروعُ تُلبَس في الحَرْب[7].

3) ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾: (حصن) اصلٌ واحِدٌ مُنْقاسٌ، وهو الحِفْظُ والحياطَةُ والحِرْزُ، فالحِصْنُ مَعْروفٌ، والجَمْعُ حُصونٌ، والحاصِنُ والحَصانُ: المَرْأةُ المُتَعَفِّفَةُ الحاصِنَةُ فَرْجَها[8]، فيقال فيها مُحصَنةٌ أي مجعولةٌ كالحُصون، والحَصانُ في الجملة: المُحْصَنَةُ، إمّا بعفّتِها، أو تزوُّجِها، أو بمانعٍ من شرفِها وحرّيتها[9]، ودرعٌ حصينةٌ لتحصينِها البدنَ[10]، فيكونُ معنى ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾، أي: (تَقيكم وتَحميكم منَ الأذى في الحروب)[11].

4) ﴿بَأْسِكُمْ﴾: (بأس) اصلٌ واحدٌ، وهي الشِدَّةُ وما ضارعَها، فالبأسُ الشِّدَّةُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبس).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (لبس).
(3) السّجستانيّ، نزهة القلوب، ص: 403.
(4) البيت لبيهس الفزاريّ، ذُكر في الإيضاح والتّنبيه: 2/ 301، وتاج العروس: 15/ 473، وبلا نسبة في خزانة الأدب: 7/ 197، و7/ 198، 11/ 103، وفي أمثال العرب، ص: 111، وجمهرة الأمثال: 1/ 197، وفي شرح التّسهيل لابن مالك: 3/ 223.
(5) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: 3/ 974.
(6) ابن سيده، المخصّص: 5/ 144 (لبوس)، والبيت لعبّاس بن مرداس السّلميّ، ذكر في سيرة ابن هشام: 4/ 95 -، 4/ 96، وفي عيون الأثر في المغازي والآثار والسّير، لابن سيّد النّاس، ص: 226.
(7) الهروي، الغريبين: 5/ 1671.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصن).
(9) الرّاغب، المفردات: (حصن).
(10) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 1/ 422.
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 121.

الحرب، ورجل ذو بأس وبئيسٌ أي شُجاعٌ[1]، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْساءُ: الشِدَّةُ والمكروه، إلّا أنّ البؤس في الفقر والحرب أكثرُ، والبأسَ والبأساءَ في النّكاية[2]، وكلُّ ما جاء في القرآن على صيغة (بأس)، فهو منَ الشِدَّة، فمعنَى ﴿بَأۡسِكُمۡۖ﴾ في الآية: شدّةُ الحرب[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نعمةُ تعليمِ اللهِ سبحانَه داودَ صناعةَ الدّروعِ ودعوةُ قومِه لشكْرِ المُنعِمِ

يُخبرُ اللّه عبادَه بأنّه اختصَّ داودَ عليه السلام، بأنْ علَّمه صناعةَ الدّروع يعملُها حِلَقًا متشابكةً، تسهِّلُ حركةَ الجسم؛ لتحميَ المحاربين مِن وقْع السّلاحِ فيهم، فهل أنتم شاكرون أيّها النّاسُ نعمةَ اللّه عليكم، حيث أجراها على يد عبدِه داود[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) العاطفةِ في قوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾:

صنعةُ الدّروعِ السّابغةِ كرامةٌ أخرَى من كراماتِ داودَ عليه السلام

استُهلَّ قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾، بحرف الواوِ الدّالِّ على الجمْعِ والاقترانِ لوجود الجامعِ العقليِّ بين هذه الجُمل المُتعاطفةِ، فهذه كرامةٌ أخرى منَ الكرامات التّي خصَّ بها اللّه سبحانَه، عبدَه داودَ عليه السلام، وهي تعليمُه صنعةَ الدّروع وتلْيين الحديدِ بين يدَيْه كالعجين، ليجتمعَ له إلى العلْم، سهولةُ العملِ، فيأتي كما يريدُ[5].

سرُّ ورودِ الفعل ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ ماضيًا في الآية:

أوثِر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾، استعمالُ الفعلِ ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ بصيغة الماضي الدّالّةِ على تحقُّقِ الفعلِ، فقد أتقنَ داودُ عليه السلام بتعليمِ اللّه له صنعةَ الدّروع، كثمرة من ثمار تعليم اللّه تعالى له وإلهامه.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(2) الراغب، المفردات: (بأس).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 121.
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 456.

نُكتةُ إسنادِ فعلِ التّعليمِ إلى ضمير العظمةِ:

بيانُ جلالةِ الربّ الأكرمِ الّذي علّمَ الإنسانَ ما لم يعلمْ

أُسندَ فعلُ التّعليمِ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ إلى ضمير العظمةِ، للدّلالة على جلالة الوهّابِ سبحانه، فبعظمتِه علّمَ الإنسانَ، أصنافَ العلومِ والفنونِ، والمهنِ والحِرفِ، بعد أن خرج جاهلًا من بطن أمِّه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النّحل: 78]، ويفيدُ تفخيمُ الفاعلِ نفسه تعظيمَ الفعلِ أيضًا وبيانَ أهمّيةِ ذلك التّعليم في الحياة وتطوُّرِها.

دلالةُ لفظِ ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ في الآية الكريمةِ:

لا علمَ للإنسان إلّا ما علّمَه ربُّه المنّانُ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ بفعْلِ التّعليم، ويُقصدُ بالتّعليم هنا الإلهامُ والتّوفيقُ والمرانةُ على عملٍ ما، وهو بتوفيقِ اللّه تعالى، ويُنسبُ إليه، لأنّه لا شيءَ منَ العلمِ إلّا بإرادتِه وتوفيقِه[1]، فهو سبحانَه مصدرُ كلِّ علم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]، وقولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النّساء: 113]، وإنّما وردَ الفعلُ ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ دون (فهّمناه) لأنَّ الفهمَ إنّما يكونُ مع المعاني الكلاميّةِ وما يجري مَجراها منَ المسائل والأمورِ النّظريّةِ بخلاف (العلم) فإنّه يُستعملُ مع الأمورِ النّظريّةِ والأمورِ العمليّةِ التّطبيقيّةِ، وذلك يتناسبُ مع صناعة الحديدِ وتحويلِها دروعًا سابغاتٍ، كما دلَّ التّضعيفُ في الفعل ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾ على المبالغة في عمليةِ التّعليم حتى تحصلَ له الصّنعةُ المحتاجةُ إلى تمارينَ عمليّةٍ وتجاربَ مُتعدّدةٍ.

بلاغةُ لفظِ ﴿صَنۡعَةَ﴾ في الآية الكريمةِ:

استعملَ النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4901.

تفضيلُ الله الإنسانَ بالتفنّن في الأعمال والتّأنّقِ في الصّنائع

﴿لَّكُمۡ﴾ لفظَ (الصّنعة)، ومعناها الصّناعةُ، والصّناعةُ حرفةُ الصّانعِ كالكتابةِ والحياكة، والمقصودُ التّفنّنُ فيها وإجادتُها، وهي من خواصِّ الإنسان، ومعجزةُ داودَ ﷺ، أنّه فعلَ ذلك من غير استعانةٍ بأداةٍ وآلةٍ، من نحو الكيرِ والنّارِ والسِّنْدان والمطرَقَةِ، فقد ألانَ اللّه تعالى الحديدَ لداود ﷺ، ليتمكّنَ من أداء الصّنعةِ على الوجه الأكملِ[1]، وإنّما عبّرَ بالصّنعة دونَ الصّناعةِ؛ لأنَّ الصّنعةَ اسمُ المصدرِ فقد علمَ أمرًا حقيقيًّا هي الصّنعةُ للّبوسِ ولم يعلمْ أمرًا معنويًّا هو صناعةُ اللّبوسِ.

سرُّ اختيارِ لفظِ ﴿لَبُوسٖ﴾ دون لباسٍ في الآية:

اختصاصُ اللَّبوسِ بأنواع السّلاحِ وعمومُه لكلّ ما يلبسُ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾، لفظَ ﴿لَبُوسٖ﴾ مُقترنًا بلفظِ ﴿صَنۡعَةَ﴾ للدّلالةِ على دروعِ السّردِ الّتي تُلبسُ في الحروب، واللَّبوسُ في الأصل اسمٌ لكلِّ ما يُلْبَسُ، فهو فعولٌ بمعنى مفعول، مثل: رَسول، ورَكوب، وحَلوب، وغلب إطلاقُه على ما يُلبَس من لَأْمَةِ الحرب منَ الحديد، وهي الدِّرعُ فلا يُطلقُ على الدِّرعِ لباسٌ، ويطلقُ عليها لَبوسٌ[2]، وذهب بعضُ العلماء، إلى أنّ اللّبوسَ ليس مختصًّا بالدّروع، بل هو عامٌّ في أنواع السّلاح، فمنه الدِّرعُ والسَّيْفُ والرُّمْحُ وغيرُ ذلك[3]، وفي ذكرِ هذه الصّنعةِ المُتعلّقةِ بالتّعليم ما يدلُّ على شرفِ ذلك العلمِ ومناسبتِه لوظيفةِ داودَ في حماية شعبِه وأمّته من هجمات الأعداءِ.

دلالةُ حرفِ اللّام في ﴿لَّكُمۡ﴾:

امتنانُ الله سبحانه بتعليمِ الإنسانِ ما يُنجيه منَ الهلاكِ

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾، استعمالُ حرفِ الجرّ (اللّام) في ﴿لَّكُمۡ﴾، ويجوزُ فيها أن تكونَ للتّعليل

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 143.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 456، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 121.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 93.

فتتعلّقَ بـ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾، أي لأجلِكم ومصلحتِكم، وحينئذٍ يكونُ الظّرفُ لغوًا؛ فاللّه علّمَ داودَ ﷺ، صنعةَ الدّروع، ثمّ تعلّمَ النّاسُ منه، فتوارث النّاسُ عنه ذلك، فعَمَّتِ النّعمةُ بها، كلَّ المحاربين منَ الخلقِ إلى آخرِ الدّهر، فلزمَهم شكرُ اللّه تعالى على هذه النّعمةِ[1]، ويجوزُ أن تكونَ ﴿لَّكُمْ﴾ صفةً لـ﴿لَبُوسٍ﴾، فتتعلّقَ اللّام بمحذوفٍ صفةً، وحينئذٍ يكونُ الظّرفُ مستقرًّا واللّام تفيدُ الاختصاصَ، أي: كائنٌ لكم[2].

دلالةُ الإشارةِ في الآية إلى ضرورة اتّخاذِ الأسبابِ:

أطيبُ كسْبِ الإنسانِ ما عمِلتْه اليدانِ

يشيرُ قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، إلى أهمّيةِ اتّخاذِ الصّنائع وأسبابِ الرّزقِ والتّكسُّبِ، وهو قولُ أهلِ العقولِ والألبابِ، والسّببُ سنّةُ اللّه في خلقِه، وقد أخبر اللّه تعالى عن نبيِّه داود ﷺ أنّه كان يصنعُ الدّروعَ، وكان أيضًا يصنعُ الخوصَ، وكان يأكلُ من عمل يدِه، وكان آدمُ حرّاثًا، ونوحٌ نجّارًا، ولقمانُ خيّاطًا، وطالوتُ دبّاغًا، وقيل سقّاءً، فالصّنعةُ يَكُفُّ بها الإنسانُ نفسَه عنِ النّاس، ويدفعُ بها عن نفسِه الضّررَ والبأسَ[3].

دلالةُ اللّامِ في جملة ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾:

علّةُ تعليمِ الله داود صنعةَ الدّروعِ

تكرّرَ في قوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، استعمالُ حرفِ الجرّ (اللّام)، في جملة ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾، بعد اتّصالِها بالظّرف اللغويِّ ﴿لَّكُمْ﴾ الأولى وفقَ التّوجيه الأوّلِ المُتقدّم والدّالّةِ على التّعليلِ والغرضِ، فتكونُ الثّانيةُ في موضع بدلٍ أُعيدَ معه لامُ الجرّ، والفعلُ منصوبٌ بإضمار (أن)، فتتقدّرُ بمصدرٍ، أي: لكم لإحصانِكم من بأسِكم ويتحقّقُ بالبَدليّةِ أنَّ الإحصانَ هو المقصودُ بالذّات من عمليّةِ التّعليم، كما يحتملُ أن تكونَ جملةُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 456.
(3) القرطبيّ، الجامع: 11/ 321.

﴿لِتُحۡصِنَكُم﴾ تعليلًا للتّعليم مُستأنفًا، فتتعلّقَ اللّامُ بـ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ﴾، ويتحقّقَ على هذا التّوجيه علّتان للتّعليم الأولى أنَّ التَّعليم لأجلِكم وأنَّ التَّعليم لإحصانِكم، ويحتملُ أيضًا أن تكونَ تعليلًا للكون المحذوفِ المتعلّقِ بشبْهِ الجملةِ ﴿لَّكُمۡ﴾ على التّوجيهِ الثّاني المُتقدّمِ، فامتنّ اللّه علينا بها، بقوله ﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾، أي لتكونَ وقايةً لكم في حربِكم لِتُحۡصِنَكُمۡ مِنۢ بَأۡسِكُمۡ، وسببَ نجاةٍ من عدوّكم[1]، وفي جميع التّوجيهاتِ السّابقةِ تكونُ اللّامُ مُفيدةً للتّعليلِ وإظهارًا لحكمةِ التّعليمِ بما يؤولُ إلى مصلحةٍ للعبادِ ونفعٍ لهم في الحياة.

نُكتةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في قوله ﴿لِتُحۡصِنَكُم﴾:

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ على قراءاتٍ مُتنوّعةٍ في لفظِ ﴿لِتُحۡصِنَكُم﴾، فقرأ أبو جعفر وابنُ عامر وحفصٌ بالتّاء على التّأنيث ﴿لِتُحۡصِنَكُم﴾، ورواه شُعبة ورويس بالنون ﴿لِنُحۡصِنَكُم﴾، وقرأ الباقون بالياء على التّذكيرِ ﴿لِيُحۡصِنَكُم﴾[2].

فمن قرأ بالتّاء ﴿لِتُحۡصِنَكُم﴾ فإنّما أرادَ الدِّرع (ودِرعُ الحرب مؤنّثةٌ)، وقيل أرادَ (الصّنعة)، ومن قرأ بالنّون ﴿لِنُحۡصِنَكُم﴾، فإنّما أراد اللّه جلّ وعزّ، يخبرُ عَن نَفسه بضمير العظمةِ[3]، ومن قرأ ﴿لِيُحۡصِنَكُم﴾ بالياء التّحتيّة: على أنّ الضّميرَ للّبوس أو لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو للتّعليم، وجوزَ أن يكونَ للّه تعالى على سبيل الالتفاتِ[4].

ومن بلاغة القراءات هنا أنها جمعت كل أنواع التحصين: التحصين الإلهي: المستفاد من قراءة النون: ﴿لِنُحۡصِنَكُم﴾، وقد يستفاد من قراءة الياء أيضًا برجوع الضمير إلى الذات العليَّة، والتحصين البشَري: المستفاد من قراءة الياء ﴿لِيُحۡصِنَكُم﴾، والتحصين السببي المستفاد من قراءة التاء: ﴿لِتُحۡصِنَكُم﴾، فقد جعل اللّه الدروع سببًا في حمايتهم.

بلاغةُ الالتفاتِ في بعض القراءاتِ:

يظهرُ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾، على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 456.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 324.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 469.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 74.

جذبُ الأفهامِ بتنويعِ الضّمائرِ في الكلامِ

قراءةِ ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾، أسلوبُ الالتفات من ضمير المُتكلّم، في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ إلى ضمير الغائب، في قوله: ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾، أي اللّه ﷻ[1]، والالتفاتُ من افتنان العربِ في الكلام، وحسنِ تصرّفِهم فيه، لأنّ الكلامَ إذا نُقلَ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، كان ذلك أحسنَ تطريّةٍ لنشاطِ السّامع، وإيقاظًا للإصغاءِ إليه، من إجرائه على أسلوبٍ واحدٍ[2].

بلاغةُ المجازِ في الآيةِ الكريمةِ:

لن يُصيبَ الإنسانَ إلّا ما كتبَ له الرّحمنُ

أُسنِدَ في قوله تعالى: ﴿لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾، فعلُ الإحصان إلى الدِّرع، وهو الفاعلُ على الحقيقة، فيكونُ من إسناد الفعلِ إلى فاعلِه، على سبيل الحقيقةِ العقليّة، لأنّ الدّروعَ من أسباب حمايةِ الإنسان، والسّلامةُ بيدِ الرّحمن سبحانه، ولا ينبغي أن يعتقدَ أنَّ في هذا التّركيب مَجازًا عقليًّا من إسناد الفعلِ إلى غير فاعلِه الحقيقيِّ لعلاقةِ السّببيّة، وإلّا كان تركيبُ (قام زيدٌ) منَ المجازِ العقليِّ لأنَّ اللّه تعالى هو فاعلُ (القيام) كما نبّه لذلك الشّيخُ عبدُ القاهر الجُرجانيُّ[3].

دلالةُ توالي ضمائرِ الخطابِ في الآيةِ الكريمةِ:

وجوبُ شكرِ النّعمةِ على عمومِ الأمّةِ

تكرّرَ ضميرُ المخاطَبِ، في قوله تعالى: ﴿لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾، فقيل إنّ الخطابَ لداود وأهلِ بيته خاصّةً، والظّاهرُ أنّ الخطابَ فيه لهذه الأمّة من أهل مكّةَ، ومن بعدَهم إلى يوم القيامةِ، فامتنّ اللّه تعالى على النّاسِ جميعًا، بأنّه علّمَ داودَ ﵇ عملَ الدّروع، ثم تعلّمَ النّاسُ منه، فعمّتِ النّعمةُ بها كلَّ محاربٍ منَ الخلقِ إلى آخر الدّهر فلزمَهم شكرُ اللّه تعالى على هذه النّعمةِ[4]، وأفاد تَكرارُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 456.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14.
(3) التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 165.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 169.

الضّميرِ تشخيصَ المخاطَبين وتعيينَهم ولفْتَ انتباهِهم إلى أثرِ هذه النّعمةِ وقيمتِها.

معنَى حرفِ الجرّ ﴿مِّنۢ﴾ في الآية:

وقايةُ الدّروعِ من بعضِ البأسِ لا من كلِّه

ورد في قوله تعالى: ﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾، حرفُ الجرّ ﴿مِّنۢ﴾، ومعناه في هذا السّياقِ التّبعيضُ، بمعنَى أنّ هذه الدّروعَ الّتي صنعَها داودُ، تُحصّنكم من بعض البأسِ الّذي يحصلُ من بعضِكم لبعضٍ، في شدائد الحربِ، لا منَ البأس كلِّه[1]، والذي يظهرُ أنَّ معنَى ﴿مِّنۢ﴾ الابتداءُ للدّلالةِ على أنَّ تلْيين الحديدِ وصناعةَ الدّروعِ منها له غاياتٌ عديدةٌ تبدأُ من حمايتِكم من بأسِكم وحروبِكم ولها ثمراتٌ وفوائدُ أخرى مُتعدّدةٌ.

دلالةُ (البأس) في قوله: ﴿مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾:

الامتنانُ بالإحصانِ من أسلحةِ الحربِ والطِّعانِ

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ بلفظ ﴿بَأۡسِكُمۡۖ﴾، فقيل إنّ المقصودَ منه هو: حربُ عدوّكم، والمرادُ ممّا يقعُ فيها، وقيل بأنّ الكلامَ يشتملُ على تقدير مضافٍ، أي من آلةِ بأسِكم كالسّيف والرّمح ونحوِهما، من أسلحة الحربِ[2]، فيكونُ مجازًا بالحذف، والذي نميلُ إليه أنَّ البأسَ مصدرٌ غلبَ استعمالُه في القتال والحرب تهويلًا لشأنِها وتفخيمًا لما يجري فيها من ضرابٍ وقتلٍ وشدّةٍ، والدّروعُ إنّما تَحمي من آلات العدوِّ المستعملةِ في الحرب، لكنّه عدلَ عن ذكرِها لبيان أثرِ هذه الدّروعِ في الحماية من بأسِها وضررِها فيكونُ تأشيرًا عميقًا لوظيفة الدّروعِ في الوقاية منَ البأسِ والضّررِ، وأضافَ (البأس) إلى المُخاطَبين مع أنّها تَقيهم من بأسِ غيرِهم للدّلالة على أنَّ المرادَ من بأسٍ وضررٍ بعضِكم لبعضٍ، فتكونُ الإضافةُ في ﴿بَأۡسِكُمۡۖ﴾ من إضافةِ المصدرِ لفاعلِه؛ لأنّ الحربَ تكونُ مشتركةً بين الطّرفَين.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 457.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 74.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾:

ترتيبُ الشّكرِ على إسداءِ نعمةِ الحفظِ والسَّترِ

عُطِف قولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾، على ما قبْلَه بحرف الفاء، الدّالِّ على ترتُّبِ ما بعدَها على ما قبْلَها، أي بسببِ تلك النِّعمِ الّتي أسداها لكم، من هذا التّدبيرِ المُحكم، بأن هيّأ لكمُ الدّواءَ عند الدّاء، والدّفعَ عند احتمالِ الاعتداء[1]، فوجبَ تعقيبُ نعمةِ السَّتر بالشُّكر.

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾:

بيانُ أمرِ النّاسِ بالشّكرِ وتقريعِهم على الكفر

ورد في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾، أسلوبُ استفهام، ويظهرُ منَ السّياق أنّه استفهامٌ خارجٌ عن حقيقتِه، إلى غرض الأمرِ، أي اشكروا اللّه على ما أنعمَ به عليكم، وهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 91] أي انتهوا عمّا حرّم اللّه، والنُّكتةُ فيه أنّه أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهام، لِما فيه منَ التّقريع، بالإيماءِ إلى التّقصيرِ في الشّكرِ والمبالغةِ، بدلالتِه على أنّ الشّكرَ مستحقُّ الوقوع، بدون أمرٍ فسأل عنه هل وقع ذلك الأمرُ اللّازمُ الوقوع أم لا؟ وقيل هو استبطاءٌ لعدمِ الشّكرِ، بعد كلّ هذه النّعمِ[2].

سرُّ العُدول إلى الجملةِ الاسميّة في الآية:

كثرةُ النِّعمِ تستوجبُ ثبوتَ الشّكرِ

تضمّن قولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ العُدولَ عن إيلاء (هل) الاستفهاميّةِ، بجملةٍ فعليّةٍ إلى الجملةِ الاسميّة، مع أنّ حرفَ (هل) له مزيدُ اختصاص بالفعل، فلم يقل: فهل تشكرون؟، وعدلَ النّظمُ الكريمُ إلى: ﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ ليَدُلَّ على ما تقتضيه الاسميّةُ من معنَى الثّباتِ والدّوام، أي فهل تقرّرَ شُكرُكم وثبتَ ودامَ، لأنّ تقرُّرَ الشُّكر ودوامَه، هو الشّأنُ الواجبُ في مقابلة هذه النِّعمِ الكثيرة[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4898.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 80، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 122.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 122.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإحصان والوقاية:

عمومُ الإحصانِ في الوقايةِ وغيرِها وكلاهما لفظٌ قرآنيٌّ مبينٌ

يتّفقُ لفظا الإحصانِ والوقايةِ، في الدّلالةِ على الحفظ والحمايةِ، ويختلفان في أصل الاشتقاقِ، فالإحصانُ مأخوذٌ من (حَصُن)، وهو أصلٌ يدلُّ على الحفظ والحياطةِ والحِرز، ومنه الحِصْنُ للتّحصّن فيه[1]، وأمّا الوقايةُ فمأخوذةٌ من (وقى)، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على دفعِ شيء عن شيء بغيره، والوقايةُ: ما يَقي الشّيءَ، ومنه التّقوَى[2]، كما يفترقُ الإحصانُ عنِ الوقاية بكونِه مشتركًا بين أربعةِ معانٍ: الإسلام، والحرّيةِ، والعفافِ، والتزوّجِ[3]، في حين لا تدلُّ الوقايةُ إلّا على معنًى واحدٍ وهو دفعُ الشّيء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصن).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقي).

(3) ابن جزي، التّسهيل: 1/ 32.

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ [الأنبياء: 81]

ذكرُ معجزاتِ الابنِ بعد مُعجزات الأبِ وكلاهما جمَعَ الله له المُلكَ والنّبوّة

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرَ تعالى ما خصّ به نبيَّه داودَ عليه السلام من معجزاتٍ باهرةٍ، ذكرَ ما خصّ به ابنَه سليمانَ عليه السلام من معجزاتٍ ظاهرةٍ، من توريثِه ملكَ أبيه ونبوّتَه، ومن تسخيرِ الرّيح له(1)، وذلك من كمال فضلِ اللّه عليه أن سخّرَ له الرّيحَ، مع كونِها عاصِفَةً سريعةَ السّيرِ والحركةِ، آبيةً عنِ التّسخير، فكانت تجري بأمرِه، سريعةً إلى الأرْضِ الَّتي بارَكْنا وكثّرنا الخيرَ فيها لساكنيها وكذا لجميعِ من يأوي إليها، وذلك بأمرِ اللّه وعلْمِه وتصريفِه(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَاصِفَةٗ﴾: (عصف) أصلٌ يدلُّ على خفّة وسرعةٍ، فالأوّلُ من ذلك العَصْفُ: ما على الحَبّ من قشور التِّبْن، قال اللّه سبحانه: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾ [الفيل: 5]، والرّيحُ العاصف: الشّديدةُ، قال اللّه تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: 22]، ومعنى العاصف أنّها تستخفُّ الأشياءَ، فتذهبُ بها تعصفُ بها(3)، وقيل تَكْسِرُ الشّيءَ فتجعلُه كَعَصْفٍ(4)، فمعنى ﴿عَاصِفَةٗ﴾ في الآية: قويّةٌ شديدةُ الهبوب(5).

2) ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾: (أمر) أصولٌ خمسةٌ: الأمْرُ مِنَ الأُمورِ، والأمْرُ ضِدُّ النَّهْيِ، والأمَر بِفَتْحِ الميم النَّماءُ والبَرَكَةُ، والمَعْلَمُ، والعَجَبُ(6)،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 169.
(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/ 539.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصف).
(4) الراغب، المفردات: (عصف).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عصف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).

والمقصودُ هنا ضِدُّ النَّهْيِ، والأمرُ: التّقدّمُ بالشّيء سواءٌ كان ذلك بقولهم: افْعَل وليفْعَلْ، أو كان ذلك بلفظ خبرٍ نحوَ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]، أو كان بإشارةٍ أو غيرِ ذلك[1]، ويقال أيضا: أمرتُ فلانًا أمرَهُ أي: أمرتُه بما ينبغي له منَ الخير، قال بشر بن سلوة:

وَلَقَدْ أَمَرْتُ أخاكَ عَمْرًا أَمْرَهُ *** فَعَصَى وضَيَّعَهُ بِذاتِ العَجْرَمِ[2]

قولُه تعالى: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطّلاق: 6]، أي: ليأمرْ بعضُكم بعضًا بالمعروف[3].

ومعنى ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ في الآية واحدُ الأوامرِ، وهو بمَعْنى الإذْنِ والتَصَرُّف، فتجري الرّيحُ حسبَ رغبةِ سليمان وما يلائمُ أسفارَه[4].

3) ﴿بَٰرَكْنَا﴾: (برك) أَصْلٌ يَدُلُّ على ثباتِ الشّيء، ثم يتفرّعُ فروعًا يقاربُ بعضُها بعضا[5]، ومنه البَرَكَةُ وهي ثبوتُ الخير الإلهيِّ في الشّيء، وسُمّي بذلك لثبوت الخيرِ فيه ثبوتَ الماء في البِركة، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، والمُبارَك: ما فيه ذلك الخيرُ[6]، وقال الخليل: البركةُ منَ الزّيادة والنّماء[7]، وبعضُهم تكلّمَ في قَوْلهم: تبارك اللّه، فقالوا بأنّه العُلو؛ لِأَنّ البركَة في الشَّيْء تعني النَّماءَ بعد النُّقْصان، وهي صفةٌ تنتفي عنِ اللّه تعالى، وقالَ غيرهم: قولُنا: (تبارك اللّه)، هو تفاعلٌ منَ البركَة، ولَيْسَ بمعنى النَّماء، وإنَّما يرجع معناه إلَى الجلال والعَظَمَة، علمًا بأنّ لفظَ (تبارك)، لا يوصفُ بِهِ إلّا المولى ﷻ، ولا يوصفُ به غيرُه[8].

ومعنى ﴿بَٰرَكْنَا﴾ في الآية هو جعلُ الأرض كثيرةَ الخير والنّماءِ بشرطِ أن لا يتحوَّلا عنها.

(1) الرّاغب، المفردات: (أمر).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (أمر).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أمر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 123.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(6) الرّاغب، المفردات: (برك).
(7) الخليل، العين: 5/ 368.
(8) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (برك).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تسخيرُ الله لسليمانَ ركوبَ الرّيح إلى الأرض المباركة بعد التّنويه بتفْهيمِه الحُكمَ

يُخبرُ اللّه سبحانه أنّه سخَّرَ بعظمتِه لسليمانَ الرّيحَ شديدةَ الهُبوب، تحملُه ومَن معه، وتَجري بأمره إلى أرض بيتِ المقدس بالشّام التّي باركنا فيها بالخيرات الكثيرة، وقد أحاط علمُه سبحانه بجميع الأشياءِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

ذكرُ كرامةٍ أخرى من كراماتِ الأنبياءِ عليهم السلام

دلالةُ (الواو) في قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾:

استُهلَّ قولُه تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾، بحرف الواو الدّالِّ على العطفِ والاقترانِ، والجامعُ بين الجُملتَين عقليٌّ، فهذه كرامةٌ أخرى منَ الكرامات التّي خصّ بها اللّه سبحانه أنبياءَه عليهم السلام، فعطفَ هذه الجملةَ على جملة ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾، بمناسبةِ تسخيرٍ خارقٍ للعادة، في كلتا القصّتَين مُعجزةً للنّبيَّيْنِ عليهما السلام[2].

تمليكُ الرّيحِ لسليمانَ تجري في طاعته وبأمرِه

دلالةُ استعمالِ حرفِ (اللّام) مع سليمانَ والظّرفِ ﴿مَعَ﴾ مع داود:

أوثِر في قوله تعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾، التّعبيرُ بحرف اللّام، في حقّ سليمانَ عليه السلام، لأنّها دالّةٌ على التّمليك، فقد جعل اللّه الرّيحَ تحت أمر سليمانَ، وفي طاعته[3]، ويُلاحظُ أنّ النّظمَ القرآنيَّ المُعجزَ، قد جاء في التّركيب هنا حين ذكرَ تسخيرَ الرّيح لسليمان بـ(اللّام)، وحين ذكرَ تسخيرَ الجبال لداود جاء بلفظ ﴿مَعَ﴾ فقال: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾، لنُكتةٍ بلاغيّةٍ، وهي للدِّلالةِ على ما بين التّسخيرَين منَ التّفاوُت، فإنَّ تسخيرَ ما سُخِّر لسليمانَ عليه السلام، منَ الرّيح وغيرِها، كان بطريق الانقيادِ الكُليِّ له، والامتثالِ بأمره ونهيه والمقهوريّةِ تحت مُلكه، وأمّا تسخيرُ الجبال والطّيرِ لداودَ عليه السلام كان

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 328.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 122.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 457.

بطريق التّبعيّةِ له ﵇، والاقتداءِ به في عبادة اللّه عزّ وعلا، فإنّهما لـمّا اشتركا في التّسبيح، ناسبَ ذكرُ ﴿مَعَ﴾ الدّالّةِ على الاصطحاب(1).

وقيل أيضًا في نُكتة ذلك أنّ الجبل لـمّا اشتغل بالتّسبيح، حصلَ له نوعُ شرفٍ، فما أضيف إليه بـ(لام) التّمليك، أمّا الرّيحُ فلم يصدرُ عنه إلّا ما يجري مُجرى الخِدمة، فلا جرمَ أن أضيف إلى سليمانَ بلام التّمليك(2) ويمكنُ أن نقول: إنَّ الفرق يظهرُ بالنّظر إلى طبيعةِ المُسخَّرات، ففي حالة داود كانتِ المُسخَّراتُ الجبالُ والطّيرُ تردّدُ وتتجاوبُ مع تسبيحه وصلاته دون القيام بمهمّةٍ مختصّةٍ به يتملّكُها، فكان تأشيرُ الوقت بالظّرف ﴿مَعَ﴾ ليدلَّ على الانقياد المتعلّقِ بهيئةٍ يمارسُها داودُ وهي التّسبيحُ، وفي حالة سليمانَ كانتِ الرّيح هي المسخرةَ لخدمته والقيام بشؤونه وأعمالِه في مملكته، فلم تكن مقيَّدةً بحالة يفعلُها سليمانُ حتى يأتيَ الظّرفُ المرتبطُ بالوقت، وإنّما تخرجُ عنه في أيِّ وقت وحالةٍ، ومن ثَمّ جاءتِ اللّام لتفيدَ إطلاقَ التّسخير لجميع الحالاتِ والهيئاتِ والأزمنة.

نُكتةُ تقديم الجارّ والمجرور ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ﴾:

تخصيصُ سليمانَ دون غيرِه بتسخير الرّيحِ

تقدّمَ في قوله تعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾، الجارُّ والمجرورُ ﴿لِسُلَيۡمَٰنَ﴾، للدّلالة على اختصاصِه ﵇ بهذه المعجزة وغيرِها، منَ الخوارق الّتي لم تُعطَ لغيره منَ البشر استجابةً لدعائه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: 35].

دلالةُ لفظَيْ ﴿عَاصِفَةٗ﴾ و﴿رُخَآءً﴾:

لطفُ الرّيحِ في نفسِها وعصْفُها في عملِها

وُصفتِ الرّيحُ في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ بأنّها عاصفةٌ، ومعناها الشّديدةُ في هبوبها، بحيث تُقوِّضُ القائمَ، وقد

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 80.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 169.

وصفَ اللّه الرّيحَ بهذا الوصف للإشارة إلى أنّها في قسوة هبوبِها وعصْفِها لا تذرُ شيئًا أتت عليه إلّا أزالته[1]، كما وصفَها اللّه تعالى أيضًا بالرّخاوة في قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾ [ص: 36]، فجمعَ العلماءُ بين الوصفين بأنّها كانت في نفسِها رخيّةً طيّبةً كالنّسيم، فإذا مرّتْ بكرسيّه أبْعَدَت به في مدّةٍ يسيرةٍ، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: 12]، فكان جمعُها بين الأمرين، أن تكون رخاءً في نفسها، وعاصفةً في عملِها، مع طاعتها لسليمانَ، وهبوبِها على حسب ما يريد آيةً إلى آية، ومعجزةً إلى معجزة، وقيل: كانت في وقتٍ رُخاءً، وفي وقتٍ عاصفةً، لهبوبها على حكم إرادتِه[2].

وقال بعضُهم إنّ العاصفة، هي في القفول على عادة البشرِ والدّوابّ، في الإسراع إلى الوطنِ، والرُّخاءُ كانت في البداءة[3]، وقيل ﴿عَاصِفَةً﴾ باعتبار عملِها، و﴿رُخَآءً﴾ [ص: 36] باعتبار لُطفها بهم، فلا يجدون لها مشقّةً[4]، وكلُّها وجوه محتملةٌ مقبولةٌ.

سرُّ اختيارِ لفظ ﴿تَجْرِى﴾ في الآية:

دوامُ جـريـان الرّيحِ في خدمة سليمان غُـدوًّا ورواحًا

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى﴾، بالفعل ﴿تَجْرِى﴾، وصفًا لحركة الرّيح، للدّلالة على سرعة هبوبِها، إذا أمرَها غاديةً ورائحةً، ذاهبةً إلى حيث أراد سليمانُ عليه السلام وعائدةً على حسب ما يريد[5]، كما أنّ مجيئَه بصيغة المضارع يشيرُ إلى تجدّدِ ودوامِ جَريانها، دون انقطاعٍ في خدمة سليمانَ، وفي استعمال الفعل ﴿تَجْرِى﴾ الغالبِ استعمالُه مع الماء دون (هبّ) الغالبِ استعمالُه مع

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4903.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 130.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 93.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 458.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 458.

الرّياح على سبيل الاستعارةِ للدّلالة على أنَّ حركةَ تلك الرّيح تختلفُ عن سائر الرّياح والعواصفِ، الَّتي تهبُّ ولا تميِّزُ في حركتها بين نافعٍ وضارٍّ ومرادٍ وغيرِ مرادٍ وكأنّها عمياءُ، بخلاف هذه الرّيح المسخَّرة فإنّها تجري جَريانَ الماء بين المساربِ؛ فلا تُؤذي ما تمرُّ به بل تحملُ سُفنَهم في الماء فتجري بها وببضائعِهم جريانًا طيّبًا نافعًا.

نُكتةُ التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾:

مطلقُ التّصرّفِ في الرّيح حسبَ أمْرِ سليمانَ

قُيِّد جريانُ الرّيح في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾، بالجارّ والمجرور ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾، للدّلالة على مطلق التّصرّفِ في الرّيح، فقد وهبَ اللّه ﷻ الرّيحَ لسليمانَ عليه السلام لإجرائها كما يريدُ، وفق المصلحةِ المتوخّاةِ، فكان يتنقّلُ بها مع جيشه إلى كلّ الأماكن لدعوةِ الخلقِ إلى عبادة اللّه وحده، وبذلك تتعاونُ هذه الدّلالةُ الصّريحةُ مع إشارة (لام) الملك في ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ﴾ في الإشارة إلى تسخير الرّيح لسليمان عليه السلام على سبيل التّمليك والتّصرّفِ المُطلقِ، بخلاف تسخيرِ الجبال والطّيرِ مع داود عليه السلام.

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآية:

الرّيحُ والرّياحُ للخير والشّرّ ولا فرقَ بينهما

روي في قوله تعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾، قراءتان مشهورتان، فقد قرأ الجمهورُ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، وقرأ أبو جعفر ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بصيغة الجمع[1]، وقد فرّق بعضُ العلماء بين لفظَي ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، و﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، فجعلَ حجّةَ من أفرد: أنّه جعلَها عذابًا، واستدلَّ بما روي عنِ النّبيّ ﷺ: "اللّهم اجعلها رياحًا لا ريحًا"[2]، والحجّةُ لمن جمعَ: أنّه فرّق بين رياح الرّحمةِ، ورياح العذابِ، فجعل ما أُفرد للعذاب، وما جُمعَ للرّحمة[3].

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 02/ 223.

(2) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، الحديث رقم: (11533)، والحديث ضعيف جدّا، يُنظر: الألباني، السّلسلة الضعيفة، الحديث رقم: (4217).

(3) ابن خالويه، الحجّة، ص: 91.

والرّاجحُ أنّ هذا التّفريق غيرُ مستقيم، فالحديث المرويُّ ضعيفٌ جدًّا، لا تقومُ به أدنَى حُجّةٍ، وفي الحديث نكارةٌ في متنِه أيضًا؛ لأنَّ الرّيح ليست على إطلاقها مذمومةً، فقد قال تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: 22]، فهي هنا ليست عذابًا، وكيف يوصفُ العذابُ بالطيّب!، وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: 36].

ومع ذلك فقد يقال: إنَّ (الرّيح) إذا ذُكرت مطلقةً فالغالبُ أن تكون في العذاب، و(الرّياح) إنِ استُعملت غيرَ مقيّدَةٍ فإنّ الغالبَ أن تكون للرّحمة، وأمّا إذا قُيّدا بالإضافةِ أو بالوصف خرجا عمّا هو الغالبُ لنُكتةٍ، ولعلَّ النّكتةَ هنا أنّ قراءةَ الجمهور توجّهُ على ملاحظة صفةِ (العصف) الدّالّةِ على الشّدّة والقوّةِ والإهلاك، وقراءةَ غيرِهم توجّهُ على ملاحظة صفةِ ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، فتكونُ الرّيح المُسخّرةُ لسليمان عليه السلام مُطلقةً في العذابِ والرّحمة والشّرّ والخيرِ ممّا يدلُّ على عظمة التّسخير وإطلاقِه.

وملمح بلاغيّ آخر في توجيه قراءة الجمع والإفراد هو اختلاف الجهة، فوجه القراءة بالجمع هو إتيانها من كل جانب، وذلك معنى يدلّ على اختلاف هبوبها، فهي رياح لا ريح؛ لأنّ الريح الواحدة إنما تأتي من جانبٍ واحد، فكان لفظُ الجمع فيها أولى، لتصرّفِها من جهات فيكون لفظها مطابقًا لمعناها في الجمع، ووجه القراءة بالتوحيد أن الواحد يدلّ على الجمع؛ لأنّه اسم للجنس، مع ثبات معنى الجمع فيه(1).

دلالةُ التّعريفِ في قوله ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، لفظُ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ معرّفًا بـ(ال)، فقيل إنّ تعريفه للعهد، وأنّ الأرضَ المباركةَ هي أرضُ الشّام، وكانت مسكنَه ومقرَّ ملكِه، وقيل: أرضُ فلسطين، وقيل: بيتُ المقدس، وممّا يقوّي هذا الوجهَ الوصفُ الّذي اشتملت عليه الصّلةُ المشيرةُ إلى بقعةٍ مباركةٍ طيّبةٍ، وفائدةُ بيانِ الانتهاء إليها كما يرشدُ لذلك حرفُ الجر (إلى) أنّ مملكتَه أصبحت موطنًا لكلِّ الخيرات، فتُجبَى إليها

(1) مكّي، الكشف: 1/ 271.

مواردُ الأقطار والأقاليمِ البعيدةِ من كلّ حدَبٍ وصوْبٍ، فكانت قبلةَ الخيرات وموئلَ الرّحمات، وجعل بعضُهم التّعريفَ للجنس، فيقتضي العمومَ، فتكونُ أيَّ أرض يسيرُ إليها سليمان، كائنةً ما كانت، ووُصفت بالبركة، لأنه إذا حلّ أرضًا أصلَحها بقتل كفّارها، وإثباتِ الإيمان فيها، وبثّ العدل في ربوعها، ولا بركةً أعظمَ من هذا[1].

نشرَ سليمانُ الحقَّ والعدلَ حيثما حلَّ أوِ ارتحلَ

سرُّ الموصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾ وأثرُه في الدّلالة:

وصفُ أرضِ الشّامِ أو مُطلقِ الأرض بالبركاتِ وكثرةِ الخيراتِ

استُعملَ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾، الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّتِي﴾، دون الاسم الظّاهر، والنُّكتةُ فيه أنّه يسمحُ بالوصف بجملةِ الصّلة، لأنَّ الموصولَ وصلتَه كالشّيءِ الواحدِ، فقد وصفَ اللّه هذه الأرضَ بأنّه قد بارك فيها، ولهذا قال المفسّرون في تعيينها: إنّها أرضُ الشّام أو فلسطينُ.

والجمهورُ على أنّ جملةَ صلة الموصولِ ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ صفةٌ للأرض، وقال بعضُهم: إنّ الكلام تامٌّ عند قوله: ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، وجملةُ ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ صفةٌ للرّيح، ففي الآية تقديمٌ وتأخيرٌ، يعني أنَّ أصلَ التّركيب: (وَلِسُلَيْمَانَ الرّيحَ الَّتي بارَكْنا فيها عاصِفَةً تَجْري بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ)[2]، والأوّلُ أرجحُ وأوفقُ للسّياق، كما تفيدُ جملةُ الصّلة علّةَ انتهاء حركةِ جريان الرّيح بهذه الأرض دون ما سواها، وتلك العلّةُ تُفرزُها جملةُ الصّلةِ وهي أنّها أرضٌ طيّبةٌ ومباركةٌ.

سرُّ ورودِ الفعل ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ ماضيًا في الآية:

ثبوتُ البركةِ في أرض الشّامِ منَ القديمِ

أوثِر في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾، استعمالُ صيغةِ الماضي في الفعل ﴿بَٰرَكۡنَا﴾، للدّلالة على تحقّق البركة واستقرارِها في هذه الأرض، فقد كانت منذُ القديم مهدًا لعديدٍ منَ الرُّسل والرّسالات، ومهبطًا لكثيرٍ منَ الآيات والمُعجزاتِ، واللّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 458.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 458.

يَصطفي منَ الأمكنةِ والأزمنةِ والأشخاصِ ما يريدُ، لا غالبَ لأمرِه ولا حدودَ لحكمتِه.

نُكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضمير العظمةِ:

عظمَةُ الرّبِّ سبحانه في اختصاصِ بعضِ الأماكنِ بما شاء منَ البركات

في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ أُسنِد الفعلُ ﴿بَٰرَكۡنَا﴾، إلى ضمير العظَمةِ للدّلالة على قُدرةِ اللّه ﷻ في اصطفاءِ بعضِ الأمكنة دون بعضٍ، وتخصيصِ بعضِها ببركاتٍ وخيراتٍ دون بعضٍ، فسنّةُ الرّبّ العظيم في خلقِه التّفضيلُ بين المخلوقات، وتفخيمُ ذاتِ الفاعل تستلزمُ تفخيمَ الفعل وتعظيمَه لأنَّ الحدثَ يعظمُ بعظمةِ فاعلِه، وفي تعديةِ الفعلِ ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ بـ (في) دون القول (باركناها) للدّلالة على أنّ البركةَ حلّتْ في أجوائِها وأمكنتِها حلولَ المظروفِ في الظّرفِ، وذلك الحلولُ يَستدعي الانتشارَ مع الثُّبوت والدّوام؛ لأنَّ البركةَ تثبتُ في الأشياء وتستقرُّ فيها ولا تغادرُها بخلافِ (باركناها) فإنّها تفيدُ مباركةَ المكان مطلقًا دون الانتشارِ والحلول في جوانبِه المختلفةِ.

دلالةُ العطفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾:

بيانُ أنّ علمَ الله محيطٌ بكلّ الأشياءِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾، على ما قبْلَه بحرف الواو، الدّالِّ على الجمعِ والاقتران، والجامعُ بين المتعاطفاتِ الجامعُ العقليُّ، فأفادتِ الواوُ الرّبطَ؛ لأنّه خرج مخرجَ التّذييل لما قبْلَه من تسخير الرّيحِ لسليمانَ عليه السلام، فإنّه لمّا كانت هذه الاختصاصاتُ في غاية الغرابةِ، أخبرَ تعالى أنّ علمَه محيطٌ بالأشياء، يُجريها على ما سبقَ به علْمُه[1].

دلالةُ فعْلِ الكينونةِ ﴿وَكُنَّا﴾ في السّياق المُحكمِ:

تأكيدُ أنّ صفاتِ الرّبِّ سبحانه ثابتةٌ مطلقةٌ

عُبِّر في قوله تَعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾، بالفعلِ الماضي ﴿وَكُنَّا﴾، مِن (كان) الّذي يأتي في الأصل للاتّصافِ بالخبر في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 458.

الماضي مع الانقطاعِ، غيرَ أنّه يخرجُ لدلالة الدّوام والاستمرارِ بمعنى (لم يزل)، أي إنّها تأتي دالّةً على الدّوام[1]، فاللّه ﷻ كان ولا يزال عالمًا سبحانه بكلّ شيءٍ من شؤون خلقِه، علمًا مطلقًا لا يعتريه أيُّ نقص، وفائدةُ الزّمن الماضي في أمثال هذه النّصوص دفعُ وهَمِ من يعتقدُ أنَّ هذه الأفعالَ كانت تخرجُ في ذلك الوقت عن عدم علْمٍ محيطٍ بتفاصيلها فيأتي الرّدُ على حسب ذلك التّوهّمِ المرتبطِ بالزّمن الماضي.

نُكتةُ تقديمِ الجارّ والمجرور في الآية:

شمولُ علمِ الله سبحانه لكلّ المخلوقاتِ في الأرض والسّماواتِ

قُدّم في قوله تَعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾، الجارُّ والمجرورُ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾، على خبرِ كان، لنُكتةِ الاهتمامِ بشمولِ علْمِه سبحانه وعمومِه، فاللّه سبحانه لا يعزبُ عن علمِه شيءٌ في السّماوات ولا في الأرض بل يفيدُ التّقديمُ الاختصاصَ أيضًا؛ إذ علْمُ اللّه وحدَه محيطٌ بكلّ شيءٍ، وفائدةُ الكليّةِ المضافةِ إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ إضافةً استغراقيّةً إرادةُ الشّمول والعمومِ فلا يعزبُ عن علمه كليٌّ ولا جزئيٌّ.

دلالةُ وصفِ ﴿عَٰلِمِينَ﴾ في الآية:

تدبيرُ أمرِ الكائنات على ما يقتضيه علْمُه وحكمتُه سبحانه

في قوله تَعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾، وردَ اسمُ الفاعل ﴿عَٰلِمِينَ﴾ للدّلالة على ثبوتِ صفةِ العلم ورسوخِها، فعلمُ اللّه سبحانه ثابتٌ شاملٌ، لتدبيرِ كلّ شيءٍ منَ الكائنات، فيُجريه على ما يقتضيه علْمُه وحكمتُه سبحانه؛ فما آتى سليمانَ الملكَ والنّبوّةَ، وما سخّرَ له الرّيحَ تجري بأمره إلّا لعلْمِه بما في ذلك منَ الحكمة والمصلحة[2]، وإنّما ذُيّلت معجزةُ داود عليه السلام بقوله ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ومعجزةُ سليمانَ عليه السلام بقوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾؛ لأنّ تسخيرَ الجبال والطّير بالتّسبيح والتّجاوُبِ مع داودَ من جنس الفعل والعمل، فكان التّذييلُ

(1) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 18/ 147.

المناسبُ الإشارةَ إلى الفاعل الحقيقيِّ وهو اللّه تعالى، في حين أنَّ تسخيرَ الرّيح وجلْبَها المنافعَ والفوائدَ إلى مملكة سليمانَ وأنَّ الرّيح منقادةٌ لأمره تسمعُ كلامه وتَعي ما يريدُ وما يقصدُ من جنس العلْمِ فناسبَها التّذييلُ بقوله: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العاصِفَةُ والإعصارُ:

الإعـصـارُ أشدُّ أنـواعِ الـرّيـح العاصفةِ وكلُّ إعـصـارٍ ريـحٌ وليس كلُّ ريحٍ إعصارًا

يشتركُ لفظا ﴿عَاصِفَةً﴾ و﴿إِعْصَارٌ﴾، في كونِهما من أوصاف الرّيح، ويظهرُ الفرقُ بينهما في أصلِ الاشتقاق، وفي شدّة الهُبوبِ والقوّة، فأمّا من جهة الاشتقاقِ، فالعاصفةُ مشتقّةٌ منَ (العصف)، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خفّةٍ وسرعةٍ، والعاصفةُ ريحٌ شديدةٌ تستخِفُّ الأشياءَ فتذهبُ بها، وتعصفُ بها[1]، وأمّا الإعصارُ فأصلُه منَ (العصر) وهو ضغطُ شيءٍ حتّى يتحلّبَ، فسمّيتِ الرّياحُ الّتي تثيرُ السّحابَ المُعصرات إعصارًا[2].

وأمّا الفرقُ بين العاصفة والإعصارِ، من جهة شدّةِ الهبوبِ، فالإعصار أشدُّ عنفًا وبأسًا منَ العاصفة، إذ هو ريحٌ تهبُّ منَ الأرض إلى السّماء، كأنّها عمودُ نارٍ[3]، ولهذا ضربَ اللّه ﷻ بها المثَلَ، في قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ [البقرة: 266]، فهي ريحٌ شَديدَةٌ، لا يُقال لَها إعصارٌ حَتّى تَهُبَّ كَذَلك بشِدَّةٍ، ومنْه قَولُ العَرَب أيضا في أمْثالها: (إن كنتَ ريحًا فقد لاقيتَ إعصارًا)، يُضربُ مَثَلًا للرّجل يَلْقَى قِرْنه في النَّجْدةِ والبَسالةِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصر).
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 82.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عصر).

(باركَ) و(تباركَ):

اختصاصُ لفظِ (تبارك) بالرّبّ ﷻ وحدَه

يشتركُ لفظا (بارك) و(تبارك)، في أصل الاشتقاقِ وهو (البركة)، ويتجلّى الفرقُ بينهما في الاستعمالِ، فلفظُ (بارك) عامٌّ يطلقُ في حقّ الخالق والمخلوقِ، وأمّا (تبارك) فلا يُستعملُ إلّا في حقّ الرّبّ ﷻ، فلا يقال: تبارك فلانٌ، فهو من خصائصِ اللّه تعالى، لأنّ (تبارك) تفاعلَ منَ البركة والعظَمةِ والجلالِ، وهذا الثّناءُ في حقّه تعالى، إنّما هو لوصفٍ رجعَ إليه تعالى، فإنّه (تفاعلَ) منَ العُلوِّ والعظمةِ؛ ولهذا يَقرنُ بين هذين اللّفظَين، فيقال: تبارك وتعالى، وفي دعاء القنوتِ: تباركتَ وتعاليتَ، كما أطلقَها سبحانه على نفسِه في كثيرٍ منَ الآيات نحوَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: 1]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان: 61]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ [الزّخرف: 85]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [الملك: 1]، وقال تعالى عقبَ خلْقِ الإنسانِ في أطواره السّبعةِ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: 14]، أفلا تراها كيف اطّردت في القرآن جاريةً عليه، مختصّةً به، لا تُطلقُ على غيره، وجاءت على بناء السَّعة، والمبالغةِ، كـ(تعالى، وتعاظم)، ونحوِهما، فجاء بناءُ تبارك على بناء تعالى، الّذي هو دالٌّ على كمال العُلوِّ ونهايته وغايته، فكذلك تبارك دالٌّ على كمال بركتِه، وعظَمِها، وسَعتِها، وحقيقةُ اللّفظة: أنّ البركةَ كثرةُ الخير، ودوامُه، ولا أحدَ أحقُّ بذلك وصْفًا، وفعلًا منه تبارك وتعالى[1].

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/ 680.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾ [الأنبياء: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من المعجزة السَّماوية إلى المعجزة المائيَّة

الآية تتميمٌ لما ذكرهُ الحقُّ سبحانهُ في شأنِ سليمانَ عليه السلام مِنْ إيتائِهِ الحكمةَ، وتسخيرِ الجبالِ والطَّيرِ، وتعليمِهِ صنعةَ اللَّبوسِ، "ولَمّا ذكرَ تعالى تسخيرَ الرّيحِ لهُ، وهيَ جسمٌ شفّافٌ لا يعقلُ، ولا يُدرَكُ بالبصرِ؛ ذكرَ تسخيرَ الشَّياطينِ له، وهم أجسامٌ لطيفةٌ تعقلُ، والجامعُ بينهما أيضًا سرعةُ الانتقالِ"[1]، وذكر تسخير الرّيح في السَّماءِ، ناسبه أن يأتي ذكر تسخير الشَّياطين للغوص في الماءِ، فهي من ذكر الآية المائيَّة بعد الآية السَّماويَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغُوصُونَ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ أو الاستقبالِ بحسبِ القرينةِ، وجذرُه اللغويُّ (غوص) ومعناهُ النُّزولُ تحتَ الماءِ، وهوَ أيضًا الموضعُ الَّذي يُستخرجُ منهُ الدُّرُّ واللؤلؤُ، والغوّاصُ هوَ مَنْ يغوصُ على الأصدافِ لاستخراجِها من البحرِ، والأصلُ في الغوصِ الهجومُ على ما تسفَّلَ، ومنهُ الغوصُ تحتَ الماءِ، ويقالُ: غوّاصٌ لكلِّ مَنْ هجمَ على شيءٍ غامضٍ؛ ليخرجَهُ عينًا كانَ أوْ علمًا، ولا ينفذُ في عمقِ الماءِ إلّا ما كانَ ذا كتلةٍ كثيفةٍ[2]، والغوصُ - في الآيةِ - النُّزولُ تحتَ الماءِ في البحارِ والأنهارِ[3] لاستخراجِ اللؤلؤِ والدُّرِّ والجواهرِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 458.
(2) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غوص).
(3) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 287.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تسخير الشّياطين للغوصِ وأعمال أخرى معجزةٌ غير معهودة

الآيةُ معطوفةٌ على ذكرِ ما لسليمان عليه السلام من معجزاتٍ محسوسةٍ، وهي إنعامٌ بعدَ إنعام منْ لدنِ الحقِّ سبحانَهُ، فبعدَ أنْ أنعمَ على سليمانَ بأنْ أجرى لَهُ الرِّيحَ عاصفةً؛ ثنّى هنا بأن ذكرَ تسخير الشَّياطين له نزولًا تحتَ الماءِ لاستخراجِ الجواهرِ واليواقيتِ والدُّرِّ، ثمَّ عملِ البنيانِ والتَّماثيلِ والمحاريبِ، لا يخرجونَ عنْ أمرِه، ولا يفسدونَ عملَهُ، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّه لا يؤودُه حفظُ ذلكَ كلِّه[1]، فهو جلَّ ثناؤه حافظٌ لهم ولأعمالهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

عطفُ تسخيرٍ على تسخيرٍ لإظهارِ المنَّةِ والتَّقدير

جملةُ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ معطوفةٌ على الآية السابقة الَّتي ساقَ فيها الحقُّ سبحانَهُ ما سخَّرَهُ لعبدِه سليمانَ من الرِّيح الَّتي تجري بأمره، ويجوز أن تكونَ الجملة فعليَّةً، والتقدير: (وسخَّرنا له من الشياطين من يغوصون)، وعليه فالاسمُ الموصولُ في قوله تعالى: ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ واقعٌ من الفعلِ المقدَّر (سخَّرنا) موقعَ المعمولِ منصوبٌ به[2]، أو تكونَ الجملة اسميَّةً من مبتدأ وخبر - كما سيأتي - ويصحُّ أن تكونَ الواو استئنافيَّةً، والأول أوجهُ في الاتِّساقِ العام مع الآيات السَّوابق، كما سبق بيانه في مناسبة الآية لما قبلها.

معنى حرفِ (مِن) ودلالته:

دلَّ التَّبعيضُ على أنَّ التَّسخيرَ لبعض الشَّياطينِ

من المعاني المشتهرةِ لحرف (مِنْ) في لسانِ العربِ التَّبعيضُ[3]، ولَمّا كانَ تسخيرُه تعالى الشّياطينَ لسليمانَ ليسَ على جهةِ الشُّمولِ قاطبةً، بلْ سخَّرَ له نفرًا من الشَّياطينِ ممَّنْ يباشرونَ مثلَ تلكَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 482.

(2) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 7/ 250.

(3) المبرد، المقتضب: 1/ 44.

الأعمالِ الَّتي ذكرَها، فلمّا كانَ ذلكَ كذلكَ؛ أوردَ حرفَ التَّبعيضِ للإشارةِ إلى أنَّ التَّسخيرَ لا يشملُ الشَّياطينَ جميعًا بل بعضَهم[1]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذا التَّسخيرَ هو لبعضِها، ولبعضها الآخر تسخيرٌ آخر.

التَّعريفُ والجمع في لفظِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾:

سخَّرَ اللهُ تعالى كفّارَ الجنِّ دون المؤمنينَ

المرادُ في إطلاقِ لفظِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ - على من سخَّرَهم الحقُّ سبحانَه لسليمانَ عليه السلام - الكفّارُ لا المؤمنون؛ لأنَّ هذا اللفظَ أكثرُ ما يُطلقُ على كافرِهم، وآيةُ ذلك الإخبارُ عنهم بالحفظِ، وذلك لا يكونُ مع المؤمنِ، وإنَّما يكونُ مع الكافرِ[2]، ولا يُراد بالجمع المعرَّف الشُّمولُ الكلّيُّ، بدلالة وجود حرف التَّبعيض، وإنَّما نوعٌ منهم سخَّرهم لهذه الوظيفة، وذكرهم بوصف الشَّياطين دون الجن، أو بالإضافة كأن يُقال: (ومن شياطين الجن)؛ لأنَّ الشَّيطان إذا أُطلق؛ فإنَّه يُراد منه شيطانُ الجنِّ دون الإنسِ، إلّا إذا وجدت القرينةَ الَّتي تُعيِّن أنَّ المقصودَ به هو الإنسيُّ.

نكتةُ تقديمِ المسندِ على المسندِ إليه:

خصَّ اللهُ سبحانه نبيَّه سليمان بنوعٍ من الشَّياطين لخدمةٍ خاصَّة

سبق بيانُ الاختلاف في كونِ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ جملةً فعليَّةً أو اسميَّةً، وبناءً على جعلها اسميَّةً؛ فإنَّ المسندَ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ مقدَّمٌ على المسندِ إليهِ ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾، والتقدير: (والذين يغوصون له من الشياطين)، ويقوى مع هذا التَّقدير أن تكون الواو استئنافيَّةً، ونكتة التقديم إفادةُ الاهتمام، والغرضُ من هذا الاهتمام الإشارةُ إلى أنَّ هؤلاءِ الشَّياطينَ هم ممّن اختصَّهمُ الحقُّ سبحانَهُ بالغوصِ واستخراجِ الدُّرِّ والجواهر لسليمانَ، على الرَّغم مِنْ أنَّ الشَّياطينَ موصوفونَ برقَّةِ الأجسامِ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 931.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 170.

وضعفِها، لكنَّها تكاثفتْ معَ لطافتِها لتقبلَ الغوصَ، وهي معجزةٌ أخرى منهُ تعالى[1] بأن اختصَّ بعضَهم بهذه الخصيصةِ.

معنى ﴿مَن﴾ ودلالةُ استعمالِها:

الـغــوّاصــون مـن الشَّياطين مـخـصـوصـون بهذا العمل

﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العمومِ والجمعِ[2]، فجاءَ التَّعبيرُ هنا - بقولِه: ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ - مؤذنًا بعظمِ التَّصرُّفِ فيما أُمروا به من عمل، وهو الغوصُ في المياهِ؛ لأجلِ استخراجِ الجواهرِ وسواها ممّا فيه منافعُ وفوائد[3]، ودلَّ استعمالُ الاسمِ الموصولِ على أنَّ هؤلاء الَّذين يغوصون في البحرِ عُهِدَ إليهم هذا العملُ، فعُرِفوا به، فهم مخصوصون به، وهو ما يتعانق مع النُّكتةِ السّابقةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

وظيفةُ الغوص دائـمةٌ مستمرَّةٌ بجدٍّ واجتهاد

صيغةُ المضارعِ في الفعل ﴿يَغُوصُونَ﴾ لها دلالةٌ مهمَّةٌ؛ فإنَّ المضارعَ يدلُّ على الحالِ أو الاستقبالِ[4]، وفي هذا التَّعبيرِ استحضارٌ لمشهدِ الغوصِ في تصويرٍ رائعٍ يشعرُ القارئُ به أتمَّ شُعورٍ وأبلغَه في صورةٍ محسوسةٍ؛ تقريبًا إلى ذهنِ المخاطَبِ بالقرآنِ، وتمكينًا منه، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ غوصَهم متجدِّدٌ لا انقطاعَ له، فوظيفتهم دائمةٌ مستمرَّةٌ، وهم يعملون بجدٍّ واجتهاد.

فائدةُ استعمالِ مادَّة الغوصِ:

الـغـوصُ يكون فــي الأعـمـاق لاســتــخــراج الجواهرِ واللآلئ

في استعمالِ مادَّة الغوصِ ﴿يَغُوصُونَ﴾ دلالةٌ على قدرته تعالى في إظهارِ الضِّدِ من الضِّدِ؛ فإنَّ الشَّياطينَ مخلوقون من النّارِ، والنّارُ تنطفئُ بالماءِ بموجبِ الغوصِ، فما كانَ ذلك يضرُّهم[5]، وفي ذلك آيةٌ

(1) الشربيني، السراج المنير: 2/ 518.

(2) الموصولُ الاسميّ نوعانِ منهُ ما يدلُّ على النصّ والتعيينِ وهوَ: الَّذي والتي ونحوهما، ومنهُ ما يدلُّ على العمومِ والاشتراكِ وهوَ: ما ومنْ ونحوهما، يُنظر: ابن هشام، أوضح المسالك: 1/ 144.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 460.

(4) ابن مالك، شرح الكافية الشافية: 2/ 1028.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 170 - 171.

معجزةٌ باهرةٌ، ودلالةٌ على أنَّ أصلَ خلقِهم - وهو النّار - قد استحال شيئًا آخر، كما أنَّ الطّينَ الَّذي خُلق منه آدمُ قد استحال شيئًا آخر، وفيه دلالةٌ على أنَّ الغوصَ كان في أعماقِ الماءِ؛ لاستخراجِ الجواهرِ واللآلئ.

نكتةُ حذفِ القيدِ (في البحر):

دلَّ لـفـظُ (الـغـوص) على مـحـلِّ الـغـوص وهو البحر

معنى ﴿يَغُوصُونَ﴾ دالٌّ طبيعةً على النُّزولِ تحتَ الماءِ في البحرِ لاستخراجِ الدُّرِّ والجواهرِ، لكنَّه لم يذكر قيد (في البحرِ) المغاص فيه؛ لدلالةِ فعلِ الغوصِ عليه، وعلى ما يُغاصُ لاستخراجِه[1]، ونكتةُ ذلك أن يكون عامًّا في كلِّ ماءٍ، ولو قال: في البحر؛ لظُنَّ أنَّه بحرٌ معهود، والمراد العموم، وهو أدلُّ على القدرةِ والمُكنة.

توجيهُ جمعِ المسندِ إليه:

جُـمِـعَ الـضَّـمـيرُ حملًا على معنى (مَنْ)

الموصولُ ﴿مَن﴾ وإن كانَ مفردًا لفظًا؛ فمعناه يكونُ مفردًا ومثنًّى وجمعًا[2]، ففي قوله تعالى: ﴿يَغُوصُونَ﴾ وردَ الضَّميرُ المسندُ إليه مجموعًا؛ حَمْلًا على معنى ﴿مَن﴾، وحسُنَ ذلك لتقدُّمِ الجمعِ قبلَه[3]، وهو شائعٌ في كلامِ العربِ.

معنى اللّامِ ودلالتها:

غوصُ الشَّياطين كـــان لـغــرضِ خدمةِ سليمانَ عليه السلام حصرًا

من خصائصِ اللّامِ في كلامِ العربِ أنَّها تأتي في الأعمِّ الأغلبِ دالَّةً على الاختصاصِ[4]، ولَمّا كانتِ الأعمالُ المسندةُ إلى الشَّياطينِ من غوصٍ وبناءٍ ونحوه ممّا اختصَّ بها سليمانُ عليه السلام، فإنَّ الغائصَ قد يغوصُ لنفسِه، فقيَّدَهُ هنا لسليمانَ امتثالًا لأمرِه[5]، فعبَّرَ بها في قولِه تعالى: ﴿يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾؛ للتَّصريح بأنَّ هذا التَّسخيرَ هو ممّا خصَّ اللهُ تعالى به نبيَّه سليمان عليه السلام، ولم يكن لغيره مثل هذه الخصيصة.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 459.
(2) ابن الخباز، توجيه اللمع، ص: 490.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 75.
(4) ابن يعيش، شرح المفصّل: 1/ 116.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 459.

نكتةُ عطفِ العمومِ على الخصوصِ:

غوصُ النّاريِّ في الماءِ أعجبُ من سائرِ الأعمالِ

في قولِه تعالى: ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ عطفَ عمومَ العملِ على خصوصِ الغوصِ، ونكتةُ ذلكَ إظهارُ قدرتِهِ تعالى، وبيانُ معجزةٍ مِنْ معجزاتِهِ ﷺ؛ فإنَّ المعطوفَ عليهِ وهوَ فعلُ الغوصِ أعجبُ وأبهرُ للمخاطَبِ بالقرآنِ، فإنَّ الشَّياطينَ مخلوقونَ مِنْ نارٍ، ودخولُهم تحتَ الماءِ مِنْ عجائبِ قدرتِهِ في إظهارِ الضِّدِّ بنقيضِه[1]، فإنَّ الماءَ يطفئُ النّارَ، أمّا تسخيرُهم للأعمالِ الأخرى من البناءِ ونحوِهِ؛ فإنَّه وإن كان من دلائلِ قدرتِه أيضًا، لكنَّ الغوصَ فيه أعجبُ وأبلغُ، ولمّا كانَ الغوصُ أمرًا صعبًا مظنَّةَ الهلاكِ والأذى؛ جعلَهُ نوعًا مغايرًا لسائرِ العملِ[2].

أغراضُ تنكيرِ ﴿عَمَلٗا﴾:

التّنوينُ محمولٌ على التّعظيمِ أو التّكثيرِ أو العمومِ وكلُّه محتملٌ مقبولٌ

نُكِّرَ لفظُ ﴿عَمَلٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا﴾ إيذانًا بأنَّ العملَ الَّذي يقومون به عملٌ عظيمٌ جدًّا[3]، ويجوز أن يكون للتَّكثيرِ.

وعندَ النَّظرِ إلى ما كانَ يقومُ بِهِ هؤلاءِ الشياطينُ نجدُهُ عملًا كثيرًا متعدِّدًا كالبناءِ مدنًا وقصورًا، واختراعِ الصَّنائعِ الغريبةِ العجيبةِ، ثمَّ ما ذكرَهُ الحقُّ سبحانَهُ عمّا كانوا يعملونَ لهُ من المحاريبِ والتَّماثيلِ وجفانِ الطَّعامِ العظيمةِ والقدورِ الكبيرةِ الَّتي لا تتحرَّكُ لثقلِها، وغيرِ ذلكَ؛ للإيذانِ بأنَّ التَّنوينَ هنا دالٌّ على الكثرةِ[4].

ويجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ دالًّا على العمومِ، كما هو الحالُ في لسانِ العربِ، ولمّا كانَ عملُهم ليس مقصورًا على الغوصِ، بل يتجاوزُ ذلكَ إلى الأعمالِ الأخرى من البناءِ كعملِ المحاريبِ، وصنعِ التَّماثيلِ، والجفانِ الكبيرةِ، والقدورِ الرّاسياتِ العظيمةِ، وغيرِها من الصَّنائعِ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 39.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 567.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 460.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 567.

العجيبة؛ لقولِه تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: 13] [1]، وهذا كلُّه داخلٌ في معنى العملِ؛ أوردَه بصيغةِ التَّنكيرِ؛ تنبيهًا على أنَّه لم يُرِد عملًا بعينِه، وإنَّما أراد هذه الأعمالَ جميعًا.

نكتةُ استعمالِ ﴿دُونَ﴾:

تعظيمُ شأنِ الغوصِ واستغراقُ الأعمالِ الأخرى

لَمّا بيّنَ سبحانه وتعالى تسخيرَ الشَّياطين للغوصِ - وهو من عظائمِ الأعمالِ وعجائبِها - أرادَ استغراقَ قدرتهم على ما هو أدنى من ذلك، فأوردَ الظَّرفَ ﴿دُونَ﴾؛ لإفادةِ تحتيَّةِ ذلكَ العملِ العظيمِ أو غيرِه ممّا يرومُ من بناءٍ، واصطناعِ ما يشاءُ من الصَّنائعِ الغريبةِ والآثارِ العجيبةِ[2]، فدلَّ على عظيمِ شأنِ الغوصِ، واستغراقِ ما دونه من أعمالٍ أوكِلَتْ إليهم.

نكتةُ ذكرِ فعلِ الكونِ الماضي:

استمرارُ حفظِ الله تعالى أعظمُ من المعجزاتِ نفسِها

ذُكِر فعلُ الكونِ في قولِه تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ ماضيًا؛ للدَّلالة على الاستمرارِ في حفظِه تعالى من أن يُؤذيَ الشَّياطينُ النّاسَ، أو أن يتفرَّقوا، وينفلتوا عن سليمانَ عليه السلام[3]، فسخَّر سبحانه الشَّياطين لسليمانَ، وحفظَ الناس من كلِّ ذلك.

بلاغةُ الاحتراس:

دَفْعُ أوهامِ الأفهامِ من بديعِ دقَّةِ القرآن

في قولِه تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ فائدةٌ مطويَّةٌ مفادها: أنَّ أعمالَهم تلك محفوظةٌ من استخدامها في الشَّرِّ؛ لأنَّه قد يتبادر إلى الذِّهن بأنَّ قدرة الشَّياطين على تلك الأعمال الكبيرة قد يقودها إلى استعمالها في الشَّرِّ، فجاء قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ من باب الاحتراسِ عن مثل هذا الفهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 397.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 460.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 7/ 367.

نكتةُ الإسنادِ إلى نون العظمةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ ذكرَ ضميرَ الجمعِ العائدَ عليه سبحانَه تعالى مع فعلِ الكونِ؛ للدَّلالةِ على عظمتِه الغالبةِ[1] وسلطانِه القاهرِ الَّذي لا يدانيه شيءٌ، فلا يقدر على قهر تلك الشياطين وتسخيرها إلّا العظيمُ ﷻ.

لا يقهر الشَّياطينَ على العمل الشّاقِّ إلّا الجليلُ العظيم

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على متعلِّقه:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على متعلَّقِه ﴿حَٰفِظِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛ لإرادةِ الاختصاصِ على معنى العدِّ والحصرِ لهؤلاءِ الشَّياطينِ، فلا يشذُّ منهم أحدٌ عن علمِنا وتسخيرِنا[2]، واختصاصُ الحفظِ لهم وحدَهم هو على سبيلِ المبالغةِ لا الحقيقةِ؛ لأنَّه تعالى حافظٌ لهم ولغيرِهم.

الحفظُ شاملٌ لجميعِ الشَّياطين دون استثناء

معنى اللّامِ ودلالتها:

اللّامُ الدّاخلةُ على الضّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ دالَّةٌ على التَّقويةِ، والمعنى: (أن نحفظَهم)، أي: أن نمنعَهم عن النّاسِ[3].

بلاغةُ التَّذييلِ:

الفاصلةُ ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ تذييلٌ لما سبقَ، وتبيينٌ لما ورد من قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، وما كانَ منهم من عملِ الغوصِ وغيرِه من أعمالِ البناءِ، فإنَّ اللّهَ حافظُهم من أن يخرجوا عن أمرِه تبديلًا وتغييرًا، أو إفسادًا فيما هم مسخَّرون فيه[4].

حِفظُ الله أصلُ كلِّ رعايةٍ وعناية

نكتةُ إيثارِ مفردة الحفظِ:

آثرَ النَّظمُ الكريم مادَّةَ الحفظ في قولِه تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛ لأنَّ الحقَّ سبحانَهُ لَمّا سخَّرَ الشَّياطينَ والجنَّ لسليمانَ

الجمعُ بين التسخير والحفظ من غيرِ عناءٍ ولا أذى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 460.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 94.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 125.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 387.

ﷺ منعَهمْ منْ أنَ ينفلتوا عنه، أوْ أن يعصوه؛ فكانَ عملُهمْ جاريًا في الخفاءِ مِنْ غيرِ أذيَّةٍ للنّاسِ؛ فكانَ مِنْ حكمتِهِ أن جمعَ بينَ تسخيرِهمْ لسليمانَ، وتعليمِهِ كيفيَّةَ حكمِهم وتطويعِهم، فكانوا منقادينَ لهُ قائمين على خدمتِهِ من غيرِ عناءٍ، ولا تسبُّبٍ بأذًى لغيرِهم من النّاسِ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 125.

﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 83 - 84]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من معجزاتِ جلبِ الخيرِ إلى معجزات دفعِ الضُّرِّ

لمّا ذكر سبحانه وتعالى قصَّةَ سليمانَ عليه السلام - وما فيها من عجيب المعجزاتِ في جلب الخيرات والملكِ العظيم - ناسبَ أن يذكرَ بعدها قصَّةَ أيوبَ عليه السلام لبيان عجيب معجزاتِه سبحانه في دفع المضارِّ، لبيان التَّقابل في القصَّتين، وأنَّ معجزات اللّه تعالى مع أنبيائه شاملةٌ لجلبِ الخيرات ودفع المضارِّ، وهذه المناسبةُ كذلك ظاهرةٌ في سورة (ص).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّنِيَ﴾: جذرُهُ اللغويُّ (مسس)، والمسُّ: أنْ تمسَّ الشَّيءَ باليدِ، ويكون المسُّ خيرًا وشرًّا، والأصلُ في المسِّ اللُّصوقُ، والميمُ والسّينُ لها أصلٌ واحدٌ صحيحٌ في لسانِ العربِ يدلُّ على الجسِّ باليدِ، ويجوزُ إطلاقهُ على كلِّ ما ينالُ الإنسانَ مِنَ الأذى والضَّررِ، والمسُّ ما كانَ باليدِ، ثمَّ استعيرَ للأخذِ والضَّربِ، ومعنى ﴿مَسَّنِيَ﴾: أصابني الضُّرُّ في بدني، والفقدُ في أهلي ومالي[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قصَّةُ أيوبَ عليه السلام مَثَلٌ في الصَّبر وأنموذجٌ في المكافأةِ عليه

يخاطبُ الحقُّ سبحانَهُ حبيبَهُ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم وأمَّتَهُ أنْ يذكرَ عبدَه أيّوبَ عليه السلام، وما جرى عليهِ منْ محنٍ وابتلاءاتٍ، فصبرَ، ثمَّ نادى ربَّهُ مخبرًا إيّاهُ بأنَّ الضُّرَّ من فقدِ المالِ والأهلِ والصِّحَّةِ قدْ مسَّهُ، داعيًا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 323.

اللّهَ تعالى أنْ يرحمَهُ منْ غيرِ تصريحٍ بذلك؛ فذلكَ عندَهُ ألطفُ بالسُّؤالِ، وأجدرُ بالحصولِ على المنالِ، فالحقُّ سبحانَهُ أعلمُ بعبادهِ من أنفسِهمْ؛ فاستجابَ لهُ تعالى، وكشفَ عنهُ بلاءَهُ، بعدَ ما اشتدَّ بلاؤُهُ، وعظمَتْ مصيبتُهُ؛ فكانَ مِنْ شأنِ الحقِّ سبحانَهُ أنْ يفرِّجَ عنهُ، فشفاهُ، ووهبَ لهُ أهلَهُ وولدَهُ ومالَهُ، ومثلَهمْ معهُم؛ ليكونَ عِبرةً لمَنْ خلفهُ، وآيةً لأهلِ البلاءِ، وعزاءً للصّابرينَ من خلقِهِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ ودلالتِها:

حسنُ الالتجاءِ يسوقُ إلى النَّجاء

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ واردةٌ موردَ العطفِ؛ إذْ عطفتِ الواو هذهِ الجملةَ على قولِه تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ [الأنبياء: 78]، والتَّقديرُ: أنَّ الحقَّ سبحانَه آتى أيّوب عليه السلام الحكمَ والعلمَ حينَما نادى ربَّهُ[2]، أو أن تكون من عطفِ القصَّة على القصَّة؛ إذ اشتركت القصَّتان في بابٍ عجيبٍ من المعجزات.

بلاغةُ الحذفِ:

قصَّةُ أيّوبَ مستقلَّةٌ عمّا قبلَها بالمضمونِ مشتركةٌ بالشَّأنِ العجيبِ

حُذِفَ العاملُ من قولِه تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ على تقديرِ: واذكرْ، وهو على حذفِ المضاف، والتقدير: (واذكر خبرَ أيّوبَ ومصابَه وصبرَه)[3] من فقدِ الصِّحَّةِ والأهلِ والمالِ، وفي هذا الذِّكرِ تنبيهٌ على استقلالِ قصَّةِ أيّوبَ عمّا قبلَها، ممّا ذكرَهُ من أمرِ نوحٍ وداوودَ وسليمانَ عليهم السلام، فإنَّها قصَّةٌ قمينةٌ بأن تعدَّ بنيةً مستقلَّةً.

دلالةُ الظَّرفِ ﴿إِذۡ﴾:

نزولُ الابتلاءِ لا يرفعُهُ إلّا الدُّعاءُ

دلَّ ذكرُ الظَّرفِ ﴿إِذۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، وهو ظرفٌ لما انقضى من الزَّمانِ[4]، على أنَّ أجلى ما يُذكر من قصَّة

(1) مكي القيسي، الهداية: 7/ 4794.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 125.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 435.
(4) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبَة: 1/ 182.

أيوبَ عليه السلام، وأحرى ما يُتأمَّل هو وقت ندائه ربَّه تعالى، ففي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الزَّمنَ كانَ أجلى مظاهرِ علمِه وحكمتِه وأبينها[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّداءِ دونَ الدُّعاءِ:

النِّداءُ دالٌّ على شدَّة الالتجاءِ في رفع البلاء

اختار النَّظمُ مادَّةَ النِّداء في قولِه تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ﴾؛ لبيانِ أنَّ دعاءَه كان التجاءً إلى اللّه تعالى، والنِّداء هو رفعُ الصَّوت لإيصاله إلى المنادى، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ هنا، إذِ المرادُ تشبيه حالِ أيَّوبَ عليه السلام حين الدُّعاء بحال من يدعو بصوتٍ عالٍ؛ لبيانِ شدَّة التجائه لا لبيانِ رَفْعِ صوته، فهو يُشبه حال المنادي بشدَّة الالتجاء، لا برفع الصَّوت، وإذا ابتُلي الأنبياءُ والأصفياءُ في أنفسِهم وأموالِهم وأهليهم؛ كانَ ذلك مدعاةً إلى أن يتضرَّعوا إلى اللّهِ سبحانه، ويبسطوا أيديهم، ويولّوا وجوهَهم، ويطرقوا بابَ رحمتِه؛ فيتقبَّلَ اللّه منهم، ويمدَّهم برحمتِه، ولا يخيِّبَ رجاءَهم[2].

نكتةُ إيثارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ:

طلبُ المعافاةِ من مقتضياتِ الرُّبوبيَّة

جاءَ التعبير بلفظ الرُّبوبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾؛ لما في لفظِ الرَّبِّ من معاني الإحسانِ إلى أيّوبَ عليه السلام في عافيتِه ومصابِه، وما أغدقَ عليه سبحانَه من الصَّبرِ[3]؛ فإنَّ طلبَ المعافاةِ والشِّفاء هي من مقتضيات الرُّبوبيَّة.

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّة إلى الضَّميرِ:

تعليمُ النّاسِ الالتجاءَ إلى الحقيق برعايتهم

لَمّا كانَ أيّوبُ عليه السلام في ابتلاءٍ ومحنةٍ وشدَّةٍ؛ عبَّرَ عن دعائِه وتقرُّبه من الحقِّ سبحانَه بقولِه: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، فجاءَ بلفظِ الرَّبِّ مضافًا إلى الضَّميرِ لما يوحي به ضميرُ الجلالة من معاني العطفِ والإحسانِ والرِّفق، ولشعوره عليه السلام بكنف ربِّهِ ورعايته وتدبيره وكلَئِهِ وحفظه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 126.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 933.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 461.

بلاغةُ الإضمارِ:

إظهارُ الاحتياجِ أدبٌ في الدُّعاءِ

في قولِه تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ يُشبِهُ أن يكونَ قد أضمرَ في كلامِه الدُّعاءَ، فكأنَّهُ قالَ: إنّي مسَّني الضُّرُّ فارحمني - يا اللّهُ - وعافني، وآيةُ ذلك أنَّ المولى ﷻ قال: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾[1]، فالاستجابةُ تكونُ إثرَ الدُّعاءِ، وفي الصّيغة الخبريَّة الَّتي نطق بها أيّوبُ عليه السلام تعريضٌ بسؤال الرَّحمة، حيث ذكَّر نفسَهُ بما يوجبُ الرحمة بأبلغ صفاتها، ولم يصرِّح، فكان ذلك ألطفَ في السؤال، فهو أجدرُ بالنوال[2].

نكتةُ ذكرِ المسِّ دونَ الإصابةِ:

أعظمُ الدُّعاءِ ما خلا من الشَّكوى والضَّجر

في إيثارِ استعمالِ فعلِ المسِّ دونَ الإصابةِ ونحوِها في قولِه تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ نكتةٌ بلاغيةٌ دقيقة، فإنَّ المسَّ معناهُ الإصابةُ الخفيفةُ، وفي هذا التَّعبيرِ تأدُّبٌ في الدُّعاءِ مع المولى سبحانَه من أيّوبَ عليه السلام؛ فقد جعلَ ما أصابَه من الضُّرِّ في فقدِ مالِه وأولادِه وصحَّتِه كالمسِّ الخفيفِ[3]، ففيه دعاءٌ والتجاءٌ وأدبٌ جمٌّ في عدمِ إظهارِ الشَّكوى.

نوعُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلضُّرُّ﴾:

تحتمل (أل) أن تكون عهديَّةً أو جنسيَّةً

الألفُ واللّامُ في لفظِ الضُّرِّ في قولِه تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ عهديَّةٌ؛ فإنَّه يصفُ نوعَ ضرٍّ أصابَهُ بأن ابتلاه الحقُّ سبحانَه بموتِ أولادِه، وذهابِ أموالِه، والمرضِ في جسدِه[4].

وتحتملُ أن تكونَ للجنسِ، فإنَّ ما ابتُلِيَ به أيوب عليه السلام، ضررُهُ عامٌّ في البدنِ والمالِ والأهلِ[5]، فلا يخصُّ ضررًا بعينِه.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 367.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 462.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 126.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 81.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 460.

فائدةُ اختيارِ لفظِ الضُّرِّ دونَ مرادفاتِه:

الضُّرُّ لفظٌ عامٌّ يشملُ أنواعًا من المرض أو نقص المنافعِ

الضَّرُّ بالفتحِ ما كانَ مقابلًا للنَّفعِ، وهو شائعٌ في كلِّ ضررٍ، أمّا ما كانَ بالضَّمِّ؛ فهو الضَّررُ الحادثُ في النَّفسِ من مرضٍ وهزالٍ[1]، ولَمّا كانَ لفظُ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ أذًى يعمُّ كلَّ ضررٍ، وهو ما يصيبُ الإنسانَ، أو ما يتضرَّرُ به في الجسدِ من المرضِ والضُّعفِ والهزالِ، أو في المالِ من النَّقصِ والزَّوالِ[2] عبَّرَ به في الآيةِ؛ ليشملَ ذلك كلَّهُ.

نوعُ الواوِ ودلالتها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ للحالِ، والمعنى على لسانِ أيّوبَ عليه السلام: أنَّه أصابني ما أصابني، والحالُ أنَّك أنت أرحمُ الرّاحمين، فافعل بي ما يفعلُ الرَّحمنُ بالمضرور[3].

بلاغةُ مجيءِ جملةِ الحالِ اسميَّةً:

في جملةِ الحالِ معنى التَّعليل

جاءت جملةُ الحالِ ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ اسميَّةً؛ للإيذانِ بالثُّبوتِ والدَّوامِ، فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ دالَّةٌ على ذلك[4]، والحقُّ سبحانَه وتعالى أرحمُ الرّاحمين بخلقِه، ورحمتُه البالغةُ صفةٌ ثابتةٌ دائمةٌ من صفاتِ كمالِه سبحانَه؛ فهو طلبٌ لإنزالِ الرَّحمةِ من اللّه تعالى؛ لأنَّه أرحمُ الرّاحمين؛ ففي جملةِ الحال معنى التَّعليل، والتَّعبيرُ - بـ ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لمن كان هذا حالَهُ من البلاءِ والضُّرِّ - يتوافرُ على نكتةٍ بلاغيَّةٍ ظاهرةٍ في أنَّ فيه وقعًا يتميَّزُ من سائرِ الأوصافِ الجليلةِ له سبحانَه، فهو ثناءٌ وتبجيلٌ للحقِّ سبحانَه، يوافقُ حالةَ أيّوبَ عليه السلام ومطلوبَهُ وغرضَهُ[5].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 130.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 126.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 462.

(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 51.

(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 568.

فائدةُ العدولِ عن النِّداءِ إلى الإخبارِ:

الأدبُ السّامي وحسنُ الخطابِ وعدمُ إظهارِ الشِّكاية

لَمّا كانَ النِّداءُ هو طلب الإقبالِ بحرفٍ ينوبُ منابَ (أدعو)[1]، وكانَ أيّوبُ عليه السلام متَّصفًا بصفةِ الأدبِ السّامي الَّذي سلكَهُ الأنبياءُ مع خالقِهم[2]، لم يوردْ كلامَهُ بصيغةِ النِّداءِ، فلم يقل: (يا أرحمَ الراحمين)، بل قال: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ لتضمينِ الكلامِ معنى الأدبِ في الدُّعاء، وحسن الخطاب، وعدم إظهار الشِّكاية ممّا وقع فيه.

بلاغةُ التَّعريضِ:

طلبُ كشفِ الضُّرِّ بدونِ سؤالٍ صريح

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ من بابِ التَّعريضِ[3] أيضًا، فقد عرَّضَ أيوبُ عليه السلام بطلبِ كشفِ الضُّرِّ عنه من غيرِ سؤالٍ بأن جعلَ نفسَهُ متعرِّضًا لرحمة الحقِّ سبحانَه له[4]، فخطابُ أيوبَ - عليه السلام - للّه تعالى بأنَّه أرحمُ الرّاحمين - خبرٌ معلومٌ، ولا يُرادُ منه المعنى القريبُ، وهو مُجرَّدُ الإخبارِ، بل يُراد المعنى البعيدُ، وهو طلبُ الشِّفاء.

دلالةُ صيغةِ التَّفضيلِ ﴿أَرۡحَمُ﴾:

رحمتُه أكملُ الرَّحماتِ لخلوِّها من وجوهِ النَّفعِ

لفظُ ﴿أَرۡحَمُ﴾ وزنُه (أفعل)، وهو دالٌّ على التَّفضيلِ في لسانِ العربِ[5]، لكنَّهُ ليسَ كذلك في الآيةِ، فإنَّ التَّفضيلَ هنا ليسَ على بابِه من أنَّ شيئًا يفضلُ شيئًا؛ فإنَّه لا رحمةَ تقربُ من رحمتِه تعالى، وإنَّما القصدُ في إيرادِه أنَّ الحقَّ سبحانَه قد بلغَ في رحمتِه أعلى الدَّرجةِ[6].

ولَمّا كانت رحمتُه تعالى أكملَ الرَّحماتِ؛ وصفَه بـ ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فإنَّ غيرَه وإن وُصِفَ بالرَّحمةِ، إلّا أنَّها قد تكون طلبًا لثناءٍ في الدُّنيا، أو ثوابٍ في الآخرةِ، أو دفعًا لما يحصلُ في النَّفسِ

(1) الصّبّان، حاشيته على ألفية ابن مالك: 3/ 197.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 241.

(3) إشارة على وجه الإجمال والعموم والإيهام وعدم التصريح، وهو عام قد يشمل الحقيقة والمجاز والكناية، ينظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 71.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 127.

(5) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 120.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4906.

من رقَّةٍ بمدعاةِ مشاهدةِ المرحوم، فهذه رحماتٌ لأجلِ نفعِ النَّفسِ، أمّا رحمتُهُ تعالى؛ فهي تخلو من كلِّ هذه الوجوهِ[1]، فهو مستغنٍ عن الخلقِ جميعًا، تباركَ الحيُّ القيومُ الصَّمدُ.

ولَمّا كانَتْ رحمةُ غيرِ اللّهِ تعالى لا تتحقَّقُ إلّا بمعونة رحمته تعالى؛ فمنْ وهبَ غيرَهُ طعامًا، أوْ دفعَ عنهُ بلاءً؛ فإنَّ الحقَّ سبحانَهُ خلقَ المطعومَ والملبوسَ وما يُتداوى به، فجعلَ كلَّ ذلكَ سببًا للرّاحةِ وحصولِ النَّفعِ، فرحمةُ اللّهِ تسبقُ رحمةَ العبادِ، ورحمتُهمْ بينَهمْ قطرةٌ في بحرِ رحمتِهِ ﷻ، فالحقّ سبحانَهُ هو أرحمَ الرّاحمينَ[2].

فنُّ الجناس:

رحمتُهُ تعالى أعلى الرَّحماتِ وأوسعُها

بين لفظَي ﴿أَرۡحَمُ﴾ و﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جناسٌ ناقصٌ يزيدُ من جمال وقْعِ العبارة القرآنيَّةِ، ويأتي في سياق أنَّ ربَّ العالمين يتَّصفُ بالرَّحمةِ المطلقة الشّاملةِ الدّائمةِ الواسعة الَّتي وسعَتْ كلَّ شيءٍ.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في الفعل ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾:

رحمةُ اللهِ بعبادِهِ قريبةٌ سريعةٌ

لَمّا كانَ ثناءُ أيّوبَ عليه السلام على ربِّه بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ تعريضًا بالدُّعاءِ؛ فرَّعَ عليهِ بالفاءِ قولَهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾[3]، فإنَّ الاستجابةَ متسبِّبةٌ عن قولِ أيّوبَ ودعائِه المضمَّنِ، والفاء دالَّة على التَّفريعِ[4]، كما أنَّها "للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، أي: كانَ الكشفُ فورَ الضَّراعةِ له سبحانَه وتعالى، وذكرِ رحمتِه"[5]، فإنَّ الحقَّ سبحانَهُ رؤوفٌ بعبدِه لا يتركُه بعذابِه وضرِّه.

نكتةُ العدولِ عن الغيبةِ إلى التَّكلُّم:

قربُ اللهِ تعالى واتِّصالُ إمدادِهِ لعبادِهِ الصّابرين

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بفعلِ الاستجابةِ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ بصيغةِ التَّكلُّم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 175.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 175 - 176.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 127.
(4) الَّتي تربط جملتين فيكون ما قبلها علة لما بعدها وما بعدها فرع عنها، ينظر: الصّبّان، حاشيته على الأشموني: 3/ 142.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4906.

لا بصيغةِ الغيبةِ، فلم يقل: (فاستجابَ)؛ لتطريةِ نشاطِ السّامعِ والمخاطَبِ، فلا يبقى الكلامُ على سننٍ واحدٍ؛ تنبيهًا على أنَّ الأمرَ الَّذي سيُلقى أمرٌ مهمٌّ في "أنَّ اللّهَ سبحانهُ وتعالى يتقبَّلُ مِنْ عبادهِ المخلصينَ ما يدعونهُ بهِ، فلا يقطعُ إمدادَ رحمتهِ عنهمْ، ولا يُخيِّبُ رجاءَهمْ فيهِ"[1]، وأنَّه معَ عبادهِ الصّابرينَ في إجابةِ دعواهمْ، وكشفِ الضُّرِّ عنهمْ، فهوَ قريبٌ منهمْ؛ بدلالةِ الإسنادِ إلى ضميرِ التَّكلُّمِ (نا) الدّالِّ على الذّاتِ العليَّةِ.

كما أنَّ ضميرَ العظمةِ يشيرُ إلى تفخيمِ الاستجابةِ وبيانِ شأنِ أيّوبَ عندَ ربِّهِ، أي: (فاستجبنا لدعائهِ نحنُ بعظمتنا وجلالنا وعزَّتنا).

دلالةُ السّينِ والتّاءِ:

دلَّتِ السّينُ والتّاءُ في فعلِ الاستجابةِ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ على المبالغةِ في الإجابةِ[2] وتوكيدها، فإنَّهُ تعالى مجيبُ المضطرِّ؛ إذا دعاه، فكيفَ لو كانَ عبدًا صابرًا شاكرًا، كعبدِهِ أيّوبَ ﷺ.

دلالةُ فعلِ الاستجابةِ:

خطابُ فقرٍ وفاقةٍ واستجابةُ رحمةٍ وكرمٍ

يدلُّ استعمالُ فعلِ الاستجابةِ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ على أنَّ أيّوبَ ﷺ قد دعا ربَّه، إمّا على سبيلِ التَّعريضِ، أو على سبيلِ التَّصريحِ[3]، فالاستجابةُ تلي فعلَ الدُّعاءِ، وأنَّه لَمّا عرَّفَهُ فاقةَ السُّؤالِ؛ مَنَّ عليه بكرمِ النَّوالِ[4].

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

الاختصاصُ فيه مزيدُ عنايةٍ وتشريفٍ

دلَّتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ على الاختصاصِ، فإنَّ أيّوبَ ﷺ لَمّا نادى داعيًا أن يُكشفَ عنه ما به من ضُرٍّ؛ خصَّه

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 933.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 127.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 176.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 490.

تعالى بالاستجابةِ، فكشف ما به من ضرٍّ، وفي الاختصاصِ مزيدُ تشريفٍ وعنايةٍ.

نكتةُ توالي الفاءاتِ:

الاستجابةُ كانت بكشفِ الضُّرِّ ورفعِ البلاءِ

لمّا استجاب اللّهُ تعالى لأيّوبَ عليه السلام دعاءه؛ بيَّن في قولِه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ ما كان بعد الاستجابةِ من كشفِ الضُّرِّ، فقرنَ الفاءَ بفعلِ الكشفِ، وشأنُ الفاءِ في كلامِ العربِ عامّةً دلالتُها على التَّعقيبِ بلا مهلةٍ[1]، فالمعنى هنا: أنَّ الحقَّ سبحانَه استجابَ لأيّوبَ دعوتَه العرضيةَ، وكشَفَ ضرَّهُ، في إشارةٍ إلى سرعةِ كَشْفِ الضُّرِّ عنه في بُرْئِهِ من مرضِه، ونيلِه رزقَهُ، وولادةِ أولادِه[2].

ويجوزُ في الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا﴾ أن تكونَ واردةً على معنى التَّفسيرِ أو التَّفصيلِ[3]، فإنَّها فسَّرت معنى الاستجابةِ بالكشفِ عمّا أصابَ العبدَ المؤمنَ أيّوبَ ممّا ابتلاه به ربُّ العزَّةِ، وفصَّلت فيما آتاه اللّهُ بعد ذلك من المالِ والولدِ، كأنَّه قال: فاستجاب له كاشفًا ضرَّهُ.

فائدةُ الإطنابِ:

تفصيلُ الإنعامِ وتفسيرُ النِّعَمِ إنعامٌ معنويٌّ وتشويقٌ نفسيٌّ

قولُه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ إطنابٌ في التَّعبيرِ[4]، وفائدتُه تأكيدُ معنى الجملةِ وتقويتُه، ثمَّ ليُرى المعنى في صورتينِ مختلفتينِ: صورةِ الاستجابةِ، ثمَّ صورة كشفِ الضُّرِّ عنه، فيتمكَّنُ في النَّفسِ أفضلَ تمكُّنٍ؛ لأنَّ فيه تشويقًا للنَّفسِ لمعرفةِ تفصيلِ الاستجابةِ، فإنَّها دالَّةٌ على العمومِ أوَّلَ ذكرِها، فإذا ما بانَ كشفُ الحقِّ سبحانَهُ عنْ ضُرٍّ ما حلَّ بأيَّوبَ عليه السلام مِنْ إيتائِهِ

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 5/ 12.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 127.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 569.

(4) تعريفه عند علماء البيان: أن تزيد في اللفظ على المعنى لتحصيل فائدة جديدة من غير تكرار ولا ترديد، واختصاصه بالتراكيب لا المفردات، وهو مشتقّ من أطنب بالمكان إذا أطال المقامة فيه، يحيى العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 2/ 123.

أولادَهُ ومالَهُ وبُرْءِ جسمِهِ؛ تمكَّنَ المعنى في النَّفس أفضلَ تمكُّنٍ، واتَّضح أيَّما اتِّضاحٍ.

تشبيهُ إزالةِ الأمراضِ بإزالةِ الغطاءِ تعبيرًا عن سرعةِ الإزالةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الكشفِ:

فعلُ الكشفِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ استعارةٌ؛ فقد شبَّهَ محوَ الأمراضِ، وإزالةَ الأضرارِ الَّتي تتمكَّنُ مِنَ الإنسانِ، فلا تزولُ عادةً إلّا بطولِ الزَّمانِ، بإزالةِ الغطاءِ عن الشَّيءِ المغطّى تعبيرًا عن السُّرعةِ في الإزالةِ[1]، فهي استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة.

استجابةُ الله تعالى الدعاءَ وكشفُهُ الضرَّ إكرامٌ وتفضُّلٌ

دلالةُ إسنادِ فعلِ الكشفِ إلى ضميرِ العظمةِ:

أسندَ النَّظمُ الكريم فعلَ الكشفِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ إلى الضَّميرِ (نا)؛ لدلالتِه على عظمةِ الحقِّ سبحانَه، وقدرتِه على الأمورِ الهائلةِ[2]، من إبراءِ المريضِ، وإيتاءِ المالِ والأهلِ والولدِ، وتقليب الحال، وهكذا فعَلْنا مع أيّوبَ، مع ما في هذا الإسنادِ من التَّكريم لنبيِّ اللّه أيّوب عليه السلام، فإنَّ اللّه تعالى برحمته وعظمته هو الَّذي كشف ما به من ضرٍّ، وفرقٌ بين أن يُقال: فكُشِف ما به من ضرٍّ، وبين ما جاء عليه نظمُ الآيةِ الكريمة.

إبهامُ الموصول لتهويل الضُّرِّ وتصوير عمومه

نكتةُ استعمالِ ﴿مَا﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مَا﴾ الموصولةَ[3] في قولِه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾؛ لإفادة الإبهام قصدًا، ثمَّ فسَّرَهُ بحرفِ ﴿مِن﴾ البيانيَّة رومًا إلى تهويلِ ذلكَ الضُّرِّ وتعظيمِه؛ لكثرةِ أنواعِه الَّتي يطولُ حصرُها وتعدادُها[4]، ممّا امتُحِنَ بِه أيّوبُ من الأسقامِ، وعظيم اللَّأْواءِ، والدودِ والأدواءِ، وللدَّلالة على كشفِ عموم ما أصابَهُ من ضرٍّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 127.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 462.

(3) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 7/ 252.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 127.

نكتةُ تنكيرِ ﴿ضُرٍّ﴾:

نُكِّرَ لفظُ الضُّرِّ: ﴿ضُرٍّ﴾ مؤثِرًا إيّاه على تعريفِهِ بالضَّميرِ بأن يُقال: (ضُرُّه)، أو معرَّفًا بـ(أل) كالواردِ قبلَه ﴿ٱلضُّرُّ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ ما أصابَ أيّوبَ عليه السلام، إنَّما هو "ضرٌّ عظيمٌ متميِّزٌ من بينِ الضُّرِّ، فلو عرَّفَ؛ لكانَ عينَ الضُّرِّ السّابقِ، ولم يُعلم تهويلُه"[1]، كما أنَّ التَّنكيرَ أفاد أنَّ الضُّرَّ المكشوفَ عنه عامٌّ استغرق ما دعا بسببه أيوبُ عليه السلام وغيره من أنواعِ الضُّرِّ الَّتي لم يعلمها، فإنَّ الإنسان قد يُبتلى بضرٍّ، ولا يعرفه على التَّعيين، وهذا من فيضِ كرمِ اللّه تعالى في الاستجابة للصّادقين في الدُّعاء، فإنَّه يُكرم الدّاعي بما طلب، وما لم يطلب.

فيضُ كرمِ اللّه تعالى في استجابةِ الدُّعاءِ أعظمُ من مرادِ الدّاعي

نكتةُ التَّعبيرِ بالإيتاءِ:

آثر النَّظمُ الجليل استعمالَ مادَّة الإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾؛ وهي مادَّةٌ معجميَّةٌ دالّةٌ على الإعطاءِ السَّهلِ الميسور، وكلُّ شيءٍ على اللّه يسيرٌ، والمعنى: (وأعطيناهُ أهلَه، ووهبناهُ إيّاهم)، وأهلُ الرّجلِ أهلُ بيتِه وقرابته[2]، وفيها بيانُ عظيمِ الأمرِ الَّذي فعلَهُ اللّه تعالى من إحياءِ أولادِه وغيرهم من حشمِه بعد أن ماتوا، وهلكوا[3].

إيتاءُ الله تعالى أيّوبَ عليه السلام أهلَه بأيسرِ الأحوالِ وأسرعِ الأوقاتِ

معنى إضافةِ الأهلِ إلى الضَّميرِ:

أُضيف لفظُ الأهلِ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى أيّوبَ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾، والمقصودُ من التَّعريفِ أنَّ في الإيتاءِ إعادةَ المسلوبِ منهُ بموتِ أولادِهِ وبناتِه، وهوَ على تقديرِ مضافٍ، أيْ: مثلَ، فقد رزقَهُ اللّهُ أولادًا بعددِ ما فقدَ، وزادَ مثلَهمْ[4].

في تعريفِ الأهلِ معَ فعلِ الإيتاءِ إرجاعُ ما سُلِبَ منهُ مِنْ أهلٍ

معنى التماثل في الآية ودلالتُها:

معنى التماثل في قولِه تعالى: ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ أنَّ الحقَّ سبحانه

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 388.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 128.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 462.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 128.

وهبَ الله تعالى أيّوبَ أهلَه ومثلَهم في العدد والصِّفات تعويضًا عن ألم الفقد

لَمّا أحيا أهلَهُ وأولادَهُ بأعيانِهم، وردَّهم عليه، زادَ عليه مثلَهم في الدُّنيا، ويحتملُ أنَّه زادَ عليه في الآخرةِ[1]، ويحتملُ التماثل كذلك أنَّه قد "قيلَ لِأيّوبَ ﷺ: قَدْ آتَيْناكَ أَهْلَكَ في الجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ؛ تَرَكْناهُمْ لَكَ في الجَنَّةِ، وإِنْ شِئْتَ؛ آتَيْناكَهُمْ في الدُّنْيا، قالَ مُجاهِدٌ: فَتَرَكَهُمُ اللَّه ﷻ لَهُ في الجَنَّةِ، وأَعْطاهُ مِثْلَهُمْ في الدُّنْيا"[2].

وهذه التَّأويلاتُ مبنيَّةٌ على ما ورد من أخبارٍ، والعهدةُ فيها على صحَّة ما صحَّ منها، وظاهر النَّظم أنَّ اللّه تعالى آتاه أهله ومثلَهم معهم في العدد في الدُّنيا، وهذا من إكرام اللّه تعالى، وتعويض أيّوب على ما فاتَهُ من الفقد والوحدة، فإنَّ الكريمَ إذا أكرم عبادَه؛ غمرهم، وإذا أعطاهم؛ رفعهم عن سابقِ عهدهم.

دلالةُ المعيَّةِ المضافةِ إلى ضميرِ الجمعِ:

الموهوبون وُجِدوا مع وجدانِ الأهلِ دون تراخٍ

التَّعبيرُ بالمعيَّةِ وإضافتُها إلى ضميرِ الجمعِ - في قولِه تعالى: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بعدَ إيجادِ مثلِهم في الدُّنيا - مؤذنٌ بأنَّهم وُجِدوا عندَ وجدانِ الأهلِ، حالَ كونِ ذلك الكشفِ والإيتاءِ[3] رحمةً من اللّه تعالى وفضلًا، فهو إيتاءٌ متدفِّقٌ لا يمنعه مانعٌ، ولا يحجبُهُ حاجبٌ، فقد آتى اللّه تعالى أيّوبَ هؤلاء مصاحبين لأهلِه دون تأخُّرٍ أو تراخٍ.

فائدةُ ذكرِ الرَّحمةِ:

تعليمُ العبادِ أدبَ الدُّعاء وحسنَ السُّؤال

ذكرَتِ الآيةُ الرَّحمةَ في قولِه تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذهِ الرّحمةَ إنَّما هي نعمةٌ عظيمةٌ تدلُّ على شرفِه، عطفًا وتحنُّنًا، وهو من بابِ التَّنبيهِ على المسبِّب بذكرِ السَّببِ[4]؛ كأنَّه قال: فرحمتُنا سببٌ في أن آتيناه أهلَهُ ومثلَهم معهم، ففيها بيانُ علمِ أيّوب ﷺ بآداب الدُّعاء، وتعليمُ النّاس طلبَ الاستجابة بصفةِ الرَّحمة.

---

(1) ملّا حويش، بيان المعاني: 4/ 327.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 326.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 463.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 463.

معنى حرف ﴿مِّنۡ﴾ ودلالته:

بهاءُ البداياتِ إشراقُ النِّهايات

حرفُ ﴿مِّنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ دالٌّ على ابتداءِ الغايةِ، وفي ذلك تشريفٌ لتلك الرَّحمةِ الصّادرةِ من لدنه سبحانَه، فأشرفُ الأشياءِ مباديها، وهي رحمةٌ تليقُ بمن سمّى نفسَه الرَّحمنَ الرَّحيمَ، ودلَّ هذا الحرف على انتهاء الغايةِ، أي: ابتدأتِ الرَّحمةُ من عند اللّه تعالى، وانتهت واصلةً إلى أيّوب عليه السلام، فحصل له منها ما حصل.

بلاغةُ استعمالِ (عند) دون (لدن):

يــزدادُ المنُّ ويعظم الشُّكر فيما عظُمت استحالتُهُ في التَّصوُّر البشريِّ

آثرتِ الآيةُ استعمالَ العنديَّة في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ دون أن يقول: (من لدنّا) تنويهًا بشأنِها؛ فإنَّ العنديَّة دالَّةٌ على التَّفخيم والتَّعظيمِ؛ فلا يشكُّ ناظرٌ إلى فعلِنا أنَّما فعلناه رحمةً منا، وأنَّه لا يقدر على ذلك غيرُنا[1]، و(لدنا) قد دلَّت على معنى الخصوصيَّة؛ فإنَّ كشفَ الضُّرِّ وإيتاء الأهل ومثلهم معهم مُحاطٌ بخصوصيَّةٍ لم تكن لأحدٍ، كما كانت لأيّوب عليه السلام، وهذا في تصوُّر الإنسان بعيدٌ، لكن لمّا كانت من عند اللّه تعالى؛ فقد اكتست جلالًا وهيبةً وعظمةً وأتت الهبةُ دون تراخٍ، وفي ذلك مزيدُ شكرٍ وعظيم امتنان.

نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾:

تذكيرٌ بما هو مظنَّةُ النّسيانِ والغفلةِ معًا لتنبيهِ العابدينَ بعنايتِه

استعملَتِ الآية الكريمةُ لفظَ الذِّكرى في قولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ دون لفظ الذِّكر، ومعناه التَّذكيرُ والعبرةُ؛ درءًا لما هو مظنَّةُ نسيانِه، أو الغفلةِ عنه، وفيه تنبيهٌ للعابدين بأنَّ الحقَّ سبحانَه مولٍ عنايتَهُ ورعايتَهُ لهم، فلا يتركُهم[2].

والذِّكرى من التَّذكيرِ ببلاءِ أيّوبَ وصبرِه ومحنتِه، معَ أنَّهُ أفضلُ أهلِ زمانِه، فالعابدُ مَنْ ذكَّرَ نفسَهُ بذلكَ المصابِ، فوطَّنَ نفسَهُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 463.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 128.

على أنْ يتحمَّلَ الشَّدائدَ، تشبُّهًا بأيّوبَ، وفيهِ تنبيهٌ على إدامةِ العبادةِ واحتمالِ الضَّررِ[1]، فاللَّفظ جمع بين الذِّكر القلبيِّ في الاعتبارِ بهذه القصَّة، وبين الذِّكر الذِّهني الَّذي يُقابل النِّسيان، فهم يتذكرون ليعتبروا.

توجيهُ تخصيصِ صفة العبادة بالذِّكر:

العبادةُ أصلٌ في الصَّبرِ على المحنِ والثَّبات عند الفتن

خَصَّت الفاصلةُ صفةَ العابدِ دون غيرها من الصَّلاح والتَّقوى والإيمان بالذِّكر في قولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ تذييلًا لما سبقَ، وعلَّتُهُ ما في لفظِ العابدين من العموم والشُّمولِ[2]، فإنَّ العبوديَّة شاملةٌ لجميع الصِّفات الحسنةِ، ولما في العبادةِ من مزيدِ تصبيرٍ للنَّفس على البلاءِ، فإنَّ هذا الاختيارَ يومِئُ إلى أنَّ من ابتُلي؛ فعليه بالعبادةِ الَّتي هي قربٌ ومناجاةٌ وابتهالٌ ودعاءٌ للّه ربِّ العالمين.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

المسُّ واللَّمس:

المسُّ أخفُّ من اللَّمسِ ويتضمَّن معنى الإصابة

عبَّرَ بالمسِّ في قولِه تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ولم يعبِّر باللَّمسِ، والفرقُ بينهما أنَّ اللَّمسَ لصوقٌ مع الإحساسِ، أمّا المسُّ؛ فيكونُ لصوقًا فقط[3]، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ اللَّمسَ أقوى أثرًا من المسِّ، ولَمّا كانَ من شأنِ أيّوبَ ﷺ أن يكونَ متلطِّفًا في خطابِه معَ الحقِّ سبحانَه الَّذي أنعمَ عليه؛ فقد أوردَ كلامَهُ بصيغةِ المسِّ؛ فإنَّه مقرٌّ بما حباهُ اللّهُ تعالى من النِّعمِ الوفيرةِ من الأهلِ والمالِ والولدِ؛ فإنْ فُقِدَتْ؛ فإنَّما هنَّ عوارٍ من عطايا الكريمِ، ثمّ استردَّها منه، وهو أولى بها[4].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 327.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 128.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 468.
(4) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 519.

السّوءُ فيه قصدُ الـشَّـرِ والـضُّـرُّ عمومُ الابتلاء

الضُّرُّ والسّوءُ:

"الضُّرُّ يكونُ منْ حيثُ لا يُعلمُ المقصودُ بهِ، والسّوءُ لا يكونُ إلّا منْ حيثُ يُعلمُ"(1)، فالسّوءُ مقاربٌ للشَّرِّ في العلم بهِ، وأنَّه مقصودٌ بهِ الأذى، وليسَ ذلكَ كائنًا في الضُّرِّ؛ فإنَّهُ موضعُ ابتلاءٍ واختبارٍ منهُ تعالى على عبادِهِ وأوليائِهِ، فليسَ المرادُ منهُ أذاهُمْ، بلْ ترقيتُهُمْ إلى المنازلِ العاليةِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 329.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ [الأنبياء: 85 - 86]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من ذكرِ عنوانِ الصّابرين إلى ذكرِ نماذج قريبةٍ منه

بعدَ أنْ ذكرَتِ الآياتُ إمامَ الصّابرينَ أيّوبَ عليه السلام بما أصابَهُ مِنْ فقدِ الولدِ والمالِ والصِّحَّةِ، ثمَّ بقائِهِ صابرًا متضرعًا منقطعًا إليهِ سبحانَه، حتّى كشفَ ما بِهِ مِنْ ضرٍّ، أردفَ ذلكَ بذكرِ طائفةٍ من الأنبياءِ الَّذينَ صبروا على ما ابتلاهُمُ المولى سبحانَهُ به من المحنِ والشَّدائدِ[1]، فذكرَ منهمْ إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ؛ فإنَّهمْ داخلونَ في رحمتِه تعالى من النُّبوةِ والإسلامِ والإيمانِ، بمدعاةِ صلاحِهمْ وصبرِهم وطاعتِهمْ لهُ عز وجل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِۖ﴾: مركَّبٌ إضافيٌّ مِنْ (ذا) بمعنى الصّاحبِ، و(الكفل) بمعنى: النَّصيبِ، والكافلُ هوَ الَّذي يكفلُ غيرَهُ، فيعولُهُ، وينفقُ عليهِ، وجذرُه اللُّغويُّ مِنْ (كفل)، والأصلُ في الكافِ والفاءِ واللّامِ دلالتُه على تضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ، والكَفَلُ في أصلِه ما يوضعُ على البعيرِ ليُمنعَ من السُّقوطِ، فنُقِلَ هذا المعنى الحسيُّ إلى المعنوي، فجُعِلَ بمعنى الحظِّ الَّذي يمنعُ مِنْ غضبِ اللّهِ تعالى، والتَّكفُّلُ بالشَّيءِ إلزامُ نفسِكَ إياهُ، فلا يضيعُ، أوْ يذهبُ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الصّبرُ معنًى عظيمٌ لا يُدرك كُنهه إلّا كبارُ الرِّجال

الخطابُ للنَّبيِّ أي: اذكرْ - يا محمّدُ صلى الله عليه وسلم مِنْ بعدِ أيّوبَ عليه السلام -

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 167.

(2) الفراهيدي، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن الأنباري، الزاهر، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفل).

عبادَنا من الأنبياءِ والصّالحينَ إسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ، ممّن صبروا على طاعةِ اللّهِ، وما أصيبوا به من الشّدائدِ والمحنِ، فكانَ جزاءُ ذلكَ أنْ أدخلَهم الحقُّ سبحانَهُ في رحمتِه، فأكرمَهم بالنُّبوَّةِ، وجازاهُمْ بالجنَّةِ؛ لأنَّهمْ من الصّالحينَ المطيعينَ[1]، و﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ فيهِ أقوالٌ، منها أنَّهُ نبيٌّ من الأنبياءِ بدلالةِ اقترانِه معَ الأنبياءِ في سياقِ الآيةِ، أوْ أنَّهُ كانَ ملكًا عادلًا وحَكَمًا مقسطًا، أوْ أنَّهُ كانَ رجلًا صالحًا قدْ تكفَّلَ لنبيٍّ أنْ يكفلَ لهُ أمرَ القومِ الَّذي هوَ منهمْ؛ فيقيمَهُ لهم، ويقضي بينهم بالعدلِ والقسطِ، ففعلَ ذلكَ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تعيينُ المعطوفِ عليه بالواوِ:

عطفُ الصّابرين على أيّوبَ عليه السلام مدحٌ لخُلُقِ الصّبر

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ للعطفِ، فهذه الأسماءُ معطوفةٌ على أيّوبَ عليه السلام الواردِ ذكرُه في قولِه تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ﴾، وهو هنا على معنى واذكرْ - أيُّها الرَّسولُ - أيّوبَ وصبرَهُ، فتكونُ المعطوفاتُ داخلةً في حيّزِ الفعلِ المقدَّرِ (واذكرْ)[3]، والتَّقديرُ: (واذكرْ أيّوبَ وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفلِ، فإنَّهم من الصّابرين الَّذين أدخلناهُم في رحمتِنا).

توجيهُ تخصيصِ ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ بالذِّكرِ:

اشتراكُ المذكورين في صفاتٍ متقاربةٍ ونعوتٍ متجاذبة

خصَّتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ بالذّكرِ؛ لما بينَهمْ من الاشتراكِ في الاتّصافِ بخُلُقِ الصَّبرِ.

هؤلاءِ الأنبياءُ الأجلّاءِ جاء ذكرُهم في هذا الموضعِ إثرَ ذكرِ إمامِ الصابرين أيّوب عليه السلام لاشتراكِهم في صفةِ الصَّبرِ المنصوصِ عليها في قولِه تعالى: ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 438.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 363.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 401.

نكتةُ التَّرتيبِ:

ملاحظةُ الأفضليَّةِ أصلٌ في ترتيبِ ذكر الأعلام

جاء ترتيبُ الأعلامِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ بذكرِ الأَشْهر، وأمّا ذو الكفل؛ فلم يكنْ نبيًّا، "ولكنَّهُ كانَ عبدًا صالحًا تكفَّل بعملِ رجلٍ صالحٍ عندَ موتِه"[1]، فهو من بابِ تقديمِ الأفضلِ على المفضولِ، فإنَّ فضلَ الأنبياءِ وشرفَهم يعلو شرفَ غيرِهم.

وعلى القول بأنَّ ذا الكفلِ نبيٌّ بموجبِ قرنِه معَ الأنبياءِ، وفي سورةٍ تحملُ اسمَهم، ممّا يرجِّح كونَهُ نبيًّا، فكلُّ المذكورين فيها من الأنبياءِ[2]، فترتيبُ الأنبياءِ هنا يكونُ من الأفضلِ فالمفضولِ، كذلك باعتبارِ المنزلةِ والعلوِّ والقدرِ[3].

علَّةُ ذكرِ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ﴾ بالاسمِ و﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ باللَّقبِ:

الأعمالُ الصالحة أثرها باقٍ

ذُكِرَ إسْماعيلُ وإدْريسُ بالاسم، وذُكر ثالثُهما باللَّقب ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾؛ وذلك لشُهرةِ كلٍّ منهم بما اشتُهر به، فالعلَّة هي معرفةُ أولئك بالألفاظ المذكورة.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾: أي صاحب الكفل، والكفل: النَّصيبِ، وسمّيَ (ذا الكفلِ) "بهذا الاسم؛ لأنَّهُ تكفَّلَ بأمرِ نبيٍّ في أمَّتِه، فقامَ بما يجبُ فيهمْ"، أوْ لأنَّه تكفَّلَ بعملِ رجلٍ صالحٍ فيهمْ؛ فقامَ بذلكَ خيرَ قيامٍ[4].

من ناحيةٍ أخرى؛ فإنَّ ذِكرَ (ذي الكفل) بلقبه يتناسقُ، وينسجمُ مع ذكر (ذي النّون) في السورة نفسها.

بلاغةُ الاستئنافِ البياني:

التَّصريحُ بالحالِ يقطع ما يخطر في البال

قولُه تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ وقَعَ جوابًا لسؤالٍ

(1) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 3/ 156.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 177.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 171.
(4) الفراهيدي، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن الأنباري، الزاهر، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفل).

مفترضٍ نشأ من الأمرِ بذكرِهم[1]، كأنَّه قيل: بأيِّ شيء نال هؤلاء الأنبياء المذكورون عليهم السلام الفضل؟ فكان الجواب: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

دلالةُ تنوينِ العِوَض:

استئنافُ مدحِ كلِّ واحدٍ منهم لصبرِه بعدَ الابتلاءِ

استأنفَ النَّظم الجليل مدحَ أولئك المذكورين باللَّفظِ الدّالِّ على العموم ﴿كُلٌّ﴾، معَ تنوينِ العوض؛ لما يدلُّ عليهِ التَّنوينُ من التَّفصيلِ، أي: اذكرْ - يا محمَّدُ ﷺ - كلَّ واحدٍ منهمْ[2]، وما كانَ مِنْ شأنِهم مِنَ الصَّبرِ عند البلاءِ.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ:

ثباتُ المذكورين على المِحَنِ صبرٌ عظيم

قولُه تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ من المبتدأِ والخبرِ[3]، وفي إيثارها على الفعليَّة دلالةٌ على أنَّ الصَّبرَ كانَ من أظهرِ صفاتِ المذكورين، وأنَّهم امتُحنوا بالشَّدائدِ الَّتي تقتضي التَّنويهَ بصبرِهم[4]، وأصبح الصَّبرُ صفةً متأصِّلةً فيهم، عُرِفوا بها على الدَّوامِ والثَّباتِ.

معنى حرفِ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُه:

الأنبياء المذكورون من زُمرة الصّابرين

حرف ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ، فإنَّ الأنبياء الَّذين جاء ذكرُهم - على اعتبار نبوة ذي الكفل - هم من سادة الصّابرين المعروفين بالصَّبر، وهم ينخرطون في عِقد الصّابرين المعروفين بهذا الخُلق العظيم.

من أسرارِ ذكرِ لفظ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

الصَّبرُ أصلُ الثَّبات وركن القبول

في ذكرِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مناسبةٌ بديعةٌ في ردِّ الآيةِ على مضمونِ قصَّة أيّوب عليه السلام؛ وربطِها بها، فإنَّ الصَّبر هو الصِّفة الأظهر في هذا السّياق، ففي ذكرِها نصًّا صريحًا ثناءٌ بليغ، ومدحٌ واصل، وبيان أنَّها أصلٌ من أصول الثَّبات، وركن من أركان القبول.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 82.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 464.

(3) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 352.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1148.

الإدخالُ في الرَّحمةِ خبرٌ مستقلٌّ بذاته معطوفٌ على الصَّبر

معنى الواوِ ودلالتها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ﴾ للعطفِ[1]، فقد عُطفت هذه الجملةُ الفعليَّةُ على ما سبقَها من كلامٍ بأن وصفَ سبحانه أنبياءَه وعبادَه بأنَّهم من الصّابرين، فزادَ في إنعامِه عليهم بأن أنعمَ عليهم بالنُّبوَّةِ في الدُّنيا، والجنَّةِ في الآخرةِ، فكأنَّه قال: (كلٌّ قد صبر ودخل في رحمتنا، أو كلٌّ منهم صبَّرناه، وأدخلناه في رحمتنا)، فيكون الإدخالُ في الرَّحمة رديفَ الصَّبر، ولم يُستعمل الفاء؛ لأنَّه جعل العنوان العام هو الصَّبر، وجعل الإدخال في الرَّحمةِ خبرًا مستقلًّا بذاته معطوفًا عليه.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الإدخالِ إلى ضميرِ العظمةِ:

أُسنِدَ فعلُ الإدخالِ إلى الضَّميرِ (نا) في قولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾؛ لبيانِ عظمةِ الإدخال، أي: بما لنا من العظمةِ والجبروتِ والعزَّةِ والسُّلطانِ.

الإدخالُ في أسبابِ الرَّحمةِ لدخولِ الجنَّةِ

بلاغةُ احتمالِ الحقيقةِ والمجازِ:

يحتملُ فعلُ الإدخالِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ الحقيقةَ، كما يحتملُ المجازَ، فإن كانتِ الرَّحمةُ بمعنى الجنَّةِ؛ فهو جارٍ على الحقيقةِ، وإن كانتِ الرَّحمةُ بمعنى النُّبوَّةِ؛ فهو من بابِ المجازِ[2]، ويحتمل الجمع بين هذين المعنيين عند من يُجوِّز الاشتراك بين الحقيقةِ والمجاز في اللفظ الواحد، والأوجه في ذلك هو الجمع على طريقة المبدأ والمنتهى، أي: (أدخلناهم في أسباب الرَّحمة ابتداءً ليدخلوا الجنَّة انتهاءً)، ولمّا كان الخبرُ عن ماضٍ؛ صحَّ هذا الوجه.

بلاغةُ الإطنابِ:

العدولُ عن التَّعبير بأن يُقال: (ورحمناهم) إلى قولِه تعالى:

---

(1) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 7/ 253.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 571.

الـصّـابـرون مـحـفـوفـون بـالـرَّحـمـةِ مستقرّون فيها

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾؛ من بابِ المبالغةِ؛ لما يقتضي هذا التَّعبيرُ من أنَّ الرَّحمةَ قد غمرَتْهُم، فهي رحمةٌ عظيمةٌ غامرةٌ؛ بمدعاةِ صبرِهم وصلاحِهم، وليسَ كذلك مع ذكرِ الرَّحمةِ مجرَّدةً من فعلِ الإدخالِ، فإنَّ قولَهُ: (رحمناهم)، أي: أصبناهُم برحمتنا[1]، فجعل الرَّحمة ظرفًا، وهم مُدخَلون فيه، وهذا أبلغُ في تجلية الرَّحمةِ بهم وأمكنُ.

براعةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

رحـمـتُـهُ تعالى عـمَّـتـهُـم مـن جميعِ الجهاتِ

استُعمل حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحقَّ سبحانَه فعلَ بهم من الإحسانِ ما يكونُ من شأنِ الرّاحم مع مرحومِه على وجهٍ يعمُّهم من جميعِ الجهاتِ، فكانتِ الرَّحمةُ ظرفًا لهم[2]، فهي رحمةٌ محيطةٌ بهم من جميعِ الجهاتِ، وذلك من إنعامِه تعالى عليهم.

نكتةُ إضافةِ الرَّحمةِ إلى ضميرِ العظمةِ:

رحمةٌ تليقُ بذاتِه الكريمةِ

أُضيفت الرَّحمةُ إلى ضميرِ العظمةِ العائدِ عليه سبحانَه في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَتِنَآۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّها رحمةٌ تليقُ بالذّاتِ العليَّةِ الكريمةِ، فهي ليستْ أيَّ رحمة، بل هي رحمةٌ من عند الرحيم الحكيم.

مناسبةُ ذكرِ ﴿رَحۡمَتِنَآۖ﴾ للسّياقِ:

الـسِّـمـةُ الـتَّـعـبيريَّـةُ في السّياقِ القرآنيِّ دالَّةٌ على المعاني التَّرابطيَّة

جاء لفظُ: ﴿رَحۡمَتِنَآۖ﴾ متناسبًا مع سياقِ الآياتِ، فقد سبق ذكرُ تعريضِ أيّوبَ بسؤالِ الرَّحمةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ثمَّ استجابةِ الحقِّ سبحانَه في أن كشفَ عنه الضُّرَّ، ووهبَهُ أهلَه ومثلَهم معهم ﴿رَحۡمَةٗ﴾ لهذا النَّبيِّ الصّابرِ؛ فكانَ من المناسبِ لذلك السّياقِ الموسوم بالرَّحماتِ أن تُذكرَ رحمتُه هنا.

بلاغةُ التَّذييلِ التَّعليليِّ:

جملةُ ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تذييلٌ تعليليٌّ لما سبقَ من صفاتِهم،

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 402.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 464.

الإدخالُ في الرَّحمةِ سنَّةُ اللهِ مع الصّالحين

وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم الكاملون في الصّلاحِ القصيِّ عن شائبةِ الفسادِ، وهم الأنبياءُ وما قارنَهم، فإنَّهم منزَّهون عن كدرِ الفسادِ[1]، وكونُهم من الصّالحين علَّةٌ لإدخالِهم في رحمتِه سبحانَه، وتذييلٌ لما سبقَ من الكلامِ، يتوافرُ على فائدةٍ، وهي أنَّ ذلك الإدخالَ من سننِه تعالى مع جميعِ الصّالحين[2].

نوعُ حرفِ ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُه:

تحتملُ (من) التَّبعيضَ والبيان

حرف ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ فإنَّ أنبياءَه وعبادَه المذكورين آنفًا، والموصوفين بالصَّبرِ هم بعضُ عبادِه الصّالحين، ويحتملُ أن يكونَ دالًّا على التَّبيينِ؛ فإنَّ المذكورين المتَّصفين بصفةِ الصَّبرِ من جنسِ الصّالحين الَّذين اختارَهم الحقُّ سبحانَه، فرضي عنهم، وأدخلَهم في رحمتِه، فكانَ الصّلاحُ أخصَّ خصائصِهم.

وجهُ التَّعليلِ بصفةِ الصَّلاحِ:

الصَّبرُ يؤولُ بصاحبِه إلى الصَّلاح

لَمّا كانَ من صفاتِ المذكورين الصَّبرُ على الابتلاءِ وتحمُّلِ الضَّررِ؛ علَّلَ النَّظمُ ذلك[3]بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ فصفاتُهم تلك تؤولُ بهم إلى أن يكونوا من الصّالحين، وصفةُ الصَّلاحِ هي الصِّفةُ الَّتي يحرص على بلوغِها كلُّ صابرٍ، فهي كالتَّتويجِ لما كان عليه الصّابرون، كأنَّه قيل: لماذا صبروا، وأُدخلوا في الرَّحمةِ؟ فقيل: ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 130.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 464.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي
ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾

[الأنبياء: 87 - 88]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من الإجمالِ إلى التَّفصيلِ في أنواعِ البلاء والصَّبر عليه

لَمّا ذكرَتِ الآياتُ السّابقةُ مِنَ الأنبياءِ والأولياءِ، وما كان منهم من الصَّبر على البلاء والثَّبات عليه، بما ذُكر تفصيلًا، كما في قصَّة أيّوب عليه السلام، وبما ذُكِر إجمالًا، كما في الإشارةِ إلى إسماعيل وإدريس وذي الكفل، وما أنعمَ عليهِم بإدخالِهِمْ في رحمتِهِ؛ أتبعَ هؤلاءِ بمَنْ هوَ أغربُ حالًا منهمْ في الحفظِ والرّعايةِ، فذكرَ ذا النّونِ الَّذي كانَ منْ حكمتِهِ تعالى أن يعاتبه حتّى ألقى نفسَهُ في البحرِ مستسلمًا؛ فالتقمَهُ الحوتُ، فنادى في الظُّلماتِ مُسبِّحًا مستغفرًا، فكانَ الحقُّ سبحانَهُ عندَ ظنِّ عبدِهِ بِهِ، فأنجاهُ اللّهُ، وبمثلِ تلكَ التَّنجيةِ العظيمةِ ينجي المؤمنينَ من خلقِهِ[1]، فهو انتقالٌ في ذكرِ أحوالِ المقرَّبين، وما فيه من بيانِ العنايةِ والرِّعايةِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾: مركَّبٌ إضافيٌّ من (ذا) بمعنى الصّاحب، والنّونُ معناه في هذا السياق الحوتُ، ويُفرَّق بينَه وبين كونهِ مِنْ حروفِ المعجم في رسمِهِ؛ فإنْ رُسِمَ منفردًا (ن) فهو حرفُ المعجم، وإن رُسِمَ كما يُنطقُ (نون)؛ فمعناهُ الحوتُ، ويُجمعُ على (نينان)، ويُطلقُ النّونُ على ما كانَ مجوَّفًا، أوْ غوصٌ إلى الدّاخلِ، و(ذو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 266 - 267.

النّون) لقبٌ أطلقه اللّه تعالى على يونسَ ﷺ الَّذي ابتلعه الحوتُ، وأنجاه اللّه تعالى منه بتسبيحه واستغفاره.

2) ﴿نَّقۡدِرَ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على نهايةِ الشَّيءِ وكنهِهِ ومبلغِه، ومنهُ القدَرُ، وهوَ القضاءُ الموافقُ، فإذا وافقَ شيءٌ شيئًا؛ قيلَ: إنَّهُ جاءَ على قدره، ومنهُ القدرةُ، ومنْ معانيهِ ما يقدِّرُهُ اللّهُ على عبادِهِ من القضاءِ، وقدرةُ الحقِّ سبحانَهُ على خلقهِ أنْ يأتيَهمْ بالمبلغِ الَّذي يريدُهُ لهمْ، فمعانيه هيَ القيسُ والتَّدبيرُ والضَّبطُ والقدرةُ[1]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ ينحصرُ في أمرين: الأولُ التَّضييقُ على مسلِكه في الخروجِ، والثّاني من القدرِ، فإنَّ يونسَ ﷺ لمّا أحسنَ الظَّنَّ بمولاه قدَّرَ ألّا يقضيَ عليه من العقوبةِ[2].

3) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جذرهُ اللغويُّ (ظلم)، ومفردُه الظُّلمةُ، وهي خلافُ النّورِ أو ذهابُه، ومنهُ ظلامُ اللَّيلِ، والجامعُ بينَ وضعِ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ وظلامِ اللَّيلِ عدمُ الإبصارِ، وهو دليلٌ على ذلكَ الوضعِ، والظُّلماتُ قدْ تكونُ بمعنى الكفرِ، وقدْ تكونُ بمعنى الأهوالِ، فضلًا عنِ الظُّلمةِ بعينِها[3]، كما هو في الآية؛ إذ المقصودُ ظلمةُ الليلِ، وظلمةُ البحرِ، وظلمةُ الحوتِ الَّذي التقمَهُ، وعلى ذلكَ أجمعَ المفسرونَ، وزادَ بعضُهم ظلمةَ الحوتِ الَّذي ابتلعَ حوتًا آخرَ[4].

4) ﴿ٱلۡغَمِّۚ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مضعَّفٌ، واحدُ الغمومِ، جذرُهُ (غمم)، ومعنى الغمِّ عدمُ الاهتداءِ، وما كانَ مِنْ شدائدِ الدَّهرِ، ومن معانيهِ الكربُ والضّيقُ والهمُّ، والأصلُ في الغينِ والميمِ دلالتُه على التَّغطيةِ والإطباقِ، ومنهُ غمَّهُ الأمرُ؛ إذا غشيهُ شيءٌ على قلبِه، وما كانَ ساترًا يسمّى الغمَّ، ويطلقُ الغمُّ على الحزنِ؛ لأنَّهُ يغطي السُّرورَ والحلمَ[5]، ومعنى الغمِّ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ الغمُّ الماديُّ السّاترُ: وهو بطنُ الحوتِ، والغمُّ

(1) الفراهيدي، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، والعسكري، الوجوه والنظائر، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدر).

(2) البلنسي، تفسير مبهمات القرآن: 2/ 220.

(3) الفراهيدي، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والعسكري، الوجوه والنظائر، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).

(4) العزّ بن عبد السلام، تفسير القرآن: 2/ 335.

(5) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (غمم).

المعنويُّ الحاجبُ: وهو مخالفتُهُ عليه السلام أمرَ ربِّهِ بالخروجِ من قومِهِ من غيرِ إذنٍ منه[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخاطب الآيةُ محمَّدًا ﷺ بأن يذكر يونسَ عليه السلام في حالِ الغضب الَّتي كانَ عليها؛ إذْ خرجَ منْ قومِهِ بعد ما برِمَ بقومِهِ، فقدْ ظلَّ يدعوهم إلى اللّهِ، ويذكِّرُهمْ به، فلمْ ينتفعوا، وأقاموا على كفرِهم، فراغمَهم مجتهدًا ظانًّا جوازَ ذلكَ من غيرِ إذنٍ، وأنَّه لم يفعلْهُ إلّا غضبًا للمولى سبحانَهُ، وأنفةً للدّينِ، وبغضًا للكافرينَ، فابتليَ أن التقمَهُ الحوتُ، فدعا اللّهَ أنْ ينجّيَهُ، فأنجاهُ اللّهُ بمدعاةِ إقرارِهِ على نفسِهِ بالظُّلمِ[2]، ومثلُ ذلك يفعلُ الحقُّ سبحانَهُ مع عبادِهِ المؤمنين الموحِّدين في تنجيتِهم من الرزايا والمحنِ.

التَّنوُّعُ في الصَّبر رافدٌ من روافدِ التَّعليم ومصدرٌ من مصادرِ التَّأديب

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

خصَّ اللّهُ تعالى يونس عليه السلام بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ عطفًا على ما سبقَ من جملةِ الأنبياءِ والصّالحين؛ لما في قصَّتِه من مظاهرِ الالتجاءِ إلى اللّهِ تعالى، والنَّدمِ على ما بدرَ منه من الجزعِ، وبيانِ استجابةِ الحقِّ سبحانَهُ له[3]، والمعطوف عليه هو أيّوبُ عليه السلام، فهو على تقديرِ محذوفٍ، أي: (واذكرْ ذا النّونِ)[4]، مثلَما قدَّرَهُ مع أيّوبَ عليه السلام، ومَن جاءَ بعدَه فيما مرَّ من آياتٍ.

التَّنبيهُ على خصائصِ النَّبيّين بالعطفِ

نكتةُ ذكرِ اللَّقبِ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ دونَ الاسمِ (يونس):

لَمّا كانَ نبيُّ اللّهِ يونسُ بن متّى عليه السلام قد لازمَ بطنَ الحوتِ حبيسًا

التَّعريفُ بالمقصودِ والتَّنويهُ بشأنِ صبرِهِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غمم).
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 133 - 134.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 130.
(4) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 402.

مدَّةً من الزَّمنِ بعدَ أن ابتلعَهُ الحوتُ؛ وصفَهُ الحقُّ سبحانَه بـ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، ومعناه: صاحبُ الحوتِ اشتقاقًا من فعلِه، وما كانَ عليه أمرُهُ[1]، ونكتةُ اختيارِ اللَّقب هنا دون الاسم؛ لما أنَّ القصَّة في التَّنويه بشأنِ صبره والتجائه إلى اللّه سبحانه وتعالى، وهو في بطنِ الحوت، فكان اللَّقبُ دالًّا على أمرين: التَّعريفِ بالمقصود - وهو يونس ﵇ - والتَّنويهِ بشأنه فيما اختصَّ به من الصَّبر في بطنِ الحوت.

دلالةُ الظَّرفِ (إذْ) في صدرِ الآيةِ:

مـدارُ الأمـرِ في شأنِ المغاضبةِ وما نشأ عنها مـن إنـسـاءِ الدَّعوة

اقترنَ الظَّرفُ (إذْ) بذكرِ يونسَ ﵇ في قولِه تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾؛ لأنَّه ليسَ القصدُ الإشارةَ إلى ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ مجرَّدًا، بل القصدُ حالُه ﵇ وقتَ ذهابِه[2] مغاضبًا بعد أن صدَّ عنه قومُهُ أوَّلَ الأمرِ، وإنَّما في ذكرِه أوَّلًا التَّشويق إلى ما سيردُ عنه ثانيًا من الظَّرفِ الدّالِ على الغضبِ الصّادرِ منه، فالعبرةُ في القصَّةِ كامنةٌ في هذا الوقتِ الَّذي ذهب فيه مغاضبًا؛ إذ عليها مدارُ الأمر.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الذَّهابِ دون مرادفاتِها:

ذهـابُ يونس ﵇ بـحـالِ المـغـاضـبـةِ وعودته بغيرِها

استعمل النَّظمُ الكريمُ مفردةَ الذَّهابِ في قولِه تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لاختصاصِ الذَّهابِ بعدمِ العودةِ مطلقًا أو بالعودةِ مع تغيُّرِ الحال كلّيًّا، وهذا حالُ يونسَ ﵇، فقد ذهب بالحالِ الَّتي كان عليها، وهي المغاضبةُ، ثمَّ عاد بحالٍ أخرى كليًّا.

سرُّ استعمالِ مادَّةِ الغضبِ في ﴿مُغَٰضِبًا﴾:

المغاضبةُ مغالبةٌ للمبالغةِ وفيه معنى الغرابةِ

اختيرَتْ مفردةُ ﴿مُغَٰضِبًا﴾، وهي بمعنى: "مراغمًا لقومه لمّا برِمَ من طول دعوتِه إيّاهم وشدَّةِ شكيمتهم، وتمادي إصرارهم مهاجرًا عنهم قبل أن يؤمرَ، وقيل: وعدَهم بالعذاب، فلم يأتِهم لميعادهم بتوبتهم، ولم يعرفِ الحال، فظنَّ أنَّهُ كذَبَهُم؛ فغضِب من ذلك، وهو

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 369.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 571.

من بناء المغالبة للمبالغة؛ أو لأنَّه أغضبَهُم بالمهاجَرة لخوفهم لحوق العذاب عندها"[1]، وفي هذه المفردةِ معنى الغرابةِ، ووجهُ الغرابةِ: أنَّهُ لمّا أوحى إليهِ الحقُّ سبحانَهُ أنَّ العذابَ نازلٌ بقومِهِ بعدَ مدَّةٍ، فلمّا دنتِ المدَّةُ، وأشرفَتْ على الانقضاءِ؛ عندها خرجَ غضبانَ لعدم تحقُّقِ ما أُنذروا بهِ من العذابِ، فهوَ غضبٌ يتَّصفُ بصفةِ الغرابةِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المفاعلةِ ﴿مُغَٰضِبٗا﴾:

المغاضبةُ دالَّةٌ على صدورِ الفعلِ عن يونسَ بسببِ قومِهِ

المغاضبةُ الصّادرةُ منْ يونسَ عليه السلام مغالبةٌ دالَّةٌ على المبالغةِ[3]، كما أنَّها مؤذنةٌ بصدورِ الغضبِ من الطَّرفين من يونسَ عليه السلام، ومن أهلِ نينوى الَّذين أُرسلَ إليهم، فأبوا أن يؤمنوا[4]، ويجوزُ أن يكونَ التَّشبيهُ مرادًا به، أي: إنَّهُ خرجَ على هيئةِ المغاضبِ[5]، بعدَ ما برِمَ بقومِه من طولِ تذكيرِهم، فَلم يَزِدْهم ذلكَ إلّا صدودًا عن دعوتِه، والمغاضِبُ اسمُ فاعلٍ من الفعلِ (غاضَبَ)، وهوَ فعلٌ يدلُّ غالبًا على صدورِ الفعلِ من اثنينِ، نحو قاتلتُهُ، ولكنَّهُ يجوزُ أنْ يكونَ صادرًا منْ واحدٍ نحو (عاقبتُ اللِّصَّ، وعافاهُ اللّهُ)، فيكونُ ﴿مُغَٰضِبٗا﴾ هنا من هذا البابِ[6].

فائدةُ العطفِ بحرفِ الفاءِ دونَ الواوِ:

الظَّنُّ متفرِّعٌ بعدَ الخروجِ بدافعِ الغضبِ وليسَ أصلَ الخروجِ

يُلحَظُ استعمالُ الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، دون استعمالِ الواو بجامعِ العطفِ؛ لما يرادُ من معنى التَّفريعِ[7] الَّذي تعبِّرُ عنه الفاءُ، وليسَ كذلك مع الواوِ، فالفاءُ هنا تفريعُ خطورةِ هذا الظَّنِّ في نفسِهِ، بعدَ أنْ كانَ الخروجُ منهُ بادرةً بدافعِ الغضبِ عن غيرِ تأمُّلٍ في لوازمِه وعواقبِه، قالوا: وكانَ في طبعِهِ ضيقُ الصِّدرِ[8].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 130 - 131.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 82.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 130.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 465، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 131.
(6) الأصبهاني، إعراب القرآن، ص: 242.
(7) الفاء التفريعيَّة هي الَّتي تربط جملتين: الجملة الأولى علّة لما بعدها، وما بعدها فرع عنها، ينظر: الصّبّان، حاشيته على الأشموني: 3/ 142.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.

سرُّ استعمالِ مفردةِ الظنِّ:

الظَّنُّ تقلُّبُ الفكرِ في مسألةٍ يُحيطُ بها الهمُّ

استعملَتِ الآيةُ الكريمةُ فعلَ الظَّنِّ الصّادرَ عن يونسَ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، دون أن يُقال: (فعلم)؛ وذلك لما يدلُّ عليه الظَّنُّ من جولان الفكرِ فيما يتعلَّق بالمسألةِ المظنونِ بها، وأُتي به ماضيًا لبيانِ أنَّ هذا الظَّنَّ قد تمكَّن منه، ويُشير إلى أنَّ الحقَّ سبحانَهُ لمْ يأذنْ ليونسَ عليه السلام بمثل ذلكَ الخروجِ، فجرى في خلدِه أنَّهُ إن ابتعدَ عنْ هذهِ المدينةِ الَّتي أُرسلَ إليها بعثَ اللّهُ تعالى غيرَهُ إليها[1]، ويجوزُ أنَّه في ظنِّهِ ذاك إنَّما يجري بحسبِ الأسبابِ المعتادةِ في هجرتِه من دارِ قومِه، ولم يظنَّ أنَّ الحقَّ سبحانَه سيمنعه عن ذلك بقدرتِه وحسنِ تدبيرِه، فإنَّه لم يوحَ إليه من اللّهِ بهذا الفعلِ[2]، فالأنبياءُ محكومون بوحيهِ سبحانَه، وليسَ لهم من الأمرِ شيءٌ.

توجيهُ النَّبرِ بالاستفهامِ:

يحتملُ فعلُ الظَّنِّ تقديرَ الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ ليكونَ المعنى: (أفظنَّ أن لن نقدرَ عليه؟) وهو استفهامٌ يرادُ منه التَّوبيخُ[3]، وهو ما يتلاءمُ مع السّياقِ.

نوعُ ﴿أَن﴾ وتعيينُ اسمِها وخبرِها:

الشَّأنُ أنَّ الحقَّ سبحانَه لن يوقع العقوبةَ عليهِ

﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ مخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ (أنَّ) الدّالَّة على التَّوكيدِ، على تقديرِ (أنه)؛ فيكونُ اسمُها ضميرَ الشَّأنِ محذوفًا[4]، وخبرُها ما بعدَها من جملةِ نفي القدرةِ، والمعنى: (ظنَّ يونسُ عليه السلام أنَّ الأمرَ والشَّأنَ أنَّ الحقَّ سبحانَه لن يرتّبَ له من الأقدارِ ما تضيق به الحال).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 131.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 181.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 506.

دلالةُ ﴿أَن﴾ في السّياق:

حسنُ ظنِّ العبدِ بالله تعالى لا ينفي المؤاخذة

وفي التَّعبيرِ بأداةِ ﴿أَن﴾ - مع نفي التَّضييق أو تقدير العقوبةِ على مؤاخذتِهِ عليه السلام - ملمحٌ دلاليٌّ، فالحرفُ ﴿أَن﴾ دالٌّ على التَّوكيد، توكيدِ ظنِّ يونسَ عليه السلام بأنَّ اللّهَ تعالى لن يقدِّرَ عليه العقوبةَ، وهو ظنٌّ في محلِّهِ وموضعِه في نفسِ ذي النّون، وآيةُ ذلك أنَّ الحقَّ سبحانَه قد استجابَ له.

غرضُ استعمال أداة النَّفي ﴿لَّن﴾:

استعملَ النَّظمُ أداة النَّفي ﴿لَّن﴾ لتأكيدِ نفي ما ظنَّهُ يونسُ عليه السلام في عدمِ إيقاعِ العقوبةِ في المستقبل.

نكتةُ استعمالِ الفعل ﴿نَّقۡدِرَ﴾:

تـعـدُّدُ المـعـاني وتنوُّع الـدَّلالات بسطٌ واتساع

استعملتِ الآية مفردة ﴿نَّقۡدِرَ﴾، والمرادُ بها التَّضييقُ، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرَّعد: 26]، فالتَّضييقُ يُقابل البسط، ونكتةُ استعمال هذه المفردة احتمالها لمعانٍ عدَّة، أي: ظنَّ أن لن نضيِّقَ عليه بأن يقيمَ مع القومِ الَّذين أرسلَ إليهم حتمًا، أو أن يقومَ بتبليغِ الرِّسالةِ حتمًا، وأنَّهُ لو خرجَ من ذلك المكانِ لسقطَ تكليفُ التَّبليغِ عنه، وهو ما اجتهدَ فيه، فبنى عليه ظنَّهُ، وكانَ أن نزلَ في شأنِه ما نزلَ؛ فكانَ الأَوْلى أن يستعلمَ من ربِّهِ ما يريدُ فعلَهُ قبل الإقدامِ عليه[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيةِ في قوله: ﴿نَّقۡدِرَ﴾:

قـــراءةُ الـبـنـاء للفاعل كشفت إجـمـال قـراءة البناء للمفعول

قَرَأَ يَعْقوبُ بالياءِ مَضْمومَةً وَفَتْحِ الدّالِ ﴿يُقۡدَرَ﴾، وقَرَأَ الباقونَ بالنّونِ مَفْتوحَةً وكَسْرِ الدّالِ ﴿نَّقۡدِرَ﴾[2]، فحجّة من قرأ بنون العظمة رجوعُها إلى الذات العلية، والمفعولُ محذوفٌ تقديره (نقدر الأقدار والأحوال عليه) من قولهم: (قَدَرْت على فلان): إذا ضيَّقت عليه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 131.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 324.

وحجة من قرأ بالياء والبناء للمفعول أن الفاعل معلوم، وفي عدم ذكره تشويق للسامع للسؤال عنه[1]، والمفعول به محذوف على القراءتين، وفي قراءة يعقوب بلاغة المناسبة بين حذف نائب الفاعل وحذف المفعول به، وهي متماشية أيضا مع السياق بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُجِّي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالفعل فيها أيضا بُنِيَ لما لم يُسَمَّ فاعله على قراءة ابن عامر وشعبة.

دلالةُ الفاءِ على الكلامِ المحذوف:

طيُّ الأحداثِ الكثيرةِ في حرف واحد

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ هي الفاء الفصيحةُ الَّتي تدلُّ على كلامٍ محذوف، فقد طوت في هذا السّياق كلامًا محذوفًا، تقديرُه: فابتلاه اللّٰه تعالى، فالتقمهُ الحوتُ، فنادى في الظُّلمات، ولم يذكر الابتلاءَ وفعلَ الالتقام، لكنَّهُ أشارَ إلى ندائِه في جوفِ الحوتِ ﴿فَنَادَىٰ﴾، فدلَّ على الالتقامِ والشِّدَّةِ والمحنةِ الَّتي كانَ عليها بأسلوبٍ موجزٍ بديعٍ[2].

دلالةُ العطفِ بالفاءِ دون (ثمّ):

اختزالُ المشهد وطيُّ الزَّمن لبيانِ سرعة النِّداء

من ناحية أخرى، يشيرُ استعمالُ الفاء دون (ثمَّ) إلى سرعة وقوعِ الفعل منه ﷺ، فعلى الرَّغم من الكلام المحذوفِ الَّذي دلَّ عليه السّياق، فالفاء دلَّت أيضًا على سرعة مناداةِ يونس لربِّهِ، وسرعة تضرُّعِهِ في بطن الحوتِ، كأنَّهُ ذهب فنادى.

السِّمةُ التَّعبيريةُ لاستعمالِ مفردةِ النِّداءِ:

النِّداءُ هو الأنسبُ في ظلماتِ البحرِ والحوتِ والليلِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ مفردةِ النِّداءِ دونَ الدُّعاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنَّ النِّداء جاءَ متضمِّنًا معنى القول، فلم يحتجْ إلى الجارِّ في قولِه: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾[3]، أمّا الدُّعاءُ؛ فهو دعاءُ العبدِ ربَّهُ، وقربَه منه، ولَمّا كانَ يونسُ ﷺ قد صدرَ منه

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 514، السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 190.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4909.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 574.

النِّداء في بطن الحوت كان هو الأنسبَ، لما فيه من الخوف والبُعد والظُّلمةِ، فالواقع يدلُّ على أنَّه كان يُنادي نداءَ الغريقِ المستجير.

براعةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

ظلماتٌ متكاثفةٌ شديدةٌ أحاطت به من كلِّ جانبٍ

يُشيرُ حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ إلى أنَّ الظُّلماتِ قد أحاطَتْ به من كلِّ جانبٍ، فكانت ظلمةً شديدةً متكاثفةً في بطنِ الحوتِ في قاعِ البحرِ في اللَّيلِ، فحصلت ظلماتُ الحوتِ والبحرِ واللَّيلِ[1]، فهي ظلماتٌ محدقةٌ به من جميعِ الجوانبِ، وكانت ظرفًا له، وهو في جوفِها يُنادي للخلاصِ.

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

تمكُّنُ الظُّلماتِ من كلِّ جانبٍ تدلُّ عليها صيغةُ الجمعِ

جاء لفظُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جمعًا لا مفردًا (الظّلام) في قولِه تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنَّه قصدَ الجمعَ حقيقةً، فإنَّ يونسَ عليه السلام دعا ربَّهُ، وقد أحاطت به أنواعٌ من الظُّلماتِ المخيفة: ظلمةُ اللَّيلِ، وظلمةُ قعرِ البحرِ، وظلمةُ بطنِ الحوتِ[2]، ويجوزُ أن يكونَ التَّعبيرُ بـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للمبالغةِ في شدَّةِ الظُّلمةِ، كالواردِ في قولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257][3]؛ فشدَّةُ الظَّلامِ يحصلُ من تظاهرِ الظُّلماتِ المتعدِّدةِ.

ويجوزُ أن يكون التَّعبيرُ بـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جمعًا مبالغةً في تصوير يونس عليه السلام، وقد انغمس في الظلام الدّامس الشَّديد المُعطش، أي: إنَّ استعمالَ الجمعِ هو للمبالغة.

نوعُ ﴿أَن﴾ ودلالتها:

النِّداءُ بكلمةِ التَّوحيدِ لفظًا أو تفسيرًا

أداة ﴿أَن﴾ - في قوله تعالى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ - مخفَّفةٌ من (أنَّ) الثَّقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، والتَّقدير: (بأنَّه لا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 12/ 466.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 90.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 133.

إلهَ إلّا أنتَ)؛ ويجوزُ أنْ يكونَ معناها مبنيًّا على التَّفسيرِ، والتَّقدير: (أيْ: لا إلهَ إلّا أنتَ)[1]، فيكونُ يونسُ عليه السلام قد نادى بكلمةِ التَّوحيدِ لفظًا، أو تكونُ تفسيرًا لكلامِه.

بلاغةُ إيثارِ الخطابِ بدلًا من الغيبة:

في القربِ مزيدُ لطفٍ وعنايةٍ بحالِ المكروبِ

في ذكرِ ضميرِ الخطابِ المعظّم ﴿أَنتَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ لبيانِ أنَّ النِّداء كان بالخطاب لا بالغيبةِ، وأنَّ النِّداءَ قد بلغ مبلغًا عاليًا من الالتجاءِ، وغايتُه إظهارُ تقرُّبِ يونسَ عليه السلام من ربِّه، فالمخاطَبُ قريبٌ، وفي القربِ مزيدٌ من اللُّطفِ والعنايةِ المرجويّن، وهو في حالِ الكربِ والشِّدَّة.

فائدةُ إضافةِ الاسمِ الظّاهرِ إلى الضَّمير

أُضيفَ المصدر (سُبحان) إلى كاف الخطابِ الَّذي يعود على الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، وفي هذه الإضافةِ مزيدُ بيانِ لطفهِ تعالى وقربه؛ لأنَّ المخاطبَ قريبٌ، وفي القُربِ مزيدُ لطفٍ وعنايةٍ.

غرضُ ذكرِ التَّنزيهِ بعدَ التَّوحيدِ:

لَمّا نزَّهَهُ عن الشَّريكِ تهليلًا؛ عمَّ فنزَّهَهُ عن كلِّ نقصٍ تسبيحًا

ذكر يونسُ عليه السلام تنزيهَ اللّٰه تعالى ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ بعد التَّوحيدِ في قولِه تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ كنايةً عن انفرادِ الحقِّ سبحانَه بالتَّدبيرِ، وكنايةً عن قدرتِه تعالى على كلِّ شيءٍ[2].

وكانَ من شأنِ نبيِّ اللّٰهِ يونسَ عليه السلام أن نزَّهَ الحقَّ سبحانَه عن الشَّريك بقولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ثمّ عمَّ بعدَ ذلكَ بقولِه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ منزِّهًا إيّاه عن كلِّ نقصٍ، فإنَّهُ لا يقدرُ على أن ينجيه ممّا هو فيه إلّا اللّٰه[3]؛ فهو من بابِ تقديمِ التَّنزيهِ الخاصِّ على التَّنزيهِ العامِّ.

ومن شرائطِ الالتجاءِ إلى الحقِّ سبحانَه، ودعاءِ العبدِ إيّاه أن يقدِّمَ بين يدي ذلك التَّوحيدَ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، ثمَّ يثنّي بالتَّسبيحِ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 82.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 466.

والثَّناءِ والتَّنزيهِ ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، ثمّ يُثَلِّث بالاعترافِ وطلبِ المغفرةِ والاعتذارِ ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، فلمّا كانَ هذا فعلَ يونسَ عليه السلام؛ استُجيبَ له.

دلالةُ جملةِ التَّهليلِ والتَّسبيحِ:

التَّهليلُ والتَّسبيحُ يجلّيان الغمومَ ويُنجيان من الهمومِ

ولجملتي التَّهليلِ والتَّسبيحِ دلالةٌ ظاهرةٌ في أنَّهما تُجلّيانِ الهمومَ والغمومَ، وتنجيانِ من الكروبِ والمصائبِ، فحقيقٌ بالمؤمنِ أنْ تكونا ملجأً له عندَ اشتدادِ الخطوبِ، وأنْ تكونا مطيَّةً في رخائِهِ ثقةً بما وعدَ الحقُّ سبحانَهُ عبادَهُ المؤمنينَ من إلحاقِهم بذي النّونِ في استجابتِهِ لهُ ولهمْ[2].

بلاغةُ جملةِ التَّعليلِ:

الاعترافُ بالظُّلمِ مفتاحُ التَّوبةِ الصَّدوقِ

إنَّ يونسَ عليه السلام عبَّرَ عن التجائه إلى اللّه تعالى بعد أن خرج من قومِه من دونِ إذنِه سبحانَه، فدلَّ قولُه: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على الاعترافِ، كأنَّه قال: (أنا الآنَ من التّائبين المنيبين النّادمين، فهلّا كشفتَ عنّي محنتي)[3].

نكتةُ ذكرِ فعلِ الكونِ الماضي ﴿كُنتُ﴾:

المبالغةُ في الاعترافِ مبالغةٌ في الالتجاءِ

لَمّا كانَ نداؤهُ عليه السلام توبةً صدرتْ منه اعترافًا بتقصيرِه، أو تعجُّلِه بما اتَّخذَ من قرارٍ، أو خطأ اجتهادِه؛ أسندَ إلى نفسِه فعلَ الكونِ الماضي بقولِه: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الدّالِّ على رسوخِ الوصفِ فيه؛ للمبالغةِ في الاعترافِ بأنَّه قد ظلمَ نفسَه ظلمًا كبيرًا[4]، ومبالغةً في هضمِ نفسِه، فكلَّما زادَ الاعترافُ بالذَّنبِ؛ زادَ القربُ من التَّوبةِ.

فبعدَ أن نزَّهَ اللّهَ تعالى تهليلًا وتسبيحًا؛ أفصحَ طالبًا الخلاصَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 466.
(2) القصاب، النكت الدالة على البيان: 2/ 311.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 181.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.

ممّا هو فيه، فنسبَ النَّقصَ إلى نفسِه بقولِه: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: (كنتُ كَوْنًا كبيرًا)[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ دونَ الإفرادِ:

لم يقل يونس عليه السلام: (إني كنتُ ظالمًا)، بل عدلَ عن ذلك إلى التَّعبيرِ بالجمعِ، فقال: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فجعلَ نفسَه واحدًا من فريقِ الظّالمين[2]، ولما يفيضُ به هذا التَّعبيرُ من النَّدمِ والحسرة.

دلالةُ العطفِ بالفاءِ:

عندَ الاعترافِ بالذَّنبِ تتجلَّى الاستجابةُ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ للسَّببيَّةِ؛ فإنَّ يونسَ عليه السلام لمّا اعترفَ بذنبِه في خروجِه من قومِه قبلَ أن يُؤذنَ له، دعا ربَّهُ أن يعفوَ عنه، كما هي شيمةُ القادرين[3]، وأن يفرِّجَ عنه ما هو فيه من كربٍ وشدَّةٍ، فكانَ أن استجابَ له الحقُّ سبحانَه بموجبِ دعائِه، فالاستجابةُ متسبِّبةٌ عن الدُّعاءِ.

وفيها أيضًا معنى التَّرتيبِ والتعقيبِ من غيرِ مهلةٍ[4]؛ للدَّلالةِ على سرعةِ الاستجابةِ، فبعدَ أنْ دعا نبيُّ اللّهِ يونسُ عليه السلام بذلكَ الدُّعاءِ، واعترفَ بذنبِه، جاءتهُ الاستجابةُ منهُ تعالى على وجهِ السُّرعةِ والفورِ[5].

دلالةُ السّينِ والتّاءِ في فعلِ الاستجابةِ:

جاء فعلُ الاستجابةِ مزيدًا بالسّينِ والتّاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ للتَّوكيدِ، فالاستجابةُ دالَّةٌ على إجابةِ دعاءِ يونسَ عليه السلام بعد توبتِه ممّا كانَ منه من التَّفريطِ[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 466.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 132.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 466.
(4) ابن جنّي، اللّمع في العربية، ص: 91.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 17/ 88.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 133.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى الضَّمير:

استجابةُ الله تعالى عظيمةٌ كما هو شأن العظيم

لَمّا كانَ من دعاءِ يونسَ ﵇ ما كانَ، وإقراره بذنبِه؛ استجابَ له الحقُّ سبحانَه بقولِه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا﴾ بإسنادِ فعلِ الاستجابةِ للضَّمير (نا) العائدِ عليه سبحانَه، والمعنى: (فاستجبنا له بما لدينا من العظمةِ والجبروتِ والقدرة، فخلَّصناه ممّا هو فيه من الظُّلمات، ومن بطنِ الحوتِ، فخرجَ حيًّا سليمًا معجزةً أخرى)، فدلَّ الإسنادُ على عظيم فعلِ الاستجابة، وما آلَ إليه من الحال.

معنى اللّامِ ودلالتها:

استحقاقُ الاستجابةِ في تتبُّعِ سُنَنها

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا﴾ للاستحقاقِ، وهو أحدُ معانيها المشتهرةِ في كلامِ العربِ[1]، فإنَّ يونسَ ﵇ لَمّا أقرَّ بذنبِه، وأذعنَ لربِّه، وسألَهُ سؤالَ النَّجاةِ والعافيةِ، وقدَّمَ بين يديه الاعترافَ بكونِه من الظّالمين؛ ليطأ بساطَ القربِ من خالقِه ومولاه؛ كانَ مستحقًّا لاستجابةِ المولى سبحانَه لدعائِه في كشفِ الكربِ والغمِّ عنه.

ومعَ أنَّ فعلَ الإجابةِ يتعدّى بنفسِه، إلّا أنَّه عدّاه باللّامِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾؛ للإيذانِ بكمالِ عنايةِ الحقِّ سبحانَه بنبيِّه يونسَ ﵇، وترادف نعمِه تعالى عليه[2].

نكتةُ العطفِ بالواوِ لا بالفاءِ:

ترتيبُ الخبرِ على الخبرِ يختلف عن عطفِ الخبرِ على آخر

عُطِفَ فعلُ التَّنجيةِ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ بالواوِ لا بالفاء، كما سبقَ في قصَّةِ أيّوبَ ﵇ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا﴾؛ وذلك أنَّ أيّوبَ ﵇ دعا ربَّهُ بالخلاصِ، فاستجابَ له مرتِّبًا الاستجابةَ على الدُّعاء، أمّا في قصَّةِ يونسَ ﵇ فإنَّ قولَهُ: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يخرجُ

(1) الزجاجي، اللامات، ص: 65.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4909.

مخرجَ الدُّعاءِ، فذُكِرَتِ الاستجابةُ بعدَهُ[1]، عطفًا عليه باعتبارِه عَطْفَ خبرٍ على آخر، لا تَرَتُّبَ خبرٍ على آخر.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضعَّفِ:

التَّـنـجـيـةُ بـالـعـظـمـةِ البالغةِ والرَّحمةِ الغامرة

عبَّرَ النَّظمُ عن خلاصِ يونسَ عليه السلام من بطنِ الحوتِ بالفعلِ المضعَّفِ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ دونَ الفعلِ المعدّى بالهمزةِ (أنجيناه)؛ لدلالةِ الفعلِ المضعَّفِ على المبالغةِ والتَّكثيرِ[2]، ولمّا كانَ يونسُ عليه السلام في كربٍ شديدٍ، ومحنةٍ عظيمةٍ؛ احتاجَ إلى أن ينجّيَهُ تنجيةً عظيمةً بالغةً[3] تليقُ بعظمتِه تعالى، وإن كانَ الحقُّ سبحانَه لا يعجزُه شيءٌ.

نكتةُ إسنادِ فِعْلَي الاستجابةِ والنَّجاةِ إليه سبحانَه:

دلَّ إسنادُ فعلَي الاستجابةِ والتَّنجية إلى الضَّميرِ العائدِ على الحقِّ سبحانَهُ بقولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ﴾، على أنَّ الفعلين مؤكَّدان برحمتِه تعالى، محاطان بفضلِه وإنعامِه[4].

معنى حرفِ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُه:

استئصالُ الغمِّ نعمةٌ زائدةٌ على أصلِ إذهابه

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ دالٌّ على ابتداءِ الغايةِ[5]، وهو معناها في هذا السّياق، أي: (أنجيناه من أصلِ الغمِّ ومبتدئِه)؛ للإشارةِ إلى محوِ الغمِّ عن يونسَ عليه السلام محوًا تامًّا كاملًا، فلا يبقى منه شيءٌ.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡغَمِّۚ﴾:

الألفُ واللّامُ في لفظ: ﴿ٱلۡغَمِّۚ﴾ عهديَّةٌ[6] في إشارةٍ إلى الغمِّ الَّذي

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 574.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 64 وابن عصفور، الممتع الكبير في التصريف، ص: 129.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4910.
(5) وهو الأصل في معانيها في لسان العرب، المبرد، المقتضب: 1/ 44.
(6) اللام العهدية الداخلة على الأسماء النكرة الَّتي تشير إلى معهود معروف بعينه، وهو أن يكون بينك وبين المخاطب معرفة وعهد سابق، يُنظر: ابن السراج، الأصول في النحو: 1/ 150.

ألجأه[1] إلى أن يكونَ على حالةٍ من الغضبِ ممّا جرى مع قومِه من صدِّهم أوَّلَ أمرِهم.

سرُّ اختيارِ لفظِ الغمِّ:

تناسبُ الغمِّ المعنوي مع الحسّيِّ

ولّما كانَ لفظُ الغمِّ دالًّا على السِّترِ والتَّغطيةِ والإطباقِ[2] فضلًا عن عدمِ الاهتداءِ، ويطلقُ أيضًا على الحزنِ؛ فإنَّ استعمالَهُ هنا دالٌّ على لطيفةٍ تتناسبُ مع حالِ يونسَ ﷺ، فإنَّه مع ما حلَّ به من الغمِّ المعنويِّ بخروجه دون إذن ربِّهِ سبحانه، كانَ في غمٍّ مادّيٍّ ساترٍ كونه في بطنِ الحوتِ[3]، فهو في غمٍّ مادّيٍّ ومعنويٍّ، وبالاستجابة رُفِع عنه الغمّان.

بلاغةُ فنِّ التَّعريضِ:

التَّعريضُ بمشركي العربِ بتنجيةِ المؤمنين وإهلاكهم

اشتمل قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على فنِّ التَّعريضِ، وهو تعريضٌ بمشركي العربِ، فإنَّ الحقَّ سبحانَه ينجي المؤمنين ممّا يُلاقونه من الغمِّ والكربِ وسوءِ معاملةِ المشركين لهم في بلادِهم[4]، فكأنَّه يقولُ: لكم النَّجاةُ والإكرامُ - أيُّها المؤمنون - ولهم الخسرانُ وسوءُ المصيرِ.

بلاغةُ استعمال الكافِ:

قدرةُ اللهِ تعالى في إنجاءِ المؤمنين مطلقةٌ غير مقيَّدة

الكافُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: تنجيةً أو إنجاءً مثلَ ذلك[5]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الحقَّ سبحانَه قادرٌ على أن يفعلَ جميعَ الممكناتِ مثلَ فعلِه فيما تقدَّمَ من الأمورِ الغريبةِ[6] في التقامِ الحوتِ يونسَ ﷺ، ثمَّ إنجائِه، وأنَّ أفعاله في إكرامِ أنبيائه تعمُّهم، وتسري على أتباعِهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غمّ).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 182.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 133.
(5) زكريا الأنصاري، إعراب القرآن العظيم: 4/ 506.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.

نكتةُ الإشارةِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

سموُّ الإنجاءِ تُناسبهُ الإشارةُ بالبعيد

استعملَ النَّظم الكريمُ اسمَ الإشارةِ الدّالِّ على البعيدِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للإيذانِ بعظمةِ ذلك الإنجاءِ الَّذي أنجى فيه الحقُّ سبحانَه يونسَ ﷺ، أي: مثلَ ذلك الإنجاءِ نفعلُ بالمؤمنين ممّا يصيبُهم من غموم وهموم بحسبِ الواقعِ فيها أن تكونَ نجاتُه عسيرةً[1]، ولما كان الإنجاءُ ساميَ المقام رفيعَ الحال؛ حسُنَتِ الإشارةُ إليه بأداةِ البعيد.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيةِ في قولِه تعالى: ﴿نُـۨجِي﴾:

قراءةُ التَّخفيفِ لمحتِ الإنجاءِ وقراءةُ التشديد لمحتِ التَّنجيةَ

تعدَّدتِ القراءاتُ في قولِه تعالى: ﴿نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، حيث قرأ ابن عامرٍ وشعبةُ ﴿نُجِّي﴾ بنونٍ واحدةٍ وجيم مشدَّدةٍ على إدغام إحدى النّونين تخفيفًا، وقرأ الباقون ﴿نُـۨجِي﴾ بنونَين بجعلِ الثّانيةِ ساكنةً والجيم مخففةً[2]، والوجهُ في قراءةِ ﴿نُجِّي﴾ إدغامُ النّونِ الثّانيةِ في الجيم، كما تدغمُ في اللّامِ والرّاءِ من مثلِ قولِه تعالى: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: 73]، فالأصلُ (إنْ) مع (لا).

وفيه وجهٌ آخرُ، وهو أنَّ الأصلَ فيها (نُنَجّي) بفتحِ النّونِ الثّانيةِ وتشديدِ الجيم، فحُذِفَتِ النّون الثّانية لتوالي الأمثالِ، فصارَ ﴿نُجِّي﴾.

وأعدل الأقوال في توجيه هذه القراءة أنه جعل ﴿نُجِّي﴾ فعلًا ماضيًا لما لم يسمّ فاعله، وأرسل الياء بغير فتْحٍ، وأُضمر مكان المفعول الأوّل - وهو نائب الفاعل هنا - المصدرُ (النّجاءُ) لدلالة الفعل عليه، فكأنه قال: (وكذلك نُجِّي النّجاءُ المؤمنين) على رأي من يُجوّز إنابة المصدر مع وجود المفعول به[3]، وهذه القراءة هي الموافقة لرسم المصحف تحقيقًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 133.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 324.

(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 250، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 134.

وقد أجاز إقامة غير المفعول - من مصدر أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو مجرور - الأخفش والكوفيون وأبو عُبيد، وذلك مع وجود المفعول به، وجاء السماع في إقامة المجرور مع وجود المفعول به، فلا الْتفات لمنع البصريين لمثل هذا[1].

ووجه قراءة الجمهور أنه بنون العظمة العائدة على الذات العلية، والفاعل هو الضمير (نحن) العائد على الاسم الأجل: (اللّه)، وهي المتماشية مع سياق الأفعال في الآيات: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا﴾، و﴿فَكَشَفْنَا﴾، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، و﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾، وهي موافقة لرسم المصحف تقديرًا.

فنُّ الجناسِ في لفظتَي ﴿نَجَّيْنَٰهُ﴾ و﴿نُـۨجِى﴾:

ألطفُ الجناسِ ما جمع ألفاظَ الإنجاءِ ودلالاتها

الجناسُ من الفنونِ البديعيةِ البلاغيَّةِ الَّذي يتوافرُ على اللَّطافةِ اللَّفظيةِ والمعنويَّةِ، "فإنَّكَ لا تستحسنُ تجانسَ اللفظتينِ إلّا إذا كانَ موقعُ معنييهما من العقلِ موقعًا حميدًا"[2]، وقد وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وما ألطفَ مجيءَ الجناس في الجمعِ بين مصادر التَّنجية! ففيه إشارةٌ إلى بديعِ الوعد للمؤمنين.

فنُّ الاحتباك:

تحقيقُ التَّكاملِ اللَّفظيِّ والمعنويِّ في السّياقِ

وقع احتباكٌ في قولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بين لفظتي ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ و﴿نُـۨجِى﴾، فذكرَ التَّنجيةَ أوَّلًا؛ لتدلَّ على مثلِها ثانيًا، وذكرَ الإنجاء ثانيًا؛ ليدلَّ على مثلِه أوَّلًا[3]، فيتحقَّقَ التَّكاملُ المعنويُّ فضلًا عن اللَّفظي.

وسرُّ الاحتباك الإشارةُ إلى العنايةِ البالغةِ بالمؤمنين؛ فإنَّ صبرَهم ليسَ كصبرِ الأنبياءِ والرُّسلِ ﷺ؛ لما وردَ في الحديث (قُلتُ: يا رسولَ اللّه، أيُّ النّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قالَ: الأنبياءُ، ثمَّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 462.
(2) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 16.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.

الأمثلُ فالأمثلُ يُبتلى العبدُ على حسبِ دينِه)[1]، فكانَ منه تعالى أن يَسُلَّهم من الرّزايا والبلايا، كما تُسلُّ الشَّعرةُ من العجينِ في سرعةٍ ولطافةٍ وهناءٍ[2].

توجيهُ اختيارِ وصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

خُصَّتِ الفاصلةُ بوصف المؤمنين دونَ أوصافٍ أخرى، كالصّالحين أو المتقين أو المفلحين، وذلك لعموم هذا اللَّفظِ وشموله جميعَ الأوصافِ الأخرى، ولأنَّه القاعدة الَّتي ينشأ عنها العملُ المقبول.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّضييقُ والتَّقديرُ:

التَّقديرُ أعمُّ والتَّضييقُ أخصُّ فبينهما عمومٌ وخصوصٌ

التَّقديرُ "ضبطُ الشَّيءِ القابلِ للتَّسيُّبِ أو الانبساطِ، وحكمُه وامتساكُه على وضعٍ أو كمٍّ أو مسافةٍ معيَّنةٍ، فلا يتسيَّبُ، ولا يسترسلُ"[3]، أمّا الضِّيقُ؛ فالأصلُ فيه خلافُ السَّعةِ، ويكونُ منه الفقرُ وذهابُ المالِ والبخلُ[4]، فبينَ التَّقديرِ والتَّضييق عمومٌ وخصوصٌ، فإنَّ التَّضييقَ جزءٌ من التَّقديرِ الَّذي قد يكونُ بمعنى التَّدبيرِ والضَّبطِ، وقد تبيَّنَ فيما نُقلَ من أقوالِ المفسِّرين أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿نَّقۡدِرَ﴾ يحتملُ أن يكونَ بمعنى التَّضييقِ، ويحتملُ أن يكونَ من بابِ الاستفهام[5]، فليسَ يُستحسنُ التَّعبيرُ بالتَّضييقِ في هذا الموضعِ، والتَّقدير أوفى بالمقام.

(1) ابن ماجه، سنن ابن ماجه: رقم الحديث: (4022).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 467.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيق).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 97.

المحتويات

